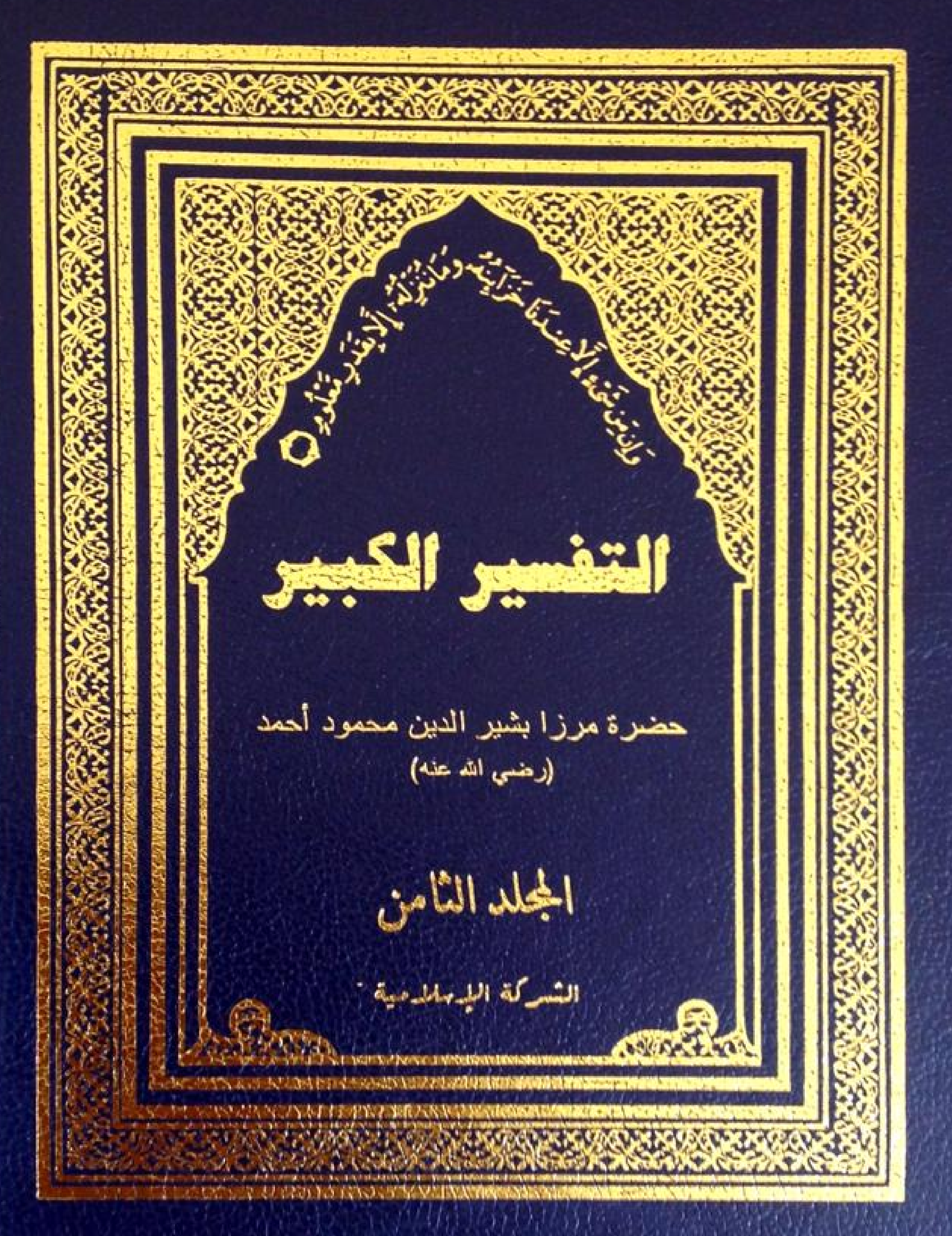


وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم
التفسير الكبير
حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد
(رضي الله عنه)
المجلد الثامن
الشركة الإسلامية

التفسير الكبير

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

المجلد الثامن

من سورة النبأ إلى سورة البلد

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: التفسير الكبير - المجلد الثامن
الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م

AT-TAFSĪR AL-KABĪR
"Commentary of The Holy Qur'ān"

By: Ḥaḍḥrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
Khalīfatul Masīḥ II

Volume: 8

SŪRAH AN-NABA' TO SŪRAH AL-BALAD

(Arabic Translation)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

© Islam International Publications Ltd.

First Published in UK in 2008 by:
Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed and bound in Great Britain by:
William Clowes Ltd, Beccles, Suffolk

ISBN: 1 85372 303 7



كلمة الناشر

نحمد الله تعالى أن وفّقنا لإخراج المجلد الثامن من هذا التفسير القيّم بلغة حبيبه وحبيبنا محمد المصطفى ﷺ.

وقد حاز شرف تعريبه الأستاذ عبد المؤمن طاهر، وراجَعه المهندس هاني طاهر. تقبَّلَ الله سعيهما وجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأعانهما على إخراج الجزأين المتبقييْن من هذا التفسير العظيم. آمين.

ويجدر أن نوضّح بعض الأمور عن هذه الترجمة:

أولها: أن المفسر ﷺ قد ذكر معظم الاقتباسات من الحديث النبوي الشريف والسيرة والتاريخ وغيرها من المراجع بألفاظه وأسلوبه، وليس بنصّها الحرفي. غير أننا نقلناها عند الترجمة بنصّها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، اللهم إلا في بعض الأماكن، فترجمنا المضمون مع الإشارة إلى النص الأصلي أو مرجعه في الهامش.

ثانيها: أن المفسر ﷺ قد أشار إلى بعض الأمور إشارةً عابرة أحيانا، ورأى المترجم أنها غير مفهومة جيدا لبعض القراء، فقام بتوضيحها في الهامش.

ثالثها: أن ترقيم الآيات في التفسير هو باعتبار البسملة أول آية من كل سورة.

رابعها: لقد قام المفسر بهذا التفسير قبل أكثر من نصف قرن من الزمان. فلو أخذ القارئ الكريم هذا الأمر بعين الاعتبار سهل عليه فهم كثير من الأمور والأحداث المذكورة فيه.

خامسها: يجب التنويه إلى أن هذا المجلد قد تُرجم وطُبع في فترة سنة فقط، فإذا وجد القراء الكرام فيه أية أخطاء مطبعية وغيرها، فليخبرونا بها مشكورين حتى نتداركها في الطبعة القادمة، إن شاء الله تعالى.

وأخيرًا فإننا نتقدم بخالص الشكر - كما نطلب من القراء الكرام الدعاء - لكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب، ولا سيّما الأستاذ سيد مير محمود أحمد ناصر -عميد الجامعة الإسلامية الأحمدية (معهد تأهيل الدعاة) بربوة باكستان، لتفضُّله بالإشراف على مجموعات الأساتذة والطلاب الذين قاموا بتخريج أو توثيق معظم المراجع لهذا التفسير- وكذلك الدكتور محمد حاتم حلمي، المهندس تميم أبو دقة، خالد عزام، علاء حسن نجمي، عكرمة حسن نجمي، الدكتور علي البراقي، الدكتور وسام البراقي، سيد مبشر أحمد أياز، مقبول أحمد ظفر، مير أنجم برويز، مرزا خليل بيك، الحافظ عبد الحي بهتي، عبد المجيد عامر، محمد أحمد نعيم، وسيم أحمد فضل، ومحمد طاهر نديم، لمساعدتهم المشكورة في شتى المجالات العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء.

كما ندعو الله العلي القدير أن يجعل هذا التفسير سببًا لشفاء غليل الكثيرين من عباده علميًا وعمليًا وروحيًا، ووسيلةً لفهم كلامه ﷻ. آمين!

الناشر

ذو الحجة ١٤٢٩ هـ

كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٨ م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

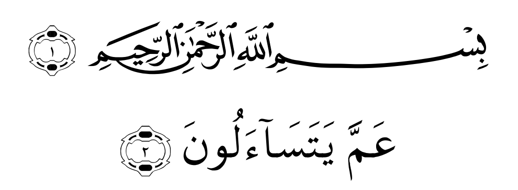
مكية، وهي إحدى وأربعون آية مع البسملة

إنها تسمَّى سورةَ "النبأ" لأن فيها ذكرَ نبأٍ عظيم. إنها تتحدث عن البعث بعد الموت والقرآن الكريم أو غلبة الإسلام، بل بالأحرى عن هذه القضايا الثلاث.

أما علاقتها بالسورة السابقة فتكمن في أن سورة "الْمُرسَلات" قد ركزت على يوم الفصل بشكل خاص حيث قال الله تعالى في أوائلها: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾(الآيات: ١٣-١٥). كذلك قال الله ﷻ فيها: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾(الآية:٣٩). بينما يقول الله تعالى هنا في سورة النبأ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾(الآية:١٨). فثبت أن يوم الفصل هو الرابط الأساس والموضوع المشترَك بين السورتين حيث تحدثت السورة السابقة عن يوم الفصل في موضعين، بينما تناولته هذه السورة في موضع واحد.

إن سورة النبأ هي من أوائل السور المكية (فتح البيان). يعترف المستشرق الألماني الشهير البروفيسور نولدكه (Noldeke) بأن مضمون هذه السورة يدل على أن زمن نزولها مقارب لزمن نـــزول سورة المرسلات (تفسير القرآن للقسيس ويري WHERRY). وإن قوله هذا يمثّل ردًّا على أولئك المستشرقين الذين يزعمون أن القرآن الكريم ليس فيه ترتيب معين، وإنما وُضعت السور الطوال في أوله والسورُ القصار في آخره. (The Koran, by J M Rodwell p. 2)

إذًا، فقول "نولدكه" هذا دليل على أنه حيثما يفهم المستشرقون الأمر لا يجدون بدًّا من الاعتراف بوجود صلة رابطة بين مضامين شتى السور. لا شك أنهم لا يعترفون بأن القرآن كله كلام مرتب، ولكنهم لا يجدون مناصًا من الاعتراف بوجود رابط بين بعض سوره أحيانًا.



شرح الكلمات:

عَمَّ: أصلُه "عن ما" حيث إن: "الميم المفردة قد تكون اسم استفهام بعد حروف الجر كمثل إِلامَ وبِمَ وأصلها "ما" وحركتها الفتحة.... ويجب حذفُ ألفِ "ما" الاستفهامية إذا جُرّتْ وإبقاءُ الفتحة دليلاً عليها نحو: فيمَ وإلامَ وعلامَ وبمَ". (الأقرب)

يتساءلون: تساءَلَ القومُ: سأَل بعضُهم بعضًا. (الأقرب)

التفسير: للسؤال أغراض شتى، فحينًا يسأل المرءُ ليزداد علمًا، فمثلاً إذا كان لا يعلم الطريق إلى قرية أو مدينة يسأل شخصًا آخر ليدله عليه، أو إذا كان لا يعلم معنى كلمة يسأل غيره ليخبره به.

أو يتم السؤال على سبيل الاختبار، بمعنى أن السائل يعلم الجواب ولكنه يريد أن يعلم ما إذا كان صاحبه يعلمه أم لا. وهذا النوع من السؤال أيضًا يدل - بطريق غير مباشر - على جهل السائل، بمعنى أنه يعلم جواب سؤاله، ولكنه يجهل ما إذا كان المسؤول يعلمه أم لا.

وأحيانًا يتم السؤال على سبيل التعجب، فمثلا إذا أساء الولد إلى والده قال له: أتعلم من أنا؟ أي يجب أن يكون عندك من الفهم ما يجعلك تدرك أني أبوك وأن عليك أن تحترمني. أو يقول السيد لعبده أو المدير لعامله: أتعلم من أنا؟ ولا يعني

ذلك أن العبد أو العامل لا يعرفه، بل إنه يوجه إليه هذا السؤال على معرفته إياه. والحق أنه يوجه إليه السؤال تعجبًا، ومراده أنك تعلم هذه الحقيقة ومع ذلك تتقاعس عن تنفيذ أوامري، أو تختلف معي وتثير الأسئلة.

وحينًا يوجه السؤال على سبيل التعجب ويقصد به التعظيم والتفخيم أيضًا، والواقع أن عنصر التعجب يكون مخفيًا فيه وإن أُريد به التفخيم، ومثاله ما سبق آنفًا حيث يقول المرء للمسؤول: ألم تعلم من أنا؟ والمراد أنك تعلم مكانتي وعظمتي.

وحيث إن القرآن الكريم كلام الله تعالى فلا يمكن أن يكون المراد من سؤال الله تعالى ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ﴾ أنه - والعياذ به - لا يعلم عما يسألون، أو أنه يشك في أن مخاطَبه يعلم ذلك أو لا يعلم، لذا فلا ينطبق هنا إلا معنى التعجب والتعظيم كما تؤكد ذلك الآيةُ التالية. فالمراد من قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ﴾ أننا نتعجب أنهم يسألون عن قضية جلية واضحة، دون أن يفحصوها ويُعملوا فكرهم فيها كما ينبغي. وكأن الله تعالى قد أكد بهذا السؤال من جهة على أهمية هذه القضية ووضوح حقائقها وبراهينها، ومن جهة أخرى استغرب من عقولهم بأنهم لا يزالون في ريب من هذه المسألة رغم وجود الأدلة على صحتها.

عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣

شرح الكلمات:

النبأ: النبأُ: الخبرُ، وقال (أبو البقاء) في "الكليات": "النبأ والإنباءِ لم يَرِدْ في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأنٌ عظيم". (الأقرب)

ويقول الإمام الراغب: "النبأُ خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصُل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمن هذه الأشياءَ الثلاثة". (المفردات)

من المستحيل أن يُستعمل في كلام الله لفظٌ ما استعمالاً خاطئًا، ولذلك قال أبو البقاء لم يرد لفظ النبأ في القرآن إلا "لِما له وقعٌ وشأنٌ عظيم". والواقع أن كلمة "وقعٌ وشأن عظيم" تنطوي على نفس المفهوم الذي ذكره الإمام الراغب، حيث إن

لفظ "الوقع" يماثل "خبر ذو فائدة" ولفظ "عظيم" يماثل "فائدة عظيمة"، ولفظ "شأن" يماثل "يحصل به علمٌ وغلبةُ ظن"، حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٣٠).

وبناءً على قولِ صاحبِ المفردات فإنه كلما استُعمل لفظ "النبأ" استعمالاً صحيحًا تضمن الأشياء الثلاثة المذكورة أعلاه، وقولِ أبي البقاء: "النبأ والإنباء لم يرد في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأنٌ عظيم".. بناء على ذلك أقول ردًّا على غير المبايعين✪: إن زعمكم أن كل من يتلقّى الإلهام يمكن أن يسمى - لغةً - نبيًّا لزعمٌ باطل، ذلك أن النبي لا يعني - لغةً - من يتلقى الإلهام فحسب، بل إن النبي - لغةً - هو من ينـــزل عليه الوحي الذي يتضمن أشياء ثلاثة: الأول أنه ذو فائدة، والثاني أن فائدته عظيمة، والثالث أنه يحصل به علم أو غلبةُ ظنّ؛ كما أن هناك شرطًا آخر وهو أن ينـــزل عليه وحي الله بكثرة وغزارة؛ لأن لفظ النبي مِن صِيغ المبالغة. وكأننا عندما نسمي أحدًا نبي الله فنعني بذلك (أوّلاً): أنه يتلقى من الله أخبار الغيب بكثرة، و(ثانيًا) أن تلك الأخبار لا تكون ذات فائدة فحسب، بل فيها فائدة عظيمة، و(ثالثًا) أنها تحتوي على علم إضافي. ونظرًا إلى هذا المعنى، ليس بوسع غير المبايعين أبدًا أن يقدّموا مثال شخص واحد من الأمة يشترك مع المسيح الموعود عليه السلام في هذه الميزة، كما ليس بوسعهم أن يُثبتوا أن غير نبي يشترك مع النبي في هذه الصفات المميزة، ذلك لأن هذه الأمور لا توجد إلا في نبي.

التفسير: يمكن أن يُعتبر قوله تعالى ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بدلاً من قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، والمعنى عن أي شيء يتساءلون؟ أيتساءلون عن النبأ العظيم الذي سنورد تفاصيله لاحقًا؟ وقد يكون جملة مستأنفة، بمعنى أنه تعالى سأل أوّلاً: عن أي شيء يتساءلون، ثم أجاب بنفسه وقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾. وهذا يؤكد أن قوله

✪ هم الذين انشقوا عن الجماعة الإسلامية الأحمدية التابعة للخلافة، رافضين البيعة على يد الخليفة الثاني رضي الله عنه عند انتخابه، وخرجوا من قاديان واتخذوا لهم مركزًا في مدينة لاهور، واشتهروا في أدبياتنا باسم الأحمديين اللاهوريين أو غير المبايعين. (المترجم)

تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لم يكن راجعًا إلى جهل أو عدم علم، بل كان السائل يعلم الأمر المسؤول عنه؛ إذ أخبر بنفسه أهم يسألون عن النبأ العظيم.

واللافت للنظر أن الله تعالى يقول هنا ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، مع أني قد بينتُ آنفًا أن النبأ معناه "خبرٌ ذو فائدة عظيمة" عند الإمام الراغب، أو "ما له وقع وشأنٌ عظيم" عند أبي البقاء، مما يعني أن النبأ نفسه يتضمن معنى العظمة. ولكنا نجد من ناحية أخرى أن الله تعالى قد وصف النبأ بالعظمة فقال ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.. بمعنى أنه خبر عظيم من بين الأخبار العظيمة أيضًا. ولو فسّرنا هذه الآية نظرًا إلى هذا المعنى الأساسي لكلمة "النبأ" لكان تقديرها كالآتي: أيتساءل هؤلاء عن ذلك الخبر الذي هو أعظم الأخبار العظيمة؟

أما ما هو هذا النبأ العظيم، فقد قال البعض إنه القرآن الكريم كما روي عن مجاهد. بينما قال غيره: إنه البعث بعد الموت كما روي عن قتادة وابن زيد (ابن كثير).

والحق أن سورة "المرسلات" لم تتحدث عن القرآن الكريم فحسب، بل عن غلبة القرآن أيضًا، فقد تحدثت عن القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٦)، بينما تحدثت عن غلبة القرآن في قوله تعالى ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المرسلات:٤٧-٤٨). كما تحدثت تلك السورة عن "يوم الفصل"، والمراد منه النبأ عن غلبة الإسلام. إذًا، فسورة المرسلات لا تتحدث عن القرآن فقط، بل تتحدث عن غلبة الإسلام أيضًا، وقد تناولت سورة النبأ أيضًا كلا الموضوعين بكل وضوح.

ولا يجدر أن يتساءل متسائل هنا: أيٌّ من المواضيع الثلاثة ينطبق هنا؛ أهو القرآن أو غلبة الإسلام أو البعث بعد الموت؟ ذلك أن للقرآن عدة بطون، حيث يبين أحيانًا مواضيع عديدة بذكر عبارة واحدة. ومثاله أن تكون فئة من القوم تتساءل عما إذا كان زيد قد ذهب إلى بلد كذا أم لا، بينما تتساءل فئة أخرى عما إذا كان زيد قد انتصر أم انهزم. فلو قلنا في الجواب: ذهب زيد إلى ذلك البلد وانتصر، لكان جوابًا للفئتين من السائلين. وبالمثل إن من الأدلة ما لا يأتي بنتيجة واحدة بل يأتي بنتائج عِدّة، فإذا سقناه دل على كل الأمور التي يمكن أن تثبت به. والحق أن البعث بعد

الموت يماثل البعث الروحاني الذي يتم في هذه الدنيا، وأحدهما دليل على الآخر. فإذا كان يصعد بالروح الإنسانية إلى مدارج عالية، فلا بد من أن يكون للروح غاية عظمى، ولا يصح القول إن الله تعالى سيُفني الروح الإنسانية بعد إيصاله إياها إلى الدرجات العُلى، ولن يكون لها عمل آخر بعد ذلك. وإذا كان للإنسان حياة بعد الموت فلا بد أن يتم إحياء روحه في الآخرة، لأن من الظلم أن يُلقي الله ﷻ الإنسان في المتاعب الدائمة ولا يجعل له سبيلاً لنيل نعمائه في الآخرة التي هي حياة خالدة أبدية. إذا كان الله تعالى سيهب لنا الحياة الخالدة بعد الموت فلا بد أن تكون في الآخرة أسباب أكثر للتمتع بتلك الحياة. وهذا يعني أن كلا الأمرين متلازمان، فإذا وُجد الأول فلا بد من الثاني، وإذا وُجد الثاني فلا بد من الأول.

وحيث إن القرآن الكريم يعلن أنه هو وحده يهب الآن الحياة الروحانية التي تتيسر لنا في هذه الدنيا، فقد اندرجت قضية صدق القرآن تلقائيًا مع القضيتين المذكورتين من قبل، بمعنى أن الدليل الذي يدل على وجود أسباب لإحياء الروح في الدنيا هو نفسه يؤكد صدق دعوى القرآن الكريم هذا أيضًا، إذ يعلن أنه وحده يهب الحياة الروحانية في هذا العصر. فترى أن القضايا الثلاث قد ثبتت بدليل واحد، إذ لو ثبت بدليل أن الحياة بعد الموت أمر يقين لا بد منه، ثبت به أيضًا أن الله تعالى قد خلق في هذه الدنيا أسبابًا لإحياء الروح، كما ثبت به أيضًا صدق دعوى القرآن بأنه الكتاب الوحيد الذي يهب الحياة الروحانية في هذا العصر، إذ لو ثبت أن الإنسان يمكن أن يبلغ في هذه الدنيا أسمى الدرجات الروحانية، لثبت أيضًا أن القرآن يهب هذه الدرجات إذ لا ينالها الآن فعلاً إلا الذين يؤمنون بالقرآن؛ كذلك إذا ثبت أن بوسع المرء نيل أسمى المراتب الروحانية بالعمل بالقرآن في هذه الدنيا، ثبت أيضًا أن هناك حياة بعد الموت، إذ لا يمكننا اعتبار هذه الدرجات العلى عبثًا. وبتعبير آخر، لو ثبت أن القرآن يهب المدارج الروحانية العالية لثبت أيضًا أن الله يهب مراتب روحانية عالية للذين يعملون بالقرآن، وبالتالي ثبت أنه لا بد من الحياة بعد الموت إذ من المستحيل أن يهب الله تعالى للإنسان مواهب وكفاءات عالية ثم

يفنيه قبل أن يتيح له الفرصة لإظهارها. إذًا، فهذه الأمور الثلاثة متلازمة، وإذا ثبت أحدها ثبتت كلها تلقائيًا.

باختصار، لو قلنا إن المراد من "النبأ العظيم" هو القرآن الكريم، وغلبة الإسلام والبعث بعد الموت، لم يؤد ذلك إلى أي شك وريب، بل الحق أن هذه الثلاثة كلها متلازمة، ذلك أن التعدُّد يؤدي إلى الشك أحيانًا وإلى الجزم أخرى، وهنا يفيد الجزم، لأن كلمة "النبأ العظيم" تحتوي على المعاني الثلاثة في الواقع، إذ إن الحياة بعد الموت أعظم الأخبار العظيمة. لا شك أن التنبؤ بولادة ولد عند شخص أو نشوب حرب في بلد ما خبرٌ هام، ولكنه ضئيل الشأن جدًّا إزاء الإعلان بأن الخَلق كلهم سيُحيَون ثانيةً ويُحضرون عند الله تعالى. فثبت أن لفظ "النبأ العظيم" ينطبق على القيامة كل الانطباق، كما ينطبق على القرآن الكريم أيضًا لأنه يعلن أنه جامع لكل المحاسن والمزايا بل شامل لصحف الأنبياء جميعًا، حيث قال الله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾(البيّنة:٤). فإذا كانت صحف نوح نبأً، وإذا كانت صحف إبراهيم نبأً، وإذا كانت صحف موسى نبأً، وإذا كانت صحف عيسى نبأً، وإذا كان وحي "كرشنا" نبأً، وإذا كان وحي "رام تشندر" نبأً، فلا بد أن يكون الوحي الذي شمل كل هذه الصحف نبأً عظيمًا.

كما أن "النبأ العظيم" ينطبق على غلبة الإسلام، بل الحق أن غلبته أعظم من غلبة الأنبياء قاطبة وتحوي غلبتُه غلبتهم جميعًا. فمثلاً كان الطوفان آية على صدق نوح عليه السلام وبه صار غالبًا على قومه، ولكن ماذا كانت حصيلته النهائية؟ غرق قومه وحُرموا الإيمانَ به. أما قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فتعرَّضوا للدمار أوّلاً ولكنهم آمنوا به في النهاية. وقد غلب موسى عليه السلام على أعدائه حين غرقوا في البحر، بينما أُغرق أعداء النبي صلى الله عليه وسلم في البر نفسه بدلاً من البحر. ثم إن موسى عليه السلام وُعد بالأرض المقدسة ولكن لم يتحقق هذا الوعد في حياته، ووُعد نبينا صلى الله عليه وسلم أيضًا بوعد مثله، ففتَح مكة في حياته. أما عيسى عليه السلام فتمثلت غلبته على أعدائه في أنه فر من أعدائه مهاجرًا إلى بلد آخر وصار في مأمن من اعتدائهم، بينما كتب الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم أيضًا غلبة مماثلة حيث فرّ من عدوه وهاجر إلى مدينة أخرى ونجا هناك من عدوان العدو،

ولكن عيسى ﷺ لم يستطع العودة إلى بلده و لم ينتصر على قومه، أما النبي ﷺ فعاد إلى وطنه مكة، وانتصر على قومه. باختصار، قد نال النبي ﷺ كل أنواع الغلبة التي نالها الأنبياء السابقون، بل شملته نصرة الله وتأييده أكثر منهم. فمثلاً صارت أمة المسيح ﷺ غالبة بعد ثلاثة قرون من بعثته، أما النبي ﷺ فقد نال الغلبة على قومه في حياته. ثم إن أصحاب المسيح ﷺ قد وهنوا و لم يتثبتوا في موطن تطلّبَ منهم التضحية، أما النبي ﷺ فقد وهبه الله تعالى صحابة ما وهنوا في موطن الحرب كأصحاب موسى، ولا ضعفوا كأصحاب عيسى الذين خذلوه حين تعرضت حياته للخطر. الحق أن الناس فئتان فيما يتعلق بالعواطف، فئة يستعدّون للتضحية في سبيل أمتهم، ولكن لا يستعدّون للتضحية من أجل قائدهم، وفئة يستعدّون للتضحية من أجل القائد كل حين، ولكنهم لا يتحلّون بروح التضحية في سبيل أمتهم، فحبُّهم لشخص القائد لا للأمة. وقد أعطى الله ﷻ نبينا ﷺ صحابة كانت قلوبهم مفعمة بالعواطف بنوعيها، فلم يتقاعسوا عن التضحية من أجل الأمة كما تقاعس أصحاب موسى ﷺ، بل إذا تطلب الأمر التضحية لأمتهم انبروا في الميدان، وإذا تطلب الموقف الدفاع عن النبي ﷺ خاضوا غمار الأخطار مؤكدين حبهم الذي يكنّونه للنبي ﷺ، و لم يتصرفوا كالجبناء كما فعل حواريو المسيح ﷺ. لما حاصر أهل مكة بيتَ النبي ﷺ ليلاً لاغتياله وأراد أن يخرج مهاجرًا أمر عليًّا ﷺ أن ينام في فراشه، ففعل (السيرة لابن هشام، خروج النبي ﷺ واستخلافه عليًّا على فراشه)، وهكذا أكد ﷺ بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا مستعدين لأن يُقتَلوا مكانه ﷺ لو تطلب الأمر. فثبت من هنا أن أمة النبي ﷺ قد سبقت أمم الأنبياء السابقين في حبهم لأمتهم وحبهم لقائدهم؛ وبالتالي كانت غلبته ﷺ - أي غلبة الإسلام - نبأً عظيمًا، كما كان كتابه ﷺ نبأً عظيمًا كذلك، لكون القرآن أعظم وأروع من الصحف السابقة، كما كانت القيامة نبأً عظيمًا لأنها أهم الأخبار وأعظمها.

﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٤﴾

شرح الكلمات:

مختلفون: اختلف القوم: ضدُّ اتفقوا. (الأقرب)

التفسير: كما ترى فإن عنصر التفخيم والتعجب قد برز هنا أكثر من ذي قبل، ذلك لأن الله تعالى قد اعتبر هذا الخبر نبأً عظيمًا من قبل، أما الآن فيقول ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، مع أن المفروض أن لا يختلفوا في النبأ، أما النبأ العظيم فالاختلاف فيه لا يجوز مطلقًا، ولكنهم قد بلغ بهم السخف أنهم يختلفون فيه أيضًا.

لقد قال البعض إن قوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ دليل على أن لفظ ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ لم يرد هنا بمعنى البعث بعد الموت ولا القرآن الكريم، إذ يخبر الله تعالى هنا أن الكافرين مختلفون في هذا الأمر، والحق أنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت وما آمنوا بحياة أخرى أبدًا، فكيف يمكن أن يختلفوا في عقيدة كانوا ينكروها أصلاً. كما أن "النبأ العظيم" لا يعني القرآن الكريم أيضًا، لأنهم كانوا كافرين به أصلاً.

الواقع أنه اعتراضٌ باطل، إذ لم يكن كل الكافرين ينكرون البعث بعد الموت، إنما كانوا مختلفين فيه، وإن كانوا يرون أن البعث سيتم بشكل مغاير لما يذكره القرآن، ومن أجل ذلك كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُدرَكْ ثأره تظل تصرخ بشكل بومة (لسان العرب، تحت: هوم). فلو أنهم كانوا منكرين للحياة بعد الموت أصلاً لما اعتقدوا هذا الاعتقاد. فثبت أنهم ما كانوا على بيّنة وبصيرة حول الحياة الآخرة، بل كانوا مختلفين فيها.

أما الاعتراض على القرآن الكريم فأيضًا لا يصح عندي، ذلك لأن الكافرين كانوا مختلفين في القرآن أيضًا رغم إنكارهم إياه، إذ كان بعضهم يسمّونه سحرًا، وبعضهم كذبًا وافتراء، وبعضهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال:٣٢). والبديهي أن الذين سمّوا القرآن الكريم أساطير الأولين لم يعتبروه كذبًا وافتراء، لأنهم لو اعتبروه كذلك لعُدّ آباؤهم الأولون كذابين إذ كان القرآن أساطير آبائهم في زعمهم، ولكن هذا ليس بصحيح؛ فقولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ نفسه دليل على أن بعضهم

كانوا لا يعترضون على القرآن الكريم باعتباره كلامًا مفترى، بل كانوا يقولون إن محمدًا ﷺ قد نقله عن آبائهم الأولين، فلا يمكن أن يكون وحيًا من الله تعالى. إذًا، فوجود بعض العرب الذين اعتبروا القرآن الكريم أساطير الأولين يدل على أنهم كانوا فيه مختلفين. كما وُجد بينهم من سموا القرآن سحرًا، وكذلك من اعتبروه افتراء؛ مما يدل على أن قولنا إن القرآن الكريم هو "النَّبَأ الْعَظِيم" لا يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بل منسجم معه تمامًا.

أما الأمر الثالث، أعني غلبة الإسلام، فقد يقول قائل: متى كان الكافرون مختلفين في غلبة الإسلام؟

فليكن معلومًا أن الكافرين كانوا بالفعل مختلفين في أمر غلبة الإسلام لإدراكهم أن المسلمين يتحلون بروح تجعلهم غالبين عليهم في نهاية المطاف. والحق أن معارضتهم الشديدة للإسلام ومحاولتهم المستميتة للقضاء عليه نفسها دليل على أنهم كانوا يخشون غلبته، ويدركون أن المسلمين مزودون بما يجعلهم غالبين عليهم. وهذه هي علامة النبي الصادق، أعني أن معارضيه يخافون منذ أول يوم من دعواه أن أتباعه سيقضون عليهم ويكسرون شوكتهم في يوم من الأيام. إن المعارضين يدّعون من ناحية أنهم سيدمرون أتباع النبي ويمحون أثرهم من العالم، ومن ناحية تتوجس قلوبهم خوفًا بأن هذا الشخص سيقضي عليهم، ولذلك يعارضونه معارضة شديدة مع علمهم أنه شخص واحد، ليس معه أعوان وأنصار، ولا قوة ولا منعة، ولا أموال ولا أسباب. إن النبي ينبري وحده ليتحدى الدنيا كلها وهو لا يملك حيلة ولا قوة، فتعارضه الدنيا كلها ولا تدخر وسعًا في تدميره ومحو أثره وإفشاله في مهمته، ذلك لأنها توقن في نفسها أن هذا الشخص الوحيد عديم الحيلة مزود بكفاءات مدهشة للرقي وسيقضي عليهم ويهزمهم في يوم من الأيام. إننا نرى في هذا العصر أيضًا أنه بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام خرج كثير من المتنبئين قائلين إنهم مبعوثون من عند الله تعالى، ولكن لم يلتفت إليهم أحد إطلاقًا، فكان هؤلاء المدّعون يتضايقون من عدم تعرض الناس لهم، بل كان بعضهم يسبّ جماعتنا بأننا لا نرد على دعواه وأقاويله. فمع أن هؤلاء المتنبئين يتمنون أن يلتفت الناس إليهم

ولو معارضين إلا أنهم لا يعيرونهم أدنى اهتمام إذ لا يجدون فيهم ما يخشونه، حتى يظنوا أنهم سيصبحون غالبين عليهم في النهاية. إن الناس يسمعون دعاويهم ويمرّون بهم ضاحكين غير معارضين لهم، أو لا يعارضهم عدد كاف منهم. قد يتفوه بعضهم ضد المدعي، بينما يدرك الجميع على العموم أن لا داعي للتعرض له، لأنه سيهلَك بنفسه ويبيد.

إذًا، فقوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يشير إلى غلبة الإسلام أيضًا، حيث بين الله تعالى أن ذوي العقل من الكافرين يدركون أن الإسلام غالب لا محالة في النهاية. إذًا، فعامة الكفار يتأثرون بما يسمعون من علمائهم فيظنون أنهم سينجحون في القضاء على المؤمنين، ولكن علماءهم يدركون أنهم سينهزمون وأن الإسلام سينتصر في نهاية المطاف، بل إنهم يرون آثار هزيمتهم منذ البداية. وهذا يعني أنهم يقرّون منذ أول يوم بغلبة الإسلام مدركين أن لا قِبل لهم بهذا الدين. وفي هذا العصر أيضًا نجد أن الناس يستيقنون في قلوبهم بتفوق الجماعة الإسلامية الأحمدية ويخافون على مصيرهم إذا استمرت الجماعة في التقدم على هذا المنوال، ولذلك لا يألون وسعًا في معارضتها، ظانين أنهم سيتمكنون من القضاء عليها؛ إذ من المحال أن تزدهر جماعة في ظل هذه المعارضة الشديدة.

إذًا، فلو فسّرنا "النبأ العظيم" بمعنى غلبة الإسلام فقوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ لا يعني أنهم يختلفون فيما بينهم بهذا الشأن بل يعني اختلاف حالتهم من وقت إلى آخر، بمعنى أن الاختلاف عندها سيُعتبر إشارةً إلى ما يوجد بين عامة الكفار وعلمائهم وزعمائهم من اختلاف في التفكير حيث يظن العامة أن المسلمين سيُبادون بينما يرى علماؤهم وزعماؤهم عكس ذلك، أو المعنى أن علماءهم وزعماءهم لا يكونون في حالة واحدة، فيظنون تارة أنهم سيقضون على المسلمين، وتارة أخرى يرون أنهم لن يتمكنوا من القضاء عليهم بل سيهلكون بأنفسهم في هذه المعركة. عندما ينظرون إلى محاسن المسلمين وصفاتهم الحميدة يدركون أنهم سيلقون الهزيمة على أيدي المسلمين، وعندما ينظرون إلى حزبهم وقوتهم يظنون أنهم سيقضون على المسلمين.

هذا، وقد يكون قوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إشارة إلى الاختلاف الموجود بين المسلمين والكافرين، وهذا الاختلاف أيضًا يخص القضايا الثلاث: بمعنى أن المؤمنين يعارضون الكافرين حول البعث بعد الموت وغلبة القرآن وغلبة الإسلام.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٦

شرح الكلمات:

كَلَّا: حرفٌ معناه الردع والزجر... وفي "الكليات": وقد تجيء بعد الطلب لنفي إجابة الطلب كقولك لمن قال لك افعلْ كذا: كلا.. أي لا يُجاب إلى ذلك؛ وقد جاء بمعنى حقًّا نحو: ﴿كَلَّا إنّ الإنسان ليَطغَى﴾. (الأقرب)

سيعلمون: السين هنا تفيد التوكيد.

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أنهم يعلمون حتمًا. وإذا أخذنا يوم القيامة في الحسبان، فالمراد أنه سيكشف عليهم يوم القيامة بطلان أفكارهم وفداحة خطئهم. أما نظرًا إلى القرآن الكريم فالمراد أنه سيأتي يوم يتجلى فيه صدق القرآن الكريم عليهم. أما نظرًا إلى غلبة الإسلام فالمراد أنه سيصبح غالبًا في نهاية المطاف فيدركون أنهم قد ارتكبوا خطأ فادحًا بمعارضة الإسلام.

وقد ذكر الله تعالى في الآيات التالية الدليل على صدق هذه الدعوى، وهذا الدليل ينسجم مع القضايا الثلاث المذكورة، بمعنى أن هذا الدليل لا يؤكد وجود القيامة فحسب، بل يؤكد صدق القرآن الكريم وغلبة الإسلام أيضًا.

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٧

شرح الكلمات:

مِهادًا: المِهاد: الفِراش؛ الأرض. (الأقرب) وتسمَّى الأرض مهادًا لاتصافها بمزايا المهاد.

التفسير: ماذا يفعل الإنسان بالفراش؟ إنه يستلقي عليه وينام طلبًا للراحة، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾.. أي تجدون فيها أنواع الراحة والسهولة، فينبغي أن تفكروا في هذه الظاهرة.

وسوف أقوم بتفسير هذه الآية مع الآية اللاحقة لاتحادهما في المعنى.

وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

أوتادًا: الأوتاد جمعُ الوتد وهو ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب. وأوتاد الأرض جبالُها؛ وأوتاد البلاد رؤساؤها؛ وأوتاد الفم: أسنانُه. (الأقرب)

وقد سُمِّيت الأسنان أوتاد الفم لأنها تحافظ على نظام الفم شأن الرؤساء الذين يحافظون على نظام البلاد، كما أن الأسنان تساعد على الأكل وتحافظ على جمال الوجه. وتسمى الجبال أوتاد الأرض لأنها سبب لزينتها وزخرفتها وقوتها ومتانتها. وهذا هو غرض الوتد لأنه يقوّي الشيء ويسانده. مثلاً أنت تَغرِز الوتد في الحائط لتُعلِّق عليه شيئًا فيصبح سندًا له. كذلك تغرز الوتد في الأرض لتربط به الحيوان من فرس أو غيرها، أو تربط به أطناب الخيمة فتنصبها. وهذا يعني أن غرض الوتد حماية الشيء ومساندته، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالجِبَالَ أَوتَادًا﴾ أنها سند للأرض وتمنعها من حركة تضرّها، والحق أن هذين هما الغرضان الأساسيان في الجبال.

التفسير: فيما يتعلق بمنافع الجبال فقد أثبتت العلوم المعاصرة أن الجبال هي التي حالت دون الزلازل التي كانت تهزّ الأرض بدون انقطاع في البداية، ذلك لأن باطن الأرض نار تلتهب على الدوام، وفي البداية كانت قشرة الأرض غير سميكة، فكلما جاشت النار في باطن الأرض بدأت الحمم تتدفق خارجها، ولم تزل هذه الظاهرة تتكرر حتى تكونت جبال كبيرة على سطح الأرض. وعندما هدأ جيشان باطن الأرض بردت قشرتها وأصبحت سميكة وصارت صالحة للعيش عليها. فليست الجبال إلا سببًا لمنع الأرض من حركتها الضارة. وكما أن الوتد يربط الحصان ولا

يدعه يذهب وينفلت، كذلك توقفت الحركة الضارة للأرض وانتهت ظاهرة الزلازل الكثيرة.

كما أن الجبال سند للناس بحيث يمكننا القول إن جميع أقطار العالم معلقة بسند الجبال. تنـــزل على الجبال الثلوج التي فيها منافع عظيمة للناس. عندما تذوب الثلوج تجري في الأرض الجداول والأنهار التي تُشَقُّ منها القنوات التي تسقي البلد كله. كما أن الثلوج تؤدي إلى تدفق العيون في الجبال التي تروي الناس. وهذا يعني أن الجبال تحقق الهدفين: إنها تمنع الأرض من الحركة الضارة، كما أنها تصبح سندًا لجميع البلدان حيث تمد الناس بالماء الذي يروي الأرض وتستمر به حياتهم.

وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

أزواجًا: الأزواج مفردها زوج وهو: البعلُ؛ الزوجةُ؛ كلُّ واحد معه آخر مِن جنسه؛ الصنفُ من كل شيء. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى من ناحية جعلنا لكم الأرض التي تعمل لكم كالفِراش، كما جعلنا لكم الجبال التي تعمل لكم كالسند حيث تمنع الأرضَ من حركة تضركم، ومن ناحية أخرى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾. ويُطلَق الزوج على الذكر والأنثى، حيث يقول الرجل: هي زوجي أو زوجتي، وتقول المرأة: هو زوجي. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أننا خلقناكم ذكرًا وأنثى.

إذًا، فالله تعالى يذكّر العباد أنه خلق لهم الأرض فراشًا، فكما أنهم يرجعون إلى فراشهم طلبًا للراحة كذلك يرجعون إلى الأرض كلما عنّتْ لهم حاجة أو مَسَّهم ضرر، فيجدون فيها كل ما يحتاجون إليه. فتمدّهم الأرض بكل ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وملبس. فما من حاجة للناس إلا ويسدّها الله تعالى من خلال الأرض. ثم إن الأرض تهيئ الراحة للإنسان كما يهيئ السرير الراحة لجسم الإنسان.

ثم جعل الله تعالى الجبال التي هي سند وقوة للأرض. الواقع أن الأرض كان بها نقائص سدَّها الله تعالى من خلال الجبال، ولولاها افتقرت الأرض إلى منافع كثيرة. فمن أكبر فوائد الجبال أنها تدّخر المياه التي هي سبب حياة الأرض، حيث تقع الثلوج على قمم الجبال، ثم تذوب لتمدّ الأرض بالمياه طوال السنة. كما تنبت على الجبال أنواع الأعشاب والعقاقير التي تنفع الناس. عندما يهيئ الإنسان الأرض ويعمرها للعيش عليها لا يبالي بما فيها من أعشاب نافعة، بل يتلفها بلا هوادة، فكلما احتاج إلى أرض للعيش قطع الشجر واستأصل الأعشاب. كان على الإنسان أن يبني البيوت ويشق الطرق والشوارع ويهيئ المزارع، فكان عليه أن يمهّد الأرض لذلك أولاً، ومن عادته أنه يقوم بتصفية الأرض كلية من كل نبات باعتباره لغوًا لا فائدة فيه، مع أن كثيرًا من هذه النباتات نافعة له جدًّا، وفيها شفاء له من شتى الأمراض. فلو كانت الأرض سهولاً فقط لقطع الإنسان كل نبات وعشب مفيد أيضًا، وسدًّا لهذا النقص جعل الله تعالى في الأرض جبالاً، فادّخر فيها المياه على شكل ثلوج، كما أنبت فيها شتى النباتات والأعشاب التي هي نافعة للناس والتي لو كانت في السهول لقطعوها وأتلفوها، ولكنها تظل محفوظة في الجبال؛ وهكذا تمثّل الجبال سندًا للأرض. إذًا، فالله تعالى قد جعل في الأرض، من ناحية، فوائد كثيرة يمكن أن نقول أن لا نهاية لها نظرًا لما في الأرض من قدرات وكفاءات، ومن ناحية أخرى خلق فيها الجبال التي تصبح بها منافع الأرض دائمةً بالفعل. فالأرض نافعة والجبال أيضًا ذات فوائد، والفرق أن الجبال تديم منافع الأرض.

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة قال الله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.. أي جعلكم ذَكرًا وأنثى حتى يستمر نسلكم. وكأن الله تعالى يقول أليس عجيبًا أننا خلقنا الأرض التي تمدكم بالغذاء والماء واللباس والسكن من جهة، وخلقنا لكم الجبال التي جعلت المنافع الأرضية دائمة من جهة أخرى، وجعلناكم ذَكرًا وأنثى ليستمر نسلكم دائمًا وتنتفعوا من نعمنا على الدوام من ناحية ثالثة، ولكنكم تقولون عن كل هذه الأشياء التي تخرج عن حد الإحصاء أننا خلقناها عبثًا وليس وراء خلقها حكمة ولا غاية.

ومن معاني الزوج الصنفُ من كل شيء، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أننا خلقناكم أصنافًا.. أي جعلنا لكم طبائع شتى وأمزجة مختلفة، فمنكم من يرغب في الرسم، ومنكم من يميل إلى النجارة، ومنكم من يحب العلوم (science)، ومنكم من يفضّل الرياضيات، ومنكم من يؤثر دراسة التاريخ. فقد جعلنا الناس أقسامًا شتى، ولو خُلقوا بطبيعة واحدة، لساروا كلهم في جهة واحدة ولم يحرزوا أي تقدم. ولكن الله تعالى قد جعل العقل الإنساني ذا مواهب مختلفة وفتح أمامه مجالات شتى للتقدم والرقي بحيث يختار كل إنسان مجالاً ينسجم مع مزاجه وطبيعته، فمن الناس من يشتغل بالدنيا، ومنهم من يشتغل بالدين، ومنهم من يتوجه إلى العلوم، ومنهم من يتقدم في علم الأخلاق، ومنهم من يسبق في الهندسة، ومنهم من يرغب في التاريخ، وهكذا يسعى الجميع في مجاله بحسب فطرته ومزاجه. وهذا التنوع والاختلاف دليل على أن الله تعالى قد خلق في الإنسان رغبة في البحث عن شيء لا يراه، وجعل فيه غليلاً للفوز بذلك الشيء الخفي غير المرئي. وبحثًا عن تلك الضالة المنشودة يتوجه الناس إلى جهات شتى. فتجري شتى الطبائع الإنسانية في طرق مختلفة حسب مزاجها كما يجري الماء المهراق إلى الأسفل. أو مثله كمثل أهل بيت يفقدون ولدًا لهم، فيخرجون بحثًا عنه في جهات شتى، فيجري بعضهم إلى الشرق وبعضهم إلى الغرب وبعضهم إلى الجنوب وبعضهم إلى الشمال، بينما يكون هدف الجميع واحدًا وهو البحث عن الولد. فتجري الطبائع البشرية في جهات شتى وطرائق مختلفة، مما يدل على أن هناك شيئًا تشعر الفطرة الإنسانية بضرورة العثور عليه، ولكنها لا تعرف مكانه فتجري في جهات شتى بحثًا عنه؛ وهذا دليل على أن الفطرة الإنسانية تبحث عن ضالتها التي ليس عندها علم ذاتي بمكانها، ولذلك تبحث عنها في مختلف الجهات، ولا تزال في بحثها حتى ينـــزل الله تعالى وحيه ويدلّها على ضالّتها المنشودة، وعندها ينعم الإنسان بالسكينة والطمأنينة ويدرك أنه قد نال غايته التي كان يسعى لها والتي من أجلها قد جعل الله تعالى للناس طبائع مختلفة ومواهب متنوعة.

إذًا، فخلقُ الأرض والجبال، وتنوُّعُ الطبائع البشرية وتوجُّهُ الناس ذوي المواهب المتنوعة إلى جهات شتى بحثًا عن مقاصدهم لدليلٌ على أن للإنسان غاية عظيمة يجب أن يسعى لها. إن هذا البحث أو الغليل الموجود في فطرة الإنسان يدل على ضرورة الوحي أولاً، ويؤكد ضرورة البعث بعد الموت ثانيا، ويدل على غلبة الوحي الإلهي بعد نــزوله ثالثا؛ إذ لو لم يصبح الوحي غالبًا ما كانت هناك فائدة في نــزوله أصلاً.

ملخص القول إن الله تعالى قد دلل - بخلق ملايين النعم والخيرات التي لا تعد ولا تحصى على الأرض التي يعيش عليها الإنسان، ثم بخلق الجبال وجعلِ أسباب رزق الإنسان وتقدُّمِه ورقيِّه دائمة الصبغة، ثم بخلق الناس بطبائع متعددة ليطوّروا، بحسب أمزجتهم المختلفة، قدراتِ الأرض وخيراتها وينتفعوا بها، ثم بخلق الإنسان ذكرًا وأنثى لاستمرار نسله - على أن الإنسان قد خُلق لرقي غير محدود ولحياة خالدة، وإذا ثبت ذلك فلا بد من الاعتراف أيضًا أنه لا بد للإنسان بعد موته من حياة أبدية في عالم آخر، وبالتالي لا بد أن يكون هناك هديٌ يعمل به لنيل الحياة الأبدية، كما لا بد أن يكون هناك ضمان لنجاح الذين يعملون بذلك الهدي، وإلا فإن خلق العالم كله يصبح عبثًا.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

سُباتًا: أصلُ السبت القطعُ، ومنه: سَبَتَ السَّيْرَ (أي الجلْدَ): قَطَعَه، وسَبَتَ شَعْرَه: حَلَقَه؛ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. أي قَطْعًا للعمل. (المفردات)

ويسمى يومُ السبتِ سبتًا لأن اليهود يتركون العملَ فيه.

والسُّباتُ: الدهرُ؛ الداهيةُ من الرجال؛ النومُ؛ وقيل خِفَّتُه، وقيل ابتداؤه في الرأس حتى يبلغ القلبَ؛ وقيل أصله الراحةُ. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى هنا ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. وهذا رد على من قد يقول: ما الحاجة إلى أن يُهزَم الكفر بيد الإسلام مرة أخرى وقد سبق أن جُعل مغلوبًا في عصر آدم ونوح مثلاً؟ فيجيب الله تعالى ويقول ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. أي ألم تروا أن هناك وقتًا لليقظة ووقتًا للنوم في حياتكم العادية، كذلك تتناوب فترات الصحوة والنوم في حياة الشعوب دائمًا، ليستعيد الناس قوى جديدة ويهبّوا ويهزموا الكفر ثانية. إن الناس لا يزالون يعملون في سبيل الدين فترة طويلة، ثم يصيبهم الكسل والتعب، فيرغبون عن الدين وتنحصر رغباتهم في الدنيا فقط، فيتركهم الله وشأنهم فيميلون إلى الفساد، ثم يتغمدهم الله تعالى بفضله مرة أخرى، فتطلع لهدايتهم شمس روحانية جديدة.

وحيث إن الله تعالى قد ذكر هنا النوم مع السبات فقال ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فلا يعني السبات هنا معناه المعروف أي النوم، بل لا بد من تفسيره بمعنى آخر وهو الراحة، فالتقدير: وجعلنا نومكم راحة.

ومن معاني السبات الدهر، فعليه يمكن تفسير الآية أيضًا كالآتي: وجعلنا نومكم دهرًا.. أي جعلنا زمن نومكم طويلاً. وعليه فيعني النوم إذًا، ذلك الزمن الذي لا تطلع فيه الشمس الروحانية على قوم، بل يغطّون في الغفلة.. وبتعبير آخر عندما تركن أمة من الأمم إلى النوم الروحاني ينامون فترة طويلة.

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

لباسًا: قال صاحب المفردات: "وجُعلَ اللباس لكل ما يغطّي الإنسانَ عن قبيح".

وعليه فقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾.. يعني أننا جعلنا الليل ليغطي به عوراتكم وعيوبكم، ولهذا السبب سُمّي الليل هنا لباسًا، فإن كل ما يستر العيوب يسمى لباسًا في العربية كما قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ (الأعراف:٢٧)، فقد سمى التقوى لباسًا لأنه يستر عورات الإنسان.

وورد في أقرب الموارد: "اللباس الاختلاطُ والاجتماع، يقال: بينهم لباس.. أي اختلاط واجتماع". وجاء في لسان العرب: "لباسُ كل شيء: غِشاؤه".

التفسير: لولا الليل لظل الإنسان ساهرًا كل حين وأصابه الجنون في بضعة أيام، ولكن هذا النقص في الإنسان يظل في الخفاء ولا ينكشف بسبب الليل، إذ جعله الله تعالى لباسًا له، فيغطي على عيبه هذا أي أنه محدود القوى.

ويعمل الليل لباسًا للإنسان من حيث إن عيوبه الصادرة وقت النوم بالليل لا تنكشف على الآخرين لكونهم أيضًا نيامًا في ذلك الوقت، ولكنه لو نام المرء وقت النهار اطلع الآخرون على عيوبه هذه. ذلك أن الإنسان يكون أثناء نومه في أوضاع غريبة بعضها قبيحة جدًّا بحيث لو رآها أحد لكرهها أشد الكراهية. فمثلاً قد يكون المرء ذا مكانة مرموقة بين الناس ولكن فمه ينفتح خلال النوم، فلو نام بالنهار وقعت الذباب على فمه، ولكنه لو نام بالليل ظل عيبه هذا مستورًا عن أعين الناس. وبعضهم يغطّ أثناء النوم عاليًا، وبعضهم يضطجع ضجعة منفّرة جدًّا، فبعضهم يضطجع كالقط وبعضهم كالسمك؛ ولذلك كله قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾.. أي أن الليل هو وقت النوم عادةً، والذين ينامون بالليل لا تنكشف عيوبهم الجسدية للناس، أما لو نام الناس عادة وقت النهار لانكشفت للآخرين عيوبهم المتعلقة بالنوم، ولكنها تظل مخفية عن الآخرين لنومهم بالليل الذي يغطّيها.

والليل الروحاني أيضًا يعمل عمل اللباس كالليل المادي، ذلك لأن القوم كلهم يكونون أمواتًا من الناحية الروحانية ولا أحد يعرف عيوب صاحبه، وكما يقول المثل إن الجميع في الحمّام عراة، كذلك يكون أهل ذلك العصر كلهم عراة من الناحية الروحانية. إن كل إنسان منهم يصبح آثمًا يرتكب المعاصي والمساوئ، فلا يستطيع أن يرى سيئات الآخرين. فكان الجميع واقعين في الشرك والوثنية في زمن الجاهلية قبل ظهور الإسلام مثلاً، والفرق الوحيد أن بعضهم كان مشركًا كبيرًا وبعضهم مشركًا صغيرًا، ومع أنهم كلهم كانوا منغمسين في الشرك إلا أنه لا أحد منهم كان يشير إلى هذا العيب الموجود في صاحبه. ولكن عندما يبعث الله نبيًّا من

عنده ويأتي بشمسه الروحانية تتكاشف للناس عيوبهم، فيقولون إن فلانًا مصاب بعيب كذا، وفلانًا بنقص كذا، أما قبل ذلك فيكون الشعب كله في سبات فلا يستطيع أحد رؤية عيب صاحبه. ومثاله في هذا العصر ما حصل بأهل أوروبا حيث يرقصون عراةً ولا أحد منهم يستنكر ذلك لأنه قد خيم عليهم ليل روحاني، فلا يرون في ظلمته هذه النقائص والعيوب، بل إن أكبر إنسان فيهم أيضًا يرى هذه النقائص ويمرّ بها مرّ الكرام دون أن يفكّر في إبداء الكراهية نحوها. ولكن عندما يُبعث نبي من عند الله تعالى يخجل الناس من تلك المساوئ ويستنكرونها.

ثم إن اللباس زينة، والواقع أن الليل هو الزينة للعاملين الكادحين أثناء النهار. من عادة العرب أن كل واحد منهم، مهما كان فقيرا، يغسل ثيابه يوميًا، أما الأثرياء منهم فيلبسون بالنهار غير ما يلبسونه بالليل، ذلك لأن الثياب تتسخ نتيجة العمل بالنهار، فلا يستطيعون ارتداء الثياب الجميلة وقت النهار، بل يلبسونها وقت الليل حين يفرغون من العمل ويجلسون للراحة. ولو زرت البلدان الأوروبية لوجدت أن الرجل الثري ذا الراتب العالي يعمل في ثوب عادي وقت النهار، ولكنه بعد فراغه من العمل عند العصر تقريبًا يستحم ويلبس ثوبًا نظيفًا جميلاً ويجلس مع أهله وأولاده.

وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

معاشًا: عاشَ يعيش معاشًا: صار ذا حياة.... وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾.. أي مُلتمَسًا للعيش. (الأقرب)

لقد بين الله تعالى هنا أمرين: أحدهما أننا جعلنا النهار ذا حياة، بمعنى أن النهار مَظْهَرٌ للحياة فيبدو كأنه شيء حي، والثاني أننا جعلنا النهار سببًا للعيش، أي أن الناس يبحثون فيه عن أسباب العيش.

ويمكن اعتبار ﴿معاشًا﴾ مصدرًا بمعنى اسم الفاعل على سبيل المبالغة، والمراد أن النهار وثيق الصلة بالمعاش بحيث يجوز القول إنه في حد ذاته معاش، كقولهم: زيدٌ عدلٌ.. أي أنه شديد التمسك بالعدل بحيث يمكن تسميته عدلاً متجسدًا. ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(العنكبوت:٦٥)، فقد جاءت كلمة ﴿الحيوان﴾ هنا على سبيل المبالغة والمعنى أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية. فمع أن الدار الآخرة اسم مكان، والمكان لا يكون ذا حياة، ولكن الله تعالى يسمي الدار الآخرة ﴿الحيوان﴾ على سبيل المبالغة لأن الإنسان إنما يكون حيًّا حقيقيًا في الآخرة فقط، ولأن الحياة في الآخرة هي الحياة الحقيقية. إذًا، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أن المعاش وثيق الصلة بالنهار، أما الليل فصلته بالمعاش ضعيفة، بحيث يجوز القول إن الله تعالى قد جعل النهار معاشًا.. أي خلق فيه من أسباب المعاش ما لا يتيسر في أي وقت آخر. هذا إذا اعتبرنا ﴿معاشًا﴾ مفعولاً به، أما إذا اعتبرناه مفعولاً فيه فيكون المعنى أن النهار سبب للمعاش.

والمعاش يعني مجرد الحياة، ولكنه يعني عادة الحياة الحيوانية التي تتعلق بالأكل والشرب فقط.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه تأتي على الشعوب فترة الظلمة في بعض الأحيان، مثلما تخيم ظلمة الليل على العالم بعد النهار.

لقد بينتُ من قبل أن هذه السورة تتحدث عن قضايا ثلاث وهي البعث بعد الموت وغلبة القرآن وغلبة الإسلام، ونظرًا إلى معنى القيامة فقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني أنه تعالى خلق الليل في العالم المادي لستر عيوبكم، إذ لم تكونوا قادرين على التمتع بالنهار دائمًا، فكان لزامًا أن تأتي عليكم فترة الليل لتستعيدوا قواكم للتمتع بالنهار من جديد، كذلك الحال في العالم الروحاني، فكما أن الله تعالى قد جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا، كذلك خلق هذه الدنيا - التي هي بمثابة الليل والسبات بالمقارنة مع الآخرة - لتتزوّدوا هنا بقوى جديدة تمكّنكم من رؤية الله تعالى في الآخرة. فكما أنه لا بد من الليل قبل النهار، كذلك لا بد من

عالم آخر من أجل رقيكم. فينبغي أن تتزودوا خلال العيش في هذا العالم بالقوى المناسبة للحياة الآخرة حتى تتأهلوا لرؤية الله تعالى هناك.

أما نظرًا إلى موضوع غلبة القرآن أو غلبة الإسلام، فالمراد أنكم كقوم كنتم نيامًا، ولكن الله تعالى كان يزودكم في فترة نومكم نفسها بقوى جديدة. علمًا أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه أنـــزله في قوم قد صاروا أذلّةً وأمواتًا، وذلك ليزوّدهم الوحي بقوى جديدة فيهبّوا ويصبحوا غالبين على العالم مرة أخرى. ولذلك نجد أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه في قوم أخذت قواهم في النماء والتطور، فينتشرون ويزدهرون في العالم نتيجة هذه القوى. خذوا بعثة النبي ﷺ مثلاً. كان العرب عندها أمة حقيرة ميتة منذ قرون و لم تكن لهم غلبة في أي مكان، كما لم تكن فيهم أية آثار للتقدم والرقي، وكانوا يعيشون خاملين ومنعزلين عن العالم. ولا شك أنه لما نـــزل فيهم القرآن الكريم قاموا يعارضونه ويسعون للقضاء على الإسلام، ولكن كانت في قلوبهم حسرة بأن كل أمة في العالم قد ازدهرت وأن كل شعب قد نال الغلبة، ولكننا لا نـــزال متخلفين. كانت في قلوبهم أمنية أن يتقدموا ويزدهروا وينال شعبهم العز والرفعة في العالم. والحق أن هذه الأمنية قد ساعدتهم كثيرًا فيما نالوه بعد إسلامهم من تقدم وازدهار. فثبت أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه أنـــزله في قوم كانوا قد ظلوا أمواتًا لأحقاب.

ونرى في هذا العصر أيضًا أن الله تعالى قد بعث المسيح الموعود عليه السلام في بلاد الهند التي كان أهلها يعيشون كالعبيد من زمن طويل، وكانوا يتمنون التقدم والازدهار. لا شك أن أهلها يعارضون الأحمدية اليوم كما هبّ العرب لمعارضة الإسلام في البداية، ولكنهم سيدركون أن الأحمدية هي السبيل لرقيّهم، وعندها ستتولد فيهم الصحوة فجأة، فيستعدّون لتقديم أي تضحية في هذا السبيل.

كما أن الله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ إلى أن النهار – لا الليل – هو الدليل على الحياة في الحقيقة. وهناك حكمة بالغة تكمن في هذا التعبير، وهي أن الناس عادةً يرون العيشَ في شتى أسباب الراحة والمتعة، ولكن الله تعالى يعلن هنا أن ما ترونه عيشًا ليس بعيش وإنما هو سبات. تظنون أن التمتع بأنواع الملذات من

أكل وشرب وسياحة هو العيش، مع أن فترة العيش الحقيقي إنما هي فترة بعثة النبي التي هي زمن العمل الحقيقي والعزة الحقيقة، أما التمتع بالأكل والشرب وغيرها من أسباب الراحة واللذة فهو ليس بعيش وإنما هو نوم وسبات. وكأن ما تعتبرونه عيشًا هو زمن سباتكم، وأن ما تعتبرونه زمن الشدائد هو زمن عيشكم الحقيقي. فكما أن الإنسان يعمل وينشط بالنهار ويستريح بالليل، كذلك يسمى وقت العمل عيشًا ووقت الراحة ليلاً. فكأن الله تعالى يقول للناس مستغربًا: كيف تسمون زمن الراحة والسكون عيشًا مع أن وقت العيش إنما هو ذلك الذي تعمل فيه قوى الإنسان وتنشط، وهو وقت النهار لا وقت الليل. والحق أن زمن العيش ليس إلا حين يتمتع القوم بروح التضحية، وتُرى في كل فرد منهم صحوة، ويشعر الجميع أن سر النجاح يكمن في التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله تعالى؛ ذلك لأن الحياة اسم للحركة لا للسكون؛ فما ترونه عيشًا هو سكون وعلامة للهلاك، وما ترونه شدة ومحنة هو العيش. إنكم تعتبرون حياة الراحة والترف عيشًا، ولكنه ليس عيشًا بل هو سبات يغشاكم، أما الذي لا تعدّونه عيشًا فهو العيش بعينه. فكأن الله تعالى قد صحح بهذه الكلمة خطأ شائعًا بين الناس، وبيَّن أن العيش اسم للحركة حيث يتحرك المرء وينشط وقت النهار، ولكنكم تسمون عدم الحركة عيشًا، مع أنه ليس بعيش وإنما هو تعطُّل حواسكم.

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

شدادًا: الشداد والأشدّاء مفردها شديد، ومن معاني الشديد: الشجاعُ؛ البخيلُ؛ الأَسدُ؛ القويُّ - ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى عن الصحابة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ - الرفيعُ؛ الوثيقُ. (الأقرب)

التفسير: ما هي هذه السبْع الشِداد؟ إنها السماوات لأن الله تعالى قد استعمل كلمة "السبْع" عن السماوات في أماكن أخرى من القرآن الكريم. فقوله تعالى ﴿وَبَنَيْنَا

فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يعني أننا خلقنا فوقكم سبع سماوات مادية وروحانية متينة لا زعزعة فيها، بل يعمل فيها قانون محكم لا يتعطل أبدًا، ولذلك لا يحدث في نظام الكون خلل ولا فتور.

أما لو أخذنا كلمة ﴿شدادًا﴾ بمعنى رِفاعًا فالمراد أننا قد خلقنا فوقكم نظامًا رفيعًا لا نهاية لرفعته.

كما يمكن تفسير كلمة ﴿شدادًا﴾ بمعنى وثيقة، والمراد أن هذا النظام المدهش الذي خلقناه لا تغير فيه؛ حيث يجري فيه هذا القانون على وتيرة واحدة. علمًا أن هناك فرقًا بين عدم انفكاك الشيء وعملِه بطريقة واحدة، ذلك لأن عدم انفكاكه يدل على بقائه واستمراره، أما عمله بطريقة واحدة فيدل على عدم وقوع أي تغيُّر فيه. فمثلاً نجد بعض الناس لا يسير على وتيرة واحدة، بل يقول اليوم شيئًا ويقول غدًا عكس ذلك، فلا يمكن أن نصفه بالسير على وتيرة واحدة، ولكن السبْع الشِداد التي خلقها الله تعالى تتصف بالمزايا الثلاث بأنها قوية لا تنفك، ورفيعة واسعة، ووثيقة أي لا تغيُّر فيها.

لقد أشار الله تعالى هنا بقوله ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ إلى أن هذه المزايا الثلاث التي توجد في النظام السماوي لدليل على أن وراء خلق الكون غاية عظمى. فالذي يزعم أن الله تعالى خلق الإنسان وجعل فوقه نظامًا هائلاً محكمًا دونما هدف إنما يعتبر فعل الله عبثًا، ويقول الله تعالى له لم لا تتدبر في هذا النظام المدهش الرفيع الواسع الذي لا انفصام له، والذي يجري بطريقة واحدة بدون تغيُّرٍ وخللٍ، والذي يصيب العلماء (Scientist) بالدهشة والذهول حين يفكرون فيه وتتقاصر أفهامهم عن إدراك سعته رغم ما حققوه من تقدم علمي مدهش. فعليك بإعمال الفكر في هذا النظام الفلكي واسأل نفسك هل من المعقول أن يُخلَق هذا النظام الواسع من أجل هذا العالَم ولهذا المخلوق الذي لا غاية لخلقه، بل يفنى بعد حياة قصيرة ويصير ترابًا. إن هذا النظام الهائل نفسه لبرهانٌ على أن لخلق الإنسان غاية عظيمة، وإلا لزم أن يُعتبر هذا النظام الهائل المدهش لغوًا وعبثًا.

إذًا، فقد قدم الله تعالى نظام السماوات برهانًا على البعث بعد الموت، مبيّنًا أن خلق هذا النظام الحكيم المدهش يدل على أن الإنسان لم يُخلق ليأكل ويشرب أيامًا ثم يفنى، بل قد خُلق لهدف أسمى من ذلك.

أما نظرًا إلى موضوع صدق القرآن الكريم، فالمراد أن الله تعالى يدعو الناس هنا إلى التدبر في فطرهم، ويقول ألا ترون أنه توجد في قلوبكم رغبة شديدة في التحلّي بالأخلاق السامية والترقي في الخير - بالإضافة إلى رغبتكم في الأكل والشرب - وتتمنون بلوغ المراتب الروحانية العالية. هل هذه الرغبة والأمنية بدون سبب؟ هل يقال إن الله تعالى خلق الأسباب كلها لتحقيق رغباتكم المادية - التي هي أدنى - ولم يخلق شيئًا لتحقيق ما خلق فيكم من رغبات روحانية هي أسمى من الأماني المادية؟ وفي هذه الحالة سيُعتبر قوله تعالى ﴿سبعًا شدادًا﴾ بمعنى المدارج السبع الروحانية المذكورة في سورة "المؤمنون" حيث بين الله تعالى أن المؤمنين لا يزالون في الرقي الروحاني حتى يحوزوا هذه المراتب السبع.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سراجًا: السراج معروف وجمعُه سُرُجٌ، والسراج أيضًا الشمس لأنها سراج النهار. (الأقرب)

وهّاجًا: وهَجت النارُ والشمسُ وَهْجًا ووَهَجانًا: اتّقدتْ. والوهّاج: الشديدُ الوَهَجِ. والوَهَجُ: حرُّ النار والشمسِ من بعيد. (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أننا جعلنا شمسًا يُحَسُّ حرُّها الشديد من بعيد. والملاحظ هنا أن الله تعالى لم يقل: "وجعلنا السراج وهّاجا"، بل قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، ذلك لأن التنوين هنا يفيد التفخيم والمعنى أننا قد جعلنا شمسًا عظيمة مِن صفتها أنها وهّاجة.

وورد في المفردات: "الوَهَجُ: حصولُ الضوء والحرِّ من النار. وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.. أي مضيئًا. وتَوهَّجَ الجوهرُ: تلألأَ."

فالمعنى الثاني أننا جعلنا شمسًا صفتها الذاتية أنها شديدة الضوء.

التفسير: لقد بين الله تعالى بوصف الشمس وهّاجًا أن ضوءها وحرَّها ذاتيّانِ. القمر لا يمكن أن يسمى وهّاجًا لأنه لا يتّقد، إنما الشمس هي التي تتّقد كما تتّقد النار. لقد خلق الله تعالى في الشمس عنصر "الراديوم" (Radium)، وعندما تنجذب ذراتها إلى الداخل نتيجة قوة الجاذبية تُحدث ضوءًا وحرًّا كما تؤدي إلى اتقاد النار بشكل مستمر.

إن صفة كون الشمس وهّاجة لغنية عن البيان. تبعد الشمس عن الأرض قرابة تسعين مليون ميل (Lexicon Universal Encyclopedia: SUN)، ومع ذلك يصل حرها إلى الأرض، ويبلغ في الصيف حدًّا لا يقدر بعض الناس على احتماله ويموتون. لقد نُشر خبرٌ قبل أيام أن الخيول في "لاهور" تسقط خلال سيرها من شدة القيظ وتموت. كما ورد خبر من أمريكا أن عشرات الناس أصيبوا بالجنون من شدة الحر وأرادوا القفز من المساكن العالية. فثبت أن الله تعالى قد جعل الشمس بالفعل وهّاجة.. أي يصل حرّها من بعيد. إذًا، فقوله تعالى ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ إشارة إلى أمرين: أولهما: أن ضوء الشمس وحرّها ذاتيانِ، وثانيهما أن حرّها يُحَسّ من بعيد.

ومن المنافع الكثيرة للشمس أن حرّها وضوءها يمدّانِ الأرض بقوة الإنبات. علمًا أن حراثة الأرض لا تستهدف تليين تربتها فقط، بل تقليبها جيدًا أيضا، لأن بعض عناصر الأرض القادرة على الإنبات لا تعمل جيدًا إذا لم تتعرض للشمس مرة بعد أخرى، وبالتالي لا يكون الزرع جيدًا، ولكن إذا قلبت تربة الأرض جيدًا وتعرضت لأشعّة الشمس مرة أخرى اكتسبت قوة الإنماء من جديد؛ ولذلك تُصنَع اليوم محاريث تحرث الأرض عميقًا وتجعل أسفلها عاليها. باختصار إن الشمس شديدة التأثير على الزروع، وإذا لم يصل حرُّها وأشعّتُها إلى الأرض فقدت قوة الإنبات.

وسيُعتبر قوله تعالى ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ إشارةً إلى يوم القيامة من حيث إن الشمس تحترق بنفسها، والشيء الذي يحترق بنفسه يفنى في النهاية، ومن الواضح أن فناء الشمس سيُؤدي حتمًا إلى تغيُّر كبير في النظام الشمسي، ولذلك نرى أن كبار علماء الفلك أخذوا يؤمنون بالقيامة، إذ يقولون إن الشمس تنكمش باستمرار وستظل تنكمش حتى يأتي يوم تصبح فيه عديمة الجدوى للأرض، كما ستفنى معها الكواكب الأخرى في النظام الشمسي.

غير أن هؤلاء العلماء يرون أن حرارة الشمس لا تقل بل تزداد، وكلما انكمشت إلى مركزها ازدادت حرارةً. ويبدو من الحديث أيضًا أنه عندما تأتي القيامة تشتد حرارة الشمس.○

أما نظرًا إلى موضوع غلبة النبي ﷺ فأرى أن قوله تعالى ﴿سراجًا وهّاجًا﴾ يتضمن إشارة خفية إلى هجرة النبي ﷺ، حيث قد نبه الله تعالى الكافرين من أهل مكة أن محمدًا (ﷺ) مقيم بين ظهرانيكم الآن وتترعجون منه بحجة أنه يعيب آلهتكم وينشر دعوته بينكم، وينهاكم عن اتباع آبائكم، وتثيرون ضجّة كلما وعظكم ودعاكم إلى أعمال البر والتقوى، وتريدون طرده من بلدكم إن استطعتم لتتخلصوا منه، ولكنكم لا تعرفون أننا قد جعلناه لكم ﴿سراجًا وهّاجًا﴾، أي أنه سيذهب بعيدًا عنكم في يوم من الأيام، ومع ذلك لن تنجوا من حرّه، بل سيصلكم حرُّه بدون انقطاع وسيظل ضوؤه يبدّد الظلمة من أجل الأرواح السعيدة منكم.

أما نظرًا إلى موضوع غلبة القرآن الكريم فيعني قوله تعالى ﴿سراجًا وهّاجًا﴾ أن مركز القرآن سوف يصبح بعيدًا عنكم أيها الكافرون، ومع ذلك لن تكونوا في معزل عن تأثيره، بل سيصل تأثيره من بعيد أيضًا ويتغلب عليكم.

واعلم أن الله تعالى عندما يبعث نبيًا تحدث ضجة كبيرة في الدنيا ويتحلى المؤمنون بإخلاص مدهش فلا يرتاحون بالاً ما لم ينشروا دعوته ويبلّغوا الناس تعاليمه. إنهم

○ ورد في الحديث: "تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق." (زيادة الجامع الصغير للسيوطي)

يتعرضون للشتائم والسباب، ومع ذلك لا يتوقفون عن عملهم، بل لا يبرحون ملازمين لقومهم من أجل هدايتهم؛ فمثلا كنا نسمع في زمن المسيح الموعود عليه السلام من أفواه المعارضين جملة واحدة مرارًا بأن الأحمديين لا يمتنعون عن مطاردتنا. هذا ما يؤكده الله تعالى هنا ويقول ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.. أي أننا قد جعلنا شمسًا لن يبرح حرُّها وضوؤها يصِلانكم حتى من بعيد. هذا أولاً.

وثانيًا: تتضمن هذه الآية الإشارة إلى كون رسالة النبي ﷺ عالمية حيث بيّن الله تعالى أنكم سترون تعاليم محمد ﷺ تنتشر في العالم كله كما ينتشر ضوء الشمس في الدنيا كلها. تبكون على انتشار الإسلام في مكة، ولكنكم سترون بعد سنوات أن محمدًا ﷺ سيصبح ﴿سراجًا وهَاجًا﴾، فيغطي ضوؤه وجه المعمورة كلها.

وثالثًا: وفي وصول الحر والضوء من مكان بعيد إشارةٌ إلى امتداد فيوض النبي ﷺ من حيث الزمن أيضًا حيث بين الله تعالى أن زمن فيوضه ممتدّ جدًّا، وكما أن الشمس المادية ستظل تسد الحاجات المادية لأهل الدنيا إلى يوم القيامة كذلك ستمد الفيوض الروحانية العالم باستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

المُعْصِرات: السحائب تعتصر بالمطر، واحدها مُعْصِرة. والمُعصِرة أيضًا الريح التي بها إعصار حيث يقال: أعصرتِ الريح: جاءت بالإعصار. (الأقرب)

ومع أن المُعصِرة قد تعني الرياح كما قال بعض الصحابة (الطبري)، ولكن المُعصِرة لغةً هي الريح التي فيها إعصار، وهذا المعنى لا ينطبق هنا تمامًا، فالمعنى الأكثر انطباقًا هنا هو السحائب التي تتحلب بالماء وتعتصر بالمطر. غير أن الإعصار لما كان يعني لغةً عصر الشيء واستخراج رحيقه، فيمكن إطلاق المعصرات على الرياح الشديدة التي تحوّل بخار الماء فيها ماءً. على كل حال. قد قال بعض الصحابة إن

﴿المعصرات﴾ هي الرياح، وقال بعضهم إنها السحب. وقد رجّح معظم المفسرين المعنى الأخير لأنه هذا هو معنى المعصرات لغةً. (الطبري، فتح البيان، ابن كثير)

ثَجَّاجًا: ثَجَّ الماءُ: سالَ. والثجّاج من المطر: السيّالُ الشديدُ الانصبابِ. (الأقرب)

التفسير: قد تحدث الله ﷻ من قبل عن الشمس، أما الآن فيتحدث عن السحب ليبين أن الأرض تتهيأ وتصبح نافعة بمساعدة هاتين الظاهرتين، بمعنى أنها إذا تهيأت بتأثير السراج الوهّاج، نزل عليها الماء من المعصرات، فأخذ نباتها في النماء.

كما بين الله تعالى هنا أن وهج الشمس كما يجهز الأرض للإنبات، كذلك يتسبب في تكوُّن السحب أيضًا. فما هي السحب يا ترى؟ إنها ليست إلا بخار مياه البحار والأنهار والجداول وغيرها التي ترتفع في الجو بحرارة الشمس، ثم تنـزل إلى الأرض بعد أن تتحول ببرودة الجو ماءً سائلاً مرة أخرى. فإنك لو وضعت الماء على النار أخذ يتبخر كأنه دخان، ولو تركته وقتًا طويلاً تبخر كله، كذلك تتبخر مياه البحار وغيرها عندما تتعرض لحرارة الشمس، فترتفع وتجتمع في الجو شيئًا فشيئًا، ثم إن الرياح تأتي بها وتنـزلها على الأرض على شكل مطر. إذًا، فإن السراج الوهاج نفسه يمهد الأرض من ناحية، ومن ناحية أخرى هو نفسه يُنـزل الماء عليها من السماء؛ وهذا يعني أن الحر الذي يسبب ضيقًا للإنسان هو نفسه يهيئ له أسباب البرد والراحة أيضًا.

أما موضوع القيامة فتشير هذه الآية إليها من حيث إن الله تعالى قد جعل لكل شيء نتيجة. فإن الشمس تتّقد في السماء وتؤثّر على الأرض، والنتيجة أنها تصبح جاهزةً لإخراج نباتها وخضرتها، ثم إن الشمس نفسها ترفع بحرارتها بخار الماء، والنتيجة أنها تتحول إلى سحب تنـزل على الأرض مطرًا. ومن المحال أن تكون سلسلة السبب والمسبِّب هذه المستمرّة في الكون من عند الله لغوًا وعبثًا، بل لا بد لها من نتيجة عظيمة، ولكنا لا نراها في هذه الدنيا، فلا بد لنا من الاعتراف بوجود حياة أخرى تظهر فيها نتائج هذه الأمور العظيمة حتى يقول الإنسان إن الله تعالى لم يخلق هذا الكون العظيم عبثًا.

أما القرآن الكريم والرسول ﷺ فتشير إليهما هذه الآية من حيث إن الله تعالى قد بين هنا أنكم تتضايقون مما يقوله لكم هذا الرسول والقرآن، وتقولون إن القرآن والرسول قد أحدثا في المجتمع شغبًا وفسادًا، ودفعا بالقوم إلى النـــزاع والحرب، وأدّيا إلى الفُرقة بين الأب وابنه، والأم وابنتها، والأخ وأخيه، والمرء وصاحبه؛ وكأنهم يقولون إن مجيئهما يُشعرنا بحرارة محرقة كما يشعر المرء بحرارة من الشمس، فيردّ الله عليهم بأنكم تشعرون اليوم بحرارة من قِبله بلا شك، ولكن هذه الحرارة نفسها ستتحول في النهاية إلى مطر رحمة. الحق أن الله تعالى ينمّي بهذه الحرارة مواهبكم ويزوّدكم بقوى جديدة، ولكنكم لا تشعرون بذلك، فتتأذون من هذا التغير الحاصل فيكم. ألا ترون أن الطبيب حين يجري العملية الجراحية يشعر المريض بأذى المِشرط، ولكن المِشرط نفسه يتسبب في شفائه وراحته، كذلك تشعرون من قِبل محمد ﷺ حرًّا وضيقًا وأذى، ولكن هذه الحرارة والوهج والضوء نفسها ستؤدي إلى راحتكم وسكينتكم. وكما أن حرارة الشمس تصعد بالسحب ثم تُمطرها على الأرض ماءً، كذلك ستصعد من قلوبكم سحائب الإيمان والعرفان في يوم من الأيام وتتدفق من صدوركم عيون العلم والمعرفة التي تنتشر مياهها في العالم كله.

لقد ذكّرتْني كلمةُ ﴿مَاءً ثَجّاجًا﴾ برؤيا رأيتُها قبل أيام حيث أُريتُ فيها القلب الإنساني على صورة تَنُّورٍ، ورأيت أن ماء العرفان الإلهي أخذ يتدفق منه ويغمر الدنيا. وعندما رأيت الماء يتدفق قلت إن هذا الماء سيظل يتدفق ويغمر الأرض حتى لن يبقى شبرٌ واحد منها لم يصله ماء العرفان الإلهي. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.. أي أن حرارة هذه الشمس الروحانية ستمهّد أرض قلوبكم، وحرارتها هي التي ستصعد بالبخار الذي سيتحول إلى سحب تمطر على أرض قلوبكم، وستغطي مياهه الدنيا كلها.

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

حَبًّا: الحَبُّ والحَبّة يقال في الحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات. (المفردات)

وورد في اللسان: "الحبُّ: الزرعُ صغيرًا أو كبيرًا."

نَبَاتًا: النبتُ والنباتُ: ما يخرُج من الأرض من الناميات سواءٌ كان له ساقٌ كالشجر أو لم يكن له ساق كالنَجْم، لكن اختصَّ في التعارف مما لا ساق له، بل قد اختص عند العامة بما يأكله الحيوان. (المفردات)

جَنّات: جمعُ جَنّة وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ. (المفردات)

ألفافًا: جمعُ لفٍّ، واللِّفُّ: الصِّنفُ من الناس، تقول: ضدَّه ألفافٌ من الناس. واللِّفُّ: الروضَةُ الملتفّةُ النباتِ والبستانُ المجتمِعُ الشجر. (الأقرَب)

التفسير: عند نــزول الماء من السماء تبدأ ظاهرةُ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّات أَلْفَافًا﴾.. أي تخرج من الأرض أنواع الحبوب والخضار والنباتات والبساتين الملتفة الشجر. فالله تعالى يبين هنا أن الشمس إذا طلعت عرفتم نتيجة طلوعها هذه الظاهرة، أعني أن الشمس تمدّ الأرض بأشعّتها وتمهّدها، كما تسحب ماءها إلى فوق؛ وهذا يعني أن الشمس تعطي الأرض شيئًا، وتأخذ منها شيئًا، ثم تعيده إليها ثانية على شكل مطر، وهكذا تصبح الشمس مصدر رحمة للناس وبركة، فتُزرَع الأرض، فتُنبت بساتين غنّاء وخضروات وحبوبًا وغيرها مما يحتاج إليه الناس. إنه لنظامٌ هائل خلَقه الله تعالى؛ حيث خلق الشمس ثم جعل الأرض صالحةً لتقبُّل أشعّتها رغم ما بينهما من بُعد يبلغ ملايين الأميال، وجعَل حرارة الشمس قادرة على حمل الماء من الأرض. ثم أجرى الرياح التي تُنــزل من السحاب مطرًا، فتُنبت الأرض زرعًا وحبوبًا وبساتين وفواكه، وفي كل منها منافع للناس، بعضها ذو نفع قصير وبعضها ذو نفع طويل. فالغلال مثلاً يبدأ الإنسان في استهلاكها بمجرد أن تنبت، ثم يزرعها ثانية ثم يستهلكها مرة أخرى. ولكن هناك أشياء أخرى لا يحتاج المرء إلى زرعها مرارًا ومثالها النباتات المثمرة التي تقتات عليها المواشي كما يأكل الناس من ثمارها سنوات وسنوات. ثم هناك أشياء تنفع الناس مدة أطول من ذلك

كالبساتين التي تنفع الناس بثمارها قرنًا أو قرنين بل ثلاثة قرون أحيانًا. يذكّر الله تعالى هنا عباده بهذه النعم ويدعوهم إلى التدبر فيها ليروا ما إذا كان تعالى قد خلقها لغوًا وعبثًا. الحق أن التدبر سيكشف عليهم أن من المحال أن يكون هذا الكون الهائل قد خُلق لغوًا وعبثًا، بل لا بد أن الله تعالى قد خلقه لغاية ما، ولا بد أن ثمة هدفًا عظيمًا أراده الله تعالى بخلق هذا النظام الواسع الهائل، ولا يجوز القول إن الإنسان قد خُلق عبثًا وليس وراء خلقه هدف ولا غاية.

أما إذا فسّرنا هذه الآية بمعنى روحاني، فالمراد أن محمدًا ﷺ والقرآن الكريم كلاهما سراج وهّاج تستاءون اليوم من حرّه الشديد وضوئه المبهر، ولكن هذا الحرّ والضوء نفسهما سيعملان عمل السحاب والضوء لتطهير قلوبكم مما فيها من خبث وفساد. ماذا تعمل الشمس يا ترى؟ إنها تبخّر الماء العكر الفاسد إلى السماء ثم ترسله إلى الأرض ماءً مصفى ثانية، كما أن ضوءها يقتل أنواع السموم وتزود شتى الأشياء بطاقات جديدة. لا شك أن عندكم تعاليم إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، ولكن ماء الوحي الموجود عندكم كله قد صار مكدّرًا آسنًا فاسدًا لا يصلح للشرب، وهذا السراج الوهاج الذي تستاءون من وهجه وحرّه سيحوّل مياه هذه "المستنقعات" بخارًا يصعد إلى السماء، ثم ينـــزل هذا البخار سحابًا يمطر على أراضي قلوبكم، فتتدفق منها العيون التي ستروي العالم؛ كما أن ضوء هذا السراج الوهّاج سيبدّد ظلمات قلوبكم ويهبكم نور البصيرة. وبتعبير آخر إن ماء الوحي الإلهي الذي ترفضونه الآن سيتدفق من قلوبكم تلقائيًا ويصبح ماء ثجاجًا يروي الدنيا، فتخرج به من أراضي قلوبكم حبوب وغلال وأعشاب وبساتين.. أي ستجنون منه فوائد عاجلة وفوائد طويلة المدى، أو المعنى أنكم ستأتون بمعارف تنفع العارفين كمعارف التصوف وعلوم القرآن الكريم، أو تظهر على أيديكم علوم مادية تنفع عامة الناس مثل العلوم والجغرافيا والرياضيات والهندسة وما إلى ذلك.

﴿وَجَنَّات أَلْفَافًا﴾.. أي تنبت على أيديكم بساتين تنفع الناس زمنًا طويلاً، ومثاله علم الكتابة الذي قام المسلمون بتطويره ونشره في العالم.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٨﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٩﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿٢٠﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

يوم: اليوم: الدهر، يقول الشاعر:

"يوماه يومُ ندًى ويومُ طِعانِ"

أي لا يأتي على الممدوح إلا وقتان، فإما أنه يكون منهمكًا في جود وسخاء أو في قتل أعداء.

كذلك تقول العرب: "يوماه يوم نُعمٍ ويومُ بؤسٍ.. فاليوم ههنا بمعنى الدهر أي هو دهرَه كذلك... وقالوا: أنا اليوم أفعل كذا، لا يريدون يومًا بعينه، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر، حكاه سيبويه، ومنه قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.... وقد يراد باليوم الوقتُ مطلقًا، ومنه الحديث: "تلك أيام الهَرْج" أي وقتُه" (لسان العرب)

الفصل: فصَل الشيءَ فصلاً: قطَعه وأبانَه. والفصل: الحاجز بين الشيئين؛ الحدُّ بين الأرضين؛ الحقُّ من القول؛ القضاء بين الحق والباطل. (الأقرب)

ميقاتًا: الميقات: الوقتُ؛ وقيل الوقتُ المضروبُ للشيء؛ الموعدُ الذي جُعل له وقت، وجمعُه المواقيت. (الأقرب)

يُنفَخ: النفخُ: نفخُ الريح في الشيء. (المفردات)

الصُور: صارَ الرجلُ يصُور صورًا: صَوَّتَ؛ والصُور بالضم: القرنُ الذي يُنفَخ فيه. (الأقرب).

والبعض اعتبر الصُور جمع الصُورة، وهي: الشكلُ؛ كلُّ ما يُصوَّر مشبَّهًا بخلق الله من ذوات الأرواح وغيرها؛ النوعُ؛ الصفةُ. (الأقرب)

أفواجًا: جمعُ فوجٍ وهو الجماعة من الناس أو الجماعة المارّة السريعة. (الأقرب)

سُيِّرتْ: سيَّره: جعَله سائرًا؛ وسيَّره من بلده: أخرجه وأجلاه. (الأقرب)

الجبال: جمعُ الجبل وهو: كلُّ وَتَدٍ للأرض عظُم وطالَ؛ خلافُ الساحل؛ سيدُ القومِ وعالِمُهم. (الأقرب)

سرابًا: السراب: ما تراه نصفَ النهار من اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض. وفي الكليات: السراب فيما لا حقيقةَ له كالشراب فيما له حقيقةٌ. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿يومَ يُنفَخ في الصور﴾ بدلٌ من ﴿يومَ الفصل﴾.

وفتح السماء وكونها أبوابًا يعني، عادةً، نــزول العذاب إلا إذا كانت هناك قرينة صارفة عن هذا المعنى. فإذا رأى أحد في الرؤيا أن السماء قد انشقت وقد صارت فيها ثقوب، ولم يكن هناك قرينة أخرى، كان المراد اقتراب العذاب. أما إذا رأى أحد أن السماء قد انشقت وأن الملائكة يسبحون الله تعالى فرحين فهو إشارة إلى بعثة نبي.

أما قوله تعالى ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فاعلم أن السراب هو ما يتراءى لك كالماء على سطح الرمال عند الظهيرة نتيجة انعكاس أشعّة الشمس. فبما أن الجبال تخرج من الأرض، والرمال أيضًا تكون من الأرض، لذا يقول الله تعالى هنا أن دمارًا شديدًا سيحل بالأرض يومًا حتى تخرّ الجبال وتدمر الأرض تمامًا، ذلك لأن الجبال أوتاد الأرض، فإذا خرّت أوتادها شَملها الدمار. يبدو أن حرارة باطن الأرض ستشتد مرة أخرى عند القيامة حتى تهدّ الجبال الموجودة على الأرض فتدمّرها بدلاً من أن تكوّن عليها جبالاً جديدة.

لقد بينتُ من قبل أن ﴿يوم الفصل﴾ يعني يوم القيامة كما يعني غلبة القرآن أو غلبة النبي ﷺ. والحق أن ظهور كمالات النبوة أو الوحيِ شيء واحد وإن كان ثمة اسمان.

على كل حال إن يوم الفصل يعني يوم الانفصال، والمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أن يوم الفصل وقت محدد. وقد سبق أن بينتُ أن ﴿يوم الفصل﴾ يعني غلبة الإسلام أيضًا، إلا أن الله تعالى قد أشار بهذه الكلمات إلى أمر

آخر أيضا، وهو أنه تعالى يقول هنا لأهل مكة كما أن محمدًا سيضطر للهجرة من بينكم كذلك فتضطرون للانفصال عنه حين يجعله الله تعالى غالبًا عليكم، فيكون ذلك اليوم يوم الفصل لكم.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأمر أيضًا في سورة التوبة التي هي في الحقيقة جزء من سورة الأنفال التي تستهلّ بقول الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الآيات: ١-٥).

لقد أعلن الله تعالى هنا أنه يسمح للكافرين بالإقامة في مكة أربعة أشهر، وبعد انقضاء هذه المدة لا بد لهم من مغادرتها. وهذا هو يوم الفصل الذي قد أتى على الكافرين والذي قد تم الإعلان عنه بعد فتح مكة. وهذا يعني أن فتح مكة ليس إلا يوم الفصل. وهذا ما يذكّر الله تعالى به الكافرين بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.. أي يوشك أن يأتي عليكم ذلك اليوم الموعود الذي تضطرون فيه لمغادرة بيوتكم وأوطانكم.. أي سيأتي يوم لن يكون فيه المسلمون غالبين فحسب، بل سينالون غلبة عظيمة بحيث يأمرون المشركين علنًا بمغادرة مكة إذ لم يعد هناك ما يربط الفريقين. والحق أن مثل هذه الغلبة لا تتيسر في ظروف عادية وإنما تُنال في ظروف غير عادية. لقد استمرت غلبة المسلمين في إسبانيا مدة طويلة، ومع ذلك لم يستطيعوا إخراج المسيحيين منها. وقد نالوا الغلبة في بلاد أخرى أيضًا ولكنهم لم يتمكنوا من إجلاء أهل الأديان الأخرى منها. وقد حكموا الهند زمنًا طويلاً ومع

ذلك لم يقدروا على طرد الهندوس منها. والهندوس قوة كبيرة في الهند اليوم ولكنهم أيضًا لا يستطيعون طرد المسلمين منها، بل ليس بوسع الإنجليز الذين يحكمون الهند اليوم أيضًا أن يأمروا الهنود بمغادرتها. ولكن الله تعالى يقول هنا: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.. أي يوشك أن ينال المسلمون انتصارًا عظيمًا يكون يوم الفصل بين الحق والباطل، بل يكون يوم الفصل بين المشركين والمؤمنين. وهذا هو المعنى الذي تشير إليه سورة التوبة أيضًا حيث قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.. أي قُولوا للمشركين الذين عاهدتموهم بأنه سيأتي يوم ينال فيه المسلمون غلبة، وتصبحون مغلوبين صاغرين، وعندها لن يسمحوا لكم بالإقامة في مكة أيضًا، بل يقولون لكم اخرجوا من هنا، فتفرّون منها أذلةً مهانين. فقولوا لهم أيها المسلمون قد حان الوقت لتحقُّق هذه النبوءة. وفي هذه الحالة لا يُعتبر قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إشارةً إلى صلح الحديبية الذي تمّ مع المشركين، وإنما يكون قوله تعالى ﴿عاهدتم﴾ إشارةً إلى العهد المذكور في سورة النبأ، حيث قيل أيها الكافرون، سيأتي يوم تُخرَجون فيه من مكة.

وقد سمّيت هذه النبوءة عهدًا من حيث إن النبي حين يدلي بنبوءة تتعلق بالكافرين، فليس المؤمنون وحدهم الذين يريدون أن يروا تحقّقها بأمّ أعينهم، بل إن الأعداء أيضًا يثيرون الاعتراض إذا لم تتحقق لسبب ما، ومن هنا تُعَدُّ مثل هذه النبوءة نوعًا من العهد. إذًا، فقوله تعالى ﴿عاهدتم﴾ في سورة البراءة إشارةٌ إلى النبوءة المذكورة في سورة النبأ حيث بين الله تعالى أنها قد ثبتت براءة الله ورسوله.. بمعنى أنه لم يبقَ الآن مجال للمشركين أن يقولوا إن تلك النبوءة لم تتحقق، إذ قد تحقق ما وعدناهم به بأن غلبة المسلمين موشكة وقد اقترب اليوم الذي يصبح فيه المسلمون غالبين عليكم فلن يسمح لكم بالإقامة في مكة بعدها.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.. أي لا شك أننا وفينا بوعدنا بغلبة الإسلام وطردكم من هذه البلدة، ولكن وجودكم هنا ضروري لبعض الوقت حتى تروا غلبة الإسلام

من ناحية، وحتى يتم طردكم من هنا تحقيقًا للنبوءة، لذا أعطيناكم مهلة أربعة أشهر لتسيحوا في الجزيرة العربية خلال هذه المدة وتروا بأم أعينكم أن كلمات الله قد تحققت، وأن وعد غلبة الإسلام قد أُنجزَ وأن الله تعالى مخزي الكافرين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾. لقد اختار الله تعالى يوم الحج الأكبر لهذا الإعلان لأنه لو تم في مناسبة أخرى لم يصل إلى العرب كلهم في أربعة أشهر أيضًا. كان العرب يأتون للحج من كل أنحاء الجزيرة لذا اختار الله تعالى مناسبة الحج الأكبر لهذا الإعلان ليصل إلى العرب جميعًا، ولتتحقق بذلك مهلة الأربعة أشهر أيضًا، وليرى المشركون بأم أعينهم غلبة الإسلام في كل طرف وصوب في طريقهم عند العودة بعد هذا الإعلان. والحق أن اختيار هذا التوقيت للإعلان لدليل على أن الرحمة غالبة في تعاليم الإسلام، حيث تم الإعلان في مناسبة جمعت العرب من كل طرف وصوب. وكان مضمون الإعلان أن الله تعالى ورسوله بريء من أن يتهمه المشركون، إذ ليس بوسعهم، بعد رؤية هذه الغلبة العظيمة بأم أعينهم، أن يتهموا الله تعالى بعدم تحقُّق نبوءة الغلبة المذكورة في سورة النبأ؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.. أي إذا لم تتوبوا أيها المشركون الآن فاعلموا أنكم لم تقدروا على أن تُعجزوا الله في الماضي فأنى لكم أن تُعجزوه في المستقبل.

بعدها يقول الله تعالى للمؤمنين ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.. وهذا القول الرباني دليل على صحة ما بيّنتُه آنفًا حيث قال الله تعالى من قبل ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.. فالله تعالى يأمر أولاً المشركين، رغم المعاهدة، بالخروج من مكة، بينما يوصي المؤمنين بعد ذلك بأن يوفوا بكل أمانة بعهدهم مع المشركين الذين تعاهدوا معهم

و لم ينقضوا عهدهم، مما يعني أن هذه المعاهدة هي غير المعاهدة المذكورة من قبل. إن المعاهدة المذكورة في قوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً...﴾ هي معاهدة دنيوية، أما المعاهدة المذكورة في الآية السابقة فهي معاهدة روحانية متضمنة في وحي الله تعالى ولكنها غير مصرحة، وكأن الله تعالى قال إنه إذا لم يتحقق ذلك العهد فمن حق المشركين أن يعترضوا علينا ويقولوا لِمَ لَمْ يتحقق ذلك العهد. علمًا أن العهد نوعان: أوّلهما ما يكون من طرف واحد كأن يعاهد المرء نفسه أنه سيفعل كذا، وإذا لم يستطع أن يفعل ما فرض على نفسه فلا يحق لغيره أن يقول له: لم لم تفعل ما قلت، وثانيهما ما يكون بين طرفين أو يكون ذا صلة بفريقين، وإذا لم يتحقق فمن حق الطرف الآخر أن يعترض على عدم تحققه ويقول للآخر لقد وعدت بكذا ولكنك لم تفعله. والنبوءات تكون من قبيل النوع الثاني من المعاهدات، فإذا لم يتحقق نبأ من النبوءات فمن حق الكافرين أن يقولوا للمؤمنين إذا كان من عند الله تعالى فلِم لَم يتحقق؟

إذًا، فورود جملة ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الآيتين، وكونُ الله تعالى قد أمر المؤمنين في آية أن يؤتوا المشركين المعاهدين مهلة أربعة أشهر، بينما أمرهم في آية أخرى أن يتموا عهدهم مع المشركين الآخرين، يدل على أن المعاهدة الأولى روحانية وأن المعاهدة الثانية مادية، ويأمر الله تعالى المؤمنين بصدد المعاهدة المادية بعدم نقضها إلا أن ينقضها الكافرون، أما إذا لم ينكثوا عهدهم فعليكم أن تبذلوا كل ما في وسعكم للوفاء به إلى مدته. ويتضح من قول الله تعالى ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ أن هذه المدة غير محدودة، قد تكون سنتين أو أربعًا أو ستًا، فعلى المسلمين أن يفوا بالمعاهدة أيًا كانت مدتها.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ يشير إلى غلبة القرآن وغلبة النبي ﷺ حيث أخبر الله تعالى الكافرين أن المؤمنين سيغلبونهم حتى إنهم يخرجونهم من مكة.

أما قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ فيخبر عن موعد تلك الغلبة. والحق أن نبوءة مجيء الناس أفواجًا قد تحقق عند فتح مكة، بل الواقع أن صلح

الحديبية هو الذي قد أدى إلى انقلاب عظيم في الجزيرة العربية، و لم يكن فتح مكة إلا نتيجة لذلك الانقلاب، إذ كان العرب قد بدأوا يدركون بعد صلح الحديبية أنه لم يبق أمامهم إلا خياران؛ إما أن ينضموا إلى محمد ﷺ أو إلى أهل مكة. وبالفعل تحالف بعضهم مع المكيين وبعضهم مع المسلمين.

إذًا، ففي حالة اعتبار نفخ الصور إشارة إلى صلح الحديبية فإن هذه الآيات تعني أنه سيقع حادث هام يؤدي إلى الاضطراب في القبائل العربية، فيفكرون في الدخول في الإسلام علنًا أو الانضمام إلى المكيين. وبالفعل أخذ العرب يدركون عند صلح الحديبية أن الأمر قد استفحل الآن فلا مناص لهم من أن ينضموا إلى محمد ﷺ أو إلى المكيين. فتحالفت بعض القبائل مع النبي ﷺ وبعضهم مع قريش. وهذا يعني أن أساس "يوم الفصل" قد وُضع لدى صلح الحديبية.

وفتح السماء يعني نزول العذاب، وسيعني قوله تعالى ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ في هذه الحالة أنه سينـــزل على الكافرين صنوف العذاب من السماء وأنواع الرحمة على المؤمنين.. وكأن السماء ستصبح أبوابًا.. أبواب ينـــزل منها الخير وأبواب ينـــزل منها العذاب. لا شك أن الخير كان ينـــزل للمؤمنين من السماء قبل صلح الحديبية، ولكنه كان عندها يشبه الشيء الذي ينـــزل من الثقوب، أما بعد صلح الحديبية فبدأ الخير ينـــزل عليهم بكثرة كأنه ينـــزل من أبواب كبيرة. كما أخذ العذاب يحل بالكافرين بكثرة. فالحق أنه بعد ذلك الحادث أخذت الرحمة تنـــزل من السماء بكثرة كما أخذ العذاب أيضًا ينـــزل منها بكثرة.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾. ومن معاني الجبال أسياد القوم وزعماؤهم، وعليه فالمراد من تسيير الجبال أن صناديد العرب وزعماءهم الذين يفخرون بهم سيُخرَجون من بيوتهم، ويصبحون كالسراب، أي يتضح لقومهم أنه لا يوجد بين زعمائهم أحد يصلح لقيادتهم بطريق سليم، بل كلهم فاشلون إزاء محمد ﷺ.

علمًا أن الله تعالى قد استعمل هنا لفظ ﴿سرابًا﴾ لحكمة عظيمة وهي أن السراب يتراءى للناظر عند منتصف النهار، وقد أشار الله تعالى بذلك إلى أن شمس محمد ﷺ

عندما تصعد إلى نصف النهار فستبهرهم بلمعانها، وسيدركون عندها مدى فشل زعمائهم وغبائهم إزاء محمد ﷺ. وبالفعل أخذت علامات انتصار الإسلام تلوح في الأفق إثر صلح الحديبية فورًا، وأكمل فتح مكة عملية الانتصار. ومن أجل ذلك قد بين الله تعالى هنا أنه سينكشف على الكافرين يومئذ أن زعماءهم كلهم سراب إزاء محمد ﷺ وأنهم يدفعون قومهم إلى الخزي والذلة والدمار، وليسوا بقادرين على النهوض بهم. وهذا ما حدث فعلاً.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٢﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

جهنم: يقال: بئرٌ جهنّمُ: أي بعيدةَ القعرِ، وبه سُمّيَت جهنّمُ لِبُعْدِ قعرِها. (اللسان)

مِرْصادًا: المرصاد: المكانُ الذي يُرصَد فيه العدوُّ؛ الطريقُ. (الأقرب)

مآبًا: آبَ يؤوبُ مآبًا: رجَع. والمآب: المرجَع والمنقلَب. (الأقرب)

وقال صاحب "المفردات": "الأَوبُ ضربٌ من الرجوع، وذلك أن الأوب لا يقال إلا في الحيوان الذي له إرادةٌ، والرجوعُ يقال فيه وفي غيره."

التفسير: قال قتادة في تفسير هذه الآية: "يعني أنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتُبس" (ابن كثير). إذًا، فإن قتادة يرى أن هذه الآية إشارة إلى جسر الصراط.

أما إذا أُريدَ من جهنم تلك التي تكون في الآخرة فلا بد من الاعتراف بأنها تبدأ في هذه الدنيا نفسها، وإلى الأمر نفسه يشير الحديث النبوي الشريف: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" (البخاري: كتاب الصوم، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه).. أي أن الشيطان يظل نشيطًا في إغواء الناس في الدنيا بحيث لو تغافل المرء قليلاً صرعه الشيطان. غير أن الله تعالى يعلن هنا أيضًا: ﴿للطاغين مآبًا﴾.. أي أن جهنم مقام العصاة المتمردين فقط. وقد أشار الله تعالى إلى المعنى نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى

الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(النحل:١٠٠-١٠١).. أي ليس للشيطان غلبة على الذين يؤمنون بربهم ويتوكلون عليه، إنما يتغلب الشيطان على الذين يصادقونه ويحبونه ويشركونه بالله تعالى. إذًا، فقوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قد شرحه الرسول ﷺ بقوله إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، أما قوله تعالى ﴿للطاغين مآبًا﴾ فبيّن الله تعالى فيه أن جهنم وإن كانت تهاجم كل إنسان، مؤمنًا كان أم كافرًا، ويكون هجومها على شخص بطريق وعلى آخر بطريق آخر، إلا أنها ليست مصيرًا ومُقامًا إلا للطاغين العصاة. وتدعم الآية الأخرى أيضًا هذا المعنى حيث بين الله تعالى أن الشيطان إنما يتغلب على الكافرين لا على المؤمنين.

فسواء اعتبرنا جهنم طريقًا أو مرصادًا فإنها توصل الإنسان إلى الله تعالى في النهاية. فما لم يختر المرء لنفسه جهنم.. أي طريق المحن والأذى في سبيل الله تعالى.. لم يصل إليه ﷻ، أما إذا كان قد اقترف بعض الذنوب فلا بد له من السير في طريق الأذى بعض الوقت كعقاب، سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، وبعدها سيحظى بلقاء الله تعالى. والله أعلم بالصواب.

علمًا أن كلمة ﴿للطاغين﴾ حال للفظ ﴿مَآبًا﴾، والتقدير: إن جهنم كانت مرصادًا ومآبًا حال كونها للطاغين. أو أن قوله تعالى ﴿للطاغين مآباً﴾ يُعتبر صفةً للفظ ﴿مرصادًا﴾.

لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

أحقابًا: الأحقاب جمعُ حُقْب، ومن معانيه: ثمانون سنة، ويقال أكثرُ من ذلك؛ الدهرُ؛ السَّنةُ؛ وقيل: السنون. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿لابِثِينَ﴾ حالٌ لـ ﴿لِلطَّاغِينَ﴾، والمعنى أن الطاغين يكونون في جهنم لابثين فيها سنوات أو دهورًا أو قرونًا.

سنتحدث لاحقًا عن هذه الآية فيما يتعلق بالآخرة، إلا أنه فيما يتعلق بهذه الدنيا فإننا نجد أن غلبة الإسلام قد استمرت قرونًا بالفعل. تزدهر بعض الشعوب في الدنيا بسرعة وتُباد بسرعة أيضًا، ولكن غلبة المسلمين استمرت قرونًا حيث ظلّوا غالبين قرابة سبعة قرون بشكل أو بآخر، وإن كان الضعف قد أخذ يتسرب إليهم في القرن الرابع، بل امتدت الفترة التي لم يكن يجرؤ فيها أحد على الوقوف في وجه المسلمين ألفَ سنة، إذ قد بدأت الشعوب الأخرى تتجاسر على الوقوف في وجههم منذ ثلاثة قرون فقط؛ وذلك حين رأت أنها قادرة على التصدي لهم. لقد أخذ المسلمون في الانحطاط منذ القرن السابع عشر الميلادي فوقف العدو في وجههم، أما قبل ذلك فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجههم قرابة ألف سنة، وكانت هذه الفترة بمنـــزلة جهنم الدنيوية لأعداء الإسلام التي ظلوا فيها يحترقون حسدًا وكمدًا.

لقد ذكرتُ عند شرح الكلمات المعنى اللغوي للأحقاب التي مفردها الحُقْب، أما الآن فأتناول تفسيرها.

لقد نقل ابن كثير في تفسيره ما رواه ابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال علي ابن أبي طالب ﵁ لهلال الهَجَري: ما تجدون الحُقْب في كتاب الله المنـــزّل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة. (ابن كثير)

وتصبح هذه المدة ثمانية وعشرين مليونا وثمانمئة ألف سنة.

وعن عبد الله بن عمرو: الحُقْب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدّون، رواه ابن أبي حاتم. (ابن كثير)

وتصبح هذه المدة أربعة عشر مليونًا وأربعمئة ألف سنة.

وقد روى ابن أبي حاتم مثله عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعدد من التابعين، إلا أنهم قالوا الحُقْب سبعون سنة. (ابن كثير)

وهذه المدة هي ما يقارب ستة وعشرين مليون سنة.

وهكذا فبضرب هذه الأعداد في العدد المقدّر من كلمة "أحقاب" نعلم المدة الإجمالية لمكوث أهل النار فيها، إذ إن الأرقام السابقة هي قيمة الحقب الواحد.

وعلى كل حال، ومهما كان العدد المفهوم من كلمة "أحقاب"، وسواء أكانت هذه المدة الإجمالية عشرين مليونًا أو أربعين مليونًا أو حتى مئة مليون سنة إلا أنها فترة محدودة في كل حال، وبالتالي ثبت من هذه الروايات أن عذاب جهنم محدود وأنه سينتهي في يوم من الأيام.

وقد شعر المفسرون أيضًا بهذا الأمر، ولذلك تجد مقاتل بن حيان يقول: "إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً﴾" (ابن كثير)، وذلك مع أن هذه الآية هي الآية ٣٠ من سورة النبأ نفسها، وقد أجمع المفسرون على نزولها دفعة واحدة، لا على فترات. إذًا فمن غير المعقول أن تنـــزل هذه الآيات من سورة واحدة في وقت واحد ودفعةً واحدة، ثم تنسخ إحداهما الأخرى.

وخالد بن مَعْدان أيضًا اعتبرها منسوخة.

ويقول ابن جرير بعد نقل هذه الروايات: "ويُحتمل أن يكون قوله ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ متعلقًا بقوله ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾، ثم يُحدِث الله لهم بعد ذلك عذابًا من شكل آخر ونوع آخر" (ابن كثير).. يعني أن أهل جهنم يلبثون فيها قرونًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، ثم بعد ذلك أيضًا يمكثون فيها، إلا أن عذابهم سيأخذ شكلاً آخر.

ثم يقول ابن جرير عن جهنم: "والصحيح أنها لا انقضاء لها."

ثم نقل ابن جرير رواية عن سالم قال فيها: "سمعتُ الحسن (البصري) يسأل عن قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود في النار. (ابن كثير)

لقد اتضح من هذه الروايات أنه قد خطر ببال هؤلاء جميعًا أن ظاهر هذه الآية يدل على عدم دوام عذاب النار، فظلوا يسعون لتأويلها بحسب عقيدتهم، تارةً باعتبار قول الله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ متعلقًا بقوله ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾، وتارةً أخرى باعتبار أن الأحقاب ليس لها عِدّة.

وفيما يتعلق بلفظ ﴿أحقابًا﴾ فليكن معلومًا أن الأحقاب من جموع القلّة؛ بمعنى أنها من الجموع التي يراد به ما بين الثلاثة إلى العشرة. لا شك أن كل جمع قلّة لا يفيد القلة بالضرورة، بيد أنه لا بد من الاهتمام لما وُضع له من معنى القلة، ما لم تصرفه قرينة عن هذا المعنى، أما بدون هذه القرينة فلا يجوز صرفه عما وُضع له، وإلا سيُفتح باب للتأويل يُبعِدنا عن الحقيقة. وهذه القرينة تكون معنوية حينًا؛ بمعنى أن الآيات القرآنية أو الشواهد الأخرى تدل عليها، وتكون ظاهرةً حينًا؛ كأن تدخل على هذه الكلمة "ال" الاستغراقية، أو تكون مضافة إلى كلمة تدل على الكثرة. أما صرف لفظ عن معناه الصحيح الموضوع له لغةً بدون قرينة فهذا غير جائز.

و"الأحقاب" يمكن أن تعني لغةً ما بين ثلاث إلى تسع سنوات. ولو اعتبرنا عدد التسعة حدًّا أقصى لمعنى الأحقاب فسنضربها في ثمانية وعشرين مليونًا وثمانمئة ألف سنة، وهو الحد الأعلى للحقب وفقًا للروايات والذي تم تقديره بثمانين سنة كل يوم فيها يعادل ألف سنة، وذلك إذا أخذنا المعنى الذي بيّنه المفسرون للأحقاب، وهي أعلى قيمة يمكن تقديرها للأحقاب على الإطلاق، وفقًا لتلك الروايات. ولكن عندنا حديث نبوي آخر يدل على أن الرواية التي تذكر أن كل سنة في الآخرة هي كألف سنة ليست قول الرسول ﷺ بل هي - على الأغلب - مما سُمع من اليهود وغيرهم. فقد روى البزاز عن أبي مسلم أبي العلاء أنه سأل سليمانَ التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: "والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً". قال: والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمئة وستون يومًا مما تعدّون." (ابن كثير، ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي: كتاب صفة أهل النار، باب من دخل النار متى يخرج، رقم الحديث١٨٦٣٢)

لقد ثبت من هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يعتقد بخروج أهل النار منها بعد مكوثهم فيها أحقابًا، ولكن الذين سبقت الإشارة إلى عقيدتهم يؤمنون بأن مكوثهم في النار أحقابًا يعني أنه لن يخرج منها أحد أبدًا. إذًا، فهذه الرواية تفند أفكارهم وتؤكد أن الرسول ﷺ كان يؤمن بخروج أهل النار منها بعد الأحقاب. أما ما ورد بعد ذلك في هذه الرواية "قال: والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمئة وستون

يومًا مما تعدّون"، فلو اعتبرناه قول الرسول ﷺ فهو أيضًا يؤكد خطأَ الذين قالوا إن كل يوم من الحقب كألف سنة، وأنهم قد نقلوا هذا المعنى بعدما سمعوه من اليهود وغيرهم. أما لو كانت هذه الجملة من قول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فأيضًا ثبت بقوله "يومًا مما تعدّون" أنه قد أراد بذلك تفنيد موقف الذين قالوا إن كل يوم من الأحقاب كألف سنة. إذًا، فقد ثبت خطأ المعنى الذي ذهب إليه هؤلاء القوم، سواء أكانت هذه الجملة من قول الرسول ﷺ أو من قول عبد الله بن عمر؛ فإنه من الصحابة الأجلاء.

والقرينة الثالثة التي تبطل موقف هؤلاء القوم هي ما رواه سالم بن أبي الجعد عن علي رضي الله عنه حيث ورد أن عليًا رضي الله عنه قال لهلال الهَجَري كيف تجدون الحقب عندكم؟ مما يدل على أنه لم يرو عن النبي ﷺ معنى خاصًا للأحقاب، ولو كان كذلك لأخبر عليّ رضي الله عنه هلالاً عن ذلك المعنى، بدل أن يسأل هلالاً عنه.

إذًا، فكل هذه الروايات والاستدلالات لا تجيز خروج أهل النار منها فحسب، بل تخبر عن خروجهم منها؛ بيد أن هذه الآية تؤكد أيضًا أنهم سيمكثون فيها مدة طويلة، فحتى لو اعتبرنا الأحقاب عشرة من الحقب، وكل حقب ثمانون سنة، لصارت هذه المدة ثمانية قرون. وهذه المدة ليست بقصيرة أبدًا لأن ساعة واحدة من العذاب تبدو طويلة جدًّا. وقد بينتُ من قبل أن من معاني الحقب القرن وأيضًا الدهر أي الزمن الطويل؛ ولو أخذنا بمعنى القرن لأصبحت هذه المدة عشرة قرون. أما إذا فسرنا الحقب بمعنى الدهر أي الزمن الطويل أصبح العذاب طويلاً جدًّا لقوله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٨)، إذ تصبح الأحقاب عندها عشرة آلاف سنة. ومهما كانت هذه المدة فلا يثبت منها أن عذاب جهنم دائم لا ينقطع. علمًا أن الله تعالى يقول في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٥)، فحتى لو اعتبرنا الحُقْبَ خمسين ألف سنة فإن عذاب النار سيظل محدودًا، ولا يثبت أنه غير منقطع.

وفي حالة اعتبار جهنم هنا بمعنى العذاب الدنيوي الذي يحل بأعداء النبي ﷺ فإن هذه الآية تصبح نبوءة بأن أعداء الإسلام سيظلون مغلوبين لفترة تتراوح ما بين مئتين وأربعين سنة أو ثلاثمئة سنة إلى ألف سنة. ذلك أن كلمة الأحقاب التي هي جمع قلّة تدل على الثلاثة إلى العشرة، فلو قلنا إن الأحقاب هنا تعني ثلاثة من الحقب، وأن الحقب هو ثمانون عامًا، وضربنا الثلاثة في الثمانين صار هذا الزمن مئتين وأربعين عامًا، أما إذا ضربنا العشرة في الثمانين صارت هذه المدة ثمانمئة عام، أما إذا اعتبرنا الحقب مئة عام وضربنا المئة في الثلاثة صار هذا الزمن ثلاثمئة، وإذا ضربنا المئة في العشرة صار ألف عام.

ولو قيل إن القول بالمدّتين المختلفتين عن غلبة الإسلام يدل على الإبهام والريبة، مع أنه لا ريب في كلام الله تعالى، فالجواب أنه لا بأس من وجود بعض الإبهام والاحتمال في وحي الله تعالى إلى حد يحقق غرضًا جديدًا، بل يجب أن يوجد فيه، ومثل هذا الإبهام ليس بقبيح بل هو حسن مفيد. وثمة غرضانِ في الإخبار بأن غلبة الإسلام ستمتد إلى ثلاثمئة عام أو ألف عام، أوّلهما أن غلبة الإسلام إلى المئتين وأربعين سنة أو إلى القرون الثلاثة كانت مكتملة وعظيمة، حيث كان المسلمون متحدين كما كان العدو ضعيفًا، فظل العدو يحترق حسدًا في هذه الفترة إذ لم يكن المسلمون ضعفاء كما لم يكن عند العدو الخارجي قوة حتى يطمع في الغلبة عليهم. لا شك أن الخلاف قد حصل بين المسلمين بعد انقضاء قرن من الزمان، وانفصلت أسبانيا عن بغداد، بيد أن هذا الخلاف لم يتفاقم بحيث يؤثر سلبيا على ازدهار الإسلام إلا بعد سنة ٢٧٠هـ. أما الفترة الممتدة لمئتين وأربعين سنة أو لثلاثة قرون إلى ثمانية قرون، أو ألف سنة، فأخذت فيها المسيحية تكتسب القوة من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذ الضعف يدبّ في المسلمين بوضوح. ومع ذلك لم تكن صحوة المسيحيين وضعف المسلمين قد بلغت من الشدة بحيث تضر بغلبة المسلمين؛ إذ كانت المناطق المتحضرة - أعني آسيا وشمال إفريقيا - لا تزال تحت سيطرة المسلمين كلية. إذًا، فإن نبوءة ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قد تحققت حرفيا. قد استخدم الله تعالى هنا لفظ ﴿أحقابًا﴾ الدال على عدد مبهم للإشارة إلى نوعية رقي المسلمين

في الفترتين، فالعدد الأقل يشير إلى فترة غلبتهم الكاملة، بينما يدل العدد الأكبر على فترة الغلبة التي ظهرت فيها آثار الضعف في المسلمين، وإن ظلوا فيها غالبين.

أما الغرض الآخر لورود هذا الإبهام فهو أن ثمة أمرا آخر يميّز غلبة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى عن غلبتهم في القرون السبعة الأخرى، وهو أن المسلمين ظلّوا عاملين بأحكام الإسلام عمومًا في القرون الثلاثة الأولى، وظلّوا يعاملون الكافرين بالحسنى، أما بعدها فأخذوا يتصرفون كالملوك الآخرين ويعاملون الكافرين بشيء من القسوة. لا شك أن معاملتهم القاسية هذه كانت أفضل مما يعامل به أهلُ الأديان الأخرى غيرهم، ولكنها لم تكن بحسب تعاليم الإسلام. وهذا أحد الأسباب وراء استخدام القرآن هنا كلمة مبهمة دلت على سلوكين مختلفين من قِبل المسلمين في الفترتين، فترة القرون الثلاثة الأولى، وفترة القرون السبعة التالية. وهذا المعنى يكشف لنا أيضًا المراد من قول الله تعالى ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ حيث أخبر الله تعالى أن عذاب الكافرين سيشتدّ بمرور الأيام. وهذا ما حصل بالضبط؛ إذ كان المسلمون يعاملونهم برفق في القرون الأولى بحسب تعاليم الإسلام، أما بعد ذلك فأخذ تأثير التعاليم الإسلامية يذوي في قلوب المسلمين، فمالوا إلى القسوة في معاملة الأعداء، وازداد عذابهم في الحكومات الإسلامية المتعاقبة.

باختصار، إن هذه الآية تعني – نظرا إلى غلبة الإسلام – أن هذه الغلبة ستستمر من ثلاثة قرون إلى ألف سنة، وهذا ما حصل في الواقع. لا شك أنه قد تخلل هذه الفترة هجمات التتر التي أضرت بالمسلمين، ولكنها سرعان ما خمدت؛ حيث دخل هؤلاء في الإسلام، وظل الإسلام غالبا في كل حال. وعليه فإن هذه الآية لا تنبئ عن ازدهار الإسلام وهلاك الكفر فحسب، بل تخبر أيضا أن غلبة الإسلام ستمتد إلى ألف سنة، وبعد ذاك سيرفع الكفر رأسه ويبدأ انحطاط المسلمين. وحيث إن الآيات تفسَّر بمعان عديدة بالنظر إلى قضايا مختلفة، فهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ بالنظر إلى غلبة الإسلام والرسول ﷺ، أما بالنظر إلى عذاب جهنم، فنقول إن الحقب تعني الزمان، فليس المراد من لبثهم فيها أحقابًا إلا أنهم يمكثون فيها زمنًا طويلاً جدًّا.

كما يتضح من القرآن الكريم أن عذاب جهنم ليس أبديًّا غير منقطع، وعليه فلا يمكن صرف لفظ ﴿أحقابًا﴾ عن معناه الأصلي. وفيما يلي الآيات القرآنية بهذا الشأن:

أوّلاً: قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾(القارعة:١٠).. أي أن جهنم هي بمثابة الأمّ لأهلها، فكما أن الجنين يكتمل نموّه في رحم أمه، كذلك سيتم إكمال أرواح أهل النار في جهنم، فينالون فيها خلقًا روحانيًا جديدًا بعد بقائهم في ظلمات ثلاث.

ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧). وما دامت رحمة الله قد وسعتْ كلّ شيء، فلا بد أن تسع أهلَ النار أيضا، فثبت من هنا أن الإنسان سينال النجاة من عذاب النار في نهاية المطاف.

ثالثًا: قال الله تعالى على لسان حَمَلة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾(غافر:٨). فإذا استحال القولُ بعد هذه الآية أن هناك شيئا هو خارج نطاق علم الله تعالى، فمن المستحيل أيضًا القول أن هناك شيئا لن تشمله رحمة الله؟

رابعًا: قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(هود:١٠٨). لقد بين الله تعالى هنا أنه ليس غفارًا فحسب، بل إنه سيغفر فعلاً.

خامسًا: قال الله تعالى: ﴿إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١٢٠). فإذا كان الله تعالى قد خلق كل إنسان ليتغمده برحمته، فالظن أن البعض سيبقى في جهنم أبد الدهر يتنافى مع هذه الآية. وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية رواية تقول: "للرحمة خلَقهم، ولم يخلقهم للعذاب" (ابن كثير). ومن المحتم أن الذي خُلق لشيء لا بد أن يناله.

سادسًا: قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨).. أي لو عمِل المرء خيرًا، ولو مثقال ذرة، فلن يضيعه الله تعالى، بل لا بد أن يرى جزاءه، ومن الواضح أنه لن يرى جزاء هذا الخير إلا إذا نال أوّلاً العقاب على ذنوبه، ثم يعفى عنه.

سابعًا: ورد في الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله ﷻ: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف" (البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يُبَدِّلوا كلام الله).

وقد وعد الله تعالى في القرآن الكريم أيضا بالجزاء على الحسنة بعشرة أمثالها إذ قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٢). وحيث إن كل إنسان يتحلى بشيء من الخير مهما صغر، فلو حسبنا جزاء حسناته على ضوء هذا الحديث النبوي وهذه الآية القرآنية، فلا يجيز العقل حرمان أي إنسان من النجاة حرمانًا أبديًّا.

للمزيد راجِعْ تفسير قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ في سورة هود في المجلد الثالث من هذا التفسير.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٦﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

بَرْدًا: البَرْد: نقيضُ الحرّ؛ النومُ، وفي المثل: البرْد يمنع البرْد.. يعني البرد يمنع النومَ. (الأقرب)

وقال الحسن وعطاء وابن زيد: ﴿بردًا﴾ أي رَوحًا وراحةً. (فتح البيان)

حميمًا: الحميم: الماء الحارّ، وهو من الأضداد، إذ يعني الماء البارد أيضا؛ القيظ؛ العَرَق. (الأقرب)

غساقًا: الغَسّاق المُنتِن البارد الشديدُ البردِ الذي يُحرِق مِن برْدِه كإحراق الحميم. (اللسان). والغسّاق ما يقطر مِن جلود أهل النار وصديدهم مِن قيح ونحوه. (الأقرب)

وِفاقًا: وافَقَ على الشيء وِفاقًا: ضدُّ خالفَ. (الأقرب). والوِفْق: المطابَقة بين الشيئين. (المفردات)

فالمراد من قوله تعالى ﴿جزاءً وِفاقًا﴾.. أي جزاءً مطابقًا للأعمال.

التفسير: قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا..﴾ حال ثانٍ ﴿للطاغين﴾، حيث كان قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ الحال الأوّل لهم، والمراد أن الطاغين يكونون في النار حال كونهم لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. أما ابن جرير فقال: إن قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ متعلق بـــ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، بمعنى أن نوعية عذابهم ستتغير فيما بعد. ولكن هذا المعنى باطل بداهة، لأن الآية ستعني عندها أنهم سيتمتعون بعد الأحقاب بالراحة وماء الشرب، مع أنه إذا تيسر لهم الماء والراحة، فأين العذاب؟ لو كان القرآن قد ذكر هنا شرابًا فقط لقلنا إن تعذيبهم لن يزول بشرب الماء، ولكنه ذكر مع الشراب بردًا أيضا، والبرد يعني النوم والراحة أيضا، فيكون المعنى - بحسب ما يذكره ابن جرير - أنهم لن يتمتعوا بالراحة وماء الشرب أحقابًا، أما بعد ذلك فيتيسر لهم الماء للشرب والنوم والراحة أيضا، غير أنهم سيظلون مقيمين في الجحيم. فثبت أن هذا المعنى باطل بداهة.

والدليل الآخر أن الله تعالى قد ذكر هنا ﴿شَرَابًا﴾ منفصلاً عن ﴿بَرْدًا﴾، مما يدل أن ﴿بَرْدًا﴾ لا يعني الماء البارد هنا، بل له معنى آخر، وهو أنه لن تتيسر لهم هناك أسباب الراحة، ذلك لأن من معاني البرد الراحة؛ حيث ورد "البرد: الرَّوح والراحة." (فتح البيان)

وفيما يتعلق بموضوع القيامة فيمكن تفسير قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ تفسيرًا ظاهرًا، وهو أنهم لن يجدوا هناك سببًا للراحة، ولا شيئًا للشرب، إلا غسَّاقًا. والغساق كما بينتُ في شرح الكلمات هو "الشيء المنتن" أو "البارد شديد البرد"، أو "ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه". إذًا، فكلمة

﴿غَسَّاقًا﴾ أيضًا تبيّن أن ﴿بَرْدًا﴾ هنا لا يعني إلا الراحة، لأن الغسّاق نفسه يعني البارد الشديد البرودة.

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن الماء الذي يجده أهل النار سيكون حارًّا جدًّا، كما أنهم يُسقون ما يقطر من جلودهم أو صديد جروحهم، أو أنهم يُسقَون ماءً منتنًا آسنًا جدًّا، أو ماءً شديد البرودة تسقط أسنانهم بشربه.

ثم يقول الله تعالى ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾، أي أن هذا الجزاء سيكون مطابقا لأعمالهم تماما، بمعنى أن سلوكهم في الدنيا لم يكن سلوكًا وسطًا، لذا سيجدون في الآخرة من الجزاء ما يماثل سلوكهم.. أي ما يكون حارًّا جدًّا أو باردًا جدًّا؛ وبتعبير آخر إنهم كانوا في الدنيا يستشيطون غيظا أو يعيشون متكاسلين عاطلين، ولم تكن سيرتهم وَسَطًا، فلذلك سينالون عذاب جهنم بهذا الشكل، ويعطَون ماءً مغليًا للشرب أحيانا، وأحيانا ماءً باردًا جدًّا. أما الماء البارد الذي يجد شاربه فيه متعة وراحة، فلن يكون له أثر في جهنم. وهذا هو الفرق المميز بين الإسلام والكفر- أعني الأديان الأخرى - فيما يتعلق بالأخلاق، فإن الإسلام يعلّم السلوك الوسط، ولكن لا يوجد هذا التعليم في غيره من الديانات. فمثلاً تقول اليهودية: "نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَعَيْنًا بِعَيْنٍ، وَسِنًّا بِسِنٍّ، وَيَدًا بِيَدٍ، وَرِجْلاً بِرِجْل، وَكَيًّا بِكَيٍّ، وَجُرْحًا بِجُرْحٍ، وَرَضًّا بِرَضٍّ" (الخروج ٢١: ٢٣-٢٥). أما المسيحية فتقول: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا" (متى٥: ٣٩). فترى أن إحدى الديانتين تميل إلى القيظ فقط أي إلى الإفراط، والأخرى تميل إلى الزمهرير فقط أي إلى التفريط. فيكون جزاء هذه الأعمال الموغلة في الإفراط أو التفريط جزاءً مماثلاً لها، فيكون بعضهم في حميم يغلي، والآخرون في بردٍ شديد. ولكن الإسلام يأمر بسلوك الطريق الوسط في جميع أحكامه، فيأمرنا أن نرحم عند مقتضى الرحمة، وأن نعاقب عند مقتضى العقاب. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(الشورى:٤١).. أي يجب معاقبة الظالم على سيئته بقدرها فقط، ولكن الذي يعفو عن الظالم بشرط أن يكون في العفو إصلاح له فسيجد جزاء عفوه عند الله تعالى حتمًا.

أما إذا اعتبرنا هذه الآيات تتحدث عن القرآن الكريم والرسول ﷺ، فنفسّرها تفسيرًا روحانيا كما فعلنا من قبل.. أي أن أعداء الإسلام لن يجدوا الراحة أبدًا، ولن تنعَم قلوبهم بالسكينة أبدًا، فكلما رأوْا فشلهم إزاء الإسلام أصابهم الإحباط والقنوط حينًا، وحينًا هاجوا ضد الإسلام وهاجموه كالمجانين.

إنما حالة الحميم والغساق هي أن الإنسان يهيج حينًا فيتصرف نتيجة تهوُّره كالمجانين، وحينا آخر ينهار فاقدًا الهمة، وفي كلتا الحالتين لا يحالفه النجاح؛ إذ لا يمكن أن ينتصر من يتهور ويُغِير كالمجانين، كما لا يحالف النجاحَ مَن يفقد القدرة على العمل من شدة اليأس والقنوط.

ولكن الله تعالى يخبر أيضًا أن أعداء الإسلام سيعودون إلى صوابهم بعد مرور أحقاب فيشنّون على المسلمين هجمات منظمة، وحيث إن المسلمين يكونون قد أسخطوا الله تعالى بسوء أعمالهم في ذلك الزمن من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هجمات الكفار منظمة، فينهزم المسلمون أمام الكافرين.

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

لا يَرْجُون: رجا الشيءَ: أمّلَ به؛ خافَ. (الأقرب)

حسابًا: الحسابُ: العَدُّ. (الأقرب)

التفسير: ستعني هذه الآية، نظرًا إلى موضوع الآخرة، أنهم لا يوقنون بالبعث بعد الموت، فلا يأتون أعمالا تنفعهم في الآخرة، وإنما الحافز وراء أعمالهم هو الدنيا، وحيث إن هذا الحافز غير صحيح، فلا يوفَّقون لفعل الخيرات.

علمًا أن الرجاء يعني الأمل والخوف أيضًا، وكلا المعنيين ينطبقان على الآخرة، والمراد أنهم لا يخافون العقاب على سوء أعمالهم، ولا يأملون أن يُثِيبهم الله على حسناتهم.

إن من محاسن القرآن الكريم أنه يستعمل كلمات تدل على معان عديدة في وقت واحد، كما هو الحال في كلمة ﴿يرجُون﴾، حيث يدل الرجاء على الأمل والخوف كليهما. والحق أن الفساد يتطرق إلى أعمال الإنسان لسببين؛ إما أنه لا يخاف أي عقاب على سوء أعماله، أو أنه لا يوقن بأي ثواب على حسناته؛ وقد أشار الله تعالى إلى الأمرين كليهما بقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾.. أي أنهم كانوا لا يخافون أن يُحاسَبوا على سيئاتهم، كما كانوا لا يأملون أن يثابوا على حسناتهم.

كلا المعنيين للرجاء يتحقق فيما يتعلق بهذه الدنيا أيضًا، بمعنى أنهم لم يُقيموا صلةً بالقرآن الكريم ولا بمحمد ﷺ، واستوجبوا غضب الله وقهره لأنهم لم يخافوا العقاب على سوء أعمالهم، إذ قالوا لا نخاف أحدًا لنتخلى عن هذه الأعمال، وفي الوقت نفسه لم يأملوا الثواب على حسناتهم، فلم ترغب قلوبهم في الصلاة والصوم وغيرها من أحكام الإسلام.

أما بالنسبة إلى معنى غلبة الإسلام، فستعني هذه الآية أنهم سيُبغضون الإسلام جدًّا ساعين للقضاء عليه وغير مكترثين بأي خطر، وفي الوقت نفسه لن يأملوا النجاح الكامل، بل سيستولي اليأس على قلوبهم ويقولون في أنفسهم أن الكفر لن ينتصر الآن. والذي يصاب باليأس والقنوط لا يتصرف إلا بإحدى طريقتين؛ إما أنه يهاجم في تهور كالمجانين، أو يجلس عاطلاً لا يحرك ساكنا من غلبة اليأس.

وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

وكذّبوا بآياتنا كِذّابًا: كذّب الأمرَ تكذيبًا وكِذّابًا: أنكرَه وجحَده. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أنهم ينكرون آياتنا بشدة، أي أنهم لا يميلون إلى الإيمان نتيجة تكذيبهم الشديد لآياتنا.

لو اعتبرنا الحديث هنا عن الذين كفروا بدعوة الإسلام في أوائلها فستعني هذه الآية أنهم قد انحرفوا عن الصراط المستقيم لأنهم لم يصدّقوا بأنبائنا عن غلبة الإسلام وقيام

القيامة. وينطبق هذا المعنى على القيامة من حيث إن إنكارهم إياها أدى بهم إلى هذا الحال. بينما لو اعتبرنا هذه الآية تتحدث عن القرآن الكريم أو الرسول ﷺ، فالمراد أنهم لقوا هذا المصير لأنهم كانوا لا يصدّقون بالمعجزات التي ظهرت على يد محمد ﷺ، أو أنهم يكفرون بآيات القرآن الكريم بشدة لأن فطرتهم الفاسدة لا تنسجم مع كلام الله تعالى.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٣٠﴾

شرح الكلمات:

أحصيناه: أحصى الشيءَ إحصاءً: عَدَّه (الأقرب).

كتابًا: الكتاب: المكتوب؛ ما يُكتَب فيه؛ القَدَرُ؛ الحُكمُ؛ الفرضُ؛ الدواةُ. (الأقرب)

التفسير: أي لقد قدّرْنا كلَّ شيء أحسنَ تقدير، أو قد حفظنا كل شيء في مكان ذي قدر، أي حفظناه حيث لا يضيع منه أبدًا. وبالفعل نجد أنه ما من عمل من أعمال الإنسان إلا يظل محفوظا بشكل أو بآخر، ولا يضيع أبدًا، وليس أدلَّ على ذلك من المذياع؛ حيث نجد شخصا ينطق بكلمة من مسافة آلاف الأميال، فتصل إلينا فورًا، ونسمعها وكأنه يتكلم جالسًا بيننا. وأرى أنه ليس بمستبعَد أن تتطور العلوم بحيث يتمكّن العلماء من اختراع جهاز يستطيعون به تسجيل الأصوات من الأزمنة الغابرة، وعندها سنتمكّن من سماع صوت رسول الله ﷺ وهو يتحدث بالأحاديث التي نقرؤها في الكتب. وهذا الأمر لا يبدو مستحيلاً بالنظر إلى مخترعات هذا الزمن، فإن العلم قد تطور اليوم تطوّرًا كبيرًا، ومن الممكن أن يخترعوا في المستقبل جهازًا كهذا ويتمكّنوا به من ضبط الأزمنة الغابرة أيضًا، فنسمع أصوات الأولين. فمثلاً إذا أردنا سماع أصوات أُناس عاشوا في سنة معيّنة أو قرن معيّن نضبط الجهاز على تلك السنة من القرن ونسمع أصواتهم. ليت الدنيا ترجع إلى الحق نتيجة هذا التطور التقني.

فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

عذابًا: العذاب: كلُّ ما شَقَّ على الإنسان ومنَعه عن مراده. وفي "الكليات": كلُّ عذاب في القرآن فهو التعذيب، إلا ﴿وَلْيَشهَدْ عذابَهما طائفةٌ﴾، فإن المراد الضربُ. (الأقرب)

وورد في "المفردات": "العذاب: هو الإيجاع الشديد. وقد اختُلف في أصله، فقال بعضهم: هو مِن قولهم: عذَب الرجلُ، إذا ترَكَ المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب، فالتعذيب في الأصل هو حملُ الإنسان أن يعذِب أي يجوع ويسهَر. وقيل أصله من العَذْب، فعَذَّبْتُه أي أزلتُ عَذْبَ حياته." (أي حلاوتها)

التفسير: ترسم هذه الآية حال الأمم المقهورة في الدنيا، وليس المراد منها عدم زوال العذاب عنهم أبدا، بل المعنى أنه كلما سعَت الشعوب المقهورة لحريتها ازداد عذابها، وضاعت جهودها وابتعدت عن هدفها المنشود، إلا أن يكون زمنُ غلبتهم من جديد قد حان. ولذلك نرى في هذه الحرب العالمية أن الإنجليز ينصحون أهل بلجيكا وفرنسا أن لا يستعجلوا بالثورة ضد الألمان وإلا ازدادت محنتهم. وقد رأينا أن هؤلاء كلما حاولوا التحرر زادهم الألمان بطشًا وتعذيبًا. إذن فقوله تعالى ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلا عَذَابًا﴾ يعني أنه في زمن غلبة الإسلام ستضيع جهود الكافرين كلها، حيث يحذرهم الله تعالى قائلاً لو بقيتم صامتين سلمتم، أما إذا خرجتم متهورين لمحاربة المسلمين فستضرون أنفسكم ولن تضروا الإسلام والمسلمين شيئًا.

وهذا المعنى ينطبق على القيامة أيضًا؛ ذلك أن الوقت يزيد المرء أذًى، فمثلا إذا أصيب بالحمى ساءت حالته يومًا فيومًا؛ وإذا طالت فترة الحمى تدهورت صحته تمامًا. كذلك كلما طالت فترة العذاب يوم القيامة زادت وطأة العذاب عليهم.

إذًا، فهذه الآية لا تعني أن لا نجاة لهم من عذاب يوم القيامة أبدًا، بل المراد أنهم يزدادون تعذيبًا بطول العذاب، شأن المريض الذي يزيده طول مرضه أذى وضعفا.

بيد أن العكس يحصل أحيانا، حيث يعتاد المرء العذاب إذا طال، وقد عالج الله تعالى هذه القضية أيضًا، حيث صرح في آية أخرى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(النساء:٥٧).. أي كلما اعتادوا العذاب لطوله أعطاهم الله جلودًا أخرى ليشعروا بالعذاب.

باختصار، لا يعني قوله تعالى ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ أن عذابهم لا ينتهي أبدًا، بل المراد أنه إذا انتهى نوع من العذاب بدأ نوع آخر منه، ولن يكون هناك انقطاع فيه ما لم يأت وقت غفرانهم تمامًا.

أما نظرًا إلى هذه الدنيا فيعني قوله تعالى﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ أن المسلمين سيزدهرون يومًا فيومًا، وبالتالي يزداد الكافرون والمشركون ضعفًا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

مفازا: قد يكون المفاز مصدرًا لفازَ يفوزُ، أو ظرفَ مكان. يقال فازَ مِن مكروه: نجا؛ وفاز بخير: ظفِر به. (الأقرب)

وفي المفردات: "الفوز الظفرُ بالخير مع حصول السلامة".

فقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ يعني: ١- أنهم سيظفرون بكل خير وينجون من كل مصيبة، ٢- أن الله تعالى سيقيمهم مقامًا ينجون فيه من كل مصيبة وأذى ويحوزون فيه على كل بركة وفلاح. وهذا إشارة أولاً إلى ذلك المقام الذي ينالونه بعد البعث من الموت حيث وعد الله المتقين بأنهم لن يروا في الآخرة أذى، ولن ينقصهم هناك خير، بل ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾(الشورى:٢٣)؛ كما أنه إشارة إلى ما يناله المتقون في هذه الدنيا، حيث وعدهم الله تعالى وقال ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أي أن الذي يخاف الله تعالى يهيئ الله له أسباب الجنة في هذه الدنيا كما يهيئها له في الآخرة أيضا.

التفسير: لقد سبق أن بينت أن هذه السورة تتحدث عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن أيضا، وعليه فهذه الآية تنبئ بأن المؤمنين سينجون من كل مكروه، وسيُعطَون ديارًا تكون بمثابة مقام النجاح لهم. لقد أُدلي بهذا النبأ في وقت لم يكن فيه للمسلمين ملاذ. لقد سبق أن بينتُ أن هذه سورة مكية، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن، حين لم يكن عدد المسلمين قد تجاوز عشرة أو اثني عشر شخصًا، والكافرون يعذبونهم تعذيبًا يفوق التصور. فمن الثابت تاريخيا أن الكافرين كانوا يُلقُون العبيد الذين أسلموا في فجر الإسلام على الرمال المحرقة وذلك في بلاد حارة كالجزيرة العربية ليردوهم عن دينهم، ولكنهم كانوا يرفضون البراءة من الإسلام، فكان الكافرون يزيدونهم عذابًا بوضع أحجار ساخنة على صدورهم، بل بالصعود على صدورهم أحيانا. وفي بعض الأحيان كانوا يربطون بعضهم بالحبال ويجرّونه في شوارع مكة. علمًا أن أهلها كانوا يضعون أحجارًا بجانب جدران منازلهم لحمايتها من مياه الأمطار الجارفة، وكان الكافرون يجرّون المسلمين على هذه الأحجار حتى كانت أبدانهم تنـــزف دمًا. وكان خبّاب بن الأرت أحد هؤلاء الصحابة العبيد الذين تعرضوا للتعذيب الشديد. ففي أيام الفتوحات الإسلامية سأله مرة عمر ﵁ عن الأذى الذي لقيه على أيدي المشركين، فكشف ظهره الذي لم يكن يبدو كجلد إنسان، فأخذت عمرَ حيرة فسأله: أجِلْدُك مصاب بمرض؟ فأجاب: هذا ليس مرضًا، بل كان الكافرون يجرّونني على الحجارة، فتغيّرَ جلدي من كثرة الجروح (أُسد الغابة: خباب بن الأَرَتّ، والطبقات الكبرى: بلال بن رباح، والكامل لابن الأثير، والسيرة الحلبية: استخفاؤه ﷺ وأصحابه في دار الأرقم).

هذا ما تعرض له الصحابة في أوائل الإسلام. أما الرسول ﷺ فكان لا يستطيع أن يصلي علنًا، بل كان يجمع بعض الصحابة في بيت أم هانئ، فيصلّي بهم ويعلّمهم الدين والقرآن؛ إذ كان من المستحيل أن يصلّي أو يتكلّم عن الدين أو يقرأ القرآن علنًا أو حتى في فناء بيته، لأن كل هذه الأمور كانت تُعتبر جرمًا. وعندما اشتدت الفظائع أخذ الصحابة يهاجرون من مكة بعد أن استأذنوا الرسول ﷺ (الطبقات الكبرى: ذكرُ إذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة). وذات مرة خرج أبو بكر

ﷺ مهاجرًا، فلما خرج بمتاع سفره لقيه ابنُ الدَغِنة وهو أحد زعماء مكة، وسأله: أين تذهب؟ فقال: أهاجر من وطني لأن قومي يعادونني ولا يمنحونني حرية دينية. فقال: كيف تعيش بسلامٍ البلدةُ التي يخرج منها شخص مثلك؟ لا تخرج منها فإني مجيرك. ثم أعلن بين الناس أن أبا بكر في جواره. والعرب، رغم كبريائهم وغطرستهم، كانوا يتحلّون بميزة عظيمة أنه إذا أجار أحدهم امرأً لم يتعرضوا له بأذى، وإذا حاول أحد إيذاءه منعوه جميعا. فعاش أبو بكر ﷺ في مكة مرتاحا مطمئنا بعد أن أجاره ابن الدغنة. وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً عند تلاوة القرآن الكريم، وبينما كان يقرأ القرآن في فناء بيته ذات يوم غلبت عليه الرقّة وأخذت العبرات تتحدر من عينيه. ومن عادة الأولاد والنساء الاجتماع والتفرج على كل جديد، وبكاءُ الإنسان يثير انتباه الآخرين؛ وكانت قراءة القرآن أمرًا جديدًا لهم، فاجتمعوا إعجابًا بقراءته المصحوبة بالبكاء، وأخذت النساء يذكرن الإسلام بخير. فذهب القوم إلى ابن الدغنة، وقالوا له: لقد ألقيتنا في ورطة بإجارتك لأبي بكر، فقد فُتنت نساؤنا وأولادنا بقراءته للقرآن، ولو استمر الأمر على هذا المنوال لدخل الحي كله في الإسلام؛ فإما أن تمنعه من قراءة القرآن عاليًا، أو تسحب ذمتك منه. فجاء ابن الدغنة أبا بكر وأبلغه شكوى القوم الشديدة، وبأنهم يخافون أن يسلم أولادهم ونساؤهم، طالبًا منه أن يكفّ عن القراءة عاليًا، وأن يقرأ القرآن داخل بيته، وإلا فسيضطر لسحب ذمّته. فأجاب أبو بكر: يمكنك أن تتبرأ من ذمتي، لأني أفضّل ذمة الله وذمة رسوله على ذمتك. (تاريخ الخميس ج ١ هجرة أبي بكر إلى الحبشة، والبخاري: كتاب بنيان الكعبة، باب هجرة النبي ﷺ)، فخرج ابن الدغنة وأعلن أن أبا بكر لم يعُدْ في جواره. ثم تراجع أبو بكر عن الهجرة، وسأل الرسولَ ﷺ أن يصطحبه عندما يهاجر، فوافق ﷺ على ذلك. (البخاري، كتاب مناقب الأنصار)

هذه هي الأوضاع التي كان يعيشها المسلمون في مكة، ورأيي أنه لو جُمعت وقائع اضطهاد المسلمين على يد أهل مكة لبلغت المئات، مما يدل على مدى الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون، كما يُعلِّمنا كيفية وكمية التضحية التي يجب أن نقدمها في سبيل الدين. وفي تلك الفترة التي كان المسلمون يعيشون فيها في أذًى شديد أعلن

الله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.. أي أن المسلمين المتقين سينجون من الاضطهاد حتمًا؛ لأن الله تعالى سيدفع عنهم هذا الظلم، وسيعطيهم تلك الأماكن التي لن تمسّهم فيها هذه المكاره كلها، بل سيحالفهم النجاح ويفتح الله عليهم أبواب الراحة ورغد العيش. وقد جعل الله تعالى أرض الحبشة المفازَ الأول للمسلمين تحقيقًا لهذا الوعد، فهاجر إليها المسلمون ومتّعهم الله تعالى هناك بأسباب الراحة. علمًا أن هذه السورة هي من أوائل ما نزل في مكة - حيث نــزلت قبل هجرة المسلمين إلى الحبشة بسنتين أو ثلاث، وهذه الهجرة قد تمت في السنة الخامسة من البعثة (الكامل لابن الأثير، الجزء الأول، ذكر الهجرة إلى الحبشة). فثبت أن أول مقامِ فوزٍ ناله المسلمون بحسب قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ هو أرض الحبشة. وكم هي رائعةٌ آيةُ النصرة والتأييد التي أظهرها الله تعالى في أرض الحبشة! لقد أراد العدو مطاردة المسلمين في الحبشة أيضا كيلا ينعموا بالراحة والطمأنينة في تلك البلاد أيضا، ولكن الله الذي كان قد وعد المتقين بأن ينقذهم من الأذى ويأخذهم إلى حيث ينعمون بالطمأنينة، أحبطَ أهلَ مكة في مسعاهم، وعاش المسلمون في أرض الحبشة في عز وراحة وفقًا لوعده تعالى.

ورد في التاريخ أن المسلمين لما هاجروا إلى الحبشة بعث أهل مكة وراءهم عَمْرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، مطالبين مَلِكَ الحبشة بإعادهم باعتبارهم عبيدًا لهم فرّوا من أسيادهم، وأنه إذا أجارهم الملِك فسوف تفسد العلاقات بين الطرفين. فذهب الاثنان إلى الحبشة مع هدايا كثيرة ليقدّموها للملك ولوزرائه وللقسيسين. فأكرمهم الملك في أول الأمر، لكنهم لما قالوا له إن هؤلاء المسلمين قد فروا من عندهم، وأن عليه أن يرجعهم إليهم، وشفع لهم إليه الوزراء أيضا، قال الملك إنه لا يحق له طرد أحد من المسلمين من بلده ما لم يدعُهم ويعرف موقفهم. فدعاهم إلى البلاط وسألهم عن عقائدهم. فتقدم الصحابي جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقرأ آيات من الذكر الحكيم تتحدث عن عقائد المسلمين بما فيها عقيدهم عن المسيح عليه السلام. فقال الملِك: لا أجد في هذه العقائد بأسًا. ورجع الرئيسان القرشيان إلى بلاط الملك في اليوم التالي وقالا: أيها الملك، إن هؤلاء المسلمين يسيئون إلى المسيح. فطلب

الملكُ المسلمين وسمع منهم موقفهم تجاه المسيح عليه السلام، ثم أمسك بعود وقال: لا تختلف عقيدتي في المسيح عن عقيدتهم قدر هذا العود. فاستاء حاشية الملك من قوله جدًّا، فلما وجدهم منـــزعجين قال لهم: لقد مات أبي وأنا صغير، فساعدتم عمي في محاولة الاستيلاء على العرش، فوهب لي ربي قوة بفضله ومكّنني من إلحاق الهزيمة بكم، وآتاني العرش. فكيف لا أظل موقنًا بنصرة الله الذي رفعني على العرش وأفشل عدوي في نواياه رغم قلة حيلتي؟ إنه لمن العار أن لا أكون عونًا لعباده المظلومين بعدما منحني القوة. فلن أُخرجهم من بلدي وإن ساءكم هذا. ثم ردّ الملكُ الهدايا التي أتى بها هذان الزعيمان القرشيان، فرجعا خائبين. (تاريخ الخميس، ج ١ ص ٢٨٩-٢٩٢)

إذًا، فإن الصحابة قد شاهدوا في أرض الحبشة مشهدًا رائعًا لتحقُّق قول الله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ورأوا بأمّ أعينهم كيف حقق الله تعالى وعده بأنه سيأخذهم إلى حيث ينجون من كل مكروه، وينعمون بالراحة والسكينة.

والمشهد الثاني لتحقق هذا الوعد الرباني شوهد في المدينة حين هاجر إليها المسلمون وصرف الله إليهم أهلها. في البداية جاء نفرٌ من أهل المدينة إلى مكة للحج، فلما سمعوا عن دعوة الرسول ﷺ آمنوا به. وفي السنة التالية جاء من المدينة وفد آخر من الحجاج وآمنوا به ﷺ. وفي السنة التالية بعث أهلها إلى الرسول ﷺ وفدًا يضم اثنين وسبعين شخصًا، فعقدوا معه معاهدة حيث تعاهدوا معه فيها بأنه لو أغار العدو عليه أو على أصحابه وهو في المدينة فسيقاتلون عنه. فهاجر النبي ﷺ إلى المدينة بحسب هذه المعاهدة. (السيرة لابن هشام، بدء إسلام الأنصار)

ثم لحقهم إلى المدينة المسلمون الآخرون الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة من قبل، وقد سُمّي هؤلاء أصحاب الهجرتين. (البخاري، كتاب المغازي)

أما دفاع أهل المدينة عن النبي ﷺ فهو باب رائع من التاريخ وبرهان ساطع على صدق النبوءة القرآنية الواردة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.. أي أننا سنعطي المتقين مكانًا ينجون فيه من أنواع الأذى وينالون فيه كل نجاح. فكانت الحبشة المفاز الأول، وكانت المدينة المنورة المفاز الثاني. والواقع أن السنوات الأولى

من تاريخ الإسلام إنما هي شرح لهذه الآية، وأن الهجرة إلى الحبشة والأيامَ الأولى في المدينة لدليل ساطع على تحقُّق النبأ الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أننا سنجعلهم فائزين، وهذا المعنى أيضا قد تحقّقَ في المدينة. والواقع أنه لم تكن المدينة وحدها دليلا على تحقق هذه النبوءة، بل قد أصبحت الجزيرة العربية كلها، بل العالم الوسطي كله، فيما بعد دليلاً على فوز المسلمين ونجاحهم. فكل أمة خرجت لمحاربتهم هُزمت، وكل قوة اصطدمت بهم ذلّت، حتى فُتحت خزائن كسرى وقيصر ووقعت في أيدي المسلمين. كانت المدينة قرية صغيرة، ولم يكن المسلمون آمنين فيها حتى في بيوتهم، ولذلك عقدوا مع اليهود معاهدات كيلا يغدروا بهم ويزيدوهم ضعفا. إن هذه القرية الصغيرة أصبحت فيما بعد مركزًا للعالم، وكلما صدر أمرٌ منها ارتعدت الدنيا كلها ولم تقدر على رفضه. ثم إن المدينة المنورة هي القرية التي جُلبتْ إليها كنوز كسرى وقيصر في يوم من الأيام لتوزَّع على المسلمين، حتى وُضعت أساور كسرى الذهبية في يد الصحابي سراقة بن مالك رضي الله عنه. كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر سراقة أثناء الهجرة إلى المدينة أني أرى أساور كسرى في يدك. ولما دُمّرت إمبراطوريةَ كسرى جيء بأسورته فألبسَ عمرُ رضي الله عنه سراقةَ هذه الأسورة رغم تردّده في لبسها، وذلك لتتحقق نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم (الإصابة، ج ٣ سراقة بن مالك). فشتّان بين ما كانت عليه تلك القرية في أولها وبين ما كانت عليه حين أُلبست فيها أسورة كسرى في يد صحابي فقير فيها. وكما سبق أن بينتُ أن كلمة ﴿مفازا﴾ تنطبق بمعناها الأول - أي مكان النجاة من الهلاك - على الحبشة والمدينة كلتيهما، أما بمعناها الثاني - أي الفوز والنجاح - فتنطبق على المدينة فقط. إذًا، فقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ كان نبأً بأننا سنعطي المسلمين المدينة المنورة التي ستكون مكانَ فوزهم ونجاحهم. فالحق أن هذه الآية - مع كونها نبوءة عن الهجرة الأولى أي الهجرة إلى الحبشة - كانت نبوءة عن الهجرة الثانية وهي الهجرة إلى المدينة بشكل أوضح وأروع.

لقد تأثر أحد الكتاب الأوروبيين من أوضاع المسلمين بُعيد هجرتهم إلى المدينة المنورة لدرجة أنه قال في كتابه: مهما سمّيتم محمدًا وأصحابه إلا أنني حينما أفكّر أن هناك مسجدا صغيرا في المدينة سقفه من سعف النخل تبتلّ أرضيّتُه كلما أمطرت السماء، فتتلطخ جباه المصلين وأرجلهم بالوحل، ويجلس على أرضه التي لا حصير عليها أناس لا يوجد على رؤوسهم غطاء ولا على أبدانهم ثياب كافية، وهم يتشاورون فيما بينهم حول فتح العالم بثقة ويقين.. كأن فتح العالم أمر عادي عندهم، ولكنهم موقنون بذلك لأنهم يؤمنون أنه وعد من الله تعالى ولن يُخلَف أبدًا؛ ثم إنهم يفتحون العالم فعلاً. عندما أرى هذا كله فإن قلبي يرفض أن أعتبر هؤلاء كاذبين مخادعين.

إذًا، فإن النبوءة التي تضمنها قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ - أي أنه تعالى سيهب المسلمين مكانا يكون منطلقًا لفتوحاتهم وانتصاراتهم؛ ينجيهم أولاً من كل مكروه، ثم يكتب لهم الفوز والنجاح كله - لم تتحقق بشكل أروع وأقوى في أي مكان سوى المدينة، إذ لا نجد مكانا أصبح مركزا للإسلام مثلها.

قد يقول قائل إن لندن وبرلين وبيترسبورغ وغيرها من المدن الكبيرة مراكز كبيرة في العالم، فما قيمة المدينة إزاءها؟ ولكن صاحب هذا القول ينسى أن هذه المدن كانت مزدهرة قبل أن تصبح مراكز عالمية، أما المدينة فلم تكن مدينة كبيرة في أول أمرها، لكنها أصبحت فيما بعد مركز الفتوحات الإسلامية كلها، وذلك بحسب نبأ قرآني أُدليَ به في زمن لم يكن فيه للمسلمين ملاذ يسندون إليه رؤوسهم.

حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

حدائق: جمعُ حديقة، وهي البستان يكون عليه حائط. (الأقرب)

أعنابًا: الأعناب جمعُ عِنب، وهو ثمرُ الكَرْم وهو طريٌّ، فإذا يبِس فهو الزبيب. والعنبُ يعني الخمر أيضًا (الأقرب)، وذلك لأن الشيء إذا غلب تأثيره شيئًا آخر سُمّي باسمه، وحيث إن الخمر تُصنَع من العنب سُميتْ باسمه.

التفسير: اعلم أن لفظ ﴿حدائق﴾ بدلٌ من ﴿مفازا﴾، ولكنه عندي ليس بدلَ كُلٍّ، بل هو بدلُ اشتمال.. أي أنه من متعلقات المُبْدَل منه، وكأن الله تعالى يقول: نقص عليكم الآن شيئًا من تفصيل "المفاز" الذي سيناله المتقون كالآتي:

أوّلاً: أنهم سينالون ﴿حدائق﴾. معروف أن الحدائق لم تكن في مكة بل كانت في المدينة، إذًا، فقد رسم الله تعالى بهذه الكلمة صورة المدينة المنورة. لا شك أن العالم كله أصبح فيما بعد حديقة للمسلمين، لكن فيما يتعلق بظاهر الكلمات فهذا الوصف ينطبق على المدينة التي كثرت فيها البساتين. فقد ورد في الحديث أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(آل عمران:٩٣) سبق أبو طلحة الأنصاري غيرَه من المسلمين وعرَض على النبي ﷺ حديقة له قائلا: يا رسول الله، إنها أحب مالي إليّ. (البخاري: كتاب التفسير، باب لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، والترمذي: كتاب التفسير)

وفي رواية عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان جالسًا بين أصحاب له ذات يوم، فقام من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، فخشينا أن يكون قد أصابه مكروه. فخرجت بحثًا عنه حتى أتيت حديقة للأنصار، وحاولت دخولها، فلم أجد لها مدخلاً – يبدو أن النبي ﷺ كان قد أغلق وراءه باب الحديقة – فدخلتُها من فتحة مِن تحت حائطها كما يدخل الثعلب. (مسلم: كتاب الإيمان)

باختصار، كانت في المدينة حدائق كثيرة، وقد أنبأ الله تعالى هنا أن علامة مكان الفوز الذي سيوهب للمسلمين وجود حدائق وأعناب فيه.

لقد سبق أن قلت إن الحدائق تكون محاطة بسور وتكون خاصة بصاحبها، ولولا السور والسياج حول الحدائق لم تُعرف الحدود فيما بينها؛ وعليه فلو اعتبرنا الحدائق هنا بمعنى كل المُلك الذي سيُعطاه المسلمون، فالمراد أن حكومة المسلمين ستكون منظمة لها حدود منيعة تحميها كما يحمي السور الحديقةَ. وقد أشير إلى هذا المعنى

في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(آل عمران:٢٠١).. أي أيها المؤمنون، عليكم بالصبر، بل يجب أن تكونوا أكثر صبرا من عدوكم، كما ينبغي أن تحموا حدودكم.. أي على الدولة الإسلامية حماية حدودها بتخصيص جنود للثغور يرابطون هناك دائمًا حتى لا تجترئ الدول المعادية على مهاجمتها.

وهناك حديث قد لمح فيه النبي ﷺ إلى معنى الحدائق حيث قال: ألا إن لكل ملِكٍ حمًى، ألا وإن حمى الله محارمه (البخاري، كتاب الإيمان). ومن رعى قريبًا من حمى الملك يوشك أن ترعى ماشيته في الحمى فيعاقَب.. أي أن المؤمن التقيّ يراقب سلوكه ويميز بين الحلال والحرام، ولذلك سمى الله النعم التي يعطيها المؤمنين حديقةً، بمعنى أن المؤمنين كما يراقبون سلوكهم ويفرقون بين الحلال والحرام لوجه الله، كذلك يميز الله بين المؤمنين وغيرهم ويهب لهم الحدائق كجزاء. وحيث إن التقوى الحقيقية تعمل كغذاء وفاكهة للمؤمن وتولد فيه نشوة حب الله أيضا، فقد سُمّيت التقوى أعنابًا أيضا إذ تتوفر هذه الصفات كلها في التقوى، فإنها أولاً: غذاء للمؤمن يتزود به للتقرب إلى الله تعالى، وثانيًا: أن المتقي الحقيقي يصبح سببًا لحدوث انقلاب طيب في الدنيا لأمد بعيد وهكذا تنفع تقواه الدنيا طويلا، كما ينفع الغذاءُ المدَّخر في الجسم طويلا؛ وهذا يعني أن التقوى تمدّ صاحبَها بثمار طازجة من ناحية، كما تنفع كذخيرة لأجياله من ناحية أخرى؛ ولذلك قال داود عليه السلام: "لَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلا ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا." (المزامير ٣٧: ٢٥)

إذًا، التقوى غذاء ينفع آكله وأجياله التالية أيضًا.

ثم إن التقوى سبب لحب الله تعالى، فكما أن العنب يصنع منه الخمر كذلك فإن التقوى تولّد حب الله تعالى. ثم كما أن شارب الخمر يسكر بشربها، فلا يبالي بخير أو شر، ولا يخاف ضررًا ولا يرجو نفعًا، ولا يقوم بعمل خوفًا أو طمعًا، بل يسلب السُكر لبّه، فيسير في طريق واحد في نشوة، كذلك عندما يسيطر حب الله على قلب إنسان يجعله كالنشوان، فلا يسعى للوصال بالله تعالى خوفًا من ناره ولا يعمل الخير طمعًا في جنته، بل ينمحي من قلبه الإحساس بالخوف والطمع تمامًا، فيحب

الله تعالى ابتغاء مرضاته فحسب. فالحق أن التقوى أيضًا تسكر صاحبها كما تسكر خمر العنب شاربها.

مرة سئل جنيد البغدادي رحمه الله: ماذا ستسأل الله تعالى حين تلقاه يوم القيامة؟ قال: أقول رب لا أرغب في جنتك ولا أخاف نارك، وإنما أحب الإقامة فيما تختار لي. فإذا أردتَ أن تلقيني في النار فأَلْقِني فيها، وإذا أردت أن تدخلني الجنة فأدخِلْني فيها، فإني لا أريد إلا رضاك. (تذكرة الأولياء (بالفارسية) ص ١١، ذكر جنيد البغدادي).

إن علامة السكر والنشوة أن يخلو المرء من الطمع؛ فلا يطمع في خير ولا يخاف من شر، وإنما يصبو لهدف واحد وهو الفوز برضى الحبيب.

باختصار، لقد ذكر الله تعالى هنا لفظ ﴿أعنابا﴾ لأن العنب هو الثمرة التي تنفع شرابًا وثمرًا وغذاءً أيضًا حيث يجفّ ويصبح زبيبا. وقد اختار القرآن الكريم هنا كلمة ﴿أَعْنَابًا﴾ كمثال على وجه الخصوص لينبّه إلى أمر مهمّ ألا وهو أن هذا هو مثل الإيمان أيضًا فإنه يولّد في صاحبه البشاشة ويهبه اللذة ويشحنه بالقوة. كما توجد هذه الأمور الثلاثة في التقوى أيضًا؛ فإنها غذاء، ثم هي غذاء يبقى كذخيرة في نفسه، ثم إنها تولد حب الله تعالى أيضا.. بمعنى أن سكر التقوى يعمل عمل الخمر ويجعل صاحبها نشوانًا في حب الله تعالى، غير أن سكرها لا يحجب العقل مثل الخمر، بل يجلوه.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

كواعب: جمعُ كاعب، وهي الناهد من الجواري. (الأقرب)

أترابا: جمعُ تِرْبٍ، وهو مَن وُلد معك، وأكثرُ ما يُستعمل في المؤنث يقال "هذه تِرْبُ فلانةٍ" إذا كانت على سِنّها. (الأقرب)

ونقل السيوطي عن الأزدي: "الأتراب الأسنانُ (أي الذين هم من سن واحدة)، لا يقال إلا للإناث، ويقال للذكور: الأسنان والأقران. وأما اللِّداتُ فإنه يكون للذكور وللإناث، وقد أقرّه أئمة اللسان على ذلك. (تاج العروس)

التفسير: هذه الآية إشارة إلى أن الحافز الحقيقي للعمل لا يتولد في أُمة إلا إذا كان أفرادها كلهم على مستوى متقارب في أفكارهم وحماسهم وهمّتهم، أما إذا كان بعضهم يأتون بالمنجزات العظيمة بينما يظل الآخرون دون هذا المستوى فلن تحرز تلك الأمة نجاحًا كبيرًا. لا بد لإحراز النجاح الكبير أن يكون المستوى العام لأخلاق الأمة متقاربا، أما إذا كان بعضهم بالغًا عنان السماء بينما لا يزال الآخر على الأرض، فلن يكونوا نافعين لأُمتهم بقدر ما يكون أفرادُ أُمة بلغ ٦٠ أو ٧٠ % من أبنائها مترًا واحدًا من الرفعة مثلاً، ذلك لأن رقيهم جميعًا متقارب، وإن كان أقل كثيرًا من الذين بلغوا عنان السماء في رفعتهم. لو كان هناك عشرة أفراد قد بلغ كل واحد منهم مترين من الرقي فهم أفضلُ من عشرة يكون الواحد منهم قد بلغ السماء رفعةً، بينما لا يزال التسعة الباقون على الأرض.

إذًا، فقوله تعالى﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى سيبارك في المسلمين بحيث إنهم يمتازون، حين يصلون إلى مكان فوزهم، بميزة خاصة وهي أن نساءهم سيبلغن مستوى روحانيًا رفيعًا وفي الوقت نفسه يكون مستواهن متقاربًا. ذلك أن كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ تشير إلى الرفعة، أي أن مستواهن الديني يكون عاليًا وكل واحدة منهن تكون مفعمة بالحماس والرفعة والاتّقاد، بينما تشير كلمة ﴿أترابا﴾ إلى أن رقيّهن سيكون رقيًّا جماعيًّا لا فرديًّا، أي أن حماس كل واحدة منهن في التضحية في سبيل الدين سيكون متقاربا متماثلا، لا أن تبلغ بعضهن الذروة في حماسهن وإخلاصهن، بينما تكون الباقيات غافلات عن واجباتهن. وإن مطالعة التاريخ الإسلامي تدلنا على أمثلة عديدة لنساء أبدين شجاعة وهمّة مذهلتين في الحروب دائمًا. ونجد هذه السمة في المهاجرات والأنصاريات كلهن. يخبرنا التاريخ عن آلاف المسلمات اللاتي قدمن في شتى المعارك نماذج رائعة لصدق قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ بحيث يتضاءل أمامهن رجالُ هذا العصر.

لا شك أن الله تعالى قد استعمل هنا كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ الدالة على الحالتين الجسمانية والروحانية، ولكن الحكمة في استعمالها هي أن الله تعالى يتحدث هنا عن قضيتين؛ إحداهما تتعلق بالآخرة، والأخرى بهذه الدنيا، وكلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ تغطّي كلتا القضيتين. إنها تغطّي القيامةَ لأن كل إنسان يدخل الجنة وهو شاب، فقد ورد في الحديث أن عجوزًا أتت النبيَّ ﷺ وقالت يا رسول الله، ادعُ الله أن يُدخلني الجنة -ويبدو أنها كانت معتادة على مقاطعة الحديث وكان الرسول ﷺ مشغولا بحديث مهم مع الآخرين - فأجابها إجابة قصيرة على سبيل المزاح، وقال: لن يدخل الجنة عجوز. فولّتْ وهي تبكي، فبعث النبي ﷺ وراءها فقال: إنه ﷺ لم يقصد ما فهمتْ، وإنما يعني أن كل إنسان يدخل الجنة في حالة الشباب لا الشيخوخة. (الشمائل المحمدية للترمذي: باب ما جاء في صفة مزاح النبي ﷺ). ذلك أن المرء لو دخل الجنة - التي هي مكان سرور وحبور - وهو شيخ هرم صارت له أسوأ من الجحيم. ذلك أن المرء يشيب عند بلوغه الثمانين أو المئة، ولو استمرّ شيبه في الجنة لصار بعد عشرين ألف سنة شيئًا ذليلا حقيرا، وربما يصبح كالكُرة، ناهيك أن يتمتع بنعيم الجنة. لذلك لا بد أن يدخل الإنسان الجنة وهو شاب، وأن يبقى فيها شابًّا على الدوام. كذلك سيكون أصحابه في الجنة من زوج وأهل شبابًا أيضًا.

غير أننا لو طبّقنا هذه الآية على هذه الدنيا لكانت الكواعب بمعنى النسوة اللواتي هن شابّات همّةً وجرأةً وشجاعة، وليست شابّات جسديًّا، إذ يصبح المعنى في هذه الحالة كالآتي: إن للمتقين كواعب في البداية، أي أنهن سيكنّ شابات في البداية ولكن سيغزوهن الشيب فيما بعد؛ أو سنضطر للقول أن على المتقين أن يتزوجوا الشابات، وإذا هرمن طلّقوهن إذ لم يعُدْن كواعب، أو لا بد لنا من القول أن المتقين سيجدون نسوة لن يهرمن أبدا في هذه الدنيا؛ ولكن كل هذه المعاني خاطئة، لا بد لنا من أن نفسر هذه الآية تفسيرًا روحانيًّا لا ماديًّا، لأن الله تعالى لم يذكر هنا أي زمن، أعني أنه لم يقل أنهن يكنّ شابات أول الأمر ثم يشِبْن، بل قال إنهن سيظللن كواعب على الدوام، فثبت من ذلك أن الآية لا تعني أنهن يكنّ شابات سنًّا، بل المراد أنهن يكنّ شابات عزيمةً وهمة وشجاعة.

ثم أخبر الله تعالى أنهن، بالإضافة إلى ذلك، يكنّ ﴿أترابا﴾.. أي أن كلّهن متساويات إخلاصًا وهمّة وشجاعة. والحق أن هذا أفضل إنعام يُعطاه أي قوم، فنساؤهم متحمسات كالرجال، ثم إنهن كلهن يتحلين بالشجاعة والحماس للتضحية من أجل أُمّتهنّ بمستوى متقارب. هذه هي النعمة الحقيقية التي تؤدي إلى ازدهار الأمم. والواقع أن المرأة هي التي تدفع الرجل إلى الجبن. فعندما يريد الخروج لخدمة الدين تقف في طريقه قائلة: أين تتركني؟ من يكون سندًا لي بعدك؟ ثم تأتي بالأولاد وتقول: من يرعاهم بعدك؟ وعندها يصاب قلبه بالقلق والاضطراب وتتزعزع إرادته. أما إذا رفعت المرأة من معنوياته، وشجّعته وحمّسته على الخروج في سبيل الدين، تقوّى قلبه فقام بواجباته الدينية باطمئنان وسكينة. لذا فمن الضروري أن تصل النساء مستوى عاليًا في الدين، كما لا بد أن تتحلى كل واحدة منهن بروح الحماس والتضحية بمستوى متقارب. إن التاريخ الإسلامي مليء بأمثلة من المسلمات اللاتي قدّمن أسوة رائعة في الحماس والجرأة والبسالة في سبيل الدين، وقلن لأزواجهن في موطن الحرب: إذا فررتم من القتال فلا ترجعوا إلينا. ورد في التاريخ أن النصارى شنّوا على المسلمين هجومًا مكثّفًا وبأعداد كبيرة في معركة اليرموك، فلم يستطع المسلمون الوقوف في وجههم واضطروا للانسحاب المؤقت، فأخذت المسلمات أعمدة الخيام ويضربن بها خيل المسلمين الهاربين ليعودوا إلى ميدان المعركة. وكانت من بينهن هند بنت عتبة بن ربيعة، التي كانت من أشد أعداء الإسلام في الماضي، وكان زوجُها أبو سفيان وابنُها معاويةُ مِن بين المسلمين الفارين. كان أبو سفيان قائد كتيبة من الجيش المسلم، فلما رجع بفرقته تقدمت إليه هند وضربت وجه حصانه بالعمود لترده إلى ساحة القتال قائلة له: كنت تبذل كل ما في وسعك في محاربة النبي ﷺ أيام الجاهلية، فكيف تفر من موطن القتال بعد إسلامك؟ كان حريًّا بك أن تغسل العار الذي لحق بك نتيجة محاربتك الإسلام بالتضحية بنفسك دفاعًا عنه. فلما رأى هو وجنوده هذا المشهد قالوا فيما بينهم: هيّا نعُدْ إلى ساحة القتال، فإن عصيّ المسلمات أشدّ وقعًا من سيوف العدو. فرجع

الجيش وقاتل وانتصر على العدو. (فتوح الشام للواقدي: وقعة اليرموك، تحريض النساء)

فالله تعالى قد أعطى النبي ﷺ حسب وعده ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ جيشًا من النساء اللاتي كنّ أفضل من رجال الأمم الأخرى إخلاصًا وحماسًا وشجاعة، كما كانت كل واحدة منهن بمستوى عال في هذه الخصال وكأنها تتنافس مع الأخريات، وليس أن عائشة كانت شجاعة، ولم تكن كذلك زينب، أو أن زينب شجاعة ولم تكن أسماء كذلك، حتى إن هندًا - تلك المرأة التي كانت تعادي الإسلام من قبل عداء شديدًا - أيضًا قد تحلت بهذه العاطفة والحماس بحيث قدمت للإسلام تضحيات كبيرة. فمن وقائع الحرب المذكورة آنفًا أن المسيحيين لما ضغطوا على الجيش المسلم كثيرًا أصيب المسلمون بإرهاق شديد نتيجة القتال المكثف المستمر، وفي إحدى الليالي خرج قائدهم أبو عبيدة لتفقد الجيش، فوجد شخصين حول الجيش فارتاب في أمرهما وخشي أن يكونا جاسوسين، فتقدم وسألهما: من أنتما؟ فقال أحدهما: أنا الزبير، وهذه زوجتي أسماء بنت أبي بكر. لقد رأيت المسلمين اليوم قد أنهكتهم الحرب، فخرجت أنا وزوجتي نقوم بحراستهم. (فتوح الشام، معركة اليرموك، هزيمة الروم).

ما أدلَّ هذا المثال وما أروعَه على صدق قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، وعلى أن زوجات الصحابة كن يتحلين بروح التضحية والفداء مثل أزواجهن! ثم إن هذا الحماس لم يكن خاصا بنساء أسرة معينة، بل وُجدت هذه الروح في كل الصحابيات.

إذًا، فهذا هو المعنى الصحيح، وإلا لا ينطبق قوله تعالى﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ في هذه الدنيا. ذلك أن الفتاة تفقد شبابها بعد ست أو سبع سنوات من الزواج، ولا تُعَدّ بعدها من الكواعب، فثبت أن المعنى هنا روحاني وليس ماديًا. لا شك أن المعنى المادي ينطبق على الآخرة، لأن الناس لو دخلوا الجنة شيوخًا فلا تُعتبر الجنة جنةً، ولكن لو طبقنا قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ على هذه الحياة الدنيا فيكون المراد منه نساء يتمتعن بكفاءات وطاقات شبابيّة. ذلك أن البدن المادي يصاب بالضعف

وتبدو عليه أمارات الشيخوخة في هذه الدنيا بمرور الزمن، أما الطاقات الروحانية فلا تضعف في الإنسان إذا أراد تقويتها. فثبت أن الأمر الأهم هو أن تكون نساء القوم مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

علمًا أن كلمة ﴿كواعب﴾ تشير إلى الشباب الشخصي، أما كلمة ﴿أترابا﴾ فترمز إلى شبوبية الأمة.

ثم إن كلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ أيضا تؤكد أن الأخذ بالمعنى الروحاني هو الأنسب، إذ لا معنى ولا حكمة في كون النساء أترابًا في الجنة. كلا بل إن هذه الكلمة تتعلق بهذه الدنيا؛ إذ تُنبه أن رقي الأمة محال بدون أن يكون المستوى الديني لنساء المجتمع عاليًا. يجب أن يتحلين بالهمة والعزيمة والشجاعة، فلا يبالين بالمصائب والشدائد، ويكُنَّ مستعداتٍ لتقديم أي تضحية، ولا يتأخرن عن رجالهن في إخلاصهن وحماسهن وحبهن لدينهن. وهذا المعنى يبلغ من الروعة بحيث يستحق أن يعاد مرارًا وتكرارًا. يجب أن نركز عليه في خطبنا وكتبنا كثيرًا حتى يعلم القوم ما هو المستوى الذي يريد الإسلام أن يوصل إليه نساءنا، وحتى تتحلى نساؤنا بالحماس الديني المنشود. أما لو كانت النساء كلهن بسن واحد في الآخرة فليس في هذا المعنى أي لطافة أو روعة، بل الحق أن كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ وحدها كافيةً لأداء هذا المعنى. إذًا، فإن إضافة كلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ إلى كلمة ﴿كَوَاعِب﴾ دليل على أن هذه الآية تتحدث عن هذه الدنيا.

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

كأسًا: الكأس الإناء يُشرَب فيه؛ وقيل ما دام الشرابُ فيه، وإلا فهي زجاجة وإناء وقدح. (الأقرب)

دِهَاقًا: الدِهاق من الكؤوس: الممتلئةُ. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى من قبل الأعناب التي تُصنَع منها الخمر، أما الآن فيبين أهم سيكونون نشوانين بشراب معرفة الله تعالى بحيث لن ينتهي سكرهم ولن تشبع نفوسهم من هذا الشراب الروحاني، بل يشربون الكأس تلو الآخر من دون انقطاع؛ بمعنى أنهم كلما قدّموا تضحية استعدّوا لتقديم تضحية أخرى، ثم ثانية وثالثة، وهكذا، وكأنهم لا يضعون كأس حب الله تعالى من أيديهم شبعًا، بل ستظل الكأس مليئة دائما، وسيعتادون تقديم التضحيات نتيجة سكر العشق الإلهي، بحيث لن تشبع طبائعهم من هذه الخمر.

وحيث إن اللذات في الآخرة روحانية - صحيح أن لها شكلاً ماديًّا أيضًا إلا أن اللذة الحقيقية هناك روحانية - لذا فقوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ينطبق على الآخرة كما ينطبق على هذه الدنيا أيضا، والمعنى أن قلوبهم ستظل في نشوة دائمة بحب الله تعالى، فلن يتوانوا في تقديم التضحيات، بل يتمنون دائما أن يقدّموا تضحية تلو أخرى ، وإذا أكّدوا حُبَّهم لله تعالى مرة، تَمنَّوا أن يؤكدوه مرة ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية له.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٦﴾

التفسير: حيث إن حبّ الله تعالى قد شُبّه بالخمر التي فيها أضرار، لذلك قد أوضح الله تعالى أن حبّه تعالى سيسكرهم كما تسكر الخمر شاربها، ولكن ذلك لا يعني أنهم سيقعون في العيوب التي ينغمس فيها شارب الخمر. فمن أضرار الخمر مثلاً اللغو والتكذيب، أي أن شاربها يميل إلى العبث وهذر الكلام والشجار، ولكن الله تعالى يقول ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾.. أي لن يقع شارب خمر الجنة في الهذيان والهذر. أتذكّر أنني كنت أتمشى على سقف بيتي مرةً، فسمعت صوت شخص يقول لصاحبه: أتأكل الفلافل؟ ثم سمعت الصوت نفسه مرة ثانية وثالثة، ولكن لم أسمع أي جواب من الطرف الآخر. فنظرت من فوق فوجدتُ أحد السيخ مستندًا إلى جدار يردد هذه الجملة وهو سكران، وكان صاحبه الذي يكلّمه قد

ذهب من عنده وقطع مسافة طويلة، ولكنه كان لا يزال يكرر السؤال نفسه، وظل يردده بعد ذلك أيضًا زمنا طويلا يكون صاحبه قد وصل خلاله إلى قرية أخرى.

فمن أكبر عيوب الخمر أن شاربها يهذي. وعيبها الثاني أن شاربها يميل إلى الشجار والسباب - علمًا أن الكِذّاب مصدر كَذَّبَ، ومعناه أن أحدهما يُكذِّب الآخر، حيث يقول أحدهما: قد قلتَ كذا، فيرد الآخر: كلا، لم أقل - وبسبب هذه العيوب في الخمر يقول الله تعالى عن خمر الجنة ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾.. أي أنهم عندما يُعطَون نعماء الجنة، سواء في شكل كؤوس الخمر أو كؤوس شراب العشق الإلهي، لن يولّد هذا الشراب لغوًا ولا كِذّابًا. إن اللغو يضيّع وقت الإنسان، ولذلك نجد أن الذين يتعاطون الخمر يظلون مشغولين بأعمال هي مضيعة للوقت مثل القمار الذي لا يُلعَب إلا بعد شرب الخمر عادة. ولكن المرء لو تجنَّبَ اللغو، لم يضيّع وقته أوّلاً، وثانيًا لم يفكر إلا في العمل؛ وبالتركيز على العمل يحرز المرء تقدمًا سريعًا، ذلك أنه إذا مال إلى اللغو أضاع وقته في أمور تافهة وفقَد التركيز، لكنه إذا تجنب اللغو تيسر له التركيز ومال إلى عمل بنّاء، وحيث إنه يعتاد العملَ البنّاء ويتجنب اللغو فتزداد فيه قوة الفكر والتدبر، ويصبح دائم التركيز والانتباه إلى كل شيء. وثالثًا أنه بتجنُّب اللغو ينصبّ كل جزء من العمل وكل جزء من الأمة فيما هو نافع؛ ذلك أن المرء إذا تجنّبَ اللغو عمِل ما هو ضروري ومفيد، وإذا قام القوم كلهم بما هو نافع تقدموا بسرعة هائلة.

باختصار، هناك ثلاثة فوائد في تجنُّب اللغو؛ أوّلها: عدمُ ضياع الوقت، وثانيتها: توجُّه الأذهان إلى الغايات دائمًا، وثالثتها: سرعة تقدُّم الأمة نتيجة الأمرين المذكورين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلا كِذّابًا﴾.. أي أن الخمر المادية تؤدي إلى الخصام والشجار، لكن سكر شراب العشق الإلهي يخلو من "الكِذّاب".. أي أنه لن يؤدي إلى خصام ولا شجار بين المسلمين، بل يجعل الواحد منهم مؤيِّدًا ومصدِّقًا للآخر. الحق أن التكذيب يضع الفأس على جذر رقي الأمة، كما يفعل اللغو. إن من لم يعتَد تكذيب الآخرين لا بد أن يحسن الظن بهم، لأن عدم التكذيب يستلزم حسن الظن،

وإذا أحسن المرء الظن بالآخرين فلا بد أن تنعم القلوب بالطمأنينة والسكينة تجاه الآخرين. إن الشر كله نتيجة سوء الظن، إذا اعتاد المرء سوء الظنّ بالآخرين فسيخشى أن تكون زوجته قد سمّمتْ طعامه، وفي هذه الحالة تصبح الدنيا كلها جحيما. هناك عشرات المعاملات الأخرى التي لا بد للمرء من حسن الظن بالآخرين فيها، أما لو ظل فريسة للشك وسوء الظن فسدت معاملاته كثيرًا. ولكن إذا تعامل الناس فيما بينهم بحسن الظن و لم يتنازعوا نعموا باطمئنان القلب، وهذه نعمة عظيمة تتمتع بها الأمة نتيجة حسن الظن. هذه هي الفائدة الأولى لحسن الظن.

والفائدة الثانية أن أفراد الأمة إذا أحسنوا الظن بالآخرين ازدادوا تعاونًا فيما بينهم، وساعدَ بعضهم بعضًا في أعمال البر والتقوى وأشادَ بتعاون الآخرين، وبالتالي مضوا قُدمًا. لو أساء المرء الظن بصاحبه واعتبره عدوًّا له لم يتقدم لمساعدته، أما إذا أحسن به الظن واعتبره صديقًا استعدّ لمساعدته في المحن والشدائد.

إذًا، فالمنفعة الثانية لحسن الظن أن الأمة تزداد تعاونًا.

والمنفعة الثالثة لحسن الظن أن المرء يُقدِم على عمله دون خوف من الناس أن يُفشلوه بإلصاق التهم به، بل إنه يخوض غمار الأخطار نتيجة حسن ظنه بالآخرين. مثلاً إذا كان المرء في محنة وأدرك أن جيرانه سيحضرون لنصرته فورًا ولو بإلقاء أنفسهم إلى الخطر، فسوف يقف هذا في وجه الشدائد بشجاعة، لكن الذي لا يدري ما إذا كان جيرانه أصدقاءه أم أعداءه فلن يقدر على مواجهة المحن. إذًا، فحسن الظن يولد في المرء الجرأةَ عند إقدامه على أي عمل، فيستعد لتقديم أي تضحية من أجل أمته.

قال الله تعالى في وصف الجنة في آية أخرى ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾(الطور:٢٤)، فجاء هنا بكلمة ﴿تأثيم﴾ مكان ﴿كِذَّابًا﴾ ليبيّن أن الكِذّاب والتَأثيم شيء واحد؛ ذلك لأن الكِذّاب يعني تكذيب الواحد الآخر، والتأثيمَ يعني تبادُل الناس التهم فيما بينهم؛ فثبت أن كلتا الكلمتين بمعنى واحد.

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

حسابًا: الحساب: العَدُّ؛ الكافي. (الأقرب)

التفسير: أي تكون لهم هذه النعم جزاءً من ربك.

والمراد من قوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أن هذا الجزاء يكون بحساب.

ويُخيَّل مِن ظاهر كلمة ﴿حِسَابًا﴾ وكأن الله تعالى يركز هنا على أن هذا الجزاء يكون بحساب لا بدون حساب، في حين تنص آيات القرآن الأخرى أن الله رحيم ويجزي الناس على أعمالهم أكثر مما يستحقون. إذًا، فهناك تعارُض في الظاهر بين قوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ وآيات أخرى، حيث يقول الله تعالى إنا نجزي المؤمنين أكثر مما عملوا، بينما يقول هنا إن جزاءهم يكون بحساب!

فليكن معلوما بهذا الصدد أن الحساب يعني أيضًا الكافي كما سبق في شرح الكلمات؛ وعليه فقوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ يعني أنه عطاء سيسدّ كل حاجة للإنسان. وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾.. أي كافيًا وافيًا سالمًا كثيرًا. تقول العرب: أعطاني فأحسَبَني، أي كافاني. ومنه حَسْبِي الله، أي الله كافيَّ."

بيد أن هناك معنى آخر وهو أنهم ينالون عطاء كان في الحساب أي في الحسبان سلفًا، بمعنى أن المؤمن كان يدرك أن الله تعالى سيعطيه كذا من الجزاء، لأنه تعالى أخبره من قبل أنه سيعطيه كيت وكيت من النعم. فالمراد من ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ عطاء كان في الحسبان سلفًا وقد ذكره الله تعالى في أنبائه التي كان المؤمن يرجو تحققها والتي كان الكافر يعلم أن المؤمن قد وُعد بها.

إذًا، فليس المراد من ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أنه عطاء محدود معدود، بل المعنى أنه عطاء موعود. ويماثل هذا التعبير قولنا: هذا الشيء محسوب عندي أو مسجل عندي. فالمراد من العطاء الحساب أنه عطاء مسجل مكتوب في الديوان الإلهي، ومذكور في الأنباء السابقة، يعلمه المؤمن والكافر والصديق والعدو جميعًا.

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

خطابًا: خاطَبَه بالكلام مخاطبةً وخِطابًا: كالَمَه. (الأقرب)

التفسير: قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾، والجزاء يتأتى بواسطة صفته "الرحيم"، ومعناه: مَن يجزي صاحب العمل على عمله، بينما ذكر الله تعالى الآن صفته "الرحمن"، ومعناه: من يعطي بدون عمل مسبق؛ فالسؤال الذي ينشأ هنا هو: ما المقصود مِن ذِكر الله تعالى صفتَه الرحمانية هنا مع أنه قد اعتبر الجزاء نتيجة لصفته الرحيمية في الآية السابقة.

فاعلم أن في ذلك حكمتين، أولاهما التنبيه إلى أن ما أعطاكم الله تعالى قد أعطاكم بحسب صفته "الرحيم"، ولكنه ليس رحيمًا فحسب، بل هو رحمن أيضًا؛ وحيث إنه قد أعطاكم كل هذا بصفته "الرحيم"، فيمكنكم أن تتصوروا ما سيعطيكم بصفته "الرحمن"؛ لا شك أنه سيكون جزاء أكبر بكثير، إذ إنه ليس مقابل عمل منكم، بل يكون وفقًا لصفة الله الرحمن، أي من دون مقابل. وبتعبير آخر، إن الله الذي هو رب السماوات والأرض والذي منحكم هذه النعم بصفته رحيمًا، هو رحمن أيضا؛ وما دام قد أعطاكم، بصفته "الرحيم"، ما يسدّ حاجاتكم كلها بل يزيد، فما بالكم بنعمه التي سيعطيكم بصفته "الرحمن"، وكأنه تعالى يقول لا تظنوا أن هذا آخر ما نجزيكم به، وإنما هو جزاء وفق صفتنا الرحيم، أما جزاؤنا الذي نمنحكم بصفتنا الرحمن، فهو أكثر منه بكثير.

والحكمة الثانية هي أن الله تعالى قد بين بذكر صفة الرحمن هنا أنه برغم أنه قد أطلق على هذه النعم لفظ الجزاء، لكنه في الحقيقية إحسان ومنة منه. وهذا يماثل قول الشاعر "غالب" باللغة الأردية:

جان دی، دی ہوئی اُسی کی تھی

حق تو یہ ہے کہ حق ادا نہ ہوا

أي لقد ضحيتُ في سبيل الله بنفسي التي هي عطاء منه، فالحق أنني لم أستطع أداء حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا، فكأنما الله تعالى يقول هنا: إننا نسمي هذا العطاء جزاء على سبيل الإحسان، وإلا فلم تكن أعمالكم إلا نتيجة طبيعية لأفضالنا، لا لكفاءاتكم الذاتية. فأنّى لكم أن تحوزوا المكانة التي حزتموها اليوم لو لم ننـــزل القرآن ولم ندلّكم بوحينا على طرق الهدى؟ إنه القرآن الذي بلغ بمحمد ﷺ إلى قمة النبوة. إنه القرآن الذي رفع أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا إلى هذه المكانة السامية. لا شك أن هؤلاء قد قدموا تضحيات كبيرة وأسدوا للدين خدمات جليلة، ولكنها كلها كانت نتيجة صفتنا الرحمن وكتابنا القرآن. ومع أننا سمينا هذا العطاء جزاءً، إلا أنه من واجبكم أن لا تنسوا أنه ليس إلا نتيجة صفتنا الرحمن. ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(الرحمن:٢-٣).. أي لو لم يُنـــزل الرحمن إليكم القرآن، ولو لم يفتح عليكم هذه العلوم والمعارف، لما بلغتم المكانة التي بلغتموها اليوم.

وقد أشار الله تعالى بقوله ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أن الله الذي أعطاكم هذا الجزاء يملك السماوات والأرض وما بينهما، فإذا أراد تفضّلَ بكل هذه الأشياء على من يشاء. فهذه الكلمات إشارة إلى سعة عطاء الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فيعني أنه لن يكون لهم خيار ولا قدرة على الكلام مع الله تعالى. نجد في الدنيا أن الإنسان يجبر الآخر بالقوة على ما يريد منه، أو على الأقل يضغط عليه بالقول وإن لم يرضَ به الآخر. فمثلاً بوسع زيدٍ أن يقول لبكرٍ شيئًا، وسواء أرضي بكر بقوله أم رفضه، إلا أن الأول قد تمكن من الحديث معه. أما الله تعالى فهو الوحيد الذي لا يملك الإنسان منه خطابًا أي لا يقدر على الحديث معه، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.. أما في هذه الدنيا فإن الإنسان يؤمن

بالله تعالى غيبًا، فلا مجال لأن يخاطبه تعالى، أما في الآخرة فهناك أيضا لن يقدر أحد على خطابه تعالى من دون إذنه.

علمًا أن دعاء المرء ربَّه لا يسمَّى خطابًا معه تعالى، لأن الخطاب يعني الحديث وجهًا لوجه، ولا أحد يقدر على الحديث مع الله شفاهًا في هذه الدنيا. والشيء ذاته يحدث في الآخرة حيث يخاطب اللهَ تعالى من يأذن له، ولن يقدر على خطابه من لا يأذن له. إذًا، فقوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ يعني أنه لن يكون لهم الخيار لخطابه تعالى، وليس المراد أنه لن يكون هناك خطاب مع الله أصلاً.

كما أن قوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إشارة إلى صفته الرحمن المذكورة من قبل، حيث نبّه الله تعالى هنا إلى أننا قد أنـــزلنا وحْينا منّةً على العباد، وليس نتيجة لعمل منهم. لقد بعثنا محمدًا نتيجة رحمانيتنا، ولو لم نبعثه من عندنا ولم نرسل القرآن لما حزتم رقيًا، ولم تنالوا منا جزاء، فثبت أن الجزاء الذي تنالونه إنما هو نتيجة لِوَحْينا؛ ولكن تذكروا قولنا: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.. أي لا يقدر أي إنسان على خطاب الله تعالى بنفسه، إنما الله نفسه يُنـــزِل فضله هذا على من يشاء من عباده، إذ لا دخل لقدرة الإنسان أو جهوده في نـــزول وحي الله تعالى. وكأن الله تعالى قد بيّن سبب ذكره صفتَه ﴿الرحمن﴾ هنا، حيث يبدو ذكرُها لأول وهلة غيرَ منسجم مع السياق، فقد بيّن بذلك أنكم لم تكونوا قادرين على إحراز هذا الرقي بأنفسكم، بل إن رقيكم مرهون بالعمل بوحينا الذي قد أنزلناه نتيجة لصفتنا الرحمن، إذ لا يقدر إنسان على أن يحظى بوحينا بقوته.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

الروح: اعلم أن (ال) التعريف تفيد أغراضا شتى، منها الكمال، يقال: أنت الرجل، أي الكامل في الرجولية، إذ تتحلى بكمالات الرجولة فعلاً، أما غيرك

فيفتقر إليها (الأقرب). و (ال) التعريف في ﴿الروح﴾ هنا أيضًا للكمال، والمعنى: الروح الكاملة بين الأرواح.

صوابًا: الصواب: اللائق؛ الحق؛ ضد الخطأ. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ يمكن اعتباره ظرفًا لقوله تعالى ﴿لا يملكون﴾ أو لقوله تعالى ﴿لا يتكلمونَ﴾، والتقدير: لا يملكون منه خطابًا يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا، أو لا يتكلمون يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا. والتقدير الثاني هو أقرب إلى المعنى الذي ذكرته.

ما المقصود من الروح هنا؟ قال ابن عباس: إنهم أرواح بني آدم، وقال الحسن وقتادة: هم بنو آدم، وقال الشعبي وسعيد بن جبير: المقصود جبريل لقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(الشعراء:١٩٤). بينما قال البعض: خَلقٌ سوى البشر. (ابن كثير، والطبري)

والمعنى الأخير لغو وباطل، والأخذ به خلاف للعقل ما لم يثبت من القرآن الكريم. أما المعاني الأخرى فيمكن أن تنطبق على هذه الآية. فقول ابن عباس ﵁ يكشف أنه لا يقول بكون الحياة في الآخرة بهذه الأبدان، بل يؤكد أن هذه الأبدان تفنى والأرواح الإنسانية هي التي تنال الحياة في الآخرة، ولذلك فسّر الروح هنا بأرواح بني آدم. بينما قال الحسن وقتادة أن الروح هنا بنو آدم، وهذا يعني أنهم يؤمنون أن الحياة في الآخرة تكون بهذه الأبدان المادية.

هناك اختلاف بين المسلمين فيما إذا كان الناس سيُحيَون بهذه الأجسام المادية، أم أنهم سيُعطَون في الآخرة جسما آخر. أما نحن المسلمين الأحمديين فنؤمن أن الأرواح في الآخرة لا بد لها من جسم، ولكنه يكون جسما روحانيا لا هذا الجسم المادي. إن هذا الجسم المادي سيفنى ويصبح ترابا، غير أن الله تعالى سيأخذ من الجسم المادي جُزَيئًا دقيقًا منه - يجب أن يُسمى جُزَيئًا روحانيا في الواقع - وينمّيه ويطوّره ويجعله جسم الإنسان. سيعتبر الإنسان هذا الجسم استمرارًا وتسلسلاً لجسمه السابق، موقنًا أنه نفس الذي كان في الدنيا، ولكنه سيكون جسما آخر في الحقيقة.

وكما قلت، يتضح من قول ابن عباس أنه هو الآخر يرى أن كل إنسان سيُعطى في الآخرة جسمًا روحانيا، حيث فسّر الروح هنا بمعنى أرواح بني آدم وليس بني آدم. ويبدو أن قتادةَ، وهو تلميذ ابن عباس، فكّر أن أستاذه يفسر الروح بمعنى أرواح بني آدم خلاف ما يعتقده هو، لذلك قال: "هذا ما كان يُخفيه ابن عباس" (ابن كثير).. أي أن ابن عباس كان في الواقع يعني من الروح بني آدم، ولكنه أخفى رأيه تحت غطاء هذه الكلمات. والواقع أن ابن عباس ما كان بحاجة إلى إخفاء أي شيء، إنما الواقع أنه كان يؤمن أن كل من يموت يفنى جسمه، وتحيا روحه فقط.

على أية حال، إن جميع هذه المعاني للروح تنطبق على الآخرة لا على الدنيا؛ ذلك لأن هذه السورة، كما قلتُ من قبل، تتحدث عن غلبة القرآن وغلبة الإسلام وعن يوم القيامة، ولكن هذه المعاني للروح لا تنطبق على هذه المواضيع الثلاثة؛ لا شك أنها تنطبق على القيامة، لكنها لا تنطبق على غلبة القرآن أو غلبة الإسلام؛ ولذا سأذكر الآن معنى الروح الذي ينطبق على هذه الدنيا وعلى الآخرة أيضًا، وإليك بيانه.

المراد من الروح هنا الروح الكامل لرسول الله ﷺ، والمراد من اليوم هنا يوم القيامة الذي سيشفع فيه النبي ﷺ. وهذا المعنى ثابت من القرآن الكريم ومن الحديث كليهما. فقد صرح الرسول ﷺ في حديث أن الناس سيكونون في فزع شديد يوم القيامة، فأَخِرُّ أمام الله تعالى ساجدًا وأشفع لهم. فثبت أن الروح هنا هو روح النبي ﷺ، والمراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ يوم القيامة الذي يقوم فيه النبي ﷺ والملائكة صفا. واعلم أن قوله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أيضًا يبين أن الحديث هنا عن الشفاعة، لأن الشفاعة هي الأمر الوحيد الذي لا يتم إلا بإذن، ولن يقوم بها إلا الذين يأذن الله لهم بها، حيث ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: عندما يأتي يوم القيامة فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبّار: بقيتْ شفاعتي (البخاري، كتاب التوحيد). فتثور رحمة الله تعالى، فينجي الكثير من النار.

ورُبَّ قائل يقول هنا: إذا كانت هذه الآية تتحدث عن الشفاعة فلِم لَم تصرّح أن أناسًا آخرين يشفعون بالإضافة إلى الرسول ﷺ؟

والجواب أنك إذا ذكرتَ الملِكَ فقد ذكرت وزراءَه وحاشيته كونهم توابع له، فالقول إن الرسول ﷺ سيشفع يوم القيامة يشمل شفاعة الأنبياء والشهداء والصلحاء أيضا؛ لأننا إذا ذكرنا الروح الكامل فقد اندرجت فيه تلقائيًا الأرواحُ التي دونه بما فيها أرواح الأنبياء.

إذًا، فقوله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يدلّ بوضوح على أن الحديث هنا عن الشفاعة، وأن المراد من الروح هنا تلك الروح التي ستقوم بالشفاعة وهي روح الرسول ﷺ وليس غيره.

وقد وقع هذا الحادث في هذه الدنيا أيضًا، فعندما قامت روح الرسول ﷺ قامت معها الملائكة أيضًا، وفي هذه الحالة تُعتبر هذه الآية ذات صلة بالحروب الإسلامية، والمعنى أن محمدا ﷺ عندما يخرج لحرب العدو ستصاحبه الملائكة صفًّا لنصرته، وذلك يماثل قول الله تعالى ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ الْمَلائكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(آل عمران:١٢٦)، وعليه، سيُعتبر قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ إشارةً إلى فتح مكة خاصة. فقد حضر المشركون إلى النبي ﷺ يوم الفتح خائفين وجِلين كشعب منهزم أمام ملِك منتصر، حتى لم يملكوا خطابه ﷺ إلى أن سمح لهم بذلك بأمر من الله الرحمن. لا شك أن مشركي مكة كانوا يستحقون عقابًا شديدًا بحسب مبادئ العدل الإنساني، ولكن الله الرحمن أخبر رسوله ﷺ بأنه قد قرّر العفو عنهم؛ فلما رجاه المشركون أن يعاملهم كما عامل يوسف إخوتَه فعل بهم الرسول ﷺ ما علَّمه الله الرحمن في القرآن في قصة يوسف؛ إذ جعله مثيلا ليوسف عليهما السلام. والحق أن محمدا ﷺ عندما عفا عنهم إنما عفا بأمر من الله الرحمن.

ثم إن هذه الآية تُعتبر إشارةً إلى الموضوع الثالث أيضًا وهو غلبة الإسلام، وعليه فسيُعتبر قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ إشارةً إلى يوم يقوم فيه محمد ﷺ فاتحًا، ويكون المراد من الملائكة القائمين صفًّا جماعته ﷺ الذين يشبهون الملائكة في

شمائلهم، والمعنى أنه ستقام حكومة إسلامية منظمة في العالم، وسيخاطب محمد ﷺ العالَمَ مباشرةً. وسيكون المراد من قول الله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أنه لن يتكلم في بلاط محمد ﷺ إلا الذين قد أذن لهم الله تعالى، وأنهم لن يشيروا عليه ﷺ إلا بقول صائب. وبتعبير آخر قد أخبر الله تعالى هنا أنه سيعطي محمدا ﷺ جماعةً مِن أكبر مزاياهم أنهم لن يتكلموا بكلمة إلا بإذن الله، ولن يفعلوا شيئًا إلا بإذن الله، ولن يقولوا إلا ما يتفق وأحكام الله، ولن يعملوا إلا بحسب أوامره ﷻ. أما من سواهم فإنهم يتبعون أهواءهم بغضّ النظر عما أحلّ الله لهم وحرّم، فمثلاً لم يسمح الله بمشاهدة رقص البغايا، ولكنهم يحضرون رقصهنّ، ولم يأذن بسماع الأغاني السيئة الهابطة، ولكنهم يجدون المتعة كلها في سماعها، ولم يأذن الله بإضاعة الوقت في قراءة القصص التافهة، ولكنهم يصرفون معظم أوقاتهم في قراءة الكتب والروايات الهابطة. فكل ما يفعلونه خلاف إذن الله ومشيئته، ولكن الله تعالى قد آتى محمدا ﷺ جماعة لا يتكلمون إلا إذا أذن الله لهم، ولا يقدمون له إلا المشورةَ الصائبة الحقة دونما تملُّقٍ.

إذًا، ترسم هذه الآية لنا صورة بلاط محمد ﷺ.

وفي هذه الحالة لا يراد بقيام الروح قيامًا ظاهرًا، بل يراد به غلبته على الناس، والمراد أنه عندما يقوم هذا الروح الكامل منتصرًا، ويقوم معه الملائكة صفًّا، فلن يتكلم معه إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا.. أي أن أصحابه سيتحلّون بميزة خاصة بأنهم لن يتكلموا إلا إذا أمرهم الله بالكلام، ولن يتكلموا إلا بقدر ما يأذن لهم به، فلن يتفوهوا في مجلس نبيهم ﷺ بلغوٍ، بل سيكون حديثهم خاضعا لأحكام الله تعالى.

وهناك إشارات أخرى في القرآن الكريم إلى هذا المعنى كقوله تعالى ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(المائدة:١٠٢).. حيث نهى الله تعالى أصحاب النبي ﷺ عن توجيه أسئلة عابثة، لأن ذلك خلاف لآداب مجلسه ﷺ، فقال لا تسألوا عما لا يرضى الله السؤال عنه، بل اسألوا عما يرضيه تعالى. وهذا نفس ما بينه الله تعالى في قوله ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.. أي أن صحابة النبي ﷺ

لا يتحدثون في مجلسه إلا ما أذن الله به، ولا يشيرون عليه ﷺ إلا بمشورة صائبة صحيحة لا نفاق فيها، ولا تملق ولا خوف، ولا منفعة شخصية، ولا هوى النفس.

ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

الحق: هو الأمرُ المقضيّ؛ الموجود الثابت. (الأقرب)

مَآبًا: المآب: المرجع والمنقلَب. (الأقرب)

التفسير: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ يعني: ذلك اليوم الواقع الثابت. أما قوله تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ فالمآب ما يرجع إليه الإنسان مرارا. لما كان الإسلام يعتبر الله تعالى معشوقَ المؤمن، فقد بين الله تعالى هنا أنكم إذا كنتم صادقين في دعوى العشق، فاتخِذوا الله مآبًا.. أي كلما فرغتم من مشاغل دنياكم ارجِعوا إليه تعالى، ولا تكنّوا الحب والعشق إلا له. وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى نفسه في مكان آخر حيث قال ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الشرح:٨-٩).. أي إذا فرغتم من مشاغل الدنيا فارغبوا إلى الله واتخذوه مآبا وارجعوا إليه مرة تلو الأخرى. فمثلاً إذا كان المرء يؤلّف كتابًا فعليه أن يسبّح الله تعالى كلما انتهى من تأليف جملة، وإذا كان يتناول الطعام فعليه أن يحمد الله وهو يمضغ كل لقمة، وهكذا يجب أن يكون الله وحده مآبه، ولا يتوجه حقيقةً إلا إليه سبحانه وتعالى.

فالآية إشارة إلى أن يوم غلبة الإسلام قريب، ومن الطبيعي أن يتمنى كثير من الناس أن يكون لهم نصيب من هذه العزة، فليعلم هؤلاء أنهم إذا كانوا يتمنون حقًّا أن ينالوا نصيبا من عزة الإسلام، فليتخذوا ربهم مآبا، ولينيبوا إليه مرة بعد أخرى. فكلما فرغوا من مشاغل دنياهم فليتوجهوا إلى ذكر الله تعالى، ويزدادوا حبا له، ويسارعوا إليه ويتخذوه ملاذا. لا يكفي الإنسانَ أن يؤدي الصلوات الخمس يوميًا ويصوم ثلاثين يومًا سنويًا، وإنما ينفعه أن يظل متوجها إلى الله كل حين، ويعود إليه مرة بعد أخرى.

إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

أنذرناكم: أنذَرَه بالأمر: أعلَمَه وحذَّره من عواقبه قبل حلوله. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يدل بوضوح أن الحديث هنا عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن وليس عن عذاب الآخرة، حيث استدل الله بشيء على شيء آخر، فقال أنذرناكم عذابًا قريبًا سيكون نزوله دليلا على عذاب بعيد.

أما قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فهو بدلٌ من ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾، والمعنى أننا نعني من العذاب القريب ذلك اليوم الذي يرى فيه المرء عاقبة أعماله. وليس المراد من الرؤية هنا أنه يراه صدفة، بل المعنى أنه سينكشف عليه بوضوحٍ فشلُه وخيبة آماله وينال جزاء أعماله، ويرى أن المسلمين قد انتصروا، وأن أعداءهم قد خابوا وخسروا وذلوا.

وهذا ما حصل بالفعل، فبانتصار النبي ﷺ رأى الكافرون مصيرهم، ونال المؤمنون جزاءهم، حتى إن ابن أبي قحافة (أبو بكر) تولّى زمام الأمر نتيجة انتصار الإسلام، وإلا فما كان لأبي بكر أن ينال هذه السيادة. لم يكن أبو بكر رضي الله عنه إلا تاجرًا بسيطًا في مكة، ولكن شتان بين هذا التاجر المكي البسيط المحروم من السيادة حتى على مستوى مكة، وبين خليفة يحكم الدولة الإسلامية. عندما توفي النبي ﷺ كان أبو قحافة (والد أبي بكر) في مكة، وكانت وفاته ﷺ قد بثّت الذعر بين المسلمين فكانوا قلقين فيمن يخلفه ﷺ. فلما انتُخب أبو بكر خليفة للرسول ﷺ ووصل هذا الخبر إلى مكة أسرع بعض القوم إلى أبي قحافة وقال له: إن أبا بكر قد صار خليفة المسلمين. فقال أبو قحافة: مَن أبو بكر؟ - أي أنه لم يكن يتصور أن ابنه يمكن أن يصبح خليفة - فقال البشير: هو ابنك. فأخذ أبو قحافة يذكر له أسماء مختلف القبائل ويسأله: هل رضيت بخلافته القبيلة الفلانية؟ فرد عليه في كل مرة بالإيجاب،

حتى سأله: هل رضي بنو هاشم أيضًا؟ قال: نعم. فكبّر أبو قحافة وقال: لا شك أن محمدًا رسول الله، لأن القبائل العربية ورؤساءها لم ترضَ بابن أبي قحافة سيدًا عليهم إلا بتأثير قوته ﷺ القدسية فيهم.○

باختصار، إن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني أن كل واحد من القوم سيرى عاقبة عمله. وبالفعل فقد رأى الجميع كيف صار زعماء العرب الكافرون أذلّة مهانين، وكيف دخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب في طاعة ابن أبي قحافة.

أما قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فيعني - نظرًا إلى موضوع الآخرة - أن الكافر حين يرى العذاب يقول في حسرة: ليتني كنت ترابًا و لم أر العذاب.

وأما نظرًا إلى هذه الدنيا فيعني أن الكافر سيقول: يا ليتني كنت ترابًا و لم أرَ هذا الخزي والهوان. وهذا ما حصل فعلاً زمن انتصار المسلمين وغلبتهم، فيمكنك أن تتصور مدى الحسرة التي كانت تعتصر قلوب كبار زعماء مكة ورؤسائها حين رأوا أن العبيد الذين آمنوا بمحمد (ﷺ)، والذين كانوا يحتقروهم ويزدروهم ويجرّوهم في شوارع مكة ويسعون للقضاء عليهم صباح مساء، قد انتصروا عليهم، حتى إنهم ماثلون أمامهم الآن أذلة مهانين كالعبيد. لا شك أهم تمنّوا عندها أن يكونوا ترابًا حتى لا يتعرضوا لهذا الذلّ والهوان والندم. جاء عمر رضي الله عنه مرة إلى مكة في زمن خلافته، فحضر للقائه كبار رؤسائها الذين كانوا من عائلات عريقة شهيرة، ظانين أن عمر رضي الله عنه وقد صار ملِكًا سيُعزّهم لأنه يعرف عائلاتهم وسيستعيدون مجدهم الغابر. وبينما هم يتحدثون معه رضي الله عنه حضر بلال ثم بعد قليل جاء خباب، ثم جاء بعدهما غيرهما من أوائل المؤمنين الذين كانوا في الماضي عبيدًا

○ الرواية التي وجدناها بهذا الصدد هي كالآتي: "لما قُبض رسول الله ﷺ ارتجّتْ مكةُ، فقال أبو قُحافة: ما هذا؟ قالوا: قُبض رسول الله ﷺ. قال: فمَن وَلِيَ الناسَ بعده؟ قالوا: ابنك. قال: أرضيتْ بنو عبد شمس وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: فإنه لا مانعَ لما أعطى الله، ولا معطيَ لما منع الله". (الطبقات الكبرى: ذكرُ بيعة أبي بكر)

لهؤلاء الرؤساء أو لآبائهم، وتعرضوا على أيديهم لأشد الاضطهاد زمنَ قوتهم. فكلما دخل أحد هؤلاء العبيد استقبله عمر بحفاوة وقال لهؤلاء أن يتأخروا ويفسحوا له المكان في صدر المجلس، و لم يزل هؤلاء الزعماء يتأخرون حتى وصلوا الباب.

لم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة، وإنما كان المجلس غرفة صغيرة، وحيث إن الغرفة الصغيرة لم تتسع لهم جميعا، فقد اضطر هؤلاء الزعماء إلى التأخر في كل مرة حتى وصلوا أماكن الأحذية. فلما رأوا بأم أعينهم أنه كلما أتى عبدٌ من هؤلاء أمرهم عمر بأن يتأخروا ويفسحوا له المكان حتى وصلوا إلى الأحذية، أصابتهم صدمة شديدة. لقد هيّأ الله تعالى في تلك المناسبة أسبابا لإهانتهم، حيث جاء العديد من هؤلاء المسلمين العبيد واحدا تلو الآخر على فترات، لا دفعة واحدة. لو حضروا مرة واحدة لم يشعر هؤلاء الزعماء بإهانة شديدة. ولكنهم لما اضطرّوا مرارًا للتأخر في المجلس من أجل العبيد أحسّوا بإهانة شديدة لم يحتملوها فخرجوا من المجلس. ولما خرجوا أخذوا يقولون فيما بينهم: انظروا إلى الذلة والهوان الذي لقيناه اليوم! لقد جاء هؤلاء العبيد واحدا تلو الآخر، وفي كل مرة أمرنا عمر أن نتأخر حتى وصلنا إلى مكان الأحذية. فقال أحدهم: مَن المذنب، عمر أم آباؤنا؟ لو فكرتم لوجدتم أن الذنب ليس إلا ذنب آبائنا الذي نلنا عقابه اليوم. فإن الله تعالى لما بعث رسوله ﷺ عارضه آباؤنا، ولكن هؤلاء العبيد آمنوا به، وتحملوا بصبر كل أذى في هذا السبيل. فنحن المسؤولون عن الإهانة التي أصابتنا اليوم في المجلس لا عمر. فقال له أصحابه: صحيح أن الذنب ذنب آبائنا، ولكن هل من سبيل لإزالة وصمة العار هذه؟ ثم تشاوروا فيما بينهم، وقالوا: لا نعرف لذلك سبيلا، تعالوا نسأل عمر. فحضروا مجلسه مرة أخرى، وقالوا: تعلم أنت ونعلم جيدا ما تعرضنا إليه من إهانة في مجلسك. فقال عمر رضي الله عنه: أرجو المعذرة على ما حصل، لأن هؤلاء قوم كان النبي ﷺ يُعزّهم في مجلسه، فكان من واجبي أن أُعزّهم في مجلسي. فقالوا: نحن نعلم أن الذنب ذنبنا، ولكن هل من سبيل إلى غسل هذا العار؟

ليس بوسعنا اليوم أن ندرك مدى النفوذ الذي كان يتمتع به هؤلاء الزعماء في مكة، أما عمر فكان يعلم قبائلهم جيدا، إذ ولد في مكة وترعرع فيها، وكان يعلم

كم كان آباؤهم ذوي عزة ومنعة في مكة! كان يعلم أنه لم يكن بوسع أحد أن يرفع بصره أمامهم. فلما سمع كلامهم تراءت أمامه الأحداث والأحوال الماضية كلها، فغلبته الرقة و لم يستطع الكلام، وإنما رفع يده وأشار بإصبعه إلى الشمال، وكان يعني أن المسلمين يحاربون الأعداء ناحية الشام فلو اشتركوا فيها فربما كفّر هذا عما صدر منهم في الماضي. فخرجوا من عنده، ثم أعدّوا عدّتهم وارتحلوا إلى الثغور حيث كانت تلك الحرب الطاحنة دائرة فخاضوا غمارها، فلم يرجع أحد منهم حيًّا، بل استُشهدوا فيها جميعا كما يذكر التاريخ؛ وهكذا محوا وصمة عار عن قبائلهم. (مناقب عمر بن الخطاب ﷺ للجوزي، الباب الثامن والثلاثون، ذكرُ عدله في رعيته)

هذه هي حسرة هؤلاء الرؤساء الذين كانوا مخلصين ومؤمنين بالرسول ﷺ، فما بالك بالحسرة والندامة اللتين أصيب بهما الكافرون منهم. يمكننا أن نتصور كيف كانوا يموتون كمدًا قائلين ليتنا متنا قبل هذا وكنا ترابًا حتى لا نرى هذا اليوم المشئوم. بوسعنا أن نقدّر الخزي الذي لقِيه الكافرون حين أُرغمت أنوفهم يوم فتح مكة لما رأوا أن القوم - الذين كانوا يؤذونهم بالسباب والضرب والجرّ في شوارع مكة، ووضعِ حجارة كبيرة حامية على صدورهم ليردّوهم عن الإيمان - يدخلون مكة ممتطين جيادهم، بينما كان هؤلاء ينظرون إليهم مختفين في بيوتهم. لا شك أنهم يكونون قد قالوا بلسانهم مرارا: ليتنا متنا قبل هذا و لم نر هذا اليوم المُهين.

باختصار، قد أخبر الله تعالى في أوائل أيام الإسلام نفسها عن الظروف التي سيمر بها الإسلام والمسلمون، وبالفعل قد تحقق قول الله تعالى في حياة القوم الذين اعتبروا تلك الأنباء ضربًا من الخبل حيث رأوا بأم أعينهم أن الوضع انقلب رأسًا على عقب حسب هذه النبوءات.

سورة النازعات

مكية، وهي سبع وأربعون آية مع البسملة

هذه السورة مكية عند عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير. وقد أجمع المفسرون على أنها مكية، ولا يوجد أي اختلاف في هذا. (فتح البيان)

إن ما يربط هذه السورة بالتي قبلها هو أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة للكافرين أنكم تحتقرون المسلمين اليوم وتسخرون منهم لقلّة عددهم متسائلين: أي انقلاب ستُحدثه هذه الحفنة من الناس في الدنيا؟ فاعلموا أنهم سينتصرون عليكم يومًا، وتصبحون أذلّة صاغرين. علمًا أن عدد المسلمين لم يكن قد تجاوز أربعين شخصًا لدى نزول السورة السابقة (النبأ)، ومع ذلك أخبر الله تعالى فيها أنه سيأتي يوم يصبح فيه المسلمون غالبين ويأمرون المشركين بمغادرة مكة.

والواقع أن الأنبياء عندما يدلون بالأنباء يصبح الناس فئتين؛ فئة تنظر إلى الأمور كلها نظرة روحانية، فإذا قيل لهم قد قال الله كذا وكذا، فغاية ما يهتمون به هو مدى صحة صدور هذا النبأ عن الله تعالى، فإذا علموا بأن الله تعالى هو الذي قال هذا اطمأنوا موقنين بأنه واقع لا محالة؛ وفئة أخرى لا يطمئنون وإن علموا أن هذه النبوءة صادرة من الله تعالى وليست افتراءَ بشر، بل يريدون أن يروا في هذه الدنيا المادية آثارًا مادية دالّة على تحقُّقها. يقولون: كلما أراد الله تعالى فِعل شيء سخّر له أسبابًا، ولا يقوم بشيء بدون سبب، ولكنا لا نرى في الدنيا أية أَسباب لتحقق هذا النبأ. فنفوسهم لا تطمئن ما لم يروا في الدنيا المادية آثارًا ظاهرة شاهدة على صدق تلك الأنباء، وإذا ظهرت الأمارات الظاهرة أيقنوا بتحقّق النبوءة؛ لذا لما أنبأ الله تعالى بغلبة المسلمين حتى إنهم سيطردون المشركين من مكة قال الكافرون في حيرة: كيف يدّعي هؤلاء القوم بغلبتهم على المشركين بحيث يطردونهم من مكة نفسها، مع أن عددهم لم يتجاوز الأربعين، والعدو يؤذيهم ويضطهدهم حتى يلقيهم على

الحجارة الحامية ويجرّهم في الشوارع، ونحن لا نرى في الدنيا أية آثار لغلبتهم؟ فجاءت سورة "النازعات" ردًّا على تساؤلهم، حيث بيّن الله تعالى فيها تفاصيل "المفاز" الذي وعد به المتقين في سورة "النبأ" بقوله ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ففصّل كيفية انتصار المسلمين وازدهارهم والآثار التي تقنع هؤلاء المتسائلين حول غلبة المسلمين. لا شك أن المسلمين سينالون في الآخرة ما وُعدوا من النعم، إلا أن الله تعالى قد أكد هنا أنه سيُهيئ أسبابًا لغلبتهم في الدنيا، لتكون دليلاً على صدق ما وعدهم به في الآخرة. وقد بين الله تعالى هنا تفاصيل تلك الفترة من رقي المسلمين، كما أنبأ عن نشوب الحروب أيضا. فكأنه تعالى يقول للكافرين: تسألون كيف تتمّ غلبة المسلمين وازدهارهم، فجوابنا أن حروبًا ستندلع وستؤدي إلى غلبتهم وازدهارهم. وبتعبير آخر، سيتوجه المسلمون، بعد إصلاح نفوسهم، إلى نفس السلاح الذي يُستخدم ضدهم اليوم. تُغيرون عليهم اليوم بالسيف لإيذائهم واضطهادهم، لكنهم يكفّون عنكم أيديهم متمسكين بأهداب الصبر عملاً بأمر الله تعالى، ولكن الله عندما يرى أنكم لا ترتدعون عن اضطهادهم سيأذن لهم برفع السيف ضد السيف ليذيقكم وبال ظلمكم. سنجعل المسلمين، بعدما تتم تربيتهم الروحانية، يصحون كما يصحو النائم من نومه، ونقول لهم تعالوا هُبُّوا الآن وقارِعوا السيف بالسيف. إنهم الآن كالأسد النائم الذي يمكن أن تعلوه الفأرة، ولكنه حين يفيق من سباته فلن يقدر على مواجهته المحارب المدجج بالسلاح. إذًا، فإن الله تعالى يخبر في هذه السورة أن المسلمين سيظلّون بأمرٍ منا رُقودًا أول الأمر ليصبّ عليهم الكافرون ما شاءوا من الظلم ولن يرفعوا أي شكوى على ظلمهم، حتى إذا أيقن الكافرون أن المسلمين ليسوا إلا تماثيل من الطين وأنهم قادرون على إيذائهم كيفما شاءوا، أيقظنا هذا الأسد النائم، فيهبّ من نومه مجلجلاً، ولن يستطيع أحد مواجهته. عندما يهبّ أسدنا هذا من رقاده بأمر منا ستبدأ سلسلة من حروب طويلة تهيئ الأسباب المادية لغلبة المسلمين وازدهارهم. لا شك أن هذا الأمر أيضًا نبأ غيبي، ولكن المرء إذا علِم كيفيةَ تحقُّقِ نبأٍ ما بشكل مادي اطمأن إلى حد ما وقال في نفسه: إذا تحقق هذا الأمر تحققت النبوءة أيضًا. كان المنكر يظن أن

القرآن ربما يدعي في سورة "النبأ" أن الملائكة سينـــزلون ويُكرهون الناس على الإسلام، ولكن الله تعالى عندما أخبر بهذه الأسباب المادية لغلبة الإسلام كان ذلك أدعى لأن تقتنع النفوس الراغبة في رؤية الأسباب المادية وتطمئن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

النازعات: نزَع الشيءَ مِن مكانه نَزْعًا: قلَعه؛ ونزَع الأميرُ العاملَ عن عمله: عزَله؛ ونزَع بالسهم: رمى به؛ ونزَع في القوس: مَدَّها أي جذَب وَتَرَها؛ ونزَع عن القوس: رمى عنها؛ نزَع الدلوَ: جذَبها واستقى بها؛ ونزَع المريضُ: أشرفَ على الموت؛ ونزَع عن الأمر نُزوعًا: كَفَّ وانتهى عنه؛ ونزَع الولد أباه، أو إلى أبيه نزوعًا: أشبَهَ أباه؛ ونزَع إلى الشيءِ نِزاعًا: ذهب إليه؛ ونزَع بفلان إلى كذا: دعاه إليه؛ ونزَع الرجل إلى أهله نَزاعةً ونِزاعًا ونُزوعًا: اشتاق. (الأقرب)

غَرْقًا: وليكن معلومًا أننا نستعمل "غَرْق" في اللغة الأردية بمعنى الموت في الماء، ولكن الغَرْق لا يُستعمل في العربية بمعنى الغَرَق؛ حيث يقال: غَرَقَ غَرَقًا. والحق أن لفظ ﴿غَرْقًا﴾ الوارد هنا هو مصدرُ (أغرَقَ)، وكأن الغَرْق هنا بمعنى الإغراق، ونظير هذا الاستعمال قولُه تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(البقرة:٧٥)، والجميع متفقون على أن خشية الله هنا بمعنى إخشاء الله.

وأَغرَقَه في الماء: غرَّقه؛ وأغرقَ الكأسَ: ملأها؛ وأغرقَ النازعُ في القوس: استوفى مَدَّها، يقال أغرقَ النَبْلَ: إذا بلَغ به غايةَ المدّ في القوس؛ وأغرقَ فلان في الشيء: بالغَ فيه وأطنبَ؛ وأغرقَ الناس فلانا: كَثُروا عليه فغلبوه. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني:

١- الكائنات التي تقلع الشيءَ مِن جذره قلعًا.

٢- أو الفئات التي تتقن أعمالها إلى أقصى حد الإتقان.

٣- أو الفئات التي تعزل حاكمها وتبلغ القمة في تدابيـــرها وخططها.

٤- أو فئات الرماة التي تمدّ النبل بقوة حتى تبلغ به غايةَ المدّ في القوس.

٥- أو الفئات التي تجذب الدلو جذبًا لتسقي الناس.

٦- أو الجماعات التي تتجنب أمورًا معينة كل التجنب.

٧- أو الجماعات التي تشبه آباءها، الماديين أو الروحانيين، غاية الشبه.

٨- أو الجماعات التي في قلوبها رغبة عارمة لتحقيق أهدافها.

٩- أو الجماعات التي تدعو الناس إلى هدفها بحماس شديد.

التفسير: اعلم أن الواو في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ للقَسَم، أما الواو في الآيات التي تلتْها فهي للعطف. يقول الله تعالى نُقسم بالنازعات غَرْقًا.

هناك ثلاثة حروف للقَسم في اللغة العربية، هي: الواو والباء والتاء؛ وحرفُ (الواو) هو أكثرها استعمالا، ولكن (الباء) هو الحرف الأصلي للقسم. ويظهر (الباء) مع فعل القسم فيقولون: أُقسم بالله، ولكن لا يقولون أبدا: أُقسم تالله أو أُقسم والله؛ وهذا يكشف أن الحرف الأصلي للقسم هو (الباء)، غير أنهم يستخدمون (الواو) و(التاء) أحيانًا، وكأن الواو والتاء تابعتان للباء في القَسم. إن جميع الأقسام - التي وردت في القرآن الكريم بمعنى الإدلاء بالشهادة - تبدأ بالواو لا بالتاء ولا الباء، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الواو أنسب للشهادة التي يستشهد فيها الأعلى بمن دونه، أي يستشهد فيها الله بخَلْقه، حيث يقول الله تعالى هنا: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، و لم يقل: "تَالنّازعاتِ غَرْقًا".

فلسفة أقسام القرآن:

رغم أن هذا ليس مجالَ هذا البحث، إذ كان مكانه الطبيعي تلك السور الكثيرة السابقة التي قد جاء فيها القَسم، ولكن حيث إننا ننشر تفسير هذه السور الأخيرة من القرآن قبل تلك السور، فنورد هذا البحث هنا، مثلما فعلنا ببحث الحروف المقطعة في سورة يونس التي نشرنا تفسيرها قبل تفسير سورة البقرة. إذًا، فلا بدّ هنا من مناقشة أسباب قَسم الله تعالى ببعض الأشياء في القرآن الكريم، ونرى ما إذا كانت هذه الأقسام من قِبل الله تعالى أم من قِبل العباد؟

إن التدبر القليل يكشف لنا أن هذه الأقسام ليست من العباد، لأن الموضوع المذكور بعدها لا يمكن أن يكون من قبل العباد، حيث يقول الله تعالى بعدها مثلاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾؛ وهذه نبوءة، والإنسان يجهل الغيب فلا يستطيع أن يدلي بالنبوءات، وإنما يتنبأ مَن يعلم الغيب. فثبت أن هذه الأيمان من عند الله تعالى.

وهنا ينشأ سؤال: ما الحكمة في هذه الأقسام الواردة من قِبل الله تعالى في آيات قرآنية عديدة؟ إن الإنسان يحلف بالله تعالى لأنه تعالى قاهر فوق العباد، ولا قِبل لهم به؛ فكأنه يقدّم اللهَ تعالى شاهدًا على صدق دعواه ويقول لو كنت كاذبا في حلفي بالله فإنه تعالى قادر على إهلاكي، وإن لم يفعل فاعلموا أنه يشهد على صدقي.

ولكن ليس فوق الله تعالى أحد حتى يجعله شاهدًا على صدق ما يعلن، وهنا ينشأ السؤال التالي: ما دام كل شيء هو أدنى من الله تعالى شأنًا وقدرة، فما الفائدة في قسم الله تعالى في القرآن بمختلف الأشياء؟ إذا كان الإنسان يحلف بمن فوقه، فلماذا يقسم الله تعالى بهذه الأشياء مع أنه فوق الجميع وليس فوقه أحد؟

معنى القَسم

لقد سبق أن بينتُ أن مفهوم الحلف هو أن الحالف يقصد بحلفه أن الله تعالى يكره الكذب ويأمر بالصدق، فلو كذَب في قوله خالفَ أَمْرَ الله تعالى، وأثار غضبه عليه؛ فلذا يُقسم بالله تعالى إنه صادق فيما يقول، وإذا كان كاذبًا فليعاقبْه الله على كذبه وعصيانه، لأنه أوّلاً قد خالف أمر الله تعالى بقول الصدق، فلجأ إلى الكذب بدلاً من الصدق، وثانيًا ارتكب ذنبًا زائدًا بأن جعل الله شهيدًا على أنه صادق فيما يقول. إذًا، فإنه عصى الله تعالى الذي أمرنا بقول الحق من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكذب فقط بل حاول أن يجعل الله تعالى شريكا في كذبه إذ قال إنه تعالى شاهد على صدق ما يقول. والظاهر أن المرء لو ارتكب ذنبًا لم تثُرْ غيرة الله عليه كما تثور عندما يرتكب ذنبًا ثم يريد أن يجعل الله شريكًا في ذنبه أيضا. لا جرم أن غيرة الله تثور ضد كل ذنب، بيد أن هنالك فرقًا بين الكاذب العادي وبين الكاذب الذي يجعل الله شهيدًا على ما يقول؛ فمثله كمن يشرب الخمر وإذا لامه أحد أشار

إلى أحد الأتقياء الذي يحترمه الناس وقال: إنه أيضًا يشرب الخمر؛ فيزداد غضب الناس عليه وتوبيخهم له حيث يقولون: تشرب الخمر وتضم شخصًا تقيًّا إلى إثمك؟! كذلك يسخط الله على كل إثم، ولكن المرء إذا حلف كذبًا أثار غضبه أكثر؛ إذ حاول أن يضم الله تعالى إلى كذبه وافترائه.

فالحق أن قَسم المرء يعني إشراكه الله تعالى في فعله. فإذا كان ما يحلف به أمرًا حقًّا، فلا حرج في قَسمه، كأن يقول: أحلف بالله أنني أصلّي، فإذا كان يصلّي بالفعل، فلن تثور غيرة الله عليه، لأن الله تعالى يعلم أنه صادق فيما يقول؛ ولكن إذا لم يكن يصلي، ومع ذلك حلف بالله أنه يصلي، فإنه قد أراد في الواقع أن يجعل الله تعالى شريكًا في كذبه وخداعه؛ وبالتالي أثار عليه غيرة الله تعالى.

إذًا، فإن هدف الحالف طَمْأنةَ السامعين في الواقع، لأنه عندما يحلف بالله على فعله فإن الله تعالى لا يشهد بلسانه على صدقه، و لم يحدث قط أن الله تعالى قال للناس إن عبدي هذا يصدقكم القول، ومع ذلك فإن الحالف يدرك أنه لو حلف كذبا فلا بد أن يبطش الله به، كما يدرك السامع أيضًا بأنه لو كان كاذبًا في يمينه وجعل الله شريكًا في كذبه، فلن يتركه الله تعالى بدون عقاب.

إذًا، فالحلف له هدفان؛ أولهما أن الحالف يُطَمْئن الآخرين بأنه موقن بصدقه لدرجة أنه يُشهد الله على ما يقول، وكأنه يقول إن علمي وعلم الله متوافقان، وأن الله يعلم ما أعلم بهذه القضية، وأنه لم يقل شيئا خلاف الحقيقة. وثانيهما: أن السامع يُطْمَئن بأن الحالف ما دام قد جعل الله شريكًا في قوله فلا داعي للقلق لأن الله تعالى سيتولى عقابه إذا كان كاذبًا فيما قال.

باختصار، هذه هي الحكمة في القَسم، بأن المرء من ناحية يُبدي اتحادًا مع الله تعالى، بمعنى أنه يقول إن علمه وعلم الله تعالى متوافقان بهذا الصدد، وإن الله يعلم ما يعلم هو في تلك القضية. مثلاً عندما يقول الحالف أُقسِم بالله تعالى أن زيدًا قد ذهب إلى لاهور، فإنه يعني أن عِلمه وعلم الله - الذي هو عليم وخبير بكل ما في السماوات والأرض والذي لا تخفى عليه خافية - متوافقان بهذا الشأن، ومن ناحية

أخرى يطمئن السامع بأنه لو كان كاذبا فيما يقول فإن الله تعالى بنفسه سيبطش به، وإذا بطش به نعلم أنه كان يفتري فيما يقول.

إذًا، للقَسم هدفان: أحدهما أن الحالف يجمع علمه مع علم الله تعالى، أي يقول إن علمي وعلمه متوافقان بهذه القضية؛ والثاني أنه يتحدى عقاب الله تعالى إذ يعني أنه إذا كان كاذبًا فيما يقول باسمه تعالى فإنه مستعد لبطش الله وعذابه.

بيد أن الله تعالى ليس فوقه حاكم ومن المستحيل أن يعاقبه أحد؛ فيطرح هنا السؤال التالي نفسه: ما الفائدة في قَسم الله ببعض الأشياء؟ فإن الإنسان عندما يحلف بالله على شيء فيعني أنه يجعل الله تعالى شريكًا في فعله، وأنه تعالى سيعاقبه إذا كاذبًا في حلفه، أما الله فلا يمكن أن يحاسبه أحد. والأمر الثاني الذي يستهدفه الحالف بالله تعالى أنه يعلن أن علمه وعلم الله تعالى متوافقان في تلك القضية، وهذا الهدف أيضًا لا يوجد في قسم الله بأشياء أخرى، لأن الله غالب على الجميع في علمه حتمًا، فلا فائدة في أن يدعم قوله باعتبار علمه متوافقا مع علم الآخرين، وبالتالي من المحال أن يشهد الله بعلم المخلوق على صحة علمه ﷻ؛ فما الفائدة من أن يُقسم الله تعالى بالمخلوقات التي لا حول لها ولا قوة أمامه تعالى، ولا يساوي علمها أمام علمه سبحانه شيئًا؟ فيمكن للطالب مثلاً أن يقول لزملائه إن ما أقوله هو الحق، وبوسعكم أن تسألوا أستاذنا في ذلك، ولكن الأستاذ لا يقول أبدًا: إن ما أقوله صحيح، فاذهبوا إلى تلميذي فلان لتتأكدوا منه. فأعداء القرآن يعترضون عليه قائلين: إن مثل هذه الأقسام عبثية ووجودها في كلام الله تعالى يتعارض مع العقل.

مفهوم القَسَم في اللغة العربية

قبل الرد على اعتراضهم لا بد من معرفة مفهوم القَسم في العربية، لأن القرآن الكريم قد نزل بها، وإذا فهمنا معنى القَسم فهمنا الحكمة في قسم الله بالأشياء الأخرى.

هناك ثلاث كلمات تُستخدم بمفهوم القَسم في العربية: الحلف واليمين والقَسم.

والقَسم مفهوم لنا سلفًا.

أما الحلف فيقال: حلَف بالله حلفًا: أَقسمَ به (الأقرب). وهذا المعنى للحلف لا يزيدنا معرفة، بل يشير إلى المفهوم الشائع للقَسم؛ ولذا لا بد لنا من تحرّي مفهوم الحلف نظرًا إلى اشتقاقيْه الصغير والكبير، حتى نعلم المفاهيم المنطوية في لفظ الحلف.

فاعلم أن جميع مشتقات الحلف، سواء مِن الاشتقاق الكبير أو الاشتقاق الصغير، تدلّ على مفهوم القَسم إلا (الحَلْفاء)، فهي نبتٌ أطرافُه محدّدة ينبت في مغايض الماء. (الأقرب)

أما لفظ (الحليف) فهو: كل شيء لزِم شيئًا فلم يفارقه؛ والحديدُ من كل شيء (الأقرب). فحروف (حلف) تنطوي على معنيين، أولهما لزوم الشيء شيئًا، والثاني كون الشيء حادًّا.

والآن نتوجه إلى المشتقّات الأخرى لحروف (حلف)، وهي خمسة: حفل، لحف، لفح، فحل، فلح.

ولنأخذ (حفل) أولاً. ومشتقات (حفل) كلها تدل على الاجتماع والكثرة، فالحَفْلة تعني الجلسة والاجتماع حيث يجلس الناس بعضهم مع بعض. وهذا هو مفهوم (الحليف) إذ يعني لزوم الشيء شيئا بحيث لا يفارقه.

والحفل: الاجتماع، يقال حفَل القوم: احتشدوا واجتمعوا (الأقرب).

ومن معاني الحفل إبلاغ الأمر أقصى حد، يقال احتفل فيه: بالغَ، واحتفل بالأمر: أحسنَ القيام به (الأقرب). وهذا المفهوم يدل على معنى الملازمة وعدم المفارقة، لأن المرء لا يبالغ في عمل إلا إذا لازمه ولم يفارقه. كذلك لا يحسن المرء القيامَ بشيء إلا إذا واظب عليه وثابر؛ لأن من الناس من يبدأ العمل ثم يتركه ولا يكمله لافتقاره إلى المثابرة، أما الشخص الناجح فيثابر على عمله وكأنه يلازمه ولا يفارقه. فثبت أن هذا المعنى أيضا يدل على ملازمة الشيء شيئًا.

أما (لحف) فيدل على لفّ الشيء والادّثار به والتغطي به، ومنه لفظ (اللحاف) المستعمل في لغتنا الأردية أيضا، حيث نلفّه حولنا عند النوم فيغطي الجسم طول الليل.

أما (لفح)، فيحتوي على معنى اللمس والمسّ، يقال لفَحه بالسيف: ضرَبه به (الأقرب). وهذا المعنى للفح ينطوي على المعنى الثاني أيضًا أعني إلحاق الضرر. وكذلك يقال: لفَحتْه النار: أحرقتْه، وفي "اللسان": أصابتْ وجهَه. واللُفّاح نبتٌ يُشَمّ. (الأقرب). إذًا، فاللَّفْحُ يدل على اللمس والمساس وإلحاق الضرر.

أما (فحل) فالفحل: الذَكَر من كل حيوان (الأقرب). وهذا المعنى أيضا يتضمن معنى اللمس، لأنه يلتصق بأنثاه عند السفاد. ومن معاني الفحل الراوي (الأقرب)، والراوي أيضًا يلازم من ينقل عنه الروايات. والفَحْلة من النساء: السليطة (الأقرب).. أي التي إذا تكلمتَ معها صَعُبَ عليك التخلص منها. وهذا المعنى يوجد في لغتنا (الأردو) أيضا، حيث نقول: هلا انتهيتَ عن الكلام وتركتني؟ إذًا فهذه الكلمة أيضا تدل على معنى الملازمة وإلحاق الضرر.

أما (فلح) فمنها الفَلاح: أي الفوز والنجاح. هذا المعنى أيضًا ينطوي على مفهومٌ ملازمة الشيء، لأن الذي ينال بُغيته لا ينفصل عنها، ولا يدَعها تقع في أيدي الآخرين. من معاني (الفلح) شقُّ الشيء، ومنه الفلاّح الذي يشقّ الأرض بالمحراث شقًّا. والفلّاح يعني أيضا المِجْداف يحرّك به الملّاح السفينة. وهنا أيضًا نجد معنى الشقّ حيث يشقّ الماء ويدفع السفينة (الأقرب).

تتلخص هذه المعاني كلها بما يلي:

١- ملازمة الشيء الشيءَ، أو اتحاد الشيء بالشيء، فالحليف من يلازم صاحبه ولا يفارقه، و(الحفلة) هو الاجتماع والاتحاد، و(اللحاف) ما نلتفّ ونتغطّى به عند النوم، و(اللفح) مسٌّ من شعلة نار، و(اللُفّاح) نبتٌ يُشمّ، أي يُقرَّب من الأنف، و(الفحل) الذَّكَرُ يلتصق بأنثاه، و(الفحل) أيضا الراوي الذي يلازم صاحبه لأخذ الروايات عنه، و(الفحلة) المرأة السليطة التي لا تبرح تلاحقك بحديثها القاسي، و(الفلاح) النجاح ونيل المرء بُغيته، فهذه المفاهيم كلها تدل على الجمع واللصق والربط. بيد أن هنالك معنى آخر في هذه الكلمات المشتقّة من الحلف وهو الإحراق بالنار والضربُ بالسيف وشقُّ الأرض أو شقُّ الماء، وهذه كلها معاني الإيذاء والإحراق والضرب.

وهذان المعنيان لحروف (ح ل ف) كلاهما موجود في المفهوم العام للقَسم. إذًا، كلما اجتمعت حروف (ح ل ف) في العربية دلت دائما على معنيين؛ أولهما إلصاق الشيء بالشيء، وثانيهما شق الشيء وإحراقه وإلحاق الضرر به. وعليه فالحلف يعني اتحاد الواحد بالآخر بحيث يُخاف على الفرقة والمعارضة بينهما. وهذا هو الغرض من الحلف، فإن الحالف يجعل مَن يحلف به شاهدًا له ونصيرًا على ما يقول، بشرط أنه لو كان كاذبًا فإن صاحبه هذا سيعاقبه ويشهد على كذبه. إذًا، فحلف العبد بالله يعني، من ناحية، أنه يضم الله تعالى إلى نفسه ويقول إن الله معي وأن علمه يصدّق ما أقول، ومن ناحية أخرى يعني أنه لو كان كاذبًا فلا بد أن يُشَقّ ويُحرَق ويُباد مِن قبل الله تعالى.

هذا فيما يتعلق بكلمة الحلف.

والكلمة الثانية هي القَسَم، يقال أَقسَمَ بالله وأُقسِمُ بالله. والثلاثي المجرد له هو قَسَمَ، يقال قَسَم الرجلُ المالَ جزّأه أو فرَزه أجزاءً؛ وقسَم الدهرُ القومَ: فرَّقهم؛ وقسَم فلان أمره: قدّره ونظَر فيه كيف يفعل، أو لم يَدْرِ ما يصنع فيه. (الأقرب)

وحيث إن قولهم أقسَمَ بالله يعني حلَف به، وليس له معنى آخر في العربية، فعلينا أن نعرف حقيقة معنى الإقْسام على ضوء ثلاثيّه المجرد. وحيث إنّ فعله من ثلاثيه المجرد، أي "قَسَمَ"، هو فعلٌ متعدٍّ، فيُعتبر "أقسَمَ" معاكِسًا لمعنى "قَسَمَ"، لأن السلب أحد خصائص "الإفعال"✪، بمعنى أنه إذا كان قولهم "قَسَمَ الشيءَ" يعني فرَّقه وجزَّأه، فإن جملة "أقسمَ الشيءَ" سيعني عكس ذلك أي أزال التجزئة والفرقة من شيء، أي جمعه. إذًا، فالإقْسام يعني الجمع، وهذا هو أحد معاني الحلف أيضًا.

ويقال: قَسَمَ فلان أمره، أي لم يَدْرِ ما يصنع فيه، وعليه فيكون المراد من "أقسَمَ فلان أمره": أزالَ حيرته وتردُّده. وهذا المعنى أيضًا يتضمنه لفظ الحلف، لأن الحالف

✪ ورد في مقدمة قاموس "المنجد" تحت عنوان "مزيدات الأفعال"، وتحت "أَفْعَلَ" في معرض بيان خصائص "الإفعال" ما يلي: "٩- السلب: نحو: أشفى المريضُ: زال شفاؤه." (المترجم)

يحاول إزالةَ تردُّد الناس وجَعْلَهم يوقنون بأن ما يقوله هو الحقّ وأن الله شاهد على صدق ما يقول.

إذًا، لو اعتبرنا الهمزة في الإقسام تفيد السلب فصار معنى الإقسام بمعنى الحلف تمامًا، أي كما أن الحلف يدل على ضم الشيء وجمعه، كذلك يعني الإقسام جمع أجزاء الشيء وإزالة فرقته. وكما أن الحلف يفيد إزالة التردد، كذلك يفيد الإقسام الغرض نفسه.

واللفظ الثالث للقَسم في العربية هو اليمين، ولكنه لا يتضمن إشارة مباشرة إلى القَسم، بل يُستخدم بمعنى القسم لأن العرب "إذا تحالفوا ضرب كلٌّ امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه"، ومن هنا استُخدم لفظ اليمين للقَسم أيضا (اللسان). وكأنه يشير إلى وسيلة القَسم، وليس له كلمات معينة في اللغة.

إذًا، فكلمتا الحلف والقَسم فقط تدلان على معنى القسم في العربية، وكلتاهما، كما بيّنتُ من قبل، تدلان على الاتحاد وإزالة الشك والتردد، وإنزال العقوبة وقطع العلاقة. بمعنى أن الإنسان يقصد بالقَسم اتحاده مع الله تعالى من ناحية، أعني أنه يقول إن علمي وعلم الله متوافقان في هذه القضية، ومن ناحية أخرى يعلن أنه لو كان كاذبًا فيما يقول فليعاقبْه الله تعالى. إذًا، فغرضُ القَسم عند العرب إعلان الحالف اتحاده مع الآخر ليكون هذا دليلا على صدقه؛ ومطالبتُه بالعذاب والهلاك في حالة كونه كاذبًا في ذلك.

والآن نرى ما إذا كان قَسم الله تعالى بهذا المعنى جائزا أم لا، وإذا أقسم الله تعالى بشيء فهل ينطبق هذا المعنى أم لا؟

نحن نعلم أن الله تعالى إذا قال شيئًا فلا يسع الإنسان إنكاره؛ لأننا نؤمن أن الله موجود، وإذا قال تعالى أن الأمر الفلاني هكذا فليس لنا سوى القبول، ولا يسعنا إنكاره بحال. بيد أن هنالك أمرًا لا يفهمه الناس فيسبب حجر عثرة لهم، وهو أننا لا نرى الله تعالى بأعيننا لأنه وراء الوراء، ولم يحدث قطّ أن السماء انشقت وظهر الله منها، وقال: أنا الذي قلت كذا وكذا لمحمد ولموسى أو لعيسى أو لزرادشت أو لكرشنا عليهم السلام. عندما بُعث نوح عليه السلام قال قد أخبرني الله بكذا، وعندما

جاء إبراهيم ، قال: هذا ما أمرني الله به، ولما ظهر موسى ، قال: هكذا قال الله لي، وعندما بُعث عيسى قال هذا ما أمرني الله به، وحينما جاء محمد ﷺ قال إن الله قد قال لي كذا وكذا؛ ولكن أقوامهم لم يرَوا الله تعالى بأعينهم، وإنما كان الإنسان هو المتكلم معهم وليس الله تعالى. وحيث إن الله تعالى لا يُرى، فإن وحيه الذي أنــــزله يظل بحاجة إلى دليل على أنه نزل من عنده تعالى، وإنْ كان ما يقوله الله تعالى لا يجوز إنكاره.

إذًا، فلا شك أن الله تعالى ليس بحاجة إلى دليل لإقناع الناس بما يقول، ولكن كلامه يظل بحاجة إلى دليل يثبت أنه منه سبحانه؛ لأن الناس لا يسمعون الوحي من فمه تعالى مباشرة، وإنما يسمعونه من فم البشر مثلهم. فثبت أن الذين يقولون: ما الداعي لأن يُقسم الله تعالى بأشياء أخرى إنما هم مخدوعون؛ ذلك لأن الناس وإن صدّقوا أن متلقّي الوحي موقن أن وحيه من عند الله تعالى، إلا أن يقينه لا يجعل كل من يسمعه يوقن مثله. فمثلاً، إني أؤمن بالقرآن الكريم إيمانا كاملا، وإذا قدّم القرآن أمامي أمرًا ولو بدون قسمٍ، فسأوقن أنه حقّ وأصدّق بما يقول، ولكن الذي لا يؤمن بالقرآن هو بحاجة إلى دليل على صدقه؛ إذ كيف يؤمن بدون دليل بأن ما يُقال له هو من عنده سبحانه وليس من افتراء بشر؟ ولولا هذا الدليل في وحي الله تعالى لكان أكبر أضراره أنه لم يبق هناك ما يميز بين النبي الصادق والكاذب ولم يعرف الناس ما إذا كان الذي يتكلم معهم يتلقى وحي الله تعالى فعلا، أم أنه يقدّم لهم مفترياته.

إذًا، فمثل هذا الدليل ضروري ليس لأن بعض الطبائع البشرية لا تؤمن إلا إذا اطمأنت إلى أن صاحب الوحي موقن بكون وحيه من الله تعالى فحسب، بل أيضًا ليوقنوا أنه فعلاً وحي الله تعالى، وأن صاحبهم لا يفتري على الله تعالى. أما إذا عرض عليهم وحي الله بغير دليل، وإذا طلبوا منه الدليل على صدقه قال: إن وحي الله تعالى ليس بحاجة إلى برهان، ألا يكفيكم أني أقول لكم إن الله تعالى هو الذي قد أنزله، فقد يخرج عليهم كذاب ويقول: إن الله تعالى قد أوحى إليّ كذا وكذا، وعندها يحتار الناس، ولن يعرفوا الصادق من الكاذب، لأن كل واحد منهما يدعي

أن الله تعالى قد بعثه؛ وحيث إن هذا الوضع لا يميز الصادق من الكاذب، فقد فرض الله على نفسه أن يقدم البراهين الدالة على صدق وحيه، قمعًا لفتنة المتنبئين الكاذبين وكشف افترائهم أمام الناس. فلو أن إبراهيم عليه السلام قال للناس ما دمت أقول لكم إن الله تعالى قد قال لي كذا فلماذا لا تؤمنون، ولو قال موسى إن الله تعالى قد كلمني بكذا وكذا فلماذا تسألون الدليل على ذلك، ولو قال عيسى إن ما أقول لكم قد أوحاه الله إليّ، فما الداعي إلى التدليل على ذلك، ولو اتبع زرداشت وكرشنا ورام تشندر الأسلوب ذاته، لخاف الناس خوفًا شديدا ولصدَّقوا كلَّ مدّعٍ في عصرهم دون أن يطالبوه بأي برهان، وبالتالي لانتشر الكذب واشتبه الحق لأن المتنبئين الكذابين يظهرون في كل عصر. فقمعًا لهذه الفتنة فرض الله على نفسه تقديم الأدلة على صدق الوحي الذي يُنــزله على رسله، لكي تُقدَّم لكل سائل فيقال له: هذه هي البراهين الدالة على أنه وحي الله تعالى وليس افتراء بشر. فلما كان التمييز بين الصادق والكاذب ضروريًّا، فلا يتنافى مع عظمة الله تعالى أن يقدم دليلا يؤكد أن الكلام المنسوب إليه هو وحيه حقا، بل هذا هو مقتضى رحمته تعالى. إن المبعوث الرباني إذا لم يستطع تقديم دليل على أن ما ينسبه إلى الله هو وحيه تعالى فعلاً، بل إذا طولب بدليل على صدق دعواه اعتبره إساءة إلى الله تعالى، لعمّت الفوضى، ولقام كل يوم مدّعٍ جديد ونسب إليه تعالى مفترياته؛ ولذا فقد فرض الله على نفسه تقديم شهادات على صدق وحيه، وإلا عانى ضعفاء الناس عناءً كبيرًا. فثبت أن تقديم الله تعالى مثل هذه الشهادات والبراهين لا يتنافى مع عظمته، بل هذا ضروري جدًّا لبيان صدق كلامه لسببين، أولهما: أن يعرف الناس أنه كلام الله تعالى حقًّا، وثانيهما: ألا يتجاسر كذاب على أن ينسب أباطيله إلى الله تعالى. وإذا ثبت هذا، فلا بد لنا من التسليم بأن أي دليل مشابه للحلف سيُعتبر - يقينًا - برهانًا عظيما على صدق وحي الله تعالى، وأنه تعالى إذا قدم دليلا كهذا على صدق وحيه لم يقدح هذا في عظمته، بل هو ضروري جدًّا.

وبعد أن برهنّا على أنه لا بد لله تعالى من تقديم برهان على صدق وحيه، ينشأ سؤال: ما هو أكبر برهان لإثبات صدق شيء؟

فاعلم أن الحلف يُعتبر في العالم أكبر دليل على صحة أي أمر دونما شك، بل بعد الحلف يصدر القرار النهائي؛ ذلك لأن بعض الطبائع لا تطمئن بأي شيء غير الحلف. إنهم يكونون متأكدين من صلاح المدّعي وصدقه، ولكن لا تزال قلوبهم في مرية، يقولون: قد يكون الادعاء بنــزول الملائكة من السماء بوحي الله تعالى أو تكليمه تعالى مع البشر مشافهةً مجردَّ خرافة، ولكن إذا حلف المدعي على ذلك اطمأنوا وعرفوا أنه ليس مجرد خرافة، بل إن المشاهدة تدعمه؛ إذ لو لم يمر هذا الإنسان بهذه التجربة لما تجاسر على الحلف.

فثبت من هنا أن آخر ما يزيل الشبهة هو الحلف، وأن الله تعالى قد اعتبر الحلف برهانًا قطعيًّا لدَرْءِ الشبهات، فلو لم يقدم الله تعالى في وحيه هذا الدليل على صدقه - مع أنه أولى بتقديم الأدلة - فقد ترك أمرًا نافعا وضروريا جدا، وبالتالي دفَع شريحة كبيرة من الناس الذين لا يطمئنون بغير الحلف إلى عدم الاطمئنان.

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: حتى لو نُسب الحلف إلى الله تعالى في الوحي، إلا أن الحالف يكون في كل حال ذلك الإنسان الذي يعرض الوحي على الناس، فكيف يُعتبر الحلف في هذه الحالة دليلا على صدق ذلك الوحي؟ والجواب: لا شك أن الحلف سيكون منسوبًا إلى الله تعالى في ذلك الكلام، ويكون الحالف هو الإنسان الذي يعرض هذا الكلام على الناس، ولكن علينا أن نرى من ذا الذي يقع عليه وبال الحلف إذا كان كاذبا فيه؟ لا شك أنه يقع على هذا الحالف الذي ينسب هذا القَسَم لله تعالى. مثلاً، قال زيد إن الله تعالى قد أوحى إلي كذا وكذا، وإنه تعالى يحلف على صدق هذا الأمر، فلو كان زيد كاذبًا فيما قال فمَن هو المسؤول عن هذا الحلف الكاذب؟ لا شك أن زيدًا هو المسؤول حيث افترى على الله تعالى وخدع الناس بالحلف الكاذب، وما دام مسؤولاً عن ذلك، فلا بد أن يبطش الله به، ليكشف للناس أنه كذاب افترى على الله كذبا، فوقع فريسة لعذابه ﷻ. إذًا، فلا بد لدرء الشكوك والشبهات من القلوب وملئها باليقين مِن طريق يؤدي إلى اطمئنانهم، ولذلك قد أقسمَ الله تعالى في القرآن الكريم. ولا تخلو هذه الأقسام من أحد الأمرين؛ إما أن يقول المرء إن الله تعالى هو الذي حلف بها فعلاً وليس أحد

من البشر، وبالتالي سيؤمن بصدق هذا الوحي؛ أو يقول لم يحلف الله تعالى بها، إنما حلف بها محمد (ﷺ) من عند نفسه، وفي هذه الحالة سيوقن أن محمدًا (ﷺ) إذا كان كاذبًا في حلفه - والعياذ بالله - فلا بد أن يعاقبه الله تعالى. إذًا، ففي كلتا الحالتين سيتحقق الغرض من هذا الدليل، فإذا كان المرء مؤمنًا بأن القرآن وحي الله تعالى فهو ليس بحاجة إلى حلف أو دليل على كون القرآن كلام الله لأنه يوقن سلفًا أنه تعالى هو الذي حلف بهذه الأقسام كلها، أما إذا كان يظن أنها ليست من عند الله تعالى بل هي من افتراء محمد - والعياذ بالله - فسيطمئن أيضًا لأنه يقول ما دام محمد قد حلف كذبًا، فلا بد أن يبطش الله به ويعاقبه، وإن نتائج هذه الأقسام بنفسها ستكشف عليه حقيقة الأمر.

إذًا، فالحلف دليل عظيم على صدق وحي الله تعالى. لا شك أن الحلف في الوحي يُنسَب إلى الله تعالى، ولكن لما كان الحالف هو الإنسان الذي يقول إنه وحي الله تعالى، فلا بد أن يقع عليه وبال الحلف الكاذب، لتنكشف الحقيقة على الناس ويعرفوا الصادق من الكاذب.

ثم إن الحلف الحقيقي ليس إلا ما يحقق غرضه، وليس غرض الحلف إلا تأكيد الحالف على اتفاقه مع الطرف الآخر وتقديمه إياه شاهدا على صدقه، وبهذا المعنى فإن حلف الله تعالى بالمخلوقات جائز، لأن من أغراض الحلف بالله تأكيدَ الحالف على أن الله يعلم أن الأمر هو كما يعلمه ويقوله الحالف، حيث إن أحدا إذا حلف على موقفه بشيء آخر، فيعني أن هذا الشيء يشهد على صدق ما قال، وشهادة ذلك الشيء الآخر تحسم الأمر فيما إذا كان الحالف صادقا أم كاذبا. وحيث إن الله تعالى خافٍ عن الأعين، فإذا حلف ﷻ بشيء وقدّمه كشاهد على ما قاله في وحيه فإن شهادة هذا الشيء ستكشف الصدق من الكذب، لأن ذلك الشيء إذا شهد ثبت أن ما نُسب إلى الله تعالى هو حق، وإذا لم يشهد ثبت أن ما نُسب إليه تعالى باطل.

إذًا، فالمراد من قَسم الله بمخلوقاته أنه يقدّمها كشاهد على صدق المدّعي، فإذا شهدتْ على ما قال المدعي تبين أنه كان صادقًا في نسبة ذلك الوحي إلى الله تعالى،

وإذا لم تشهد ثبت أنه كان كاذبًا في نسبته إليه تعالى. مثلا، إذا قيل في وحي الله تعالى إن الجبال ستشهد على أمر كذا، ثم شهدتْ عليه فعلاً، ثبت أن المدعي قد نسب هذا الكلام إلى الله تعالى بالحقّ؛ إذ ليس بوسع أحد أن يجعل الجبال تشهد على أي شيء، وإنما ذلك في مقدور الله وحده. فإذا لم تشهد على ما قيل ثبت كذب الوحي المنسوب إلى الله. كذلك إذا قيل في وحي الله تعالى إن الأنهار ستشهد على أمر كذا، فعلينا أن نرى ما إذا كانت تشهد على صدقه أم لا، فإذا شهدت ثبت أن ذلك الوحي منه حقًّا، وإذا لم تشهد فثبت أنه ليس منه تعالى، وإنما افترى به المدعي على الله تعالى. ذلك لأن الإنسان ليس بقادر على أن يجعل الجبال أو الأنهار تشهد على أمر من الأمور، وإنما الله وحده القادر على أن يجعلها تشهد عليه أمام العالم.

ولو قيل كيف يمكن إثبات قول الله تعالى بشهادة المخلوق؟ فالجواب أن السؤال ليس ما إذا كان الله صادقًا أو كاذبا، بل السؤال ما إذا كان المدعي - الذي يدعي كونه ممثلا لله تعالى- صادقًا فيما ينسبه إلى الله من وحي أم كاذبا. فالدليل الذي يقدمه الله تعالى من خلال شهادة مخلوقاته سيثبت صدق المدعي فيما نسب إلى الله تعالى، وأن الوحي الذي تلقاه كان من عند الله تعالى فعلا. إذًا، فالمخلوقات لا تدل بشهادتها على صدق الله تعالى، بل على صدق المدعي الذي ينسب الوحي إليه تعالى. لنفترض أن كرشنا — مثلا - تنبّأَ في وحيه بشيء، فأكدته الأنهار أو الجبال أو الشمس أو القمر، فهذه الأشياء لا تشهد على صدق الله تعالى، وإنما تشهد على أن كرشنا لم يكذب فيما قال، بل إن الوحي الذي نسبه إلى الله كان من عنده تعالى فعلاً. أو إذا أكّدت الجبال والأنهار صِدْقَ إبراهيم عليه السلام فلا يعني ذلك أنها شهدت على صدق الله تعالى، بل يعني أنها دلت على صدق إبراهيم فيما نسبه إلى الله من وحي. وإذا ورد في نبوءة لموسى عليه السلام - مثلاً - أن الجبال والأنهار ستشهد على كذا من الأحداث، ثم وقع كما قال، فشهادتها لا تثبت صدق الله تعالى، بل تؤكد أن موسى لم يكذب على الله تعالى، بل نسب إليه حقًّا وصدقًا. أو إذا شهدت الجبال والأنهار وغيرها من المخلوقات على صدق النبي ﷺ فلا يعني ذلك

أن الله تعالى كان بحاجة إلى شهادتها، وإنما يعني أن محمدا ﷺ كان بحاجة إلى شهادتها على صدق دعواه. فلما شهدت ثبت أن ما قاله ﷺ من أن الجبال أو الأنهار ستشهد على أمر كذا فإنه لم يقله من عنده، بل قاله بناء على وحي الله تعالى. إذًا، فالمخلوقات لم تشهد على صدق الله تعالى، بل شهدت على صدق ذلك المدعي الذي نسب إلى الله تعالى الوحي.

ورُبَّ قائل يقول: ما دام الأمر يتعلق بإثبات صدق المدعي الذي يعرض وحي الله على الناس، فيجب أن يحلف المدعي نفسه لا اللهُ تعالى.

فالجواب الأول أن المدعي أيضا يحلف على حدة، ولكن لا بد أن يوجد في وحي الله تعالى الحلف- الذي يُعتبر أكمل أنواع الأدلة عند غالبية الناس، ذلك لأن الوحي كلام كامل فلا بد من وجود شهادة داخلية فيه على كونه كلاما كاملا، وإلا لن يبقى كاملا. فإذا خلا وحي الله تعالى من الحلف، بل حلف النبي على صدق دعواه على حدة فقط، فلن يُعتدّ بحلفه، والحديث خير مثال على ذلك حيث نجد في الأحاديث أمثلة كثيرة للحلف، ولكن الناس لا يزالون يشكون في صحة الحديث. نحن لسنا هنا بصدد فيما إذا كانت شُبهتهم صحيحة أو باطلة ..فهذا بحث آخر، بيْد أنّه لا يسعنا الإنكار أنه لا يزال هناك مجال شبهةٍ من قبل هؤلاء الناس، كما أننا أيضا لا نستطيع الجزم بصحة كل حديث، أو بأن النبي ﷺ قد قاله بالكلمات نفسها. إنما الكلام اليقيني القطعي الذي نستطيع أن نحلف بأن كل لفظ منه قد نزل من عند الله تعالى، ووصلنا من الرسول ﷺ كما هو، هو القرآن الكريم وحده. حتى إن أعداء الإسلام من أمثال وليام موير (William Muir) ونولدكه (Noldeke) اضطروا للاعتراف بأن كل كلمة من القرآن الكريم هي هي كما قدّمها محمد ﷺ إلى العالم، و لم يطرأ عليه أدنى تغيُّر أو تبدُّل (Life Of Mahomet p. 562-563 والموسوعة البريطانية المجلد ١٥: كلمة KORAN). فإذا وُجد في وحي القرآن الكريم قَسمٌ لكان دليلاً حاسمًا على أن محمد ﷺ قد حلف بصدقه فيما نـــزل عليه من الوحي، أما إذا خلا القرآن الكريم من الحلف، فالأيمان الأخرى الواردة في الحديث لا تساوي القسم القرآني أبدًا من حيث اليقين والقطعية. إذًا، فلا بد من وجود

دليل القَسم في وحي الله تعالى لتقوم هذه الشهادة الداخلية بتكميل الشهادات الأخرى.

والجواب الثاني أن الحلف في وحي الله تعالى يكون من عند الله تعالى فقط ولا يكون من عند النبي أبدًا، إذ لو كان الحلف من قِبل النبي لما بقي الوحي نقيًا بل اختلط كلام البشر مع كلام الله تعالى. مثلا لو أن محمدًا ﷺ قال: أحلف بالله أنه بعثني، ووُجدت هذه الكلمات في القرآن لدل ذلك على اختلاط كلام البشر بوحي الله تعالى، مع أن القرآن الكريم كله كلام الله تعالى من باء البسملة إلى سين ﴿والناسِ﴾. أو لو وجد في القرآن قولُ محمد رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، أحلف بالله أني رسول الله إليكم جميعا، لاختلط كلام البشر بكلام الله تعالى. أو لو ورد في كلام الله تعالى، يا محمد، نأمرك أن تحلف للناس على صدق دعواك، لظلّتْ هناك شبهة فيما إذا كان قد حلف أم لم يحلف؛ فمثلاً قد ورد في مواضع عديدة من القرآن قوله تعالى ﴿قُلْ﴾.. أي قُلْ يا محمد للناس كذا وكذا، وإننا نوقن أن النبي ﷺ قد قال للناس كل ما أمَره الله به، إلا أن كلمة ﴿قُلْ﴾ لا تُقنِع الخصوم بالضرورة بأنه (ﷺ) قد قال للناس فعلاً كل ما أُمر به. كذلك لو وُجد في القرآن قول الله تعالى لمحمد ﷺ أن يُقسِم، فإن الخصم قد يقول لا ندري ما إذا كان محمد قد أقسَمَ أم لا.

باختصار سيضيع غرض الحلف في الحالين، أعني لو ورد قسم الرسول ﷺ في كلام الله تعالى لاختلط كلام البشر مع كلام الله تعالى، ولو أمر الله تعالى في وحيه رسولَه بأن يقسم لظل الناس في شبهة فيما إذا كان أقسم أم لا. أما إذا حلف في غير الوحي فيظل الوحي غير كامل أيضًا لخُلُوِّه من هذه الوسيلة المؤكدة القوية.

ثم يجب الأخذ في الاعتبار أن الأمور التي أقسم بها القرآن أو استشهد بها على صدقه هي حتمًا أمور غيبية لا علم ولا قدرة للرسول ﷺ على معرفتها - وكل الأقسام القرآنية هي من هذا القبيل في رأيي - فكيف يمكن أن يقدمها الرسول ﷺ شهادة على صدقه؟ كلا، بل إن الله العليم الخبير وحده الذي يمكن أن يقدمها وهو الذي أقسم بها. إذاً فالقول إن القَسم يجب أن يقوم به الإنسان الذي نزل عليه

الوحي لا الله ﷻ باطل تمامًا، ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن عنده علم بهذه الأمور، كما لم تكن هي تحت تصرُّفه وسيطرته، فكيف يمكن أن يُقسِم بها؟ إذًا، فلما كانت الأَقسام تحتوي على علم الغيب، فمن المستحيل أن يحلف بها النبي لأنه لا يعلم ما يخفيه المستقبل، وإنما الله وحده الذي هو عالم الغيب يمكن أن يُقسِم بها ويقدّمها كشهادة.

ولو قيل ما الداعي للقَسم أصلاً، فكثير من الناس لا يقيمون للقَسم وزنًا ويقولون يجب أن لا يُقسِم العبد، دعك أن يُقسِم الله نفسُه، فمثلاً لما تحدّى المسيحُ الموعود ؑ القسيسَ "عبدَ الله آتهم" أن يعلنَ بين الناس حالفًا بالله تعالى أنه لم تستولِ على قلبه هيبة نبوءته ؑ المتعلقة بهلاكه، ما كان جواب المسيحيين إلا قولهم إن الحلف ليس محبّذًا ولا نرضى بهذه الطريقة لحسم القضية (ضياء الحق، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٢٥٦-٢٥٧). إذًا، فهناك كثير من الناس الذين لا يقيمون للقَسم وزنًا ويقولون يجب أن لا يتضمن كلام الله تعالى أي قَسم.

والجواب الأول: لا شك أن بعض الناس لا يعيرون القَسم وزنًا، ولكن هذا لا يقلّل من قيمة القسم. علينا أن نرى ما إذا كان القَسم ذا قيمة في حد ذاته أم لا؟ فإذا كان ذا قيمة فلا يجوز ترك هذه الحقيقة بحجة أن البعض لا يوليها أية أهمية. إذا كان هنالك إله فلا بد أن يصيب الحالفَ باسمه كذبًا عذابٌ شديدٌ منه شريطة أن يضر هذا القَسم الناس ضررًا كبيرًا ولا يكون من قبيل اللغو.

فثبت أن القَسم دليل عظيم في حد ذاته، ولا يمكن تركه بحجة أن بعض الناس لا يأبهون به.

والجواب الثاني: إذا كانت فئة من الناس لا تعتبر القَسم ذا قيمة، فإن فئة أخرى تعدّه دليلا قويا حاسمًا. صحيح أن بعض الناس يعتبرون الحلف عبثًا، لكن الآخرين لا يطمئنون من دون قَسم، ولا بد للوحي الذي ينـــزل للعالم كله أن يحقق ما تطالبه بعض الفئات ما دامت مطالبتها معقولة. والقرآن الكريم ليس فقط لمن لا يقيم للقسم وزنًا، بل هو للعالم كله وللإنسانية جمعاء التي فيها أيضا تلك الفئة التي لا تطمئن إلا بالقَسم. فالذين لا يرون ضرورة القَسم يمكنهم الانتفاع من الآيات

القرآنية الخالية من القَسم، أما الذين يرون ضرورة القَسم فيمكنهم الانتفاع من الآيات التي فيها قَسَمٌ. ولو أن القرآن الكريم حقق مطالب إحدى الفئتين دون الأخرى لما اعتُبر للإنسانية جمعاء، بل كان خاصًّا بفئة محدودة منها.

باختصار، لما كان في الدنيا فئة تثق بالقَسم بل تراه ضروريا، فمن واجب القرآن أن يذكر – علاوةً على الأدلة الأخرى– ذلك الدليل الذي تراه فئة من الناس ضروريا ولا يهمله أبدًا. ورد في الحديث أن شخصًا حضر إلى النبي ﷺ وقال: أستحلفك بالله تعالى، آللهُ أرسلك بهذا؟ فقال ﷺ: أحلف بالله أني لا أقول هذا مِن عند نفسي، بل أقوله بأمر الله تعالى. فآمن الرجل فورا. (البخاري: كتاب العلم، ومسلم: كتاب الإيمان). فهذا يعني أن هذا الشخص لم يقتنع بأدلة أخرى، ولكنه اقتنع فورًا لما حلف له النبي ﷺ.

إذًا، فهناك فئة في الدنيا لا تطمئن إلا بالقَسم، ولو خلا وحي الله تعالى من القَسم لظلت هذه الفئة محرومة من قبول الحق، ولتعرَّضَ الوحي القرآني للطعن بأنه قد أهمل مطالبة معقولة لإحدى شرائح المجتمع رغم ادعائه بأنه هدى للناس جميعًا.

وقد وُجد مثل هؤلاء القوم في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، فذات مرة جاءه عليه السلام شخصٌ وقال: هل تستطيع أن تكتب لي حلفًا بالله تعالى بأنه هو الذي بعثك مسيحًا موعودا؟ فقال له حضرته تعال إلي بعد أسبوع، فحضر الرجل بعد أسبوع، فكتب له المسيح الموعود عليه السلام عبارة فحواها: أُقسِم بالله تعالى أن كل ما قلتُ في كتبي وبينتُ في خطبي من علوم ومعارف إنما هي هبة ربانية، وأن الله تعالى نفسه قد أمرني بعرضها على الناس، وقد ادعيتُ بأني المسيح الموعود والمهدي المعهود بأمر من الله تعالى.

ولعله عليه السلام قد اشترط على السائل أن يحضر بعد أسبوع ليعرف مدى جدّيته في الأمر؛ ذلك لأن بعض الناس يسألون بعض الأسئلة وهم غير جادّين، فلكي يمتحن حضرته عليه السلام الرجل أمره بالمجيء بعد أسبوع، ولما رأى أنه جادٌّ في الأمر وأنه فاز في الامتحان إذ جاءه في الموعد ثانية متكبدًا مشقة السفر، كتب له العبارة المطلوبة.

فثبت من هنا أن هناك فئة من الناس لا تبحث عن أي دليل إلا القَسم، فيقولون: إذا كنتَ صادقًا فيما تقول، فاحلفْ بالله على ذلك. لذا فكان ضروريا لإصلاح هؤلاء وهدايتهم أن يتضمن القرآن بعض الأقسام والأيمان حتى لا يظلّوا محرومين من الهدى.

والجواب الثالث: إن أقسام القرآن تشكِّل في حد ذاتها دليلا عظيما على صدقه، والحق أنه حيثما أقسم الله تعالى في القرآن إنما استشهد بالمقسَم به على صدق الوحي القرآني، مبيِّنًا أن هذه الأشياء لو شهدت على هذه الأمور فقد ثبت أن القرآن هو كلام الله تعالى، وإذا لم تشهد عليها فيحق لكم أن تقولوا إنه ليس وحي الله تعالى. فسواء سميتم هذا القسم حلفًا أو شهادة فهذا لا يغير من الحقيقة شيئًا، بل لو ورد القسم في القرآن كمجرد شهادة لدلت على صدقه؛ فالذين لا يقيمون للحلف وزنًا يمكن أن ينتفعوا به باعتباره شهادة، والذين يعتبرون الحلف ذا قيمة، فيمكنهم الانتفاع به باعتباره شهادة مؤكدة بالقَسم. إذًا، فإن القَسم يُقنع أصحاب طبيعتين مختلفتين في وقت واحد؛ فهو — إذن - جدير بالتقدير، وليس مدعاة للاعتراض؛ إذ حقق الغرض بنوعيه.

سنورد عند تفسير الآية الأولى التي تبدأ بالقَسم بحثًا كاملا موجزًا في موضوع القَسم في القرآن، أما البحث التفصيلي فنورده لدى تفسير كل آية تبدأ بالقَسم. وهناك كتاب جدير بالمطالعة باسم (التبيان في أقسام القرآن) للإمام ابن القيم وقد بيّن فيه أمورا نافعة؛ جزاه الله عن المسلمين خيرًا.

أما الأشياء التي أقسمَ الله بها في هذه الآية والآيات الأخرى فسوف نتحدث عنها بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٣

شرح الكلمات:

الناشطات: نشَط ينشُط نَشْطًا الحبلَ: عقَده. ونشَط العُقْدَةَ: شَدَّها. ونشَط الدلوَ مِن البئر: نـــزَعها بغير قامة وانتشلها بلا بَكْرةٍ. ونشَط زيدًا: طعَنه. ونشَطته الحيّةُ:

عضّته. ونشط من المكان: خرج، ونشط من بلد إلى بلد: قطَع. ونشِط ينشَط نشاطًا: طابتْ نفسُه للعمل ونشَطت الإبلُ: مضتْ على هدى أو غير هدى. (المنجد، والأقرب، والمخصص)

فالناشطات هي:

١- الكائنات التي تعقد الشيء بالشيء.

٢- الفئات التي تبذل في عملها قصارى جهدها.

٣- الجماعات التي تطعن بالرماح.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحًا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

السابحات: سبَح الرجلُ: تصرَّفَ في مَعاشه؛ نامَ وسكَن؛ أبعدَ في السير. وسبَح في الكلام: أكثرَ منه. وسبَح في الأرض: حفَر فيها. وسبَح بالنهر وفي النهر: عامَ وانبسط فيه. وسبَح سبحانًا: قال سبحان الله. (المنجد، والأقرب)

فالسابحات هي:

١- الجماعات التي تذهب في سيرها بعيدا.

٢- الجماعات القادرة على الكلام.

٣- الجماعات التي تُجيد السباحة والعوم.

٤- الجماعات التي تتصرف لمعاشها بنفسها.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقًا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

سَبْقًا: سبَقه يسبِق سَبْقًا: تَقدَّمه وجازَه وخلّفه. وسبَق على الشيء: غلَبه. (الأقرب)

فالسابقات هي:

١- الجماعات التي تتسابق فيما بينها.

٢- الجماعات التي تتغلب على الآخرين.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

المُدبِّرات: دبَّر الأمرَ: رتَّبه ونظَّمه؛ نظَر في عاقبته وتَفكَّر. ودبَّر الوالي أقطاعَه: أحسنَ سياستها. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الجماعاتُ التي تقوم بعَملها بالنظر في جميع جوانبه وفي عاقبته. وكأن الله تعالى قد بيّن في كلمة ﴿فالْمُدَبِّرَاتِ﴾ مسؤولية القائمين بالأمر بأنهم يقومون به متفحصين جميع جوانبه، لا أن يركّزوا على جانب ويهملوا الآخر.

التفسير: قبل تقديم وجهة نظري حول هذه الآيات، أود إيراد أقوال السلف من الصحابة والمفسرين القدامى بصددها، لنعرف المفاهيم التي ذكروها. وملخص ما قاله هؤلاء كالآتي:

قال صاحب الكشّاف عن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: "أقسمَ سبحانه بطوائف الملائكة التي تنــزع الأرواحَ من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تُخرجها، مِن نَشَطَ الدلوَ من البئر إذا أخرجَها، وبالطوائف التي تسبَح في مُضيِّها أي تُسرِع فتسبق إلى ما أُمروا به، فتُدبِّر أمرًا من أمور العباد." (الكشاف)

وقال صاحب "فتح البيان" بعد ذكر هذا المعنى: "وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال السدي: ﴿النازعات﴾ هي النفوس حين تغرق في الصدور (يعني وقت الموت). وقال مجاهد: هي الموت ينـــزع النفسَ. وقال قتادة: هي النجوم تنـــزع من أفق إلى أفق، مِن قولهم: نزعتُ بالحبل، أي أنها تغرب وتغيب وتطلع مِن أفق آخر، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان.

وقال عطاء وعكرمة: ﴿النازعات﴾ القِسِيُّ تنـــزع بالسهام، وإغراق النـــزاع في القوس أن يمدّه غايةَ المدّ حتى ينتهي به إلى النصل. وقيل: أراد بالنازعات الغُزاة الرُماة، وانتصابُ ﴿غَرْقًا﴾ على أنه مصدرٌ محذوفُ الزوائدِ أي إغراقًا... يقال أغرقَ في الشيء يُغرِق فيه إذا أوغل فيه وبلغ غايته (فتح البيان). وكأن التقدير عنده كالآتي: والنازعاتِ والمُغرِقاتِ غرقًا أو إغراقًا.

"وعن علي رضي الله عنه قال: هي الملائكة تنـــزع أرواح الكفار." (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿والناشطات نشطًا﴾، فقد ورد عنه: "عن ابن عباس قال: هي أنفسُ الكفار تنـــزع ثم تنشط ثم تغرق في النار. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفسَ الإنسان، وبه قال ابن عباس. وقال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين - وكأن النفس عنده تكون موزّعة في الجسد كله وحين تخرج منه من ناحية القدمين تسمى الناشطات - وقال قتادة والحسن والأخفش: هي النجوم تنشط مِن أفق إلى أفق أي تذهب. وقال في الصحاح: ﴿والناشطاتِ نشطًا﴾ يعني النجوم من برج إلى برج. وقيل: ﴿الناشطات﴾ لأرواح المؤمنين، و﴿النازعات﴾ لأرواح الكافرين. بينما يرى علي رضي الله عنه: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار. وقد روى مردويه عن معاذ بن جبل حديثًا أن الناشطات هي كلاب النار تنشط اللحم والعظم. وهذا يعني الناشطات ليست إشارة إلى أرواح المؤمنين بل إلى أرواح الكافرين، لأن كلاب النار لا تنهش إلا لحوم الكافرين. (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿والسابحات سبحًا﴾ فقال بعضهم: هي الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الأرواح كما يسبح الغوّاص في البحر لإخراج شيء منه، يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلّوها سلاًّ رفيقًا.

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينـــزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد: سابح إذا أسرع في جريه. وقال مجاهد أيضًا: السابحات الموتُ يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو. وقال قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٤). وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء. وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقًا إلى الله. وقال علي رضي الله عنه: هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض. (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿فالسابقات سبقًا﴾ فقال مجاهد ومسروق: تسبق الملائكةُ الشياطينَ بالوحي إلى الأنبياء. وقال أبو روق: هي الملائكة سبقتْ ابنَ آدم بالخير والعمل الصالح، وروي نحوه عن مجاهد. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الربيع: هي أنفسُ المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقًا إلى الله. وقال علي رضي الله عنه: هي الملائكة سبق بعضها بعضًا بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى. وقال مجاهد أيضًا: هو الموت يسبق الإنسانَ. وقال قتادة والحسن ومعمر: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضًا. (فتح البيان)

وأقول هنا - ضمنيًا - إن القول الأخير خلاف للقرآن الكريم، لأن الله تعالى يخبر فيه أن الليل والنهار يتناوبان بحسب ناموس إلهي محدد، وأن كل النجوم والأجرام تدور بحسب هذا القانون، ولا يسبق بعضها بعضًا. قال الله تعالى ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾(يس:٤١). فهذه الآية تفنّد القول المشار إليه.

وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. قال الجرجاني: عطَف السابقاتِ بالفاء لأنها مسبِّبة عن التي قبلها، أي واللاتي يسبحن فيسبقن.. أي أنها تصبح سابقات

لكونها سابحات. ولكن الواحدي رفض هذا الدليل محتجًا بقول الله تعالى بعد ذلك ﴿فالمدبرات أمرًا﴾، فيبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير.

وقال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أُمرتْ سبحتْ فسبقتْ فدبّرتْ ما أُمرتْ بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض.

وقد ردّ صاحب "فتح البيان" على الرازي فقال: ويجاب عنه بأن مجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، لأن الفاء تفيد العطف أيضًا. (فتح البيان)

لقد نقلت هذا البحث ههنا هدايةً وتبصرةً للذين يحاولون حصر معاني الفاء في السببية. غير أنه لا يصح أيضا القول بأن استخدام الفاء هنا كان بدون داع، بل يتضح من استخدام الفاء بعد الواو هنا أن الموضوع السابق قد تغير، وإلا فلماذا لم يتم العطف بالواو في الآيتين الأخيرتين كما تم في الأولى والثانية - علمًا أن الواو في الآية الأولى للقَسم- الواقع أنه قد جيء هنا بالفاء لمعان جديدة أخرى، الأمر الذي من أجله استُبدلت الفاء بالواو هنا، وإلا فلم تكن ثمة حاجة لترك الواو. فما هو ذلك المعنى الجديد هنا؟ هو برأيي الترتيب. فلا بد أن تحتوي هاتان الآيتان معاني تدل على الترتيب، غير أنه لا يمكن فهمها إلا بعد وضوح معاني الآيتين الأولى والثانية، وسوف نذكر تلك المعاني لاحقًا.

أما قوله تعالى ﴿فالمدبرات أمرا﴾ فقال علي رضي الله عنه: هي الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة. وقال ابن عباس: ملائكة يكونون مع مَلَكِ الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمّن على الدعاء، ومنهم من يستغفر للميت.

وقال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة، وهو قول الجمهور، والثاني إنها الكواكب السبع. وفي تدبيرهما الأمرَ وجهانِ: أحدهما تُدبِّر طلوعها وأفولها، والثاني: تدبّر ما قضاه الله فيها من الأحوال. (فتح البيان)

هذا ملخص ما ورد في التفاسير القديمة بصدد هذه الآيات الخمس. وفيما يتعلق بالمعاني التي ذكروها لهذه الكلمات فلا اعتراض على ما يصح لغةً منها، لأن ما

يصح لغة يمكن أن ينطبق في محله، ولكن إذا أردنا تفسير كلامٍ تفسيرا صحيحا فلا بد لنا من أن نأخذ في الحسبان سياقه والقرائن المحيطة به. فلو كان السياق واضحًا نظرنا إليه أوّلاً لفهم الكلام، وإذا كان السياق غير واضح نظرنا إلى القرائن المحيطة. فمثلاً سمعنا شخصًا يقول: أَسْرِعْ إلى السوق واشترِ كذا وكذا، وعرفنا أن خادمه موجود عنده، وحيث إننا علمنا سياق قوله فنفهم أنه يعني خادمه، ويأمره بشراء ما يريد من السوق. أما إذا لم نراعِ هذا السياق، وبدأنا نستنتج من كلامه استنتاجات أخرى فقلنا مثلا: إنه لا يخاطب خادِمَه، بل كلامه موجه إلى أي إنسان، لأن كلَّ إنسان يمكن أن يسرع؛ أو قلنا إنما يعني أحد الملوك، ثم إذا سئلنا عن دليل قلنا: ألا يستطيع الملِك أن يسرع أو يشتري من السوق؛ أو قلنا: إنه يعني بقوله فلانًا من الفلاسفة، أو فلانا من الأثرياء.. أقول لو فسرنا قوله بهذا الأسلوب فسيحكم كل عاقل بجنوننا وحمقنا حتمًا، ويقول: لماذا لا تنظرون إلى سياق كلامه؟ ألا ترون أن خادمه كان واقفًا إزاءه عندما تفوه بهذا الكلام؟ لا شك أن الملِك يمكن أن يسرع، وكذلك الفيلسوف والثري، ولكن علينا أن ننظر إلى سياق كلامه، أما إذا أهملنا السياق، وبدأنا نفسر كلامه تخمينًا، فقال الأول إنه يخاطب ملِكًا، وقال الآخر إنه يعني فيلسوفًا، وقال الثالث إنه يعني ثريًّا، فسيضحك الجميع منا، ويقولون: ماذا دهاكم؟ ألا تفهمون إلى من وجّه كلامه؟ لا شك أن الملك والفيلسوف والثري يمكنهم أن يسرعوا ويشتروا، ولكن لا بد من أخذ سياق كلامه في الاعتبار. ألا ترون أن خادمه كان أمامه عندما قال: أسرِعْ واشترِ من السوق؟ إذًا، فإنه قد وجّه كلامه إلى خادمه فقط لا إلى أي شخص آخر.

لقد ثبت من هذا المثال أننا إذا أردنا أن نفهمَ قول إنسان فلا بد لنا من أن ننظر أولاً إلى سياق كلامه، أما إذا أهملنا السياق وبدأنا تفسير قوله جزافًا وتخريصًا، فهذا ليس من العقل في شيء.

والأمر الآخر أننا إذا لم نعرف سياق الكلام فعلينا أن ننظر إلى القرائن المحيطة به. فمثلا نرى شخصًا دخل بيته، فاحتاج إلى شيء ولكن خادمه لم يكن أمامه، وظنّ أنه داخل البيت، فصاح: أسرِعْ وافعلْ كذا؛ فمع أننا لا نرى خادمه، لكن هناك

قرينة تساعدنا على فهم قوله، وهي أنه يتكلم بهذا الكلام في بيته، إذًا، هو يخاطب خادمه حتمًا. أما إذا أهملنا هذه القرينة وقال أحدنا إنه يقصد بقوله بعض الجيران، وقال الآخر: بل إنه يعني فلانا، وقال الثالث: كلا، إنه يعني علانا؛ لكان هذا التخمين منا عبثًا لأن الناس سيقولون لنا: عليكم بمراعاة القرينة المحيطة بكلامه حتى تعرفوا قصده. القرينة تبيّن أنه قد تكلّم بهذا الكلام في بيته، والقياس يدل على أنه قد وجّه كلامه إلى خادمه، أو إلى ابنه لأن الابن بمنــزلة الخادم، أو لبعض أقاربه الآخرين كابن الأخ أو الأخت. أما إذا لم نراع القرينة ولم نضعها في الحسبان، وبدأنا نقول إنه ربما يوجه هذا الكلام لفلان أو علان فلن يُعتبر قولنا معقولا.

والحال نفسه ينطبق لدى تفسير هذه الآيات، فلا يهمنا المعنى اللغوي للنازعات أو الناشطات أو السابحات أو السابقات أو المدبرات فحسب، بل المهم هو المعنى الذي يتوافق مع السياق والقرائن؛ لذا فعلينا أن ننظر فيما إذا كان المعنى الذي يذكره المفسرون ينطبق هنا أم لا. ولهذا الهدف سننظر أوّلاً إلى ترتيب هذه الكلمات ثم سنركّز على العلاقة التي تربط هذه الآيات بعضَها ببعض، كما سننظر إلى علاقة هذه الآيات بما قبلها وبما بعدها. وباختصار، نضع عند التدبر أمورًا كثيرة في الاعتبار، وننظر على ضوئها ما إذا كان هذا المعنى يتوافق معها أم لا. فإذا توافق أخذنا به، وإلا تركناه.

خُذوا مثلا قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فقد قال بعض المفسرين إنها النجوم التي تظهر من أفق وتغيب في آخر، ولكنهم يعودون فيفسرون قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ بالمعنى نفسه أيضا! فالسؤال الأول الذي يطرح نفسه هنا: هاتان آيتان اثنتان، فلم لا يذكرون لهما مفهومين اثنين؟ أليس عجيبًا أن نقول إن ما يعنيه الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هو ما عناه نفسَه بقوله ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ دون أن يضيف أي معنى جديد؟ لا شك أن هذا عيب كبير يوجد في كلام رديء غير فصيح مطلقًا، ولكن من المحال أن يوجد في كتاب الله تعالى المنــزه عن كل نقص وعيب ويفوق كتب العالم كلها في فصاحته وبلاغته؛ فكيف يمكن أن يعني الله

تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ سيرَ النجوم من أفق إلى آخر، ويقصد بقوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أيضًا الأمرَ نفسَه؟

وهذا أول دليل على أن معنى النجوم، وإن صَحَّ لغةً، إلا أنه لا ينطبق في هذه الآيات. كان يمكن الأخذ بهذا المعنى في حالة واحدة؛ وهي إذا كانت الآيتان تفيدان مفهومين مختلفين. فاضطرار المفسرين لتفسير الآيتين بمعنى واحد دليلٌ ساطع على خطأ الأخذ بهذا المعنى؛ لأن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يؤدي المعنى الذي يريدونه، وبالتالي سيُصبح قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ كلامًا مهملاً ليس فيه مفهوم إضافي. وهذا مستحيل.

أما قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فيقولون إنها النجوم التي تسبح في الأفلاك، مستدلين بقوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٤)، ثم يعودون ويفسرون قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بأنها أيضًا النجوم التي تسابق بعضها بعضًا؛ مع أن القرآن الكريم قد أكّد بشدّة أن كُلاً من هذه الكواكب يدور في مداره، وليس أن الشمس تحاول أن تسبق القمر أو أن القمر يحاول أن يسبق المريخ. ومع هذا البيان القرآني الواضح يفسر هؤلاء هذه الآيات وكأن الشمس والقمر والنجوم كلها ذوات حياة، وتسعى كل واحدة منها أن تسبق الأخرى. ما الفائدة لو سبقت الشمس القمرَ يا ترى؟ كلا، بل فيه ضرر ودمار للنظام الشمسي كله. يجب أن يكون السباق فيما ينفع العالم لا فيما يضره ويدمره.

ثم يقولون عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أيضا إنها النجوم، مع أن القرآن والحديث يصرّحان أن تدبير الأمر بيد الله، لا بيد النجوم. قال النبي ﷺ قال الله سبحانه وتعالى: "مَن قال مُطِرْنا بِنَوءٍ (أي نجم) كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب" (البخاري، كتاب الاستسقاء). فترى أن النبي ﷺ يُعلن بأمر الله تعالى أن النجوم لا دخل لها في تدبير الأمر، ولكن معظم المفسرين يقولون إن المراد بقوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ هي النجوم.

إذاً، فهذه المعاني التي يذكرونها.. بعضها مرفوض بنص القرآن وبعضها مرفوض بالاستدلال، وقبول بعضها يضطرّنا لاعتبار بعض كلمات القرآن زائدة مهملة، لأن

الآية الأخرى تفيد المعنى السابق نفسه من دون أي مفهوم إضافي، مع أن القرآن كلام الله تعالى، وكل كلمة فيه تنطوي على حكمة بالغة.

والغريب أن بعضهم يفسر قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ بأنها جماعات الملائكة الذين يدخلون في أعماق الجسم ويقبضون الأرواح، بينما يقول بعضهم إنها النفوس التي تغرِق في الصدور. ويفسر بعضهم قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ بأنها النفوس التي تخرج من الأقدام، بينما يقول بعضهم إنه الموت الذي يُخرِج النفوس الإنسانية. ويفسر بعضهم قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ بأنها الملائكة التي تقبض نفوس المؤمنين برفق، بينما يقول بعضهم الآخر إنها الميتات (جمع المِيتة) التي تسبح في الجسم. ويقول بعضهم عن قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ أنها الملائكة التي تستبق بأرواح المؤمنين، بينما يقول الآخر إنها الميتات التي تلاحق الناس وتتخطفهم. ويقول بعضهم عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ إنها الملائكة التي تأتي مع مَلَكِ الموت. فهذه خمس جمل فسروا كل واحدة منها بمعنى الموت، حيث قال بعضهم إن الأرواح تُنـــزع من الأقدام، وقال بعضهم إن الموت يسبح في الأجسام الإنسانية كالسهم، وقال بعضهم إن الموت يلاحق الإنسان فيتخطفه. ثم ما العبرة في سباحة الموت في الجسم كالسهم أو خروجه من الأقدام، على فرض صحة ذلك؟ ثم كيف يمكن أن تكون كل جملة تتحدث عن الموت فقط بدون أن تضيف أي معنى جديد؟ فيفسرون الجملة الأولى والجملة الثانية والجملة الثالثة كلها بمعنى خروج الروح من الجسم. ماذا يعني هذا الكلام؟ وما هو غرض القرآن من هذا التكرار حيث يتحدث مرة بعد أخرى عن قبض الروح فقط من دون أي غاية إضافية أو فائدة جديدة؟ ماذا ينفع هذا الكلام الناسَ علمًا وأخلاقًا وروحانية؟ هل زادهم علمًا؟ وهل كشف عليهم غيبًا؟ فما الفرق لو خرجت الروح من الأقدام أو من الأيدي والأطراف؟ من مات فقد مات، سواء أَخرجتْ روحه من قدمه أو رأسه. إنهم لا يذكرون أي حكمة لهذا الكلام، ويفسرون هذه الآيات الخمس من كلام الله تعالى تفسيرًا عشوائيا ويقولون إن المراد منه الموت فقط.

ثم إنهم اختلفوا في تفسير كل آية من هذه الآيات، فمثلا: نقل ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن الناشطات هي كلاب جهنم التي تنهش لحومهم، بينما قال غيره إنها الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين؛ وشتّان بين المعنيين في التفسيرين! لقد تبين من هنا أن المفسرين لم يتفقوا على معنى واحد، بل اختلفوا في كل مرة.

هنالك معنى واحد اتفقوا عليه، وهو الملائكة، حيث تجد معظم الصحابة والتابعين والذين جاءوا من بعدهم متفقين على أن النازعات والناشطات هي جماعات الملائكة، إلا أنهم واجهوا مشكلة حيث ذكروا للنازعات والناشطات معنى واحدًا، وهو جماعات الملائكة التي تقبض الأرواح، وهكذا تبقى المشكلة في مكانها رغم قبول هذا المعنى، لأننا نسأل: لماذا جيءَ بآيتين لأداء معنى واحد؟

وبرغم التفاصيل التي ذكرها المفسرون، والتي تُعرِّض كلام الله تعالى لتكرار لا مبرر له، إلا أنه ليس من المستبعد قبول معنى الملائكة نظرًا إلى السياق، بل هذا أقرب إلى القياس، كما أن مضمون الآية يؤيد هذا المعنى.

لا شك أن التكرار موجود في بعض مواضع القرآن الكريم، ولكنه تكرار مفيد يتضمن معنى إضافيا، ولولا ذلك التكرار لضاع المعنى الإضافي. أما التكرار بدون مفهوم إضافي فهو عيب تنـــزّهَ عنه كلام الله تعالى تمامًا. فلو أزلنا هذا العيب وأخذنا بمعنى الملائكة لدى تفسير هذه الآيات أصبح هذا المعنى أقرب إلى القياس وأكثر انسجامًا مع سياق الآيات.

والمعنى الثالث الذي تشير إليه التفاسير هو أن المراد من النازعات هنا الغزاة الرماة الذين يَعْدون ويسبحون بخيولهم أثناء الغزوات. ومع أن هذا المعنى هو الأقرب إلى القياس والأوفق مع السياق، إلا أن المفسرين لم يتنبهوا إليه إلا قليلا. فإذا استطعنا أن نبني تفسيرنا على هذا المعنى، فلا يحق لنا الادّعاء بابتكار هذا المعنى، بل لا بد من الاعتراف بالفضل للسلف بمن فيهم معظم الصحابة والتابعين وكبار المفسرين، إذ اهتدوا إليه قبلنا.

كما يمكن انطباق معنى الغزاة أيضًا على هذه الآيات، مع أننا لا نستطيع الجزم ما إذا كان مرويًا عن التابعين أم لا. وما دام المفسرون قد ذكروا هذا المعنى، فلا بد لنا

من الاعتراف بالفضل الكبير لهم في إرشادنا إليه، ذلك لأن بناء العمارة عملية صعبة بدون شك، إلا أن تصميمها وتخطيطها أصعب منه.

باختصار، هذان هما المعنيان الأقرب إلى القياس والأوفق مع السياق، وإن كان المفسرون قد وقعوا في أخطاء كثيرة في تطبيقهما على هذه الآيات. فمثلا تطبيقهم لمعنى الملائكة على هذه الآيات مضطرب جدا؛ فحينًا لا يبقى هناك أي ترابط بين الآيات، وحينا آخر يختلّ ترتيبها، وحينا ثالثًا يضطرون إلى تكرار بلا داعٍ. فلا بد لنا من حل هذه الإشكاليات ما دمنا نقبل هذا المعنى ونأخذ به.

وقبل أن أقوم بتفسير هذه الآيات أرى لزامًا توضيح أمر مهمّ، وهو أن أربعًا من هذه الآيات الخمس تنتهي بمفعول مطلق، بينما تنتهي الأخيرة منها بمفعول به، حيث قال الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. فَغَرْقًا ونَشْطًا وسَبْحًا وسَبْقًا كلها مفاعيل مطلقة، أما ﴿أَمْرًا﴾ فهو مفعول به. ولن أتحدث هنا عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، بل سأتحدث عن المفاعيل المطلقة، فأقول إن ثلاثة من هذه المصادر هي من نفس الجذر الذي اشتُقت منه الأسماء الواردة قبلها، بينما الأول منها، وهو ﴿غَرْقًا﴾، ليس مشتقًّا من الجذر الذي اشتُقّ منه الاسم الوارد قبله، بل قيل ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، مع أن مصدرَ الفعْلِ نَزَعَ هو نَزْعًا أو نُزوعًا أو نَزاعةً ونِزاعًا، ولكن الله تعالى لم يستخدم أيًّا من هذه المصادر، بل استعمل مكانها كلمة أخرى: ﴿غَرْقًا﴾. فما سببُ ذلك؟

فليكن معلومًا أن في ذلك حكمة بالغة، وهي أن المعنى أحيانًا لا يتحدد بالفعل وحده في اللغة العربية، بل يأتون بعده بمصدر لتحديد المعنى. فمثلا فعلُ (نَزَعَ) يعني قَلَعَ فقط، ولكن للنَّزْع معان عديدة منها امتناعُ المرء عن الكلام، أو رغبتُه في شيء، أو مشابهتُه بآخر، فإذا جئنا بعد (نَزَع) بمصدر تحدَّدَ معناه الذي يبينه ذلك المصدر. فمثلاً إذا قلنا: نَزَعَ نَزْعًا فيعني أنه قلَع الشيءَ أو عزَله، ولا يعني شابَهَه لأن النَّــزْعَ لا يؤدي معنى الشّبه إلا إذا كان مصدره نُزوعًا. كما لا يفيد قولنا "نَزَعَ نَزْعًا" معنى الرغبة والتشوق، لأن نَزَعَ لا يأتي بمعنى رَغِبَ إلا إذا كان مصدره نَزاعةً

ونِزاعًا ونُزوعًا. فثبت أن المصدر يحدّد معنى الفعل، حيث يبقى الفعل كما هو، وبتغير المصدر يتغير معناه. فلو قال الله تعالى مثلاً (والنازعات نَزْعًا) مكانَ قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ لَتَحدَّدَ معناه وانحصر فيما يفيده قولنا: نَزَعَ نَزْعًا. ولو قال تعالى مثلاً (والنازعاتِ نُزوعًا) لانحصر معناه فيما يفيده قولنا: نَزَع نُزوعًا. والحال ذاته بالنسبة إلى بقية المصادر مثل: نزاعًا ونَزاعة.

فثبت من هنا أنهم لا يذكرون المصدر بعد الفعل لمجرد التأكيد فحسب، بل لتحديد المعنى أيضًا. وإذا لم يذكروا المصدر من جذر الفعل نفسه، كما هو الحال في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ صلُحت جميع المعاني التي تدل عليها مصادرُ ذلك الفعل. فمثلاً لو قال الله تعالى (والنازعات نَزْعًا أو نُزوعًا أو نَزاعةً ونِزاعًا) لتحدَّدَ معنى هذه الآية وانحصر فيما يدل عليه ذلك المصدر المعين. ولكن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقًا﴾ يعني أن كل المعاني التي تدل عليها هذه المصادر يمكن أن تنطبق على هذه الآية. وبتعبير آخر قد نبّهنا الله تعالى بهذا الاستعمال أن نضع عند تفسير هذه الآية جميع هذه المعاني في الحسبان.

أما قول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. فهناك لفعلِ (نَشَطَ) مصدران: نشاطًا ونَشْطًا، وهذا يعني أنه باستخدام مصدر (نَشْطًا) قد حدّد الله معنى ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ ولم يُطْلِقه، فبيّن أن مفهوم ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ ينحصر في المعنى الذي حدّده مصدرُ (نَشْطًا)، ولا ينطبق هنا المعنى الذي يشير إليه مصدر (نشاطًا).

وأبين الآن موقفي في تفسير هذه الآيات الخمس:

لقد بيّنتُ من قبل أن هناك معنى معقولاً عندي، وهو متفق عليه عند معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين وأكثر المفسرين، وهو أن هذه الآيات تتحدث عن الملائكة. بيد أن ثمة إشكالا وهو أن الضمائر هنا للمؤنث، مع أن الضمير الراجع على الملائكة يجب أن يكون مذكَّرًا، كما في قوله تعالى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٥١). لم ينقل المفسرون عن الصحابة أي جواب على هذا الإشكال، بيد أنهم أجابوا عليه من عند أنفسهم وقالوا: صحيح أن الأصل هو الضمير المذكر للملائكة، ولكن قد ورد هنا الضمير المؤنث لأن المراد هنا طوائف

الملائكة وجماعاتها. وكل المفسرين والعلماء متفقون على هذا المعنى وهذا التأويل. وحيث إن معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين ثم المفسرين مجمعون على أن هذه الآيات تتحدث عن الملائكة، فلا بد أن يُعتبروا متفقين على السبب المذكور أعلاه وراء ورود الضمير المؤنث أيضًا. وما دام قد ثبت هذا فقد ثبت منه أيضًا أن الاعتقاد بأن ملاكًا واحدًا ينـــزل إلى الدنيا بجسد مادي لإنجاز كل المهامّ الموكولة إليه منافٍ للشريعة ومخالف للقرآن الكريم. ذلك أن عزرائيل إذا كان هو ذاته يذهب إلى كل شخص لقبض روحه، فما الحاجة إلى طائفة من الملائكة للغرض نفسه؟ إنما تمسّ الحاجة إلى أكثر من فرد إذا كان العمل فوق طاقة الفرد الواحد أو إذا كانت هناك مهمات عديدة تتطلب عدّة أفراد؛ فإما أن نقول إن عزرائيل غير قادر على قبض أرواح الناس ولذلك يصطحب معه طائفة من الملائكة، أو لا بد أن نقول إن جميع أفراد هذه الطائفة المكلَّفة بقبض الأرواح يقومون بقبض أرواح شتى الناس، كلٌّ بأسلوبه وطريقته. والأمر نفسه بالنسبة إلى المهام الأخرى. أما إذا اعتقدنا أن ملاكًا واحدًا ينـــزل إلى الدنيا ويقوم بجميع المهام، فهذا يخالف العقيدة الإسلامية؛ ذلك لسببين: أولهما أن الاعتقاد بهبوط الملاك في كل مكان هبوطًا ماديًّا اعتقادٌ مشابه للشرك؛ إذ نضطر لنعتقد بأن هذا الملاك الواحد يكون حاضرا وغائبا في وقت واحد في كل مكان، وبالتالي يصبح شريكا مع الله تعالى في صفة كونه محيطًا بكل شيء، وكونه موجودا على العرش والفرش في وقت واحد.

وثانيهما: أن الأجسام المادية هي التي تحتاج إلى الهبوط المادي، لكن الملائكة أجسام روحانية، والأرواح اللطيفة هي أكثر إنجازا لأعمالها بأشعتها منها بأجسامها المتنقلة، فإننا نرى في الدنيا أنه كلما كان الشيء لطيفًا أنجز عمله بأشعته بدلاً من تنقله.

إذًا فقد تبيّنَ من هذه الآيات - التي يتفق الجميع على أنها تتحدث عن الملائكة - أن كل طائفة من الملائكة مسخّرة للقيام بمهمّة ما، وأن نطاق عملها محدود، وأن كل مهمة منوطة بجماعة من الملائكة يقوم بها كلهم مجتمعين وليس ملاكا واحدا فقط. فلا بد من الاعتراف، في هذه الحالة، أن لكل طائفة من الملائكة مركزا، وأن

أفرادها يظلون على اتصال بهذا المركز، وأنهم يرفعون تقريرهم إلى رئيسهم، لكن ليس على طريقة البشر، بل بما يتناسب مع عظمة الملائكة وحالهم. ✪

بعد هذه التوطئة أقوم بتفسير قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، مفضِّلاً المعنى الأول للنازعات أي الملائكة، إذ قد اتفق عليه معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين والمفسرين.

ومن معاني ﴿النَّازِعَاتِ﴾ الجماعات التي تقوم بعملية القلع حيث يقال نــزَع الشيءَ عن مكانه: قلَعه. وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أننا نستشهد بجماعات الملائكة التي تنــزع الأشياء من مكانها. وهذا المفهوم يلقي المزيد من الضوء على التمهيد الذي قمت به آنفًا، ويوضح أن الملائكة الذين يقومون بعملية النــزع جماعات عديدة، لأن عملية النــزع أيضا أقسام، وعلى كل قِسم منها جماعةٌ من الملائكة. لقد تبين من ذلك أن وراء كل سبب في الدنيا ملاكٌ مسبِّبٌ، وحيث إن الأسباب لا تُعدّ ولا تُحصى، فالملائكة أيضا لا تعد ولا تحصى، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(المدثر:٣٢) فكما أن هناك أسبابا دقيقة وراء كل عمل في الدنيا بحيث يستحيل على الإنسان أن يحيط بها، كذلك ليس بوسع الإنسان تقدير عدد الملائكة المسخرة على هذه الأسباب الخارجة عن إحاطة الإنسان.

والمراد من القَلْع المذكور هنا والذي تقوم به جماعات الملائكة هو قَلْع قلوبِ الكفار، الكافرةِ في الظاهر والراغبةِ في الإسلام في الحقيقة. والدليل على ذلك أن السورة السابقة تتحدث عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن، وتقدِّمُ غلبتهما دليلا على القيامة. وإن ترتيب السور القرآنية يقتضي أن يبين الله تعالى الآن في هذه السورة كيف تتم هذه الغلبة وكيف يزدهر الإسلام وكيف يُنــزَع الكفر من أساسه؛

✪ لدراسة المزيد عن الملائكة ونظامها ومهامّها راجِعْ كتاب المسيح الموعود عليه السلام باسم "توضيح المرام" ص ٦٦ الخزائن الروحانية المجلد ٣. (المفسر)

ولذلك استهلّ الله تعالى هذه السورة بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فبيّن أن السبيل إلى هذه الغلبة هو أن جماعات عديدة من الملائكة ستعمل على نـــزع القلوب المعادية للإسلام في الظاهر والمستيقنة بمحاسنه في الواقع من أرضها. الحق أن كثيرا من الكافرين كانوا في قلوبهم متبرمين من الكفر لأسباب مختلفة، فكان بعضهم متبرمًا من الكفر بسبب التعامل الوحشي الموجود بينهم، وبعضهم لسوء نظامهم، وبعضهم بسبب الظلم الموجود بينهم، وبعضهم لفقدان الشريعة بينهم. فكانوا في بستان الكفر كأشجار أصبحت جذورها ضعيفة، ولم تعُدْ منسجمة مع أرض الكفر؛ فلما عرض محمد ﷺ أحكام القرآن على الناس نشطت الملائكة المسخرة كلٌّ في نطاق الخُلق الخاص به، ليستثيروا المشاعر الطيبة في هؤلاء الكافرين. لم يكن في التعاليم الكاملة التي أتى الرسول ﷺ بها شركٌ بل التوحيد، ولا جهل بل العلم، ولا ظلم بل العدل، ولا وحشية بل الرأفة، ولا حرية مطلقة بل القوانين النافعة، ولا فوضى بل النظام. كان في تعاليمه ما يغطي كلّ ما تحتاجه الفطرة الإنسانية، ويُصلِح كل خطأ كان في الكفر. فكل ملاك مسخر على خُلق من الأخلاق بدأ يستثير المشاعرَ الطيبة في كل قلب كان داخل نطاق عمله ويجلّي ما فيه من خير، مما جعل عيوب الكفر تبدو له فظيعة جدا. مثلاً إن الملائكة المسخرة لإرساء وحدانية الله في العالم أخذت بعد نـــزول تعاليمه ﷻ تولّد في قلوب الكافرين الكارهين للشرك مزيدًا من الكراهية تجاهه، وتكشف لهم شناعته أكثر، كما قرَّبت إلى أفهامهم تعاليمَ الإسلام الطيّبة المتعلقة بنطاق عملهم، مما زادهم نفورًا من بستان الكفر وأرضه التي كانوا مقيمين فيها، فعلموا أن تلك الأرض لا تناسبهم، فاشتد حنينهم للوصول إلى البستان المحمدي. وبعد أن اتخذت الملائكة هذه الخطوة أعني أنها كرّهت إليهم الكفر وزادتهم رغبةً في الخير وحبًّا للإسلام اتخذت الخطوة التالية المذكورة في قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ - يعني: نُقسم بطوائف الملائكة التي تعقد عقدًا - أي أنها توصل هذه الأرواح، التي قطعوها من أراضي الكفر، بمحمد ﷺ. علمًا أن هذا لا يعني أن طوائف الملائكة التي قامت بعملية قَلْع هذه الأرواح من أرض الكفر لا تقوم بعملية "النشط" أي الوصل، بل المعنى أنها بعد عملية القلع

تبدأ بعملية الوصل، بمعنى أنها بعد تنفيرهم من الكفر تولد فيهم الإيمان وتوصلهم بمحمد ﷺ. وليست البيعة إلا عقدًا ووصلاً في الواقع، وقد قال النبي ﷺ نفسه: "من مات وليس في عنقه بيعةٌ، فقد مات ميتةً جاهليةً (مسلم: كتاب الإمارة)، وهذا هو ما يعنيه النشط أيضًا، أي عقد الحبل. إذًا، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أن الملائكة تُرغِّبُ في الإسلام مَن يتبرأ من الكفر وتربطه بحبل بيعة النبي ﷺ.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.. أي نُقسِم بجماعات الملائكة التي تسبح وتخرج في سباحتها بعيدًا. لقد بيّن الله تعالى هنا أن الملائكة لن تسعى لغلبة الإسلام في مكة فحسب، بل إنها بعد أن تضمّ الأرواحَ السعيدة من مكة إلى الإسلام تذهب خارجها لجلب الأرواح الأخرى المستعدة لقبول الإسلام. وكان من نتائج سباحة الملائكة وتحليقها إسلامُ أبي ذر الغفاري وقبيلته وإسلام الأنصار من المدينة وإسلام أبي موسى الأشعري وقبيلته من اليمن وإسلام سلمان من الفرس، وهكذا دبّر الله تعالى لانتشار الإسلام في مختلف الأقطار في وقت واحد.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي تتولد في جماعات الملائكة روح التسابق والتنافس بعد أن تنجح في فتح قلوب المؤمنين من شتى الأقطار، فتسعى الملائكة من كل طبقة وفي كل قطر أن تسبق بعضها بعضا في هذا العمل. وبالفعل نرى من خلال أعمال المؤمنين الذين هم أظلال الملائكة أنهم كانوا يتنافسون في الخيرات برغبة عارمة، وكل طائفة وقبيلة منهم كانت تريد إحراز قصب السبق في الخيرات. هناك أمثلة كثيرة على ذلك في زمن الخليفة الأول والثاني للرسول ﷺ، بل نجد أمثلة عديدة على ذلك في العهد النبوي نفسه الذي كانت فيه جماعة المؤمنين صغيرة جدا. فرغم أن المهاجرين والأنصار كانوا يشتركون حتى في اللقمة الواحدة نفسها، وكانوا أشدّ تحابًّا من الأشقّاء، لكنهم كانوا يتنافسون في مجال خدمة الدين أشد التنافس. ثم إن الأنصار أنفسهم كانوا قبيلتين؛ الأوس والخزرج، ومع أنهم أصبحوا بالإسلام إخوانًا متناسين ما كان بينهم من حروب في الماضي، إلا أنهم كانوا شديدي التنافس فيما بينهم في سبيل الدين، حتى إن الرسول ﷺ لما أعلن

بينهم: مَن ذا الذي يكفيني أذى العدو - وكان يقصد كعب بن الأشرف العدو اللدود للإسلام - قامت جماعة من الأوس وقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك شرَّه. فوكّلهم بهذه المهمة، فقتلوا هذا العدو وفقًا للقواعد الحربية العامة، وليس ظلمًا (السيرة لابن هشام، الجزء الثالث، مقتل كعب بن الأشرف). علمًا أن أعداء الإسلام يعترضون أن أمْر النبي ﷺ بقتل كعب لم يكن مشروعًا، ولكن طعنهم يتنافى مع الأحداث التاريخية التي يضيق المجال عن الخوض في تفصيلها، ومن أراد الاستزادة فليقرأ تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٧٣-٧٤)، وذلك في المجلد الأول من هذا التفسير. فلما قُتل كعب تولدت في قلوب الخزرجيين مشاعر التنافس في الخير؛ فجاءوا النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله، مُرْنا بمهمة مشابهة حتى لا نتأخر عن إخواننا الأوس، فوكّل إليهم الرسول ﷺ قتل أبي رافع. فذهبوا وقتلوه. (السيرة لابن هشام، الجزء الثالث، مقتل سلام بن أبي الحقيق).

ولم يكن التنافس بينهم في الخيرات على صعيد القبائل فقط، بل كان على صعيد العائلات أيضا؛ فمثلاً كانت عائلات عديدة من الأنصار تتناوب في حراسة النبي ﷺ ليلاً، وكانوا يحرسونه بدون سلاح عادةً، وفي إحدى الليالي سمع النبي ﷺ صوت سلاح، فسأل عن الصوت، فقيل له إن بني فلان يحرسونه مسلحين، فسُرّ النبي ﷺ بروح التنافس بينهم. (البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو)

ثم إن هذا التنافس في الخيرات كان بين الفقراء والأغنياء أيضًا، فذات مرة جاء الفقراء إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إن إخواننا الأغنياء ذهبوا بالدرجات، فهم يزكّون أموالهم ويُخرجون صدقات أخرى ويعملون أعمال الخير الأخرى، ولكننا محرومون منها بسبب فقرنا، فدُلَّنا على عمل يسدّ هذا النقص. فقال النبي ﷺ: عليكم بالتسبيح ٣٣ مرة فالتحميد ٣٣ مرة والتكبير ٣٤ مرة بعد كل صلاة. وبعد أيام رجع هؤلاء إلى النبي ﷺ وقالوا يا رسول الله، لقد علِم إخواننا الأثرياء-

بطريق أو بآخر- بما علّمتنا، فيقومون بالتسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلاة، فامنَعْهم من ذلك. فقال ﷺ: كيف أمنعهم من الخير؟ (مسلم، كتاب المساجد).

ثم لم يكن رجالهم وحدهم متنافسين في الخيرات، بل نرى نساءهم متحليات بروح التنافس هذه؛ فقد ورد أنهن ذهبن مرة إلى النبي ﷺ وقلن: يا رسول الله، إنك تعظ الرجال فقط، ولا تعظ في النساء. فجعل الرسول ﷺ يومًا لوعظهن. (البخاري: كتاب العلم)

إذًا، ما كان المسلمون يتهربون من العمل في سبيل الدين قائلين: الحمد لله لم تقع هذه المسؤولية عليّ، بل على غيري، بل كان كلّ واحد منهم متحَمِسًا ليحمل الأعباء أكثر من غيره. وهذا هو سرُّ رقيّ الأمم. إذا حاول أبناء أمّة نقل الأعباء والمسؤوليات إلى الآخرين هلكت، أما إذا كان كل فرد منها تَوّاقًا للخدمة أكثر من غيره ازدهرت باستمرار. وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - متحلين بهذه الميزة، مما يدل على أن الملائكة التي كانت تحثّهم على الخير متحلية بهذا الحماس أيضًا. وقد تجلى هذا الحماس في المسلمين كثيرا عند انتشار الإسلام حتى أن التاريخ يذكر أن بعض القبائل ضحّت بكل أبنائها في الحروب الإسلامية في عهد الخليفتين الأول والثاني، ولم يريدوا أن يشاركهم غيرهم من المسلمين في شرف هذه التضحية والشهادة في سبيل الإسلام. كانوا يسمحون للآخرين أن يشاركوهم في الغنائم والعز المادي، لكن فيما يتعلق بالتضحيات في سبيل الأمة فكانوا يتمنون دائما أن يتعاطوا كأس الموت دون الآخرين. وهذا موضوع طويل لا مجال لتفصيله هنا، بيد أنه مما لا غبار عليه أن هذا الدليل البين الساطع على صدق قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ لموجود في صفحات التاريخ.

أما قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فبيّن فيه أن الملائكة بعد فراغها من عملية نفخ روح التسابق تصبح مدبرات للأمر، أي ستصبح الأرض تحت حكم الملائكة؛ ذلك أن الملائكة يحثّون الناس على الخير، فإذا خضعت الأرض لحكم الصالحين الذين يديرون شؤون القوم، فتكون النتيجة أن الملائكة سيكونون حاكمين على الدنيا، وبتعبير آخر: إن ملكوت الله يقوم في الأرض، لأن الملائكة ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

(النحل:٥١). إذًا، ستحكم الملائكة العالم من خلال حُكم الصالحين المطيعين للملائكة. ومن خلال حُكم الملائكة المطيعين لله تعالى في كل شيء سيقوم حُكم الله على الأرض. وبكلمات أخرى فإن الدعاء الذي قام به المسيح عليه السلام قائلا: "أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَات، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (مَتَّى ٦: ٩-١٠)، والذي لم يتحقق على يده عليه السلام لأن أُمّته لم تنَل المُلك زمن صلاحهم، بل نالوه بعد أن صاروا مشركين، قد تحقق ذلك الدعاء بواسطة النبي محمد ﷺ، لأن أتباعه نالوا الملك وقلوبهم تحت تصرُّف الملائكة، فكانوا يفعلون ما يؤمرون من قبل الملائكة التي تأمرهم بما يريده الله ويأمرها به. وهكذا لم يعُدْ ملكوت الله في زمنهم في السماء فحسب، بل قام على الأرض أيضًا.

ما أروعَ هذه النبوءةَ! وما أعظمَها! حتى إن الأعداء يقرّون مضطرين بأن حُكم خلفاء الإسلام لم يكن حُكم بشر، بل كان حُكم أخلاق. ومصطلح "حُكم الأخلاق" لا يُستعمل عند غير المسلمين إلا للحُكم الذي يُسمَّى في المصطلح الإسلامي حكم الملائكة. وما لنا أن لا نُسمّي حُكْمَهم حُكم الملائكة وقد اعتُبر يوسف عليه السلام ملَكًا بحسب قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(يوسف:٣٢).

هناك أمران ضمنيان يمكن استنتاجهما من هذه الآيات كدروس قانونية، وهي كالآتي:

الدرس الأول: لقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إلى ازدهار الإسلام.. أي أن دَعْوته ستصل منذ البداية إلى مناطق بعيدة. وهذا إشارة إلى أن دعوة الإسلام ذات جاذبية عالمية ولا تختص بدولة أو أُمّة. إن جذورها ليست في أرض التقاليد القومية أو القطرية، بل في أرض الأخلاق والمشاعر الإنسانية، ولذلك ستنتشر بسرعة في أقطار بعيدة، وستجتذب كثيرًا من الشعوب والأمم بسرعة وإن قبِلها في البداية قلّةٌ من الناس.

لقد بيّن الله تعالى هنا إحدى فضائل الإسلام التي يضيق المجال عن الخوض فيها، كما نبه إلى أمر هامّ لا بد منه لجميع الحركات التي تريد أن تكون عالمية، ألا وهو

أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بدعوة عالمية ما لم يترفع عن النـــزعة العنصرية. إن الهند مثلاً بلد من بلدان العالم، وليست العالم كله، ومع ذلك لم يتمكن زعماؤها السياسيون بعد مِن خَلْقِ جوٍّ وطني، ذلك لأنهم قد جذّروا حركاتهم السياسية في أرض النـــزعة القَبَلِيّة نتيجة ضغط قَبَليٍّ أو مصالح عائلية، ولذلك تأخذ شجرة حركاتهم في الجفاف جزئيًّا أو كليًّاً بُعيد نموّها، ولا تتحول إلى دوحة تهّيئ الظلال للبلاد كلها. بينما نجد الإسلام - وهو لا يزال في مكة وفي زمن العصبية القَبليّة الشديدة - قد اجتذب من المدينة قبيلتي الأوس والخزرج المتحاربتين، وأخضع اليمن الذي كان يدعي تفوقه السياسي، واجتذب من اليهود عبد الله بن سلام، وسلمان من فارس - بيد أنهما كانا ممثِّلَين لقوميهما الذين طاروا إلى الإسلام كالفراشات. وليس ذلك إلا أن الإسلام لم يكن كماءٍ راكدٍ في بِركة، بل كان كمثل غيث يمطر على تلٍّ عالٍ ويصل إلى أماكن بعيدة ولا يتجمع في مكان واحد. لم يكن حَمَلَةُ الإسلام خدّام أُمّتهم فقط، بل كانوا خدام الإنسانية جمعاء. لقد علِم كلٌّ منهم أنه لا يرث هذه الثروة وحده، بل فيها نصيب لأهل البلدان الأخرى، فخرج كل واحد منهم بهذا التعليم في مختلف الأنحاء والأقطار، فانتشر الإسلام في العالم كله. لو كانت تعاليمه متأثرة بالتقاليد القومية والقطرية، أو لو كان أتباعُه يريدون تفوُّقَ بلدٍ معيّن لما انتشر الإسلام هكذا أبدًا. واليوم أيضًا لن تحقِّق أمّةٌ غايتها إلا إذا وسّعتْ نطاق تعاليمها وأخلاقها كما فعل الإسلام.

أما الدرس الثاني فهو أن الله تعالى قد بيّن هنا أن تعاليم الإسلام لا تتسامى عن حدود الأقطار والبلاد فحسب، بل هي واسعة من حيث الطبائع، وقد أُشير إلى ذلك بكلمات النازعات، والناشطات والسابحات التي هي صيغة الجمع.. أي أن هنالك طوائف للملائكة تقوم بهذه المهام. بمعنى أن تعاليمه لا تخاطب أصحاب فطرة واحدة، بل كلَّ فطرة وكل طبيعة وكل مزاج. إن المجال يضيق عن الخوض في تفصيل هذا الموضوع، غير أنكم لو أخذتم الأمور البارزة التالية في الاعتبار استطعتم استيعاب الأمر، أعني أن الإسلام قد تناول بالبيان كل القضايا الهامة من سياسة وتمدُّن واجتماع وتجارة واقتصاد، وأصدر الأحكام العادلة للسيد والخادم

والزوجين والآباء والأولاد والأخ وأخيه والمعلم والتلميذ والغني والفقير والملك والرعية والصديق وصديقه جميعا. كما أعطى تعليمات تشفي غليلَ أصحاب الطبائع المختلفة من عابد وجندي وقاضٍ ومحبّ للجهاد ومعجب بالعدل ومولع بطلب العلم وراغب في الصدقات ومحبّ للنظام. فما مِن طبع من الطبائع الإنسانية إلا وقد عمل الإسلام على تطويره. فإذا كان الله تعالى قد أكد تفوُّقَ الإسلام من جهةٍ مبيّنًا أنه قد اهتم بكل بلد وبكل طبع إنساني حيث وكَّلَ لكل بلد ولكل طبيعةٍ طائفة من الملائكة لنشر الإسلام وتبليغه، فإنه من جهة أخرى قد نبّه إلى أن الحركات التي تريد أن تصبح عالمية لا بد لها من أن تأخذ كل قوم وكل طبع إنساني في الاعتبار - إلى حدٍّ لا يعيق هدف الأمة الأسمى - بل لا بد لها من تنمية كل ما يوجد في أي فرد من كفاءة خاصة من أجل رقي الأُمة.

وأبين الآن تفسيرًا آخر لهذه الآيات باعتبار الطوائف طوائف جماعات الناس لا جماعات الملائكة. علمًا أن النـــزع يعني الرماية أيضا، والنشط يعني عقد الحبل، والسبح يعني السباحة أو الخروج بعيدا، والسباق يعني التنافس والتغلب، وتدبير الأمر يعني إدارة نظام الحُكم. وعليه فتُعتبر هذه الآيات إشارة إلى الفتوحات الإسلامية. كانت سورة "النبأ" قد أشارت في آخر آياتها إلى يوم الفصل محذِّرةً من اليوم الذي يصبح فيه الإسلام غالبا حتى يقول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. أما الآن في سورة النازعات فقد فصّل الله تعالى هذا الموضوع وبيّن كيف تكون بداية غلبة الإسلام وكيف تبلغ ذروتها.

يقول الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.. أي نقدّم على صدق دعوانا جماعات رماة المسلمين الذين يرمون السهام إغراقًا، بمعنى أنهم سيقومون بالرماية بأقصى ما أُوتوا من قوة غير مكترثين لراحتهم. هؤلاء الرماة هم جماعات الصحابة الذين كانوا عند نـــزول هذه السورة بضعة أفراد وكانوا أقل عددًا من أن يسمَّوا طائفة أو جماعة، وكانوا عرضة للاضطهاد غير قادرين على أن يرفعوا أيديهم إلى عدوهم، ناهيك أن يرفعوا عليهم سيفًا؛ ومع ذلك يعلن الله تعالى أن يوم غلبتهم - الذي يقول فيه الكافرون ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ - لآتٍ، حيث ننشر الإسلام خارج مكة،

فتجتمع قبائل أخرى تحت رايته، وعندها نسمح للمسلمين بالحرب، فيقومون بواجب الجهاد أداءً غير مسبوق؛ ذلك لأن الإغراق يعني بلوغ المرء غاية الحد وأقصى درجة في العمل.

ما أروع ما تحققت به هذه النبوءة فيما بعد! حيث خرج الإسلام من مكة وبلغ المدينة، فصار المسلمون من طائفة إلى طائفتين: المهاجرين والأنصار. وكان مسلمو المدينة قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كان بينهما عداء شديد قبل الإسلام، وهكذا صار المسلمون في الواقع ثلاث فئات، فصحَّ أن تُطلَق عليهم صيغة الجمع: "النازعات". والواقع أنه لما أُذن للمسلمين بالقتال كانوا ثلاث فئات فاستحقوا بجدارة أن يُسمّوا "النازعات والناشطات". إذًا، فلما اجتمعت هذه الفئات الثلاث تحت راية الإسلام حان موعد الإعلان الرباني ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج:٤٠-٤٢).. أي يُسمَح من الله تعالى بالقتال للذين تُسلَّط عليهم الحرب. وقد أُذن لهم بذلك لأنهم قد ظُلموا. وقد أُذن لهم بالقتال لأن الله قادر على نصرهم. لو كانت الحرب تفنيهم لم يؤذَن لهم بها. فإذْنُ الله لهم بالحرب دليل على أن الله يضمن لهم النصر. إنهم قوم قد أُخرجوا من ديارهم، وليس ذنبهم إلا أنهم قالوا ربنا الله. ولو لم يدفع الله شرَّ بعض الناس عن بعض لدُمّرت معابد اليهود والنصارى والمسلمين التي يُذكر فيها اسم الله كثيرا. ولا شك أن الله تعالى سينصر مَن يهبُّ لنصرة دينه، إن الله قوي غالب. وإن صفة هؤلاء القوم الذين نريد أن نعطيهم المُلك الآن أنهم لو أُعطوا المُلك أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولن يسعوا لتوطيد حُكمهم في الدنيا بل حُكم الله تعالى.

وفي غزوة بدر تحققت هذه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا....﴾، حيث أُذن للصحابة بالقتال فخرجوا وتصدَّوا للعدو الذي كان يزيد عليهم ثلاثة أضعاف. وقد اعتمد المقاتلون في هذه المعركة على السهام غالبًا؛ لذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨). لا شك أنها إشارة إلى حفنة من الحصى التي رماها الرسول ﷺ في وجوه الكفار، ولكنها تشير أيضا إلى الرياح التي جرت بأمر الله تعالى من وراء المسلمين بعد أن أطلق النبي ﷺ هذه الحفنة، مما جعل سهام المسلمين تنطلق بقوة وتصيب الهدف، بينما سقطت سهام الكفار في الطريق أو فقدت قوتها نتيجة ضغط الرياح المعاكسة. (شرح المواهب اللدنية للزرقاني، ذكر غزوة بدر)

ومما يدل على كون المسلمين ﴿غَرْقًا﴾ في هدفهم - أي أنهم لن يبرحوا عن القتال ولن ينسحبوا منه مهما حدث - ما حكاه عمير بن وهب أحد زعماء الكافرين الذي بعثوه ليقدّر قوة المسلمين يوم بدر، فلما رجع إليهم قال: إنهم قرابة ثلاثمائة شخص، ولكن يا قوم لا تحاربوهم رغم قلتهم، فقد "رأيتُ البلايا (النُوق) تحمل المنايا". (السيرة لابن هشام، ذكر غزوة بدر الكبرى).. أي أن وجوههم تنبئ أنهم قد حضروا ليموتوا، لا أن يرجعوا أحياء. فخافت قريش بما قاله ابن وهب، إلا أن أبا جهل تمكّنَ من إيقاد نيران الحرب.

والشهادة الثانية على كون المسلمين ﴿غَرْقًا﴾ في القتال ما حصل بين أبي بكر وابنه عبد الرحمن، فبعد معركة بدر بفترة قصيرة أسلمَ الأخير وهاجر إلى المدينة، وبينما هو يتجاذب أطراف الحديث عن وقائع بدر قال لأبيه: يا أبت، لقد كنتَ تحت ضربة سيفي مرارًا أثناء القتال، ولكني امتنعت عن قتلك في كل مرة، لكونك أبي. فقال له أبو بكر ؓ: أما أنا فلو تمكنتُ منك لقتلتُك و لم أتردّد لأنك ابني. (الروضُ الأُنُفُ: غزوة بدر). هذا بالرغم من أن الآباء هم أشدُّ حبًّا للأولاد من حب الأولاد لهم عادة. إنها روح الإسلام التي قد جعلت كل أب وكل ابن وكل زوج وكل زوجة لا يعبأ بأي شيء يصدّه عن سبيل الحق. وثبت من هذه الشهادات التي هي من قِبل المؤمنين والكفار جميعًا أن جماعات الصحابة كانت مصداقا لقوله تعالى

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾. لقد عاشوا في البداية مسالمين متمسكين بأهداب الصبر إلى أقصى حدّ، وعندما أصبحوا ﴿النَّازِعَاتِ﴾ أخذوا في أيديهم السهام وأصبحوا ﴿غَرْقًا﴾ في هذا العمل، بحيث لم يضعوا القوس من أيديهم إلا بعدما فاضت روحهم من جسدهم. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وعلى أصحاب محمد وبارِكْ وسلّم إنك حميد مجيد.

وكان نتيجة إخلاصهم أن الكافرين رأوا بأم أعينهم وفي هذه الدنيا كيف تحقق قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. كان أبو جهل رئيس مكة وقائد جيشها يوم بدر. يقول عبد الرحمن بن عوف – أحد قادة المسلمين المحنكين – أنه فيما كان أبو جهل يصفّ جنوده في بدر، نظرت يمنة ويسرة، فإذا بصبيّين أنصاريين يبلغان الخامسة عشرة، فقلت في نفسي: لن أستطيع اليوم شفاء نفسي أثناء القتال، لأن معي – لسوء حظي – صبيين من الأنصار عديمي الخبرة بالقتال. وبينما أنا في ذلك حتى غمزني الذي على يميني، فقال: يا عمّ ادْنُ مني لأني لا أريد أن يسمع صاحبي ما سأقول في أذنك. فاقتربت منه فقال: عمّ، أَرِني أبا جهل الذي آذى رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أريد قتله؟ وما أن أنهى كلامه، حتى غمزني الصبي الذي على يساري، فقال: يا عم، من هو أبو جهل الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أحب قتله اليوم؟ ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كنت مقاتلاً محنّكًا، إلا أني لم أتصور أني قادر على قتل قائد جيش الكافرين أبي جهل الذي كان يقف وسط حلقة من جنوده الخبراء بفنون الحرب. فأشرتُ لهما بيدي وقلت: هو ذلك الشخص المختفي في الخوذة والدرع والذي يحرسه مقاتلون أشداء بسيوفهم. وكنت أعني بذلك أن قتلهما هذا الرجلَ دونه خرط القتاد. ولكن لم تكد يدي تهبط بعد الإشارة حتى انقض الصبيان نحو أبي جهل انقضاضَ الصقر على العصفور وأخذا يشقّان صفوف الكافرين. وكان عكرمة المقاتل المحنّك المغوار يحرس أباه أبا جهل من أمامه، ولم يدُر بخلده أو غيرِه قَصْدَ الصبيين اللذين اقتربا بسرعة بالغة من الحراس الشاهرين سيوفهم، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينـــزلوا سيوفهما قبل فوات الأوان، إلا واحدا منهم الذي قطع يد أحد الصبيينِ، ولكن

الذي يرى بذل النفس رخيصًا لا يعيقه قطعُ يده عن قصده، فما زال الصبيان يشدّان على الحراس كالصخرة المتدحرجة من أعلى الجبل حتى انقضّا على أبي جهل بسيفيهما، فوقع صريعًا قبل أن تبدأ الحرب فعلاً. ويقول عبد الله بن مسعود ﵁: وجدتُ أبا جهل في حالة الغرغرة بعد انتهاء القتال، فقلت له: كيف حالك؟ قال: أموت بحسرة. ليس القتل عارًا، ولكن لو غيرُ أكّارٍ قتَلني، يعني ليتني لم أُقتَل بيد صبيين من الأنصار المزارعين بل قتَلني غيرهما؛ ذلك لأن أهل مكة كانوا يحتقرون أهل المدينة الذين كانت حرفتهم الزراعة. ثم قال أبو جهل لابن مسعود: إني في أذى شديد، فاعملْ لي معروفًا واقتلْني بضربة سيف، ولكن اقطَعْ عنقي طويلةً؛ لأن قطع العنق طويلةً من علامات القائد. فرضي ابن مسعود ﵁ بقتله ليخلصه من العذاب، ولكنه قطع عنقه قريبا من الذقن. وهذا يعني أن رغبته الأخيرة أيضًا لم تتحقق. (البخاري، كتاب المغازي)

فما أروعَ وما أوضحَ ما تحققت به هذه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾!

ولام التعريف في لفظ ﴿الْكَافِر﴾ قد تكون للعهد، وقد تكون للاستغراق أي للكمال.. أي الكافر الذي هو كفر متجسد، وهو أبو جهل، فالمراد أن هذا الكافر سيقول عندها: ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. فكِّرْ في الأحداث جيدًا لتعلم ما إذا كان أبو جهل قد صاح يومئذ: ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أم لا. لقد رأى بأم عينه الخزي والهوان، محققًا هذه النبوءة الواردة في سورة (النبأ) بكل جلاء ووضوح.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾. لقد أجاب الله تعالى في الآية السابقة ما إذا كان المسلمون سيُهزَمون في هذه الحروب، حيث بيّن أنهم إنما يخوضونها لكي يضحّوا بأرواحهم في سبيل الإسلام بغض النظر عن الفتح أو الهزيمة، أما الآن فردّ الله على السؤال القائل: ألا يُهلَك هؤلاء المسلمون القلائل ويُدمَّرون بإلقاء أنفسهم في خطر الحرب؟ فبيّن أنهم لن يهلكوا أبدًا، بل سينتصرون فيها حتى إنهم سيوثِقون أعداءهم بالحبال ويأسرونهم. وبالفعل، فقد وقع كثير من الكفار أسرى في أيدي المسلمين يوم بدر وأُوثقوا بالحبال. (الزرقاني، غزوة بدر)

أما قول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فهو إشارة إلى حنكتهم الحربية، لأن المرء إذا مهر في عمل قيل هو يسبح فيه، لأنه يقوم به بسهولة ويسر. وهذا ما رأيناه في الصحابة، حيث مهروا في فنون القتال حتى انتصروا على جنود قيصر وكسرى النظاميين الذين كانت عندهم خبرة قتالية عالية.

وقد يكون قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إشارة إلى أن حروب المسلمين ستتسع نطاقها فتصل بعيدًا عن المدينة. فإن السابح سبحًا يذهب عن ضفة النهر بعيدًا، كذلك يبدأ المسلمون حروبهم من المدينة، ثم لا يزالون يدفعون العدو ويخرجون في مطاردته بعيدا جدا. وبالفعل وقعت حرب بعد حرب حتى انتشرت في أطراف الجزيرة.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي نقدّم، كشهادةٍ، جماعاتِ المسلمين التي تتسابق فيما بينها. تصاب الشعوب بالإرهاق عادة عندما تتوالى الحروب طويلاً وتتسع رقعتها، ولذلك أخبر الله تعالى هنا أنه لا تزال بين المسلمين جماعات متحلية بروح الفداء والتضحية بحيث لن يرهقها طول الحروب واتساعها، بل هذا سيرفع من معنوياهم ويزيدهم إيمانًا كما لو أن التضحية بالنفس عندهم لعبة يتسابقون فيها. فكما نرى فريقَي الكرة أو الكريكيت يتسابقون أثناء اللعب، كذلك سيظل هؤلاء يتنافسون في بذل أرواحهم، إلى أن يأتي الزمن الذي يتحقق فيه قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي أن الله تعالى سيضع زمام الحكم في أيديهم.

والحق أن الأمم التي تتحلى بالمزايا المذكورة أعلاه هي التي تأخذ زمام الحكم في يدها، ولا تقدر قوة في العالم على الحيلولة دون ذلك. إن انهماك أفراد الأمة في أعمالهم ضد عدوها، وشعورهم بالمتعة والسهولة في أداء مهامهم، ثم تَحلِّيهم بروح التنافس في التضحية لأمتهم، هو مِن عوامل تفوُّق الأمة وغلبتها. وهذا ما أنبأ الله به عن المسلمين في هذه الآيات، وهذا هو المشهد الذي نراه في حياة الصحابة.

وهناك موضوع ثالث تتحدث عنه هذه الآيات وهو الكفاءة الروحانية، يقال: نــزَع ينـــزِع نـــُزوعًا عن كذا: كَفَّ عنه. ونشَط الدلوَ من البئر: نـــزَعها وانتشلَها بلا بَكْرة.

وكما ذكرت من قبل، فإن القرآن الكريم قد ذكر موضوع غلبة الإسلام وموضوع يوم القيامة معًا، مخاطبًا الكفار أنكم تنكرون وجود الأمرين كليهما، ولكنهما واقعان لا محالة، وكل منهما سيكون دليلا على الآخر؛ وهذا هو موضوع سورة (النبأ). أما سورة (النازعات) فقد رد الله فيها على اعتراض يثيره الكافرون، ذلك لأن الفطرة الإنسانية تقول: لنفترض أن الله تعالى سينجز للمسلمين ما وعدهم، ولكن أين آثار ذلك، إن الله تعالى إذا أراد فعل شيء ظهرت آثار وشواهد تدل على مشيئته تعالى. فمثلا لا يسع أحدًا أن ينكر أن الله تعالى يخلق الولد، ولكنه تعالى قد جعل لذلك قابلية في الرجل وزوجته. فعندما يتم الزواج بين رجل وامرأة نرى بينهما نوعًا من الرغبة. وإذا اختليا ازددنا يقينًا بأن هذه بداية ولادة المولود. ثم بعد أيام نرى لذلك آثارًا ظاهرة، فيقول الجميع: الآن سيولد لهما المولود. لا شك أنه سيولد بعد مدة، ولكن الجميع يدرك أنه سيولد حتمًا لأن آثاره قد ظهرت. أو خذوا الطالب مثلاً فإنه إذا داوَم في الكلية علمنا أنه سيفوز بشهادته العلمية. أو إذا أراد شخص ثري بناءَ قصر علمنا أنه سيبنيه حتمًا إذ نرى آثار ذلك لأنه يملك المال والإرادة والبنّائين.

فثبت من هنا أن الناس في الدنيا لا يوقنون بشيء ما لم يروا آثارًا له. وبحسب هذا المبدأ كان الكافرون يقولون للمسلمين: تدّعون بمجيء يوم القيامة، وحين نسألكم الدليل عليها تقولون: سينتصر الإسلام وسينمحي الكفر وستكون غلبة الإسلام دليلاً على مجيء يوم القيامة. مع أن غلبة الإسلام التي تقدمونها دليلا على القيامة هي نفسها بحاجة إلى دليل، إذ لا نرى آثارا لغلبته. فهناك حفنة من الناس الذين اعتنقوا الإسلام ولا نرى فيهم أي آثار لغلبتهم على العالم كله. يتغلب الناس في الدنيا بقوة العلم، ولكن لا يوجد بين هؤلاء عالم واحد - علمًا أن الكفار لا يعنون من العلم هنا علمًا وإنما يقصدون الكهانةَ وما شابهها - ويتغلب الناس في الدنيا بقوهم الصناعية، لكن لا نجد في المسلمين أصحاب الصنعة أيضًا، كما ليس عندهم قادة أبطال حتى نقول إنهم سيفتحون العالم للإسلام، وليس عندهم قوة ولا مَنعة حتى يقال إن الناس يتبعوهم خوفًا من بطشهم، وإنما هم حفنة من الفقراء الذين لا

كفاءة عندهم ولا قدرة حتى يُثبِتوا وجودهم في المستقبل وإن لم يكونوا قادرين اليوم على ذلك. هل أداء الصلوات والنطق بالشهادة دليل على غلبتهم؟ كلا بل لا بد للغلبة في الدنيا من كفاءات معينة، ولا نجدها فيهم، بل لا نجد فيهم آثارها أيضًا، وبتعبير آخر لا توجد هذه الكفاءات فيهم لا بالفعل ولا بالقوة. فمثلا، إذا بنى أحد مصنعًا، قلنا إنه سيكسب منه الملايين غدًا وإن لم يكسبها اليوم. فما دام المسلمون غير مؤهلين لا واقعًا ولا مستقبلاً فكيف تكون غلبتهم الموهومة في المستقبل دليلا على وجود القيامة؟ هذا هو الاعتراض الذي قد نشأ بسبب ما جاء في سورة (النبأ)، فردَّ الله تعالى عليه هنا في السورة قيد التفسير، فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.. أي أيها الكافرون، تزدرون المؤمنين اليوم ولا ترون فيهم أي كفاءة، وتجدونهم متخلفين عن باقي القوم وتعتبرونهم أقلهم علمًا وخبرة وحرفة ومهارة وصناعة، وأكثرهم هوانًا وترونهم لا يصلحون لشيء، ناهيك أن يصلحوا لسيادة العالم والحُكم على الناس. ولكن تذكروا أن الله تعالى سيزوّدهم بما يضمن النجاح والسيادة، وسترون كيف يؤكدون بعملهم ما زُوّدوا به من كفاءات وقدرات. تعتبرونهم غير صالحين لأي شيء، ولكننا نقدم أمامكم خمس خصال لهم كدليل على كفاءاتهم التي تتجلى آثارها فيهم بالتدريج، وكل أمة تتوافر فيها هذه الخصال لا تلقى الهزيمة أبدا.

إن أكبر ما تطعنون به فيهم أنهم أقلّ الناس علمًا ومالاً وقوةً وخبرةً حربية، بل هم يفتقرون إليها أصلاً. والحق أن العلم والمال والقوة والخبرة الحربية وغيرها لا تنـزل من السماء، كما لا تضمن للإنسان الغلبة حتمًا، بل إن الإنسان بحاجة إلى هذه الخصال الخمس للغلبة على الآخرين. ولو أمعنتم النظر لتبيّنَ لكم أن المسلمين متحلون فعلاً بهذه الخصال الخمس التي تتجلى فيهم الآن أكثر فأكثر، وفيها يكمن سرُّ نجاحهم. ولذلك قال الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾. والنـزع يمكن تفسيره بمفهومين: أوّلُهما الكفّ عن الشيء، وثانيهما الحنين إلى الشيء؛ يقال: نـزَع عن كذا نُـزوعًا: كفّ عنه، ويقال: نـزَع إلى الشيء نِـزاعًا: ذهب إليه، ونـزَع

إلى الشيء: اشتهاه، ونـــزَع إلى أهله: اشتاق (الأقرب). ولو وضعنا هذين المفهومين في الحسبان علمنا أنه لا بد لنهضة الأمة من الكفاءات التالية:

أوّلها: الصبر.. أي يجب أن تكون فيهم ميزة الامتناع عما مُنعوا منه، حتى يكفّوا أنفسهم عن بواعث المساوئ والهلاك، ويتجنبوا الوقوع فيها. والأُمة التي تتحلّى بهذه الميزة تنتصر، والتي تفتقدها تنهزم. إن الناس سواسية فيما يتعلق بامتلاك العين والأنف والقلب والعقل وما إلى ذلك، والفرق الوحيد أن بعضهم يمتنعون عن المساوئ كلما تطلب الأمر فينتصرون، والآخرون لا يقدرون على منع أنفسهم من اقترافها، فينهزمون. وثانيها هو الولع الشديد للفوز بكل شيء؛ فالأمة التي تتحلى بهاتين الميزتين، الصبر والولَع الشديد، تصبح غالبة في الدنيا حتمًا، لأنهما أساس الرقي. لماذا يصبح الطبيب الكبير أو المهندس الكبير أو السياسي الكبير ذائع الصيت؟ إنما سببه حبّ الطبيب لمهنته، واشتياق المهندس لعمله، وتفكير السياسي باستمرار فيما فيه ازدهار بلده. خذوا مثلا السيد غاندي العاكف على خدمة بلده ليل نهار، وليس الفرق بينه وبين غيره من الناس إلا انهماكه في عمله بكل ما أوتي من قوة، أما الآخرون فلا يأبهون لذلك. لا فرق بينه وبينهم من حيث الأعضاء والجوارح، فعندهم عينان وأذنان وأنف وفم كما هي عند السيد غاندي، ولكن ما يميزه عنهم أنهم لا يبرحون منغمسين في لعب القمار أو مشاهدة السينما أو في سماع الأغاني، بينما يظل منهمكا في عمله. ولو اهتم هؤلاء بما يهتم به غاندي لعُدّوا اليوم من أصحاب المنجزات العظيمة. أو خذوا مثلاً طبيبين يُشفى على يد أحدهما المرضى بكثرة، والآخر ليس ناجحًا مثله في مهنته، فما السبب في ذلك؟ إنما سببه أن الأول ظلّ منهمكا في دراسة الطب ومداواة الناس بولع وشوق، والآخر لم يبد رغبة في ذلك. إذًا، فلا بد للرقي من أن يمتنع الإنسان عن المساوئ إذا مُنع منها، وأن يكون شديد الحرص على كل ما هو نافع ومفيد.

لقد نبّه الله تعالى الكافرين بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى توافر هاتين الميزتين في المسلمين، فإنهم – أولاً – يتحاشوْن كل ما يعيقهم عن الرقيّ، وهذا هو الفرق الكبير بين المسلمين وبينكم أيها الكافرون، فتعلمون ما هي السيئات ولا تتفادوْنها،

أما المسلمون فإذا علموا بالسيئة لم يقربوها أبدًا. فأيُّ الفريقين أحقّ بالرقي والغلبة؟ وعلى سبيل المثال تعلمون أضرار الخمر والميسر ثم لا تتورعون عن شرب الخمر ولعب الميسر، أما المسلمون فيوقنون بأضرارهما، فلا يقتربون من أي منهما، وهذا دليل على أن المسلمين مؤهلون للتقدم والازدهار، ولكنكم لستم أهلاً له. وتعترفون، مثل المسلمين، بفضل الصدق ومع ذلك تكذبون، والمسلمون يصدقون القول. وتعرفون أن على المرء أن لا يضيع وقته، ومع هذا تضيعون أوقاتكم. وتعترفون أن ظلم الناس عيب ومنقصة، ومع ذلك تظلمون الناس ليل نهار. وتعلمون أن الأمانة فضيلة، ومع ذلك تخونون أمانات الناس، وتأكلون أموالهم. فما دمتم لا تنتهون عن السيئات، بينما ينتهي المسلمون عن كل ما هو سيئ، فكيف تقولون إن المسلمين يفتقرون إلى الخصال التي تنال بها الأمم الغلبة والانتصار؟

والمعنى الآخر للنــــزع هو الرغبة كما بيّنتُ من قبل، إذ يقال نــــزَع إلى الشيء اشتهاه، ونزَع إلى أهله اشتاق. فالنــــزع ليس رغبة عادية، بل هي تماثل رغبة المرء إلى الأهل، ومعروف أن المرء أشد شوقًا وحنينًا إلى أهله منه إلى غيرهم. فمثلاً إن رغبتك في لقاء بعض المعارف لا تماثل رغبتك في لقاء أمك ولا رغبة أمك في لقائك أبدًا. إذًا، فالله تعالى قد نبّه الكافرين بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى أمر آخر يميز المسلمين عنهم، وهو أنكم ترغبون في بعض الحسنات لا كلها، ثم تكون رغبتكم إليها رغبة عادية، أما المسلمون فيحنّون إلى الحسنات كلها حنين الولد إلى أمه. إذًا، فالمسلمون يتحلَّون بكلتا الميزتين الضروريتين لازدهار الأمم.

باختصار، إن الخطوة الأولى نحو الرقيّ أن يتجنب القوم كلَّ ما يعيقهم عن الرقي من كسل وجهل وغفلة ومكابرة ونسيان وظلم ونــــزاع وسوء تعامل وقسوة وكذب وخداع وخيانة وفسق وفجور وما إلى ذلك من المساوئ والمفاسد. ويخبر الله تعالى الكافرين أن المسلمين يصدق فيهم قولنا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فهم يمتنعون عن كل ما يجب اجتنابه، وينتهون عن المساوئ إذا نهوا عنها، وينأوْن بأنفسهم عنها غرقًا، أي يصبحون قاهرين لأنفسهم في ترك السيئات. أما أنتم أيها الكافرون، فلا تتحاشون السيئات رغم استنكاركم إياها. ثم إن المسلمين لا يقهرون أنفسهم في

مكافحة السيئات فحسب، بل يُصلِحون الآخرين أيضا؛ ذلك لأن الإغراق يعني أيضًا التغلب على الآخر، إذ يقال "أغرق الناسُ فلانا: كثُروا عليه فغلبوه" (الأقرب). إذًا، فالله تعالى يصف المسلمين هنا أهم إذا رأوا في أحد منهم عيبًا فلا يكتفون بعدم التورط في ذلك العيب فحسب، بل كأنهم يشنّون هجومًا موحَّدًا على صاحبهم ويتغلبون عليه.. أي إما أنهم يزيلون عيبه بإصلاحه أو يطردونه من بينهم ولا يتحملون السيئة في مجتمعهم. علمًا أن الدرجة الأولى هي أنهم ينأوْن بأنفسهم عن كل ما يعيق رقيهم، والدرجة الأسمى منها أنهم لا يحتملون السيئة في قومهم، وكلما رأوا سيئة هاجموها وجعلوا صاحبها مغلوبا إما بالانتصار عليه بإصلاحه، أو بطرده من بينهم، ولا يرضون ببقائه على سيئته. هاتان هما الميزتان اللتان تنهض بهما الأمم وتزدهر. والمسلمون متحلّون بهما.

باختصار إن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يشير إلى المؤمنين الذين صفتهم الأولى أنهم ينأون بأنفسهم عن السيئات كما يتغلبون على الأشرار الذين يظهرون في مجتمعهم؛ وصفتُهم الثانية أنهم يرغبون في الصالحات كرغبة المرء في أهله وعياله، حيث يعني لفظ "النـــزع" الشوق والرغبة أيضًا. إذًا، فإنهم لا يكتفون باجتناب السيئات فحسب، بل يريدون التحلّي بالحسنات كلها من أمانة وعدل ورحمة ودماثة وجِدّ واجتهاد وعلم وشجاعة وسخاء وطهارة وعفة ومساعدة الفقراء واعتراف بالجميل وعناية بالجيران والمسافرين واليتامى والأرامل وغيرها من الحسنات. وأنهم لا يبذلون جهدهم للتحلي بهذه الخيرات فقط، بل يحبونها كحب الولد لأمه أو كحب الأم لولدها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. أي أنه مما لا شك فيه أن فعل هذه الخيرات يكلفهم جهدًا ومشقة لما ورثوه من المجتمع من عادات سيئة، ولكنهم يرضون بكل صعوبة وعناء في هذا السبيل، إذ يقال: "نشَط الدلوَ من البئر: نَـــزَعَها وانتشلَها بلا بَكْرة" (الأقرب). والحقيقة أن المرء لا ينتشل الماء من البئر بدون بكرة إلا بعناء كبير. إذًا، فقد ذكر الله تعالى هنا من محاسن الصحابة أنهم يرغبون في أن يتقدموا في الصالحات بحيث لا يبالون بأي تضحية في هذا السبيل. بعض الناس

ينوون التقدم في ميدان الخيرات، ولكنهم يخافون عند الاختبار؛ لأن هذا يتطلب منهم الجهد والتضحية. ولكن الله تعالى يصف المسلمين بأنهم لا يرغبون في فعل الخيرات فحسب، بل هم ناشطون فيها.. أي يتحملون في سبيلها كل عناء ومشقة، ولا يزالون يعملون الخيرات ويخدمون المجتمع باستمرار بدون أن يكون معهم صاحبٌ أو مساعد أو حافز أو مساند أو مشجّع على ذلك.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾. إن من الطبيعي أنه إذا اجتهد المرء في عمله ومهر فيه، سهل عليه القيام به. فمثلا، لو أردت أن تعمل عمل الحدّاد ستبذل فيه جهدا كبيرا ووقتًا طويلاً، ومع ذلك لن تجيده بل ستفسده. أتذكر أنه في أيام طفولتي كان بعض النجّارين يعملون في بيتنا، فأعجبني عملهم وظننت أنه عمل بسيط أستطيع القيام به، وكنت حينها في التاسعة أو العاشرة من عمري، فلما ذهب هؤلاء لتناول الغداء أخذتُ قَدّومًا لأقشر به قطعة خشب، فلما ضربتُ الخشب بالقدّوم أصابني في إبهام يدي بدل أن يقع على الخشب، فجرحني بجرح عميق لا يزال أثره حتى اليوم. فالذي يرى النجّارَ يظن أن عمله بسيط، وأنه يستطيع القيام به، ولكنه حين يحاوله بالفعل يدرك صعوبة هذا العمل، مع أن النجارين لا يجدون فيه أي صعوبة، ذلك لأنهم قد أصبحوا ماهرين فيه لطول ممارستهم، وصاروا كالسابحين فيه. هذا ما يصف الله تعالى به الصحابةَ في قوله ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.. أي أنهم يبذلون جهدًا كبيرا ويجدون مشقة في فعل الخيرات حاليًّا، ولكن سيأتي زمن يسبحون فيها سبحًا؛ فسيجدون في أنفسهم رغبةً ونشاطًا طبيعيين إلى هذه الحسنات ويصبحون سبّاحين في بحر الروحانية، وكما أن السبّاح يذهب في سباحته بعيدًا دون أن يجد فيها صعوبة وعناء، كذلك سيتمكن هؤلاء من فعل الخيرات بحيث يجدون في القيام بها رغبة ونشاطا طبيعيين ويلقون فيها سرورا وحبورا. يعاني الناس عناءً كبيرا حتى يتجنبوا قول الزور، أما هؤلاء فتركُ الزور لن يكون صعبا عليهم. ويجد الناس صعوبة كبيرة في التمسك بالحق، لكن هؤلاء سيتمسكون بالحق كأنه شيء طبيعي لهم. والحال نفسه بالنسبة إلى الحسنات الأخرى، فإنهم حين يقومون بها يجدونها موافقة لفطرتهم وِفاقا طبيعيا، ولن

ينحرفوا عنها، وكأن فعل الخير هو لبن الأم بالنسبة إليهم، فكما أن الولد يرضع لبن أمه بسهولة ورغبة، فلا يجد فيه مشقة، كذلك لن يرى هؤلاء في فعل الخيرات عبئا عليهم، بل سيقومون بها بشوق ونشاط.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي بعد أن يجد هؤلاء نشاطًا طبيعيًا في فعل الخيرات سيتقدمون خطوة أخرى، فيتنافسون في الخيرات. بمعنى أنهم لن يكتفوا بفعل الخيرات بنشاط وعلى أحسن وجه، بل سيتسابقون في مضمارها فيما بينهم. بعد أن يجد كل واحد منهم السخاء والعطاء عملاً سهلاً طبيعيًا، سيحاول أن يكون أكثرهم سخاءً، بعد أن يسهل على كل واحد منهم أن يكون عفيفا، سيتحمس لأن يكون أكثرهم عفةً. وبعد أن يرى كل واحد منهم دماثة الأخلاق أمرا سهلا، سيسعى أن يكون أكثرهم دماثة. وبعد أن يسهل على كلٍّ منهم أن يكون رحيما، سيطمح أن يكون أكثرهم رحمةً. وهكذا سيبدأ سباق بينهم في مجال الخيرات، فيحاول كل واحد منهم أن يسبق الجميع.

وعندما يبلغون هذا المقام يتحقق فيهم قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي أن كل واحد منهم سيرى أنه المسؤول عن قومه، فلا يقول إن هذه الخدمة وذلك العمل من مسؤولية فلان وفلان، بل سيرى أنه هو المسؤول عن المجتمع كله. عندنا في الهند مثل شهير عن طير صغير جدًّا اسمه (پِيا) – ويقال إن المثل عن طير صغير آخر اسمه (پِدّا) – هذا الطير ينام بالليل على ظهره رافعًا رجليه إلى السماء، فسُئل مرة: لماذا تنام هكذا؟ فقال: إن الخَلق جميعا ينامون ليلا، وليس هنا من يحمل السماء لو سقطت بالليل، فأنام بهذا الوضع لأحمي الدنيا لو سقطت السماء. إنه مثل مضحك في ظاهره، ولكنه ينطبق على البشر، فمن يبلغ درجة الكمال في الصلاح يتحمل مسؤولية العالم كله؛ إنه لا يفكر أن هذه هي مسؤولية فلان أو علان، بل يعتبر نفسه المسؤول الوحيد عن الجميع. وإذا تحلى أفراد قوم بهذه الميزة لم يهلكوا أبدا؛ فإذا نام أحدهم ظل الآخر ساهرا. من الطبيعي أن لا يخلد الناس جميعا إلى نوم الغفلة في وقت واحد، بل سينام بعضهم ويظل بعضهم ساهرين، أي أن هناك مَن يحميهم وينقذهم من الدمار.

باختصار، محال أن تُهزم أمة تتحلى بهذه الخصال، بل إنها ستتقدم باستمرار وتتغلب على العالم كله.

وأذكر الآن المعنى الرابع لهذه الآيات: يقال نـزَع الولدُ أباه ونـزَع إلى أُمه: أَشْبَهَه (الأقرب)؛ وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين يسعون جاهدين للتأسي بأسوة محمد ﷺ.

الواقع أن كفار مكة كانوا يزدرون أصحاب النبي ﷺ ويحتقروهم، ولكنهم لم يصفوا النبي ﷺ بالمهانة والذلة. لا شك أن أحد المنافقين قد سمّاه مرةً صاغرًا ذليلا، ولكن فيما يتعلق بأهل مكة فقد كانوا معترفين بأنه ﷺ موصوف بكل الأوصاف الحميدة التي يجب توافرها في زعيم ناجح، ولم ينكروا قدراته وكفاءاته أبدا. لا شك أنهم كانوا يقولون عنه إنه فقير لا يملك مالاً، ولكنهم كانوا معترفين بمحاسنه الشخصية، وكانوا يسمونه صدوقا أمينا، ويحكّمونه فيما شجر بينهم من نزاعات قَبَلية. فكأن الله تعالى قد نبّه الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ بأنكم اليوم تزدرون المسلمين وتقولون أنه ليس لديهم أية كفاءة أو قدرات، ولكن ألا تعرفون كيف تتولد الكفاءات العالية في الناس؟ هنالك سبيل واحد لذلك ألا وهو أن يتيسر لهم معلِّم قدير، وأن يتبعوه ويتأسوا به حق التأسي. أفلا ترون أن المسلمين يشبهون أباهم الروحاني محمدًا ﷺ، ويسعون جاهدين أن يتبعوا خطواته؟ وإن محمدًا هو ذلك الإنسان الذي لا يسع أحدًا منكم إنكار كفاءاته وقدراته؛ إذ كنتم تسمّونه قبل دعواه صدوقًا أمينًا، شأن الأنبياء الآخرين؛ إذ القاعدة أن الناس ينظرون إلى أنبيائهم قبل بعثتهم نظرة تقدير عظيم، معترفين بكفاءتهم الفذّة - كما يخبرنا القرآن الكريم أن قوم صالح عليه السلام قالوا له ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود:٦٣).. أي يا صالح، كنا نعقد عليك آمالا كبيرة موقنين أنك ستتولى سيادة القوم يوما ما، ولكنك خيبت آمالنا كلها بدعواك - ولكن فيما يتعلق بأتباع الأنبياء فلا نجد مثالا واحدا أن أعداء الأنبياء لم يزدروهم ولم يحتقروهم. ذلك لأن الذين يؤمنون بالأنبياء في بداية الدعوة هم الفقراء الضعفاء عادة، الذين ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع غالبا، فيحتقرهم القوم ويزدروهم. وكان غالبية من آمن

بالرسول ﷺ في بداية دعوته ضعفاء (البخاري، باب كيف كان بدء الوحي)، وكان أهل مكة يحتقرونهم احتقارًا شديدًا، كما لم يكن لهؤلاء المسلمين الأوائل باع في العلوم الظاهرة؛ إذ لم يوجد بين الصحابة الشباب مَن يعرف القراءة والكتابة غير الزبير. ولذلك قال الله تعالى هنا للكافرين إن المسلمين يسعون جاهدين ليكونوا مشابهين لأبيهم الروحاني محمد رسول الله ﷺ، وعندما ينجحون في سعيهم هذا، سيتحلون بما يتحلى به محمد ﷺ من قدرات وكفاءات. تعلمون أن محمدا ﷺ أمين، وما دام المسلمون يحاولون التأسي به ﷺ فلا بد أن يصبح كل واحد منهم أمينًا. وتعلمون أن محمدا ﷺ صدوق، وترونْ المسلمين يسعون جاهدين للاقتداء به، فلا بد أن يكونوا مثله ﷺ مثالاً للصدق والسداد. إذًا، فبرغم أنكم لا ترونْ في المسلمين اليوم أي كفاءات، إلا أن رغبتهم في العلم ووجود الأسوة الحسنة بينهم سيزوّدهم بالقدرات المنشودة في نهاية المطاف.

مع العلم أن قوله تعالى ﴿غَرْقًا﴾ يعني أن المسلمين سيبلغون الغاية في اتباع الرسول ﷺ والتأسي به. ومما يدل على سعي المسلمين للتأسي بالنبي ﷺ إلى أقصى حد أنك لن تجد كلمة "السُّنّة" في أي ديانة غير الإسلام. ستجد في الديانات الأخرى كلمة "الحديث" أو "الوحي"، فيقولون مثلا: قال موسى وقال عيسى، أو أُوحيَ إلى موسى وأوحي إلى عيسى، ولكنهم لا يقولون أبدًا إن هذا من سنة موسى أو من سنة عيسى أو من سنة كرشنا أو من سنة رام شندر. إن اصطلاح "السنة" خاص بالإسلام وحده، ويحاول كل مسلم أن يعرف كيف كان الرسول ﷺ يقوم بمختلف الأعمال والمناسك. إذًا، فقد نبّه الله تعالى الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين سيبلغون أقصى درجة في اتباعهم لمحمد ﷺ، وإذا اتبعوه حق الاتّباع فلا بد أن يتحلوا بكفاءات مماثلة لكفاءاته، وإذا حاول كلٌّ منهم في مجاله أن يصبح محمدا صغيرا، فهل يبقى بعدها شك في قدراتهم ومحاسنهم؟

وليس أدَلَّ على شدة حرص الصحابة للتأسي بالرسول ﷺ مما فعل أبو بكر رضي الله عنه. لما رفضت القبائل العربية أداء الزكاة إثر وفاة الرسول ﷺ أراد أبو بكر حربهم، ولكن أوضاع البلاد كانت خطيرة جدا على المسلمين، فأشار إنسان شجاع مثل عمر

على أبي بكر بأن لا يعامل منكري الزكاة بهذه الصرامة، فأجابه أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يلغي ما أمَر به الرسول ﷺ. واللهِ لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه، ولن أبرح حتى يدفعوه. فإذا كنتم لا تستطيعون حربهم معي فسأحاربهم وحدي. فانظر إلى شدة حرص أبي بكر على سنة الرسول ﷺ، فمع أن الظروف كانت حرجة جدا، حتى كان أكابر الصحابة يشيرون على أبي بكر بأن لا يحارب منكري الزكاة، إلا أنه كان مستعدًا ليخوض غمار كل خطر لتنفيذ أوامر الرسول ﷺ.

وكذلك قد حثّ الصحابة أبا بكر على عدم إرسال الجيش الذي كان النبي ﷺ يريد بعثه تحت إمرة أسامة، ولكن أبا بكر رد عليهم قائلا: لن أمنع الجيش الذي أمر الرسول ﷺ بإرساله ولو اقتحم العدو المدينةَ وسيطر عليها وأخذت الكلابُ تجرّ جثث المسلمات في شوارعها. (تاريخ الخلفاء للسيوطي: فصل فيما وقع في خلافة أبي بكر، والبداية والنهاية: فصلٌ في تنفيذ جيش أسامة✪)

وهناك واقعة أخرى لعبد الله بن عمر تدل على شدة حرص الصحابة على التأسي بالنبي ﷺ، فقد ورد أن ابن عمر كلما ذهب إلى الحج جلَس في مكان معين جِلسةَ شخص يتبول، وكان يفعل ذلك في كل مرة، فقال له بعض أصحابه مرة: لم تجلس في هذا المكان هكذا كلما مررت به، مع أنك لا تتبول هنا أحيانًا؟ فقال: لقد رأيت النبي ﷺ يبول هنا، فأود أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ كلما أمُرُّ بهذا المكان، فأجلس هنا كأنني أبول.

فإذا كان هؤلاء يتّبعون رسولهم في الأمور العادية لهذه الدرجة فما بالك باتّباعهم له ﷺ فيما يتعلق بالأخلاق والأمور الروحانية.

إذًا، فقد نبّه الله تعالى الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين أذلة وأراذل في أعينكم، ولكنكم تروْنهم يتبعون رسولهم الذي تعترفون بكفاءاته حق

✪ نص ما ورد في "البداية والنهاية" هو: "والله، لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرّتْ بأرجل أمهات المؤمنين." (المترجم)

الاتّباع، فمع أهم يفتقرون إلى الكفاءة اليوم، إلا أن كل واحد منهم سيصبح - حسب درجته - محمدًا صغيرًا نتيجة اتباعه له ﷺ، وسيتحلّون بما يتحلى به محمد ﷺ من خصال حميدة. إنكم تعترفون أنه ليس بين العرب كلهم زعيم كمحمد ﷺ، فلا بد أن يتصف المسلمون بمثل خصاله وشمائله ﷺ ما داموا يسعون جاهدين للتأسي به.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. أي أن من مزاياهم أهم سينتشرون في أنحاء العالم، ذلك لأن من معاني النشْط الخروج والسفر؛ يقال: نشَط من المكان: خرج، ونشَط من بلد إلى بلد: قطَع. إذًا، فقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أن المسلمين سينتشرون في الدنيا. إنهم لا يحبّون أوطانهم حبًّا يمنعهم من التمسك بالحق، بل سترون أهم سيهاجرون منها ولن يرضوا بالذل والضيم على أيديكم.

الحق أن الإسلام هو أوّلُ من علّم أن حب الوطن جيد بلا شك، ولكن حبّ الحق أغلى وأثمن من حب الوطن. فإذا كان بقاء المرء في الوطن يدفعه لإنكار الحق، فعليه أن يترك وطنه بدلاً من إنكار الحق، كما أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء: ١٠١). لا شك أن حب الوطن جيد ومحمود كما قال الرسول ﷺ: "حُبّ الوطن من الإيمان" (تشييد المباني ص ٢٥، والمقاصد الحسنة للسخاوي، رقم الحديث ٣٨٦)، ولكن إذا تصادم حب الوطن مع حب الحق والإيمانِ وجُعلتم عرضة للاضطهاد، فاتركوا أوطانكم مؤْثرين الحق عليها. الواقع أن حب الوطن يغلب على قلوب البعض بحيث إنهم لا يقدرون على تركه مهما تعرضوا للضيم في سبيل الحق، ولكن الله تعالى يقول إننا جعلنا المسلمين ناشطين، فلا قيمة عندهم للوطن إزاء الله تعالى، فسوف يضحّون بأوطانهم إذا تطلب الأمر. وبحسب هذه النبوءة قد ترك المسلمون وطنهم مرتين، مرة إلى الحبشة، وأخرى إلى المدينة.

إذًا، فقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ يعني أن المسلمين لا يحبّون أوطانهم حبًّا زائفا يمنعهم من الهجرة من أجل الحق، بل سيهاجرون من وطنهم بلا تردُّد إذا تطلب الأمر.

هذا، وقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى التضحية الجسمانية أيضا التي سيقدّمها المسلمون، ذلك لأن المرء لا يوفَّق إلى التضحية الجسمانية إلا إذا كان معتادا على الجدّ والاجتهاد وتحمُّل المشاقّ؛ فقد نوّه الله تعالى هنا إلى تحلّي المسلمين بهذه الخصلة المحمودة.

إذًا، فإن الله تعالى قد وصف هنا المسلمين بأنهم يمتنعون عن السيئات، كما يرغبون في فعل الخيرات بشدة. لا شك أنهم يتكبدون عناءً في التخلص من السيئات التي ورثوها من مجتمعهم، ولكنهم لا ينفكّون يبذلون كل ما في وسعهم بهذا الشأن، وليس هذا فحسب بل إن عندهم الكفاءة أيضا للتقدم في مجال الحسنات. وإنهم ليسوا قادرين على بذل التضحيات الجسمانية فحسب، بل قادرون أيضا على التضحية بأوطانهم. فلا تظنّوا، أيها الكافرون، أنهم سيتحملون ظلمكم دائمًا، بل نحذّركم من جماعات المسلمين الذين يخرجون من بينكم مهاجرين من أوطانهم. والحق أن ترك الوطن هو إحدى وسائل رقيّ الأمم.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾. يقال "سبَح الرجلُ: أي تصرَّفَ في معاشه"، وعليه فتعني هذه الآية أن هؤلاء لا يُثقِلون على قومهم بأخذ الرواتب على خدمة الدين، بل يكسبون معاشهم بالقيام بأعمال دنياهم بأنفسهم، وبالتالي يكثر في الأمة المتطوعون للخدمة.

والحق أن من أكبر العقبات التي تعيق رقي المجتمع هو قلة من يعملون مجانا، لذلك تدفع الحكومات رواتب للجنود والمدرسين والعاملين عندها، ولو عانى الإسلام من هذه المشكلة لما ازدهر المسلمون؛ إذ لم يكن لديهم أموال لدفع الرواتب، ولا سعةٌ لتحمّل هذه الأعباء الاقتصادية، ولذلك أودع الله في قلوبهم حبًّا للقيام بالمهام الدينية والاجتماعية مجانا؛ فكانوا يأكلون من بيوتهم ويصرفون أوقاتهم في خدمة

الدين والمجتمع، فلم يكونوا عبئًا على جماعة المسلمين، بل كانوا متطوعين يعملون لها مجانا.

باختصار، قد وصف الله تعالى في هذه الآيات الصحابةَ بأنهم يتجنّبون السيئات من ناحية، ويسعون جاهدين للتقدم في مجال الحسنات كلها من ناحية أخرى، ولا يترددون في التضحية بأوطانهم من ناحية ثالثة، ومن ناحية رابعة لا يطالبون بالمال أي أنهم لا يقولون ينبغي أن نُعطى الرواتب نظير العمل الذي نؤديه، كلا بل إنهم ينفقون على أنفسهم من بيوتهم كيفما استطاعوا، وينجزون مهام الدين والمجتمع مجّانًا؛ وهكذا تجد الأُمةُ متطوعين كثيرين. ثم إن هؤلاء يتبعون خطوات محمد ﷺ اتباعا كاملا، فإذا أمرهم بالحرب تجدهم على أُهْبة الاستعداد لها، وإذا أمرهم بإخراج الصدقة تجدهم جاهزين للتضحية بكل غال ورخيص، لأنهم مستعدون لفعل كل ما يأمرهم به محمد ﷺ. ثم إنهم لن يطالبوا بقرش واحد أجرةً على عملهم. فبذكر صفات المؤمنين هنا يحذر الله تعالى مشركي مكة أنهم لن يستطيعوا مواجهة هؤلاء المسلمين، لأن كل مسلم خادم لمجتمعه وجندي له، ومستعدّ لدفع ماله في سبيل أُمّته، فأنّى لهم أن يقفوا في وجوههم؟ لو استعدّ خمسون في المئة من أهل مكة للعمل لمجتمعهم لما قدروا على مواجهة المسلمين لأنهم كلهم يعملون لمجتمعهم. فلا مقارنة بين ٥٠% و١٠٠%. ثم إن الصحابة يعملون لمجتمعهم تطوعًا، ولكن أهل مكة يفتقرون إلى هذه الميزة. ثم إنهم يطيعون أوامر الرسول ﷺ بحب وتفان، ولكن أهل مكة لا يطيعون زعماءهم حبًّا وتفانيًا. ولذلك كله يحذر الله تعالى الكافرين بأنه مما لا شك فيه أن المسلمين أقل منكم عددًا، إلا أن الفتح لا يتوقف على تعداد القوم، بل متوقف على عدد العاملين فيهم؛ ولا شك أن عدد العاملين بين المسلمين أكثر منكم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾. والفاء هنا للعاقبة والنتيجة.. أي ما دام المسلمون متحلّين بهذه الخِصالِ الحميدة فلا بد أن يتوفر للإسلام متطوعون كثيرون، وبالتالي لا بد أن ينتصر المسلمون على الشعوب التي لا يتيسر لها متطوعون. فما دام المسلمون كلهم يأكلون من بيوتهم ويخدمون الإسلام مجانا، فأنى

للكافرين الوقوف في وجههم؟ لا شك أن الكافرين أكثر منهم عددًا، ولكن العاملين بينهم أكثر منهم عددًا. مثلا، إذا كان عدد قوم يبلغ مليونا، وكان عدد المحاربين بينهم مئتين فقط، وكان عدد قوم آخرين بضع مئات، وكانوا كلهم محاربين، فلا بد أن ينتصر هؤلاء في الحرب على الأوّلين، فأنتم، أيها الكافرون، مخطئون في ظنكم أنكم ستنتصرون على المسلمين، لأن القوة تكمن في عدد العاملين في القوم، وليس في عدد أفراد هذا القوم. وحيث إن المسلمين يفوقون الآخرين شوقا وخدمة لمجتمعهم، فلا بد من أن يتسلموا زمام الحكم في يوم من الأيام، لذلك قال الله بعد ذلك ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي ما دام المسلمون متفوقين عليكم، أيها الكافرون، عملاً وخدمة فلا بد أن يخرج الحُكم من أيديكم ويصبح في أيديهم.

تجد بسبب هذه المعاني الأربعة التي بيّنتها تناسقًا وترتيبًا بين الآيات، ولن تجد فيها أي اضطراب كالذي تجده نتيجة تفسير المفسرين القدامى، حيث فسّروا ﴿النازعات﴾ بمعنى النجوم حينًا، وبمعنى الملائكة حينًا آخر، ثم قالوا إن الآيات التالية بالمعنى نفسه أيضا.

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

ترجُف: رجَفه يرجُف رَجْفًا: حرّكه فرجَف.. أي تحرَّكَ واضطربَ شديدا. ورجَف الرجلُ: اضطرب شديدا. ورجَفت الأرض: زُلزلت. ورجَف القوم: تهيئوا للحرب. (الأقرب، والمنجد)

التفسير: وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ معناه الأول أن العلامات المذكورة أعلاه ستبدأ في الظهور بشكل كامل في اليوم الذي ترجف فيه الراجفة؛ ومعناه الثاني أنه عندما تتحقق الأمور المذكورة أعلاه يأتي اليوم الذي نتحدث عنه، والذي ترجف فيه الراجفة. فحسب المعنى الأول يُعتبر اليوم هنا ظرفًا يشير إلى بداية ظهور هذه الأمور، وبحسب المعنى الثاني يُعتبر اليوم إشارة إلى تمام هذه الأمور واكتمالها.

ينبّه الله تعالى الكافرين بقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أنه سيأتي يوم يهبّ فيه المسلمون للحرب. إنهم صامتون على اضطهادكم الوحشي، فتظنون أنهم فقدوا الإحساس بالمقاومة من طول الاضطهاد واستمرأت قلوبهم الذل والهوان وماتت أحاسيسها، ولكنه ظن باطل لأن قلوبهم لم تمت، بل لا تزال تنبض بالحياة وستثور للانتقام منكم على ما تصبّونه على محمد ﷺ من أذى. كل ما في الأمر أننا قد منعناهم من الثأر، فلم يذيقوكم وبال جرائمكم حتى الآن، وهم يحترقون غيظًا كافّين أيديهم ومنتظرين الإذن منا. فاحذروا من يوم ترجف فيه الراجفة، أي حين تثور هذه القلوب المرهفة المضطربة، فترون ما نحذّركم منه، أما حاليًّا فإننا نقوم بتطوير أخلاقهم وتهذيبها، الأمر الذي لن يحدث لو أَذِنّا لهم بالحرب الآن، فندَعكم لتظلموهم حتى يتحلّوا بميزة الصبر وغيرها من الأخلاق السامية التي تتولد نتيجة تحمل الظلم. فلا تنخدعوا من وضعهم الراهن، بل فكِّروا في اليوم الذي ستعرفون فيه أن قلوبهم المرهفة لا تزال تنبض بالحياة.

ولو فسّرنا كلمة ﴿النَّازِعَاتِ﴾ بمعنى جماعات الرماة، فسيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أن هذه الرماية ستبدأ في اليوم الذي تثور فيه هذه القلوب المرهفة مُعرِبةً عن اضطرابها الشديد.

وحيث إن الرجف يعني تهيؤ القوم للحرب أيضا، فستعني هذه الآية أن هذه الأُمة التي قلوبها مستعدّة للحرب ومنتظرة لإذننا ستأخذ أُهْبتها للحرب فعلاً في نهاية المطاف.. أي أنهم يعشقون السلم والصلح، ولكنهم حين يرون أن اضطهاد الكافرين يضرّ بدين الله تعالى فسيهبّون للحرب بعد أن يأذن الله لهم بها؛ أو المراد أنه عندما تتحقق الأمور المذكورة أعلاه سنأتي بهذا اليوم.

تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الرادفة: ردَف يردُف وردِف يردَف رَدْفًا: تبِعه. (الأقرب) . فالرادفة: ما يأتي وراء شيء آخر.

التفسير: في بعض الأحيان تجد شخصا متحمسًا جدًّا إلى القتال، ويدعي أنه سيفعل كذا وكذا في الحرب، ولكن يفقد حماسه ويجلس صامتًا بمجرد أن يتلقى لطمة واحدة. كذلك يظن البعض أنه من الأبطال الشجعان، ولكن حقيقة شجاعته تنكشف عند الاختبار، ويعرف الجميع أن دعاويه لم تكن إلا مجرد هراء. وقد حكيت لكم مرارًا أن شخصًا كان يظن أنه من كبار الشجعان، فذهب إلى وَشّامٍ وطلب منه رسم صورة الأسد على ساعده. ولما وخزه الوشّام بالإبرة صرخ وقال: ماذا تصنع؟ قال أرسم إحدى أُذنَي الأسد. قال ألا يستطيع الأسد أن يعيش بدونها؟ قال نعم. قال فلا ترسم الأذن وارسم عضوًا آخر. فلما وخزه مرة أخرى صرخ وقال له: ماذا تصنع الآن؟ قال أرسم أذنا أخرى للأسد. فقال: ألا يمكن أن يعيش الأسد بدونها؟ قال: نعم، يعيش. قال دَعْك من هذه الأذن أيضًا وارسم عضوًا آخر له. فلم يزل الرجل يمنعه في كل مرة حتى وضع الوشّام الإبرة وقال: لا أستطيع أن أوشم الآن أي شيء. إذًا، فهناك كثير من الناس الذين يدّعون الشجاعة كثيرًا، وينكشف عند الامتحان أنهم جبناء جدًّا. ولكن الله تعالى يقول هنا: تتبعها الرادفة.. أي أن المسلمين إذا حملوا السيف مرة فلن يضعوه من أيديهم، بل يخوضون حربا بعد حرب، ويشنون غارة تلو غارة غير خائفين، بل ستستمر هذه الحروب على التوالي ولن يضعوا السلاح حتى يأتي الفتح المبين.

قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٩﴾

واجفة: وجَف يجِف وَجْفًا ووجيفًا ووُجوفًا: اضطربَ. ووجَف القلب وجيفًا: أي خفَق. ووجَف الفرسُ والبعير: عدا وسارَ العَنَقَ. (الأقرب).

التفسير: لقد بيّنتُ في تفسير سورة (النبأ) أن الله تعالى يتحدث فيها عن غلبة القرآن وغلبة الإسلام ووجود القيامة معًا، ويقدّم غلبة الإسلام دليلا على الحياة بعد الموت.. أي ما دام الله تعالى سيُحدِث هذا الانقلاب العظيم في الدنيا، فلم لا توقنون أنه قادر على أن يهب الحياة بعد الموت؟ والآية قيد التفسير تتناول الموضوع نفسه.. أي عندما تقع هذه الأحداث ويهلك صناديد الكفار ويصبح المسلمون غالبين على الكافرين، تساور الشبهات قلوبهم فيقولون في أنفسهم: لعل القيامة آتية! لأن أحد الأمرين قد تحقق، فلعل الأمر الآخر المنوط به سيتحقق أيضًا؛ فيستولي القلق والذعر على الكافرين، وتظهر علامات هزيمتهم حتى تتولد في قلوبهم شبهات حول القيامة فيقولون: ربما ستأتي القيامة أيضًا التي يتحدث عنها المسلمون.

أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

خاشعة: خَشَع ببصره: غَضَّه. وخشَع بصرُه: انكسر. وفي "النهاية": الخشوع في الصوتِ والبصرِ كالخضوع في البدن. (الأقرب)

التفسير: الضمير في قوله تعالى ﴿أبصارها﴾ يعود إلى القلوب الواجفة.

وهنا ينشأ سؤال: كيف قيل هنا ﴿أبصارها﴾ مع أن القلوب ليس لها عيون؟ والجواب أن المراد هنا أبصارُ أصحاب هذه القلوب كما هو ظاهر من الآية التالية: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾.

وهنا ينشأ سؤال آخر: فلماذا جيء هنا بضمير المؤنث (ها) ما دام المقصود أصحاب هذه القلوب؟ والجواب: جيءَ بالضمير مؤنثًا بسبب إضافة الأبصار إلى القلوب التي يُقصد منها أصحابها، ومثاله قوله تعالى ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾(البقرة:٧٠). فمن قواعد العربية أن اللفظ المضاف إلى المذكر أو المؤنث يُعامَل أحيانًا بحسب المضاف إليه في تذكيره وتأنيثه.

والأبصار جمعُ بصر، والبصرُ هو حاسّةُ الرؤية؛ والعينُ؛ والعلمُ (الأقرب). فلو أُريدَ بالأبصار العيون المادية، فالمراد أن قلوبًا ترتجف من شدة الذعر يومئذ، وأصحابها سيغضّون أبصارهم خجلاً وندمًا، لأن ما قاله محمد ﷺ قد تحقق. فينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، وعندها لن يستطيعوا رفع أبصارهم أمام أحد خجلاً وندمًا، وستساور الشبهات قلوبهم حول عقيدتهم عن القيامة، ويقولون لعل خبر القيامة يكون صحيحًا كما صحَّ هذا النبأ.

أما إذا فسّرنا الأبصار بمعنى الإدراك -وضمير الإدراك يمكن أن يرجع إلى القلوب أيضًا- فالمعنى أن حاسة الإدراك الموجودة في أفئدتهم ستتعطلّ وترتجف، ويدرك أصحابها أن بصيرتهم أخطأتْ وعلومهم بارتْ، ودعاوي علمهم وفهمهم بطلتْ.

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

الحافرة: مؤنث الحافرِ؛ والخِلقة الأولى. يقال رجَع على حافرته وفي حافرته: أي في طريقه التي جاء فيها. ورجَع في حافرته: شاخَ وهرِم. ورجَع على حافرته: يقال أيضًا لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه. (الأقرب)

التفسير: أي عندما تتحقق نبوءة من أنباء القرآن أمام الكافرين ترتجف قلوبهم فيقولون في أنفسهم: لقد تحقق هذا الأمر، فلعل النبأ عن الحياة بعد الموت سيتحقق أيضا؟ أي سينشأ هذا السؤال في قلوبهم تلقائيا، أو سيقول بعضهم لبعض لقد تحقق هذا النبأ، فهل نستنتج من هذا أن القيامة أيضا حقّ؟ إذنْ فإننا في خسران كبير.

أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١٢﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

عظامًا نَخرةً: نَخِرَ العظمُ: بَلِيَ وتفتَّتَ. (الأقرب) فالعظام النخرة: البالية المتفتتة.

كَرَّةٌ: الكَرّةُ: العودة. والكَرّة الخاسرة: العودة الضارة.

التفسير: السؤال هنا للاستعجاب لا للإنكار، والمعنى: سيقول الكافرون فيما بينهم عجبًا: لقد كان المسلمون يقولون إن الله يحيي العظام ثانية وهي رميم، ولقد تحقق أحد الأمرين، فقد يتحقق الثاني أيضا، وتكون عقيدة البعث بعد الموت صحيحة. أما قوله تعالى ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فيعني أن الكافرين يقولون إنه لو وقع الأمر الآخر أيضا فسيكونون في خسران مبين عند عودهم إلى الحياة ثانية، لأن محمدا قد أنبأ عن قيامتين؛ إحداهما غلبته، والثانية تلك التي يُعرض فيها كل إنسان على ربه بعد الموت ليحاسَب على أعماله. لقد أنكرنا القيامتين كلتيهما وقلنا لا نؤمن بما تقول، بل ننكر ما تقول، وحاربناه ساعين بكل ما أوتينا للقضاء عليه، ولكنا كلما حاربناه كُسرت هاماتنا، ورجعنا خائبين صاغرين. ثم جمعنا القبائل كلها لإسقاط محمد (ﷺ) وإفشاله، فكان مآلنا الخيبة والخسران. فما دمنا قد هلكنا هنا في اليوم الموعود رغم أخذنا بالأسباب كلها، فكيف يكون مصيرنا في اليوم الذي لم نُعِدّ له عُدّة؟ فلو تحقق نَبَؤُه عن الآخرة لكنا خاسرين؛ إذ لم نعدّ لها أي عُدّة.

لقد ذكر الله تعالى هنا الآخرة ليبين أنه يتحدث عن غلبة رسوله وعن يوم القيامة في وقت واحد. يقول عندما يتحقق أحد الأمرين سيستنتج منه الكافرون بأنفسهم بأن الأمر الثاني الذي وُعدنا به سيتحقق أيضًا، وسنكون عندها من الخاسرين جدا؛ إذ لم نعدّ لذلك اليوم عدة. وبعد بيان هذا المعنى يعود الحديث إلى الموضوع الأساس ثانية.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

زَجْرة: زَجَرَه عن كذا زَجْرًا: منَعه ونهاه. ويقال أصلُ الزجر الطردُ مع صوت، يقولون: زجَر البعير: صاح به يسوقه. وزجرت الناقةُ بما في بطنها: رمتْ به. وزجَر الطيرَ: تفاءلَ به فتطيّرَ، فنهَره. يقال فلان يزجر الطيرَ: أي يعافها، وهو أن يرمي الطائرَ بحصاة أو أن يصيح به، فإنْ ولاّه في طيرانه ميامنةً تفاءلَ به، وإن ولاّه مياسرةً تطيَّرَ منه. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي الدفع دفعة واحدة أو السوق سوقة واحدة.

التفسير: أي لقد قلنا لكم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، ولما أريناكم نموذجًا واحدا من ذلك، طارت حواسكم وارتجفت قلوبكم، واعلموا أن قولنا ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ لم يتحقق بعد؛ حيث نسوقكم إلى مواطن القتال مرارا. الواقع أن قول الله تعالى هذا يماثله قول الشاعر بالأردية بما معناه: ما هي إلا بداية العشق، ومع ذلك أخذت في البكاء؟ عليك أن تتوقع الكثير مثله مستقبلا. إذًا، يقول تعالى للكافرين: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.. أي أن هذا العذاب إنما هو حلقة أولى في سلسلة طويلة من العذاب، ومع ذلك انهارت هممكم برؤيته. والحق أننا سنسوقكم مع رؤسائكم إلى القتال مرارًا وستلقون على أيدي المسلمين هزيمة تلو أخرى.

الواقع أن الله تعالى قد رسم بقوله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ مشهد معركة بدر؛ إذ لم يكن المسلمون ولا الكفار يريدون القتال، إنما خرج المسلمون من المدينة لأنهم علموا أن قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام. وكانت قافلة غير عادية، وكان لكل قرشيّ - ذَكَرٍ أو أنثى - سهمٌ فيها، مما يدل على أن رؤساء قريش كانوا يريدون أن ينفقوا أرباحهم من هذه التجارة في محاربة المسلمين. والثابت تاريخيًا أنهم قد أنفقوا أرباحهم هذه للاستعداد لمعركة أحد. (طبقات ابن سعد، المجلد الثاني، غزوة رسول الله ﷺ أُحدًا). فبالإضافة إلى أن قريش كلهم كانوا في حرب مع المسلمين، فإنهم ما برحوا ينسجون خططًا لمحاربة المسلمين بالمال الذي كانوا يكسبونه بالتجارة غالبا.

وثانيًا- لقد علم المسلمون أن قريشًا قد خرجوا بجيش لاستقبال قافلتهم التجارية، فخرج المسلمون ليُظهروا للعدو أنهم لا يخافونه، ولكنهم لم يعلموا بشكل قاطع أنهم سيشتبكون مع الكافرين في حرب.

فبما أن أرباح هذه التجارة كانت ستُنفَق في محاربة المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى كان أهل مكة قد خرجوا بجيش ليزيلوا هيبة المسلمين في تلك المنطقة، فخرج الرسول ﷺ بصحابته لكي لا يرتعب أهل المنطقة من الكافرين.

لا شك أن الرسول ﷺ كان قد تلقى من الله تعالى إشارات بنشوب الحرب ضد الكفار، ولكن لم يتضح له أن هذا هو أوانها، فلما خرج بالجيش أخبره الله بالوحي بأن الحرب ستقع الآن، ولكن ليس ضد القافلة التجارية، بل ضد الجيش الذي أتى لحمايتها. بيد أن الله تعالى قد نهاه عن كشف هذا الأمر لأصحابه فورًا. فقال ﷺ لأصحابه لما اقترب من ميدان بدر: لله الأمر فيما إذا كنا سنصطدم مع القافلة أم بالجيش. فقال الصحابة: يا رسول الله، إننا مستعدون لمواجهة العدو في كل حال، و لم يخطر ببالهم حتى ذلك الوقت أنهم سيشتبكون مع جيش الكافرين لا مع القافلة. ووصل الرسول ﷺ ميدان بدر فوجد هناك جيش الكافرين، فقال لأصحابه: ماذا ترون الآن؟ فقالوا: يا رسول الله، إنا مستعدّون للقتال. ولهذا السبب لم يشترك في معركة بدر إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر صحابيا، مع أن عدد المسلمين كان أكثر من ذلك بكثير. لقد جاءوا مع الرسول ﷺ بعدد قليل لأنهم ظنوا أنهم لن يشتبكوا مع جيش الكافرين. ولكنهم حين واجهوا جيشهم بدلاً من القافلة التجارية قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، نبني لك عريشًا في مكان محفوظ ونربط عنده نُوقًا قوية سريعة، فلو قُتلنا في الحرب ركبتَها لتلحق بإخواننا في المدينة الذين ليسوا أقلَّ منا إخلاصًا وولاء وتضحية في سبيل الدين. وإنهم لم يخرجوا معنا لأنهم لم يتوقعوا اندلاع الحرب؛ فلو التحقتَ بهم خرجتَ لمحاربة الكافرين مرة أخرى.

أما جيش الكافرين فإنهم لما سمعوا أن قافلتهم التجارية قد نجت من هجوم المسلمين، فقال أبو جهل وغيره من الزعماء: تعالوا نأكل ونشرب بعض الوقت احتفالاً بفشل المسلمين في مهاجمة القافلة. فالواقع أن الكافرين أيضًا لم يجتمعوا هناك بنيّة القتال، إنما أرادوا أن يحتفلوا هناك ليأكلوا الولائم وليشربوا الخمور وليرعبوا أهل المنطقة، ظانين أن المسلمين لن يجرؤوا على التصدي لهم؛ أما المسلمون فلم يخرجوا موقنين بنشوب القتال، ولكن الله تعالى بحكمته قد جمع الفريقين وجهًا لوجه في مقام واحد. وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر في مكان آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ

عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:٤٣).. أي تَذكَّروا حين أخرجنا الفريقين بتدبير منا، فما كنتم لتّتفقوا مع الكفار على موعد الخروج. فلم يكن هناك أي سبب للحرب بالنسبة إلى الكافرين، إذ كانوا يريدون حماية القافلة التجارية، ليبيعوا ما أتت به من بضائع وسِلَع ويربحوا الأموال، كما لم يكن المسلمون يريدون أي قتال، وإنما قد جعل الله تعالى الطرفين وجهًا لوجه في مكان واحد للقتال.

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

الساهرة: ورد في المفردات: "الساهرةُ قيل: وجهُ الأرض". وورد في أقرب الموارد: "الساهرة: وجهُ الأرض، وقيل: الفلاة."

التفسير: أي حينما نسوق هؤلاء الكافرين لمواجهة المسلمين مرة واحدة سيُفضَحون كليةً، ويتبع ذلك ما هو أدهى وأمرّ. وما دام الحادث الواحد سيزعزع عقيدهم عن القيامة، فما بالك إذا تبعتها الرادفة؟ أي حين يُساقون لحرب المسلمين مرة بعد أخرى.

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٦﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٧﴾

التفسير: يبيّن الله تعالى هنا للكافرين أنه عندما تقع هذه الأحداث ستقولون مخادعين أنفسكم إنها محض صدفة. مع أنه لا يحق لكم أن تسموها صدفة، إذ قد وقعت أحداث مماثلة في زمن الأنبياء السابقين، وأمامكم أمثلة كثيرة منها، فكيف ترفضون هذه الشهادات التاريخية كلها بحجة أنها مصادفة؟ إن هذه ليست أول نبوءة أدلى بها أمامكم محمد ﷺ، بل هنالك نبوءات عديدة قد تنبأ بها وقد شاهدتم تحقُّقها، فإذا كنتم تصرون أنها مصادفات، فنقدّم أمامكم مثالا آخر، وهو قوله

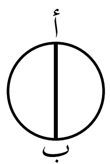
تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. والطُّوى: اسمُ واد في الشام، وقال بعضهم: هو الشيء المُثنى. (الأقرب)

هناك نقطة رائعة في هذه الآية وهي أن موسى عليه السلام حين لقي ربه عز وجل كان في وادٍ طوى، أي في واد منعطف، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد رسم الله تعالى مشهد لقائه معه في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي كان الأمر كأنه قد رأى الله وهو واقف أمامه تعالى كما يكون وترَ قوسَين أو أقربَ من ذلك. والبديهي أن الواقف في وادٍ طوى منعطف لا يمكن أن يرى الله تعالى كما يراه تعالى من يقف كوترِ قوسين؛ فمثلا لا يمكن للشخص الواقف في النقطة (أ) في الرسم التالي أن يرى الشخصَ الواقف في النقطة (ب).

أ

ب

ولكن الذي يقف في النقطة (أ) في الرسم التالي يستطيع أن يرى الشخصَ الواقف في النقطة (ب).



الواقع أن هذه الآية كانت إشارة إلى أن أُمة موسى عليه السلام لن ترى الله تعالى، ولكن أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم يبلغون الذروة في الروحانية فيتمتعون برؤية الله وكأنه أمامهم؛ لأن الشخصَين الواقفَين في حالة قاب قوسين يرى أحدهما الآخر، ولكن الشخصين الواقفين في الرسم الأول (الوادي الطوى المنعطف) لا يستطيع الواحد رؤية الآخر، لأن العبد يبقى في زاوية، والله في زاوية أخرى.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٨ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٩ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝٢٠﴾

شرح الكلمات:

تَزَكَّى: أصلُه تتزكّى، وتزكّى: فلان صار زكيًّا. (الأقرب)

التفسير: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾.. أي هل لك رغبة في أن تتزكى؟ وهذا الأسلوب في الكلام يشبهه قولنا في الهند هل لك رغبة في "البان"* حين يدعو أحدنا الآخر لتناوله. فالله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويقول له: هل لك رغبةٌ في التزكي حتى أدلّك على بعض الأمور، وأهديك إلى ربك فتتولد في قلبك خشية الله؟

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢١﴾

التفسير: اعلم أن القرآن الكريم يحذف تفاصيل غير ضرورية. فهنا، مثلاً، لما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾؟ أعرض عنه وقال: لا أرغب في هذه الأمور، فلا حاجة لذكرها، ثم جرى بينهما حديث طويل أدى إلى أن يُرِيَه الله الآية الكبرى؛ ولكن الله تعالى لم يذكر كل هذه الأمور، لأنها مفهومة من السياق.

وهنا ينشأ سؤال: ما هي الآية التي أراها اللهُ فرعونَ على يد موسى واعتبرها الآية الكبرى؟ فإن الله تعالى قد أراه آيات كثيرة، إذ ورد في آية أخرى أنه تعالى أعطى

---

* "البان" اسم شجرة في الهند يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (*المترجم*)

موسى ﴿تِسْعَ آيَات بَيِّنَات﴾(الإسراء: ١٠٢). وكذلك قال تعالى عن فرعون ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾(طه: ٥٧)

والجواب أن الآية التي أراها موسى عليه السلام فرعونَ عندئذ هي آية العصا، كما يتضح من سورة طه، وهذه السورة (النازعات) أيضًا تتحدث عن أول لقاء بين فرعون وموسى. إذًا، فالآية الكبرى هي آية العصا. وإن القرآن الكريم أيضًا يذكر معجزة العصا مرة بعد أخرى. لا شك أن معجزة اليد البيضاء أيضًا قد ظهرت مرارًا، ولكنها ظهرت دائمًا بعد معجزة العصا. فمثلاً لما شرّف الله تعالى موسى عليه السلام بالنبوة أراه معجزة العصا أولاً ثم اليد البيضاء. والمعجزة التي أظهرها الله تعالى أمام فرعون على يد موسى في مواجهة السحرة هي معجزة العصا أيضًا. وعندما عبر موسى عليه السلام مع بني إسرائيل اليمَّ ضرب الماءَ بالعصا أيضا. ولما احتاج بنو إسرائيل إلى الماءِ احتياجًا شديدًا ضرب عندها الصخرة بالعصا. فثبت أن هناك عدة آيات تتعلق بالعصا.

ويظهر مما ورد في التوراة أن الآية التي أراها موسى في اليوم الأول هي آية العصا، حيث ورد: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائلاً: إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائلاً: هَاتيَا عَجيبَةً، تَقُولُ لهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصيرَ ثُعْبَانًا. فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلاَ هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ: طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبيده، فَصَارَتْ ثُعْبَانًا." (الخروج ٧ : ٨-١٠)

ثم إن السحر الذي أراد السحرةُ أن يأتوا به عند مواجهة موسى عليه السلام كان أيضًا ذا علاقة بالعصيّ، مما يدل على أن أعداءه عليه السلام كانوا معترفين بأهمية معجزة العصا. لا شك أن التوراة ذكرت أن السحرة أروْا معجزة الدم، ولكن القرآن لم يذكرها؛ لأن المعجزة الأساسية التي أراها الله تعالى فرعونَ وأصحابَه هي معجزة العصا، أما المعجزات الأخرى فهي تابعة لها.

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٣﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٥﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن فرعون كذّب وعصى رغم رؤيته الآية الكبرى، ثم ولّى يسعى جاهدًا في معارضة موسى وتدميره، علمًا أن السعي هنا ليس بمعنى الجري بالأقدام، وإنما بمعنى الجري بالأعمال.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾.. أي أن فرعون بعث رجالاً إلى كبار القوم ليجتمعوا في يوم معين، ثم نادى بين عامة الناس أن يجتمعوا في ذلك اليوم؛ ذلك لأن هنالك أسلوبين لجمع القوم؛ الأول يتعلق بعِلية القوم الذين تبعث لهم رسائل أو رجال، والثاني يتعلق بعامة الناس الذين ينادَى بهم للاجتماع في الموعد المحدد. فلما اجتمعوا قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى وهذا الشخص يتآمر عليكم، فاتّحِدوا ضدّه.

فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

نَكال: نكَل بفلان: صنَع به صنيعًا يحذُر غيره إذا رآه. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ﴾ إما هو مفعول له أو مفعول مطلق، لأن النكال بالمرء يعني البطش به، فالمراد أن الله تعالى أخذ فرعونَ - كما حذّره موسى عليه السلام - ليدمّره ويلقيه في عذاب الآخرة وعذاب الحياة الدنيا، أو المعنى أنه تعالى أخذه أخذًا شديدا من حيث الآخرة أو من حيث الدنيا.

والحق أن الله تعالى قد أشار بهذا الحادث إلى نفس الأمر المتعلق بغلبة الإسلام.. حيث بيّن أن انتصار موسى عليه السلام على فرعون لم يحقّق نبوءة غلبته فحسب، بل دلّ على وجود يوم القيامة أيضا، لأن هاتين النبوءتين كانتا متلازمتين، فما دامت

إحداهما قد تحققت رغم الظروف غير المواتية، جاز لنا القول إن الأخرى أيضا ستتحقق يوما ما.

والحق أن أوّل مهمّة يقوم بها أي نبي في الدنيا هي أن ينشئ في القلوب الإيمانَ بالله تعالى ثم اليقينَ بيوم القيامة، ولذلك يربط النبي نبوءةَ نجاحه وغلبته بيوم القيامة دائمًا.. ويقول: سأنتصر عليكم يومًا رغم الظروف غير المواتية، وستكون غلبتي دليلا على أن ما أقول لكم عن يوم القيامة سيتحقق يومًا ما؛ ذلك لأن مهمتي إحياء الأرواح الميتة، وهي مهمة تبدو مستحيلة في الظاهر، لكن لو أصبح هذا المستحيل ممكنًا، وأُعيدَ هؤلاء الموتى روحانيًا إلى الحياة، وتيسرت لهم هذه الحياة الروحانية، فلا بد لكم أن توقنوا أن ما يقال لكم عن الحياة في الآخرة حق وصدق؛ ذلك لأن الأرواح الميتة إذا أمكن إحياؤها في هذه الدنيا، فإحياء الموتى في الآخرة ممكن حتمًا، وبعد رؤية هذا المشهد يسهل على كل امرئ الإيمانُ بيوم القيامة، حيث يدرك أن الله إذا كان قادرًا على بعث الناس روحانيًّا في هذه الدنيا فإنه يقدر على إحياء الموتى في الآخرة أيضًا. ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾.. أي أن الله تعالى أخذه ليعذّبه في الآخرة ويعذّبه في الدنيا أيضا. ومن الملاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا: فيأخذه الله نكال الآخرة، بل قال ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾.. أي أخذه الله تعالى ليعذّبه عذاب الآخرة، وليس المقصود من هذا الأسلوب - أعني استعمال صيغة الماضي مكان المضارع - إلا البيان أن عذابه في الحياة الأولى أصبح دليلا على أنه تعالى سيبعثه بعد الموت ليعذّبه عذابَ الآخرة، ولذلك قدم الله تعالى هنا ذكر نكال الآخرة على عذاب الأُولى، منبِّهًا أن عذاب الأولى أصبح دليلا على أن فرعون سيبعث بعد الموت لينال عذاب الآخرة أيضا.

إذاً، فقد بيّن الله تعالى بذكر عذاب فرعون أن غلبة محمد ﷺ ليست أول مثال في التاريخ حتى تعتبروه مصادفة، بل هذا ما حدث دائما. فكلما جاء نبي من عند الله تعالى نال الغلبة رغم الظروف المستحيلة. لم يكن عنده أسباب من قوة ومال وجماعة، ومع ذلك كتب الله له الغلبة، وأحيا القوم على يده؛ وكان الإحياء الروحاني في الدنيا رغم الظروف غير الملائمة دليلاً على أنه لا بد من إحياء بعد

الموت أيضا، ويبعث الله الناس جميعًا مرة أخرى. فإن الله الذي قام بإحياء القلوب والأرواح الميتة في هذه الدنيا في ظروف غير مناسبة كيف لا يكون قادرا على إحياء الأجساد الميتة في ظروف تبدو مستحيلة في الظاهر؟

وهناك سؤال هامّ جدًّا يثيره المفكّرون في هذه الأيام وهو: لا يصحّ - منطقيًّا - استنتاجُ شيء من شيء دونما رابط بينهما؛ فمثلا لو وصفنا شخصا بأنه عالم كبير، فلا يعني ذلك بالضرورة أنه قادر أيضًا على أن يصنع كرسيًا أو مخدة. فلو أثبتّم أن الله تعالى قد أنبأ عن بعض الأمور الغيبية التي تحققت أيضا، فإنما نستنتج من ذلك أن هذه الأنباء قد تمّ الإدلاء بها وقد تحققت فعلاً، ولكن كيف يجوز أن نستنتج من ذلك وجودَ القيامة؟ إذ لا علاقة ولا رابط بين الأمرين.

والحق أن دليلهم هذا هام، ولا نستطيع رفض موقفهم إلى هذا الحد؛ إذ نسلّم نحن أيضا أن وجود صفة في شيء لا يدل بالضرورة على وجود صفة أخرى ما لم تكونا من قبيل اللازم والملزوم أو السابق والمسبوق أو السبب والمسبّب، أعني أنه إذا وجدت إحداهما فلا بد من وجود الأخرى، وعندها يمكن الاستدلال بإحداهما على الأخرى، أو أن تكونا متشابهتين بحيث يكفي وجود إحداهما لنوقن بوجود الأخرى. لا شك أن كون أحد عالِمًا لا يعني بالضرورة كونه قادرًا على صنع كرسي أو مخدة، فإن مثل هذا القول حماقة؛ إذ لا علاقة بين الأمرين، ولكن إذا قرأ علينا شخص كتابًا باللغة الإنجليزية، فيمكننا الاستنتاج أنه يقدر على قراءة كتاب آخر بتلك اللغة؛ وإذا اعترض البعض على استنتاجنا هذا، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويقولوا: إنه استنتاج صحيح وطبيعي، لا بأس به وليس فيه ما يخالف العقل. أو إذا كان المرء قادرا على قراءة كتاب باللغة الأردية، فيمكننا أن نستنتج من ذلك قدرته على قراءة كتاب آخر بتلك اللغة، ولا بأس بهذا الاستنتاج، إذ يوجد بين الأمرين مشابهة يستحيل بعدها علينا إنكار الأمر الثاني بعد وجود الأمر الأول.

والآن نبحث عن وجوه التشابه بين القيامة وهذه الدنيا. فأول ما يشبه من هذه الدنيا بالقيامة هو صفة الخَلْق الإلهية؛ وإذا ثبت أن الله خلق الأشياء في الماضي أو يخلقها الآن، فلا بد من الاعتراف أن الذي خلق أول مرة قادرٌ على أن يخلق مرة

أخرى. كل ما في الأمر أن نفحص ما إذا كان قد أعلن أنه سيخلق مرة ثانية أم لا. فإذا كان قد أعلن أنه سيخلق مرة أخرى، فقد حُسم الأمر، ولا مناص من الاعتراف بأن الله الذي خلق أول مرة قادرٌ على أن يخلق مرة أخرى. وحيث إن الخَلق مشابه للقيامة، فلو أثبتنا أن الله تعالى يخلق الأشياء في هذه الدنيا، لكان هذا دليلا على صحة عقيدة القيامة أيضا.

والأمر الثاني هو خَلقٌ آخر روحاني، فإذا وُجد في الدنيا خَلقٌ آخر روحاني مستبعَد محيِّر مشابه للخلق المادي.. فلا بدّ أن نصدّق الله تعالى في قوله إنه قادر على أن يخلق يوم القيامة خلقًا جديدًا مشابهًا، إذ قد أكّد بالفعل قدرتَه على مثل هذا الخلق في الدنيا، فما دام تعالى قد أثبت قدرته وقوته وجلاله في هذه الدنيا نفسها من خلال خَلق آخر مشابه، فلا بد من الإيمان أن هذا الإله القادر القوي صادق في قوله إنه سيخلق خلقًا آخر في الآخرة؛ إذ لا حاجة له إلى الكذب وهو يملك هذه القدرة والقوة.

والأمر الثالث هو العلم التام، فإذا ثبت أن الله يملك العلم التام، حُلَّت القضية وحسمت؛ لأن الذي عنده علم كامل بصنع شيء، لا بد أن يقدر على صنعه في أي وقت شاء. لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أن الناس يسألون كيف خلق الله هذا الكون، فقال: لو تيسَّر لكم العلم التام عن خلقه، لم يبق بينكم وبين الله فرق؛ إذ ستبدأون - مثله عز وجل - في خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم. فالذي يعلم كيف تُصنَع الطاولة أو الكرسي، وكيف تُستعمل المطرقة والقدّوم، سيصنعهما بدون صعوبة. (سرمه جشم آريه - كحل عيون الآريه الهندوس - الخزائن الروحانية المجلد ٢ ص ٢٢٩ و ٢٦٣ و٢٦٩)

إذًا، فإذا ثبت أن الله تعالى عنده علم تامّ بالمخلوقات، فالزعم أنه لا يقدر على إحيائهم أو خلقِهم ثانية ليس إلا ضربًا من الجنون.

هذه ثلاثة أمور لا بد منها لإثبات يوم القيامة، وهي تشكّل معًا الدليلَ على وجود القيامة.. أي أن نُثبِت أن الله تعالى قد خلق كل ما في الدنيا من مخلوقات، فنستنتج

من ذلك أنه تعالى ما دام قادرًا على خلقها في الدنيا، فهو قادر على خلقها في الآخرة.

ثم نثبت أنه قادر على أن يقوم في الدنيا بإحياء مماثل للإحياء الذي يتم في الآخرة، فإذا أثبتنا ذلك، فلا بد من الاعتراف أنه قادر على إحياء مماثل في الآخرة.

ثم نثبت أن الله تعالى عنده علم تام بالمخلوقات، وإذا أثبتنا ذلك فلا مناص من الإيمان بوجود القيامة أيضًا؛ لأن الذي عنده علم تام بجزئيات المخلوقات ودقائقها فلا بد أن يكون قادرا على خلقها ثانية.

فكما قلت إن هذه هي الأمور الثلاثة التي تشكّل معًا الدليلَ على وجود القيامة، وهي التي قد ذكرها القرآن مجتمعةً على الدوام، ردًّا على منكري يوم القيامة. لذلك إنا لا نقول إن تحقُّقَ نبوءةٍ أنبأ الله بها سابقًا دليلٌ على وجود القيامة. إننا نعترف أن هذا القول وحده لا يكفي دليلا على وجود القيامة. فلو قيل - مثلاً - إن انتصار فلان في قضية أو ولادة ابن في بيته بحسب نبوءةٍ لدليلٌ على وجود القيامة، فنقول إنه ليس دليلا عليها، لأن نجاحه في القضية أو ولادة الابن عنده لا يعني بالضرورة وجود القيامة، لأن هذه الأمور ليست متلازمة وليس لها علاقة مباشرة بالقيامة. إن ما نقوله هو: إن الله تعالى قد خلق الخلائق، ومَن قدر على خَلْقها مرة قادرٌ على خلقها مرة أخرى. ونقول أيضا: إن الله تعالى يقوم في الدنيا بإحياء روحاني مشابه تمامًا بالخلق المادي، إذًا فلا بد أن يقدر على خلق جديد في الآخرة. ثم نقول أيضا: إن الله تعالى عنده علم تامّ ومطّلع على أسرار المخلوقات كلها؛ فكيف يصعب عليه الخَلق مرة أخرى؟ هذه هي طريقة الاستدلال التي اتّبعها القرآن الكريم دائمًا لإثبات يوم القيامة. ولا شك أنه فيما يتعلق بالكتب الأخرى فيمكن أن يقال عنها إنها لا تستدل على وجود القيامة كما ينبغي، ولكن لا يمكن توجيه هذا الاعتراض إلى القرآن؛ لأنه كلما تحدث عن يوم القيامة قدّم الخَلق الأول دليلاً عليها. فقيل: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أجاب الله تعالى بقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾(يس:٧٩-٨٢). فترى أنه تعالى قد قدّم هنا خَلْقه الأول وعلمه التام دليلاً على وجود القيامة، وأخبر أن الذي خلَق أول مرة، والذي عنده العلم التام بالمخلوقات كلها، كيف لا يكون قادرًا على أن يخلق مرة ثانية؟ فكأن أول دليل يقدّمه الله على يوم القيامة هو تساؤله: مَن خلَق هذه المخلوقاتِ التي ترونها أمام أعينكم؟ فما دام الله تعالى قد خلقها جميعا، فكيف تقولون إنه غير قادر على خلقها ثانية؟

والدليل الثاني الذي قدّمه الله على وجود القيامة هو تلك النشأة الروحانية التي تتمّ في الدنيا على يد أنبيائه، فقال إنه تعالى ما دام يحيي في الدنيا النفوسَ الميتة رغم الظروف غير الملائمة، فلا بد لكم من التسليم أنه قادر على أن يهب الناس الحياة في الآخرة، وأن هذه العملية ليست مستحيلة عنده.

والدليل الثالث الذي يقدمه الله تعالى هنا هو علمه الكامل، لأنه إذا تيسر لأحد علم كامل بشيء فلا يصعب عليه فعلُه. فمَن كان يَعلم صناعة الحلوى - وهي أن تأخذ شيئًا من الدقيق الخشن وتَقْليه في الزيت وتضيف إليه شيئًا من السكر والماء، وتتركه على النار بعض الوقت حتى ينضج - فإنه سيصنعها متى شاء من دون أي صعوبة. كذلك ما دام عند الله تعالى علم كامل بالمخلوقات وما دام مطلعًا على أسرار الكون كلها، فكيف يصعب عليه إحياء الموتى؟ إن الذي قد أحياهم أول مرة سيحييهم مرة أخرى.

باختصار، هذه أدلة ثلاثة يقدّمها الله تعالى على وجود القيامة، فلا يصح اعتراض البعض أن تحقُّق نبوءة غيبية لا يصلح لأن نستنتج منه صدقَ نبوءة أخرى. إنه يصح لو قيل إنّ تحقُّق نبأ غيبي يدل على صدق النبأ الغيبي الآخر، ولكنا لا نقول بذلك، إنما نقول إن قدرة الله على الخَلق في الدنيا، ثم إحياءه الموتى الروحانيين في الدنيا نفسها، ثم عِلمه التام بالمخلوقات.. كل هذا يشكّل دليلا على وجود القيامة. إنا لا نقول إن موت "ليكهرام" الهندوسي بحسب نبوءة للمسيح الموعود عليه السلام دليل على أن القيامة حق، ولا نقول إن ولادة ابن في بيته عليه السلام طبقًا لنبوءة له دليل على وجود القيامة. كلا، بل نستدل على وجود القيامة بهذه الأمور الثلاثة معًا التي

فصّلتُها آنفًا. ذلك أن هذه النبوءات التي تحققت إنما تدلّ على علم الله بجزئيات الأشياء فقط، وليس على علمه التام.. ولكن إذا ظهرت من عند الله تعالى صفة إحياء الموتى الروحانيين، لشكّلت دليلا على وجود القيامة بلا ريب، لأن هذا يقدم مثالا على عودة الحياة إلى الأرواح الميتة ببركة فيوض صحبة النبي وقوته القدسية، ويُجيز لنا القول إن الله الذي أحيا الأرواح الميتة في هذه الدنيا بهذه الطريقة قادرٌ على أن يحييها في الآخرة. والدليل الثاني هو دليل الخَلق، فإن الله الذي قدر على الخَلق مرة لا يصعب عليه خلق المخلوقات نفسها مرة أخرى. والدليل الثالث هو دليل العلم التام، فالله الذي عنده علم تام بالكون كله، والمطّلع على أسرار الخلائق كلها، لا يتعذر عليه خلق المخلوقات ثانية.

إذًا، فهذه هي الأدلّة الثلاثة التي يقدّمها القرآن الكريم على وجود يوم القيامة، والتي لا يقدر أحد على تفنيدها. فبرغم أن الاعتراض الذي تثيره طبقة المثقفين اليوم صحيح في حد ذاته، ولكنهم مخطئون في زعمهم أن القرآن الكريم أيضا يستدل على القيامة بهذا الأسلوب. نحن متفقون معهم تمامًا أن تحقُّق بعض النبوءات لا يصلح دليلا على يوم القيامة، ولكننا نبيّن لهم أنه إذا اجتمعت الأدلة الثلاثة المذكورة أعلاه أو أحدها لشكّل برهانًا قطعيًّا على وجود القيامة، لأنها متلازمة مع يوم القيامة، فإذا ثبت أي منها دلّ على يوم القيامة بالضرورة. فالاعتراض الذي يثيره المثقفون اليوم باطل تماما وهو ناجم عن عدم فهمهم للقرآن الكريم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

عِبرة: العِبرةُ: الأصلُ الذي تُرَدّ إليه النظائر؛ والنظرُ في الأحوال؛ والعِظةُ يتّعظ بها، وجمعها عِبَرٌ. (الأقرب)

التفسير: العبرة هي ما يمكن أن يُتّخذ دليلا على الحياة الآخرة. هناك أمثلة عديدة عَرَضَ فيها الأنبياءُ الحياةَ الآخرة مع الإحياء الروحاني في الدنيا، وأكدوا الحياةَ

الآخرة بقيامهم بإحياء الموتى الروحانيين في ظروف غير مواتية. ولا بد للمرء أن يؤمن ويوقن بالحياة الآخرة برؤية هذا الإحياء الروحاني إذا كان قلبه عامرًا بخشية الله، خاليًا من التعصب والمكابرة. علمًا أن كلمة (العبرة) هي من العبور الذي معناه الانتقال من مكان إلى آخر. فالعبرة تعني استنتاج شيء من شيء آخر، وكأن العبرة، كالجسر، تعبر بالإنسان من طرف إلى آخر. يقول الله تعالى إن هذا الدليل أيضا مما يوجه العقل الإنساني إلى الاقتناع بأنه لا بد من القيامة بعد الموت.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٨﴾

التفسير: أي هل خَلْقُكم أصعب أم خَلْق السماء؟ ولا تعني السماء هنا السماء فقط، بل المراد منها النظام السماوي كله، حيث ذكر الله الأرض أيضًا، مبيّنًا أهمية خلق هذا النظام حيث قال بعد ذلك ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامكُمْ﴾. وهذا الشرح يتضمن الأجرام الفلكية ورِفعتها والجو والأرض كلها؛ فثبت أن السماء هنا بمعنى النظام السماوي الذي يضم الأرض أيضا، وليس السماء فقط التي هي مقابل الأرض.

فالله تعالى يقول هنا إن خلق الكون الذي نتحدث عنه الآن أهمُّ وأعقدُ من خَلْقكم.

الواقع أن الإنسان مخدوع بنفسه حيث يقول في نفسه كيف يمكن أن يكون نظام الكون والإنسانُ متشابهين؟ وكيف يكون أحدهما دليلاً على الآخر؟ إن الإنسان يملك العقل والذكاء الخارق وملكة التفكير والتدبر، ولكن الشمس والقمر وغيرها من الأجرام لا تملك عقلاً ولا تفكيرًا.

إذًا، يرى الإنسان أنه قد شُبه الأدنى بالأعلى في هذا الدليل، حيث تم الاستدلال هنا على الأدنى بالأعلى. ولكن ظنّه باطل، لأن الاستدلال بخلق الكون هو في الواقع استدلالٌ بالأعلى على الأدنى وليس العكس. وبتعبير آخر إنه استدلال بالأَولى.

الحق أن الإنسان يغترّ بنفسه ظنًّا منه أنه متفكر ومتدبر وذكي وفهيم، وأنه كائن مكتمل ونائب عن الله تعالى في الكون، ولذلك لا ينتقل ذهنه إلى بداية خلقه ولا إلى دليل السبب والمسبِّب حول عملية خَلقه، ولذلك يقدّم اللهُ للناس دائمًا نظام الكون كدليل على وجوده، فيقول: ألا تدركون برؤية نظام الكون الهائل يد خالقه؟ ألا ترون أن كل جزء من الكون بحاجة إلى آخر، وليس فيه شيء مستقلّ بذاته؟ العلماء يقولون بصدد خلق الكون إن الذرات اتصلت فيما بينها، واتصالها أدّى إلى خلق الكون بالتدريج. ونحن نقول: نسلّم بأن الكون خُلق من اتصال الذرات، ولكن كيف أدى اجتماعها إلى وجود كل ما نحتاجه حتى على مسافة بعيدة جدا. نحن نسلّم بأن هذا الكون قد خُلق باتصال الذرات (atoms)، ولكنا نقول إذا لم يكن لهذا الكون إلهٌ خالق فكيف اتصلت ذراته فيما بينها اتصالاً متوافقًا مع حاجات البشر، وفي زمان ومكان تمسّ فيهما الحاجة لها. إن اتصال الذرات فيما بينها يمكن أن يُعتبر صدفة، أما أن تتصل اتصالاً يسدّ كل حاجة إنسانية فلا يمكن أن يُعتبر صدفة، بل لا بد من الاعتراف أن أحدًا يدير هذا الكون. فلو رأينا مثلاً في مكان قطعةَ جِلد، فيمكننا القول إنها وصلت هنا بالصدفة، ولكن لو رأينا أريكة وكرسيًا ومخدّة وحذاء من الجلد، فلا يمكن أن نعتبر كل هذه الأشياء قد وُجدت صدفة. إذًا، فإن نظام الكون ككلٍّ لا يمكن أن يكون صدفة، وإن جاز اعتبار وجود جزء منه صدفةً.

ثم إذا كان الله تعالى قد خلق لنا من ناحية العين خلقًا لا تقدر معه على الرؤية من دون الضوء، فإنه قد خلَق على مسافة ملايين الأميال شمسًا لتساعد بضوئها العينَ على رؤية الأشياء. فمن ذا الذي يمكنه أن يعتبر هذا كله صدفة؟ والحال نفسه بالنسبة إلى الحاجات الإنسانية الأخرى كلها، فليس هناك حاجة إنسانية طبيعية لم يخلق الله تعالى لسدّها أسبابًا. لقد خلق أسباب بعض هذه الضرورات في النفس الإنسانية ذاتها، وبعضها فيما حول الإنسان، وبعضها على مسافة ملايين الأميال منه. فما من حاجة للإنسان إلا وقد خلق الله أسبابها في هذه الدنيا، وهذا النظام مكتمل في ذاته بحيث لو رآه أحدٌ بصورته الكلية فلا يمكنه أن يظن أن هذا كله قد

تم مصادفة، لذلك يقول الله تعالى للناس انظروا إلى خلق هذا النظام السماوي والأرضي الذي هو أشد تعقيدًا من خلقكم. يمكنكم أن تقولوا عن شيء ما إنه قد حصل صدفة، ويمكنكم أن تقولوا عن شيئين إنهما حصلا صدفةً، ولكن كيف تعتبرون صدفةً كلَّ هذا النظام الهائل المذكور في قولنا ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. فكِّروا في هذا النظام الهائل في صورته الكاملة التي نعرضها عليكم، ثم بَيِّنوا ما إذا كانت هذه الأمور صدفة. أرى أن أحدًا لن يعتبرها صدفة مهما كانت الفلسفة التي يبني عليها عِلْمَه موغلة في الغرابة، بل لا بد له من الاعتراف بأن هناك من يدير هذا الكون، وهو عالِمٌ بحاجات الناس ويمدّهم بها.

فالله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في هذا النظام الهائل، منبّهًا إياهم أنه يمكنهم أن يظنوا أنهم خُلقوا بأنفسهم، ولكن لا يسعهم القول أن هذا النظام ليس له خالقٌ خلَقه، فلذلك يعرض عليهم هذا النظام الهائل كدليل على كونه تعالى خالقًا له؛ فليُمْعِنوا النظر في نظام الكون ويفكروا ما إذا كان هناك خالق خلَقهم أم لا؟ إذًا، فالله تعالى قد لفت نظر الناس إليه تعالى بأسلوب رائع هنا، لأنه تعالى لو استدل على كونه خالقًا لهم بتوجيه أنظارهم إلى أنفسهم قائلا إنه تعالى هو الذي قد وهبكم ألسنةً وعيونًا وأفئدةً وعقولاً، لأنكروا هذا الدليل وعزوا خَلْقهم إلى بعض الأسباب. لا شك أننا نقدّم هذا المثال نفسه في نقاشنا عادة، ولكن القرآن الكريم يقدّم قولاً مكتملا، ولذلك قد استدل الله فيه بنظام الكون الهائل على كونه خالقًا، لأن التفكير والتدبر في شيء آخر سهلٌ. وهذا الأسلوب يشبه قولَ الشاعر بالفارسية:

خوشتر آن باشد كه سرِّ دلبران
گفته آيد در حديث ديگران

(مثنوي مولوي معنوي ص ٨)

أي ما أجملَ أن يُذكَر سِرُّ الأحبّة في ثنايا الحديث عن الآخرين!

فتفكير الإنسان في نفسه ليس سهلاً كما هو التفكير في الآخرين. وهذه هي الحكمة في هذا الأسلوب القرآني، حيث لم يدعُ الله الناس إلى التفكير في أنفسهم، و لم يقل لهم إنه قد أعطاهم عيونًا وعقولاً وقلوبًا وآذانًا وأيادي وأقدامًا كدليل على أن هناك مَن خلقهم، بل قدّم أمامهم شهادة هذا الكون الهائل ليسهل على من ينكر وجود البارئ ﷻ التفكيرُ في القضية بعقل هادئ.

والسبب الثاني لاتخاذ هذا الأسلوب هو أن الإنسان أشرف المخلوقات بلا شك، ولكنه ليس إلا نتاج هذا النظام الكوني الهائل، وليس إلا جُزَيئًا من أجزائه. لقد صار أشرفَ المخلوقات بسبب تطوره العقلي، ولكن فيما يتعلق بخلقه فهو بلا شك جزء من هذا النظام الهائل، ولا يساوي في خلْقته أمام خلق السماوات والأرض شيئا. فيما يتعلق بقضية الخَلق وحدها فإن خَلْق الكون هو الأهم، وخَلْق الإنسان بسيط جدًّا إزاءه. لا شك أنه قد ارتقى عقليًّا فيما بعد، ولكن هذا لا يؤثر في صلب القضية شيئًا. ولذلك قد عرض الله تعالى هنا خَلْق الكون، مبيّنًا للناس: كيف يعجز عن خلقكم مَن خلَق هذا الكون الهائل؟

وبتقديم هذا الدليل قد فصَل الله تعالى - ضمنيًّا - في قضيتين أخريين هامتين، وهما الحياةُ بعد الموت، والإحياءُ الروحاني الذي يتم على يد الأنبياء في هذه الدنيا. فدلّل على الحياة بعد الممات من حيث إنه تعالى ما دام قد خلَق الكونَ الذي هو أهمُّ من البشر خلقًا، والذي هم جزء منه، فلا بد لهم من الاعتراف أنه تعالى قادر على الخَلق في الآخرة. وبتعبير آخر إما أن يقولوا أن هذا الكون قد خُلق تلقائيا وليس هناك مَن خلقه ويديره، أو لا بد لهم من الاعتراف - نتيجة تدبرهم في الكون ودقائقه وحكمه - بأنه لم يُخلَق صدفة، بل هناك خالق له، وبالتالي لا بد لهم من الاعتراف بأن الله الذي خلق هذه الأشياء كلها مرةً قادرٌ على أن يخلقهم مرة أخرى. وكأن الله تعالى لم يبرهن على وجوده تعالى بهذا الدليل الواحد، بل أثبت أيضًا الحياة بعد الموت. لماذا، يا تُرى، لا يؤمن البعض بالحياة بعد الموت؟ إنما سببه أنهم يستبعدون ذلك، فيقول الله لهم إنكم جزء حقير من هذا الكون. هلا فكّرتم

فيمن خلَق هذا الكون الهائل لتعرفوا أن خالقه هو الله تعالى. فإذا كان الله تعالى قادرًا على خلق هذا الكون، فكيف لا يكون قادرًا على خلقكم؟

إذًا، كما أكّد الله تعالى مِن قبل بقوله ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ بأن عذاب الدنيا دليل على عذاب الآخرة، كذلك بيّن هنا أن الله الذي قدر على أن يخلقكم في الدنيا قادرٌ على أن يخلقكم في الآخرة. كل ما في الأمر هو أن تروا ما إذا كان قد وعد بخلقكم ثانية أم لا؟ فإذ سبق منه هذا الوعد فقد حُسم الأمر وانتهى، ولم يبق مجال للسؤال كيف يخلقنا ثانية؛ لأنه تعالى ما دام قد أثبت قدرته على الخلق بخلق هذا الكون الهائل، فثبت أنه قادرٌ على الخلق في الآخرة، وهذا الخلق ليس مستحيلا عليه. إذًا، إن خلق الكون دليل على الحياة بعد الموت أيضا.

كما أن هذه الآية قد برهنت على إحياء الموتى الروحانيين في الدنيا، حيث بيّن الله تعالى أنه ما دام قد هيّأ الأسباب لسد حاجاتكم البسيطة لاستمرار حياتكم المادية، فكيف تظنون أنه لم يهيئ الأسباب لحياتكم الروحانية؟ فما دام قد هيّأ لحفظ أجسامكم - وهي فانية في النهاية حتمًا - أسبابًا كثيرة حتى إن بعضها يبعد عنكم ملايين الأميال، فكيف يتغافل عن خلق الأسباب لحفظ أرواحكم؟ إن الله الذي اهتمّ بتكميل نظام العالم الكبير (أي الكون) مِن كل النواحي، كيف يمكن أن يتهاون في سدّ حاجات العالم الصغير (أي الإنسان)، سواء كانت حاجات مادية أو روحانية؟

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

سَمْكَها: سَمَكَه سمْكًا فسَمَكَ: أي رفَعه فارتفع. والسَّمْكُ: السقفُ؛ أو مِن أعلى البيت إلى أسفله؛ القامةُ من كل شيء والسَّمْكُ: الثِّخَنُ الصاعدُ كسَمْكِ المنارة. (الأقرب)

وسنامٌ سامِكٌ: مرتفع. (التاج)

وهذا يعني أن كلمة سَمْك تفيد معنيين؛ أولهما أن يكون الشيء عاليًا وبعيدا، وثانيهما أن يكون عالياً وغليظًا.

وقال ابن جزي: "السَّمْك غِلَظُ السماء، وهو الارتفاع الذي بين السطحِ السِّفْلي الأسفلِ الذي يلينا وسطحِها الأعلى الذي يلي ما فوقها." (فتح البيان)

وهناك اختلاف بين اللغويين في معنى السمك كما مرّ، فقد قال بعضهم إن لفظ السمك لا يشير إلى مقدار ارتفاع الشيء فقط، بل يشير إلى مقدار ما بين أعلاه وأسفله؛ فإن صاحب "الأقرب" قال: "السَّمْكُ: مِن أعلى البيت إلى أسفله"، بينما قال بعض الكتّاب الآخرين خلاف ذلك، فكتب صاحب "الكشّاف": ﴿رفَع سَمْكَها﴾.. أي جعَل مقدارَ ذهابها في سَمْتِ العُلوِّ مديدًا رفيعًا (الكشّاف).

فكأن السمك يكون من أسفل البيت إلى أعلاه.

وقد بيّن بعضهم سبب ذلك وهو أن "أصل العُمْقِ البُعدُ سُفْلاً" (المفردات).. أي مقدار ما بين أعلى الشيء إلى أسفله، أما السَّمْك فيدل على مقدار ما بين أسفله إلى أعلاه.

ولكن القرآن الكريم، بعد أن استعمل كلمة (السَّمْك)، ذهب في بيانه من الأعلى إلى الأسفل، وليس من الأسفل إلى الأعلى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. فقد ذكر تعالى هنا أوّلاً ما يوجد في العلو، ثم ذكَر الأشياء التي توجد على الأرض. فيبدو، بحسب الترتيب الذي راعاه القرآن الكريم هنا، أن الذين قالوا إن السَّمْك يشير إلى ما بين أعلى الشيء إلى أسفله هم أقرب إلى الصواب. وربما تفيد هذه الكلمة المعنيين كليهما.

فسوّاها: سوّى الشيءَ: جعَله سويًّا.. أي لا داءَ به ولا عيبَ. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنكم لو أمعنتم النظر في نظام هذا العالم لعلمتم أنه لو لم يجعل السَّمْكَ، أي السماء الرفيعة، لظلّتْ هذه الأشياء كلها ناقصة. إن هذه

الرفعة هي التي قد سترت عيوب الأرض، فبدا كل شيء فيها مكتملا؛ فلو لم يجعل الله هذه الأجرام الكبرى من شمس وقمر ونجوم لاستحال استقرار الأرض. والحق أن الأرض قد أصبحت صالحة للعيش عليها نتيجة جاذبية الشمس والقمر والنجوم، ولولا هذه الأجرام في العلو لرأينا آلاف العيوب والخلل في هذه الأرض التي تخلو الآن من أي عيب وخلل بسببها، والتي تمدّنا بما نأكل ونشرب - بل لم تصلح لعيش الإنسان عليها أصلاً. فالسماء هي التي تستر عيوب الأرض، والأجرام هي التي تتسبب في طلوع النهار الذي نكسب فيه معاشنا، وهي التي تأتي بالليل الذي نستريح فيه ونستعيد قوانا وطاقاتنا من جديد.

إذًا، فإن من مِنَن الله العظيمة أنه خلق السماء ورفعها في سمت العلو. علمًا أن الفاء في قوله تعالى ﴿فَسَوَّاها﴾ للنتيجة والترتيب، والمعنى أنه تعالى رفَع سَمْكَ السماء جدًّا، وهكذا قام بتسوية الأرض، أي جعَلها بدون عيب وخلل. فالفاء إشارة إلى أنه لولا النظام السماوي فوق الأرض لما اكتمل نظامها.

لقد نبّه الله تعالى بهذه الآية إلى أن تخلّص الإنسان من العيوب منوط برفعته ووصوله إلى الله، لأننا نجد وكأن الدنيا مليئة بالوحوش رغم كثرة كبار الحرفيين والمهندسين والعلماء فيها؛ إذ لا يهتم هؤلاء بالأخلاق ولا بالروحانية، بل لا يوجد عندهم إحساس بحب الله تعالى، وإنما يتهافتون على مغريات الدنيا ولذاتها، كالحيوانات التي لا همَّ لها إلا الأكل والشرب. ولكن عندما يُبعَث أنبياءُ الله إلى هذه الدنيا نفسها التي تقدّم مشهدًا للوحشية والبربرية، فإنها تبدو جميلة جدًّا، وتعمر القلوب بالإخلاص، ويتجلى الوداد من العيون، وتلتاع القلوبُ بحب الله مع أنها لم تكن تهتم بحبه تعالى من قبل مطلقًا، وتبدو الدنيا صالحة للعيش. عندها تجد الفيلسوف الذي كان بعيدا عن الله ينجذب إليه تعالى ببركة نور الأنبياء، وتجد كبار الحرفيين والمهندسين والمخترعين الذين كانت طاقاتهم تُهدر مِن قبل، يسلكون الصراط المستقيم، ويتخلصون من شتى العيوب والنقائص.

فالله تعالى قد نبّه هنا أنكم إذا أردتم أن تروا الدنيا منـــزهةً عن العيوب والنقائص فلا تنكروا ضرورة السماء. فكما أن بقاء الأرض بدون السماء محال في العالم

الكبير (أي الكون)، كذلك من المحال أن يتجلى حسن العالم الصغير (أي الإنسان) ما لم ينـــزل وحي الله وكلامه من السماء، وما لم يُبعَث أنبياؤه الذين يعملون على إبراز هذا الحسن وتجليته. وحيث إنكم تعترفون أن الله تعالى قد خلق السماء لبقاء الأرض واستقرارها وتخلُّصها من عيوبها، فلا بد لكم من الاعتراف أيضًا بضرورة وحي الله وكلامه. فإنه تعالى إذا لم ينـــزل وحيه من السماء وإذا لم يبعث أنبياءه من عنده لما تخلصت الأرض من العيوب والنقائص والذنوب. إن كلام الله تعالى وبعثة أنبيائه هو الذي يستر عيوب الدنيا فتبدو جميلة رائعة.

بعد هذه الآية بيّن الله تفصيل هذه التسوية ونتائجها.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٠﴾

التفسير: أي جعَل ليلها حالكَ الظلام، وأخرج نهارها أو ضوءها أو ظهيرتها. ولا يعني ذلك أن الله تعالى قد حوّل شيئًا إلى آخر، بل المراد أنه تعالى جعل ليلها مظلمًا وجعل نهارها مضيئا.

لقد أرجع الله تعالى ضمير المؤنث (الهاء) في قوله ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ إلى السماء، مع أن الليل لا أثرَ له على السماء إنما يُظلِم الأرضَ حين لا تكون أمام الشمس، فالواقع أن الليل هو ليلنا نحن أهل الأرض، وليس ليلَ السماء، والضحى هو ضحانا وليس ضحى السماء؛ فلماذا أرجع الله الضمير إلى السماء أيضا؟

والجواب أن الشمس والقمر جزء من السماء، ولا يحل الليل إلا بمغيب الشمس التي هي في العلو، ولذلك نُسب الليل إلى السماء. ولا يعني هذا أن الليل يحدث في السماء، وإنما المعنى أن ظاهرة الليل نتيجة للنظام السماوي الذي يمد الأرض بالضوء، ولكن ضوء الشمس لا يصل إلى الأرض حينما لا تكون أمام الشمس، بل يخيم الظلام على الأرض. فالواقع أن الليل إنما نُسب إلى السماء لكونه ذا صلة بالنظام السماوي، وجزءاً منه. وكذلك يصح أن نقول "ضحى السماء"، لأن ضحانا أيضا منوط بالنظام السماوي.

والجواب الثاني أن السماء ليست شيئًا ماديا، بل يراد بها الفضاء العلوي، فيصحّ نسبةُ الليل والنهار إليها.

بيّن الله تعالى بقوله ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أنه جعل الليل مظلمًا والنهار مضيئًا، لينبّه إلى أن الليل زمنُ الخمول الذي تظلّ فيه قوى الناس مخفية ولا تنكشف ما لم يبدّد ضوء النهار ظلمة الليل. وبالمثل فإن كفاءات القوم تظل مكتومة ولا تتجلى ما لم يُبعَث نبي من عند الله تعالى. الدنيا لا تطّلع على كفاءاتهم الطبيعية ما لم تطلع شمس النبوة وتجلي على الدنيا كفاءاتهم المستورة وتكشف حقيقتهم. هذا هو القانون الإلهي الذي نجده عاملاً في العالمْين الروحاني والمادي كليهما. لقد نبّه الله تعالى بهذه الآية العربَ إلى هذا القانون، موضحًا لهم أنكم تظنون أنكم تتحلون بكفاءات عالية، ولا مثيل لكم في الشجاعة والكرم والوفاء بالعهد، ولكن ينبغي أن تدركوا أن هذه الخصال لا تتجلى جلاء كاملا ما لم يُبعث نبي. لا شك أن الناس يتحلون بتلك الكفاءات قبل بعثة نبي، ولكن نطاق عملهم يكون محدودًا جدًّا إذ لا يوجد عندهم نظام، فلا تنتفع الأمة بمجموعها بكفاءات أفرادها. وعندما يبعث الله تعالى نبيًّا ويقيم بين القوم نظاما جديدا تتجلى كفاءاتهم بحيث تنكشف أمام الدنيا قدرات كل شخص بشكل بارز. لا شك أنهم يتحلون بالكرم والسخاء وإكرام الضيف والشجاعة والوفاء، ولكن نطاق هذه الخصال الحميدة يكون محدودًا لا تتوجه إليها أنظار الدنيا. ولكن عندما يقيم الله تعالى نظاما جديدا على يد نبي وينخرط القوم في سلك الوحدة، تتجلى كفاءة كل إنسان بشكل بارز، فلا تملك الدنيا إلا الاعتراف بكفاءاتهم المدهشة. عند بعثة النبي يدخل سخاؤهم وجرأتهم وشجاعتهم وبسالتهم تحت النظام، وتصبح كفاءاتهم الشخصية ومحاسنهم الأخلاقية نموذجًا للقوم. إنهم يتحلون بهذه المحاسن من قبل أيضا، ولكن ظلمة ليل الجهل تحجبها، وعندما تطلع عليهم شمس النبوة تتوجه إليهم أنظار الناس أجمعين، وكل إنسان يرى محاسنهم التي لم يكن يراها أحد من قبل، وترتفع الصيحات بالثناء عليهم والإشادة بهم.

يشهد التاريخ أن العرب كانوا متحلين بخُلق الشجاعة والبسالة في أيام الجاهلية أيضًا، ولكن خُلقهم هذا كان مستورًا عن باقي الناس. لا شك أن العرب كانوا مدركين لخُلقهم هذا، ولكن متى كانت الشعوب الأخرى تعلم ذلك؟ كان العرب شجعانًا بلا شك، ولكن ظلمة الليل المخيم عليهم كانت قد حجبت خلقهم هذا، ولما وقع عليهم ضوء النور النبوي جلّى خُلُقَهم كما يُجلّي الطلاءُ لون الخشب. لقد تجلّت روح الشجاعة فيهم بحيث تجد تاريخ الدنيا مليئًا بقصص شجاعتهم.

وكذلك لا يسع أحدًا أن ينكر أن العرب كانوا متحلين بخلق الكرم والجود قبل بعثة النبي ﷺ، ولكن الإسلام علّمهم أن يعملوا بهذا الخُلق ويسخوا على الناس احتسابًا لله تعالى وابتغاءً لمرضاته. الفائدة الأخرى التي جناها العرب ببعثة الإسلام أن الدنيا لم تكن تعلم بخُلق الكرم والجود فيهم، ولكن حينما أضاء نور الإسلام وجوههم وبدّدت شمسه ظلمة الليل المخيم عليهم، ذاع صيت سخائهم في العالم أجمع بحيث لا تزال قصص كرمهم مسجلة في التاريخ.

والوفاء بالعهد أيضًا من أبرز الأخلاق الإنسانية، وقد حثّ عليه الإسلام كثيرا، ولكن من ذا الذي يمكنه أن ينكر تحلّي العرب بهذا الخُلق قبل الإسلام؟ الفرق الوحيد هو أن هذا الخُلق لم يتجلَّ قبل الإسلام الذي أبرزه وجلاّه فيهم. كان كل شخص منهم يتمسك بهذا الخُلق فيما يتعلق بشخصه فقط، ولم يكن يبالي به على المستوى القومي، ولكن الإسلام ألزمهم بالوفاء بالعهد في معاملتهم الشخصية والقومية كلتيهما، واعتبر إخلاف الوعد سببًا لسخط الله تعالى. والفائدة الأخرى التي جناها العرب بعد ظهور الإسلام أن الدنيا كلها اطّلعت على خُلقهم هذا. فكما أن الناس لا يميزون في ظلمة الليل بين الجميل والدميم، وإذا طلع النهار تجلى عليهم جمال الجميل ودمامة الدميم، كذلك كان العرب متحلين بخلق الوفاء ولكن العالم كان يجهل ذلك، فجاء الإسلام وجلّى خُلقهم أيما تجلية حتى تجد تواريخ العالم مليئة بقصص حرص العرب على الوفاء بالعهد.

كنا نقرأ في صغرنا واقعةً لبعض العرب في كتب قصص الأطفال بالإنجليزية، بأنه كان في إسبانيا تاجر اسمه يوسف، قُتل ابنه بيد شخص، وهرب القاتل ووصل

بالصدفة إلى والد القتيل يطلب منه أن يؤويه في بيته، لأن الشرطة تطارده. ولم يعرف يوسف أن ابنه قد قُتل، فخبَّأه في بيته، وبعد قليل جاء رجال الشرطة إليه حاملين جثة ابنه، وقالوا: لقد قتله شخص رأيناه يهرب بهذا الاتجاه، فهل تعرف أين ذهب؟ فمع أن يوسف كان قد رأى جثة ابنه وقد علِم أن الذي خبّأه في بيته هو قاتل ابنه، إلا أنه لم يرض بالغدر به، وردّ على رجال الشرطة ردًّا يئسوا به من مواصلة اللحاق بالقاتل، وظنوا أنه قد هرب إلى جهة أخرى. ولما رجعت الشرطة أخرج التاجرُ قاتلَ ابنه من ظهر البيت وقال: اهرب الآن، فإن الشرطة قد ذهبت.

هذه الواقعة مثال رائع للوفاء بالعهد، ولم يجد الأوروبيون نظيرها في بلدانهم، فاضطروا لتسجيلها في كتبهم رغم عدائهم الشديد للإسلام، ولا تزال مسجلة في كتبهم مع أنها قصة مسلم عربي.

إذًا، كان العرب متحلين بخُلق الوفاء بالعهد بحيث لا يسع أحدًا إنكاره، إلا أن خلقهم هذا تجلى بظهور الإسلام بصورة بارزة جدًا. كما لم يكن العرب متحلين بهذا الخلق بحيث تتوجه إليهم أنظار العالم، ولكن لما وقع عليهم نور النبي ﷺ تجلى حسنهم هذا أمام العالم كله، كما انكشفت محاسنهم الأخرى شأن الأشياء التي لا تبقى خفية إذا ما وقع عليها ضوء الشمس. فالله تعالى قد نبّه هنا العرب بأنهم يتحلّون فطريا بكفاءات ولا شك، ولكن عليهم أن يعلموا أنه لا بد من ضوء النهار لانكشافها. فإذا لم يسيروا تحت هذا الضوء، ظلّت كفاءاتهم ومحاسنهم مستورة عن أعين العالم. أما إذا وقع عليهم نور المصطفى ﷺ جلّى كفاءاتهم وأبرزَها بحيث صوّب كل شخص بصره إليهم، واطلعت الشعوب الأخرى على محاسنهم.

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣٢﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

بعدَ: ضدُّ "قَبْلُ"، وقد يرِدُ بمعنى "مع". (الأقرب)

دحاها: دحا الشيء: بسَطه (الأقرب). دحا الأرضَ: أوسعَها. (اللسان)

التفسير: إن (بعد) في قوله تعالى ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ قد يفيد المعنيين المذكورين أعلاه: أي ضد قبل، ومع. والمراد أن الله تعالى مهّد الأرض بعد أن خلق النظام الشمسي، أو بدأ تمهيد الأرض وهو يخلق النظام الشمسي. والمعنى الثاني هو الأولى عندي.

وبسط الأرض لا يعني أن الله جعلها كفراش، بل يعني أنه جعَلها صالحة للعيش.

إننا لسنا ملزمين برأي علماء الجيولوجيا، إلا أن بحوثهم تصدّق القرآن تماما بهذا الشأن. لقد توصلوا إلى أن الأرض كانت شديدة الحرارة في البداية، ومِن أبخرة هذه الحرارة تكوّنَ الماء، ثم خرجت الحمم من باطن الأرض وكوّنت الجبال. وخروج الحمم أدى إلى تشكُّل الجبال من ناحية، وانخفاض سطح الأرض من ناحية أخرى، كما يحدث عند الزلازل عادة حيث يرتفع سطح الأرض من جانب وينخفض من آخر، وتكونت حفر كبيرة في الأرض. وحيث إن الماء يجري إلى المكان المنخفض؛ فلقد تجمَّعَ الماء في الأماكن المنخفضة من الأرض حين ارتفع سطحها في الأماكن الأخرى. وليست البحار إلا تلك الحفر الكبيرة أو الأماكن المنخفضة التي خرجت منها الحمم وشكلت جبالاً. وحينما تشكلت الجبال في جانب، وانحسر الماء في المنخفضات، صار سطح الأرض مستويًا صالحًا لعيش الإنسان عليها.

ولكنه أمر ظنّي على كل حال، إذ قد يظهر غدًا بحثٌ يبطله.

كذلك يقدّم العلماء عن خلق الأرض نظرية تقول إنه كانت ثَمّةَ كُرةٌ ملتهبةٌ شبهُ سائلة، ومن شدة دورانها انفصلت وتناثرت عنها تلك الأجرامُ التي نطلق عليها أجرام النظام الشمسي بما فيها الأرض، واتخذت شكل كُرات حين بردت.

باختصار، قد أحدث الله تعالى من خلال النظام الشمسي هذه التطورات التي أدت إلى صلاح الأرض للعيش عليها، ولولا النظام الشمسي لم تصلح للعيش. وكما أن النظام الشمسي ضروري للنظام الأرضي كذلك لا يكون النظام الجسماني للناس ذا قيمة دون قيام النظام الشمسي الروحاني؛ إذ لولا النظام الشمسي المادي لما تكونت

الجبال، ولما تكونت الحفر التي تحولت إلى البحار، ولما صلحت الأرض لعيش الإنسان عليها. فلا قيمة للنظام الجسماني للإنسان ما لم يكن هناك نظام شمسي روحاني يطرد من النفس الإنسانية ما فيها من حمم العادات النارية، ويجعلها مستوية موزونة. إن النظام الشمسي الروحاني هو الذي يكبح غيظ الإنسان من ناحية، ومن ناحية أخرى يجنّبه اللينَ الزائد والتسيُّبَ وعدمَ الحياء، ويجعله بتعليمه المعتدل عضوًا مفيدا في المجتمع. وبتعبير آخر كما أن الله تعالى يُخرج من باطن الأرض الحمم التي تتحول جبالاً، كذلك فإن الدين يخفّف مِن خلال بعض القيود ما في الطبيعة الإنسانية من غضب وهياج وانتقام، ولكنه لا يريد إخماد هذه النار والحرارة في باطن الإنسان كليةً، فيأمره أيضًا بما يجنّبه من الديّوثية وعدم الحياء وينفّره من الكسل والغفلة. وبعدما تتخلص الفطرة الإنسانية من كل فساد وتتحلى بكل ما هو خير وصالح، عندها يصبح هذا النظام الجسماني للإنسان ذا قيمة. ولكن إذا لم يكن على هذا النظام الإنساني الجسماني نظامُ السماء الروحانية الذي يكبت جماحَ الغرائز الحيوانية في النفس الإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى يجنّبها الكسلَ والغفلة، فمن المستحيل أن يكون النظام الإنساني ذا وزن أو قيمة. إن النظام السماوي هو الذي يتيسر بقيامه الغذاءُ والماء الروحاني للناس، ويخرج من بينهم أناس كالجبال التي تتسبب في استقرار الأرض.

مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

الأنعام: جمعُ النَعَم.. وهي الإبل والشاءُ، وقيل: خاص بالإبل. وفي "المصباح": النَّعَمُ: المالُ الراعي، وهو جمعٌ لا واحد له من لفظه -كلفظ النساء حيث لا مفرد له من لفظه، بل مفردها امرأة- وأكثرُ ما يقع على الإبل. وقيل: النَّعَمُ الإبل خاصة، والأنعامُ: ذواتُ الخُفّ والظلف، وهي الإبل والبقر والغنم، وقيل: يُطلَق الأنعامُ على

هذه الثلاثة، فإذا انفردت الإبلُ فهي نَعَمٌ، وإن انفردت الغنم والبقر لم تُسمَّ نَعَمًا. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن نظام الكون ليس لمنفعتكم فقط، أيها البشر، بل إنه نافع لأنعامكم أيضًا، حيث يمدّها الله تعالى بما تحتاج إليه لحياتها وراحتها. لقد نبه الله تعالى بضرب هذا المثال من النظام المادي إلى أنه لا يهتم بحاجات الحيوانات في نظام العالم المادي فقط، بل في نظام العالم الروحاني أيضا. لقد ركّز القرآن على هذا الموضوع بشكل خاص، وأوصى المؤمنين بإعطاء كل ذي حق حقه، فقال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:٢٠).. أي في أموال المؤمنين حق للذين يسألون وللذين لا يستطيعون السؤال، كإنسان قليل الكلام أو شعوب ضعيفة منهارة أو حيوانات. وقد حثّ النبي ﷺ على هذا الأمر في أحاديثه، فقال إن امرأة دخلت الجنةَ لأنها سقت كلبًا غلَبه العطش. (مسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم). وقال ﷺ: ارحموا الحيواناتِ لأن الله تعالى قد جعلها تحت رعايتكم.✪

إذًا، فإن التعليم الروحاني لا يضمن السلام للناس فحسب، بل للحيوانات أيضًا. وفي العالم المادي أيضًا قد جعل الله نظامًا لإطعام الحيوانات، فإن الغلال تنفع الإنسان، بينما ينفع التبنُ الحيواناتِ. إنني أفكّر دائمًا أن الزروع لو أنتجت الحبوب والغلال فقط لقتَل الناس الحيواناتِ جوعًا. ولكن انظرْ إلى عجائب قدرة الله كيف جعل بطن الإنسان صغيرا وبطن الحيوان كبيرا، وجعل الحبوب قليلة، والتبن كثيرا. ولو كانت هناك غلال فقط لأكلها الإنسان ومات الحيوان جوعا. والحال نفسه ينطبق على النظام الروحاني أيضا، فلولا أن الله تعالى أقام نظامًا روحانيا من عنده لهضَم الأقوياء حقوق الناس هضمًا، وسلبوا الفقراء سلبًا، كما يحصل اليوم حيث

✪ أقرب ما وجدناه بهذا المعنى هو الآتي: عن قُرّة بن إياس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة فأرحمُها؟ فقال: "والشاةُ إنْ رحمتَها رحمك الله"(مسند أحمد: حديث قرة، والمستدرك: ذكرُ قرة). وقيل لرسول الله ﷺ: إنّ لنا في البهائم لأجراً؟ قال: "في كل ذاتِ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ." (مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم)

تريد ألمانيا الاستيلاء على ثروات الدنيا كلها، بينما تنوي إنجلترا وأمريكا أن تكون ثروة العالم كلها في أيديهما. لا شك أن هؤلاء يعطون الآخرين حقوقهم، ولكن بصفتهم حلفاء وأصدقاء، لا بصفتهم أناسًا. ولكن النظام الذي يقيمه الله تعالى في الدنيا يراعي حقوق الجميع، ويضمن لكل ذي حق حقه؛ صغير وكبير، غني وفقير، مدير وعامل.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

الطامّة: طَمَّ الماءُ: غمَر. طمَّ فلانٌ الإناءَ: ملأه. وطمَّ الشيءُ: كثُر حتى علا وغلب. وطمَّ الأمرُ: تفاخَمَ. والطامّة: الداهيةُ تغلِب ما سواها، قيل لها ذلك لأنها تطُمّ كلَّ شيء، أي تعلوه وتغطّيه. (الأقرب)

التفسير: لقد قدّم الله تعالى هنا دليلا آخر على الإحياء الروحاني في الدنيا وعلى البعث بعد الموت، فقال كيف لا يقدر الله على أن يبعثكم بعد الموت وقد قدر على إحداث هذا الانقلاب الروحاني العظيم الذي يفوق تصور الإنسان وقياسه؟ وكيف لا تدركون برؤية هذا الانقلاب أن ما يقوله الله تعالى عن غلبة الإسلام حق وصدق أيضا؟

قبل عدة آيات قال الله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.. أي أننا سنسوق الكافرين إلى ساحة القتال بغتةً ونفضحهم هناك، وكان هذا إشارة إلى غزوة بدر التي قد قال الله للكفار بشأنها: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، وسيتلوها المزيد من الحروب، كما أشار إلى ذلك من قبل بقوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾.. أي سندفعهم إلى حرب تلو حرب؛ أما الآن فقد حذّر الله تعالى أنه بعد هذه الحروب المتتالية سيأتي يوم الطامّة الكبرى.. أي فتح مكة؛ ويومَ الطامّة الكبرى ستنكشف عليكم حقيقة أعمالكم جليًّا.

لقد اتضح من هنا تمامًا أن الحديث هنا هو عن عذاب الدنيا لا عن القيامة، لأن الله تعالى يذكر هنا أن هذا العذاب سينـــزل تدريجيا، حيث قال سيحصل كذا ثم كذا ثم ستأتي الطامة الكبرى، أما القيامة فقد بين الله تعالى أنها ستأتي بغتة. فثبت أن الراجفة والرادفة والطامة الكبرى وغيرها من المفردات إشاراتٌ إلى العذاب الذي كان سيحلّ بالكفار في الدنيا. وبالفعل وقعت أولاً معركة بدر، ثم ردفها حرب بعد حرب، وفي النهاية كان فتح مكة وغلبة الإسلام.

أما إذا اعتبرنا هذه الآيات تتحدث عن الآخرة فنقول إنها إعادة للموضوع السابق وقد أطلق الله هنا الطامة الكبرى على اليوم الذي سيأتي بعد وقوع أنواع العذاب، أي يوم القيامة الذي هو يوم الفصل الأخير، والذي يبلغ فيه العذاب ذروته.

بيد أن الآية تشير، أساسًا، إلى عذاب الدنيا.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٦﴾

التفسير: أي في ذلك اليوم يتذكر المرء أعماله ويقول نادمًا: لـــمَ فعلتُ كذا ولــمَ لم أفعل كذا. من طبيعة الإنسان أنه إذا رأى مآل سيّئته وأدرك أن العقاب موشك، قال في نفسه: لو فعلت كذا لحصل كذا، ولو لم أفعل كذا لم يحصل كذا. وقد رسم الله تعالى هنا هذا الجانب من الفطرة الإنسانية. وعندي، ليس في الدنيا من لا يفكر هكذا حين يرى عاقبة عمله؛ سيئةً كانت أو حسنة. فمثلا حين يفشل طالب في الامتحان يقول في نفسه: لو لم أضيّع وقتي في اللعب لما فشلت، وحينما ينجح غيره يقول: لو لم أضيع وقتي في اللعب لنجحت بعلامات أفضل. إذًا فإن الإنسان يتذكر حتمًا أعماله السابقة عند ظهور النتيجة النهائية. يقول إذا فشل متحسرًا: ليتني لم أعمل ما سبّب فشلي، ويقول إذا نجح: لو ضاعفت جهودي لكان نجاحي أكبر. لقد رسم الله تعالى هنا هذه الفطرة الإنسانية فقال ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.. أي عندما يصدر القرار النهائي بين الإسلام والكفر يوم فتح مكة سيتذكر كل إنسان أعماله، ويرى بأمّ عينيه مصيره وفقًا لسلوكه تجاه الإسلام. يمكن أن تتصور حالة الكافرين والمشركين

الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ أذًى شديدًا والذين سمعوا إعلانه يوم فتح مكة أن مَن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن. لا شك أنهم كانوا يقولون في أنفسهم وهم قابعون في بيوتهم: لو لم نُعادِ الإسلام لم نختفِ اليوم في بيوتنا هكذا، بل كنّا نركض بخيلنا في شوارع مكة.

ذهب عمر رضي الله عنه مرة إلى مكة حاجًّا أيام خلافته، فجاءت للقائه مجموعة من كبار رؤسائها الذين كانوا أشرف نسبًا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أيضا، إذ كانوا ينتمون إلى أشرف عائلات مكة وأشهرها. ولما كان الخليفة يعلم أُسرهم فظن هؤلاء أنه سيكرمهم إكراما خاصًا طبقًا لتقاليدهم القبلية. وبينما هم يحاورونه حضر مجلسه مسلم حبشي كان عبدًا في الماضي وكان رؤساء قريش يجرّونه في شوارع مكة. فجاء وسلّم، فأمر عمر رضي الله عنه هؤلاء الرؤساء بإفساح المجال له، فتأخروا قليلاً، فقرّبه عمر إليه وأخذ يحدّثه. وبينما هم في ذلك إذ جاء مسلم آخر من أوائل المسلمين، ثم جاء ثالث ورابع، حتى حضر سبعة منهم واحدًا بعد الآخر. ومن عجائب القدر أن هؤلاء كلهم كانوا عبيدًا لقريش في الماضي، ولعل الله تعالى أراد أن يلقّن هؤلاء الرؤساء درسًا، فكلما جاء أحد هؤلاء المسلمين الأوائل طلب عمر من الرؤساء بإفساح المجال له وقرّبه إليه، فما زالوا يتأخرون في كل مرة حتى وصلوا إلى آخر المجلس في مكان الأحذية. وبعد قليل خرجوا من مجلسه، وقالوا فيما بينهم: أرأيتم ما لقيناه اليوم من ذل وإهانة في مجلس عمر؟ كنا نُكرَم في بلاط الملوك، ولكنه فضّل علينا اليوم هؤلاء العبيد الذين كانوا خدمًا لآبائنا، فكلما أتى أحدهم أمرنا أن نفسح له المجال، حتى وصلنا مكان الأحذية! فيا للعار الذي لحق بنا اليوم! فقال أكثرُهم ذكاءً: لا غبار على ما تقولون، ولكن علينا أن نرى من المسؤول عن ذلك ومن يقع عليه اللوم، عمر أم آباؤنا؟ فحينما أعلن النبي ﷺ دعواه صدّقه هؤلاء العبيد، وانبرى آباؤنا لمعاداته، فعارضوه معارضة شديدة. فإذا كان عمر رضي الله عنه قد أكرمهم اليوم وقرّبهم إليه وأبعدنا عنه، فقد أصاب، لأنهم أحقّ بالجلوس في صدر المجلس، ونستحق نحن أن نؤخَّر، لأن آباءنا ناهضوا النبي ﷺ وظلوا محرومين من الإيمان به ﷺ. فقالوا: لقد صدقتَ، ولكن هل من سبيل لإزالة هذا العار؟ وهل من طريق للتخلص من هذا الخزي والهوان؟

فتشاوروا و لم يدروا ما السبيل إلى ذلك، فقالوا هلمّوا نسأل عمر ﵁. فرجعوا إليه وقد انفضّ الناس من عنده، فسلّموا وجلسوا وقالوا: أمير المؤمنين، رأيتَ ما لقيناه اليوم من الخزي و لم نرجع إليك إلا لنتحدث بشأنه. فقال لهم عمر: أعتذر لما حصل، ومتأسف لما أصابكم، ولكني لم أملك خيارًا آخر، بل كنتُ مضطرًا لذلك. إن هؤلاء قوم كان الرسول ﷺ يُكرمهم، وما ينبغي لي إلا أن أكرم الذين كان سيدي يكرمهم، وأفضّلهم على غيرهم. فقالوا: لقد فهمنا أنك أصبتَ فيما فعلت، إنما نسألك هل من سبيل لإزالة هذا العار؟ فأرشِدْنا إليه، لأنا لا نرضى بوصمة العار هذه.

كان آباء هؤلاء الرؤساء من أقارب عمر ﵁ وأصدقائه ومعارفه، وكان على علم ومعرفة بتلك الهيبة والمجد والعزة التي كانت تتمتع بها أسرهم العريقة، وكيف كانوا يعاملون المسلمين باحتقار وازدراء. فتذكَّر عمر ﵁ مجدهم الغابر، واغرورقت عيناه وغلبت عليه الرقة، فلم يستطع أن يجيبهم بلسانه، وإنما أشار بيده ناحية الشام، وكان يقصد أن المسلمين خائضون معركةً حامية ناحية الشام لنصرة الإسلام، فإذا كنتم تريدون إزالة العار، فاذهبوا واشتركوا في تلك الحرب، وضحُّوا بأنفسكم في سبيل الله. ففَهِمَ الفتية قصْد عمر ﵁، فخرجوا من عنده، و لم يرجعوا إلى بيوتهم، بل توجهوا كلهم إلى الشام. ويخبرنا التاريخ أنه لم يعد منهم حيًّا أحد، بل استُشهدوا جميعا في تلك المعركة.

هذا ما يؤكده الله تعالى بقوله ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.. أي سيفكّر الإنسان يومئذ فيما قدَّمته يداه من أعمال. الواقع أن الصحابة أنفسهم لما رأوا تلك الانتصارات والترقيات فلا بد أنهم اعتبروا التضحيات والصدقات التي كانوا يستعظمونها من قبل ضئيلةً، وقالوا في أنفسهم مرارًا: ليتنا كنّا أكثرَ تضحيةً وإخلاصا حتى نكون اليوم أكثر ثوابًا!

إذًا، فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ يعني أن كل إنسان يقول يومئذ: ليتني لم أفعل ما فعلت، أو ليتني ضاعفت جهودي.

أما نظرًا إلى القيامة، فستعني هذه الآية أن المرء حين يرى ما عملته يداه في الدنيا من أعمال يقول بحسرة: ليتني لم أقترفها، أو يقول فرحًا: لقد أحسنتُ صنْعا.

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

الجحيم: جحَم النارَ: أوقدَها. والجحيمُ: النارُ الشديدةُ التأجّجِ؛ كلُّ نار عظيمة في مَهْواةٍ فهي جحيم؛ المكانُ الشديدُ الحرِّ؛ اسمٌ من أسماءِ جهنم. (الأقرب)

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ تقديرُه: "لمن يراه"، والمراد ستُقرَّب الجحيم إلى من يراها.

ولكن هذا لا يعني أن المبصر هو الذي تُقرَّب إليه الجحيم ليعذَّب فيها، أما الكفيف فلا يدخلها. إذًا، فعلينا أن نفسر الآية بمفهوم آخر.

ولها عندي مفهومان: أوّلهما أن الجحيم ستقرَّب إلى من يراها، أي يستحق أن يلقى فيها، أما المؤمنون فلن يروها البتة. ذلك لأنه كان من المحال أن يرى الصحابة جهنم التي كان الكفار يرونها. كلا، بل كانوا يرون جنتهم في نفس ما يراه الكافرون جحيمًا. وهذا يعني أن الفعل الواحد كان يُري الكافرين جحيمًا ويُري المؤمنين جنةً. فعندما دخل الصحابة مكة منتصرين وممتطين جيادهم ما كان لهم أن يشعروا بالجحيم التي كان الكافرون يحترقون فيها. كان الحادث واحدا، ولكنه كان للكافرين نارًا وللصحابة جنة. إذًا، فالمراد من هذه الآية أن الجحيم ستُقرَّب إلى من يستوجبها، أما غيرهم فلن يراها أبدًا.

والمفهوم الثاني هو أن الرؤية هنا ليست مادية، إنما هي رؤية قلبية. ذلك أن الأشياء المادية يراها كل إنسان، فمثلاً إذا كانت ثمة نار مشتعلة فسيراها كل إنسان حتى المحروم من البصيرة الروحانية؛ أما الجحيم الروحانية فلا تُرى أحيانًا مع أنها تكون موجودة. وعليه فسيعني قوله تعالى ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ - بالنسبة إلى هذه الدنيا - أن مَن له عينان سيرى هذه الجحيم، ومن ليس له عينان فلن يراها؛ لأن رؤية هذه الجحيم تتطلب بصيرة روحانية. فمثلاً حينما يبعث الله تعالى نبيًّا يزداد عدد المؤمنين به، وينقص عدد الكافرين به شيئًا فشيئًا، فيرى صاحب البصيرة أن يد التأييد الإلهي تعمل وراء فريق، والفريق الآخر محروم من نصرته وتأييده، ولكن الذي لم يُعطَ البصيرة

الروحانية يقول: هذا ليس بأمر ذي بال، وليس فيه أي معجزة، لأن الأمم تتقدم وتتأخر في الدنيا دائما. فبرغم أن الناس يرون أن هذا الفريق متجه إلى الجحيم، ولكن هذا الفريق نفسه لا يرى أنه متجه نحوها.

إذًا، فقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ يعني أن صاحب البصيرة الروحانية وحده سيرى هذه الجحيم قبل أوانها. ورد في التاريخ أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحًا أوصى أصحابه كثيرا أن لا يتصرفوا بكبرياء ولا خيلاء، ومع ذلك قال أحد القادة المسلمين اليوم ستُستحلّ الكعبة، وسنذيق الكافرين نكال فظائعهم التي صبّوها على المسلمين. فبلغ النبيَّ ﷺ ذلك، فعزل هذا القائد فورًا، وعيّن ابنَه مكانه. (السيرة النبوية للزيني الجزء الثاني: غزوة الفتح الأعظم ص ٦٢). وليس ذلك إلا لأن النبي ﷺ رأى أن الجحيم التي قد سُعِّرت للكافرين اليوم تفوق طاقتهم، فأراد أن يخفّفها عليهم قدر المستطاع، فأذّن في أهل مكة: مَن أغلق عليه بابه فهو آمن (السيرة لابن هشام، الجزء الرابع: ذكرُ الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة). لقد أدرك النبي ﷺ أنهم لو خرجوا من بيوتهم فسيتأذّون جدًّا برؤية الجيش المسلم الزاحف في شوارع مكة.

ونظرًا إلى هذا المعنى الأخير، يشمل قوله تعالى ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ المؤمنين والكافرين جميعًا، أما نظرًا إلى المعنى الأول فلا يشمل إلا الكافرين. الواقع أن الرؤية أنواع؛ منها الرؤية المادية الحسية، والرؤيا القلبية العرفانية. بالنسبة إلى الرؤية المادية فالمعنى أن الكافرين وحدهم سيرون هذه الجحيم كونهم يستوجبون دخولها، وبالنسبة للرؤية القلبية فالمعنى أن المؤمنين أيضا يرون هذه الجحيم بإدراكهم ما يعانيه الكافرون من عذاب.

وكما بيّنتُ من قبل أن من معاني قوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ أنها ستُكشف أو تُرى لمن يستوجبها، وهذا أيضًا يؤكد أن هذه الآية تتحدث عن الجحيم الدنيوية؛ لأن الجحيم الأخروية ستتراءى للجميع، فلا داعي أن يقال إنه سيراها من يستوجبها فقط.

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٨﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

المأوى: اسمٌ للمكان الذي يأوي إليه. (المفردات)

التفسير: أي مَن تمرَّدَ وفضّل الحياة الدنيا غير مبالٍ بالآخرة سيرى اليوم الذي ستكون فيه الجحيم هي المأوى له.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بمفهومين: أي مَن خافَ مقامَ ربه وعظمته، أو مَن خافَ وُقوفه أمام الله تعالى. والحق أن هذين الأمرين كليهما يجنّبان المرءَ الإثمَ؛ فإن الخوف من مقام الله وعظمته يجنّب المؤمنين من الطراز الأول ارتكابَ المعاصي، أما خوف الوقوف أمام الله تعالى كمجرم فيتسبب في نجاة المؤمنين العاديين. لا شك أن المجرم الكبير لا يبالي بأحد، ولكن المجرم العادي يخاف الوقوف والسؤال أمام الله تعالى. أما المؤمن الكبير فيخاف مقام الله وعظمته مدركًا أن عليه التقدم باستمرار، لأن ربه لا يرضى له بالدرجة الدنيا، بل يريد أن يظل عبده في الارتقاء في سلّم الحب والقرب منه تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. ومن معاني الهوى: أماني النفس، والسقوط. وحيث إن الله ﷻ أعلى وأرفع، واتباع الإنسان أهواءَ نفسه يؤدي إلى سقوطه، فمن اتبع هوى النفس خرَّ وسقَط وابتعدَ عن الله تعالى كل البعد.

الغريب أن الله تعالى قد استعمل هنا، على سبيل التلازم، كلمةً تكشف حقيقة البُعْد عن الله تعالى، فإن الأهواء لا تعني أماني النفس فقط كما بَيّنتُ، بل تعني أيضًا الخرور

والسقوط، وهكذا قد بين الله تعالى أن اتباع أهواء النفس يُسقط الإنسان، وحيث إن الله تعالى أعلى وأرفع جدًّا، فيبتعد الإنسان عندها عن طرق قرب الله تعالى.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٣﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

الساعة: القيامةُ، وقيل: الوقتُ الذي تقوم فيه القيامة؛ عبارةٌ عن جزء قليل من النهار أو الليلِ؛ البعدُ؛ المشقّةُ؛ أيُّ وقت من الليل أو النهار. ومن معاني الساعة: الهالكون، وهي في هذه الحالة جمعُ سائعٍ. (الأقرب)

مُرْساها: المرسى اسمُ مفعول أو ظرفٌ مِن أَرْسى السفينة: أوقفَها على الأنجر. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى وقوعها. (الأقرب)

فيمَ أنت مِن ذكراها: أي ما علاقتُك بالحديث عن قيامها ووقوعها؟

التفسير: لقد أوضح الله تعالى هنا للكافرين أن تحديد موعد تحقُّق الأنباء ليس بضروري، إذ لا علاقة له بالقضية. ما دام العذاب سيحيط بكم حتمًا، فنـــزوله قبل يومين أو بعد يومين لا يقدح في النبأ. لا شك أن هناك حِكمًا في تأخير تحقُّق النبوءة، وقد بيّنها الله تعالى في موضع آخر في القرآن، ومع ذلك لا يزال العدو يصرّ على قوله: يجب تحديد موعد تحقُّق النبوءة ويجب أن نُخبر بموعد حدوثها، فيقول الله تعالى لهم: ما لكم ولموعدها؟ عندما تتحقق النبوءة فكل واحد منكم سيرى أن ما قال الله قد تحقق تمامًا. ولو أُخبرتم بوقت تحققها، فماذا ينفعكم هذا؟

من المدهش أن القرآن يخبر هنا أن الكافرين لم يبرحوا يطالبون بتحديد موعد تحقُّق هذه الأنباء، فأجابهم الله تعالى أن ذلك ليس ضروريا؛ إذ لن ينفعكم هذا لأنكم هالكون حتمًا، سواء بعد أيام أو بعد سنوات.. ومع ذلك نجد المعارضين لا يزالون يقولون متى يأتي العذاب الذي تعدوننا به؟ لقد اعترض معارضو المسيح الموعود عليه السلام مرارًا بأنه يتنبأ بشكل مبهم ولا يحدد موعد تحقق الأنباء، مع أن الإجابة على هذا السؤال لن تُجديهم شيئًا. إنما النبأ الحقيقي الذي يدلي به النبي هو أنه سينتصر حتمًا،

وأن معارضيه سينهزمون حتمًا، ولا حاجة لتحديد موعد معين لتحقق هذه النبوءة، كما ليس فيها أدنى إبهام. إن المعارضين يرون بأم أعينهم أنهم سائرون إلى الهلاك، وأن أتباع النبي سائرون نحو النصر، ومع ذلك لا يزال المعارضون يقولون متى يتحقق هذا الوعد؟ فيرد الله عليهم ويقول: ما لكم ولموعده؟ إنكم هالكون حتمًا. لو قيل لكم إنكم ستهلكون بعد أربع سنين مثلا، فهل ينفعكم هذا شيئا؟ عندما يحيط بكم الهلاك سيتجلى لكم صدق النبوءة تلقائيا. فقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾.. أي يسألك الناس يا محمد عن نبوءاتك المتعلقة بغلبة الإسلام وهلاك الكفر، ويقولون: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.. أي أَخبرْنا متى ترسو سفينتك الضخمة التي تأتي لتدمير الكفر؟ علمًا أن قولهم: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ تفخيم في ظاهره، ولكنه تحقير في حقيقته؛ إذ يقصدون به: متى تفجّر هذه الفُقاعة؟ فيردّ الله تعالى عليهم: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾.. أي ما لَكَ ولموعد هذه الساعة؟ إنها ما دامت ستوصلكم إلى الله تعالى فلا فرق لو تقدمتْ يومًا أو تأخرت، فالإصرار على تحديد موعدها خطأ واضح. إن الساعة ستأتي حتمًا لتأخذ الناس إلى الله تعالى؛ بعضهم مجرمين وبعضهم مؤمنين. فأين الإبهام في هذا الأمر العظيم؟ وما الحاجة إلى تحديد موعده؟ إننا نخبركم أنه سيأتي يومٌ يقف فيه الناس جميعًا أمام الله تعالى؛ بعضهم مجرمين وبعضهم مؤمنين.. بعضهم لينالوا الثواب، وبعضهم ليذوقوا العذاب، فهل تبقى بعد ذلك حاجة لتحديد موعد هذا النبأ العظيم؟ عندما يقع هذا الخبر العظيم ستعرفون صدقه تلقائيا.

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَـٰهَآ ﴿٤٥﴾

التفسير: هذه الآية تكشف عبثية المطالبة بتحديد موعد وقوع الأنباء، حيث بين الله تعالى أنه لا فائدة في معرفة موعدها. إن الهدف الأساس هو أن يظهر جلال الله، وسيظهر يومًا ما، وستأخذكم تلك الساعة إلى الله تعالى. هذا هو الأمر المهم، وقد بيّنّاه. ما دمنا قد أنبأناكم – مثلاً – أن محمدًا ﷺ سيدخل مكة فاتحًا في يوم من الأيام، وسينتصر المسلمون ويهلك الكافرون، وينال هؤلاء العبيد المعرَّضين للاضطهاد عزةً

وكرامة، فما قيمة مطالبتكم تحديد موعد لوقوع هذا النبأ؛ وقولِكم أيحدث هذا غدًا أم بعد غدٍ، هذه السنة أم بعدها؟

أما إذا اعتبرنا هذه الآية تتحدث عن الآخرة فالمعنى أن خيوط القدر بيد الله تعالى، وأن جميع الأسباب في قبضته وتصرفه، وسيُظهرها متى شاء، أي أن كل ما يحدث إنما يحدث بمشيئة الله وإرادته لا دخل للعباد فيه، فما دام كل شيء بيد الله تعالى فسوف يأتي بالآخرة متى شاء. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(لقمان:٣٥).. أي لا أحد سوى الله تعالى يعلم بموعد القيامة. وهذا ما أكده الله تعالى هنا بقوله ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾.. أي نحن الذين سنُحدث كل هذه التطورات، ولا دخل لكم فيها.

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٦﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

مُنذِر: أنذرَه بالأمر: أعلمَه وحذّره مِن عواقبه قبل حلوله؛ خوَّفه في إبلاغه. (الأقرب)

عشيّة: العشيّة هو العَشِيُّ وهو: آخرُ النهار؛ وقيل: مِن صلاة المغرب إلى العَتمة. (الأقرب)

التفسير: أي إنما أنت مُحذِّرٌ لمن يخاف العذاب القادم، غير أننا نخبرهم أنه حين يجيء سيصبحون كأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.. أي يوم يأتي ذلك العذاب ستبدو لهم حياتهم الماضية كلها كبضع ساعات. وهذا إشارة إلى شدة العذاب، لأن المرء إذا أصابه أذى شديدٌ بدتْ له ساعاتُ راحته قصيرةً جدًّا، وظنَّ أنه باقٍ في هذا الأذى دائمًا، ولم تتيسر له الراحة أبدًا. فإذا جاء ذلك العذاب سينسى الكافرون كلّ ما لهم من عظمة وشوكة، ويظنون أن زمن رقيهم لم يكن سوى سويعات.

وبالفعل ترى أن الناس حين يتحدثون عن تاريخ العرب يذكرون أحداث الجاهلية في بضع صفحات، أما تاريخهم ما بعد الإسلام فيستفيضون فيه ويملأون آلاف

الصفحات في بيان وقائع النبي ﷺ والمسلمين. فمع أن زمن الجاهلية أطول كثيرًا إلا أن أحداثها انكمشت عند ظهور الإسلام واختفت وقائعها عن الأعين، ولا يتعدى نظر الناظر إلى تاريخ العرب العهدَ الإسلامي إلى ما قبله. إذًا، فالله تعالى ينبه الكافرين هنا بأنه كما أن العشيّة أو الضحى زمن قصير جدًّا مقارنة بحياة الإنسان، كذلك سينمحي تاريخكم مقابل تاريخ الإسلام، وستصبح عظمتكم ومجدكم قصصًا تُروى، وينسى الناس أسماء أجدادكم وأعمالهم. وهذا يماثل إلهامًا للمسيح الموعود عليه السلام قال الله له فيه: "ينقطع آباؤك ويُبدأ منك" (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ٧٩).. أي سينقطع ذكر آبائك، ويُبدأ تاريخ أسرتك منك. وبالفعل ترى أن المرء حين يكتب تاريخ عائلته عليه السلام يُنهي ذكر آبائه جميعًا في بضع صفحات، ويبدأ التاريخ الأصلي بذكر المسيح الموعود عليه السلام. كان آباؤه ذوي عزة ونفوذ في زمنهم، ولكن الله تعالى قرر أن يبدأ تاريخ المستقبل من ذكر المسيح الموعود عليه السلام ويقطع ذكر آبائه. وهذا ما يؤكده الله تعالى بقوله ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.. أي سنجعل تاريخهم ضئيلاً حقيرًا، ونعظّم محمدا ﷺ حتى يبدو تاريخ العرب كلهم مقابله ﷺ كعشية أو ضحاها.

وضمير المؤنث في ﴿ضحاها﴾ يعود إلى ﴿عشيّة﴾. وهنا ينشأ سؤال: إن الضحى يأتي قبل العشيّة، فلماذا قدّم الله هنا العشيّة على الضحى؟

سيقول الذين تنقصهم المعرفة الحقيقية بحكمة القرآن الكاملة وفصاحته التي تفوق تصوُّر البشر أن الله تعالى قد قال: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ من أجل السجع؛ إذ انتهت الآيات السابقة بكلمات: ﴿مُرساها﴾، ﴿ذِكراها﴾، ﴿منتهاها﴾ و﴿يخشاها﴾، ولكن هذا الجواب لا ينسجم مع فصاحة القرآن وإعجازه، لأنه لا يلتزم بالسجع والشكل على حساب المضمون. الواقع أن القرآن الكريم استخدم تعبير ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ للإشارة إلى قصر الوقت، كقول الكافرين في موضع آخر إنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا يومًا أو بعض يوم (المؤمنون:١١٣-١١٤). وقوله تعالى ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يماثل هذا التعبير معنًى؛ ذلك لأن اليوم له معانٍ عديدة؛ منها اليوم المعروف الذي فيه ٢٤ ساعة، وأيضًا الفترة ما بين الصباح والمساء، وفي هذه الآيات سُميت الفترة ما بين

الصباح والمساء يوما. والوقت ما بين الصباح إلى المساء أطول مما هو ما بين الصباح والضحى. وحيث إن الله تعالى يريد هنا أن يبين أن كل ما يحققه الكافرون من تقدّم ورقيٍّ عبثٌ، لأن مصيرهم العقاب والعذاب، لذلك قد بيّن الله تعالى بقوله ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أن مصير منكري الإسلام سيكون على قسمين: فبعضهم يكون كمن قضى زمن رقيه وبلغ عشية عمره وهلك بتصدّيه للإسلام، وبعضهم يكون كمن لم يرَ زمن رقيه، بل هو لا يزال في بداية رقيه، وهؤلاء أيضا سيُدمَّرون في صدامهم مع الإسلام، وكأنهم لن يروا عشية عمرهم، بل يهلكون عند ضحى حياتهم القومية ليكونوا عبرة لمن اعتبر. وهذا هو المعنى نفسه الذي بيّنه أحد الشعراء باللغة الأردية:

پھول تو دو دن بہارِ جاں فزا دکھلا گئے
حسرت اُن غنچوں پہ ہے جو بن کھلے مرجھا گئے

أي قد تمتعت الأزهارُ ببهجتها وبهائها بضعة أيام، ولكن الحسرة على البراعم التي ذبلت قبل أن تتفتح.

إذًا، فعندما يُذكَر هلاك قوم فمن مقتضى البلاغة أن يُذكر الزمن الطويل قبل الزمن القصير، لذا يقول الله تعالى هنا إن بعضهم عاشوا حتى العشية، وبعضهم بلغوا الضحى. فلذلك تجد أن القرآن الكريم عندما ذكر هذا المعنى في مكان آخر قال ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. فثبت أن الله تعالى لم يقُل هنا عشية أو ضحاها مراعاةً للسجع، بل ليشير إلى قِصَر الفترة، لأن الفترة ما بين طلوع الشمس إلى الضحى أقصر من الفترة ما بين الضحى والمساء، وهذا يقتضي تقديم ذكر الأطول على الأقصر، لأن قِصر الفترة يدل على شدة العذاب، وطولها يدل على خفّته. والترتيب يقتضي هنا تقديم ذكر العذاب الأخفّ، وتأخير العذاب الأقسى.

باختصار، قد أشار الله تعالى هنا إلى ما سيحققه الإسلام من عظمة وازدهار، مبيِّنًا أن زمن الكفر سيتقلص، وزمن الإسلام سيمتدّ حتى يبدو للكافرين زمنهم مقابل زمن رقي الإسلام كما تكون العشية أو ضحاها مقابل عمر الإنسان.

سورة عبس

مكية، وهي ثلاث وأربعون آية مع البسملة

سورة عبس مكية (روح المعاني). وهي من أوائل السور نــزولاً باتفاق المستشرقين أيضا، حيث اعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" مما نــزل في البداية المبكّرة للبعثة النبوية. واعتبرها "وليام موير" من أوائل السور التي أظهرها محمد للكافرين (تفسير "ويري"). مما يعني أن هؤلاء المستشرقين يرون أن السور الأوائل لم يتم الإعلان عنها فور نــزولها، وإنما بعد فترة. فـ"موير" يرى أنها نــزلت بعد بضعة السور الأوائل.

يربط هذه السورة بما قبلها رابطان: رابط مباشر قريب، ورابط آخر يتعلق بمضمونها العام. والرابط القريب هو أن الله تعالى قد قال في أواخر السورة السابقة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾(النازعات:٤٦).. أي لن ينفع إنذارك إلا من يخاف يوم الحساب، أو يخاف عاقبة أعماله. علمًا أن ضمير المؤنث في قوله تعالى ﴿يَخْشَاهَا﴾ راجع إلى الساعة، ونحن نفسّر الساعة بالمعنيين؛ الحياة بعد الموت وغلبة الإسلام أو غلبة القرآن، فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ إشارة إلى الأمرين كليهما.. أي لن ينفع إنذارك إلا مَن يخاف الحياة بعد الموت، أو يخاف عاقبة أعماله ويرى أنها ستؤدي إلى هزيمته وانتصار الإسلام؛ ولذلك قال الله تعالى الآن في سورة عبس: عليك أن تكون أكثرَ اهتمامًا بالذين يريدون الاستماع إلى الحق ويستحقّون قبوله. والمرء يستحق قبول الحق لعدة أسباب أوّلُها: الأعمال.. أي أن يخشى الله تعالى بحسب إيمانه، أو يكون جادًّا في سعيه، فيُصغي إلى أمور الدين وأحكامه بعناية واهتمام، وثانيها: الاستحقاق القومي.. وأعني بذلك أنه كلما بَعث الله نبيًّا صدّقه الفقراء عادة.. أي عند بعثة نبي هناك احتمال يبلغ تسعين بالمئة أن فقراء القوم يتعلمون الدين بسرعة، أما إذا توجهت جماعة النبي بدعوته إلى الأثرياء ضاق نطاق

رقي دينه وانتشاره. لا شك أن الأغنياء أيضا يؤمنون، ولكن نسبتهم ضئيلة جدا، وقد بيّن القرآن الكريم هذا الأمر في أماكن عديدة.

أما علاقة هذه السورة بما قبلها من حيث مضمونها العام، فيكمن في أن الله تعالى أخبر في السورة السابقة أنه قد قرّر ازدهار الإسلام، مشيرًا إلى الأسباب التي سيتخذها لهذا الغرض، فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا... فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، أما في هذه السورة فبيّن الله تعالى أنه وحده يعلم موعد الساعة، وأنه وحده يعلم أولئك القوم الذين ستتم على أيديهم ساعة غلبة الإسلام، والذين سيكونون "النازعات والناشطات والسابحات فالسابقات فالمدبرات". وكأنه تعالى أوضح للنبي ﷺ أنه لن يعطيه قومًا يُعَدُّون في الظاهر صناديد القوم ودواهيهم ونشطاءهم وأذكياءهم. ذلك لأنه كان هناك احتمال أن يظن المؤمنون أنه تعالى يعني بقوله ﴿والنازعات﴾ فلانًا وفلانًا من علية القوم ودواهيهم، فدحض الله تعالى هذه الفكرة وقال كلا، بل إننا كما احتفظنا بعلم الساعة، كذلك احتفظنا بعلم تلك النفوس السعيدة التي ستصبح نازعات ناشطات سابحات سابقات مدبرات، فلن تعرفوها بقياسكم. ستظنون أن فلانًا وفلانًا من القوم ذوو كفاءات عالية، ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة، إنما الله وحده يعلم بهم، كما يعلم وحده موعد الساعة، وسيأتي بهم في حينها أولاً بأول، والبحث عنهم لن يجديكم شيئًا.

من سنة الله المستمرة أنه لا ينصر دينه بالكبار المشاهير، إنما ينصره بأُناس يُعَزُّون بالدين في الحقيقة. إن الذين يقال عنهم إن الدين سيعزُّ بهم لو دخلوا فيه فلا يصلُحون للدين الحق أبدًا، إنما يصلُحُ للدين الحق قوم يقال عنهم إنهم عزّوا بالدين. عندما يُبعَث نبي، فليس أتباعُه هم الذين يدلّون الناس على الله تعالى قائلين: أيها الناس، آمِنوا بالله، بل إن الله تعالى نفسه يشير إليهم ويقول: أيها الناس هؤلاء هم القوم الذين اخترتُهم لخدمة ديني.

إذًا، فهذه السورة تشرح هؤلاء ﴿النازعات﴾ وتبين كيف يتم انتخابها، وهي أن الله تعالى بنفسه يُظهِر هذه النفوس في الوقت الملائم. وتبين دراسة تاريخ الإسلام أن الله تعالى قد اختار لدينه نفس أولئك القوم الذين كان الأعداء معترفين بصدقهم

وصلاحهم، ولكن، لو أُعطيَ أهل الدنيا حقَّ الاختيار بحسب ظروف ذلك الزمن لما اختاروهم لهذه المهمة، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون الكفاءاتِ الكامنة في هؤلاء ضربًا من الخيال الغامض. فرغم أن أهل مكة كانوا معترفين بكفاءة أبي بكر ﷺ، إلا أنهم لم يختاروا للسيادة إلا أبا جهل وعتبة وشيبة، وليس ذلك إلا لأنهم اعتبروا صلاح أبي بكر صلاحا مبهما غامضا، بينما اعتبروا عتبة وشيبة وأبا جهل ذوي كفاءات عالية، ولنفس السبب لم يختر هؤلاء عمر ولا عثمان ولا علي ولا ابن مسعود ولا الزبير ولا طلحة وغيرهم ليكونوا سادة لهم. وكذلك قد اختار الله تعالى للإيمان أبا موسى الأشعري من اليمن وعبد الله بن سلام من اليهود، ولكن هل يمكن لأحد القول إن قومهما كانوا سيختاروهما للإيمان لو أُعطوا الاختيار. لا شك أنهم كانوا سيختارون الآخرين، إلا أنه مما لا يمكن إنكاره أن قلوب القوم كانت معترفة بصلاحهما اعترافًا مبهما.

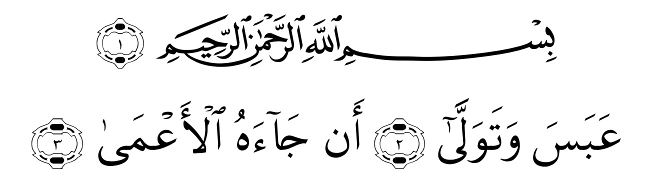
باختصار، لم يكن يُتوقع من هذه الثُلّة أن تُحدِث أي انقلاب في القوم، ومع ذلك لم يقع الانقلاب إلا بأيديهم. أما الذين كان القوم يعقدون عليهم الآمال لإحداث الانقلاب فقد حُرموا منه. فهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا فيما يتعلق برقي الأُمة، وقد عولج في سورة "عبس" بوجه خاص، حيث بيّنت أنه عند فساد أُمة تختفي كفاءات أبنائها الحقيقية وتبرز فيهم كفاءات زائفة، ويفسد مزاج القوم جدًّا فلا يحبّون الخير الحقيقي، بل يحبّون الرياء والتصنّع والسير مع التيارات السائدة، ولا يختارون لهم زعيمًا حقيقيًا، بل يفضّلون زعيمًا يتبع تقاليدهم وعاداتهم، فيستحيل عليهم اختيار قائد حقيقي يقوم بإصلاحهم زمن الظلام. ذلك لأن فطرتهم تصبح مشوهة ممسوخة خاضعة لتقاليدهم الفارغة لا ترضى بهذا التغير الطيّب المخالف لتقاليدهم وعاداتهم، ولذلك قد جعل الله تعالى هذا الانتخاب في يده، لأنه ينظر إلى ما في القلوب لا إلى ما هو على الألسن.

رُبَّ قائل يقول هنا: إذا كان هؤلاء ذوي كفاءات في الواقع فلماذا لم يبرزوا بين القوم؟ والجواب أن الله تعالى يعلم أن ذلك راجع إلى عدم ملاءمة الظروف، لأن أحوال القوم تكون فاسدة، ومن المحال أن تنبت شجرة طيبة في أرض فاسدة، ومن

المحال أن يزدهر هؤلاء إلا أن يُنـــزَعوا من تلك الأرض الفاسدة. وقد أشير إلى ذلك في سورة النازعات، حيث بين الله تعالى أن هؤلاء مزوَّدون بالكفاءات فعلاً، ولكنهم في أرض فاسدة فلا يستطيعون أن ينبتوا فيها ويزدهروا، ولذلك نمهّد لهم الآن أرضًا جديدة، وسترون كيف تنكشف كفاءاتهم للناس. لما صار أبو بكر ﷺ خليفة للنبي ﷺ ذهب شخص إلى مكة، وحضر مجلسًا فيه والده أبو قحافة. فسأله عن أحوال المدينة، فأخبره بوفاة النبي ﷺ. فقال ماذا فعل المسلمون بعده؟ قال قد بايعوا رجلا منهم. فسأل: من يكون هذا الذي بايعوه؟ قال: أبو بكر. فقال أبو قحافة في حيرة: مَن هو أبو بكر هذا؟ فأجاب: ابن أبي قحافة. فقال: من أبو قحافة؟ قال: أنت. فبدأ أبو قحافة يذكر له أسماء القبائل المختلفة ويسأله: أبايعَ هؤلاء أبا بكر؟ قال: نعم، حتى قال: هل بايعَه بنو هاشم؟ قال: نعم. وكان أبو قحافة قد أسلم في الظاهر ولما يدخل الإيمان في قلبه، فأطرق رأسه برهةً وهو صامت ثم رفعه وقال: أشهد أن محمدا رسول الله. فكان هذا اليومُ يومَ صفاء إيمانه، حيث أصبح على بصيرة من صدق الإسلام.

فترى أنه ما كان ليخطر ببال أبي قحافة أبدًا أن ترضى جميع القبائل العربية بأبي بكر خليفةً وملِكًا عليهم. وكان الرجل مصيبًا في تفكيره، لأن أبا بكر الذي قد ربّاه ورآه لم يكن ليصلح لذلك المنصب العظيم بادي الرأي، ولأن التربة التي كان أبو بكر ينبت فيها من قبل كانت غير منسجمة مع فطرته كلية، ولكن الله تعالى حين نـــزعه من تلك التربة وزَرَعَه في تربة أخرى ملائمة لفطرته، أخذ نباتُ روحه في النماء والازدهار حتى أصبح دوحة كبيرة. فإنك لو حاولتَ زرع شجرة المانجو مثلاً في منطقة كشمير فلن تنبت هناك، وإذا حاولت زرع شجرة التفاح في منطقة البنجاب فلن تؤتي ثمرًا جيدًا، كذلك فإن الأرواح الطيبة بحاجة إلى أرض طيبة تلائمها، والأرض الطيبة بحاجة إلى أشجار طيبة تلائمها. ففي أرض الكفر ما كان لينبت إلا أمثال عتبة وشيبة وأبي جهل، لا أبو بكر، وأما في أرض الإيمان فما كان لينبت إلا أبو بكر، لا عتبة ولا شيبة ولا أبو جهل، إذ كانوا أحقر شأنًا من العشب بل من الكلأ والحطام في هذه الأرض الطيبة. هذا هو المعنى الذي تشير إليه سورة

عبس، حيث بين الله تعالى فيها أنكم لا تستطيعون رؤية تلك النفوس الطيبة التي ستقوم بإشاعة الدين ونشره، والتي يصبح الإسلام غالبًا على يدها، فتسألون من أين تأتي تلك النفوس الطيبة التي ستصبح نازعات وناشطات وسابحات وسابقات ومدبرات، ومن الذي سيختارها؟ فها نحن نخبركم أننا نحن نختارها. وإنكم لا تقدرون على رؤية تلك النفوس الطيبة الآن لأن أرضكم لا تلائمها. إن أشجار الصلاح هذه مزروعة في أرضكم، وستجفّ لو بقيت فيها لعدم ملاءمتها لها، ولكنا سننـــزعها من هناك ونزرعها في الأرض التي تلائمها، فسترون كيف تصبح دوحات كبيرة رائعة.



شرح الكلمات:

عبس: عبَس فلان وجهَه: قَطَّبَه. (الأقرب)

تولّى: تولى عنه: أعرضَ عنه وترَكه. (الأقرب)

التفسير: يقال، بشأن نـــزول هذه السورة، أن عبد الله بن أم مكتوم حضَر مجلس النبي ﷺ ذات مرة، وكان قد آمن، أو كان مؤمنًا به ﷺ في قلبه إذا لم يكن قد بايعه في الظاهر، وكان عنده ﷺ صناديد مكة: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام بحماس رجاءَ أن يُسلِم بإسلامهم غيرُهم. فقال عبد الله بن أم مكتوم يا رسول الله "أَقْرِئْني وعلِّمْني مما علَّمك الله." فلم يجبْه النبي ﷺ حتى قالها ثلاثا. وورد أن ابن أم مكتوم "لم يعلم تشاغُلَه بالقوم. فكرِه رسولُ الله ﷺ مقاطعتَه لكلامه فعبس وأعرض عنه، فنـــزل هذا الزجر من الله تعالى" (الكشاف). وعلى إثر هذا الوحي دعا النبي ﷺ ابنَ أم مكتوم وأكرمَه وكلّمه. كان النبي ﷺ يبسط له رداءه كلما جاء بعده، ويدعوه للجلوس عليه (فتح البيان).

هذه هي الواقعة التي يذكرونها بشأن نــــزول هذه الآية ويقولون لقد احتقر النبي ﷺ هذا الأعمى، ولم يأبه به لكونه شخصًا بسيطًا فقيرا، وظلّ يتكلم مع هؤلاء الصناديد، ظنًّا منه أن توجُّهه إليهم أكثر نفعًا من التوجه إلى هذا الأعمى والفقير.

لفهم معالم هذه الرواية ينبغي أن نعرف أولاً مَن هو عبد الله بن أم مكتوم هذا. إنه ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها. هناك اختلاف في بعض الأسماء في نسبه، ولكن الجميع متفقون على أنه كان من بني عامر بن لؤي، فقال بعضهم إنه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري، بينما قال غيره إنه عبد الله بن عمرو بن قيس بن زائدة الأعصم. كان يدعى ابنَ أُمِّ مكتومٍ. وقال الزمخشري أُمُّ مكتوم هي جدّتُه، ولكن ابن عبد البر وغيره من المؤرخين لا يتفقون مع هذا القول، ويقولون إن "أُمّ مكتوم" هي كنيةُ والدته التي كان اسمها عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وقد تكنّتْ بأمّ مكتوم لأن عبد الله وُلِدَ كفيفًا. بينما يرى المؤرخون الآخرون أنه لم يولد ضريرًا، إنما فقد بصره فيما بعد. وكان النبي ﷺ قد جعله في غيابه عن المدينة أميرًا عليها مرتين. (الإصابة في تمييز الصحابة: حرف العين، والاستيعاب: عمرو بن قيس، والكشاف، وروح المعاني)

إن هدفي من بيان نسب عبد الله بن أم مكتوم مفصلاً هو تفنيد الزعم أنه كان رجلا بسيطا فأهملَه النبي ﷺ إذ لم ير في التوجه إليه فائدة. فإن هذه الحقائق حول نسبه تبطل هذا الزعم بداهة، لأن أباه وأمه كليهما من عائلتين كبيرتين، وكان ابن خال لسيدة كان النبي ﷺ يجلّها ويبالغ في إكرامها حتى بعد وفاتها بسنوات عديدة حتى إن عائشة -رضي الله عنها- كانت تغبطها. فقد روي عن عائشة أنها قالت: كان النبي ﷺ يُكثِر الحديث عن خديجة رضي الله عنها، فكنت لا أتمالك نفسي غيرةً وأقول: يا رسول الله، لا تزال تذكر تلك العجوز، وقد أبدلَك الله بها خيرا منها! فأجاب النبي ﷺ: يا عائشة، إنك لا تعرفين محاسنها وما أسدته لي من خدمات لفترة طويلة! فالرجل كان ابن خال خديجة -رضي الله عنها- وكان عاليَ النسب من جهة أُمّه وأبيه، ومِثلُه لا يُراعى فقط لأنه كفيف، كما لا يُعرَض عنه بسبب عماه، لأن الدعوة تتم باللسان لا بالعين. فثبت من هذه الحقائق بطلان

الزعم أن النبي ﷺ أهملَه باعتباره وضيعا، وقال: لِمَ ألتفت إلى هذا الفقير الحقير معرضًا عن عِلْيَة القوم؟

ثم إن النبي ﷺ قد أمّره على المدينة مرتين (الاستيعاب: عمرو بن قيس). ومن البديهي أنه ﷺ لم يختره انحيازًا له، بل وجده جديرًا بذلك، إذ رأى أن العرب لن يمتعضوا من إمارته لأنه عريق النسب؛ ذلك لأن تعيين شخص عديم التأثير على الناس من حيث نسبه كان مستحيلاً بسبب تقاليد العرب، ولذلك نرى أن النبي ﷺ لم يؤمّر أحدًا على الناس إلا مَن كان ذا نسب عريق شهير لن يتردد الناس في طاعته عادة، كما أمَّر عليًّا رضي الله عنه مرة في غيابه عن المدينة (السيرة لابن هشام، الجزء الرابع، غزوة تبوك). الواقع أن العرب كانت عندهم عصبية شديدة، وكانوا لا يرضون بإمارة شخص يفتقد الهيبة والنفوذ، ولم يتمكن الإسلام من إزالة هذه العصبية الشديدة من قلوبهم إلا بعد فترة طويلة، أما في البداية فكان من المحال أن يرضوا بإمارة شخص ليس له نفوذ بسبب نسبه. فالزعم أن النبي ﷺ قد جاءه شخص حقير فلم يلتفت إليه لفقره وحقارته زعمٌ باطل بداهة. وهذا الأمر يبلغ من الوضوح والجلاء بحيث يستغرب المرء كيف لم يدركه هؤلاء المفسرون، بينما فهمه بعض أعداء الإسلام؛ فإن نولدكه المستشرق الألماني الشهير يقول بعد تسجيل هذه الرواية إنها باطلة كل البطلان، لأن نَسَب عبد الله بن أم مكتوم يدل على أنه لم يكن شخصًا عاديًّا، فلا يمكن أن يكون هذا الحادث متعلقا به (تفسير "ويري"). وهذا يعني أن نولدكه قد أدرك أن هذا الحادث لا ينسجم هنا، وإلا لفرِح الرجل كثيرًا حيث وجد فيه فرصة الطعن في النبي ﷺ، ولكنه أدرك أن الرواية خلاف للواقع ولا يمكن تطبيقها على هذه الآيات.

وإضافةً إلى هذه الشهادة، هناك خمسة أمور أخرى - عندي - تؤكد أن هذا الحادث لا ينطبق هنا بهذا الشكل:

الأول: كان ابن أم مكتوم أعمى ولم يكن أصمَّ. فإما أن يقول هؤلاء إنه كان أصمّ، فلم يدرِ أن النبي ﷺ يحدّث أناسًا آخرين، فوجّه السؤال إلى النبي ﷺ دونما انتظار، وفي هذه الحالة لا ذنب له لأن المرء لا يُدان إذا أخطأ لجهله بالشيء. ولكن

التاريخ يؤكد أن عبد الله بن أم مكتوم لم يكن أصمّ، وقد فطِن بعض المفسرين إلى هذا الأمر، فقالوا في أنفسهم إن تسجيلهم هذا الحادثَ على هذا النحو سيجعل كل إنسان يقول إن ابن أم مكتوم هو المدان، إذ جاء وتدخل وحاول مقاطعة حديث النبيّ ﷺ مع القوم، وهذا خطأ ومخالف للأدب واللباقة؛ ولذلك استوجب الزجر، فحاول هؤلاء المفسرون الإجابة عليه، ولكن جوابهم يبلغ من الضعف والتهافت بحيث يستغرب المرء بقراءته، حيث قالوا: لعلّ الرسول ﷺ كان يناجي هؤلاء الكافرين، فلم يسمع ابنُ أم مكتوم صوته ﷺ (ابن كثير، وفتح البيان). إنه لقول مثير للضحك وموغل في الحمق لا يستسيغه العقل ولن يقبله أشد الناس غباء. كيف يمكن أن يدعو النبي ﷺ في مجلسه سبعة أشخاص إلى الإسلام مناجاةً وهمسًا في أذن كلٍّ منهم بحيث لا يسمعه شخص آخر، ولا يحدّثهم حديثا عاديا؟ الحق أن الفطرة تكشف الحقيقة ولو حاول أحد تغطيتها تحت ألف حجاب.

إذًا، لقد قاطعَ عبد الله بن أم مكتوم حديثَ النبي ﷺ مع القوم وهو يدعوهم إلى الإسلام، فالذنب ذنب ابن أم مكتوم، إذ لم يكن من حقه أن يتدخل ويقاطع النبي ﷺ. أما الذي يزعم أن ابن أم مكتوم لم يسمع صوت النبي ﷺ وهو يحاور القوم فعليه أن يثبت أنه ؓ كان أصمّ. ولكن التاريخ يشهد أنه كان أعمى وليس أصمّ، وحيث إنه كان يسمع صوت رسول الله ﷺ، ويعلم أنه مشغول بدعوة القوم، فكان عليه أن لا يقاطع حديث رسول الله ﷺ، فمقاطعته دليل على أن الذنب ذنبه. فمِن غير المعقول أن يكون النبي ﷺ يحدّث القوم في مجلسه ولا يسمعه ابن أم مكتوم، كما يزعم المفسرون الذين أتوا بتأويل غير مستساغ البتة تبريرًا لموقفه. فالذنب ذنب ابن أم مكتوم على كل حال، فكيف يقال أن الله تعالى قد زجر رسوله بهذه المناسبة، وكيف يقول المفسرون أن الرسول ﷺ ربما كان يدعو هؤلاء الزعماء إلى الإسلام هامسًا في آذانهم؟ كان الوقت وقت تبليغ، لا وقت شجار مع زوجة مثلاً، حتى يهمس في أذنيها كي لا يسمعه غيرها. كان الحديث عن الله ورسوله، كان العمل نشر الإسلام ونشر التوحيد، فكيف يقال أن النبي ﷺ كان يحدّث عتبة وشيبة وغيرهما من الزعماء ملصقًا فمه بآذانهم وقائلا لهم: انظروا، إن

الله واحد أحد، وهو الذي خلق الكون كله، ولا نفعَ في الأصنام، فاتركوها وآمنوا بوحدانية الله. هذا أمرٌ يرفضه كل عاقل في الدنيا، بل يضحك عليه ويعتبره جهلا وحماقة.

الثاني: إذا كان النبي ﷺ لم يلتفت إلى عبد الله بن أم مكتوم و لم يجب على سؤاله، فقد قام بما هو عين الصواب، فما الاعتراض على ذلك؟ كان النبي ﷺ يحاور كبار الزعماء مبينًا لهم حقيقة الإسلام، وداعيا إياهم إلى الله ورسوله، فجاءه شخص وأراد مقاطعة حديثه، وتكلم بما يتنافى مع الأدب واللباقة ومع ما يقتضيه الحال، فإذا كان النبي ﷺ لم يجبه بشيء فقد أصاب. ليس في القرآن الكريم آية تمنع مما فعله النبي ﷺ، بل لو تصرّف أحد اليوم في مجلسنا كما تصرف ابن أم مكتوم فسوف نعامله بنفس ما عامل به النبي ﷺ ابنَ أم مكتوم رغم نـــزول قوله تعالى في القرآن: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾.

فمثلاً هأنذا أُلقي الآن درسًا في القرآن الكريم، فيأتي شخص ويقول لي: اترك الدرسَ وأجِبْ على سؤالي، فهل يليق بي أن أتوجه إليه تاركًا الدرس، أم ينبغي الإعراض عنه إذ حاول مقاطعة حديثي غاضًّا الطرف عما يقتضيه الحال؟! الجميع يعلم أن إعراضي عنه هو الأولى والأنسب؛ لأن مثل هذا التصرف المخالف للأدب يقطع تسلسل الحديث ويزيل تأثيره في الطبائع، ويُنسي المتكلم دليله، ويترك تأثيرا ضارًّا على الحضور، فلا بد من الإعراض عن مثل هذا الإنسان. هل من المقبول مثلاً أن يكون الرسول ﷺ يبين الأدلة على وجود الباريء ﷻ أمام هؤلاء الزعماء، فيتدخل ابن أم مكتوم ويطالبه أن يعلّمه سورة النازعات وتفسيرها، ثم بعد الانتهاء من الحديث معه يتوجه ﷺ إلى القوم ثانية ويقول تعالوا نكمل كلامنا؟ إن هذا التصرف مستبعَد حتى من أشد الناس جهلا وأكثرهم غباء، ومع ذلك يقول هؤلاء: كان من واجب النبي ﷺ أن يتوجه إلى ابن أم مكتوم ويترك دعوة هؤلاء الزعماء، ضاربًا بمبادئ التهذيب والتمدن عرض الحائط. وكأنهم يريدون أن يرسموا مجلس النبي ﷺ رسمًا لن تعدّه الدنيا معقولا أبدًا.

الثالث: إن عبوس النبي ﷺ وإعراضه عن هذا الأعمى دليل على دماثة أخلاقه، ويجب أن يُثنى عليه بسببه، لا أن يُزجر. ذلك أن شخصًا أعمى يأتي النبي ﷺ ويكلّمه كلاما غير معقول، فلا يقوم ﷺ بزجره ولا تعنيفه جبرًا لخاطره.. وحينما يقاطعه مرارًا فيكتفي بالعبوس دون أن يقول له بلسانه شيئًا. كان النبي ﷺ في حيرة من أمره لأن الرجل يقاطعه مرة بعد أخرى، في حين لم يكن بوسعه ﷺ ترك الحديث مع ضيوفه من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يُرِد أن يزجر الأعمى كي لا يكسر خاطره، فماذا يفعل في هذه الحالة يا ترى؟ إن أفضل ما يمكنه أن يفعل عندها هو الإعراض عن هذا الضرير تحقيقًا لهدفين؛ أولهما أن لا ينقطع عن حديثه مع الضيوف وثانيهما أن لا يكسر قلب الضرير. وهذا ما حصل، فعبس النبي ﷺ وأعرض عن الضرير. وكانت الحكمة في إعراضه أن لا يغضب، لأنه لو ظل متوجهًا إليه فربما يتفوه بكلمة قاسية في غضب، فاكتفى النبي ﷺ بالعبوس والإعراض عن الأعمى، دون أن يكلّمه بشيء حتى لا يصيب قلبه بصدمة. وهذا عملٌ يستحق من رب العرش ثناءً عليه ﷺ بدلاً من الزجر. فإذا كان المفسرون يقولون أن النبي ﷺ لم يحسن التصرف، فليخبروا ما هو الطريق الأنسب الذي كان عليه ﷺ أن يتبعه وفقًا للمُثل والأخلاق؟ ولكنهم لن يستطيعوا أن يقترحوا أسلوبا آخر، مما يدل أن هذا هو الطريق الوحيد الأفضل الذي كان يمكن أن يتبعه النبي ﷺ في تلك المناسبة. كل ما في الأمر أن النبي ﷺ عبس استياءً من تصرف ابن أم مكتوم دون أن يقول له شيئا، وعندما رأى ﷺ أنه لا يمتنع عن فعله أعرض عنه ﷺ حتى لا يغضب عليه ويتفوّه بكلمة قاسية لو ظلّ الأعمى أمام عينيه. وكلا الأمرين يدلان على سمو أخلاقه ﷺ.

الرابع: كان ابن أم مكتوم من عائلة شريفة، فلا مجال لاعتباره وضيعا. ولو فرضنا جدلاً أنه كان شخصًا وضيعًا، فلا يصح أيضًا الزعم أن النبي ﷺ لم يتوجه إليه لكونه وضيعا، لأن المعروف عن النبي ﷺ أنه كان شديد العناية بالفقراء، ولم يزدرِ أحدًا لكونه من الطبقة الأدنى. فإننا نراه ﷺ في الفترة المكية يهتم بدعوة العبيد إلى الإسلام، ويقف عندهم في بعض الأحيان ساعات ليدعوهم إلى الإسلام بحب

ورفق، مع أنهم كانوا من أدنى الطبقات. فقد ورد في التاريخ أن عبدَيْن مسيحيين كانا يقرآن الإنجيل بكل حب وشوق أثناء عملهما، وكان حماسهما الديني يُعجب النبيَّ ﷺ فيقف عندهما لأنه كان يرى أنهما أَولى بأن يبلّغهما رسالة الله، فكان يجلس عندهما ساعات طويلة يدعوهما إلى الإسلام وهما يطرقان الحديد (فتح البيان: سورة النحل، قوله تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ). فالشخص الذي كان يقف في الشوارع مع أبسط الناس، والذي كان يقوم بدعوة العبيد إلى الإسلام ساعات، والذي لم يكن يرى عليه عارًا في لقاء الفقراء وأصحاب الشرائح الدنيا، كيف يقال عنه أنه لم يلتفت إلى شخص حضر في بيته لكونه فقيرًا؟ فمن كان لا يستاء من الحديث مع العبيد أمام الناس، ولا يرى عارا في تبليغهم رسالة الإسلام، فكيف يخجل من الحديث مع ابن أم مكتوم، ما دامت المبادئ الأخلاقية لا تمنعه منه؟

الخامس: يقول المفسرون إن النبي ﷺ دعا ابن أم مكتوم فيما بعد وقال له: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي. هل لك حاجة في شيء؟ (فتح البيان، والطبري)

أقول: لو كانت هذه الآيات عتابًا وتوبيخًا للنبي -والعياذ بالله- فكان لا بد أن يغيّر ﷺ سلوكه في مثل هذه المواقف بعد هذا الحادث؛ وكلما قاطع أحد كلامه توجّهَ إليه من فوره تاركًا الحديث الذي كان فيه. ولكننا نجد في التاريخ وقائع تؤكد أن النبي ﷺ لم يغير سلوكه بعد ذلك، فقد ورد أن شخصًا حضر مرة مجلس النبي ﷺ وهو يكلّم الناس، فسأله سؤالا مقاطعًا كلامه، ولكنه ﷺ لم يلتفت إليه بل استمر في حديثه حتى ظن الصحابة أن النبي ﷺ ربما سخط على السائل، ولما انتهى ﷺ من كلامه، قال: أين السائل؟ ثم أجاب على سؤاله (البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه).

لقد ثبت من هنا أن النبي ﷺ ظلَّ يسلك نفس المسلك الذي اختاره مع ابن أم مكتوم، وكلما حاول أحد أن يسأله مقاطعا كلامه لم يجبه بشيء، بل استمر في حديثه حتى انتهى منه. ولم يسلك النبي ﷺ هذا المسلك في مكة فحسب، بل ظل متمسكًا به في المدينة المنورة أيضا. بل يتضح من الروايات الأخرى أن هذا كان دأبه دائما.. أعني أنه كان لا يرد على سائل يحاول مقاطعة كلامه. وإن هذا ما

يفعله الشرفاء دومًا. فلو كانت هذه الآيات توبيخا للنبي ﷺ لغيَّر سلوكه بعد نزولها، وكلما سئل عن شيء أخذ في إجابته فورا أيًّا كان الموقف، مخافة أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه من قبل. ولكن النبي ﷺ لم يسلك هذا الطريق البتة، بل ظل متمسكًا بسلوكه الذي سلكه مع ابن أم مكتوم.

فالسؤال هنا: ما هو الأمر الذي نـــزل بسببه هذا النهي والتوبيخ للنبي ﷺ؟ إن أسوته ﷺ تؤكد أنه ظل طوال حياته متمسكًا بنفس المسلك الذي سلكه مع ابن أم مكتوم، ولم يحب أن يقاطع أحدٌ كلامَه، لأن هذا يقطع تسلسل الكلام، ويُفقِد الحديثَ تأثيرَه في الناس، ويُنسي المتكلمَ جوانب كثيرة من الموضوع، ولا يستطيع أن يكمل حديثه.

إذًا، فلو فرضنا -جدلاً- صحة ما يقول المفسرون لكان معنى ذلك أن النبي ﷺ لم يرتدع عن سلوكه رغم "التوبيخ الربانيّ" -والعياذ بالله.

لقد سبق أن بينتُ أن الثابت من الروايات أن عبد الله بن أم مكتوم لم يكن وضيعًا. لا شك أنه كان ضريرا، ولكنه كان من عائلة النبي ﷺ، حيث كان ابن خال خديجة رضي الله عنها، وكان أبواه من عائلة شريفة شهيرة؛ فلا بد أن يكون مقربا من النبي ﷺ بسبب نَسَبِه الرفيع وقرابته من خديجة، وهذا ما يدل عليه الأمر الواقع أيضًا، فإن النبي ﷺ قد عيّنه أميرًا على المدينة في غيابه مرتين بعد هذا الحادث، مما يدل أن النبي ﷺ كان يكنّ له التقدير الكبير، ويقدر نسبه العالي، وهذا أيضًا دليل ساطع على خطأ موقف المفسرين.

وعندي أن الله تعالى قد جعل في هذه الآيات نفسها حلاًّ لهذه المعضلة، ولكن المفسرين لم يولوه الاهتمامَ الكافي. لقد انتقلت أذهانهم إلى هذا الأمر، ومع ذلك ظلوا يقدّمون تأويلات بعيدة. وينكشف علينا هذا الحل بالتدبر في صياغة هذه الآيات وترتيبها. يقول الله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۞ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾. فنجد هنا جُملاً قد وردت بضمير الغائب، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى۞

﴿أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾. ثم نجد جُملاً انتقل فيها الكلام من الغائب إلى الحاضر، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾، وقال ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى...﴾. وهناك أربعة احتمالات فقط لمن تعود عليه الضمائر في هذه الجُمل:

أوّلها: أن يكون ضمير الغائب والمخاطب كليهما راجعًا إلى النبي ﷺ.

ثانيها: أن يكون ضمير الغائب والمخاطب كليهما راجعًا إلى غيره ﷺ.

ثالثها: أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى غير النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى النبي ﷺ.

رابعها: أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى غيره ﷺ.

والآن، علينا أن نحدّد الصحيح من هذه الاحتمالات.

نتوجه أولاً إلى الاحتمال الثاني، وهو أن هذه الآيات لا تتحدث عن النبي ﷺ لا في ضمير الغائب ولا المخاطب، وإنما ترجع الضمائر إلى غيره ﷺ. وبقبول هذا الاحتمال يصبح معنى الآيات غير معقول على الإطلاق، لذا فلا بد من إسقاطه، لأن قصة ابن أم مكتوم مذكورة في روايات متواترة، ومن المحال أن تكون القصة الواردة في مصادر شتى بهذا التكرار والتواتر باطلة. لا بد أن حادثًا ما قد وقع فعلاً، لذا فلو قلنا إن قوله تعالى ﴿عَبَسَ﴾ و﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ كله إشارة إلى شخص غير النبي ﷺ اضطُررنا لتكذيب هذه القصة من جذورها، وهذا الإنكار محال، لأن كتب الحديث والتاريخ كليهما تذكرها مرارًا وتكرارًا.

أما إذا أخذنا بالاحتمال الأول وقلنا إن ضمائر الغائب والمخاطب كلها راجعة إلى النبي ﷺ، فالسؤال: لماذا غيّر الله تعالى الضمائر هنا؟ ولماذا قال أولاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، ثم قال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو يعني الرسول نفسه ﷺ في الجملتين؟

يقول المفسرون في الجواب: لقد تحدّث الله تعالى عن النبي ﷺ بضمائر الغائب "إجلالاً له ﷺ ولطفًا به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى" (فتح البيان)، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ ولم يقل: (عبستَ وتوليتَ أن جاءك الأعمى). ثم خفّف العتاب قليلا وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾.

ولكنا نرى أن العتاب لم يخفّف في آيات ضمير المخاطب، بل اشتدّ، أما في آيات ضمير الغائب فليس هناك أي عتاب أصلا. فقد بينتُ من قبل أن العبوس والتولي مع ضريرٍ ليس مما يجرح مشاعره أو ينـــزل بسببه عتاب رباني، بل إن هذا السلوك النبوي دليل على خُلقه العظيم. أفليس غريبا إذًا، أن يستعمل الله تعالى ضمائر الغائب حيث لا عتاب أصلا، ويستعمل ضمائر الخطاب حيث العتاب كله؟ انظرْ إلى شدة النبرة في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۝ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾. فمتى كانت هذه الكلمات أخفَّ من العبوس والتولي؟ بل يبدو وكأنه تعالى قد ركّز فيها على التوبيخ وأهملَ جانب المدح. فثبت أن تأويل المفسرين باطل تماما، لأنه لا يتماشى مع الضمائر المتغيرة؛ إذ لا مبرر معه لتغيير الضمائر.

وبقي الآن عندنا احتمالان فقط: الثالث والرابع، ولو أخذنا بالاحتمال الثالث - أي أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾ عائدًا إلى غير النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعًا إلى النبي ﷺ - لواجهتْنا المشكلة المشار إليها من قبل، أعني أننا نضطر لإنكار هذه الواقعة الواردة في كتب الحديث والتاريخ عن ابن أم مكتوم، والتي لا يمكننا إنكارها بعد هذه الشهادات الكثيرة المتواترة الواردة في كتب التاريخ وبعض الصحاح. (الترمذي، أبواب التفسير). ومعلوم أن الشهادة التاريخية لا يمكن رفضها إلا بشهادة مخالفة أقوى منها.

إذًا فقد بقي عندنا الاحتمال الرابع فقط، وهو أن يكون ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عائدا إلى النبي ﷺ، وضمير المخاطب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ راجعا إلى غيره ﷺ. وأرى أن هذا هو السبيل الوحيد لحل هذه المعضلة، لأنه لا يتنافى مع هذه الواقعة التاريخية، كما لا ينال من عظمة الرسول ﷺ وكرامته. وعندي أن الضمير في قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ راجع إلى النبي ﷺ وأن واقعة ابن أم مكتوم صحيحة، إذ تكررت في مصادر شتى بتواتر، ولا يسعُنا رفضُها بغير أن يكون بيدنا دليل تاريخي قاطع يقيني.

فالواقع أن ابن أم مكتوم جاء النبيَّ ﷺ وهو يقوم بدعوة صناديد مكة إلى الإسلام، فقال في نفسه متحمسًا: لماذا يضيع النبي ﷺ وقته الثمين مع هؤلاء الكافرين به؟ فكان منه ما كان. الواقع أن طبائع الناس مختلفة، وكل إنسان يعبّر عن أفكاره بأسلوبه الخاص. لقد رأيت أن بعض الأحمديين عندما يرون أحدًا منا يقوم بدعوة بعض أعداء جماعتنا الألداء، لا يتمالكون أنفسهم غيظا، ويقولون: دَعْ هؤلاء الملاعين. إنهم لا يستحقّون الكلام، إنهم حطب جهنم، فلا داعي لإضاعة الوقت معهم. فترى أن هؤلاء الأحمديين أيضًا لا يحتملون أن يكلم أحد هؤلاء المعارضين، إذ يرون أنهم حطب جهنم، وأنهم لن يرتدعوا عن المعارضة، بل سيموتون مستوجبين غضب الله وسخطه، فدعْوَتُهم إلى ما قال الله ورسوله مضيعة للوقت. وعندي أن عبد الله بن أم مكتوم أيضًا كان من هذا الصنف من الناس، فلما حضر مجلسَ النبي ﷺ وجده يدعو عتبة وشيبة وأبا جهل وأمية والوليد إلى الإسلام، فثارت حميته، وقال في نفسه إن هؤلاء الخبيثين يسبّون النبي ﷺ ليل نهار فكيف جاءوا الآن إلى مجلسه؟ إنهم حطب جهنم؟ ما لهم ولما قال الله ورسوله؟ لا حاجة لإضاعة الوقت معهم. فدفَعتْه أفكاره إلى أن يقطع على النبي ﷺ حديثه مع القوم، فقال: يا رسول الله، لا تحدّث هؤلاء عن الإسلام، بل أَقْرِئْني وعلِّمْني أنا مما علّمك الله. فشقَّ على النبي ﷺ تصرُّفه غيرَ اللائق؛ إذ كان ﷺ يكلّم القومَ الذين كانوا ضيوفًا حضروا بيته، وكان أحد مريديه قد أساء الأدب وسلك مسلكًا يتنافى مع إكرام الضيوف ويجرح مشاعرهم. لا شك أن ابن أم مكتوم لم يسبّ هؤلاء الكافرين، لكن قوله للنبي ﷺ: أَقْرِئْني وعلِّمني مما علّمك الله كان يعني: دَعْ هؤلاء القوم فإنهم أعداء ألداء للإسلام، وأنّى لهم أن يدخلوا فيه؟! ولكن الرسول ﷺ كان يريد أن يقرأ عليهم أحكام الله تعالى، ويؤدي واجبه الذي كلفه الله به، سواء صدقوه أم لم يصدقوه.

باختصار، قد تصرَّفَ عبد الله بن أم مكتوم من فورة حماسه تصرفًا ينافي العقل والأخلاق، لأنه ما دام النبي ﷺ يدعو هؤلاء الصناديد إلى الإسلام، فما كان لابن أم مكتوم أن يظن أن لا فائدة في دعوتهم، أو أن على النبي ﷺ أن يتوجه إليه بدلاً

منهم. لا شك أنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فعلاً بل صاروا حطب جهنم فيما بعد، ولكن كان من واجبه ﷺ عندها إكرام ضيوفه والعناية بهم، أما عبد الله بن أم مكتوم فما كان ليحترم أوامر الله تعالى احترامَ النبي ﷺ لها، كما لم يكن ليدرك مسؤولية إكرام الضيف مثله ﷺ، ولا سيما أنه كان ضريرا، والضرير ضعيف الإحساس بهذه الأمور لأنه لا يرى شيئا، فلا يتكلم بِرفق ولين. وفي بلدنا يقولون إنك لو أردت أن تسمع كلاما قاسيا فتكلَّمْ مع أعمى، وليس ذلك إلا لأنه لا يستطيع الرؤية فلا يبالي مطلقًا بردّة فِعل الناس على حديثه. ولذلك نجد أن ابن أم مكتوم لما حضر مجلس النبي ﷺ ووجده يقوم بدعوة ألدّ أعداء الإسلام ثارت حميّته، ولكنه كان لا يستطيع أن ينهى النبي ﷺ عن دعوتهم صراحة، أو يلوم هؤلاء الكافرين على مجيئهم هناك ويأمرهم بالخروج؛ فما كان منه إلا أن قال للرسول ﷺ: أَقْرِئْني وعلِّمْني مما علّمك الله. ثم ظلّ يردّد قوله هذا على النبي ﷺ بإلحاح، فتضايق ﷺ من تصرُّفه، ولكنه ﷺ لم يُرِدْ أن يجرح مشاعره، فاكتفى بأن عبَس وأعرضَ عنه. لقد خطر ببال النبي ﷺ أن هؤلاء الزعماء الكفار سيقولون ما لهؤلاء المسلمين لا يعلمون آداب المجلس، ولا يرون أنا جئناهم لسماع حديثهم. علمًا أننا لسنا هنا بصدد أنهم جاءوا النبي ﷺ نفاقًا وكانوا يكذّبون قوله في قلوبهم. فما داموا قد جاءوا - في الظاهر - لسماع حديثه ﷺ عن الإسلام، وكان ﷺ يرى ضرورة دعوتهم، فعبس وتولى عن ابن أم مكتوم حين تصرّفَ هذا التصرّف الخاطئ. وهذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾.

ثم إن كلمة ﴿الأَعْمَى﴾ نفسها التي هي معرفة باللام هنا أيضا تبين أن هذه الآيات تشير إلى واقعة معينة، وإلى أعمى معيَّن. فلو كانت هذه الآيات مدحًا لهذا الأعمى، أي لو أراد الله تعالى لَوْمَ رسوله على عدم التفاته إلى الأعمى، أو مَدْحَ تصرُّف الأعمى، فكان الأولى أن يذكر الله اسمه، ويقول إن فلانا قد جاء إلى رسولنا فعبس ﷺ وتولى، ولكن لم يذكر الله اسم هذا القادم لأن تصرفه لم يكن محمودا، بل قال ﴿أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾، أما لو كان تصرّفه محمودًا وأراد الله مدحه لذكر اسمه حتما، وقال: عبس وتولى أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم؟! ولكن الله تعالى لم يقل ذلك

من ناحية، ومن ناحية أخرى استعمل كلمات ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في حق رسوله ﷺ، لأن تصرفه ﷺ هذا دليل على سمو أخلاقه.

فعندي أن الواقعة الحقيقية هي أن عبد الله بن أم مكتوم حضر مجلس النبي ﷺ ووجّه إليه سؤاله بما يجرح مشاعر ضيوف الرسول ﷺ، ويُخِلّ بحديثه، فتضايق النبي ﷺ من تصرفه، ولكنه لم يُبد له سخطه، وإنما اكتفى بأن عبس وتولى، ومعلوم أن الأعمى لا يرى العبوسَ ولا التولي. ولما وجد ابن أم مكتوم أن النبي ﷺ لا يلتفت إليه بل هو مستمر في حديثه مع الضيوف خرج من المجلس متضايقًا. ولعله حكى للآخرين ما حدث، ومن المحتمل تماما أن يكون هؤلاء ذوي طبائع حماسيّة مثله، فقالوا في أنفسهم إن ما حصل ليس بجيد، بل كان على النبي ﷺ أن يهتم بابن أم مكتوم، إذ كيف يتجاسر هؤلاء الأعداء الخبثاء أن يحضروا مجلسه ﷺ ويضيعوا وقته الغالي الثمين؟

باختصار، إن قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ يشير إلى رسول الله ﷺ، وقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ موجه إلى الذين كانوا يحملون أفكارا كأفكار عبد الله بن أم مكتوم، حيث بين الله تعالى أن رسولنا ﷺ قد تصرّف مع هذا الأعمى بما يدل على عظمة أخلاقه، لأن الأعمى تدخل وأراد مقاطعة حديثه، فاكتفى رسولنا ﷺ بالعبوس والإعراض عنه، حتى لا يسوء الموقف فيما لو أبدى النبي ﷺ غضبًا وسخطًا.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٤﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

ما يُدْرِيك: أدراه به: أعلَمَه. "ما أدراك وما يدريك" أي ما تَدري، وفي القرآن... ﴿وما يُدريك لعلّه يَزَّكّى﴾. (الأقرب)

يَزَّكّى: أصلُه: يتزكّى، وتَزكّى فلان: صار زكيًّا. (الأقرب)

يَذَّكَّر: أصلُه: يتذكّر، وتَذكّرَ الشيءَ بمعنى ذكَره.. أي حفظه في ذهنه؛ وتذكّرَ ما كان قد نسي: فطِن به (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿لعلّه يَزَّكّى﴾ أن يحفظ النصيحةَ في ذهنه، أو يفطِن ما نسيه.

التفسير: يقول المفسرون إن قوله تعالى ﴿ما يُدْرِيك﴾، وقوله ﴿لعلّه يَزَّكّى﴾ جملتان منفصلتان؛ فقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيك﴾ يعني: مَن أخبرك أنه لن يهتدي؟ وقوله تعالى ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ يعني: فربما يهتدي. والحق أن المعنى الواضح للآية هو: مَن أعلمك أنه لن ينتفع من الهداية حتمًا، إذ الخطاب هنا موجَّه إلى بعض المسلمين الذين قد نشأت -أو يمكن أن تنشأ- هذه الأفكار في قلوبهم. فيقول الله تعالى: أيها المعترض، مَن أعلمَك أنه لو توجّهَ الرسول ﷺ إلى عبد الله بن أم مكتوم لانتفعَ حتمًا؟ ألا يرتدّ الناس؟ فكم من شخص يقوم بدعاوى عريضة عن إيمانه، ثم يأتي عليه زمان يصب كل جهوده في محاربة الإيمان. فما دام هذا هو الأمر الواقع، وما دام الناس عرضة لهذه التقلبات، فكيف عرفتم أن التوجه إلى فلان سيكون نافعًا له حتمًا؟ إن النبي يتبوء مكانة عالية من التقدير والطاعة، بحيث إنه لو نادى أحدًا فمن واجبه أن يلبي نداءه فورًا ويترك عمله مَهْما كان عمله مُهمًّا ومَهْما كان تركه صعبًا. والحق أن هذه هي علامة الإيمان؛ فإذا نادى النبي أو نائبه أحدًا، فلا يحق له أن يظل مشغولا بأمر آخر، حتى ولو كان مشغولا بالتبليغ، حتى ولو اعتبر الناس تدخُّلَ النبيِّ أو نائبِه من سوء الأدب. فلو كان ابن أم مكتوم مشغولا بدعوة الكافرين وناداه النبي ﷺ لكان واجبًا عليه ترك دعوتهم وتلبية ندائه ﷺ غير مكترث بما يقوله الناس، ولكن ليس من حق ابن أم مكتوم أن يستجيب له الرسول ﷺ تاركًا دعوة الكافرين إلى الإسلام. القول بأنه لا جدوى في توجُّه النبي ﷺ إلى الكفار أمرٌ غير مؤكد، وكذلك القول أن توجّه النبي ﷺ إلى ابن أم مكتوم مُجْدٍ أيضا أمرٌ غير مؤكد، وما دام الأمران اجتهاديْن غير مؤكدين، فكان من واجب النبي ﷺ أن يعمل بما يتفق مع الأخلاق، ويتجنب ما ينافي الأخلاق؛ ولذلك لم يلتفت النبي ﷺ إلى ابن أم مكتوم، بل ظل متجهًا بحديثه إلى الكفار. إذًا فكأن الله تعالى يقول في قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أيها المعترض، مَن أعلمَك أن محمدا ﷺ قد أخطأ التصرف، وأن ابن أم مكتوم يمكن أن يتزكى وغيره لا يمكن أن يتزكى؟ لا شك أن ابن أم مكتوم قد تزكى فيما بعد، ولكن الرسول ﷺ ما كان يدري كيف يكون مصير هذا المؤمن،

وهل سيظل متمسكا بالهدى أم لا. فما دام الرسول ﷺ مأمورًا من عند الله باحترام الضيوف الذين حضروا في بيته، وتقديم ما هو مقدَّم وتأخير ما هو مؤخَّر، فكيف يمكن للرسول ﷺ أن يفعل عكس ذلك؟ وما يدريه أن ابن أم مكتوم سيتزكى حتمًا لو تم الالتفات إليه؟ أو أنه لو ذُكِّر فستنفعه الذكرى؟

قد يقول قائل هنا: كان انتفاع ابن أم مكتوم من الذكرى مرجوًّا ولو قليلا، فيرد الله عليه: مَن أخبرك أنه سينتفع حتمًا ولو قليلا؟ هذا اجتهاد ظني وذاك اجتهاد ظني أيضًا. ولما اجتمع اجتهادان فضّل النبي ﷺ العملَ بالاجتهاد الذي يتفق مع إكرام الضيف ومع أمر الله تعالى، فقدّم المقدَّم وأخّر المؤخَّر.

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٦﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

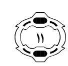
استغنى: غَنِيَ غِنًى وغَناءً: ضدُّ فقُر، أي كثُر مالُه. استغنى اللهَ: سأَله أن يُغْنيه. استغنى عنه به: اكتفى. (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى﴾: أي أما مَن يطلب المال أو الغنى، وأما من لا يبالي.

تصدّى: أصلُه تتصدّى. تَصدَّى له: تعرَّضَ وهو الذي يستشرفه ناظرًا إليه. وتصدى للأمر: رفَع رأسَه إليه. (الأقرب)

التفسير: هنا أيضًا قد ردّ الله على الذين اعترضوا على تصرف الرسول ﷺ، حيث قال لهم: تزعمون أن محمدًا يهتم بالأغنياء، ويهمل الفقراء البسطاء، مع أن ما تقولونه ينطبق عليكم؛ فأنتم تهتمون بالأثرياء وتُهملون الفقراء، فكيف ترمون محمدا بدائكم؟ هلاّ فكّرتم في حالكم لتروا أنكم أنتم الذين تهتمون بالأثرياء أشد الاهتمام، مع أنكم لستم مسؤولين عمن يهتدي ومن لا يهتدي، إنما عليكم اتباع أحكام الله تعالى، والعمل بما يأمركم الله به معرضين عما تهوى أنفسكم. إذا أمركم

الله تعالى أن تكلّموا المؤمن فكلِّموا المؤمنَ، وإذا أمركم الله أن تكلّموا الكافر فكلِّموا الكافرَ. ولكنكم تتوجهون إلى الأثرياء عمدا وقصدًا، مع أن الله تعالى وحده يعلم من ذا الذي سيصبح من النازعات غرقًا والناشطات نشطًا، إنما واجبكم أن تعملوا بأوامر الله وأحكامه. لقد أمركم الله بإكرام الضيف، فعليكم بإكرامه، وأمَركم الله بتقديم المقدَّم وتأخير المؤخَّر، فعليكم أن تعملوا بهذه الوصية غاضّين النظر عما إذا كان غنيًّا أم فقيرا، ولكنكم تهتمّون بالأثرياء، ومع ذلك تقولون أن محمدًا يهتم بالأثرياء معرضا عن الفقراء، مع أنه ﷺ لم يفعل ما فعل إلا بأمر الله ومشيئته، مطيعا لأحكامه سبحانه، لا مخالفًا لقوانينه، ولكن بدلاً من أن تفكّروا في حالكم تنسبون هذا العيب إلى الرسول ﷺ، مع أن ما فعل كان عين الصواب.

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ



شرح الكلمات:

يسعى: سعى إليه: قصَد؛ وسعى الرجلُ: مشى وعَدا (الأقرب).

تلهّى: أصلُه: تتلهَّى أي تتشاغلَ. (اللسان)

التفسير: هذه الآيات أيضًا لا تشير إلى حادث معين، كل ما نعرف منها أنها لا تنطبق على واقعة ابن أم مكتوم، لأنه كان ضريرًا، فكيف جاء إلى النبيّ ﷺ يسعى. ثم إنه كان رجلا شجاعًا، حيث إنه لما حضر مجلسَ النبي ﷺ ثارت ثائرته فأخذ يعنّف الكافرين، ويقول كيف حضر أعداء الله ورسولِه في مجلسك؟ إنهم قوم ملعونون، والتوجه إليهم مضيعة للوقت، بينما يصف الله تعالى هذا القادمَ بأنه يخشى؛ فثبت من هنا أن هذه الآيات لا تتعلق بعبد الله بن أم مكتوم، وإنما رسَم الله تعالى هنا صورة لواقع أخلاق الناس عادةً، وردَّ على الذين اعترضوا على الرسول ﷺ، فقال: لو جاءكم فقير يسعى تُعرِضون عنه، ولكن إذا جاءكم غني لم تتمالكوا

أنفسكم فرحًا بأن ثريًّا جاءكم، ومع ذلك تتّهمون رسولنا بأنه يهتم بالأثرياء ويهمل الفقراء. أفليس هذا ظلمًا صريحًا؟ وبالفعل نرى أن الناس يفخرون كثيرا لو أتيحت لهم فرصة الحديث مع شخص كبير ثريّ، ولكن لا يكترثون لما يقول لهم أنبياء الله تعالى. كان المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة ينتظر القطار في محطة القطار بلاهور أو أمرتسر، فجاءه باندت ليخرام الهندوسي وسلّم عليه. وكان ليخرام يحتلّ مكانة مرموقة جدًّا عند الفرقة الهندوسية "آريا سماج"، ففرِح أصحاب المسيح الموعود عليه السلام الذين كانوا معه بتسليمه عليه، ولكنه عليه السلام أعرض عنه ولم يجبه. فظنّ أصحابه أنه لم يعرف أن ليخرام يسلّم عليه، فقالوا له: إن ليخرام يسلّم عليك. فقال المسيح الموعود عليه السلام في حماس شديد: ألا يستحي هذا! يسبّ سيدي محمدًا صلى الله عليه وسلم ويسلّم عليّ؟ هذا يعني أنه عليه السلام لم يبالِ بليخرام، لكن الناس عامة يعتبرون لقاءهم بزعيم كبير نجاحًا كبيرًا، وإذا جاءهم أحد كبراء القوم يلقونه بحفاوة كبيرة، ولكن إذا جاءهم فقير لم يلقوا له بالاً! فالحق أن الله تعالى قد نبه هنا هؤلاء المعترضين إلى عيبهم هذا ووجّه إليهم زجرًا وتوبيخًا، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.. أي إذا جاءكم أحد البسطاء الفقراء ساعيًا وهو يخشى الله تعالى، فلا تأبهون له! فكيف تعترضون على نبينا؟ عليكم أن تنظروا إلى حالتكم الأخلاقية، لأنه إذا جاءكم أحد الأثرياء قمتم تعظيمًا له، متوجهين إليه بجلّ اهتمامكم، ولكن إذا جاءكم مسكين فقير أعرضتم عنه، ولم تطيقوا الحديث معه. ليس اعتراضكم إلا أن رسولنا لم يتوجه إلى ابن أم مكتوم لما جاءه، مع أن الإعراض وعدم الالتفات إليه كان هو الأَولى، إذ تصرّفَ في مجلسه صلى الله عليه وسلم بما ينافي الأخلاق ويخالف آداب المجلس، فاستحق الإعراضَ عنه، وأنتم تعترضون على هذا العمل المباح، في حين أنكم أنتم الذين تهتمون بالأثرياء وتُهملون الفقراء.

باختصار، هناك احتمال واحد يمكن الأخذ به من بين الاحتمالات الأربعة التي فصّلتُها من قبل، وهو عندي أن ﴿عَبَسَ وَتَوَلّى﴾ يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، وأن عبوسه أمامَ الأعمى وإعراضَه عنه عملٌ يجب أن يثنى عليه، وقد نــزلت هذه الآية

أيضًا مدحًا لخُلقه ﷺ لا ذمًّا له؛ لأن اعتباره ذمًّا يخلّ بترتيب الآيات. لقد بيّنتُ من قبل أن هذه الآيات بدأت بصيغة الغائب، ثم تحولت إلى صيغة الخطاب، وهذا التغير لا يخلو من حكمة، وما هي إلا أن الله تعالى قد أثنى على فِعل رسوله ﷺ بصيغ الغائب، ثم بصيغة الخطاب قد ردّ على الوساوس التي نشأت، أو قد تنشأ، نتيجة هذا الحادث في قلوب الكافرين أو بعض المسلمين الذين لم تتيسر لهم تربية كافية، وبيّن أيضًا أن تصرُّف رسولنا ﷺ يتفق مع مشيئتنا وأحكامنا. إن هؤلاء المعترضين أنفسهم يفرّقون في المعاملات بين غني فقير وصغير وكبير، ولكن رسولنا لا يفعل مثلهم، فاعتراضهم واهٍ لا قيمة له البتة. كيف يمكنهم الجزم بأن الاهتمام بابن أم مكتوم ينفعه حتمًا؟ هل تلقوا وحيًا أكد لهم ذلك؟ إنما هو مجرد اجتهاد منهم، وحيث إن قولهم مجرد اجتهاد ليس أساسه علم اليقين، فاعلموا أن رسولنا قد قدَّم ما يجب أن يقدَّم، كما أنه أدى واجب إكرام الضيف، معربًا عن سخطه على تدخُّل ابن أم مكتوم بحيث لم يجرح مشاعره أيضًا. إذًا، فإنه ﷺ قد أحسن صنعًا فيما فعل. أما أنتم أيها المعترضون على محمد، فأنتم أصحاب هذه الأخلاق المشينة، ثم تتهمون بها رسولنا ﷺ.

الواقع أن اتهام الأنبياء والطعن بهم بدون حق أمرٌ خطر جدا، لأن الله تعالى يغار على أنبيائه جدًّا، وقد أبدى غيرته لرسوله ﷺ في هذه الآيات، فقال للكافرين إنكم تطعنون في رسولنا بعيب أنتم موصومون به، وتصرفات رذيلة أنتم تأتونها.

والمنافقون يثيرون اعتراضات شتى ضدي أيضًا، فأُجيبهم دائما: إن اعتراضكم في حد ذاته صحيح، ولكنه لا يقع عليّ، بل يقع عليكم، لأن تصرفاتكم تؤكد أنكم موصومون بهذه العيوب. وبنفس الأسلوب قد رد الله تعالى هنا على هؤلاء المعترضين، فقال صحيح بأن بعض الناس يهملون الفقراء ويهتمون بالأغنياء، ولكن محمدًا ﷺ لم يفعل هذا، وإنما أنتم أيها المعترضون مصابون بهذا العيب. وهكذا نبه الله المسلمين بأن بعض حديثي العهد من المسلمين أو بعض الكافرين مصابون بهذه

النقائص والعيوب، ولا يتحرجون في أن يرموا بها رسولنا أيضا، فعليكم بتجنب هذه النقائص، وتأدّبوا مع رسولكم غاية الأدب.

أما لو غضَضْنا الطرف عن هذه الروايات، فتفسير الآيات يصبح سهلاً جدًّا، حيث نعتبر قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ متعلقًا بكافر، أي أن النبي ﷺ كان جالسا مع بعض رؤساء المشركين، فحضر أعمى مجلسه ﷺ ليتعلم منه الدين، فعبس منه أحد الكفار الحاضرين وتولى وأعرض عنه ازدراءً به. فكأن الله تعالى يقول لهذا العابس المُعرِض: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾؟ وأيُّ شكّ في أن صديق المرء وتلميذه هو الذي ينفعه. والعاقل لا يُكرِم إلا مثل هذا الإنسان. فيا مَن عبستَ وتوليتَ ازدراءً بشخص بسيط فقير حضر إلى محمد، تهتم بالأثرياء ذوي الجاه في الظاهر، بغضّ النظر عما إذا كان يريد أن يتزكى أم يريد الفسق والفجور، لأنك إنما تهتمّ بماله وجاهه لا بشيء آخر، أما الشخص الآخر - الذي ﴿جاءك يسعى﴾، أي سائلا محتاجا، ﴿وهو يخشى﴾، أي يخاف عدم التفاتك إلى حديثه لكونك من كبراء القوم - فإنك لا تُكرِمُه، لا تقديرًا بأنه اعتبرك معقد آماله، ولا عطفًا على مسكنته وخشيته، بل تطرده بحجة ضيق الوقت عندك. وتظن أن اهتمام محمد ﷺ بالمساكين من العميان والمعاقين دليل على وضاعته، وأن حُبّك لصحبة الأغنياء دليل على رفعة شأنك! ولكن ظنّك هذا ظنٌّ خاطئ، لأن الذي يُرجى إصلاحه وتزكيته هو الأَولى بالاهتمام؛ فما يفعله محمد هو العمل الحسن، أما عبوسك وإعراضك فلا مبرر له.

واعلم أن الله تعالى قد بيّن بذلك أن جنود الإسلام لن يُختاروا من ذوي الغنى والثراء، بل يختار سبحانه وتعالى لذلك تلك الأرواح الطيبة التوّاقة إلى قبول الحق ونيل التزكية. وكأن الله تعالى قد أوضح للمسلمين أن لا يبحثوا بين أهل الثراء والرياسة عن الأرواح التي تكون موصوفة بالنازعات والناشطات وغيرها من الصفات، بل الله أعلم بها وبمكانها، وهو الذي سيختارها بنفسه.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾

التفسير: نظرًا إلى المفهوم الذي ذكرتُه من قبل، ستُعتبر كلمة ﴿كَلَّآ﴾ موجهةً إلى ذلك الإنسان الضعيف الذي شكّ في الرسول ﷺ، وانتابت قلبَه وساوسُ تتنافى مع الإيمان القوي، فكأن الله تعالى يقول له: ليس الأمر كما يظن، بل إنها تذكرة.. أي قد أنـــزلنا القرآن ليكون موعظة وهداية لكافة الناس إلى الصراط المستقيم، فكل من كان قلبه منسجما مع هذا الهدى، سوف يصدّقه حتمًا وسيأتي إليه تلقائيًا، وأما غير المنسجمين مع هذا الهدى فلن يقبلوه، إذ لن ينمو هذا الغِراس إلا في تربة صالحة له. فالقول إن الرسول ﷺ هو من ينتقي البعض ويرفض الآخرين قول غير سليم. لقد قلتُ في البداية إن سؤالا طرح نفسه عن سورة النازعات وهو: مِن أين تأتي هذه النفوس الطيبة التي تصبح نازعات وناشطات؟ فأجاب الله هنا في سورة "عبس" على هذا السؤال وقال: لماذا ينشأ هذا السؤال في قلوبكم؟ ما دام اختيار هذه النفوس بأيدينا، فلا داعيَ أن تقلقوا. نحن أعلَمُ بالذين يصلحون ليكونوا من النازعات والناشطات، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء، أو من كلتا الفئتين. نحن أعلم بما عندهم من مزايا وكفاءات كامنة، ونحن الذين نخرج من بين القوم تلك النفوس القادرة على القيام بهذه المهام العظيمة، بغض النظر عما إذا كانت من الأغنياء أم من الفقراء. وبالفعل قد أسلمَ عثمانُ ﷺ الذي كان من أسرة ثريّة بمكة، وأسلمَ طلحةُ والزبير اللذان كانا من عائلات ذات نفوذ وسيادة، وإن لم يخترهما القوم للسيادة في ذلك الوقت. والفرق الوحيد بين عثمان وطلحة والزبير أن الأول قد أتى معه بالمال، أما الآخريْن فلم يأتِيا بأي مال. إذًا، فقد أخرج الله تعالى مِن الكفر كل مَن وجد فطرتَه منسجمة مع الإسلام، سواء أكان مِن أبناء الأسر العريقة الثرية أو مِن الأسر الفقيرة.

كان في جماعتنا أخ اسمه "شيخ غلام أحمد" – غفر الله له – وكان يظن أنه طويل الباع في التصوف، وكان يريد فرض نظريته الصوفية على الجميع. وقد قابلني ذات مرة وقال: أتحبّ الفقراء أم الأغنياء؟ فحاولتُ – بدايةً – ألا أجيبه، ولكنه أصرّ

عليّ بإلحاح وتكرار، فقلت له: لا أحبُّ الأثرياء ولا الفقراء، ولا أكره الأثرياء ولا الفقراء، وإنما أنظر إلى مَن يربطه الله تعالى معي لنشر دينه، بغض النظر عن فقره وغناه. فإذا اختار الله تعالى لمساعدتي فقيرًا أحببتُه، وإذا اختار غنيًّا أحببتُه، فأنا رهنُ إشارةِ الله فيمن يختاره لهذه المهمة.

إذًا، فمِن سنة الله أنه يختار لنصرة دينه الأغنياءَ والفقراء أيضًا، وإنْ كان أكثرَ اختيارًا للفقراء، وإذا اختار غنيًّا فليس ذلك لِغِناه أو عراقة أسرته، بل لاستحقاقه ولِكفاءاته الشخصية. ولكن بما أنه مِن أسرة عريقة، فينال التكريمَ في جماعة النبي أيضا. هذا هو المعنى الذي أكده الله تعالى بقوله ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾.. أي أن القرآن كتابُ موعظة ونصيحة، فمَن شاء قرأه وانتفع به ونال الرفعة والإكرام، ولا دَخْلَ للنبي في ذلك. لقد جعل الله طبائع بعض الناس منسجمة مع القرآن، وسيظلون ينتفعون بهَدْيِه تدريجيًا دون أن يعيقهم عن ذلك عائق. فإذا كانت طبيعة ثري منسجمة مع القرآن، فلا يمكن منعه من الاقتداء به، وإذا كانت طبيعة فقير منسجمة معه، فلا يمكن منعه من اتّباعه أيضا. فالظن أن دين الله هو للفقراء فقط ظنّ خاطئ، بل من شاء دخل فيه وانتفع ببركاته وتقرب إليه تعالى، لأنه سبحانه لم يمنع أحدا من ذلك.

هذه هي الجملة التي كنتُ قد قلتُها عن النبي ﷺ والتي ثارت بسببها ضجة كبيرة في هذه الأيام. لقد قلتُ إن الله تعالى لم يجعل سُبُلَ قُرْبِه محدودة، ولم يجعل على سبل المراتب الروحانية العالية ملائكة ليمنعوا الناس من الارتقاء فيها، بل إن سبل قربه ﷻ مفتوحة، وستظل مفتوحة حتى إذا أراد أحد أن يسبق النبي ﷺ في قرب الله تعالى فليسبقْه. إنما أقصد بقولي هذا أن الله تعالى لم يُعِقْ طريق التقرب إليه، فإذا كان أحد يستطيع أن يسبق النبي ﷺ في قربه تعالى فليجرّبْ وليُرِنا ذلك! وحيث إن أحدًا لم يسبق النبي ﷺ حتى اليوم، ولن يستطيع في المستقبل، ورغم أن النبي ﷺ هو أفضل الناس جميعا، إلا أنه لا يجوز القول إن الله تعالى قد أوصل النبي ﷺ إلى هذا المقام جبرًا، ومنَع الآخرين من الوصول إليه قهرًا. كلا، بل إن سبل قرب الله تعالى مفتوحة، فمن أراد أن يتقدمه ﷺ فليحاول. هذا هو نفس المعنى الذي بيّنه الله تعالى

بقوله ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾.. أي أننا لم نمنع أحدًا من ذلك. فإن القرآن للناس جميعا، للغني والفقير، والعالم والجاهل، والأسود والأبيض، والشرقي والغربي، فمن شاء انتفع به.

وضمير المؤنث في قوله تعالى ﴿إنها﴾ يعود إلى الهداية أو الموعظة أو الذكرى المذكورة من قبل، وضمير المذكر في ﴿ذَكَرَه﴾ يرجع إلى القرآن الكريم، والتقدير: إن الهداية التي جاءت من الله تعالى تذكرةٌ، فمَن شاء ذكَره، أي ذكَر القرآنَ. كما يمكن إرجاع ضمير المؤنث في ﴿إنها﴾ إلى الذكرى أو إلى القرآن الكريم، والأَولى إرجاعُه إلى القرآن، لأن الآيات التالية تتحدث عنه خاصة، فاستخدم الله تعالى ضمير المؤنث مرة وضمير المذكر مرة أخرى، ليبين أن المراد هو القرآن. وحيث إن الله تعالى قد ركّز هنا خاصة على صفة الذِّكرى التي يتصف بها القرآن الكريم، فاستخدم ضمير المؤنث أيضًا.

نقطة جديدة: ويمكن تفسير هذه الآيات تفسيرًا لطيفا آخر، وهو أن نعتبر هذا الكلام من قبيل الهزء والتهكم، كقوله تعالى للكافر ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(الدخان: ٥٠).. أي كُلْ طعام الجحيم لأنك عزيز كريم، والمعنى أنك كنت تحسب نفسك من ذوي العزة والقوة والنفوذ، والحق أنك لم تكن كذلك، وإنما خدعت نفسك بهذه الفكرة. لو كنتَ كما ظننتَ، لما اضطررتَ اليوم لأكل الطعام الجهنمي الرديء. قال صاحب الكشّاف إن هذه الآية من قبيل الهزء والتهكُّم بمن كان يتعزز ويتكرم على الناس (الكشاف).. أي أن الله تعالى قد صدّق قول الكافر في الظاهر، بينما دحضه في الواقع، واعتبره غير معقول البتة.

وهذا الأسلوب التهكّمي شائع في اللغات الأخرى بما فيها لغتنا الأردية أيضًا، فمثلاً إذا كنتَ صديقًا حميمًا لشخص تريد له الخير دوما، فنسب إليك ما يعاكس سلوكك هذا، فتقول له: نعم، نعم، أنا عدوك، في حين أنك تقصد أني صديقك و لم أزل أخلص لك الود والنصح، فكيف تتهمني؟ فهذا الأسلوب تأييد في الظاهر وإنكار في الحقيقة. وهذا هو المقصود في قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حيث بين الله تعالى أن هذا العدو كان يتبجح أنه عزيز كريم، وأن محمدًا حقير ذليل

– والعياذ بالله – فاليوم سنلقي هذا العدو في الجحيم، ونقول له: ذُقْ هذا العذاب لأنك عزيز كريم.. والمراد: أنت كاذب في ادعائك؛ إذ لو كنت عزيزا كريما ما ذُقتَ هذا العذاب.

وعندي أن سورة "عبس" أيضًا تتحدث بهذا الأسلوب من الكلام. فذات مرة حضر شخص ضرير إلى النبيّ ﷺ وهو يتحدث مع بعض الكافرين، فأراد مقاطعة حديثه، فبَدَت على وجهه ﷺ أمارات الاستياء، فأعرض عنه محاولاً كبت استيائه. وحيث إن الكافرين يسعون دائمًا لبثّ الفُرقة بين المؤمنين، فاستغلّوا هذا الحادث للإضرار بالإسلام ببثّ الشبهات والوساوس في قلوب المسلمين، فأشاعوا بين القوم أن محمدًا ازدرى أحد أتباعه الفقراء ازدراءً شديدًا بسبب فقره، وسخط عليه في مجلس كان يضم شرفاء مكة. فأراد الله أن يكشف ضحالة موقفهم وسخف اعتراضهم، فتحدث عن الحادث بأسلوب التهكم والسخرية، فقال ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾.. أي أن رسولنا قطّب وجهه وأعرض لمجرد حضور ابن أم مكتوم الأعمى عنده! والمقصود أن الأصدقاء والأعداء كلهم معترفون بسموّ أخلاق رسولنا، والجميع يعرف أنه لا يحضر مجلسَه ﷺ ولا يلتف حوله إلا الفقراء، وأنه يعمل جاهدا ليل نهار لفكّ الرقاب وللنهوض بالفقراء والأرامل واليتامى والمساكين، فكيف يمكن لعاقل أن يصدّق أن هذا الشخص يقطّب وجهه ويعرض عن الأعمى، لمجرد فقره وعماه؟ فهذه التهمة نفسُها تبطل نفسَها. كما يقال في الفارسية إن الشمس دليل على وجودها. إن نسبة هذه التهمة إلى محمد رسول الله ﷺ تشكل بنفسها دليلا على بطلانها، فلا حاجة إلى أي دليل آخر.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾.. فقد ذكر فيه دليلاً عقليًّا ليكمل به هذا التفنيد، فبيّن أن الأمر لا يتعلق بالأعمى والبصير، بل المهم أن محمدًا رسول الله لا يدري مَن الذي سيهتدي ومَن لا يهتدي، ومن سيظل ثابتًا على الهدى، ومن يزلّ عنه. إنه ﷺ ملزم بظاهر الشرع، ولا يتدخل في الغيب الذي يخص الله، فهو وحدَه يعلم كيف تكون نهاية الذين نجدهم اليوم كافرين، وعلامَ يموت الذين نجدهم اليوم مسلمين. إن شرعنا يأمركم أن تهتمّوا أولاً بالذي يكلّمكم، أما الذي يأتي متأخرًا

فلا بد أن ينتظر حتى يأتي دوره للكلام. وقد عمل رسولنا بحكمنا هذا، ولا علم عنده بالغيب حتى يخبر مَن ذا الذي تنفعه الدعوة إلى الإسلام، ومن الذي لن تنفعه بل هي مضيعة للوقت.

لقد أتى على بلال ﷺ وقت كان فيه هدفًا للتعذيب في سبيل رسول الله والإسلام، حيث كان يُطرَح على الرمال المحرقة، ويُسحَب على الحجارة، ويقفز الصبيان على صدره العاري، ليرتد عن الإسلام، بينما كان عمر ﷺ في تلك الأيام يخرج مخترطًا سيفه ومتحينًا الفرصة لقتل محمد ﷺ (أُسد الغابة، والطبقات الكبرى، السيرة لابن هشام: إسلام عُمر). ولكن ما الذي حدث فيما بعد؟ لا شك أن بلالا لقي عاقبة حسنى، ولكنه لم يبلغ درجةَ عمر رضي الله عنهما.

إذًا، فما كان لمحمد ﷺ أن يخالف عندها حُكم الشرع لمجرد أنّ أحد الفريقين كان كافرا في ذلك الوقت والآخر مسلما؟ إنه ﷺ لم يدْرِ كيف يكون مصير هؤلاء الكافرين في الظاهر اليوم. وفي رواية أن العباس كان أحد هؤلاء الكافرين الحاضرين في المجلس (فتح البيان). ومعلوم للجميع أن ابن أم مكتوم لم يساو العباس درجةً رضي الله عنهما، فالقوة التي نالها الإسلام بإسلام العباس، وكثرة استشارة الخلفاء الراشدين إياه والعمل بمشورته، لدليلٌ ساطع على مكانته العظيمة.

إذًا، لقد فنّد الله تعالى هذه التهمة بدليل عقلي أيضًا حين قال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾.

أما قوله تعالى ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ فهو أيضا من قبيل الهزء والتهكم بالكافرين؛ حيث أعاد الله تعالى طعن الكافرين بأن محمدًا يهتم بهم لمكانتهم اهتماما كبيرا ولا يهتم بالأعمى لفقره وبساطته. وكأنه تعالى قد قبِل بصحة طعنهم في الظاهر على سبيل الإنكار، ذلك كقول الشخص العادل لمن يطعن في عدله: نعم، أنا لا أعرف العدل! مع أنه يقصد أن نسبة عدم العدل إليه بحدّ ذاته دليل على زيف تهمته. فهذا هو المراد الرباني من ذكر هذا الاعتراض، إذ ذكر الله بعده دليلا عقليًا على بطلانه كما فعل من قبل، فقال ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾.. أي أن هذا الطعن باطل بداهة، وخلاف للعقل، لأنهم لو كانوا يعقلون

لعِلموا أن أمر هداية هؤلاء الكافرين الذين حضروا مجلسك أو عدم اهتدائهم ليس في يدك ولا من مسؤوليتك.

إذًا، فكأن الله تعالى قال لرسوله في الآيات السابقة إنك لا تعلم ما إذا كان ابن أم مكتوم سيموت على الهدى أم لا، أما في هذه الآية فبين لرسوله أنك لن تُسأل عن عدم اهتداء هؤلاء الكافرين. إذًا، فأين مصلحتك في عدم اهتمامك بابن أم مكتوم، وفي اهتمامك بالكافرين؟ كلا؛ ليس في إعراضك عنه واهتمامك بهم مصلحة شخصية لك؛ وبالتالي ينبغي أن يدرك كلُّ عاقل أن هناك غرضًا آخر لما حصل، ألا هو ما قد بيّنّاه من قبل؛ أعني ضرورة العمل بظاهر أحكام الشرع.

أما قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى﴾.. فهو أيضا من قول الكافرين الطاعنين بالرسول ﷺ، وقد جاء أيضًا على سبيل الهزء والتهكّم، والمراد إنكاره وتفنيده في الحقيقة. والدليل الساطع القطعي على صحة موقفي هو قول الله تعالى إِثر ذلك ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.. أي أن ما قيل مِن قبل باطل تمامًا. والواضح أن ما قيل من قبل هو طعنُ الأعداء بالرسول ﷺ بأنه قد تصرف مع الأعمى بسوء الخُلق، إذ أعرض عنه مهتمًا بالأغنياء. إذًا، أفليس غريبًا أن نأخذ بالرأي الذي قد فنده الله تعالى بنفسه؟ فإن كلمة (كلا) قد أكدتْ أن كلّ المطاعن السابقة باطلة.

فثبت من هنا أن كل ما ذكر الله تعالى من قبل - بما فيه الطعن في الرسول ﷺ - إنما ذكره على سبيل الهزء والتهكم؛ فصدَّقه في الظاهر وفنّده في الواقع، كما هو مفهوم الأسلوب التهكمي. فمن المعروف أن (كلا) تأتي للاستنكار الشديد للمذكور من قبل، فقد ورد في كليات أبي البقاء: "قال عمر بن عبد الله: إذا سمعتَ الله يقول: كلا، فإنما يقول: كذبتَ" (الكليات: فصل الكاف). فثبت أن المراد من قول الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أن المطاعن المذكورة من قبل كلها باطلة، بدليل أن القرآن كتابُ موعظة، ومن واجب محمد رسول الله أن يقرأه على الكافر وعلى المؤمن أيضًا، فإذا قرأه على الكافرين فلا يحق للمؤمن أن يتدخل ويقاطع حديثه، فمحمد مصيب تماما في عدم رده على سؤال هذا المؤمن.

وورد في مغني اللبيب عن كلمة (كلا): "هي عند سيبويه والخليل والمبرّد والزجّاج وأكثرِ البصريين حرفٌ معناه الردع والزجر"، لا معنى لها عندهم إلا ذلك، حتى إنهم يجيزون أبدًا الوقفَ عليها والابتداءَ بما بعدها، وحتى قال جماعة منهم: متى سمعتَ (كلا) في سورة فاحكُمْ بأنها مكية، لأن فيها معنى التهديد والوعيد. وأكثرُ ما نـــزل ذلك بمكة، لأن أكثر العُتُوِّ كان بها". (مغنى اللبيب: الباب الأول في تفسير المفردات، حرف الكاف)

وقد اعترض صاحب "المغني" على ذلك قائلا: فيه نظرٌ إذ لا يظهر معنى الزجر في ﴿كلا﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾". (المرجع السابق).

ولكن اعتراضه باطل بداهةً، لأن الكلمات القرآنية نفسها تؤكد أن (كلا) جاءت هنا لتفند اعتراضًا، إذ قيل إثرها فورا: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، مما يدل على أنه تعالى يردّ هنا على منكري يوم الجزاء. فكيف يقال أن (كلا) لا تفيد هنا الوعيد والتهديد، بل تفيد الاتفاق والوداد والوعد؟!

إذًا، فإن كبار النحويين واللغويين يروْن أن لفظ (كلا) يأتي لتفنيد المنكرين والمخالفين ويتضمن معنى التهديد والوعيد، فثبت بقوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أن الله تعالى لا يصدِّق هنا التهم الواردة في الجُمل السابقة، إنما يفند أقاويل أعداء الإسلام. لو كان الله تعالى يريد تصديق هذه التهم، لما قال بعدها: ﴿كلا﴾، بل قال إن هذه التهم كلها صحيحة. وحيث إن الله تعالى ذكر هذه الأمور أولاً ثم أتبعَها بقوله ﴿كلا﴾، فثبت أنها تُهَم رمى بها الأعداءُ النبيَّ ﷺ بغير حق، وقد ذكرها الله تعالى في وحيه على سبيل الهزء والتهكم، مبينًا أن هذا ما تقولون عن رسولنا، لكنه قول باطل، لأن رسولنا بريء مما تقولون.

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٤﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٥﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٦﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

مُكَرَّمَة: كرَّمه: عظَّمه ونــزَّهه. (الأقرب)

فقوله تعالى: ﴿مُكَرَّمَة﴾ يعني معظَّمة ومنــزَّهة عن كل نقص.

مرفوعة: رفَعه رَفْعًا ضدُّ وضَعه. ورفَعه إلى السلطان رُفعانًا: قرَّبه. (الأقرب)

مُطهَّرة: طهَّره أي جعَله طاهرًا. (الأقرب)

سَفَرة: جمعُ سافِرٍ، ومعناه المسافر. قيل: لم يُرَ له فِعْل؛ والسافِرُ أيضًا الكاتب. (الأقرب)

كِرام: جمعُ كريم. والكريم: ذو الكرم؛ قيل: الكريم قد يُطلَق على الجواد الكثيرِ النفعِ؛ وقد يطلق من كل شيء على أحسنِه. والكريم من كل قوم ما يجمَع فضائلَه. وقيل: الكريم مَن يوصل النفعَ بلا عوض. فالكرمُ هو إفادةُ ما ينبغي لا لِعِوَضٍ (الأقرب).

بَرَرَة: جمعُ بَرٍّ وبارٍّ. وبَرَّ والدَه: أحسنَ الطاعة إليه، ورفُق به وتَحرّى مَحابَّه وتَوقّى مَكارهَه. (الأقرب)

التفسير: لقد وصف الله تعالى القرآن بكلمة ﴿صُحُف﴾، لا بكلمة (صحيفة)، وهذا في الواقع إشارة إلى شتّى سور القرآن الكريم التي أنــزلها الله تعالى بحسب حكمته منجَّمة متفرِّقة. يظن البعض أن الله تعالى قد جمع هذه القِطَع المختلفة دونما حكمة، ولكن القرآن الكريم لا يسلّم بنــزولها مفرَّقة فحسب، بل بوجودها المنفصل أيضًا، معتبرا كل سورة صحيفة مستقلة. وكأن الله تعالى قد أشار باستخدام كلمة صحف أن كل سورة قرآنية تشتمل على موضوع منفصل مستقل، وإلا فلا يمكن أن تُسمّى صحيفة.

كما أشار الله تعالى باستخدام كلمة ﴿صُحُف﴾ إلى حقيقة أخرى مذكورة في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى:١٩-٢٠).. حيث بيّن أنه تعالى قد جمع في القرآن كل ما كان في الصحف السابقة من أسمى التعاليم الأخلاقية والروحانية التي تتفق مع الفطرة الإنسانية. فرغم أن القرآن كتاب واحد، ولكنه يجمع صحف الأنبياء جميعًا، ولذلك وُصف بالصحف بدلا من الصحيفة.

وقد سُمّي كتاب موسى عليه السلام أيضا صُحُفًا في هذه الآية من سورة "الأعلى" لاحتوائه على تعاليم الأنبياء السابقين كلهم. وسُميت صحيفة إبراهيم عليه السلام صُحُفًا لاشتمالها على صحف نوح وبعض الأنبياء الآخرين، وقد سمي القرآن أيضا صُحُفًا لأنه قد حوى تعاليم كافة الأنبياء المبعوثين من آدم حتى رسول الله عليهم السلام، فما من تعليم تحتاج إليه الإنسانية إلا قد ذكره القرآن الكريم. فكما أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء إذ جمع في وجوده محاسن الأنبياء السابقين جميعا، كذلك سمي كتابه صُحُفًا، لأنه قد جُمِعت فيه صحف الأنبياء السابقين كلهم. والواقع أنه ما من نبي بُعث في الدنيا إلا وجاء معه بصحيفة، ولكن هذا لا يعني أن كل نبي جاء بشريعة جديدة وأحكام جديدة، بل المراد من الصحيفة هنا رسالة حقة ملائمة لعصرها، ولذلك يذكر القرآن صحف إبراهيم عليه السلام أيضًا، مع أنه لم يأتِ بشريعة جديدة، بل كان تابعًا لنوح عليه السلام، كما قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:٨٤). عندما بُعث آدم أتى بصحيفة، ولما بُعث نوح بعده أتى بصحيفة، فقد صارت هنالك صحيفتان، وكلما أتى الأنبياء بعدهما حملوا معهم تعاليم الأنبياء السابقين أيضا، حتى بُعث النبي ﷺ الذي أُعطي كتابًا احتوى على صحف الأنبياء السابقين كلهم، ولذلك وُصف القرآن بأنه ﴿في صُحُف مُكَرَّمَة﴾. وهذا الأمر يماثل الحقيقة المذكورة في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾(المرسلات: ١٢)، حيث أُشير فيه إلى بعثة المسيح الموعود. فمع أن هذا المبعوث رسول واحد، لكنه سُمّي رُسُلاً، ذلك لأنّ دعوته تتضمّن رسالات الأنبياء السابقين جميعًا، ولأنه كان ظلاً وبُروزًا لكل نبي سابق. وقد أُشير إلى هذا الأمر نفسه في إلهام وصف اللهُ تعالى فيه

المسيحَ الموعود بقوله: "جَرِيُّ اللهِ في حُلَلِ الأنبياء" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٦٠١).. أي قد جاء إلى الدنيا بَطَلُ الله في ثياب الأنبياء جميعًا. كذلك ليس القرآن صحيفة واحدة، بل هو مجموعة كافة التعاليم التي جاء بها الأنبياء السابقون، بالإضافة إلى التعاليم الإضافية التي قد نــزلت على نبينا ﷺ، ولذلك وَصَفه الله تعالى بقوله ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۞ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾.

وهذه الآيات رسمٌ رائع لترتيب القرآن الكريم، حيث ذكر الله تعالى ثلاث صفات للقرآن الكريم كالآتي: (مكرمة ومرفوعة ومطهرة)، ثم ذكَر إزاءها ثلاث خصال للذين سيكونون حَمَلةَ القرآن كالآتي: (سفرة وكرام وبررة). والصفة الأولى المذكورة هنا للقرآن هي ﴿مُكرَّمة﴾، ومعناها معظَّمة ومنــزَّهة عن كل نقص وخطأ.. أي أن القرآن كتاب معظّم وسوف تُرسى عظمتُه في الدنيا. وهنا ينشأ سؤال وهو: من البديهيّ أن المؤمنين بأي كتاب سماوي في العالم يُعظّمونه بقلوبهم ويحترمونه، وإن كان بعض الصحف يلقى من أهله تعظيمًا أكثر مما يلقاه غيره. وحيث إن كل كتاب سماوي يلقى التعظيم من قبل أهله، فلماذا، يا ترى، وُصف القرآن بوجه خاص أنه ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾؟ والجواب أن هذا إشارةٌ أن هذا الكتاب سيلقى تعظيمًا أكثر من أي كتاب سماوي آخر؛ ذلك لأن الصحيفة التي تحظى بالتكريم سلفًا إذا وُصفتْ بأنها مكرَّمة، فإنما يعني ذلك أنها ستلقى تعظيمًا أكثر من الكتب الأخرى. وبالفعل لا نجد في العالم كتابا يلقى من التكريم ما يحظى به القرآن الكريم. إنه يُحفَظ عن ظهر قلب، ويُقرَأ في الصلوات، ويوجد في الدنيا قوم يعملون به. أما الكتب الأخرى فلن تجد في الدنيا قومًا يعملون بكتاب واحد منها؛ فمثلاً لن تجد قومًا يعملون بالفيدا أو بالتوراة إلا ما شذ وندر، ثم إن هؤلاء أيضًا لا يعملون به إلا قليلا، أعني أنهم يعملون ببعضه، ولا يعملون ببعضه الآخر. أما الإنجيل فقد قُضِيَ عليه تمامًا من الناحية العَملية؛ فقبلَ أيام قد أفتى القساوسة في إنجلترا - خلافا لتعليم الإنجيل - أنه يمكن للنساء حضور الكنائس حاسرات الرأس، فتصدى لهم داعيتُنا هناك الأستاذ جلال الدين شمس وقال لهم: ما هذه الفتوى التي

أصدرتموها؟ فإن إنجيلكم يعلِّم عكس ذلك✪! ولكنهم لم يجيبوه بشيء. والأدهى من ذلك أن المسيحيين قد اعتبروا الشرع لعنة (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٢)، وإذا كان الشرع لعنة عندهم فكيف ترغب قلوبهم في العمل به يا ترى؟ فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يطبَّق حتى في هذا العصر الذي هو زمن ضعف الإسلام. فمهما قلنا عن المسلمين غير الأحمديين، إلا أنه لا يسعنا إنكار أن الملايين منهم يحبون من الصميم أن يعملوا بالقرآن الكريم. ومهما بلغ أحدهم من الضعف عمليًا، إلا أنه لا تزال في فؤاده رغبة للعمل بالقرآن الكريم والفوز برضا الله تعالى. هذا ما يتميز به القرآن زمن انحطاط المسلمين، أما في الزمن الذي كان القرآن حاكمًا على قلوبهم فحدِّثْ ولا حرج عن مدى تمسُّكهم به؛ حيث حكَم القرآنُ كلَّ شُعْبة من شُعَب حياتهم بما لا مثيل له.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿مُكَرَّمَة﴾.. هو منـــزَّهة عن كل خطأ وعيب. وقد تحلّى القرآن بهذه الميزة بمنتهى الروعة والكمال، إذ لا يوجد فيه سوى وحي الله الخالص، حتى إن وَضْع أي قولٍ لرسول الله ﷺ في القرآن مرفوض. فمثلا لو كان هناك حديث ورد في الصحاح الستة كلها، وقد اتفق على صحته المحدثون جميعًا، فأيضًا إدراجه في القرآن مستحيل. إذًا، فقد جعل الله تعالى القرآن منـــزهًا عن كل ما لم يكن مِن كلامه سبحانه وتعالى؛ بحيث إن ألدَّ أعداء الإسلام أيضًا لا يجدون مناصًا من الاعتراف بأن القرآن منـــزّهٌ عن أيّ عبث وتلاعُب مِن قبل الناس. فها هو "وليام موير" العدو اللدود للإسلام الذي قد أكثر الطعن في القرآن، لم يجد بدًا من الاعتراف فيما يتعلق بقضية حفظ القرآن من التحريف، بأن القرآن الموجود بين أيدينا اليوم هو نفس ما كان عليه قبل ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن. لقد اعترف

✪ جاء في العهد الجديد: "كَذلكَ أَنَّ النِّسَاءَ يُزَيِّنَّ ذَوَاتِهِنَّ بِلِبَاسِ الْحِشْمَة، مَعَ وَرَعٍ وَتَعَقُّل، لا بِضَفَائِرَ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ لآلِئَ أَوْ مَلاَبِسَ كَثِيرَةِ الثَّمَنِ، بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِنِسَاءٍ مُتَعَاهِدَاتٍ بِتَقْوَى الله بِأَعْمَالٍ صَالِحَة. لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضوع، وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلا تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ." (رِسَالَةُ بُولُسَ الأُولَى إِلَى تِيمُوثَاوُسَ ٢ : ٩-١٢)

بذلك في أحد كتبه بعد تسجيل مزاعم القسيسين عن تحريف القرآن الكريم، حيث فنّد جميع أقوالهم بالأدلة الدامغة، معترفًا بأننا نستطيع القول جزمًا إن القرآن الموجود اليوم هو نفس ما قدّمه محمد إلى العالم.

وقد اعترف المستشرق الألماني الشهير "نولدكه" أيضًا بهذه الميزة القرآنية، وقد قال إن من المحال القول إن القرآن تعرّض للتحريف بأيدي البشر. علمًا أن "نولدكه" أيضًا من أعداء الإسلام، ولكنه أكثر المستشرقين فحصًا وتحقيقًا، وقد وجدتُه يصيب كبد الحقيقة بشكل مذهل أحيانًا، ويبدو أنه قد تدبّرَ في القرآن وفَحَصَه بصدق، ولذلك كتب: لا أقبل أبدًا أن شيئًا قد أُضيف إلى القرآن فيما بعد. كلا، بل إنه لا يزال حتى اليوم منــــزهًا عن عبث الناس كما كان في عهد محمد. وقال: قولوا، إن شئتم، إن القرآن من افتراء محمد، ولكن من المحال أن تقولوا إنه قد حُرّف فيما بعد. كلا، بل إنه هو هو كما كان في عهد محمد.◆

إذًا، فالقرآن الكريم صُحفٌ مكرَّمة، أي منــــزَّهة أيضًا عن أي خطأ لفظي أو معنوي، ولا يُباريه في هذه الميزة أيٌّ من الصحف السماوية.

◆ يقول وليام موير ما نصه:

"We hold the Cur'an to be as surely Mahomet's word, as the Mahometans hold it to be the word of God."

ويقول أيضًا:

"What we have, though possibly created by himself, is still his own."

ويضيف قائلا:

"We may upon the strongest presumption affirm that every verse in the Qur'an is genuine and unaltered composition of Muhammad himself".
(Life Of Muhammed: by Sir William Muir p. 562-563)

ونص ما قاله المستشرق الألماني نولدكه هو كالآتي:

"Slight clerical errors there may have been, but the Koran of Othman contains none but genuine elements- though sometimes in a very strange order. All efforts of European scholars to prove the existence of later interpolations in the Koran have failed."

(الموسوعة البريطانية، المجلد ١٥ تحت: Koran)

أما الخصال الحميدة التي وُصف بها حَمَلةُ القرآن هنا إزاء هذه المزايا القرآنية فأُولاها أنهم سَفَرَة. فكأن الله تعالى قد ذكر صفة ﴿سَفَرة﴾ إزاء الميزة القرآنية ﴿مُكرَّمة﴾ ليبيّن أن هؤلاء السفرة سيكونون سببًا لعظمة القرآن. والسَفَرة معناها المسافرون أو الكاتبون. ومعنى "المسافرون" إشارةٌ إلى سرعة انتشار القرآن في العالم، إذ سيوضع في أيدي قومٍ مسافرين، بمعنى أن المسلمين سيخرجون في العالم حاملين القرآن بأيديهم، فينشرون تعاليمه في شتى أنحاء المعمورة. ويكشف لنا التاريخ أنه بعد وفاة النبي ﷺ فورًا خرج بعض الصحابة إلى فارس، وبعضهم إلى أفغانستان، وبعضهم إلى الصين، وبعضهم إلى شتى الجُزر، وهكذا قد انتشر الإسلام في حياهم إلى أقاصي الصين من جهة، وإلى الجَزائر من جهة أخرى.. أي قد انتشر القرآن وتعاليمه في العالم المعروف يومئذ في حياة الصحابة وبأيديهم، حتى إن أهل بعض تلك البقاع يدّعون أن المصاحف التي أتى بها الصحابة إليهم لا تزال محفوظة عندهم (http://www.quran.org.uk/jeb quran manuscripts.htm). ولذلك قال الله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾.. أي أن هذا القرآن سيوضع بأيدي قوم يُكثِرون من السفر، وبالتالي يعملون على نشر القرآن في مختلف الأقطار.

ومن معاني (سَفَرة): كَتَبَة، فقوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أن هذا القرآن سيوضع في أيدي قوم كاتبين، فلا يحفظونه عن ظهر قلب فحسب، بل بالكتابة أيضًا دونما تأخير. فهذه الآية دليل على أن القرآن الكريم قد صار محفوظا بصورة كتاب في زمن الصحابة. يطعن العدو أن القرآن قد كُتب لاحقا، ولكن الله تعالى يعلن هنا أننا سنضع هذا القرآن بأيدي سفرة، أي بأيدي قوم يكتبونه فورًا، غير مكتفين بتلاوته بألسنتهم فقط.

إن النصارى يطعنون دائما بالقرآن بأنه قد كُتب بعد زمن بعيد، مع أن الثابت تاريخيًا عن كتابهم الإنجيل أنه قد دُوّن بعد انقضاء مئة وثمانين سنة، كما أن التعاليم المنسوبة إلى موسى عليه السلام قد كُتبت بعده أيضا بزمن طويل، أما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد الذي كان يُحفَظ عن ظهر قلب من جهة، كما أنه قد وُضع في

أيدي سفرة، أي قوم كاتبين كتبوه أولاً بأول. والثابت تاريخيًّا أن كل القرآن الكريم كان قد كُتب في حياة الصحابة أنفسهم.

كما أن قوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى إرساء عظمة القرآن وتكريمه في العالم كله، ذلك أن التعليم الذي يظل محفوظًا في قُطر واحد فقط لا يبلغ شأوَ عظمة التعليم الذي ينتشر في الدنيا كلها؛ فحيث إن القرآن الكريم في أيدي قوم مسافرين فينتشر تعظيمه وتُرسى عظمته في العالم كله، ولن ينحسر في قُطر واحد.

ثم إن كلمة (سفرة) لا تشير إلى الكتابة وحدها، بل إن جذر هذه الكلمة (س ف ر) ينطوي على معاني الكشف والإظهار أيضًا✪، فقوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ إشارةٌ أيضًا إلى أن كُتّاب القرآن سوف يكشفون مفاهيمه ويوضحون غوامضه أيضا.. أي أنهم سيكتبون تفسيره لبيان حقائقه وإظهار معارفه، وهكذا لن يعود القرآن محفوظًا عن التحريف اللفظي فحسب، بل عن التحريف المعنوي أيضًا.

وإن ورود كلمة (سفرة) إزاء (مكرمة) إشارةٌ إلى أن الذين سيؤمنون بالقرآن سيعظمونه تعظيما كبيرا، بل سينتشرون في العالم ويجعلون أهله يعظّمونه. ثم إنهم يعملون على حماية القرآن وحفظه كتابةً، مما يزيد القرآن تعظيما وتكريما. لقد بيّنتُ أن أعداء الإسلام كأمثال "وليام موير" و"نولدكه" أيضًا قد اضطروا للاعتراف بحفظ القرآن من التحريف تماما، مما يؤكد أن كتابة القرآن قد زادته تعظيما حتى لم يملك العدو إلا الاعتراف بهذا الجانب من عظمته.

ثم إن بيان المعارف القرآنية أيضا زاد في عظمة القرآن كثيرا جدًّا، إذ كان من العوامل التي أدت إلى حفظه المعنوي علاوة على حفظه الظاهري، حيث وضع الله تعالى القرآن الكريم في أيدي قوم يكشفون غموضه ويبيّنون مقاصده. وهذا الأمر يتضمن الإشارة أيضا إلى أن لغة القرآن ستنتشر في العالم وتبقى حيةً، ولن يعاني الناس في بيان مفاهيم القرآن الكريم.

✪ يقال: "سفرت الريحُ الغيمَ عن وجه السماء: كشطتْه. وسفرت المرأةُ: كشفتْ عن وجهها. وفي الكليات: السفْر كشفُ الظاهر، ومنه "السفير لأنه يكشف مراد المتخاصمين". (الأقرب)

والصفة الثانية التي وصف الله بها صحف القرآن هنا أنها ﴿مرفوعة﴾، والصفة الثانية التي وصف بها الصحابة إزاء هذه الصفة القرآنية هي أنهم ﴿كرام﴾. والمرفوعة تعني المعظَّمة، وهذه الصفة توجد في القرآن الكريم في الظاهر أيضًا، حيث تجد المسلمين لا يضعون القرآن إلا في مكان مرتفع، بل إذا لم يضعه أحد في مكان عال يخاصمونه متهمين إياه بإهانة القرآن. فثبت أن هذه الصفة توجد في القرآن في الظاهر أيضًا؛ إذ لا توجد في الدنيا أمة عالمية تعظّم كتابها السماوي كما يعظّم المسلمون القرآن الكريم. والحق أنه لا توجد أمة عالمية تضع كتابها المقدس في مكان مرفوع؛ فمثلاً لا يضع النصارى إنجيلهم ولا اليهود توراتهم في مكان مرتفع، إنما يتمتع بهذا الشرف العظيم القرآنُ الكريم فقط، حيث يحتفظ به المسلمون في مكان مرتفع، ولا يحتملون وضعه في مكان منخفض.

لقد بينتُ من قبل أن الله تعالى قد ذكر إزاء الصفات الثلاث للقرآن ثلاث صفات لحَمَلَته، وذلك للإشارة إلى أن بين القرآن وبين حملته علاقة قوية وكأنها علاقة اللازم والملزوم. وبالفعل ترى أن صحف القرآن أصبحت مكرَّمة، لكونها قد وُضعتْ بأيدي سفرة، أي بأيدي مسافرين خرجوا بالقرآن إلى شتى الأقطار. ثم أصبح هؤلاء السفرة مكرَّمين، لأنهم حملوا في أيديهم كتابا كانت فيه صحف مكرمة. فثبت أن أحد الأمرين كان نتيجة حتمية للآخر. فإن المرء لا يتحمس لأن يخرج إلى العالم حاملا شيئا ما، إلا إذا كان يعتبره مكرَّمًا معظَّمًا، وكان على يقين أن نشره سيؤدي إلى عزته هو، فهو عندما يقوم بنشره فالنتيجة الحتمية أنه نفسه ينال التكريم؛ إذ نشر شيئًا ذا شرف.

إذًا، لقد أصبح القرآن مكرّمًا بسبب هؤلاء السفرة، ونال هؤلاء السفرة التكريم بسبب القرآن. لقد أدى القرآن إلى عزّ المسلمين، وتسبّبَ المسلمون في زيادة شرف القرآن. إن مثل القرآن والصحابة كمثل الآلة التي تدور، فكان القرآن يرفع الصحابة من جهة، وكان الصحابة يرفعونه من جهة، وكان الصحابة يعظمون القرآن من ناحية، وكان القرآن يشرفهم من ناحية أخرى.

والصفة الثانية لِصحف القرآن هنا هي ﴿مرفوعة﴾، والصفة الثانية للصحابة هنا هي ﴿كرام﴾، والبديهي أن الذي بيده شيء رفيع، لا بد أن يصبح من الكرام ذوي الرفعة، ومن الناحية الأخرى فإن الشيء الذي يُعزّه الكرام لا بد أن يكون ذا شأن ورفعة، فإنك ترى في الدنيا أن الشخص الكريم إذا أعزّ شخصًا قال الناس: هذا إنسان معزز لأن ذلك الشخص الكريم يعزه أيضًا، وهكذا يضطرون لتكريمه وإعزازه؛ وإذا أكرم هذا الشخص الآخرين ذاع صيته بين القوم بأن فلانا من الشرفاء، فهذان الأمران، كما قلتُ، كسلسلة جهاز تدور على الدوام. إن الذين لا يعرفون محاسن شيء لا يتأثرون به إلا إذا رأوا شخصا كريما يعظمه ويثني عليه، فيبدءون في تقديره وتعظيمه. فمثلا إن الذين يؤمنون بالقرآن يعظّمونه تلقائيًّا، ولكن من أكبر الدلائل على عظمة القرآن عند المسيحيّين أن ملك الروم كان مدركًا لعظمة القرآن حيث قال: أي شك في عظمة كتاب يؤمن به شخص عظيم كعُمَرَ (رضي الله عنه)؟!

والواقع أن عمر لم يصبح عظيمًا إلا نتيجة عمله بالقرآن الكريم. وهذا يعني أن ملك الروم يعترف بعظمة القرآن لأن شخصا عظيما كعُمَرَ رضي الله عنه يؤمن به، أما مَن يعرف حقيقة عُمَر رضي الله عنه فيقول: إن القرآن كتاب عظيم، لأن عمر قد حاز هذه المكانة العظيمة بإيمانه بالقرآن الكريم.

باختصار إن من سنة الله تعالى أنه إذا اجتمعتْ حقيقتان فلا تفتأ إحداهما تدعم الأخرى، ولذلك وصف الله القرآن هنا بأنه في صحف مرفوعة معظمة. والدليل على ذلك أن المؤمنين به سينالون به العزة. وإذا نالوا العزة نال القرآن عزًّا أكثر، لأن الناس سيقولون: انظروا إن كبار الشرفاء يؤمنون به أيضًا. ثم تتكرر هذه العملية؛ لأن هذه العظمة الإضافية التي حظي بها القرآن الكريم ستحثّ مزيدًا من الناس على أن يختبروا بأنفسهم العملَ بالقرآن، فينالون العزّ؛ وبالتالي سيعترف مزيد من الناس بعظمة القرآن برؤية عظمة هؤلاء، وهلمّ جرًّا. فالقرآن يجعل الناس كراما، وهؤلاء الكرام يؤكدون كونه صحفًا مرفوعة. فكأن قول الله تعالى ﴿مكرّمة﴾ إشارة إلى العظمة الذاتية للقرآن الكريم، أما قوله تعالى ﴿مرفوعة﴾

فإشارة إلى أن القرآن سيجعل المسلمين كراما، فيجعلون القرآن صحفا مرفوعة حيث ينتشر المسلمون في العالم كله، فينال القرآن رفعة جديدة.. أي أنه بسبب كونه محبوبا للملوك الكرام يصبح مرفوعا في العالم كله حتى يضعه الجميع على الرأس والعين.

والصفة الثالثة التي ذكرها الله تعالى هنا لصحف القرآن الكريم هي ﴿مطهَّرة﴾، والصفة التي وصف الله بها الصحابة إزاءها هي ﴿بررة﴾، ومفردها بَرٌّ، يقال بَرَّ والدَه.. أي أحسن الطاعة إليه، ورفق به، وتحرَّى مَحابَّه، وتوقَّى مَكارهه (الأقرب). إذاً فكلمة (بررة) تتضمن على إيجازها مفاهيم واسعة جدًّا، وتبيّن مزايا حَمَلة القرآن الكريم؛ إذ تعني أنهم سيطيعون القرآن طاعة كاملة، وينشئون معه علاقة وطيدة كاملة، ويسعوْن جاهدين لأن يتمسكوا بما يأمر به القرآن ويتجنبوا ما ينهى عنه.

لقد أشار الله تعالى بوصف صحف القرآن ﴿مطهرة﴾ ووصف الصحابة بكونهم ﴿بررة﴾ إلى أن القرآن ليس فيه ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية، بل هو متّسم بما ينمّي الفطرة ويطوّرها، ومنـــزه عن كل ما يفسدها ويخربها، لذلك فالذين يكونون على صلة مع هذا الكتاب سيكونون مثله، حيث يعملون جاهدين بكل ما يأمر به وينتهون عن كل ما نهى عنه؛ وهكذا يصبحون بررة، أي متقين كاملي التقوى. أما إذا لم يبلغ الإنسان هذا المقام ولم يلتزم بالقرآن الكريم كل الالتزام، فلن يُعتبر من البررة، ولا من الذين يعتبرون القرآن صحفا مطهّرة، إذ لو أيقن المرء بأن القرآن مطهّر يأمر بكل ما يشفي غليل الفطرة الإنسانية وينهى عن كل ما يمسخها، لسعى جاهدا للعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه، ولكنه إذا لم يفعل ذلك ثبت أنه لا يؤمن بكون القرآن مطهّرًا، ولا يريد أن يدخل زمرة البررة. والحق أن الله تعالى إنما جعل كلمة ﴿بررة﴾ إزاء ﴿مطهرة﴾ للإشارة إلى هذا الأمر الهام. فعندما يصبح الناس بررة بعملهم بالقرآن الكريم، فسوف يجعلون صحف القرآن مطهَّرةً مرة أخرى؛ ذلك لأن الإنسان إذا أصبح من البررة وعمل بالقرآن ونفّذ أحكام الله تعالى فلا بد أن تنـــزل عليه الفيوض الروحانية من عند الله تعالى، لأن من سنة الله

تعالى أن يترل فيوضه على الإنسان إذا سارع في الخيرات وسعى للتقرب إليه سبحانه. وإذا نــزلت الفيوض الإلهية على البررة نتيجة عملهم بالقرآن الكريم نسبوها إليه، مما يؤكد طهارة القرآن الكريم أكثر فأكثر. ومثاله أنه مما لا شك فيه أن القرآن كان مطهّرًا سلفًا، ولكن لما بعث المسيح الموعود ﷺ أثبت طهارة القرآن الكريم أيما إثبات. ولكن السؤال الذي ينشأ هنا: من الذي جعل المسيح الموعود مِن البررة؟ الجواب هو القرآن نفسه. فهذا يعني أن القرآن عمل على تطهير المسيح الموعود، والمسيح الموعود كشف الغطاء عن جوانب طهارة القرآن. كان الناس قبل بعثة المسيح الموعود ﷺ يعزون إلى القرآن الكريم شتى الأخطاء، فأثبت حضرته ﷺ بطلان تلك العقائد الخاطئة والتعاليم الفاسدة. وهكذا جعل القرآن مطهّرًا. وعندما جعله مطهّرًا فكان لزاما أن يزداد بِرًّا. إذًا، فالصفة الثالثة للقرآن الكريم أنه مطهّر، والذين يعملون به يدخلون في البررة، وهؤلاء البررة يعملون على تطهير القرآن ثانية، فيزيدهم القرآن برًّا مرة أخرى، وتستمر هذه العملية بلا انتهاء.

لقد ثبت مما سبق ذكره أن ظهور عظمة هذا الوحي ليس بحاجة إلى أسباب مادية، بل هي منوطة بصفاء القلوب. وكأنما يبين الله تعالى هنا أن البررة سينتفعون من القرآن الكريم، أما من لم يكن من البررة فلن ينتفع منه، فلا يمكن القول إن فلانًا كبير أو صغير أو أن فلانًا من العلماء أو الجهلاء، إذ لا مجال هنا للشرف الظاهري ولا للعزة الظاهرية ولا للعلم الظاهر؛ إنما ينتشر القرآن ويزدهر بأيدي سفرة كرام بررة، سواء كانوا في الظاهر من كبار القوم أو من صغارهم، من أثريائهم أم من فقرائهم. وبالفعل نرى أن الله تعالى قد وفّق لخدمة الإسلام أُناسًا كانوا مِن الأُسر العريقة، وأيضًا أناسًا كانوا من الفقراء البسطاء؛ فكان علي وحمزة وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - من أُسر عريقة جدًّا، بينما كان زيد وبلال وسمرة وخباب وصهيب وعامر وعمار وأبو فكيْهة - رضي الله عنهم- مِن الطبقة الدنيا. إذًا، فقد اختِير خدام القرآن من كبار القوم ومن صغارهم أيضًا، ولذلك يقول الله تعالى إنه لباطل سؤالكم: من أين يأتي هؤلاء الخدام، كما هو باطل تفكيركم أن فلانا فقط يصلح لخدمة الدين، وأن فلانا لا يصلح. كلا، بل إن هذا الأمر يتوقف على تقوى

القلوب، لا بظاهر الحال، ولذلك نحن أنفسنا ننتخب هؤلاء الخدام. إن القرآن متّسم بكل ما يجذب الناس إليه، ومَن لم تجتذبه محاسن القرآن، فلا يستحق العزة الحقيقية في هذا العصر البتة.

قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

قُتلَ الإنسان: قَتَل الله الإنسان: لَعَنه. (الأقرب)

التفسير: جاء قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ بالنظر إلى ما رسمته الآيات السابقة من محاسن القرآن رسمًا رائعًا، والمراد: ما أشدَّ كفرانًا بنِعَم الله تعالى هذا الإنسانَ المعرض عن القرآن واللاهي عن أحكامه! ذلك الكلام العظيم الذي فيه صحف مكرمة مرفوعة مطهّرة، وهو ليس كلامًا مقدسًا مطهّرًا فحسب، بل إن من مسّه أصبح طاهرا، وكأنما هو كالحجر السحري الذي يُزعَم عنه أنه إذا لمس شيئا حوّله ذهبًا، فهو ليس مكرَّمًا فحسب، بل الذين يعملون به يصبحون كرامًا، وهو ليس مطهَّرا فقط، بل مَن عمل به أصبح من الأبرار الأطهار. وما دام القرآن يبلغ هذه العظمة، فقُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه! أي الويل لمن يعرض عن مثل هذا القرآن، لأن إعراضه دليل على شدة كفرانه بنعمة الله. فقد عُرِض عليه القرآن وأُتيحت له الفرصة ليعمل بأحكامه ويدخل في زمرة قوم سفرة كرام بررة، ولكنه أعرض عنه. أما لو كانت محاسن القرآن لازمة - أي غير متعدية - لَحُقَّ للمرء أن يقول أنه لا يراها فيه، ولكن محاسن القرآن متعدية تسري إلى الذين يعملون به. فما أشدَّ هذا الإنسانَ كفرًا بنعمة الله حيث مُنِحَ فرصةَ التقدم والازدهار، ولكنه أعرض وهرب من هذا الوحي العظيم!

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٩﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢١﴾

التفسير: أي هلاّ فكّر الإنسان مِن أيّ شيء خلقه الله تعالى! ولأي غاية عظمى أرسله إلى الدنيا!

إن من أروع أساليب القرآن أنه - من ناحية - يُبرهن على عظمته فيقول للإنسان في استغناء: إذا آمنتَ فنفسك تنفع، وإذا كفرتَ فنفسك تضرّ، ومن ناحية أخرى يسعى بمنتهى الحب واللطف ليعود بالإنسان إلى الصراط المستقيم، شأن الأم الرؤوم التي لا تتمالك نفسها من فورة عواطف الحب والرحمة لابنها الذي لا يطيعها، فتقول له في سخط: ما لي ولك؟ لقد أمرتك بما فيه نفعك، ثم بعد وقت يسير تسترضيه وتدعوه لتناول الطعام، وتسعى جاهدة ليطيعها بطريق آخر. كذلك يبدي الله تعالى هنا استغناءً فيقول: قُتل الإنسان ما أكفرَه! إذ عرضنا عليه كتابا عظيما كالقرآن، ولكنه أعرض عنه وتلكأ. ولكنه تعالى عاد فقال بعدها فورا: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، وكأنه تعالى أخذ يلاطف الإنسان ليعود إليه حيث قال: ألم يفكّر الإنسان كيفَ خلقه الله؟ خلَقه مِن نطفة، أي من قطرة حقيرة، ثم لم يتخلّ عنه بعد خلقه، بل قدّرَه. وقال صاحب المفردات عن قوله تعالى ﴿فَقَدَّرَهُ﴾: إنه "إشارة إلى ما أوجده فيه بالقوة، فيظهر حالاً فحالا إلى الوجود بالصورة".

إذًا، فقوله تعالى ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ يعني: أنه تعالى خلق الإنسان، ثم جعل فيه كفاءات وقدرات لا تزال تظهر عند الحاجة بحسب مقتضى الحال. وهذا إشارة إلى أن الله تعالى قد جعل للإنسان مجالا واسعًا للتقدم وللرقي.

ثم يقول الله تعالى ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.. أي إذا كان الله تعالى قد جعل لرقي الإنسان مجالا واسعًا من ناحية، فإنه من جهة أخرى قد أودعه كفاءات عالية لا تلبث أن تظهر عند الحاجة، فلا تصعب عليه تقديم أي تضحية، بل يجد الأمر سهلا يسيرا.

الواقع أن الله تعالى قد خلق الإنسان بحيث إنه إذا عقد العزم وصبر، سهل عليه كل شيء، واجتاز الصعاب الكبيرة بكل يسر مستخدمًا ما زوده الله تعالى من كفاءات. يقول الناس إن العادة شيء سيئ، ولكن الله تعالى يبين أنها فضل من أفضالنا؛ لأن الإنسان إذا اعتاد عملا، لم يجد صعوبة في إنجازه لكثرة الممارسة، فثبت أن العادة شيء جميل، شريطة أن لا تكون في أمر قبيح. فمثلاً أداء الصلاة يشق كثيرا على الإنسان في البداية، ولكنه إذا واظب على أدائها لأيام اعتاد عليها، وأصبح أداؤها سهلا جدًّا. كذلك يجد المرء الصيام صعبًا في أول الأمر، ولكنه إذا اعتاده لم يجده صعبا. والحال ذاته بالنسبة إلى الصدقات والتبرعات وغيرها من أعمال الخير. لقد رأينا أن الذين يعتادون على إخراج الصدقة لا يجدون راحة إذا لم يخرجوها كل يوم ولو كانت قليلة. وكان من عادة العرب ألاّ يأكلوا إلا إذا أشركوا أحدا في طعامهم، وقد رسخت هذه العادة فيهم بمرور الأيام بحيث إنهم لم يستطيعوا تناول الطعام إذا لم يُحضروا أحدا على خوانهم، حتى إنهم كانوا يبحثون عمّن يشترك معهم في الطعام. وإشارةً إلى أهمية العادة، يقول الله تعالى هنا ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.. أي هناك مجال واسع جدًّا للتضحية أمام الإنسان، وقد أودعنا فطرته أنه إذا شرع في القيام بعمل وجده صعبًا في البداية، ولكنه إذا واظب عليه وجده سهلا، ورغب فيه قلبه. فعندما يعمل المرء حسنة فإنه يرغب في ثانية، ثم في ثالثة، ولولا العادة لشقّ عليه القيام بحسنة واحدة أيضًا، ولكنه يعتادها شيئا فشيئا، فلا يخافها، بل يجد فيها لذة وسهولة. إنه يصلي فيعتاد على الصلاة، ثم يصوم فيعتاد على الصيام، ثم يخرج الصدقات فيعتادها، وهكذا لا يبرح يكتسب حسنة بعد حسنة، فيسهل عليه المضيّ قُدُمًا في الخيرات.

ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

التفسير: أي أن من سنتنا أننا نتوفى الإنسان بعد ذلك.

لقد اعتبر الله تعالى هنا الموت كإحدى مِنَنه على الإنسان، لأن الحديث هنا عن مِنَنه وإحساناته على الإنسان حيث قال من قبل ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾، وبعدها قال ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾. وكأنه تعالى يقول هنا: يواظب الإنسان على فعل الخيرات باستمرار، حتى يأتي وقت نقول له فيه لقد تعبتَ من أجلنا كثيرا، فتعال نحيلك إلى التقاعد. إذًا، فالموت هو بمنـــزلة معاش التقاعد يتلقاه الإنسان من الله تعالى. الغريب أن الناس عندما ينالون معاش التقاعد من الدولة يشكرونها، ولكن إذا منحناهم معاش التقاعد أخذوا في البكاء لغباوتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾. والإقبار له ثلاثة معان: يقال أقبره: (١) جعل له قبرًا يُدفَن فيه؛ (٢) جعله ممّن يُقبَر؛ (٣) أقبرَ القومَ: أمَر أن يُقبَر قتيلهم (الأقرب). والمعنى الأول لا ينطبق هنا لأن كثيرا من الناس لا يُدفنون في القبور، كما لا ينطبق المعنى الثالث أيضًا، والمعنى الثاني هو الذي يطابق الآية في رأيي.. أي أن الله تعالى جعل الإنسان ممن يُقبَر. والحق أن هذه الجملة جزء من الدليل السابق، ولكن مجرد دفنه في التراب لا يكون جزءا من هذا الدليل.

ولا شك في صحة المعنى الذي نفسر به، نحن الأحمديين، هذه الجملة عادة، وهو أن القبر المذكور هنا هو ما يكون فيه الإنسان في عالم البرزخ، ولكن يمكن للخصم أن يقول إنه مجرد ادعاء إذ لا نرى أن كل من يموت يدخل في قبر في العالم الثاني، فكيف نقبل قولكم الذي لا يستند إلى دليل؟

وما دامت هذه الجملة جزءًا من الدليل السابق، فلا بد أن نرى شيئا من هذا الإقبار في هذه الدنيا أيضًا، وليس سبيله إلا أن نفسرها بأن الله تعالى جعل الإنسان ممّن يُقبَر.. أي أنه تعالى جعل من فطرة الناس أن يدفنوا موتاهم في القبر. وإذا كان بعضهم يحرقون موتاهم ويجعلونهم رمادًا، فليس سببُه أيضًا إلا لأنهم لا يحبون أن يلقوا جثثهم هكذا لتتعفن وتتآكل. وإذا كان البعض يُطعِمون الحيواناتِ المفترسة والطيور الجارحة جثثَ موتاهم، فهم أيضًا لا يفعلون ذلك إلا لأنهم يرون أن احترامهم للموتى يقتضي هذا. فثبت أن احترام الموتى من فطرة الإنسان، وهذا هو

معنى قوله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾، أي لا أحد من الناس يتحمل إهانة موتاه. فبرغم أن الميت جثة هامدة، إلا أن الفطرة الإنسانية لا تتحمل أن يُلقى الميت في العراء؛ بل إن كل إنسان - أيا كان دينه وملته - يبدي له تكريمًا بأسلوبه الخاص. وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان، وإلا فليس هنالك فرق بين الاثنين في الأكل ولا في النوم ولا في الموت. إن الحيوانات تختلف عن الإنسان في أنها لا تدفن جثث موتاها، وليس بين الناس مَن يتصرف مع جثث موتاه بما لا يليق بتكريمها.

وإن هذا الإعزاز والتعظيم الموجود في فطرة الإنسان تجاه الموتى لدليل على أن حياته لا تنتهي بالموت. إذا كانت حياته قد انتهت بالموت، فما الحاجة لتكريم جثته؟ وأين التكريم أصلاً؟ والواقع أنه لا فرق لو أُلقيتْ جثته في العراء أو وُضعتْ في القبر. ولكن وجود عاطفة تكريم الميت في فطرة الإنسان لدليل على أن الحياة لا تنتهي بالموت. وكأن الله تعالى يقول هنا: نُقدِّم أمامكم هذا الدليل الفطري؛ فإنكم لا تلقون جثث موتاكم في العراء محقرينها، بل ترون احترامها المناسب ضروريًّا، لماذا تتولد في قلوبكم فكرة احترام موتاكم، إذا لم يكن هناك إمكانية للحياة بعد الموت؟ إن الموتى موتى في كل حال، ولا فرق بالنسبة لهم سواء أحرقتموهم بالكهرباء، أو في حطب من النار، أو وضعتم جثثهم في مكان معين لتأكلها النسور والحدآت. لم لا تعاملون موتاكم كما تعامل الحيوانات الأخرى موتاها؟ فمثلاً عندما يموت كلب فلا يخطر ببال الكلاب الأخرى أن تعامله معاملة خاصة، وإنما يظلّ ملقًى في العراء حتى تتعفن جثته وتتآكل. فلو كانت حياة الإنسان تنتهي بموته، لرمى الناس موتاهم في العراء كالحيوانات، ولكنهم لا يعاملون موتاهم هكذا، بل يكرمونها إكراما لائقا كلّ بطريقته. ولذلك يقول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.. أي أننا نميت الإنسان ونخلق في قلوب أقاربه الإحساس بكرامته، فلا يلقون جثته هكذا، إذ يرون ذلك منافيًا لشرف الميت واحترامه. هكذا يقدم الله تعالى الدليل من الفطرة الإنسانية على الحياة بعد الموت، ويقول: ما دمتم تؤمنون بتكريم الإنسان حتى بعد موته، وترونْ إعزاز جثته ضروريا، فثبت أن في قلوبكم إحساسًا بالحياة بعد الموت، وإن كان هذا الإحساس ضعيفًا. بيْد أن هذا الإحساس

الضعيف يكفي لتوجيه أرواحكم إلى أمر هام، ألا وهو السؤال عن سبب وجود عاطفة الاحترام في قلوبكم تجاه الميت. إن وجود هذه العاطفة الواضحة البارزة في قلوب الناس كافّة وعدم تحمل أي إنسان الإساءة إلى جثة قريب له، لدليل ساطع على أن الحياة لا تنتهي بموته، بل لا بد له من حياة أخرى تبدأ بهذا الموت. ولذلك يريد المرء ألا يقصِّر في تكريم صاحبه وهو يدخل باب الحياة الجديدة، بحجة أنه جثة بلا روح.

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

أنشر الله الميت: أحياه. (الأقرب)

التفسير: أي كان ينبغي أن تدركوا من هذا أن الله تعالى سيحييكم إذا شاء، وإلا فإن عملية الخلق كلها تصبح لغوًا وعبثًا. إذ كيف يمكن أن يقوم الله تعالى بهذه العملية الهائلة ولا يجعل فيها حكمة ولا غاية. إنه تعالى يخلق الإنسان من شيء حقير جدًّا، ثم لا يزال يطوّره حتى يُبلِّغه أعلى الدرجات، ويزوّده قدرات هائلة تتجلّى شيئًا فشيئًا بحسب ما تتاح له من فرص الرقيّ والتقدم. ثم إنه تعالى لم يزود الإنسان بكفاءات شتى فحسب، بل جعله يعتاد على عمله ليقوم به ببشاشة ويسر ونشاط. ولكنه عندما يبلغ ذروة رقيه، تظنون أن روحه تُدمّر وتُباد، مع أن المفروض أن ينال جزاءه بعد قيامه بهذه الأعمال البارزة بدلاً من أن تتعرض روحه للفناء الأبديّ. ثم إن الله تعالى قد جعل في جبلّتكم أنه إذا مات أحدكم تكرمونه وتعززونه، وتُخرجونه من بينكم بمنتهى التكريم والتعظيم.. كلٌّ حسب طريقته، مما يدل بوضوح أنكم تؤمنون في قرارة نفوسكم أنه لا بد للإنسان من كرامة بعد موته أيضًا، وتوقنون أن حياته لم تنتهِ بموته، بل هناك حياة أخرى تنتظره، وأن الله سيحييه إذا شاء. والغريب أنكم رغمَ إيمانكم بكل هذا تنكرون النتيجة النهائية أي الحياة بعد الموت. تعترفون أن خلق الإنسان لا يخلو من حكمة، بل إن تطوره من

حالة أدنى إلى أعلى الدرجات، وتزوُّدَه بكفاءات واسعة للرقيّ، وتوفُّرَ مجال واسع لتقدمه، ثم انكشافَ قدراته هذه عند الحاجة، ثم بشاشتَه ونشاطه في أعماله نتيجة اعتياده عليها، ثم احترامَكم لموتاكم.. كل ذلك دليل ساطع على أن هنالك نوعًا من الحياة بعد الموت، والغريب أنكم تقرّون بكل هذه الأمور، ثم تنكرون نتيجتها المنطقية.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٤﴾

التفسير: أي أن الإنسان لم يُنفِّذ بعدُ ما أمره الله تعالى.

والحق أن قوله تعالى ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ إشارة إلى المعنى المذكور في قوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾، وقوله تعالى ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.. والمراد أنه كان لدى الإنسان فرصة القرب الإلهي وإصلاح عاقبته، ولكنه لم يؤدِّ واجبه هذا بعد. كان عنده فرصة ذهبية للترقيات الروحانية ومجالٌ واسع للتقرب إلى الله تعالى، ولكنه للأسف لم يؤد واجبه كما ينبغي. وهذا هو الموضوع الذي أركّز عليه مرارًا في هذه الأيام، وأُنبِّه أفراد الجماعة إلى بذل كل ما في وسعهم لإيصال هذه الأمانة إلى أجيالهم التالية، حتى ييأس الشيطان للأبد، وتتلاشى إمكانية غلبة الكفر في الدنيا مرة أخرى. حتى اليوم ليس هناك أُمة ركزت على حماية أجيالها من هجمات الشيطان، ولو وُفقتْ جماعتنا لأداء هذا الواجب فسيكون عملا منقطع النظير. وهذا ما يؤكده الله تعالى في هذه الآية ويقول: من المؤسف أن الإنسان لَمّا يقْضِ ما أمره، أي أنه لم يُنفّذ بعد أمر الله تعالى. لا شك أن الناس قد بذلوا جهودا كبيرة لإصلاح أنفسهم فردًا فردا، ولكن حتى اليوم لم يهتم أحد بعد بالنهوض بالقوم كلهم والمضي بهم قُدمًا باستمرار، بحيث لا يبقى لسقوطهم إمكانية ولا لإغواء الشيطان لهم مجال. تأتي على أمة الرسول ﷺ أدوار مختلفة، فعسى أن يأتي عليها دور يؤدّى فيها هذا الواجب المذكور في قوله تعالى ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾. لقد بُذلت حتى الآن جهود فرديّة، وقد رأوا نتائجها أيضًا. لقد بذل الصحابة الجهود

ثلاثين سنة، ولكن تطرق الضعف إلى أجيالهم وذرياتهم، فلم يستمر هذا الخير. والآن عندنا فرصة ذهبية لنبذل الجهود لأداء هذا الواجب حتى يقوم الإسلام في الدنيا على صعيد الأمة، بحيث لا يبقى هناك احتمال لسقوطه، وهذا عمل لم يتم من قبل أبدًا. لا شك أنه قد بذلت جهود فردية، ولكن لم تُبذل جهود لغلبة الإسلام على الصعيد الجماعي بحيث يظل الخير متتابعًا متسلسلا في الأجيال. ولا يبقى هناك خطر تراجُع الإسلام مرة أخرى.

ويمكن أن يفسر قوله تعالى ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ بمعنى آخر، وهو أن الإنسان لم يتبوَّء بعد ذلك المقام العظيم الذي يمكن أن تحرزه القدرات الإنسانية، فلا بد من الاعتراف أنه لم يبعث بعد الشخص الموعود لكل الأديان الذي به يناط الوصول إلى آخر درجة من الرقيّ الإنساني، فلذا على الناس أن يهتموا بهذه النبوءة بجدّيّة بدلا من أن يحتقروها.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٥﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٦﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٧﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٨﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٩﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٠﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣٢﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

التفسير: أي يأمر الله تعالى الإنسانَ أن ينظر إلى طعامه ويفكر كيف أننا اهتممنا بتربيته الجسمانية اهتمامًا كبيرًا؛ لقد أنزلنا لأجله الماء من السماء، ثم شققنا من أجله الأرض شقًّا، ثم أخرجنا منها حبوبا وعنبًا وقضبًا.

ورد في القاموس: القضبُ كلُّ شجرة طالت وسبطتْ أغصانها؛ والقَتُّ (الأقرب). والقَتُّ: الفِصْفِصةُ، وقيل: اليابسة (الأقرب). والفِصْفِصة: نباتٌ تعلُفه الدوابّ وهي

تسمى بذلك ما دامت رطبةً، فإذا جفّت زال عنها اسم الفِصْفِصة، وسُميت بالقتّ. حبُّها نحو الكرْسنَّة، لكن فيه طول. (الأقرب)

ثم أخبر الله تعالى أنه أَنبت زيتونًا ونخلاً وحدائق غُلْبًا. والغُلْب معناه: المتكاثفة الملتفّة أي تلتفّ أغصانها بعضها ببعض لكثرتها. ثم أخبر أنه أنبت فاكهة وعلفًا.

أما كلمة (أَبًّا) فهو: كلٌّ ما تُنبت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه. (فتح البيان)

وقوله تعالى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.. أي خلقناها لفائدتكم ولفائدة أنعامكم.

توجد في القرآن الكريم آيات تتشابه لفظًا، وهذه الآيات مثال لذلك. فقد بيّن الله هذا المعنى من قبل في سورة النازعات بأسلوب آخر في قوله تعالى ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. أما في هذه السورة فقد عدّد الله تعالى نعمه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. والفرق الوحيد أنه في سورة النازعات قد عدّد الله النِّعَم السماوية عمومًا، أي أنه ذكر النِّعَم الأرضية، ولكن الهدف كان ذكر النظام السماوي، بينما هنا فإن التركيز على النظام الأرضي، وكأن سورة النازعات تشير الى النظام الأوسع الحاوي للسماوات والأرض، أما هذه السورة فتشير خاصة الى النظام الذي يتسبب في خروج النبات من الأرض. لقد بين الله تعالى في سورة النازعات أنه كما لا بد للأرض من وجود السماء، إذ لا يقوم النظام الأرضي بدون النظام السماوي، كذلك لا بد لكم من رفعة سماوية. ولو ظننتم أنكم ستتمكنون من إقامة النظام الأرضي من دون الرفعة الروحانية، فأنتم مخطئون. فكما أن وجود الأرض بغير السماء عبث، كذلك فإن النظام الجسماني من دون النظام الروحاني لغو وعبث. أما في هذه السورة فقد بين الله تعالى أن من الطبائع الإنسانية ما يتوافق مع القرآن الكريم، ومنها ما لا تتلاءم معه. فالطبائع المتلائمة مع القرآن

الكريم سوف تنجذب إليه تلقائيا، والأخرى لن تلتفت إليه. فسورة النازعات تتحدث عن موضوع مختلف عما تتحدث عنه هذه السورة، ففي تلك السورة ذكَر الله السماء لإلقاء الضوء على ضرورة الوحي، أما في هذه السورة فركّز على بيان أن بعض الطبائع متوافقة مع تعاليم القرآن وبعضها غير متوافقة، فالمتوافقة منها ستسارع إلى تصديق القرآن الكريم، وغير المنسجمة معه ستنفر منه. ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلا فقال: ترون أن الأرض تنبت الحبوب والعنب والشجر والزيتون والنخل والحدائق والفواكه والكلأ، فمنها ما يأكله الإنسان، ومنها ما يأكله الحيوان، والحال نفسه للطبائع الإنسانية، فالتي تتلاءم مع القرآن الكريم سوف تأتي إليه، والتي تتفق مع الكفر سوف تذهب إليه. وكأن الطبائع بنفسها تخبر عن الشيء الذي يتفق مع مزاجها، فمثلا يتوجه إلى العنب الإنسانُ لا الجمل، أما شجرة السَّمُر فيتوجه إليها الجمل لا الإنسان. لا شك أن الإنسان لم يعمل بالقرآن الكريم بعد، ولكنه سيضطر للعمل به. عندما يظهر نبات القرآن ويتجلى حسنه للعالم، فإن الطبائع المتوافقة معه ستسارع إليه. لا شك أن مثل هؤلاء قلّةٌ اليوم، ولكنهم سيدخلون في هذا الدين أفواجا حين ينكشف حسن القرآن على الناس. يوجد في الدنيا حبوب وعنب وزيتون ونخل وحدائق وفواكه وعشب وكلأ، فتتجهون أيها البشر إلى ما يتفق مع مزاجكم منها، وتتجه المواشي إلى ما يناسبها منها، كذلك فإن الطبائع الصالحة ستتوجه إلى القرآن والطبائع الفاسدة ستتوجه إلى الكفر.

واللافت للنظر أن معظم الأشياء المذكورة هنا هي مما يأكله الإنسان، وهي ستة أصناف (حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة)، أما التي يأكلها الحيوان فهي صنفان (قضبًا وأبًّا) فقط، وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن الكريم سيجذب أكثرَ الناس، وأن الكفر لن يجذب إلا أقلَّهم. وهكذا بيّن الله تعالى أن من الخطأ السؤالَ كيف يصبح الإسلام غالبًا؛ فإن الطبائع تسارع إلى الشيء المتوافق معها، فالطبائع المتلائمة مع القرآن الكريم ستتوجه إليه، شأن الإنسان الذي يتوجه إلى الحَب والعنب والزيتون والنخل والحدائق والفواكه، وأما الطبائع المتوافقة مع الكفر،

فستتوجه إليه شأن النَعم والدواب التي تتوجه إلى القضب والأبّ، لا إلى العنب والنخيل وغيرهما.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

الصاخّة: صخَّ الصوتُ الأذنَ: أَصَمَّها. الصاخّةُ: صيحةٌ تُصِمُّ لشدّهَا؛ الداهيةُ. (الأقرب)

التفسير: لا شك أن هذه الحالة تعتري الناس يوم القيامة، إلا أن دراسة حياة الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - تكشف أن هذا الأمر قد وقع فعلاً في حياهم عند نـزول القرآن الكريم، حيث ترك الوالدُ ابنَه، والولدُ والدَه، والأمُّ ابنتَها، والبنت أُمَّها، والأخ أخاه، والحميم حميمه، والزوج زوجته، والزوجة زوجها، والقريب قريبه، ليلتحق بالنبي ﷺ ويدخل في طاعته، ولم يبالِ بأي حبّ ولا قرابة دنيوية إزاء مرضاة الله ورسوله، بل كان لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. لقد تفانوا في حب الإسلام والقرآن حتى نسوا الدنيا وعلائقها ومُتعها تمامًا. وما أكثرَ الأمثلةَ على تضحيات الصحابة في التاريخ، وما أوضحَها! وأذكر هنا مثالين منها فقط، وكنت قد ذكرهما مرارا من قبل: أسلم فتى كان الابنَ الوحيد لأبويه، فبدآ يضطهدانه بشتى الوسائل، إلى أن فصلا أوانيه ومنعاه من مؤاكلتهما، ولكنه لم يرض بترك الإسلام حتى اضطر للهجرة بعد فترة من مكة. وبعد انقضاء مدة رجع إلى مكة، فقابله أبواه بحفاوة بالغة. لقد ظنّا أنه قد ارتد عن الإسلام، وظن هو أهما قد امتنعا عن عداء الإسلام في أثناء غيابه، ولذلك يبديان له الحب نادمَيْن على ما فعلا به. وبعد هنيهة قالا له: يا بنيَّ، ألم ننصحك من قبل أن لا

تذهب إلى هذا الصابئ؟ وكانا يقصدان بذلك الرسول ﷺ، وهكذا أكدا له نصحهما بأن إسلامه كان خطأ كبيرًا، وقد أحسن صنعًا إذ ارتد عنه الآن. فقام من عندهما فورًا وقال: يا أبت ويا أمّي، أنتما والداي لا شك، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ منكما. كنتُ أظن أن قلبيكما قد لانا ندمًا على ما فعلتما، ولكن ظني قد خاب. إذا كنتما تريدان الاحتفاء بي بشرط أن أتخلى عن محمد ﷺ، فاعلما أن هذا مستحيل. إن محمدا ﷺ هو أبي وهو أمي الآن، ثم خرج من عندهما و لم يرهما بعد ذلك حتى الموت.

ثم فَكِّروا في حادث تلك المرأة من المدينة التي سمعتْ شائعة استشهاد الرسول ﷺ في غزوة أحد، فخرجتْ من بيتها كالمجنونة، فلقيها المسلمون العائدون من ساحة القتال واحدًا تلو الآخر، فقال أوّلهم: قد استُشهد أبوك في الحرب، وقال الثاني: قد استُشهد زوجك أيضًا، وقال الثالث: قد استُشهد أخوك.. فكانت تقول في كل مرة: لا أسألكم عن أبي ولا عن زوجي ولا عن أخي، أَخبروني ماذا فعل رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنه ﷺ بخير بفضل الله تعالى، فقالت: إذًا فكلُ مصيبة بعده جَلَلٌ.. أي صغيرة. (السيرة لابن هشام، الجزء الأول، غزوة أحد)

باختصار، نرى في حياة الصحابة الكرام مشهدًا هو تحقيق لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. ونجد إزاء ذلك نفس الحماس في الكافرين أيضًا، حيث كان الأخ يهاجم شقيقه المسلم في الحروب، وكان الأب يسارع إلى قتل ابنه، وكان الأخ يتقدم لقتل أخيه، غير مكترث لقرابته وعلاقته به، كأنهم ليسوا من جنس واحد. كان المؤمن يقول لا علاقة لي ولا شأن لي بكافر، وإنما صديقي من هو مؤمن، وكان الكافر يقول لا علاقة لي بالمؤمن، وإنما صديقي هو الكافر.

إن علامة الصاخّة هذه تتجلى عند ظهور الدين الحق. فلا يحتمل بعده أحد أي نوع من المداهنة أو النفاق، بل يتميز الكفر والإيمان بوضوح. ولكن لا توجد هذه العلامة المميزة في الدين الباطل، ولا في قوم يصبحون جزءًا منه، ومثاله المسلمون الأحمديون غير المبايعين حيث يصلّون وراء المسلمين غير الأحمديين خلافًا لتعاليم

المسيح الموعود عليه السلام، ويتزاوجون معهم دونما تردُّد، مع أن صوت الله هو الصاخّة، فإذا انطلق هذا الصوت فلا بد أن يترك الأخ أخاه والقريب قريبه لوجه الله تعالى.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

مُسفِرة: مضيئة؛ مُشرِقة، يقال: أسفر الصبحُ: أضاء وأشرقَ. وأسفرَ وجهه: حسُن وأشرقَ. (الأقرب)

مستبشِرة: استبشرَ: فرِح وتلقّى البشرى (اللسان). فالمستبشِرة يعني أنهم يكونون فرحين، كما سيتلقون بشارات بمزيد من الفتح والغلبة والنصر.

التفسير: أي ما دام المؤمنون والكافرون فريقين مختلفين، فلا بد أن تكون معاملتنا معهم أيضًا مختلفة. فالذين يؤمنون بوصايانا سنعطيهم جزاءهم، وأما الذين كفروا بها فنعذبهم، فيومئذ تكون بعض الوجوه مضيئة جميلة ضاحكة فرحة وتتلقى البشارات.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤١﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

غَبرة: الغَبَرة: الغبار. (الأقرب)

تَرهَقهم: رهِق فلانًا: غشيه ولحقه. (الأقرب)

قَترة: القَتَرة: الغَبَرة، وجمعُها قَتَرٌ. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه سيُنفخ في الصُّور من عند الله من السماء حين يحين هذا التفريق بين الكفر والإسلام، فيصبح المؤمنون في طرف، والكافرون في طرف آخر؛ فريق يحبون بساتين الإيمان وينذرون أرواحهم في سبيل الله، وفريق يرضوْن بحشيش الكفر وكلئه.. فريق من الإنس يتوجهون إلى العنب والنخيل، وفريق من الأنعام يتوجهون إلى الأعشاب. هذا هو الموضوع الذي بينه الله تعالى في

هذه الآيات. يقول عز مِن قائل: هناك وجوه سيكون يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة.. أي سيكون هذا الغبار على وجوههم في أول الأمر، ثم يغطي هذا الغبار أبدانهم كلها، شأن الذبيحة التي إذا أُلقيتْ على الأرض للذبح اغبرّ وجهها أولاً، ثم إذا ذُبحتْ واضطربت اغبرّ بدنها كله. فكأن الله تعالى قد أشار هنا: أننا سنلقي هؤلاء الكفرة الفجرة على الأرض أولاً لذبحهم فتُرغَم وجوههم أولاً، ثم يضطربون بعد الذبح فتصبح أبدانهم كلها مغبرّة. إذًا، فهذه الآيات تخبر عن دمار كامل للكافرين.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

الكَفَرة: جمعُ كافرٍ، وكفَر الرجلُ: ضدُّ آمنَ. وكفَر نعمةَ الله: جحَدها وستَرها. وكفَر الشيءَ: ستَره. (الأقرب)

فالكافر هو: ١- مَن لا يؤمن، ٢- مَن يجحد نعمة الله، ٣-من يستر شيئا.

وورد في الأقرب أيضا: "الكَفَرةُ في جمعِ كافرِ النعمةِ أكثرُ استعمالا". (الأقرب)

الفَجَرة: جمعُ فاجرٍ. فجَر يفجُر الرجلُ فُجورًا: انبعث في المعاصي وزنى وفسق. وفجَر الحالف: كذَب. وفجَر فلانًا: كذَّبَه؛ عصاه وخالفه. وفجَر أمرُ القوم: فسُد. وفجَر فلان عن الحق: عدَل عنه. (الأقرب)

فالفجرة: ١- العصاة ٢- الحالفون كذبًا ٣- المكذِّبون لأحكام الله تعالى ٤- الذين يأتون أعمالا خليعة ٥- الذين فسد أمرهم ٦- المنحرفون عن الحق.

التفسير: أي اعلموا أن هؤلاء الهالكين هم الكفرة الفجرة. وكأنه تعالى يقول: ستعرفون من واقع الأمر مَن سيؤمن ومن سيظل مصرًا على الكفر والفسق والفجور. اليوم لا تستطيعون أن تخبروا مَن الذين سيؤمنون مِن أهل مكة ومَن الذين سيكفرون، ولكن عندما يُزرَع بستان الإسلام سيتوجه أناس منهم إلى العنب والنخيل والحبوب والزيتون والفواكه، بينما تتوجه الدواب منهم إلى الأعشاب

والعضاه. فمن توجه إلى العنب والنخل وغيرها، فاعلموا أنهم أُناس، والذين يتجهون إلى العشب أو العضاه ليأكلوا منها، فاعلموا يقينًا أنهم أنعام وشياه، وسوف يُذبحون، ويتغلب عليهم المسلمون يوما ما.

سورة التكوير

مكية، وهي ثلاثون آية مع البسملة

لقد نزلت قبل الهجرة بست سنوات أو أكثر قليلا على ما يبدو. فعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾. (مسند أحمد ص ٢٧، والترمذي كتاب التفسير، والمستدرك للحاكم، كتاب التفسير، وروح المعاني)

يتضح من هذا الحديث أن هذه السورة ترسم لنا مشهد يوم القيامة رسمًا مفصلا، بحيث يتراءى يوم القيامة أمام الأنظار.

ما هو المراد من يوم القيامة هنا؟ أهي تلك القيامة التي تقوم بعد فناء الجنس البشري كله أم غيرها؟

فليكنْ معلوما أن لفظ القيامة قد ورد في القرآن بعدة معان، حيث أُطلق على القيامة التي سيُبعَث فيها الناس جميعا ويُحشَرون بعد الموت. كما أُطلق هذا اللفظ على بعثة نبيّ، أو هلاك أعدائه، أو غلبة أتباعه. إن بعثة نبي قيامةٌ من حيث إنها تتسبب في انكشاف شتى الكفاءات الكامنة في الناس. عندما يظهر نبي تبرز للعيان قوى الخير وقوى الشر الكامنة في قومه، فيقع بمجيئه حشرٌ في العالم، و تنشكف القوى الكامنة في النفوس، وهكذا يكون النبي بمنـــزلة يوم القيامة لهم. وعلى سبيل المثال كان رسول الله ﷺ نفسه سببًا في تحوُّل أبي بكر إلى ما صار إليه، وفي تحوُّل أبي جهل إلى ما صار إليه. كان أبو جهل يسمى أبا الحكم من قبل، ولكنه لما رأى ذلك الكائنَ الروحاني العظيم ازداد بغيًا وطغيانًا وإصرارا للقضاء عليه إذ وجد في ظهوره موتًا لقواه الطاغوتية، وبالتالي ظهر لنا (أبو الحكم) في تلك الصورة التي

نكرهها اليوم جميعا. ولو لم يُبعث النبي ﷺ وقابل الناسُ أبا الحكم فربما وُصف في التاريخ كأحد رؤساء العرب الشرفاء، ولكنّ شخصية النبي ﷺ النورانية الغالبة هيّجت في أبي الحكم قواه الطاغوتية، فانكشفت نجاسته الخفية على العالم. كذلك لو لم يُبعَث النبي ﷺ وقابلَ الناسُ أبا بكر رضي الله عنه فربما وُصف في التاريخ كأحد تجار العرب الشرفاء الأمناء، ولكن إيمانه برسول الله ﷺ أدى إلى ظهور حسنه الروحاني بحيث لا تجد الدنيا كلها مناصًا من الثناء عليه حتى اليوم. فثبت أن ظهور النبي ﷺ هو الذي جعل أبا بكرٍ أبا بكر وأبا جهلٍ أبا جهل.

ونجد مثالاً على ذلك في عصرنا هذا أيضا، فلو لم ينبرِ المولوي محمد حسين البطالوي أو المولوي ثناء الله الأمرتسري لمعارضة المسيح الموعود عليه السلام لذكَرهما التاريخ كعلماء مسلمين عظام، ولظلَّ عداؤهما الخفي للحق طيَّ الكتمان. أما الآن فيعرف المرء بقراءة كتاباهما أهما أرادا القضاء المبرم على الحق بمجرد رؤيته. و لم يحصل هذا الانقلاب فيهما إلا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون ذلك فما كانت قوى الشر الكامنة فيهما لتظهر للعيان. أو لولا بعثته عليه السلام لوصفنا المولوي نور الدين رضي الله عنه كواحد من العلماء الكبار والأطباء الحُذّاق المشفقين على الفقراء، و لم نرَ فيه فضيلة أكثر من ذلك.

باختصار، إن بعثة نبي نوع من أنواع القيامة.

ثم إن ساعة هلاك أعداء نبي تُعتبر قيامةً أيضًا؛ لأن من معاني القيامة الموت، فقد قال رسول الله ﷺ: من مات فقد قامت قيامته. (مجمع بحار الأنوار لمحمد السندي: تحت كلمة القيامة، وتشييد المباني الحديث رقم ٢٧٦، والمقاصد الحسنة للسخاوي، الحديث رقم ١١٨٣). فما دام موت شخص واحد يسمى قيامة، فموتُ قوم أحقُّ أن يسمى قيامة. ويقول الشيخ محمد طاهر السندي عن لفظ القيامة: "وقد ورد في الكتاب والسنة على ثلاثة أقسام؛ القيامة الكبرى والبعث للجزاء، والوسطى وهي انقراض القرن، والصغرى وهو موت الإنسان." (مجمع بحار الأنوار: القيامة)

وهذا ما يؤكده القرآن ويصدقه، بل إنه قد ألقى ضوءًا أكثر على لفظ القيامة والساعة - علمًا أن هذين اللفظين يُستعملان بمعنى واحد- حيث تكشف لنا دراسة القرآن الكريم أن لفظ القيامة يُطلق فيه على المفاهيم التالية:

١- رقي أمة نبي ٢- دمار أعداء نبي ٣- انحطاط أمة نبي بعد رقيها.

وقد ورد المعنى الأول في قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:٢). بسبب معجزة انشقاق القمر توجد عند المسلمين فكرة شائعة أن هذه الآيات تشير إلى تلك المعجزة، مع أنه ليس فيها ما يؤكد أنها تشير إلى تلك المعجزة فقط، ذلك لأنها تذكر انشقاق القمر ضمنيًا، إذ تعتبره دليلا على اقتراب الساعة. فسواء اعتبرنا انشقاق القمر بمعنى زوال حُكم العرب، أو بمعنى تلك المعجزة الشهيرة التي أظهرها الله على يد رسوله ﷺ؛ حيث رأى المؤمنون والكافرون القمر وكأنه قد انشق، فإن من المؤكد أن القرآن قد استدل بانشقاقه على اقتراب القيامة. ومعلوم أن القيامة الكبرى التي سيشمل فيها الدمار العالَم كله ويُبعث فيها الناس مرة أخرى لم تظهر حتى اليوم، رغم مرور قرابة ١٣٧٠ سنة على ظهور تلك المعجزة. ومعلوم من الأحاديث أن المسيح والمهدي سيظهران في هذه الأمة، وسيزدهر الإسلام على أيديهما، فلو أن المسلمين الذين لا يزالون ينتظرون ظهورهما - على عكس عقيدتنا- قدّروا زمن ظهورهما وما بعده سبعة قرون أيضًا، فهذا يعني أن القيامة ستقوم بعد ألفي سنة من هذا الإنذار من اقترابها في سورة القمر، وفي هذه الحالة يصبح إنذار كفار مكة من اقتراب الساعة أمرًا عبثًا، بل أضحوكة. وبعيد عن عظمة القرآن أن ينذر كفار مكة قائلا: أيها الكافرون ستُدمَّرون، ويصبح الإسلام غالبا، ثم يصيبه ضعفٌ يستمر قرونًا، ثم يظهر بعدها المسيح، فيجعل الإسلامَ غالبا ثانية، ثم بعد ازدهاره الذي يستمر مدة طويلة سيزدهر الكفر مرة أخرى، وعندها سيدمر الكون كله، فها نحن ننذركم من ذلك اليوم الذي سيأتي بعد ألفَي سنة فقط، وذلك برغم أنه سيكون قد مرّ على فنائهم وانمحاء أي أثر لهم ألفا سنة!!

هل من عاقل يعرض مثل هذا الأمر على الناس يا ترى؟ فكيف يُعزى إلى الله الذي هو أعلم العالمين ما لا يحب المرء عزْوَه إلى نفسه؟ فثبت جليًّا أن المراد من اقتراب

الساعة هنا هو غلبة الإسلام. والثابت من كلام العرب أيضًا أن القمر يرمز إلى حُكم العرب أو رئيسهم✪. فالحق أن الله تعالى قد أرى الكافرين والمسلمين معجزة انشقاق القمر أولاً، ثم فسرها في القرآن قائلاً: لقد رأيتم معجزة انشقاق القمر التي هي بمثابة إنذار باقتراب انتهاء حُكم الكافرين، واقتراب غلبة الإسلام التي ستكون بمنـــزلة القيامة لأعداء الإسلام. إذًا فقد ثبت من هنا أن الساعة أو القيامة في هذه الآية لا تعني إلا زمن غلبة الإسلام وازدهاره.

كذلك قال الله تعالى في سورة الممتحنة مستنكرًا ما كان يفعله بعض المسلمين أحيانا من إبلاغ أخبار إخوانهم إلى الكفار، فقال لهم محذّرًا: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الممتحنة:٣-٤)

والمراد من ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هنا القرار الذي صدر يوم فتح مكة وبعده في هذه الدنيا، والذي ميّز بين الكافرين والمؤمنين. فهؤلاء الكافرون سابقا لم يستطيعوا الإسهام في رقي الأمة، بل أضرّوا بالمسلمين يوم حنين، حيث تسببوا في فرارهم. ولما نادى العباس بأمر النبي ﷺ يا معشرَ الأنصار، أين أصحاب بيعة الرضوان، إن رسول الله يناديكم، رجع الأنصار وقدّموا تضحية غير عادية حتى انقلبت هزيمة المسلمين فتحًا (السيرة لابن هشام، غزوة حنين)، ولكن هؤلاء المسلمين الجدد.. الكافرين قبل الفتح.. لم يتوقفوا إلا بعد أن وصلوا إلى مكة. فما دام مضمون هذه الآية قد تحقق

✪ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: رَأَيْتُ ثَلاثَةَ أَقْمَارٍ سَقَطْنَ فِي حُجْرَتِي، فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. قَالَتْ فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدُفِنَ فِي بَيْتِهَا قَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: هَذَا أَحَدُ أَقْمَارِكِ وَهُوَ خَيْرُهَا. (الموطأ، كتاب الجنائز)

"كانتْ صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضتْ رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنّينَ مَلكَ الحجازِ محمداً؟! فلطَم وَجهَها لطمةً خضّر عينَها منها. فأُتي بها رسولَ الله ﷺ وبها أثرٌ منه، فسألها: ما هو؟ فأخبرتْه هذا الخبر." (السيرة لابن هشام، المجلد الرابع، ذكرُ المسير إلى خيبر، أمرُ صفية أم المؤمنين)

في هذه الدنيا بشكل كامل دونما تأويل أو توجيه، فلا داعي لتطبيقه على القيامة التي تكون بعد الموت.

كذلك قال الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة:٢١٣). ويوم القيامة المذكور هنا إشارة إلى يوم فتح مكة وغيره من الأحداث المماثلة التي وقعت في هذه الدنيا. أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿والَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارةً إلى يوم القيامة والحشر الذي يكون بعد الموت، فلا يستقيم المعنى، إذ (أولاً): ليس هذا القول حجة على الكافرين، إذ لا جدوى من الاستدلال بحادث يقع بعد الموت، ومن ذا الذي سيؤمن بمثل هذا الدليل؟ والإيمان بعد الموت لا قيمة له ولا نفعَ. و(ثانيا): ستعني هذه الآية - في هذه الحالة - أن المسلمين لن ينالوا الغلبة في هذه الدنيا، بل بعد الموت. وهذا باطل بداهة، بل قد أصبح المسلمون غالبين في الدنيا نفسها يوم فتح مكة وفي المعارك التالية.

ولو قيل إن الله تعالى يقول هنا ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وهذا لا يمكن إلا في الحياة التي تكون بعد الموت فقط، فالجواب أن للرزق بغير حساب مفهومين: الأول أن يُؤتى المرء أكثرَ من عمله، والثاني أن يحسن المرء استعمال الرزق حتى لا يحاسَب عليه؛ لأنه يحاسَب حين لا يؤدي واجبه كما ينبغي. فقد ورد في الحديث عن عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا هَلَكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينه فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حسَابًا يَسيرًا﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: إِنَّمَا ذَلك الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحسَابَ يَوْمَ الْقيَامَة إلا عُذِّبَ. (البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب). إذًا فكون المؤمنين يُرزَقون بغير حساب يعني أنهم سينفقون ما أُوتوا إنفاقًا صحيحًا، فينجون من طائلة الحساب. وكلا المفهومين للحساب قد تحقق للمسلمين في الحياة الدنيا، فأُعطوا فيها بغير حساب دون أن ينتظروا القيامة التي تكون بعد الموت ليُعطوْا فيها بغير حساب. لا شك أن تضحياتهم كانت جسيمة، غير أن الجزاء الذي أعطاهم الله تعالى كان أكثر من تضحياتهم بكثير،

حيث صار رعاةُ الغنم والإبل ملوكَ العالم كله، ونال هذا الشعب المقهور المغلوب مُلكًا عظيمًا قويًا. كما نالوا الرزق ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بالمفهوم الآخر أيضًا؛ فقد أحرزوا التقوى والورع بحيث لا تزال الدنيا تثني عليهم حتى اليوم. لقد نالوا الرزق الكثير، ولكنهم لم يضيعوه إسرافًا وبذخًا، بل أنفقوه إنفاقًا أدى إلى صلاحهم في الدنيا وثوابهم في الآخرة. خلاصة الكلام أن يوم القيامة هنا يعني زمن غلبة الإسلام؛ إذ أصبح المسلمون غالبين على الكافرين في هذا "اليوم" نفسه، كما أُعطوا الرزق بغير حساب أيضًا.

للمزيد انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة النور، والآية ٤٩ من سورة ص، والآية ١٠ من سورة الزمر.

ثم في سورة القيامة أيضًا قد ذكر الله تعالى نوعين من القيامة؛ إحداهما تتعلق بهذه الدنيا والأخرى بالآخرة. وقد ذُكرت إحداهما في قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(القيامة ٨-١٠). والواضح أن خسوف القمر وكسوف الشمس ليسا من علامات القيامة التي تقوم بعد فناء البشر جميعا، بل هما من علامات ظهور المهدي المسعود بحسب ما ورد في الحديث. فثبت من ذلك أن القيامة المذكورة هنا هي قيامة إحياء الإسلام في الزمن الأخير، لا القيامة التي تقوم بعد هلاك البشر جميعا.

وهناك آيات عديدة أخرى قد استخدم فيها القرآن الكريم لفظ القيامة والساعة بمعنى انقلاب عظيم حاصل في هذه الدنيا. والقيامة المذكورة في الآيات قيد التفسير أيضًا هي قيامة هذه الحياة الدنيا - كما سيتضح لاحقًا - حيث يحيي الله تعالى المسلمين بعد موتهم الروحاني، وسوف يتجدد الإسلام بعد انمحاء آثاره، وقد ذُكرت علامات هذا الزمن الأخير في هذه السورة وفي التي تليها.

وكما أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ القيامة أو الساعة بمعنى انقلاب عظيم في هذه الدنيا، فقد ورد هذا اللفظ بالمفهوم نفسه في الأحاديث الشريفة أيضًا حيث ورد أن جبريل جاء مرة إلى النبيّ ﷺ وأصحابه بصورة إنسان وسأله: مَتَى الساعة؟ فقال ﷺ: ما المسئولُ عنها بِأَعْلَمَ مِن السائلِ، وسأُخْبِرُك عَنْ أَشراطِها: إذا وَلَدَتْ

الأَمَةُ رَبَّها، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمِ فِي البُنيانِ. (البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل)

وقد ظهرت هذه الأشراط زمنَ ازدهار العباسيين، حيث اقتنى أكثر ملوكهم الجواري والإماء، فصارت أولادهن ملوكًا، وقُضي على حُكم العرب بسبب أقارب هؤلاء الجواري. وكذلك ترك العرب حياةَ الجِدّ والكدّ والتضحية والسفر وأقاموا في المدن وانهمكوا في بناء المباني العالية.

وورد في حديث آخر أن شخصا حضر مجلسَ رسول الله ﷺ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺ يُحَدِّثُ... حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِه فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. (البخاري، كتاب العلم، باب مَن سُئل علمًا).. والأمانة هنا أمانة الحُكْم، والقيامة هنا وقت انحطاط المسلمين وهلاكهم.

وورد في حديث آخر: "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا." (البخاري، كتاب العلم، باب رفْع العلم). والمراد من قوله ﷺ: "وَيَظْهَرَ الزِّنَا" أنه ستكثر البغايا، ويتفاخر الناس بفواحشهم في المجالس. والمراد من القيامة هنا أيضًا زمن انحطاط الإسلام.

وورد في حديث آخر: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزلازلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ؛ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيض." (البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات). وقوله ﷺ "ويتقارب الزمان" إشارة إلى تطوُّر علم التاريخ، فكأن أحداث الأزمان المختلفة تصبح قريبة. أما قوله ﷺ: "حتى يكثر فيكم المال فيفيض" فهو إشارة إلى كثرة المال وحياة البذخ والإسراف. وهنا أيضًا قد سُمّي انحطاط المسلمين قيامة.

وهناك حديث آخر يقول فيه رسول الله ﷺ: لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُم الشَّعَرُ، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا كَأَنَّ وُجُوهَهُم الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ. (البخاري، كتاب الجهاد، باب قتال الذين ينتعلون الشعر). هذا الحديث يشير إلى

هجوم التتر على المسلمين، وفيه إشارة إلى أن انحطاطهم سيبدأ بهجمات التتر عليهم.

وفي حديث: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، يَعْنِي إِصْبَعَيْنِ" (البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي بعثت أنا والساعة كهاتين).. أي أن زمني متصل بالساعة كاتصال إصبعين. ولكن رغم انقضاء ثلاثة عشر قرنا على زمن النبي ﷺ لم تقم الساعة حتى الآن!! فثبت من ذلك أن الساعة هنا بمعنى آخر، وهو رقي الإسلام وازدهاره. والمراد من قوله ﷺ هذا أن كثيرًا من الأنبياء لم تزدهر أُممهم إلا بعد وفاتهم بفترة طويلة، ولكن الله تعالى قد وعدني بازدهار الإسلام في حياتي. وهذا ما حصل فعلا.

وهناك حديث آخر: "مِن اقْتِرَابِ السَّاعَةِ هَلاكُ الْعَرَبِ." (الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل العرب). وهذا هو المعنى لقوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

باختصار، قد ورد لفظ القيامة في القرآن والحديث بعدة معان: بمعنى القيامة الكبرى، أي التي ستظهر بفناء البشر جميعًا أو بحشرهم مرة أخرى؛ وبمعنى ازدهار قوم أو زوال قوم أو موت شخص. فقول الرسول ﷺ إن "مَنْ سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين، فليقرأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِ ذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾" لا يعني أن هذه السور إنما تتحدث عن القيامة التي ستكون بعد فناء البشر جميعا فقط؛ ذلك لأن القرآن الكريم قد استخدم لفظ القيامة بمعانٍ عديدة، فيجوز للرسول ﷺ أيضًا أن يستخدمه بمعان مختلفة.

باختصار، إن قول الرسول ﷺ هذا إنما يعني أن هذه السور ترسم مشهد القيامة رسمًا مفصلا بحيث تتراءى أمام أعيننا. وسيتبين من تفسير هذه السورة لاحقًا أن ما قاله الرسول ﷺ كان صدقًا وحقًّا.

علاقة سورة التكوير بالسور السابقة:

إن علاقة هذه السورة بسورة عبس بل بالسور السابقة الأخرى تكمن في أن تلك السور تتحدث عن غلبة الإسلام والقيامة الكبرى. وكان من المقدر أن يغلب الإسلام مرتين على الأقل؛ كما كان من المقدر أن يُبعث الرسول ﷺ مرتين. والقيامة التي قامت على يد الرسول ﷺ كان لها مظهران كبيران كما هو بيّنٌ من

سورة الجمعة، حيث قامت هذه القيامة في زمن الرسول ﷺ أولاً، وكان من المقدر أن تقوم ثانيةً بعد ثلاثة عشر قرنًا، أي بعد انقضاء فترة ضعف الإسلام الممتد لألف سنة بعد فترة رقيه الأولى. ويتضح من مواضع أخرى في القرآن أيضًا أنه كان من المقدر أن يضعف الإسلام كما قال تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٦)، حيث بين الله تعالى أنه سيُنْزِل أمر الإسلام من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه تعالى خلال ألف سنة. وتخبرنا الأحاديث أن ازدهار الإسلام في زمن الرسول ﷺ سيستمر ثلاثة قرون (البخاري، كتاب الرقاق، باب من يحذر من زهرة الدنيا). فإذا أضفنا إلى هذه القرون الثلاثة ألفَ سنة من ضعف الإسلام أصبح وقت انتهاء هذا الضعف عام ١٣٠٠ من الهجرة؛ أي قرابة عام ١٨٨٦✪ الميلادي. وحيث إن الله تعالى قد نبّأ أولاً عن غلبة الإسلام، ثم عن فترة ضعفه، فكان لزامًا أن يبين أيضا ماذا سيحصل بعد الضعف كيلا يستولي اليأس على المسلمين فتنهار هِمَمُهم.

وورد في الحديث أن أحد كبار علماء اليهود - أبا ياسر بن أخطب - مرَّ في رجال من اليهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فواتح سورة البقرة ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، فأتى أخاه حُيَيَّ بنَ أخطب، فقال: تعلمون والله، لقد سمعتُ محمدًا يتلو فيما أُنزلَ عليه ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾! فقال: أأنت سمعتَ؟ فقال: نعم. فمشى حُيَيٌّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، ألم يُذكر أنك تتلو فيما أُنزلَ عليك ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾؟ قال: بلى.

✪ الحاشية: لو حوّلنا ١٣٠٠ سنة قمرية (هجرية) إلى الشمسية تصير عندنا عام ١٨٨٦ الميلادي. ذلك أن النبي ﷺ قام بالهجرة عام ٦٢٢ الميلادي، وإن الـ ١٣٠٠ سنة القمرية (الهجرية) تساوي تقريبًا ١٢٦٤ سنة شمسية، و ٦٢٢ +١٢٦٤= ١٨٨٦ - وإذا تركنا السنوات الزائدة فهي سنة ١٨٨٥ — و ١٨٨٦ هي السنة التي بشر الله تعالى فيها مؤسسَ الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام بفتح الإسلام ثانية وبتأسيس جماعة على يده ستعمل على تقوية أساس الإسلام، وبولادة ابن عنده خلال تسعة أعوام سيذيع اسم الإسلام في أنحاء العالم كله. وذلك الابن المولود هو صاحب هذا التفسير بفضل الله ومشيئته، الذي أُدليت النبوءة بولادته في بداية عام ١٨٨٦ التي جاءت تصديقًا للنبوءة القرآنية. والله غنيٌّ لا يُسأل وهم يُسألون. (المفسر)

فقال: لا ضيرَ، فإنك لو صرتَ غالبا فستستمر غلبتك لواحد وسبعين سنة، لأن الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة. وسوف نصبر هذه المدة، لأن غلبة دينك تنتهي بعده. فقال له رسول الله ﷺ: لقد نزل عليّ غيرُه أيضًا؛ وهو ﴿المص﴾. فقال حُيي: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة. ولا ضير، وإن كانت هذه المدة أطول. فقال النبي ﷺ: إنّ معي غيره، وهو ﴿الر﴾. فقال: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان. فقال النبي ﷺ: إن معي غير ذلك أيضًا، ﴿المر﴾. فقال: هذا أثقل وأطول. الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان. ثم توجّه حُيي إلى أصحابه وقال: هيّا بنا نذهب، فقد تشابهَ أمره علينا.

(فتح البيان: سورة البقرة، قوله تعالى ﴿الم﴾، والسيرة لابن هشام، ما نزل في أبي ياسر وأخيه)

إذًا، فالعدو حين يسمع نبوءة ضعف دينٍ يقول في نفسه: إن هذا الدين سيضعف في يوم من الأيام، وسوف نصبر على زمن غلبته بطريق أو بآخر، لأنه سينقضي لتأتي بعده أيام غلبتنا ثانية. فلذلك نجد أن النبي لا يكتفي بالإنباء عن ضعف دينه، بل ينبئ أيضا أنه سيأتي بعد الضعف والانحطاط نبي آخر يمهد لرقي أمته وغلبتهم ثانية. لا شك أن كل رقيّ مقرونٌ بالانحطاط، وهذا قانون جارٍ منذ الأزل، ولكن النبي لا يكتفي بالإخبار عن فترة الانحطاط، بل يبشر أيضًا بفترةٍ جديدة من الرقيّ، وهكذا يخبر أنه سيموت، ولكن ملّته لن تنمحي أبدًا، فإذا جاءت على دينه فترة من الانحطاط، فسوف تليها أيام غلبة دينه على الكفر ثانية. وهكذا يجعل الله تعالى الكفر يائسًا من الغلبة دائما، ويثبت قلوب المؤمنين بألا ييأسوا، بل يجب أن تبقى هممهم عالية وعزائمهم قوية ونظراتهم مسدّدة، لأن الإسلام سيصبح غالبا مرة أخرى، وسوف يقع الكفر في الحضيض ثانية. هذا هو الفرق بين كلام الله وكلام البشر، وأَنَّى لغير الله تعالى أن ينبئ عن ترقيات بلا نهاية؟ كلا، بل إن الله وحده يعلم الغيب، وهو وحده القادر على تحقيق مشيئته التي يخبر بها أحبته، لكي يوصلوا هذه الأنباء إلى الآخرين، لتكون هذه الأنباء سكينة لقلوبهم. لا شك أن فترة

الانحطاط قد جاءت بعد موسى وبعد عيسى وبعد رسول الله ﷺ أيضًا، ولكن كل نبي ينبئ حتمًا عن كل تراجُع، حتى إذا جاءت فترة الانحطاط أصبحت آية على صدق النبي. أما لو أصيبتْ أمة بالانحطاط من دون نبوءة سابقة فيمكن أن يعتبره الناس مصادفة، ولكن لو كان هناك نبأ سابق بالانحطاط لجاز للمؤمنين أن يقولوا إن هذا الانحطاط أيضًا دليل على صدقنا، لأن هناك أنباء سبقتْ عنه. ولكن لو اكتفى النبي بالإنباء عن الانحطاط دون خبر الرقي بعده، لاستولى اليأس على قلوب المؤمنين. ومن أجل ذلك ينبئ النبي عن الانحطاط من ناحية لكي تشكل فترة الانحطاط بحد ذاتها دليلا على صدق النبي، ومن ناحية أخرى ينبئ عن الرقي بعد الانحطاط ثانية، ليطمئن المؤمنون وييأس الكفر من ازدهاره الدائم. إذا كان هذا الرقي منوطا بنبي فيخبر الله تعالى عن بعثته، وإذا كان منوطًا بشخص آخر، فيخبر عنه.

على أي حال، يتبع الله تعالى هذا الأسلوب الرائع لتقوية قلوب المؤمنين ورفع معنوياتهم. وقد جربتُه بنفسي تجربة رائعة. وقد بينت هذا الأمر في كتابي (دعوة الأمير)*، فقلت إن المصائب التي حلَّت بالإسلام اليوم قد سبق أن أنبأ عنها الرسول ﷺ في حديثه بالتفصيل. وما دام ﷺ قد أخبر عن هذا الانحطاط قبل ١٣٥٠ سنة، بل بشَّر بفترة من الرقي بعده أيضًا، فلا داعي ليأس المسلمين. فكلما طالت فترة الضعف هذه نقول: هذا ليس تكذيبًا للإسلام، بل هو تصديق للرسول ﷺ إذ قد أخبر عن ذلك سلفًا. وهناك مثال لذلك في القرآن الكريم أيضا، حيث ورد في سورة الأحزاب أنه لما اجتمعت جنود الكافرين للهجوم على المسلمين أخذ المنافقون يعيّروهم قائلين: أين وعودكم عن الانتصارات المادية؟ فازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(الآية ٢٣).. أي أن رسول الله ﷺ سبق أن أخبرنا بذلك، فنحن فرحون على أنه تعالى قد حقق وعده. فما الداعي للحزن والقلق؟

* تُرجِمَ هذا الكتاب إلى العربية وطبع باسم "دعوة إلى الحق". (المترجم)

فتلاحظ أنهم لم يصبهم فزع بسبب هذا الوعد، ولكن لولا هذا الوعد فلربما أصابهم الفزع والاضطراب. إذًا فالأمر الذي يخوف به العدو المؤمنين قد جعله الله تعالى سببًا لتقوية إيمانهم، حيث يقولون ما دام الله تعالى قد أخبرنا في كلامه سلفًا عن هذا الضعف الذي يصيبنا، فلماذا نخاف ولماذا نقنط؟

فما يصيب المؤمن من بلاء بحسب أنباء الله السابقة فإنه يشحنه بقوة هائلة، لأن تلك المصائب تأتي تحقيقًا لكلام الله تعالى. أما إذا لم تصبه هذه الآلام، فإن نفس العدو الذي يعتبرها دليلا على بطلان الإسلام سيقول له: إن نبيكم كان قد أخبر بهذا، ولكن نبأه هذا لم يتحقق. ولكن المؤسف أن هذه الأنباء حين تتحقق، وتأتي فترة الضعف والانحطاط، فإن العدو يعتبرها دليلا على بطلان هذا الدين، مع أنها دليل على صدق الدين، ودليل على صدق النبي، ودليل على هزيمة الكفر، لأنه كما تحقق كلام الله تعالى عن رقي الدين، كذلك قد تحقق كلامه عن ضعفه. وإثبات هذا الأمر هو الواجب الأول للدين.

إذًا، فهذه حكمة بالغة، لو استوعبها المرء لم يتزعزع إيمانه في زمن ضعف الدين واضمحلاله، بل تظل قدمه ثابتة على صخرة قوية من الإيمان. إنه يدرك أن دينه حق في كل حال. كان حقًّا في أيام الغلبة، وهو حق في أيام الضعف؛ إذ سبق أن أُنبئَ عن ضعفه سلفًا. ولكن المؤسف أن المسلمين لم يدركوا هذا الأمر ووقعوا فريسة لليأس. لقد شرحتُ هذا الأمر -إلى حد ما- في كتابي (دعوة الأمير)، فبيّنتُ أن أنباء ضعف الإسلام في حد ذاتها دليل على صدقه وصدق القرآن؛ إذ وردت مفصّلةً في القرآن والحديث سلفًا. ثم إن الإسلام لم يكتف بأنباء ضعفه، بل أنبأ أيضا أنه سيصبح غالبًا بعد فترة الضعف ثانية، وأن الكفر سيُكبّ على وجهه مرة أخرى، وأن محمدًا رسول الله والقرآن سيصبح غالبا على الدنيا من جديد. فهذا الضعف يتضمن بشارة عن الرقي أيضًا، وهذه الظلمة تنبئ عن طلوع الشمس، فلماذا يقنط المسلمون إذن؟ ولماذا لا يتدبرون بحسب الوعود الإلهية ولماذا لا يبحثون عن ذلك النور السماوي، حتى يعلموا أين طلعت تلك الشمس الموعودة التي ستبدِّد هذه الظلمة.

لقد مررت بتجربة عجيبة فيما يتعلق بما ذكرت آنفا. لقد قابلني في دهلي زعيم من منطقة "سَرْحد" واسمه شودري فقير محمد، وكان يعمل مهندسا في شركة، فقال لي: نحن أربعة إخوة، اثنان منا أحمديان، واثنان ليسا بأحمديين، وأنا لم أنضمّ إلى جماعتكم بعد. فسألته عن سبب ذلك، وقلت: أتشكّ في صدقها؟ وكان في طبعه مزاح فقال: الواقع أني لم تتح لي فرصة التدبر في الأحمدية بعد، غير أننا قوم عادلون. لقد أعطيناكم نصف روبية، وأعطينا المسلمين الآخرين نصف روبية. فأجبتُه على سبيل المزاح: ولكنا لن نرضى بنصف روبية، بل نأخذها كلها. قال: فخُذْها بتأثيرك الروحاني إن استطعتَ. قلت: سنسعى لذلك، وسيعطينا الله نصف الروبية الآخر إذا شاء. وكان الرجل ذاهبًا مع عياله إلى إنجلترا للسياحة، فقال: إن أحد إخوتي هو "خان محمد أكرم خان" القاطن في مدينة "جارسده"، وضع في حقائبي بعض كتبكم عندما خرجت من البيت. فقلتُ له: إني ذاهب للسياحة، ولن أجد وقتا لقراءتها، ولكنه وضعها في حقيبتي رغمًا عني، ولم أتمكن من قراءة أي كتاب منها حتى الآن.

ثم ذهب هذا الرجل إلى إنجلترا، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى وصلتني رسالة بدأها بقوله: قبل أن أكتب مطلبي أُريد أن أُعرّفكم أنني ذلك الشخص نفسه الذي قابلكم في القلعة الملَكية في دهلي قبل ثلاثة أشهر، وقال لكم: إننا قوم عادلون؛ حيث أعطيناكم نصف الروبية، وأعطينا المسلمين غير الأحمديين نصفها، فقلتَ: ولكننا لا نرضى إلا بالروبية كاملة. والآن وبحسب أمركم أُهدي لكم ربعًا آخر من تلك الروبية، وأنضم إلى جماعتكم مبايعًا على يدكم. ثم أشار في رسالته إلى المعنى الذي قد بيّنته الآن، وقال: جئت إلى إنجلترا وزرت معالمها، فرغم أني من الأفغان وأتمتع بحماس ديني، إلا أنني كلما رأيت قوة الكفر المتزايدة ازداد قلبي يأسًا، وقلت: لقد انهار الإسلام وتقوّى الكفر بحيث لا أمل في أن يتقوى الإسلام وينهار الكفر مرة أخرى. لقد مات الإسلام، وليس الأمل في حياته إلا ضربا من الوهم والخبل. هذه هي الأفكار التي ظلت تغزو عقلي باستمرار فيئستُ حتى أيقنت أن الإسلام لن يغلب على الدنيا مرة أخرى. وفي أحد الأيام أخذت هذه الفكرة من نفسي كل

مأخذ، فقلت لنفسي في هذه الحالة من اليأس والقنوط: تعال انظرْ في الكتب التي قد وضعها أخوك في حقائبك. وكان أول كتاب وقع في يدي هو "فلسفة تعاليم الإسلام"، فقرأته. ثم بدأت أقرأ كتابك "دعوة الأمير"، حتى وصلت إلى الصفحات التي تناولتَ فيها نفس القضية التي ملأت قلبي يأسًا إلى أقصى درجة؛ أعني ضعف الإسلام واضمحلاله. لقد أشرتَ إلى نبوءات عديدة للنبي ﷺ وقلت قد سبق أن تنبأ ﷺ عن ضعف الإسلام في نبوءة كذا وقد تحققت، وفي نبوءة كذا وقد تحققت أيضا. ثم ذكرتَ نبوءات النبي ﷺ عن ازدهار الإسلام ثانية، وقلتَ: ما دامت أنباء النبي ﷺ المتعلقة بضعف الإسلام قد تحققت، فكيف لا تتحقق أنباؤه المتعلقة بازدهاره وغلبته؟ فلما قرأتُ هذا امتلأ قلبي فرحة وسرورا وزال منه اليأس، ولمعت فيه بارقة الأمل، وقررتُ أني لن أخلد إلى النوم ما لم أكتب لك رسالة بيعتي، وها أنا أكتبها قبل النوم، فأرجو قبولها.

فالحق أننا عندما ندرك أنه سبق أن أنبأ الرسول ﷺ عن هذه المصائب والآلام التي صبّت على الإسلام والمسلمين، نجد في هذه الآلام نفسها راحة، ونقول: ستتحقق أخبار غلبة الإسلام أيضًا كما تحققت أخبار ضعفه واضمحلاله.

ثم إن تحقق هذه الأنباء يشكل دليلا على يوم القيامة أيضا، لأن الله هو الذي يحيي النفوس الميتة في هذه الدنيا، فكيف يُتصور أن يعجز عن إحيائها في الآخرة؟ ما دام موت هذه النفوس وإحياؤها -روحانيا- ممكنًا بحسب هذه الأنباء في هذه الدنيا، فلا بد من إحياء الموتى في الآخرة بحسب ما أنبأ الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

كُوِّرت: كَوَّرَ العمامةَ على رأسه: لَفَّها. وكوّر فلانا: صرَعه. وكوَّر المتاعَ: جمَعه وشدَّه ولفَّه على جهة الاستدارة. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: إذا الشمس لُفَّتْ، أو: إذا الشمس صُرعتْ. أما إذا اعتبرنا الشمس هنا شمسًا مجازية، واعتبرناها أحد الناس، لسهل علينا إدراك مفهوم الآية، وهو أن هذه الشمس المجازية سوف تُلَفُّ كما يُلَفّ المتاع في حزمة مستديرة وتوضع جانبا، ولا يلمَسها أحد.

كما يمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ بحذف مضاف وهو الضوء، والمعنى: إذا لُفَّ ضوء الشمس، أو: إذا مُحِيُ ضوء الشمس وجُعلت مختفية عن الأنظار مثل الحزمة التي تُلَفّ وتوضع بعيدًا عن الأنظار.

التفسير: حينما يقرأ الإنسان المعنى الذي نفسر به هذه الآيات مع مفهوم الآيات التالية يعلم أنه هو المفهوم الحقيقي والصحيح، وليس في تفسيرنا أي تكلف. لقد قلتُ هذا لأن البعض قد يستغرب عند قراءة تفسيرنا للآية الأولى من سورة التكوير. لقد تحدث المسيح الموعود عليه السلام في كتبه عن تفسير هذه الآية، كما أن تفسيرها يقدَّم من قِبل جماعتنا عادة، فالذين يسمعون كلامنا فإنهم لن يجدوا في تفسيرنا هذا أي تكلف، ولكن الذين لم يتيسر لهم الاطلاع على كتب جماعتنا، أو لم تتح لهم فرصة كافية لسماع أقوالنا فيستغربون منه في أول وهلة، ولكنهم عندما يتدبرون في الآيات كلها، سيدركون أنه ليس في تفسيرنا هذا أي تكلف، بل هذا نفس ما بينه الله تعالى في هذه الآيات.

ليكنْ معلومًا أن الله تعالى قد سمّى الرسول ﷺ في القرآن الكريم شمسًا (الأحزاب:٤٧)، وقد أخبر الله تعالى هنا أنه سيأتي زمن ستكوَّر فيه الشمس وتُلَفُّ،

وعليه فالمراد من هذه الآية أنه سيأتي زمان لن يتبع فيه المسلمون الرسول ﷺ، بل يتبعون آراءهم، معرضين عن تعاليمه ﷺ ليس بقلوبهم فحسب بل بأعمالهم أيضًا، فيستغنون عن الاقتداء به ﷺ في حياتهم العملية. وهذا المشهد يمكن أن يراه المرء اليوم في كل مكان. إن المسلمين لا يكادون يأبهون لفهم تعاليم الرسول ﷺ والعمل بها. إنهم لم يكونوا يعملون بالقرآن من قبل، أما اليوم فقد تركوا العمل بحديث رسول الله ﷺ إلى حد كبير. وإذا كانوا يعملون بأحاديثه ﷺ فلا يتعدى ذلك التقليد الشكلي؛ إذ أهملوا روحها ومضمونها، ولذلك لا يتجلّى نور النبي ﷺ على العالم. إن نور النبي ﷺ لا ينحصر في غسل الأيدي إلى المرافق ومسح الرأس عند الوضوء، بل هو في العمل بكل ما أمر به الرسول ﷺ في كل مجالات الحياة الإنسانية. وهذا هو الأمر الذي يجعل وجه المرء يلمع كالشمس ويجعله يسرع الخُطا إلى الدرجات العلى. ولكن المسلمين لا يشعرون كيف أنهم يسترون عن أعين العالم النور الذي جاء به الرسول ﷺ. لا شك أن هناك طائفة يسمون أنفسهم "أهل الحديث"، ويظنون أنهم العاملون بأحكامه ﷺ، ولكن البركات التي أتى بها النبي ﷺ لا تتجلى بواسطتهم؛ إذ يهتمّون بظاهر تعاليمه ﷺ عموما ولا يتوجّهون إلى مغزاها ومضمونها. ثم إن أكبر ما أتى به الرسول ﷺ لهداية الناس هو القرآن الكريم، ولكن طائفة "أهل الحديث" يبذلون أقصى جهدهم لأن يجعلوا القرآن تابعًا للحديث. فكأنهم يظهرون أمرًا ويسترون أمرًا آخر. كان الرسول ﷺ مظهرا للقرآن الكريم وللحديث معًا لكونه شمسًا، ولكنهم يمحون أحدهما محوًا تامًا، وبالتالي يستحيل القول إنهم سيتسببون في انكشاف النور الذي جاء به الرسول ﷺ للدنيا. فالمسلمون لم يعودوا تابعين للشمس الروحانية التي خلقها الله تعالى لإنارة العالم. ففرقة "أهل القرآن" حين يتناولون قضية العلاقة بين القرآن والحديث يحاولون جاهدين إبطال الحديث النبوي كلية، ولا يقبلون في تفسير القرآن إلا ما اخترعته أذهانهم. بينما يحاول "أهل الحديث" أن يجعلوا القرآن تابعًا لأفكار رُواة الحديث. وكلا الأمرين يحول دون تجلّي نور النبي ﷺ على العالم.

باختصار، إن لقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ مفهومين: أولهما: أن المسلمين سيتركون الاقتداء برسول الله ﷺ ويتبع كلٌّ منهم رأيه، وثانيهما: أن الأنوار المحمدية سيتوقف تجلّيها، وسيصبح المسلمون - الذين كان واجبهم نشر نور النبي ﷺ في العالم إلى أقصى حد - سببًا في انكماش نوره ﷺ بدلاً من كشفه ونشره.

ومن معاني قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ محوُ ضوئها، وعليه فالمراد أن الشمس ستظلم، أي تنكسف. وهذه إشارة إلى النبوءة الشهيرة المذكورة في حديث الرسول ﷺ: "إن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلقِ السماوات والأرض: تنكسف القمرُ لأول ليلة من رمضان وتنكسف الشمسُ في النصف منه، ولم تكونا منذ خلَق اللهُ السماوات والأرض" (الدارقطني، كتاب العيدين، باب صلاة الخسوف والكسوف).. أي أن هناك آيتين على صدق مهدينا لم تظهرا لصالح أي مدعٍ منذ خلق الله السماوات والأرض، وهما خسوف القمر في أولى ليالي انخسافه في رمضان، وكسوف الشمس في اليوم الوسط من أيام انكسافها في رمضان نفسه.

لا شك أن هذه السورة تتحدث عن الشمس فقط، لكن الأحاديث تتحدث عن خسوف الشمس والقمر كليهما. علمًا أن من أساليب القرآن واللغة العربية حذف أحد الأمرين المتلازمين في بعض الأحيان، فحيث إن نبوءة خسوف الشمس والقمر مذكورة في مكان آخر من القرآن (القيامة: ٩-١٠)، فاكتفى القرآن بذكر كسوف الشمس دون خسوف القمر في الآية قيد التفسير، لكونه تابعًا للشمس. ومثاله أننا إذا أردنا ذكر الحر والبرد معًا، اكتفينا بذكر أحدهما معتبرين أن المخاطَب يفهم القصد. فهنا أيضا قد ذكر الله تعالى أحد جزئَيْ النبوءة لكونه يشير إلى الجزء الآخر تلقائيًا، فلم تبق هناك حاجة إلى ذكره منفصلا.

وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٣

شرح الكلمات:

النجوم: النجم: الكوكبُ؛ ما نَجَم من النبات على غير ساق وهو خلافُ الشجر. والنجم: الأصلُ.. يقال هو من نجمِ صدق، وكذلك يقال ليس لهذا الحديث نجم، أي أصلٌ. وجمعُ النجم أَنْجُمٌ وأَنجامٌ ونجومٌ ونُجُمٌ. (الأقرب)

انكدرتْ: انكدرَ في سيره: أسرعَ وانقضَّ، يقال انكدرَ يعدو. وانكدرَ عليه القومُ: انصبّوا. وانكدرت النجوم: تناثرتْ. وكدَر يكدُر وكدِر يكدَر كَدَرًا وكَدارة وكُدورا وكُدروة وكُدرة: ضد صفا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.. أي تصبح غير صافية. وإذا اعتبرنا النجوم هنا استعارة، فيراد بها أشخاص كانوا سببًا لهداية الناس. فكأن الله تعالى يخبر هنا أنه سيأتي يوم تصبح فيه هذه النجوم منكدرة، لأن فيوضها ستنقطع ولن يعود الناس ملتزمين بهدايتهم.

التفسير: أولاً: قال النبي ﷺ: "أصحابي كالنجوم بأَيِّهم اقتديتم اهتديتم". (تشييد المباني: رقم الحديث ٥٩). وحيث إن الشمس هنا الرسول ﷺ، والنجوم صحابته، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ يعني أن الناس لن يتهاونوا في العمل بتعاليم الرسول ﷺ فحسب، بل لن يتبعوا صحابته أيضًا، معرضين عما تركوا وراءهم من علوم ومعارف. وهذا هو المشهد الذي نراه في هذا العصر. فنجد أن المسلمين إذا أرادوا ضرب مثال على شيء فلا يقولون إن الصحابة قالوا كذا، بل يقولون إن هتلر قال كذا، ونابليون أعلن كذا، وإن لينكولن قال كذا، في حين أن المسلمين السابقين كانوا يقولون: هكذا قال أبو بكر، وهذا ما أشار به عمر، وهذا ما أعلنه عثمان، وهكذا قال عليّ رضوان الله عليهم أجمعين. إذًا يخبرنا الله تعالى هنا أن المسلمين لن يهتموا مطلقا باتباع خطوات الصحابة. يقال بالإنجليزية: حياة أي أمة تتوقف على تمسكُّها بتراثها (Traditions).. أي لا ترجى حياتها ما لم يدرك كل فرد منها أن عليه الحفاظ على تراثها. هذا هو دستور الأمم الحية؛ فإن كل فرد

منهم يسعى جاهدا لإحياء أفعال آبائه، ويقول كان أبي يقول كذا، وكان أبي يفعل كذا، وكان جدي يعمل كذا. فإذا حافظت الأمة على هذه الروح طالت أيامها، أما إذا ماتت في أفرادها هذه الروح ماتت. فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَت﴾ يعني أن محاسن الصحابة وفضائلهم لن تنعكس في أعمال أفراد الأمة، ولن يُرى لها تأثير فيهم، وبالتالي ستضيع مِن ذاكرتهم روايات تفوق هذه الأمة أيضًا، وستندثر من بينهم الروايات البطولية للأمة، التي تنمّي الأخلاق وتوسّع الآمال. عندما يُذكَّر أفراد الأمة مرة بعد أخرى أن آباءهم كانوا ذوي محاسن ومزايا عظيمة، فإنهم يسعوْن للتقدم والازدهار، ولكن لو قيل لهم إن آباءكم كانوا جاهلين غير صالحين لشيء، فلا يرغبون في الرقيّ، بل لا يعودون صالحين للتقدم. والحق أنه لم يحلّ هذا الدمار الشديد بالإسلام والمسلمين إلا لأن تراثهم القومي العظيم صار طيّ النسيان وفُصلوا عن ماضيهم المشرق واختفت عن أنظارهم محاسن الصحابة والقادة الآخرين الذين اتبعوهم بإحسان. وقد عملت كتب التاريخ التي ألّفها الأوروبيون خاصة على تدمير هذا التراث الإسلامي العظيم؛ فليس هناك سلطان مسلم إلا ورماه هؤلاء الأوروبيون بالتّهم وقدّموه أمام العالم بأسوأ صورة وأبشعها، والنتيجة أن كل طالب مسلم حين يقرأ هذه التواريخ يظن أن آباءه لم يكن فيهم أي خير ولا ميزة، فينسب كل عيب إلى آبائه، وكل خير إلى الأغيار. وهكذا يصبح جذر رقي الأمة مسوّسًا نَخِرًا؛ إذ من المحال أن تحيا أمة في الدنيا من دون إحياء تراثها وتقاليدها القومية. إن أسهل طريق لتدمير أمة هو أن تجعلوا أبناءها يسيئون الظن بماضيهم؛ إذ يصبحون بذلك كشجرة اجتثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، ولن تحيا أبدا. إن الأوروبيين قد لجأوا إلى هذا السلاح سهل الاستعمال فشوّهوا تاريخ الإسلام كله. فإذا ذكروا أكبر سلاطين المسلمين وصموه بشتى العيوب. والأدهى أنهم يسمّون هذا بحثًا وتحقيقًا، فيدّعون أنه قد ثبت بعد تحرّي الأمر أن فلانا من الملوك المسلمين كان فيه كذا وكذا من النقائص. والحق أن كل ما يقولونه هو كذب في كذب. وقد أدى هذا التشويه إلى أنك لو سألت أحدا من المسلمين عن السلاطين المسلمين فستجد أنه لن يرى في أسلافه هؤلاء أي خير وفضل. سيقول

كان محمود الغزنوي لصا، وكان أورنغزيب غاشمًا، وكان في فلان كذا وكذا من العيوب، وفي فلان كذا وكذا من النقائص. وكأهم لا عمل لهم إلا إحصاء عيوب الأسلاف ورميهم بالتهم. لقد فقد هؤلاء أي أمل في أن يجدوا في الأسلاف أية محاسن. وبسبب هذا العيب لم يعد في المسلمين رواج لسرد الوقائع البطولية، فقُطع دابر رقي الأمة.

إن هؤلاء الغربيين يلجأون، من أجل تنفير المسلمين من آبائهم، إلى حيل لا يلجأ إليها أي شريف أبدا. مثلا إذا ذكروا سلطانا مسلما قالوا إنه كان يشرب الخمر، ولا يذكرون هذا الأمر إلا لإثارة المسلمين ضده ولتنفيرهم منه. مع أن هؤلاء الأوروبيين يشربون الخمر ليل نهار، ويأتون شتى المنكرات الموبقات دونما وازع ولا رادع. إن كل فرد منهم شارب خمر، ومِلكُهم شارب خمر، ورئيس وزرائهم شارب خمر. كان تشرشل يشرب الخمر وكان روزفلت يتعاطاها، ومع ذلك إذا ذكروا سلاطين المسلمين فلا بد أن يرموهم بتعاطي الخمر. نسلِّم أن بعض ملوك المسلمين كان شارب خمر، ولكنكم لا تذكرون ذلك إلا لتنفّروا المسلمين منه، ولتقنعوهم بمحاسن ملوككم، مع أنهم كانوا يشربون الخمر ويرتكبون المنكرات أكثر من أي ملك مسلم بآلاف المرات.

باختصار، لقد أنبأ الله تعالى بقوله ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أن التاريخ الإسلامي سيصبح مكدَّرًا، وأن محاسن المسلمين ستُخفى وتُمحى، وسيبدو أن النجوم قد انكدرت.

ثانيا: ومن معاني النجم الأصل؛ فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ يعني أن الأصول ستخرب.. بمعنى أن الموازين ستنقلب وتختلّ فيما يتعلق بمعرفة معادن الناس وعراقة النسب، أي ستندثر المعايير التي يُعرَف بها نسب أقوام شتى. وبالفعل، نرى أن الإحساس بعراقة النسب قد انمحى في هذا العصر تماما. لقد انمحى في أوروبا نهائيا، وأخذ ينمحي عندنا بالتدريج، فبدأ نفوذ ذوي النسب العريق في الانقراض.

إذًا، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أنه في ذلك العصر ستتلاشى موازين عراقة الأنساب عن الدنيا. وبالفعل نرى الجهود تبذل للنهوض بالأقوام المنبوذة، وليس ذلك إلا سعيًا للقضاء على أي اعتبار لعراقة النسب.

ثالثا: ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ضعف تأثير العلماء والأمراء في ذلك العصر. إن زمام قيادة القوم يكون في أيدي هاتين الفئتين حيث يقودهم الأمراء سياسيا والعلماء دينيا. والله تعالى يخبرنا هنا أن علاقة الجماهير ستضعف مع العلماء والأمراء كليهما، سيضعف تأثير الأمراء على ذوي الميول المادية، وتأثير العلماء على ذوي الميول الدينية. وبتعبير آخر، يفقد العلماء والأمراء السيطرة على الناس.

رابعًا: ومن معاني انكدار النجوم تناثُرُها، ومن معاني الآية المذكورة من قبل ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ خسوفُ الشمس والقمر، وإذا جمعنا بين الآيتين، فسيُعتبر قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ إشارةً إلى سقوط الشهب بكثرة في زمن المسيح الموعود عليه السلام. وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بجلاء، حيث سقطت الشهب في ٢٨ نوفمبر ١٨٨٥ في كل أطراف الفضاء بكثرة كأنّما هناك ألعاب نارية. وقد نشرت الجرائد في أوروبا وأمريكا وآسيا هذا الخبر على نطاق واسع مستغربين هذه الظاهرةَ التي اعتبروها أُعجوبة من العجائب✪.

✪ الواقع أن المراد من يوم ٢٨ نوفمبر ١٨٨٥م هو الليلةُ التي سبقت ذلك اليوم كما صرح المسيح الموعود عليه السلام حيث قال ما تعريبه: "ومن تلك الآيات التي ظهرت بعد أن تلقيتُ الإلهامات المشار إليها أنه في ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٥، أقصد الليلة التي سبقت اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٥، كان في السماء مشهد غريب لسقوط الشهب بكثرة لم أر له مثيلاً في حياتي. ("آئينه كمالات إسلام"، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ١١٥). وهذا ما أكده العلماء أيضًا حيث قالوا إن هذه الظاهرة المذهلة وقعت في ليلة ٢٧ من نوفمبر ١٨٨٥م.

انظر The Guinness Book of Astronomy, 5th Edition P. 132 . والمعروف أن اليوم في التقويم الشمسي يبدأ بالنهار لا بالليل. (المترجم)

إذًا، فلو اعتبرنا الشمس مجازية أي روحانية، فنعتبر النجوم أيضًا روحانية أيضًا. وإذا اعتبرنا الشمس مادية، فيراد بانكدار النجوم سقوط الشهب بكثرة. إذًا، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ :

١-أي ستسقط الشهب بكثرة كالمطر

٢- لن يتبع الناس الصحابة في صلاحهم وورعهم، وتصبح علومهم متروكة مهجورة.

٣- سيفقد ذوو النسب العريق نفوذهم.

٤- سيفقد الأمراء تأثيرهم على العامة.

٥- سيفقد علماء الدين تأثيرهم على الناس.

وكل هذه العلامات قد تحققت في هذا العصر.

وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٤﴾

الجبل: كلُّ وَتَد في الأرض؛ عظُم وطالَ؛ عكسُ الساحل؛ سيدُ القوم عالمهم، تقول العرب: فلانٌ جبلُ قومه: أي سيدهم وعالمهم. (الأقرب)

سُيِّرَت: سيَّره: جعَله سائرًا. وسيَّر الجُلَّ عن ظهر الدابة: ألقاه. وسيَّر المثلَ: جعله يسير بين الناس. وسيَّره من بلده: أخرجه وأجلاه. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿وإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: عندما تُسيّر الجبال من مكانها؛ عندما يطرد العلماء والزعماء من بلادهم ويُنفوْن.

التفسير: أولاً: من معاني هذه الآية أن الجبال سوف تُسيَّر من مكانها، أي تُنسَف الجبال لشقّ الطرق من خلالها. وسيُعتبر عندها قوله تعالى ﴿وإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ كقولنا: يجري الميزاب، مع أنه لا يجري، بل الماء هو الذي يجري فيه. فهذا إشارة إلى نسف الجبال بالديناميت من مكانها لشق الطرق خلالها. وأكثر الشواهد على صدق هذه النبوءة في الدنيا اليوم؛ حيث ينسفون الجبال بالديناميت ويقطعون الجبال ويشقون الطرق الواسعة بكثرة، فيمكن أن ترى ذلك في جبال دلهوزي

وشِمْله ومري وكشمير ومنصوري وغيرها. لقد نسب الله تعالى هنا السير إلى الجبال والواقع أن الناس هم الذين يسيرون، فالمراد أن الجبال ستُشقّ فيها الطرق الجيدة بكثرة لسير الناس فيها. لقد نسفت الجبال في هذا العصر بكثرة لا حد لها، وقلّما يوجد جبل لم تُشقّ عبره الطرق، حيث يضعون فيه ديناميت وينسفونه نسفا، ثم يشقّون الطريق. كما تُنسَف الجبال بكثرة خلال الحروب الحالية، فإذا كان العدو رابضا على قمة جبل، يضعون تحته بارودا وينسفونه. في الماضي لم يكن البارود متوفرا بهذه الكمية حتى تنسف الجبال. فهذه الآية تنبئ ضمنيًا عن كثرة البارود أيضا، إذ لا تُشق الطرق في الجبال من دون الديناميت.

كذلك قد اختُرعت كثير من الآلات الثقيلة لمهد الطرق؛ إذًا فهذه الآية إشارة إلى اختراع هذه الآلات أيضًا.

ثانيًا: ومن معاني الجبل سيد القوم، وعليه فقوله تعالى﴿وإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ سيعني أن علماء القوم وساداتهم سيُطرَدون من البلاد. وهذا أيضًا لم يتحقق في الماضي كما تحقق اليوم، فقد طُرد من روسيا كلها علماء الدين المؤْثرين الدين على السياسة، أما تركيا فقد اكتسحت الدين اكتساحًا؛ فقد أُمر المسلمون فيها أن مَن أراد منهم الصلاة فليصلّها بالتركية، ومن أراد قراءة القرآن فليقرأه بالتركية، وإلا سيُنفى من البلاد أو يُسجن.

سنتحدث عن الآيات التالية لاحقا، ولكن أمعنوا النظر في هذه الآيات الثلاث، وفكروا هل اجتمعت هذه الأمور من قبل؟ لو جمعنا تاريخ العالم كله فلن نجد فيه حتى عُشْرَ هذه العلامات في أي زمن. إن خسوف الشمس والقمر وسقوط الشهب بكثرة وتلاشي الروايات البطولية القومية علاماتٌ بينة لم تظهر بهذا الشكل في أي عصر مضى. لو جمعنا تاريخ الأمم لستة آلاف سنة مثلاً، بل حتى لمائة ألف سنة، لن نجد عصرًا تم القضاء فيه على الروايات البطولية للشعوب المقهورة كما حصل اليوم. فإن كل مَلِكٍ أوروبي شارب خمر جاهل ظالم يُعرض على الناس بصورة جميلة، وكل مَلِكٍ مسلم طيب يُعرَض عليهم بصورة مُشوَّهة مكروهة. ولما كان أهل الغرب هم الذين يملكون نظام التعليم فإن المسلمين أيضا قد بدءوا يتبنّوْن

آراءهم المشوهة هذه. في الماضي تجد زيدًا قد نسي منجزات أسلافه، أو تجد عمرًا تغافل عن محاسن آبائه، ولكنك لن تجد الأمة بأسرها نسيت رواياتها البطولية، بل أخذ أبناؤها يروْن محاسن أسلافهم عيوبًا ونقائص. فمثلاً نجد اليوم مئات الآلاف من المسلمين يرمون العديد من سلاطين المسلمين بالسوء والفسق، وفي الوقت نفسه يثنون على ملوك غربيين كانوا أسوأ وأخبث من هؤلاء الملوك المسلمين. يقولون كان السلطان محمود الغزنوي موصومًا بعيب كذا وكذا، ولكنهم لا يفكرون أن ملوك الأمم الأخرى الذين يثنون عليهم كانوا أشد خبثًا وسوءًا من هذا السلطان المسلم. إذا كان بعض سلاطين المسلمين يشرب الخمر فكان يتعاطاه سرًا، أما الملوك الآخرون الذين يمدحهم هؤلاء الطاعنون فكانوا يشربون جهارا. إذا كان شرب الخمر عيبا، فهو عيب عند الإسلام، لا عند المسيحية، فكان على هؤلاء الغربيين المسيحيين أن يفرحوا أن سلطانا مسلمًا وقع في شرب الخمر مثلهم، ولكنهم يطعنون فيه بسبب شربه الخمر، وليس غرضهم من ذكر ذلك إلا تنفير المسلمين من سلاطينهم وتحقيرهم في أعينهم. ما الذي يضر هؤلاء الغربيين إذا شرب سلطان مسلم الخمرَ أم لم يشرب؟ المفروض أن ينحصر تعليقهم على سياستهم لبلادهم، فيخبروا الناس كيف كان هؤلاء يديرون الحكم والنظام.

لقد كنت في زيارة لمدينة لاهور في الأيام الأخيرة، فسألني البعض مشيرًا إلى بعض ما فعله السلطان محمود الغزنوي وقال هل كانت تصرفاته هذه بحسب تعاليم الإسلام أم خلافها؟ فقلت: إن هذه الأمور تتعلق بالدين، ومع ذلك تريد الطعن بها في سلطان مسلم لتثبت أنه كان حاكمًا سيئا وأن فلانا من الملوك الأوربيين كان حاكمًا جيدًا، والواقع أن ذلك الملك الأوروبي كان موصومًا بآلاف العيوب؛ فأسلوبك هذا ليس سليمًا، وإنما عليك أن تقارن أخلاق السلطان محمود الغزنوي مع أخلاق الملوك المعاصرين له. فما دام الغزنوي أسمى أخلاقًا من ملوك عصره، فلا بد أن يُعَدّ ملكًا عظيمًا من الناحية التاريخية رغم بعض عيوبه، ولا تصحّ مقارنته بملوك هذا العصر. فمثلاً لقد قام أديسون بمخترعات كثيرة، والمخترعات التي تمّتْ بعده أكثر منها بكثير، ولكن هذا لا ينال من أديسون شيئًا، ذلك لأن ما قام به

كان عملا رائعا جدا جدا في عصره. كذلك ما دام محمود الغزنوي أحسن أخلاقا من الملوك المعاصرين له، فلا بد من الثناء عليه، وينبغي فحص أعماله من هذه الزاوية نفسها.

باختصار، إن مثال انكدار الروايات البطولية للأمة واضحٌ في هذا العصر بحيث لا نجد له مثيلا في الماضي. كذلك إن ضعف نفوذ العلماء والأمراء واضح بحيث لم يسبق له نظير في الماضي؛ لقد نُفي العلماء المتمسكون بالدين من روسيا ومن تركيا ومن ألمانيا ومن إيطاليا، كما تعرضوا إلى معاملة مماثلة في بعض البلدان الأخرى، وأُلقي بهم من مقام العز إلى الحضيض كما يلقى الجُلُّ عن ظهر الدابة.

باختصار، لو جمعنا العلامات المذكورة هنا مع ما ذُكر في الآيات التالية فلن نجدها قد اجتمعتْ في أي عصر خلا، بل لو نشرنا إعلانًا بأن من قدر على إثبات هذه الأمور في أي عصر من العصور الخالية فله جائزة مائة ألف أو مائتي ألف، فلن يقدر أحد على قبول هذا التحدي. ضعْ هذه الأمارات أمام أي مؤرخ ثم اسأله: أي زمن تنطبق عليه هذه الأمارات؟ لقال لك فورًا: إنها علامات هذا العصر؛ إذ لم تقع من قبل قط. وكل مَن يقرأ هذه الآيات سيشير إلى هذا العصر فقط لا إلى أي عصر آخر. وهذا ما أخبر به النبي ﷺ أن هذه السور ترسم يومًا كالقيامة رسمًا واضحًا بحيث إن من أراد أن يرى مشهد يوم القيامة رأي عين فليقرأْ هذه السور.

وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٥

شرح الكلمات:

العِشار: جمعُ العُشَراء، وهي من النُوق التي مضى لحملها عشرةُ أشهر أو ثمانية. وقيل العِشار اسم يقع على النوق حتى ينتج بعضها وبعضها يُنتظر نتاجها. (الأقرب)

عُطِّلت: عَطَّل الإبلَ: خلاّها بلا راعٍ؛ وكُلُّ ما تُرِكَ ضائعًا فقد عُطِّلَ. (الأقرب)

التفسير: لقد نزل القرآن الكريم في الجزيرة العربية، ولذلك قُدِّمت فيه حاجات العرب ومشاعرهم على أي شيء آخر، لكي يفهموا القرآن جيدا، ثم ينشروه في العالم. إن تعبيرات أول المخاطَبين بوحي الله تعالى ومشاعرَهم تُقدَّم على تعبيرات الآخرين ومشاعرهم، لأنهم كيف ينشرون الوحي بين الناس إذا لم يفهموه؟

كانت الجِمال رَكوب العرب وغذاءهم؛ حيث كانوا يسافرون عليها، ويشربون ألبانها ويأكلون لحومها كغذاء، فكانت الناقة عزيزةً عليهم وكانوا شديدي الحرص عليها إذا كانت في شهرها العاشر من الحمل، أو كانت قد وَضَعت حملها؛ إذ كانت الناقة الحامل تصلح للركوب، كما كان هنالك أمل في نتاجها الذي سينفع كمركب وكغذاء أيضًا. علمًا أن لحم ولد الناقة لذيذ جدًّا مثل لحم حَمَلِ الضأن، فإن تجارة سكان "بيشاور" مثلاً تقوم على لحم حُمْلان الضأن إلى حد كبير، حيث يذبحون الحَمَل وهو في شهره الثاني، فيأتي الناس من أماكن بعيدة لأكل لحمه اللذيذ جدا.

باختصار، كانت الناقة العُشَراء عزيزة على العرب للبنها وولدها، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.. أي سيأتي زمان تُترك فيه هذه النياق معطلةً.. أي ١- سوف تُخترع مراكب جديدة تصبح بها النوق في شهرها العاشر من الحمل أو التي قد وضعت ولدها عاطلةً. ٢- وسوف تُخترع من المراكب السريعة ما يوصل شتى الأطعمة إلى بلاد العرب، فلن يعودوا بحاجة إلى ألبان النوق كغذائهم الأساسي، وهكذا ستفقد الناقة العشراء قيمتها المعهودة. وقد تحقق هذان الأمران في هذا العصر، حيث اختُرعت الباخرة والقطار والسيارة والطائرة، فأخذ عرب الجزيرة يسافرون بها بدلاً من ركوب الجمال. عندما بدأ السفر بالسيارات في الجزيرة العربية ثار البدو بحجة أن هذا سيضر بتجارتهم، ولكن ظل الناس يستعملون السيارات حتى انتهى عهد السفر بالجمال. والذين يذهبون اليوم إلى مكة إنما يسافرون بالسيارات.

كان المولوي ثناء الله الأمرتسري قد اعترض علينا مرة أن سكة الحديد لم تصل إلى مكة بعد. والحق أن لا فرق بين القطار والسيارة، لأن المقصود من هذه النبوءة أن

السفر على الجِمال سيُصبح متروكًا لاختراع وسائل سفر جديدة فيفضّلها الناس على الجمال. إذًا فالسيارات قد قللت من أهمية السفر على الجمال تماما. القطار ينطلق بمواعيد محددة، أما السيارة فيمكن أن يسافر بها صاحبها في أي وقت شاء، لذلك حيثما تكون السيارات تصبح المراكب الأخرى معطلة تماما. إذًا فهذه النبوءة قد حققها الله تعالى بهذا الشكل أيضا، حيث تسير السيارات من جدة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة، و لم تعُد الجمال ذات أهمية.

كما تحقق الجزء الآخر من هذه النبوءة، أعني اختراع السفن والطائرات السريعة التي توصل صنوف الأطعمة والخضار إلى بلاد العرب. فالأمة التي كان طعامها الأساسي ألبان الجمال ولحومها، قد تيسَّر لها أنواع اللحوم والخضار والثمار، و لم تعدْ بحاجة إلى الاكتفاء بألبان الجمال ولحومها. إن لبن الناقة لا يُشرب للذته بل عند الضرورة. لقد شربته، فلم أستسِغْه حتى كدت أتقيّأ. لا شك أن الذي لا يجد غذاء آخر يشرب هذا الحليب، ولكن مَن يجد أنواع الأكل والشرب الأخرى فلماذا يشربه؟ كما أن لحم الجمل يكون صلبًا لا يُمضغ بسهولة. لا شك أن العرب كانوا يأكلونه، ولكنهم لو وجدوا لحم الجدي والحمل فلماذا يأكلون لحم الجمل؟ وإذا تيسرت لهم أنواع الخضار، فلماذا يرغبون في ألبان النوق؟ وهذا ما بينه الله تعالى هنا أنه ستُخترع شتى وسائل النقل والسفر السريعة التي ستوصل إليكم كل شيء إلى الجزيرة العربية، فلن يعود ركوب الجمل ولا حليب الناقة ولا لحم الحُوار ذا قيمة عندكم. لقد رأينا اليوم أن "البان"◆ يصل إلى الجزيرة العربية بالسفن والطائرات، وبدأ العرب يستعملونه فضلاً عن الهنود. وهناك مأكولات ومشروبات كثيرة لم تكن لتخطر ببال العرب، ولكنها تصلهم الآن بسهولة، فقلّت الحاجةُ جدًّا إلى حليب الإبل ولحمها ولا تزال تقلّ باضطراد، واستغنى العرب عن الإبل كأهل البلدان الأخرى. و لم يعد الحال كما كان من قبل، وسيتغير الوضع أكثر في المستقبل.

◆ "البان" اسم شجرة في الهند يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (*المترجم*)

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

الوحوش: مفرده الوحش ومعناه: حيوان البر، أو ما لا يُستأنس من دوابّ البرّ. (الأقرب)

حُشرت: حشَر الناس حشرًا: جمَعهم. وحشَر السنانَ: دقّقه ولطّفه. وحشَر فلانًا: جلاه عن وطنه. وحشَر الجمعَ: أخرجه من مكان إلى آخر. وحُشرت الوحوش: ماتت وأُهلكت. (الأقرب)

التفسير: هذه نبوءة عظيمة أخرى وقد تحققت في هذا العصر. فمن معانيها:

١- سيأتي زمن تُحشَر فيه حيوانات البر. وبالفعل ترى كيف حُشرت وحوش البرّ في حدائق الحيوانات. هل سبق لذلك نظير في الأزمنة الخالية؟ ليس في الدنيا اليوم قطر ولا بلد ولا إقليم إلا وتوجد فيه حدائق الحيوانات الوحشية والدوابّ. ولعله لم يوجد في الماضي مكان واحد في العالم كله حُشرتْ فيه وحوش البر والبحر بهذا الشكل. فهناك تنافسٌ بين بلد وآخر وإقليم وآخر في حشرها بعدد أكبر.

وعلاوة على حدائق الحيوانات هناك متاحف يحتفظون فيها بجثث الحيوانات الميتة المحنَّطة، وذلك بحشو جلودها بمختلف المواد، ليشاهدها الناس ويزدادوا بها معرفة.

ثم هناك معاهد للبحوث العلمية في علم الأحياء، حيث يحتفظون بهياكل الحيوانات المنقرضة، ويجرون عليها الفحوص لمعرفة عمرها وما مضى عليها من الزمن، ومراحل تطورها.

إذًا، فقد تحققت هذه النبوءة بإنشاء حدائق الحيوانات والمتاحف ومراكز البحث في علم الأحياء، وقد حشرت هذه الوحوش الحية أو الميتة حشرًا غير مسبوق.

٢-كما يمكن أن تكون الوحوش هنا مجازا، بمعنى الأناس الوحشيين؛ حيث تستعمل هذه الكلمة بهذا المعنى بكثرة،○ وفي لغتنا الأردية أيضًا يقولون: لا تُكلِّمْه، فإنه

○ يقال: هو مِن وحش الناس: أي أراذلهم. (المنجد)

وحشيٌّ. أو يقال: هؤلاء القوم من الوحوش. وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ يعني أن الأقوام الوحشيين، أي الهمجيين وغير المتعلمين ولا المتحضرين، سيتم جمعُهم بالأمم المتحضرة نتيجة انتشار الحضارة وكثرة الطرق وسهولة المواصلات. فلو زرتَ منطقة "البار" في إقليم "البنجاب" لسمعتَ مرارًا أن هذه قرية جديدة، وتلك قريةُ "الهمجيين". والهمجي يعني الوحشي. وهذا يعني أن هذه الشعوب الهمجية أو الوحشية وغير المتحضرة التي كانت تعيش منعزلة قد اختلطت الآن بالشعوب المتحضرة تماما. وأهل الجبال كانوا يُعَدّون من الوحشيين في الماضي، أما اليوم فقد أُنشئت على كل جبل تقريبا متنـــزهات ومصايف يرتادها الأثرياء في أيام الصيف بكثرة، وهكذا تم اختلاط أهل الجبال بالأمم المتحضرة.

أتذكر أننا ذات مرة كنّا قادمين من قرية قريبة من مصيف (نور بور) الواقعة على بعد ١٥ ميلا من مدينة (بطانكوت)، وكان معنا المولوي يار محمد المحامي المرحوم، فوجدنا امرأة واقفة وسط الطريق، فلم نستطع أن نتقدم بالسيارة، وذهب المولوي يار محمد إليها وخاطبها قائلا: (مائي) -أي أيتها السيدة- تَنحِّي قليلا عن الطريق حتى تمر سيارتنا. فأخذتْ في الصراخ والسباب وزعمت أنه قد أهانها. فاندهش المولوي وقال: كيف أهنتُكِ؟ فأخذتنا الحيرة وتساءلنا عما حصل، ولكنها ظلت تصرخ وتسبّ وتقول له: لماذا ناديتَ (مائي)؟ فتوسل إليها المولوي في الأخير قائلاً: سامحيني لوجه الله؛ فإني لم أُرد إهانتك، وإنما ناديتك بهذه الكلمة لأنها كلمة احترام عندنا. ولكنها ظلت تقول: كلا، بل إنك سمّيتَني زوجةً لأبيك. عندها أدركنا ماذا فهمتْ من كلمة (مائي)، ولماذا كانت تصرخ وتشتم.

وقبل فترة كنت عائدًا من مصيف (دلهوزي)، فعلمتُ أن سائق سيارتنا من سكان قرية (نور بور)، فحكيت له هذه الطريفة، فقال: هذا كان في القديم، أما اليوم فلا تتحرج نساء هذه المنطقة من هذه الكلمة؛ إذ كثر اختلاط أهل البنجاب بأهل منطقتنا، وبدأت نساؤنا يفهمن معنى هذه الكلمة. أما قبل أربعين عاما فإن "المولوي يار محمد" ظلّ يتوسل إلى تلك السيدة حوالي ثلث ساعة، وكانت تصرّ على قولها: كيف جعلتني زوجة أبيك؟

فالله تعالى قد أنبأ في قوله ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أنه سيأتي زمن سيُجمع فيه بين الأمم الوحشية أو المتخلفة والشعوب المتحضرة، وبتعبير آخر سوف يُعمَر كل شبر من الأرض، وتكون هناك صحوة بين الشعوب المتخلفة ويكثر التعليم بينهم. وبالفعل نرى أن سكان إفريقيا الذين كانوا يعيشون عراة في الماضي أخذوا يَفِدون إلى الغرب للدراسات العليا، ويرجعون حاملين شهادات الدكتوراه والمحاماة. كان داعيتنا "المولوي عبد الرحيم نيِّر" يُرينا صور الأفارقة الذين كانوا يعيشون عراة قبل وصول دُعاتنا إليهم، ولكنهم بدءوا يلبسون الثياب الآن. فتربية الشعوب الوحشية كلها في الزمن الراهن أمرٌ لم يسبق له مثال. لو كان هناك أمرٌ واحد فيمكن أن يسميه المرء صدفة، ولكن كيف يمكن أن تُعتبر كل هذه العلامات المذكورة في القرآن في مكان واحد وعن عصر واحد صدفةً ؟

٣- وقد يراد بقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الأمم التي كانت تُعتبر وحشية زمن نزول القرآن حيث يُنهض بها فتنتشر في الدنيا، أي يصبح أهل أوروبا وأمريكا غالبين. ذلك أن أهل أوروبا كانوا يعيشون كالوحوش تمامًا في زمن النبي ﷺ، وكان معظمهم يعيشون شبهَ عراة كالأفارقة، بل لو نظرنا إلى صورهم قبل خمسة أو ستة قرون، وجدناهم لابسين جلودًا تصل إلى ركبهم، وحاملين في أيديهم القسيّ والنشّاب، وعلى رؤوسهم قبعة عجيبة. فمن معاني قوله تعالى﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أنه سيتمّ النهوض بالأمم التي كانت تُعتبر وحشية زمن نزول القرآن، فتتحد وتتقوى وتنتشر في الدنيا.

٤-ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الأمم غير المتدينة ستنال الحُكم، لأن الإنسي هو من عنده دين، والوحشي من لا دين له. فهذه نبوءة عن نيل الأمم الملحِدة الحُكمَ مثل روسيا وغيرها من الشعوب التي لا رغبة لديها في الدين.

٥- وقد يراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ نبوءة عن انتشار الأخلاق الذميمة، وضعف أهل الدين.

٦- ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الشعوب الوحشية ستُطرد من أراضيها، كما يحصل اليوم في إفريقيا. فلو ذهبتَ إلى كينيا أو أوغندا ستجد

المشهد نفسه. لقد وصل الإنجليز إلى تلك البلاد، فقالوا لأهلها: إما أن تعمروا ما تملكون من الأرض أو تخرجوا منها. وكان بعضهم يملك منطقة مساحتها ٦ أميال مربعة، فطرده الأوروبيون من أراضيه وضياعه واستولوا عليها. وتجد اليوم بعض الإنجليز في إفريقيا يملك مليونًا ونصف المليون من الفدادين، ولكنه لا يعمرها، إلا أنهم لما ذهبوا إلى تلك البلدان خيّروا أهلها بين إعمار أراضيهم والخروج منها. وكيف يمكن لشخص واحد إعمار هذه الأراضي كلها، وكانت النتيجة أن استولى الإنجليز على الأرض وطردوا منها أهلها. وهذا ما حدث في القارة الأمريكية أيضًا؛ كان الهنود الحمر يملكون أمريكا الشمالية والجنوبية كلها، ولكن الأوروبيين انتزعوا منهم أرضهم واستولوا عليها كلها.

٧- ومن معاني (حُشرتْ) أُهلكتْ، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الأمم الوحشية سُتباد بطرق شتّى. وبالفعل قد قتل الأوروبيون سكان تلك البلاد القدامى بأنواع التعذيب. لقد قرأت عن ولاية أنه لم يبقَ فيها الآن من سكانها القدامى إلا ثلاثة عشر فردا، وكانوا يعيشون فيها بمئات الآلاف من قبل. وكذلك لا يوجد لسكان أستراليا الأصليين أثر ولا خبر اليوم؛ وكانوا يعيشون بمئات الآلاف في الماضي. ذلك لأن الأوروبيين قد أبادوهم عن بكرة أبيهم بأنواع الآلام والتعذيب ومحوْا أثرهم.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

البِحار: البحر: خلافُ البرّ؛ الماءُ المَلِحُ؛ كلُّ نهر عظيم؛ كلُّ متوسِّع في شيء، فالرجل المتوسِّع في العلم بحرٌ، والفرسُ المتوسّع في جريه بحرٌ، وجمعُ البحر بُحورٌ أَبْحُرٌ وبِحار. (الأقرب)

سُجِّرتْ: سجّر الماءَ: فجّره، وسجَر التنورَ: ملأه بالحطب ليحميه، وفي القرآن: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.. قيل أي أُحمِيتْ بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدا. (الأقرب)

التفسير: تسجير الأنهار يمكن أن يكون بطريقين؛ أوّلهما: أن تُشقّ القنوات من نهر، أو يؤخذ ماء نهر آخر ويُصَبّ في آخر. والمراد أنه ستُشقّ القنوات من الأنهار بكثرة حتى تكاد تجفّ، أو سيؤتى بالمياه من نهر وتُصَبُّ في آخر لزيادة مائه. ونرى أن كِلا الأمرين قد تحقق اليوم.

ليس في بلادنا رواج للسفن، ولكنها تُستخدم في أوروبا بكثرة. إنهم يصلحون الأنهار عند مصبّها في البحر، ويسيِّرون السفن عبرها داخل البلاد، فيسهل النقل والمواصلات، فالثابت بالتجربة أن نقل البضائع بالقطار أكثر كلفة منه بالسفن حتى اليوم، ولذا نجد أهل الغرب يُكثِرون من استعمال السفن للتجارة. يصلحون الأنهار، فتصل سفنهم عبرها داخل البلاد لثلاثين بل أربعين بل مئة ميل في بعض الأماكن، وهكذا يجدون سهولة كبيرة في التجارة. هذا الأمر لا يوجد في بلادنا، ولكن له رواج كبير عندهم.

ثم إنهم يشقون القنوات من الأنهار، بل يأخذون ماء نهر إلى آخر، ليشقوا منه قنوات واسعة، وهذا هو تسجير البحار.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أن العلماء يُنـزَع منهم العلم فيصبحون جهالا، إذ إن من معاني البحر الرجل العالم المتوسع في علمه.

وإذا كانت البحار هنا بمعنى الماء المِلح، أي بمعناها المعروف، فالمراد أن بعض البحار تُربَط بغيرها، كما رُبط البحر الأحمر ببحر الروم (المتوسط) بشق قناة السويس، ورُبط البحران الأمريكيان بشق قناة بنما.

وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٨﴾

التفسير: هذه الآية تشير إلى سهولة المراسلة والسفر والاتصال، حيث أخبر الله تعالى أنه ستُخترع في الزمن الأخير مخترعات تقرّب الناسَ بعضهم من بعض. وأكبر ما يدل على صدق هذه النبوءة القرآنية في الزمن الراهن هو القطار. فتجد في عربة واحدة للقطار أحد الصينيين جالسًا في مقعد وإنجليزيا في آخر وبنغاليا في ثالث وأفغانيا في مقعد رابع وبنجابيا في خامس. فعربة واحد تجمع أشخاصًا ينتمون إلى مناطق مختلفة ويتكلمون لغات شتى. في الماضي كان الناس يرون أهل البلاد الأجنبية والمناطق الأخرى بصعوبة، أما اليوم فقد كثرت وسائل المواصلات وسهل السفر بحيث تجد الأمريكان يمشون في الهند والهنود في أمريكا.

ثم إن أجهزة البرق والبريد والمذياع قد حققت نبوءة تزويج النفوس هذه بجلاء حيث نسمع بالمذياع خُطب الصينيين حينًا وخطب اليابانيين حينا آخر، وتصل إلى أسماعنا -ونحن جالسون في بيوتنا- أصوات الألمان تارة وأحاديث الإنجليز تارة أخرى. إذًا فإننا نكون جالسين مع صيني في مكان مرة، ومع ياباني في مكان مرة أخرى، ومع إنجليزي حينًا، ومع ألماني حينًا آخر.

كما أن قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إشارةٌ إلى انتشار وجهة نظر واحدة في العلوم. وبالفعل قد سادت اليوم العلوم الغربية العالَمَ كله بحيث أصبح اتحاد النفوس وارتباطها فيما بينها سهلاً جدا. لقد غزت هذه العلوم العالَمَ حتى أحاطت بأهل الدنيا كلها، خاصة الفلسفة الأوروبية التي أخذت تصوغ عقول الناس بطابع خاص. فعندما يفكر الصيني أو الياباني أو العربي أو الأفغاني اليوم فإنما يفكر بأسلوب أهل الغرب رغم اختلاف شعوبهم وألسنتهم، وليس ذلك إلا لأن الفلسفة والحضارة الغربية قد غزت عقول الجميع، وتم تزويج أفراد شتى الأمم علميا.

وقد يراد بقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ كثرة التزاوج بين أفراد شتى الشعوب والأمم. وبالفعل تجد الإفريقيات تزوجن من الإنجليز والفرنسيين، وتزوجت الإنجليزيات رجالا من الشعوب الأخرى. لو زرت فرنسا مثلاً، وجدت الفرنسي

يمشي واضعًا يده في يد زوجته الإفريقية دون أي إحساس أنه فرنسي وزوجته إفريقية. كما بدأت الدول تُصدر قرارات بجواز التزاوج بين أهل الأديان المختلفة حتى لا يبقى هناك عائق في هذا الصدد. في الماضي كان الناس يترددون كثيرا في الزواج من الأجانب، أما اليوم فيضغطون على الحكومات لإصدار القرارات للزواج بين أهل الأديان الأخرى لإزالة أي عائق بهذا الشأن. عندما كنت مقيما في مدينة لاهور من أجل علاج زوجتي أم طاهر رضي الله عنها، زارني أحد الزعماء الكبار مع زوجته، فأخبرتني زوجته أنها وُلدت عند أبوين مسلميْن، وأنهن ثلاث أخوات، وقد تزوجت إحداهن بمسلم، والأخريان بهندوسيين.

ومرة حصلت ضجة كبيرة في مدينة بيشاور حين تزوجت بنت "الدكتور خان" من طيّار ينتمي إلى طائفة "السيخ".

باختصار، لقد شاعت الزيجات بكثرة بين أهل الأديان والشعوب المختلفة، وهذا دليل بينٌ على صدق هذه النبوءة القرآنية.

كما تشير هذه النبوءة إلى اتحاد نفوس شتى وتأسيس جمعيات ونقابات وأحزاب مختلفة. وبالفعل نشاهد في الدنيا أحزابا كثيرة مثل حزب العمال والحزب الفاشي والحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي، حيث يجتمع أصحاب فكر واحد ويشكّلون أحزابًا خاصة بهم، فيكافح العُمّال والصُنّاع والمعلّمون والتجّار من أجل حقوقهم، ويتنافسون حتى لا يتأخروا عن غيرهم في سباق الرقي والتقدم.

إن هذه العلامات كلها تتعلق بهذا العصر، وقد حقّقها الله تعالى في هذا العصر نفسه؛ إذ من المحال أن تُقدَّم من تاريخ العالم فترة تحققت فيها هذه العلامات. فكل إنسان نعرض عليه هذه العلامات سيقول لنا حتمًا إنها تشير إلى زمننا هذا دون غيره. ورد في الروايات أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يخطب مرة يوم الجمعة فقرأ قول الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وقال: "تزوّجُها أن تؤلّف كل شيعة إلى شيعتهم." (رواه ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير، ابن كثير).. أي أن أهل مهنة واحدة سيشكّلون جمعيات ونقابات.

إذًا، فقد تحققت هذه النبوءة بجلاء كما تدل عليه أحوال العصر الحاضر.

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٩

شرح الكلمات:

الموءودة: وَأَدَ بِنْتَه يئدها وَأْدًا: دفَنها في القبر وهي حية. وعبارةُ "الأساس" (للزمخشري): "أثقلَها بالتراب"، فهي وَئِيدٌ ووئيدة ومَوءودة. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ يعني أنه سوف يُسأل عن البنت التي كانت تُدفن حيةً. ولكن المفسرين يقولون أن الموءودة نفسها ستُسأل، لأن في توجيه السؤال إلى الموءودة تبكيتًا أكبر، لأنها ستُطالَب بالإدلاء بشهادتها (الكشاف). ولكني أرى أن هذا المعنى غير صحيح وخلاف للأسلوب القرآني المعروف، إذ يتضح من القرآن أن السؤال يوجَّه إلى الظالم لا إلى المظلوم. يقول الله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٤).. أي أن الله تعالى لا يُسأل عما يفعل، بل الناس هم الذين يُسألون عن أعمالهم. وقال تعالى ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب:٩)، وقال تعالى ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت:١٤)، وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(الزخرف:٢٠).

فكل هذه الآيات تكشف أن السؤال يوجه دائمًا إلى المجرم لا إلى الضحية، إلا في مكان واحد وهو قول الله تعالى للمسيح بن مريم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(المائدة:١١٧). والسبب في توجيه السؤال الى المسيح عليه السلام هو أن النصارى قالوا: إن المسيح هو الذي علمهم هذا التعليم، فإفحامًا للنصارى وإبطالاً لشبهاتهم كان توجيه هذا السؤال إلى المسيح ضروريا. ولكن ليس الأمر هكذا في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾. فمتى قالت الموءودة أن يدفنوها حيّة؟ لو كان هناك ادعاء من الكفار أن الموءودة هي التي قالت لهم بدفنها حية، لجاز سؤالها، ولقال الوائد: لماذا تسألونني هذا السؤال، بل اسألوا الموءودة نفسها، لأنها هي

مَن قالت ادفنوني حيّةً. وحيث إنه ليس هنالك أي ادعاء للكفار بالنسبة للموءودة فكيف يوجه إليها السؤال؟

وعندي أن مفهوم الآية كالآتي: وإذا الموءودة سُئل عنها. لقد دُفنت ظلمًا بغير حق، فحين يُسأل وائدها عن وأدها تثبت إدانته. لا شك أن المؤمن أيضا يحاسَب، والكافر كذلك، ولكن هناك فرقٌ بين حسابهما، وهو أن حساب المؤمن يسير سهل لقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(الانشقاق:٩).. أي أنه سيُسأل أسئلة بسيطة ثم يُخلّى سبيله، ولكن حساب الكافر يكون شديدا. ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "مَن نوقش الحساب عُذّبَ". (البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب). والواقع أن المجرم لا يُسأل بشدة إلا ليعاقَب بعد الحساب، أما المؤمن فيريد الله أن يعطيه نصيبًا من نعمه وجزائه، فلذلك سيُسأل عن أعماله الحسنة ويقال: هل فعلتَ كذا؟ وعندما يعترف بها يُدخِله الله الجنة. فثبت أن الغرض من حساب الكافر إهانته وإذلاله، ولكن الغرض من حساب المؤمن هو كشف أروع أعماله على الناس، ليعرف الناس مدى روعة أعماله الحسنة. لهذا السبب يقول الله تعالى هنا يومئذ يُسأل المجرمون عن الموءودة سؤالاً شديدا، ويقال لهم: بأي ذنب دفنتموها حية؟

لقد ناقش المفسرون هنا أمرًا ضمنيًّا لا أهمية له من الناحية العقائدية، كما أنه ليس ذا نفع كبير في هذه الدنيا، لأن الأمر يتعلق بالآخرة، غير أنه موضوع مهم جدًّا من الناحية النظرية.

قال الزمخشري إن قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ دليل على أن أولاد المشركين لا يعذَّبون في الآخرة، لأن الموءودة غير مذنبة عند الله تعالى، وإلا لم يقل: بأي ذنب قُتلت. (الكشاف)

وقد خاض المفسرون فيما إذا كان استنتاج الزمخشري صائبًا أم خطأً، وما إذا كانت هذه القضية صحيحة أم باطلة. والحق أن الزمخشري قد اتبع ابنَ عباس في استنتاجه من هذه الآية وقال إن أولاد المشركين أبرياء وأنهم سيدخلون الجنة. فقد ورد في الروايات أنه قيل لابن عباس رضي الله عنه يقول البعض إن ذراري المشركين يدخلون الجحيم، فقال: لقد كذب هؤلاء، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾.

ولكن صاحب روح المعاني يقول إن هذا الأثر ضعيف.

فترى أن ابن عباس أيضا قال بهذا، ولكنه لم يذكر وجه استدلاله، وإنما ذكر الآية فقط. أما الزمخشري فقد اعتبر قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ دليلاً على براءة أولاد الكافرين ونجاتهم من النار، ولكن استدلاله من هذه الآية خطأ، إذ لا يعني قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ أن ذراري الكافرين سيدخلون الجنة؛ ذلك لأن عدم ثبوت إدانة شخص في قضية ما لا يتضمن براءته في القضايا كلها؛ إذ يمكن أن يكون قد ارتكب جريمة أخرى. لا شك أن استدلال الزمخشري صحيح بشأن البنات الموءودات، ولكنه ليس صحيحا على إطلاقه، لأن عدم ثبوت جريمة ضد شخص لا يعني بالضرورة براءته من أية جريمة أخرى.

إلا أن هناك أمرًا واحدًا يقوّي رأي الزمخشري وهو أن قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ يتعلق بطفل غير بالغ، وحيث إن الطفل الذي لم يبلغ أشده غير مكلف بالشرع، فلا يمكن أن نقول بأنه إذا لم يكن قد ارتكب هذه المعصية فربما ارتكب غيرها.

وأبين الآن بعض الحلقات الأخرى من سلسلة هذا الموضوع، ثم في الأخير سأزيد وجهة نظري وضوحًا.

هناك اختلاف كبير بين العلماء فيما يتعلق بأولاد المشركين، أهُمْ من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وقد نقل البعض أحاديث وآثارا بهذا الصدد، فمثلا روى الإمام أحمد بن حنبل عن سلمة بن يزيد الجعفي أن رسول الله ﷺ قال: الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدةُ الإسلامَ فيعفو الله تعالى عنها. (روح المعاني، وابن كثير). وقد روى النسائي هذا الحديث عن داود بن هندية. وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود: الوائدة والموءودة في النار (ابن كثير). وعن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: "خلَقهم الله – حين خلقهم – وهو يعلم بما كانوا عاملين." (النسائي وأبو داود، كتاب الجنائز)

ولتأييد موقفهم ينقلون رواية عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلت يا رسول الله، ذراري المؤمنين؟ فقال: هم مِن آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله تعالى أعلم بما

كانوا عاملين. قلت: يا رسول الله، فذراري المشركين؟ فقال: مِن آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين. (أبو داود، كتاب الجنائز)

فبالجمع بين هذه الرواية والحديث السابق يستدل هؤلاء أن أولاد المشركين سيدخلون النار لأنهم سيكونون مشركين في المستقبل في علم الله تعالى.

كما أن هناك رواية عن خديجة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله ﷺ عن ولدينِ ماتا لها في الجاهلية، فقال ﷺ: هما في النار. (مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود)

هذه هي الأحاديث والآثار التي يُستدل بها على دخول أولاد المشركين النار.

أما أولاد المسلمين فيقول الإمام النووي: "أجمعَ مَن يُعتدّ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفًا." (المنهاج شرح النووي لمسلم، كتاب القدر)

ولكن البعض توقف في هذا الشأن لحديث عائشة - رضي الله عنها - بأن صبيًا أنصاريًا تُوفي، فقالت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءًا ولم يدرك. فقال النبي ﷺ: أو غير ذلك. يا عائشة، إن الله تعالى خلَق للجنة أهلاً.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. (مسلم، كتاب القدر)

وقد أجاب عليه القائلون بدخول أولاد المؤمنين في الجنة بقولهم: لعل رسول الله ﷺ نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع. ويُحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة؛ فلمّا علِم الحقيقة قال: "ما مِن مسلمٍ يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ إلا أدخلَه الله الجَنةَ بفضل رحمته إياهم" (روح المعاني، والنسائي، كتاب الجنائز، باب من يتوفى له ثلاثة). فهذا الحديث يصرح في رأيهم أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة، لأن النبي ﷺ نهى عائشة عن أن تسمي هذا الوليد عصفورًا من عصافير الجنة قبل انكشاف الحقيقة.

أما أولاد الكفار والمشركين، ففيهم ثلاثة مذاهب؛ فقال الأكثرون: هم في النار تبعًا لآبائهم لحديث سُئل فيه النبي ﷺ عن أولاد المشركين الذين يموتون في صغرهم فقال

ﷺ: "الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين". وتوقفت طائفة في هذا الشأن قائلة: كيف نعلم هذا وهو مما يتعلق بيوم القيامة، فلا نتدخل فيه. وقالت الثالثة: إنهم من أهل الجنة، ويستدلون بأدلة أكبرها عندهم حديث أن رسول الله ﷺ رأى في المعراج إبراهيم عليه السلام جالسًا تحت شجرة كبيرة مع وِلدانٍ يلعب معهم. فقيل: يا رسول الله، هل أولاد المشركين بين هؤلاء الوِلدان أيضا؟ قال ﷺ: نعم، وأولاد المشركين... أي حيث إن العذاب لا يترل إلا بعد بعثة رسول، والرسول لا يبعث إلى الأولاد كونهم غير مكلفين، فثبت أن أولاد المشركين لن يُعذَّبوا. (البخاري: كتاب التعبير، وروح المعاني).

ومن أدلتهم أيضًا: قول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾(الإسراء:١٦).

وهناك مذاهب أخرى أيضًا منها: أن هؤلاء الأولاد سيكونون في عالم البرزخ بين الجنة والنار. ومنها أنهم سيُختبرون يوم القيامة، فيدخلون الجنة أو النار بحسب نتيجة هذا الاختبار. وطريقته أنه سيقال لهم: ادخلوا النار، فمن رضي بدخولها، اعتُبر مؤمنًا وأُرسل الى الجنة، ومن رفض دخول النار، اعتُبر كافرًا وأُلقي في النار. ويقول أصحاب هذا الرأي عن قول الرسول ﷺ: "والله أعلم بما كانوا عاملين" أنها كلمات مبهمة لا تذكر النتيجة النهائية؛ إذ اكتفى النبي ﷺ بقوله: الله أعلم بما كانوا فاعلين إنْ بلغتْهم الدعوة وماذا سيكون مصيرهم. فهو ﷺ لم يصرح هنا بمصيرهم، بل يبدو أنه أراد أنهم لو أُتيحت لهم الفرصة، فالله أعلم بما سيكون مصيرهم. وقد رجّح الإمام ابن تيمية هذا التأويل. (روح المعاني)

وهذا الرأي تدعمه تلك الأحاديث التي تقول: إن الله تعالى سيبعث في الآخرة نبيًا لاختبار المجنون والمعتوه والشيخ الهرم الذي لا يعي شيئًا. (مسند أحمد، حديث الأسود بن سريع✪)

✪ نص الحديث: عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَة. فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ

وقد رجّح السيوطي هذا الرأي، غير أنه أضاف أن أولاد المشركين سيُحشرون بلا شك، ولكنهم سيصيرون ترابًا كالحيوانات الأخرى لكونهم غير مكلفين. وقد اضطر لهذا الاستدلال بسبب قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾، إذ لا يمكن هذا السؤال إلا بعد أن تُحشر الموءودة. وهذا يماثل ما ذكره حديث بأن شاة نطحتْ شاة أخرى في الدنيا ستُحشر يوم القيامة فيقال للنطيحة انطحي الناطحةَ (مسلم، كتاب البر). إذًا قد اضطر السيوطي إلى القول بحشر الأولاد بسبب هذه الآية، ولكنه يقول لأن الأولاد لا يستحقون الجنة نتيجة عمل إذ لم يعملوا شيئًا، فلذلك يحوَّلون ترابًا بعد أن يجيبوا على هذه الأسئلة، مثل الحيوانات الأخرى التي ستصير إلى الفناء بعد أن يؤدي بعضها حقوق بعض.

وقد مال الإمام أحمد السرهندي – رحمه الله – أيضا إلى رأي الإمام السيوطي، وقال إن الأولاد سيحشرون، ولكنهم سيفنون مرة أخرى. (روح المعاني)

والقائلون بدخول الأولاد في الجنة قد ناقشوا سؤالا آخر وهو: إن هؤلاء الأولاد لا عمل لهم، ويدخل المرء الجنة عن استحقاق أي نتيجة عمل، فكيف يدخلونها إذًا؟ فأجاب بعضهم أنه فضل الله تعالى يعطيه من يشاء ولا يحق لأحد أن يتدخل فيه. وقال البعض الآخر: سيكون هؤلاء الأولاد في الجنة كالخدم وسيفرح آباؤهم برؤيتهم، فلا يدخلون الجنة عن استحقاق، وإنما يكونون هناك من أجل خدمة الآخرين. (روح المعاني)

وهناك رواية أخرى آخرُ راوٍ فيها امرأةٌ، وهي عمّة الخنساء، قالت: قلت يا رسول الله من في الجنة؟ قال: النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة. (مسند أحمد). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن الحسن رواية مرسلة، وهي: "قيل

مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ. فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَن ادْخُلُوا النَّارَ. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا. قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيٌّ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَ هَذَا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا". (المترجم)

يا رسول الله، مَن في الجنة؟ قال: الموءودة في الجنة" (ابن كثير). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن ابن عباس: "أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾". (ابن كثير)

هذه هي الآراء القديمة التي نجدها في كتب الحديث وكتب العلماء السابقين فيما يتعلق بأولاد المؤمنين والمشركين، والظاهر منها أن غالبيتهم متفقون على دخول أولاد المؤمنين في الجنة. هناك حديثان فقط يجعلان هذه المسألة موضع شبهة إذا كانا صحيحيْن؛ أحدهما: ما نُسب إلى خديجة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال ﷺ: هما في النار. لو كان أولاد المسلمين سيدخلون الجنة حتمًا، فلماذا قال النبي ﷺ عن ولدَي خديجة أنهما في النار؟ والحديث الآخر أن عائشة - رضي الله عنها- لما قالت عن ولد أنصاري تُوفيَ: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، قال النبي ﷺ: أو غير ذلك، لعله يكون من أهل النار. ثم دلل ﷺ على ذلك بقوله: إن الله تعالى خلق للجنة أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلَق للنار أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. (مسلم). فكيف يمكننا الجزم أن أولاد المؤمنين من أهل الجنة أو من أهل النار؟

لقد ذكرتُ من قبل أن المحدثين يقولون عن قول النبي ﷺ لعائشة إنما قاله قبل انكشاف الحقيقة عليه حيث غيّر عقيدته بعد انكشافها. ولكنهم يواجهون هنا مشكلة أخرى، إذ ورد في حديث آخر أن رسول الله ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام جالسا في الجنة مع أطفال، وكان بينهم أولاد المشركين أيضا، وقد رأى ذلك في واقعة المعراج الذي وقع في السنة الخامسة للبعثة. وهذا يعني أن الحقيقة كانت قد انكشفت على النبي ﷺ قبل الهجرة بثماني سنوات، بينما تزوج النبي ﷺ عائشة بعد الهجرة بسنة. وهذا يعني أن الحقيقة انكشفت عليه ﷺ قبل زواجه بها بتسع سنوات، فكيف يمكن أن يقول ﷺ لعائشة قولاً يخالف هذا الانكشاف السابق؟ فلا جدوى من إجابة المحدثين هذه.

إذًا، إننا نجد التعارض في الأحاديث، فلا بد لنا من العودة الى القرآن الكريم، لنتدبره ونعرف تعاليمه بهذا الشأن، فهو وحي أنــزله الله تعالى، ويمكننا قبوله

والأخذ به دونما تردد ولا خطر. لا جرم أن بعض هذه الأحاديث قوية الإسناد وقد وردت في الصحاح، ولكن يبدو أنه قد اختلط فيها الحابل بالنابل، أو أن بعضها موضوع من قبل الوضّاعين، فلا بد لنا من التوجه إلى القرآن الكريم لمعرفة حقيقة القضية.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(آل عمران:١٨٣). وحيث إن الله ليس بظالم، فكيف يمكن أن يُدخل الأولاد في النار من دون ذنب؟ إن عقاب من لم يرتكب جريمة، ثم هو غير مكلف بأحكام الشرع، لظلمٌ يقينا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء ١٦).. أي لا نعذب الناس من دون بعثة رسول. وقد استدل المحدثون أنفسهم بهذه الآية على نجاة الأولاد. فالله تعالى يعلن أنه لا يظلم العباد، ثم يعلن أنه لا يعذب الناس بدون إقامة الحجة عليهم ببعثة رسول، وهذا دليل على أن الأولاد لا يمكن أن يعذّبوا؛ إذ لم يرتكبوا جريمة و لم يُبعَث إليهم رسول.

كذلك قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(طه ١٣٥). وقد تكرر المعنى نفسه في قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة ٢٠).

فقد أعلن الله هنا أن إقامة الحجة إنما يعني أن يُبعث نبي فيصدقه الناس أو يكذبوه، إذ يخبر تعالى هنا أننا قد بعثنا إليكم الأنبياء حتى لا تقولوا يوم القيامة لم يأتنا رسول. فرغم أنهم كانوا عقلاء إلا أن الله تعالى يقول لهم: لو لم نبعث إليكم الأنبياء لاعتبرناكم أبرياء. وحيث إن الكبار يُعَدّون أبرياء إذا لم يأتهم نبي، فإن تجريم الصغار واعتبارَهم من أهل النار – مع أنهم لا يفهمون حقيقة النبوّة وليسوا مكلفين بأحكام الشرع– لاعتقادٌ مخالف للقرآن الكريم يقينًا. إن القرآن يعلن أن العاقل لا يُعَدّ مجرمًا ما لم يُبعَث إليه نبي، فكيف، يا ترى، يُعَدُّ مجرمًا مَن ليس عنده عقل ولا

فهم أصلاً؟ وما دام الله تعالى لا يعتبر العقلاء مجرمين إذا لم يبعث إليهم نبي، فكيف يمكن أن يعذّب الأطفال الذين لم تَقُمْ الحجة عليهم حتى ببعثة النبي؟

إذًا فقد تبين من هذه الآيات جليًّا أن القرآن الكريم يرفض دخول الأطفال في النار وأنها عقيدة باطلة تماما.

أما السؤال: إذا كان أولاد المؤمنين والكافرين غير مكلفين، فماذا يكون مصيرهم؟ فليكن معلومًا أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة كما يؤيد ذلك حديث المعراج، والعقلُ أيضا يفتي بصحة هذا الحديث وقوته. إنه حديث متواتر ومتعدد الإسناد. لا شك أنه مضطرب في بعض أجزائه، إلا أن المحدِّثين قد اعتبروه قويًا جدًّا. إذًا فحديث المعراج دليل على أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة. ثم إن العقل يفتي بضرورة دخول أولاد المؤمنين الجنةَ من أجل سرورهم وسكينتهم. يقول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾(النحل ٣٢)، وإن أكبر أمنية للأم أن يرجع إليها ولدها. لقد رأينا أن بعض النساء إذا أتاهن أجلهن قلن: سوف أُلحَقُ الآن بابني الذي قد مات. فثبت أن العقل أيضا يفتي بأنه من أجل سكينة الأمهات واطمئنانهن لا بد من لقاء أولادهن في الجنة، أيًّا كانت نوعية هذا اللقاء، سواء كخدمٍ أو دُمًى، اللهم إلا أن يكون هؤلاء الأولاد من أهل النار وأعداء لله ولرسوله، لأن المؤمن يقطع صلته عن مثل هؤلاء الأولاد، ولا يفكر بلقائهم أبدا. باختصار، إذا كان الولد بالغًا كافرًا مشركًا فلن يبالي المؤمن أينما يدخله الله تعالى، ولن يتأذى بدخوله النار؛ لأنه قد نفض حبّه من قلبه. أما الولد غير البالغ الذي مات في سن البراءة، فإن العقل والفطرة يقتضيان أن يُسكَن مع أبويه المؤمنَينِ في الجنة. بل الحق أن الجنة لن تكون جنة للأم إلا إذا كان معها أولادها. وبناء على هذا الدليل العقلي يمكن القول إن حديث المعراج مطابق للفطرة تماما.

أما أولاد الكفار والمشركين، فلا شك أن هناك أحاديث تؤيد أنهم يدخلون النار، غير أن هناك أحاديث أخرى توضح أنهم سيدخلون الجنة مثل حديث المعراج الذي ورد فيه أن أولاد المشركين كانوا مع إبراهيم عليه السلام في الجنة. وقضية أولاد المشركين ليست ذات أهمية، إلا أن قضية أولاد المؤمنين ذات أهمية بلا شك. وفيما يتعلق

بأولاد المشركين فهناك أحاديث تقول بدخولهم في الجنة، وأحاديث تقول بدخولهم في النار، ولذلك فإننا نرجّح الأحاديث الأولى لقوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف١٥٧)، لأن القرآن الكريم قد بين لنا مبدأً أساسيًا أنه إذا تعارض أمرانِ فخُذوا الأقربَ إلى رحمة الله، لأنها غالبة على غضبه. فحيث إن الأحاديث بنوعيها تروى عن الرسول ﷺ ولا نستطيع ترجيح بعضها على بعض، فالدراية تفتي بترجيح الأحاديث التي تقول بدخولهم في الجنة عملاً بالمبدأ القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهناك تأويل آخر في رأيي، وهو أن أهل النار عندما يخرُجون منها ويدخلون الجنة فلا يمكن أن يتبوأوا فيها المقام الذي تبوأه من دخلها مباشرة، فربما سيميّز الله بين من دخل الجنة مباشرة وبين من لم يدخلها مباشرة بأنه سيُسكِن أولاد الفئة الأولى الصغار معهم أيضا، ولو بصفة خدم، أما الذين يدخلون الجنة فيما بعد فأولادهم الصغار يُفنوْن؛ إذ لا يستحقون الجنة استحقاقا ذاتيًّا إذ لم يعملوا شيئًا، كما لا ينفعهم الاستحقاق غير المباشر أي بسبب آبائهم.

أما إذا كانت هذه القضية ستُحسَم بحسب ما ورد في الحديث أن نبيًا سيُبعث إلى الأولاد يوم القيامة لاختبارهم (مسند أحمد)، فلا قيمة للبحث السابق، إذ لا يبقى عندها فرق بين أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين، وسيكون المراد من حديث المعراج عندها أن أولاد المؤمنين والمشركين كلهم سيظلون في الجنة تحت رعاية إبراهيم عليه السلام كلُعَبٍ إلى يوم البعث، ثم سيُبعث إليهم يوم القيامة نبيٌّ لاختبارهم، فيدخلون الجنةَ بتصديقه أو النارَ بتكذيبه.

أما إذا فسّرنا هذا الحديث بمفهوم آخر - كما فعل المسيح الموعود عليه السلام إذ يرى أن أمر إيمانهم سيُحسَم يوم القيامة بحسب فطرتهم - فنقول إن الذين يستحقون النار سيدخلونها حتمًا، أما أولادهم الصغار فلو شملهم الفناء ترحمًا عليهم فلا ظُلْمَ في هذا، لأن إسكان أولاد المؤمن في الجنة تأليفًا لقلبه هو الرحمة بعينها، أما الكافر فحيث إنه قد فقد سكينته بدخوله النار سلفًا ففي فناء أولاده رحمة له لا ظلم.

إذًا، فأولاد المؤمنين سيسكنون مع آبائهم في الجنة ولكن أولاد الكافرين يفنون كالحيوانات، ويصيرون ترابا. ولو سلّمنا بهذا المعنى لتوافق القولان، وبدا رأي الإمام أحمد السرهندي - رحمه الله - أقرب إلى الصواب.

أما السؤال: بأي شكل سيسكن هؤلاء الأولاد في الجنة، فهو نقاش نظري فقط، فإن الله وحده يعلم كيف يُسكِنهم فيها، ولا دخل لنا في ذلك. غير أنه قد انكشف علي بالتدبر في آيات من القرآن الكريم أنه لن يتمتع بنعماء الجنة حقًّا إلا البالغون، أما الصغار فيُسكَنون فيها من أجل سكينة آبائهم البالغين. كنت أظن من قبل أن الأولاد سيسكنون في الجنة كما يسكن فيها آباؤهم، ولكن هناك فرق بينهم وبين آبائهم بهذا الشأن. أما الآية الأولى التي تشير إلى ذلك فهي قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّــتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّــتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(الطور: ٢٢)، والآية الثانية هي قوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(الرعد ٢٤). ثم هناك قول الله تعالى الذي هو عبارة عن دعاء الملائكة، وهو ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(غافر: ٩).

فنرى في كل هذه الأماكن أنه قد وردت فيها ألفاظ ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أو ﴿بإيمان﴾، مما يدل على أن هناك فرقًا بين الكبار والصغار فيما يتعلق بدخول الجنة. فلأن أرواح الصغار لن تكون متطورة بشكل كامل فلا يدخلون الجنة عن استحقاق، وإنما يُدخَلونها تسكينًا لآبائهم، ولذلك قد انتقل ذهن المفسرين إلى أن الصغار سيكونون في الجنة كالخدم. أما أنا فلا أسميهم خدمًا بل أسميهم لُعَبًا، لأن أرواحهم لن تكون متطورة حتى تستمتع بنعماء الجنة حق الاستمتاع. ثم إن الله تعالى قد أخبر هنا أن الملائكة سيستقبلون أهل الجنة على أبوابها قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(الرعد:٢٥)، والملائكة لن يسلّموا إلا على من يكون ممن آمن أو ممن صلح، والله تعالى قد ذكر هنا ﴿واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ و﴿ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، والصغار لم يؤمنوا ولم تتطور كفاءاتهم بعد، وبالتالي لن يتبوءوا في الجنة المقام الذي يتبوأه الآخرون ممن بلغوا أَشُدَّهم. فثبت أن

الكبار سيدخلون الجنة استحقاقًا، أما الصغار الذين ماتوا في طفولتهم فلو دخلوها بغير أي اختبار زائد، فإنما يُسكَنون فيها ثلَجًا لصدور آبائهم، أيًا كان شكلهم هناك ومهما كانت درجة روحانيتهم، فهذا سر من أسرار الله تعالى لا حاجة بنا للخوض فيه.

وكما قلتُ، لم يخطر هذا المعنى ببالي من قبل، وكانت تأخذني الحيرة دائمًا إذ كنت أقول: لماذا يُسكَنون في الجنة خدمًا، ولكن بعد التدبر في هذه الآيات تبين لي أن أرواحهم لن تكون متطورة بشكل كامل، ولذلك فإنهم رغم دخولهم في الجنة سيختلفون حالاً عن الآخرين، سواء سميتموهم خدمًا أو لُعَبًا.

والجدير بالذكر أيضًا أن هناك مسألة أخرى تُستنبط - ضمنيًا- من هنا، وهي أن النبي ﷺ قال: إن إسلام المرء يمحو كل ما ارتكب في زمن كفره من ذنوب. هذه مسألة شهيرة ومذكورة في الحديث، غير أنها بحاجة الى شيء من التعديل في رأيي، لا أسميه تعديلاً إصلاحيا، بل أسمّيه تعديلا إكماليا. فقد ورد في الحديث أن قيس بن عاصم جاء النبي ﷺ وقال يا رسول الله، لقد وَأَدْتُ بعضَ بناتي في الجاهلية. فقال ﷺ: أَعْتِقْ عبدًا عن كل موءودة. قال: يا رسول الله، إني صاحبُ إبل، وليس صاحبَ عبيد، فهل أنحَرُ عن كل موءودة. فقال ﷺ: فانحَرْ عن كل واحدة منهن بُدنةً. (ابن كثير، والمعجم الكبير للطبراني، بابُ الْقَافِ: قَيْسُ بن عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيُّ، رقم الحديث ١٥٢٥٧)

يتضح من هنا أن الإنسان لو أدى كفارةً عن ذنوبه التي غُفرت له نتيجة إسلامه وتوبته، ولكنها لا تزال تثقل على قلبه فيؤنبه ضميره بسببها، لكان ذلك أدعى لتكميل روحانيته.

الآن أنقل حديثا آخر بصدد الوأد يجب إلقاء الضوء عليه. فعن سعيد بن أبي أيوب قال: حدثني أبو الأسود عن عروة عن عائشة عن جُذامة بنت وَهَب أخت عُكاشة قالت: حضرتُ رسولَ الله ﷺ في ناس وهو يقول: "لقد هممتُ أن أنهى عن

الغَيلة✪، فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يُغيلون أولادهم ولا يضرّ أولادهم ذلك شيئا. ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك الوأد الخفي". (مسند أحمد: حديث جذامة، ومسلم: كتاب النكاح، وأبو داود والترمذي: كتاب الطب، والنسائي، كتاب النكاح)

وبناء على هذه الرواية قال البعض حيث إن العزل وأد خفي فيجب أن يُعاقب صاحبه بعقوبة ما.

ولكن استنتاجهم من هذه الرواية غير سليم، فأولاً: إذا كان العزل ممنوعًا لكونه وأْدًا خفيًا فيجب أن يكون جماع الحامل أيضا ممنوعًا، ولكنا لا نجد حرمة جماع الحامل، مع أنه وأدٌ قطعيٌ ويقيني. وثانيًا: هناك أحاديث تجيز العزل حيث ورد أن النبي ﷺ سُئل عن العزل، فقال: لا عليكم أَلَّا تفعلوا، فإنه ليست نَسَمةٌ كتب الله أن تخرُج إلا وهي كائنة. (البخاري، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا).

ولما كان العزل جائزًا بحسب الحديث فيكون المراد من هذا الحديث - رغم كونه حديثًا قويًا - أن العزل جائز عند الضرورة فحسب، ومن لجأ إلى العزل بغير ضرورة فقد قام بوأد خفي، بمعنى أنَّ الذي يعزل عزلاً فيه انقطاع نسل فهو مجرم وآثم عند الله تعالى، وإلا فإن العزل جائزٌ في بعض الحالات. فمثلاً هناك شخص قوي، ولكن زوجته مريضة، وهو لا يقدر على الزواج بثانية، فقد خلق الله تعالى في هذا الإنسان القوة الشهوانية من ناحية، ومن ناحية أخرى يحذّره الطبيب من خطر الحمل على حياة زوجته؛ فماذا يفعل؟ الحق أن العزل ليس جائزا له فحسب، بل إسقاط الحمل جائز لو حملتْ زوجته. بل لقد سمعتُ المسيح الموعود عليه السلام يقول إن مثل هذه المرأة إذا لم تُسقط حملها وماتت بسببه فسوف تُعتبر منتحرة. لقد قال عليه السلام: يجب إسقاط الجنين في هذه الحالة فإننا لا نعلم عن الجنين ولا عن مصيره وعاقبته شيئا، ولكنا نعلم حتمًا أن أُمَّه حيّةً تُرزق، والحفاظ على حياتها يفرض علينا إنقاذها والخلاص من الجنين. أما إذا لجأ أحد للعزل أو إسقاط الحمل خشيةَ إملاق فهو يرتكب حرامًا.

✪ أغالَ فلانٌ ولده: إذا غَشِيَ أُمَّه وهي ترضعه. (مختار الصحاح)

باختصار، إن فتوى جواز العزل أو عدمه يتعلق بحالة المرأة، فلو تم العزل عند الضرورة فهو جائز، أما بدون ضرورة فهو مكروه، ولو تمَّ لِقَطْع النسل فهو حرام؛ فالأوربيون مثلاً يلجأون إلى العزل لقطع النسل فقط، ولأن هذا يدمر الأمة فهو غير جائز وحرامٌ يقينًا. وإذا قام أحد بالعزل بدون ضرورة فهو يرتكب مكروها. وإذا لجأ أحدٌ إلى العزل لضرورة حقة فلا سبيل عليه.

باختصار، لهذه المسـألة ثلاثة جوانب: إذا جُعِلَ العزل سببًا لتدمير النسل فهو حرامٌ، وإذا لم يؤدِّ إلى تدمير النسل ولكنه تمّ بدون ضرورة فهو مكروه، وإذا تمَّ لإنقاذ حياة المرأة أو لضرورة مماثلة أخرى أجازها الشرع فهو جائز. فليس كل عزل وأدًا خفيًا، إنما يُعَدُّ العزل جريمة إذا أدى لدمار الأمة كما نرى في هذه الأيام في فرنسا وفي غيرها من البلاد حيث أدى إلى نقص في تِعداد السكان بشكل خطير، وأصبح هذا الشعب ذليلاً مقهورًا أمام الشعوب الأخرى. ولذلك قال النبي ﷺ: "تَزوّجوا الوَدودَ الوَلودَ" (النسائي، كتاب النكاح).. أي تزوّجوا من النسوة اللواتي هن ودودات ويُنجبن بكثرة، لأن ذلك يُساعد على رقي الأمة.

وأما إذا طبقنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ على القيامة فيكون لكلمة ﴿سُئِلَتْ﴾ مفهومان: أولهما أن وائدها سوف يُسأل، وثانيهما أنَّ الموءودة ستُحيا مرة أخرى - ولو لبعض الوقت وستفنى بعدها كما ستفنى الحيوانات - لكي تُسأل، بيد أن قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ إنما يُشير إلى أن وائدها سيُسأل عنها.

هذا، وككل النبوءات الأخرى الواردة في هذه السورة قد تحققت هذه النبوءة أيضًا في هذا العصر، حيث أخبر الله تعالى هنا أنه سيأتي زمان يتم فيه الحظر على وأد البنات بسن القانون، وسيُعاقَب الوائد بموجبه. وبالفعل قد سنَّت الحكومة البريطانية عام ١٨٧٢ قانونًا بهذا الشأن، وهكذا قد تحققت هذه العلامة المتعلقة بالزمن الأخير.

وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠

شرح الكلمات:

نُشرتْ: نشَر الخبر نشرًا: أذاعه. نشَر الثوب والكتاب: بَسَطَه خلافُ طَواه. ونَشَرَ الله الموتى: أحياهم. ونَشَرَ الموتى: حَيُوا. لازم ومتعدٍّ (الأقرب)

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني ١- حين تُنشر الصحف، ٢- حين تُفتح الصحف، ٣- حين تُعاد الصحف الميتة إلى الحياة.

التفسير: كل هذه المعاني لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قد تحققت في هذا العصر. المعنى الأول هو حين تُنشر الصحف وتُشاع، وقد تحققتْ هذه النبوءة باختراع المطابع لطبع الكتب والجرائد، وباختراع القطار الذي يوصل هذه المطبوعات إلى شتى أنحاء العالم. فهناك جرائد يُطبع منها حتى خمسة ملايين نسخة، كما تُطبع بعض الكتب بعشرة بل عشرين مليون نسخة. وهذا ما ورد في هذه الآية حيث تنبأت عن طبع الكتب والصُحف ونشرها في العالم على نطاق واسع.

والمعنى الثاني هو أن الصُحف ستُبسَط وتُفتَح، وقد تحققت هذه النبوءة أيضًا اليوم، حيث تُقرأ الكتب في هذا العصر بكثرة، كما أُنشئت مكتبات ضخمة يرتادها الناس لمطالعة الكتب والجرائد. كما يستعير أعضاؤها الكتب ليطالعوها في بيوتهم. باختصار قد فُتحت الكتب وبُسطت بدل أن تظل مغلقة، وصار للعلم رواجٌ في كل أنحاء العالم.

وقد تحققت هذه النبوءة من حيث إن علماء الآثار قد نقّبوا عن مكتبات ضخمة قديمة، فقد عثروا مثلا على مكتبة "نبوخذ نصر" المنقوشة على الحجارة Assyria & Babylon Uncovered, by: W.H. Boulton (www.biblemagazine.com/magazine/vol-9/issue-3/assyria_babylon.html)، وهكذا قد أحيوا الصحف الميتة. فلا يزال علماء الآثار يُنقّبون عن الكتب المنسية المتروكة عَمليًا ويعرضونها على الناس. كما أنهم ينقبون عن آثار فرعون موسى عليه السلام ويدرسونها. كانت لغة المصريين القديمة التي تُسمى الهيروغرافية قد اندرست

تماما، ولكن علماء الآثار قد أنفذوا أعمارهم في فكّ رموزها وتمكنوا من قراءتها وأخبروا ما حدث مثلاً قبل موسى ؑ بألفي سنة وما حدث قبله بثلاثة آلاف سنة. (Encyclopeadia Britanica Vol. 8 : Hieroglyphic Writing)

باختصار، إن الصحف الميتة تُعاد إلى الحياة ثانية في هذا العصر وتتحقق النبوءة ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ جليًا.

وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١٢

شرح الكلمات:

كُشطت: كَشَطَ: رفَع شيئًا عن شيء قد غشّاه، ونحّاه. كشَط الجُلَّ عن الفرس والغطاءَ عن الشيء: قلَعه ونزَعه وكشَفه عنه. كشَط البعير: نزَع جلده، ولا يُقال سلَخ البعير (كما يقال سلخ الشاة)، لأن العرب لا تقول للبعير إلا كشطتُه أو جلّدتُه (الأقرب). فقوله تعالى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني: حين يُنـزع جلد السماء أو يُزال غطاء السماء.

التفسير: قد يراد بالسماء العلوم السماوية الروحانية، فقوله تعالى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني انكشاف العلوم السماوية في ذلك العصر، أي في ذلك العصر تكون العلوم الروحانية مغطاة مخفية تحت أنواع الحجب، فيبعث الله تعالى شخصًا من عنده، يكشف تلك العلوم الروحانية، ويُظهر أسرار القرآن المكنونة، ويبيّن غوامض علم الحديث.

والمعنى الثاني لكشط السماء هو نزع جلد السماء.. أي أن علم الفَلك والهيئة سوف يتطور بشكل هائل. في لغتنا أيضًا يقال: أنت تقشر الشعرة.. أي تتكلم بكلام عميقٍ دقيق. وبالفعل نرى في هذا العصر أن علم الحياة والفَلك قد تطور تطورًا يفوق تصور الأولين. كما تطورت في هذه الفترة الوجيزة علوم خلق الكون وسعته وسير النجوم والأجرام الفلكية وغيرها تطورًا غير عادي لم يحدث في عشرات القرون الماضية. فما كان بوسع المهندسين وعلماء الرياضيات قبل قرن أو

قرن ونصف من الزمان ليقدّروا أن هذا التطور سيقع بهذه السرعة. في الماضي كان عندهم منظار لا يتعدى قُطره قدمًا ونصف قدم، أما اليوم فقد اخترعوا في أمريكا منظارا قُطره مئة قدم. وكلما كان المنظار أكبر قطرًا ازدادت كفاءته وقدرته. يقال إن تكلفة صنع هذا المنظار تبلغ مئة مليون دولار. وليس صعبًا تقدير عدد السنوات التي استغرقها صُنع هذا المنظار وعدد العلماء المتخصصين من شتى المجالات الذين جمعوهم من العالم. لقد تطوّرَ علم الفَلك باختراع هذا المنظار بشكل مدهش. يقدّر علماء الفَلك والهيئة المسافةَ بين نجم وآخر بسرعة الضوء. إنهم يقولون إن الضوء يقطع مسافة مئة ألف وستة وثمانين ألف ميل في ثانيةٍ واحدة. ولو ضربنا هذا العدد في ٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة واحدة، ثم ضربناه في ٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في ساعة واحدة، ثم ضربناه في ٢٤ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في يوم واحد، ثم ضربناه في ٣٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة. فلو أراد العلماء بيان المسافة بين نجم وآخر، فلا يقولون إنها كذا من الأميال، بل يقولون إن هذا النجم يبعد عن الآخر مثلاً بعشرين سنة ضوئية أو ألف سنة ضوئية.. أي لو ضربنا هذه السنوات في ما يوجد في السنة الضوئية من مسافة عرفنا المسافة بين النجمين.

باختصار، إن اختراع هذه المناظير قد أدى إلى تطور علم سير النجوم، كما أدى إلى ثورة كبيرة في العلوم السابقة عن سعة الكون. دَع العصور السابقة جانبًا، فحتى ما قبل الحرب العالمية السابقة كان العلماء يظنون أن سعة الكون هي ألفان من السنين الضوئية، ولكن عند نهاية الحرب أعلنوا أن سعته اثنا عشر ألف سنة ضوئية. أما اليوم فيقولون إنهم عاجزون عن تقدير سعته كليةً. وما يبيّنونه على وجه التقدير هو ستة وثلاثون ألف أو أربعون ألف سنة ضوئية. أما الآن وأنا أراجع هذه الملاحظات التفسيرية فقد أعلنوا أنهم قد اكتشفوا نجومًا تقع أبعدَ من هذه المسافة أيضًا.

ثم إنهم نتيجة الحسابات الجديدة قد تقدموا في بحوثهم حتى ادعوا أنهم قد اكتشفوا مركز الكون كله الذي تبدو فيه هذه الأجرام من شمس وقمر ونجوم كذرة صغيرة.

يقولون هناك عالَم فوق هذا العالم، ثم عالم ثالث، فرابع وهكذا دواليك، وفي الأخير هناك مركز عظيم هائل لهذا الكون تدور حوله كل هذه الكواكب والنجوم والشمس والقمر وغيرها. وقد غرَّهم بحثهم هذا أن زعموا أنهم قد اكتشفوا سرّ الألوهية، إذ يزعمون أن هذا المركز هو الإله، ويتحكم في هذا الكون كله من ذلك المركز.

وكذلك قد تغيرت نظريتهم عن خلق الكون بشكل جذري. لقد اخترعوا أجهزة تساعدهم على تحليل الأضواء النابعة من النجوم المختلفة، فيعرفون بذلك المواد الموجودة فيها. ذلك لأن الضوء الصادر من أي نجم يحمل معه أطياف المعادن والمواد التي رُكّب منها ذلك النجم. في الماضي كان الناس يظنون أن كل الأضواء من نوع واحد، ولكن العلماء قد علموا الآن أن ضوء كل نجم مختلفٌ عن ضوء الآخر بسبب اختلاف أطيافه، فلو فُحص الضوء الصادر من البلاتينيوم عُلم أنه صادر من معدن البلاتينيوم، ولو فُحص الضوء النابع من الراديوم، عُلم أنه صادر من الراديوم. فبفحص الضوء وحده يخبرون عن معدنه ومادته. ونتيجة لهذا التقدم العلمي قام العلماء بتحليل ضوء الشمس وأخبروا عن العناصر الموجودة فيها، وقاموا بتحليل ضوء المريخ وأخبروا عما يوجد فيه من عناصر ومعادن. باختصار لقد وقعت تطورات ثورية مذهلة في مجال علم الفَلك.

ثم هناك اكتشاف آخر يشهد على صدق الإسلام. كانت نظرية "دارون" هي السائدة في أوروبا كلها في الماضي، لكنهم قالوا الآن إن عمر الدنيا ٤٨ ألف سنة، وأن الشمس كلما اقتربت من مركزها ازدادت حرارةً، وعند انتهاء ٤٨ ألف سنة ستشتد حرارتها جدًا حتى تذيب كل الكواكب التي تدور حولها بما فيها الأرض.

وهذا نفس ما ورد في الحديث أن الشمس ستقترب من الأرض جدًا عند يوم القيامة حتى تدمر حرارتها الأرض.✪

باختصار، لقد نُزع جلد السماء نتيجة الثورة التي حصلت في علم الهيئة والفَلك، حيث تطور هذا العلم تطورًا هائلا غير مسبوق.

والمعنى الثالث من كشط السماء كشط علومها.. أي أن الناس سينــــزعون جلد الدين، بمعنى أنهم سيفحصونه فحصًا كأنما ينــــزعون جلده. وبالفعل ترى أنهم قد قاموا في هذا العصر ببحوث دينية غير مسبوقة. كما قام أتباع كل دين بتحليل دينهم إلى أبعد الحدود. خُذوا مثلا التوراة؛ فإن العلماء المسيحيين أنفسهم قد فحصوها فحصًا كأنما نزعوا جلدها، فأثبتوا مثلاً أن القول الفلاني ليس من كلام موسى عليه السلام بل هو من كلام هارون عليه السلام، وأن الكلمة الفلانية من اللغة الفلانية، وأن الناس المعاصرين لموسى لم يكونوا يتكلمون بتلك اللغة، فثبت أن تلك الكلمة قد أضيفت إلى التوراة فيما بعد. لقد قاموا بتحليلها بحيث قد بيَّنوا حقيقة كل كلمة فيها. أما كتاب "الفيدا" الهندوسي فإن العلماء الهندوس أنفسهم قد قاموا ببحوث كبيرة حوله، وأثبتوا أن كيت وكيت من اللغات قد أُدخلت فيه، وأن تلك اللغات كانت شائعة في كذا وكذا من الفترات الزمنية. كما قاموا بتحليلات مذهلة عن تاريخ "الفيدا" وترتيبه وكأنما نزعوا جلده. وإذا كان ثمة كتاب نجا من الموت نتيجة هذا الكشط والشق فإنما هو القرآن الكريم وحده. كانت هناك نبوءة قرآنية أن علوم السماء سوف يتم كشطها ونزع جلودها وكشف أسرارها، لذلك فقد جعل الله تعالى بحكمته الكاملة شقَّ الصحف الأخرى وفحصها في أيدي الأوروبيين، أما القرآن الكريم فقد فوّض الله تعالى مهمة كشف غوامضه وبيان أسراره في هذا العصر إلى المسيح الموعود عليه السلام. لقد كانت نبوءة ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ

✪ نص الحديث: حَدَّثَنَا الْمِقْدَادُ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَت الشَّمْسُ مِن الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ اثْنَيْنِ... فَتَصْهَرُهُمْ الشَّمْسُ." (الترمذي، كتاب صفة القيامة)

كُشطَتْ﴾ ستنطبق على الصحف كلها، ولكن الله تعالى لم يُرِدْ تكريم الصحف الأخرى، فجعل أمرها في أيدي هؤلاء الجزّارين ليقوموا بشقّها وسلخها، أما القرآن الكريم فأراد الله تعظيمه، فلم يجعله تعالى في أيدي هؤلاء الأغيار، بل جعله في يد أحد عباده المصطَفين ليكشف غموضه ويبين أسراره للعالم.

وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

سُعّرتْ: سعّر النارَ والحربَ: أوقدَهما وأشعلَهما وهيَّجهما. (الأقرب)

التفسير: من معاني الجحيم "النار". وتسعير النار إشارة إلى شدتها. ومن معاني تسعير النار كثرة أهل النار لكثرة ارتكاب الذنوب في ذلك الزمن؛ ذلك لأن نزول الضيف في بيت يستلزم إشعال النار فيه إعدادًا لطعامه وضيافته، وحيث إن جهنم دار ضيافة لأهلها فإنهم حين يدخلون فيها بكثرة، فلا بد من أن تشعل فيها النار لضيافتهم.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أن الله تعالى سيبعث نبيًا من عنده في ذلك الزمن، فيشتدّ غضب الله على الناس لمعارضتهم إياه، وذلك لقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٦).. أي أننا لا نعذّب الناس حتى نتم الحجة عليهم ببعثة رسول إليهم. فهذه الآية إشارة لطيفة إلى بعثة مأمور من عند الله في ذلك الزمن، لأن بعثة المأمور الرباني إذا كانت تفتح أبواب الرحمة للمؤمنين، فإنها تفتح أبواب العذاب للكافرين أيضًا.

وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

أُزلفتْ: أزلفَه: قرَّبه. (الأقرب)

التفسير: تذكر هذه الآية نتيجة طبيعية لقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، ذلك أن الجنة تُقرَّب من الناس عند كثرة الذنوب والغفلة عن الله تعالى، فيدخلون في الجنة بجهود قليلة وتضحيات يسيرة. إن دخول الجنة لا يكون سهلا في الزمن الذي تكثر فيه الخيرات كما يكون في الزمن الذي ينتشر فيه الإلحاد واللادينية، لأن المرء يفوز برضا الله عندها بقليل من التوجه إليه تعالى.

ومن معاني هذه الآية أن التضحيات التي تُقدَّم في ذلك العصر لدخول الجنة ستكون أخفَّ وأسهلَ نسبيا، حيث يؤجَّل الجهاد القتالي عندها، فلا يطالَب الناس بالتضحية بنفوسهم بل من خلال التضحية بأموالهم أو أوقاتهم أو مشاعرهم وأحاسيسهم يدخلون الجنة. كان المؤمنون في العهد الأول للإسلام يُعلَّمون أن الجنة تحت ظلال السيوف، أما اليوم فقد أُجِّلَ الجهاد بالسيف بحكمة من الله، فلا يعاني المؤمنون تلك المشاقّ التي كانوا يتكبدونها في الماضي، بل يمكن أنٍ ينال المرء الجنة بالتضحية بالمال بدون الجهاد بالسيف.

ومن مفاهيم هذه الآية أن دخول الجنة يصبح أسهل نسبيًّا للذين يبايعون على يد المأمور الرباني بالمقارنة مع الذين لم يدركوا زمن إمامهم الرباني. فمثلاً إن النور الذي لم يكن يحظى به الناس قبل قرن من الزمان إلا ببقائهم طوال العمر في صحبة العلماء الربانيين يتولد في قلوبنا الآن بسماع بعض المعارف التي بيَّنها المسيح الموعود عليه السلام. ثم متى تيّسرت لهم رؤية هذه الآيات والمعجزات التي رأيناها على يده عليه السلام والتي رأينا بها وجه الله تعالى؟! ثم متى تيسرتْ لهم الإلهامات المتجددة التي تزيدنا اليوم إيمانًا على إيمان؟ فثبت أن دخول الجنة أصبح أسهل لنا من السابقين نتيجة بعثة المأمور الرباني في هذا العصر وبيعتنا على يده. وهذه هي علامة زمن المأمور الرباني، حيث تُقرَّب الجنة من الناس في وقته.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٥﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن قدره الخاص سيظهر في تلك الأيام وستظهر نتائج أعمال الناس بشكل خاص.. أي أنه في الزمن العادي يُحاسَب الناس على الصعيد الفردي، أما في زمن الأنبياء فيحاسَبون على صعيد الأمة، كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. والمحاسبة على صعيد الأمة تكون عسيرة جدا، لأن المحاسبة الفردية لا تكون بادية للجميع، إذ تتم مع الفرد على انفراد، أما المحاسبة على صعيد الأمة فيراها الجميع، إذ تتعلق بالأمة كلها. وهذه المحاسبة على صعيد الأمة قد أخذت في الظهور الآن من خلال الزلازل والحروب التي تقع بكثرة. يخبر الله تعالى في القرآن أن الأرض ستُزلزَل زلزالا شديدا حتى يقول الإنسان: ﴿ما لها﴾؟ (الزلزلة:٤).. أي ماذا حصل بهذه الأرض إذ يحلّ بها عذاب بعد عذاب ودمار بعد دمار؟ وبالفعل نجد إحساسًا عاما عند الناس أن هذه الآفات ليست إلا عذابًا سلَّطه الله على أهل الأرض، وهو الذي يُحدِث ثورة في العالم من خلال هذه الزلازل والحروب والأوبئة.

إذًا، فهذه الآية نبوءة بأنه سيأتي يوم تظهر فيه نتائج هذه الحروب والزلازل على صعيد الأمم، وسيظهر قدر الله تعالى في الدنيا ظهورا خاصا.

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٦﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

الخُنّس: جمعُ الخانسِ، وخنَس عنه: تأخّرَ وانقبضَ. وخنَس بين أصحابه: استخفى. وخنَس القولَ: أساءه. (الأقرب)

الجَوارِ: جمعُ الجاريةِ، وهي مؤنث الجاري.. أي الساري. والجاريةُ: الصبيّةُ؛ الأَمَةُ (المنجد). والجاريةُ: الشمسُ؛ السفينةُ؛ الحيّةُ (الأقرب). ويمكن أن تعني الجواري أناسا يمضون قُدُمًا.

الكُنّس: جمعُ الكانس وهو الظبي يدخل في كِناسه. (الأقرب)

التفسير: لقد قدم الله تعالى هنا كشهادة قومًا ذوي خصال ثلاث: ١- أنهم يمشون قُدمًا، ٢- أنهم ينحرفون ويتأخرون، ٣- أنهم يختفون. وهؤلاء القوم هم المسلمون في هذا العصر؛ إذ توجد فيهم هذه الخصال الثلاث المدمرة للأمم؛ وهي المضيّ قُدمًا بتهوُّر دون تفكير، والفرار عند الخطر، والجلوس في البيوت عاطلين. لقد بيّن الله تعالى من قبلُ في قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ أن الإنسان سيرى نتائج أعماله حتمًا، أما الآن فذكر عيوب المسلمين في هذا العصر وهي أنهم سيسلكون مسلكا خاطئا، ويفرّون من المعركة خوفًا من الحضارة الغربية، وسيقدِّمون الإسلام بقشره دون لبّه تاركين العقل والمنطق، ومن ناحية أخرى لن توجد فيهم تضحية روحانية، بل يختفون قابعين في بيوتهم، ولن يتصدّوا لعدوهم الروحاني غير مبالين بما يحلّ بالإسلام من مصائب، ولذلك سيضعف الإسلام ويغلب أعداؤه.

ومن تدبرَ في حالة المسلمين في هذا العصر قليلا وجدهم هكذا تمامًا، ووجد هذه السورة تتحدث عن هذا العصر. فمعظم المسلمين قد أصبحوا من الُخنَّس، أعني منحرفين عن الصراط المستقيم بعيدين عن الحق، بمعنى أنهم أخذوا يعملون كما يعمل أهل الكفر، ومع ذلك يعتبرون هذا الأسلوب خدمة للأمة والوطن. لقد اتخذوا منهج الأوروبيين وسلوكهم وفلسفتهم واعتبروه عين الصواب، واعتبروا خلافه خسرانًا وتبابا. إنهم مسلمون بالاسم فقط، وقد اعتبروا اتّباع الحضارة الغربية إسلامًا. لقد ساءت الأحوال الآن لدرجة أن ترى شخصين يعيشان بأسلوب واحد ومع ذلك يسمى أحدهما مسيحيا والآخر مسلما، والباحث المحقق يقول في ذهول: كيف يمكن أن تسمى طريقة العيش الواحدة مسيحيةً وإسلامية معًا؟ وبالرغم من أنهم قد انحرفوا عن الإسلام في الواقع إلا أنهم سائرون على طريقه في الظاهر، ويُسمَّوْن مسلمين.. فكأنهم يتركون الإسلام من جهة، ويُظهرون رغبتهم فيه من جهة أخرى، ويزعمون أنهم يتّبعون منهجه. والحق أن حماسهم هذا ليس إلا تقليدًا فارغًا وثرثرة لسان، إذ يدّعون الإسلام بلسانهم، ويختفون في بيوتهم عند العمل دون أن يقدموا في سبيل الإسلام أي تضحية. لقد تركوا تعاليم الإسلام، ثم يدّعون أنهم

يتّبعونه. يرفعون الهتافات عاليةً لتأييد الإسلام وعند العمل يهربون من تقديم التضحية الحقيقية. ولو أنهم ضحّوا تضحية صادقة كما يفعل الأوروبيون رغم ما أصابهم من انحطاط وضعف، لاستردّوا من مجدهم الدنيوي الغابر كثيرا. ولكنهم يصبحون من الكنّس عند العمل الحقيقي مختفين في مغاراتهم، فيسلب العدو متاع الإسلام بحرية. دَعْ أوروبا جانبًا، فإن المسلمين رغم كثرتهم لا يقفون بشجاعة في وجه بعض شعوب الهند الضعيفة الحقيرة رغم قلّتها، وليس ذلك إلا لخوفهم من المثابرة على التضحية الدائمة الثابتة، فيفرّون مدبرين عند أول هتاف العدو، وفي كل مرة تكسب المعركة شعوبٌ هي أقل منهم قوة ولكنها أكثر منهم تنظيمًا.

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٨﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

عسعسَ: عسعسَ الليلُ: مضى، وأظلمَ. (الأقرب)

تنفّسَ: أدخلَ النفَسَ إلى رئته. وتنفّسَ الصبحُ: تبلّجَ (الأقرب).. أي أشرقَ وأنارَ.

التفسير: لقد رسم الله تعالى في الآيات السابقة حالة المسلمين التعيسة في هذا الزمن، التي توحي بأن لا مصير لهم إلا الهلاك، أما الآن فيُطمئن أهل الإسلام ويخبر أن هذه الظلمة لن تدوم، بل يشهد الله بالليل الذي قد ولّى واقترب من النهاية، كما يشهد بالصبح الذي قد تنفس.. أي أشرق وظهر. إن ذهاب الليل وانبلاج الصبح دليل على انقضاء فترة الانحطاط وبداية فترة جديدة من الازدهار، وهذا ما تشير إليه هذه الآيات. فالله تعالى يعلن أنه لن يسكت على فترة انحطاط الإسلام هذه، بل سيهيئ لإزالة ضعف الإسلام أسبابًا، فيطْلع نجم الصبح من عنده تعالى، أي سيُبعث مصلح الزمان وإمامه الذي يظهر ظهورَ نجم الصبح عند انتهاء كل ليلة. إذا ظهرت آثار النور -ولو باهتة- عند اشتداد الظلمة وقنوط الناس، فإن هذا المشهد يماثل إنسانا ميّتًا في الظاهر حيًّا في الحقيقة، فإذا رُشَّ في وجهه ماء باستمرار

تنفسَ تنفسًا ضعيفا بعد جهود استغرقت ساعة أو يزيد، فيقول الله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.. أي سوف يشتدّ الظلام يومئذ حتى يقول كل إنسان: قد مات الإسلام ولم يبق فيه أثر للحياة؛ فبعضهم سيتركون الإسلام باعتباره ميتا، وبعضهم يأخذون في البكاء عليه، وبعضهم سيظلون في عملهم ويرشّون الماء على وجه الإسلام فيتنفس نفسا ضعيفا، فيقول الجميع ها قد عاد الإسلام للحياة. هذا ما يشير الله إليه بقوله ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.. أي أننا نقدِّم الصبح كشهادة عندما يتنفّس بظهور بعض الناس.

كما سبق أن بينّا أن قولهم "تنفسَ الصبح" يعني تبلَّجَ، أي أشرق وأنار، وهذا المفهوم كان بيانه بأساليب أخرى ممكنًا، ولكن الله تعالى قد اختار هنا لبيانه كلمات تشير إلى القنوط الذي سيسود الناس، وأخبر أن ازدهار الإسلام سيُعتبر ضربًا من المحال في ذلك الوقت، ولكن هذا الليل المظلم سيأتي في نهاية المطاف، فيتنفس الصبح بصعوبة، فترتفع هِمم المسلمين، فيوقنون في قلوبهم أن الإسلام سيغلب حتمًا، وأن خدامه سينتصرون يقينًا.

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٣١﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

مَكِين: مَكُنَ فلان عند السلطان: عَظُمَ عنده وارتفع وصار ذا منـــزلة. (الأقرب)

التفسير: **إن** هذه الأمور التي فصّلَتها هذه الآيات مِن رُقيِّ الإسلام، ثم ضعفه، ثم غلبته ثانية في الزمن الأخير، عندما يخاطَب بها شخص لم يقع أمامه شيء منها بعدُ تنشأ في قلبه تساؤلات ثلاثة أوّلها: كيف يقال لنا أن دين الإسلام سيؤول إلى الضعف والانحطاط ونحن لا نرى أثرًا لرقيه في أي مكان ولا بقعة، ولا نرى الناسَ قد دخلوا فيه بكثرة بعدُ، فماذا تعني من الإخبار عن ضعفه؟

وثانيها: لو سُئل المسلمون الذين رأوا ازدهار الإسلام والحكومات الإسلامية: هل لكم من زوال، لقالوا كلا، مستحيل، فمن ذا الذي يقدر على كسر شوكة الإسلام؟ فمثلاً متى كان للأمويين والعباسيين أن يتصوروا أن النصارى الذين يعيشون تحت حكمهم سيصبحون غالبين عليهم في يوم من الأيام، وسينالون من القوة بحيث إنهم لن يبالوا بصوت المسلمين وإن صرخ جميعهم معًا. هذا يعني أن غلبة الإسلام كما بدت مستحيلةً عند القوم في بداية الإسلام، كذلك كان من المحال أن يصدِّقوا في أيام ازدهاره أنه سيصاب بالضعف والانحطاط.

وثالثها: لو أُصيبَ الإسلام بالضعف فعلاً كما هو الحال الآن، وكان ضعفه شديدا بحيث إننا مهما قلنا الآن للمسلمين إنه سيصبح غالبًا ثانيةً فلن يصدّقوا ذلك، ويقولون كيف يمكن أن يزدهر المسلمون بعد هذا الانحطاط الشديد؟ الواقع أن اليقين بغلبة الإسلام ثانية إنما يتولد في قلب المرء اليوم بتصديق المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون تصديقه عليه السلام فلا سبيل لذلك، ومن أجل ذلك نجد أن المسلمين الآخرين كلما سعوا لغلبتهم تمنّوْا مصالحة المسيحيين أو تشكيل حكومة بالتعاون مع الهندوس، وليس ذلك إلا لأن من المحال أن يتصوروا أن المسيحية ستؤول غدًا إلى ما آل إليه الإسلام اليوم، وأن النصارى سيصبحون بلا حول ولا قوة أمامهم كما هو حالهم اليوم. إن هذا البرنامج هو برنامج جماعتنا فقط، لأننا رأينا آيات الله تتحقق أمام أعيننا، ولأننا قد آمنّا بإله حيّ قويّ.

باختصار، لم تكن أي من هذه الأمور أو المراحل لتخطر ببال الناس قبل ميعادها. عندما نزلت هذه السورة كان رقيّ الإسلام ضربًا من الخيال، ثم لما جاءت فترة ازدهاره كان تَخيُّلُ انحطاطه محالاً. ثم لما أُصيب الإسلام بالضعف اليوم، قيل إن رقيّه من المستحيلات. وحيث إن كل نبوءة من هذه النبوءات الثلاث هي مما لا يمكن للناس أن يوقنوا به، فلذلك قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.. أي ستكشف لكم الأيام كيف يتحقق ما يقول لكم رسولنا الكريم هذا. اليوم تنظرون إلى رسولنا بازدراء واحتقار، ولكننا نخبركم كنبوءة أولى أن الناس سيصدِّقون أن هذا الرسول رسول كريم. إنها نبوءة تتعلق بالمستقبل القريب، وإذا تحققت كان هناك أمل في

تحقق النبوءات الأخرى بعيدة المدى. إن رسولنا غير معزَّز في أعينكم، وتظنون أنه تحت رحمتكم، ولكنكم سترون عن قريب بأعينكم أنه رسول كريم، وإذا تحقق ذلك المحال في الظاهر، فلا بد أن تتحقق الأنباء الأخرى التي تظنونها مستحيلة الوقوع.

لقد اعترض البعض هنا قائلاً إن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني أن القرآن كلام بشر وليس كلام الله. هذا الاعتراض راجع إلى عدم فهم أساليب الكلام. الواقع أنه عندما يأتينا شخص بخبر نفحصه بطريقين: أوّلهما: نرى ما إذا كان ما يقوله صحيحًا لفظًا أم لا؟ وثانيهما: أننا لا نهتم بالكلمات، بل نهتم بفحوى الرسالة ونرى ما إذا كان قد أداها بشكل صحيح أم لا؟ وهذان أمران مختلفان، وبينهما بون شاسع. فمثلا أتاك شخص وأخبرك أن فلانًا قال له أنك أُعطيتَ وظيفةَ كذا. فقد تعرف سلفًا أنك قد مُنحت الوظيفة، ولكنك لا تعرف بالضبط كلمات القرار بهذا الشأن، فتسأله: أتعلم ما هي كلمات القرار بالضبط؟ فلو كان على علم بها أخبرك، وإلا اعتذر إليك. وقد لا تعرف عن هذا الخبر شيئا، فتقول لهذا الشخص: أصحيح ما تقوله؟ فلا تهتم في هذه الحالة بكلمات الخبر بقدر ما تهتم بصحة فحواه. فهاتان حالتان مختلفتان نواجههما دائمًا. والآن تعالوا نتدبّرْ في هذه الآيات لنعرف ما هي مطالبة العدو التي أُجيب عليها في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. والتدبر القليل يكشف لنا أن العدو لا يسأل هنا: آلله تعالى هو الذي قال ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أو ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾؟ بل كان يسأل متى يتحقق هذا الخبر غيرَ مهتمٍ بالكلمات وقائلها. فالواقع أن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جاء تأكيدًا لفحوى ما قيل في هذه السورة، لا تأكيدًا لكلماتها. لا شك أن العدو يناقش كلمات الرسالة أحيانًا، ولكن عند الحديث عن الأنباء لا تناقَش كلماتها، وإنما يكون السؤال عن موعد تحقُّقها. ولم يكن الكافرون يعترضون هنا على كلمات هذا الخبر، أهي كلمات الله أم كلمات محمد، إنما اعتراضهم على فحوى الخبر، فرد الله عليهم بقوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.. أي قد وصلتكم

هذه الرسالة عن طريق رسول معزَّز، والرسول المعزَّز لا يكذب أبدا، فكونوا على يقين بصحة فحوى رسالته، إذ سيتحقق حتمًا ما قيل لكم.

والملاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا رسول أمين، بل قال ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ذلك لأنه تعالى قال ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٠٨) في معرض الحديث عن ضبط كلمات الوحي وحفظِها بنصّها، أما عند الحديث عن نقل فحوى الرسالة بشكل صحيح، فقال تعالى ﴿رسولٍ كريمٍ﴾، لأن الرسول إنما يستحق الإعزاز والتكريم إذا نقل الرسالة بشكل سليم، أما إذا أخطأ في تبليغ فحواها فلا إكرام له. فمثلاً لو أمر سيدٌ خادمَه أن يبلّغ فلانًا بحضوره غدًا في المكان الفلاني، فذهب وقال للمرسَل إليه: يقول سيدي إنه لن يستطيع الحضور، فلا شك أن مثل هذا الخادم سيسقط في عين سيده، فالرسول يستحق التكريم إذا نقل الرسالة بشكل سليم. والكافر لا يهتم بكلمات الرسالة بقدر ما يهتم بفحواها ومعناها، ولذلك من مهمات الرسول أن يبين للناس المفهوم الصحيح لكلمات الوحي، أما إذا لم يبيّنها فيُخاف أن يسيء الناس فهم الوحي. فالسؤال هنا ليس عن كلمات الوحي الأصلية، بل عن مفهومه الصحيح، ولذلك قال الله تعالى: إن رسولنا هذا كريم، وقد نقل لكم الرسالة بشكل سليم تمامًا، ولو لم يكن مؤهلاً لنقلها بشكل صحيح لما لقي هذا التكريم الخاص منّا. باختصار، ليس الحديث هنا عن كلمات القرآن وحدها، بل عن شرحها وبيانها أيضًا.

أذكر هنا أمرًا ذوقيًا، وهو أن المفسرين قالوا إن المراد من ﴿رسولٍ كريمٍ﴾ هو جبريل (روح المعاني، والكشاف). وقد ضعّف الله تعالى قولهم بطريق غريب يسرّ القلب. ذلك أن المسلمين لا يطلقون كلمة (رسول كريم) إلا على النبي ﷺ، فكلما قرأ مسلم كلمة (رسول كريم) انتقل ذهنه إلى النبي ﷺ فورًا، ولا يفهم منه إلا النبي ﷺ.

ثم يجب أن نعرف أن شرح الوحي ليس من مسؤولية جبريل، وإنما عليه نقل الوحي بكلماته الواضحة. لو كان الحديث هنا عن صحة كلمات الوحي فقط، لقال الله تعالى هنا ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، لأن نقل الكلمات بنصّها وفصّها يدل على أمانة

الرسول، ولكن الله تعالى قد قال هنا ﴿رسولٍ كريمٍ﴾ للدلالة على الإكرام والإعزاز. والرسول إنما تظهر عزته وكرامته إذا نقل الرسالة للناس مع شرحها السليم. إذًا فالله تعالى قد قال هنا للكفار سترون أن هذا الرسول سيصبح معزَّزًا مكرَّمًا ذا فهم وحكمة، كما سترون أنه سينال القوة يومًا ما. أما اليوم فترونه ضعيفا، ولا ترون أيّ دليل على صدقه، ولكنا نخبركم أنه سينال قوة عظيمة. وهذا ما حدث بالضبط.

لقد أتى على النبي ﷺ يومٌ حاصره فيه الكافرون في بيته ليقتلوه، ثم أتى عليه ذلك اليوم الذي نال فيه القوة العظيمة بعد صلح الحديبية مباشرة، حتى بدأ ﷺ يبعث الرسائل إلى الملوك الكبار يدعوهم فيها إلى الإسلام. وكان هؤلاء الملوك يتحيرون من هذا الأمر جدا، إذ كانوا يقولون ما هذا الانقلاب العجيب الذي حصل ونحن ننظر؟! فهل يعقل أن إنسانا عربيًّا أميًّا لا قيمة له في أعين الناس قد نال هذه القوة حتى بدأ يخاطبنا ويدعونا إلى الدخول في الإسلام؟ إن الأوضاع قد تغيرت اليوم كثيرا، حيث يتلقى الملوك رسائل الناس فيقرءونها ثم يرمونها في سلة المهملات غيرَ مبالين بمعرفة صاحبها، أما في الماضي فكان الأمر على عكس ذلك؛ إذ كان هناك ملوك جبابرة عظام، وما كان للإنسان العادي أن يجرؤ على مراسلتهم. لذلك نجد أن كسرى لما قرأ رسالة النبي ﷺ استشاط غضبًا واعتبرها إساءة له وعبّر عن غيظه الشديد (الطبري، الجزء الثالث: ذكرُ خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك). اليوم لا نستطيع تقدير خطورة مراسلة أولئك الملوك، لأن الزمن قد تغير، إذ يمكن لكل واحد مراسلةَ الملوك إذا شاء، بل حتى قبل هذه الحرب (العالمية الثانية) كان من السهل أن يراسل أي شخص هتلر، أو موسوليني أو روزفلت. كانت مراسلة شخص عادي للملوك في ذلك العصر بمثابة إلقاء النفس في التهلكة. الواقع أن الإنسان يغتر كثيرًا لعدم معرفة حقيقة الأمور، فمثلا: كان المولوي محمد حسين البطالوي يتفاخر بأنه يراسل الحاكم الإنجليزي للهند، فيرد على رسائله، فكان المسيح الموعود عليه السلام يقول تعليقًا على ذلك: أي مفخرة في ذلك؟ لأنه لو بعث أحدُ كنّاسي الطرق رسالة إلى هذا الحاكم لرد على رسالته. إن الإنجليز يخاطِبون

الجميع في رسائلهم بكلمات محدّدة مثل (DEAR SIR) أي سيدي العزيز، فيظن القارئ أن الحاكم يعظّمه، مع أنها كلمات عادية يستخدمونها لكل من هب ودب، ولكن المولوي محمد حسين يتفاخر أن حاكم الهند يخاطبه في رسالته بالسيد العزيز!! والحق أنه ليس عند الإنجليز كلمات أخرى للخطاب. فلو راسلوا أحد الكنّاسين لخاطبوه: أيها السيد العزيز، ولو راسلوا حاكم محافظة لخاطبوه: أيها السيد العزيز، ولكن الناس يغترّون بها ويتفاخرون. رأيت ذات مرة أحد الإخوة الأحمديين في نقاش مع صاحبه وهو يقول له: هل سمعتَني أكذبُ ولو مرة؟ وكان يستدل على صدقه بقول الله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٧). مع أنه لا يحق لكل من هب ودب الاستدلال بهذه الآية على كونه صادق القول، إنما يصحّ ذلك لمن له مكانة بارزة بين القوم وأعلن دعواه. إن هذه الآية دليل على صدق من صار محطّ أنظار الناس، ولكنها لا تنفع غيره. وبالمثل إذا أجاب اليوم أحد من كبار القوم على رسالة إليك، فليس فيه أي مفخرة لك، ومن أجل ذلك تأخذ بعض المسلمين حيرةٌ حين يقرأون عن مراسلة النبي ﷺ الملوكَ ويقولون: ما الغرابة في ذلك؟ إنهم لا يدرون أنه كان في مراسلة الملوك في ذلك العصر خطر كبير، إذ كانوا في بعض الأحيان يقتلون صاحب الرسالة سخطًا. أما اليوم فقد تغير الوضع تماما، إذ لم تعُدْ مراسلة الملِك - ولو كل يوم - ذات أهمية.

ثم علينا أن نرى كيف كان ردّ فعل الملوك على رسائل النبي ﷺ، فهل اعتبروها أمرًا عاديًّا، أم كان لها وقع ملفت للنظر؟ يتضح من التاريخ أن رسالة النبي ﷺ لما وصلت قيصر دعا أبا سفيان ووجّه إليه عدة أسئلة، ولما انتهى حواره مع أبي سفيان قال هذا لأصحابه بصورة عفوية: لقد أمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشةَ! إنه يخافه ملكُ بني الأصفر (البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي).. أي أن أمر محمد قد تفاقم، حتى إن ملك الروم يخافه. كذلك إن قول النبي ﷺ لقيصرَ - وقد جاء بجيوشه إلى الشام -: "أَسلِمْ، وإلا فإن عليك إثمَ الأَريسيين"، يدل أنه ﷺ قد بعث هذه الرسالة إليه رغم علمه أنه قد يزحف بجيشه إلى المسلمين، أو يأمر بقتله

ﷺ. مع ذلك لم يأبه ﷺ بذلك مطلقًا، وقال لهؤلاء الملوك العظام علنًا: إن أسلمتم فأنفسكم تنفعون، وإن كفرتم بي فسوف تمثُلون أمام الله مجرمين.

إذًا يقول الله تعالى هنا للكافرين: إنكم تنظرون اليوم إلى محمد باحتقار، وسترون عن قريب كيف ينال القوة والعظمة الخارقتين حتى إن الملوك الجبابرة يرتعدون خوفًا منه.

أما قوله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، فقد بيّن فيه ميزة أخرى، ذلك أن الناس إذا نالوا القوة أهملوا أحكام الدين عادة، وإذا نالوا القوة غصبوا حقوق الضعفاء، ولكنه ﷺ لن يكون هكذا، بل هو عند ذي العرش مكين رغم قوته.

الواقع أن أهل مكة كانت تنتابهم شبهات كالتي تنتاب أهل أوروبا اليوم بأن محمدا إنما يريد الملك والحكم، ولذلك نجدهم قالوا له ﷺ مرة: إذا كنت تريد المال جمعنا لك من الثروة ما لا يملكه أحد من العرب، وإذا كنت تريد السيادة اخترناك ملكًا علينا، بشرط أن لا تتعرض لآلهتنا (السيرة لابن هشام، الجزء الأول: قولُ عتبة بن ربيعة في أمر رسول الله ﷺ). كانوا يظنون أنه ﷺ لا يُدلي بهذه الأنباء إلا حبًّا للحكم والسيادة، فيرد الله عليهم: لا شك أنه سيصبح ملِكًا، ولكنه لن يحكم بما يحلو له، بل سيزيده مُلكه تقوى وورعًا. ومثل هذا الإنسان لا يقال عنه أنه كان يرغب في السيادة، بل يقال أن الله تعالى هو الذي نصَّبه في هذا المقام. باختصار، يخبر الله تعالى هنا أننا عندما نعطي الملك لمحمد رسول الله، فسيكون متواضعا للناس عطوفا بالفقراء خادما لخلق الله ومؤديا حقوقَ الله وحقوق العباد. وكأنه تعالى يقول إن المُلك سيزيده ﷺ صلاةً وصومًا وصدقةً وحجًا وغيرها من الصالحات. فأضاف الله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلى قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ لبيان هذا الأمر الهام. ذلك لأن القوة فيها جانب خير وجانب شر، وجانب الخير أن ذا القوة يصبح غالبا على الآخرين، وجانب الشر فيه أنه إذا نال القدرة تجاسر على هضم حقوق الآخرين، ولكن الله تعالى يخبر الكافرين هنا أنكم لن تروْا في رسولنا جانب الشر. فلن تجعله قوته مغرورا، بل ستجعله عند ذي العرش مكينا. إن ملكه سيزيده خيرًا، وبالتالي يزداد قربًا من الله تعالى. إن تقدُّمه في الدين والورع والتقوى وأدائه لحقوق الناس..

سيكون دليلا أن مُلكه ليس بمُلكٍ مادي، وأن حُكمه ليس مما يبعده عن دين الله تعالى، بل يزيده تقوى وقداسة وعرفانا.

ثم يقول الله تعالى ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾. وهنا أيضا ذكر أمريْن مختلفيْن: فقوله تعالى ﴿مُطاعٍ﴾ يدلّ أن كل الناس سيضطرون للإذعان له، غير أنه سيكون مطاعًا أمينا. ذلك أن من أصبح مُطاعًا يصاب -أحيانًا- بالكبر والزهو، ظنًّا منه أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، وليس بوسع أحد أن يفتح فاه ضدّه أو ضد قراراته، ولكن الله يبين هنا أنه حين يضع رقاب الناس وشرفهم وماهم في يد هذا الرسول فسيرون أنه سيؤدي لكل ذي حق حقه بأمانة. فهو بأداء حقوق الله تعالى كاملة سيكون مصداقا لقوله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وبأداء حقوق العباد يكون أمينا.

في هذه الكلمات الأربع قد رسم الله تعالى أخلاق الحاكم المثالي بما لا نظير له حيث أخبر أن هذا الرسول سيصبح ملِكًا، ولكنه يكون خاضعا لملكوت الله. إنه سيصير حاكما على الناس، ولكنه سيؤدي حقوق الجميع بكامل إنصاف.. أي أنه ﷺ سيكون مطيعا لله تعالى حين ينال المقدرة، ويكون مشفقا على خلق الله عندما يكون العباد تحت رحمته. باختصار، إن كلمات: كريم، ذي قوة، عند ذي العرش، مكين، مطاع، أمين.. كلها صفات لرسول الله ﷺ.

وهناك مفهوم آخر لهذه الآيات، وهو أن النبي ﷺ نال من العز ما لم يتيسر لغيره من ملوك الدنيا، وأصبح ذا قوة بحيث أطاح بعروش قيصر وكسرى. كما كان عند ذي العرش مكينا من حيث إن كل من أراد إهانته قد أهين ولا يزال يُهان حتى اليوم. ثم إنه مطاع من حيث إنه عندما أُطيحَ بعروش الملوك الآخرين كلهم قد حمى الله عرشه مرة أخرى ببعثة مأمور من عنده تعالى في هذا الزمن. ثم إنه أمين من حيث إن كلام الله الذي كُلِّفَ ﷺ بتبليغه للناس لا يزال محفوظا بنصّه وفصّه حتى اليوم، كما لا يزال يهيئ الله الأسباب لحفظه روحانيا. وهذا دليل عظيم على قوته ﷺ القدسية، وإلا فكيف حصل هذا كله؟

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٣﴾

التفسير: عند سماع مثل هذه الأنباء يرمي الناس صاحبها بالجنون، لذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ بعد ذكر أخلاق النبي ﷺ.. أي لا تظنوا أنه مجنون، إذ إنه ليس غريبا عنكم، بل هو صاحبُكم الذي عاش بينكم، وقد شهدتم عظيم صلاحه ورجاحة عقله وإصابة رأيه، فكيف تعدّونه مجنونا؟ فإن المرء يصاب بالجنون إما لصدمة فجائية أو بمرض، ولكن رسولنا قد عاش بينكم وتعرفونه جيدًا وتعلمون أنه لم يُصب بأي صدمة ولا مرض، فكيف ترمونه بالجنون؟

مِن كمال إعجاز القرآن الكريم أنه يسوق أدلة صدقه في كلمة واحدة أحيانا، وهنا أيضا قد دحض تهمة الجنون بكلمة واحدة وجيزة: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، حيث نبّه الكافرين بأن محمدا كان صاحبكم، أي كنتم تعتبرونه صديقا ومستشارا وأمينا، فكيف أصيب بالجنون فجأة؟ وكيف يحق لكم اتهامه بالجنون بعد دعواه؟ وكيف تغير رأيكم فجأة وقد كنتم تعتبرونه سيدًا لكم من قبل، معترفين بزعامته ورجاحة عقله وزيادة فراسته؟

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

الأفق: الأُفُق والأُفْق: جمعُ الآفاق، وهي النواحي (الأقرب). والأُفُق المبين ناحية المشرق لأن الشمس تطلع منها.✪

وما هو على الغيب بضنين: أي ما هو عليه ببخيل. (المفردات)

التفسير: بعد الرد على تهمة الجنون بيّن الله هنا أن عهد نبوة محمد رسول الله ممتد لفترة طويلة، فالحريّ به أن يدلي بالأنباء المتعلقة بهذه الفترة الطويلة. إنه ملزَم بسبب

✪ ورد في تفسير "فتح القدير" للشوكاني: بالأفق المبين، أي: بمطلع الشمس من قِبل المشرق، لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين، لأن من جهته تُرَى الأشياء." (المترجم)

دعواه بإلقاء الضوء على أمور ستقع زمن بعثته ولكنكم تستبعدونها باعتبارها خلاف العقل. إن ذلك الزمن هو كالغيب لكم، ولكنه بمنـــزلة الظاهر المكشوف بالنسبة له، وهو بمثابة الأُفُق المبين لسمائه، فيراه عيانا، واعلموا أن الأخبار التي يتحدث عنها تتعلق بالمشرق. ويستفاد معنى المشرق من حيث إن الأُفُق يطلق على كل جهة بعيدة تترآى فيها السماء والأرض كأنهما تلتقيان، ولكن ليس كل أفق مبينًا أي أفقًا يكشف الأشياء ويُظهرها، إنما الأفق المبين جهةُ المشرق التي تطلع منها الشمس وتبدّد الظلمة. فعبارة (الأفق المبين) ليست إشارة إلى الزمن البعيد فحسب، بل تخبر أيضًا أن ظهور هذه الأنباء سيكون من قبل الشرق.

ثم يقول الله تعالى للكافرين: لا شك أن الأخبار التي يدلي بها رسولنا أمامكم تبدو غريبة لكم، ومع ذلك لا يحق لكم أن تتهموه بالجنون، لأنه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أنه ليس ببخيل عن الغيب، بمعنى أنه لم يخبركم بخبر واحد عن الغيب حتى تتهموه بالجنون، بل قد أدلى أمامكم بكثير من الأنباء الهامة، وقد تحقق العديد منها. لو أن محمدًا اكتفى بقوله آمنوا بي لأن هذا الأمر سيقع بعد ثلاثة عشر قرنًا، لَحُقَّ لكم أن تتهموه بالجنون، ولكنكم لا تستطيعون ذلك الآن، لأنه ليس بخيلا بأنباء الغيب. إنه ليس أول نبأ أخبركم به، بل قد أدلى بكثير من أنباء الغيب التي قد تحققت، فيمكن أن تعرفوا قياسًا عليها أن هذه النبوءة أيضًا ستتحقق في يوم من الأيام، ولا يحق لكم اتهامه بالجنون.

إننا، نحن المسلمين الأحمديين، حين نجادل المدعين الكاذبين الذين خرجوا في هذا العصر ونقول لهم: ما هي أنباؤكم التي تحققت إلى الآن، يقولون: ألا تؤمنون بنبوءة مؤسس جماعتكم بأن جماعته ستصبح غالبة بعد ثلاثة قرون؟ فما دمتم تؤمنون بنبوءة ستتحقق بعد ثلاثة قرون، فلماذا لا تصدّقون ما نتنبأ به؟ فنرد على هؤلاء: لو كانت هذه النبوءة الوحيدة لمؤسس الجماعة فلا شك أنه ليس في ذلك أي دليل قطعي على صدقه، ولكن الدليل على صدقه عليه السلام أنه قد تنبأ بكثير من النبوءات الأخرى التي قد تحققت، وقياسًا عليها يمكن القول إن نبوءاته عن غلبة جماعته أيضًا ستتحقق يوما ما، أما أنتم فلم تتحقق من أنبائكم أي نبوءة، وأن كل أنبائكم تتعلق بالمستقبل ولم

تتحقق. وبالفعل فكل واحد ممن ادعى النبوة من هؤلاء يركز على شيء واحد، وهو قوله إذا آمنتَ بما أقول سوف ترى أن الإسلام يزدهر. ولكن هذا المدعي لا يفكر أنه لا يمكنك أن تؤمن بقوله بدون أن يأتي بدليل على صدقه. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أن من أكبر القواعد لمعرفة المدعي الصادق أن بعض أنبائه تتعلق بالزمن القريب، وبعضها تتعلق بالزمن البعيد. فمثلا: قد تنبأ المسيح الموعود عليه السلام أن عصا روسيا ستوضع في يده، أو أن جماعته ستصبح غالبة في العالم كله خلال ثلاثة قرون (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٦٧). وعندما يقرأ العدو هذه الأنباء يعتبرها مجرد ترهات، كيف يمكن لأحد أن يصدق هذا؟ وقد ردّ الله على أمثال هؤلاء بهذه الآية فقال إن محمدًا ليس بخيلا بشأن الغيب. إنه لم يُدْلِ بنبوءة أو اثنتين تتعلقان بعصور بعيدة، بل لقد أدلى بكثير من الأخبار الغيبية الأخرى التي قد تحققت فعلاً، فلم لا تعترفون -بعد أن رأيتم تحققها بأم أعينكم- بأن أنباءه الأخرى ستتحقق كما تحققت الأولى. أتذكر جيدًا أنه كلما جاء المسيحَ الموعود عليه السلام شخص مطالبًا بآية قال له: ماذا انتفعتَ من الآيات السابقة التي قد تحققت حتى أُريك آية أخرى؟ (الملفوظات المجلد الخامس ص ٦٤٣-٦٤٤). وهذا هو الأمر الذي ينبه إليه الله تعالى بقوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أنكم تستبعدون تحقُّقَ نبوءة ظهور مأمور رباني مِن قِبل الشرق البعيد وازدهار الإسلام على يده، ولكن لو كانت النبوءة هذه ضربًا من الجنون كما زعمتم، فكان الواجب ألا يكون هناك أي دليل آخر على صدقه. وحيث إن هناك أنباء كثيرة أخرى له قد تحققت، فلا بد لكم من الاعتراف أنه ليس بمجنون. ثم إن أخلاقه الحميدة ووقائع حياته السابقة أيضًا دليل آخر على أنه ليس بمجنون.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

رجيم: رجَمه: رماه بالحجارة؛ قتَله؛ قذَفه؛ لعَنه؛ شتَمه؛ هجَره؛ طرَده. (الأقرب)

التفسير: لقد قدّم الله هنا دليلاً قويًّا لطيفًا يميز الصادق من الكاذب من المدّعين. ولكن هذا الدليل دقيق لا يُفهَم إلا إذا قدَّمه شخص خبير بالنقاش بطريق سليم. فمن معاني الرجيم المطرود، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يعني أن القرآن ليس قول الشيطان المطرود.. أي كانت هناك تهمتان يمكن أن يوجههما الكافرون إلى النبي ﷺ: التهمة الأولى أنه مجنون والعياذ بالله، فجاء الرد عليها في الآيات السابقة، وكانت التهمة الثانية أنه شرير وعلى صلة بالشيطان- والعياذ بالله- فردّ الله عليها بقوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، إذ متى تيسّرَ علم الغيب للشيطان؟ وكيف يقال عمن تحققت نبوءاته أنه على صلة بالشيطان؟ بل الشيطان مطرود من الحضرة الإلهية. وقد بيّن الله هذا الموضوع في مكان آخر من القرآن إذ قال ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(الصافات:٧-١١). والمراد من قوله ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ أن الشياطين لا يقدرون على سماع كلام المقربين عند الله تعالى فأنى لهم أن يسمعوا وحي الله تعالى. وأما قوله تعالى ﴿إلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ فيعني أنه لو خطف أحدهم شيئًا من كلام المقربين عند الله تعالى فيدمَّر. لقد صرح الله هنا أن الشياطين لا يعطوْن علم الغيب. ولو أن المدعين الكاذبين نسبوا إلى أنفسهم شيئا من معرفة الغيب لعاقبهم الله ودمرهم. وحيث إن محمدا رسول الله ليس ببخيل بأنباء الغيب.. أي أنه يخبر عن الأمور الغيبية بكثرة، فكيف يكون على صلة مع الشيطان؟ كلا، بل هذا دليل على أنه مبعوث من عند الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ فقد ذكر الله فيه دليلا ثالثًا على صدق نبيه ﷺ. لقد قلتُ من قبل أن الرجيم يعني المطرود، وقد نبه الله الكافرين هنا أن هذا المدعي في ازدهار مطّرد، مع أن مَن كان على صلة مع الشيطان يظل مطرودًا ومهانًا، ولا يكتب له التقدم والازدهار، فكيف يكون محمد كاذبًا؟

وأرى لزامًا أن أذكر هنا أن بعض الناس لا يفهمون هذا الدليل فهمًا سليمًا، فينخدعون ويصعب عليهم التمييز بين مدعٍ صادق وكاذب؛ ذلك أن الناس عادةً ينضمون - ولو بعدد قليل - إلى كل مدّعٍ وإن كان كاذبًا، فيعتبرهم المدعي دليلا على صدقه قائلا: انظروا، لقد كنت وحيدا، وقد صارت لي الآن هذه الجماعة. فمثلاً يقول المدعي "ميان عبد الله التيمابوري": كنت وحيدا، ولكن قد صار عدد أتباعي كذا الآن. ويقول المدعي ميان غلام محمد إن عدد أتباعي قد بلغ كذا وكذا، وهذا دليل على صدقي، ولو كنتُ كاذبًا لما كتب الله لي هذا النجاح. وقد رأيتُ أن أفراد جماعتنا أيضًا يصابون بالقلق أحيانًا عند سماع هذا الكلام. والحق أن هذا الدليل دقيق جدًّا، والاستدلال به خطير كخطورة المرور بالسفينة من بين الصخور، إذ قد ينخدع منه أحد فيدمر إيمانه.

والرد على هذه الشبهة هو أن هذا الدليل لا يكتمل من دون توافر شروط ثلاثة؛ ومن دون توفرها لا يصحّ تقديم هذا الدليل من قبل أي مدعٍ على صدقه. وأول هذه الشروط أن يكون أفراد جماعته على مستوى عال من الطهارة والصلاح، لأن انضمام حفنة من الناس إلى المدعي وتصديقهم لدعواه لا يقوم دليلا على صدقه، بل لا بد لإثبات صدقه من أن يصل أتباعه إلى مستوى عالٍ من الورع والطهارة والصلاح، ليكون هذا دليلاً على أن المؤمنين به قد صاروا على صلة مع الله تعالى. إذ من الممكن أن يصدق الناس أن المرء كان حسن النية وأراد الترقي في الخير، ولكن عقله فسد، فادعى بهذه الدعوى، ولكن كيف يمكن أن يحدث في حياة كل من ينضم إلى هذا الكذاب تغيّرٌ طيب ويسري على قلبه الصلاح والورع؟ فمن أدلة صدق المدعي الصادق أن يرتفع مستوى أتباعه في الصلاح والتقوى وخشية الله والتضحية والإيثار لبني نوع الإنسان، بحيث إن كل من يراهم يقول تلقائيا إذا كان هذا هو مستوى صلاحهم، فما بالك بصلاح مُطاعهم. وأما إذا لم تتوفر هذه العلامة في جماعة فليس هناك دليل يقيني على أنهم ليسوا على صلة مع الشيطان الرجيم.

والمعنى الآخر للشيطان الرجيم هو الشيطان المرجوم أي المطرود الذليل المهان في أعين الناس. وعلامة النبي الصادق أن جماعته تكون معززة بالقوة، أي أن أفرادها

يكونون مزودين بكفاءات التقدم والرقي، بحيث إن كل من يراهم يوقن بأن هؤلاء القوم سيغلبون العالم حتمًا في يوم من الأيام. وذلك كما قال الكافرون لصالح عليه السلام ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(هود:٦٣).. أي يا صالح كنا نعقد عليك آمالا كبيرة، وكنا نرى أنك ستأخذ القوم إلى أوج الرقي والازدهار. لا شك أن هذه الآمال تُعقد على مثل هؤلاء الرجال قبل بعثتهم، ولكن حين تقف معهم جماعة من المؤمنين بعد دعواهم فتشحن عقولهم بنضارة وقلوبهم بهمة بحيث لا يبالون بعدها بأية عوائق. ولكن ليس المراد من علوّ الهمة أحلام اليقظة، كما هو مشهور عن أحد المدعين الذي ادعى أنه سيُعطَى المُلك، فقال له أحد مريديه: ماذا أنال من هذا الملك؟ قال له: لك مُلْكُ البنجاب! بل المراد من علو الهمة أن المدعين الصادقين يتبعون خططًا تجعل العالم يوقن بأن هؤلاء يتخذون بالفعل أسبابا لفتح العالم، ويقومون بمساعٍ معقولة للغلبة على العالم. إذن، فثاني علامات المدعين الصادقين أن جماعتهم تتحلى بالإقدام لا بالرجم، وأعني بالرجم الفرار، لأن من يُرجم يهرب ويفرّ، ولكن جماعة المدعي الصادق لا تفرّ من الميدان، بل يبدو أنها ستبتلع العدو.

والمفهوم الثالث الكامن في كلمة الرجيم هو أن من يُرجَم يختفي هنا وهناك ولا يتصدى لعدوه، ومن أجل ذلك أمر الله المؤمنين بالاستعاذة والدعاء دائمًا حتى ينجيهم من وساوس الخناس، وهو ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، أي أنه يلقي الشبهات في قلوب الناس ثم يختفي؛ ومن أجل ذلك قد ذكر الله تعالى الخُنّسَ في هذه السورة. أما جماعة الأنبياء فلا خفاءَ ولا تستّرَ عندهم، بل إنهم يبلغون الناسَ أحكام الله بكل جلاء ووضوح، ويقولون: هل عندكم من اعتراض على هذه التعاليم؟ ولكن أتباع المدعين الكاذبين يفتقرون إلى هذه الشجاعة، ويحاولون دائما ألا يطّلع الناس على تعاليمهم. خُذوا مثلا البهائيين، فإنهم يُخفون مذهبهم دائما، مع أن الشرطي يمشي بين الناس في زيّه الرسمي ولا يختفي، إنما اللص هو الذي يختفي هنا وهناك كي لا يراه أحد. فالذين يُبعَثون من عند الله تعالى لا يُخفون شيئا مما نزل عليهم، بل يعلنون بين الناس أن هذه هي عقائدنا

وهذا ما نؤمن به وهذه أحكام شريعتنا، وإذا كان لديكم أي اعتراض، فأتوا به. ولكن المدعين الكاذبين يخفون مذهبهم وتعاليمهم بطريق أو بآخر دوما. ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.. أي أن القرآن ليس من الشيطان الرجيم، وإلا لحاول محمد إخفاءه. لقد أمَرْناه صراحة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(الحجر:٩٥)، وقلنا له ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(المائدة:٦٨). وما دام محمد لا يخفي عنكم شيئا من وحيه، فكيف يكون وحيه من شيطان رجيم؟ يمكنكم أن تعترضوا على وحيه، وتقولوا عن تعاليمه ما شئتم، وسوف يُجاب على كل اعتراض، وسوف تُفنَّد كل مطاعنكم، حتى يتأكد لكم أن التعاليم الحقيقية إنما هي ما يقدمه محمد ﷺ. وحيث إن الوحي النازل عليه خالٍ مما يستحيل أن يعزى إلى الله تعالى، أو ما يضطر لإخفائه خوفًا من مطاعن الناس، فهذا في حدّ ذاته دليل أن وحيه ليس من قول شيطان رجيم.

الحق أن هذه العلامة هي من أكبر ما يميز بين مدعي النبوة الصادق والكاذب، لأن الكاذب يخفي عادة بعض تعاليمه حتما، أما الصادق فيقول ما يقول جهارا نهارا، ولا يبالي بأي اعتراض. كما أن الجماعات الشيطانية تفتقر إلى الشجاعة والإقدام، ولا تكون عندها من الخطط العَملية ما يرجى به التقدم والازدهار. لا شك أن الله تعالى يهيئ الأسباب غير العادية لازدهار جماعته، ولكن التدابير التي تتخذها هذه الجماعة لها دخل كبير في ازدهارها. إن الله تعالى لا يجعل أتباع نبيه غالبين على العالم بقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، بل يجعلهم يتخذون أنواع التدابير المادية أيضًا. وكأن التقدير والتدبير كليهما يعملان باستمرار، كما بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(آل عمران:٥٥).. أي أن الكافرين اتخذوا التدابير، والله تعالى اتخذ التدابير أيضا، وفي الأخير غلبت التدابير الإلهية على تدابيرهم. وقد تبين من ذلك أن للتدابير المادية دخلاً في نجاح الجماعات الإلهية. لا شك أن زمام التدبير والتقدير كليهما في يد الله تعالى، وأن مشيئته هي التي تُنفَّذ في العالم، إلا أن مِن أهم واجب الجماعات الإلهية أن تتخذ التدابير لرقيها، وتخطّط لتقدمها المتواصل.

انظروا إلى جماعتنا مثلاً، فإن الله تعالى قد جعل في كل فرد منها قوة الإقدام بحيث يتراءى للجميع أن هذه الجماعة ستبتلع العالم كله في نهاية المطاف. فمرةً كتب محرر جريدة (زميندار) التي تعادي جماعتنا عداء شديدا، فقال: إني مصاب بالذهول برؤية أن الذين لا يأبهون لفلسفة "كانْت" و"هيجل" هم الآخرون ينضمون لجماعة ميرزا غلام أحمد القادياني. (جريدة زميندار، عدد التاسع من اكتوبر ١٩٣٢). والحق أن اعترافه هذا بمنـــزلة إعلان منه أنه يشعر أن هذه الجماعة سوف تتغلب على العالم حتمًا.

ثم إن تعاليم المدعي الصادق لا يكون فيها سرّية ولا خفاء، بل إنه يعرضها على الناس علنًا ويتحدى العالم كله قائلا: إن كان لديكم اعتراض فأتوا به ولسوف أرد عليه. ولكن متى كانت هذه الشجاعة في شيطان رجيم، إنما يسعى أن يختفي عن أعين الناس ويظل مستورا عنهم كالخنّاس.

كما أن جماعة المدعي الصادق تحرز مستوى رفيعا في الصلاح والتقوى، وأنّى لأتباع المدعي الكاذب أن يحرزوا هذا المقام؟

باختصار، إن الشيطان جبان، ولكن المؤمنين يتحلون بالإقدام. الشيطان يدعو إلى الشر والسوء، ولكن المؤمنين يزدادون صلاحا وخيرا. الشيطان لا مبادئ له ولا قواعد، ولكن المؤمنين أمامهم خطة عمل محددة تضمن لهم النجاح. الشيطان يتكلم مختفيا متسترًا، ولكن المؤمنين يتكلمون علنًا. فكيف تقولون أيها الكفار أن الوحي الذي يقدمه محمد رسول الله هو من قول شيطان رجيم؟

إن القرآن يستخدم كلمات وجيزة أحيانًا، ولكنها تنطوي على معانٍ واسعة، وهذه الآية مثال على ذلك، حيث بين الله تعالى في قوله ﴿شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ موضوعا واسعا جدا، وأشار به إلى كل تلك الآيات التي تتحدث عن الشيطان الرجيم، وبالتالي دعا الكافرين إلى دراسة كل العادات والخصال الشيطانية المذكورة في القرآن وإلى التفكير في كل واحدة، لأن هذا سيكشف عليهم أن هذا الكلام ليس من شيطان رجيم.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ذِكْرٌ: الذكر: التلفظُ بالشيء؛ وإحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ؛ الشرفُ؛ الكتابُ فيه تفصيل الدين ووضعُ المِلل. والذِكر من القول: الصَلْبُ المتينُ. (الأقرب)

التفسير: يقول الله هنا للكافرين: هل بقي أمامكم مفرّ الآن؟ فلو قلتم إن في شخص هذا الرسول عيبًا، فقد أجبنا عليه بقولنا ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.. أي أنه زميلكم الذي يعيش بينكم ليل نهار، ويجالسكم كل وقت، وأنتم شاهدون على أنه لم يكن به مسٌّ من الجنون. ولو قلتم إن الكلام الذي يقدمه لكم ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان، فقد أجبنا عليه أيضا مفصلاً، فأين تهربون الآن؟ فليس أمامكم الآن إلا أن تنضموا إلى محمد وتدخلوا في بيعته. ولو فعلتم ذلك دخلتم الجنة، أما إذا كفرتم دخلتم النار.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.. أي أما اعتراضكم على إدلائه بأنباء تتعلق بالمستقبل البعيد، فجوابه أن القرآن ليس لأهل مكة فقط، بل هو أيضًا للذين يأتون بعد ثلاثة عشر قرنًا، وأيضًا الذين سيأتون إلى يوم القيامة. فمثلكم يا أهل مكة، كمثل ضفدع يعيش في البئر فقط، فأنّى لكم أن تعرفوا أن القرآن ليس لكم فقط، ولا للعرب وحدهم، بل للعالم كله، بل للناس أجمعين إلى يوم القيامة، فلذلك لا بد لمحمد رسول الله أن يتحدث عن الأمور المتعلقة بالمستقبل البعيد؟ فسخريتكم بهذه الأنباء دليل على قصور نظركم، إذ لا تدرون أننا جعلنا القرآن هدًى للعالمين كلهم، فلا بد أن يتضمن الأنباء عن الأحداث التي تقع في المستقبل.

لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٩﴾

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا الكافرين أن من محاسن القرآن أنه لم ينـــزل هديًا للعصور كلها فحسب، بل إن أحكامه تراعي كل فطرة؛ وشريعته تلبي حاجة كل طبيعة، فصاحب أي فطرة وطبيعة إذا أراد أن يسلك سبيل التقرب إلى الله سيجد فيه هداه بسهولة، وسيجد فيه أسبابا لذلك حسب ضرورته. القرآن يحتوي أحكاما تناسب الجميع منكم، سواء الثري والفقير، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، والسيد والعامل، والحاكم والمحكوم، وليس هناك مجال من مجالات الحياة إلا وفيه تعاليم متكاملة، ولا يشقّ العمل بأحكامه على أي فطرة، بل إنه راعى كل أنواع الفطرة والطبائع في كل العصور، لذلك نعلن أن بوسع أيّ من أفراد الجنس البشري أن ينتفع بالقرآن إذا أراد. علمًا أن كلمة ﴿مِنْكُم﴾ ليست موجهة إلى أهل مكة فحسب، بل تخاطب أهل الأرض كلها، وأن كلمة ﴿لِمَنْ شاءَ﴾ تعني لمن شاء من سكان المعمورة، ولذلك فالمراد أن كل إنسان من أي عصر ومن أي طبيعة وفطرة سيجد في القرآن أسباب هداه. يا أهل مكة، لا شك أن في القرآن أمورًا لا تتناسب مع فطرتكم أو عصركم فتروها ضربًا من الجنون، ولكن لا نستطيع أن نضرب عن ذِكرها صفحًا، لأن القرآن ليس لكم فقط، بل هو لكل العصور.

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

التفسير: كنت أظن من قبل أن الواو في قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ حاليّة، وكنت أفسر هذه الآية مقرونة بالآية السابقة كالآتي: مَن شاء منكم أن يسير على الصراط المستقيم حال كونه تابعًا لمشيئة الله فسوف ينال الهدى. ولكن قد انكشف عليَّ الآن مفهوم آخر لهذه الآية، وأنا أفضّله على المعنى السابق بالنظر إلى ترتيب موضوع هذه الآيات.

وهناك أمر آخر جدير بالتذكر هنا وهو أن الله تعالى قد قال من قبل ﴿إِنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، بينما قال هنا ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾،

وهذا هو الأمر الذي لفت نظري إلى المفهوم الثاني لهذه الآية، وتبين لي أنها تشير إلى مفهوم أوسع مما كنت أرى من قبل، وإليك بيانه:

يأتي على الناس عصران: عصرٌ يكون فيه الهدي متيسرا، سواء توجه إليه الناس وانتفعوا به أم لا؛ وعصر آخر ينمحي فيه الهدي كليةً، ويأتي الانحطاط على الأمة بأسرها من حيث دينها، وفي هذه الحالة من المحال أن يرغب الناس في سلوك الصراط المستقيم، لأن القلوب ترغب في شيء برؤية نموذج، حيث يرى المرء غيره متحليًّا بميزة فيرغب في التحلي بها أيضا، أو يرى غيره مواظبًا على الصلاة فيسعى أن يواظب عليها مثله، أو يرى صاحبه يصوم بالتزام فيرى أن من واجبه أيضًا أن يصوم مثله. فالرغبة في فعل الخيرات لا تتولد إلا إذا كان أمام الإنسان أسوة ونموذج، ولذلك قال الله تعالى ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة: ١١٩).. أي إذا أردتم الترقي في الخيرات فعليكم بصحبة الصالحين. ولكن، كيف يرغب الناس في فعل الخيرات إذا لم يوجد نموذج ومثال في عصر يكون فيه الدين مصابًا بالضعف والاضمحلال في الأمة كلها؟ كلا، إنهم لن يرغبوا فيها في مثل ذلك العصر، إلا إذا ظهرت مشيئة الله أولاً، أي أن يبعث من عنده أحدًا لإصلاح الناس وينـــزل عليه الهدى من السماء.

إذن، هناك عصران: عصر تكون أسباب الهدى مهيأة فيه من عند الله تعالى لمن أراد أن يرغب في الدين وينال الهدى، أما إذا قصر في ذلك فهذا ذنبه، وعصر آخر لا ينال الناس فيه الهدى إلا أن يهيئ الله لهم الهدى من جديد، أما بدون ذلك فلا يمكن أن تتولد في قلوبهم رغبة صادقة في اتباع الصراط المستقيم، ناهيك أن يسيروا عليه بالفعل. والعلاج الوحيد لأهل هذا العصر هو بعثة مأمور رباني بينهم، وإلا فمن المحال أن يتبع الناس سبيل الهدى.

كانت الآيات السابقة تنبئ عن زمن يُبعث فيه مأمور من عند الله، كما أن الزمن الذي أُدليَ فيه بهذه النبوءة هو الآخر كان زمن المأمور الرباني ﷺ، بتعبير آخر، تنبئ هذه السورة في بدايتها عن قوم كان سيُبعَث فيهم مأمور من عند الله، بينما تتحدث هذه السورة في أواخر آياتها عن قوم كان المأمور الرباني ﷺ موجودا فيهم،

ولذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.. والمعنى أيها المعترضون على محمد رسول الله، تزعمون أنكم لا حاجة بكم إلى الإيمان به، أو المعنى أيها الذين أُخبرتم عن بعثة مأمور رباني في "الأفق المبين"، تزعمون أنكم لستم بحاجة إلى مأمور من الله، لأنكم ستتبعون سبل قرب الله تعالى بأنفسكم، اعلموا أن الهدى قد انمحى واندثر في عصركم كلية. فلستم كقوم يكونون في زمن نبيّ ويكون الهدى ميسرًا لهم، وبوسعهم أن يتبعوه متى شاءوا. تدّعون أنكم ستحرزون الرقيّ بقوتكم بدون اتباع أي مأمور رباني، فاعلموا أنه خيال فاسد باطل تماما. عندما يأتي من عند الله ذكرٌ للعالمين فمن المستحيل أن يزدهر القوم من دون الإيمان به. فإذا كان فرد أو أمة تظن هكذا فإنما هو جهل منها. كلا، بل الحق أنه عندما ينمحي الإيمان من القلوب كلية، فلا ترغب قلوب الناس في الهداية، دعك أن ينالوا الهدى فعلا، إلا إذا أنــــزل الله الهدى من عنده. فاعلموا أن ازدهاركم محال الآن بدون الإيمان بمحمد رسول الله.

في هذا العصر أيضًا نرى مشايخ كبارًا بين المسلمين يقولون: أي حاجة للمسلمين لأي مسيح أو مهدي؟ إن العلماء يقومون بواجب الهدى، وهذا يكفي. والحق أن زعمهم هذا باطل كل البطلان، إذ يقول الله تعالى إن مشيئة رب العالمين هي التي تثور أولاً لينــــزل كلامه إلى الدنيا، وبعدها سيتولد في قلوب الناس الرغبة الصادقة في قرب الله تعالى. أما بدون ذلك فلن تتولد هذه الرغبة أبدا.

باختصار، لقد بين الله تعالى هنا مبدأً هامًا بأنه إذا انمحى الهدى من الدنيا في عصر، وانتشر الضلال في كل الجهات، واختفى نور الله عن أعين الناس، فمن المحال أن يحرز أهل ذلك العصر الرقيَّ إلا من خلال الآيات السماوية وببعثة مأمور من عند الله تعالى. وهذا يعني أن مشيئة الله تظهر أولاً من السماء، وبعدها يرغب الناس في الخير، ولذلك قد جاء قوله تعالى ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ مقرونًا بقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ليبين أنه سيأتي على الناس زمان لن تتولد فيه رغبة صادقة للخير في قلوبهم إلا إذا أنزل رب العالمين ذكرًا للعالمين. أما بدون ذلك فلا. ومن غفل عن هذه الحكمة حُرم الهدى.

سورة الانفطار

مكية، وهي عشرون آية مع البسملة

سورة الانفطار تسلسلٌ لموضوع سورة التكوير، وقد فُصِلت عنها لكونها حلقةً مستقلة من حلقات سلسلتها. موضوعهما واحد، ولكن هذه السورة تبرز الجانبَ الآخر من الموضوع.. حيث بين الله تعالى فيها أمورًا تخصّ المسيحيين.

أما فيما يتعلق بالحِكَم الكامنة في بيان هذا الموضوع الواحد في جزْءين أو سورتين، فالحكمة الأولى أن بعض أجزاء الموضوع تكون ذات أهمية قصوى، فتُذكر منفصلةً من أجل التركيز عليها. والحكمة الثانية هي أن هذا الأسلوب هو إحدى ميزات القرآن، ورغم أنه أمر بسيط في الظاهر إلا أنه ينفع المؤمنين بالقرآن الكريم كثيرا، وبيانه كالآتي:

هناك وعد رباني بحفظ القرآن الذي هو آخر الكتب السماوية، وكان ترسيخ مضامينه في قلوب المؤمنين من أهم الحاجات. إذا كان أتباع الصحف السابقة قد نسوها فلا بأس في ذلك؛ إذ كان من المقدَّر أن تأخذ مكانها صحف أخرى، ولكن لو نسي القرآنَ أتباعُه، وهو آخر الشرائع، لهلكت الدنيا ووقع الناس في ضلال أبدي. فاتخذ الله لذلك تدبيرًا يبدو بسيطا ولكنه هام جدًّا من حيث النتائج بحيث يصعُب تقدير قيمته ومدى نفعه. فأنزل القرآنَ الكريم مجزَّأً، وجعل بعض أجزائه صغيرا وبعضها كبيرا، فيستطيع الطفل الصغير حفظ بعض أجزائه، كما يستطيع الكبير أن يحفظ قسطا أكبر منه، ويمكن أن يحفظ بعضَ أجزائه أضعفُ الناس ذاكرةً، ويحفظ أصحاب الذاكرة الأقوى أجزاءً أكبر منه. فسورتا الإخلاص والكوثر مثلاً صغيرتان جدا بحيث تُكتبان في سطر واحد بخط صغير، ويستطيع حِفْظَهما عن ظهر قلبٍ طفلٌ بسيط الذاكرة في الرابعة من عمره. أما سورة البقرة

فهي تساوي جزءين ونصف الجزء من الثلاثين جزءًا من القرآن. ثم هناك سور متفاوتة الطول ما بين خمس آيات وعشر آيات حتى ٣٠ و٦٠ و١٠٠ آية، وكل إنسان -أيًا كان مستوى ذاكرته- يستطيع حفظ سورة من سوره، أما قوي الذاكرة فيستطيع حفظ القرآن كله. وهذا ما يحدث فعلا، والمسلمون المتعلمون يحفظون سورًا من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم على قدر وسعهم، وهكذا تجد مئات الآلاف من الحفاظ لشتى أجزاء القرآن الكريم.

هذا الأمر يبدو بسيطا في الظاهر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كان هذا التدبير من قِبل بشرٍ فلماذا لم يخطر ببال أحد قبل محمد ﷺ منذ أن خُلقت الدنيا أيًا كان عمرها؛ ستة آلاف سنة أو مئة ألف سنة أو مليون سنة؟ هناك احتمالان فحسب، فإما أن القرآن من كلام بشرٍ أو من كلام الله تعالى. لو قيل إنه كلام بشرٍ فنقول: هذه الميزة لا توجد في كلام أي بشر، ولم يخطر هذا التدبير في بال إنسان، حتى لم يخطر ببال أحد بعد نـــزول القرآن أيضًا. أما إذا قلنا إنه كلام الله تعالى فلا بد من الاعتراف أنه تعالى قد أراد لهذا الكتاب أن يُحفظ عن ظهر قلب، ولذلك اتخذ هذا التدبير. لو قيل هو كلام بشر، فيثبت فضل القرآن أيضًا، إذ أحدث هذا الإنسان ثورة باتخاذ تدبير بسيط في الظاهر، أما إذا اعتبرناه كلام الله تعالى فلا بد من الاعتراف أيضا أن الله تعالى أراد بذلك حفظه.

ولو قال أحد ما دام الإنسان يقدر على حفظ أي جزء من أي كتاب، فأي خصوصية للقرآن في نـــزوله مجزَّأً؟ فالجواب: لا شك أن المرء يمكن أن يحفظ أي جزء من أي كتاب، ولكن هل بوسع كل إنسان أن يقرر أن يكون ذلك الجزء متكاملا في موضوعه؟ كلا، بل إن مؤلف الكتاب أو مُنـــزِّله هو الذي يمكن أن يخبر أيًّا من أجزائه متكاملا في موضوعه؟ علمًا أن كل سورة قرآنية ليست اسمًا لبضع آيات فحسب، بل إنها موضوع متكامل في حد ذاتها. لو حفظ أحد ثلاث آيات من سورة البقرة، فما الفائدة من ذلك؟ إذ قد لا تكون متكاملة في مضمونها، ولا يتضح معناها إلا بربطها بسياقها. أما سورة الإخلاص مثلا، فهي تحتوي على موضوع متكامل مع أنها لا تتجاوز سطرين. كذلك الحال لسورة الكوثر وسورة

المَسَد وغيرهما، فهي كلها متكاملة في موضوعها. ولكن لو جُمع من السور الأخرى ما يساوي إحدى هذه السور القصار فليس ضروريا أن يكون هذا الجزء المجموع متكاملا في موضوعه، أما إذا قام منزِّل الكتابِ بنفسه بتجزئة كتابه سهّل الأمر كثيرا على القراء. فثبت أن حفظ بضع آيات من القرآن الكريم لا يكون نافعًا بقدر ما تنفع أجزاؤه الحالية، ولن يؤثر في القلوب كما يؤثر بصورته الموجودة؛ ولأجل ذلك إذا سألتَ عددا من المسيحيين عما يحفظونه من مقاطع الإنجيل عن ظهر قلب، لوجدت أنهم لا يحفظون منه إلا بضعة مقاطع شهيرة، ولن تجدهم حتى بمجموعهم يحفظون الإنجيل كله. أما لو سألت المسلمين عما يحفظونه من القرآن لوجدتَ أن غير الحفاظ منهم أيضا يحفظون القرآن كله بأجزاء مختلفة؛ فبعضهم يحفظ سورة البقرة، وبعضهم سورة آل عمران، وبعضهم سورة النساء، وبعضهم عديدًا من سوره الأخيرة. إذًا فتقسيم القرآن الكريم إلى أجزاء متفاوتة الطول والقصر قد ساعد في حفظه، وهذا كان مستحيلا لو كُتب مرة واحدة. وبسبب هذه الحكمة فقد جُعل القرآن مقسَّمًا مجزَّأً.

باختصار، فرغم أن موضوع هذه السورة تسلسلٌ لموضوع السورة السابقة، إلا أنها فُصلت عنها لتنبّه إلى مضامين جديدة أخرى. هي حلقة من السلسلة السابقة، ولكنها تختلف عنها في نواح أخرى. وكما قلت فإن من خصوصيات القرآن أنه كلما تنوّع الموضوع فيه بيّنَه في سورة منفصلة، لكيلا تشقّ قراءته وحفظه على الضعفاء.



إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

انفطرتْ: انفطر الشيءُ: انشقّ. (الأقرب)

التفسير: يشير قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ إلى ذلك الانقلاب الذي كان سيحصل في الزمن الأخير، والذي هو خاص بالمسيحية، أعني أن هذه السورة تشير إلى غلبة المسيحية. قال الله تعالى في سورة مريم ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾(الآيات: ٩١-٩٢).

لم تكن المسيحية عند نزول القرآن الكريم غالبة إلا على مناطق قليلة، ولم يكن أهلها يبشِّرون تبشيرا عاما، ومع ذلك وصف الله شركهم بأنه تكاد السماوات يتفطرن منه؛ أما وقد تفاقم شركهم اليوم عشرة أضعاف بل مئة ضعف فيصح القول بحسب محاورة القرآن الكريم: قد انفطرت السماء فعلاً بشركهم. لما نزل القرآن لم تكن هناك دولة مسيحية إلا الدولة الرومانية، ولكنها لم تكن تحكم العالم كله، وإنما كانت تحكم تركيا ومصر والحبشة واليونان، أي أنها كانت تحكم جزءًا من آسيا الوسطى؛ أما اليوم، فالمسيحية غالبة على العالم كله، كما اتخذ المسيحيون للتبشير من التدابير ما لم يتخذوه في الماضي قط. لقد نشروا ملايين الملايين من نسخ الإنجيل في العالم، وينفقون الملايين لإنجاح مراكزهم التبشيرية، ويفتحون المدارس ليجعلوا النَشْءَ صيدا للمسيحية، وينشئون الكليات لتسميم قلوب الشباب باسم المسيحية، ويؤسسون مستشفيات للمجذومين وغيرهم من المرضى، وليس هدفهم وراءها إلا أن يجعلوا الناس يتركون عبادة الإله الواحد، ويؤمنون بآلهة ثلاثة.

فما دام الله تعالى قد وصف غلبة المسيحية المحدودة بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، فحري بنا أن نقول الآن وقد انتشر شركهم في العالم كله، وبلغت غلبة المسيحية ذروتها: إن السماء التي كانت على وشك الانشقاق من قبل قد انفطرت الآن فعلاً من شدة شركهم. إذا زدتَ الضغط على الشيء المضغوط إلى أقصى مداه سلفًا انفجرَ ولم يعدْ سالمًا، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾. وكأنه تعالى يقول: قد قرُب الزمان الذي كنا نقول عنه أن السماء والأرض على وشك الانشقاق من سوء العقيدة الوثنية المسيحية، ولو ازداد شركهم قليلا فينفطران فعلاً، إذ سينصبّ

تركيزهم على ادعائهم أن الله تعالى قد اتخذ ولدا، فتنفطر السماء بسبب بلوغ ظلمهم منتهاه.

إذًا، فالمراد من انفطار السماء غلبة المسيحية وانتشار شركها في العالم بكثرة. والحقيقة أن المسيحية قد أحرزت اليوم من الرقي والغلبة ما لم يوجد له مثيل حتى في زمن ازدهار الإسلام أيضا. الفرق الوحيد أن الإسلام قد حقَّق الازدهار بقفزة واحدة، أما المسيحية فحققته في عشرات القفزات، ثم إن رقي الإسلام كان مُعجزًا، أما رقي المسيحية فليس فيه أي إعجاز. ولكن فيما يتعلق بالمقاييس المادية فإن غلبتها قد فاقت غلبة الإسلام بلا شك. وسببه أن الإسلام يعلِّم أتباعَه العدل ولا يسمح لهم بالظلم، أما هؤلاء فلا يبالون بالعدل ولا يتورعون عن الظلم ولا يبالون بغصب حقوق الآخرين. لقد ظلّ هؤلاء ينتشرون في آخر أقطار الشرق والغرب، ويرسّخون عظمة المسيح ﵇ في القلوب بحيث ستجد بين المسيحيين كثيرًا ممن لا يؤمنون بالآلهة الثلاثة، ومع ذلك لم يزُلْ تعظيم المسيح من قلوبهم. مرةً جاء لمقابلتي طبيب ملحد خلال زيارتي لإنجلترا، فرأيته أثناء الحديث يشن الهجوم على النبي ﷺ بين حين وآخر، فقلت له هذا الأسلوب ليس صحيحا، ويجب ألا تهاجم رسول الله ﷺ، ولكنه ظل كالآرية الهندوس يوجه هجوما تلو هجوم على رسول الله ﷺ. فلما رأيت أنه يستغلّ حلمي بهذا الشكل المشين، ولا يتورع عن مهاجمة النبي ﷺ، بدأت أكشف له حقيقة يسوعهم، ولم أتكلم كثيرا حتى احمرّ وجهه وقال لي: لماذا تذكر المسيحَ في حديثك؟ قلتُ إني أعلم أنك ملحد، ومع ذلك لم تزُلْ المسيحية من قلبك، لذلك سأتطرق إلى الحديث عن المسيح حتما. فقال: ولكني لن أتحمل أي شيء ضد المسيح. قلت: وأنا لا أستطيع سماع أي قول ضد الرسول ﷺ، وإذا استمررتَ في الهجوم عليه ﷺ، فلا بد أن تسمع مني عن المسيح ما لا يُعجبِك. فغضِب وترك الكلام وخرج.

لقد رأيت أن بعض الناس يفرحون بأن أوروبا قد انتشر فيها الإلحاد، وهذا دليل على أن أهلها قد تبرءوا من المسيحية، والواقع أن عظمة المسيح ﵇ لم تزُلْ من قلوبهم رغم إلحادهم. وقد أدرك المسيح الموعود ﵇ نقطةَ ضعفهم هذه، ومن

المؤسف أن المسلمين أصدروا فتاوى التكفير ضده للسبب نفسه. لقد أعلن عليه السلام أنه ما لم يتمّ دفن المسيح فلن تموت المسيحية (إزالة أوهام، الخزائن الروحانية ج ٣ ص ٤٠٢، والملفوظات ج ١٠ ص ٤٥٨ الحاشية). إنهم يعبدون المسيح فقط، ولا يبالون بالعقائد الأخرى، ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي حين تحلّ البلية الكبرى ويحصل الظلم الذي ليس فوقه ظلم.

كما قد يكون المراد من انفطار السماء تقطُّع قلوب أهل السماء برؤية هذا الظلم، والمراد أن الله تعالى يكره هذا الأمر، كما أن ملائكته سوف يتأذون منه، وقلوب الأنبياء ستتألم برؤية هذا الظلم. لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا أنه رأى المسيح في الحالة الكشفية يتألم ويضطرب بسبب هذا الظلم الذي يُرتكب باسمه على الأرض. (نور الحق، الخزائن الروحانية ج ٨ ص ٥٦)

باختصار، إن هذه الآية تنبئ أن المسيحية ستصبح غالبة، وأن السماء ستهيج برؤية هذا الظلم على الأرض الذي لم يسبق له مثيل، وهذه هي الآفة التي لا نظير لها.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يذكر بهذا الصدد لطيفة ذوقية لأحد الصلحاء بأنه قال إن الشدّ والمدّ في قوله تعالى ﴿وَلاَ الضَّآلِّينَ﴾ يشيران إلى أن الفتنة المسيحية ستكون شديدة وطويلة.

وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الكواكب: جمعُ الكوكب، وكوكَبَ الحديدُ: بَرِقَ وتوقَّد. والكوكبُ: النجمُ؛ نقطةٌ بيضاء تحدُث في العين؛ ما طال من النبات؛ سيدُ القوم وفارسهم؛ شدةُ الحرّ؛ السيفُ؛ الماءُ؛ المحبسُ؛ المسمارُ؛ الخِطّةُ يخالف لونُها لونَ أرضها؛ الطَّلْقُ من الأودية؛ الرجلُ بسلاحه؛ الجبلُ؛ الغلامُ المراهق؛ الفُطْرُ؛ معظمُ الشيءِ؛ نَوْرُ الروضة؛ بريقُ الحديد وتوقُّدُه؛ والكوكبُ من البئر: عينُه الذي ينبع الماء منه؛ قطراتٌ من الجليد

تقع بالليل على الحشيش فتصير مثل الكواكب. ويقال: ذهبوا تحت كل كوكب: تفرقوا. يومٌ ذو كواكب: ذو شدائد. (الأقرب).

انتثرتْ: نثَر الشيءَ: رماه متفرّقًا. وتناثرَ وتنثّرَ وانتثرَ الشيءُ: تساقطَ متفرقا. تقول العرب: تفرّقَ القوم وتنثّروا. (الأقرب)

التفسير: الجدير بالتذكر هنا أن الله تعالى قال في السورة السابقة ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، بينما قال هنا ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾، وذلك لأن هذين خبران مختلفان يشيران إلى فرق خاص، ولذلك جاءت في السورة السابقة كلمة ﴿النجوم﴾، وهنا كلمة ﴿الكواكب﴾، كما جاءت في الأولى كلمة ﴿انكدرت﴾ وهنا كلمة ﴿انتثرت﴾. لا شك أن الانكدار يعني الانتثار أيضًا، ولكن السؤال هنا: لماذا غيّر الله الكلمات هنا مع أن تغييرها لم يكن ضروريا في الظاهر، خاصةً وقد جاءت في القرآن بعض الآيات بكلمات واحدة في ثلاثة أو أربعة أماكن؟ فليس من أساليب القرآن تغيير الكلمات حتمًا عند إعادة الموضوع في موضع آخر، إذ نرى أنه في بعض الأحيان يعيد الكلمات نفسها في مكان آخر. إذًا فلا بد من حكمة في استبدال (انكدرت) بـــكلمة (انتثرت). لو كانت (انكدرت) في السورة السابقة بمعنى (انتثرت) لم يكن من المستبعد أن يستخدم الله تعالى (انتثرت) مكان (انكدرت) هنالك، وإذا كانت (انتثرت) هنا بمعنى (انكدرت) لكان من الممكن أن يقول تعالى هنا (انكدرت) بدلاً من (انتثرت)، لوجود أمثلة عديدة في القرآن لإعادة آيات بنفس كلماها. وعليه فاستبدال الكلمات هنا دليل على وجود فرق بين التعبيريْن من حيث المفهوم.

بعد هذه الكلمة التمهيدية أقول: إننا حين نرجع إلى القواميس لمعرفة معنى (النجم) يتضح لنا أن معناها الحقيقي هو أصل الشيء؛ فمن معاني النجم مثلاً النبات الذي لا ساق له؛ ومن المحتَّم أن النبات الذي لا ساق له لا يمكن أن يطول. وعلى النقيض نجد أن من معاني الكوكب ما طال من النبات، ومن معانيه أيضا سيد القوم وفارسهم، مما يعني أن في لفظ (الكوكب) مفهوم النبوغ والمهارة، لأن الفارس هو قائد القوم.

إذن، فكلمة النجم تشير إلى الأصل أو السلالة لا إلى النبوغ، أما كلمة الكوكب فلا تشير إلى الأصل بقدر ما تشير إلى النبوغ.

ثم إن من معاني الكوكب شدة الحرّ، مما يبين أن الكواكب إشارة إلى أُناس ذوي نشاط كبير وطبْع حماسيّ وتأثير ونفوذ على الآخرين كالسيف الماضي.

هذا الفرق يبين أن كلمتَي ﴿النجوم﴾ و﴿انكدرت﴾ في السورة السابقة وكلمتَي ﴿الكواكب﴾ و﴿انتثرت﴾ في هذه السورة لم ترد بلا سبب، بل وراءها حِكم بالغة.

الواقع أن الانكدار يعني تكدُّر الشيء، والانتثار يعني سقوط الشيء وتفرُّقه. وقوله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ إشارة إلى أن الرؤساء عريقي النسب سيفقدون نفوذهم في عامة الناس، وقوله تعالى هنا ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ إشارة إلى أن أصحاب الفن والمهارة في حِرفهم الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ بسبب مهارتهم لن يستطيعوا ذلك، أي أن الانقلابات الحاصلة نتيجة تقدُّم الأوروبيين ستقضي على قوة كبار أهل الفن والمهارة. وبالفعل نرى في هذا الزمن أن كلا الأمرين قد تحقق؛ فرغم أن العلماء موجودون في البلاد غير المسيحية، إلا أن نفوذهم قد زال، كما يوجد فيها كبار أصحاب المهارة والفن، ولكن لم يعُدْ لهم نفوذ ولا قوة. أما البلاد المسيحية فقد تشكلت فيها برلمانات نتيجة هذه الانقلابات، وانكسرت شوكة الأمراء والرؤساء عندهم، وأخذت أحزاب العمال والاشتراكيين مكان الأمراء وأهل الفن والمهارة. فثبت أن هذه الآية إشارة إلى الثورة الحاصلة نتيجة تقدُّم أهل أوروبا. لا شك أن هذه الثورة بدأت تقع في البلاد غير المسيحية تأثُّرًا من الأوروبيين، ولكنها ليست ثورة كاملة. وحيث إن هذه السورة تتحدث عن الشعوب الأوروبية المسيحية خاصة، فقد أخبر الله تعالى هنا أن الثورة الحاصلة في هذه الشعوب تكون كبيرة، بحيث إن أهل النفوذ - سواء من الأمراء أو من الأسر العريقة أو من أهل الفن والمهارة- كلهم سيسقطون، وتأخذ القوى الأخرى مكانهم، أما الشعوب غير المسيحية فإن الأمراء فيها سيفقدون نفوذهم نتيجة هذا الانقلاب.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

فجَّر: مثلُ فجَر، شُدِّد للمبالغة. يقال فجَر الماءَ: فتَح له طريقا فجرى. وفجَر القناةَ: شقَّها وقيل شقًّا واسعًا. وفَجَّرَ الرجلَ: نسَبه إلى الفجور. (الأقرب)

التفسير: تشبه كلمات هذه الآية كلمات آية في السورة السابقة حيث قال الله تعالى هنالك: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، بينما قال هنا: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾. لقد قلتُ من قبل أن سورة الانفطار تتحدث عن موضوع خاص بالمسيحيين، لذا فإن كل الأمارات الواردة فيها تنطبق على هذه الأمة. فمن مفاهيم هذه الآية عندي أن المسيحيين في زمن رقيهم سيشقّون البحار حتى يوصلوا بعضها ببعض. وإن أبرز مثال على ذلك قناة السويس وقناة بَنَما، وكلتاهما قد شُقّتا بأيدي المسيحيين. لا شك أنه قد شُقَّت في العالم قنوات عظيمة أخرى، منها ما شَقَّه الفُرس، ومنها ما شقّه الأفغان والمغول. ولا شك أن الأوروبيين قد تقدَّموا في هذا الفن، ولكنهم ليسوا منفردين ولا سبّاقين في شقّ القنوات. أما شقّ البحار وإيصال بعضها ببعض فلا شك أنهم تفردوا في ذلك؛ إذ لم توصَل البحار من قبل بحفر الأرض هكذا. لقد فسّرتُ البحار في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ في السورة السابقة بشقّ القنوات من الأنهار عمومًا، وذلك لأنها تتحدث عن الانقلابات العامة التي ستقع في الزمن الأخير، أما هذه السورة فتتحدث عن الشعوب المسيحية خاصة وتذكر علاماتها بشكل خاص. وحيث إن إيصال البحار بعضها ببعض بحفر الأرض أمر غير مسبوق، فلذلك فسّرت البحار هنا بمعناها المعروف نظرًا إلى أحوال المسيحيين الخاصة.

وقد يكون البحر هنا بمعنى العالِم الكبير، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ إشارة إلى أن الفسق والفجور سيُعزى إلى القساوسة المسيحيين بكثرة. وهذا يعني أن هذه الآية تخبر أن المسيحية ستصبح غالبة على العالم وتنشر الشرك في الناس، كما تصبح الكنيسة نجسة وسخة تماما من جهة أخرى.

إذن، فالتفسير المادي لقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ يعني إيصال البحار بعضها ببعض، أما التفسير الروحاني فيعني أن الكنيسة تفسد كلية.
والمعنى الثالث لهذه الآية أن الأنهار ستُوسَّع في ذلك الزمن، وهذا ما نراه فعلاً في هذا الزمن، حيث قاموا بتوسيع مصبّات أنهار كثيرة في أوروبا وأمريكا فتمرّ بها سفن كبيرة. في الماضي كانت الأنهار تتفرع عند مصابّها في البحار وتصبح جداول صغيرة كثيرة، أما اليوم فقد عمَّقوا مصابّ كثير من الأنهار في فرنسا وألمانيا وأستراليا وإنجلترا وأمريكا؛ فتجري فيها السفن بسهولة. وفي بعض الأماكن تصل هذه السفن إلى عمق اليابسة عبر مصابّ هذه الأنهار العميقة إلى مسافة مئتي ميل، وهكذا تصل البضائع داخل البلاد وتخرج منها بسهولة وبكلفة زهيدة.

وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٥

شرح الكلمات:

بُعْثِرتْ: بعثرَ الشيءَ: فرّقه وبدّده. وبعثرَ الشيءَ: استخرجه فكشفه وأثار ما فيه. (الأقرب)

التفسير: وهذه العلامة أيضًا نراها جلية في هذه الشعوب المسيحية في هذا العصر. في الماضي كان الناس يعظمون المقابر تعظيما كبيرا بحيث يتضح لنا من التاريخ القديم أن الناس إذا وجدوا مقابر غيّروا خريطة بلدهم ولم يشيدوا مبانيهم هناك، وكانوا لا يطيقون التقصير في حرمة المقابر. أما هذه الشعوب الغربية المسيحية فلم يعُد عندهم احترام للمقابر إطلاقا. فعندما يريدون إنشاء مدينة، ينبشون القبور بكل جرأة، ويبنون مكانها ما يشاءون. لقد نبش هؤلاء مئات المقابر بلا هوادة عند بناء مدينة دهلي الجديدة. إذن، فأحد معاني هذه الآية أن المقابر ستُنبَش نتيجة الكثرة السُكّانية.
وبعثرة القبور تعني أيضا فتح المقابر القديمة، كما يحصل اليوم في مصر، حيث يحفرون قبور القدماء ويخرجون منها مومياواتهم. وهذا ما تشير إليه هذه الكلمة حيث ورد في القواميس: "بَعْثَرَ القبرَ: استخرجَه فكشَفه وأثار ما فيه". والشعوب المسيحية الغربية

أيضا تقوم بحفر القبور المصرية، فيستخرجون منها المومياوات ثم يرسلوها إلى متاحف بلادهم، بعضها إلى إنجلترا وبعضها إلى فرنسا وبعضها إلى أمريكا وبعضها إلى روسيا. فكأهم يقسمون فيما بينهم جثث الموتى كما تُقسَم أموال الإرث ليحتفظوا بها في متاحف بلادهم.

فالمسيحيون هم الذين استخرجوا جثث الموتى من القبور القديمة وكشفوها للناس ونشروها في مختلف البلاد. وأرى أن من واجب المسلمين حين ينالون الغلبة أن يعيدوا هذه الجثث إلى القبور مرة أخرى، لأن من المنكر جدًا إخراج الجثث من قبورها وعرضها للناس لأهما إساءة كبيرة للموتى. يجب أن يدفنوا مومياء فرعون مصر في الأرض ثانية، ويكتبوا على القبر اسمه.

وحيث إن القبر يُطلق على الأشياء المدفونة أيضا، فيمكن تفسير هذه الآية أن مدنًا كبيرة ستُستخرج من تحت الأرض في الزمن الأخير، وبالفعل نرى أن دفائن المدن القديمة تستخرج وتوضع في المتاحف وتوزع عليها.

إذًا فمن مفاهيم هذه الآية اكتشاف المكتبات القديمة، والعثور على المباني والمقابر القديمة في ذلك الزمن.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٦

التفسير: لماذا قال الله تعالى هنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، و لم يقل: (علمت كل نفس)؟

أجاب بعض المفسرين على ذلك بأن الله تعالى قد سبق أن قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ في موضع آخر وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾(آل عمران: ٣١)، فاكتفى هنا بكلمة ﴿نَفْسٌ﴾.

أنا لا أنفي استعمال القرآن الكريم هذا الأسلوب، حيث يكتفي بالتلميح إلى أمر ما في موضع، ويفصّله في موضع آخر، ولا بأس في ذلك، ولكن لا أتفق مع استدلال المفسرين، وأرى أن كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ هنا إشارة إلى النفس المسيحية المذكورة من قبل، حيث جاء التنوين هنا على سبيل التحقير، والمعنى أن هذه النفس الحقيرة التي لا تعرف

خيرها من شرها، ولا تدري ماذا يجب أن تفعل أو لا تفعل، ستعرف يومئذ ما قدّمتْ وما أخرّتْ. لقد نبشوا القبور من ناحية، وارتكبوا شركًا كبيرًا انفطرت به السماء من ناحية أخرى، وكلا الأمرين تعافُهما الفطرة، فلذلك استخدم الله هنا كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ النكرة تحقيرًا لشأنهم، وقال ستعرف هذه النفس الحقيرة ما قدّمت وأخرّت. وكلمات ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أيضًا جاءت تحقيرا لأعمالهم. وقد أُشيرَ إلى الأمر نفسه في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي أنهم أسقطوا ذات البارئ تعالى الذي كان يجب أن يعظّموه، ورفعوا المسيح وأجلسوه على عرش الله تعالى، مع أنه عبد من عباده تعالى. وبالفعل ترى أن المسيحيين يتوسلون في أدعيتهم إلى المسيح لا إلى الله تعالى، وكأنهم -والعياذ بالله- قد أحالوا الله إلى التقاعد، ووضعوا مهمة الألوهية في يد المسيح عليه السلام. فأحد الأمثلة على صدق قوله تعالى عنهم ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أنهم أنزلوا الإله منـــزلة العبد ورفعوا العبد إلى درجة الإله. وثانيا إنهم قد نبشوا قبور الموتى القدماء ووضعوها في المتاحف ليتفرج عليها الناس. وحيث إن قوله تعالى ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ تعني التقديم والتأخير، فالمعنى أنهم سيدركون ما فعلوا وما لم يفعلوا، وما فضّلوا وما لم يفضّلوا.. بمعنى أن هذه النفس الذليلة الحقيرة ستدرك يومئذ أي الأعمال كانت أحق بالقيام بها، وأيها كانت أولى بالترك.. أي أنها ستدرك أنها لم تعمل ما كان يجب أن تعمله، وعملتْ ما لا يليق بالعمل.

ويمكن تفسير هذه الآية بمعنى آخر، وهو أنه حين تقع الأحداث المذكورة آنفًا- أي انتشار الشرك، وانكسار شوكة الملوك والرؤساء، وإيصال البحار بعضها بعض، ونبش القبور وكشفها وتفريقها - سيهيئ الله عندها من الأسباب ما يجعل هذه النفس الحقيرة، التي أخذت أمر ألوهية الله بيدها، تدرك ماذا كان يجب عليها أن تفعل وما لا تفعل.. أي سينكشف عليهم شناعة شِركهم وفداحة خطأ التكالب على الدنيا، فيعودون إلى التوحيد ثانية نادمين على أخطائهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٧﴾

شرح الكلمات:

غَرَّك: يقال ما غرَّك بفلان، أي كيف اجترأتَ عليه. (الأقرب)

الكريم: ذو الكرم. (الأقرب)

التفسير: هنا أيضا ليس المراد من الإنسان كل إنسان، بل الإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، حيث يقال له: يا أيها الإنسان الدنيء النفس ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ أي ما الذي جرّأك على ربك الكريم؟ بمعنى كيف تجرّأْتَ على معصية الله وأمِنت عقابه، و لم تكن هذه الجرأة جائزة لك.

علمًا أن كلمة ﴿الكريم﴾ وردت هنا لتشنيع جرأهم هذه على رهم حيث بين الله تعالى أن جرأهم لم تكن عملاً لائقًا على الإطلاق. ذلك أن من الأفعال التي يأتيها المرء لا تليق به نظرًا إلى مكانة مَن يتعامل معه، ولذلك استخدم الله تعالى كلمة ﴿بربك﴾ وقال لهذا الإنسان: كيف تجاسرتَ بهذه الفعلة على الذي هو ربك؟ ثم قال (الكريم)، ليبين أن فِعلتك لا تليق بك إطلاقا، لأنه تعالى ليس ربّك فحسب، بل هو ربك الكريم؛ فكان عليك أن تخجل وتستحيَ من التجاسر على مثل هذا الرب الكريم، بدلاً من الكفران بنعم هذه المحسن، والإساءة إليه. المرء إذا أبدى الجرأة في موضعها كان شرفًا له، ولكنه إذا أبداها في غير محلها كان تهوُّرًا منه. فتجاسرك هذا لؤم وخسة ورذيلة، حيث أسأت إلى محسنك وعصيت ربك الكريم بدلا من أن تذعن له وتنقاد، وابتدعتَ العقائد التي لا تليق بعظمته تعالى.

لقد ذكر المفسرون أقوالا عجيبة غريبة حول قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. فكتب بعض الصوفية مثلاً أن الله تعالى قد علّمنا بقوله هذا كيف نجيبه إذا سألَنا عن جرائمنا؟ وكأنه تعالى قال لنا: عليكم أن تجيبوا: إن ربنا كريم، فهذا ما غرَّنا وأوقعَنا في المعاصي. "وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: إنْ أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غرَّك بربك الكريم، ماذا تقول؟ قال أقول: غرّتْني سُتورُك المُرخاة" (تفسير حقي البروسي، والكشاف).. أي أن عفوك وإحسانك قد جعلني مغرورًا.

لقد تبادرت أذهان هؤلاء القوم إلى مثل هذه الأقوال لأنهم لم يتدبروا في مفهوم هذه السورة كلها، وإنما أخذوا فقرة منها وقاموا بهذا الاستنتاج. ولو أنهم أدركوا أن هذه السورة إنما تتحدث عن أعداء الإسلام لما اعتبروا قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ متعلقًا بالمسلمين.

في بلادنا أيضا يقال: كَرَمُك جعلني جريئا، ولكن هذا التعبير لا يصحّ إلا على سبيل الاستعارة لا على وجه الحقيقة. فلا تعني الجرأة عندها معناها المعروف، بل يراد بها التباسط وعدم التكلف، والمراد أن الإنسان يقول في تباسطه أحيانًا ما لا يقوله في جِدِّه. ولكن لا يصحّ هذا التعبير إطلاقا بالمعنى المعروف للجرأة، لأن الكرم لا يجعل الإنسان وَقِحًا، بل يزيده حبًّا وطاعةً لمن أحسنَ إليه. لا شك أن هذه الجملة قد استعملها المسيح الموعود عليه السلام (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٦٦٢)، ونستعملها نحن أحيانًا، ولكنها بالمفهوم الذي ذكرته، إذ الواقع أن الكرم لا يجعل الإنسان جريئًا مسيئا إلى من أكرمَه.

ويذكر المفسرون واقعة لعلي رضي الله عنه لدى تفسير هذه الآية، فيقولون إنه رضي الله عنه صاح بغلام له مرات فلم يُلَبِّه. فنظَر فإذا هو بالباب، فقال له: ما لك لم تُجبْني؟ قال: لِثِقَتي بحلمك، وأَمْني مِن عقوبتك. فاستحسنَ جوابه وأعتقَه. (الكشاف)

ويقول المفسرون أن هذا الحادث أيضا يؤكد أن قوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ يشير إلى أن أنواع العنايات الربانية والعفو الإلهي تجرّئ الإنسان على الذنوب!

لا بأس بهذه الواقعة لو اعتبرناها أمرًا ذوقيا، ولكن لا علاقة لها إطلاقا بقوله تعالى ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، إذ نستطيع القول إن الخادم لما وجد عليّا رضي الله عنه ساخطًا عليه أجابه بهذا الجواب اللطيف، فأُعجبَ به علي رضي الله عنه. ولكن ليس هناك دليل على أن الآية قيد التفسير تشير إلى هذا المعنى نفسه. كلا، إنما هو من الأمور الذوقية فحسب. فمثلا يقول الشاعر سعدي بالفارسية:

پادشاهاں گاہے بسلامے برنجند وگاہے بہ دشنام خلعت دہند

(گلستان سعدي ص ٩)

أي أن الملوك أحيانًا يسخطون بالمدح، وأحيانًا يكافئون على السبّ. ولكن مثل هذه الأقوال لا تُستنبط منها الأصول، وإنما نقول بشأنها إن للناس أذواقًا متنوعة، كما أنهم يمرّون بأحوال مختلفة في أوقات مختلفة، فيفرحون بسماع قول حينًا، ويسخطون بسماعه حينًا آخر. فمثلاً يحكى عن الملك المغولي "جهانغير" أنه حينما كان أميرًا ناولَ خادمتَه "نورجهان" حمامتين، فانفلتتْ إحداهما من يدها، فرجع "جهانغير" بعد قليل وسألها عن الحمامة الأخرى؟ فقالت: طارت. فسألها غاضبا: كيف؟ فأفلتت الحمامة الثانية من يدها وقالت: هكذا. فأُعجبَ مِن بساطتها وعَشِقَها. ولكن أباه عارضَ زواجه منها، فتزوجتْ من شخص آخر، ولكن توفي زوجها بعد فترة، فتزوجها "جهانغير" بعد موت أبيه. (تاريخ هندوستان للمولوي ذكاء الله، المجلد السادس ص ٧٣)

فأحيانًا يعجبك الجواب الخاطئ أيضا، ولكن لا يمكن أن نعتبر ذلك تفسيرًا لهذه الآية، إذ من الممكن أن عليًّا رضي الله عنه لما سمع جواب هذا الغلام الخادم أُعجب ببراعته في التخلص من العقاب فأعتقه، رغم ما في جوابه من إساءة. إنه في كل حال حادث شخصي، ولا نبني تفسير القرآن الكريم على مثل هذه الأحداث.

لقد أورد الإمام القشيري في كتابه "شرح الأسماء" قصة عجيبة ذات عبرة، وإني معجب بها جدًّا. علمًا أنها هي الأخرى ليست تفسيرًا لهذه الآية، إلا أني أسجلها لأبين كيف أن الفطرة الإنسانية تهرب من العقوبة بحيل بارعة. يقول القشيري إن أحد الصلحاء قال: رأيتُ في سوق البصرة جنازة يحملها أربعة وليس معهم مشيِّع، فقلتُ: لا إله الا الله! سوق البصرة وجنازةُ رجل مسلم لا يشيّعها أحد؟! إني لأُشيّعها، فتبعتُها. ولما دفنوه سألتُهم عنه، فقالوا لا نعرفه، وإنما استأجرتْنا تلك المرأةُ، وأشاروا إلى امرأة واقفة قريبا من القبر، ثم انصرفوا. فرفعت المرأةُ يدها إلى السماء تدعو، ثم ضحكتْ وانصرفت. فتعلّقتُ بها وقلتُ لا بد أن تخبريني بقضيتك. فقالت: إن هذا الميت ابني، و لم يترك شيئا من المعاصي إلا فعَله. فمرِض ثلاثةَ أيام، فقال لي يا أمي، إذا متُّ فلا تُخبري الجيرانَ بموتي فإنهم يفرحون بموتي ولا يحضرون جنازتي... ولكن اكتُبي على خاتمي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وضَعيه في أصبعي، وضَعي رِجْلَك على خدّي إذا متُّ وقُولي: هذا جزاءُ مَن عصى اللهَ. فإذا دفنْتِني فارفعي يديك إلى الله

وقُولي: اللهم إني رضيتُ عنه فارضَ عنه. فلما مات فعلتُ جميع ما أوصاني به. فلما رفعتُ يدي إلى السماء ودعوتُ سمعتُ صوتَه بلسان فصيح: انصرِفي يا أمي، فقد قدِمتُ على ربّ كريم رحيم، فرضيَ عني، فلذلك ضحكتُ سرورًا بحاله. (نقلاً عن تفسير روح البيان للبروسي)

الله أعلم ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم باطلة، والإمام القشيري عالم كبير، فلعلّه كتبها بعد تحرّي الأمر. لقد قال رسول الله ﷺ إن المرء يظل يرتكب أعمال أهل النار حتى يكاد يسقط فيها، ولكن يكون في قلبه خير خفي، فتحميه يد فضل الله تعالى من السقوط فيها، فيدخل الجنة. وإن المرء ليعمل أعمال أهل الجنة حتى يكاد يدخلها، ولكن يكون فيه شرٌّ خفيّ، فيظهر ويلقيه في الجحيم (البخاري: كتاب القدر، باب في القدر). فسواء أكانت هذه القصة حقيقة أم من نسج الخيال إلا أنها تحمل درسًا هامًّا، ولذلك أحبّها كثيرا، وقد ذكرتُها هنا رغم أنها لا تمتّ إلى تفسير هذه الآية بصلة. فقولُ هذا الابن لأُمه "ضَعِي رجلك على خدّي إذا متُ وقُولي: هذا جزاءُ من عصى الله" يدلّ على أنه كان في قلبه خير، ففكّرَ أنه قد ارتكب من المعاصي بحيث لا يقدر لسانه على التفوه بكلمات التوبة إلى الله. غير أني أرى أن قوله هذا لأمه كان بمثابة التوبة العَملية منه، ويبدو أن الله تعالى سُرَّ بفعله هذا فأدخله الجنة. فكما قلتُ سواء أكانت هذه القصة حقيقة أم أسطورة، إلا أن فيها درسًا رائعا يكشف لنا سعة مغفرة الله تعالى.

وإزاء هذه الأقوال الذوقية التي ذكرها أصحاب التفاسير، نجد الصحابة قد اتبعوا الطريق اللائق بالإنسان العاقل، فلم يميلوا إلى الأقوال الذوقية بل ذكروا ما يثبت من هذه الآية. فقد قال سفيان إن عمر رضي الله عنه سمع رجلا يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، فقال عمر: الجهلُ. (ابن أبي حاتم عن ابن كثير). ونقل ابن أبي حاتم قول ابن عمر: "غرّه، واللهِ، جهلُه". ورُوي عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن البصري مثل ذلك. وقال قتادة: ما غرَّ ابنَ آدم غيرُ هذا العدو الشيطان. (ابن كثير)

ولم يقل الصوفية هنا ما قالوا إلا لأنهم رأوا أن الله تعالى قد وجّه هنا سؤالاً إلى الناس بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، ثم علّمهم الجواب أيضًا بإضافة كلمة

﴿الكريم﴾، وكأنه تعالى قال: إذا سُئلتم ذلك فقولوا إن عَفْوَ ربِّنا الكريم وكرمَه هو الذي شجّعنا على المعاصي!

ولكن ما نراه على صعيد الواقع هو أن الناس لا يجرؤون على ارتكاب الذنوب نتيجة عفو الله تعالى، وإنما سببه اتّباعُهم الشيطانَ، أو هو راجع إلى جهالتهم؛ ولو أنهم فقهوا أحكام الله تعالى وأدركوا أهمية طاعته وأعملوا بصيرتهم لما ارتكبوا هذه المعاصي. لا شك أن المؤمن يؤمن بأن الله كريم، ويوقن بعفوه وغفرانه كل لحظة، ولكن لا يصحّ أبدًا أن نعتبر كرمه سببًا لارتكاب المعاصي. لقد صرح الله تعالى في القرآن أن أكبر سبب لوقوع الإنسان في الذنوب جهالتُه: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام: ٥٥). فالحقيقة أن الذي يرتكب الإثم إنما يرتكبه عن جهالة؛ إذ لا يرتكب الإثمَ عمدًا إلا الكافر. لذا يجوز لنا القول إن الإنسان يغترّ باتباعه الشيطانَ، أو أن جهالته هي التي تجعله مغرورا، ولكن لا يجوز القول أن كرم الله وعفوه هو الذي يدفع الإنسان إلى هذه الجرأة والغرور؛ اللهم إلا أن نعتبره نتيجة غير طبيعية للكرم، مما يدل بحد ذاته على مرض في قلب هذا الشخص. إن كرم الله يزيد الإنسان إيمانًا وعرفانًا وليس جرأةً على ارتكاب الذنوب. فمن الخطأ تمامًا القول أن كرم الله تعالى يجرّئ الإنسان على الذنوب. لا شك أن المؤمن يوقن بكرم الله تعالى أيما إيقان، ويرجو رحمته دائما، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: أي داعٍ لمثل هذا الحديث في هذا السياق؟ إذ إن هذه الآيات تتحدث عن الكافرين، وكأن هؤلاء الصوفية يقولون أن الله تعالى سيقول للكافرين إني حين أسألكم عن سبب ذنوبكم فقُولوا: كنتَ كريما بنا، وكرمُك هو الذي غرَّنا. هل يقبل العقل السليم أن يكون سياق الآيات يشير إلى سخط الله على الكافرين من ناحية، ومع ذلك يتحدث الله معهم كما يتحدث الحبيب إلى حبيبه؟ لو كان الحديث هنا عن المؤمنين، لكان من المعقول -إلى حدٍّ ما- قبول ما يقولون، ولكن الحديث هنا عن الكافرين وعن سخط الله عليهم، حيث يقول تعالى إنهم قد ارتكبوا جريمة تكاد تنفطر السماء منها. ولكن هؤلاء الصوفية يخبروننا أن الله تعالى بنفسه قد علّم المجرمين ما يجيبون به عند السؤال عن جريمتهم، فقال لهم: لا شك أن جريمتكم كبيرة جدا،

ولكن إذا سألتُكم فأجيبوني بهذا الجواب ولسوف أغفر لكم. من المستحيل أن يكلم الله تعالى الكافرين بمثل هذا الكلام اللطيف وهو يريد إنزال العذاب الشديد عليهم. لا ندري ما الذي دعا الصوفية لأن يفسروا هذه الآية بهذه الأقوال، مع أنها تعني أن الواجب عليكم أن تَستَحوا أمام ربكم الكريم، ولكن قد دفعتكم وقاحتكم إلى عدم الاكتراث بربكم الكريم أيضا.

هناك واقعة للنبي ﷺ تبين أن الكريم يُستحى منه. ورد في الحديث أَن عَائشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مُضْطَجعًا في بَيْتي كَاشفًا عَنْ فَخذَيْه أَوْ سَاقَيْه، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تلْكَ الْحَال، فَتَحَدَّثَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلكَ فَتَحَدَّثَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَسَوَّى ثيَابَهُ... فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُباله، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُباله، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثيَابَكَ؟ فَقَالَ: أَلا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلائكَةُ. (مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل عثمان).

فنرى أن النبي ﷺ قد استحى من عثمان رضي الله عنه لأنه كان كثير الحياء. فكيف نصدق بعد ذلك أن الله الذي هو رب كريم هو نفسه قد جرّأ الناس على الذنوب؟ أرى أن قوله تعالى ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إنما يشير أنه كان من واجب الإنسان أن يطيع ربه الكريم على الأقل، لا أن يعصيه.

وأرى أن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إنما يشير إلى المسيحية بأسلوب لطيف، لأنها تركّز في زعمها على رحمة الله تركيزًا كبيرا، بل إن أساسها أن الله محبة، وأنه رحيم (رِسَالَةُ يُوحَنَّا الرَّسُولِ الأُولَى٤: ٨، ولوقا٦: ٣٥-٣٦). لا شك أن المسيحيين يعتبرون الله تعالى جِدَّ ظالم - والعياذ بالله - فيما يتعلق بالأمور التفصيلية، زاعمين أنه تعالى لا يقدر أن يغفر للناس ذنوبهم، ولكنهم يركّزون أيضًا على رحمة الله كثيرا؛ فيرد الله عليهم أن الغريب أنكم تسمّون الله كريما من جهة، ثم تعزون إليه صفات تنافي كرمه، فتتخذون له ولدًا ظانين أنه تعالى حين لم يجد طريقًا لغفران ذنوب الناس ضحّى بابنه كفّارةً عن ذنوبهم! (رسالة يوحنا الأولى٤: ٨-١٠)

باختصار، إن هذه الآيات لا تتحدث عن المؤمنين، وإنما عن أعداء المؤمنين الذين يسمّون الله ربًّا كريمًا، ومع ذلك يزعمون أنه لا يقدر على غفران الذنوب. إنني لا أتذكر الآن جيدا، ولكن أغلب ظني أن الكتب المسيحية تذكر صفتي الله الكريم والرحيم معًا على العموم. ومهما يكن فإن الكرم يشمل الرحمة أيضا. وإن قول الله تعالى ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إشارة إلى أمة تسمي الله ربا كريما من جهة، وتتهمه بعدم القدرة على غفران الذنوب من جهة أخرى، فيرد الله عليهم: أيها الإنسان، ما الذي جرّأك أن تعتبر الله ربًّا كريما، ثم تزعم أنه لا يقدر على غفران ذنوب الناس، ولذلك ضحى بابنه على الصليب؟

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٨﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

فسَوّاك: سوّى الشيءَ: جعَله سويًّا (الأقرب).. أي أزال عيوبه ونقائصه كلها.

عَدَلَكَ: عدَل السهمَ: أقامه، "جعَلني في قوم إذا مِلْتُ عدَلوني" أي قوَّموني. وعدَل فلانا: وازنَه. (الأقرب)

في أي صورة ما شاء ركَّبَك: هناك أقوال في شرح هذه الجملة القرآنية، وأسهَلُها أن "ما" هنا زائدة، والمعنى: ركَّبك في أي صورة شاء. بمعنى أنه أعطاك صورة جسمانية وروحانية حسب مشيئته. فكلمة "شاء" تشير إلى أنه تعالى اختار للإنسان صورة أرادها له.. أي أن الإنسان لم يُخلق بهذه الصورة على وجه الصدفة، بل اختار الله له هذه الصورة بنفسه.

التفسير: لقد ذُكرت هنا عدة أمور، أولها: أن الله قد خلق الإنسان، وثانيها: أنه قام بتسويته، أي أزال كل ما فيه من نقص وعيب ذاتي، وثالثها: أنه تعالى قام بتعديله.. أي جعله أكثر اعتدالاً من الأشياء الأخرى، ورابعها أنه تعالى أعطى الإنسان صورة

أرادها له، وبحسبها قام بخلقه، أي أودع فيه كفاءات عالية. وهذه الأمور الأربعة تبرز شناعة إساءة المسيحيين إلى الله تعالى. إن التاريخ المسيحي هو عبارة عن عيبيْن خطيريْن، العيب الأول: الإساءة إلى الله، وتفصيله كالآتي: (أ) إشراكهم بالله، (ب) رميهم الله بأنواع العيوب كقولهم إنه لا يقدر على أن يعفو وأن يغفر، (جـ) اتهامهم الله تعالى أنه أورث خطيئة آدم في ذريته، (د) اتهامهم الله تعالى بالظلم، حيث إنه يعاقب الأبرياء مكان الآخرين. والعيب الثاني يتعلق بالناس، وتفصيله: (أ) كِبْرهم وغرورهم، حيث يفضّلون أنفسهم على الأمم الأخرى في كل شيء، (ب) إخفاؤهم حسنات الآخرين وكفرانهم بصنيعهم، (ج) اعتبارهم الفطرةَ الإنسانية نجسةً، وادعاؤهم امتلاكَ القدرات الإلهية. ولقد نبّههم الله تعالى هنا إلى خطئهم هذا قائلا: أيها الإنسان المذكور آنفا.. أي أيها المسيحي، أخبِرْني ما الذي جعلك مغرورا متكبرا على ربك الكريم؟ بمعنى أنك تعظّم الله من ناحية، وتحقّره من ناحية أخرى. فتارةً تسلّم بأن ربك كريم، وتارةً أخرى تتخذ عبدًا من عباده ابنًا له، بحجة أن الله تعالى ليس بقادر على أن يغفر للناس ذنوبهم، ولما كان غير قادر على الغفران، فلزم أن يكون هناك ما يقوم مقام الغفران، فبعث الله ابنَه الذي ضحّى بنفسه فداءً عن ذنوب الناس. هذا هو أساس مسألة الفداء أو الكفّارة التي هي أساس الدين المسيحي، والتي بناءً عليها يقوم المسيحيون بالدعاية أن المسيح ابن الله (أعمال الرسل ٩: ٢٠). مع أن عديدا من الأنبياء الآخرين، بل الشعب اليهودي أيضا قد سُمّوا أبناء الله في التوراة، حيث ورد "وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "عِنْدَمَا تَذْهَبُ لِتَرْجعَ إِلَى مِصْرَ، انْظُرْ جَمِيعَ الْعَجَائِب الَّتِي جَعَلْتُهَا فِي يَدِكَ وَاصْنَعْهَا قُدَّامَ فِرْعَوْنَ. وَلكِنِّي أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّى لاَ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي." (اَلْخُرُوجُ ٤ : ٢١-٢٣). ثم يقول الله تعالى عن سليمان: "وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا، وَأَنَا لَهُ أَبًا، وَأُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مُلْكِهِ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ." (أَخْبَار الأَيَّامِ الأَوَّلُ ٢٢ : ١٠)

فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما دام الأنبياء بل الصلحاء قد سُمّوا أبناء الله، فما هي خصوصية المسيح في أن يُدعى ابن الله؟ فاخترع المسيحيون ميزة للمسيح زاعمين أنّ غفران ذنوب الناس كان منوطا بتضحية المسيح، وهي خصوصية انفرد بها المسيح

دون سائر الأنبياء، ولذلك كانوا أبناء الله بمعنى آخر، وكان المسيح ابنَ الله بمعنى مختلف. وهكذا رسَّخوا في قلوب الناس بالتدريج عقيدة ألوهية المسيح الوثنية. (قاموس الكتاب (أردو) ص ٧٩٢)

والأمر الآخر الذي أدّى إلى غرور المسيحيين وكبريائهم هو قوتهم المادية وتقدُّمهم المادي المدهش. والواقع أنهم قد أحرزوا هذا التقدم لأن العلوم الإسلامية كانت متيسرة لهم كبذرة، فبنوا عليها صرح رقيهم. لقد وجد المسلمون العلوم اليونانية، فأضافوا إليها بحوثهم وازدهروا، أما المسيحيون فوجدوا علوم المسلمين، فكانت النتيجة الحتمية أن يحرزوا تقدمًا أكبر مما أحرزه المسلمون. فبإحراز هذا الرقيّ أخذتهم الكبرياء فقالوا لم يأت أي شعب قبلنا بما جئنا به من مخترعات، مع أنه كان جديرًا بهم أن يزيدهم رقيهم إنابةً إلى الله تعالى.

أما قول الله تعالى ﴿الَّذي خَلَقَكَ﴾ فقد نبّه به المسيحيين، وكأنه قال ليتكم فكّرتم في الله الذي خلقكم، فارتدعتم عن هذا الظلم! ورد في التوراة: "وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَله الَّذي عَملَ اللهُ خَالقًا. هذه مَبَادئُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ حِينَ خُلقَتْ، يَوْمَ عَملَ الرَّبُّ الإلهُ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَات" (التَّكْوين ٢ : ٣-٤). وورد أيضًا: «قُومُوا بَارِكُوا الرَّبَّ إلهَكُمْ منَ الأَزَل إِلَى الأَبَد. وَلْيَتَبَارَك اسْمُ جَلاَلكَ الْمُتَعَالِي عَلَى كُلِّ بَرَكَة وَتَسْبِيحٍ. أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَات وَسَمَاءَ السَّمَاوَات وَكُلَّ جُنْدهَا، وَالأَرْضَ وَكُلَّ مَا عَلَيْهَا، وَالْبِحَارَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا" (نَحَمْيَا ٩: ٥-٦). فكأن الله تعالى قد نبّههم هنا إلى أنه تعالى ما دام هو خالقهم فلماذا ينسبون مُلْكه إلى غيره؟

ثم نبّههم بقوله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾ إلى أنه خلقكم مبرَّأين من العيوب. لقد جعل الله تعالى بحكمته الكاملة في الفطرة الإنسانية علاجًا لكل ما يوجد فيها من نقص، فمثلا إذا كان الإنسان يتعرض لمصاعب كبيرة، فقد زوّد الله فطرته إزاء ذلك بميزة الصبرَ على الشدائد، وإذا كانت جراثيم شتى الأمراض تهاجم الإنسان، فقد خلق الله إزاءها مناعة تلقائية في جسده، وهكذا تفنى كثير من الأمراض تلقائيًا في النفس البشرية. فيقول الله تعالى أنه ما دام قد جعل علاج أمراضكم الجسدية في دمائكم

وشفاءَ أمراضكم الخُلقية والروحانية في أنفسكم، فكيف يمكن أن يتَبع طريقة غير طبيعية لنجاتكم، فيقتل البريءَ على الصليب لخلاصكم؟ وكأنه ﷻ متعطش للدم، فلا يترك أحدا من دون أن يشرب دمه، والعياذ بالله.

أما قول الله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾، فنبّه به إلى أنه لم يُصلِح أنفسكم فحسب، بل خلقها أفضلَ من الكائنات الأخرى، فصرتم أهلاً للحكم على المخلوقات الأخرى. وهذا يعني أن الله تعالى إذ كان قد منح الإنسان كمالاً ذاتيًا.. أي جعله كاملاً في ذاته، فإنه قد منحه كمالاً نسبيا أيضا.. أي جعله أكمل من المخلوقات الأخرى؛ فكيف يصح بعد ذلك الظن أن الإنسان بحاجة إلى فداء ابن الله تعالى لنجاته؟ وكيف يجوز للشعوب أن تتفاخر على الشعوب الأخرى وتحتقرها وتزدريها نتيجة التقدم الذي أحرزته نتيجة القوانين الربانية؟

ولنتذكرْ أن قول الله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾ لا يشير إلى التسوية العادية الجسدية فقط، بل فيه إشارة أنه تعالى قد خلق في الإنسان كفاءات عالية لو استغلّها لحظِي بلقاء الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾ فإشارة إلى أن الله تعالى قد قام بموازنة قوى الإنسان ليرى ما إذا كان قد صار مزوَّدًا بالكفاءات التي تساعده على المهمة التي خُلق من أجلها، وهي نيابة الله على الأرض.. أي ليرى ما إذا كان قد صار أهلاً للحُكم على المخلوقات الأخرى أم لا. وبهذه الموازنة قد زود الله تعالى الإنسانَ بكل القوى التي تجعله أهلاً للحُكم على الدنيا المادية. لقد سبق أن ذكر أن للعدل معنيين، أولهما: التقويم، وقد أُشيرَ إليه في قوله تعالى ﴿فَسَوَّاكَ﴾، والمعنى الثاني هو الموازنة، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وإلا تصبح كلمة ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تكرارًا عابثًا لا يليق بالقرآن الكريم. فالمراد من قوله ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أن الله تعالى قد أودع الإنسانَ كفاءات عليا بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى تمكّنه من الحُكم عليها والنيابة عن الله في الأرض. وقد بيّن الله تعالى بذكر هذا الموضوع أنه إذا نال قوم الحُكَمَ في الدنيا وأحرزوا تقدمًا علميا، فعليهم أن يكونوا شاكرين لله تعالى إذ زوّدهم بهذه القوى، لا أن يصبحوا مزهوين متكبرين بما عندهم من العلم والحُكم، فيعلنوا التمرد على

حكم الله تعالى، ويدّعوا الفضلَ على الآخرين، فيرجعوا بغضب الله وبسخطه بدلاً من أن ينالوا مغفرته.

ثم قال الله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ليشير إلى أنه تعالى أعطى الإنسان صورة أحبّها ورضيها له، أي زوّده بقوة الاتصاف بصفات الله تعالى، لأن صورة الله أفضل الصور. فمن ذا الذي هو أكثر حظًّا ممّن وُفّق لأنْ يتصوّر بصورة الله تعالى؟ جاء في التوراة أن الله خلق الإنسان على صورته حيث قيل: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ" (التَّكْوِينِ١: ٢٧). وهذه الفقرة إنما تعني أن الله تعالى قد زوّد الإنسان بقوة الاتصاف بصفاته تعالى، وكأن بوسعه أن يصبح مظهرًا لله تعالى من حيث الصفات. وقد أُشير إلى هذا المعنى في الحديث الشريف حيث قال رسول الله ﷺ: "تَخلّقوا بأخلاق الله." (تفسير الرازي: سورة النساء، قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، إحياء علوم الدين)

فجملةُ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إما تفسير لقوله تعالى ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾.. أي أنه تعالى خلقه خَلْقًا أراده له، وسوّاه تسويةً أحبَّها له، وعدَله عدلاً شاءه له؛ أو أن المراد منها أن الله تعالى بعد أن زوّد الإنسان بالكفاءات اللازمة وهب له صورة أحبّها له.. أي زوّده بقوة التخلق بأخلاق الله. والحق أن هذا المعنى الثاني هو الأصحّ عندي، أي أنه تعالى أعطاه صورة روحانية، ذلك لأن الصورة الجسمانية قد ذُكرتْ من قبل في كلمة ﴿خَلَقَك﴾، ولا داعي لتكرار هذا المعنى، فثبت أن هذه الجملة تتحدث عن تكميل صورته الروحانية. ومن الأدلة على ترجيح هذا المعنى على المعنى الأول أن أنف الإنسان وأذنه وفمه وغيرها من الأعضاء ليس مما ينظر الله إليه، وإنما صورته الروحانية هي التي ينظر الله إليها بإعجاب، وإنْ كان أنفه وأذنه ووجهه يفتقد إلى الجمال الظاهري. إذن، فقوله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ تعني

أننا بعد أن زوّدنا الإنسان بكل القوى اللازمة علّمناه كلّ المبادئ الروحانية المرضية عندنا، التي تؤهله لأن يكون مَظْهرًا لنا.

الحق أن قول الله هذا إشارةٌ إلى أن أي صورةٍ أرادها للإنسان في عصر من العصور قد وهبها له فعلاً؛ فالصورة الروحانية التي ارتضاها الله تعالى للإنسان في زمن نوح ﷺ علّمه المبادئ الملائمة لها، والصورة التي كانت مناسبة لزمن إبراهيم ﷺ علّمه المبادئ الملائمة لها، والصورة التي كانت تليق بزمن موسى وعيسى –عليهما السلام– علّمهما الله مبادئها، والصورة التي كانت مناسبة لزمن محمد ﷺ علّمه الله مبادئها الملائمة. كما أن كل قوم تقدموا ماديًا واخترعوا شتّى المخترعات في شتى المجالات والعلوم بحسب بيئتهم وظروفهم. وكأن الله تعالى يقول هنا لقد أنزلنا المعارف الروحانية والعلوم المادية بحسب أحوال وضرورات كل عصر. لقد أنزلنا التوراة عندما كان الناس بحاجة إليها، وأنزلنا القرآن عندما كان الناس بحاجة له، وعلّمنا العلوم اليونانية عندما كان العقل الإنساني قادرًا على استيعابها، وأنزلنا العلوم العربية حينما قدر الإنسان على فهمها، وأنزلنا العلوم الغربية عندما صار الإنسان أهلاً لتلقّيها. فكيف تتفاخرون على الآخرين وتكفرون بنعم الله وتعرضون عن الدين الحق؟

ذهبت مرة إلى مدينة "لاهور" حين كنت في العشرين من عمري، وأقمت عند "ميان محمد شريف" الذي كان تربطني به أواصر صداقة، فقال لي: تعال نذهب للحوار مع قسيس اسمه مستر وود، وكان عميدا للكلية التبشيرية هنالك. فذهبت. وكان القسيس لا يعرف الأردية جيدا، كما كنت لا أعرف الإنجليزية جيدا، ومع ذلك دار الحديث بيننا، إذ ساعدني بالإنجليزية وساعدته بالأردية. قلت له: كيف نال إبراهيم وموسى عليهما السلام النجاةَ؟ فالطريق الذي نالا به النجاة سينال به الناس النجاةَ اليوم أيضا. قال: لقد نالا النجاة بإيمانهما بالمسيح. قلتُ: كيف ذلك وقد كانا قبله؟ علمًا أن القرآن الكريم أيضًا قد أثار هذا السؤال مفنّدًا زعم النصارى أن إبراهيم كان نصرانيا، فقال كان إبراهيم قبل المسيح، فكيف يُعَدّ من النصارى؟ فقلت للقسيس: إن ما تقوله باطل تماما. فما هو دليلك على أن إبراهيم وموسى كانا مؤمنين بالمسيح؟ قال: إن داود قد تنبأ بولادة شخص من أولاده يكون ابنًا له. قلت: لم يكن المسيح من

أولاد داود، فكيف تنطبق عليه هذه النبوءة؟ فقد ورد في الإنجيل نسب المسيح ﷺ في موضعين: متى ١: ١-١٦، ولوقا ٣: ٢٣، وقد جاء في الموضعين كليهما أن يوسف الذي تزوج مريم كان من أولاد داود! فكيف كان يسوع من أولاد داود و لم يكن ابنَ يوسف، بل قد وُلد من دون أب؟ والمعروف أنه لا يُنسَب الولد إلى أمه عند بني إسرائيل وإنما إلى أبيه. فالواقع أن ولادة المسيح من دون أب تتنافى تماما مع ادعائك بكون المسيح ابنَ داود. ثم كيف ثبت إيمان إبراهيم بالمسيح من خلال نبوءة داود؟ فداود هو الذي تنبأ بهذه النبوءة، فكيف ثبت بها إيمان إبراهيم بالمسيح؟ فقال القسيس: قد ورد أن إبراهيم وُعد برقي أولاده. قلتُ: إن المسيح لم يكن من نسل إبراهيم، وإذا كانت هناك نبوءة عن رقي أولاد إبراهيم، فإنها لا تخص إلا أولاده، أعني أنها تخص النبيَّ ﷺ لا المسيحَ الذي لم يكن ابن إبراهيم بل كان ابن الله. وإذا كان المسيح ابنَ إبراهيم فقد انتهت قضية بُنوته لله. وبعد نقاش طويل تضايق القس وقال: هناك مثل يوناني أن السؤال يمكن أن يثيره كل أحمق، ولكن لا بد للجواب من إنسان عاقل. وكان في طبعي حماس في تلك الأيام، فلم ألبث أن قلتُ: لقد جئتُك ظنًّا مني أنك عاقل. لقد عرفتُ فيما بعد أنني أخطأت في جوابي، إلا أنه كان قد سفّهني فرددت عليه قولَه.

إذن، فقد بيّن الله تعالى في قوله ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أننا لم نزل عبر العصور المختلفة نتزل للناس تعاليم مختلفة بحسب ضرورة كل عصر، وكل منها كان مناسبًا لحاجات إنسان ذلك العصر، إذ كان يستطيع الفوز برضا الله تعالى بالعمل به. فرغم رؤية سُنَّتنا هذه، فإن النيْل من الأنبياء السابقين واحتقار الأمم الأخرى -كما هو دأب المسيحيين- خلافٌ للعقل، كما أن إنكار التعليم المتكامل الذي نزل بعد المسيح يتنافى مع العقل.

باختصار، فقوله ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ تنبيه من الله للمسيحيين، حيث قال تعالى أيها الإنسان المغرور، لقد خلقك ربك كرمًا منه، أي جعل خَلْقَك نتيجة صفة كرمه، ثم بكرمه قد أزال منك كل عيب قد يعيق قيامك بمسؤولياتك، ثم بكرمه جعلك أكملَ من المخلوقات الأخرى، فلمّا فعل

لك كلَّ ذلك نسيتَ غاية خلقك، وانحرفتَ ناحية أخرى. الواقع أن مثلك كمثل ملكٍ يقوم بتعبئة جيش وتجهيزه وتدريبه ويعدُّ له العدّة من سلاح ومطايا، ويبعثهم إلى حربِ العدو، ولكنهم ما إنْ خرجوا من المدينة حتى توجهوا إلى الحانات لشرب الخمر ولعب الميسر. ألا يجلب هؤلاء عارًا على سيدهم؟ أيخاطبهم الله بقوله ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ليتأسف عليهم ويزجرهم، أم ليعلّمهم جوابًا يتخلصون به من المسؤولية؟ لا شك أن كلمة ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ تدل على أسف المحسن وسخطه، حيث يعدِّد نِعَمَه على من أحسن إليه، متأسفًا بأنه أراد شيئا، ولكن هذا فعل عكس ما أُريدَ.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

الدِين: الجزاءُ؛ المكافأة؛ الحساب؛ القضاء. (الأقرب)

التفسير: أي أننا نقول لكم القول الحق، أما قولكم أن خطاياكم ستغفر بإيمانكم بالمسيح ليس إلا مجرد عذر، والحق أنكم لا تؤمنون بالمغفرة وعدم المغفرة، إذ لا تؤمنون بالقيامة. وهذا ما نراه على صعيد الواقع، فحتى القسيسين أيضا لا يؤمنون بالقيامة إيمانًا حقيقيا. لقد وجدت أنهم حينما يتحدثون عن القيامة، فإنما يعنون بها نزول المسيح من السماء ثانية،✪ أما القيامة التي ستأتي بعد فناء البشرية فلا يوقنون بها.

✪ عقيدتهم هذه مذكورة في كتبهم. فمثلا هناك كتاب بالأردية باسم (دعائى عام) نشرَتْه "جمعية المعرفة المسيحية"، وقد جاء فيه ضمن أدعية الصباح أن على كل داعٍ أن يدعو كالآتي: أؤمن بالإله الآب القادر مطلق القدرة وخالق السماوات والأرض وبيسوع المسيح الذي هو ابنه الوحيد وربنا، والذي أُلقي في البطن بقدرة روح القدس ووُلد من مريم العذراء. لقد أُوذيَ في عهد بيلاطس وصُلب ومات ودُفن ونزَل في عالَم الأرواح، ثم أُحييَ من الموتى في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الإله الآب القادر مطلق القدرة، وسيأتي للعدالة بين الأحياء والأموات. (دعائى عام، (أردو) ص ١٠)

كما ورد في المرجع نفسه ص ٢٤٥ تحت عنوان: تعميد الأطفال علنًا: "إنه (المسيح) سيرجع من هناك في آخر الدنيا للدينونة بين الأحياء والأموات."

وسبب ذلك أنه لا ذكر للقيامة في الديانة اليهودية. أما نحن فنؤمن أن التوراة لا بدّ أنها ذكرت القيامة؛ إذ من المحال أن يخلو كلام الله من ذكرها، ولكن ليس في التوراة الحالية أي دليل قطعي على القيامة. لا شك أن القرآن قد أخبر أن اليهود كانوا يقولون لن يعذبنا الله إلا أياما معدودة، ثم يغفر لنا (البقرة:٨١)، إلا أن العثور على عقيدتهم هذه في مصادرهم القديمة أيضًا يتطلب منا جهودًا مضنية. فلو كانت كتبهم تذكر القيامة بكثرة لما اضطررنا لهذا البحث المضني. الواقع أن الديانة اليهودية قد ذكرت القيامة قليلا حتى إن معظم اليهود ينكرون عقيدة القيامة كلية، ولذلك يتكالبون على حطام الدنيا. وهذا هو حال المسيحيين أيضا، ولذلك يقول الله تعالى لهم ﴿كَلاّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.. أي لِمَ تستدعون عذاب الله بإنكاركم الصريح بالقيامة؟

ومن معاني قوله تعالى ﴿كَلاّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أن الإنسان إذا أحسن استخدام كفاءاته نال الراحة، وإذا أساء استخدامها وقع في العذاب. فكأن الله تعالى يقول لهم: ما دمتم تستخدمون قدراتكم الموهوبة مِن ربكم الكريم في عصيانه، فلا بدّ أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم، وتروْا عاقبته الوخيمة في النهاية.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ



التفسير: يتضح من القرآن الكريم في مواضع أخرى أن الله تعالى يحفظ أعمال الإنسان وأن الملائكة تتكفل بذلك، كما تنصّ الأحاديث الصحيحة على هذه الحقيقة. فتسجيل الأعمال أمرٌ لا شك فيه، ولا خصوصية للمسلمين فيه، فأعمال المسيحيين واليهود والزرادشتيين وغيرهم أيضًا ستسجل. فأعمال كل إنسان تسجَّل سواء أكان

فقد اتضح من الجملة الأخيرة تمامًا أن المسيحيين يروْن أن القيامة هي المجيء الثاني للمسيح. (المفسر)

كافرا أو متدينا، مؤمنا أو مشركا، وسيسأل عنها يوم القيامة. واختراع جهاز اللاسلكي في هذا العصر قد أكد بيان القرآن الكريم أكثر، إذ ثبت به أن كل حركة يقوم بها الإنسان، مهما كانت خفيفة، تنتشر في الجو، وبتعبير آخر إنها تسجَّل في الجو فورا. وإلى متى ستظل تلك الحركة أو الصوت محفوظة في الجو؟ أما أنا فإني آمل دائمًا أن يأتي زمان نسمع فيه أصوات السابقين عبْر جهاز ما، فنسمع به صوت نابليون بونابرت من فمه مثلا؛ أو إذا لم نستطع سماع أصوات السابقين فقد يُخترع جهاز نسمع به الأصوات التي تنتشر الآن في الجو بعد يومين أو أربعة أو عشرة. ولا شك أن المذياع والفونوغراف يحققان هذا الهدف حيث يخطب ملِكُ بلد ويعاد خطابه بعد يومين أو أربعة مثلا. إذن، فاللاسلكي والفونوغراف قد أثبتا معًا صدق القرآن الكريم. الحقيقة أن أي عمل للإنسان لا يضيع، بل يترك بصمته حتمًا بطريق أو آخر، فيظهر بعد عدة أجيال أحيانًا. كان الناس في الماضي يقولون في استغراب: كيف يمكن أن تُكتب أعمال الإنسان؟ ولكن اللاسلكي والفونوغراف قد هيّآ دليلاً جديدا على صحة بيان القرآن الكريم.

إن كل ما قاله القرآن الكريم عن يوم القيامة نؤمن به ونوقن أنه واقع حتمًا في يوم من الأيام، فتشهد يد الإنسان ورِجله على أعماله ونوعيتها. قد يكون في يوم القيامة جهاز توضع عليه أعضاء الإنسان من يد ورجل ولسان وغيرها، فتخبر كلّ ما فعل بها، وكأن مسجِّلا سيعمل ويقول للإنسان: تعال واسمعْ ما كنت تأتيه من أعمال، فيسمع أنه يُسبِّح حينًا، ويسبّ حينًا، ويكذب حينًا، فينتابه الخجل والندم. لقد جاء في القرآن الكريم عن المؤمنين أنهم يحاسَبون حسابا يسيرا (الانشقاق:٩)، ومعناه عندي أن الله تعالى يريد العفو عن المؤمن، فلن يفضحه يوم القيامة بالسؤال عن أعماله بالتفصيل، وإنما يكتفي بالسؤال عما إذا كان حسابه الإجمالي صحيحا أم لا، فإذا كان حسابه الإجمالي على ما يرام، فيقول الله: خُذوه إلى الجنة؛ وهكذا تظل سيئاتهم في الخفاء. أما مَن لم يكن حسابه الإجمالي صحيحا، فيقول الله تعالى أَخرِجوا سِجِلَّ أعماله واعرضوه عليه كله، وهكذا ستُعرض عليه سيئاته واحدة تلو الأخرى، فيُفضح ويخزى أمام الأولين والآخرين.

أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ خاصا بالمسيحيين، فالمراد من الحافظين الكرام الكاتبين في رأيي هو المبعوثُ الرباني في هذا الزمن وجماعتُه. إذًا فالله تعالى يخبر هنا المسيحيين: سنأتي بقوم يسجّلون أعمالكم الوثنية ويحفظونها جيدًا، لأن مهمتهم إبطالُ أعمالكم الشركية والقضاءُ على سمومها. فلأن مهمتهم تفنيد عقائدكم الوثنية فلسوف يسجّلون ما تفعلون وسيعلمونه جيدا.

قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يعني أنهم سيعلمون كل ما يفعله المسيحيون، بل المراد أنهم سيعلمون حقيقة أعمالهم جيدا؛ ذلك لأن المسيحية تخدع الناس وتحاول تصوير سيئاتها أمامهم كحسنات، ولكن هؤلاء القوم لن يقعوا في خداعها، وسيعرفون نواياها، ويعلمون حقيقة سرائر المسيحيين جيدًا.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٤ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٥ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٦

شرح الكلمات:

الأبرار: جمعُ البَرِّ. وبرَّ والدَه: أحسنَ الطاعة إليه ورفِقَ به وتحرَّى مَحابَّه، وتَوقّى مكارهه. (الأقرب)

فالأبرار هم الذين يحسنون الطاعة، ويعاملون برفق، ويعملون جاهدين لكي يفوزوا برضى الله ويتجنبوا سخطه ﷻ.

نعيم: النعيم: المالُ؛ الدَّعَةُ، ورجلٌ نعيمُ البال: هادئُ البال مرتاحه؛ ونعيمُ الله: عطيَّته. (الأقرب).

إن كلمة ﴿النعيم﴾ تُوهِمنا نحن غيرَ العرب كأنها صيغة جمعٍ، وكنتُ أظن هكذا لمدة طويلة، وقد ترجمها المولوي محمد علي المحترم أيضا بصيغة الجمع، ولكنها ليست كذلك، وإنما معناها النعمة فقط.

التفسير: يبدو من قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ أن المؤمنين في نعيم، وأن الفجّار في جحيم، غير أن الله تعالى قد أوضح بعد ذلك ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾.. أي أنهم سيدخلونها يوم الجزاء.

لا شكّ أن كلمة (يَصْلَون) تُستعمل لدخول النار لا لدخول الجنة، وقد وردت بحق الكفار هنا، ولكن من الأساليب العربية أنهم يستعملون الفعل الخاص بأمر قاصدين به الأمر الآخر أيضا؛ ويبدو أن الله تعالى لم يذكر هنا دخول المؤمنين الجنةَ لأنه مفهوم - ضمنيًا- من دخول الكافرين النار. وعليه فستعني هذه الآية أن التدبر سيكشف عليكم، أيها المسيحيون، أن لا حاجة بكم للانتظار حتى بعد الموت، بل سترون أن المؤمنين في الجنة في هذه الدنيا نفسها وأن الكافرين في النار في هذه الدنيا نفسها؛ أي أن قلوب الكافرين تفتقر إلى الطمأنينة التي تملؤها سكينةً، فيرون رغم أموالهم وثرواتهم أن جهودهم لا تأتي بالنتائج المرضية، وعلى النقيض يجدون المؤمنين يتمتعون باليقين والأمل رغم ما هم فيه من شدة وضيق ومصائب في الظاهر، وأنهم ينعمون بالجنة في هذه الدنيا برؤية انتصار دينهم ومستقبلهم المشرق.

الواقع أنّ مَن ليس عنده إيمان صادق بالله تعالى فلن يجلب له ثراؤه -مهما بلغ- سكينةً ولا سلوانًا. إن فلاسفة أوروبا متفقون كلهم أن قلوب الأوروبيين قد خلت من السكينة، ورغم ما عندهم من ثراء وقوة في الظاهر إلا أن في قلوبهم قلقًا واضطرابا أفقدهم المتعة بثرائهم؛ فلا يجدون الطمأنينة رغم توافُر شتى أسباب الراحة والهدوء، بل هناك جحيم تشتعل في قلوبهم دائما. ولكن المؤمن يشعر كأنه في الجنة في هذه الدنيا. لا يكون عنده مال ولا ثراء، ولكن قلبه مطمئن فيشعر كل حين أنه في جنة الله.

هناك حادث شهير للمسيح الموعود عليه السلام يبين كيف أن المؤمن في الجنة دائمًا. رُفعتْ إلى قاضٍ قضية ضد المسيح الموعود عليه السلام، فأُخبر أن القاضي مصمِّم على معاقبته عليه السلام. وكان الخواجا كمال الدين هو الذي أتاه بالخبر وكان خائفًا مما سيحدث. فلما سمع المسيح الموعود عليه السلام الخبرَ احمرَّ وجهه وقال: إذا كان القاضي يقدر على محاربة أسد الله فليفعل وليَرَ عاقبته. إنه لو حاول الهجوم علينا فلن نصاب بأي أذى، بل سوف يصاب هو بجراح بالغة. (سيرت طيبة (أردو) ص ٢٦٢)

فلأن المؤمن يثق بالله ثقة كاملة فيكون قلبه مطمئنا بأنه مهما كبرت المصيبة التي ستحل به، فإن الله تعالى سينصره، وهكذا يكون المؤمن في الجنة في هذه الدنيا نفسها.

وهناك حادث للنبي ﷺ وهو مثال منقطع النظير على عيش المؤمن في الجنة في هذه الدنيا. لما كان النبي ﷺ وأبو بكر مختفيَيْن في الغار، وجاء العدو على مدخل الغار واقترب منه جدًّا، خاف أبو بكر أن يراهما العدو لو نظر داخلَ المغارة قليلا. فنبه النبيَّ ﷺ إلى الخطر، فقال ﷺ بمنتهى الهدوء: لا تحزن، إن الله معنا. (سورة التوبة: ٤٠، والروض الأُنُف مجلد ٢ حديث الغار). فالمؤمن يعيش في الجنة كل حين، والكافر يعيش في النار كل حين. إذًا فالجنة والنار ملازمتان لكل إنسان، فإما أنه يحترق في الجحيم كل حين، أو ينعم بالجنة مطمئنا كل حين. ولو كان عند المرء بصيرة لرأى هذه الجنة والجحيم في الدنيا نفسها، ولكن الله تعالى يخبر أن هؤلاء الكافرين لا يرون هذه الجحيم بعد، ويظنون أن المؤمنين في الجحيم وأنهم في الجنة، ولكن لا تقلقوا لأننا سوف نكشف عليهم هذا يومَ الدين ونريهم بأعينهم الجحيم التي يحترقون فيها الآن سرًّا. يومئذ يعترف العدو أنه في الجحيم وأن المؤمن في الجنة.

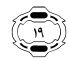
وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٧﴾

التفسير: أي أن هؤلاء سيسعون جاهدين لكي لا يدخلوا هذه الجحيم، ولكنهم لن ينجوا منها، وسيأتي يوم تُحطَّم فيه قوتهم، ويُقضى على حُكمهم، يومئذ يُسحَب البساط من تحت أقدامهم. والحق أن هذه الحرب الجارية في هذه الأيام• جحيم بعينها، وقد قوّضت قوتهم، حيث بدأوا يشعرون أن انحطاط أوروبا وشيك. وكما أخبرني الله تعالى أيضًا – قد أشعتُ هذا الخبر منذ سنتين– أن هناك استعدادات في السماء لحرب شديدة أخرى، بسببها سيأتي يوم لا يقولون فيه أن زوال أوروبا قريب، بل يقولون إن زوالها قد أتى فعلا. لا شك أن الكافرين بالدين الحق سيدخلون الجحيم يوم القيامة، ولكنهم سيصلونها في الدنيا أيضا. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، ولن ينجوا منها. إنهم لن

• يشير حضرته رضي الله عنه إلى الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

يألوا جهدًا للنجاة من هذه الجحيم، بل يسعون جاهدين لإغلاق أبوابها - بإنشاء جمعيات كعصبة الأمم مثلاً حينًا، وباتخاذ تدابير أخرى لإطفاء هذه النار حينا آخر - ولكن تدابيرهم ومحاولاتهم كلها ستبوء بالفشل. سيودّون أن يغيبوا عن ذلك اليوم، ولكنهم ما هم عنه بغائبين. سيبذلون كل ما في وسعهم لينجوا من هذه الجحيم، ولكن لن ينجوا منها.. بل سينقلب عليهم كل تدبير، وسيُدفَعون أكثرَ وأكثرَ إلى الجحيم التي قُدِّر لهم دخولها.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ



التفسير: اعلم أنه حيثما وردت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في القرآن مكررةً فإنها قد أُعيدت لشرح الموضوع المذكور هنالك، و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو الموضوع المذكور هنا، فأعيدَ قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ليشرح معنى يوم الدين هنا. وكأن تعالى يقول إن أيام الدين كثيرة، وها نحن نخبركم ما نعنيه هنا من يوم الدين. ولو لم يكن إعادة قوله ﴿ومَا أَدْرَاكَ﴾ من أجل شرح الموضوع نفسه، لصار تكرارًا عابثًا، لأن ما قيل من قبل هو أيضا مما أخبر الله به و لم يعْلَمه الإنسان بنفسه، وبالتالي فقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يصبح بلا معنى. لو كانت الأمور المذكورة من قبل مما علِمه الإنسان بنفسه، لفهِمنا أنه تعالى يقول له إن هذه الأمور تعرفها، ولكن ماذا تعرف عن يوم الدين؟ ولكن حيث إن الإنسان لم يعلم هذه الأمور أيضًا إلا بإخبار رباني، فكيف يعرف حقيقة يوم الدين من دون إخباره؟ مما يدل بوضوح أن الله تعالى لم يكرر قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ إلا ليبين مراده من يوم الدين هنا. وكأن الله تعالى يقول: تعالوا نخبركم ماذا نعني من يوم الدين هنا.

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿٢٠﴾

التفسير: أرى أن المراد من النفس هنا النفس المسيحية المذكورة في قوله تعالى من قبل ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، والمعنى أن تحالفات الشعوب المسيحية الأوروبية لن تغني عنهم شيئا. إنهم سيسعون من خلال شتى التحالفات والمنظمات والهيئات مثل عصبة الأمم لأن يتجنبوا هذا العذاب، ولكن لن تنفعهم أحزابهم ولا اتحاداتهم ولا عُصبهم شيئًا، ولن ينجوا من العذاب.

وحيث إن أساس المسيحية هو الكفارة، فيمكن أن يعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أن كفّارتهم لن تجديهم شيئا إزاء هذا العذاب.

أما قوله تعالى ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذ لِلَّه﴾ فمفهومه واضح بالنسبة إلى يوم القيامة. أما بالنظر إلى هذه الدنيا فالمعنى أن النصارى يدْعون منذ تسعة عشر قرنا متتالية: "يا رب، ليكنْ ملكُك في الأرض كما في السماء" (متى ٦: ١٠)، ولكنهم فشلوا في إرساء مُلك الله في الأرض كما هو في السماء في هذه المدة المديدة، ولكن الله تعالى سيقيم جماعة أخرى ستنجح في إنزال حكم الله من السماء إلى الأرض وإقامة ملكوته في الأرض. فكأن المهمة التي فشلوا فيها طوال تسعة عشر قرنا ستنجزها جماعة ربانية أخرى، وسوف ينفّذ حكم الله على الأرض. ليس لله جسم حتى ينـــزل به على الأرض، وإنما المراد من مجيئه إقامة مُلكه، وهذا ما تنبئ به هذه الآية بأن ملكوت الله سيقام في الأرض في الزمن الأخير، وسيأتي الحق وسيزهق الباطل. وبهذا الخبر قد أزال الله تعالى اليأس الذي قد يستولي على القلوب نتيجة دراسة الآيات السابقة، حيث طمأن الله المؤمنين بأن لا تُراعوا، ولا يستولينَّ اليأس على قلوبكم بسماع خبر صعود القرآن من الأرض إلى السماء ووصولِ الإيمان إلى الثريا وغلبةِ الكفر على الدنيا وانتشارِ الشرك والمعصية بين الناس واختفاءِ وجه رسول الله الأغرّ عن أعين الناس وخلوِّ القلوب من شوق اتباع الصحابة ، فإننا نبشركم: ﴿الأَمْرُ يَوْمَئِذ لِلَّه﴾.. أي لا جرم أن فتنة المسيحية كبيرة جدا، ولكننا قد قررنا إقامة حكم القرآن والإسلام في الدنيا، وليس في الدنيا قوة تقدر على أن تبدّل قرارنا هذا. سنقيم الإسلام ثانية، ونوطد حكم القرآن

مرة أخرى، ونرسي حُكم محمد ﷺ في العالم كله. فلا داعي للقلق ولا مجال للقنوط، بل إن الموقف يبعث على الابتهاج والسرور، لأن الإسلام سيستردّ مجده الغابر، ويصبح غالبا على العالم كله مرة أخرى.

سورة المطففين

مكية، وهي سبع وثلاثون آية مع البسملة

هناك اختلاف حول زمن نزول هذه السورة، فيرى بعض المفسرين أن آياتها الست الأولى.. أي حتى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين﴾ مدَنية، بينما يرى البعض الآخر أنها كلها مدَنية (الدر المنثور، والإتقان). غير أنها مكية عند معظم المفسرين. وهذا هو المسجل في المصاحف المطبوعة في بلادنا.

اللافت للنظر أن الباحثين الأوروبيين الذين ناقشوا هذا الموضوع قد اعتبروا هذه السورة مكية، وذلك خلافًا للقواعد التي وضعوها لبحث هذا الموضوع، فكان من المفروض أن يعتبروها مدَنية بحسب اتجاههم المعادي للقرآن، خاصة وقد اعتبرها بعض المفسرين مدَنية، ولكن من التصرف الرباني الغريب أنهم اعتبروها مكية، بل من أوائل ما نزل بمكة. فالبروفيسور الألماني نولدكه والسير وليام موير كلاهما قال إنها نزلت قبل الهجرة بأربع سنوات تقريبا (تفسير "ويري" للقرآن الكريم). والحق أن هذا هو الرأي الصائب؛ فإنها سورة مكية ومن أوائل ما نزل في مكة.

هناك أسس مختلفة وُضعتْ لتحديد المكي والمدني في سور القرآن، أوّلُها: الروايات التي رواها المسلمون المعاصرون لنـــزول القرآن، فقالوا إن السورة الفلانية نزلت في وقت كذا حسب علمهم. وثانيها: أحيانًا لا يذكرون هذه الروايات بناء على علمهم، بل بناء على اجتهادهم، مثلاً يقولون ذهبنا إلى المدينة في وقت كذا، فقُرئت علينا هذه السورة عندها، ولذا فهي مدَنية. مع أن من الممكن أن تكون السورة قد نزلت في الفترة المكية ولكنهم سمعوها عندئذ. وثالثها: بناء على الأحداث المذكورة فيها. ورابعها: بناءً على بعض كلماتها المعينة، فيقولون مثلا: هذه الكلمات كانت تُستعمل في الفترة المكية. وخامسها: يعتبر المستشرقون السورة مدَنية إذا كانت مواضيعها مفصلة، لأنهم يرون أن القضايا التفصيلية قد

وردت في السور المدَنية. سادسها: يحددون زمن السورة من أسلوب بيانها، فمثلاً إذا كانت طويلة الآيات اعتبروها مدَنية، وإذا كانت قصيرة الآيات اعتبروها مكية. وسابعها: إذا ذُكر اليهود في سورة اعتبرها المستشرقون مدَنية. وثامنها: إذا جاء في سورة حُكم شديد بحق الكفار قالوا إنها مدنية.

والحق أن الأساس الأول من هذه الأسس هو القطعي اليقيني، أما باقيها فكلها ظنية، ولا يتورع المستشرقون في استعمالها سلاحًا للهجوم على الإسلام. إن بعض هذه الأسس باطل بصورة قاطعة، ولكن ليس هذا مجال هذا البحث. ثم إن المستشرقين يخالفون هذه الأسس أيضًا إذا ما كان لهم غرض معين يريدون تحقيقه أحيانا، كما أشرتُ - وسأظل أشير- إلى ذلك أثناء تفسيري في أماكن مختلفة.

الواقع أن المستشرقين يريدون من اللجوء إلى بعض هذه القواعد أن يُظهروا أن محمدا قد تعلّم من اليهود والنصارى ما ذكره في القرآن الكريم. فمثلاً إذا لم ترد تعاليم اليهود والنصارى مفصلةً في السور المكية، قالوا لقد ثبت من هذا أن هذه التعاليم إنما ذُكرت في السور المدنية لأن محمدًا تعلّمَها بمخالطة اليهود والنصارى في المدينة. والحق أن المفسرين المسلمين الذين يبنون رأيهم في هذه الأمور على هذه الأسس والأدلة الضعيفة إنما يقوّون أيدي المسيحية من حيث لا يدرون. مع أن هذه الأدلة والمبادئ ليست إلا اجتهادية فقط، وتحديد الأحداث التاريخية بناء على الاجتهاد طريق خاطئ تمامًا؛ إذ لا يصح في مثل هذه القضايا إلا الشهادة التاريخية القطعية أو القياس الداخلي للحادث بشرط أن يكون سياق القرآن مؤيدا لذلك. وهذا الموضوع طويل جدا لا يمكن الإحاطة به الآن، وإنما نبهتُ إليه ضمنيا، إذ يقتضي هذا الموضوع أن يؤلَّف حوله كتيّب مستقل. ففيما يتعلق بكون السورة مكية أو مدنية، فإننا نقبل الروايات الصحيحة والبحث المدعوم بالتاريخ، أما الأمور الاجتهادية البحتة منها فقد وضع هؤلاء بصددها قواعد خاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة مما يستغلها أعداء الإسلام استغلالا مشينا، ولسنا لنقبل مثل هذه الأمور أبدا. على أية حال، وكما قلت فإن هذا الموضوع يتطلب أن يؤلَّف حوله كتيب مستقل، يبحث في هذا الموضوع ويناقشه بالتفصيل، ويبين خطأ استدلالاتهم بصدد

ترتيب القرآن الكريم، وكيف يمكن تدارك هذه العيوب. ندعو الله تعالى أن يوفق أحدا من جماعتنا، أو يوفقني أنا، لتأليف كتيّب مستقل حول هذا الموضوع، لأنه ضروري جدًّا. الواقع أن كتاب "الإتقان" للإمام السيوطي هو أول محاولة في هذا المجال، ولكن قد وقعت فيه بعض الأخطاء. وهناك حاجة ماسة أن يُكتب كتاب الإتقان الحقيقي، لأن الإتقان معناه القول المحكم القوي، ولكن السيوطي أورد في إتقانه بعض الأمور الضعيفة خطأً كما قلتُ. فلا بد من تأليف كتاب "الإتقان" بحيث يكون متقنا بالفعل، ويتناول هذه القضية على أسس سليمة، ويفنِّد الأمور الخاطئة.

ترابُطها بما قبلها:

لهذه السورة صلتان بما قبلها، صلة قريبة وصلة بعيدة. إن خبرتي تؤكد أن كل سورة -تقريبا- وثيقة الصلة بغيرها من السور، كما أن لكل سورة صلتين بالسور الأخرى: صلة قريبة وصلة بعيدة.. أي أن هناك ما يربطها بالآيات الأخيرة من السورة السابقة، وهناك ما يربطها بموضوع السور السابقة. ثم إن هذه الصلة من النوع الثاني تنقسم إلى قسمين، صلة تربط السورة بموضوع السورة السابقة أو التي قبلها بحيث تكون كل هذه السور حلقات من سلسلة موضوع واحد، وأحيانًا هذه الصلةُ تربط السورةَ بست أو سبع أو عشر سور سابقة. والحمد الله على أنني أول من فهم هذا الموضوع إلى حد ما. لقد علمتُ بفضله تعالى ما بين سورة وأخرى من صلة قريبة، وما يربط عدة سور من حيث الموضوع المذكور فيها، ومع ذلك عندي انطباع أنّ بيْن السور علاقة يمكن أن نسميها بعيدة وأبعدَ، ولكن لم أجد فرصة لحلّ هذا الموضوع بصورة كاملة لكثرة مشاغلي، ولا أرى أني سأتمكن من ذلك في المستقبل لتكاثر أعمالي باستمرار، فأضع أمامكم اقتراحا لحل هذا الموضوع.

في رأيي أنّ على المرء أنْ يستكتب سور القرآن على أوراق منفصلة ويعلقها في غرفة كما تُعلَّق الخرائط، وينظر إليها بتدبر كلما وجد فرصة، وهكذا سيطّلع حتمًا على ما يوجد بينها من رابط. وإذا تمكن من الاطلاع على الرابط الموجود بين

مجموعة من السور، فيُلعمِلْ فكره على مجموعة أخرى، وهكذا دواليك. لو اتبع هذه الطريقة مَن عنده فرصة وشوق للتدبر في القرآن الكريم لانتفع بها كثيرا.

والصلة القريبة لسورة المطفّفين بالتي قبلها تكمن في أن الله قال في آخر سورة الانفطار ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّه﴾، وهذا يعني أن الله تعالى قد تحدث هنا عن المحاسبة، مبيّنًا أن هذه الخسارة لن يتكبدها إلا أنتم. بينما قال الله الآن في هذه السورة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ليبين أن مَن كان عليه حساب فلْيُسَوِّه بلا نقصان أو تخسير. وهذا هو الأمر الذي قد حثّ عليه المسيح عليه السلام، ولكن المسيحيين أهملوه، حيث قال عليه السلام: "طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ" (مَتَّى ٥ :٧)، وقال: "إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ، لا يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَّتِكُمْ" (مَتَّى ١٤:٦-١٥). وهذه هي الحقيقة التي بينها الله هنا في القرآن الكريم، ونبّه المسيحيين أنهم ماثلون أمام الله تعالى، فإذا أرادوا تجنُّبَ الخسران يوم القيامة، فعليهم ألا يبخسوا الناس حقوقهم.

الغريب أن المسيحيين أخذوا يقولون نستطيع أن نرحم، ولكن الله لا يستطيع أن يرحم الناس، مع أن المسيح عليه السلام قد نبههم هنا أن الله تعالى سيرحمكم بسبب رحمتكم بالناس، حيث يقول: ارحموا الناس حتى يرحمكم أبوكم السماوي. وهذا يعني أننا بحاجة إلى الرحمة بالناس لكي يرحمنا ربنا، ولكن المسيحية الحالية تقول إن الناس يمكن أن يرحموا، ولكن الله غير قادر على أن يرحم الناس. كم هو متعارض هذا التعليم مع تعليم المسيح عليه السلام!

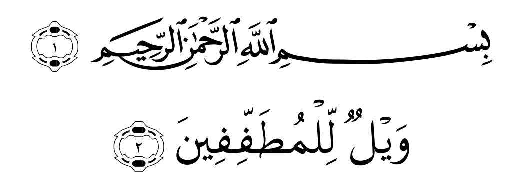
المهم أن الله تعالى يقول للمسيحيين هنا في القرآن الكريم: يجب أن تتذكروا أنكم تتعاملون مع الله تعالى، فإذا أردتم أن يعاملكم الله برفق ولطف، فعاملوا عباده برفق ولطف. فقوله تعالى ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّه﴾ يشير إلى معاملة الله مع الناس، وقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يشير إلى معاملة الناس مع الناس، حيث نبّه الله العباد أن عليهم أن لا يغشّوا في معاملتهم مع الناس، لكي يعاملهم الله برفق. إذًا فأواخر سورة الانفطار تؤكد قولاً للمسيح الناصري عليه السلام، أما أوائل سورة المطففين فتؤكد قولاً آخر له عليه السلام.

أما الصلة البعيدة لهذه السورة بالتي قبلها، فهي أن السورتين السابقتين تتحدثان عن المسيحية. والحق أن جزأين كبيرين من أعمال المسيحيين خطيران جدا؛ الجزء المتعلق بالدين، والجزء المتعلق بالشعوب الأخرى. وسوءُ أعمالهم فيما يتعلق بالدين ظاهر من أنهم يشركون بالله ويتخذون المسيح ابنًا لله ويقضون على وحدانية الله. وقد أُشير إلى الأمر نفسه في السورة السابقة في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي كنا أخبرنا أن السماوات تكاد يتفطرن من شناعة شرك هؤلاء القوم، وها قد جاء وقته وقد انفطرت السماء فعلا لظلمهم العظيم. والجزء الثاني من أعمالهم يتعلق بتحالفاتهم وسوء معاملتهم مع الشعوب الأخرى كلها. فبعد أن نبّه الله تعالى في السورة الماضية إلى سوء أعمال المسيحيين الدينية فقد بيّن الآن في هذه السورة أن معاملتهم مع الشعوب الأخرى تكون سيئة جدا، حيث ينهبون خيراتها، وتكون معاهداتهم ومعاملاتهم ذات وجهين دوما، ستكون معاملاتهم فيما بينهم على عكس معاملاتهم مع الشعوب الأخرى. باختصار، إن التطفيف علامة بارزة للمسيحيين. ولن تجد لتحالفات الشعوب الأوروبية مثالا بين الأمم في التاريخ كله. إن هؤلاء ملحدون لا علاقة لهم بالمسيحية من حيث العقائد، ولكن كلما تعلّقَ الأمر بالمسيحية انحازوا إليها، وساندوها رغم كونهم ملحدين. فالألمان ملحدون، ولكنهم يعاملون المسيحيين على عكس ما يعاملون الأمم الأخرى؛ يصبّون أقسى الفظائع على اليهود، ولكن يعاملون المسيحيين برفق. والحال ذاته بالنسبة إلى الإنجليز والأمريكان، فليس عندهم أي دين في الحقيقة، ولكنهم لا يطيقون اندثار اسم المسيحية. فمثلا في هذه الحرب الجارية يدفعون المسلمين والهندوس إلى المعارك ليُقتَلوا ويمزَّقوا، ويقولون إننا نريد إقامة الحضارة المسيحية، مع أنه ليس هنالك شيء اسمه الحضارة المسيحية. هناك حضارة معاصرة، ولا علاقة للمسيحية بها لا من قريب ولا من بعيد، ومع ذلك يقولون إن كل ما نقوم به إنما نقوم به لإقامة الحضارة المسيحية في العالم.

الغريب أن الشعوب المسيحية تظلم بعضها بعضا أيضا، ولكن نطاق هذا الظلم محدود جدا، وكأنهم جعلوا للظلم نطاقين، نطاق ظلم المسيحيين ونطاق ظلم غير

المسيحيين. وعندما يتعلق الأمر بظلم الشعوب الأخرى فكل الشعوب المسيحية تتحد ضدهم متناسية ما بينها من خلافات.

فالحق أن هؤلاء يرتكبون نوعين من الظلم، ظلم يتعلق بالله تعالى وظلم يتعلق بمخلوقه. وحيث إن ظلم المسيحيين بخلق الله كان جزءا آخر من أعمالهم لذلك قد جعل الله لذكره بابا منفصلا، أعني أنه تحدث عنه في سورة منفصلة، فكما أن الثورة المسيحية كانت هامة جدًّا بين ثورات الزمن الأخير، لذلك أنزل الله تعالى لذكرها سورة منفصلة، كذلك لما كان المسيحيون يرتكبون نوعين من الظلم العظيم، ظلم يتعلق بالله وظلم يتعلق بمخلوقه، فقد ذكر الله ظُلْمَهم به ﷻ في سورة الانفطار، وظُلْمَهم بالناس في سورة المطففين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

ويلٌ: كلمةُ عذاب. (الأقرب)

للمطففين: طفَّف المكيال: نقَصه. وطفَّف الوزنَ: نقَصه. وطفَّف على عياله: قتّر عليهم. وطفَّف على الرجل: أي أعطاه أقلّ مما أخذ منه. (الأقرب)

التفسير: إن هذه علامة مميزة للأوروبيين فإنهم لا مثيل لهم في اغتصاب حقوق الآخرين. إن المبدأ الأساس لسياستهم واقتصادهم هو غصب حقوق الشعوب الأخرى. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يذكر أمرًا قد ترك في نفسي وقعًا عميقا؛ حيث كان يقول: إن بعض الشعوب يَلقَون الذل بأخذ الربا، وبعضها بإعطاء الربا، ولكن أمر الشعب المسيحي غريب، فإنهم ينهبون الآخرين بأخذ الربا منهم، كما ينهبونهم بإعطاء الربا. فكان رضي الله عنه يقول: إن مثال نهبهم للناس بأخذ الربا واضح مما تعطي بنوكهم الناسَ من قروض، أما مثال نهبهم الناسَ بإعطاء الربا فهو ما فعلوه بالولاية الهندية "أوده". ولما قمتُ بتحرّي الأمر في المصادر التاريخية

وجدتُ قوله ﵁ صوابا تماما، فإنهم بالفعل نهبوا ولاية "أوده" بإعطاء الربا. لقد أعلنوا بين الناس أن من يضع نقوده في بنوكهم في مدينة "كولكتا" فسوف يعطونه ربحا كبيرا. فوضع الناس أموالهم في بنوكهم حتى إن النساء بِعْنَ حليهن ووضعن أموالهن في بنوكهم، فأعطوهم أرباحا كبيرة، فظنّ الناس أن الإنجليز خيّرون، إذ يعطون الأرباح بسخاء! ولما حصل الخلاف بين الإنجليز ومَلِك هذه الولاية، وزحف الجنود الإنجليز على عاصمته "لكهناو" فإن أمراء الملك أخفوا عنه كلية تقدُّمَ الجنود الإنجليز، لأنهم لما اقتربوا من العاصمة تلقّى جميع أمراء ولاية "أوده" إنذارا من الإنجليز أنهم لو فعلوا ضدهم أي شيء فسوف يجمّدون أموالهم المودعة في بنوكهم. فظلوا صامتين ولم يعلَم الملكُ بالجيش الإنجليزي إلا بعد أن طرق أبواب العاصمة. ويقول البعض إن الأمراء دعوا المِلك إلى مشاهدة الرقص لإغفاله عن زحف الإنجليز الذين داهموه وهو منهمك في مشاهدة الرقص. (حقائق الفرقان، سورة البقرة، قوله تعالى: الذين يأكلون الربا)

فالواقع أن الشعب المسيحي قد نهب الآخرين بأخذ المال وبإعطاء المال أيضا. إنهم المطففون حقًّا. ويجعلون حقهم حقّ فوق الآخرين في كل قضية. وإذا كان للآخرين حق عليهم فيعترضون ألف اعتراض عند أدائه. فالسؤال الذي يفرض نفسه: ما هو السبب الذي جعلهم لا يأبهون بالعالم كله؟ وما هي المبررات التي بسببها قد بسطوا سلطانهم على العالم؟ هم يتدخلون في الصين والهند، ويضغطون على أفغانستان، ويتدخلون في بخارى وتركستان الصينية والقفقاس وجورجيا، ويتصرفون في سياسات الدول العربية، ويتدخلون في معاملات تركيا، وقد استولوا على مصر والبلاد الإفريقية. ما ذنب الناس أنهم يُغلبون أمامهم في كل مكان، وهم يغلبون دوما؟ إنما سببه أن القوة بيدهم. مثلهم كمثل القرد الذي أكل قطعة الجبنة التي عثر عليها قطان؛ فيحكى أن قطَّين سرقا قطعة جبن، ثم اقتتلا عليها، فكان أحدهما يقول حصتي كذا والآخر يقول حصتي كذا. وأخيرا احتكما إلى قرد ليوزعها عليهما بعدل، فأخذ القرد ميزانا وقطع القطعة نصفين، ووضعهما في الكفتين، فلما حمل الميزان وجد فرقا بين الكفتين، فبدلا من أن يأخذ قطعة صغيرة

من الكفة الراجحة ويضعها في الكفة الناقصة وضع القطعة الكبيرة في فمه وأكل منها قطعة كبيرة، ثم وضعها في الكفة، فرجحت الكفة الأخرى، فأكل هذه المرة من القطعة الأخرى قطعة كبيرة، وهكذا ظل يأكل الجبنة مرة من هنا ومرة من هناك، حتى لم يبق من الجبنة إلا القليل، فأدرك القطان أنهما قد ارتكبا حماقة بوضع الجبنة في يد القرد، فإنه سيأكلها كلها هكذا، فقالا له: جناب القرد، أعطِنا الآن الجبنة لنتقاسمها بأنفسنا، فقال القرد: لم يبق من الجبنة الآن إلا أُجرتي، فالتهمَ بقية الجبنة!

هذا هو مثال الأمم المسيحية؛ كلما يسوّون قضية قوم يقولون: حقنا فيها كذا، ويحاججون على حقهم هذا حتى يأكلوا البلد كله، والنتيجة النهائية أن الذين يطالبون بالحق يظلون محرومين منه، وهذه الأمم تنهب كل حقوقهم وتستولي على بلدهم.

ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

اكتالوا: اكتال منه واكتال عليه اكتيالا: أخَذ منه وتَولّى الكيلَ بنفسه. (الأقرب).

فالمراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾

أنهم يأخذون المكيال بأيديهم عندما يأخذون حقهم من غيرهم، ويأخذونه وافيًا حسبما يحلو لهم.

التفسير: لقد استعمل الله تعالى هنا كلمات لبيان عيب للأمة المسيحية كان يمكن بيانه بغيرها من الكلمات أيضا. مثلا كان من الممكن أن يقول الله تعالى إنهم عندما يتاجرون يأخذون حقهم كاملا، ولكنه تعالى لم يقل هكذا بل قال ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، وذلك ليخبر أنهم يتخذون المعاملة كلها في أيديهم، ويكون لهم الخيار كله لاتخاذ القرار، سواء أكان عليهم أن يأخذوا حقهم أو أن يعطوا غيرهم حقوقهم. إن الأحداث اليوم تؤكد هذا النبأ. أيا كانت القضية فإن خيارها يكون في أيديهم. خذوا مثلا قضية

استقلال الهند، فمن المحال أن يجتمع الزعماء الهنود ويتخذوا قرار الاستقلال بالتشاور فيما بينهم. يقول الإنجليز يمكن أن تتشاوروا وتفكروا معا، ولكن ليس لكم إلا أن ترفعوا مطالبكم إلينا، ونحن الذين نختار منها ما نشاء ونرفض منها ما نشاء. هذا هو الأمر الذي بينه الله هنا أن هذه الأمة ستنال من الغلبة بحيث تحتفظ بالخيارات كلها سواء كان عليهم أن يؤدوا للناس حقوقهم أو يأخذوا منهم حقوقهم. في العالم للزبون حقّه وللتاجر حقه، ولكن هذا الشعب إذا كان زبونا فيقول للآخر لا خيار لك في الكيل، وسوف نتولى الكيل بأنفسنا. وإذا كان تاجرا فيقول للزبون أيضا: عليك أن تعطينا ما نريد ولن نأخذ أقل من ذلك. فيمتلكون كل الخيارات؛ خيار الأخذ وخيار العطاء، ولا يسمحون للآخرين بالتدخل في القضية. لقد استعمل الله هنا كلمة ﴿يَسْتَوْفُون﴾، ومعناها الأخذُ أخذًا وافيًا تامًّا (الأقرب). وهذا المعنى يدل في الظاهر على العدل، ولكن الواقع أن هذا لا يعني أهم يستوفون الحق -أي ما هو حقهم- بل المراد أهم يستوفون المطالبة.. أي أهم لا يبرحون حتى يأخذوا ما يطالبون به، والدليل على ذلك أن الحديث هنا عن سيئاهم لا عن حسناهم ولا مدحهم. والسيئة أن يأخذوا أكثر ويعطوا أقلّ. فثبت أن ليس المراد من قوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أهم يأخذون حقهم كاملا، بل المعنى أهم يأخذون مطالبهم كاملة. نعم، يمكن على سبيل التنـــزل أن يراد هنا أهم يأخذون حقهم كاملا على الدوام، ولا يتركون جزءًا من حقهم لأحد رحمة له. وهذا يعني أهم يتصرفون كـــ "شايلوك"✪ الشهير. والدليل الآخر على ما قلتُه هو قول الله

✪ هو بطلُ مسرحيةِ شيكسبير: "تاجر البندقية". تحكي المسرحية أن تاجرًا اسمه أنطونيو من أهالي البندقية اضطر للدَين من المرابي اليهودي الجشع "شايلوك"، فوافق أن يُقرِضه بشرط أنه إنْ لم يوفه حقه بعد سنة فله الحق باقتطاع كيلوغرامين لحمًا من جسده. لكن التاجر، خسر كل ما لديه، ولم يعد لديه ما يملك. وأكله الهم والغم، فأصبح هزيلاً، والمرابي يقف له على الأبواب يريد حقه. فرفع شكواه للحاكم وقرّر الحاكم تنفيذ الشرط. وكان للتاجر محام ذكي حضر قبيل الاقتصاص، ليدحض الشرط ويقوضه على رأس المرابي. كانت حجة المحامي بسيطة وقوية. قال إن الشرط لم ينصّ على الاقتطاع من كل أنحاء الجسد، ولا يوجد لدى موكلي كيلوين من اللحم في جهة

تعالى ﴿اكتالوا﴾، لأن الاكتيال يعني أن يأخذ المرء المكيال بيده لأخذ حقه ولا يدَع الآخر يكيل له. فهذه الكلمة أيضا دليل على أن هذه الأمة تأخذ حقها كما يحلو لها، ولا تدَع الآخر ليتصرف في القضية. فالواقع أن قصة "شايلوك" الشهير تنطبق على هذه الأمم المسيحية حق الانطباق، فإن كان لهم الحق على أحد طالبوه بقسوة غير مبالين بأي شيء، وإن كان عليهم الحق لأحد لجأوا إلى ألف عذر.

لقد سبق أن أخبرتُ أن "اكتال منه" و "اكتال عليه" بمعنى واحد؛ غير أن بعض علماء العربية فرّق بينهما، فقال الفرّاء النحوي الشهير إن قولهم اكتلتُ عليه يعني أخذتُ ما عليه كيلاً، أما اكتلتُ منه: فمعناه استوفيت منه كيلا. (روح المعاني)

وكأن في قولهم: "اكتال عليه" التركيز على الأخذ، وأما في قولهم: "اكتال منه" فالتركيز على الأخذ وافيًا.

باختصار، قد بين الله هنا أن هؤلاء القوم لا يبرحون حتى يأخذوا حقهم بالقدر الذي يرونه. الحق يؤخذ بطريقتين: أولاهما أن يأخذ المرء حقه بالتفاوض مع الطرف الآخر، حيث يستمع إلى أدلته، فيتحدد حقّه بالتشاور والتراضي بين الطرفين، وثانيتهما أن يأخذ حقه جبرًا وقهرًا حيث يقول للطرف الآخر حقي كذا وكذا، ولن أدَعك حتى آخذه منك. وقد أخبر الله تعالى هنا أن هذه الأمم المسيحية تكون مصابة بهذا الداء، حيث يقولون للآخرين عليكم أن تعطونا ما نطالبكم به، ثم يحتفظون بحق تحديد حقوقهم، ثم يحتفظون بالكيل بأيديهم ويأخذون من الآخرين ما يشاءون بإصرار وإلحاح. وهذا يعني أنهم لا يتركون تحديد مقدار حقهم للآخر، بل يحتفظون بهذا الخيار لأنفسهم، وبدلاً من أن يتحدد حقهم بتراضي الطرفين، يحددونه بأنفسهم كما يحلو لهم. وهذا يعني أنهم لا يعرفون الشفقة

واحدة فقط، والثاني أن الشرط يقتصر على اللحم ولم يأت ذكر للدم، فإن أي دم يهراق يجب أن يؤخذ ما يعادله من دم شايلوك. فخسر شايلوك دعواه كما خسر نقوده." (المترجم)

والرحمة على الآخرين، وأن تعاملاهم التي يقومون بها باسم الحقّ تكون في الواقع ظلمًا وجورًا.

بعد فهم الأمر بهذا التفصيل، يسهل علينا الرد على الاعتراض الذي أثاره البعض قائلا: ليس في هذه الآية شيء من الذمّ، فلماذا بدأت هذه السورة بكلمة ﴿وَيْل﴾ فقال الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ - أي العذاب للمطففين الذين يأخذون حقهم كاملا - مع أنه ليس في أخذ الحق وافيا ما يدعو إلى الذمّ. فكما قلتُ إن تفسيري هذا يردّ على هذا الاعتراض، لأن إصرارَ المرء على تحديد حقه بنفسه، ثم لجوءَه إلى القسوة وعدم الرحمة عند أخذ حقه أمرٌ مذموم، والأمة التي لا تعرف الرحمة والشفقة على الآخرين تستحق الويل فعلاً.

ثم يجب أن نتذكر أيضًا أن حرف الجر (على) يأتي عادة بمعنى المخالفة، فلو اعتبرنا أن معنى إلحاق الإضرار مشمول في ﴿اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ فهذا محل الذمّ واللوم، إذ المراد عندها أهم يأخذون من الناس بحيث يلحقون بهم الضرر، وهكذا جاز استعمال كلمة (الويل) في حقهم.

وهنا ينشأ اعتراض وهو: إذا كانت (على) هنا بمعنى المخالفة، فما معنى يستوفون إذن؟ الجواب أن قوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ عندها يعني أهم يأخذون حقهم وافيًا بحسب أهوائهم وليس بحسب الواقع. فمثلا إذا كان الطرف الآخر يرى أن حقهم كيلوغرامان، فلن يرضوا بأخذ كيلوغرامين فقط، بل سيأخذون ثلاثة كيلوغرامات مثلا أو أكثر. إذًا فقوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني أهم يستوفون كما يحلو لهم، أو أهم يستوفون حسب مطالبتهم. وهكذا فإن لفظ (يستوفون) لا يتعارض مع مفهوم (على) وإنما يطابقه ويؤكده.

وقال البعض إن حرف (على) ليس متعلقا بــ (اكتالوا)، بل هو متعلق بــ (يستوفون).. والمعنى أهم يلجأون إلى الاستيفاء ضد الآخرين عند أخذهم حقهم، أي يستوفون حقهم بحيث يضرون الآخرين، والتقدير كالآتي: إذا اكتالوا يستوفون على الناس، أي أهم يأخذونه كاملا بحسب أهوائهم ملحقين الضرر بالطرف الآخر. فكأنه استيفاء في حقهم، ولكنه هضم لحقوق الآخرين.

لقد بينتُ من قبل أن اللغويين قالوا إنه لا فرق بين "اكتال منه" و"اكتال عليه" من حيث المعنى، ولكن المفسرين قالوا: إذًا، فلماذا قال الله ﴿اكْتَالُوا عَلَى﴾ ولم يقل (اكتالوا من)؟ لقد ذكرت من قبل أن الفراء يرى أنه قد استُعمل حرف (على) واستُغنيَ عن حرف (من)، وجيءَ مكانه بكلمة (يستوفون)، لأنك إذا قلت (اكتلت منه) فتعني استوفيت منه كيلاً. كأنه يرى أنّ كلاً مِن حرفَي الجر (من) و(على) قد استُعمل هنا في الواقع، إذ إن ﴿يستوفون﴾ ينوب عن (من)، وأما حرف (على) فهو مذكور في الظاهر كما ترى.

لا شك أن ما قاله الفراء يجيب على اعتراض المفسرين، ولكنه يبدو خلاف المحاورة القرآنية، لأن التدبر في القرآن يبين لنا أنه قد فرّق بين حرف (من) و (على).. وأن كُلاًّ منهما يفيد معنى مختلفا. فقال الله على لسان إخوة يوسف لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(يوسف:٦٤)، بينما قال في موضع آخر ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾(يوسف: ٨٩)، مما يبين أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكيلوا الكيل بأنفسهم، بل كال لهم غيرهم. وكذلك في القرآن قول يوسف ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾(يوسف:٦٠). لقد تبين من هنا أن يوسف عليه السلام هو الذي قام بالاكتيال لإخوته ، ولم يكيلوا الغلال بأنفسهم، ولكنهم مع ذلك يقولون لأبيهم (نكتل)، مما يعني أن قول بعض أهل اللغة إن الاكتيال يعني كيل المرءِ الشيءَ بأخذه المكيالَ بيده قولٌ باطلٌ؛ إذ ورد قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ من ناحية، ومن ناحية أخرى يعترفون أنهم لم يتولوا الكيل بأنفسهم، بل كان يوسف يكيل لهم. ثم إن يوسف نفسه يقول ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن قولهم: "اكتال منه" يفيد مفهومين؛ أي أخذ الكيل بنفسه أو بيد غيره، أما قولهم: "اكتال عليه" فيعني كال بنفسه بتولي المكيال بنفسه، لأن حرف (على) يفيد معنى المخالفة.

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

كالوهم: كالَ الطعامَ وغيرَه، وأكثرُ استعماله في الطعام: حقَّق كميّتَه أو مقدارَه بواسطة آلة معدَّة لذلك كالصاع والإرْدَب والذراع ونحو ذلك. (الأقرب)

فالكيل يعني تحديد مقدار الشيء سواء بالحجم أو بالطول أو بالوزن. ولما كان القرآن الكريم قد أضاف هنا كلمة ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾، فعلينا أن نفصل الوزن عن الكيل، فالكيل سيعني تحديد حجم الشيء بالصاع أو طوله بالمتر مثلاً.

كذلك يقول أهل اللغة: "وقد يتعدى لمفعولين، فيقال: كلتُ زيدًا الطعامَ، وقد تدخل اللام على المفعول الأول فيقال: كلتُ لزيدٍ الطعامَ. (ويأتي الكيل للوزن أيضًا) فيقال: كال الصيرفُ الدراهمَ: أي وزنها. (ثم يتوسعون في معنى الكيل فيقولون) كال الشيءَ بالشيء: قاسه. وكلتُ فلانا بفلان: أي قِسْتُه به. وكال الفرسَ بغيره: قاسه به في الجري (الأقرب).. وهذا يعني أن الكيل يُستعمل للتقدير المعنوي أيضا على وجه الاستعارة، علاوة على الكيل والوزن الماديين.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن هؤلاء القوم إذا أعطوا قومًا بالكيل أو بالوزن ألحقوا بهم الخسارة دائما.. أي أنهم يتظاهرون للآخرين أنهم يعطونهم ما يستحقون وافيًا إذ يعطونهم بالمكيال والميزان، والواقع أنهم يربحون ويضرّون الآخرين.

وهذا العيب يوجد في الأمم المسيحية بوجه خاص، حيث ينهبون الشعوب الأخرى بالوزن وبالكيل أيضًا. لقد غلبت هذه الشعوب من خلال التجارة في الواقع، وهم ماكرون جدا فيها. لا يغشّ ١% من الأوروبيين بل ١ من الألف منهم في التجارة الفردية، بينما تجد ٩٩% من الآسيويين يغشّون في التجارة الفردية، بل ١٠٠% منهم يغشون فيها، ولربما تجد ١ من الألف منهم أمينًا في التجارة الفردية، فسيرة الآسيويين سيئة جدا في هذا الصدد على العموم. يكذبون عند الكيل، ولا يهدأ لهم بال ما لم يغشّوا قليلا وما لم ينقصوا شيئا، ويبذلون جهدهم أن ينتفعوا ولو قليلا بغش الآخرين. فلا جرم أن نموذج الأوروبيين رائع فيما يتعلق بالتجارة الفردية. أما التجارة بين الدول فتنهب فيها هذه الأمم نهبًا لا حدود له. هناك أمثلة كثيرة على ذلك،

حيث أخذوا من الدول الأخرى ملايين الملايين من المال ليصنعوا لهم المدافع وغيرها من الأسلحة، ولكن المدافع والطائرات التي بعثوها لهم كانت رديئة. فلا شك أنه ليس هناك من يباريهم أمانةً في التجارة اليومية البسيطة، ولكن فيما يتعلق بالتجارات الكبيرة فينهبون نهبًا بلا حدود، ويدمرون البلاد تلو البلاد، ويُقحمون السياسة في التجارة. إنها ليست تجارة، وإنما هي سياسة يستولون بها على البلدان الأخرى. مثلاً لنفترض أن (أ) و (ب) بلدان أوروبيان متعاديان، ويرى (أ) أنه لو نشبت الحرب بينه وبين (ب) فلا بد أن البلد (ج) سيساعد (ب)، ولكن (ج) بحاجة إلى الأسلحة من (أ)، وفي هذه الحالة يخفض (أ) أسعار الأسلحة من أجل (ج) مكرًا وخداعا، ويبدي رضاه لصنع الأسلحة من أجله، ولكنه لن يصنع له أي شيء في وقته إلى أن تنشب الحرب بين (أ) و (ب)، فلا يستطيع (ج) مساعدة (ب) لعدم توفر الأسلحة عنده، وقد يسحقه (أ) سحقا.

وفيما يتعلق بالتجارات بين الدول فالأمم المسيحية تقوم بتطفيف هائل، وهذه السورة تتحدث عن عيبهم هذا بشكل خاص.

وهنا ينشأ سؤال آخر لا بد من الرد عليه، وهو أن الله تعالى قال في الآية السابقة ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، بينما قال هنا ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.. أعني أن الوزن قد ذُكر هنا إضافة الى الكيل، مع أن الكيل يشمل الوزن أيضا، كما ذكرنا عند شرح الكلمات، فما كانت هناك حاجة في الظاهر لإضافة ﴿وزنوهم﴾ إلى ﴿كالوهم﴾ لكون الكيل يشمل الوزن أيضا.

فلو قيل: قد استُعمل الكيل هنا بمعناه الأشهَر المعروف.. أي الكيل بدون الوزن، فيقال: في هذه الحالة، كان الواجب أن يُذكَر الوزن في الآية السابقة أيضا، ولكن الأمر ليس كذلك. كان المفروض أن تكون الآية السابقة هكذا: "الذين إذا اكتالوا واتزنوا على الناس يستوفون"، أو أن تكون الآية قيد التفسير خالية من الوزن هكذا: "وإذا كالوهم يخسرون".

لقد أثار الزجّاج هذا السؤال واكتفى بالرد عليه بقوله إن الكيل والوزن متقاربان ومتشاركان في المعنى، ولذلك اكتفى الله بذكر أحدهما لكون الآخَر مفهومًا تلقائيا، فالآية الأولى أيضا تعني: وإذا اكتالوا واتزنوا.

لا بأس بهذا الجواب، وهناك في القرآن الكريم أمثلة اكتفى فيها بذكر إحدى الكلمتين لكونهما متشاركتين ومتقاربتين معنى. فمثلا إذا أراد الله تعالى ذِكْرَ الحر والبرد معًا اكتفى بذكر أحدهما فقط، أو إذا أراد ذكر الشمس والقمر اكتفى بذكر الشمس فقط، لأن ذكر القمر متضمَّن في ذكرها، فصحيح أن إحدى الكلمتين المتقاربتين معنًى تُترَك أحيانا، ولكن هذا الجواب لا يشفي الغليل، لأن السؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا زاد الله تعالى هنا قوله ﴿أَو وَّزَنُوهم﴾ إلى قوله ﴿كالوهُم﴾؟ ولماذا لم يكتفِ بذكر الكيل فقط دون الوزن؟

الجواب أن خطر الخسارة في الكيل يكون قليلاً، ولكنه في الوزن يكون كبيرًا. يوجد في بلادنا أيضا مكاييل شتى مثل الصاع وبعض الأكواب والأواني بمقادير مختلفة، وإذا كال بها أحد ونقص الكيلَ، كان النقصان ضئيلا جدًّا، لأن الزبون يشاهد بعينه ما إذا كان البائع يملأُ المكيال جيدًا أم لا. أما الوزن فيمكن به التخسير إلى حد كبير. والماهر في فن التلاعب بالميزان قد يُخسِر من الكيلوغرام رُبْعَه دون أن يدرك الزبون ذلك مع أنه يرى، أما الصاع وغيره من المكاييل فلا يمكن للبائع التلاعب فيه بحيث يخسر من الكيلوغرام رُبْعَه. فلما كانت إمكانية التخسير بالميزان أكبر، اكتفى الله بذكر كلمة ﴿اكتالوا﴾ عند الحديث عن أخذ الأمة المسيحية حقها، ليبين أن هؤلاء القوم عندما يأخذون حقهم بالكيل فيأخذونه كاملا، وقد تضمَّن هذا الذكر أنهم ما داموا لا يطيقون خسارة بسيطة قد تكون بالكيل فكيف يطيقون خسارة كبيرة تكون بالوزن؟ فقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾.. وفُهِمَ منه أنه كيف يمكن أن يرضى بالخسارة الكبيرة الناتجة عن الوزن قومٌ لا يرضون بالخسارة القليلة الناتجة عن الكيل؟ أما قوله تعالى في الآية التالية ﴿وإذا كالوهم﴾ – أي أعطوهم بالكيل أقل مما يستحقون – فلا يثبت منه أنه يمكن أن يسلبوا الناس أكثر، لأنّ أحدًا إذا ألحق بغيره ضررًا قليلا فليس فيه دليل على أنه سيلحق به ضررا أكبر أيضًا، إذ من الممكن أن يخاف مرتكب إثم صغير مِن ارتكاب إثم أكبر. فلأن قوله تعالى ﴿كالوهم﴾ لا يكشف حقيقة هؤلاء القوم كل الكشف، فأضاف إليه كلمة ﴿أَو وَّزَنوهم﴾ ليبين أنهم إذا قدروا على إلحاق ضرر بسيط

بالناس ألحقوه، ولكنهم لا يتورعون عن إلحاق ضرر أفدح بهم أيضًا لو تمكنوا من ذلك.
فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يعني أن هؤلاء الأمم عندما يكون لهم حقّ على الآخرين فلا يطيقون عند استرداده أدنى خسارة، وإذا كان عليهم حقّ للآخرين، فيحاولون إلحاق الخسارة بهم ما أمكنهم. إذن، طبقًا للترتيب الطبيعي لهذه المعاني كان حذف (اتّزنوا) بعد كلمة (اكتالوا) بليغًا. أما حذف (وزنوا) بعد (كالوهم) فكان خلافا للبلاغة.

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٥ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٦

التفسير: أي أن هذه الشعوب يعيشون اليوم معًا في أمن، ويظنون أن ليس في الدنيا قوة تستطيع أن تضرّهم شيئا، ولكن سيأتي يوم يُبعَثون فيه بعْثًا من نوع جديد. علمًا أن قوله تعالى ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يمكن أن يراد به القيامة، وأيضًا الوقت الذي تظهر فيه نتائج هذه الفترة الأخيرة. والواقع أن لكل قوم فترةً ولكل فترةٍ قيامة.
لقد قال البعض أن قوله تعالى ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني لحساب يوم عظيم.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧

التفسير: ليس هناك أمة ازدهرت ولم يأت يوم حسابها، ولكن الغريب أن الأمم تظل غافلة عن يوم موتها وحسابها كما ينسى الأفراد موتهم. الواقع أنه ليس في الدنيا أمر يقيني وقطعي كالموت، ولكن الموت هو الذي قد نسيه الإنسان أكثر من أي شيء آخر. كل واحد يعلم أن أباه قد توفي أو جده قد توفي وأن أبا جده أيضًا قد مات، وكل إنسان يعرف كثيرًا من أقاربه قد ماتوا، وأن الباقين أيضا سيموتون في يوم من الأيام، ومع ذلك ينسى الموت أكثر من أي شيء آخر. ومن الغريب أيضًا أن كل أمة في الماضي فنيت وبادت، والأمم الموجودة اليوم أيضًا ستفنى غدا،

ومع ذلك تظل الأمم غافلة عن الموت أكثر من أي شيء آخر. لقد ركز القرآن الكريم على هذا الأمر تركيزًا كبيرًا، وقال مرارا وتكرارا: هل هناك أمة نجت من الموت؟ لو قمنا بالتحقيق من الناحية التاريخية لوجدنا أن ألف أمة على الأقل في التاريخ قد نالت من الغلبة ما جعل الناس يظنون أنها لن تُهزَم أبدًا. كما ظنت هذه الأمم المنتصرة نفسُها بسبب كبريائها أن الأمم السابقة تعرضت للانحطاط بعد الرقيّ ووقعت في الحضيض بعد العزّ، أما نحن فلا زوال لنا بعد هذا التقدم! ولكن ما حصل هو أن هذه الأمم المنتصرة دُمِّرت وبادت وانمحت في الأخير، ولم يبق لهم اسم ولا أثر في العالم. لذلك يقول الله تعالى هنا ألا يظن هؤلاء الأمم الغربية - الذين لا يرتدعون عن ظلم الناس، بل يصبُّون عليهم ظلما بعد ظلم، ويسلبون حقوق العباد باستمرار- أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين؟! أي ألم يفكروا أنهم سيُبعثون ليوم عظيم يومَ يُعرَضون على رب العالمين؟! وكأنه تعالى يقول: ألم يكن الآسيويون عبادا لي؟ ألم يكن الأفارقة عبادا لي؟ فلماذا صبّوا عليهم الظلم صبًّا؟ فيوم يأتي يوم البعث هذا فإن الله رب العالمين سيجعل هؤلاء الكبار صغارا والصغار كبارا. وقد أُشير إلى ذلك أيضا في قوله تعالى ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾(العاديات:١٠). والبعثرة تعني قَلْب الأرضِ وجَعْل عاليها سافلها، فالمراد أن الله تعالى سيبعثر يومئذ هذه الشعوب الحاكمة ويحرمها من عروشها، ويرفع الشعوبَ المقهورة على كرسي الحُكم.

الواقع أن ازدهار الأمم وزوالها ظاهرةٌ دوريّة؛ مثلها كمثل أخوين يتصارعان دومًا، فيصعد أحدهما على صدر الآخر.. وعندما يرى أبواهما أن هذا لا يترل عن صدر أخيه يجرّان رجله، فيصعد الآخر على صدره. كذلك فإن الله تعالى حين يرى أمةً تستغلّ غلبتها استغلالا مشينا، فإنه يجرّها من فوق كرسي الحكم ويضع زِمام المُلك في أيدي الشعوب المقهورة. لقد كانت في الدنيا شعوب طالت غلبتهم كثيرًا، أما المسيحية فلم تمضِ على غلبتها إلا ثلاثة قرون فقط، بينما استمرت غلبة المسلمين ألف سنة، ومع ذلك قد أصابهم الانحطاط في الأخير. ولذلك يقول الله تعالى لماذا لا يفكر هؤلاء القوم أن هناك بعثًا لهم، وسيأتي عليهم يوم يحاسبون فيه على ما

يفعلون. لقد استُعملت هنا كلمة ﴿يُبْعَثُونَ﴾ لأنه إذا جاء يوم بعث قوم فلا تظهر فيه نتيجة أعمال الأفراد فحسب، بل تظهر نتائج أعمال آبائهم أيضا. عندما تقوم أمة ضد أمة، فلا تحاسَب الأمة المغلوبة على أعمالها فحسب، بل يُنتقم منها بسبب تصرفات آبائها أيضا، وكأن أفراد تلك الأمة كلها يُبعَثون عندها ليقدموا حساب أعمالهم.

فالواقع أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى قوله ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾؛ حيث أخبر الله تعالى أن هذه الشعوب المسيحية الغربية تفرَّق اليوم بين شرقي وغربي وأسود وأبيض وآسيوي وأوروبي، ولكن سيأتي يوم يقومون فيه للحساب أمام ربهم الذي هو رب العالمين، فيسألهم عن فظائعهم ويقول: لماذا أهنتم هؤلاء الناس واحتقرتموهم؟ ولماذا جعلتموهم مغلوبين مقهورين؟ إن الله ليس ربَّ شعبٍ معين، بل هو رب العالمين. إنه رب الآسيويين والأفارقة، ورب الصينيين ورب اليابانيين، ورب الإنجليز ورب الأمريكان أيضا، فلا يفرح أن يكون عباده تحت حكم أحد إلا الذي يتحلى بصفة الله رب العالمين، ويكون مظهرا كاملا لربوبيته سبحانه وتعالى. لا شك أن الحكومات المؤقتة قامت في الدنيا وزالت بعد فترات قصيرة، ولكن لا يحكم العالَمَ على أسس دائمة إلا الذين لا يطالبون الناس بأكثر من حقوقهم، كما يقولون للناس إن هذا الحُكم ليس لنا بل هو حكمكم أنتم. إن الأمة التي تهبّ في الدنيا بعاطفة خدمة الناس ولا تطالب بأكثر من حقوقها، هي التي ستكتب لها الحياة الأبدية، ولا يحتاج الناس إلى التمرد عليها.

لا يعني الحساب الإلهي أن الله تعالى يحاسب الناس مباشرة في الدنيا، بل الحق أنه سيتولى بنفسه حساب الناس يوم القيامة، أما في الدنيا فيقيم فردًا أو أمة من بين الناس لحسابهم، وهذا يكون بمنزلة الحساب من عنده تعالى.

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

سِجِّين: السِّجِّين: الدائمُ؛ الشديدُ. (الأقرب)

وقال البعض لا معنى للسجين لأنه لفظ غير عربي أصله سجلٌّ وقد بُدلّ تنوينه نونًا كما قال الله تعالى في موضع آخر ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾(الأنبياء:١٠٥)، ومعناه الكتابة؛ أو أن أصله سجّيل، وهو الحجارة غير المنحوتة، كما في قوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (روح المعاني، وفتح البيان)

ولكن استدلالهم هذا غير سليم، لأن العلماء الكبار كأمثال الفرّاء والزجّاج وأبي عبيدة قد بينوا معاني كلمة السجين، فكيف يا ترى بينوا معنى كلمة هي ليست عربية أصلاً، ثم دعموا هذه المعاني بضرب أمثلة من الشعر القديم. (روح المعاني، والقرطبي)

وبالفحص والإمعان نجد مشتقات أخرى من حروف (س ج ن) التي منها اشتُقَّ السجين؛ فيقال: سجَنه سجنًا: حبَسه في سجن، وسجَن الهمَّ: أضمرَه.. أخفاه (الأقرب). فما دامت هناك مشتقات أخرى للسجين، وما دام علماء العربية قالوا إن معناها الدائم أو الشديد، فالقول أنها ليست بكلمة عربية، بل هي أعجمية ضُمت إلى العربية لقولٌ باطل لا أساس له.

الحقيقة أن هذا خطأ من بعض المفسرين العرب، فعندما يرون كلمة لا تُستعمل في العربية عادة يظنون أنها غير عربية، مع أنها تكون عربية عند علماء اللغة الآخرين. وقد استغلّ المسيحيون خطأهم هذا في هذه الأيام وراحوا يطعنون في القرآن الكريم بأن فيه كلمات غير عربية، وبالتالي باطلٌ دعوى القرآن أنه ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. والحق أن طعنهم خلاف للعقل تماما حتى ولو سلّمنا جدلاً بوجود كلمات أجنبية في القرآن كما زعم بعض المفسرين؛ إذ ليست في الدنيا لغة تخلو تمامًا من كلمات

اللغات الأخرى. نعم، قد تخلو فقرة صغيرة من لغة ما من كلمة أجنبية، إلا أنه فيما يتعلق بالعبارات الطويلة فليس هناك لغة في هذا العصر إلا وتوجد في عباراتها الطويلة كلمات أجنبية. ففي التوراة كلمات من لغات أخرى أيضا، وفي "الفيدا" كتاب الهندوس كلمات من لغات أجنبية. هناك في التاريخ مثال واحد فقط لشخص ادعى عدم استعماله كلمة من لغة غير لغته في كتابه، وكان أديبا فذًّا وعالما شهيرا، ولكنه أيضا لم يستطع ذلك رغم أنه بذل كل ما في وسعه، فاضطر لاستعمال عشرات الكلمات الأجنبية، أعني الشاعر الفارسي فردوسي، الذي ادعى أنه سيكتب كتابه الشهير "شاه نامه" باللغة الفارسية الخالصة، ولكنه فشل في ذلك، إذ توجد في كتابه هذا عشرات الكلمات الأجنبية؛ بعضها من الفارسية الجديدة، وبعضها عربية، وبعضها من لغات أخرى.

الواقع أن من المستحيل أن تتطور أي لغة ولا أن تتحضر ما لم يختلط بها كلمات من لغات أخرى لكثرة اختلاط الناس، بل الحق أن بعض أهل اللغة يتوقون لنقل كلمة معينة إلى لغتهم، فتصبح جزءاً من لغتهم بالتدريج. فمثلا هناك كلمة (pukka) تُستعمل في اللغة الإنجليزية، مع أنها كلمة أردية (پكّا.. أي الناضج الصَّلْب القوي)، قد أُعجب الإنجليز بها لكثرة اختلاطهم بالناطقين بالأردية، فضمّوها إلى لغتهم. وهي موجودة في قواميسهم حيث ورد في شرحها أنها كلمة أردية نُقلت إلى الإنجليزية. ومثاله الآخر كلمة (بَكْواس) الأردية، فهي الأخرى قد أعجبت الإنجليز، فإذا غضب أحدهم على الآخر قال له: (don’t buck).. أي اخرسْ ولا تهذِ. وهناك مئات الكلمات المنقولة إلى الإنجليزية من العربية أو الأردية، فمثلا إن كلمة (admiral) صورة مشوهة للكلمة العربية أمير البحر، فقد أخذ الإنجليز كلمة الأمير (admiral) وتركوا كلمة البحر. فالواقع أن في كل لغة كلمات من لغات أخرى، ولكن لا يقال إنها ليست من اللغة التي نُقلت إليها، كلا بل إنها تصبح جزءا من اللغة الثانية وتُعتبر منها لكثرة تداولها. فمثلا إذا استخدم أحدنا في الأردية كلمة إنجليزية متداولة بكثرة، فلا نقول إن لغته قد فسدت باستعماله هذه الكلمة الإنجليزية خلال الكلام، بل نقول إنه يتكلم باللغة الأردية

الفصيحة. نعم، لو أكثر المرء استعمال المفردات الأجنبية خاصة غير المتداولة منها فهذا محل اعتراض بلا شك. إن العربية أُم الألسنة، ولذلك توجد كثير من الكلمات العربية في اللغات الأخرى. كما أن كثرة اختلاط الناس فيما بينهم تعمل على نقل كلمات أو ألفاظ من كل لغة إلى أخرى، والعربية ليست مستثناة من هذه القاعدة؛ فإذا وُجدت كلمة أجنبية في العربية، فاستعمالها لن يجعل العربية غير فصيحة، كما لن يُعتبر الكلام الذي وردت فيه هذه الكلمة الأجنبية كلاما غير عربي. إن شكسبير مثلاً أديب إنجليزي شهير، وقد وردت في كتبه كلمات فرنسية كثيرة، فهل يجيز لنا هذا أن نقول إن لغته غير فصيحة. وبالمثل لو استخدم القرآن كلمة أجنبية قد استعملها العرب واستحسنوها، فهذا لا يقدح في كونه قرآنًا عربيا.

الواقع أن هذا الاعتراض مثال واضح للمعارضة الجنونية. لقد أثار بعض المنافقين في القديم هذا الاعتراض على القرآن الكريم، فراح المستشرقون يرددونه قائلين إن ادعاء القرآن أنه نزل بالعربية باطل لأن فيه كلمات غير عربية؛ ثم يقدم هؤلاء قائمة بهذه الكلمات. لا شك أن بعض هذه الكلمات ليست عربية ككلمة التوراة، فإنها ليست كلمة عربية. كما لا يمكن لمسلمٍ أن يدّعي أن كلمة جبريل عربية. لا شك أنها بشكلها الحالي ليست عربية. كذلك الحال لكلمات ميكائيل، وإسحاق، أو عيسى - وهي صورة معدّلة للكلمة الإنجليزية (JESUS) - فإننا لا ننكر أنها كلمات غير عربية، بل نقرّ أن في القرآن الكريم كلمات أجنبية؛ فإذا كان هؤلاء الطاعنون يبحثون في القرآن عن مثل هذه الكلمات ظانين أنهم يستطيعون بها الهجوم على القرآن والإسلام فإنهم يهدرون وقتهم في الحقيقة. وإذا كنا نستنكر ما يقولون، فإنما هو أن هناك كلمات عربية ولكنهم يعدّونها غير عربية على سبيل الإجحاف دونما دليل. نحن لا نقول أنه لا يوجد في القرآن الكريم أي كلمة غير عربية، إنما نتضايق من قولهم لأنهم يكذبون أو يبالغون أشد المبالغة في محاولتهم لأن يعتبروا الكلمات العربية أجنبية. هذا ما نعترض عليه، وإلا فنحن نقرّ أن في القرآن كلمات من لغات أخرى أيضا، وهذا ليس محل اعتراض عندنا بحال من الأحوال. فمن الكلمات التي يعتبرونها أجنبية إجحافًا وتحكُّمًا كلمة ﴿سجيل﴾، مع أنها كلمة

عربية عندنا، ولكنهم يعتبروها غير عربية دونما دليل. وهذا ما نعترض عليه، وإلا فلو ثبت أن في القرآن ٥٠٠ لفظ أجنبي، ناهيك عن لفظ واحد، فسوف نقول: لا حرج في ذلك، لأن العرب ما داموا قد ضموا هذه الكلمات إلى لغتهم واستعملوها بكثرة، فوجودها في العربية بعد ذلك ليس محل اعتراض إطلاقا. فعلى سبيل المثال يذهب أحدنا إلى محطة القطار ويطلب من المسؤول التذكرة قائلا: أَعْطِنِي تِكت (TICKET)، أو يذهب بعضنا إلى المكتبة ويطلب من صاحبها قلمًا سائلا فيقول: أَعْطِني فونْتِنْ بِن (FOUNTAIN PEN). فكلمة "تكت" أو "فونتن بن" ليست أردية، ومع ذلك عندما يتكلم بها أحدنا يفهم الجميع أنه يتكلم الأردية وليس لغة أخرى.

إذن، فاستعمال الكلمات الأجنبية التي تلقى الرواج في لغة ما ليس محل اعتراض أبدا. كذلك الحال للكلمات الاصطلاحية، أو التي تكون ضرورية لإقامة الحجة على الآخرين، فاستعمالها في صورتها الأصلية ليس موضع اعتراض أبدا. ثم إن ذكر الأسماء الأجنبية بلغتها الأصلية ليس موضع طعن قطعا. فمثلا إذا كان اسم شخص هندوسي "كريشن جند"، فلن نذكر اسمه في لغة أخرى مترجمًا، بل نذكره كما هو، ولن نبالي بأنها كلمة أجنبية، ولن يقال بأننا نتحدث بلغة أخرى.

إذن فهذا الاعتراض الذي يثار ضد القرآن الكريم لغوٌ وباطل كلية، ولا سيما اعتراضهم على كلمة (سجيل)، فهو خطأٌ فاحش. فإنها كلمة عربية، وهي موجودة في القواميس، وتوجد لها اشتقاقات أخرى في العربية. إني لم أجد فرصة للبحث والتحقيق، وإلا فقد نجد إثبات ذلك في الاشتقاق الكبير. وعلى كل، فإن اعتبار كلمة (سجيل) غير عربية قول باطل تماما.

مرقوم: رقَم الكتابَ: أعجمَه وبيّنه (أي شكّله بالحركات). ورقَم الثوبَ: خطّطَه وأعلمَه. وفلان يرقُم في الماء: يُضرَب مثلاً للحَذق في الأمور (الأقرب).

وقال الضحّاك: ﴿مرقوم﴾ مختومٌ في لغة حِميَر، وأصلُ الرقم الكتابةُ. (فتح البيان)

التفسير: لقد أثار البعض هنا اعتراضا على كون كتاب الفجّار في كتاب مرقوم، حيث أخبر الله تعالى أولاً أن كتاب الفجار في سجين، ثم فسّر ﴿سجين﴾ بأنه

كتاب مرقوم؛ فكأنه قيل: إن كتاب الفجار في كتاب مرقوم. فقالوا: ما معنى هذه الجملة الغريبة؟ إنها غير مفهومة.

لقد أورد الزمخشري هذا السؤال في تفسيره ثم قال في الجواب: إن السجّين كتاب جامع، هو ديوان الشر دوّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة والمنافقين والفجار، وهو كتاب مسطور بَيِّنُ الكتابة، فالمعنى أن ما كُتب من أعمال الفجار مثبَتٌ في ذلك الديوان (الكشاف). فكأنه يعتبر كتاب الفجار بابًا من ذلك الديوان الذي يسمى سجينًا.

وقال الواحدي: كتاب مرقوم ليس تفسيرًا للسجين، لأن السجين ليس من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين، بل إن (كتاب مرقوم) بيان لـــما ذُكر في قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾، والتقدير: إن كتاب الفجار هو كتاب مرقوم. (فتح البيان). كأنه يعتبر قوله تعالى ﴿لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ جملة اعتراضية، والجملة الأصلية هي "إن كتاب الفجار كتاب مرقوم".

ولكن هذا غير صحيح، لأن (سجين) في هذه الحالة سيظل بلا تفسير، وهذا خلاف لأسلوب القرآن الكريم.

وأما آراء المفسرين في معنى ﴿سجين﴾ فهي كالآتي:

قال أحدهم: في قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، السجين صخرة كبيرة تحت الأرض السابعة، تُقلَب فيُجعَل تحتها كتاب الفجّار.

وقال غيره: السجين ليس صخرة، بل هو خدّ إبليس. فكلما مات كافر صعدت الملائكة بروحه إلى السماء، فتأبى أهل السماء قبولها، فيترلون بها إلى أسفل الأرض حيث السجين وهو خدُّ إبليس، فيُوضع كتابه تحت خدّه المنتفخ بسبب هذه السجلات الكثيرة. فكلما جاءته روح كافر أخذ سجل أعماله وضمّه إلى القائمة الموضوعة تحت خدّه ويستلقي مرة أخرى. (فتح البيان)

هناك روايات سخيفة أخرى ذكرها أصحاب التفاسير. يبدو أن اليهود كانوا يحكونها لبعض المسلمين السذّج الذين كانوا بدورهم يذكرونها للآخرين حتى إن بعض المفسرين سجلوها في تفاسيرهم. اليهود أعداء ألداء للإسلام ولا يصح أبدًا

سؤالهم عن معنى آية من القرآن الكريم، ومع ذلك كان هؤلاء السذج يذهبون إليهم ويسألونهم عن معانيها، فكانوا يحكون لهم على سبيل السخرية أقوالا سخيفة لا أساس لها. وفي التفاسير روايات مماثلة كثيرة ولكن لا أثر لها حتى في كتب اليهود، غير أن بعضها مسجلة في كتبهم؛ وهذا يعني أن بعض اليهود كانوا أمناء، فرووا للمسلمين ما في كتبهم كما هو، ولكن بعضهم كانوا يحكون للمسلمين الأباطيل، فكانوا لجهلهم يظنون أن هذا هو تفسير آيات القرآن. وقد ذكر "ابن كثير" أمرًا لطيفًا جدًّا بصدد هذه الروايات معلِّقًا على رواية كهذه فقال: إن هذه الرواية تماثل بعض الإسرائيليات المروية عن ابن عباس. فكان ابن عباس يسأل اليهود ظنًّا منه أنهم سيقولون ما عندهم، وكان يصدّق ما يقولون لحسن ظنه بهم. وكما قلت إن قوله هذا أعجبني جدًّا، إذ ألقى الضوء على هذه المسألة بكل جرأة وبسالة. والحق أن الروايات الموجودة في التفاسير بصدد (سجين) هي مما لا يوجد له أثر حتى في الكتب اليهودية.

العجيب أن الله تعالى قد صرح هنا أن السجين كتاب مرقوم، ولكن بعض المفسرين يقولون إن السجين صخرة تحت الأرض السابعة، أو هو خدّ الشيطان. لو لم يذكر الله تعالى هنا شيئا، لجاز لهم أن يقولوا ما يحلو لهم، ولكن إذا كان الله تعالى قد بين معنى السجين، فمن خطئهم الفاحش أن يفسروه بخلاف ما قد بينه الله في القرآن الكريم، خاصة وإن معنى السجين موجود في القواميس وكذلك معنى الكتاب أيضًا؛ إذ ورد في شرح السجين: الدائم والشديد. أما الكتاب فمن معانيه: ما يُكتب فيه، والدواةُ، والتوراةُ؛ والصحيفةُ؛ والفرضُ؛ والحُكمُ؛ والقدرُ. وفي "المصباح": يطلق الكتاب على المنـــزَّل (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني أن حُكمنا في الفجار موجود في كتاب اسمه سجين. تسمى الكتب في الدنيا بأسماء مختلفة، ويخبرنا الله تعالى أن السجل الذي ورد فيه ذكر الفجّار اسمه سجين.. بمعنى أن سجل أعمال الفجار يكون مكتوبا على رأسه أن هؤلاء هم قوم سيعامَلون معاملة شديدة دائمة، ذلك لأن من معاني (السجين) الدائم والشديد.

ولو اعتبرنا الكتاب هنا بمعنى القدر، فالمراد من الآية أن قدرهم الخاص يكون في سجين، أي في حالة دوام وشدة. ثم قال تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.. أي أنه قدرٌ لا رادَّ له. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني أن قضاء الله في حق الفجار، أو حُكم الله في حقهم، أو قدر الله في حقهم، لفي سجين.. أي في سجلّ فيه ذِكرُ قوم عذابهم دائم وشديد.

فلو أخذنا هذه المعاني الواردة في القواميس فلا تبقى هنالك أي حاجة للقول إن خد الشيطان يُشَقّ ليوضع فيه سجلّ أعمال الكفار.. أو لن نكون بحاجة لأن نبحث عن صخرة تحت الأرض حيث أعمال الكفار. هذه الأقوال كلها لغو وعبث.

لقد نُسب إلى قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب أنهم قالوا: السجين صخرة تحت الأرض السابعة، فتزاح ليوضع تحتها كتاب الفجار! ويقولون أن هناك حذفَ مضاف تقديره: السجين مَحَلُّ كتابٍ مرقوم.. أي السجين محلُّ سجلٍّ أعمال الكفار. أما أبو عبيدة والمبرّد وهما من كبار الأدباء، والأخفش والزجاج وهما من كبار النحويين، فقد فسروا قوله تعالى ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي لفي حبس وضيق شديد، حيث قالوا: قد جعَل ذلك دليلا على خساسة منـــزلتهم (القرطبي). وفي هذه الحالة يعتبر ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ صفةً لسجين.. أي أن مقام الشدة والحبس هذا في كتاب مرقوم.. أي أنه قدرٌ لا يُرَدّ.

أرى أن المعنى الواضح البين لهذه الآية أن قضاء الفجار في سجين وهو قدر محتوم، أو المعنى أن السجين قرارٌ هو كتاب مرقوم، أي حُكمٌ لا يُرَدّ، أو قدرٌ لا يُردّ.

ومفهوم هذه الآية هو أن الأمة المسيحية التي تتحدث عنها هذه السورة لن تسيء إلى الآخرين في المعاملات فحسب، بل سينتشر بينها الفجور أيضا، وذلك لأنه إذا كثرت سيئة في قوم سُمّوا بها. فباستعمال كلمة (الفجار) قد بين الله تعالى أن هؤلاء القوم لن يكون فيهم عيبُ ظلم الشعوب الأخرى فحسب، بل ستكون بينهم عيوب أخرى كالفسق والفجور، وأن القرار الذي سيؤخذ بشأنهم سيكون شديدًا وذا صبغة دائمة.. أي كما كانت معاملتهم مع الأمم الأخرى قاسية

ودائمة، وانتصارهم ونجاحهم دائمين، كذلك تكون المعاملة الإلهية معهم شديدة ودائمة.

ولهذه الآية معنى آخر أيضًا لم يفطن إليه المفسرون وهو أن القرآن الكريم جزءان؛ جزء إنذاري وجزء تبشيري، فبعض القرآن يشتمل على ذكر هلاك أعداء الحق ودمارهم، وبعضه يتحدث عما قُدر للمؤمنين من رقي ورحمة وبركة من الله تعالى، وكلمتا ﴿سجين﴾ و﴿عليين﴾ اسمان لهذين القِسمين من القرآن، فالعليون قِسم من القرآن فيه ذكر المؤمنون، والسجين قسم منه يحتوي على ذكر الكافرين. وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يمكن أن يفسر بمعنى لطيف للغاية، وهو: كيف يمكن أن لا يهلك هؤلاء القوم في حين أن قرار هلاكهم مسجل في ذلك القسم من القرآن الذي يشمل أنباء عن الدمار الذي سيقع في المستقبل، بما فيها نبأ هلاكهم أيضا؟ علمًا أن الضحاك قال إن المرقوم هو المختوم في لغة حِمْير، وهذا المعنى ينطبق هنا كل الانطباق، لأن (كتاب مختوم) هو ما لا يتبدل، وقراره نهائي وقطعي غير قابل للتغيير، فكأن هذا الكتاب خاتم الكتب. وهذه الميزة لا توجد في غير القرآن الكريم. لو كانت هذه القرارات مذكورة في كتاب سينسخ مستقبلا لقيل ما دام هذا الكتاب سينسخ مستقبلا، فما الخوف من قراراته؟ ولكن الله تعالى يخبر أن هذا السجين كتاب مرقوم.. أي أن هذه القرارات مسجلة في كتاب لا تبديل له، فقراراته حتمية نهائية. وفي هذه الحالة سيعني الكتاب في قوله تعالى ﴿كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ الحُكم، والمراد أن حُكم هؤلاء الفجار في سجين، أي موجود في القسم الإنذاري من القرآن الكريم، وسيكون لفظ ﴿عليين﴾ بمعنى القسم التبشيري من القرآن حيث ذُكِر رقي المؤمنين.

إذن، فهذا المعنى لطيف وواضح جدًّا وينطبق هنا بكل روعة، لأن رسول الله ﷺ كما هو خاتم النبيين، كذلك فإن القرآن خاتم الكتب، وقراراته قطعية لا تبديل لها، سواء كانت تتعلق بدمار الكفار أو رقي المؤمنين.

هناك أمر لطيف آخر جدير بالتذكر هنا، وهو أن كلمة (ما أدراك) وكلمة (ما يدريك) بمعنى واحد في اللغة العربية، أي: ما تدري، ولكن التدبر في القرآن يكشف لنا أنه قد فرّق بين الكلمتين.

وردت كلمة (ما أدراك) في القرآن في ١٢ موضعا، أما (وما يدريك) ففي ٣ مواضع. لقد وردت (ما أدراك) في الآيات التالية:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾(الحاقة: ٤)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾(المدثر: ٢٨)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾(المرسلات: ١٥)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾(الانفطار ١٨-١٩)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ (المطففين: ٩)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (المطففين: ٢٠)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (الطارق: ٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ (البلد: ١٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ٤)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ (القارعة: ١١)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ (الهُمزة:٦)

وأما (وما يدريك) فوردت في الآيات التالية:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب:٦٤)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى:١٨)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس:٤)

ونرى في هذه الأماكن كلها أنه قد جاء بعد (ما أدراك) اسمٌ دائمًا، أما (ما يدريك) فقد أُشيرَ بعدها إلى فعل أو حادث.

والفرق الآخر أنه حيثما قال الله تعالى (ما أدراك) قد أجاب بعدها عن سؤال، أما (وما يدريك) فوردت بعدها ﴿لعلّ﴾، وتُرِكَ الجواب مبهمًا يحتمل وجوهًا.

فمثلا قال الله تعالى في سورة الحاقة:
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الآيات:٤-٧).
فترى أن الحديث في هذه الآيات وما بعدها عن أمم تعرضت للعذاب كقوم فرعون وثمود وغيرهم، وهكذا بين الله تعالى أن المراد من الحاقة ذلك العذاب الحاسم الذي لم تستطع هذه الأمم القوية ردَّه رغم محاولاتها المستميتة.
أما سورة المدثر فقال الله فيها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(الآيات:٢٨-٣١). فجاء بعد ﴿سقر﴾ بتفسيرها بأنها نار لا تبقي ولا تذر الإنسان، وعليها تسعة عشر ملَكًا.
وقال الله تعالى في سورة المرسلات: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ...... هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ۞ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ (الآيات:١٥-٣٩). فهنا قد أجاب جوابا طويلا فصل فيه يوم الفصل، والمراد من المكذبين مَن يكذّبون بعذاب الله تعالى.
ثم قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ.... يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الآيات: ١٨-٢٠). وهنا أيضا فسّر يوم الدين.
وقال الله تعالى في سورة المطففين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المطففين:٩-١١). فهنا فسر السجين بأنه كتاب أي حُكم لا يبدَّل.
ثم قال الله تعالى في هذه السورة نفسها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الآيات:٢٠-٢٢).. فبيّن أن ﴿عليون﴾ هو حُكم قطعي لا بد أن ينفذ وسيراه المقربون. وكأن ﴿سجين﴾ قضاء سيبكي الكافرون برؤيته، و﴿عليون﴾ قضاءٌ يتوق إليه المؤمنون برؤيته.

ثم قال الله تعالى في سورة الطارق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(الآيتان: ٣-٤).

ثم قال الله تعالى في سورة البلد: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(البلد:١٢-١٧). فبين هنا أن المراد من العقبة تحرير العبد أو إطعام الأيتام والمساكين.

كذلك قال الله تعالى في سورة القدر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(الآيات: ٣-٦). فهنا بيّن أهمية ليلة القدر وعظمتها.

وكذلك قال الله تعالى في سورة القارعة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (الآيات:٤-٦). فبين هنا أن المراد من القارعة هنا حادثة عظيمة.

وقال الله تعالى في سورة القارعة نفسها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِي ۞ نارٌ حامِيَة﴾ (الآيتان:١١-١٢). فهنا فسّر الهاوية بأنها نار مضطرمة.

وقال الله تعالى في سورة الهُمزة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۞ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾(الآيات:٦-٨). ففسّر الحطمة بأنها نار.

إذن، فحيثما قال الله في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أجاب بعدها على سؤال دائمًا، وحيثما قال تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ بدأ الحديث بعدها بلَعَلّ وترك الجواب مبهمًا.

وفيما يلي أمثلة (وما يدريك):

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(الأحزاب:٦٤)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾(الشورى:١٨)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾(عبس:٤)

هذا الفرق بين استعمال (وما أدراك) و (ما يدريك) لدليل ساطع على فصاحة القرآن الكريم. لا شك أنه لا فرق بين التعبيرين لغةً، إذ معناهما: ما تدري، ولكن السؤال هو: لماذا أشار القرآن في أحدهما إلى عدم علم الناس بشيء ثم زوّدهم بعلمه، وفي التعبير الثاني أشار إلى عدم علمهم بشيء دون أن يُزيل الإبهام بشأنه.

والجواب: قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ماض، وقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ مضارع، ورغم أن المعاجم لا تفرّق عادة بين التعبيرين من حيث المعنى، إلا أن القرآن قد فرق بين (أدرى) و(يدري)؛ وذلك لأن الماضي يدل على اليقين، إذ إن ما حصل ووقع فلا شك في كونه قطعيًا ويقينيا، أما المضارع فيدل على التوقع فحسب. فالله تعالى قد استخدم تعبير ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ قبل الأمر الذي أراد تبيانه، لأن الماضي يدل على القطع واليقين، بينما استخدم تعبير ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قبل ما أراد أن يظلّ مبهما لبعض الوقت، لأن في المضارع دلالة مبهمة غير يقينية، حيث يفيد الظن فحسب؛ فمثلا عندما نقول: هو يذهب، فليس هذا بخبر يقين إذ لا ندري أيذهب، أم يموت أو يمرض أو يسجن. وهكذا قد راعى الله تعالى بين التعبيرين فرقًا دقيقًا لطيفًا لم يلاحظه الأدباء من قبل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾

التفسير: هذه الآية إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ الوارد في السورة السابقة، حيث نبّه الله هنا أن المرء يجرؤ عادة على ارتكاب هذا الظلم نتيجة عدم اكتراثه لعاقبة أمره أو إنكاره لها. فإذا ظن المرء أنه لن تترتب أية نتيجة على سيئاته، فإنه يقدم المنفعة العاجلة ويزداد شرًّا على الدوام. لو أن كل فرد وشعب تذكّرَ مصيره لم يقع في هذا الظلم قط، ولكن الأسف أن الدنيا لا تنتفع من هذه العبرة اليقينية، فيهلك الأفراد بتصرفاتهم الخاطئة، وتدمّر الأمم نتيجة أعمالها السيئة. إنّ مشاهد هلاك السابقين تكون ماثلة أمام أعينهم، ومع ذلك لا يعتبرون بها، فيهلكون أفرادا وأمما مرة بعد أخرى. كنا نقرأ في القصص أن هناك جبلاً مغناطيسيا في البحار، وكلما اقتربت منه سفينة لم تقاومه وانجذبت إليه بشدة وتحطمت. فيبدو أن عادة تكذيب يوم الدين ونسيان العاقبة أصبحت كهذا الجبل المغناطيسي الأسطوري، فلا تقدر سفينة الحياة الفردية أو القومية على مقاومته، بل لا بد أن تنجذب إليه وتتحطم أخيرا.

الحقيقة أن من التدبير الإلهي لهلاك الظالمين أنهم ينسون يوم الدين، وبالتالي يزدادون ظلمًا، فيتحطمون بصخرة الظلم هذه ويهلكون في نهاية المطاف. لقد جعل الله تعالى جحيم الكافر في قلبه وعقله، ومنها تتهيّأ أسباب هلاكه في النهاية.

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

معتد: اعتدى عليه اعتداء: ظلَمه. (الأقرب)

أثيم: أَثِمَ: عَمِلَ ما لا يحلّ. وأثِمت الناقةُ المشيَ إثمًا: أبطأت (الأقرب). وهذا يعني أن لفظ الإثم في أصله يدل على النقصان، ولفظ الاعتداء يدل على الزيادة.

التفسير: أي إن ما قلنا عن مصير المكذبين بالدين ليس ظلمًا من جانبنا، لأن نسيان يوم الدين لا يحدث صدفةً؛ ثم إننا لم نقصر في تحذيرهم من نتائج أعمالهم، بل أخبرناهم بذلك جيدًا، فإنهم يعلمون أن عواقب تصرفاتهم ستكون وخيمة؛ ومع ذلك ينسون يوم الدين. وهذا يرجع إلى سببين: الاعتداء والإثم.. أي يفعل المرء ما يجب أن لا يفعله، ويهمل ما يجب أن لا يهمله، لأن المعتدي هو من يفعل ما لا يحلّ له، والأثيم من لا يفعل ما يجب عليه فعله. لا شك أن المعنى المعروف للإثم هو الذنب، ولكن إذا وردت كلمة مقابل كلمة أخرى أفادت معناه الخاص عند وضع اللغة. فلو أن كلمة (معتد) وردت هنا وحدها لجاز لنا تفسيرها بمعناه المعروف وهو "الأثيم"، سواء كان هذا الإثم نتيجة زيادة أو تقصير في عمل ما، كذلك لو أن كلمة ﴿أثيم﴾ وردت هنا وحدها لفسرناها بمعنى الذنب سواء كان نتيجة زيادة أو تقصير؛ ولكن هاتين الكلمتين قد وردتا في هذه الآية معًا، فلا بد أن نفسرهما بمفهومين متباينين كالآتي: الإثم يدل على النقصان، والاعتداءُ على الزيادة، حيث بين الله هنا أن المرء يكذب بيوم الدين دائمًا إما نتيجةَ اعتدائه وإما نتيجة إثمه، إذ يرتكب ذنبًا، ثم يخاف أن يؤخذ أو يُفتضح، فيدفعه الخوف إلى خطوة تالية،

فيحاول أن ينسى مصيره فرارًا من وخز الضمير. فكأن التكذيب بيوم الدين خمرٌ تسكر المرء وتجعله غيرَ مبالٍ بمصيره، كما قال الشاعر غالب بالأردية:

مے سے غرض نشاط ھے کس روسیاہ کو

اک گونہ بیخودي مجھے دن رات چاھیۓ

(ديوان غالب ص ٦٨)

أي أن فكرة المصير تظل مستولية على قلبي وتذيب نفسي، وفرارًا منها أشرب الخمر لأظل في حالة سكر دائم، فلا تتراءى عاقبتي أمام عيني.

كذلك فإن التكذيب بيوم الدين نوع من الخمر. فعندما يزداد المرء اعتداءً وإثمًا، يحاول نسيان عاقبته، فيتناول الأفيون حينًا، ويشرب الخمر وغيرها من المخدرات من بنجٍ أو حشيش أو قاتٍ حينًا آخر، ليظل في سكر دائم، فلا يتراءى له مصيره الوخيم. وإذا لم يلجأ إلى شرب الخمر والأفيون، فيبدأ في التكذيب بيوم الدين فكريًا، ويقول هذا مجرد وهم ولن يُبعَث أحد بعد الموت، ولن يُسأل عن أعماله أمام الله. إذًا فإنه يسعى إلى إخماد وعيه ومعرفته إما باللجوء إلى السُّكْر المادي، أو باللجوء إلى السُّكْر الفكري، فرارًا من العذاب الذي ينتظره. وهذه حقيقة إذا تدبر فيها المرء ذُهل؛ فهناك الملايين الذين هم مصابون بهذا المرض، وليس ذلك إلا نتيجة الاعتداء والإثم. إنهم يزدادون اعتداء وإثما، وعندما يفكرون في عاقبتهم الوخيمة يسعوْن لأن يتناسوها، فيلجأون إلى حالة من السكر المادي إما بتناول الأفيون أو الخمر أو غيرهما، أو إلى حالة مِن السُكْر الفلسفي بتكذيب يوم الدين قائلين ليس البعث بعد الموت إلا أكذوبة، فيزدادون إثمًا واعتداء. فمثلهم كمثل نمرٍ أكل لسانه: يحكى أن نمرًا كان جائعا، فحكَّ لسانه على صخرة فجرحه، فاستمتع بلذة الدم، فظل يحكّ لسانه بالصخرة ويمتص الدم حتى تآكل لسانُه كله. فهؤلاء القوم أيضا يقعون في الاعتداء والإثم أولاً، فينسون يوم الدين، وبالتالي يزدادون اعتداء وإثمًا، إلى أن تصطدم سفينة أعمالهم بصخرة اعتداءاتهم وتتحطم.

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات

الأساطير: جمعُ الإسطار والأُسطار والأُسطور والأُسطير، ومعناه ما يُسطَر أي يُكتب، وتُستعمل في الحديث لا نظامَ له. (الأقرب)

الأسطورة هي ما يسمى (STORY) بالإنجليزية، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الأسبانية ومنها إلى الإنجليزية. فقوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني بالنظر إلى معاني الأساطير أن هؤلاء المعتدين الآثمين يقولون عن الآيات المتلوّة عليهم إنها أقوال كُتبت ونُقلت عن الأولين، أو أنها كلام عن الأولين لا نظام فيه ولا ربط، أو أنها قصص الأولين.

التفسير: لقد تكررت تهمة (أساطير الأولين) في تسعة أماكن في القرآن الكريم كالتالي:

أولاً: ذكر الله تعالى في سورة الأنعام أهل الكتاب أولاً، ثم قال عن الكفار ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآية:٢٦).

ثانيا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال: ٣٢)

ثالثا: قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(النحل:٢٥-٢٦)

رابعا: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين﴾(المؤمنون:٨٣-٨٤)

خامسا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾(الفرقان:٥-٦)

سادسا: ﴿وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا أَئذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا منْ قَبْلُ إنْ هَذَا إلا أَسَاطيرُ الأَوَّلينَ﴾(النمل:٦٨-٦٩)

سابعا: ﴿وَالَّذي قَالَ لوَالدَيْه أُفٍّ لَكُمَا أَتَعدَانني أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَت الْقُرُونُ منْ قَبْلي وَهُمَا يَسْتَغيثَان اللَّهَ وَيْلَكَ آمنْ إنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إلا أَسَاطيرُ الأَوَّلينَ﴾(الأحقاف:١٨)

ثامنا: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم:١٦-١٧)

وأخيرا قال الله في هذه الآية قيد التفسير: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

وبالنظر في هذه الآيات نجد أن آية ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ في سورة الأنعام جاءت في معرض الحديث عن النبوءات السابقة.. أي عندما تعرض عليهم نبوءات الصحف السابقة والآيات الجديدة التي أتى بها محمد ﷺ يقولون إنها ليست إلا أقوال السابقين التي تعاد أمامنا. كأنهم يقولون إنها ليست نبوءات، وإنما هي عبارات من الكتب القديمة تعرض علينا خداعًا لتحقيق غرض معين، فيقال لنا مثلا: انظروا إلى ما قال موسى لفرعون، ثم فكرّوا في مصير فرعون؛ فيريد محمدا أن يخوفنا بأن فرعون حارب موسى فهلك، ولو حاربتموني هلكتم أيضًا، مع أنه شتان بين موسى وبين محمد. أو تُقرأ علينا قصة إبراهيم مثلاً ويقال لنا: ألا ترون أن أعداءه قد دُمِّروا، وكذلك تدمرون، مع أنه شتان بين إبراهيم وبين محمد.

وقد رد الله عليهم بأنهم سيقولون عند ظهور النتائج النهائية ليتنا لم نعارض محمدًا ﷺ. ومثاله ما وقع يوم فتح مكة. لقد ذكرتُ مرارًا قصة أبناء صناديد العرب الذين حضروا مجلس عمر في عهده. فبينما هم في ذلك أخذ صحابة الرسول ﷺ يحضرون مجلسه واحدًا تلو الآخر وكانوا في الماضي عبيدا لهم أو لآبائهم الذين كانوا يسخروهم في أنواع الأعمال الشاقة. وكلما جاء صحابي طلب عمرُ من هؤلاء الرؤساء إفساح المجال له، فلم يزالوا يتأخرون في المجلس في كل مرة حتى وصلوا إلى مكان الأحذية، ثم خرجوا من المجلس ساخطين. وقالوا فيما بينهم: يا لها من إهانة لقيناها اليوم. فقال

أحد هؤلاء الفتية وكان أكثرهم ذكاء: هل فكّرتم في سبب هذه الإهانة؟ إنما سببها آباؤنا، فلو أنهم لم يعارضوا النبي ﷺ، ولو أن هؤلاء العبيد لم يضحوا في سبيل الإسلام، لما لقينا هذا الذل والهوان، وما نال هؤلاء هذا العز اليوم. هذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى في هذه الآية من سورة الأنعام، إذ أخبر أن هؤلاء المكيين سيتمنون يومئذ لو لم يعارضوا، ولكن لن يغني أسفهم عنهم شيئا.

أما سورة الأنفال فلا تتحدث عن النبوءات السابقة، بل تقارن بين التعاليم، ولذلك قال الكافرون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.. أي ليس هذا القرآن إلا نقلاً وتقليدًا للكتب السابقة، ولو شئنا لقلنا مثله.

أما سورة النحل فهي أيضا تتحدث عن هذا الموضوع نفسه أي أن محمدًا يقلدّ الأولين، إذ ورد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.. فينبههم الله تعالى ويقول لنفترض أن محمدا يقلد الأولين، ولكنه يقلد الأخيار، وأنتم تقلّدون الأشرار، إذ قال الله تعالى بعدها بآية ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾(النحل:٢٧)؛ فكأن الله تعالى يقول لهم: قولوا إن شئتم إن محمدا رسول الله يقلد موسى ويقلد إبراهيم أو أي نبي آخر، فقولكم هذا يدل على أنه يقلد الأخيار، ولكن هل فكرتم فيما تفعلون؟ إنما تفعلون ما فعل فرعونُ عدوٌّ موسى وما فعل أعداءُ عيسى وأعداءُ نوح، وقد خسر هؤلاء الأولون نتيجة معارضتهم لأنبيائهم، وكذلك ستخسرون لأنكم تقلدونهم. أما محمد فلا شك أن مصيره سيكون مثل مصير الأخيار المقبولين الأولين الذين تتهمونه بتقليدهم.

علمًا أن هذه الآيات من سورة النحل تتحدث عن القيامة والتوحيد أيضًا، حيث قال الله تعالى لهم يمكنكم أن تسموا التوحيد الذي يعلّمه محمد رسول الله تقليدًا للأولين، إلا أنه نفس التعليم الذي أتى به موسى وعيسى، وحيث إنكم تعارضون هذا التعليم، فليس مثلكم إلا كمثل الفريسيين والكتبة ونمرود وشدّاد، والمعروف أن المقلّد يكون مع من يقلّده، فعلامَ تفرحون إذاً؟

أما سورة المؤمنون فهي تتحدث عن القيامة الأخروية كما يدل عليه السياق، حيث قال الكافرون للنبي ﷺ كان الأولون أيضًا يتحدثون عن القيامة ولكنها لم تقم بعد،

فكيف تقوم بقولك هذا؟ فردّ الله عليهم أن الله قادر على كل شيء. فقولكم إن القيامة لم تقم بعد يمكن أن يفسَّر بمفهومين، أوّلهما: أن الله ليس قادرًا أن يأتي بالقيامة، وثانيهما لِمَ لم تأت القيامة بعد؟ والجواب أن أفعال الله تعالى هي أمام أعينكم، ولا يحق لكم بعد رؤيتها أن تقولوا أن القيامة لن تأتي. أما سؤالكم لِمَ لم تقم القيامة بعد، فجوابه أنها ستأتي في ميعادها. لماذا تقولون لِمَ لم تأت بعد؟ سيتحقق هذا الأمر أيضًا فتقوم في وقتها.

وهذه الآية من سورة المؤمنون دليل أيضًا على أن في القرآن الكريم وعدًا بالقيامة التي تكون بعد الحياة الدنيا، وهكذا تصبح هذه الآية ردًا على الذين يزعمون أن القرآن لا يذكر إلا القيامة التي تقوم في هذه الدنيا فقط. صحيح أن في القرآن وعدًا بالقيامة الدنيوية أيضًا، ولكن الكفار قالوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، مما يعني أنهم كانوا يتحدثون عن آبائهم أيضا، وهذا يعني أنهم كان يتحدثون عن القيامة الأخروية، والقرآن لم يخطِّئهم ولم يقل لهم إننا لم نَعِدْكم بالقيامة الكبرى، بل اعترف، من جهة، بصحة اعتراضهم حيث قال: نعم هناك وعد بالقيامة، ومن جهة أخرى فند اعتراضهم قائلا إن الله ذو قدرة عظيمة وسيحقق هذا الوعد أيضًا في وقته المناسب.

أما الآيات من سورة الفرقان فهي تتحدث عن الأحكام، حيث اتهم الكافرون رسول الله ﷺ بسرقة شرائع السابقين، فردّ الله عليهم أن القرآن يكشف غوامض الكون وغوامض الفطرة، وقد بين أسرار السماء وأسرار الأرض، أي قد فصّل معاملة الله مع العباد ومعاملة العباد مع الله تعالى كل التفصيل، وأخبر كيف يتصرف ذوو الطبائع المختلفة في شتى المواقف؛ فالشريعة التي تبين أسرار فطرة الناس جميعًا، سواء كانوا عربًا أو هنودًا أو أمريكان أو أوروبيين، والتي تسدّ كل حاجة للطبائع الإنسانية على اختلاف أنواعها وتبيّن كل ما يعامل الله به عباده، سواء أكان مذكورا في الصحف السابقة أم لا.. أقول كيف تعتبرون مثل هذه الشريعة نقلاً وسرقةً للصحف السابقة؟ وأية شريعة تتصف بكل هذه المزايا؟ إن الصحف السابقة كانت محدودة الهدى ومختصة الزمان، ثم كانت مختصة بمناطق

محدودة لا للعالم كله، ولذلك فلم تراعِ تلك الصحف كل أنواع الطبائع البشرية. لقد اهتمت التوراة بالشعب اليهودي فقط، وقد غضّت الطرف عن باقي الشعوب، كما لم تراعِ العصور كلها، أما القرآن الكريم فهو للأمم كلها وللأزمنة جميعها؛ إنه لليهود والنصارى والمسلمين والهندوس والأوروبيين والصينيين واليابانيين وللمتحضرين وغير المتحضرين، فما من قوم إلا وجاء القرآن لهم بالهدى، وليس هنالك زمان يمكن فيه إنكار ضرورة القرآن؛ فلذلك قد أنزل الله تعالى فيه أحكامًا جامعة جدًّا تناسب كل أنواع الفطرة والطبع، وهي صالحة للعمل بها في كل عصر إلى يوم القيامة؛ فكيف يقال، والحال هذه، أن القرآن نقْل وسرقة من الكتب السابقة؟

أما سورة النمل فقال الله فيها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآيتان:٦٨-٦٩). ومضمونها يماثل ما ورد في سورة المؤمنون في قول الله تعالى ﴿وقَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآيات:٨٣-٨٤)، والفرق البسيط هو أن الله لم يرفض في سورة النمل اعتراضهم كلية، بل قال فيها ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(الآية: ٧٠). فالجواب هو نفس ما أجيب به في سورة المؤمنون، حيث اعتبر اعتراضهم صحيحا، ثم ردّ عليهم أن اليوم الآخر والقيامة الدنيوية متلازمان، فإذا قامت القيامة الدنيوية فتأكدوا أن قيامة الآخرة آتية أيضا.

أما سورة الأحقاف فقد ورد فيها ﴿وَالَّذي قَالَ لوَالدَيْه أُفٍّ لَكُمَا أَتَعدَانني أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَت الْقُرُونُ منْ قَبْلي وَهُمَا يَسْتَغيثَان اللَّهَ وَيْلَكَ آمنْ إنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إلَا أَسَاطيرُ الأَوَّلينَ﴾(الآية:١٨). هنا أيضا أخبر أن الكفار أنكروا القيامةَ الكبرى قائلين: إن الأولين أيضا كانوا يقولون إن القيامة آتية، وأنت أيضًا تقول مثل قولهم.

أما سورة القلم ففيها ذكر إنكار الكفار للنبوءات، حيث قالوا إن محمدا (ﷺ) يخوّفنا بذكر قصص الأنبياء السابقين، فيرد الله تعالى أنه إذا جاءكم العذاب فلن تقولوا أنه يخوّفنا بذكر قصص الأولين، بل ستعلمون أنها كانت أنباء صادقة. فما دامت هذه أنباء حقيقية فكيف تقولون أن القرآن نقْل وسرقة للكتب السابقة؟ عندما تُرغَم أنوفكم بالعار، وينزل عليكم عذاب السماء، وتهانون في الدنيا، ويصبح الإسلام غالبًا، عندها ستعلمون أأساطير الأولين هي أم نبوءات صادقة.

والآية التاسعة قد سبقتْ هذه الآيةَ قيد التفسير من سورة المطففين. وإنها تتحدث عن الأمور الثلاثة: الشرائع والبعث القريب والبعث البعيد، حيث ينكر هؤلاء الكافرون البعث القريب والبعث البعيد قائلين إنها حكايات بالية، أو أن الأولين أيضًا قد خوّفوا من القيامة كما يخوّف هذا، ولكن لم يقم أي شيء. والحق أن هذه الأمور كلها ستتحقق، فيقع البعث القريب والبعث البعيد، كما سيظهر بطلان تهمة التقليد؛ لأن الكفار أيضا مقلدون للكفار الأولين، فقال الله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، أي لو قارنتَ بين أحوال أعداء الأنبياء السابقين وأحوال الكافرين بمحمد لوجدتَ بينهما تطابقا تاما بحيث يبدو أن الكتب السابقة إنما سجلت أحوال الكافرين بمحمد ﷺ؛ فإن ما يفعله هؤلاء الفجار توجد أمثلته حتمًا في كتب الأولين. فثبت أنهم أيضا يقلدون، ولكنهم يقلدون أهل ﴿سجين﴾، أما محمد رسول الله ﷺ فهو أيضًا يقلد، ولكنه يقلد أهل ﴿عليين﴾؛ فلو فكروا في أعماله وأحواله لوجدوها تماثل أحوال وأعمال موسى وعيسى وإبراهيم ونوح وغيرهم من الأنبياء. والبديهي أن الصالح يقلد الصالح، والطالح يقلد الطالح؛ وما دام الأمر كذلك فلا قيمة لهذا الاعتراض. وكأن الله تعالى يقول إن التقليد أيضا ليس سهلا، وإلا كيف تمكن محمد من تقليد موسى وعيسى وإبراهيم ونوح، ولم توفَّقوا لتقليدهم. فإذا كنتم تتهمونه بالتقليد فلماذا لا تقلدون هؤلاء الأنبياء؟ فتقليدكم لأهل سِجّين وتقليد محمد لأهل عِلّيين في حد ذاته دليل على فضله، وليس مدعاة للطعن فيه. وقد سبق رد آخر على هذا الاعتراض في سورة الفرقان.

لقد تبين مما سبق أن الكفار قد أثاروا اعتراض ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ في ثلاث مناسبات: إحداها عند إنكارهم البعث البعيد، أعني أنهم كلما ذُكِّروا بيوم القيامة قالوا إن الأولين أيضا خوّفوا منها كذبًا وزورًا وأنت أيضا تخوِّفنا منها مثلهم؛ لقد بطلت أقاويل الأولين وأنت أيضا كذبتَ، إذ لم تقُم القيامة بعد.

والمناسبة الثانية التي أثار فيها الكفار اعتراض ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ هي الحديث عن البعث القريب.. أي الحديث عن رقي الإسلام وغلبته وهلاك الكفر. ولكنهم في هذه المرة لا يُكذِّبون الأولين، بل يقولون يا محمد إنك تطبِّق عليك أمثلة حياة الصالحين الأولين لتخويف الناس، ولكن أمرك مختلف عنهم، إذ كانوا صادقين وأنت كذاب، والعياذ بالله.

وقولهم هذا يماثل ما يقول لنا غير الأحمديين اليوم، إذ يقولون لنا عند النقاش: لماذا تذكرون عيسى؟ ولماذا تذكرون أمثلة من حياة محمد رسول الله ﷺ عند الحديث عن صدق مؤسس جماعتكم؟ ما علاقتكم بهؤلاء الأنبياء الصادقين حتى تذكروا أمثلة من حياتهم، وتقولوا هكذا قال موسى وهكذا قال عيسى وهكذا قال محمد ﷺ؟ فالمعارضون في زمن النبي ﷺ كان يتبعون نفس هذا الأسلوب قائلين: كيف تحاول تطبيق أمثلة حياة هؤلاء المقدسين الأولين تخويفًا للناس، مع أن أمرك مختلف عنهم، إذ كانوا صادقين وأنت كذاب والعياذ بالله؟

أما المناسبة الثالثة لطعنهم بقولهم (أساطير الأولين) فهي أنهم عندما رأوا مماثلة بين شرائع الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين قالوا هذا نقل وسرقة من كتب الأولين. فمثلاً حين رأوا في القرآن حكمًا ثم وجدوا مثله في كتاب موسى أو عيسى قالوا يا محمد إنك تعرض علينا ما سرقتَه من شرائع السابقين، فما فضلُك في ذلك؟ وهذا يعني أنهم كانوا يعترفون بفضل هذه الأحكام وفضلِ أصحابها الأولين، ولكنهم كانوا يكفرون بدعوى الرسول ﷺ قائلين: لا فضلَ في النقل والسرقة. فما دمتَ تنقل لنا شرائع موسى وعيسى فكيف ثبت بذلك أنك صادق في دعواك؟

باختصار، إن المطاعن في المواضع الثلاثة مختلفة، وقد أراد الكافرون بتوجيه هذا الطعن غاية متباينة في كل مرة. فحينًا يعنون من ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أن القرآن

حكايات منقولة من السابقين، وحينًا يعنون بها أن محمدًا يذكر أحداث الأنبياء السابقين محاولاً تطبيقها على نفسه عبثًا، مع أنه لا علاقة لها به، وحينًا ثالثا يعنون بأساطير الأولين أن تعاليم القرآن مسروقة من كتب السابقين.. إنها شرائع موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء و لم يقدم محمد شيئًا جديدا.

باختصار، هذه الاعتراضات الثلاثة تطابق المعاني الثلاثة للأساطير، وقد أجاب القرآن على كلّ واحد منها منفصلا، لأن الاعتراض في الآية قيد التفسير ذو ثلاث شعب، حيث كان موجَّهًا إلى شرائع القرآن والبعث بعد الموت وبعث الأمة، فالرد عليه أيضا جاء مغطيًا المواضيع الثلاثة. وفيما يتعلق بالبعث القريب أي بعث الأمة فقد أجيب عليه بأن هذه الشعوب الغربية تظن أن لا زوال لها، ولكنها سوف تنهار في النهاية وتذل وتخزى، وسيأخذ الإسلام مكانها، وهذا يكون دليلا على البعث بعد الموت. فالبعث الأول يُثبِت البعث الثاني.

والاعتراض الثالث هنا في هذه السورة كان حول تعاليم القرآن.. أي أن شرائع الإسلام نقلٌ وتقليدٌ لكتب الأولين، فأجاب الله عليه بقوله ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.. أي لنفترض أن محمدًا يقلّد الأولين، لكن ما باله لا يقلد إلا موسى وعيسى وغيره من الأنبياء، أما أنتم فأيضًا تقلّدون ولكنكم تقلّدون فرعون وأمثاله؛ فكيف ترمون محمدا بالكذب؟ إذا وضع محمد رسول الله ﷺ يده وضعها في يد موسى وغيره من الأنبياء، أما أنتم فكلما وضعتم أيديكم وضعتموها في يد فرعون وأمثاله، ثم إنه يعمل بشرائع الأنبياء السابقين، وأنتم تهربون من اتّباع تعاليمهم وتتّبعون الشياطين. فكلٌّ من الفريقين يقلد ما يشابهه ويماثله. لو كانت أعمال كلا الفريقين كأعمال العلّيّين، ولو كانت أقوال الكفار كأقوال الأنبياء كما هي أقوال محمد، لاشتبه الأمر على الناس و لم يعرفوا أي الفريقين على الحق، لأن كلا الفريقين يقول ما قاله موسى وعيسى ويفعل ما فعله موسى وعيسى؛ ولكن هناك فرق بيّن وبارز بين الفريقين، لأن أقوال محمد وأعماله تماثل أقوال موسى وأعماله، في حين أن أقوالكم وأعمالكم تشبه أعمال فرعون وأقواله. إنه ﷺ يتبع خطوات الأبرار، وأنتم تتبعون خطوات الفجار، وتدْعون إلى ما يتعارض مع تعاليم أنبيائكم أيضا،

وهذا دليل أن محمدا رسول الله ﷺ يتبع خطوات الأنبياء، وأنتم تتبعون خطوات أعدائهم. فسقط اتهام التقليد كليةً. إنه ليس تقليدا، إنما هي مشابهة، ثم هي مشابهة بعليين، وهذه المشابهة دليل على صدقه.

والجدير بالذكر هنا أن كفار مكة طعنوا في القرآن الكريم بقولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، والآن وبعد مرور ١٣ قرنًا قد رمى الأوروبيون نبينا محمدا ﷺ بالتهمة نفسها، حتى ألّف القسيس تِسْدِل (C. Tisdall) كتابًا بعنوان "مأخذ القرآن" أثبت فيه -زعمه- أن القرآن نقل وسرقة من الكتب السابقة (ينابيع الإسلام). وحيث إن سورة المطففين تتحدث عن الشعوب الأوروبية المسيحية، فنجد هنا تشابها بين الأوروبيين وكفار مكة، حيث رددوا نفس الطعن الذي وجّهه كفار مكة إلى رسول الله ﷺ، وألفوا كتبًا رددوا فيها نفس الاعتراض الذي أثارته قريش. وكأن قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يتضمن نبأ أن المسيحيين سيتهمون الإسلام والقرآن بنفس التهمة إبانَ غلبتهم في المستقبل. وكما قلت فقد نوقش هذا الموضوع بوجه خاص في كتاب (مأخذ القرآن)، علاوة على الكتب الأخرى التي نشرها المسيحيون ورموا فيها القرآن الكريم بنفس التهمة.

باختصار إن قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني أنه حين يُعرَض القرآن الكريم على هؤلاء المكذبين بالدين فإنهم سيقولون ما قيمة هذا الكتاب؟ فبعض ما فيه منقول من الفيدا، وبعضه مسروق من التوراة، وبعضه مأخوذ من الإنجيل، وبعضه من الزندافستا. وقد ردّ الله عليهم في الآية التالية، ولكن الإنسان المتدبر يكفيه هذا الجواب الرباني بأنكم كيف تتهمون محمدا، مع أنه قد أخبر في القرآن سلفًا أنكم سترمونه بهذه التهم في يوم من الأيام، فالحق أن تهمتكم ليست دليلا على كذبه، بل إنها لتزيد صدقه جلاءً.

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

كلاّ: حرفٌ معناه الردع والزجر. وفي "الكليات": وقد تجيء بعد الطلب لنفي إجابة الطلب كقولك لمَنْ قال لك: افعلْ كذا، كلا.. أي لا يجاب إلى ذلك. وقد يجيء بمعنى حقًّا، نحو ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾. (الأقرب)

ران: رانَ الشيءُ فلانًا وعليه وبه يرين رَينًا ورُيونا: غلب عليه. ورانت النفسُ: خبُثتْ وغثَتْ. (الأقرب). والريْن: صدأٌ يعلو الشيءَ الجليل. (المفردات)

التفسير: أي عودوا إلى صوابكم يا مَن تقولون إن القرآن أساطير الأولين، وتكلّموا بعقلانية، وفكِّروا: مَن تتهمونه!

وحرفُ "بل" يفيد الاستدراك، وهو نوعان: أولا: (أ) ما يفيد نفي ما قبله وإثبات ما بعده، (ب) ما يفيد إثبات ما قبله ونفي ما بعده. ومثال الأول هذه الآية قيد التفسير حيث تم نفيُ ما ورد قبل (بل) من تهمة الكفار بأن القرآن أساطير الأولين، وتّم إثبات ما بعده، حيث قال الله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ومثال الثاني قوله تعالى ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(ص:٢-٣).. أي لا شك أن القرآن ذو الذكر، ولكن إنكارهم غير معقول، بمعنى أنهم لم ينكروا القرآن لخلوِّه من الذكر، إنما أنكروه لكبريائهم وكراهيتهم للصدق. وأيضًا من الأمثلة على النوع الثاني قولُه تعالى ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾(ق:٢-٣).. أي لا شك أن القرآن مجيد، ولكن إنكارهم له يرجع إلى جهالتهم.. بمعنى أنهم يستغربون من مجيء منذر منهم ولا يتدبرون فيما جاءهم به.

وهناك نوع آخر من (بل) الذي لا ينفي ما قبله ولا ما بعده، وإنما يأتي لبيان معنى زائد، كقوله تعالى ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ..... بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(الأنبياء:٤-٦). فحرف (بل) هنا يفيد في كل مرة إثباتَ ما قبله وما بعده ويبين معنى زائدا. فمثلا قوله تعالى ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾

لا ينفي ما ورد قبله ولا يعني أنهم لا يتهمون محمدا ﷺ بالسحر، بل يبين أمرًا زائدًا بأنهم يُضيفون إلى اتهامه بالسحر أن القرآن أضغاث أحلام. ثم أُتي بحرف (بل) آخر ليشير إلى تهمة أخرى، أي أنهم لا يتهمون أن وحيه ﷺ أضغاث أحلام فحسب، بل يتهمونه باختلاقه من عنده. ثم جيء بحرف (بل) للمرة الثالثة للإشارة إلى تهمة رابعة وهي قولهم ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾.. أي أنه يؤلف كلامًا خلاّبًا لإغواء النَشْء.

ومثاله الآخر قول الله تعالى ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ۞ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾(الأنبياء: ٤٠-٤١). فحرف (بل) هنا يصدّق ما قبله ويزيد أمرا آخر عليه، وكأنه قيل إن العذاب يكون شديدا بحيث لن يستطيعوا رده، كما أنه سيفاجئهم فترتجف قلوبهم ويتيه صوابهم.

أما قوله تعالى هنا ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فقد جيء بحرف (بل) لنفي تهمة أساطير الأولين، حيث بيّن الله تعالى أن تهمتهم هذه باطلة، والحقيقة أن الجهل قد علا أفئدتهم وأن الرين قد غطّى قلوبهم، كما ذُكر عند شرح الكلمات أن الريْن هو غلبه الشيء والإصابة بالصدأ.

قال الفرّاء: "كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الريْن عليها. وقال الحسن: الرين هو الذنب على الذنب حتى يسْوَدَّ القلب" (لسان العرب). فيرى الفرّاء أن قوله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن سيئاتهم قد أحاطت بقلوبهم فأصبح إصلاحهم مستحيلاً، بينما يرى الحسن البصري أن قلوبهم سُلبتْ قوةَ معرفة الحق نتيجة ذنوبهم المتكررة.

"وقال أبو زيد يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْنًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قِبَلَ له به" (فتح البيان).. أي أن قوله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن أعمالهم السيئة قد كثرت بحيث لا يستطيعون الخروج منها حتى لو أرادوا ذلك.

ويقول أبو معاذ النحوي: الريْن أن يسودّ القلب من الذنوب، والطبْع أن يُطبَع على القلب، وهو أشد من الريْن، والإقفال أشد من الطبع." (فتح البيان)

ولكن هذا ليس صحيحا عندي، بل إن هذه الكلمات: الرين والطبع والإقفال تشير إلى معانٍ مختلفة. الريْن هو الصدأ، وحقيقةُ الصدأ أن الشيء المصاب به يتآكل، إذ ليس الرين إلا أن الشيء يتغير من داخله بتأثير خارجي ويفقد ماهيّته؛ فإصابة الحديد أو النحاس بالصدأ يعني أن الندى قد أثّر عليه من الخارج فبدأ يتأكسد.

أما الطبع فمعناه قبول نقش الشيء الآخر، لأن الطبع معناه الختم.

أما الإقفال فيعني عدم انفتاح الشيء بقوته، بل الله هو الذي يفتحه إذا شاء.

إذن، فهذه الكلمات الثلاث تشير إلى كيفيات ثلاث مختلفة. فيشير الرين إلى أن السيئات الخارجية قد أثّرت فيهم بحيث قد تغيرتْ تمامًا ماهيةُ قلوبهم التي هي منبع الخير، فتجرأوا على المعاصي. أما الطبع فقد أُشير به إلى أن قلوبهم قد خُتمت بالمعاصي، أي أنهم أصبحوا من كبار العصاة، لأن الشيء المختوم يكون ذا مستوى عالٍ. وأما الإقفال فقد بيَّن أن حالتهم قد ساءت بحيث لن تنفتح أقفال قلوبهم بيد إنسانٍ بل بيد الله فقط.. أي لم يعودوا قادرين على إصلاح أنفسهم بأنفسهم.

وهناك حديث بصدد الريْن.. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الترمذي: كتاب تفسير القرآن). ووردت هذه الرواية أيضًا في مسند أحمد والنسائي وابن ماجة والطبري بألفاظ مقاربة. وقوله ﷺ "نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداء" يعني أن قلبه مال إلى السيئات.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية حكمةً بالغة تتعلق بعلم النفس والأخلاق وهي: أن كل عمل يترك وراءه أثرا. وليس أثر العمل ما يكون أثرًا طبيعيًا مباشرًا فحسب، بل إنه يترك تأثيره على أخلاق المرء وعقله وعلمه أيضا. فمثلا عندما يكذب المرء فتأثيره المباشر أنه يشوّه سمعته بين الناس ويحرمه من ثقتهم به، ويستحق عذاب الله عاجلا أو آجلا نتيجة عصيانه له، كما أن خصمه يصبح عدوًا له ويحاول الانتقام منه؛ ثم يهجره أصحابه الصلحاء أيضًا قائلين أنت كاذب ولا تصلح لصداقتنا. هذه كلها تأثيرات طبعية ومباشرة للكذب، ولكن هناك تأثير آخر يتركه إثم المرء على

عقله وقلبه؛ فعلى سبيل المثال إن أول تأثير للكذب على عقل صاحبه وقلبه أنه يصبح أقلَّ كراهيةً للكذب، فيسهل عليه الكذب بعدها شيئًا فشيئًا. والحال نفسه بالنسبة إلى المعاصي الأخرى؛ فكل إنسان يخاف عند أول سرقة أو أول قتال أو أول سبّة أو أول فساد أو أول قتل، لأنه يخاف أن يُقبَض عليه، أو تُشوَّه سمعته بين الناس، ولكن الكذبة الأولى تؤثر في عقله فتقلّ كراهيته للكذب، بل يسهل عليه الكذب بعد ذلك. والحال نفسه بالنسبة إلى المعاصي الأخرى، فإذا ارتكب معصية منها مرة سهل عليه ارتكابها، فيقع فيها بلا تردد بعدئذ.

والتأثير الثاني للذنب على عقل المرء وقلبه، هو تناقص كراهيته للمعاصي الأخرى أيضًا. فمن يسرق تسهل عليه الجنايات الأخرى نسبيا، لأن السرقة تقلّل من إحساسه بمعصية الله. والحال نفسه بالنسبة إلى الذنوب الأخرى. فكل ذنب يكون سيئًا بحد ذاته، لكن له تأثير خارجي آخر بأنه يقلل كراهية المرء تجاه السيئات الأخرى، فيزداد عصيانا لله تعالى.

والتأثير الثالث للذنب في نفس الإنسان أنه يسيء الظنّ بالآخرين، لأنه يفكر أن الآخرين أيضا يرتكبون هذا الذنب مثله. فمثلاً إذا قلتَ للكاذب قولاً صادقًا، فإنه يقول في نفسه: إن هذا أيضًا كذوب مثلي، إذ كيف يمكن أن يصدق أحد في قوله؟ وهذا راجع إلى اعتياده الكذب. فهكذا يظل مثل هذا الإنسان محروما من معرفة الحقّ، وبدلا من أن ينتفع من الصدق ينسب أفعال الآخرين إلى سوء النيّات؛ إذ يُعرَض عليه الحق، فيرفضه بدلاً من أن يتدبر فيه، ظنًّا منه أن هذا أيضًا يكذب مثلي، وأنه يحاول خداعي كما أنا أخدع الناس.

والتأثير الرابع أن مثل هذا الإنسان يصبح محروما من معية الصادقين؛ إذ يظن أن ليس في الدنيا أي صادق، وأن الجميع كذابون مثله، كما أن الصادقين أيضا يتجنبون صحبته.

هذا الموضوع واسع جدًا، وهو بمثابة الأصل للخير والشرّ الموجودين في الدنيا، ويكشف لنا سبب دمار أخلاق أهلها. لقد بين القرآن الكريم في هذا القول الوجيز ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أن أي عمل له نتيجتان: مباشرة

وغير مباشرة، والمراد من النتيجة غير المباشرة أن سيئته تدمر قواه العقلية والعِلمية والفكرية، وهذا ما يسمى رَيْنًا.

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾

التفسير: هذه المرة الثالثة لتكرار كلمة (كلا) في هذه الآيات، إذ قال الله تعالى من قبل ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، وقال ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال الآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ﴾. وسيأتي بعدها بقليل قول الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾. وربما لم تتكرر ﴿كلا﴾ في القرآن الكريم بهذه الكثرة في آيات قليلة، حيث تكررت هنا أربع مرات. ولقد سبق أن بينتُ أن (كلا) تفيد الردع والزجر، فتكرارها هنا إشارة إلى شدة العذاب. قال الله تعالى في القرآن بحق النصارى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:١١٦). ذلك أن المسيح عليه السلام كان قد طلب من الله تعالى إنزال مائدة لقومه، فأجابه الله أني سأعطيهم نعمة المائدة، ولكن كفرانهم بها سيؤدي إلى نتائج وخيمة جدا. لقد دعوتَ لقومك بالتقدم المادي، فسوف أكتبُه لهم على نطاق واسع، ولكنهم لو كفروا وتبرءوا من الدين وابتعدوا عن الله تعالى وأعرضوا عن أحكامه، فإني سأعذّب الأمة المسيحية بعذاب لم أعذّب به أي أمة قبل ذلك. فلما كان هناك في سورة المائدة وعدٌ من الله تعالى بأنه سيمنح الشعوب المسيحية رقيا ماديًا كبيرًا، كما كان هناك خبر أنهم إذا مالوا إلى الكفر فسوف يعذّبهم عذابًا لم يسبق له نظير، فتكرار ﴿كلا﴾ هنا سيُعتبر إشارةً إلى هذا العذاب الشديد نفسه، وكأن الله تعالى يحذر أمة المسيح عليه السلام ويقول أيها المسيحيون انتبِهوا، فقد أصبحتم مطفّفين، حيث تغصبون حقوق العباد، وترفلون في الرخاء المادي. لقد كنتُ حذرتُكم من قبل أنكم لو كفرتم بي بعد إحراز الترقيات

المادية، وكفرتم بنعمتي وتكالبتم على الدنيا، معرضين عني، فسوف أعذبكم عذابا لم أعذب به أحدا من العالمين، فاعلموا أن هذا العذاب قد قرب، وآن الأوان أن نبطش بكم بطشا شديدا مهيبا.

والتدبر في تكرار ﴿كلا﴾ ههنا يكشف أمرًا آخر أيضًا، وهو أن ﴿كلا﴾ قد تكررت هنا ٣ مرات بعد ذكر الكفر، ومرة واحدة قبل ذكر المؤمنين، وفي ذلك إشارة أنه ستقع ثلاث هزات لتدمير المسيحية، ثم تقع الهزة الرابعة لازدهار الإسلام. ويبدو، بحسب ما يُفتي به العقل، أن الحرب العالمية التي انتهت سنة ١٩١٨ كانت هي الهزة الأولى التي أُصيبت بها المسيحية، والحرب العالمية الحالية (الثانية) هي الهزة الثانية لها، وستكون بعدها حرب عالمية ثالثة لتكون الهزة الثالثة والأخيرة لهلاك الشعوب الغربية، ثم تليها الهزة الرابعة التي يزدهر بعدها الإسلام ثانية، فتصبح هذه الشعوب ذليلة مقهورة تماما؛ ذلك لأن الله تعالى يقول بعد ورود كلمة ﴿كلا﴾ في المرة الرابعة مباشرةً: ﴿كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فاليوم المذكور هنا هو نفس اليوم المذكور من قبل في قوله تعالى ﴿يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾(الآية: ١٢).

وقد أُشيرَ بكلمة ﴿ربهم﴾ هنا إلى أن علاقة ربوبية الله مع العبد كعلاقة الأُمّ مع الولد؛ فإن الأُمّ تربي ولدها وترضعه وتعتني به وتسدّ حاجاته حتى يترعرع ويكبر؛ وهذا هو معنى الرب أيضا، حيث يهيئ الله الأسباب لتربية الإنسان ماديًا وروحانيا. فالربّ يسعى من جانبه لأن يقترب من الذي يربيه، ويحاول مَن يتلقى الربوبية أيضًا أن يقترب من ربه؛ شأن الأم حيث تحب ولدها وولدُها أيضًا يحبها. فالله تعالى يبين هنا أن الصلة بيني وبين هؤلاء القوم تفرض أن أحبّهم ويحبّوني، ومع ذلك فسينغمسون في المعاصي حتى يُحجَبوا عن ربهم. والمحجوب من مُنع من الوصول إلى شيء بوضع حجاب بينهما. وأيّ شك في شقاوة إنسان صار محجوبًا عن ربه؟ ولذلك يقول الله تعالى هنا: ما أشقى هؤلاء القومَ! فإنهم سيُحجبون عن ربهم يومئذ رغم صلة الربوبية بينهم وبينه.

هنا ينشأ سؤال: ما هو المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.. (١) هل المراد أن باقي الناس سيرون ربهم بينما يظل هؤلاء المسيحيون محجوبين عن ربهم؟ (٢) هل كان المسيحيون قبل ذلك يرون ربهم بينما يكونون يومئذ من المحجوبين عنه؟

الجواب أنه فيما يتعلق بالرؤية القلبية، فكل إنسان غيرِ مُعرِض عن الدين يرى اللهَ، لقوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣).. أي أن من لم ير اللهَ تعالى في الدنيا لن يراه في الآخرة. مما يعني أن الله تعالى قد اعتبر كل المؤمنين الناجين ممن يرونه ﷻ. ومع ذلك لا يمكن لكل مؤمن أن يقول إنه قد رأى الله في الدنيا. وهذا يعني أن مجرد الإيمان يُعتبر أولى درجات الرؤية الإلهية، فإذا رُزق المرء الإيمان جاز لنا القول إنه قد رأى الله تعالى. ذلك أن الإيمان لا يتيسر بغير معرفة صفات الله تعالى؛ إذ ليس ﷻ اسمًا لشيء مادي، بل هو ذلك الذي اتصف بكل الصفات الحسنة مِن ربوبية ورحمانية ورحيمية ومالكية يوم الدين. وإذا فهم المرء ربوبيةَ الله ورحمانيته ورحيميته ومالكيته وغيرها من صفاته موقنًا بها، تيسرتْ له درجة من رؤية الله تعالى. إذن، فمن رؤية الله ما يتيسر لكل مؤمن بدون استثناء ولا فرق، سواء كان ضعيف الإيمان أو من المقرَّبين.

ثم يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(الآيات:١٢٥-١٢٧).. أي أن من أَعرض عن ذكري ولم يتدبر في صفاتي ولم يدرسها عاش عيشة ضيقة جدًّا؛ ذلك لأن نطاق عمل الإنسان إنما يتسع نتيجة معرفته بصفات الله تعالى؛ فمَن تيسر له الإيمان الصادق بالله تعالى، تحلّى بالسخاء والصدق والأمانة والسداد والرأفة والمحبة، ولم يزل يزداد في حسناته هذه، ولكن مَن لا يؤمن بصفات الله تعالى فإن نطاق عمله يظل محدودًا جدًّا.

الحقيقة أن نطاق عمل المرء يتسع بسموّ طموحه؛ أما مَن لم يكن مطمحه عاليًا فإن أعماله تظل في نطاق ضيق؛ ولذلك نجد أخلاق الفلاسفة لا تساوي أمام أخلاق

الأنبياء شيئا، كما أن أخلاقهم القليلة أيضًا تظل ضيقة النطاق جدًّا. لو نظرنا إلى أخلاق النبي ﷺ أو إلى أخلاق موسى أو عيسى -عليهما السلام- لوجدناها واسعة سعةً غير عادية. فكان صدقهم عظيما، وأمانتهم عظيمة، وبشاشتهم عظيمة، وسخاؤهم عظيما، ورحمتهم وعنايتهم بالفقراء وعدلهم وتوكلهم عظيمًا؛ لقد تحلَّوا بعشرات الأخلاق الحسنة، وبمستوى عال جدًّا. وعلى النقيض إذا رأيت الفلاسفة، فقد تجد أحدهم أمينا أو سخيا، ولكن لن تجد أيًّا منهم يجمع في نفسه الأخلاق الحميدة كلها؛ وليس ذلك إلا لأن المرء تظل أعماله محدودة في نطاق ضيّق ولا تتسع أبدا ما لم يكن أمامه مطمح عال يتطلع إليه، وما لم يكن أمامه أسوة رائعة يتأسى بها. وإذا ظلت أعمال المرء في نطاق ضيق جدًّا فلن تتسع ولن تتنوع أعماله أبدًا؛ فأَنَّى له أن يرى ربه يوم القيامة؟ وكيف يعرف إلَه الربَّ مَن لم يسعَ للتحلي بربوبية كربوبيته؟ وكيف يعرف إلَه الرحيم مَن لم يكن رحيما؟ وكيف يعرف إلَه الرحمن مَن لم يكن رحمانًا؟ وكيف يقدر على رؤية الله تعالى يوم القيامة مَن لم يكن غفورًا وستّارا ومهيمنا؟ فمَن لم يذق في حياته الشمام مثلاً، كيف يعرف طعمه حتى ولو رآه؟ كلا، سيفشل في استيعاب كنهه. فالذي يظل نطاق عمله محدودا ضيقا، ولم يعكس صفات الله تعالى في مرآة قلبه في الدنيا، فكيف يعرف ربه إذا ظهرت صفاته أمامه يوم القيامة؟ كلا بل إنه سيقف كالأعمى ولن يرى منها شيئا. وحيث إنه يُبعَث يوم القيامة أعمى، مع ظنه أنه فيلسوف حكيم بصير ومفكر كبير، فيقول لله تعالى يومئذ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾.. أي لِمَ بعثتَني أعمى اليوم مع أنني كنت بصيرا حكيمًا، وعالِمَ نفسٍ كبيرا، وفيلسوفا عظيمًا وعالما كبيرا، أؤسس معلوماتي على المشاهَدة، وأقضي ليلي ونهاري في مطالعة الكتب والتدبر في أسرار الكون؟ فيجيبه الله تعالى ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.. أي قد أريناك على يد رسولنا المعجزات، وأتيناك بالآيات على كوننا إلَهًا قادرا، وربًّا ورحيما، ومالكا ومحييا ومميتا، فلم تأبَهْ بها ولم تتوجه إليها. كنت ترى رسولي وتعتبر كلامه فارغًا، وتقول أَنَّى لهذا الشيخ أن يستوعب علومي ومعارفي! أنا فيلسوف! أنا "كانْط"! وأنا "هيجل"! كيف أضيع وقتي في

هذه الأمور التافهة. فما دمتَ مُعرِضًا عنا، فنُعرض عنك. ولأننا نحن مَن يهب للإنسان الأعينَ والنورَ اللذيْنِ بهما يبصر، فلو كنتَ متوجهًا إلينا من قبل لأعطيناك العيون والنور، ولكنك أعرضت عنا، فنـــزعنا منك نورنا، فحُشرتَ في هذه الحياة أعمى.

لقد تبين من هنا أن المعجزات والآيات إنما تهب المؤمن نوعًا من رؤية الله تعالى، ولكن المحرومين من هذه الرؤية يظلون محرومين من الرؤية التي هي أكبر منها، والتي تتيسر في هذه الدنيا أو في الآخرة.

وكان السؤال الثاني هل كان المسيحيون قبل ذلك اليوم يروْن الله تعالى حتى قيل لهم ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فالجواب: أن ذلك اليوم خاص برؤية الله، ومع ذلك لن يُرزقوها يومها أيضا. ذلك أن القاعدة أن العلم يزيد المرء معرفة بالأشياء فورًا، ولكن في بعض الأحيان يصاب القلب بالصدأ بحيث لا يتيسر العرفان رغم العلم؛ فمثلا إذا قلتَ لإنسان عادي أن هذا الشيء هو الأفيون، وفيه أضرار كثيرة، فسوف يتجنب تناوله، لعِلمه أن لو تناوله أصيبَ بالمرض وضعفتْ أعصابه، ولكن مَن اعتاد تعاطيَ الأفيون، فلن يجديه نصحُ الطبيب، مهما حذره ونهاه عن تعاطيه، بل إنه يستمر في تعاطيه مهما ساءت أخلاقه وتدهورت صحته. فهذا الشخص يملك العلم ولكن يعوزه العرفان، لأن عادته القديمة وريْنَ قلبه قد حالا دون تيسر المعرفة له رغم تيسر العلم له؛ فلا يستطيع ترك الأفيون. هاتان هما الحالتان اللتان تطرآن على الناس؛ والحق أن الرؤية الإلهية اسم للعرفان وليس للعلم؛ وحيث إن ذلك اليوم يكون خاصًا لرؤية الله تعالى، وهذه الرؤية إنما تتيسر بالعرفان لا بالعلم، فلذلك عندما تتجلى قدرة الله وقوته يومئذ فلن يتيسر لهم العرفان رغم انكشاف خطئهم عليهم، لكون قلوبهم نجسة قد رانت عليها ذنوبهم.. أي لن يكون عندهم العرفان الذي هو نتيجة طبيعية للعلم، فمثلهم كمثل متعاطي الأفيون، الذي لن يتركه مهما حذَّرته وخوَّفته لاعتياده تناولَه.

فالله تعالى يبين هنا أن ذلك اليوم يوم الانكشاف، فرغم تيسُّر العلم لن يتيسر لهم العرفان لكون قلوبهم قد تنجست، فبرغم أنهم يقولون ربنا قادر ويدركون أن الله

رحيم وعزيز، ولكن لن يكون لهم أي صلة بالرب الرحيم القادر الكريم ، فلا يستحقون الجنة بل يدخلون النار.

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٩﴾

التفسير: أي لا تظنوا أن المؤمنين لن يزدهروا ولن يتقدموا؟ كلا، بل إن نصيب المؤمنين مكتوب في ﴿عليين﴾. لو فسرنا ﴿عليين﴾ بمعنى القرآن، فالمقصود تلك الآيات القرآنية التي فيها أنباء عن ازدهار المسلمين، ولو كان ﴿عليين﴾ بمعنى الدرجات العلى، فالمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أن نيل المؤمنين درجاتٍ عُلا قضاءٌ مبرم.

قال ابن عباس إن المراد من ﴿عليين﴾ الجنة (ابن كثير). وقال صاحب المفردات: "بل ذلك في الحقيقة اسمُ سُكّانها، وهذا أقرب في العربية، إذ كان هذا الجمع يُختص بالناطقين." وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني أن اسم الأبرار مكتوب في عليين، وأن ذكرهم موجود حيث ذِكرُ ﴿عليين﴾.

وهناك رواية عن عبد الله بن كعب عن أبيه قال: "لما حضرتْ كعبًا الوفاةُ أتتْه أُمُّ بِشر بنتُ البراء، فقالت: يا أبا عبد الرحمن إن لقيتَ ابني فلانا فاقْرَأْ عليه مني السلامَ. فقال لها: غفر الله لك يا أُمَّ بِشر، نحن أشغلُ من ذلك. قالت: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: "إن نسمة المؤمن لتسرح في الجنة حيث شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين؟ قال: بلى، قالت: فهو ذاك." (ابن ماجة، كتاب الجنائز، والطبراني الحديث رقم ١٢٢، والبيهقي الحديث رقم ٤٢٤٠).

لقد تبين من هذا الحديث أن ﴿عليين﴾ يعني الحرية، إذ ورد في الحديث أن "نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت"؛ وقد بيّنّا من قبل أن معنى السجين هو السجن؛ وعليه فتعني هذه الآية أن الكافرين كما جعلوا نطاق أعمالهم محدودًا جدا، وقصّروا في الحسنات، كذلك فإنهم سيوضعون في ﴿سجين﴾، أي في حالة سجن

وقيْد، أما المؤمنون فكان نطاق أعمالهم واسعا جدا، فلذلك يكونون في ﴿عليين﴾، أي في جماعة لا حدود لصلاحها وارتقائها.

هذا المعنى بيّنتُه نظرًا إلى هذه الدنيا. أما بالنظر إلى الآخرة، فالمراد أن المؤمنين لما وسّعوا نطاق أعمالهم في الدنيا، فسيعاملهم الله تعالى في الآخرة برحمة واسعة، فيضع أرواحهم في حرية، فتسرح في الجنة حيث شاءت. ولقد ناقشت هذا الأمر في كتابي "الأحمدية.. أي الإسلام الحقيقي"، حيث بينتُ أن الروح الإنسانية يمكن أن تذهب في الجنة حيثما تشاء. ولكن هذا لا يعني أن أهل الجنة يكونون جميعًا على درجة واحدة. لقد أثبتُّ في كتابي هذا أن لأهل الجنة أن يذهبوا حيث شاؤوا، وفي نفس الوقت تكون درجاتهم متفاوتة.

باختصار، لقد حذّر الله تعالى المسيحيين بقوله ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، وأخبر أنه ستقع لهلاكهم ثلاث هزات قوية، وبعدها تقع الهزة الرابعة الأخيرة، فيرفع الله المسلمين من تحتهم، ويبوّئهم أعلى المراتب والدرجات.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٣٠﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢١﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير: أي أيها المستمع، ماذا تعلم عن عليين؟ كتاب مرقوم.. أي أنه سجلٌّ مكتوب، أو أنه كتاب مختوم، أي قرار قد خُتم عليه فلا يُغيَّر ولا يُبدَّل؛ أو المعنى أنه قرار مكتوب، وهذا أيضا بالمعنى السابق لأن الكتاب المكتوب لا يتغير.

ثم قال الله تعالى ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.. أي سيرى المقرّبون المصير المذكور سابقا.

هذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، فإن ذلك اليوم يكون عسيرا على الكافر بحيث يقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.. أي أنه سيتأوّه متأسفا ويسعى للفرار من مصيره، أما المقرَّب فيسارع إلى رؤية مصيره، ويذهب إليه برغبته، لأن مصيره محمود.

كأن الله تعالى يختم الحديث عن نبوءات هلاك الكافرين وازدهار المؤمنين هنا، مبينًا أن غلبة هؤلاء المطففين ستطول بلا شك، ولكن الله تعالى سيُنهيها حتمًا، ومن أجل ذلك كرر لفظ (كلا) أربع مرات في سورة واحدة على فترات قصيرة، وفيه كما قلتُ من قبل إشارةٌ خفية إلى وقوع ثلاث هزات قوية لإهلاك الشعوب الغربية، ثم بعدها تقع الهزة الرابعة التي يتراءى بها مصير هؤلاء المطففين أمام أعينهم، فيغلب الإسلام ويهلك الكفر، وسيكون مصير هؤلاء المسيحيين وخيمًا بحيث سيحاولون الفرار منه بكل وسيلة، ولكن بدون جدوى. أما المؤمنون فيسارعون لرؤية مصيرهم قائلين نِعم المصير ونِعمت العاقبة!

والجدير بالذكر هنا أن كلمة ﴿سجين﴾ التي قد وردت هنا بحق الكافرين مفردةٌ، وكلمة ﴿عليين﴾ الواردة بحق المؤمنين جمعٌ. وهذه إشارة إلى أن الله تعالى لا يزيد في عقوبة الكافر، بينما يزيد في جزاء المؤمن، وبالتالي يظل الكافر مقيَّدا في سجن واحد، بينما يظلّ المؤمن ينتقل من بيت إلى آخر أجمل وأروع وأعلى، وهكذا يسير الله به في عوالم كثيرة. فللمؤمن بيوت كثيرة، وللكافر بيت واحد. هذا هو السبب في أن الله تعالى استخدم صيغة المفرد لبيت الكافر وصيغة الجمع لبيت المؤمن.

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

نعيم: انظرْ في شرح الكلمات في سورة الانفطار تحت الآية: ١٤.

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا إن الأبرار سيُنعم الله عليهم، بل قال إنهم سيكونون في نِعمة.. أي أن الله تعالى سيجعل محيطهم كلَّه نعمةً. ويمكن تفهُّم هذا التعبير بمثال شخصين أحدهما يُصَبّ عليه الماء بدلو، والآخر يقفز في بركة الماء، لا شك أن كليهما سيتبلل بالماء، ولكن شتّان بينهما. إذًا فالمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أن الله تعالى سيجعل محيطهم كله نعمة، وكأنما قفزوا في بِركة النعمة، أي أن النعمة ستحيط بهم وتغطيهم من كل جانب.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

الأرائك: جمعُ الأريكة، وهي سريرٌ منجَّد مزيَّن في قُبَّةٍ أو بيتٍ، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حَجَلَةٌ. (الأقرب)

التفسير: كلمة ﴿ينظرون﴾ صفة للأبرار، أو حال. فإذا اعتبرناها حالاً فالمعنى أن المرء ينال بعض النعم في الدنيا ولا يدرك حقيقتها، ولكن الله تعالى سيؤتي المؤمنين هذه النعمة وهم ينظرون.. أي يدركون عظمتها وقيمتها. ومثاله الواضح أنك إذا أعطيتَ طفلا قطعة ألماس فلن يعتبرها شيئا ذا قيمة، كذلك حين ينعم الله على بعض الأمم بنِعمٍ فلا يدركون حقيقتها؛ فمثلا قد أُعطيت الشعوب الأوروبية مائدة، تلك المائدة التي دعا لها المسيح من أجلهم، ولكنهم يظنون أن كل ما أحرزوه إنما أحرزوه بقوهم؛ وكأنما قد عميت بصيرهم. ولكن الله تعالى يقول عن المؤمنين إننا حين ننعم عليهم سيكونون عندها على الأرائك ينظرون.. أي يدركون أن هذه النعم نتيجة للنبوءات الواردة عنهم. وكأن المعنى أهم لما كانوا يتمتعون بالبصيرة الروحانية، فسيحملون عبء الأمانة جيدا. انظروا مثلاً إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين فإهم كانوا يدركون عند كل خطوة أن ما أُعطوه ليس مِلْكًا لهم، بل الله تعالى قد وضع هذه الأمانة في أيديهم، فحافَظوا عليها كما ينبغي أن يحافَظ على أمانات الله.

أما إذا اعتبرنا "ينظرون" صفة للأبرار، فمعنى الآية عند المفسرين: ١- ينظرون إلى ما شاءوا من رغائب مناظر الجنة وما أعدَّ الله لهم من كرامات، ٢- ينظرون إلى أهل النار أعدائهم. (روح المعاني)

الواقع أن المفسرين ظنوا أن هذه الآيات خاصة بيوم القيامة، فدفعهم ذلك إلى التفكير في أشياء تتعلق بالقيامة. لا شك أن هذه الآيات يمكن أن تنطبق على يوم القيامة أيضا، ولكن قبل حلول القيامة يمكن أن يراد من ﴿نعيم﴾ نِعم هذه الدنيا، التي وُعد بها الأبرار؛ ولذلك أرى الآتي:

أولاً: لقد أخبر الله تعالى من قبل عن مصير هؤلاء الفجار فقال ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.. أي أنهم لن يُرزقوا رؤية ربهم يوم القيامة، فكان لزامًا الآن أن يخبر عن مصير الأبرار، فلذلك قال ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.. فلذلك يجب تفسير قوله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ﴾ على ضوء مصير الفجار المذكور في الآية السابقة، وبسبب هذه القرينة سكت الله عما ينظرون إليه؛ ولذلك فأحد معاني ﴿ينظرون﴾ هنا أنهم ينظرون إلى ربهم ولا يكونون من المحجوبين عنه.

وهذا النظر نوعان: أولهما: صفاتيٌّ، أي ما يتعلق بظهور الصفات الإلهية في الدنيا، كما يقول الناس في بلادنا عند رؤية مصيبة أو انقلاب عظيم أو حالات غير عادية: لقد رأيتُ برؤيتها ربي. وعليه فقوله تعالى ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: عندما يحين موعد تحقق هذه الأنباء سيُحدث الله في الدنيا انقلابات عظيمة، فيقول كل مؤمن برؤيتها: هذا ليس إلا من عند الله تعالى. وأمثلة ذلك موجودة في تاريخ الإسلام؛ فمثلا مرةً كان والد أبي بكر جالسا في مجلس بمكة حتى جاء شخص من المدينة، فسأله عن حال المدينة، فقال: لقد توفي رسول الله ﷺ، فقال: فماذا حصل بعد ذلك؟ فقال الزائر: لقد انتخب الناس خليفةً له. قال: مَن؟ قال: أبو بكر. فقال والدُ أبي بكر: مَن أبو بكر؟ قال: ابن أبي قحافة. فذكر أبو قحافة له أسماء عدة عائلات كبيرة، وقال: هل رضي هؤلاء بانتخابه؟ فقال: نعم، لقد بايعوه جميعا. فلم يملك والد أبي بكر نفسه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (الطبقات الكبرى: ذكرُ بيعة أبي بكر رضي الله عنه).. أي لولا أن الله أحدٌ وأن محمدا رسوله لما رضيتْ كبار قبائل مكة وعائلاتها -التي لا تعرف الانقياد ولا الإذعان لأحد من غيرهم - بأبي بكر خليفةً. كذلك كان الأنصار يعيشون في مدينتهم وكان يمكن أن يفكروا في أن الحُكم يجب أن يكون بيدهم، ولكنهم بايعوا على يد أحد أهالي مكة. ولذلك يخبر الله تعالى أنه ستحدث ظروف بحيث يقول الناس: لقد نظرنا إلى الله ورأيناه، كما تذكَّرَ أبو قحافة اللهَ تعالى عند خلافة أبي بكر وقال تلقائيا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

والرؤيا الثانية هي رؤية روحانية، أي أن ينـــزل الله على قلب عبده ليثبّته على مقام اليقين الكامل. وهذه الرؤيا القلبية تلي الرؤيا الأولى، لأن الرؤيا القلبية تؤدي إلى الشبهات أحيانًا، إذ يظنها مجرد وَهْم أو خيال، فلذلك لا ينـــزل الله على قلب الإنسان إلا بعد أن يُريه الآيات فيما حوله، وحيث إن هذا الإنسان يكون قد رأى صفات الله متجليةً فيما حوله، فعندما يتجلى الله بصفاته على قلبه يتيسر له اليقين الكامل بذات الله تعالى.

لقد بين الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر أيضا حيث قال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١-٢٢). فأخبر أولاً أن في الأرض آيات ثم أخبر أن في أنفسكم آيات. إذًا، فمن سنة الله تعالى أن يري آياته فيما حول الإنسان أولاً، ثم يتجلى على قلبه لكي لا يبقى في غُمّة من أمره. وقد ورد عن النبي ﷺ قول عائشة رضي الله عنها: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. (البخاري، كتاب بدء الوحي). فالله تعالى بنفسه يهيئ مثل هذه الظروف لكي لا يظل صاحب الوحي والإلهام في شك، ولا يقول مَن حوله إن به مسًّا من الجنون؛ ثم بعد ذلك يتجلى ﷻ على قلبه. إن التجليات التي ظهر الله بها على المسيح الموعود عليه السلام أيضا كانت تدريجية، فأولاً تلقَّى إلهاماتٍ مِن قبيل: "اليوم سيأتي المال من أحد أقارب الحاج أرباب محمد خان" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٥٦٥)، أو: "فُصلت القضية في حقه، لأنه مسلم" (المرجع السابق ص ٦٥٩). ولما تواترت الإلهامات وتحققت وظهر للناس صدقه، كما امتلأ قلبه باليقين، تجلّى الله عليه بتجلٍّ آخر أعظم.

باختصار، يهيئ الله تعالى من الظروف ما يدرك به صاحب البصيرة الثاقبة أن أمرًا ما سيظهر من وراء قدرة الله تعالى. فقوله تعالى ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني أن المؤمنين العاديين سيَرَوْن التجلي الإلهي الذي يظهر فيما حولهم، أما المؤمنون الكُمَّل فيرون ذلك التجلي الإلهي الذي سيظهر في نفوسهم هم.

ولقوله تعالى ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ معنى آخر، وهو أن الأرائك والسرر تُستخدم لإزالة التعب بالنوم أو الاستلقاء عليها، بينما يقول الله تعالى إن هؤلاء الأبرار يكونون

ملتزمين بدينهم كليًّا حتى في مقام النوم والراحة أيضًا، فيكونون نشيطين ويراقبون المهمات المفوضة إليهم بتيقّظ. وكأن الله تعالى يخبر هنا أن الآخرين إذا نالوا النعمة والرخاء والراحة ركنوا إلى الكسل والغفلة وقصروا في أداء مهامّهم، فتهاونوا في أداء حقوق الناس، بل وانغمسوا في الملذات ونسوا واجباهم، ولكن هؤلاء الأبرار ليسوا كذلك، بل حين يعطيهم الله تعالى الحُكم والمُلك في الدنيا ويكتب لهم العزة والشرف ويعطيهم المال والثروة، فلن يركنوا إلى الكسل والغفلة، بل سيؤدون واجباهم على أحسن وجه، يقظين حذرين من أن يحصل في أدائها نقص، وكيف يمكن تلافيه إن حصل. وبالفعل قد أعطى الله المسلمين المال والعز حسب وعده، ومع ذلك لم يغفلوا عن الإسلام. فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ترك عند وفاته من المال والعقار ما يساوي الملايين، وكان دخله السنوي بمئات الآلاف (الطبقات الكبرى: ذكر وصية عبد الرحمن بن عوف)، ومع ذلك ظلّ رضي الله عنه يعمل على نشر الإسلام ليل نهار، ولم يركن إلى الكسل أو الغفلة لكثرة المال والثراء. وقد نال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مُلكًا عظيما، ولكنهما لم يغفلا ولم يكسلا، بل قاما بواجباهما بكل حذر وتيقظ. فقد رُوي عن عثمان رضي الله عنه أنه كان جالسًا في قبته ذات يوم، وقد أنهكه الحر الشديد بحيث لم يقدر على فتح بابها. فرأى مِن نافذتها شخصًا يمشي في القيظ، فقال لخادمه: انظرْ من هذا. فأزال الستار فإذا شخص قد لفح الحرّ وجهه بشدته. فقال: مسافر. فلما اقترب من قبته عرف أنه عمر رضي الله عنه، فقلق عثمان رضي الله عنه وقال له: ماذا تفعل في هذا الحرّ يا أمير المؤمنين؟ قال: أبحث عن بعير فُقد من بيت المال. (أُسد الغابة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

فقد أخبر الله تعالى بقوله ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أن هؤلاء سيراقبون مهماتهم دائمًا رغم جلوسهم على الأرائك، فلن يجعلهم رخاء الدنيا ونعمها كسالى. ولن يدفعهم جلوسهم على الأرائك إلى النوم والكسل، بل سيكونون فيها يقظين حذرين يراقبون حقوق الناس ويؤدون واجباهم أحسن أداء.

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

نَضْرَة: النضرة: النعمةُ؛ العيشُ؛ الغنى. وقيل الحُسن والرونق واللطف..... قوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.. أي بريقه ونداه. (الأقرب)

التفسير: من معاني هذه الآية أن النعمة الإلهية الروحانية ستتنـــزل على قلوبهم بحيث تتدفق من وجوههم، فلن يستطيعوا إخفاءها. ذلك أن الأمور في الدنيا نوعان؛ ما يمكن إخفاؤه، وما لا يمكن إخفاؤه فيتجلى تلقائيا، ولذلك يخبر الله تعالى أن نضرة النعيم ستتدفق من وجوه الصحابة، ولن يستطيعوا إخفاءها. لقد جاء في زمن الفيج الأعوج متصوفون من المسلمين لم يكونوا يخبرون مريديهم شيئًا من معارف الدين إلا بعد أن يخدموهم لعشر أو لاثنتي عشرة سنة، أما الصحابة فكانوا على عكس ذلك؛ إذ كان الواحد منهم يقول: لو وضع العدو السيفَ على عنقي، وتذكرتُ قولاً لرسول الله ﷺ لم أذكره للناس، فسوف أذكره لهم قبل أن تُضرب عنقي (البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول). إذًا فكان الصحابة توّاقين لنشر أحكام الله في الدنيا، ولكن هؤلاء المتصوفة يظنون أنهم لو أخبروا الناس شيئًا من علومهم فإنها ستنفد، فيصبحون سواسية معهم. فمثلاً لما ألقيتُ خطابًا بعنوان "ذِكر الله" في الجلسة السنوية، كان أحد المتصوفين غير الأحمديين يسمع خطابي، فبعث إليّ رسالة في وريقة بما معناه: ما هذا الذي تفعل؟ تخبر الناسَ هذه المعارف واحدة تلو أخرى، مع أن المتصوفين الآخرين لا يذكرون واحدة منها لأحد إلا بعد أن يخدمهم عشر سنوات؟! فثبت أن من عادة الناس أنهم يخفون علمهم، ولكننا لا نبالي بذلك، لأن الله تعالى يعلّمنا معارف جديدة كل حين، وإن إخفاء العلوم عندنا هو بمترلة تكدير الماء الصافي النقي. ثم إنه مخالف لما أمرنا الله تعالى به في قوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الضحى:١٢).. أي انشروا نعم الله بين الناس ما استطعتم.

إذن، فالله تعالى يخبر هنا أن هؤلاء الأبرار لا يُخفون نِعَمَه عن الناس، بل هي ستتدفق من وجوههم ويودّون أن يجدوا مَن يَعرِضونها عليه.

وهناك معنى آخر لهذه الآية، وبيانه أن الآية السابقة تحدثت عن الترقيات المادية، فلذلك قال الله تعالى الآن أنهم لن يتصرفوا كالآخرين حين ينالون الرقي المادّي. فهناك أناس ينالون النعم المادية ومع ذلك تظل قلوبهم تحترق، إذ يفتقرون إلى الطمأنينة والسكينة، فإذا نال أحد المُلكَ مثلاً وقعت في أسرته فُرقةٌ وفساد حتى يصبح مُلكه وبالاً عليه، أو يتآمر عليه أمراؤه ووزراؤه بحيث لا يجد سكينة القلب مطلقًا رغم أنه صاحب مُلك؛ فإذا أتاه الطباخ بالطعام خاف أن يكون قد دسّ فيه السمّ، وإذا أتاه الطبيب للعلاج ظنّ أنه يريد قتله بدواء مسموم، وإذا جاءه وزير خاف أن يغتاله؛ ولذلك نجد عند الملوك وسائل شتى وغريبة للحراسة والرقابة. ولكن الله تعالى يخبر أنه سيعطي المؤمنين نِعَمًا لن تكون آثارها بادية على وجوههم فحسب، بل ستنزل على قلوبهم، فلن يفقدوا طمأنينة القلب كما يفقدها الآخرون رغم نجاحهم المادي، بل إنهم يحرزون الترقيات المادية، كما تنعم قلوبهم بالفرحة والسكينة مع الترقيات المادية.

وهناك معنى ثالث لهذه الآية، وهو أن الله تعالى قد بيّن هنا أنهم سينالون غنى النعيم.. أعني أنهم سينعمون بالغنى الذي هو نتيجة النعمة الحقيقية، والذي بسببه يرحم المرء الفقراءَ. فإننا نجد في الدنيا أن بعض الأخلاق الحميدة تتيسر للإنسان بالكسب، وبعضها يتحلى بها بالوراثة؛ فمثلا نرى أن من نال الثراء بالكسب حافظ عليه كل الحفاظ، ومَن نال الثروة نتيجة نسبه أي ورثها عن أبيه، لم يحافظ عليها مثل الأول. فمثلاً لو أضاع خادمُ مَن نال الثراء بالكسب شيئًا، عامَلَه بقسوة، ولكن مَن كان غني القلب نتيجة نسبه، فلن يعاقب خادمه مثل الأول، بل يؤثر التغاضي والعفو عنه. ومن معاني (نضرة) الغنى أيضًا، وعليه فقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ يعني أن الصحابة -رعاة الإبل- عندما سيُجلسَون على العرش فإنهم سيتحلون بسعة الصدر وغنى النفس ودماثة الخلق بحيث يبدو للرائي أنهم ورثوا المُلك عن آبائهم. وكأنهم يتحلَّوْن - فور جلوسهم على كرسي الحكم بإذن الله - بالأخلاق التي تتولد بالتدرب والكسب، وأيضًا بالأخلاق التي يرثها المرء بالنسب. وبالفعل لن تجد في أعمال الصحابة شيئًا من اللؤم والخسة، مع أننا نجد أن الذين يكونون

حديثي عهدٍ بالثراء يظل فيهم شيء مما يسمى بالإنجليزية (Foppishness) ✪..
أي أنهم يسعون بطريق أو آخر لأن يتظاهروا للناس بثرائهم، فيعرف القوم أن هؤلاء حديثو عهد بالثراء. ولكن الله تعالى يخبر أنكم إذا نظرتم إلى الصحابة فستجدون على وجوههم الغنى، ولن يخطر ببالكم أنهم حديثو عهد بالثراء، بل سيخيَّل إليكم أنهم لا زالوا أهل حكم وثراء نسلا بعد نسل، إذ لن تجدوا فيهم خسةً، فلا يتنازعون على كل صغيرة وكبيرة متظاهرين بثرائهم.

كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا قصة أحد المسلمين الذي تنصَّر فيما بعد، أنه ورث عن أبيه مالا كثيرا، فأنفقه بإسراف وأفلسَ، ومع ذلك كلما نزل من القطار بمحطة لاهور دعا حمّالاً وناولَه منديله، وأمره بأن يتبعه. فسأله حضرتُه ﷺ ذات مرة: ما هذا الذي تفعله؟ إذ ليس معك متاع ولا حقيبة ليحملها الحمّال عنك، فتخرج من جيبك منديلك وتضعه في يده وتأمره أن يأتي وراءك! فقال الرجل: ذلك لأن مكانتي لا تظهر بدون ذلك!

فالذين يجدون الثروة فجأة تفسد أخلاقهم، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن رعاة الإبل هؤلاء عندما يجلسون على العروش، فلن تجدوا في أخلاقهم من وصمة تجدونها عند حديثي عهد بالثراء، بل سيظهر في وجوههم غنى النعيم. وبالفعل، كان الصحابة يعترفون صراحة على الدوام أنهم كانوا فقراء جياعا، لم يجدوا ما يأكلونه، ولكن الله تعالى أعطاهم هذه النعم ببركة إيمانهم بمحمد رسول الله ﷺ. لقد قال لهم مَلكُ الفُرس مرة: كيف تجاسرتم على شن الغارة على مُلكي وأنتم شعب حقير يأكل الضبّ؟ لو كان هناك غير الصحابة لرد على الملك الفارسي: لقد أهنتَنا بقولك هذا، ولكن الصحابة قالوا له في هدوء تام: قد صدقتَ أيها المَلك، إذ كنا كذلك من قبل، ولكن لم نعُدْ هكذا بعد بعثة محمد رسول الله ﷺ بيننا، بل قد تغيرْنا تماما الآن. (الطبري، سنة أربعة عشرة، ذكرُ ابتداء أمر القادسية)

✪ معناه في العربية: تظاهرٌ وإسراف في اللباس والزينة الغالية غير المنسقة غالبًا، مما يشير إلى أن هذا الشخص ثري ولكنه حديث عهد بالثراء. (المترجم)

فالله تعالى يبين هنا أن غنى النعمة أصبح جزءًا من أنفسهم، فلا يُخفون كالآخرين ماضيهم مخافةَ الإهانة، إذ لا يروْن في ذلك أي إهانة، بل يعتبرونه آية من آيات الله تعالى، فيخبرون الناس حقيقتهم مسرورين.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أنك ترى في وجوههم غنى النعمة، ولن تجد أخلاقهم كأخلاق قوم حديثي عهد بالثراء.

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

رحيق: الرحيق: الخالصُ؛ الخمرُ؛ ضربٌ من الطِيب. (تاج العروس)

مختوم: ختَم يختُم ختْمًا وختامًا: طبَعه ووضَع عليه الخاتَمَ. ويتعدى أيضا بعَلَى، يقال ختَم الكتابَ وعلى الكتاب. وختَم الشيءَ ختْمًا: بلَغ آخرَه. وختَم الكتابَ: قرأه كلَّه وأتمَّه. وختَم الصكَّ وغيرَه: وضَع عليه نَقْشَ خاتَمه حتى لا يجري عليه التزويرُ. وختَم العملَ: فرَغ منه. وختَم الإناءَ: سدَّه بالطين ونحوه، وفي القرآن: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۞ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾. وختَم الزرعَ وختَم عليه: سقاه أولَ سقيةٍ. ختَم اللهُ له الخيرَ: أتمّه. وختَم على قلبه: جعَله لا يفهم شيئا ولا يخرج منه شيء. وختَم الله له الخيرَ: جعَل له عاقبةً حسنة. وختَّمه بمعنى ختَمه، والتشديد للمبالغة. (الأقرب)

التفسير: من معاني المختوم ما ختَمه المرء.. أي بلغ آخره؛ فالمراد من قوله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أنهم سيُسقَون شرابًا راقيا لطيفا مَن شربه لم يتركه حتى يُنهيه.. كلٌّ بحسب ظرفه وقدره. وهذا يبين أن الرحيق المختوم لا يعني الخمرَ المعروفة، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وقوله لاحقا ﴿مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾، حيث بيّن الله تعالى أنه ليس خمرًا ماديةً دنيويةً، بل هو شيء لا بد من نسبته إلى الآخرة. أما إذا اعتبرنا هذا الشيء من نعَم هذه الدنيا، فلا بد أن يراد به ما يشربه الناس كلَّه، ولا يتركون منه قطرة، كلٌّ بحسب ظرفه وقَدْره. وعندي أن المراد من الرحيق هنا نشوة حب الله تعالى التي يولّدها القرآن، فإن عشق الله يخلق في المرء حالة

من النشوة والسكر فيخرُّ على العتبة الإلهية كل حين، شأن الخمر التي تسكر شاربها. والشعراء أيضا قد شبّهوا عيون الحبيب بالمخمرة بكثرة، لأنها تسكر العاشق كما تسكر الخمر شاربها. وقد تبين من ذلك أن الخمر لا تكون مادية فحسب، بل إن سكر المحبة والعشق أيضا يسمى خمرا، ولذلك قال الله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾.. أي أنهم سيُسقَون خمر المحبة.. والمراد منها تعاليم القرآن ومعارفه أو ما بيّنه الرسول ﷺ من أحكام على ضوء القرآن الكريم، وأنهم سيعملون بها مخمورين بنشوة المحبة حتى يبلغوا في عشقهم الذروة.

وكلمة ﴿مختوم﴾ تدل على جودة الشراب، كما تدل على مزايا من يتعاطاها. لقد أعطى الله الأمم السابقة شرائعها، ولكنهم لم يعملوا بها إلا عملاً ناقصًا، فقوم موسى عليه السلام عملوا ببعض شريعته، و لم يعملوا ببعضها، وهذا ما فعل قوم عيسى عليه السلام أيضًا، ولكن أمة محمد رسول الله ﷺ هي تلك الأمة التي حين وضعت الكأس على شفتيها ظلّت تشربها حتى ختمتْ ما فيها.. أي أنهتْ ما فيها.. أعني أنهم عملوا بكل حُكم من أحكام شريعته ﷺ. وكلمة ﴿مختوم﴾ تدل على روعة شريعة القرآن الكريم أيضا، لأن الأحكام التي لا يُترَك العمل بها تكون ملائمة للفطرة الإنسانية تماما، وليست مما لا تطيقها. إن الحُكم الذي لا يطيقه الإنسان يتركه، ولكن قال الله تعالى عن القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾(القمر:١٨).. أي جعلناه سهلاً للعمل به، إذ ليس فيه حُكم ترفضه الفطرة الصحيحة، أو يشق عليها العمل به. فبكلمة واحدة.. ﴿مختوم﴾.. قد أشير إلى محاسن هذا الشرع وأصحابه؛ فمن ناحية أخبر تعالى أنه ليس في القرآن حكمٌ يمكن تركه، بل بوسع الإنسان العمل بكل أحكامه، ولا يمكنه أن يقول إن العمل به محال عليه؛ ومن ناحية أخرى أثنى على الصحابة أيضا، حيث بيّن أن الله تعالى قد وهب لمحمد رسول الله ﷺ أصحابا وخداما إذا وضعوا كأس الشريعة بأفواههم أنهوْها كلها.

والمعنى الثاني للختم هو الطبع.. والشيء المختوم هو ما لا يمكن خلط الشيء فيه، فقوله تعالى ﴿رَحِيق مَخْتُوم﴾ يعني أنه طيّب نقي منــزّه عن أي شائبة. وهذه أيضا من مزايا القرآن الكريم؛ فإن أكبر أعدائه أيضًا يعترفون – ما عدا الشيعة – أنه منــزه

عن أي خلط وتحريف.. لم يدخل فيه شيء من خارجه، ولم ينقص شيء من داخله. ذلك أن من مزايا الشيء المختوم أنه لا يدخل فيه شيء من الخارج ولا يخرج من داخله شيء؛ كذلك فإن القرآن كتاب مختوم. عندما نزل القرآن كان النبي ﷺ حيًّا، فما كان لأحد أن يجرؤ على تحريفه؛ ولكن كان هناك خطر أن يتطرق الفساد إليه بعد وفاته ﷺ، فبشّر الله تعالى أنه سيظل مختومًا بعد وفاته ﷺ أيضا. وحيث إن هذه الآيات تتحدث عن إعطاء المسلمين المُلْكَ، حيث أخبر الله تعالى أنه سيأتي زمان يجلس فيه المسلمون على الأرائك ينظرون، لذلك نبّه الله أيضا أنهم عندما ينالون المُلك والحكم والقوة والمنعة بكل أنواعها، فإن القرآن سيظلّ محفوظا عندها أيضا، ولن يقدر أيٌّ من ملوكهم على التصرف فيه. عندما تنال أمةٌ الملكَ في الدنيا، يتمنون عادةً الانغماس في ملذاتها، ولما كانت تعاليم دينهم تحول دون ذلك، فيأخذون في تحريف شرائعهم، ولكن الله تعالى يبشر أن القرآن كتاب مختوم، وسيظلّ كذلك خالصًا نقيًّا تماما في زمن رقي المسلمين، فلن يُنقص منه حُكم ولن يضاف إليه تعليم. لقد تطرق الفساد إلى المسيحيين حين أراد المَلِك الرومي اعتناقَ المسيحية، حيث قال لهم: ليس عندي عذر في اعتناقها، غير أني أرى أن تحتفلوا بيوم الأحد بدلاً من السبت الذي تحتفلون به، لأن قومي يحتفلون بيوم الأحد، فغيّر المسيحيون احتفال السبت إلى الأحد. ثم قال لهم: إن قومي لا يؤمنون بالتوحيد الخالص، فيجب أن تدخلوا في عقيدة التوحيد بعض الاستعارات والكنايات ليسهل على قومي اعتناق المسيحية، فرضوا باقتراحه وقالوا: سنقول من الآن إن هناك الإله الآب، والإله الابن، والإله الروح القدس؛ فدخل المَلِكُ مع قومه في المسيحية. فمع أن المسيحيين أدخلوا هذه الأسماء الثلاثة في عقيدتهم لضم الآخرين إلى دينهم، إلا أنها أخذت مكان الحقيقة بالتدريج، واستبدل المسيحيون عقيدة الآلهة الثلاث بعقيدة الإله الواحد. إذن، فتتسرب أنواع التحريفات في الدين حين ينال الشعب المُلكَ والرخاء والقوة، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن المسلمين حين يجلسون على الأرائك وينالون الحكم والقوة والسلطة، فإن القرآن الكريم سيظل عندها أيضًا كرحيق مختوم، ولن يجرؤ ملِكٌ من ملوكهم على إضافة شيء أو نقص

شيء من أحكامه تحقيقًا لمآربه. وبتعبير آخر قد وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم في زمن ازدهار الإسلام أيضا.

وقوله تعالى: ﴿رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قد تضمن الرد على الشيعة أيضًا، الذين يظنون أن المصحف الحالي ينقصه جزءٌ من القرآن؛ ذلك أن المختوم له مفهومان كما قلتُ؛ أي لا يُدخَل فيه شيء ولا يُنقَص منه شيء، فكيف يصحّ إذن زعم الشيعة عن كتاب مختوم أن جزءًا منه ناقص؟

خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ

شرح الكلمات:

الختام: مصدرُ ختَم يختِم. والخِتام: الفصُّ مِن مفاصل الخيل؛ والمقطَع (من القصيد)؛ والطين يُختتم به على الشيء. (الأقرب)

فالمراد من قوله ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾:

أولا: أن ذلك الشيء يُختَم بالمسك

ثانيا: أن آخره مِسكٌ

ثالثا: أنه يكون مِسكًا حتى نهايته.

التفسير: أول مفاهيم قوله تعالى ﴿خِتامُه مِسْكٌ﴾ أن ختْمه يكون مسكًا، أي أن ما سيوضع على هذا الرحيق لحفظه يكون كالمسك. والبديهي أن مهمة خدمة القرآن وحفظه ظاهريًّا منوطة بالحفاظ والقرّاء؛ أي أنهم خدام القرآن وحَفَظته. وكما أن كلمة (مختوم) تشير إلى أنه لا يدخل فيه شيء من الخارج ولا يخرج من شيء، كذلك فقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يعني أن مهمة خدمة القرآن ستُفوَّض لقوم يفوحون كما يفوح المسك.. أي أنهم يكونون صلحاء من الطراز الأول، يدركون مسؤوليتهم ويحفظون القرآن حق الحفظ. وبالفعل نرى أنه قد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرنًا، ومع ذلك لم تأت خلالها فترة لم يوجد فيها جماعة كبيرة من الحفاظ الخادمين للقرآن. إذن، فقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يتضمن نبوءة بأن

الله تعالى سيقيم لحفظ القرآن ظاهرًا قومًا يتبوءون مقاما عاليا في الورع والتقوى، ويفوحون كما يفوح المسك.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أن آخره يكون مِسْكًا. هناك شيء يرسب دائمًا في قعر إناء الخمر ويسمى دُرْدِيًّا، ومن عادة الأوروبيين أنهم يتركون الخمر بعد صنعها في أوان كبيرة سنةً أو سنتين، وأحيانًا عشر بل خمس عشرة سنة، ليرسب في قعرها الدُرْدِيُّ من دقائق ذرات العنب وغيرها، ثم بعدها يملأون بها القوارير. ولكن لم يكن الأمر هكذا في الزمن القديم عادة، إنما كانوا يسارعون في بيع الخمر بعد صنعها، فكان الدردي يرسب في القارورة. والله تعالى يقول هنا لا شك أن درديّ الخمر يكون رديئا، ولكن دُرديّ القرآن الكريم كالمسك، فما بالكم بكتاب دُرْديُّه مسكٌ؟ ما هو الدردي؟ هو ظاهر الشيء؛ لأنه حين تصنع الخمر من العنب أو التمر وغيرهما فإن دقائق ذراقما ترسب في قعر الإناء، ويبقى فوقها رحيقهما الخالص الذي هو الخمر؛ فثبت أن الدردي ظاهرُ الشيء والخمر رحيقه. وقد أخبر الله تعالى هنا أن دردي القرآن مسك، فالمراد من دُّرْديه ظاهرُ أحكامه. والمعنى أن القرآن كتاب ظاهر تعاليمه جيد، كما أن باطن أحكامه جيد أيضا. فلو فحصتم أبسطَ تعاليمه في أية قضية لوجدتموها مسكًا، فما بالكم بتعاليمه الروحانية التي هي من الطراز الأول؟

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أن نهايته أيضا مسكٌ، بمعنى أن بداية القرآن عظيمة كما أن نهايته أيضا عظيمة. ففي البداية قد جاء برسالة الله هذه شخص عظيم كمحمد رسول الله ﷺ، وفي النهاية سيبعث اللهُ لنشرها المسيحَ الموعود عليه السلام في الزمن الأخير. وكأنه تعالى يقول إنها كأس يبدأ الناس بشربها من زمن محمد ﷺ، وسيظلون يشربونها، إلا أنها ستظل مِسْكًا حتى النهاية.. بمعنى أن الله تعالى سيبعث على الدوام أُناسًا يخدمون القرآن وينشرون الإسلام، ثم في الزمن الأخير سيبعث شخصًا ينشر شذى القرآن في العالم كله.

وهناك أمر لطيف جدير بالذكر هنا، وهو أن المسيح الموعود عليه السلام كان يحبّ المسك كثيرًا ويتناوله دائما. فكأن قول الله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ إشارة إلى أنه

سيقيم في النهاية لنشر القرآن الكريم شخصًا يُكثِر من تناول المسك. علمًا أن من سنة الله تعالى أنه يجعل علامة ظاهرة لمعرفة مبعوثه الصادق عادة، ومثاله الآخر علامة ختْم ظاهر جعله الله على ظهر النبي ﷺ بالإضافة إلى ختْم النبوة عليه بمعناها الحقيقي.

وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

فليتنافسِ المتنافسون: تنافَسوا في الشيء بمعنى نافسوا. ونافسَ في الشيء منافسةً ونِفاسًا: رغِب فيه على وجه المباراة في الكرم؛ بالغَ فيه وغالى وزايدَ. (الأقرب)

التفسير: إن قول الله هذا يبين بجلاء أن الرحيق المختوم ليس شيئا ماديا، بل روحاني، إذ لو كان ماديًّا، فكيف يقال لشخص لا يقدر على شرب كأس واحدة منه أن يباري الآخرين في شربه؟ إنما يكون التنافس حيث يحاول الواحد سَبْقَ الآخر. فهذا دليل على أن الرحيق المختوم شيء روحاني يمكن أن يتنافس فيه الواحد مع الآخر، وليس شيئا ماديا يُتناول بقدر محدود ولا مجال للتسابق فيه. وحيث إن هذه النعمة الروحانية يمكن أن يتنافس فيها الناس، فقال الله تعالى لو غبطتم الآخرين في خدمات الدين وتسابقتم فيها، فهذا ليس جائزًا فقط، بل هو ضروري.

ومن معاني التنافس التزايدُ والتقدّمُ باضطراد، وعليه فقوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ يعني -بالإضافة إلى معنى سبق الآخرين في الخيرات- أن كل واحد منهم سيسعى ليكون حاضره أفضلَ من أمسه.

إذاً فمعنى المباراة يدعو المؤمنين إلى التسابق، ومعنى التزايد يحثّهم على أن يكون حاضرُ كل واحد أفضلَ من أمسه. ولو وضعوا هذين الأمرين نصب العين لتقدموا بسرعة فائقة.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

مِزاجه: مَزَج الشرابَ بالماء مزْجًا ومِزاجًا: خلَطه به. (الأقرب)

تسنيم: سنَّم الكلأُ البعيرَ: عظَّم سَنامَه. وسنّم فلانٌ الإناءَ: ملأه. وسنَّم المكيالَ: ملأه ثم عمِل فوقه مثلَ السنام من الطعام. وسنَّم الشيءَ: علاه. وسنَّم القبرَ: ضدُّ سطَّحه. (الأقرب)

التفسير: أي أن الله تعالى سيمدّ كؤوس الخمر هذه بماء الإلهام، لكي يستمتع بها كلّ إنسان من أي زمن، بحسب مزاجه وطبعه. بمعنى أن القرآن خمر بلا شك، إلا أن الخمر يضاف إليها ماء يناسبه، فإذا كانت بحاجة إلى ماء قليل مُزج إليها القليل منه، وإذا كانت بحاجة إلى ماء كثير مُزج إليها الكثير منه. وكأنه تعالى يقول: هذا الرحيق بحاجة إلى تغيير شكله -مع البقاء على أصله- بحسب مختلف العصور ومختلف الأذواق لكي ينتفع به الناس حق الانتفاع. إذن، فقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه سيُنزل في كل عصر ماءَ الإلهامات التي تُمزَج برحيق القرآن حسب حاجة ذلك العصر. فالتسنيم هنا هو ماء الإلهام الذي يُمزَج بالقرآن في كل زمان، وهكذا أخبر الله تعالى أن مكانة القرآن الكريم لا تتجلى كما ينبغي من دون نزول الإلهام المتجدد، وإنما تنكشف عظمته وشأنه وفضله كما ينبغي حين يُمزَج به ماء التسنيم. لا شك أن القرآن الكريم رحيق مختوم، ولكن ستتجدد الضرورات في كل عصر، مما سيتطلب نزول إلهام جديد، فعندها نُنزل وَحْينا وإلهامنا الذي سيكون بمثابة التسنيم للقرآن الكريم.. أي سيتسبب في انكشاف عظمته ورفعته.

ثم أخبر الله تعالى ما هو التسنيم؛ فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.. أي أنه ينبوع يشرب منه المقربون.

وقد قال البعض عن قوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: الباء هنا زائدة، والمعنى: يشربها. وقال الآخر: الباء هنا بمعنى (مِن)، أي يشرب منها. وقال غيرهما: الباء هنا للحال،

والمعنى: عينًا يشرب ممتزجًا بها المقربون.. أي أنها عين يشرب المقربون الرحيق ممزوجا بها. وقال البعض: الباء هنا وردت بمعناها الأصلي، وهناك حذف والتقدير: عينا يشرب ويلتذّ بها المقربون. (روح المعاني)

فقوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ قد كشف بوضوح أن قوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يشير إلى الإلهام الإلهي، لأن هذه الآية تخبر أن أحكام القرآن ستُعرض على الناس على ضوء إلهام متجدد يترل على المقربين.. أي سيوجد في الأمة المحمدية أُناس على الدوام يتفجر في قلوبهم ينبوع التسنيم، فنتيجة شرب مائه يقومون بتفسير القرآن وشرحه، مما يجعل الناس ينتفعون به في كل عصر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

يضحكون: الضِّحْكُ: انبساطُ الوجه وتكشُّرُ الأسنان من سرور النفس. واستُعير الضحكُ للسخرية، وقيل: ضحِكتُ منه. ورجلٌ ضُحَكَة: يضحَك من الناس، وضُحْكَة: لمَن يُضحَك منه، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، ﴿تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ﴾؛ ويُستعمل في السرور المجرَّد. واستُعمل للتعجب المجرَّد تارة، ومِن هذا المعنى قصَد مَن قال: الضّحك يختص بالإنسان، وليس يوجد في غيره من الحيوان. (المفردات)

أستغرب كيف قال صاحب "المفردات" هذا الكلام! مع أن التعجب بادٍ في الحيوانات! فمثلا إذا وضعتَ أمام حيوان شيئًا اقترب منه، وقلَبه بفمه وشَمَّه، فإذا لم يره صالحًا للأكل تنحّى عنه. غير أننا لا نرى حيوانًا يقهقه. نعم، نجد القرد يضحك إلى حد ما.

ثم يقول صاحب المفردات: "ولهذا المعنى قال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾." لقد فسّر صاحب "المفردات" الضحك في قوله تعالى ﴿أضحك﴾ بمعنى التعجب، مع أن هذا المعنى لا ينطبق هنا، لعله أورد هذه الآية هنا خطأ. إنما الآية التي يُستنبط منها معنى التعجب قد ذكرها فيما بعد أعني قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

ثم يقول صاحب المفردات: "وضحكُها كان للتعجب بدلالة قوله ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾. ويدل على ذلك أيضًا قوله ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. وقولُ من قال: حاضتْ، فليس ذلك تفسيرًا لقوله ﴿فضحكتْ﴾ كما تصوّرَه بعض المفسرين."

وأضاف صاحب المفردات أن الشيء الواضحُ البريق يسمى ضاحكًا على وجه الاستعارة، حيث "سُمِّيَ البرقُ العارضُ ضاحكا، والحجرُ يبرُق ضاحكًا، وسُمي البَلَحُ حين يتفتق ضاحكا. وطريقٌ ضَحوكٌ: واضحٌ. وضَحِكَ الغديرُ: تلألأَ من امتلائه." (المفردات)

يتغامزون: تَغامزَ القومُ: أشار بعضهم إلى بعض بأعينهم. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن الذين أجرموا وقطعوا صلتهم عن الله تعالى بسبب معاصيهم سيسخرون من المؤمنين. والحق أنه تعالى قد أشار هنا إلى ما سيؤول إليه المسلمون من ضعف وانحطاط شديدين، حتى يبدو أن رقيهم ثانيةً مستحيل، فيضحك الكفار برؤيتهم، وعندما يقول لهم المسلمون واثقين بوعود الله تعالى إنه سيكتب لهم الرقيّ والازدهار مرة أخرى سيقولون: لقد جُنَّ هؤلاء وفقدوا صوابهم، حيث لا يزالون يحلمون بالحُكم، ويظنون أنهم سيحدثون ثورة عظيمة في العالم ويقيمون نظاما جديدا.

ثم قال الله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾. يشير المرء بالعين إلى صاحبه حين يكون على يقين أن الشخص الثالث مجنون؛ ذلك أن الجنون يجعله يوقن بأنه سينجح ويصبح مَلِكًا، فيعلن بذلك بين القوم، فيلفت بعضهم أنظار بعض إلى المجنون، مشيرين بعيونهم مخافة أن يشتبك معهم إذا تكلموا بشيء من أفواههم.

ولذلك يقول الله تعالى إن هؤلاء الكافرين عندما يرون المؤمنين ويسمعون دعاويهم بإحداث ثورة عظيمة في العالم، يقول بعضهم لبعض مشيرًا بعينه: انظروا لقد جُنَّ هؤلاء.

هذا المشهد يماثل مشهد نوح عليه السلام حين كان يصنع الفلك، وكان أعداؤه يضحكون منه. فلما بدأ نوح عليه السلام بصنع السفينة بأمر الله تعالى، كان الكفار يمرون به فيضحكون منه بأنه مجنون، لذلك يقول الله هنا إن الكفار في الزمن الأخير حين يرون المؤمنين منهمكين في القيام بمهماتهم، ويقول بعضهم لبعض مشيرًا بعينه: انظر ماذا يفعل هؤلاء المجانين؟

وهذه الآية تنبئ أمرًا آخر وهو أن الأمة الغالبة في ذلك الوقت ستبدو متسامحة، وتتظاهر بخلاف ما تخفيه في صدرها، ذلك لأن المرء يتغامز إذا ما رأى أن كلامه سيُعتبر خلافًا للأخلاق. وهذه العلامة توجد في الشعوب الأوروبية بشكل بارز، فإذا تكلمت معهم سيقولون فورًا: أنت مصيب فيما تقول، بينما يعدونه شخصًا مجنونًا. إذن، فالله تعالى بقوله ﴿يتغامزون﴾ قد رسم لنا أخلاق الأوروبيين بأنهم يعملون في الظاهر على عكس ما يضمرونه.

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

فَكِهِينَ: جمعُ فَكِه. فَكِهَ الرجلُ فَكَهًا وفَكاهةً: كان طيّبَ النفس مَزّاحًا ضَحوكًا، أو يحدِّث أصحابَه فيُضْحِكهم، فهو فاكِهٌ وفَكِهٌ وفَيكَهانٌ. وفَكِهَ منه: تعجّبَ. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء القوم عندما يرجعون إلى قومهم أو إلى أهليهم يضحكون من المسلمين قائلين: ما أشدَّ هؤلاء غباءً!

وفَكِهَ منه يعني تعجَّب أيضًا، فالمعنى أنهم يتعجبون من المسلمين قائلين: ما أسخفَ هؤلاء وما أشدَّهم حماقةً، إذ يظنون أن تعاليمهم يمكن أن تنتشر في زمن الحضارة والتقدم هذا.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٣﴾

التفسير: ضمير (هم) في قوله تعالى ﴿رأوهم﴾ يمكن أن يرجع إلى المؤمنين أو إلى أهل الكافرين.. أي أحيانًا يكتفي الكافرون بالتغامز فيما بينهم برؤية المؤمنين، وأحيانًا لا يتمالكون أنفسهم فيقولون فيما بينهم انظروا إلى هؤلاء الأغبياء الضالين. وإذا أرجعنا الضمير إلى أهل الكافرين، فالمراد أنهم عندما يرجعون إلى قومهم يقولون: لقد رأينا هؤلاء القوم عن كَثَب فوجدنا أنهم هالكون حتمًا، ومن الخطأ أن نعقد عليهم أي أمل للرقيّ، أو نظن أنهم سيُحدثون أي انقلاب طيب في الدنيا. وفي هذه الحالة يكون قولهم السابق خلاف هذا القول.. أي أن هؤلاء يتغامزون فيما بينهم أمام المؤمنين، فمثلاً إذا جاءهم أحد من قساوسة المسيحيين يقول أنتم المسلمون تعملون عملا رائعا، ولكنه عندما يرجع إلى قومه يؤلف كتبًا قاسية ضد الإسلام، ويقول لقومه: إن هؤلاء قوم ضالون.

وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٤﴾

التفسير: هذه الآية تشير إلى علامة أخرى للشعوب الغربية المسيحية بأنهم يستولون على بلاد الآخرين، وإذا قيل لهم: لماذا تستولون على هذه البلاد؟ يقولون: لقد فعلنا ذلك لحمايتهم. لقد سيطروا على الهند بحجة حمايتها، واستولوا على إفريقيا وغيرها من البلاد بحجة حمايتها. لذلك يقول الله تعالى لم يُرسَل هؤلاء محافظين على الآخرين، فلِمَ يتدخلون في سياسة كل دولة، ويسيطرون عليها بحجة حمايتها؟

الحقيقة أن هذه الآية تتضمن السؤال والجواب معًا، لأن من أساليب القرآن اللطيفة أنه يترك السؤال تارةً ويجيب عليه، وتارةً أخرى يذكر جزءًا من الحديث ويترك الآخر، لأنه مفهوم من السياق. فقوله تعالى ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ جزءٌ من موضوع متكامل، وباقي جزئه محذوف، والمراد لماذا يستولي هؤلاء على بلاد الآخرين مع أن الله تعالى لم يفوّض إليهم مهمة الحفاظ عليها، حتى يجوسوا خلال بلاد الآخرين ويستولوا عليها بحجة حمايتهم، وكأنهم مسيطرون عليهم من عند الله تعالى؟

فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير: فيومئذ يقال: اليوم سينتقم المؤمنون من الكفار على استهزائهم. المؤمن لا يليق به أن يستهزئ أو يسخر من أحد، لأن القرآن الكريم قد عدَّ هذا الفعل جهالة؛ فالمراد من ﴿يضحكون﴾ أنهم ينتقمون منهم على استهزائهم.

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٦﴾

التفسير: هنا أعاد الله تعالى الموضوع السابق نفسه وبيّن كيفية انتقامهم جالسين على الأرائك ينظرون، فبيّن أنهم لن ينتقموا منهم انتقامًا سيئًا، بل انتقاما حسنًا. عندما كان الفجار على الأرائك كانوا يرتكبون الظلم، أما هؤلاء فيعدلون وينصفون وهم على الأرائك ينظرون، كي لا يُظلم أحد. علمًا أن قوله تعالى ﴿ينظرون﴾ هنا بمعنى الرقابة.. أي أنهم سيراقبون الأمور كلها جيدًا حتى لا يُظلم أحد.

هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ إما متعلق بـــ﴿ينظُرون﴾، والمعنى أنهم ينظرون هل أُعطيَ الكفار جزاءهم كاملا أم لا؛ أو أنه جملة استئنافية، والمعنى:

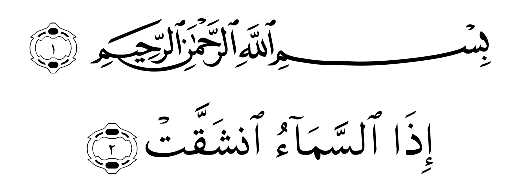
سيقال لهم: هل ظهرت نتائج أعمالكم أم لا؟ فقد كنتم تظنون أنكم لن تُسألوا عن تطفيفكم وظلمكم، وأن غلبتكم ستستمر إلى يوم القيامة، وأن الدول المسيحية ستظلّ تصبّ الفظائع على الناس كيفما تشاء؛ فأخبِرونا الآن، أجُزيتم على فظائعكم أم لا؟

سورة الانشقاق

مكية، وهي ست وعشرون آية مع البسملة

سورة الانشقاق مكية، ويبدو من مضمونها وأسلوب عبارتها وما رُوي عنها أنها مما نزل في بداية البعثة النبوية. إن موضوعها مرتبط بسور التكوير والانفطار والمطففين، وصلتها بهذه السور ظاهرٌ بيّن. تكمن علاقتها بالسورة السابقة في أن الله تعالى قد ختمها بقوله ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.. أي أن الكفار يظنون أنهم لن يعاقَبوا على سلوكهم الطائش، ولكن حين تُكسر شوكتهم وينتصر المسلمون سيقال لهم: أيها الكافرون، انظروا إلى هلاككم! أجُزيتم على تصرفاتكم الخاطئة أم لا؟ عندها يُقضى على قوتهم. وهلاك الكفر متلازم لرقي الإيمان، لأن الفراغ الكامل محال في العالَمَين الروحاني والمادي؛ بل كلما انعدم شيء حلّ مكانَه شيء آخر. فإذا ذهب الكفر حلّ الإيمان مكانه، وإذا ذهب الإيمان أخذ الكفر مكانه. ولما كانت السورة السابقة تتحدث عن دمار الكفر، فهذه السورة تتحدث عن ازدهار الإيمان. وكأن صلة هذه السورة بالسور الثلاث السابقة - المتحدة معها في المعنى - هي أنّ الموضوع الأساس فيها هو رقي الكفر ثم عاقبته، أما هذه السورة فتتحدث أساسًا عن انتصار الإيمان وغلبته؛ وهكذا فإن هذه السورة أيضًا تتحدث عن الزمن الأخير مثل السور الثلاث الأولى. لقد سبق أن قلتُ إن سورة المطففين هي في الواقع تسلسلٌ لسورة الانفطار، حيث بدأت سورة الانفطار بذكر انفطار السماء، كما بدأت هذه السورة أيضا بذكر انشقاق السماء بقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وكان انفطار السماء في سورة الانفطار نتيجةَ غضب الله تعالى. وأما انشقاق السماء في هذه السورة فإشارة إلى نزول رحمة الله تعالى. إذن، فهذه السورة مع أخواتها الثلاث السابقة تتحدث عن الغلبة الثانية للإسلام وما قبلها من مفاسد وشدائد وآلام. فلكل سورة من هذه السور طابع جديد. فهذه السورة

تتحدث عن الزمن الأخير حيث تخبر أن الله تعالى سيكشف علوم السماء في ذلك الزمن، وأن الأرض ستتقبلها.. وكأن المراد من انفطار السماء في سورة الانفطار هو غلبة المسيحية. أما المراد من انشقاق السماء في سورة الانشقاق فهو انكشاف علوم السماء أو نـــزول مطر السماء، ولذلك قال الله تعالى بعدها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ليبين أن انشقاق السماء هذه المرة ليس نتيجة معصية الله تعالى، بل هو بسبب طاعته.



شرح الكلمات:

انشقت: انشقَّ انفعال من شَقَّ. شَقَّ الشيءَ شقًّا: صَدَعَه وفَرَّقَه، ومنه قولهم: شَقَّ عصا المسلمين.. أي فَرَّقَ جَمْعَهم وكلمتَهم. وشقَّ نابُ البعير شقوقًا: طلع، وكذا شَقَّ نابُ الصبيّ والصبحُ شَقًّا: طلَع. وشَقَّ النبتُ شُقوقًا: وذلك في أول ما تنفطر عنه الأرض. وشقَّ العصا: فارقَ الجماعةَ. وشقَّق الحطبَ: شقَّه. وانشقَّ الشيءُ انفتح فيه فرجةٌ وانصدعَ. وانشقَّ الأمرُ: انفرقَ وتبدّدَ اختلافا. وانشقَّ الفجر: طلَع. انشقَّ البرقُ: انعقَّ (الأقرب). فالانشقاق يعني انصداع الشيء وظهور شيء آخر من ورائه.

التفسير: بيّنا في شرح الكلمات أن للانشقاق نتيجتين: أن ينشق الشيء ويَتلَف، أو ينشق الشيء ويظهر من ورائه شيء آخر، لأن الشيء يكون حائلا دون شيء، وإذا انشقّ ظهر ما وراءه. وعليه فيمكن أن يراد بانشقاق السماء نزول العذاب أو الرحمة منها، لأن عند الله العذاب وعنده الرحمة.

إن قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ في سورة الانفطار يعني انشقاق السماء ونزول العذاب منها، أما قوله تعالى في هذه السورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فيعني انشقاق السماء ونزول كلام الله منها، ويماثل هذا قولَ الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء: ٣١).. أي لِمَ لا يتدبر الكفار في أن السماء والأرض كانتا ككرة منغلقة، فشققناهما. وانشقاق السماء هنا لا يعني نزول العذاب منها، بل نزول الرحمة منها، لقوله تعالى بعد ذلك ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء: ٣١).. أي أن السماء والأرض كانتا مغلقتين ليس بهما شقٌّ، فلم تكن الأرض تخرج نباتها، ولا السماء تنــزل ماءها، فلما شققناهما أخذت السماء تنــزل ماءها، وأخذت الأرض تخرج نباتها. وهذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى بأسلوب آخر بقوله في هذه السورة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾.. أي بسبب نزول العذاب ونتيجة انتشار الكفر والشرك والبدع المذكورة في السورة الماضية، كانت السماء قد أمسكت بركاتها وانكمشت ولم يكن فيها شقٌّ ينــزل منه الرحمة على أهل الأرض، بل كان فيها شق ينــزل منه العذاب فقط، فرحم الله عباده، فشق السماء شقًّا تنــزل منه رحمته. ثم أتى بالدليل على ذلك وقال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.. أي كما كان الانشقاق السماوي من قبل نتيجة العصيان والإثم، فالانشقاق الآن نتيجة الانصياع والطاعة، لتنــزل منه رحمة الله وكلامه.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٣

شرح الكلمات:

أَذنت: أَذنَ بالشيء إِذْنًا وأَذَنًا وأَذانًا وأَذانةً: علِم به. أذِن له في الشيء: إذنًا وأَذينًا: أباحه له. وأذِن إليه أَذَنًا: استمع. (الأقرب).

وورد في المفردات: وأَذِنَ: استمعَ، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

وفي البخاري حديث عن رسول الله ﷺ: "ما أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ" (البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغنَّ بالقرآن).. أي لا يستمع الله لشيء كما يستمع إلى صوت نبيه ﷺ حين يقرأ القرآن بالتغني.

حُقَّت: حَقَّ عليك ويحِقّ عليك وحُقَّ لك أن تفعل أي وجَب عليك... وقول

القرآن: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.. أي حُق لها أن تفعل (الأقرب). فقوله تعالى ﴿وَحُقَّتْ﴾ يعني: حُقَّ للسماء أن تفعل كذا.. أي جدير بالسماء أن تصغي لحكم ربها وتطيعه.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنه في الزمن الأخير سينـــزل على الأرض غضب الله وشتّى الآفات الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى سيُنـــزل الله كلامه. والحق أن انشقاق القمر يدل على نزول المطر، فالمراد أن السماء تنشقّ لكي ينـــزل الغضب على قوم، كما أنها تنشقّ لتُمطِر رحمةَ الله على قوم آخرين، وينكشف كلام الله وعلوم السماء.. بمعنى آخر أن القرآن سيكون عندها كالميت، ولكن الله تعالى سيُنـــزِل معارف القرآن ويهطل مطر كلامه وإلهامه من السماء.

ويمكن تفسير هذه الآية بمفهوم آخر، على ضوء قوله تعالى في موضع آخر ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...﴾(الحاقة:١٧-١٨).. أي ستنشقّ السماء فتصبح متخرّقة ضعيفة، وتقف الملائكة على أطرافها طاعةً وانقيادًا.. أي كما أن الله تعالى قال للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ عند خلق آدم الأول، كذلك ستنشق السماء في الزمن الأخير ويولد آدم روحاني جديد وتحدُث ثورة روحانية في العالم وتنفتح أبواب السماء، وستكون الملائكة مستعدة لطاعة أوامر الله تعالى وتنفيذها.. أي ستنـــزل الملائكة من السماء لنصرة آدم وتأييده.

والملاحظ هنا أن الله تعالى قال أوّلاً ﴿وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، ثم قال ﴿وَحُقَّتْ﴾.. بمعنى أن السماء ستستمع إلى أمر ربها وهذا هو اللائق بها، فكلمة ﴿حُقَّتْ﴾ إشارة إلى شدة الإذعان والانقياد. كان يكفي أن يقول الله تعالى إن السماء ستنقاد لأمر الله تعالى، ولكنه زاد كلمة ﴿حُقَّتْ﴾ لبيان أنها قد خُلقتْ لهذا الانقياد. والشيء المهيَّأ لعملٍ يكون أقدر على إنجازه من الأشياء الأخرى. فمثلا: يمكن أن تنجز بالخنجر ما لا تنجزه بالموسى، لأن كفاءة الخنجر أعلى من كفاءة الموسى، وبالمثل ما تفعله بالسيف لا تستطيع أن تفعله بالقضيب، وإن كان القضيب ينفعك ببعض الشيء. فما صُنع لغرض معين هو الأدعى لتحقيقه من غيره من الأشياء الأخرى.

فالمراد من قوله تعالى ﴿وحُقَّتْ﴾ أن السماء ستطيع أمر الله وتنفّذه إلى أقصى حد، إذ خلقها الله تعالى للطاعة والانقياد والإذعان لأوامره كما ينبغي.

وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

مُدَّت: مَدَّ الله الأرضَ أي بسَطها. ومدَّ الله عُمُرَه: أطاله. ومَدَّ المدينَ: أمهلَه. ومدَّ القومَ: صار لهم مَدَدًا وأغاثهم بنفسه. وفي "اللسان": مددتُ الأرض مَدًّا: إذا زدت فيها ترابًا أو سمادًا مِن غيرها ليكون أعمرَ لها وأكثرَ ريعًا لزرعها. ومدَّ السراجَ بالسَّليط: صَبَّ فيه زيتًا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني: ١- أنها ستُبسَط، ٢- ستُمهَل ليعوَّض عن نقصانها، و٣- سوف تغاث.

التفسير: يقال مَدَّ اللهُ الأرضَ: بسَطها، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني: عندما تُمَدُّ الأرضُ مدًّا. قال الله تعالى في آية أخرى ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾(الحجر:٢٠)، ولما كانت الأرض ممدودة سلفًا فليس المراد مِن مدِّها في الزمن الأخير إلا معنى روحانيًا، وهو أنها تكون فاسدة مدمرة نتيجة كفر الناس ومعاصيهم، فيخلق الله للناس أرضًا روحانية جديدة.. بتعبير آخر: تكون الأرض قد فقدتْ كفاءاتها نتيجة كثرة الكفر والمعاصي، فيشقّ الله السماء ثم يجعل الأرضَ صالحة لجذب أنواره.

ويقال: مدَّ الله عمره: أطاله، ويقال: مدَّ المديون: أمهله، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني أن السماء حين تنشقّ نتيجة كثرة الكفر والشرك في الزمن الأخير، ستستحق الأرض أيضًا أن تدمر وتباد نتيجة كثرة ارتكاب الذنوب عليها، ولكن الله تعالى سيشقّ السماء شقًّا فتنـــزل منها أنواره وبركاته على الأرض، فتستحق الأرض أن يُمدَّ في عمرها. لو قامت القيامة بمجيء نبي صارت بعثُته عبثًا، لذلك لا بد أن يُعطى أهل الأرض مهلةً، وتتاح لهم الفرصة ليُصغُوا إلى

كلام الله ويتدبروا فيه. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أنه سيُمَدُّ في عمر الدنيا وتُمهَل لكي تنتفع من بركاتنا.

ويقال مَدَّ القومَ: صار لهم مددًا وأغاثَهم بنفسه، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾.. أي حين تغاث الأرض.. أي أنها تستغيث الله تعالى نتيجة ذنوب الناس وشركهم وتقول ربّ، قد نجسني الناس وأفسدوني، ودمروني بكثرة معاصيهم. فتنشق السماء وتنـــزل الملائكة منها لإغاثة الأرض، وهكذا تغاث الأرض.

يقال مَدَّ الأرضَ مَدًّا: إذا زدت فيها سمادًا، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أن الله تعالى سيهيئ الأسباب ثانيةً للنهوض بالناس روحانيًّا مرة أخرى.

وكذلك يقال: مدَّ السراج بالسليط: صَبَّ فيه زيتًا، وصَبُّ الزيت يُعتبر بمعنى منح الحياة والكفاءات ثانية، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني أن الأرض ستُزوَّد بكفاءات جديدة.

باختصار، هذه الآية تفيد أن الله تعالى سيمدّ في عمر الأرض ويؤخر هلاكها ويزيدها سمادًا لتزدهر مرة أخرى.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٥

شرح الكلمات:

تخلَّتْ: تخلَّى منه وعنه: تركه. وتخلّى له: تفرَّغَ له. (الأقرب)

التفسير: من مفاهيم هذه الآية أن الله تعالى سيهب لمبعوثه في الزمن الأخير -الذي ستنشقّ من أجله السماء لتنـــزل الملائكة منها- جماعةً مخلصة تقوم بتضحياتٍ كبيرة تكون مصداقا لقوله ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.. أي أنهم يضحّون في سبيل الله بكل غال ونفيس من مال ونفس وعز ووطن وراحة ومشاعر، ولن يترددوا في ذلك مهما كبرت التضحية. وبالفعل فإن الجماعة التي وهبها الله تعالى المسيحَ الموعود عليه السلام تتحلى بهذه الميزة. يقول عليه السلام:

"إن جماعتنا التي خلَقها الله في هذا العصر تشبه جماعة الصحابة ﷺ من عدة وجوه.. إنهم يشاهدون المعجزات والآيات كما شاهدها الصحابة ﷺ، ويتزودون مثلهم بالنور واليقين برؤية الآيات والتأييدات الإلهية المتجددة. إنهم يتعرضون في سبيل الله لأنواع الإساءات من استهزاء وسخرية وسباب ولعن وطعن وقطع رحم وغيرها، كما تعرض لها الصحابة ﷺ. إنهم ينالون حياة طاهرة ببركة آيات الله البينات وتأييداته السماوية ومعرفة حكمة أوامره كما نالها الصحابةُ. فكثير منهم يبكون في صلواتهم ويبللون بالدموع مساجدهم كما كان الصحابة ﷺ يبكون. وكثير منهم يروْن رؤى صادقة ويتشرفون بإلهام الله تعالى كما كان الصحابة ﷺ يتشرفون. وكثير منهم ينفقون أموالهم - التي كسبوها بعرق جبينهم - في سبيل جماعتنا ابتغاء مرضاة الله فقط، كما كان الصحابة ﷺ ينفقون. ستجدون كثيرا منهم يذكرون الموت، حلماء القلوب ومتحلين بالتقوى الصادقة كما كانت سيرة الصحابة ﷺ. إنهم حزب الله الذي يرعاهم، ويطهّر قلوبهم يوما فيوما، ويملأ صدورهم بالحِكم الإيمانية، ويجذبهم إليه بالآيات السماوية، كما جذب الصحابة. باختصار، توجد في هذه الجماعة كل تلك العلامات التي تُفهَم من قوله تعالى﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾، وكان حقًّا أن يتحقق ما قال الله تعالى يومًا ما. (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٠٦-٣٠٧)

وكذلك يقول عليه السلام:

أرى أن التقدم الذي أحرزتْه جماعتي في الصلاح والورع هو في حدّ ذاته معجزة، فآلاف منهم يفْدونني بأرواحهم. ولو أمرتُهم اليوم أن يتخلّوا عن كل أموالهم لتخلّوا عنها، ومع ذلك فلا أزال أحثّهم على المزيد من التقدم، ولا أحدّثهم بحسناتهم، ولكني مسرور في قلبي برؤية حالهم. (مجلة "الذكر الحكيم" عدد ٤ يوم ٢٤ مايو/أيار ١٨٩٦).

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ يعني أن الله تعالى سيعطي عبده المبعوث في الزمن الأخير جماعةً تقدم إليه كل ما تملك لينفقه في سبيل الله ورسوله.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.. أن هؤلاء القوم سيستخدمون كفاءاتهم على أحسن وجه.

ويقال: تخلى له أي تفرغَ له واستعد له، وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أن النفوس الطيبة ستكون يومئذ مستعدة لسماع كلام الله، فينـــزل عليهم مطر السماء، وتُمهَّد قلوبهم كما تُمهَّد الأرض بالفلاحة والسماد، وكل هذه المفاهيم متضمَّنة في كلمة (مُدَّت).

كما أشير بقوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ إلى أن الأرض ستلقي أنواع العلوم الروحانية والمادية، ولن يبقى هناك خفاء، ستجتمع هذه العلوم في ذلك العصر اجتماعا لم يسبق له مثيل في أي زمن. ستُخرج الأرض كنوزها، وستكشف السماء علومها، ويحدث تطور هائل في العلوم السماوية والأرضية.

أما نظرًا إلى المعنى الظاهري فستعني هذه الآية أنه ستقع في الأرض تطورات عظيمة تجعل الأرض تلقي ما في بطنها. وبالفعل ترى أنه قد خرجت من بطن الأرض أنواع الأشياء والمعادن من نفط وكيروسين وفازلين وجلسرين وراديوم وغيرها مما يستعمله الإنسان اليوم. فكأن الله يخبر هنا أن السماء في ذلك الزمن ستلقي ما فيها، كما تلقي الأرض ما فيها. وقد ورد هذا الموضوع في مكان آخر في قوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(الزلزلة: ٢-٣)

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أن الأرض ستدفع فديةَ ذنوبها.. أي أنها ستلقي كل ما يخفى فيها من نجاسة وكدورة خفيّة، وتتخلى عنها، وستنصلح وتتقدم في الصالحات وتتبرأ من السيئات، نتيجة تأييد السماء ونصرها.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٦

التفسير: ليس الحديث هنا عن أرض الكفر، بل عن أرض الإيمان، حيث أخبر الله تعالى أنها ستُصغي إلى ربها يومئذ. والإذن يعني الإصغاء، والإصغاء أقوى من السماع، لأن مَن أراد ألا يفوته شيء أصغى إليه، ولذلك يقول الله تعالى إن الأرض

ستأذن، أي ستصغي إلى ربها، لأنها أهلٌ لذلك.. أي أننا سنـــزوّدها بهذه الصلاحية، فتكون مؤهلة لطاعة الله طاعة كاملة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٧

شرح الكلمات:

كادح: كدَح في العمل يكدَح كَدْحًا: سعى وعمِل لنفسه خيرًا أو شرًا وكَدَّ. وقيل: الكَدَحُ جُهْدُ النفسِ في العمل والكدُّ فيه حتى يؤثِّر فيها. (الأقرب). فالكادح مَن يجتهد حتى تتدهور صحته وتُنخَر عظامه ويتأثر جسده إلى أعماقه.

التفسير: أي أيها الإنسان، عندما تجتهد حق الاجتهاد وتبذل كل ما في وسعك لوصال مع الله تعالى، فعندها ستلاقيه حتمًا. والمراد من الإنسان هنا كل إنسان، أو إمام الوقت فقط. فلو أُريدَ به كل إنسان، فالمعنى أيها الإنسان إن سبيل وصال ربك مفتوح أمامك، بشرط أن تكدح لذلك كدحًا. أما المعنى الثاني فهو: أيها الإنسان الكامل، لا مناص لك لوصال ربك من تضحيات جسيمة، وعندها ستجده. فإذا حظي الإنسان الكامل بوصال الله، يؤمر الجميع باتباع سبيله، ونيل قرب الله تعالى.

لقد بين الله هنا أن وصاله تعالى ليس أمرًا سهلا، بل على الإنسان أن يجاهد في سبيل ذلك مجاهدةً تؤثّر في عظامه وتنخرها. هذا أمر لا يعرفه الناس، فيظلّون محرومين من لقاءِ الله تعالى. إنهم يظنون أنهم قد آمنوا، وأنهم يصبحون كاملين في الروحانية لو جلسوا مع الآخرين قليلا وتحدثوا معهم حديث الإيمان وصلّوا وصاموا. مع أن روحانية المرءِ لا تكتمل إلا نتيجة الالتياع الذي يتولد من العشق الذي ينخر عظامه، ولا يتيسر له لقاءَ الله تعالى ما لم تكن في قلبه هذه الرغبة العارمة وهذا الالتياع وهذا العشق. أما إذا ظن أنه قد تحمل مشقة كبيرة بأداءِ الصلوات والصيام فهذا ليس من الكدح في شيء. فهناك أناس هم أشدّ مشقّةً منهم، مثل كنّاسي المراحيض وغسّالي الثياب وسُقاة الناس، إذ يكابدون مشقة

كبيرة، ومع ذلك لا تنخر هذه الأعمال عظامَهم، وإنما تؤثر في أجسامهم فقط، وهذا التأثير أيضا يزول بعد فترة. بينما قد استخدم الله تعالى هنا لفظ الكادح، والكدح هو اجتهاد الإنسان في عمله وكأنه أفسد صحته ونخر عظامه ودمّر جسده. فعندما يعمل المرء بهذا الشكل يُعَدّ مفلحًا، أما دون ذلك فالأمل في الفلاح خطأٌ وعبث. لقد أنشأتُ مجلس "خدام الأحمدية" ومجلس "أنصار الله" في الجماعة لهذا الغرض نفسه.. كي يجتهدوا وتعتاد جماعتنا على تحمُّل المشاقّ وأن يظل كل فرد منها مشغولا بعمل ما، إذ من المحال أن يلقى الإنسان ربه ما لم يحافظ على وقته من الضياع. فبقوله ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه﴾ قد بين الله تعالى أنه لا يمكن لأُمّة أن ترى الله تعالى ما لم يُفْنِ كل فرد منها نفسه بالعمل.. لا شك أن لقاء الله تعالى على الصعيد الفردي ممكن بعد الكدح، ولكن نعمة لقاء الله على صعيد الأمة محال إلا إذا تفانى كل فرد منها في العمل.

إن لقاء الله تعالى يتيسر في الدنيا على صعيدين: فردي وقومي. فمن الممكن أن يحظى بعض أفراد الأمة بقرب الله تعالى، وإن كانت أمتهم كلها قد هلكت، كما كان الحال قبيل بعثة المسيح الموعود عليه السلام، حيث كان المسلمون قد هلكوا على صعيد الأمة، ومع ذلك قد وُجد فيهم صلحاء مثل حضرة عبد الله الغزنوي - الذي كتب عنه المسيح الموعود عليه السلام أنه كان من أولياء الله تعالى (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٢ ص ٢٥٠) - وحضرة المجدد أحمد البريلوي، وحضرة سيد محمد إسماعيل الشهيد وغيرهم من صلحاء الأمة، ولكن كان هؤلاء نفوسًا معدودة حظيت بلقاء الله تعالى بين أربعمئة مليون مسلم في ذلك الوقت. لقد شرّفهم الله بلقائه ليُرِيَ العالَمَ أن الإسلام لا يزال يتمتع بقوة روحانية وأنه قادر على إحياء الناس وإيصالهم إلى بلاط الله تعالى، ولكن وجود هذه القلة من أهل الله تعالى لم ينفع الأمةَ نفعًا ذا بال. من كان أحمد البريلوي؟ ومن كان المولوي سيد محمد إسماعيل الشهيد؟ كان كل واحد منهم في الحقيقة بمنزلة حجة أقامها الله على الكسالى والغافلين. لقد أتى إلى الدنيا ليكون دليلا على أن الإسلام لا يزال يتمتع بتأثيرات إحيائية. ولكن لم ينفع وجوده أمة الإسلام نفعا ذا بال، لأن الإسلام اسم

لأربعمئة مليون مسلم منتشرين في الصين واليابان وسومطرة وجاوة وغيرها من بلدان العالم، ولكن لم يصل صوت هؤلاء الأولياء إلى أهل هذه البلدان. لا شك أن جماعتنا صغيرة حتى الآن، ولكنها -بفضل الله تعالى- تنتشر في شتى أقطار العالم.

إذن، فكان هؤلاء الصلحاء مجرد حجة على الغافلين ودليل على الكسالى أن الله تعالى قادر على إحياء الأمة حتى اليوم، وإن كان الواقع أن المسلمين لم يروْا وجه الله على صعيد الأمة في زمن هؤلاء الصلحاء.

فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه﴾ يعني: يا جماعة المؤمنين، لا بد لكل فرد منكم من التفاني في هذا السبيل، وعندها تروْن وجه الله على صعيد الأمة، وتتيسر لكم نعمة لقائه.

والحق أن هذه هي النعمة الحقيقية، وإلا فإن الناس في كل زمن يحظون بلقاء الله على الصعيد الفردي، ولكن هذا اللقاء لا ينفع الأمة ككل، وإنما يظهر جلال الله على صعيد الأمة، ويرى كل فرد وجه الله تعالى بعينه حين يتفانى كل واحد منها في سبل قرب الله تعالى، ولا يضعف إلى أن ينال هذه النعمة العظيمة.

وضمير الغائب (هـ) في قوله تعالى ﴿فَمُلاقِيه﴾ يمكن أن يعود إلى الجزاء، ولكن إرجاعه إلى الله تعالى أنسب وأولى، نظرًا إلى المعنى الذي بينتُه.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٩﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾

التفسير: اليد اليمنى هي التي تُستخدم للعمل عادةً، ولما كانت الآية السابقة تحثّ الإنسان على الكدح، فكأن الله تعالى قد أخبر الآن أن الرقي كله في العمل المتواصل باليد اليمنى؛ فإذا ظللتم تعملون بيدكم اليمنى فسوف تنتصرون حتمًا.

الحق أن هذه الآيات تُلخِّص مشروع "تحريك جديد"* كله.. أي الكدُّ والاجتهاد والاعتياد على العمل باليد وتكبُّد المشاقّ يضمن للإنسان النجاح في حياته. الحق أن قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.. يعني أن الإنسان لن يصاب بالقلق والضيق عند حلول الشدائد، لأن اعتياده على تحمُّل المشاقّ سيسهّلها له. أما الشخص العاطل الكسول المعتاد على حياة البذخ فيصاب بالذعر عند حلول مصيبة بسيطة، ولكن المجتهد المعتاد على تكبُّد المشاقّ يستسهل جبال المصاعب. لا شك أن هذه الآية تعني أن الله تعالى سيسهل معاملة المؤمن عند الحساب، ولكنها تعني أيضا أنه مهما كانت المحنة شديدة إلا أنه يستسهلها. فمن ذا الذي كان أشدَّ محنةً من الذين تركوا أوطانهم وعزتهم وأموالهم وأولادهم من أجل النبي ﷺ، ومع ذلك سهُلت عليهم كل هذه المصائب فصبروا عليها برضًا وطواعية؟ كان الشاعر "غالب" يتعاطى الخمر، ومع ذلك قد جرتْ على لسانه كثير من الحِكم، مما يدل على أنه كان في قلبه خير حتمًا. فيقول في شطر بيت

مشکلیں اتنی پڑیں مجھ پر کہ آساں ہو گئیں

(ديوان غالب ص ١١٠)

أي لقد صُبَّت عليّ المصائب بكثرة حتى هانتْ عليّ.

فالذي يعتاد على تحمُّل الشدائد والمشاقّ يرى حسابه يسيرا، ولكن حين يأتي وقت حساب مَن اعتاد الرفاهية والبذخ يجده عسيرا.

كان المسيح الموعود عليه السلام يقول إن الابتلاء نوعان: أحدهما ما يكون بيد الإنسان أن يخفّفه، والثاني ما يكون بخيار الله تعالى والذي يشقّ على الإنسان جدًّا.

---

* في عام ١٩٣٤م أعلن أعداء الأحمدية في الهند كلها أنهم سيدمرون قاديان ويدكّونها دكّا حتى يُقضى على هذه الجماعة التي كانت لا تزال في مهدها. فقدّم الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام أمام أبناء الجماعة مشروعا للتقتير على أنفسهم لتوفير الأموال لنشر الإسلام الصحيح ليس في أرجاء الهند فحسب بل في العالم أجمع وسماه "تحريك جديد".. أي المشروع الجديد. وإن شبكة مساجد الأحمدية ومراكزها وازدهارها في معظم بلدان العالم خير دليل على عظمة هذا المشروع وكونه مباركا من الله سبحانه وتعالى. (المترجم)

وكان ﷺ يضرب مثال الوضوء للنوع الأول من الابتلاء، فقال إن الوضوء ضروري للصلاة، ولكن لو كان الطقس باردًا، فبخيار الإنسان أن يسخن الماء إذا شاء، ومثال النوع الثاني من الابتلاء الذي يكون الخيار فيه بيد الله فقط، وليس بيد الإنسان أن يخفف وطأته: موتُ قريبٍ له، فإن الإنسان لا يحتمله إلا إذا كان معتادا على حياة المشقة والمرارة، تاركًا عيشة الراحة والبذخ، ولو اعتاد المشقة سهُل عليه كل الصعاب. (ملفوظات، المجلد ٣ ص ٦٣٨)

أما قوله تعالى ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ فيبين بوضوح أن الحديث هنا عن الحساب الذي يتم في هذه الدنيا، إذ لن يعرف أحد مصير أهله عند الحساب في الآخرة. ثم ليس ضروريًا أن يكون أهله كلهم من أهل الجنة، إذ يمكن أن يكون بعضهم في النار، بينما يقول الله تعالى هنا إنه يرجع إلى أهله مسرورا بعد الحساب فورًا. مما لا شك فيه أن الله تعالى سيجعل أهل المؤمن وعياله معه في الجنة، ولكن هذا سيتمّ بعد الحساب، وليس أنه يكون في حساب بينما يكون أهلُه موجودين في الجنة قبله. كلا، بل الموقف أشدُّ من ذلك، حتى قال النبي ﷺ: لو أردتم أن تبحثوا عني يومئذ فعليكم بكذا وكذا من العلامات؛ وما دمنا بحاجة إلى علامات للعثور على مكان النبي ﷺ يوم الحساب، فكيف يجد المؤمن العادي أهله فور حسابه؟ فثبت بذلك أن قوله تعالى ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ يتحدث عن هذه الدنيا.. أي أن الكادح في سبيل الدين سيظل في جِدّه وكدّه، وعندما يقطف ثمار اجتهاده الطيبة في الدنيا يرجع إلى أهله مسرورا.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١٢﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٣﴾



شرح الكلمات:

ثبورا: الثبور: الهلاك والفساد. (المفردات)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ يعني أن الذي يؤخّر عمل اليوم إلى الغد دائمًا، ويلقي أعماله وراء ظهره باستمرار، فإنه سيُؤتى كتابه وراء ظهره، أما مَن ظلّت يده اليمنى مشغولة بالعمل، فسيُؤتى كتابه في يده اليمنى.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾. الظاهر أن الذي يتلقى كتابه من وراء ظهره لن يجد فيه ما يسرّه، لأن الخبر السارّ يُكشَف والخبر المحزن يُخفى، وحيث إن ما في كتابه سيحزنه لذلك سيعطى كتابه من وراء ظهره، وعندما يراه يدعو ثبورا.. أي ثبورا لنفسه، أي يتمنى هلاكه.

أو المعنى أن بطش الله يكون شديدا حتى يقول الإنسان ليتني كنت ترابا، لكي لا أرى هذا المصير.

ويمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أن هلاك هذا الإنسان لا يكون من الله ظلمًا، بل إنه بنفسه يرد مورد الهلاك بسيئاته.. بتعبير آخر إن الله تعالى لا يريد أن يعذب العبد، بل إن العبد نفسه يدعو العذاب بعمله.

وقوله تعالى ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ يعني أنه سيدخل في نار مضطرمة، ومفهومه - من منظور هذه الدنيا - أنه سيحترق في نار الهموم والغموم.. أما نظرًا إلى الآخرة فمعناه ظاهر بيّن.

إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٤﴾

التفسير: ورد في الآيات السابقة أن المؤمن لم يكن يجد فرصة الجلوس في بيته براحة وهدوء لكثرة اجتهاده وكدحه، ولذلك عندما ينال جزاءه، فسوف ينقلب إلى أهله مسرورا، إذ رجع إليهم ناجحًا فائزا، أما الكافر فكان يجلس في بيته عاطلا منغمسا في الملذات، و لم يكن يجتهد لإرضاء ربه، ولذلك عندما تظهر نتائج أعماله فيكون في حزن وغمّ شديد. لقد تبين من ذلك أن المؤمن يبدأ عمله بغمّ، وتكون عاقبته سرورا، والكافر يبدأ عمله فرحًا وتكون عاقبته غمًّا.

إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

يحور: حارَ يحور حَوْرًا وحُؤورًا: رجَع. وحارت الغُصّةُ حَورًا: انحدرتْ كأنها رجعتْ مِن موضعها. وحارَ فلان حَورا: تحيَّر. وحارَ بعدما كارَ: نقص بعد ما زاد. ومنه: "نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر" أي من النقصان بعد الزيادة. (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ يعني أنه ظن أنه لن يرجع إلينا، أو لن يئول من السراء إلى الضراء، أو لن يتعرض للمشاكل بحيث يحتار من أمره، أو أنه لن يصاب بالخسارة.

التفسير: إن أكبر سبب لهلاك الناس في الدنيا أهم إذا حقّقوا نجاحًا ورفعة ظنوا أن لا زوال لهم بعد ذلك، فلا يُعدّون عُدّتهم لتجنب هذا الزوال. الشعوب تزدهر، ولكنها لا تسعى بعد ذلك لسدّ طرق الزوال، وعندما يأتي الزوال لا يبقى عندهم فرصة للعودة. ومَثَلُ القانون الإلهي كالقطار الذي إذا سار في اتجاه ظلّ سائرًا لبعض الوقت حتى بعد انتهاء وقوده. وهذا ما يخدع الأمم دائما. فلو أن قطار التقدم القومي توقف فورا عند انتهاء الوقود لتوجهوا إلى تدارك أمرهم، ولكن يظل يسير لبعض الوقت رغم انتهاء وقوده.. والنتيجة أن القوم يشعرون بدمارهم بعد فوات الأوان.

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٦﴾

التفسير: أي أن تفكير هذا الإنسان ليس صحيحًا، بل الحقيقة خلاف ذلك، فإن ربه يراه جيدا، بمعنى أن كل أعمال الأمة تكون تحت رقابة الله تعالى، فهو لا ينساها وإن نسيها الإنسان أو الأمة، فلذلك مهما ظلت أعمال القوم في الخفاء في الظاهر، إلا أن نتائجها تكون حسب الواقع لا خلافه، وإن أسباب زوال هؤلاء القوم أيضا ستتهيأ. والمراد من هؤلاء القوم معارضو الحق في الزمان الأخير، حيث أخبر الله تعالى هنا أن الكفر سيكون قويًّا في الظاهر عند هذه الثورة السماوية

والأرضية، ويظن الرائي أن الكفر لن يُغلب، ولكن الواقع أن الكفر سيكون منخورا من داخله نتيجة تغيرات كثيرة بحيث لن يقدر على مقاومة النظام السماوي.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

هناك اختلاف بين النحويين حول (لا) الواردة في قوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ﴾، فيقول أبو عبيدة وجماعة من المفسرين إنها زائدة، والتقدير: "أُقسِمُ".. أي أَقدِّمُ الشفقَ شهادةً على ما أقول. ويقولون: "زيادتها جارية في كلام العرب"، ومثاله قولُه تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾(الأعراف:١٣)، حيث المراد: ما منعك أن تسجد، وقولُه تعالى ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾(الحديد:٣٠)، حيث المراد: ليعلم أهل الكتاب.

ثم يقول بعض العلماء: "إنما تُزاد في وسط الكلام لا في أوله".

غير أن بعض المفسرين قال: إن هذه القاعدة تنطبق على كلام الناس لا على القرآن الكريم، لأنه كله في حُكْمِ سورة واحدة، متصل بعضه ببعض، فحيثما جاءت فيه (لا) كهذه اعتُبرت في وسط الكلام.

وقد اعترض عليه البعض فقال: لا شك أن مضمون القرآن الكريم كله في حكم سورة واحدة، ولكن آياته تُعتبر منفصلةً بعضها عن بعض من حيث عبارته الظاهرة، فلا يمكن أن نعتبر سورةً جزءًا من أخرى.

وهذا الاعتراض -لو سلمنا بصحته- يَرِدُ على (لا) الواردة في بداية السور، لا على التي تأتي وسط الكلام. (الكشاف، فتح البيان)

وليكن معلوما هنا أن هذا الكلام كله ناتج عن وسوسة، وهي أنهم قد اعتبروا (لا) هذه نافية. لا شك أننا بحاجة إلى تقدير شيء قبل (لا) لتنفيه، ولكن لو اعتبرنا (لا) هنا زائدة، فلا يبقى هناك أي اعتراض.

وجاء في الكشاف: إدخال «لا» النافية على فعل القَسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم، وفائدتها توكيد القَسم.

وقال بعضهم: هي ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أُقسِمُ بيوم القيامة. (فتح القدير)

وقال الفراء وكثير من النحويين إنها ليست زائدة، بل هي نافية، ومثاله عندهم: قول العرب في حديثهم: لا والله؛ إذ لا يعني القائل أنه لا يقسم بالله، بل يعني أنه يرفض ما قيل له وأنه يُقسِم على صحة موقفه. (فتح القدير)

وقال البعض الآخر: وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي القسم، بل لنفي ما ينبئ عنه مِن إعظام المقسَم به وتفخيمِه، كأن معنى "لا أُقسِم بكذا": أي لا أُعظِمه بإقسامي به حقَّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. (فتح القدير)

الظاهر أن هذا المعنى لغو وباطل أيا كان قائله، لأننا نتحدث هنا عن القَسم الذي يقسم به الله تعالى، فقولهم إن الجملة تعني هنا أن الله تعالى يقول أنني أقسم ولكنني لا أستطيع أداء حق هذا القسم، لقولٌ باطل بداهة؛ إذ كيف يقال عن الله الذي يقال عنه ﴿الحمد لله﴾ أنه لا يؤدي حقّ القسم؟

وقيل: إنها لنفيِ القَسم لوضوح الأمر، أي لا أُقسِمُ بهذا الشيء، لأنه واضح ظاهر، ولا حاجة للقَسم به.

ولكن هذا المعنى أيضا باطل بداهة، لأن الأمر المطلوب بيانه هو المقسَم عليه، أما الشيء الذي يتم القَسم به فهو يُقدَّم كشاهد على المقسَم عليه؛ فالقول إن قوله تعالى هذا يعني: إني لا أقسم بهذا الشيء لأن شهادتَه واضحة، لهو قول لا معنى له.

فالحقيقة أن (لا) هذه زائدة تفيد التوكيد. وليس المراد من قولنا إنها زائدة أن لا فائدة لها، إذ لا يوجد في القرآن حرف زائد لا فائدة له، وهي مألوفة في أسلوب كلام العرب، ولا حاجة لأي تكلف في تأويلها. نعم، عندما تكون (لا) نافية فلا بد أن يُذكَر قبلها شيء، سواء في السورة التي وردت (لا) فيها أو السور التي سبقتْها والتي هي كلها حلقات من موضوع واحد متسلسل.

الشفق: الشفق: الحُمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة أو إلى قريبها أو إلى قريبِ العَتَمة، فإذا ذهَبَ قيل: غابَ الشفقُ (علمًا أن العرب يطلقون العشاء على صلاة المغرب أيضا، ولذلك إذا أرادوا الصلاة التي بعدها قالوا: الصلاة الآخِرة

ويطلقون عليها العَتَمة أيضا). قال الأصمعي: سمعتُ بعض العرب يقول: عليه ثوبٌ كأنه الشفق، وكان أحمر. (وقال الجوهري) في "الصحاح": الشفق بقيةُ ضوء الشمس وحُمرتها في أول الليل إلى قريب من العَتمة. (الأقرب)

ورد في بعض التفاسير اللغوية عن عليّ وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر ومحمد بن علي بن الحسين ومكحول وبكر بن عبد الله المُزني وبُكير بن الأشج ومالك وابن أبي ذئبة وعبد العزيز بْن أبي سَلَمَةَ الماجِشون أنهم قالوا: الشفق هو الحمرة. وقال مجاهد: الشفق هو الحمرة قبل طلوع الشمس، وقال أهل اللغة: هو الحمرة بعد غروبها. (ابن كثير)

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: وقتُ صلاة المغرب ما لم يَغَبِ الشفقُ. (مسلم: كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس) ويقول ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: "فيه دليل أن ما قال أصحاب اللغة صحيح، والشفق حمرة بعد غروب الشمس." (ابن كثير)

ودليلُ مجاهدٍ أن الليل مذكور بعدها في الآية التالية، لذلك فالمراد من الشفق: النهارُ قبل طلوعِ الشمس، إذ قال الله تعالى هنا ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فالمقارنة هنا بالليل، فثبت أن الشفق إشارة إلى النهار.

ولكنه دليل عقلي بحت، وقد أقرَّ مجاهد نفسه أن قوله لا يستند إلى دليل من اللغة. مع أن الواقع أنه لا بأس عقلاً من اعتبار الشفق بمعنى الحمرة التي تكون بُعيد غروب الشمس إزاء الليل، لأن الشفقَ هو ذلك الوقت الذي لا يزال فيه بقية من ضوء النهار. فالحقيقة أن معنى الآية كالآتي: أستشهد بذلك الوقت الذي يذهب فيه النهار، ويبقى شيء من ضوئه، وأستشهد أيضا بالليل حين ينتشر ظلامه. وفي هذه الحالة تظلّ المقارنة بين الليل والنهار كما هي، دون أن نلجأ إلى تفسير الشفق بالنهار خلافا للغة.

التفسير: انظرْ تفسير هذه الآية عند تفسير قوله تعالى﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.

وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

وَسَقَ: وَسَقه يسقه وَسَقًا: جمَعه وحمَله. ووسَق البعيرَ: حمَّله الوَسْقَ. وَوَسَقَ البعيرَ وسيقًا: ساقَه. والوَسقُ عادةً ستون صاعًا، وقيل الوسق عند أهل الحجاز ٣٢٠ رطلا، وعند أهل العراق ٤٨٠ رطلا. وقيل هو: حِملُ بعير (الأقرب).

وقال المفسرون: قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: ﴿وما وَسَق﴾: أي وما جمَع. وقال قتادة: وما جمَع مِن نجمٍ ودابةٍ. وقال عكرمة: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: يقول ما ساقَ مِن ظُلْمَة. (ابن كثير)

التفسير: سيأتي تفسيره عند الآية التالية.

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

اتَّسَقَ: افتعال مِن وَسَقَ. اتّسقَ أمرُه: انتظمَ واستوى. (الأقرب)

وورد في المفردات: "الاتساق: الاجتماعُ والاطّرادُ".

واطّردَ الأمرُ: تَبِعَ بعضُه بعضًا واستقام. (المنجد)

ويقول الفرّاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾: اتساقُه امتلاؤُه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة إلى ست عشرة، وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع. (القرطبي، وزاد المسير)

ويقول الحسن البصري: اتّسَق أي امتلأ واجتمعَ. وقال قتادة: استدارَ.

ويقال: أمرُ فلانٍ متّسقٌ: أي مجتمِع. (ابن كثير، والطبري)

وورد في ابن كثير: قال ابن عباس: ﴿إذا اتّسق﴾.. إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحّاك وابن زيد: إذا اتَّسَقَ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع وإذا امتلأ. وروي عن الحسن البصري

أيضا: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي امتلأ واكتمل ضوؤه. وقال قتادة: استدار. ومعنى كلامه: أنه إذا تكاملَ نورُه وأبدرَ. (ابن كثير)

ويقول الآلوسي في تفسيره: اتَّسق: اجتمعَ نوره وصار بدرًا (روح المعاني). وقال صاحب الكشاف: اتسق: اجتمعَ واستوى ليلةَ أربعة عشر. وقال ابن عباس: اتسق: استوى. وعنه: قال ليلة ثلاثة عشر. (فتح القدير)

التفسير: لقد تحدثت هذه الآيات الثلاث عن مراحل ثلاث تأتي على الإسلام: فأوّلُ ما قال الله تعالى هنا هو أننا نقدّم أمامكم حالة الشفق كشهادة على صدق ما نقول. والشفق كما بيّنتُ سابقًا هو ذلك الوقت الذي يلي مغيب الشمس، والذي يكون فيه في الأفق ضوء وحُمرة، وأما الوَسَق فمعناه الجمع، وعليه فقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يعني: نقدّم أمامكم كشهادةٍ الليلَ حين يستجمع في نفسه كل الصفات والكيفيات التي تجعله ليلا كاملا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي نقدِّم أمامكم كشهادةٍ القمرَ حين استوائه الليلةَ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة؛ فكما أن الليل يجمع في نفسه كلَّ ما يجمعه مِن ظلام وهدوء وغيرهما، كذلك سيَجمع القمر عندئذ في نفسه كلّ طاقاته. والمعروف أن القمر يجمع كل طاقاته ويكون في أَوْجِه وهو في الليلة الرابعة عشرة من الشهر.

لقد قال بعض المفسرين: هذه الآيات إشارةٌ إلى مراحل اكتمال القمر تدريجيا، حيث بيّن الله تعالى بذلك أن الأمم أيضًا تزدهر هكذا بالتدريج.

وقد قال البعض إن هذه الآيات تتحدث عن ازدهار الإسلام في زمن النبي ﷺ.

ولكن هذه الفكرة مرفوضةٌ بداهةً، لأن النبي ﷺ قد جاء عند اشتداد ظلمة الليل، فأي شفق كان عندئذ؟ ثم إن الله تعالى قد سمّى النبي ﷺ شمسًا، بينما تتحدث هذه الآية عن القمر، والمعروف أن القمر يستمد نوره من جِرم آخر. ومتى كان النبي ﷺ قمرا حتى يصبح بدرا فيما بعد؟ كلا، بل كان ﷺ شمسا. فالحق أن هذا المعنى راجع إلى قلة التدبر.

الواقع أن الله تعالى قد أخبر من قبل في سور التكوير والمطففين وغيرهما أنه سيأتي زمان يحيط فيه الكفرُ بالعالم كله، أما هذه السورة فأنبأ فيها - كما بينتُ من قبل - عن ازدهار الإسلام لا ازدهار الكفر. لا شك أن هذه السورة تتحدث عن الكفر أيضا، ولكن كان الكفر هو الموضوع الأساس في السور السابقة، وكانت تتحدث عن ازدهار الإسلام ضمنيًا. أما هذه السورة فموضوعها الأساس الإسلام وتتحدث عن الكفر ضمنيًا كما سبق أن استدللنا من قوله تعالى ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾. فلما تحدَّث الله هنا عن ازدهار الإسلام ثانيةً نشأ سؤال تلقائي: متى يؤول الإسلام إلى الانحطاط؟ ولذلك أخبر الله تعالى هنا عن كل تلك التغيرات التي كانت ستحدث في المسلمين بعد الرسول ﷺ. معروف أن الله تعالى قد سمى النبي ﷺ ﴿سِرَاجًا منيرًا﴾ (الأحزاب:٤٧)، ووجودُ حالة من الشفق عند غروب الشمس أمر طبيعي، وإلى ذلك قد أشار الله هنا بقوله ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾.. أي أقدِّم أمامَكم كشهادةٍ ذلك الزمنَ الذي يختفي فيه نورُ النبي الكريم ﷺ عن الأنظار. والحكمة في ورود كلمة الشفق هنا هي أن الشمس تكون موجودة في الحقيقة وقتَ الشفق، ووقتَ الليل ووقتَ طلوع القمر أيضًا، ولكنها تكون خافية عن أنظار الناس. فعندما أشار الله تعالى في الآيات السابقة إلى انحطاط الإسلام كان يمكن أن ينشأ في ذهن البعض تساؤُل: لعلّ نبوّة محمد رسول الله ﷺ لن تعود صالحةً في ذلك الوقت؟ فرَدَّ الله على هذا التساؤل وبيّن أن نبوّته ﷺ لن تصبح غيرَ صالحة عندها، بل سيكون ذلك الزمن زمنَ الشفق والليل، ومعلوم أن الشمس لا تنمحي وقتَ الشفق والليل، بل تكون موجودة، إلا أن الناس لا ينتفعون منها. فالحق أن الله تعالى قد بيّن بهذه الكلمات أن الإسلام لن يؤول إلى الانحطاط بسبب ضعف القوة القدسية المحمدية، وإنما بسبب انحطاط المسلمين. ذلك أن انحطاط الأمة له سببان: فسادُ زعيمها، أو إعراضُها عن زعيمها الذي لم يفسد. فكأن الله تعالى يقول هنا: قد أخبرناكم عن انحطاط الإسلام، ولكن هذا لن يكون نتيجة فساد في محمد رسول الله ﷺ، وإنما سببه فساد المسلمين الذين يبتعدون عنه، فيُحرمون من اكتساب نور الهداية منه، فمثل انحطاط أمته كمثل الشفق والليل اللذين ليسا نتيجة

انمحاء الشمس، بل نتيجة اختفاء الأرض عن الشمس.

وقد أشير هنا إشارة لطيفة إلى أمر آخر، وهو دوران الأرض حول الشمس، إذ لو اعتُبِرَت الشمس هي الدائرة حول الأرض لم يستقم هذا المثال، إذ يكون المعنى في هذه الحالة أن محمدًا رسول الله هو الذي هرب معرضًا عن أمته، مع أن الله تعالى يخبر أنه ﷺ لم يهرب، وإنما المسلمون هم الذين هربوا وأعرضوا عنه. فالحق أن هذا المثال إنما يستقيم اذا اعتبرنا أن الأرض هي التي تدور حول نفسها وحول الشمس.

وقد بدأتْ فترة الشفق هذه في زمن أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث التالي: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ، ثم يكون بعدهم قَوْمٌ يَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فيهمْ السِّمَنُ." (البخاري: فضائل أصحاب النبي ﷺ).. أَي أن ثلاثة قرون بعدي ستكون قرون خير، ثم تنتشر المفاسد. وهذه القرون الثلاثة الأولى المباركة هي قرون شمس النبي ﷺ، وبعدها حُجبت الشمس المحمدية، وبدأ زمن الشفق، ذلك الزمنُ الذي كان النور والظلام لا يزالان مختلطيْن فيه، ثم بدأت فترة الليل الذي جمَع فيه الظلمات بكل أنواعها.

وهناك أمر آخر جدير بالذكر، وهو أن فترة الشفق تكون جدَّ قصيرة عادةً، بل تُعتبر جزءاً من الليل نفسه، بينما يكون الليل طويلاً؛ فلماذا ذكر الله الشفق منفصلاً يا ترى؟ الجواب أن فترة الشفق في الإسلام ذات خصوصية، وهي أن الله تعالى قد قدّر لأمة رسول الله ﷺ أن يكون زمن شفقهم طويلاً وزمنُ ليلِهم قصيرا، وهكذا فقد كانت فترة الشفق في الإسلام ذات سمة مستقلّة منفصلة. وهذا ما حصل بالفعل بعد عهد النبي ﷺ، حيث كان بين المسلمين في كل عصر قومٌ عملوا عَمَلَ الشفقِ، و لم يدَعوا نورَ الرسول ﷺ يختفي عن الدنيا. الحقيقة أن فترة الليالي المظلمة في تاريخ الإسلام لم تكن إلا في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني عشر، بل لو أمعنا النظر لوجدنا فيهما أيضا شيئا من الشفق.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي نُقسِم بالليل وما جمَع. لقد تبينَ من هنا بوضوح أن هذا الشفق في الإسلام سيستمر إلى الوسق، وهذه إشارة إلى أن نور النبي ﷺ لن ينطفئ، بل المسلمون أنفسهم سيُعرِضون عن نوره. كما أن فيه إشارة

إلى أن ذلك الليل يكون شديد الظلام مُرْعِبًا حيث يستجمع في نفسه كل ما يجعله كامل الظلام، حيث تقع فيه حالات السرقة وقطع الطرق والقتل، وتخرج فيه الثعابين والعقارب ويشتد الظلام بحيث لا يرى أي شيء. إذن، فقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أن تلك الفتنة تكون شديدة، وسيجتمع عندها كل ما يجعل ليلَها كاملَ الظلمة مرعبًا.

فقوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ واضح في مراده بحيث يبطل به -تلقائيًا- قولُ المفسرين أنه إشارة إلى أن الرقي يتم بالتدريج. فقد ذكر الله تعالى أولاً الشفق، ثم الليل الشديد الظلام، ثم القمر الذي سيصبح بدرًا بعد السير في منازله. وهذه الأمور الثلاثة لا تجتمع في العالم المادي أبدا، فلا يأتي بعد الشفق ليل شديد الظلام حتمًا، ولا يطلع البدر بعد ليلة شديدة الظلام. فهل من مفسر يخبرني أيُّ بدر يطلع بعد الحالة المشار إليها في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؟ حيث ذكر الله هنا ظلمة الليل أولاً، ثم طلوع البدر. فثبت أن هذه الآيات لا تتحدث عن قاعدة الرقي التدريجي في العالم المادي، ولا تذكر أيَّ قانون مادي، وإنما تذكر أمرًا روحانيًا حيث تنبئ عن شتى مراحل انحطاط الإسلام ورقيه. فليس الليل هنا ليلا ماديا، بل المقصود ليل روحاني، والفرق بين الليالي المادية والروحانية أن الليالي المادية لا تكون مظلمة قبل طلوع البدر، بل تكون مضيئة، حيث إن الليلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة اللتين تسبقان طلوع البدر لا تكونان مظلمتين، بل تشتد الظلمة في الليلتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين من الشهر. بينما يحدث العكس في العالم الروحاني، حيث يطلع البدر بعد أن تكون ليلةٌ شديدة الظلام قد أحاطت بالعالم كله. إذًا فإن الله تعالى قد نبّه بإيراد قوله ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ بعد قوله ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ إلى أن الحديث هنا ليس عن العالم المادي، بل عن الشفق الروحاني والليل الروحاني والبدر الروحاني. فلا ذكرَ هنا لأي قانون عن الرقي التدريجي في العالم المادي. يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادةٍ القمرَ حين يصير بدرًا. وهذه نبوءة واضحة عن بعثة المسيح الموعود عليه السلام بحيث إن من الظلم العظيم القولَ أنه لا ذِكْرَ لبعثة المسيح

الموعود في القرآن الكريم. لقد ذكر الله تعالى هنا ثلاثة أدوار تأتي على الإسلام، فأخبر عن فترة الشفق التي تأتي بعد الرسول ﷺ وتكون طويلة، ثم تليها فترة قصيرة من الظلمة، ولكنها رغم قصرها تكون شديدة الظلام بحيث تجتمع فيها كل ظلمات الدنيا، وبعدها فجأةً يتحول قمرٌ مِن رجال استمدّوا نورهم من الرسول ﷺ إلى بدر كامل، فيحيط بهذه الليلة بحيث يبدّد ظلمتها تمامًا، لأن من شأن البدر الكامل أن يبدد الظلام كليةً. فهذا البدر الروحاني الكامل أيضًا سينشر نورَه في العالم بحيث لن يشعر الناس بما يوجد بينهم وبين الرسول ﷺ من بُعد الزمان.

إذًا فهذه الآيات ترسم لنا رسمًا واضحًا ومتكاملاً التغيراتِ المستقبلية التي كانت ستؤثر على الإسلام، بدءًا من زمن الرسول ﷺ إلى آخر الزمان.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

طَبَقًا عن طَبَقٍ: الطَبقُ: القرنُ من الزمان؛ الناسُ؛ الجماعةُ؛ الحالُ. (الأقرب)

وورد في المفردات: الطبَق: المطابَقة.

التفسير: يقول عزَّ مِن قائل: إنا نُقسِم أنكم ستمرون من مرحلة إلى أخرى. ومن الملاحظ هنا أن الله تعالى قد استعملَ في قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ اثنين من أدوات التوكيد: اللام والنون المشددة؛ وأتساءل: ما الداعي لهذا التأكيد الشديد إذا كانت هذه الآيات لا تتضمن أيةَ نبوءة هامة عن المستقبل؟ الحق أن صياغة هذه الآية تبين أن لا علاقة لها بزمن الرسول ﷺ، إنما تنبئ عن أحداث ستقع في المستقبل؛ إذ لا مجال للشفق في عهد الرسول ﷺ، ولا لليلة شديدة الظلمة، ولا للقمر الذي سيتّسق. فثبت أن هذه الآيات تتعلق بالمستقبل قطعًا.

ويفيد حرفُ (عن) معانيَ كثيرة، منها البعدية، كقولك: عن قليل أزورك.. أي بعد قليل أزورك، وقد ورد حرف (عن) في قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أيضًا بمعنى البعدية، والمراد: لتركبُنَّ طبقًا بعد طبق. وقد مرَّ في شرح الكلمات أن

من معاني الطبق: الحال والجماعة، وكلاهما ينطبق هنا؛ فكأن الله تعالى يقول: أُقسِم أنكم ستمرون بهذه الحالات الأربع المذكوة آنفًا حالةً بعد حالة. أو المعنى: لتركبنّ جماعةً بعد جماعة، أي ستمرّون بحالات الجماعات المذكورة هنا جماعةً بعد جماعة.

وبالفعل نرى أن الله تعالى قد حقق كل هذه الأنباء بشكل رائع. فقد ظلّت الشمس المحمدية المنيرة تضيء العالم ثلاثة قرون، ثم جاء بعدها فترة الشفق التي امتدّت طويلا، حيث وُجد فيها صلحاء كبار كأمثال السيد عبد القادر الجيلاني، ومعين الدين الجشتي، ومحيي الدين بن عربي، الذين قد حافَظوا على نور النبي ﷺ وتعاليمه. لا شك أن الليل كان مخيمًا في تلك الفترة أيضًا، ولكن ليس بوسع أحد أن ينكر وجود الشمس عندها؛ إذ لم تزُلْ من هناك حمرة الشفق. وبعدها في القرنين الهجريين الثاني عشر والثالث عشر سادت الظلمة وكانت شديدة ومخيفة، بحيث رأى العالم مشهد ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي أن تلك الليلة المظلمة جمعت في نفسها ما يمكن أن تجمعه من بلايا وآفات ومصائب. كانت تلك الفترة فترةَ دمار للإسلام والمسلمين لا مثيل له في الأزمنة الخالية. ثم بعد تلك الليلة الليلاء تحوَّل فجأة قمرٌ إلى بدر كامل بحسب قوله تعالى﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، وبدأ ينشر نور رسول الله ﷺ في العالم أجمع.

فكِّروا في هذه النبوءة، فسوف تجدون أنها لم تتحقق مضمونًا فحسب، بل شكلاً أيضا. لقد سبق أن بيّنّا لدى شرح الكلمات أن اتساق القمر يعني استواءه من الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة من الشهر؛ وقد تحقق هذا الأمر جليًا، حيث وُلد المسيح الموعود عليه السلام في القرن الثالث عشر الهجري، وأعلن دعواه في القرن الرابع عشر، ثم أنبأ عليه السلام أن عهده ممتد لثلاثة قرون، أي حتى آخر القرن السادس عشر الهجري. فقد قال عليه السلام:

"إن عهد المسيح الموعود عليه السلام ممتد إلى الزمن الذي يوجد فيه الذين رأوْه أو الذين رأوا من رأوْه، أو الذين رأوا هؤلاء.. وظلوا عاملين بتعاليمه. باختصار، إن مدة القرون الثلاثة ضرورية نظرًا إلى منهاج النبوة." (ترياق القلوب، الخزائن الروحانية مجلد ١٥ ص ٤٧٨ الحاشية). وكذلك قال عليه السلام:

"لن ينقضي القرن الثالث من هذا اليوم إلا ويستولي اليأسُ والقنوط الشديدان على كل من ينتظر نزول عيسى، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، فيرفضون هذه العقيدة الباطلة؛ وسيكون في العالم دين واحد وسيد واحد. ما جئتُ إلا لزرع البَذْرة، وقد زُرعتْ هذه البَذْرة بيدي، والآن سوف تنمو وتزدهر، ولن يقدر أحد على أن يعرقل طريقها". (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية مجلد ٢٠ ص ٦٧)

وقال عليه السلام عن مصير معارضيه:

"مِن المقدَّر للذين سيظلون خارج هذه الجماعة أن يتناقصوا يوما بعد يوم، وكل الفرق الإسلامية التي لم تنضم إلى هذه الجماعة ستظل في تناقص مستمر؛ فإما أن ينضموا إلى هذه الجماعة أو ينقرضون شيئا فشيئا كما حصل مع اليهود، حيث ظلوا ينقصون شيئا فشيئا حتى أصبحوا قليلي العدد. هكذا يكون مصير معارضي هذه الجماعة. أما أبناؤها فسيصبحون غالبين على الجميع بعددهم وقوة مذهبهم. (براهين أحمدية، الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ٩٥)

إذن، فعهد المسيح الموعود عليه السلام يبدأ من القرن الثالث عشر الهجري ويصل إلى نهاية القرن السادس عشر. وهذا ما يقوله أهل المعاجم بأن اتساق القمر يعني استواءه من الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة. لو وُضعت هنا كلمة (البدر) لما اتسع الموضوع هكذا كما اتسع بقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، إذ تشير إلى زمن المسيح الموعود عليه السلام.. أي أنه سيولد في القرن الثالث عشر، ويظهر في القرن الرابع عشر، وسيظل تأثيره يزداد باطّراد حتى آخر القرن السادس عشر الهجري.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾

التفسير: أي سيقال لأهل ذلك الزمن: ما لكم لا تؤمنون؟ كان يجوز لهم أن يقولوا لا نعرف متى يتّسق القمر، وكان بوسعهم أن يقولوا: نحن لم نرَ ظهور البدر الكامل، ولكنهم ما داموا قد رأوا فترتَي الشفق والليل، فكان بوسعهم أن يدركوا بذلك أنه لا بد الآن أن يأتي زمنٌ تتحقق فيه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ

إِذَا اتَّسَقَ﴾. ولكن اليأس قد تمكن من قلوبهم نتيجة الليل، فيظنون أن الإسلام لن يزدهر الآن أبدا. فما بالهم قد رأوا الشفق ثم الليل أيضا، ومع ذلك لم يفهموا أن طلوع البدر الكامل أيضا مقدَّر. فقوله تعالى ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنهم لا يؤمنون أن البدر الكامل سوف يغطّي على هذه الليلة الليلاء ويبدد ظلماتها.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

لا يسجُدون: سجَد يسجُد: خضَع وانْحنى. وسجَدت السفينةُ للرياح: أطاعتْها ومالتْ بميلها. (الأقرب)

التفسير: لقوله تعالى ﴿لا يَسْجُدُونَ﴾ مفهومان: أولهما أنهم لا يطيعون، وثانيهما أنهم لا يسجدون سجدة الشكر على نزول القرآن في زمنهم مرة أخرى. الحقيقة أن هذه الآية تتضمن نبوءة أنه سيأتي على الناس زمان لن يبقى فيه القرآن في الأرض، بل يرتفع إلى الثريا، فيعود به إلى الدنيا شخص يكون بمنــزلة البدر، فيُقرأ القرآن على الأرض ثانية، ويُعمَل به مرة أخرى وتُجدَّد أحكامه من جديد. وهذه نعمة عظيمة وفضل كبير من الله تعالى، وكان المفروض أن يخرّوا له ساجدين شكرًا على أنه قد رجع إليهم كتابهم وأنّ كنــزهم الروحاني الذي كان قد ضاع منذ مدة طويلة قد أعاده إلى بيوتهم ثانية، ولكنهم أصبحوا ناكرين للجميل باتهامهم هذا الإنسان بأنه يحرّف القرآن.

أو المعنى أن هذا الإنسان الذي يكون كالبدر سيعرض عليهم القرآن الكريم، ولكنهم سيعرضون أمامه الحديث وأقوال الأسلاف بدلاً من أن يطيعوا القرآن الكريم، ولن يقبلوا ما فيه.

هناك قصة شهيرة لأحد الإخوة من جماعتنا وهو "ميان نظام الدين"، وقد حكيتُها مرارا. فقَبْلَ بيعته جاء إلى المسيح الموعود عليه السلام وقال: لو جئتُك بمئة آية قرآنية على حياة المسيح عليه السلام، فهل تؤمن بحياته؟ فقال له المسيح الموعود عليه السلام:

دعك من مئة آية! ائتني بآية واحدة، ولسوف أؤمن بحياة المسيح. قال: سآتيك بعشر آيات على الأقل. ثم خرج من عنده عليه السلام فرِحًا مسرورا، وذهب رأسًا إلى المولوي محمد حسين البطالوي لكي يُخرج له من القرآن هذه الآيات. وكان المولوي البطالوي عندها في مدينة لاهور، وكان حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام أيضًا قد حضر هنالك من ولاية "جامون" لقضاء إجازة، وكان الاثنان يضعان شروطًا للمناظرة بينهما بشأن وفاة المسيح عليه السلام أو حياته. وكان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول للبطالوي: يجب فصل هذه القضية على ضوء القرآن الكريم، بينما كان البطالوي مصرًّا على أن يتمّ الفصل فيها على ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف معًا. وبعد نقاش طويل رَضِيَ الخليفة الأول رضي الله عنه بضمّ صحيح البخاري إلى القرآن لمناقشة الأمر. وكان من عادة البطالوي الفخرُ والمباهاة، فلما رَضِيَ الخليفة الأول بهذا الشرط لم يتمالك البطالوي نفسه من شدة الفرح، فجلس في مسجد وأخذ يتباهى بأنه قد حاصر المولوي نور الدين بدليل كذا، وصرعه بقول كذا. وفيما هو في ذلك حتى وصل إليه "ميان نظام الدين" وقال: أيها الشيخ، دَعْ هذه المناظرات؛ لقد جئتُ من عند حضرة الميرزا، وقد أقنعتُه أني لو جئته بعشر آيات من القرآن الكريم على حياة المسيح عليه السلام فسوف يتوب عن عقيدته؛ فأرجوك أن تكتب لي بسرعةٍ عشرَ آيات قرآنية فقط لكي أعرضها عليه. فسُقِطَ في أيدي البطالوي الذي كان يتباهى بإلحاق الهزيمة بالمولوي نور الدين، فقال في انفعال شديد: أي جاهل مجنون قال لك أن تتدخل في الأمر؟ فبعد محاولة شهرين متتاليين تمكنتُ من إقناع المولوي نور الدين بمناقشة الموضوع على ضوء الحديث، وأنت حوّلتَ القضية إلى القرآن مرة أخرى؟ وكان قوله هذا سيئًا بحيث لم يتحمل سماعَه "ميان نظام الدين" الذي كان يحبّ الإسلام جدًّا، فظلّ ينظر إلى وجه البطالوي في دهشة بعض الوقت، ثم قال له: إذا كان الأمر هكذا، فأنا مع القرآن الكريم. ثم خرج من عنده وجاء إلى المسيح الموعود عليه السلام وبايع على يده. (حيات أحمد (أردو) للعرفاني المجلد الثالث ص ١٤٣-١٤٥)

إذن، فمن معاني هذه الآية أن ذلك الإنسان الذي يكون كالبدر الكامل

سيعرض على الناس القرآنَ الكريم، ولكنهم سيحاولون أن يأخذوه إلى الأحاديث الضعيفة وأقوال الناس.

ومن معاني هذه الآية -كما قلت- أن القرآن سيصعد إلى السماء في ذلك العصر، فيعود به إنسان بدريٌّ إلى الأرض ثانية. ولكن القوم لن يشكروا الله على أنه قد ردّ لهم هذه النعمة العظيمة، وأنعمَ عليهم هذا الإنعام الكبير، ورحِمهم هذه الرحمة الواسعة، إذ حمى دينهم من الهلاك، وأنقذ أُمّتَهم من الدمار وهم على شفا حفرة منه.

إذا لم نأخذ بهذا المعنى فلا يبقى أيُّ رابط بين قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾. غير أننا نستطيع أن نثبت الصلة بين الآيتين على ضوء حديث صحيح أخبر فيه النبي ﷺ أن تعليم الإسلام سيندثر في الزمن الأخير، وأن الإيمان سيصعد إلى الثريا، إذ قال ﷺ: "يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه". (المشكاة: كتاب العلم، وكنـــز العمال: الحديث رقم 31136).. أي سترتفع معارف القرآن وحقائقه وعلومه إلى السماء، وعندها سيُبعث مِن عند الله تعالى رجل فارسي الأصل، فيعود بالإيمان من الثريا، ويحيي علوم القرآن ومعارفه.

فثبت أن المعنى الذي نبيّنه ينطبق هنا كل الانطباق، ولكن المعنى الذي يذكره الآخرون لا يبيّن أي صلة بين القرآن الكريم وبين الشفق والليل والقمر.

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير: حرف (بل) يأتي لبيان أمرٍ إضافي، فالمراد أنهم لن يخرّوا أمام الله ساجدين شكرًا على نـــزول القرآن ثانية، ولن يطيعوه، وليس ذلك فحسب، بل سيكذبون هذا الموعود بدلاً من طاعته. سيعرض عليهم آيات القرآن، ولكنهم يقولون نحن لن نقبلها.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

يوعون: أوعَى الشيءَ والكلامَ: حفِظه وجمَعه. وأوعَى الزادَ والمتاعَ: جعَله في الوِعاءِ وجمَعه فيه. (الأقرب)

التفسير: مِن معاني قوله تعالى ﴿يُوعُونَ﴾: يحفظون ويجمعون، فالمراد أن الله تعالى أعلمُ بما يجمعونه في قلوبهم، والمعنى الثاني أن الله تعالى أعلم بما تنطوي عليه قلوبهم.. أي أن القرآن سيخرج من قلوبهم ولن يبقى فيها إلا أقوال الناس التي حفظوها.

فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي أننا أردنا أن ننفعهم بهذا التدبير. لقد أردنا أن نمنحهم نصيبًا من هذا النور، لنسهّل عليهم السير في سبل التقرب إلى الله تعالى، ولكنهم ظلوا قابعين في الزوايا المظلمة، معرضين عن نور الله، ورافضين بركاته، وبدلاً من أن يخرّوا له ساجدين شكرًا على منّته، كذّبوا بآياته، فلا بد أن يقاسوا آلامًا شديدة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

ممنون: الممنون: المقطوع. (الأقرب)

التفسير: إن مفهوم هذه الآية هو ما أشار إليه المسيح الموعود عليه السلام في كُتبه أنّ من المستحيل بعد بعثته أن ينال أحد قرب الله ويحظى بمقام ولايته إلا الذي يكون من جماعته ويتبعه ويقتدي به. ولو بُعثَ في المستقبل نبي من الله تعالى فلا بد له أيضًا أن يمرّ بباب المسيح الموعود عليه السلام. لا شك أنه يحصل عند بعثة نبي جديد بعض التغير والتبدل في ظاهر الأمور، ولكن لن تنقطع علاقته عن المسيح الموعود

الله. فكما أن من المحال أن ينقطع نور محمد ﷺ إلى يوم القيامة، كذلك لن ينقطع نور جماعة المسيح الموعود عليه السلام إلى يوم القيامة. لا شك أن هذه الآيات تتحدث عن جماعة المؤمنين، ولكن الجماعة تكون تابعة للنبي، وحيث إن المسيح الموعود عليه السلام هو مسيح موعود ورسول بعثه الله إلى جميع الناس إلى يوم القيامة، فستعني هذه الآية أن كل مَن أراد أن يكون مقرَّبًا عند الله وعند رسوله ﷺ فلا بد أن يصل إليهما بواسطة المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون ذلك فلا يمكن لإنسان الآن نيل بركات الله.

سورة البروج

مكية، وهي ثلاث وعشرون آية مع البسملة

هذه السورة أيضا متسلسلة الموضوع مع السور السابقة. إنها مكية حيث قال المفسرون: لا خلافَ في مكّيّتها. ولكن المستشرقين حاولوا التشكيك في ذلك؛ حيث يعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" مما نــزل في الفترة الأولى من البعثة النبوية.. أي في السنتين والنصف الأولى، ولكنه مع ذلك يظن أن قوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ قد أُضيف إليها فيما بعد. وليس المراد من قوله هذا أن هذه الآيات قد أضيفت إلى القرآن من قبل شخص آخر، بل يعني أن محمدا (ﷺ) نفسه قد أضافها إلى هذه السورة في الفترة المدَنية. وحجّته أن هذه الآيات تختلف أسلوبًا مع الآيات المكية، فهي أطول من الآيات الأخرى، وأشبه بالسور المدَنيّة.

أما القسيس "ويري" فيضيف أمرًا آخر قائلا: لقد ورد في هذه السورة لفظ (المؤمنات) في قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وهذا اللفظ لم يكن شائعًا في السور المكيّة، بل تكرر في السور المدنية فقط. وهكذا فإن "ويري" أيضًا يؤيد المستشرقَ "نولدكه" الذي زعم أن آيات هذه السورة بدءا من الآية ٨ حتى الآية ١١ مَدَنيّة.

وفيما يتعلق بقضية كون السورة مكية أو مدنية، فليست بذات بال بالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا نؤمن أن آيات القرآن كلها قد نــزلتْ من عند الله تعالى، وهي صالحة للعمل، سواء في مكة نزلت أو في المدينة؛ فكونها مكية أو مدَنية لا يغيّر من الأمر كثيرا بالنسبة لنا. أما منكرو الإسلام فهم يروْن أن آيات القرآن كلها من اختلاق محمد (ﷺ)، فلا ينفعهم أيضًا البحثُ فيما إذا كانت آيةٌ ما مكيةً

أو مدَنيةً. ومع ذلك سأناقش هذا الاعتراض، لأبيّن كيف يتكلم هؤلاء المستشرقون أحيانًا عن الإسلام بأمور سخيفة لا أساس لها.

إن زعم "نولدكه" هذا خلاف العقل في رأيي، لأن طول بعض الآيات قليلاً ليس في حد ذاته دليلاً على نـــزولها في المدينة. نحن المسلمين نؤمن أن القرآن كله تنـــزيل من رب العالمين، بينما يرى "نولدكه" وأصحابه أن القرآن كله من تأليف محمد، وليس مصدره أي جهة أخرى. فلو قلنا إن القرآن كله نـــزل من عند الله، فالقول إنه تعالى كان قادرا على إنـــزال آيات طويلة في المدينة دون مكة حمقٌ وغباء. أما إذا قلنا إن كل القرآن هو من تأليف محمد، فزعم نولدكه وغيرِه أن محمدا لم يكن قادرا على تأليف آيات طويلة في مكة وقادرا عليها في المدينة سخفٌ. إذا كانت الآيات المكية قصيرة -عادةً- لحكمة ما، فلا يعني ذلك أن مؤلِّفها لم يكن قادرًا على إطالتها عند الحاجة. فثبت أن دعواهم هذه باطلة عقلاً كل البطلان.

ثم إن دعواهم باطلة على صعيد الواقع أيضًا، لأن لفظ ﴿المؤمنات﴾ الذي بنى عليه "ويري" اعتراضه زاعمًا أنه لم يرِدْ إلا في السور المدَنية لموجودٌ في السور المكية أيضًا، حيث قال الله على لسان نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا﴾(نوح:٢٩). فقد ورد في هذه الآية لفظ ﴿المؤمنات﴾، كما أنها طويلة أيضا، ثم ليس هناك من خلاف في كون سورة نوح مكيةً. فيقول صاحب "فتح البيان": إنها مكية. وقال الزبير: نـــزلت بمكة. وقال صاحب "روح المعاني": مكية بالاتفاق. حتى إن "نولدكه" - الذي اعتبر بعض آيات سورة البروج مكية بسبب طولها - فهو نفسه يقول عن سورة نوح: إنها مما نـــزل في السنوات الخمس الأولى من البعثة. وأما "ويري" - الذي يعتبر بعض آيات سورة البروج مدَنية لورود لفظ المؤمنات فيها - فهو الآخر يعترف أن سورة نوح قد نـــزلت في السنة السابعة للبعثة النبوية. فثبت بشهادة نولدكه وويري نفسيهما أن لفظ المؤمنات قد ورد في السور المكية أيضا، وأن بعض آيات السور المكية طويلة أيضا. فثبت أن استدلالهم عن كون سورة البروج

مَدَنّية إنما كان مجرد تخمين مفترًى، وحيث إن المرء ينسى ما قاله على سبيل التخريص والتخمين، فنجد هؤلاء المستشرقين يأتون باستنتاجات متناقضة.

الواقع أن ما يقدّمه المستشرقون الأوروبيون كدليل على طعنهم في القرآن الكريم إنما هو مجرد ظنّ وتخمين، ولكن المثقفين الهنود عندما يسمعون شيئا من أفواه المستشرقين يظنون أنه أكثر قداسة من الوحي الرباني، مع أن التدبر في أقوالهم يكشف أنها ليست أكثر من تخريص وافتراء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿٢﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

البروج: جمعُ بُرْج، وهو الرُّكْن والحِصْن والقَصْر، وواحدُ بروجِ السماء. ويقال برِجتْ عينُه بَرَجًا: كان بياضُها محدقًا بالسواد كله لا يغيب من سوادها شيء، فهي بَرْجاء، وجمعُها بُرْجٌ، ومنه: رأيتُ بُرْجًا في بُرْج، الأول جمعُ برجاءَ والثاني بمعنى القصر (الأقرب).. أي رأيتُ في قصرٍ نسوةً بياضُ عيونهن محدق بالسواد. وهذا يعني أن البرج يُستعمل مفردًا أيضا، ومعناه الركن والحصن والقصر، ويُستخدم جمعًا مفرده برجاءُ بمعنى النسوة التي عيونها كما وُصف أعلاه.

التفسير: يقول الله تعالى: نقدّم كشهادةٍ السماءَ التي فيها بروج.

ما هي هذه البروج؟ قال المفسرون: هي البروج المعروفة في علم الفَلك والهيئة. يقولون: هناك اثنا عشر برجًا للنجوم، وأسماؤها الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وقال بعضهم إن أجرام النظام الشمسي السبعة تدور في هذه البروج الاثني عشر الخاصة بها، فالحمل والعقرب للمريخ، والثور والميزان للزهرة، والجوزاء والعذراء لعطارد، والسرطان للقمر، والأسد للشمس، والقوس والحوت للمشتري، والجدي والدلو لزُحل.

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل ما هي البروج؟ فقال ﷺ الكواكب. (روح المعاني)

باختصار، يُطلق البُرج لغةً على ما يقيم فيه الملوك والأمراء من قصر وحصن وغيرهما، ويُطلق في اصطلاح علماء الفَلك على النجوم، أو على مدارات الكواكب. فعلماء الفلك القدماء متفقون على أن عدد البروج اثنا عشر، وعليه فقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني: أننا نقدم كشهادةٍ السماءَ ذاتَ البروج الاثني عشر التي هي مدار الكواكب.

ثم قال الله تعالى: إننا نقدّم كشهادةٍ اليومَ الموعود. فلو فسّرنا البروج بمعنى اثني عشر مقامًا، فيصبح اليوم الموعود المقام الثالث عشر. وكأن الله تعالى يستشهد بهذه المقامات واليوم الموعود، التي عددها ثلاثة عشر. وعندما نربط هاتين الآيتين بقوله تعالى الوارد في السورة الماضية: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، تنسجم السورتان في موضوعهما كل الانسجام؛ حيث قال الله في السورة السابقة: نقدّم كشهادةٍ القمرَ حين يدخل في ليلته الثالثة عشرة، بينما قال تعالى هنا: نقدّم كشهادةٍ الاثني عشر برجًا واليومَ الموعود، أي ثلاثة عشر قرنًا، وهكذا ثبتتْ علاقة وطيدة بين هذه السورة مع التي قبلها. فالحق أن الله تعالى قد أعاد هنا نفس الموضوع المذكور في السورة السابقة ولكن بشكل آخر، وجعله دليلا على صدق ما قال هنالك. لقد قال تعالى في السورة السابقة ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، والظاهر أن من الصعب جدًّا أن يؤمن الناس بالشيء وهو في بداياته، ولذلك قد قال الله تعالى في بداية هذه السورة إننا نقدم كشهادةٍ تلك المقاماتِ الاثني عشر التي هي مقامات النجوم.. أي نقدم كشهادةٍ المجددين الذين ظهروا بعد النبي ﷺ في الاثني عشر قرنا، لتجديد الدين بحسب مشيئته تعالى. فكأنه تعالى يقول: ما دمنا سنبعث المجددين لإزالة ما سيقع بالمسلمين من اختلافات بسيطة وما سيحلّ بالإسلام من مصاعب عابرة، فكيف يمكن أن تحلّ بالإسلام مصيبة كبيرة ولا نعمل شيئًا لإزالتها؟

إذًا فقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ قد جاء ردًا على المعارضين الذين قيل فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، حيث قدّم الله تعالى لهم شهادةَ السماء وبروجها

الاثني عشر التي هي مدارات النجوم.. كأنه تعالى يقول: ما دمنا نبعث المجددين مجددًا تلو مجدد لاثني عشر قرنًا لهداية الناس.. فلماذا يئستم في المرة الثالثة عشرة، فظننتم أن الله لن يبعث الآن أحدًا لهداية الناس؟ عندكم شهادة بأن الله تعالى قد أقام عند القرن الأول أناسًا لتجديد دينه، ثم لم يزَلْ يقيمهم قرنًا بعد قرن لمدة اثني عشر قرنًا، وهكذا أثبتَ ١٢ مرة أنه سيظل يقيم لنصرة دينه وتأييده عبادًا له مؤيَّدين ومنصورين من عنده، لينشروا تعاليم المصطفى ﷺ في الدنيا. فالعجيب أنكم قد صدّقتم هؤلاء المجددين الذين لم يكونوا موعودين من عند الله تعالى، ولكنّ الثالث عشر الذي كان موعودًا من الله تعالى قد أنكرتم بعثته! ذلك أن الله قد أخبر عن بعثة هؤلاء الأولين بكلماتٍ غير محددة، حيث قال النبي ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها." (أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة)، ومع ذلك صدّقتموهم، بينما أنكرتم هذا الثالث عشر الذي قد أعطاه الرسول ﷺ في نبوءاته اسمًا محدّدًا وذكر أعماله وعلاماته وآيات صدقه وموعده وعصره بكلمات صريحة! وليس هذا فحسب، بل لقد ساءت حالة المسلمين أنهم أخذوا يقولون بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام: لا حاجة لنا لأي مصلح لرقي الإسلام والمسلمين. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: لماذا خطرت هذه الفكرة ببالكم بعد مرور اثني عشر قرنا؟ لقد كنتم تؤمنون لاثني عشر قرنًا أن إحياء الإسلام بحاجة إلى المجددين، وأن ازدهار الإسلام وغلبته بحاجة إلى مبعوث رباني، وعندما جاء القرن الثالث عشر وأرسلنا هذا الموعود أنكرتموه، بل قلتم لا حاجة لنا لأي مصلح! ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي ماذا حصل لهم؟ فرفضتم الإيمان بموعودنا الذي سبق أن أنبأنا عن أخباره مفصلاً، والذي أوصاكم نبينا بالإيمان به خاصة، وتحدث كثيرًا عن سموّ شأنه وعلوّ درجته، بل قلتم إن من الخطأ الزعم أن رقي الإسلام بحاجة إلى بعثة رجال من عند الله! إننا نلفت أنظاركم إلى اثني عشر برجا لرقي الإسلام، لتفكروا وتروا كيف نصر اللهُ الإسلام في كل موطن وأفشل هجمات الكفر بإقامة عباد ربانيين. ثم لما جاء القرن الثالث عشر أرسلنا عبدنا الموعود الذي ما زلنا نخبر عنه.

مِن قدرة الله تعالى أن مفاهيم هذه الآيات القرآنية قد انكشفت علينا بعد بعثة المسيح الموعود ؑ، إلا أن الغريب أنه ؑ قد اشتهر في جماعتنا باسم المسيح الموعود.. أي المسيح الذي ظهر في اليوم الموعود. فلو تحدثتَ مع أي أحمدي، عالمًا كان أو جاهلاً مثقفًا كان أو أميًّا تجده يقول: لقد قال المسيح الموعود ؑ كذا وكذا، وإن دليل صدق المسيح الموعود ؑ كذا وكذا.. والله تعالى سماه مسيحا موعودا. لقد كثرت هذه التسمية بين الأحمديين بحيث غاب اسم المهدي بينهم تقريبًا، مع أن اسم المهدي أيضا قد كثر في الحديث، بينما سماه القرآن الكريم موعودا، لذلك فقد روَّج الله تعالى بعجيب حكمته تسمية المسيح الموعود في الدنيا.

ورد في الحديث عن ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: اليومُ الموعود: يومُ القيامة. وشاهدٌ: يومُ الجمعة، ومشهودٌ: يومُ عرفة، وشاهدٌ: محمدٌ ﷺ، ومشهودٌ: يومُ القيامة. (فتح القدير، وابن كثير)

نحن لا ننكر صحة هذا الحديث، ولكن الحقيقة أن اليوم الموعود لم يكن يومًا بعينه، إذ كان يوم بدر يوما موعودا بحسب القرآن إذ قد تنبأ عن هذه المعركة سلفًا، وكانت غزوة الأحزاب يوما موعودا أيضا إذ كانت فيه نبوءة عنها، وكان يوم فتح مكة يوما موعودا إذ كانت في القرآن نبوءة من الله عن هذا الفتح (سورة القمر:٤٦، وسورة الأحزاب:١٢، وسورة الفتح:٢). فلا شك أن اليوم الموعود كان أيامًا كثيرة، ولكننا نقول إن اليوم الموعود الذي أُريدَ هنا هو ذلك اليوم الآتي بعد الحادث المذكور في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾؛ ولذلك فلا يعني اليوم الموعود يومَ القيامة أو غيره، وإنما يراد به يوم ظهور الشخص الموعود الذي سيظهر في القرن الثالث عشر بعد ظهور البروج الاثني عشر. ذلك أن اللفظ متعدد المعاني لا يراد به معنى واحد في كل موطن، بل إنه يفيد مفاهيم مختلفة بحسب المحل والسياق. فلا شك أن معركة بدر كانت يومًا موعودا، وكذلك يوم الأحزاب كان يوما موعودا، وفتح مكة كان يوما موعودا، نحن لا ننكر ذلك، ولكنا نقول إن اليوم الموعود المذكور بعد قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ لا يمكن أن يكون إلا يوم بعثة المسيح الموعود. وهو نفس الموعود الذي أُخبر عنه في قوله تعالى

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أيضا. أما إذا لم نفسر اليوم الموعود هنا بمعنى يوم بعثة المسيح الموعود، فمن ذا الذي جعل بين هذه الآيات والتي قبلها هذا الرابط القوي بحيث ينطبق على المسيح الموعود كل ما يتحقق منها؟ فقولُ القرآن ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، ثم استشهادُه بالبروج بقوله ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ثم قولُ علماء الفَلَك أن عدد البروج اثنا عشر.. كل ذلك يدل على أن كل ما حصل إنما حصل بتصرف رباني.

والآية التالية تقول ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.. والواقع أنه قد جاء في الدنيا آلاف وآلاف ممن كان كل واحد منهم شاهدًا.. بل كل نبي كان شاهدا، فهل ثمة نبي لم يشهد على وجود البارئ تعالى بالأدلة والمعجزات والبينات؟ لا جرم أن كل نبي قد شهد على ذلك. إذًا، فكل نبي شاهد من حيث إنه كان شاهدًا حيًّا على وجود الله تعالى وقدرته وجلاله. كما أن كل نبي كان مشهودا، لأن الله تعالى يشهد على صدقه عند بعثته إلى الناس بالآيات والمعجزات. إذًا فالنبي يكون شاهدًا على الله تعالى، كما يكون مشهودا مِن قبله تعالى حيث يظهر تعالى صدقهَ بالآيات والمعجزات. وكذلك يكون الله تعالى شاهدا في زمن كل نبي، إذ يشهد على صدق نبيه، كما أن الله تعالى يكون مشهودا أيضا، إذ يُعرَف في الدنيا من خلال نبيه. وإلى هذه الحقيقة نفسها قد أشير في الإلهام الآتي للمسيح الموعود عليه السلام: "يا قمرُ، يا شمسُ، أنت مني وأنا منك" (التذكرة ص ٥٠٠).. أي أنت قمرٌ مِن حيث اقتباسك النورَ مني، وأنت شمس من حيث إشراقُ وجودي في العالم بواسطتك، وكذلك أنا شمس إذ لولا نصرتي لك لما نجحتَ في مقصدك في الدنيا، وأنا قمرٌ أيضا لأنك أنت الذي عرّفتني في الدنيا.

فكما أن الله تعالى يكون شمسًا من جهة وقمرًا من أخرى، كذلك يكون النبي شمسًا من جهة وقمرًا من أخرى، والحال نفسه للشاهد والمشهود، فكل نبي شاهدٌ واللهُ مشهودٌ من جهة، ومن جهة أخرى يكون الله شاهدًا ويكون النبي مشهودا، ولكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نعتبر أيَّ شيء آخر شاهدًا أو مشهودًا، ففي الحديث المذكور آنفًا قد سمّى النبي ﷺ يوم الجمعة شاهدًا ويوم عرفة مشهودا من جهة، ومن ناحية أخرى اعتبر يوم القيامة أيضا مشهودا. فالحق أن كل هذه الأحاديث

صحيحة في مكانها، ونحن لا ننكر أن يوم القيامة أيضا يوم موعود، كما نقرّ بصحة كل ما ورد في الأحاديث عن شاهد ومشهود، ولكن السؤال هنا: ما هو المعنى المناسب الملائم هنا لليوم الموعود: أهو بمعنى زمن المسيح الموعود، أو يوم القيامة. لقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أنه سيجعل القمر يتسق بعد ليلة روحانية مظلمة تخيّم على العالم كله؛ وقد أثبتْنا أن اتساق القمر يعني لغةً دخولُه في الليلة الثالثة عشرة.. أي أن الله تعالى قد قدّم في السورة السابقة شهادة القمر وهو في الليلة الثالثة عشرة؛ ثم أعاد هنا الموضوع نفسه، ولكن بأسلوب آخر، حيث ذكر أولاً اثني عشر برجًا، ثم اليوم الموعود، مما يدل بوضوح أن المراد من اليوم الموعود هنا وقت بعثة المسيح الموعود المقدر ظهوره بعد الاثني عشر برجًا. واليومُ يعني الوقت، فالمراد من اليوم الموعود هو وقت ظهور هذا الشخص الموعود. كذلك اليوم يعني النهار المعروف أيضا، وعليه فالمعنى أننا وإن كنا سمينا ذلك الوقت ليلاً إلا أن ذلك الوقت يكون مضيئا مثل النهار، فلذلك نسمّيه اليوم الموعود، إذ يظهر فيه نور الله وجلاله.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٤﴾

التفسير: أرى أن المراد من "الشاهد" هنا ما قد سبق أن بيّنه الله تعالى في قوله في سورة هود: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الآية:١٨).. أي كيف يمكن أن يكون كذابًا مَن كان قائمًا على حجة بينة من ربه، وسيأتي من عند الله شاهدٌ يشهد على صدقه ويكون تابعًا له، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى الذي كان إِمَامًا وَرَحْمَةً للناس، ويؤمن به أتباعُ موسى الصادقون أيضا؟ فهنا أنبأ الله تعالى في قوله ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ عن بعثة المسيح الموعود، فالشاهد هو المسيح الموعود عليه السلام، والمشهود هو الرسول ﷺ. وهذا هو المراد من الآية قيد التفسير أيضًا، حيث قال الله تعالى إننا نقدِّم كشهادةٍ ذلك الشاهدَ المذكور في مكان آخر من القرآن،

كما نقدم كشهادةٍ المشهودَ أيضًا أي محمدًا رسول الله ﷺ... فالمراد من الشاهد هنا ذلك الشخص الموعود الذي يأتي في الزمن الأخير حين ينمحي صدق رسول الله ﷺ من القلوب، فيشهد أمام الناس على صدقه ﷺ، كما يكشف عليهم صدق القرآن الكريم.

قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٥ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٦ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٧ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٨

شرح الكلمات:

الأُخْدود: الحُفرةُ المستطيلةُ في الأرض، جمعُه أخاديدُ. (الأقرب)

التفسير: أي هلك أو سيهلك أصحاب الخنادق المليئة بالنار ذات الوقود.. وكأنه تعالى بين أن سبب هلاكهم ليس حفر الخنادق وإنما إشعال النار فيها لتعذيب الناس.

ثمة قولان للمفسرين في تفسير هذه الآيات، أولهما: أنها تتحدث عن مَلِكٍ في الحبشة كان يعذّب بعض الموحّدين. والقول الآخر أنها تتحدث عن دانيال وصاحبَيه الذين عذّبهم نبوخذنصّر. (روح المعاني، والطبري، وفتح البيان)

أستغرب كيف كتب المفسرون هذه الأقوال، مع أن هذه الآية تتحدث عن واقعة حقيقية وردت في التوراة في كتاب دانيال كالآتي:

"نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ صَنَعَ تِمْثَالاً مِنْ ذَهَبٍ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ سِتُّ أَذْرُعٍ، وَنَصَبَهُ فِي بُقْعَةِ دُورَا فِي وِلاَيَةِ بَابِلَ. ثُمَّ أَرْسَلَ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ لِيَجْمَعَ الْمَرَازِبَةَ وَالشِّحَنَ وَالْوُلاَةَ وَالْقُضَاةَ وَالْخَزَنَةَ وَالْفُقَهَاءَ وَالْمُفْتِينَ وَكُلَّ حُكَّامِ الْوِلاَيَاتِ، لِيَأْتُوا لِتَدْشِينِ التِّمْثَالِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ. حِينَئِذٍ اجْتَمَعَ الْمَرَازِبَةُ وَالشِّحَنُ وَالْوُلاَةُ وَالْقُضَاةُ وَالْخَزَنَةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُفْتُونَ وَكُلُّ حُكَّامِ الْوِلاَيَاتِ لِتَدْشِينِ التِّمْثَالِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ، وَوَقَفُوا أَمَامَ التِّمْثَالِ الَّذِي

نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ. وَنَادَى مُنَاد بشدَّة: «قَدْ أُمِرْتُمْ أَيُّهَا الشُّعُوبُ وَالأُمَمُ وَالأَلْسنَةُ، عنْدَمَا تَسْمَعُونَ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّاي وَالْعُود وَالرَّبَاب وَالسِّنْطِير وَالْمزْمَار وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْف، أَنْ تَخرُّوا وَتَسْجُدُوا لتمْثَال الذَّهَب الَّذي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلكُ. وَمَنْ لاَ يَخرُّ وَيَسْجُدُ، فَفي تلْكَ السَّاعَة يُلْقَى في وَسَط أَتُّون نَار مُتَّقدَة». لأَجْلِ ذلكَ وَقْتَمَا سَمعَ كُلُّ الشُّعُوب صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّاي وَالْعُود وَالرَّبَاب وَالسِّنْطِير وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْف، خَرَّ كُلُّ الشُّعُوب وَالأُمَمِ وَالأَلْسنَة وَسَجَدُوا لتمْثَال الذَّهَب الَّذي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلكُ. لأَجْلِ ذلكَ تَقدَّمَ حينَئذ رجَالٌ كَلْدَانيُّونَ وَاشْتَكَوْا عَلَى الْيَهُود، أَجَابُوا وَقَالُوا للْمَلك نَبُوخَذْنَصَّرَ: «أَيُّهَا الْمَلكُ، عشْ إِلَى الأَبَد! أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلكُ قَدْ أَصْدَرْتَ أَمْرًا بِأَنَّ كُلَّ إِنْسَان يَسْمَعُ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّاي وَالْعُود وَالرَّبَاب وَالسِّنْطِيرِ وَالْمزْمَار وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْف، يَخرُّ وَيَسْجُدُ لتمْثَال الذَّهَب. وَمَنْ لاَ يَخرُّ وَيَسْجُدُ فَإِنَّهُ يُلْقَى في وَسَط أَتُّون نَار مُتَّقدَة. يُوجَدُ رجَالٌ يَهُودٌ، الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ عَلَى أَعْمَال ولاَيَة بَابلَ: شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُوَ. هؤُلاَءِ الرِّجَالُ لَمْ يَجْعَلُوا لَكَ أَيُّهَا الْمَلكُ اعْتبَارًا. آلهَتُكَ لاَ يَعْبُدُونَ، ولتمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذي نَصَبْتَ لاَ يَسْجُدُونَ».

حينَئذ أَمَرَ نَبُوخَذْنَصَّرُ بغَضَب وَغَيْظ بإحْضَار شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ. فَأَتَوْا بهؤُلاَءِ الرِّجَال قُدَّامَ الْمَلك. فَأَجَابَ نَبُوخَذْنَصَّرُ وَقَالَ لَهُمْ: «تَعَمُّدًا يَا شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُوَ لا تَعْبُدُونَ آلهَتي وَلا تَسْجُدُونَ لتمْثَال الذَّهَب الَّذي نَصَبْتُ! فَإِنْ كُنْتُمُ الآنَ مُسْتَعدِّينَ عنْدَمَا تَسْمَعُونَ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّاي وَالْعُود وَالرَّبَاب وَالسِّنْطِير وَالْمزْمَار وَكُلَّ أَنْوَاعِ الْعَزْف إِلَى أَنْ تَخرُّوا وَتَسْجُدُوا للتِّمْثَال الَّذي عَملْتُهُ. وَإِنْ لَمْ تَسْجُدُوا فَفي تلْكَ السَّاعَة تُلْقَوْنَ في وَسَط أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة. وَمَنْ هُوَ الإِلهُ الَّذي يُنْقذُكُمْ منْ يَدَيَّ؟». فَأَجَابَ شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُوَ وَقَالُوا للمَلك: «يَا نَبُوخَذْنَصَّرُ، لاَ يَلْزَمُنَا أَنْ نُجيبَكَ عَنْ هذَا الأَمْر. هُوَذَا يُوجَدُ إِلهُنَا الَّذي نَعْبُدُهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا منْ أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة، وَأَنْ يُنْقذَنَا منْ يَدكَ أَيُّهَا الْمَلكُ. وَإِلاَّ فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلكُ، أَنَّنَا لاَ نَعْبُدُ آلهَتَكَ وَلاَ نَسْجُدُ لتمْثَال الذَّهَب الَّذي نَصَبْتَهُ».

حينَئذ امْتَلأَ نَبُوخَذْنَصَّرُ غَيْظًا وَتَغَيَّرَ مَنْظَرُ وَجْهه عَلَى شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، فَأَجَابَ وَأَمَرَ بِأَنْ يَحْمُوا الأَتُونَ سَبْعَةَ أَضْعَاف أَكْثَرَ ممَّا كَانَ مُعْتَادًا أَنْ يُحْمَى. وَأَمَرَ جَبَابرَةَ الْقُوَّة في جَيْشه بِأَنْ يُوثقُوا شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُو وَيُلْقُوهُمْ في أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة. ثُمَّ أُوثقَ هؤُلاَء الرِّجَالُ في سَرَاويلهمْ وَأَقْمصَتهمْ وَأَرْديَتهمْ وَلبَاسهمْ وَأُلْقُوا في وَسَط أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة. وَمنْ حَيْثُ إِنَّ كَلمَةَ الْمَلك شَديدَةٌ وَالأَتُونَ قَدْ حَمِيَ جدًّا، قَتَلَ لَهيبُ النَّار الرِّجَالَ الَّذينَ رَفَعُوا شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ. وَهؤُلاَء الثَّلاَثَةُ الرِّجَال، شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُوَ، سَقَطُوا مُوثَقينَ في وَسَط أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة.

حينَئذ تَحَيَّرَ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلكُ وَقَامَ مُسْرعًا فَأَجَابَ وَقَالَ لمُشيريه: «أَلَمْ نُلْق ثَلاَثَةَ رجَال مُوثَقينَ في وَسَط النَّار؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا للْمَلك: «صَحيحٌ أَيُّهَا الْمَلكُ». أَجَابَ وَقَالَ: «هَا أَنَا نَاظرٌ أَرْبَعَةَ رجَال مَحْلُولينَ يَتَمَشَّوْنَ في وَسَط النَّار وَمَا بِهِمْ ضَرَرٌ، وَمَنْظَرُ الرَّابع شَبِيهٌ بِابْنِ الآلهَة». ثُمَّ اقْتَرَبَ نَبُوخَذْنَصَّرُ إِلَى بَاب أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة وَأَجَابَ، فَقَالَ: «يَا شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُو، يَا عَبيدَ الله الْعَليِّ، اخْرُجُوا وَتَعَالَوْا». فَخَرَجَ شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُو منْ وَسَط النَّار. فَاجْتَمَعَت الْمَرَازبَةُ وَالشِّحَنُ وَالْوُلاَةُ وَمُشيرُو الْمَلك وَرَأَوْا هؤُلاَء الرِّجَالَ الَّذينَ لَمْ تَكُنْ للنَّار قُوَّةٌ عَلَى أَجْسَامهمْ، وَشَعْرَةٌ منْ رُؤُوسهمْ لَمْ تَحْتَرقْ، وَسَرَاويلُهُمْ لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَرَائحَةُ النَّار لَمْ تَأْت عَلَيْهمْ. فَأَجَابَ نَبُوخَذْنَصَّرُ وَقَالَ: «تَبَارَكَ إِلهُ شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، الَّذي أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَأَنْقَذَ عَبيدَهُ الَّذينَ اتَّكَلُوا عَلَيْه وَغَيَّرُوا كَلمَةَ الْمَلك وَأَسْلَمُوا أَجْسَادَهُمْ لكَيْلاَ يَعْبُدُوا أَوْ يَسْجُدُوا لإِله غَيْر إِلههمْ. فَمنِّي قَدْ صَدَرَ أَمْرٌ بِأَنَّ كُلَّ شَعْب وَأُمَّة وَلسَان يَتَكَلَّمُونَ بِالسُّوء عَلَى إِله شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، فَإِنَّهُمْ يُصَيَّرُونَ إِرْبًا إِرْبًا، وَتُجْعَلُ بُيُوتُهُمْ مَزْبَلَةً، إِذْ لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُنَجِّيَ هكَذَا». حينَئذ قَدَّمَ الْمَلكُ شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ في ولاَيَة بَابلَ." (دانيال ٣: ١-٣٠).

لقد أخطأ المفسرون إذ قالوا إن دانيال كان من بين هؤلاء المعذَّبين، وقد وقعوا في هذا الخطأ لعدم توافُر نسخ التوراة في وقتهم بكثرة، فظنوا أن دانيال كان من بين هؤلاء المعذَّبين. على أية حال، هذه واقعة من الماضي وقد ذُكر فيها الأتون

وإشعال النار وإلقاء ثلاثة أشخاص فيها، وأن الملك وأصحابه كانوا يروْن هذا المشهد. ولا بأس بهذه الواقعة إلى هذا الحدّ، ولكن تفاصيلها لا تنطبق على ما ذكره القرآن الكريم هنا، لأنه لم يقلْ أنهم خرجوا من النار أحياءً. قد تكون هذه الجزئية قد أُضيفتْ إلى هذه الواقعة إذ توجد في التوراة مبالغات كثيرة. صحيح أن هؤلاء قد أُحرقوا في الأتون لإيمانهم بالله الأحد، وهذا يحدث في كل عصر، ففي زمن كل نبي يقوم أعداءُ الدين بتعذيب المؤمنين بالله بطرق شتى، ولكني على يقين أن هذا الحادث لا علاقة له بهذه الآيات؛ لأنها بدأت بقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فلزم أن تكون هذه الشهادة متعلقة بحادث يقع في المستقبل، لأن المعروف في القرآن الكريم أنه يقدّم الشهادة على أمر يقع في المستقبل، فإنك لن تجد الله تعالى يقول في القرآن مثلاً إني أستشهد بالشمس والقمر على أني بَعثتُ في الماضي آدم أو نوحًا وإبراهيم وموسى. إنما تكون شهادته على أمور غيبية ستقع في المستقبل. وحيث إننا لا نجد في القرآن أي قَسَمٍ قُدِّم كشهادة على أحداث الماضي، فإن تطبيق حادث التوراة على قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ خلاف لأسلوب القرآن ومناف للعقل؛ إذ لا داعي أن يحلف الله من أجل حادث تاريخي وقع في الماضي. إني لا أنكر أن واقعة كهذه قد تكون قد وقعت في الماضي، وإنما أقول لقد أنبأ الله تعالى هنا أن حادثا مماثلا سيقع في المستقبل، وهكذا يتضمن قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ نبوءة أخرى عن الزمن الأخير، حيث أنبأ الله تعالى من قبل عن ظهور المسيح الموعود الذي سيجعل الإسلام غالبا ثانية، وقد دلّل ﷻ على ذلك بأنه لم يزل في الماضي يبعث المجددين لإحياء الإسلام دائما، فلا بد أن يفعل ذلك في المستقبل، خصوصًا أنه قد أنبأ عن بعثة موعود في الزمن الأخير، أما الآن فقد بيّن تعالى هنا أن اليوم الموعود لغلبة الإسلام لن يأتي بسهولة، بل لا بد أن يقدِّم المؤمنون من أجله تضحيات كبرى. كان الله تعالى قد ركّز كثيرا على اليوم الموعود، وكان من الممكن أن تظن جماعة ذلك المأمور المبعوث في الزمن الأخير أن هذا اليوم الموعود سيأتي تلقائيا

بدون تضحيات وجهود، فصحّح الله أفكارهم بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾، وبيّن لهم أن هذا اليوم الموعود سيأتي يوما، ولكن لا بد لكم من أن تضحّوا بأنفسكم في سبيله، وتتعرضوا لفظائع مروعة على يد المعارضين فترة من الزمن.

لقد نبّه المسيح الموعود عليه السلام جماعته مرارًا إلى أن رقي الإسلام والأحمدية يتطلب منّا موتًا، فإذا كنّا نظنّ أننا سنحقق أهدافنا دون تقديم تضحيات كالتي قدمها الصحابة أو التي قدّمها أتباع الأنبياء السابقين، فليس هناك مَن هو أشدّ منّا حمقًا وسذاجة. إن ازدهار الإسلام والأحمدية منوط بتضحياتنا، وهذا هو الموت الذي فيه الحياة الحقيقية. يقول عليه السلام وهو ينبئ عن غلبة الإسلام والأحمدية:

"سوف ينتصر الحقّ وسوف يرى الإسلام أيام النضارة والنور ثانية كما كان في الماضي، وسوف تطلع هذه الشمس على ذروتها ثانية كما طلعت من قبل؛ ولكنها لن تطلع الآن، بل لا بد أن تمنعها السماء من الطلوع ما لم تَدْمَ قلوبنا من شدة الجهد والتعب وما لم نتخلَّ عن كل أنواع الراحة من أجل طلوعها، وما لم نقبل كل أنواع الذلة لإعزاز الإسلام. إن إحياء الإسلام يتطلب منّا فدية! فما هي تلك الفدية؟ إنها موتنا في هذا السبيل. وبهذا الموت قد أُنيطتْ حياة الإسلام وحياة المسلمين، وعليه يتوقف تجلِّي الإله الحيّ وظهورُه". (فتح الإسلام، الخزائن الروحانية، المجلد ٣ ص ١٠-١١)

وكذلك يقول عليه السلام:

لا تَفْتتنوا بملذّات الدنيا، فإنها تُبعدكم عن الله تعالى، بل اختاروا حياةَ المرارة لوجه الله، فإنَ الألم الذي فيه رضا الله خيرٌ من اللذة التي تجلب غضبه، وإن الهزيمة التي تُرضي الله أفضلُ من الانتصار الذي يوجب غضبه، فأَقلعوا عن المحبة التي تُدنيكم من غضبه. لو أقبلتم على الله تعالى بقلوب صافية لنصَركم في كل موطن، ولم يقدر العدوّ على النَّيلِ منكم. ولكنكم لن تحظوا برضا الله تعالى ما لم تتخلّوا عن إراداتكم وملذّاتكم وعزّتكم وأموالكم وأنفسكم، وما لم تتجشّموا في سبيله

تلك المرارةَ التي تشبه الموت. أما إذا كابدتم المرارة في سبيله تعالى لكنتم كالطفل الحبيب في حضن الله، ولورثتم الصدّيقين الذين خلوا من قبلكم."

وقال عليه السلام أيضا: "لا تظنّوا أن الله تعالى سوف يضيعكم، فأنتم بَذْرةٌ بَذَرَها الله تعالى في الأرض بيده. يقول الله تعالى: إن هذه البَذْرة سوف تنمو وتزدهر وتتفرّع في كل طرف، ولسوف تصبح دَوحة عظيمة. فطوبى لمن يؤمن بكلام الله تعالى ولا يخشى الابتلاءاتِ العارضة، إذ لا بُدَّ من الابتلاءات أيضا لكي يختبر الله مَن هو صادق منكم في البيعة ومن هو كاذب. ومن زلّت قدمُه نتيجة ابتلاء فلن يضر الله شيئا، وسوف تُوصله شقاوتُه إلى الجحيم، ولو أنه لم يُولَد لَكان خيرًا لــــه. ولكن الذين يصبرون إلى النهاية رغمَ زلازلِ المصائب التي تأتي عليهم وعواصِفِ الابتلاءات التي تَهُبُّ عليهم، وسخريةِ الأقوام منهم، وتعامُلِ الدنيا معهم بمنتهى الكراهية؛ فأولئك الذين سيفوزون في آخرِ الأمر، وتُفتَح عليهم أبوابُ البركاتِ على مصارعها. لقد قال الله تعالى مخاطبًا إيَّايَ أنْ أُخْبِرَ جماعتي بأن الذين يؤمنون إيمانًا لا تشوبُه شائبةٌ من الدنيا، ولا يكون ملوَّثًا بالنفاق أو الجُبن ولا يكون خاليًا من الطاعة، فأولئك هم المَرْضِيُّون عند الله تعالى، ويقول الله تعالى إنهم هم الذين لهم قدمُ صِدْق." (الوصية، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٣٠٧-٣٠٩)

كما أزال المسيح الموعود عليه السلام سوءَ الفهمِ لدى أولئك الذين يظنون أن الإسلام والأحمدية سيزدهران تلقائيا، وأن لا حاجة بهم إلى تضحية أو جهد! فقال عليه السلام:

"اعلموا أنه ليس عندنا أيُّ رُقْيةٍ نجعل بها أحدًا من الأبدال دفعة واحدة. لقد أجمعَ الأنبياء كلهم على أنه لا بد من الابتلاء للترقي في الدرجات العلى. لا يمكن لأحد أن يكون صادقًا في إيمانه إلا إذا مرَّ بالاختبار والامتحان. ومن سنة الله أن مع العسر يسرا. اعلموا أن الذي لا يكون مستعدًّا لمعاناة المصائب والشدائد في سبيل الله تعالى فإنه سيُفْصَل من الجماعة. فكِّروا في الصحابة كيف تحملوا أنواع المصائب وتعرّضوا لأنواع الأذى في سبيل الدين، ولم يذوقوا طعم الراحة ليلاً ولا نهارا. لقد رضوا بكل مصيبة في سبيل الله تعالى حتى ضحّوا بأرواحهم. اعلموا أنكم لن تحقّقوا شيئا ما لم تسعوا بإخلاص وصدق. كثير هم الذين يبايعون على أيدينا هنا،

ثم إذا رجعوا إلى بيوتهم وتعرضوا لأذى بسيط أو تهديد أو مقاطعة ارتدّوا فورًا. إن هؤلاء يبيعون إيمانهم. انظروا إلى الصحابة كيف أنهم قدَّموا رؤوسَهم لتُقطَع في سبيل الدين. كانوا مستعدّين على الدوام للتضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى. لم يكترثوا لعداء عدو. لقد تحمّلوا كل أنواع الأذى في سبيل الله، وظلوا مستعدين في كل حين ليكونوا هدفًا لأي نوع من الآلام، وكانوا مصممين على ذلك في قلوبهم. إنما المؤمن من لا يتزعزع، وإنْ عاداه العالم كله، وإنْ لدغتْه الأفاعي والعقارب من كل جهة، وإن سقطتْ عليه الصواعق من كل طرف، وإنْ تعرّضَ للتعذيب من كل مكان." (جريدة بدر، ١٧تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ص ٨-٩)

هذه هي روح التضحية التي يجب أن تتحلى بها جماعتنا الإسلامية الأحمدية، وهذه هي الروح التي تحيا بها الأمم. لقد نبه الله تعالى هنا منكري المسيح الموعود عليه السلام قائلا: إنكم ما زلتم تصدّقون المجددين الذين ظهروا لاثني عشر قرنا، فما لكم تنكرون الموعود الذي ظهر عند القرن الثالث عشر والذي لم نــزَلْ نؤكد لكم مجيئه. كما نبّه المؤمنين به عليه السلام أن عليهم أن يتذكروا دومًا أنه لا بُدَّ لهم من أن يدخلوا النيران الملتهبة، وعندها سيطلع يوم غلبة الإسلام ومجده ثانية. باختصار ترسم لنا هذه الآيات شدّة المعارضة التي ستتعرض لها الأحمدية في المستقبل.

أما قوله تعالى ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ فيظهر منه أن الأعداء سيتفرجون على تعذيب المؤمنين فرحين. التعذيب نوعان: تعذيب تُعقِبه مشاعر الرحمة في قلب المعذِّب، ومثاله إعدام المجرم شنقًا، إذ يتأسف على موته القاضي والشرطة أيضا، ولكن هناك تعذيب آخر يشعُر المعذِّب إثره بالفرحة والتفاخر بأنه قد أحسن صنعًا؛ فالله تعالى ينبئ هنا أن هؤلاء المعذِّبين سيفرحون بتعذيب المؤمنين، وكأنهم يقومون بمسيرات ومظاهرات احتفالاً بفعلتهم هذه. ومثاله في جماعتنا استشهاد الصاحبزادة عبد اللطيف الشهيد رضي الله عنه، إذ لم يرحمه أحد لما استُشهد رجمًا. لقد اشترك في عملية رجمه الملِكُ وحاشيتُه كلهم، يحرض بعضهم بعضًا على رجمه. وبتعبير آخر إنهم كانوا يجتمعون لتعذيبه فرحين كأنهم في عرس.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. والشهود جمعُ شاهد، يقال: شهِد يشهَد شهودًا أي حَضَر واطَّلع عليه؛ فالمفهوم الأول لهذه الآية أنهم يعذّبون المؤمنين وهم يعلمون أنهم بريئون؛ والمفهوم الثاني أنهم يحضُرون وقت تعذيبهم ويتفرجون عليهم ولا تأخذهم بهم رحمةٌ.

علمًا أن قول الله تعالى ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يوضح أمرين: أولهما أنهم سيجمعون الناس ويقيمون احتفالاً ليعذبوا المؤمنين أمام الجميع، وثانيهما أنهم سيعذّبونهم على التوالي، لأن القعود -أي العكوف على الشيء- يعني مواصلة العمل بلا انقطاع. وفي اللغة الأردية أيضا يقال: أنت جلستَ على هذا الأمر.. أي واصلْتَه وما تركتَه. فيقول الله تعالى أنهم يعارضون المؤمنين متعمدين مدركين أنهم يكذبون ويخدعون، وأن هذه المعارضة ستستمر لزمن طويل، وتقع أحداث تعذيب المؤمنين مرة بعد أخرى.

وبالنظر إلى تصرفات مناهضي الأحمدية نجد وكأن هذه الآيات قد رسمت حالهم؛ فإنهم يعلمون جيدًا أن الحق كما تقوله الأحمدية، ومع ذلك يرون معارضة هذا الحق لزامًا، لأنه قيل مِن قِبل الأحمدية. فمثلاً لو قلنا اليوم إن المقام السامي الذي تبوءه الرسول ﷺ قد تبوَّءه بجهده وسعيه، أقاموا ضجة في العالم أن الأحمديين يسيئون إلى الرسول ﷺ، مع أنه ليس في ذلك أي إساءة، بل فيه تعظيم وتوقير له ﷺ. كنت أظن من قبل أن هؤلاء القوم لم يقرءوا كتبنا، ويثيرون الضجة ضدنا بما سمعوه من الآخرين، ولكن أرسل إليّ أحد الإخوة قبل بضعة أيام قصاصة جريدة اقتبس فيها صاحب الجريدة عبارةً من خطبتي، ثم علّق عليها قائلاً: انظروا كيف يسيء الأحمديون إلى رسول الله ﷺ إذ يقولون إن الرسول ﷺ قد نال هذا المقام بقوة عمله، ولم يكنْ هذا مجردَ هبة ربانية. وهذا يعني أن صاحب الجريدة كان يفهم حقيقة الأمر، ولكنه رأى معارضتنا ضرورية ليثور الناس ضدنا ويشتعلوا غضبًا. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.. أي أنهم شاهدون على ما يأتونه من تصرفات خاطئة متعمدة. إنهم

سيظلمون المؤمنين وهم يعلمون أنهم يظلمون، وسيكذبون ويخدعون وهم يعلمون أنهم يفترون ويخدعون، ومع ذلك لن يرتدعوا عن المعارضة.

وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٩ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٠

شرح الكلمات:

وما نقَموا: نقَمَ منه كذا: أنكرَه عليه، وعابَه وكرِهه أشدَّ الكراهة لسُوءِ فعله. ونقَم منه: عاقَبَه. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء المعذِّبين لا ينقِمون مِن هؤلاء المضطهَدين لأن أمرًا ساءهم منهم، إذ لا يستطيعون أن يرموهم بعيب حقيقي، إنما "جريمتهم" أنهم يؤمنون بالله تعالى. لا شك أن هؤلاء المعذِّبين أيضًا يكونون مؤمنين بالله تعالى، ولكنهم يؤمنون بإله ميّت، لا بالله العزيز الحميد.. الإله الحي القادر كما سيؤمن أتباع هذا الموعود. وهذا ما سيدفعهم لمعارضتهم وإيذائهم واتهامهم أنهم قد اختلقوا دينا جديدا. هؤلاء يَعرِضون على الناس إلهًا حميدًا، بينما ينسب أولئك إلى الله تعالى أنواعَ النقائص كاعتقادهم أن عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء، أو أن الله جعل النبي ﷺ أفضل الرسل دونما سبب، إذ كان من الممكن أن يسبقه غيره لو كان الأمر يتوقف على الأعمال. فالحق أن كل عقيدة يطعنون بسببها في جماعتنا تؤكّد حمد الله وثناءه، ولكن كل عقيدة من عقائدهم هذه تسيء إلى الله تعالى. ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى هنا "إلا أن يؤمنوا"، بل قال ﴿إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾... أي أن كلا الفريقين سيؤمن بالله، ولكن الفارق أن أولئك القوم يؤمنون بإلهٍ غيرِ

عزيز ولا حميد، أما هؤلاء فيؤمنون بالله العزيز الحميد؛ وهذا الاختلاف هو أصل كل العداء.

ثم يقول الله تعالى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.. أي أن هؤلاء المضطهِدين لن ينتبهوا إلى أن هؤلاء المظلومين يؤمنون بالله الذي هو مالكُ السماوات والأرض ويسعوْن لإرساء عظمته وحمده تعالى، فلن يسكت على اضطهادهم. إن أذلّ إنسان في الدنيا أيضا يحترم مَن يُكرِمه، فكيف يمكن أن ينجح العدو في تدمير قوم يسعون لتوطيد عظمة مالك السماوات والأرض وحمده؟ ألا يفكّرون أن مالك السماء والأرض سيثور غيرةً برؤية ظلمهم، فيسحقهم برحى غضبه؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.. أي أنهم يضطهدون المؤمنين عمدًا مغرورين بأن الجماهير معهم، فلا يقدر هؤلاء على أن يضروهم شيئًا. ولكن هؤلاء المغرورين لا يدرون أننا أيضا نراقب كل شيء ونسجّله. إذا كان هؤلاء قد غرّهم أن أغلبية الجماهير معهم يحترموهم ويستحسنون فظائعهم، فكيف يظنون أني سأظلّ صامتًا على اضطهادهم لقوم يسعوْن لإقامة عظمتي وحمدي في الأرض؟ كلا، سأنــزل لنصرتهم حتمًا، وأسحق هؤلاء الظالمين بغضبي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

فتَنوا: فتَن الشيءَ: أحرقَه. (الأقرب)

التفسير: الكافرون يلقون المؤمنين والمؤمنات في نار محرقة أعدّوها لهم، فلذلك يخبر الله هنا أن الذين يعذّبون المؤمنين والمؤمنات فلهم عذابُ جهنم ولهم عذاب الحريق. ويراد بالنار هنا النار المادية والمعنوية كلتاهما، إذ يؤذون المؤمنين جسديًا، كما يؤذونهم نفسيًا برميهم بشتى التهم التي تحرق قلوبهم، فلا يدرون ماذا يفعلون

تجاهها. فالله تعالى يقول: يجب ألا يظن الذين يحرقون المؤمنين والمؤمنات جسديًا ويحرقون قلوبهم بإلصاق أنواع التهم والأباطيل أنهم سينجون من بطشنا. والجهود التي تُبذَل لإثارة الفتن ضدّ جماعتنا في هذه الأيام مثال واضح على صدق هذه الآية، فالمسلمون غير الأحمديين يُدْمون قلوبنا باتهامهم أننا لا نؤمن - والعياذ بالله - بالرسول ﷺ (تحفه قاديانيت (أردو) مجلد أول ص ٦٧١). بينما يؤذينا اللاهوريون باتهامهم إيانا أننا نؤمن - والعياذ بالله - بنسخ الشهادة (جريدة "بيغام صلح" ٢٩ أغسطس/آب ١٩٧٣ ص ٣). مع أن كل ما نقوله إنما نقوله لتوطيد عزة محمد ﷺ وجلالته، ولا نقول أبدًا ما يسيء إليه ﷺ ويقلّل من مكانته.

إذًا، فالله تعالى يقول هنا ما دام هؤلاء يحرقون أجساد المؤمنين والمؤمنات أو قلوبهم أو بيوتهم، فسوف نلقيهم في العذاب، إلا من تاب منهم فنقبل توبته ونعفو عنه مهما كان ذنبه كبيرا. أما إذا لم يتوبوا فليعلموا أنهم كما أحرقوا قلوب المؤمنين وأجسادهم، كذلك سنعذبهم عذابين؛ مادي ومعنوي مقابلَ العذابين اللذين صبّوهما عليهم؛ وعذابُ جهنم إشارةٌ إلى العذاب المادي، وعذاب الحريق إشارةٌ إلى العذاب المعنوي، ويمكن العكس أيضا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

الفوز: هو الظفَرُ بالخير؛ النجاةُ. (الأقرب)

التفسير: العمل الصالح يعني العمل بحسب مقتضى الحال. وهذا الأمر هام وضروري جدا بحيث مهما ركّزنا عليه فلا نفيه حقّه، إذ يكمن فيه نجاح المسلمين ورقيّهم. لو كان العمل بحسب مقتضى الحال فهو عمل صالح يقينا، وإذا لم نراعِ مقتضى الحال أصبح عملنا غير صالح. فمثلاً لم تكن الخمر محرّمة قبل الإسلام الذي

حرّمها حرمة قطعية (المائدة: ٩١)؛ وعليه فالعمل الصالح لا يعني فقط عدم شُربِ الخمرَ، وإنما يعني أن ينتهي المرء عن شيء حين ينهى الله عنه؛ فإذا نهى الله عن الخمر مثلاً انتهى المرء عنها، وإذا لم ينهَ عنها فلا بأس إذا لم يكفّ عن تعاطيها. لذا فلا شك أن الإسلام يختلف عن الشرائع السابقة في قضايا كثيرة، إلا أن الخمر لم تكن محرمة فيها حرمة قطعية، فمن شرب الخمر من أصحاب هذه الشرائع فلم يعمل عملا غير صالح، بل كان عمله صالحا بحسب حالات ذلك الزمن.

باختصار، يقول الله تعالى عن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات أن لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار. لقد ذكر الله تعالى من قبل أن للكفار نوعين من العذاب، ويخبر الآن أن للمؤمنين نوعين من النعم: جنات تظلّهم بظلّها من فوق، وأنهار جارية من تحت هذه الجنات. وكأنهم ينالون البرد من فوقهم ومن تحتهم، ويكونون في راحة في الظاهر وفي الباطن، ويكون لهم العزة عند الناس وعند الله أيضا.

ولقوله تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ مفهومان: أولهما أن ظلال هذه البساتين تكون كثيفة لا تتخللها الشمس لتقارُب أشجارها والتفاف أغصانها، ولن تصل الشمس إلى أرضها، كما أن الأنهار التي تجري من تحتها ستكون أيضا تحت الظلال لكونها مكثفة متصلة لا تتخللها الشمس؛ وكأن هذا إشارة إلى كمال رحمة الله بهم.

وثانيهما: أن قوله تعالى ﴿لَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أن هذه البساتين مع أنهارها ستكون ملكا لهم. فمثلا هناك قنوات عندنا في منطقة "سرجودا" و"لويل بور"، ولكنها ليست ملكًا لأصحاب تلك الأراضي، بل هي مِلْكٌ للدولة، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن تلك البساتين مع أنهارها تكون مِلْكًا لأهل الجنة. وهذا ما يدل عليه أيضًا قوله تعالى ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾.. لأن الأنهار ستكون ضمن الجنات.. أي أن الذي يملك هذه البساتين يملك ما فيها من أنهار ونعم أخرى أيضا.

كما أن قوله تعالى ﴿مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى سعة الجنات، لأن القناة أو النهر لا تجري في ثلاثة أو أربعة فدادين، بل في مساحة شاسعة تبلغ خمسين أو ستين بل ألفين من الأميال.

باختصار، تشير هذه الآيات أولا إلى أن أهل الجنة سينعمون بالنعم الظاهرة والنعم المعنوية. ثانيا: أن كل ما يوجد في هذه الجنات من أسباب رقيهم ستكون تحت سيطرتهم وتصرفهم. وثالثا: أن هذه الأسباب تكون واسعة جدا.

إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

بَطْش: بَطَشَ به بَطْشًا: أَخَذَه بالعنف؛ تناولَه بالشدّة عند الصولة؛ أَخَذَه أَخْذًا شديدا في كل شيء. (الأقرب)

التفسير: أي أن الكافرين يؤذون المؤمنين، ولكن بطش الله أيضًا شديدٌ جدا. وقد أوحى الله تعالى إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا: "وإذا بطشتم بطشتم جبارين" (التذكرة ص ٦١١).. أي أنهم سيؤذون المؤمنين إيذاء شديدا، ولكن عليهم أن لا ينسوا أن الله شديد في بطشه.

إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٤﴾

التفسير: أي أن الله تعالى هو الذي يخلق الشيء أوّلاً ويعيد خَلْقَه. والمراد أن الله تعالى هو الذي يعذّبهم في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة.

وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٥﴾

التفسير: أي أن الله تعالى كثير المغفرة وكثير المحبة. ولما كان الحديث هنا عن المسيحية التي يقول أهلها إن الله لا يغفر لأحد، ومع ذلك يقولون أنه تعالى يحبّ الإنسان، فذكر الله هنا صفتيه الغفور والودود معًا؛ وكأنه تعالى يقول: الغريب أنهم يزعمون أن الله لا يغفر للناس ذنوبهم، ثم يعلنون أن الله محبة، مع أن الغفور والودود صفتان متلازمتان؛ فمَن كان غفورًا فلا بدّ أن يكون ودودا، ومن كان ودودا فلا

بد أن يكون غفورا. إذن، فقد أبطل الله تعالى بذكرِ هاتين الصفتين الإلهيتين معًا عقيدة المسيحيين أن غفران الله لذنوب عباده منافٍ لعدله ﷻ.

ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٦﴾

التفسير: لقد أعلن الله تعالى هنا أنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾. لقد قام المسيحيون بدعاءٍ في زمن مضى، وهم لا يزالون يردّدونه حتى اليوم لِسوءِ فهمهم قائلين: "أَبَانَا الَّذي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (متّى٦: ٩-١٠)، ورغم ترديدهم هذا الدعاء منذ تسعة عشر قرنا، إلا أن ملكوت الله لم ينـــزل من السماء إلى الأرض في زعمهم؛ ولذلك يقول الله تعالى أيها المسيحيون ما هذا الذي تفعلون؟ فإن الله لذو العرش المجيد، وقد علّمكم هذا الدعاء منذ تسعة عشر قرنا، وظللتم ترددونه منذ ذلك الوقت، ومع ذلك لم يستجب لدعائكم، ولم ينـــزل ملكوته على الأرض في زعمكم، فكيف يكون ذا العرش المجيد إذن؟ كلا، بل إذا قال أن يكون ملكوته على الأرض فلا يمكن أن يحول دون نزوله إليها أحد. وقد نـــزل ملكوته من السماء إلى الأرض فعلاً؛ مرّةً على يد المسيح عليه السلام، ثم على يد رسول الله ﷺ، والآن على يد المسيح الموعود عليه السلام. ولكن هؤلاء لا يزالون يدعون: إلهَنا، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ عَلَى الأَرْضِ كما هو في السماء.

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾

التفسير: أي أن الله تعالى إذا أرادَ شيئًا فَعَلَه حتمًا، ولكنكم، أيها المسيحيون، تظنون أنه تعالى أراد إنزال ملكوته من السماء إلى الأرض، ولكنه لم يستطع تنفيذ مشيئته بعد. مع أن الواقع أن المسيح عليه السلام جاء وعلى يده نـــزل ملكوت الله على الأرض، ثم جاء محمد رسول الله ﷺ وعلى يده نـــزل ملكوت الله على الأرض،

والآن قد نـــزل ملكوت الله من السماء إلى الأرض للمرة الثالثة، ولكنكم لا تزالون ترددون إِلَهَنا لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ عَلَى الأَرْضِ كما هو في السماء.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٨﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٩﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بَدَلٌ من ﴿الجُنُودِ﴾.. حيث ذكر الله تعالى الجنود أوّلاً، ثم ذكَر رؤساءهم فرعونَ وثمودَ، والمراد: قد بلغكم ما فعلنا بأعدائنا جنودِ فرعون وثمود إذ هو ليس خفيًّا على أحد، فلِم لا تعتبرون بهم؟ ولماذا تتمادون في المعارضة؟

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿٢٠﴾

التفسير: أي أن قلوب هؤلاء الكافرين في حالة تكذيب، وكم مِن عبرة أمامهم، ولكنهم يأبوْن إلا المعارضة والإنكار، وإذا قسا قلب المرء بحيث يرى أن عليه أن يعارض كل شيء، فلا ينال الهدى، إذ يتيسر الهدى لمن فكّر وتدبّرَ، أما إذا لم يتدبر و لم يفكّر أصلاً، فأنّى له الهدى؟

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يحكي دائمًا أن مَثَل معارضي المسيح الموعود عليه السلام كمثل البهلوان الذي يري ألعابًا بهلوانية، فيصعد حينًا على خيزران طويل ويقف عليها، وحينًا يمشي على حبل، ويقول: هل رأيتم ما فعلتُ؟ فيحرّك أحد أصحابه رأسه: لا، لم تُرِنا شيئا، فيُري لعبة أخرى ثم يسأل: أرأيتم لعبتي؟ فيقول صاحبه: لا، لم نَرَ منك شيئا، وهكذا يستمر الحديث بينهم بدون نهاية، والحق أن لا علاج لمثل هذا العناد. وهذا ما يبيّنه الله تعالى في قوله ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.. أي أن قلوبهم قد قست بحيث إنهم لا يتدبرون في أي آية يرونها مهما كثرت الآيات، وإنما هدفهم تكذيبها. فهؤلاءِ غرقَى في بحر التكذيب.

وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

محيط: أحاطَ بالأمر: أحدقَ به مِن جوانبه، وفي القرآن: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.. أي لا يُعجِزه أحد، قُدْرتُه مشتمِلةٌ عليهم. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء غارقون في السُخرية، فكلما جاءهم آيات صدق ما نقول قالوا لن نؤمن بها، ولكنهم يجهلون أن الله تعالى قد قدّر لهم عذابا شديدا لسوء أعمالهم.

المحيط يعني لفظًا المحدِق مِن كل جانب، وهو إشارة إلى عذاب الله، حيث يقول الله تعالى إنه محيط بهم من ورائهم. وإحاطته بهم إشارة إلى عذابه التام؛ إذ لو كان هناك مناص لهرب منه الإنسان، ولكنه لو كان محاطًا من كل جهة سُدّتْ عليه طرق الفرار كلها.

أما قوله تعالى ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ فإشارة إلى أنهم لن يشعروا بالعذاب إلا بعد أن يحل بهم، لأن الشيء الذي يأتي من ورائك يفاجئك. إذًا يخبر الله تعالى أن هذا العذاب سيأتيهم بغتة ويحيط بهم من كل جهة، فلن يجدوا منه مهربًا.

وقد أُوحيَ الى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا مرارا: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". (التذكرة ص ٢٤٢)

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢٢﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

لَوح: اللوحُ: كلُّ صحيفةٍ عريضةٍ خشَبًا أو عظَمًا، قيل: مأخوذ من أن المعاني تلوح فيه بالكتابة (الأقرب)، حيث يقال لاحَ يلوحُ أي ظهر.

التفسير: أي أن هؤلاء القوم أشدُّ عنادًا وعداء من المكذّبين السابقين، وإنا نخبرهم أن هذا الوحي قرآن مجيد، فلو ازدادوا تكذيبًا له ازددنا تصديقًا له. فكأن

الله تعالى يقول إن غيرته لن تكتفي بتدمير هؤلاء الأعداء فحسب، بل إنه تعالى سوف يُرسي مجد القرآن في الدنيا، ويجعل الأعناق تعنو له. فمهما تمادى هؤلاء القوم في عدائه، فإن الله تعالى قد أراد إرساء مجد القرآن في العالم لأنه قرآن ذو مجد.

أما قوله تعالى ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، فكلمة محفوظ لها قراءتان: محفوظٍ أو محفوظٌ، والمعنى الأول أن القرآن موجود في لوح محفوظ، والمعنى الثاني أن القرآن المجيد في لوح ومحفوظٌ.

وقال أبو الفضل وابن خالويه: أن هذه الكلمة ليست لَوْح بل هي لُوح، ومعناها الهواء الذي فوق السماء السابعة. (فتح القدير للشوكاني، وتهذيب اللغة للأزهري)

وهذا باطل بالبداهة، فمن صعد فوق السماء السابعة ورأى الفضاء هنالك وسماه بهذا الاسم الخاص؟

قال الجوهري في "الصحاح" اللُوح هو الهواء بين السماء والأرض (فتح القدير، ولسان العرب).. أي أن معنى اللوح: الجو والفضاء. هذا المعنى قد ورد في المعاجم، وهو دليل على بطلان قول ابن خالويه وأبي الفضل.

وقد روي عن ابن عباس، أن لوح الذكر لوحٌ واحد فيه الذكر - يعني أن كل ما نــزل من الله تعالى مِن ذكر لموجودٌ في ذلك اللوح الواحد- وإن ذلك اللوح مِن نور، وإنه مسيرة ثلاثمئة سنة. (فتح القدير)

وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله ﴿بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ في جبهة إسرافيل. (فتح القدير)

وروى السيوطي عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مئة عام، فقال للقلم: قبل أن يخلق: اكتُبْ علمي في خَلْقي، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة. (فتح القدير)

وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. (ابن كثير)

الحق أن هذه الأقوال كلها إسرائيليات انتقم بها اليهود من المسلمين السذج.

وكما هو ظاهر من شرح الكلمات، فإن اللوح هو السطح العريض المكتوب عليه، خشبًا كان أو عظما، وهو مِن لاح يلوح.. أي ظهَر. وحيث إن صفحة الورق يمكن طيُّها، لكن المكتوب على الخشب أو العظم لا يمكن طيّه، فلذلك يسمى لوحًا. والظاهر أن الشيء الذي لا يطوى فيه ميزة وعيب في وقت؛ الميزة أن كل واحد سيقرؤه، فيشاع بين الناس جيدا، والعيب أنه عرضةٌ للمحو أو التلاعب لكونه مفتوحًا على الدوام، ولذلك زاد الله هنا كلمة ﴿محفوظ﴾ عند وصف القرآن الكريم، وقال إنه ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.. أي أن من مزاياه أنه سيصل إلى أيدٍ كثيرة، وينتشر انتشارا كبيرا، ولكنه سيظل محفوظًا من تلاعب الناس، بمعنى أنه يتميز بميزة الكلام المكتوب على اللوح، ومع ذلك سيظل محفوظا من العيب الموجود في اللوح.

سورة الطارق

مكية، وهي ثماني عشرة آية مع البسملة

هذه السورة مكية، وقد روى البعض أن أبا جهل خاف مرةً عند سقوط نجم ثاقب، فنـــزلت الآيات الثلاث الأولى من هذه السورة. (فتح البيان، وروح المعاني)

ويرى نولدكه وموير أن هذه السورة مما نزل في البداية المبكّرة جدًّا للبعثة. ولكن القسيس "ويري" يقول إن آياتها من الحادية عشرة إلى السابعة عشرة نزلتْ بعد السنة الرابعة من البعثة، لأنها تتحدث عن مؤامرات الكافرين. (تفسير ويري)

لقد قلتُ غيرَ مرّة إن مثل هذا الاستدلال يرجع إلى العداء البحت. إذ ما الحرج لو قلنا إن مؤامرة الكفار في هذه السورة قد ذُكرتْ هنا كنبوءة، حيث إن القرآن مليء بالنبوءات؟

ثم إن هذا الفرق البسيط في تحديد زمن نزول هذه الآيات لا يضرّنا شيئا، لأن القول بأنها نزلت بعد ظهور عداء الكافرين يستلزم أن يعترف هؤلاء المستشرقون أن القرآن قد تنبأ عن هلاكهم في الزمن المبكر جدًّا. ولا يسع "ويري" إنكارُ تحقُّقِ هذه النبوءة.

الترابط:

هذه رابع سورة تتحدث عن نفس الموضوع الجاري من سورة الانفطار ثم الانشقاق ثم البروج، علمًا أن سورة المطففين -كما بينتُ من قبل- تناولت أحد جانبَي الموضوع الذي كان قد بدأ من سورة الانفطار؛ والدليل على دعواي هو أن السورتين التاليتين لسورة المطففين تستهلان بلفظ (السماء)، ولكن المطففين لم تبدأ بلفظ (السماء)، لكونها تسلسلاً لمضمون سورة الانفطار.

باختصار، إن سورة الطارق آخر سورة تتحدث في الموضوع الجاري منذ بضع سور، حيث لم تستهلّ السور التالية لها بكلمة (والسماء)، بل تبدأ سورة الأعلى

بقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ لتتحدث عن موضوع آخر جديد. وعندي أن سورة الطارق قد جاءت هنا بين السور كبرزخ، حيث يُعرَّج فيها من موضوع إلى آخر.

لقد وردت كلمة (السماء) في مستهلّ هذه السورة والسورِ الأربع قبلها إلا سورة المطففين، وفي كل مرة قد ذُكر مع السماء شيء مختلف، إذ قيل في سورة الانفطار ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وقيل في سورة الانشقاق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، ثم قيل في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، والآن قيل هنا ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

والفرق الآخر أن السورة الأولى والثانية منها تتحدثان عن تغيرات ستقع في السماء، أما باقي السور فقد قُدِّمت فيها السماء كشهادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الطارق: هو: الآتي ليلاً؛ النجمُ الذي يقال له: كوكبُ الصبحِ؛ الضاربُ بالحصى على سبيل التكهُّن. (الأقرب)

التفسير: للطارق ثلاثة مفاهيم كما ذكرنا أعلاه، ولكن السؤال هنا: أتنطبق هذه المفاهيم كلها هنا أم أحدها؟ وليكن معلوما هنا أننا نحن الأحمديين نفسر أحيانًا كلمةً واحدة من القرآن بخمسة أو ستة معان، فتنتاب الناس شبهة بأن هؤلاء يحمّلون الآيةَ فوق ما تحتمل. والحق أنّ هذه الآية من سورة الطارق ومثيلاتِها تؤيّد نهجنا. إذا كانت الكلمة تفيد لغةً معاني عديدة، فلا بد من أحد احتماليْن، فإما أن يراد بها معنى واحد أو أكثر من معنى. ثم إذا أُريدَ بها أكثر من معنى، فيمكن أن يراد بها كل تلك المعاني أو بعضها. وإذا أُريدَ بها معنى واحد، فثمة احتمالان؛ أن يكون

هذا المعنى واضحًا كل الوضوح بحيث إن السياق يؤكده، أو لا يكون هذا المعنى واضحا تمامًا، فنحتاج إلى قرينة أخرى لتحديده. ومن أساليب القرآن أنه إذا أراد أن نأخذ بمعنى واحد معين للكلمة أتبعَه بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾. تكون الكلمة الواحدة تحتمل عدة معاني، ولكن الله تعالى يقول بعدها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، ثم يذكر المعنى المحدَّد الخاص بذلك السياق. وهذا دليل على أنه إذا خلتْ آيةٌ مِن جملة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فمِن حقنا أن نفسر الكلمة الواحدة بكل المعاني المحتملة الممكنة بأكثر من معنى للكلمة، وإلا فلماذا، يا ترى، يحدد الله معنى كلمة في مكان، ولا يحدده في مكان آخر؟ إنما سببه أن تفسير كلمة واحدة بأكثر من تفسير ليس خلاف مراد القرآن الكريم. نعم، إذا حدَّد الله تعالى معنى كلمة، فلا يحق لنا تركه والأخذ بغيره. فثبت من هنا أن الذين يعترضون على تفسيرنا قائلين لماذا يفسر هؤلاء كلمة واحدة بعدة معان محتملة بحسب اللغة، إنما اعتراضهم راجع إلى قلة الفهم وعدم التدبر في القرآن الكريم.

يقول الله تعالى هنا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.. فلولا قوله تعالى هنا ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، لقال قائل: الطارق هنا بمعنى "الآتي ليلا"، وقال غيره: لا إنه بمعنى الكاهن، ولكن الله تعالى حدَّد معناها بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.. أي ليس عندكم سبيل لمعرفة ما نقصده من الطارق هنا، مع أنها كلمة عربية وكان العرب يعرفون معناها؛ فثبت أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ إنما يعني أنه ليس عندكم سبيل لمعرفة المعنى المقصود للطارق في هذا السياق، فلذلك نحن نخبركم أننا نقصد به النجم الثاقب.. أي كوكب الصبح.

وتكمُنُ صلةُ هذه السورة بالسورتين السابقتين في أن الله تعالى قال في سورة الانشقاق ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي نقدّم كشهادة قمرَ الليلة الثالثة عشرة، ثم قال في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.. مُخْبِرًا عن بعثة شخص موعود يأتي بعد ظهور الاثني عشر برجًا، وهكذا أخبر الله تعالى في السورتين أن هذا الموعود سيكون بدرًا. ولكن كلمة (بدر) تثير شبهة؛ ذلك أن لفظ البدر وإن كان يشير إلى أنه قد نقل ضوء الشمس إلى الناس نقلاً كاملا، إلا

أن لفظ البدر ينطوي على مفهوم آخر أيضًا وهو اختفاء الشمس عن الأنظار، وبالتالي فلو كان البدر في النهاية فهذا يعني أن الشمس المحمدية لم تعد توصل ضوءها إلى الدنيا الآن مباشرة، وهذه منقصة وعيب، لأن هذا يعني أننا سنرى النور المحمدي ولكن بواسطة شخص آخر وليس مباشرة؛ مع أن واقع الأمر أن الرسول ﷺ هو النبي الحقيقي لهذه الأمة؛ وكل من يبعثه الله تعالى بعده ﷺ لا بد أن يكون تابعا له ﷺ؛ ومن المستحيل أن يقف أيُّ تابع حاجزًا بين الناس وبين النبي المتبوع ﷺ، لأن هذا يجعل التابع نبيًا أخيرًا مستقلا لأمة المتبوع. ومثاله عيسى عليه السلام الذي تسبب في انكشاف النور الموسوي، ولكنه كان نبيا أخيرا مستقلا أيضًا. ولكن الله تعالى يخبر هنا أن الموعود الذي نبئ عن ظهوره لن يكون كالسابقين الذين جاءوا في آخر أمة نبيهم إيذانًا بنهايتها. كلا، بل إن لهذا الموعود الذي سيظهر في أمة الإسلام اسمَين: البدر والطارق. ومعلوم أن البدر يشير إلى غروب الشمس وإلى أن ضوءها سيصل إلى الدنيا بواسطته لا مباشرةً. أما الطارق -وهو كوكب الصبح- فإشارة إلى أن الشمس على وشك الطلوع؛ وهذا يعني أن هذا الموعود لن يحجب نورَ الشمس المحمدية، إذ هو بدر من جهة، وطارق من جهة أخرى. إنه بدر بمعنى أنه يستمدّ النورَ من نبوة محمد رسول الله ﷺ ويوصله إلى الدنيا، وإنه طارق بمعنى أن الذين سيكونون على صلة به سيتمكنون من إنشاء الصلة المباشرة برسول الله ﷺ حيث سيرون نور شمسه بأنفسهم. بتعبير آخر إنه لكونه بدرًا سيستمد نور شمس النبوة المحمدية ويوصله إلى الناس، ولكونه طارقًا سيربي أتباعه تربية تمكِّنهم من اكتساب النور من محمد رسول الله ﷺ مباشرة.

والعجيب أن هذا الموعود للأمة قد سُمي في الحديث أيضا باسمين: المسيح والمهدي (ابن ماجه: كتاب الفتن، باب خروج المهدي، والترمذي: أبواب الفتن، ما جاء في أن الدجال لا يدخل المدينة). وقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا أن أمري متوقف على اسم المهدي (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٩٣-٣٩٨)، مع أن تسمية المسيح الموعود أكثرُ شهرةً وتداولاً في جماعتنا. الواقع أن اسم البدر يمثّل عيسى المسيح، واسم الطارق يمثّل المهدي. وكل أولئك الذين بُعثوا من قبل في الأمم

الخالية بصفتهم المسيح لم يكونوا آخِرين في أمتهم فحسب، بل كانوا معلنين نهاية عهد نبيهم المشرِّع، حيث انتهت تلك الأمم بمجيئهم، وبدأت أمة جديدة من عند الله تعالى، ودرءًا لهذه الشبهة قد سمى اللهُ موعودَ الأمة الإسلامية مسيحًا من ناحية، ومهديا من ناحية أخرى، وسماه نبيًا من جهة، وتابعا كاملا من أُمته ﷺ من جهة أخرى. فهو البدر لكونه نبيًّا، وهو الطارق لكونه تابِعًا كاملا.

باختصار، قد أطلق القرآن الكريم اسمين على هذا الموعود، وقد أشير إلى أحد هذين الاسمين في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، وقوله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، بينما أُشيرَ إلى الاسم الثاني بكلمة ﴿الطارق﴾ التي فيها إشارة إلى أنه سينشر النور المحمدي في العالم ثانية، بتعبير آخر إنه سيبشّر برقي الإسلام وانكشاف الأنوار المحمدية.

وهكذا قد بين الله تعالى في هذه السور كلتا النبوءتين: النبوءة المتعلقة بعيسى المسيح، المذكورة من قبل في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(الانشقاق:١٩)، وفي قوله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾(البروج:٣)، أما النبوءة المتعلقة بالمهدي فقد ذُكرت هنا في هذه السورة في كلمة ﴿الطارق﴾.

وهناك لطيفة أخرى وهي أن الله تعالى قد عرّج ثانية في آخر هذه السورة على الزمن الأول للإسلام حيث قال لرسوله ﷺ ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.. فكما بدأ الموضوع بذكر الرسول ﷺ خَتَمَه أيضًا بذكره ﷺ.

قال الله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. أي نقدِّم كشهادةٍ السماءَ والطارقَ. والملاحظ هنا أن الله تعالى قدّم شهادة السماء في السورة السابقة أيضا، ولكنه تعالى قال عندها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، حيث بيّن هنالك أن الإسلام سيمر بمختلف الأدوار، وفي كل عصر سيقوم الله تعالى بتجديده على يد بعض الناس، إلى أن يأتي اليوم الموعود، فيقيم الله تعالى شخصًا يسمَّى نبيًّا، فتُساور القلوبَ شبهة بأن النور النبوي قد انتهى، ودرءًا لهذه الشبهة ذكر الله تعالى وصفًا آخر لهذا المبعوث فقال ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. أي إذا كان هو نبيًا من جهة، فإنه الطارق من جهة أخرى؛ فكما أن في النظام السماوي قمرًا منيرًا وليلاً مظلمًا، كذلك هذا الموعود يكون بدرًا وطارقًا أيضا. وكأن أحد اسمَيه يشير إلى ختم الشيء، واسمه الآخر يشير

إلى فتحه واستمراره. فبيّن الله تعالى أنه إذا كان ظهور المسيح الموعود سيتسبب في انتشار ضوء الشمس المحمدية بطريق غير مباشر، فإنه سيتسبب في إقامة شريعة محمد ﷺ في الدنيا أيضا. فإلى أن ينال الإسلام الغلبة سيسمّى المسيح الموعود بدرًا يتسبب في انكشاف الفيوض المحمدية الروحانية كواسطة أو مِرآةٍ، وحين يصبح الإسلام غالبا سيعمل كالطارق، لأن فتح الإسلام وغلبته وإقامة الشريعة كلها مقدَّر على يد المهدي. إذن، فإلى أن تتم غلبة الإسلام، سيغلب على المسيح الموعود اسم البدر؛ إذ كان المسلمون ضعفاء جدًّا في معركة بدر؛ لا شك أن الفترة البدرية كانت علامة الفتح، ولكنها كانت علامة الضعف أيضا؛ أما اسم النجم الثاقب فإشارة إلى زوال الضعف وبداية الغلبة والرقي.

وبذكر السماء في الموضعيْن - أي في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ - قد بين الله تعالى أن كلا المقامين تابع لنظام السماء؛ أي لوحي الله تعالى. إن المنصب البدري تابع للوحي، كما أن المنصب المهدوي تابع للوحي، وبغير نظام السماء لا يتيسر منصب البدر ولا منصب الطارق، بل كلا المنصبين بحاجة إلى نظام السماء.

وقد أُشيرَ بذكر نظام السماء في الموضعين إلى أن الله تعالى سيظلّ- بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام - يخلق مظاهرَه، فبعضهم يكون مظهرا لمهدويته وبعضهم لمسيحيته، ولكن لا بد من نزول وحي الله عليهم لورود كلمة ﴿السماء﴾ في الموضعين، التي هي إشارة إلى الوحي.

ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٤

شرح الكلمات:

النجم: راجع شرح الكلمات في سورة التكوير لقول الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.

الثاقب: ثقَبه ثَقْبًا: خرَقه بالمِثقَب (الأقرب). وثقَب النجمُ: أضاء. (المنجد)

وفي "الأساس" (للزمخشري): "كوكبٌ ثاقبٌ ودُرِّيٌّ: شديدُ الإضاءة والتلألؤِ، كأنه يثقُب الظلمةَ فينفُذ فيها ويدرَأُها".. أي يدفَعها. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّنتُ من قبل أن الله تعالى قد أشار بوصف هذا الموعود بدرًا إلى أنه سينشر النور المحمدي في العالم رغم شدة الظلمة، وأن جماعته ستكون خادمة للإسلام، وأشار بكلمة ﴿الطارق﴾ أنه يبدّد كل أنواع الظلمات ويزيلها. الحقيقة أن العصر المحمدي هو عصر الجلال، وأن زمن المهدوية يتعلق بالفتوحات، فأخبر الله تعالى بقوله ﴿الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أن مجيئه ستكون بداية لزمن الفتوحات الإسلامية، وأنه سيثقب كل أنواع الظلمات ويبددها.

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٥

شرح الكلمات:

لَمَّا: إن (لَمَّا) لها عدة معانٍ منها (إلا)، حيث ورد: "والثالث من أوجُهها أن تكون حرفَ استثناء، فتدخل على الجملة الاسمية، نحو: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.... قال سيبويه: "أعجبُ الكلمات كلمةُ (لَمَّا)، إنْ دخل على الماضي يكون ظرفًا، وإنْ دخل على المضارع يكون حرفًا، وإنْ دخل لا على الماضي، ولا على المضارع، يكون بمعنى (إلا)" (الأقرب).

ويبدو من استعمالات العربية أن (لَمَّا) يفيد معنى (إلا) حتى وإنْ لم يدخل على الاسم، حيث يقال: أَنْشُدُكَ اللهَ لَمّا فعلتَ.. أي لا أسألك إلا فعْلَك. (الأقرب)

التفسير: لقد فُسّرتْ هذه الآية بمفاهيم مختلفة، أحدها أن الله حافظُ كل إنسان. ورد في القرآن الكريم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب:٥٣)، وحيث إن النفس تُطلَق على كل شيء، فثبت أن الله تعالى حافظ كل شيء. وقال الله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(الانفطار:١١-١٢)، وقال الله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الرعد:١٢).. أي

هناك جماعة من الملائكة يتناوبون بأمر الله على حفظه مِن أمامه ومِن خلفه. وروي في حديث أن النبي ﷺ قال: وُكِّلَ بالمؤمن مئة وستون مَلَكًا يذبّون عنه كما يذبّ عن قصعة العسل الذبابَ (المعجم الكبير للطبراني). إذن، يذكر القرآن والحديث أن الله تعالى رقيب على الإنسان وحافظه، وأن الملائكة يقومون بهذا الواجب.

ولكني أرى أن قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هنا يعني ذلك النوع الخاص من الناس الذين هم بمنـــزلة النجم الثاقب، أو نُوّابُهم. وهم كثيرون، إذ كان منهم موسى وعيسى ورسولنا ﷺ والمسيح الموعود. ولما كان هؤلاء جماعة كبيرة فقال الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي أنّ كل واحد من هذه الجماعة أو الطائفة عليها حافظٌ ورقيب، وهو الله. قال الله تعالى عن رسوله الكريم ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٨). وقد أُوحيتْ هذه الآية إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضا. (انجام آتهم، الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٦٠). وقد أوحي كلام مماثل إلى المسيح الناصري عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران: ٥٦).. أي يا عيسى، إني سأميتك ميتة طبيعية، وسأكرمك عندي، وأبرئك من افتراء الكافرين، وأجعل أتباعك غالبين على الكافرين إلى يوم القيامة.

وقد صرح المسيح الموعود عليه السلام أن أول نبي وآخر نبي من أي سلسلة نبوة لا يُقتل أبدًا، بل الله تعالى يتولى حمايته، حيث قال عليه السلام: "مع أن قتل المؤمن شهادة، ولكن من سنة الله أن نوعين مِن رسله لا يُقتلان؛ النوع الأول: هو النبي الذي يأتي في بداية سلسلة نبوة، ومثاله موسى عليه السلام حيث كان أول نبي في السلسلة الموسوية، ومثاله الآخر سيدنا ومولانا ﷺ حيث كان في بداية السلسلة المحمدية. والنوع الثاني: هو النبي والمأمور الرباني الذي يأتي في آخر سلسلة نبوة، ومثاله عيسى عليه السلام الذي جاء في آخر السلسلة الموسوية، ومثاله أنا حيث جئت في آخر السلسلة المحمدية. (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٦٩-٧٠)

فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يعني كلّ نفس من هذه الطائفة. لا شك أن (كلّ نفس) يمكن أن يراد به كلّ الناس حيث إن القرآن الكريم

والحديث قد ذكرا حفْظ النفوس كلها من عند الله تعالى، ولكن لا أجد أي صلة بين هذا المفهوم وبين قوله تعالى ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، بينما المعنى الذي أذكرُه فهو منسجم تماما مع هذه الآيات، إذ المراد أن الله تعالى يتولى حفظ الطائفة الذين هم من قبيل ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ويحميهم من شرور أعدائهم.

وقد ذكر الله تعالى هنا ﴿الثاقب﴾ ليؤكد أن هذا النجم سيثقب عدوَّه ويهلكه، و لن يقدرالعدو على قتله.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٦﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٧﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

دافق: دفَق الماءُ: انصبَّ بِمَرّة. والدافقُ: المنْصَبُّ. (الأقرب)

الصُّلْب: الصُّلْب والصالبُ: عَظْمٌ في الظهر ذو فِقارٍ مِن لَدُنْ الكاهلِ إلى العَجْبِ. (الأقرب)

الترائب: جمعُ تريبة، وهي عظام الصدرِ. (الأقرب)

التفسير: لقد أخطأ المفسرون القدامى في تفسير هذه الآية إذ انتقلت أذهانهم إلى معنى خاطئ فقالوا إن معناها أن المنيّ يخرج من عظام الصدر وفقرات الظهر. ولكن الخليفة الأول رضي الله عنه قد فسرها بمعنى لطيف جدا، فقال إن القرآن الكريم يستعمل كلامًا مهذبًا ويتجنب استعمال كلمات مكشوفة مبتذلة، وقد أشار بهذه الكلمات إلى مكان الماء الدافق حيث يقع وسط الصلب والترائب (حقائق الفرقان). وهذا معنى لطيف جدا ويتلاءم مع عظمة القرآن الكريم.

وقد قال البعض المراد من الصُلْب صُلْبُ المرء ومن الترائب ترائبُ المرأة.. أي أن الإنسان يُخلَق من صلب المرء ويرضع من ثدي المرأة. فالصلب هنا صلب الأب،

والترائب ترائب الأم (ابن كثير). وهذا المعنى أكثر معقولية من المعنى السابق الذي ذكره المفسرون، ولا اعتراض عليه من الناحية العلمية والطبية.

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٩﴾

التفسير: لقد تحدث الله تعالى هنا عن خلق الإنسان، وأوّلُ ما قاله هنا هو أنه خُلق مِن ماءِ دافق.. أي قد جعل الله تعالى في الإنسان قوة الدفق، حيث خُلق مِن ماءِ دافق. والأمر الواقع أن كل أعمال الإنسان تصدر نتيجة صفة الدفق فيه.. بمعنى أنه يظل يقفز دائمًا ويرغب في التقدم باستمرار. فكما أن القافز يرتفع مرة وينخفض أخرى، كذلك يمرّ الإنسان بحالات مختلفة، فحينًا يكون في ارتفاع وحينًا في انخفاض؛ وهذا كله دليل على أن فطرته مزودة بكفاءة التقدم، وأن الله تعالى قد فتح أمامه باب الرقيّ على مصراعيه، ولكنه إذا لم ينتفع من هذه الميزة فيه تضرّرَ.

يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿١٠﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

تُبلى: تُكشَف وتُعرَف وتُظهر.

السرائر: جمعُ سريرة، وهي السرّ الذي يُكتَم. سريرةُ الإنسان: ما أسرّه مِن أمره خيرًا، وقيلَ شرًّا. يقال: فلانٌ طيّبُ السريرة: أي سليمُ القلبِ صافي النيةِ. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ يعني يومئذ يكشف الله تعالى الأمور الخفية، أو يُمتحن الإنسان في سرائره؛ ولو أخذنا هذا المعنى فالآية تتحدث عن المؤمن والكافر كليهما. أما إذا فسرناها بمعنى أن سرائر أصحاب القلوب الصافية سوف تُكشف، فالآية تختص بالمؤمنين. ولو كانت السرائر هنا بمعنى ما يكتمه المرء من أسرار، فالحديث هنا عن الكافرين فقط. وقوله تعالى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ دليل على أن السرائر هنا لا تشير إلى أصحاب القلوب الصافية، بل تعني ما

يُكتم من أسرار؛ ولا غرو أن الإنسان يكتم سيئاتِه دائمًا؛ وعليه فالمراد: يومَ يُكشَف ما ارتكبه الإنسان من سيئات وما كتمه من نوايا شريرة، أو أنه يُمتحن بصددها؛ ومثل هذا الإنسان لن يجد في نفسه قوة ولن يجد نصيرًا.

لقد تحدثت الآيات السابقة عن النجم الثاقب، ومعلوم أنه لا يُثقَب من الأشياء إلا ما يستوجب الإتلاف والهلاك، لأن الأشياء الجيدة لا تُثقَب ولا تُتلَف بضربها بالحجارة مثلا. ثم قال الله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.. أي أن الناس سيعارضون هذا النجم الثاقب، ولكن الله تعالى سيبّدد على يده الظلمات، ويفضح الذين يكيدون له سرًّا لإفشال مهمّته، ويكشف شرورهم ونواياهم السيئة، ويدمّرهم حتى لن يجدوا في أنفسهم قوة للنجاة، كما لن يقف أحد لنصرهم.

مرة أخبرني أحد الإخوة قائلا: كان أبي صديقًا حميمًا للمولوي محمد حسين البطالوي، وكان أبي يأمرني بزيارته كلما حضر إلى مدينة "شِمْله". فجاء البطالوي إلى "شِمْله" مرة، وذهبت للقائه، وبدأت في تدليك رجليه، وفيما أنا في ذلك إذ جاء الحافظ عبد الرحمن مؤلف كتاب الصرف وقال للبطالوي: "حضرة الشيخ، قد حقق الميرزا القادياني تقدّمًا كبيرًا، إذ يدخل الناس في جماعته بكثرة، وبدأت هذه الفتنة تتفاقم يوما فيوما". وبعد حديث طويل قال بعض الحاضرين: لماذا لا يقتله أحد منا؟ فقال البطالوي: "المشكلة أن بعض الناس قد حاولوا ذلك مرارا، ولكنه ينجو في كل مرة". يقول الراوي: فقلتُ في نفسي: لا خبرة لهؤلاء العلماء والشيوخ بهذه الأعمال، أنا سأتولى قتل الميرزا لأنال هذا الثواب، وصممتُ على ذلك في قلبي. وفي اليوم التالي حضر الحافظ عبد الرحمن للقاء البطالوي وقال له: حضرة الشيخ، لقد وجدنا سبيلاً لإلحاق الهزيمة بالقادياني. لقد نشر الميرزا إعلانًا أنه لن يخوض أي مناظرة بعد ذلك لأن الله تعالى قد نهاه عن ذلك، وإعلانه هذا سيجعلنا غالبين عليه. فلننشُرْ إعلانًا لمناظرته، فإذا رضي بالمناظرة قلنا: انظروا، لقد أعلن هذا الرجل أن الله قد نهاه عن المناظرات، ومع ذلك فقد رضي بالمناظرة، فثبت أنّه كذب فيما قال؛ وإذا لم يخرج للمناظرة، فقد هُزم أيضًا، لأننا سنعلن بين القوم أننا تحديناه للمناظرة ولكنه لم يخرج للنضال. ويتابع الراوي قائلا: كان الشيخ

البطالوي مستلقيا فجلس مستويا وقال: حضرةَ الحافظ، لقد جئتَ بحيلة بارعة، وبالعمل بها سنُسقطه في أعين الناس حتمًا. يتابع الراوي: لما سمعتُ حديثهما أيقنتُ منذ تلك اللحظة أن هؤلاء المشايخ كذابون. كانوا يقولون من قبل إنهم حاولوا قتل حضرة الميرزا و لم ينجحوا في ذلك، واليوم قد أجمعوا على خطة تتنافى مع التقوى. لا شك أن قلوبهم قد خلت من التقوى والإيمان. وهذا الحادث هو الذي قد تسبب في هداية هذا الأخ وانضمامه إلى الأحمدية.

فالله تعالى يعلن هنا: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۞ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾.. أي أن هؤلاء القوم سيلجأون إلى أنواع الحيل للقضاء على هذا النجم الثاقب، ولكنهم لن يجدوا في أنفسهم قوة، ولن يجدوا نصيرا على ذلك، وكل من يقف لنصرتهم يبوء بالفشل.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١٢﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

السماء: للسماء معان عديدة في المعاجم منها: الفَلَك؛ ما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع ويظهر فوقنا وحولَنا كقُبّة عظيمة، فيها الشمس والقمر وسائر الكواكب؛ كلُّ ما علاك فأظلّك؛ السحابُ؛ المطرُ. (الأقرب)

الرَّجْع: المطرُ بعد المطر. (الأقرب)

الصَّدْع: هو الشَّقُ في شيءٍ صلْبٍ؛ نباتُ الأرض. (الأقرب)

التفسير:. لقد تغيّرَ مفهومُ السماء هنا، كما تغيّرَ من قبل في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، وفي قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، إذ تعني السماء هنا الغيوم. وأما ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ فالرجع هو المطر بعد المطر. فالله تعالى يعلن هنا: نقدّم أمامكم شهادة السماء ذات الرجع.. أي أ لم تروا إلى الغيوم كيف تمطر على الأرض مطرًا بعد مطر. ولو لم ينـــزل الماء من الغيوم ولو لم تمطر السحب مرة بعد أخرى، لتوقفت الأرض عن نمائها وازدهارها تماما. إن مياه الأمطار هي التي تنمّي الأرض

وتظهر كفاءاتها الخفية. لقد قال الله تعالى من قبل ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِرٌ﴾.. أي أنه قادر على تطوير الإنسان ثانية، وهنا يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.. أي نقدم كشهادةٍ السحبَ التي تمطر مرة بعد أخرى. فكما أن المطر يهطل على الأرض ويحييها مرة بعد أخرى، كذلك يَنـــزل وحي الله وإلهامه إلى الدنيا ويهب أهلَها حياة روحانية مرة بعد أخرى. بضرب مثال السحب قد نبهنا إلى أن الغيوم كما تأتي وتمطر مرة بعد أخرى، ولولا ذلك لهلكت الدنيا، كذلك هي حال الحياة الروحانية، فلو لم يُقِم الله تعالى أناسًا من عنده لإصلاح الدنيا ولم ينـــزل على الأرض ماء الوحي والإلهام لم يحيَ الناس حياة روحانية أبدا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.. أي تزعمون أن الله تعالى أنزل الوحي والإلهام، ولكن ليس عند الناس استعداد لقبوله. والواقع أن هذا خطأ منكم. ألا ترَوْن الأرض كيف تكون جرداء غيرَ قادرة -في الظاهر- على إنبات شيء، ولكنها تكون في الواقع مزوَّدة بكفاءة الإنبات حيث تنشقّ عند هطول مطر السماء عليها وتُخرج أنواع النبات، فيصبح هذا المحال في الظاهر ممكنًا، وتخرُج أنواع الخضرة في مكان لم تكنْ هناك إمكانية ظاهرة لخروجها فيه.

ومن معاني الصدع النباتُ، وعليه فقوله تعالى ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ يعني ذات النبات، فالله تعالى يبين هنا أن هناك نظاما آخر جاريا في العالم إضافة إلى نظام السماء؛ حيث يهطل المطر من السماء على الأرض من جهة، ومن جهة أخرى تتمتع الأرض بكفاءة إخراج النبات مرة بعد أخرى. وبالمثل تجدون كفاءات الناس وكأنها ميتة، ولكن بعد نزول مطر الوحي والإلهام الإلهي ترَوْن أن هذه القلوب الميتة تبدأ في إخراج أنواع النبات والخضار. لا شك أن بعض الناس يكونون كأرض قاحلة لا تقدر على الإنبات إطلاقا، ولكن بعد نزول مطر وحي السماء يصدّق كثير من الناس المبعوثَ الإلهي في وقتهم عاجلا أو آجلا.

إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

قولٌ فَصْلٌ: فصَل الشيءَ: قطَعه وأبانَه. والفَصْلُ: الحقُّ من القول؛ القضاءُ بين الحق والباطل... قولٌ فصلٌ: حقٌّ ليس بباطل. (الأقرب)

الهَزْل: هَزَلَ الرجلُ: صارَ مهزولاً. هزَل فلان في كلامه: مزَح وهذَى. (الأقرب)

التفسير: المراد من كون القرآن قولاً فصلاً أنه بعد نزوله لن يحول شيء دون هزيمتكم أيها الكافرون، أو المعنى أن هذا القرآن قول فصل يفصل بين الحق والباطل ويتم التمييز بعده بين الكفر والإسلام حتمًا.

أو يعود ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ إلى الشخص الموعود في الزمن الأخير، والمعنى أن من المحال أن يأتي ذلك الموعود ولا تقع في الدنيا التطورات المذكورة سابقا، فهذا أمرٌ قطعيٌ قد فُصِلَ، وما هو بقولٍ هزلٍ ولا لغوٍ.

إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٧﴾

التفسير: لقد أعاد الله تعالى هنا نفس الموضوع الذي بيّنه في السور الأربع الماضية، حيث بين الله فيها أن الإسلام سيحقّق رقيًا عظيما، وسينتشر في العالم كله، وسيظل في زحفه حتى يصل إلى أنحاء العالم، وسوف تهدر جهود الكافرين وتبوء مكائدهم بالفشل. ثم أخبر الله تعالى في تلك السور أنه سيأتي على الإسلام فترة من الانحطاط، ولكنه سيزدهر ثانية ويهلك الكفر. وبعد ذكر هذه الأمور كلها يقول الله الآن ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.. أي لقد أخبرناكم بتاريخ الإسلام كله سلفًا، وبيّنا لكم كيف يغلب الإسلام أولاً، ثم كيف يضعف، ثم كيف يهيئ الله تعالى بعد ضعفه أسبابَ رقيِّه وغلبةِ المسلمين، وكيف يجعل هذا الدين غالبا على العالم كله. فهل بوسع أهل مكة أن يكسروا هذه الحلقات العديدة من

هذه السلسلة الطويلة من مستقبل الإسلام؟ وهل ينجحون في نواياهم الشريرة؟ كلا، بل إنه سيزدهر في المستقبل، ثم يتقلص ظله، ثم يصبح غالبا على العالم ثانية، ولكنكم يا أهل مكة تظنون أنكم ستمحونه بمكائدكم! فيا محمد، إذا كان هؤلاء يكيدون كيدهم فاعلم أني أيضا أكيد كيدي.

فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

مَهِّلْ: مهَّله الدَينَ وأمهلَه: أنظرَه وأجَّله. ومهَّلَ فلانًا وأمهَلَه: رفَق به. (الأقرب)

التفسير: تتضمن هذه الآية إشارة لطيفة رائعة، بيانها أن الله تعالى كان يستطيع أن يقول هنا: فمَهِّل الكافرين رويدا، ولكن انظرْ إلى روعة البيان ولطفه، إذ قال الله تعالى بدلاً من ذلك: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.. فقوله ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ كان سيؤدي إلى إثارة المشاعر المتباينة في قلوب المؤمنين وقلوب الكفار، إذ يفكر المؤمنون: لا ندري كم ستطول هذه المهلة التي سيُمنَحها الكافرون، بينما يقول الكفار في أنفسهم: لا داعيَ للقلق حاليًا، إذ قد أُعطينا مهلة، ونظرًا إلى هذه المشاعر المتباينة أضاف الله هنا قوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾؛ وهكذا طمأنَ المؤمنين أن الكفار لن يُعطَوا مهلة طويلة، بل هي بسيطة؛ كما خيّب بذلك أيَّ أمل عند الكافرين ونبّههم ألا يظنوا أنهم سيُعطَون الآن مهلة طويلة، كلا، بل لقد آنَ الأوان لهلاكهم ودمارهم.

يقال: ساروا سيرًا رُوَيدًا: أي برفقٍ وتُؤَدة (المنجد)، وعليه فقوله تعالى ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ يعني أولاً: أَعْطِهم مهلةً قصيرة، وثانيًا: ارفُقْ بهم في فترة المهلة هذه، لأن موعد عقابهم آتٍ حتمًا، وسيهيئ الله بنفسه عندها أسباب دمارهم.

سورة الأعلى

مكية، وهي عشرون آية مع البسملة

هذه السورة مكية عند الجمهور، وقد قال ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة ﵃ إنها مكية. ورُوي في صحيح البخاري وغيره عن البراء بن عازب أنه قال: أولُ مَن هاجر من أصحاب النبي ﷺ هو مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم، فجعلا يعلّمان القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم عمر بن الخطاب مع عشرين آخرين، ثم جاء النبيُّ ﷺ، و لم أرَ أهل المدينة فرحين كما رأيتهم يوم مقدم الرسول ﷺ.. فكان الأطفال والكبار إذا اجتمعوا قال بعضهم لبعض: ها قد جاء رسول الله ﷺ.. ها قد جاء رسول الله ﷺ. وكنت عندها قد حفظتُ سورة الأعلى وأمثالها من السور. (البخاري، كتاب المناقب، باب مقدم النبي ﷺ) ✪

فثبت من هنا أن هذه السورة قد نزلت قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. وقد قال المستشرقون أيضًا إنها سورة مكيّة، حيث قال الباحث الألماني "نولدكه" أنها نزلت بعد سورة القلم فورا. أما القسيس "ويري" فيرى أن آياتها من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة مَدنيةٌ، إذ تتحدث عن صحف إبراهيم وموسى، و لم يعرف محمدٌ عن أحوال هذين النبيين إلا بعد اختلاطه باليهود في المدينة.

وهذا الاستدلال مثال آخر على استدلالات هذا القسيس المغرضة؛ إذ الواقع أن السور المكية أيضا تذكر إبراهيم وموسى في مواضع كثيرة. ثم إن إبراهيم ﵇

✪ نص الحديث المشار إليه هو: "عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ فَقَدِمَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ. ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ". (المترجم)

كان الجد الأكبر لقريش، فالقول إن ما ورد في هذه السورة عن إبراهيم إنما كان نتيجة اختلاط رسول الله ﷺ باليهود في المدينة قول ساقط عقلا.

ورد عن هذه السورة في الحديث عَن النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَة بـــ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قَالَ وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ. (مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، ومسند أحمد، حديث النعمان بن بشير).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُوترُ بـــ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (أبو داود: كتاب الصلاة، والنسائي: كتاب قيام الليل، وابن ماجة: كتاب الوتر، والدارقطني، والبيهقي، والحاكم)

وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾. (مسند أحمد)

وقد سُئلتْ عَائشَة رضي الله عنها: "بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يُوترُ رَسُولُ اللَّه ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ يَقْرَأُ فِي الأُولَى بـــ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ وَفِي الثَّانِيَةِ بـــ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَفِي الثَّالِثَةِ بـــ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ. (الترمذي: أبواب الوتر، وابن ماجة وأبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي)

أما صلة هذه السورة بالتي قبلها فيقول صاحب "البحر المحيط" قد ذكر الله تعالى في السورة السابقة كيفية خلق الإنسان، بينما أكد في هذه السورة أن ربه الأعلى هو الذي خلقه هذه الخلقة.

غير أني أرى أن صلة هذه السورة بالتي قبلها هي كالآتي: لقد بيّن الله تعالى في السورة السابقة أن من خصائص الشخص الموعود للأمة أنه سيجذب في نفسه نور الرسول ﷺ ويوصله إلى الناس، بمعنى أنه يكون كالبدر في الليلة الرابعة عشرة ينشر نور الإسلام في العالم؛ ومن خصائصه أيضًا أنه يكون كالطارق، والطارق هو كوكب الصبح، وفيه إشارة إلى طلوع الشمس، وعليه فالمعنى أن الناس لن يروا رسول الله ﷺ بواسطة هذا الموعود فحسب، بل إن الإيمان به سيمكّنهم من

الاتصال الشخصي برسول الله ﷺ، حيث يجدون في نفوسهم أنواره وبركاته ﷺ. هذا هو السبب في أن هذا الموعود قد سُمي باسمين: المسيح الذي يشير إلى كونه بدرًا، والمهدي الذي يشير إلى كونه طارقًا. وهذان الاسمان يشيران إلى مهمّتين له، حيث بيّن الله تعالى أن هذا الموعود سيجذب في نفسه نور رسول الله ﷺ ويوصله إلى الناس، ثم يؤهّلهم لإنشاء صلة مباشرة مع رسول الله ﷺ. فهو بدر بحسب مهمّة، وطارق بحسب مهمّة أخرى.

وهنا ينشأ السؤال التالي: إن الرسول ﷺ نبي كامل، وقد نزل عليه الوحي الأخير والقطعي، كما أُشير إلى ذلك في السورة السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.. أي قد نزل على هذا الرسول كلام هو قول فصل.. أي ما يقطع سائر الأقوال الأخرى.. حيث يُطلَق القول الفصْل على كلام هو الأعلى والأفضل.. كما لا تبقى بعده حاجة لأي قول آخر، ومثاله قول الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(ص: ٢١). والمراد من تَلقّيه ﴿فصْل الخطابِ﴾ أن قراره كان نهائيا. فالمراد من القول الفصل أنه الوحي الأخير الكامل الذي لا حاجة بعده لأي وحي أو كلام آخر. وهنا ينشأ سؤال: ما دام القرآن قولاً فصلاً.. أي وحيًا أخيرًا كاملا لا حاجة بعده لأي وحي آخر، فما الداعي لبعثة هذا الموعود؟ لما كان الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ قولا فصلا وما دامت الشريعة النازلة عليه كاملة، بحيث لا تحتاج الدنيا إلى أي شريعة أخرى بعدها، فما الحاجة إلى نزول وحي آخر بعده؟ وليس هذا كل ما في الأمر، بل قد زاد الله على ذلك فقال ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي أن شريعة القرآن لا يمكن أن تضعف، إذ الهزل هو الضعيف الذي لا قوة فيه ولا يصلح لشيء. كان المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أن لا حاجة بعد القرآن لأي كلام؛ لأنه كلام متكامل، وحيث إن التعاليم المتكاملة أيضا يمكن أن تندثر أحيانا، فلذلك زاد الله على ذلك قوله ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي أن هذا الكلام لن يضعف ولن يصبح غير صالح بحيث تساوركم الشبهات بأنه أيضا سينمحي في يوم من الأيام. لو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ لظلّت هذه الشبهة قائمة؛ لأن بعض أنواع الكلام

يكون قولاً فصلا، ومع ذلك يكون مؤقتًا وينمحي بعد فترة، ومثاله قول الله تعالى عن داود ﷺ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، فرغم كون كلامه قرارًا نهائيًا إلا أنه قد انمحى واندثر. فلا يتضح من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ ما إذا كان القرآن الكريم قولاً فصلاً مؤقتًا أم أبديًا، بل كانت هناك إمكانية أن تنشأ في بعض القلوب الشبهة: لماذا لا نفهم من كون القرآن كلامًا أخيرًا بأنه كان كاملاً في عصره فحسب، وكان شرعًا أخيرًا في زمنه فقط، فيُنسَخ مثل الكتب السابقة، وإذا استجدّت الحاجات فسيأخذ مكانه كتاب آخر، وذلك كما يزعم البهائيون اليوم (God Passes: by Shoghi Effendi, p 25)✪ ودرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي لن يصاب هذا الكلام بالضعف ولن يصبح غير صالح للعمل، بل ستظل الدنيا بحاجة إليه دومًا، ولن ينمحي أبدا. فهذا الكلام ليس بالقول الفصل مؤقتا، بل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ للأبد.

فما دام القرآن الكريم وحيًا أخيرًا وكاملاً وغيرَ ضعيف، فالسؤال الذي ينشأ هنا: ما الحاجة بعده إلى وحي آخر؟ إنه كتاب كامل ولن يضعف، فأي حاجة لأي وحي أو مدّعي وحيٍ بعده؟

وإضافةً إلى هذه الشبهة هناك تساؤل آخر، وهو أن الله تعالى قد قال في السورة السابقة إن الإنسان ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾. وكان من الممكن أن يقول الله تعالى هنا إنه خلق الإنسان من ماء فقط، كما قال في مواضع أخرى، فبإضافة ﴿دافق﴾ هنا قد بين الله تعالى أن الخَلق الظاهري للإنسان مشابه لخلقه الباطني.. أي أنه مزود بخاصية الدفق والقفز من الناحية الروحانية، وكما أنه خُلق من شيء يدفق ويقفز في

✪ قال البهاء: "من يقرأ آية من آياتي خير لـــه من أن يقرأ كتب الأولين والآخرين." (الأقدس، النسخة البغدادية ص ٣٩، والنسخة الكَنديّة ص ٨١).

وقال: "تالله لا يغنيكم اليوم كتبُ العالَمَ وما فيه من الصحف إلا هذا الكتاب الذي ينطق من قطب الإبداع أن لا إله إلا أنا العليم الحكيم." (الأقدس، النسخة البغدادية ص ٤٧) (المترجم)

ظاهره، كذلك يحدث في الإنسان دفق روحاني، وتأتي عليه أدوار شتّى للرقيّ، فهو يزداد وينقص باستمرار. وهذا الكلام أيضا يتعارض في الظاهر مع قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، حيث يقال: لقد أُشير بقوله تعالى ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ إلى وجود قوة الدفق في الخلق الروحاني للإنسان، فتأتي عليه أدوار من الرقي والتراجع روحانيا، بينما وصف الله القرآن بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.. وما دام القرآن قولا فصلا، فلماذا يوجد عند الإنسان رقي وتراجع روحانيا؟ كان ينبغي بعد نزول هذا الوحي الذي هو قول فصل أن يزداد الإنسان في روحانيته دائما ولا ينقص، ولكنكم تقولون إنه كما خلُق من ماء دافق ظاهرًا، كذلك قد خُلق من ماء دافق باطنًا.. أي فيه تيار روحاني يرتفع حينا وينخفض حينًا، كالشيء القافز الذي يصعد مرة ويسقط أخرى، وأن الناس قد خُلقوا خِلقةً بحيث يتقدمون تارة ويتأخرون أخرى، ويرتفعون حينًا وينخفضون حينًا، وهكذا ففيهم طابع الدفق وموجات مختلفة. يقال لنا من ناحية إن القرآن قول فصل، وهذا يحتِّم ألا تنخفض هذه الموجات الروحانية بعد القول الفصل، فلماذا قيل ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾؟ إذا لم يوجد الدفق في حياة الإنسان فتصبح هذه الآية باطلة، وإذا وُجد فالسؤال: بأي شكل يكون هذا الدفق بعد نزول القول الفصل؟

ثم هناك سؤال ثالث ينشأ من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وهو: قد جاء من عند الله أنبياء كثيرون منذ البداية حتى اليوم، فلماذا نزل القول الفصل الآن، ولَمْ ينـــزل من قبل على أحد منهم؟

كان السؤال الأول عن القول الفصل: ما الحاجة إلى أي موعود سماوي بعد نزول القول الفصل؟ وكان السؤال الثاني: إذا كان الناس يطيقون نزول القول الفصل فلماذا لم ينـــزل على نبي من قبل؟ ولماذا نزل الآن؟ إذًا فهناك ثلاثة أسئلة: سؤالان يتعلقان بالقول الفصل، وسؤال يتعلق بـــ ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾. وقد أجاب الله على الأسئلة الثلاثة هنا في سورة الأعلى، وأخبر أن النواميس الطبيعية تبين أن بعض الأشياء تُخلَق لمنافع مؤقتة، وبعضها لمنافع طويلة. والأشياء المخلوقة

لأهداف مؤقتة حياتُها قصيرة جدا، أما الأشياء التي تُخلَق لتبلُغ منتهى كمالها فتكون حياتها طويلة جدًّا، وأن ارتقاءها الجسماني يصل إلى مرحلة ثم يتوقف.

ولهذه السورة علاقة بالتي قبلها من حيث خلق الإنسان، فقد تحدث الله تعالى في السورة السابقة عن خلقه وارتقائه التدريجي فقال ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.. أي أن الإنسان يخلق أولاً في الصلب، ثم تقوم الترائب بتنميته، بمعنى أن النطفة تتكون أولاً في جسم الأب، ثم تدخل في رحم الأم وتتطور هناك، ثم بعد الولادة ينمو المولود تدريجيا بتناول غذائه من ثدي أمه. أما هذه السورة فقد بيَّن الله تعالى فيها أن تطوُّره الروحاني أيضًا يتم تدريجيا مثل تطوُّره الجسدي. ولا شك أن الإنسان يُولَد بقوى معينة، إلا أن الخبرة تطوِّر عقله وتنمِّيه. إذن فكما أن خَلْق الإنسان الجسماني يتطور تدريجا، كذلك فإن خلقه الروحاني يتطور تدريجا.. ثم كما أن خلْق الفرد يتم بمراحل، كذلك خلق الأمة يتم بمراحل، ويتطور عقلها بالتدريج، ولهذا السبب ينــزل الهدي من الله تعالى حسب كل عصر. لا شك أن الخضروات ضرورية للإنسان، إلا أن عمرها قصير، حيث تفنى بسرعة، كذلك فإن الشرائع المؤقتة كانت تُنسخ وتضيع بعد فترة. أما الأشياء التي تكون الحاجة إليها دائمة لا مؤقتة، فإنها تظل تعمل منذ خلقها. خذوا مثلا الشمس، فإنها تعمل منذ أن خُلقت كما هي حتى اليوم، وليس أن شمسا تندثر لتأخذ مكانها شمس أخرى. والحال نفسه بالنسبة إلى القمر، فإنه لا يزال باقيًا كما خُلق. فثبت أنه فيما يتعلق بالمخلوقات، فإن منها ما انمحى وباد، ولكن منها ما لم تَنَلْه يدُ الفناء، حيث يعترف علماء التطور أن بعض أنواع الخلق الناقصة انقرضتْ كليًا، ولكن هذا التغير الارتقائي توقَّف عند خلق الإنسان.

إذن، فالقول إن الشيء الذي خُلق يجب ألا يفنى قولٌ خطأ وباطل؛ إذ هناك أشياء كثيرة يخلقها الله تعالى وتكون ضرورية ونافعة، ومع ذلك تنالها يد الفناء بعد فترة، لأن الزمان يتغيّر، فلا تعود ذات فائدة عند الله تعالى.

وهنا ينشأ سؤال آخر: ما هو الدليل أن القرآن لن يُنسَخ في يوم من الأيام؟ فقد كانت التوراة ضرورية لعصرها، ومع ذلك صارت منسوخة بعد فترة، فلماذا لا

يقال عن القرآن الكريم بأنه ضروري لزمنه فقط وليس للأبد؟ وهذا السؤال يثيره البهائيون قائلين: ما دامت الشرائع السابقة قد نُسخت، فكيف يقال إن القرآن لن يُنسَخ أبدا؟ وقد أجاب الله على هذا السؤال أيضا في هذه السورة فقال تعالوا نخبركم لماذا نُسخت الشرائع السابقة ولماذا لن يُنسخ القرآن.

من الغريب أيضا أن السور التي ورد فيها ذِكر المسيح الموعود قد ذُكر فيها التسبيح بوجه خاص، مما يدلّ على أن للمسيح الموعود صلة خاصة بالتسبيح. ولا أقصد بذلك أنه حيثما ذُكر المسيح الموعود ذُكر التسبيح، بل أعني أن السور التي ذُكر فيها المسيح الموعود تتحدث عن التسبيح بوجه خاص. هناك عدة سور تتحدث عن المسيح الموعود، منها السور الأربع الماضية كما بينتُ من قبل، ولكن سور الصف والجمعة والأعلى تذكر المسيح الموعود ذكرًا خاصًّا، حيث تبدأ سورة الصف بقوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وتستهلّ سورة الجمعة بقوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِك الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.. وتبدأ سورة الأعلى بقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾. وقد وردت فيها الأفعال الثلاثة بصدد التسبيح؛ فـــ ﴿سَبَّحَ﴾ فعلٌ ماض، و﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع وهو للحال والاستقبال، و﴿سَبِّحْ﴾ فعل أمر وهو خاص بالاستقبال، إذ إننا حين نأمر أحدًا بشيء فإنه لا يكون يعمل به عندها وإنما يبدأ العمل به بعدما نأمره. وبذكر هذه الأفعال المتعلقة بالأزمنة الثلاثة بشأن التسبيح قد بيّن الله تعالى أن كل هذا التسبيح المتعلق بالأزمنة الثلاثة سوف يتم في عصر هذا الموعود. وهذا موضوع مستقل لا مجال للخوض فيه هنا، وإنما اكتفيتُ بالإشارة إليه وبينتُ أن الله تعالى قد استعمل في هذه السور الثلاث الأفعال الثلاثة، وهكذا وعد بتكميل التسبيح على يد المسيح الموعود عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

سَبِّحْ: أمرٌ من سَبَّحَ اللهَ: أي نزَّههَ. (الأقرب)

رَبِّكَ: الربُّ: مَن يربّي ويطوّر ويوصل إلى الكمال تدريجيًا. فكلمة (الرب) متضمنة لمعنى خلق الشيء ثم تطويره إلى الكمال بالتدريج.

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ بطريقين: سَبِّحِ اسمَ ربِّك الذي هو أعلى، أو سَبِّحِ الاسمَ الأعلى لربّك، ففي الحالة الأولى يكون "أعلى" صفةً للرب، والمراد: سَبِّحِ اسمَ ربِّك الذي ربوبيتُه أعلى وأرفع؛ وفي الحالة الثانية يكون "أعلى" صفةً للاسم، والمراد: ارفَعْ في الدنيا الاسمَ الأعلى لربِّك.

الواقع أن كثيرين يشاركون الله سبحانه وتعالى في مجال الربوبية، فكلٌّ من الوالدين –مثلاً– ربٌّ في مجاله الخاص إذ يربي ولده، ولذلك قد استُعمل لفظ الرب في القرآن الكريم لغير الله أيضا، مُقِرًّا أن الناس يشتركون مع الله تعالى في صفة الربوبية فيما يتعلق بالاسم، فالأب ربٌّ بهذا المعنى والأم أيضا إذ يقومان بتربية أولادهما، والأستاذ أيضا ربّ، والقائد الدينيّ ربّ، والمحسن ربّ، لأنهم كلهم يقومون بربوبية الآخرين في مجالاتهم. ولما كان هؤلاء يشتركون مع الله تعالى في صفة الربوبية، فلم يصف الله نفسه هنا بالرب فقط، بل قال ﴿رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. موضحًا أن الآخرين يشتركون في هذه الصفة من ناحية الاسم بلا شك، ولكن ربّك هو الأعلى، والأرباب الآخرون أدنى درجةً بكثير وربوبيتهم ناقصة، لأن ربوبية الله هي الكاملة من كل النواحي. إذًا فبقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قد أمر الله نبيَّه أن يردّ على كل ما يُثار ضد ربوبيته تعالى من اعتراض، لأن ربوبية الآخرين الناقصة تؤدي إلى شبهات وأفكار خاطئة عند الناس، فينسبونها إلى الله، ظانين أنه تعالى أيضا يقوم بمثل هذه الربوبية الناقصة، فعليك بدفعها وإزالتها. خُذوا مثلاً الأستاذ، فإنه مُرَبٍّ،

ولكن تربيته تؤدي أحيانًا إلى كثير من العيوب بدلاً من أن تكون نافعة. وبالمثل إن الوالدين أيضًا من الأرباب بلا شك، حيث يُطعمان أولادهما، ويسقيانهم ويكسوانهم ويسدّان كل حاجة لهم، ولكنهما يُفسدان أخلاقَهم أحيانا بتدليلهم الزائد، فربوبيتهما تكون ناقصة أحيانا وتؤدي إلى كثير من العيوب بدلاً من أن تكون نافعة. ولكن الله تعالى يقول هنا لرسوله إن ربوبيتنا أسمى من أي نقص، فأَخْبِرِ الناسَ أنه مع أن البشر يشتركون مع الله تعالى في اسم الربوبية، إلا أن الرب الذي أعرضُه على العالم هو الرب الأعلى، إذ لا يوجد في ربوبيته نقص ولا عيب مطلقًا؛ فإنه تعالى إذا أعطى تعليمًا فلا بد أن يكون خاليًا من أي نقص، وإذا هيّأ أسبابًا فلا بد أن يهيئ ما هو ضروري، ومن المستحيل أن تكون ربوبيته ناقصة.. أي أن يهيئ ما ليس ضروريا ولا يهيئ ما هو ضروري. بينما لا تخلو تربية الوالدَيْن مثلاً من هذا العيب، إذ لا يعرفان أحيانا النافع من الضارّ، فمثلاً يُطعمان الطفل في وقت لا يحتاج فيه إلى الطعام، أو لا يطعمانه ما هو بحاجة إليه. والواقع أن الأولاد يمرضون لهذا السبب في معظم الأحيان، إذ يقع آباؤهم في مثل هذه الأخطاء في العناية بهم. فأحيانًا يكون الوليد بحاجة إلى لبن أمه، ولكنها لا ترضعه، فيضعف وينحف، وأحيانًا لا يكون بحاجة إلى لبنها، ولكنها ترضعه لو بكى قليلا، فتصاب معدته بأنواع الأمراض. في بعض الأحيان يبلغ الطفل من العمر بحيث يكون بحاجة إلى غذاء صلب، ولكن أمه لا تزال ترضعه لبنها، فتضعف هي، كما أن ولدها لا يقدر على هضم الغذاء الصلب. إن اللبن ليس غذاء مناسبا للطفل في كل سنّ، بل إنه مناسب إلى عمر معين، ولو استمرّت الأم في إرضاعه بعدها ضعفت معدتُه، فلم يقدر على هضم الغذاء الصلب لاعتياده الغذاءَ السائل؛ فما إن يدخل الغذاء الصلب في بطنه إلا ويصاب بالإسهال. فإننا نرى أن الكبار أيضًا إذا مرضوا وتركوا الغذاء الصلب مكتفين بتناول الحليب والأرز مثلا أسبوعًا أو أسبوعين، ثم بدأوا بتناول الخبز اشتكوا من سوء الهضم، ذلك لأن معدتهم تضعف باستعمال الغذاء اللين. فلا شك أن اللبن غذاء جيد، ولكن الله تعالى قد جعله غذاء مناسبا للوليد الذي عمره سنة ونصف أو سنتان، أما بعدها فلو أُرضع اللبن فقط -كما تفعل بعض الأمهات

اللواتي يُفرِطن في تدليل أولادهن حيث يرضعنهم ثلاث سنوات أو خمسًا أو سبعًا أحيانًا- أصابه المرض، وذلك أولاً لأن حليب أُمِّه يكون قد فسد، وثانيًا لأن معدته لم تتدرب على هضم الأغذية الصلبة، فيصاب الولد بضعف المعدة الدائم. ومع ذلك نجد بعض الأمهات ترضع ولدها سنوات عديدة لحبها المفرط، وإذا سألتها عن ذلك قالت: ماذا أفعل، إنه لا يتركني، ويبكي إذا لم أرضعه، والنتيجة أن الأم تصاب بالضعف، كما أن الوليد يكون ضعيفا. ولذلك يقول الله تعالى إن ربوبية الأرباب الآخرين ناقصة، إذ لا يعطون الإنسان ما يحتاجه عند الضرورة، ويعطونه إياه حين لا يكون بحاجة إليه، ولكن الله تعالى ليس هكذا، بل إن ربوبيته منـــزهة عن كل نقص وعيب.

لقد ذكرتُ من قبل أن هناك اعتراضا يثار حول قول الله تعالى في السورة السابقة ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فيقال لماذا لم ينـــزل الله القول الفصل منذ البداية، وقد جاء الرد على ذلك في هذه الآية، حيث أوضح الله تعالى أنه الربّ، فيراعي الحاجةَ والتدرجَ دائمًا. إذا كانت الأمُّ -وهي مظهر ناقص للربوبية- لا تُطعم وليدها الخبزَ فور ولادته، بل ترضعه لبنها فقط، فكيف نعطي الإنسان غذاءً روحانيا غيرَ مناسب؟ قد تخطئ الأمّ، فتطعم وليدها كبابًا أو قطعة لحم، فيمرض ويموت، ولكن الله تعالى يعلن هنا أني لست عاطفيًا كالأم فأُنزلَ في أول يوم الشرعَ الكامل والقولَ الفصل، فيضُرّ عقلَ الإنسان بدلاً من أن ينفعه، فإني لست ربًّا فحسب، بل أنا الربّ الأعلى. فمثلا لم يكن الناس في زمن آدم يعرفون ما هي السرقة، إذ كانوا قلّةً وكانت الخيرات وفيرةً، فما كانوا يفتقرون إلى شيء منها، وبالتالي ما كان لأحد أن يفكر في السرقة، لأن المرء يرغب في السرقة عند حاجته إلى شيء، وحين تكون حاجته أكثر مما عنده. ولكن لم يكن في زمن آدم أي قلة في الخيرات كان عدد العائلات في العالم محدودا، وكان كل شيء متوفرا بكثرة. فلو نزل القرآن الكريم في ذلك العصر، وقال لهم لا تسرقوا، لسأل بعضهم بعضا: ما هي السرقة يا ترى؟ ولو أُخبروا أن السرقة أن تأخذ مال غيرك في غيابه بدون إذنه، وتسد به حاجتك، لبدأت السرقة في زمنه، مع أن الواقع أن حالات السرقة قد وقعت بعد آدم بآلاف

السنوات. أو لو قيل للناس عندها: لا تقعوا في الفاحشة، لأخذ الناس في السؤال عن الفاحشة يومها، ولبدأ الضعفاء منهم بممارستها من أجل التجربة بعد العلم بها، ثم وجدوا المتعة فيها وروّجوا لها.

الواقع أن الإحساس بالفاحشة أيضًا يأتي تدريجيا؛ في أول الأمر يخاف الإنسان من ارتكابها، مدركًا أن عمله هذا سيُعتبر عملا قبيحا، ولكنه حين يرى أن فلانا قد ارتكب هذه الجريمة، ومع ذلك لم يحصل به شيء، فإنه يجد في قلبه الجرأة على ارتكابها. ذلك لأن الناس لا يستطيعون أن يروا العقاب الروحاني، ولا يوجد الإيمان بيوم الآخرة حقًّا إلا في قلة منهم، فلا يتجنبون الفاحشة إلا خوفًا من نتائجها الوخيمة. ولكنهم عندما يرون أن فلانًا ارتكب الفاحشة ولم يُصِبْه ضرر، فيرغبون في ممارستها من أجل التجربة. فلو أن الله تعالى أمر الناس في زمن آدم عليه السلام بعدم ارتكاب الفاحشة لسأل بعضهم بعضا: ما هي الفاحشة يا ترى؟ وإذا علموا بها انتشرت هذه المعصية في ضعاف الإيمان منهم.

ثم خذوا القتل مثلا؛ إذ يتضح من القرآن أن فكرة القتل خطرتْ ببال أبناء آدم في وقت من الأوقات، ولا يعني ذلك أنها خطرت ببال أبناء آدم المباشِرين، بل المراد أنها نشأت في نسله بعد مدة، حيث رمى أحدهم صاحبه بحجر في ثورة الغضب فمات، ومن هنا علِم الناس أن القتل أيضا وسيلة من وسائل الانتقام، وإلا لم يكن القتل موجودًا في الدنيا من قبل، بل يوجد حتى اليوم شعوب لا تعرف القتل. فلو نزل الشرع الكامل في ذلك العصر الذي لم يخطر ببال أحد فيه قتل أو سرقة أو فاحشة.. وقيل لهم لا تقتلوا ولا تسرقوا ولا تزنوا، لَوُضع عندها الأساس لكثير من الجرائم التي لم توجد إلا بعد آلاف السنين. أما لو لم ينـــزل شيء عن هذه الأمور لصار الشرع ناقصًا بالنسبة للمستقبل الذي كان انتشار هذه المعاصي مقدَّرًا فيه، ولم يقدر الشرع الناقص على سدّ حاجات الناس، فمسّت الحاجة إلى شريعة جديدة.

يتضح من القرآن الكريم أن بعض الجرائم نشأت في زمن شعيب، وبعضها في زمن لوط، وبعضها في زمن أنبياء آخرين، ولو تحدّث الله عنها في زمن آدم لتوجه

الناس إلى ارتكابها منذ آلاف السنين من اليوم، مما أدى إلى إعاقة رقيهم، لأن مَثَله كمَثَل الأم التي تُطعِم رضيعها كبابًا أو قطعة خبز، فيموت، لأن عمره يتطلب أن يُرضع اللبن فقط.

فلذلك يقول الله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي لو قال الناس: لِمَ لَمْ ينـــزل القول الفصل في بداية الإنسانية، فقُلْ لهم إن ربي أعلى؛ فإذا كان الأرباب الناقصون يطعمون شيئا واحدا لكل المواليد بغض النظر عن أعمارهم، فإن الرب الأعلى الكامل لا يعطي إلا عند الحاجة الحقيقية، ولا يعطي إلا ما هو مناسب، ولذلك فإنه لم يُنـــزل القول الفصل في البداية، لأن القول الفصل يعني كتابًا كاملاً جامعا يحتوي بيان كل أنواع الضرورات بحيث لا يبقى بعده حاجة إلى وحي شرعي آخر. أما لو نزلت شريعة جامعة كهذه في البداية لوُضِعَ الأساس لكل الجرائم والمعاصي عند بداية الخلق الإنساني ولشَمَلَهم الفناء. لا شك أن الشرائع الأخرى أيضا تنهى عن السيئات، ولكن لم تَنْهَ عنها أية شريعة منها إلا بعد أن اخترعها الشياطين من الناس بمرور الزمن، وإلا فإنما تأسست أول شريعة على قوانين الفطرة فقط، ثم شيئا فشيئا تم التحول من قوانين الفطرة إلى شريعة الوحي، فكلما خالف الإنسانُ قانونًا من الفطرة نزل وحي الله تعالى بصدده، لا أن وحي الله تعالى قد تحدث عن سيئة قبل إيجادها من قِبَل الناس، إذ لو نزل الشرع الكامل في البداية ونهى عن كل أنواع السيئات، لوُضع حينها الأساسُ لكثير من الجرائم التي وُجدت فيما بعد في الواقع، ولهلكت الدنيا أخلاقيا وروحانيا.

ثم إن مِن الربوبية ما يكون مشوبًا بغرض، كأن يحسن المرء إلى الآخر تملقًا أو رياء، ولكن ربوبية الله ليست هكذا. وأحيانًا يقوم المرء بعمل في غير محله، ولكن ربوبية الله منـــزهة عن هذا العيب أيضًا. وهذا هو الموضوع الذي بيّنه الله تعالى في هذه الآية، فأوضح أن ربوبية ربك، يا محمد، منـــزّهة عن أي عيب.

إذن، فبرغم أن الآخرين يشتركون في بعض صفات الله تعالى اشتراكا لفظيا ناقصا، إلا أن الواقع أن صفاته تعالى مغايرةٌ تمامًا لصفات غيره. فمثلا يشترك الناس مع الله تعالى في صفته الرب والرحيم والعالِم والمالِك، ولكنه اشتراك بالاسم وفي

الظاهر فقط، لا في الحقيقة. وإنما الغرض من هذا الاشتراك اللفظي البحث أن الإنسان لا يقدر على فهم صفات الله تعالى بدون ذلك، فأعطاه الله اسمًا يشبه صفةً من صفاته تعالى، وإلا فالواقع أنه شتّانَ ثم شتّان بين صفات الله وصفات الإنسان. إنما اختار الله تعالى هذا الأسلوب لتقريب المعنى إلى أفهام الناس، وإلا فهيهات أن تكون ربوبية العبد مثل ربوبية الله، ورحيميةُ العبد مثل رحيمية الله، ومالكيةُ العبد مثل مالكية الله. إذا سُمي الله والعبدُ باسم واحد نظرًا إلى بعض الصفات، فإنما ذلك ليفهم العبد صفات الله تعالى. وإذا كنا نسمي الله مالكًا والإنسان مالكًا، فليس معناه إلا أنه يوجد في الإنسان تشابُهٌ ناقص بصفة الله المالكية، وليس أن الإنسان مالكٌ كمالكية الله تعالى، لأن صفة العبد ناقصة، وصفة الله كاملة.

باختصار، يقول الله تعالى هنا ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي قد وقع الناسُ في أنواع الشبهات حول صفات الله تعالى نتيجة بعض أفعال العباد الناقصة وبسبب اشتراكهم في أسماء الله الصفاتية، فيظنون أن أفعال الله أيضا ناقصة كأفعال العباد، فعليك، يا محمد، دَرْءَ كل شبهة وردَّ كل اعتراض حول ربوبية الله تعالى. إنه لموضوع واسع لطيف وعلى المرء أن لا ينخدع بوجود هذا الاشتراك اللفظي الظاهري بين صفات الله تعالى وصفات العباد.

وهناك معنى آخر لهذه الآية وذلك باعتبار ﴿اسم﴾ هنا بمعنى أسماء، وهو: ربك الذي ربوبيته تفوق ربوبية الآخرين قد أحسنَ إليك أكثر مما أحسن إلى أحد؛ وما دام قد خصّك بين الناس بهذا الإحسان العظيم، فمن واجبك الآن أن تردّ على كل من يثير أي اعتراض على ذات البارئ تعالى. وحيث إن الله تعالى قد أحسن إليك إحسانًا لا مثيل له، فأنت الأوْلى بإزالة شكوك الناس حول ذات البارئ تعالى؛ ذلك لأن الذي قد رأى الله تعالى هو الذي يقدر على ردّ كل المطاعن على صفاته تعالى، أما الذي لم يشاهد في ذاته تجلّي صفاته تعالى فأنّى له دفع هذه المطاعن، لذلك يقول الله تعالى لنبيّه إن ربك الأعلى قد تولّى ربوبيتك بنفسه، وقد مَنَّ عليك بما لم يمنّ به على أحد من العالمين، فمن واجبك الآن أن تردّ على كل المطاعن التي تثار عن أي صفة من صفات الله تعالى، وأن تبين للناس أن الصفات الإلهية منـــزهة عن

كل نقص وعيب. والواقع أننا لو تدبرنا في سوانح الرسول ﷺ لوجدنا أن الله تعالى قد خصّه بمعاملة لم يخص بها أحدا من العالمين، ولذلك ما كان بوسع أحد إدراك صفات الله تعالى كما أدركها الرسول ﷺ. خذوا مثلاً صفة الله المالِك.. فقد تجلّى الله على رسوله بمالكيته بما لم يتجلّ بها على أبي جهل. كان أبو جهل يعترف بمالكية الله اعترافًا تقليديا كأناس آخرين، أما محمد رسول الله ﷺ فقد جعله الله مالِكًا بالفعل ليعرف معنى المالك حق المعرفة، لأن المالك مَن تكون كل الأشياء في قبضته وتحت تصرفه، فيعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، وينـــزع ممن يشاء. لقد نزع الله تعالى الحُكمَ من العرب الكافرين ومنحه محمدًا رسول الله ﷺ، فكيف يمكن أن يكون أحد أكثر إدراكًا لصفة الله المالك منه ﷺ؟ كان الآخرون أيضًا يؤمنون أن الله مالك، ولكن إيماهم كان بناء على ما يردده الآخرون بأن الله مالك، ولكن الله تعالى قد جعل محمدا ﷺ نفسه مالكًا، وتجلّى عليه بصفة مالكيته مباشرة، فأنّى للآخرين أن يتيسر لهم إدراك صفة الله المالك كما تيسر له ﷺ؟ ثم خُذوا مثلا صفة الله الرب. يولد الناس ويتربّون تحت ظلّ آبائهم وأمهاتهم، ويتلقّون العلوم من أساتذتهم، فيظنون أن آباءهم أطعموهم وكسوهم وأنفقوا عليهم، وأن أساتذتهم علّموهم. لا شك أنهم يعترفون بلسانهم أن الله ربهم، ولكن لا يكون عندهم دليل على ذلك، وإنما يردّدون ما سمعوه. يقول لهم المشايخ إن الله هو الرزاق وهو يعطي المال ويهب العلم، فتأخذهم حيرة إذ لا يرون ذلك في الظاهر، فيقولون إن ما رأينا هو أن آباءنا هم أطعمونا وليس الله، وأن آباءنا هم علّمونا وليس الله.. فحين يقال لهم إن الله هو الرب، يقولون نعم إن الله هو ربنا، في حين أن قلوبهم لا تكون مستيقنة بما يقولون، وتظل عيونهم قاصرة عن رؤية صفة الله الرب؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا لرسوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي أن الله تعالى قد تجلّى على الآخرين بربوبية عادية، ولكنه قد تجلى عليك بربوبيته الخاصة العليا.. فكأن ربوبية الله نوعان: ربوبية عادية تظهر من خلال الآخرين، وربوبية عليا تظهر من الله مباشرة، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله: من واجبك الآن أن تردّ على المطاعن التي تثار على ربوبيتنا. لقد أطعمنا الناس بواسطة آبائهم، وعلّمناهم من خلال

أساتذهم، أما أنت فتَولّينا بنفسنا تربيتك، ورزقناك من عندنا، وعلّمناك من لدنا، وتجلينا عليك بصفاتنا كلها تجليًا مباشرا؛ فعليك أن تردّ الآن على اعتراضات الناس حول صفاتنا كلها، وتزيل شكوكهم ووساوسهم وشبهاتهم بشأنها.

أمّا كيف وَهَب الله رسولَه ﷺ أنواعَ العلوم والمعارف، وكيف تجلّى عليه بصفاته مباشرة، فيمكن أن تقدر ذلك بما يلي: يتعلّم الناس العلوم من الأساتذة، ولكن الله تعالى علّم رسوله ﷺ شتى العلوم مباشرة بلا واسطة. ثم إن الناس يكابدون مختلف المشاقّ والصعاب في سبيل تحصيل العلم، ولكن الرسول ﷺ لم يكابد أي عناء ولا مشقة في سبيل العلم. إن الذي يريد قراءة التوراة يتعلم العبرية مرة، واليونانية مرة أخرى، ويتصفح الصحف القديمة تارة، ويقضي سنوات وسنوات في هذا الجدّ والتعب، ومع ذلك لا يتيسر له إلا علم ناقص، وفي كثير من الأحيان يظهر خطؤه فيما بعد. أما الرسول ﷺ فكان ينام بالليل وهو لا يعلم شيئًا مما ورد في التوراة من أحكام، وما أتى على بني إسرائيل من أحداث، وما كلّم الله به موسى من كلام، فيكشف الله عليه كل هذه الأخبار والأحوال وهو نائم على سريره في غفلة عنها. وكانت كل هذه العلوم صحيحة بحيث لا يزال صِدْقها ينكشف حتى اليوم. أما المعلومات التي جمعها الناس بعد تعبٍ وكدٍّ لسنوات كثيرة، والتي كانت مسجلة في كتب التاريخ، فيثبت بطلانها. فيا ترى مَن ذا الذي يستطيع أن يشهد على أن الله عليم كما يمكن أن يشهد على ذلك نبينا ﷺ الذي تلقّى هذه الربوبية الإلهية المباشرة؟ لا شك أن الناس يؤمنون بأن الله عليم، ولكن ليس لأنهم قد شاهدوا واختبروا بأنفسهم كونه عليمًا، وإنما لأن آباءهم وأساتذهم أخبروهم بذلك، أما محمد رسول الله ﷺ فكان ينام ليلا بغير علم، ويستيقظ في الصباح وقد مُلئ صدره من كل أنواع العلوم والمعارف، فأنّى للآخرين أن يشهدوا مثله على صفة الله العليم؟

ثم خُذوا صفة الله الرزاق مثلا. إن الناس يروْن أن الإنسان يكدح بنفسه ويكسب قوته بنفسه، ويهيئ أسباب المعاش لنفسه ولعياله بنفسه، فلا تظهر صفة الله الرزاق أمامهم ظهورا مباشرا، فيكون إيمانهم بصفة الله الرزاق سماعيًا فقط خاليًا

من بركات المشاهدة والخبرة الشخصية. لا شك أنهم يؤمنون بأن الله رزاق إيمانا تقليديا، ولكن قلوبهم تكون خالية تماما من أي يقين بأنه تعالى رزاق. أما الرسول ﷺ فقد تجلت عليه صفة الله الرزاق مباشرة بلا واسطة. وكلّ ما رُزق من رزق كان بلا كدّ ولا جهد. عندما كان ﷺ طفلا صغيرا ألقى الله في قلوب أقاربه حبّه بشكل غير عادي؛ حتى ورد في التاريخ أن مُرضِعه حليمة السعدية التي تولت تربيته قد أحبَّته حبًّا شديدا، وذلك لأن الله تعالى جعَله ﷺ سببًا لرزقها. كان أهلها فقراء، فأزال الله فقرهم بمجيئه إلى بيتهم وفتح عليهم أبواب فضله، فأحبوه حبًّا شديدًا. وحيث إن الله تعالى أنعم عليها بفضله الخاص بسببه ﷺ فكانت تودّ أن يبقى في بيتها أطول فترة ممكنة لكي تتمتع فترة أطول بما نزل في بيتها من بركات بسببه ﷺ، فلذلك لما بلغ سنتين أخذتْه حليمة إلى والدته ﷺ غير أنها رجعتْ به إلى بيتها ثانية بإصرار شديد. كان من عادة أهل مكة أن يبعثوا مواليدهم الصغار مع النساء إلى القرى المجاورة في البادية لكي ينموا ويترعرعوا جيدًا بالعيش في الهواء الطلق، ولكي تتحسَّن لغتهم بالعيش بين البدو، لأنّ البدو أفصحُ لسانًا من أهل الحضر. وكانت نساء القرى المجاورة يرغبن في تربية هؤلاء الأولاد في بيوتهن، لأن آباءهم كانوا يعطوهن مبلغًا مُغْرِيًا، فيعشْن به في سعة. فجاءت حليمة إلى مكة لكي تأخذ من بعض أهلها ولدًا معها، ولكنها تروي أن أهل كل بيت ذهبت إليه رفضوا أن يبعثوا معها ولدهم برؤية هيئتها الرثّة وحالتها البائسة قائلين: أتريدين أن نبعث معك ولدنا ليموت عندك جوعًا؟ فلم تزل تتردد على البيوت طوال اليوم، ولكن لم تجد أي طفل تأخذه معها. وفي الجانب الآخر ظلّت والدة الرسول ﷺ تتوسل إلى كل واحدة من هؤلاء البدويات أن تأخذ ولدها معها، ولكن كل واحدة منهن قالت لوالدته ﷺ: أنت امرأة فقيرة، فماذا عسى أن تعطيني من جزاء إذا أخذت ولدك معي؟ إذًا ففي ذلك اليوم ظلت بدوية تبحث عن ولد في مكة لتأخذه معها، وظلت امرأة أخرى تبحث طوال اليوم عن مرضع بدوية لتأخذ ولدها معها. فمن جهة تلقّتْ مرضعٌ في ذلك اليوم الرفضَ التام من كل بيت بحجة فقرها وعدم قدرتها على تربية ولدهم، ومن جهة أخرى رُفِضَ في ذلك اليوم طفلٌ بحجة أن أُمَّه أرملة فقيرة

لا تملك ما تدفعه للمرضع. لقد رفضت كل مرضع من تلك البدويات وليد هذه الأرملة قائلة: لو أخذتُ ولدك فلا آمل في أي مكافأة منك. وتقول حليمة: فلما حلّ المساء واقتربت الشمس من المغيب، أخذتني الحيرة والخجل وقلت في نفسي: لقد انقضى اليوم ولم يُعطِني أحد ولده بسبب فقري، وفيما أنا في ذلك حتى بلغني أن في بيت فلان طفلا لم تأخذه أي مرضع، فاذهبي إلى أهله وخُذِيه منهم. فقلتُ في نفسي: لأنْ أرجع بهذا الولد خير من أن أرجع خاوية الوفاض وأتعرض للعار والخجل. فذهبتُ إلى هذا البيت وأخذت محمدًا ﷺ معي. وعندما عدتُ إلى بيتي رأيتُ ما حيّرني؛ كانت غنمي لا تدرّ لبنًا من شدة القحط والجفاف، ولم يكن في بيتنا أي حليب منذ فترة طويلة، ولكن لما وصلتُ البيت بمحمد ﷺ درّت ضروع غنمي وامتلأت. كنتُ قلقةً بأني لم آت بهذا الولد إلى بيتي إلا خوفا من العار والخجل أمام زميلاتي، فماذا عسى أن تعطيني والدته من مال؟ ولكن لما رأيت ضروع غنمي قد امتلأت، قلت إن هذا الوليد قد أتى لنا برزق، ومنذ ذلك اليوم تعلَّق قلبي به، فربّيته بحبّ وشفقة لم أكنّهما لأولادي. (سيرة ابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ).

فترى أن مَن يأتيه طعامه بواسطة الآخرين هو الآخر يؤمن بأن الله ربه، ولكن ليس لأنه شاهد تجليًا لربوبية الله، إنما لأن الناس يقولون ذلك، أما الرسول ﷺ فإن الله تعالى قد تجلّى عليه بربوبيته وهو طفل لا يعي ما هو الربّ، ثم لما كبُر أخبرته مرضعه أنها لم تطعمه شيئا، بل بسببه هو جاءها الرزق والطعام. فكيف يمكن للآخرين -والحال هذه- أن يفهموا معنى الرب كما فهمه الرسول ﷺ؟ ألا لا يفهم ربوبية الله تعالى بشكل صحيح إلا من رأى تجليًّا مباشرًا لربوبيته تعالى. لا شك أن هذه الصفة الربانية تؤثِّر فيمن يشاهدها بواسطة الآخرين، ولكن شتّان بين هذا التأثير وبين التأثير المباشر لهذه الصفة الربانية. إننا نعطي الفقير شيئًا بأيدينا حينًا، وحينًا آخر نبعث إليه أحدا بهذا الشيء، ولا شك أن هذا الشيء سيصل إلى الفقير في الحالتين، ولكن تلك المحبة التي تتولد في قلب الفقير نحونا في حالة تلقِّيه هذا الشيء أو المال من يدنا مباشرة لا يمكن أن تتولد في حالة تلقِّيه بدون أن يدري من

آتاه إياه. لا شك أن من يعطي الصدقة خفيةً يثاب أكثر، ولكن لا يتولد في هذه الحالة حبُّ المتصدق في قلب الفقير كما ينبغي. أما إذا أعطى الصدقةَ للفقير مباشرة، فإنه ينال ثوابا أقل، ولكن حبّه سيتولد في قلب الفقير ولا بد أن يدعو له. وبالمثل فإن الذين أطعمهم الله بواسطة آبائهم فإنهم لا يتمتعون بربوبية الله كما تمتع رسول الله ﷺ بربوبية الله له مباشرة.

ثم من صفات الله المحيي، والناس يؤمنون أيضا بكونه تعالى محييًا إيمانا تقليديا حيث يعترفون: نعم، نؤمن أن الله سيحيينا بعد الموت، ولكن الرسول ﷺ قد شاهد في حياته في الدنيا هذه الصفة الإلهية. لقد بُعث ﷺ في قوم قد ماتوا موتًا لم يسبق له نظير في الدنيا، فأحياهم الله تعالى على يده ﷺ وجعلهم فاتحي العالم وملوكه. إن المرضى يريدون الشفاء من مرضهم، ولكن المريض الذي وُضع في يد الرسول ﷺ للعلاج كان لا يريد الشفاء، بل كان يريد أن يموت ولا يبقى له أثر، ولكن هذا المريض نفسه الذي كان يؤثر الموت على الحياة والذي كان يرى شفاءه وحياته ضربًا من المستحيل.. قد شُفِي بيده ﷺ وعاد إلى الحياة، بل أحيا مئات الآلاف من الموتى الآخرين. كان أهل مكة الذين وُلد الرسول ﷺ بينهم تجارا عاديين، ولم يكن عندهم حُكم ولا نظام، ولم يكن لهم عز ولا شهرة. كانوا يعيشون خاملي الذكر في حالة يُرثى لها، ولكن انظر كيف عادوا إلى الحياة بيد الرسول ﷺ وانتشروا في العالم متحمسين كالمجانين، وقلبوا عروش دول كبيرة كالحدأَة تنقضّ على صيدها وتأخذه بقبضتها في لمح البصر. كان العرب أمة حقيرة في العالم بحيث إن المسؤولين الصغار من الدول المجاورة كانوا ينهرونهم ويزجرونهم، ولكنهم لما صاروا خداما للرسول ﷺ نالوا من القوة ما جعلهم يصطدمون بالدول الكبيرة حتى مزقوا إمبراطوريتي قيصر وكسرى فخرّت أمامهم الملوك الجبابرة خاضعين، وحضروا عندهم مسالمين. هذا هو مثال الإحياء الذي أراه الله تعالى على يد رسولنا الكريم ﷺ.

أما الآخرون فيسمعون من غيرهم عن الإحياء الإلهي فيقولون: نعم، إن الله يحيي الموتى. يسمع الطفل من أبيه أن الله هو المحيي فيؤمن به، ويسمع التلميذ من أستاذه أن الله هو المحيي فيصدّقه، ولكن الذي قد اختبر إحياء الله للموتى، ورأى بأم عينه

كيف أحيا الله تعالى قومًا كانوا موتى منذ قرون، ولم يريدوا العودة إلى الحياة، وجعَلهم فاتحي العالم وملوكه.. فإنه سيكشف للعالم صفة الله الإحياء، بما لا يقدر عليه غيره.

ثم من صفات الله صفة الشافي، ولكن الناس يجهلون حقيقتها أيضا. يقولون بلسانهم إن الله شاف، ولكنهم لم يروْا نموذجًا مباشرًا لصفة شفائه تعالى. كل ما يعلمون أنهم تناولوا حبات "هَرَر"✪، فشُفوا من الإمساك، ولذلك يظل عقلهم منحصرًا في الماديات فقط، ولا تتوجه قلوبهم إلى الله العظيم الذي يدير هذا الكون الهائل. ينتقل ذهنهم إلى الدواء المسهل، ولا ينتقل إلى الله الشافي! أما الرسول ﷺ فقد تجلى الله عليه بصفته الشافي تجليًا مباشرا. لقد دعا ﷺ عليًّا ؓ قبل فتح خيبر ليسلّمه راية الجيش، ولكن كان في عينيه رمد، وكانتا متورّمتين من شدة الألم، فأخذ الرسول ﷺ لعابه ووضع على عينيه، فشُفي في الحال. (سيرة ابن هشام: ذكر المسير إلى خيبر). كان الله تعالى قد بشّر النبي ﷺ بفتح خيبر على يد علي ؓ، فكان يعلم أنه ما دام هذا هو القرار الإلهي فمن المحال أن لا يشفي عيني علي، فأخرج لعابه ووضع على عينيه فشفاه الله فورًا. ومن مرّ بمثل هذه التجربة هو وحده الذي يمكن أن يخبر الناس عن صفة الله الشافي حقيقةً، أما غيره فإنما يقول: نعم، سمعتُ أن الله شافٍ، ولكني لم أشاهد أي تجلٍّ لصفة شفائه.

باختصارٍ، لقد شاهد النبي ﷺ تجليات صفات الله تعالى كلها مباشرة بلا واسطة، أما الناس فقد شاهدوها بطريق غير مباشر، فلا يستطيعون إزالة العيوب ودحض الشبهات التي ينسبها البعض إلى صفاته تعالى، أما محمد ﷺ فيقدر على دحضها بكل جدارة وروعة، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ إذ قد تجلتْ عليه ربوبية الله العليا، وأما الآخرون فظهرت عليهم ربوبيته العادية، ولذلك كانت رؤيتهم لنقش صفاته تعالى ضبابيةً، أما أنت فقد تجلَّينا عليك بكل صفاتنا، فشاهدتَ بأم عينك أن لا عيب في صفاتنا ولا نقص؛ فمن واجبك

✪ شجرة هندية يُستعمل ثمرها كمُسهِلٍ يشفي من الإمساك. (المترجم)

الآن أن تدحض بكل قوة كلّ ما يثار ضد شريعة الله من مطاعن، وكل ما يُعزى إلى صفاته من عيوب؛ لأن من الناس من يقول إن الله قد أشرك الأصنام في أُلوهيّته، ومنهم من يقول إن لله ولدا، ومنهم من يقول إن لله بنات، ومنهم من يقول إن الله لا يكلّم العباد الآن، ومنهم من يقول ليس لله دخلٌ في إدارة الكون وإنما يُدار نتيجة الأسباب المادية فقط. فهناك شتى الاعتراضات التي يثيرها الناس حول ذات البارئ، وإنهم معذورون في إثارتها إذ لم يروا الله تعالى ولم يشاهدوا صفاته وجلاله وقدرته، ولكنك -يا محمد- قد رأيتنا وشاهدتَنا، لأننا قد تجلَّينا عليك كربٍّ أعلى، فالآن من واجبك أن تدرأ هذه العيوب عنا، وتكشف عظمتنا على العالم.

هذا المفهوم الذي بينته الآن هو في حالة اعتبار ﴿اسم﴾ بمعنى أسماء الله كلها، وليس اسما واحدا.

وفي حالة اعتبار الاسم بمعنى الأسماء ثمة مفهوم آخر لقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وبيانه أن الله تعالى يقول لنبيه إنه تعالى أرفع شأنًا وأكبر عظمة من الجميع، غير أنه ربٌّ.. أي يطوّر الشيء من حاله الأدنى إلى الأعلى، وبحسب هذه الصفة أو القانون استعمَل في الصحف السابقة كلامًا مجازيًا في حق أنبيائه، ولكن ربوبيته تعالى للإنسان قد بلغت الآن كمالها، وحان الوقت لكشف الحجاب عن الحقيقة، لذا فعليك بإزالة كل الأخطاء التي وقع فيها الناس حول صفات الله لورود الاستعارة والمجاز في الكتب السابقة بكثرة. والواقع أننا لو قارنّا القرآن الكريم بالصحف السابقة لتبيّنَ لنا فورًا أنها لا تَعرِض الربَّ الأعلى؛ أعني أن العقل الإنساني لم يكن قد تطوَّرَ عند نزولها بل كان في نمائه وارتقائه، فلم يكنْ قادرًا على استيعاب دقائق المسائل، فكثُر التشبيه والاستعارة في تلك الصحف، فمثلاً اعتبرتْ بعثةَ نبي مجيئًا لله تارةً، وسمّتْ الله أبًا تارة ثانية، وسمّتْ أحباءه أبناءً له ﷻ تارة ثالثة. ذلك لأن هؤلاء القوم ما كانوا قادرين على استيعاب الحقيقة من دون هذا الكلام المجازي؛ ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ لقد تجلَّينا عليك كربك الأعلى..

أي تجلى عليك ربُّك منــزَّهًا عن أي تشبيه واستعارة، فقُمْ وادفَعْ عنّا كلَّ ما يثار ضدنا من اعتراض نتيجة كثرة الاستعارات في الكتب السابقة.

يتضح من دراسة الصحف السابقة أن الله تعالى قد دُعي فيها أبًا حينا، وأُمًّا حينا آخر، وسُمي بعض الأنبياء ابنَ الله، وبعضهم ابن الله البكْر؛ ولم يكن معنى ذلك أن لله أبناء، أو أنه كالأب والأم في الواقع، وإنما كان كلامًا على سبيل التشبيه والمجاز، أُريدَ به بيان حقيقة أن النبي يُبعَث من عند الله تعالى لكشف صفاته تعالى كما يخرج الابن من أبيه ويظهر صفاته. وكان هذا الكلام المجازي ضروريًا عندها، لأن العقل الإنساني كان لا يزال في طور نمائه وارتقائه التدريجي، ولم يكن قادرًا بعد على إدراك ما في أحكام الشرع من أسرار أو ما في الوحي من حكَم دقيقة. والتشبيه إنما يُستخدم حين لا يزال الشيء في طور ارتقائه من الأدنى إلى الأعلى، أما إذا بلغ رفعته المنشودة فلا مجال للتشبيه والاستعارة، وهذا ما قد أشار الله تعالى إليه هنا بقوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي يا محمد، قد تجلّينا عليك الآن كالرب الأعلى، وقد شرحنا لك كل الاستعارات والتشبيهات السابقة، وبيّنّا لك ما هو المراد من تسمية الله أبًا ومن تسمية النبي ابنَ الله البكر، وما هو التوحيد، وما هو الشرك وأسبابه وأنواعه وغيرها من المسائل. والسابقون لم يكونوا قادرين مثلك على تصحيح هذه الأخطاء، لأننا لم نتجلَّ على الأنبياء السابقين كالرب الأعلى - هذا لا يعني أن الله تعالى لم يكن الرب الأعلى حينئذ، وإنما المراد أن الربوبية لم تظهر عندها ظهورًا أعلى للأسباب المذكورة- أما الآن فقد تجلّت عليك ربوبية الله بكمالها التام واكتملت الشريعة من كل النواحي، وبيّنَا حكمة كل حُكم وجمالَ كل تعليم، فواجبك الآن أن تدحض كل تلك المطاعن التي أُثيرت حول ذات البارئ تعالى وصفاته وشريعته وغيرها.

ولو اعتبرنا لفظ ﴿الأَعْلَى﴾ في قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ صفةً للاسم فالمعنى: سَبِّحِ الاسمَ الأعلى لربك. وهذا لا يعني أن بعض أسماء الله أدنى، بل المراد أن صفات الله كلها تتجلى الآن بتجلٍّ أعلى، فمن واجبك أن تعرض على الناس أعلى ظهور لكل صفة من صفات الله، وتدفع أي اعتراض يثار ضد أي

صفة من صفاته لكي لا يبقى لأي من هذه المطاعن أثرٌ، ويظهر جلال الله في العالم أروع ظهور.

وجدير بالتذكر هنا أنه قبل نزول قول الله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ كان رسول الله ﷺ وصحابته يدعون في الركوع في الصلاة: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت، ولكن لما نزلت هذه الآية قال الرسول ﷺ: "اجعلوها في سجودكم" (أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يُستفتح به الصلاة من الدعاء)، ولما نزل قول الله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم (مسند أحمد، حديث عقبة بن عامر الجهني). إذًا فإن الله تعالى بنفسه علّمنا كيف نسبّح في الركوع وكيف نسبّح في السجود، وعملاً بأمر الله تعالى نقول: "سبحان ربي العظيم" في الركوع و"سبحان ربي الأعلى" في السجود.

ثم إن قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ يتضمن الإشارة إلى أن معرفة الأعلى ليس بمقدور الأدنى، فلا يليق بالإنسان أن يخمّن مِن عنده كيف يمكن أن تتجلى صفات الله تعالى، وماذا يتنافى مع صفاته، وماذا يتفق معها. هذا ليس من اختصاص الإنسان، وليس بمقدرته، إنما من اختصاص الله تعالى وحده أن يُطلِع العبادَ على هذه الأمور بوحيه؛ وبالتالي لا بد من نزول الوحي من عند الله تعالى، فالذين لا يعترفون بضرورة الوحي فكأنما يريدون أن يحيطوا بذات الله تعالى بعقلهم، وهذا محال؛ إذ ليس بوسع الإنسان أن يعرف شيئا واحدا عن وجود الله تعالى وصفاته ما لم يخبره الله تعالى بنفسه عن ذلك بوحيه، فلذلك لا بد من الوحي. بدون وحي الله تعالى لا يقدر الإنسان على إدراك صفات الله، ولا يعرف سبل التقرب إليه، ولذلك قال الله تعالى هنا لرسوله ﷺ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾: أي يا مَن نزل عليك وحينا، من واجبك كشف صفاتنا للناس، لأنهم لا يقدرون على إدراكها بعقلهم فقط.

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

سوّى: سوَّى الشيءَ تسويةً: جعَله سَوِيًّا، تقول: سوَّيتُ المعوجَّ فما استوى. وسوّاه: صنَعه مستويًا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني أولاً: الذي خلَقه وجعله بدون عيب، وثانيًا: الذي خلقه ثم أزال كل عِوَجٍ حصل فيه فيما بعد.

التفسير: يقول الله تعالى إنه قد خلق الإنسان بحيث زوّده بكل القوى والكفاءات الضرورية لرقيه، ولذلك قيل في التوراة: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ" (التكوين١: ٢٧). فالمراد من تسوية الإنسان أنه تعالى قد زوّده بكفاءة الرقي والاعتدال فزوده بكل قوة ضرورية لذلك، كما هيّأ له كل ما يحتاج إليه من أسباب خارجية. هذا هو معنى تسويته أي خَلْقه بلا عيب، وإلا فليس المراد من خلقه بلا عيب أن يتصف بصفة الألوهية مثل الله تعالى. كلا، إنما المراد أنه ليس في خلقة الإنسان ما هو لغو وعبث. خُذوا مثلا العين، فإنها كانت عبثًا لو لم يخلق الله تعالى إزاءها ضوء الشمس، فمِن منّة الله على الإنسان أنه خلق له العين من ناحية، ومن ناحية أخرى جعل للشمس ضوءًا ترى به عينُه. وهذا هو الحال بالنسبة لجميع أعضاء الإنسان، فكل ما فيه قد خُلق لهدف محدد، ومنفعة معينة. هناك عضوان فقط في جسم الإنسان كان الأطباء يظنون أنهما خُلقا عبثًا ولًا جدوى منهما، وهما شحمة الأذن، والزائدة الدودية. كان الأطباء في الماضي يظنون أن هناك أعضاء أخرى لا فائدة فيها، ولكن انكشفت عليهم ضرورتها شيئا فشيئا. فلم يكن هناك إلا عضوان ظنوهما بلا نفع، ولكن قبل حوالي ٤٠ أو ٥٠ سنة قد علموا بفائدة الزائدة الدودية، ذلك بعد أن قام طبيب من فرنسا بتجربة لمعرفة فائدتها. فإنه أخذ ١٢ قردا، وقطع الزائدة الدودية من ستة قرود، وتركها عند الستة الأخرى، ثم بدأ يربيها كلها تربية متساوية، وأخذ يلاحظ كل تغير يطرأ على أحد من المجموعتين، وبعد فترة وجد أن القرود التي أُزيلتْ زائدتها الدودية قد قلّت المناعة عندها،

فأخذت تصاب بأمراض و لم يعُد ينفعها الغذاء كما ينبغي، أما المجموعة الأخرى التي لم تُستأصَلْ زائدها الدودية، فكانت قوية كالسابق. (The Text Book of Anatomy, 2nd. Edition p.387)

لقد ثبت من ذلك أن الزائدة الدودية -التي اعتُبرت في الماضي بلا فائدة- هي وثيقة الصلة بصحة الجسم، وإذا أُزيلت من إنسان قلّتْ مناعته. ولكن يجب أن لا يُفهم من ذلك أن مناعته تقلّ مقارنة مع الآخرين، إنما المراد أنه يصبح أقلَّ مناعةً من ذي قبل؛ إذ من الممكن أن يكون هذا الشخص أكثر مناعة من شخص لم تُجرَ له هذه العملية ولكن المناعة عنده ضعيفة لسبب آخر.

إذن، قد تبيّنَ من ذلك أنه إذا أُزيلت الزائدة الدودية من إنسان ضعُفت مقاومته، فهذه التجربة التي أجراها الطبيب الفرنسي تؤكد أن الزائدة الدودية ذات صلة وثيقة بمناعة الإنسان وصحته، وقد تظهر فوائدها الأخرى في المستقبل. على أية حال، لقد ثبت بذلك أن الله تعالى لم يخلق أي شيء عبثًا.

والعضو الثاني الذي كان يُعتبر بلا فائدة هو شحمة الأذن، ولكنهم قد علموا الآن أنها ليست عبثًا، بل لها تأثير لطيف في السمع؛ شأنها شأن تلك القطعة الصغيرة من القماش أو الورق التي يربطها الأولاد في مؤخرة الطائرة الورقية، فإنها تبدو بلا فائدة، ولكنها في الواقع تساعد على الطيران كثيرا. وبالمثل فإن شحمة الأذن تزيد في جمالها، كما أن لها صلة وثيقة في التقاط الصوت. هناك أعضاء في الجسم الإنساني قد خلقها الله تعالى من أجل الجمال، ومنها شحمة الأذن التي لو قطعت لفقدت الأذن جمالها، كما أن لها فائدة أخرى كبيرة وهي أنها للينها تجمّع موجة الصوت فتزيد من وضوحه. هذه فائدة بيّنة لشحمة الأذن، وقد تظهر لها فوائد أخرى مستقبلا. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى إنه خلق الإنسان وجعله بلا عيْب؛ إذ كل عضو من أعضائه يحقق غرضًا، ولم يخلق الله أي شيء إلا لحكمة وفائدة.

ثم إن من معاني قوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أنه خلق الإنسان معتدل القوى من كل النواحي، فإذا زوّده الله بقوة الغضب خلَق إزاءها قوة الرفق، وإذا خلَق فيه قوة الانتقام خلَق حيالها قوةَ العفو، وإذا خلَق فيه الشهوة خلَق إزاءها العفة. وهذه

القوى المتضادة في الظاهر تعمل معًا على رقيه الأخلاقي والروحاني، ولولاها لما دُعِيَ خَلوقًا، فمثلاً لا يسمَّى فاقد الشهوة عفيفًا، ولا يُعتبر فاقد الغضب عَفُوًّا، ومَن ليس فيه رِفق لا يُعتبر غَيورا، ذلك أن الأخلاق الحقيقية إنما تظهر من إنسان يتزود بالقوتين. لقد قال المسيح الموعود عليه السلام موضحًا هذا الأمر: إذا كان الشخص عنّينًا مثلاً، فلا يسمَّى عفيفًا، وإذا كان كفيفًا فلا يقال إنه لا يرتكب خيانة الأعين، إذ لا بصر عنده أصلاً، لو كان عنده بصرٌ، ثم لم يقع في خيانة الأعين فلا شك أنه يستحق الثناء، ولكن ما دام كفيفا فلا يمكن أن يسمى عفيف البصر. فثبت أن الإنسان لا يُعتبر خلوقًا ما لم توجد فيه القوى بنوعيْها، وما لم يحافظ على التوازن بينها. إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أن الله تعالى قد جعل الإنسان معتدل القوى، لقد جعل حوله قوى متضادة، ثم زوّده بكفاءة أن يقف بين هذه القوى المتضادة باتزان واعتدال مثل كَفّتَي الميزان. فكأن الله تعالى يقول: إذا كنا قد خلقنا في الإنسان قوة الشهوة خلقنا فيه إزاءها قوة العفة، وإذا خلقنا فيه النجاسة زوّدناه إزاءها بقوة الطهارة أيضا، وإذا خلقنا فيه النشاط جعلنا إزاءه الكسل أيضا، وإذا جعلنا له أنواع الأكل والشرب، فقد جعلنا فيه قوة الصوم أيضا.. أي القدرة على الجوع عند الحاجة. باختصار قد خلق الله في الإنسان القوى بنوعيها، ثم خلَق فيه الكفاءة بأن يستعملها بشكل سليم صحيح ليصبح إنسانًا خَلوقا وروحانيا. باختصار، قد زوّد الله تعالى الإنسانَ بكل القوى الضرورية من جهة، ومن جهة أخرى قد خلق فيه كفاءة الرقي ليرتقي باستعمالها المناسب أخلاقيا ودينيا.

ومن معاني التسوية إصلاح العوج.. وعليه فقوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني أنه خلق الإنسان، ثم هيّأ أسباب إصلاحه كلما طرأ عليه فساد. فما دام الله يرعى الإنسان بحيث يهيئ الأسباب لإصلاح كل فساد يطرأ عليه، فكيف يقال أنه يترك العباد ليقعوا في الفساد ولا يهيئ الأسباب لإزالته.

ترى كيف أجاب الله تعالى بكل روعة على السؤال الناشئ في السورة السابقة. لقد سبق أن بينتُ أن اعتراضا كان قد نشأ حول قوله تعالى في السورة السابقة

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وهو أنه ما دام الرسول ﷺ قد أتى بالقول الفصل ونزل عليه الشرع الكامل لهداية الناس، فما الداعي لبعثة موعود بعده؟ فأجاب الله هنا على ذلك وقال يجب أن تفكّروا في صفات الله تعالى. ترون أن الله تعالى قد خلق علاج الأمراض التي تهاجم جسم الإنسان في الدنيا، فكلما أصابه مرض أو طرأ عليه فساد، هيّأ الله لإزالة فساده أسبابًا من عنده وسوّاه. إذا هاجمه مرض جسدي هيّأ الله الأسباب لصحة جسده، وكلما هاجمه مرض روحاني أتى الله بعلاج لصحة روحه. فما دامت هذه السنة الإلهية مستمرة منذ القدم، فكيف يمكن الآن أن يطرأ على الإنسان عوج ولا يهيئ الأسباب لإزالته؟ لو ثبت أن عوجًا حصل في الناس ولم يُزِلْه الله تعالى، لكان هذا عيبًا بحق البارئ سبحانه واعتراضًا على صفاته. إذا كان فساد الدنيا ممكنا فلا بد من إزالته، لأن من سنة الله تعالى أنه كلما فسد الإنسان هيّأ الأسباب لهدايته. أما لو قلتم لا حاجة لإزالة هذه المفاسد بعد نزول القول الفصل، فكأنكم تصمون الله تعالى بالعيب. فقولكم أن لا حاجة لأي وحي بعد نزول القول الفصل قولٌ باطل لا أساس له، لأنه لو حصل عيب في الإنسان فلا بد أن يزيله الله تعالى، وإلا سيقال إنه تعالى لم يصلح هذا الفساد.

غير أنه لا بد أن يكون العلاج بحسب الفساد؛ فمثلا إذا كان أحد لا يستطيع تناول الطعام لفساد معدته، فيجب أن نعالج معدته حتى يقدر على تناول الطعام، لا أن نغطّيه ببطانية مثلا. فلو تطرق الفساد إلى عمل الإنسان، فالعلاج المناسب أن يتم إصلاح عمله، وليس أن يُنــزل الله تعالى له شريعة جديدة، أما إذا كان الفساد قد تسرب إلى الشريعة، فالعلاج الصحيح هو إصلاحها. من الضروري أن يتم العلاج بحسب المرض، فلو تطرق الفساد إلى الكتاب فيجب علاج الكتاب، ولو تطرق الفساد إلى الناس فيجب علاجهم. أما إذا كان الناس على ما يرام، ولكن القانون أصبح ناقصا، فيجب عندها إصلاحه وتعديله، أما إذا كان القانون صحيحا، ولكن الفساد تطرق إلى الناس فيجب إصلاحهم لا تغيير القانون.

باختصار، لقد ردّ الله تعالى بقوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ على الاعتراض الناشئ على قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ في السورة السابقة، فأوضح أنه كلما تطرق الفساد إلى

الإنسان أصلحه الله دائما، فلا بد أن يعمل ﷻ على إزالة كل فساد يطرأ على الناس في المستقبل أيضًا.

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٤

شرح الكلمات:

قَدَّرَ: قدَّرَه على الشيء: جعَله قادرا. وقدّر الشيءَ بالشيء: قاسه به وجعَله على مقداره. وقدّر فلانٌ: روّى وفكّر في تسوية أمره. (الأقرب)

ونظرًا إلى هذه المعاني الثلاثة للتقدير يمكن تفسير الآية بثلاثة مفاهيم؛ فأوّلاً: يقال قدّر يعني قّدره على الشيء، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾: قدّر الإنسانَ على نيل الهدى والترقي.

وثانيًا: يقال قدّر فلانا: روّى وفكّر في تسوية أمره، وعليه فالمراد أنه كلما حصل في الإنسان فساد دبَّر الله تعالى لإزالته، ولم يكن هذا التدبير عابرا، بل كان مخططًا بالنظر إلى نوعية الخراب وحجم المرض ليكون العلاج ناجعًا. الحقيقة أن العلاج إنما يكون ناجعًا إذا كان بحسب المرض؛ فمثلا هناك شخص مصاب بحمّى الملاريا البسيطة، فسيعطيه الطبيب مقدارًا قليلاً من "الكونين"، ولكن هناك شخص آخر مصاب بالملاريا الشديدة، فيعطيه الطبيب مقدارا كبيرًا من "الكونين" يصيب أذنيه بالجفاف فيصاب بالصمم أحيانًا؛ ومن الجهل أن يقال لماذا أُعطيَ الأول مقدارًا قليلا من "الكونين" والآخرُ مقدارا كبيرا، ذلك لأن العلاج بحسب المرض. وبالمثل فإن الله تعالى يهيئ أسباب الإصلاح بحسب الفساد دومًا، لذا فقوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يعني أنه يقدّر المرض أولاً ويرى نوعيته وشدّته، ثم يحدد العلاج بحسب ذلك.

وثالثا: يقال قدّر الشيءَ بالشيء: قاسه به وجعله على مقداره، وعليه فسيعني قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أنه قدّر مرض الإنسان وبحسب مرضه وصف العلاج، وهيّأ الأسباب لإصلاحه.

فهناك معنيان الأول: أنه أنزل العلاج بحسب نوعية المرض، والثاني أنه قدّر المرض وبحسب مقداره وصف العلاج.

التفسير: هذه الآية عميقة الصلة بالآية السابقة نظرًا إلى المعنيين لـــ ﴿قَدَّرَ﴾، فهي تسلسلٌ لنفس الموضوع المذكور في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾. لقد فسّرنا التسوية بمفهومين: أوّلهما أن الله تعالى جعل الإنسان معتدل القوى وصالحا للرقي، وثانيا: كلما طرأ عليه فساد عمل الله على إزالته. ونظرًا إلى هذين المفهومين فإن قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أيضا يفسَّر بمعنيين: أوّلهما لأن الإنسان مزوَّد بكفاءة الرقي، وجُعِلَ معتدلَ القوى وكاملها، فقدّر الله قواه وهيّأ الأسباب الملائمة لها ليمضي قُدُمًا في رقيّه. وثانيهما أنه كلما حصل فيه فساد وعوج أرسل الله له الهدى بقدر عوجه فأصلحه؛ إذ لو كان الهدى أقلّ من حاجته لضلّ، ولو كان أكثرَ من حاجته لقُصِمَ ظهرُه واحتار في أمره، ولذلك اختار الله الطريق السليم لإصلاحه وأنزل الهدى بقدر ضرورته وحاجته. وكأن الله تعالى يقول إنه أنزل العلاج بحسب نوعية المرض وبحسب مقداره أيضا. وقد سبق تفصيل ذلك حيث قلنا إنه لو نزلت الأحكام أكثر من حاجة الناس لأهلكتهم، وقد ضربتُ لذلك مثالاً بأنه قبل زمن آدم عليه السلام لم تكنْ كل المساوئ قد خطرت بالعقل الإنساني، كما لم تكن قد ارتكبت بعد، فلو تحدثَ عنها الوحي الذي نزل عندئذ لكثرت المعاصي ولم يتمّ أي إصلاح؛ فليس من الحكمة ذِكْرُ علاج السيئة قبل وجودها، لذلك لم ينـــزل الكتاب الكامل إلا حين اخترع شياطين الإنس أنواع السيئات والأخلاق الذميمة. ثم إنه لا يسهل استيعاب التعاليم السامية إلا بعد ارتقاء العقل، ولذلك كان لزامًا أن لا ينـــزل عندها إلا الكتاب الكامل بحسب حاجات عصره، وأما الكتاب الكامل لحاجات الأزمان كلها فلا ينـــزل إلا بعد ارتقاء العقل الإنساني. باختصار، حيث إن الإنسان قد خُلق كامل القوى فكان لزامًا أن يجد تعليمًا كاملا أبديّا في وقت من الأوقات، ولكنه حين كان في طور التطور العقلي، فكان لزامًا أن يُعطى عندها تعليما متوافقًا مع درجة ارتقاء عقله.. وهو كامل بحسبها. أما إذا لم يُعطَ تعليما

كاملا أبديا فلا يكون قد تلقّى جوابًا كاملا لقواه الكاملة، وإذا لم يُعطَ تعليما كاملا بحسب درجة ارتقائه لما ارتقى منازل التطور، ولذبُل من ثقل أعباء الشريعة قبل أن يبلغ درجة الكمال. فبما أن الله تعالى قد خلق الإنسان كاملَ القوى من ناحية، ومن ناحية أخرى جعله عرضةً للعيوب والأمراض ليجتهد ويستحق الثواب، فكان حريًا بالله تعالى أن يلاحظ الأمريْن: فيهيئ له الهدى بأسلوبٍ مَرِنٍ ارتقائي. وهذا ما فعل بالضبط؛ فخلَق الإنسان، وهيّأ له أسباب الإصلاحٍ بحسب نوعية عوجه كلما طرأ عليه عِوَجٌ.

باختصار، لهذه الآية مفهومان نظرا إلى معنيَي الآية السابقة، أولهما: أن الله تعالى لم يسمح بضياع ما في الإنسان من كفاءةٍ لبلوغ الكمال، بل هيّأ الأسباب لتطوُّرها دومًا، وثانيًا كلما طرأ عليه مرض هيّأ له العلاج بحسب المرض. فأحد المفهومين يشير إلى رقيه، وثانيهما يشير إلى إزالة مرضه.

والدليل على صحة المعنى الذي ذكرتُه هو أن الله تعالى ذكر قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قبل قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، ولو كان المعنى على عكس ما أقول فكان ينبغي أن يذكر ﴿قَدَّرَ﴾ قبلَ ﴿خَلَقَ﴾، لأن تقدير الشيء يسبق خَلْقه وصنعه، ولا معنى لتقدير الشيء بعد خَلْقه، لأن تقدير قوى الشيء الجسمانية أو الروحانية يجب أن يتمّ قبل خَلقه لا بعده. ولا شك أن التقدير الذي يتمّ بعد خَلْق الشيء إنما يتعلق باستعمال قواه في محلّها المناسب؛ فالمعنى أنه بقدر ما كان يمكن أن يُظهر الإنسان مِن قواه فعلاً في وقت من الأوقات، قدّر الله حالته وأنزل الهدى بحسبها في ذلك الوقت، أو بقدر ما وقع الإنسان في السيئة فعلاً أنزل الله علاجه بحسبها، وعندما انكشفت له السيئات كلية وأصبح قادرًا على إظهار الحسنات بصورة تامة، أنزل الله له تعليمه الكامل.

إن الذين يقولون إن قوله تعالى ﴿قَدَّرَ﴾ هنا يعني تقدير خَلْق الإنسان يجب أن يفكّروا أن تقدير خَلق الشيء يكون قبل صنعه لا بعده؛ فمثلا: إذا أردتَ خَبْز ربع كيلوغرام من الدقيق، فإنك تحدّد مقدار الدقيق المراد خَبْزُه قبل أن تبدأ بعملية الخبز.. وليس أن تبدأ الخَبْز ثم تفكِّر أن مقدار الدقيق يجب أن يكون ربع كيلوغرام.

كلا بل إن مثل هذا التقدير يتم قبل خلق الشيء وصنعه لا بعدَه. كذلك لو كان التقدير هنا متعلقا بالخَلق لذُكر قبل ذِكر الخلق، ولكن ليس الأمر هكذا، بل قال الله هنا أَوّلاً ﴿خَلَقَ فسَوَّى﴾، ثم قال ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾. فثبت أن التقدير هنا ليس ما يكون قبل خلق الشيء، بل هو من نوع آخر. فمن التقدير ما يتعلق بقوى الشيء، ومن التقدير ما يتعلق بإظهارها. وتقدير قوى الشيء - سواء كانت جسمانية أو روحانية - يتم قبل خَلقه دوما، أما التقدير المتعلق بإظهار قواه فيمكن أن يتم بعد خَلْقه في أي وقت. وقد تحدث الله تعالى هنا عن تقديره المتعلق بإظهار قوى الإنسان، وبيّن أنه بقدر ما يمكن أن يُظهر الإنسان من قواه بالفعل، قدّر الله حالته عندها وأنزل الهدى بحسبها في ذلك الوقت. ولهذه الحكمة لم يُنــزِل للبشر في البداية إلا الشرائع التي كانت كاملة في زمنها فقط، ثم في الأخير أنزل الشريعة الكاملة الأبدية. لقد نزلت الشرائع الكاملة بالنسبة إلى زمنها فقط عندما لم يكن الإنسان قد أظهر قواه كاملة بالفعل، بل كان يرتقي في منازل تطوُّره العقلي، أو لم تكن السيئات من كل نوع قد ظهرت منه ظهورًا كاملا، أما الشريعة الكاملة الأبدية فقد أُعطِيَها الإنسان عندما ظهرت منه السيئات ظهورا كاملا من جهة، ومن جهة أخرى أصبح قابلا للتحلي بالحسنات بشكل كامل.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أنه مما لا شك فيه أن الله تعالى قد خلق الإنسان معتدل القوى بريئا من النقائص، ولكنه في الوقت نفسه قد قيّده بشتى الحدود والقيود، ولم يبح له استعمال قواه بلا ضوابط؛ فمثلا قد زوّد الله الإنسان بقوة شرب الماء من ناحية، ولكنه من ناحية أخرى قيّده بحدٍّ وأوضح له أنه يمكنك شرب مائك أنت، لا ماء الآخرين. ومثال الماء هذا قد لا يستوعبه الناس عندنا جيدًا لكثرة المياه في بلادنا، ولكن أهل الجزيرة العربية يفهمونه جيدا لِشُحِّ الماء عندهم، إذ يجلبونه أحيانًا مِن عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً، فأصبح للماء عندهم أهمية وقيمة لا توجد عندنا. ومثاله الآخر أن الله تعالى قد أجاز لنا أكل اللحم من جهة، ومن جهة أخرى نهانا عن أكل لحم الخنــزير والميت وغير المذبوح؛ وهكذا

فإن الله تعالى قد قيّدَنا بشتى القيود والحدود، فلا يجوز للإنسان أن يفعل ما يشاء ويأكل ما يشاء. وهذا أيضًا من معاني التقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدَّرَ﴾.

ثم هناك تقدير رباني لحالات الإنسان وظروفه. لا شك أن الإنسان يريد أن يفعل ما يشاء، ولكن الله تعالى قد خلَقه في ظروف لا يقدر فيها فعل ما يشاء. فمثلا مَن أراد أن يتبرع بألف جنيه فيمكنه أن يتبرع بها، ولكن ليس عند كل واحد هذا القدر من المال حتى يحقق رغبته هذه. يمكنه أن ينفق الملايين والبلايين في عالَم الخيال والتصور، ولكن على صعيد الواقع لا يستطيع كل إنسان أن يتبرع بالآلاف والملايين. ولذلك قال الله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أننا قد جعلنا حول كل إنسان حدًّا من الأوضاع لا يقدر على تجاوزها، وهو ما يسمى بمحيط الإنسان وظرفه. فكأن الله تعالى يقول هنا إن الإنسان يمشي بحسب محيطه، حيث لم يخلق الله تعالى للإنسان قواه وكفاءاته، بل خلق لظهورها محيطا، فتظهر بحسبه دائما. فكلما أنزل الله تعالى هداية للإنسان أنزله نظرا إلى محيطه. وهذا المحيط يكون ماديا أو دينيا أيضًا. لا شك أن المحيط المادي يكون للحيوان والإنسان جميعا، ولكن المحيط الديني.. أي الشريعة.. لا يكون إلا للإنسان وحده. ثم إن الشريعة أيضًا تكون بحسب المحيط المادي للناس، فمثلاً أُمرنا بأداء الصلاة قيامًا، وإن لم نستطع فجلوسًا، وإن لم نستطع فاستلقاء، وكل ذلك نظرًا إلى محيط الإنسان وظرفه. فإذا كان المحيط يتطلب تعليما كاملا فسينـــزل التعليم الكامل، وإذا كان لا يقتضي تعليما كاملا فلا ينـــزل التعليم الكامل، والاعتراض على ذلك إنما هو اعتراض على النواميس الطبيعية. فما دامت الأم لا تطعم وليدها كبابًا، بل ترضعه الحليب، فكيف يُتوقع من الرب الأعلى أن يُنـــزل للإنسان تعليمًا لا يناسبه؟ وهذا ما يبينه الله تعالى بقوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أن التعليم الكامل هو ما يكون ملائمًا للظرف والمحيط. فمثلاً لو أمرنا الله تعالى أن لا يصلي كل واحد إلا قائمًا، فماذا يفعل المريض الذي لا يقوى على القيام؟ ولكن الله تعالى أجاز للمريض منا أن يصلّي جالسا، وإن لم يستطع فمستلقيا. وهذا يعني أن الله تعالى قد أنزل أحكامه نظرًا إلى شتى الظروف المادية للناس، لا بغضّ النظر عنها. فثبت أن التعليم الكامل ما يطابق

قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾. والمثال الآخر للتعاليم المطابقة للظروف المادية للناس أن الله تعالى أمرنا في الإسلام بالزكاة، ولكنه قد صرّح أيضا أن هذا الحُكم ليس للجميع، بل هو لمن عنده مقدارٌ معين من المال. ولولا هذا الاستثناء لم يستطع كثير منا العملَ بهذا الحكم وصاروا آثمين. ولكن شرائع الأديان الأخرى لا تراعي المحيط والظرف. فمثلا من تعاليم الآرية الهندوس ضرورة إحراق الميت باستعمال مقادير معينة من مواد محددة مثل الصندل والزبد والزعفران وغيرها. فقد كتب الباندت ديانند تفاصيلها كالآتي: يجب أن تكون الزبدة بوزن الميت، يضاف إلى كل كيلوغرام من الزبدة عُشْر الغرام من المِسك، وغرام واحد من الزعفران. بالإضافة إلى عشرين كيلوغرام من الصندل على الأقل، وإذا زاد فلا بأس. ويجب أن تصنع منصة الحرق من أخشاب الأُلُوّة والتغر والكافور والبلاش✪ وغيرها، ويوضع عليها الميت ويوضع الحطب فوق وجهه بارتفاع شبر، وتُرَشّ الزبدة عليه ويُحرق. (ستيارتهپركاش (ترجمة أردية) الباب ١٣ص ٦٤٢)

وذات مرة قدّرتُ ثمن هذه الأشياء الضرورية لحرق الميت، فوجدتُ أن ثمنها حوالي ٦٠٠ روبية. والظاهر أن كثيرًا من الناس لا يقدرون على جمع هذا المبلغ ولو باعوا كل ما في بيتهم. ثم إن كثيرا منهم لا يملكون بيتا ولا أرضا ولا عقارا، وإنما يعيشون حُرّاسا في بيوت الكبار، فأنّى لهم أن يأتوا بهذه المقادير من الزبدة والصندل والمسك والزعفران وغيرها. وهذا دليل على أن شريعة الآرية الهندوس ليست طبقًا لما ورد في قول الله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، لأنها لا تراعي ظروف الناس، مع أن الإنسان إنما يعمل في نطاق ظروفه، ومن المحال أن يعمل خارج محيطه.

فالله تعالى يقول هنا إننا قد جعلنا للإنسان محيطًا وأقمنا حوله أنواع الحدود التي لا يمكنه تجاوزها، والتعاليم التي آتيناه إياها إنما آتيناها بالنظر إلى كل هذه الحدود.

✪ هذه أسماء لأشجار هندية. (المترجم)

فلو أمر الله -مثلا - أن يتبرع كل إنسان بعشر روبيات لأصبح مئات الناس كفارا، إذ ليس عند الجميع هذا القدر من المال، ولكنه تعالى قال أَنفِقوا في سبيله جزءًا مما عندكم قلَّ أو كثُر. وهذا الحُكم يتلاءم مع ظرف كل إنسان وبيئته، إذ يمكن أن يتبرع شخص بقرش وينال الثواب، ويمكن أن يتبرع الآخر بمئة ألف روبية وينال الثواب. إن أخذ الظروف في الحسبان ضروري جدًا، لأن الحُكم الصادر بغض النظر عن المحيط لا ينجح أبدا. والله تعالى قد راعى في أحكامه دائمًا محيط الفرد وظروف الأمة كلها أيضا؛ وما لم يكن عقل الأمة كله قادرا على استيعاب التعاليم السامية لا يُنـــزِلها.

فالاعتراض لماذا لم ينـــزل الله تعالى القول الفصل قبل الإسلام اعتراض باطل، لأنه لو نزل القول الفصل عندها لكان مَثَله كمَثَل أن يأمر الله الفقير المفلس بأن يتبرع بمئة ألف روبية؛ والظاهر أن الذي هو بحاجة إلى كل قرش لا يقدر على دفع هذا القدر من المال. فكيف يمكن إذنْ أن يُنـــزِل الله تعالى قوله الفصل لقوم لم تكن عقولهم قد تطورت ونضجت. ما كان القول الفصل ليَنـــزل إلا عند بلوغ العقل الإنساني أوجَ تطوره وعند قدرته على استيعاب كل الأحكام الروحانية السامية. فإذا كان هؤلاء يقولون: لماذا لم يعطِ الله آدمَ القول الفصل وأعطاه محمدا أليس هذا انحيازا لا مبرر له إذ لم يُعطِ الأولَ الشريعة السامية وأعطاها الأخيرَ؟

فجوابنا: لماذا أنتم تَضعون على رأس الولد الصغير كيلوغرامًا واحدا، وتُحمِّلون الكبير القوي أربعين كيلوغراما مثلا؟ إنما سببه لأنكم تعلمون أنكم لو وضعتم على رأس الولد أربعين كيلوغرامًا لمات، ولكن الشخص القوي يحملها بسهولة. وهذا لا يسمى انحيازًا، بل يسمى مقتضى الحال، ولو فعلتم خلافه صار ظلمًا. كذلك أنزل الله تعالى القول الفصل حين كانت الدنيا قادرة على حمله، ولو أنزله قبلها لكان ظلمًا منه لا إحسانا. فاعتراضكم أن الله تعالى -والعياذ به- قد ظلم الأنبياء السابقين وانحاز إلى محمد بإنزاله القول الفصْل عليه دونهم، باطلٌ لا أساس له مطلقا. فإن الله تعالى لم يظلم أحدًا، بل الواقع أنه قد أحسن إلى قوم موسى وعيسى إذ لم ينـــزل عليهما القول الفصل، وإلا لهلكت أمتهما لكونها غير قادرة على

إدراك ما في هذه الشريعة الكاملة من حِكَم ولا على العملِ بها، فمثل هذه الشريعة ما كانت لتطوِّر قواهم وكفاءاتهم، بل كانت ستقضي عليها وتدمّرها؛ ومن أجل ذلك أنزل الله إليهم الشرع الذي كان كاملا في عصرهم نظرًا إلى ارتقائهم العقلي، ولم ينـــزل عليهم الشرع الكامل الكلي الأبدي.

ونرى أن هذه الحدود والقيود قد جعَلها الله في المخلوقات الأخرى أيضًا، فجعَل الأسدَ مثلاً يأكل اللحم ولا يأكل الكلأ، بينما جعل البقرةَ تأكل الكلأ لا اللحم. ومن مقتضى العقل أن لا يُكلَّف أحدٌ إلا بما هو في وسعه وكفاءته. فكم هو أحمق وغبيٌّ مَن يرى البقرةَ تأكل الكلأ والأسدَ يأكل اللحم، فيقول هذا ظلم عظيم أن يُطعَم أحدهما لحمًا والآخر كلأً، فإما أن يُطعَم الاثنان لحمًا أو الاثنان كلأً! فلو زار أحد حديقةَ الحيوانات ورأى أمام الأسد لحمًا وأمام البقرة كلأً، فقال: ما هذا الظلم والانحياز، فهل يؤيده أي عاقل يا ترى؟ كلا، بل سيقول له الجميع: ليس في ذلك انحياز للأسد ولا ظلم للبقر، لأن البقر لا تقدر إلا على أكل الكلأ، والأسد لا يقدر إلا على أكل اللحم. كذلك هي حال الشرائع، فإنها تنـــزل دومًا بحسب كفاءات الناس؛ فالقول لماذا لم ينـــزل القول الفصل في البداية يماثل القولَ: لماذا لا يُطعَم الوليد الخبزَ مِن يومه الأول بدل الحليب؟ ذلك لأن الوليد لو أُطعمَ الخبز لمات بدلاً من أن ينمو، فإنما منفعة الوليد أن يُسقى حليبا فقط. ولو وضعتَ العظام أمام الأسد لمضَغها وأكلها، ولكن لو وضعتها أمام الإنسان لم يستطع تناولها ولو ابتلع عظمًا كبيرا لجرح أمعاءه وقتَله في النهاية. وتوجد في حدائق الحيوانات الكبرى حيوانات كثيرة تأكل الحصى، فلو وضعت أمامها حصاة ابتلعتها فورا، فلو وضعتَ — بعد رؤية هذا المشهد - الحصى أمام شخص وقلت له: كُلْها فإنك أشرف المخلوقات، فلا شك أنك تُعَدّ غبيًا، لأن الإنسان لو أكل الحصى مات. هذا هو الموضوع الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، وقال عليكم أن تتذكروا دائمًا أن الشرائع نزلت دائمًا بحسب الظروف، ولو نزلت شريعة –مهما كانت سامية– دون النظر إلى ظروف الناس وقدراتهم، لأهلكتهم بدلاً من أن ترتقي بهم إلى الدرجات العلى. فعدمُ نزول "القول الفصل" إلى الأولين لم يكن ظلمًا بهم، بل

أنزل الله إليهم ما كان ملائما لهم؛ ثم لما ارتقى العقل الإنساني وبلغ نضجه أنزل الله إليهم القول الفصل حيث رأى أن الناس قادرون الآن على حمله وأن نزوله صار ضروريًا. إن إنزال القول الفصل إلى الأولين كان ظلمًا، وعدم إنزاله لمن بعدهم كان ظلمًا أيضًا؛ ففعل الله عين الصواب؛ فالاعتراض على أي من أفعاله حمقٌ وغباء.

باختصار، إن الله تعالى قد ردّ في هذه السورة على الاعتراضات التي يمكن أن تثار على قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ في سورة الطارق، حيث بيّن بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أن من سنة الله أنه إذا فسد الإنسان أصلحه الله تعالى، وأن قانونه الطبيعي يكشف أنه خلق الإنسان معتدلَ القوى، فكيف يمكن - والحال هذه- أن لا يُنـــزل شرعًا معتدلا.. أي شرعًا يشفي غليل كل قوة من قوى الإنسان، وإلا فلا يُسمّى شرعًا كاملا. فكان لزامًا على الله تعالى أن يُنـــزِل شريعة يشفي بها غليل كل نوع من طبائع البشر، ثم كان ضروريًا أن يهيّئ الله الأسباب لإصلاح كل فساد يتطرق إليهم؛ فوجود قوة الفساد في الإنسان كان يتطلب أن ينـــزل الشرع مرارًا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقتضي خلقُ الله الإنسان مزودًا بقوى معتدلة وكاملة أن تنـــزل في وقت من الأوقات شريعة كاملة كل الكمال.. تراعي كل العواطف والمشاعر من الفطرة الإنسانية. وهذان المفهومان قد تضمنهما قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ثم جاء شرحهما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أن الله تعالى يقدر طاقات الإنسان دائمًا، ثم ينـــزل هديه بحسبها.

لقد بينتُ من قبل أن الحديث في قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ليس عن تقدير الكفاءات الإنسانية وقتَ خلقه، أو القوى الموجودة فيه، ذلك لأنه يُزوَّد بها قبْل أن يُخلَق لا بعده، بينما قدّم الله هنا قوله ﴿خلَق﴾ على قوله ﴿قدَّر﴾، إنما التقدير المذكور هنا يتعلق بوقت ظهور تلك القوى فعلاً.. والمراد أن الله تعالى كان يُنـــزِل إلى الإنسان الهدى بقدر انكشاف قواه وكفاءاته فعلاً، ولا يعني التقدير هنا تقدير مدى كفاءات الإنسان؛ إذ كيف يمكن أن يخلقه الله أولاً ثم يفكر في الكفاءات التي

سيزوده بها؟ إنما يزوده بها وقت الخلق لا بعده. فمثلا عندما يريد الصانع صنع محرِّك يقدر طاقته وقدرته أولاً، وبعدها يصنعه. هكذا يفعل الصانع الماهر دائما، يخبر الناس بعد صنعه: هذا المحرك قوته كذا وكذا؛ أما الصانع عديم الخبرة فلا يعلم قوة المحرك إلا بعد أن يصنعه. أو خذوا مثلاً صانع الأسرّة فإنه يفكر أولاً أن طول السرير يجب أن يكون ستة أقدام مثلاً، ثم يصنعه بحسب هذا المقاس، ولكن عديم الخبرة لن يفكر أولاً في مقاسه المناسب، بل سيصنعه أصغر من المقاس المطلوب أو أكبر، ثم يقول: لا بأس، سأصنع الآن غيره. باختصار، إن الصانع الماهر لا يفكر ولا يقدر مواصفات الشيء بعد صنعه. فما دام الله تعالى قد ذكر هنا قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قبل قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، فهذا دليل واضح على أن الحديث هنا ليس عن تقدير كفاءات الإنسان الموجودة فيه عند خلقه، بل عن تقدير كفاءاته عند ظهورها فعلا، فبين تعالى أنه يُنــزِل الشريعة دائما بقدر تطوُّر كفاءات الإنسان وبحسب قدرته على إخضاع مشاعره تحت القانون الإلهي؛ أو ينــزل العلاج بقدر ما يتطرق إليها من فساد. لا شك أن صحف موسى عليه السلام كانت كاملة لقومه، وأن تعاليم عيسى عليه السلام كانت كاملة لأمته، ولكنها لم تكن كاملة بالنسبة لأمة المصطفى ﷺ، لأن أهل الدنيا كانوا قد تطوروا عندها عقليا، فمست الحاجة إلى أن يُنــزل الله تعالى شرعًا كاملاً أبديًّا بدل الشرائع الكاملة في عصرها فقط. وفي الآيات التالية يضرب الله تعالى مثالاً من الخَلق المادي، ليبين أن قانونه هذا ليس جاريًا في العالم الروحاني فحسب، بل يعمل في العالم المادي أيضا.

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

المَرْعى: المرعى: الكلأ تأكله الأنعام؛ موضعُ الرعيِ (الأقرب). والمرعى هنا بمعنى الكلأ دون الرعي.

غُثاءً: الغُثاءُ والغُثّاء: القَمَشُ (أي الرديءُ مِن كل شيء)؛ الزبدُ؛ الهالكُ؛ البالي مِن ورق الشجر المخالط زبدَ السيلِ. (الأقرب)

أحوى: حَوِيَ الشيءُ: مَن به حُوَّة (الأقرب). والحُوَّة سوادٌ إلى الخضرة، أو حمرةٌ إلى السواد. (الأقرب)

التفسير: لقد دحض الله بهذه الآية ذلك الاعتراض الذي يثار حول القرآن الكريم بسبب قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ الوارد في السورة السابقة، فيقول الله هنا ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾.. أي أن الله هو الذي أخرج الكلأ والحشيش الذي يبقى لفترة محدودة. فمن الكلأ ما عمره عشرون يوما، ومن الخضار ما عمره شهر أو شهران وستة أشهر، ثم يتهشم ويفسد حتى يصبح غثاء أحوى.. أي أنه لا يصبح شيئًا متآكلا فاسدًا فحسب، بل يصير لونه مائلاً إلى السواد. علمًا أن الشيء في بعض الأحيان يفسد ويُنتِن ولكن لونه لا يتغير، وأحيانًا يتغير لونه أيضا. فكلمة ﴿أحوى﴾ جيء بها لبيان المعنى الإضافي بأنه لا يصبح نتنًا فاسدًا فحسب، بل يتغير لونه أيضا. وبضرب هذا المثال قد بيَّن الله تعالى أنه ما دامت بعض الأشياء التي هي مِن خَلْقه تفسد وتخرب لهذه الدرجة، فكيف يصحّ قولكم إنه ما دام الله يريد إنزال الشرع فلِم لَم يكتفِ بإنزال القول الفصْل؟ ولماذا أنزل الشرائع التي كانت ستتعرض للتغير والفساد؟ هلا فكرتم أن الكلأ أيضًا من خلق الله تعالى أيضا، وليس من خلق غيره، وأن الخضار التي تستعملونها من خلقه أيضا، لا من خلق غيره، ومع ذلك ترون أن هذا الكلأ والحشيش والخضار أيضا تتعرض للخراب والفساد بعد فترة من الزمن، حتى تصبح منتنة متعفنة تولد غازات فاسدة وتتسبب في انتشار أمراض كثيرة؟ مع أنه حين تكون هذه الخضار والكلأ بحالة جيدة فتَحمل للناس والأنعام منافع شتى حيث يأكل منها الناس والأنعام، فتنمو بها أجسامهم وتتقوى بها عقولهم، ولكن نفس هذه الخضار والحشيش تصاب بالفساد والخراب بعد أيام وتتسبب في تفشي كثير من الأمراض وفساد صحة أهل البلاد. فإذا لم يكن في خَلْق الخضار التي تفسد وتتعفن سريعًا وتضر الناس ما يقدح

في عظمة الله في رأيكم، ولا تقولون إنها مِن خلق غير الله تعالى، بل تعترفون إنها أيضًا آية مِن خلق الله وقدرتِه كالأشياء النافعة الأخرى التي تعيش طويلا، فلماذا تعترضون في العالم الروحاني على أشياء مماثلة نفعُها كان مؤقتًا؟ و لم لا تفقهون أن من الأشياء ما حياته قصيرة ومنها ما حياته طويلة، وأن بعض الشرائع تكون قصيرة المدى، وبعضها طويلة المدى. إن في خلْق الله الماديّ دليل على أن الله تعالى قد خلق أشياء عمرها قصير مثل الخضار التي تعيش بضع أيام ثم تفسد وتهلك، كما خلَق أشجارًا تعيش مئات السنين، بل الواقع أن من المخلوقات ما سيبقى ما بقي الإنسان كالشمس والقمر والأرض والجبال والمعادن وغيرها. فثبت أن المخلوقات في الدنيا نوعان؛ مخلوق يعيش بضعة أيام ويفنى، ومخلوق يعيش على الدوام بالنسبة لنا، وإن كان فانيًا بالنسبة إلى الله تعالى، ومثاله الشمس، فالله وحده يعلم متى خُلقتْ إذ ليس بوسعِ بَشَرٍ أن يقول إنه قد رأى خَلْقها، كما لا نعرف نحن ولا أجيالنا القادمة متى ستفنى، لأن الجنس البشري سيفنى قبل فنائها، ولو تزامن فناء الجنس البشري بفنائها - على فرض المحال - لن يعرف الناس ذلك، لأهم أيضًا سيفنون عندها؛ وكما أننا نرى الشمس، كذلك ستظل أجيالنا القادمة يروها، ولن تفنى الشمس أمام أعين النسل البشري. ونفس الحال بالنسبة إلى القمر والأرض والنجوم والجبال. لا شك أن الجبال تتغير قليلا نتيجة الزلازل، إلا أنها كانت موجودة قبل خلق الإنسان، وستظل هكذا حتى فنائه. قصارى القول، إن الله تعالى قد خلق الأشياء بنوعيها، ولا يعترض أحد على خَلْقها، بل يعتبر المخلوقات بنوعيها دليلاً على قدرة الله تعالى. فهناك آلاف الآلاف من الأشياء في الدنيا التي يعيش بعضها يوما، وبعضها أسبوعا، وبعضها ستة أشهر، وبعضها ساعة، وساعة ونصف، فمثلا لا تزيد حياة النملة التي تُخلق في أيام المطر عن ساعة ونصف، حتى يضرب بها المثل في بلادنا فيقال: "حتى النملة صارت لها أجنحة". لو نظرتَ في البيت بعد خروج هذه النمل لوجدتَ على الأرض أكوامًا من جثثها وأجنحتها. فهذا المخلوق الذي لا يعيش أكثر من ساعة ونصف هو أيضًا من خلق الله، ومع ذلك لا يطعن أحد برؤيتها في قدرة الله تعالى قائلا: لماذا خلق الله الشمس التي هي باقية منذ مئات الآلاف من

السنين، وخلق هذه النملة التي أهلكها في ساعة ونصف؟ بل يقول الجميع: إن خَلْقها دليل على قدرة الله، كما أن خلق الشمس دليل أيضا على قدرته تعالى.

فمن الحماقة القول: كيف يمكن أن يكون الشرع من عند الله تعالى، ثم يُنسخ بعد فترة من الزمن؟ لو كان من عند الله لما نُسخ! هذه الفكرة توجد عند الهندوس عادةً، إذ يقولون إن الله تعالى إذا أنزل كلامه فلا ينسخه أبدا، لأن في نسخه دليلاً على أنه ليس من الله تعالى. والواقع أنها فكرة باطلة لا أساس لها مطلقًا، لأن التدبر في النواميس الطبيعية يكشف لنا أن الله تعالى قد خلق المخلوق بنوعين: ما تطول حياته، وما يعيش عيشة قصيرة؛ فبعض المخلوقات يفنى في دقائق، وبعضها في ساعات، وبعضها في شهور، وبعضها في سنوات، وبعضها تبقى ما بقي الإنسان، وسيراها ما بقي الجنس البشري على الأرض.

أما الذين فسروا كلمة (أحوى) في قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ بمعنى: النَّضِر شديد النضارة (روح المعاني)، فقد واجهوا مشكلة، لأن الغثاء هو الشيء الرديء المهشم، فالقول أن الشيء الرديء المحطّم يصبح خَضِرًا نَضِرًا ليس قولاً سليما. وقد أوجدوا حلاًّ جيدًا لهذه المعضلة بقولهم إن (أحوى) حال للمرعى، وقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ جملة اعتراضية، والتقدير: الذي أخرج المرعى وهو أحوى فجعله غثاء.. أي أن هذا المرعى - رغم خضرته ونضارته - يفسد بعد أيام ويتلف. كذلك كانت حال الشرائع السابقة؛ إذ كانت تنزل لسدّ الحاجات المؤقتة، ثم تتعرض للخراب والفساد بعد مدّة، إلى أن آن الأوان لأن يعطى الجنس البشري شريعة دائمة أبدية.

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

فلا تنْسى: نَسِيَ الشيْءَ نَسْيًا ونِسيانًا ونِساية ونَسْوةً: ضدُّ حفظه. قال الراغب: النسيانُ: تَرْكُ الإنْسانِ ضَبْطَ ما استُودِعَ.. إما لِضعْفِ قلبه أو عن قصدٍ حتى

ينحذف عن القلب ذِكْرُه، وعليه ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.. أي لا تقصدوا التركَ والإهمال. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في الآيات السابقة أن نزول الشرائع المؤقتة العابرة في زمن الأنبياء السابقين، وعدم نزول القول الفصل عندها، لم يكن خلاف سنتنا، لأن القول الفصْل ما كان لينـــزل إلا بعد أن تصير البشرية قادرة على تحمله، وبعد أن تكون بحاجة إليه؛ وحيث إن الحاجة إلى القول الفصل قد مسَّت في زمن نزول القرآن فلذلك نزل القول الفصل الآن لا قبله.

لكن هنا ينشأ سؤالان: أوّلهما كيف نصدِّق أن هذا الوحي هو القول الفصل؟ لنفترض أن القرآن قد نزل من عند الله فعلاً، ولكن المعروف أن شرائع عديدة نزلت من عند الله لسدّ الحاجات العابرة في زمنها فقط، فلماذا لا نعتبر أن القرآن أيضا شريعة مؤقتة؟ ألَم ينتهِ عصر التوراة عندكم؟ ألم تنمحِ الأناجيل من الدنيا؟ ألم ينتهِ زمن الفيدا ؟ ألم تُنسخ الزندافستا؟ فما دمتم تعترفون أنها قد نُسخت وانمحت، فلماذا لا نقول إن القرآن أيضا سيُنسخ ويمحى بحسب هذا القانون؟ يمكن القول بضرورة القرآن في عصر محمد، ولكن لِمَ لا نقول إنه أيضا سوف يصبح منسوخًا مثل الصحف السابقة في وقت ما بعد انقضاء هذا العصر؟ أما لو قلتم إنه كتاب كامل فلن ينسخ، فهذا ليس صحيحًا، لأن كتاب موسى أيضًا كان كاملا في زمنه ومع ذلك أصبح منسوخًا؛ فمجرد ادعائكم أن القرآن كتاب سماوي كامل لأهل هذا العصر ليس دليلا على أنه سيظل صالحا للعمل في المستقبل أيضا. لا شك أن هذا الأمر دليل على أن القرآن كتاب سماوي كامل لهذا العصر، ولكنه ليس دليلا على أنه لن تمسّ الحاجة إلى كتاب سواه في المستقبل أبدا، أو أن شريعة القرآن لن تُمحى ولن تُنسَخ أبدًا؛ كلا، بل من الممكن أن يفسد هذا الكتاب ويُنسخ في عصر من العصور وينـــزل مكانه كتاب آخر؟

والسؤال الثاني هو: إذا كان في القرآن ما تنسبون إليه من المحاسن، وإذا كان من المقدر أن لن ينـــزل بعده كتاب آخر، فلماذا يقول القرآن ببعثة موعود آخر، أو

لماذا ينبّئ محمد (ﷺ) أنه سيأتي بعده مأمور آخر من عند الله تعالى؟ فهذان السؤالان لا يزالان من دون إجابة. أي كيف نصدق أن القرآن الكريم لن يفسد حتى نهاية الدنيا؟ ولماذا أُخبر عن بعثة موعود بعده ما دام كتابا سماويا كاملا؟

والإجابة على هذين السؤالين كانت قد جاءت -ضمنيًا- في قوله تعالى ﴿الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، ولكنها لم تكن مفصلةً، فلذلك يجيب الله عليهما الآن في الآية قيد التفسير.

ملخص السؤال الأول: كيف نصدق أن القرآن هو القول الفصل، ولِمَ لا نقول إنه أيضا سيُنسَخ ويُلغى في يوم من الأيام ليأخذ مكانه كتاب آخر؟ فأجاب الله على ذلك بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾.. أي أن من سنة الله أن الأشياء التي قُدِّرَ لها التغيير والتبديل تنمحي أولاً بأول. خذوا مثلا الإنسان، فبما أن المقدر له أن يموت ليأخذ مكانه غيرُه، فلذلك نجد الشيب يغزوه وتظهر عليه آثار الضعف والاضمحلال بعد عمر معيَّن، مما يدل بوضوح أنه سيفنى الآن ويأخذ مكانه غيره. فثبت من ذلك أن من سنة الله تعالى أن المخلوقات التي لم تُخلَق لتعيش - كالشمس والقمر - مدة طويلة يغزوها المشيب وتظهر عليها آثار الشيخوخة والضعف بعد فترة، ومثالها الإنسان والحيوان والشجر والمرعى وغيرها، مما يكشف بوضوح أن الله يريد لهذه الأشياء أن تنمحي ويأخذ غيرها مكانها. وهذا القانون الإلهي نفسه نراه ساري المفعول فيما يتعلق بالصحف السماوية السابقة. فباستثناء القرآن الكريم لن تجد أية صحيفة سماوية في العالم محفوظة في صورتها الأصلية. فمثلاً تجد في نسخة من كتاب سماوي واحد ما لا تجده في نسخه الأخرى. خذوا مثلا الأناجيل، فهناك أربعة أناجيل، ومع ذلك توجد فيها عشرات الاختلافات. ثم إن الطريقة التي انتقوا بها هذه الأناجيل الأربعة تدل أنه لا يجوز اعتبارها سماوية بحال من الأحوال، إذ كان عند المسيحيين ٣٠٠ إنجيل انتقوا منها هذه الأربعة.
(Dictionary Of The Bible, Dr. W. Smith Vol:11 p 943)

وهناك قصة تُحكى عن انتقائها، والله وحده أعلم بصحتها، وهي أن القسيسين ناقشوا طويلا قضية انتقاء الأناجيل الموثوق بها، فلما رأوا أنهم لا يتوصلون إلى نتيجة وضعوا على طاولةٍ كل الأناجيل البالغ عددها ٣٠٠، وضربوها بالعصا، فما بقي منها على الطاولة اعتبروها موثوقا بها.. أي أنها من عند الله تعالى، وما وقع منها على الأرض اعتبروها رديئة. وقصّتهم هذه تشبه قصة معلم كسول: يحكى أن معلمًا كان لا يفحص أوراق اختبار الطلاب، بل كان يضعها على طاولة أمامه ويضربها بيده، فكان يعتبر الطلاب الذين سقطت أوراقهم على الأرض راسبين، ومن بقيت أوراقهم على الطاولة ناجحين.

وحتى لو لم نصدّق هذه القصة معتبرين انتقاء الأناجيل الأربعة نتيجة تفكير القساوسة العميق، فالقضية تبقى على حالها، لأنه لو حُقَّ للتفكير الإنساني العميق اعتبارَ كتابٍ كتابًا سماويًّا في الواقع لجاز له أن يأتي بشريعة جديدة أيضًا، أما إذا كان التفكير الإنساني غير قادر على صنع شريعة، فهو غير قادر أيضا على اعتبار كتاب إلهاميًّا بصورة قطعية يقينية، إذ لو كان هناك مدّعيان في قضية، فلا يمكن الحُكم القطعي في صالح أحدهما من دون شهادة خارجية أو داخلية تدعم هذا الحُكم.

باختصار، أخذت الصحف السابقة تنمحي وتندثر بعد نزولها مباشرة، وذلك دليل قطعي على أن الله تعالى لم يُنـــزلها للهداية الدائمة الأبدية، حتى إن أتباعها أنفسهم يقرّون أنها لا تزال تنمحي وتندثر منذ فترة طويلة. إن المسيحيين أنفسهم يعترفون أن الأناجيل قد دُوِّنت بعد المسيح الناصري عليه السلام بفترة طويلة جدًا، وأن البشر تَولّوا تدوينها ولم تنـــزل من السماء. أما الاختلاف بين شتى نسخ الأناجيل فيعترف به الباحثون المسيحيون أنفسهم. والحال نفسه بالنسبة إلى التوراة؛ فإن شهادتها الداخلية تكشف أنها كانت قد انمحت واندثرت في وقت ما، حيث كان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد .. أي في أواخر القرن الرابع عشر الإبراهيمي.. حين أحرق نبوخذنصّر بيتَ المقدس، فاحترقت نسخ التوراة المقدسة أيضا، وأُسِرَ اليهود ونُفوا إلى بابل، فظلوا في السبي سبعين سنة، ثم أُطلق سراحهم، فقام العُزير

- أي عزرا عليه السلام الذي يوجد له كتاب في العهد القديم- بتدوين التوراة الحالية بمساعدة أحبار آخرين، وكتبها بناء على ذاكرته.

علمًا أن هناك كتابًا آخر باسم عزير عليه السلام باليونانية واسمه (ESDRAS)، وهو غيرُ الكتابِ الموجود باسمه في العهد القديم. ورغم عدم وجود هذا الكتاب في التوراة الحالية، إلا أنه ليس أقلَّ موثوقيةً منها؛ ولذلك قد أُضيف إلى ملحق التوراة المطبوعة فيما بعد. ودراسة هذا الكتاب تكشف لنا كيف أعاد العزير عليه السلام كتابة التوراة بمساعدة خمسة من أصحابه في أربعين يوما. وقد ورد فيه ما يلي:

انظُرْ أيها الإله، سأذهبُ كما أمرتَني، وسأشرح الأمر للموجودين، ولكن من يشرح للذين يولدون فيما بعد. إن الدنيا في ظلام، وأهلها يعيشون بدون نور، لأن الشرع قد احترق، فلا يعرف أحد ما تعمل أنت وما سيحدث. ولكن إذا كنتَ تشملني بفضلك، فأَنزِلْ عليّ روح القدس لأكتب كل ما وقع في الدنيا منذ البداية، وما هو مكتوب في شرعك، لكي يهتدوا إلى سبيلك، وليحيا الذين يكونون في الزمن الأخير. فقال لي في الجواب: اذهبْ إلى سبيلك، واجمع الناسَ وقل لهم أن لا يبحثوا عنك لأربعين يوما. ولكن انظرْ، اصنَعْ خشب الصناديق الكثيرة وخُذْ معك سيريا ودبريا وسليميا وأكانس وأسيل SARIA & DABARIA & SELEMIA & ECANUS& ESIAL. هؤلاء الخمسة الذين هم مستعدّون ليكتبوا بسرعة كبيرة، وائت بهم هنا، وسوف أُشعِلُ شمعة الفهم في قلبك التي لن تنطفئ إلى أن تكتمل الأمور التي تبدأ بكتابتها. (الباب الرابع عشر: الفقرات ٢-٢٥)

ثم ورد: "فاعتزلَ العُزير مع هؤلاء الكَتَبة الخمسة أربعين يوما، وكتب بتأييد الإلهام مئتين وأربعة كتب في أربعين يوما". (الفقرة: ٤٤).

ولم يكتب هؤلاء التوراة فقط، بل كل الكتب المنسوبة فيها إلى الأنبياء بدءًا من موسى إلى العُزير عليهم السلام.

هذا، وليس هناك أية شهادة تاريخية على أن اليهود كانت عندهم عادة حفظ التوراة عن ظهر قلب، بل إنهم لا يحفظونها حتى اليوم؛ فكيف يُظَنّ -والحال هذه- أن الذين أعادوا كتابة التوراة قد كتبوها بشكل صحيح؟ إن تدوين التوراة ثانيةً قد

تمّ بعد سبي اليهود بيد نبوخذ نصّر إلى بابل بفترة طويلة، فعاشوا هناك ستين أو سبعين سنة تقريبا. (راجع تاريخ بائيبل للقسيس ويليام ج بليكي، ص 401). ولما قويت شوكة قورش مَلِكِ فارسَ وميديا عقد معه اليهود في بابل معاهدة سرّية، فلما هاجمها ساعدوه من داخلها، فاستولى عليها بسهولة، ثم سمح لبني إسرائيل بالعودة إلى وطنهم جزاء على مساعدتهم له. وكان ذلك زمن النبي عزرا الذي في زمنه دُونت التوراة ثانية. وهذه الفترة بين هجوم نبوخذنصر وتدوين التوراة ثانية تصبح مئة سنة تقريبا. ولا يخفى على المرء أن كثيرًا من اليهود ماتوا في مئة سنة. فلو سلّمنا جدلاً أن اليهود كانوا حافظين للتوراة عن ظهر قلب قبل حرقها، فمع ذلك ليس تدوينها بعد كل هذه الفترة بأمر يقيني، لأن كثيرا منهم كانوا قد ماتوا في هذه المدة. ولكن الواقع أنه لم يكن عند اليهود رواج لحفظ التوراة أصلا، فما كتبه هؤلاء الكتبة إنما كتبوه بناء على قياسهم وخيالهم. ونجد الدليل على ذلك في التوراة نفسها، حيث ورد فيها أن موسى عليه السلام قال إن الله قد أمركم بكذا وبكذا، ثم ورد فيها:

"فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إلى هذَا الْيَوْمِ. وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلا ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ." (التثنية ٣٤: ٥-٧)

فمن ذا الذي سيُصدِّق أن الله قال لموسى وهو يكلّمه: فمات موسى ودُفن في أرض مؤاب، ولا يعرف قبره هناك إلى الآن؟ يتضح من هذا جليًّا أن هذه الأخبار قد كتَبها شخص بعد موسى عليه السلام في وقت لم يعُد الناس يعرفون مكان قبره عليه السلام. إذ كيف يمكن أن لا يعرف أحد من أتباع موسى قبره عليه السلام وهو سيّدٌ لمئات الآلاف، وكانوا يفدونه بأرواحهم، خاصة أنهم كانوا يحكمون تلك البلاد حكمًا متواصلا؟ إن هذه الكلمات توضح أن آثار قبر موسى عليه السلام كانت قد انمحت خلال فترة المائة سنة بدءًا من سبي اليهود حتى زمن النبي عزرا، وعندما عاد بنو إسرائيل إلى وطنهم ودُونت التوراة ثانية أضافَ بعض الكتبة من عنده أن لا أحد يعرف مكان قبر موسى الآن. إذ كيف يمكن أن يندثر أمام أعين قوم قبرُ إنسان

كان حاكمًا لهم ومؤسس جماعتهم، ومحور قوتهم السياسية والعلمية، وقد رفعهم من الحضيض إلى القمة. فإننا نرى في بلادنا أن قبور الدراويش والفقراء العاديين أيضا لا تندثر آثارها، فقبور نظام الدين أولياء ومعين الدين الجشتي وأحمد السرهندي وغيرهم - رحمة الله عليهم - لا تزال موجودة إلى اليوم، مع أن حكم المسلمين على الهند قد انتهى، وتحكُمُهم اليوم أمة أخرى. لو أتى زمن يصبح الهندوس فيه غالبين على الهند ويطردون المسلمين منها ويهدمون أماكنهم المقدسة، ثم يرجع المسلمون بعد زمن إلى هذه البلاد، فيمكن أن يقال عندها لا ندري الآن أين كان قبر هؤلاء الصلحاء! أما موسى ﷺ فكان نبي الله، ونبيّا تشريعيًّا، وإمام قوم وقائدهم، فكيف اندثر قبره بهذه السرعة أمام أعينهم؟ فثبت بهذه الفقرة من التثنية بجلاء أن التوراة قد كُتبت بعد عودة اليهود من السبي، ولأنهم ظلوا خارج بلادهم قرابة مئة سنة، فعندما رجعوا إلى وطنهم لم يعرفوا مكان قبر موسى ﷺ، ولذلك كتب بعضُ كتبة التوراة: لا يُعرف مكان قبره الآن.

هذه شهادة داخلية من التوراة على أنها كانت قد انمحت واندثرت، ثم دوّنها الناس بناء على ذاكرتهم.

والحال نفسه بالنسبة لكتاب الفيدا الهندوسي، فأوّلاً لم يُفصَل حتى اليوم فيما إذا كانت كُتب الفيدا ثلاثة أم أربعة. ثم هناك اختلاف كبير بين عبارات كتب الفيدا؛ حيث يوجد في كتاب جملة لا توجد في الآخر، ثم هناك اختلاف في عدد العبارات بين نسخة وأخرى.

وثانيا: لقد أقرّ علماء الهندوس أنفسهم أن الفيدا ليس محفوظا على شكله الأصلي، بل نالته يد التحريف والتغيير. فيقول الباندت "شانتي ديو شاستري": لم يُفصَل حتى اليوم فيما إذا كانت كتب الفيدا أربعة أم ثلاثة! إنها ثلاثة في رأي "منوسمرتي" و"شتبته براهمن" وهي: ريجفيدا ويجرفيدا وسامفيدا، بينما هي أربعة في رأي "واجنئي أُبْنَشُد" و"برهمنو أبنشد" و"مندك أبنشد". (مجلة گنگا، فبراير ١٩٣١ ص ٣٢٢)

بينما قال "ساهَتْيَ آچاريه باندت مَهِنْدَر مِشَرْ": قد وقع في الفيدا اختلاف كبير من ناحية العصور والأقطار والتلاوة، ونتيجة العداء بين المعلّمين وبسبب استعمال الفيدا في مراسيم القرابين فقد حصل فيه اختلاف كبير، فصارت لكل كتاب من الفيدا نُسَخ كثيرة، فمثلا هناك عشرون أو إحدى وعشرون نسخة مختلفة لـــ ريجفيدا، ومئة نسخة مختلفة ليَجُرفيدا، وألف نسخة لسامفيدا، وتسع أو خمس عشرة نسخة لأهَروفيدا. (مجلة گنگا يناير ١٩٣٢، ص ٤٨)

وكتب الباندت راجا رام البروفيسور في كلية د. أ. و. بلاهور: "لقد ترك " سائن آچاريه" الفقرات رقم الستين إلى الثلاث والستين من الباب التاسع من كتاب أهَروفيدا من دون تفسير. ويوجد بين الفقرتين ٦٩ و٧٠ فقرةٌ هي في الأصل من كتاب آخر هو ريجفيدا الباب ١ فقرة ٩٩. وقد أثبت "هَبْتي" في مقال مفصّل أن البابين التاسع عشر والعشرين من أهَروفيدا أُضيفا إليه فيما بعد. (أهَروفيدا بهاش، مجلد ٢ ص ٨٣١)

ويقول "الباندت ويدك مُنى": الواقع أنه ليس هناك كتاب من كتب الفيدا هو أسوأ حالاً من أهَروفيدا. لقد أضيفت إليه فقرات عديدة بعد زمن العالِم "سائن آچاريه" أيضًا. وقد برعوا في اختراع طرق التحريف أيضا. ففي الماضي كانوا يكتبون قبل كل فقرة أو عبارة كلمة بداية وعند انتهائها كلمة نهاية، ولكن حين لم يعُد يسألهم أحد تركوا تسجيل هاتين الكلمتين المشيرتين إلى بداية الفقرة ونهايتها، وهكذا يضمّون إلى المجموعة ما يشاءون. فكما أنهم يضيفون إلى مجموعة ريجفيدا أبواب "بالكِلْيه"، كذلك يضاف اليوم إلى أواخر "أهَروفيدا" فقرات تسمى "كُنتاب" (أي المشتملة على أنباء لم ينكشف معناها). ولو سألْتَهم مِن أين جاءت هذه الأبواب كلها، بدءًا من المجموعة الخامسة إلى فقرات "كُنتاب"، فلا يعطون جوابا. لقد انتشر الجهل لدرجة أن كل من يقرأ في آخر الكتاب أهَروفيدا "مجموعة سمابتا" يوقن أن كل ما يوجد إلى آخر هذا الكتاب هو كله أبواب من "أتروفيدا"، ولا يفكرون فيمَن طبع هذا الكتاب ومن ألفه وما مكانته العلمية. (فيدسروسو ص ٩٧)

ويقول الباندنت مهيش كَنْدَرْ بارشاد BA: إن لمجموعة "واجسنَئي شُكْل ليَجُرفيد" أسلوبًا منفردًا تماما، حيث يوجد فيه "فيد" و"برهمن باغ" منفصلين، فيه أربعون درسًا، ولكن الناس يوقنون أن ثمانية منها أصلية والباقية أضيفت إليها فيما بعد..... وأسلوب الباغ من الدرس رقم ١ إلى ١٨ يماثل أسلوب "مجموعة يئتري وكرشن ياجرفيدا" نظما ونثرا. وتجد شرح كل لفظ من هذه الدورس الثمانية عشر في براهمنه. ولكن يوجد في الدرس رقم ١٧ ملاحظات مشتملة على بضعة فقرات. وقد اعتبر "كاتيائن" الدروس رقم ٢٦ إلى ٣٥ إضافات تحريفية..... أما الدروس رقم ١٩ حتى ٢٥ ففيها ذِكرُ طرق القرابين، ولكنها لا تشبه ما ورد في "مجموعة تيئتري". أما الدروس ٢٦ إلى ٢٩ فتجد فيها ذكرًا خاصا عن تلك القرابين التي هي مذكورة في الدورس السابقة. ومن هنا يُظن أنها أضيفت فيما بعد. (سنسكرت ساهتيه كا إتهاس مجلد ٢ ص ١٦٠)

إذن، علماء الهندوس أنفسهم يقرّون بأن الفيدا لم يَعُدْ محفوظا كما كان، بل أصبح محرَّفا مبدلا.

أما الزرادشتيون فإنهم يقولون بسبب عدائهم للمسلمين إن هؤلاء قد أحرقوا كتبنا الدينية بما فيها كتاب الزرادشت السماوي، فلم يبق عندنا إلا بضعة أبواب منه حيث ضاعت الباقية وتلفت.

إن ادعاءهم أن المسلمين قد أحرقوا لهم كتبهم الدينية باطل، إذ الثابت من المصادر الزرادشتية نفسها أن كتابهم "زندافستا" قد أُحرق عند هجوم الإسكندر المقدوني على بلاد الفرس. ولو سلّمنا جدلاً بادعاء حرق المسلمين لكتبهم، فهذا يثبت - على الأقل- أن كلام زرادشت ليس محفوظا عندهم بشكل كامل، إذ ليس بأيديهم إلا جزء قليل جدًّا من كتابه الأصلي.

باختصار، لم يبقَ على وجه الأرض -سوى القرآن الكريم- كتاب لأي دين يمكن الادعاء بأنه محفوظ كما قدّمه مؤسس ذلك الدين. وفي هذا دليل على أن الله تعالى كان قد قرّر اندثار تلك الكتب وانمحاءها، لينزِّل مكانها كتابا آخر؛ وإلا فلو أراد الله تعالى حفْظَ التوراة ونشرها في الدنيا، لأقام عند انمحائها نبيًّا وأنزلها

عليه مرة أخرى قائلا له: لقد انمحت التوراة، فها إني أُنزلها عليك ثانية كما أنزلتُها على موسى من قبل- لتنشرها في الدنيا مرة أخرى. ألم يكن الله قادرًا على أن يهزم نبوخذنصَّر ويهلكه بعذابه عندما همّ بإحراق التوراة؟ أو لم يكن الله قادرا على أن يهلك الإسكندر المقدوني بعذابه لو أراد إقامة زندافستا وحِفْظه في الدنيا ليعمل به الناس دائما؟ أو لم يكن قادرا على أن يهلك أولئك الباندات وعلماء الفيدا الذين حرفوه لو كانت مشيئته أن يظل الناس عاملين بالفيدا على الدوام؟ ولو أراد الله تعالى أن تعمل الدنيا بالإنجيل فقط إلى الأبد، أفلم يكن قادرًا على إزالة العيوب والنقائص التي أدخلها المسيحيون في الإنجيل؟ كان الله تعالى قادرا على ذلك بكل يقين، لكنه سمح بهذا التحريف لأنه لم يشأ أن يبقى أي من هذه الكتب محفوظًا في الدنيا إلى الأبد.

هذا ما حصل فعلاً من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن الله تعالى إذا أراد الإبقاء على شيء لم تستطع الدنيا إفساده مهما حاولتْ. لقد حفظ الله تعاليم عيسى عليه السلام طالما أراد حفظها، ولم يدَع الله شريعة زرادشت أن تندثر طالما أراد أن يعمل بها الناس، ولكن لما انتهت مهمة هذه الكتب رفع الله عنها حمايته. فثبت أن من سنة الله تعالى أن يحفظ الكتب السماوية من كل تلاعب وتحريف وإضافة طالما هي صالحة ونافعة للدنيا، وعندما تنتهي مهمتها تأخذ الدنيا في العبث بها. كذلك نجد في عالم المخلوقات أن الأشياء ذات الفوائد العابرة تفسد وتتعفن بعد فترة من الزمن، أما الأشياء ذات الفوائد طويلة المدى فتبقى كما هي. وهذا هو الدليل الذي يقدمه الله تعالى في قوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾. علمًا أن الخطاب هنا ليس موجهًا إلى رسول الله ﷺ فحسب، بل إلى أمته كلها. فمن أساليب القرآن أنه يخاطب النبي ﷺ أحيانًا ويعني جماعته كلها، فقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ يعني أن أُمته ﷺ كلها لن تنسى هذا الكتاب، وأن كلماته ستبقى محفوظة إلى الأبد، ومن أجل ذلك قال الله تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:١٠). فقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ لا يعني أن الرسول ﷺ وحده سيحفظ القرآن،

ذلك أن حفظه ﷺ للقرآن الكريم لا يكون حجة على الدنيا، إذ يمكن لأي مدّع أن يقول إني أحفظ هذا الكلام الذي نـــزل عليّ كما هو.

ولو قيل هذا الخطاب يشمل النبي ﷺ والصحابة، فهذا أيضًا ليس صحيحًا، إذ كيف يكون عدم نسيان الصحابة للقرآن الكريم دليلا على بقاء القرآن محفوظا للأبد؟ إنما الدليل ما يُفحم المعارض ويُقنعه، ولكن كيف يمكن إقناع المعارض بالقول إني لم أنسَ القرآن كما لم ينسه صحابتي، إذ يمكنكم أن تسمعوه مني ومنهم؟ لأن المعارض سيقول: صحيح أنك وصحابتك تحفظون القرآن عن ظهر قلب الآن، ولكن كيف يثبت من ذلك أنه سيظل محفوظا للأبد؟ إذ من الممكن أن يحفظه صحابتك، ولكن ينساه من يأتون بعدهم. فهذا ليس دليلا يقنع المعارض فيما يتعلق بحفظ القرآن الكريم. نعم يمكن أن يطمئن بهذا الدليل مَن كان إيمانه كإيمان العجائز، ولكن القرآن ليس للمؤمنين فقط، بل يُعرَض على الأعداء أيضا، وإن الله تعالى نفسه قال في مستهل هذه السورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي يا محمد، أثبتْ للناس نـــزاهة صفات ربك عن كل نقص وعيب، فما دام القرآن قد نـــزل ليُعرَض على الدنيا كلها، فلا يمكن أن يقدِّم الرسول ﷺ من الأدلة على صدقه إلا ما يكون حجة على المعارضين، وليس ما يُطمْئِنُ به قلوبَ المؤمنين فقط، أما القول إن الخطاب هنا موجَّه إلى الرسول ﷺ وأصحابه فليس دليلا يقيم الحجة على المعارضين؛ لذا فلا بد أن يُفسَّر قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى﴾ بما يتفق مع عظمة القرآن وشأنه، وبما تؤيده الآيات الأخرى أيضا؛ وليس سبيله إلا أن نقول إن الخطاب هنا ليس موجها إلى الرسول ﷺ فقط، بل إليه وإلى أتباعه كلهم أجمعين، والمراد أننا سنعلّمكم كلامًا لن تنسوه إلى يوم القيامة، بل سيظل محفوظا كما هو الآن.

ومن الأدلة على هذه الدعوى أنّ ألدّ أعداء الإسلام أيضا يقرّون علنًا أن القرآن الكريم محفوظ اليوم تمامًا كما عرضه محمد ﷺ في وقته. فقد اعترف "نولدكه" و "سبرنغر" و "وليام موير" في كتبهم قائلين: ليس هناك كتاب سماوي نستطيع القول قطعًا ويقينًا إنه لا يزال محفوظا حتى اليوم كما قدَّمه مؤسسه إلا القرآن. إنه الكتاب الوحيد الذي يمكن القول حتمًا وجزمًا إنه لا يزال محفوظا كما قدّمه محمدٌ

لأصحابه. ولما كان هؤلاء المستشرقون لا يصدّقون أن القرآن من وحي الله تعالى، بل يعتبرونه من تأليف محمد (رسول الله ﷺ)، فلا يستطيعون القول إنه لا يزال محفوظا كما نـــزل من عند الله تعالى، ولذلك يقولون إنه لا يزال محفوظًا في الدنيا كما عرضه محمد على الناس. فقال السير وليام موير بعد أن ساق عدة أدلة في كتاب له:

"إن هذه الأدلة تُقنع تمامًا أن القرآن الذي نقرأه اليوم هو بنصّه وفصِه نفسُ ما قرأه النبي على الناس". (The Quran, its composition and teachings p:40) وقال في كتاب آخر: "من الممكن جدًّا أن يكون القرآن من اختراع محمد (ﷺ)، وربما أحدث فيه تغييرا وتعديلا، إلا أنه مما لا شك فيه أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو نفس ما أتانا به محمد". (حياة محمد ص ٥٦٢)

وقال أيضًا: "نستطيع الجزم - بناءً على قياسات قوية - أن كل آية من القرآن الذي بين أيدينا هي آية أصلية غير محرفة، وهي هي كما أوردها محمد (ﷺ)". (المرجع السابق)

وأما نولدكه فقال: "من الممكن أن يتضمن القرآن أخطاء إملائية بسيطة، ولكن فحوى المصحف الذي قدّمه عثمان (رضي الله عنه) للعالم هو نفس ما عرضه محمد (ﷺ)، وإنْ كان ترتيبه يبدو غريبًا جدًّا في بعض الأحيان. لقد فشلتْ تمامًا محاولات العلماء الأوروبيين في إثبات أي تحريف في القرآن فيما بعد". (الموسوعة البريطانية، تحت: القرآن)

باختصار، يعترف المستشرقون أنه لا مجال للشبهة في القرآن الكريم مطلقا فيما يتعلق بحفظه الظاهري، بل هو نفس الكتاب الذي قرأه محمد (رسول الله ﷺ) على الناس لفظًا لفظًا.

فما أعظمَها مِن نبوءة وردت في كلمة وجيزة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾!

ثم لا يغيبنّ عن البال أن هذه النبوءة قد أُدليت حين لم يؤمن برسول الله ﷺ إلا بضعة أفراد، وكان العالَم يعارضه ساعيًا لمحو أثره من وجه الأرض، ولم يكن حوله ﷺ الآلاف والملايين من المؤمنين، فيُظَنّ أنه برؤية هذه الجموع الغفيرة حوله أعلن

أن من المحال الآن أن يقدر أحد على محو هذا الكتاب. الواقع أن النبي ﷺ أنبأ بذلك في وقت كان فيه عرضة لكل هجوم، وكان أصحابه يُعَدّون على الأصابع، فأعلن في هذه الحالة الضعيفة والوقت الحرج أن القرآن سيبقى في الدنيا إلى الأبد، ولا يقدر أحد على محو أثره. لقد حُرِّف كتاب الفيدا الهندوسي رغم وجود ملايين المؤمنين به، وتعرضت التوراة للتحريف رغم وجود ملايين المؤمنين بها، وطالت يد العبث الإنجيلَ رغم وجود ملايين المؤمنين به، ولقد حُرّفت كُتب زرادشت رغم وجود الملايين من أتباعه؛ ولكن شخصا -لم يكن معه إلا ثمانون أو تسعون شخصا، وفي بلد لم يكن فيه أية وسائل لحفظ كتابه إذ لم يكن به مكتبات ولا رواج للتعليم- أعلن أن كتابه سيظل محفوظا وباقيا إلى يوم القيامة، ولن تقدر الدنيا على تغيير أي حركة فيه. لو كان أهل مكة يقرؤون ويكتبون لقيل لعلّ محمدا (ﷺ) قام بهذا الإعلان نظرًا إلى كفاءة أتباعه العلمية، ولكن انظروا إلى عجائب قدرة الله تعالى؛ حيث ظهر الإسلام في قوم لم تَرُجْ بينهم الكتابة والقراءة، إذ لم يكن بين الصحابة الأوائل في مكة ممن يعرف القراءة والكتابة إلا ثلاثة أو أربعة أو سبعة على الأكثر، ولم يتجاوز عدد جماعته كلها الثمانين أو التسعين، ورغم هذه الحالة من الضعف أعلن الله تعالى لرسوله: سنقرئك القرآن فلا تنساه؟! فكأنما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: أما الآخرون فلم نقرئهم قراءة خاصة، وأما أنت فقد تجلَّينا عليك بربوبيتنا العليا، فنعطيك درسًا أعلى لن تنساه.. أي سيبقى الكتاب الذي أنــزلناه عليك محفوظًا إلى الأبد. ما أعظمَ هذه النبوءة وأقواها!

ثم انظروا كيف هيّأ الله الوسائل والأسباب لحفظ القرآن الكريم، ليس حفظًا روحانيا فحسب، بل حفظًا ظاهرا أيضا، وفيما يلي بيانها:

الوسيلة الأولى: إن أول الأسباب التي هيأها الله لحفظ القرآن الكريم هو وقوع الاختلاف بين المسلمين بعد وفاته ﷺ فورًا. فلو ظلّ حزب موحَّد منهم حاكمًا على الناس فكان هناك خطر أن يضعف إيمانه في وقت من الأوقات، فيُخرج من القرآن الكريم الآيات التي تعارض أهواءه؛ ولكن بعيْد وفاة النبي ﷺ فكّر الأنصار أنهم أَولى بالخلافة، بينما رأى المهاجرون أنهم أحقُّ بها، وهكذا وقع بين المسلمين

اختلاف وخصام، مما جعل بعضَهم رقيبًا شديدًا على بعض. تروْن كم بيننا وبين الأحمديين غير المبايعين من اختلاف اليوم. لا شك أنه أمر مؤلم، ولكنه جعل كلا الفريقين يراقب بعضه بعضا، وكلما حصل منهم خطأٌ تصدّينا لهم وقلنا: كلا، بل إن المسيح الموعود عليه السلام قد كتب خلاف ما تقولون. كذلك كان الله تعالى قد جعل بين المسلمين نوعًا من الرقابة بعد وفاة الرسول ﷺ فورًا، مما جعل كلا الفريقين منهم رقيبًا على تصرُّفات الآخر، فلم يجرؤ حتى أضعف المسلمين إيمانًا على أن يُحدِث في القرآن الكريم أدنى تحريف.

ثم جعل الله تعالى الشيعة والسنة يختلفون في زمن الصحابة. ثم ظهرت طائفة الخوارج. علمًا أن المسلمين تفرقوا إلى شيعة وسنة في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سبأ الذي قد أحدث فتنة كبرى في الإسلام في عهد عثمان رضي الله عنه متأثرا بالأفكار الشيعية. إذن، قد بدأ النـــزاع بين السنة والشيعة بعد وفاة النبي ﷺ بأربع وعشرين سنة، حين كان الآلاف من الصحابة لا يزالون أحياء، ثم ظهرت فتنة الخوارج بعد وفاته ﷺ بحوالي ٣٢ سنة. وهذه الفِرق الثلاث كلها كانت تؤمن بالقرآن الكريم؛ وهكذا أصبحت بعضها رقيبة على بعض، مما كان وسيلة عظيمة لحفظ القرآن الكريم حفظًا ظاهرًا.

بالإضافة إلى ذلك جعل الشيعة يعتقدون أن جزءًا من القرآن الكريم كان في حوزة علي رضي الله عنه، ولكنه لم يُظهِره للناس، وأنه الآن مع الإمام الغائب، الذي سيأتي به عند ظهوره في العالم. أليس غريبًا أن يهاجم الشيعة القرآن الكريم قائلين إن عشرة أجزاء منه موجودة عند الإمام الغائب، ومع ذلك يعترفون أنه لم يُنقَص من المصحف الموجود أية آية، بل إن كل لفظ منه هو هو كما نـــزل على الرسول ﷺ من عند الله تعالى.

أما قول الشيعة إن عشرة أجزاء من القرآن الكريم مفقودة، فجوابه أن الأمر لو كان كما يظنون لما كان القرآن كتابا كاملا من حيث الأحكام الشرعية، بل لا بد أن يفتقر إلى أحكام كثيرة، فتكون بعض المسائل الدينية فيه ناقصة، وتكون بعض القضايا المَدنية بدون حلّ، وتعوزه بعض الأحكام المتعلقة بالعبادات، لأن "الأجزاء

العشرة المفقودة" منه لا بد أن تكون محتوية على بعض أحكام الدين؛ فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هي تلك الأحكام المفقودة من القرآن الكريم؟ فإن ما نراه على صعيد الواقع أنه ما من تعليم دينيّ إلا وذكره الله تعالى في القرآن، وما من قضية مَدنية إلا ويقدم القرآن حلاً لها، وما من حُكم يتعلق بالعبادات إلا وهو مذكور فيه، مما يدل على كونه متكامل كل الكمال ولا يوجد فيه أدنى نقص من حيث تعاليمه وأحكامه وأوامره ونواهيه. فثبت أن القول بفقدان عشرة من أجزائه باطل تمامًا، إذ لو كانت مفقودة لوُجد فيه نقص فيما بيّنه من أحكام الشرع وقضايا الدين، ولكنا لا نرى فيه أي شيء كهذا، كما ليس بوسع الشيعة إثبات أي نقص فيه. وما داموا يشهدون على كمال المصحف الحالي ولا يستطيعون إثبات أي نقصان فيه، فقد بطلتْ دعواهم تلقائيا.

باختصار، لقد دبّر الله لحفظ القرآن ظاهرًا أنْ جعَل المسلمين يختلفون فيما بينهم بعد وفاة الرسول ﷺ فورا، فأصبح فريقٌ رقيبا على الآخر، ولم يستطع أي منهما التلاعب بالقرآن الكريم.

والوسيلة الثانية. قد هيّأ الله للقرآن الكريم كثيرًا من الحفّاظ والقرّاء بما لم يسبق له مثيل في تاريخ الأديان كلها. إن القرآن ليس أوّلَ كتاب سماوي نــزل إلى الدنيا، إذ نزلت قبله كتب سماوية عديدة، ومع ذلك لم يُقدَّر لأيٍّ منها أن يحفظه المؤمنون به، أما القرآن الكريم فيوجد اليوم مئات الآلاف مِن حفظته، فيستطيعون قراءة كل حرف ولفظ منه من بدايته حتى نهايته عن ظهر قلب. خلال زيارتي لإنجلترا عام ١٩٢٤ قال لي البعض: لقد مضى على نــزول القرآن ثلاثة عشر قرنًا، ثم لم يكن عند نــزوله رواج للكتابة، فلا يمكن الجزم أن هذا القرآن الذي هو بين أيدينا هو نفس ما عُرض على الناس قبل ١٤ قرنا. وكان عمر ابني ناصر أحمد عندها ١٥ سنة وكان قد ختم حفظ القرآن، فقلت للمعترض: لا شك أنه لم يكن للكتابة رواج عند نزول القرآن الكريم، ولكن كان عندها حُفّاظ يحفظونه عن ظهر قلب، فكان ينتقل من صدر إلى صدر جيلا بعد جيل. فقال: ومَن يقدر على حفظ هذا الكتاب الضخم؟ قلتُ: كان العرب شهيرين في الدنيا بقوة ذاكرهم؛ إذ

كان أحدهم يحفظ مئات الآلاف من الأبيات، فلم يكن حفظ القرآن صعبًا عليهم. ودَعْك من العرب، فإن ابني البالغ الخامسة عشرة من عمره أيضا يحفظ القرآن كله. فاحتار الرجل وقال: كيف تمكّنَ من حفظ هذا الكتاب الضخم؟ قلت: لدينا رواج عام لحفظ القرآن الكريم، حيث يحفِّظه الآباءُ أولادَهم مِن فرط حبهم له مؤمنين بأن هذا مدعاة لرضى الله تعالى. والأوروبيون محرومون من هذه النعمة، فليس بوسعهم أن يفهموا كيف يحفظ أحد هذا الكتاب الضخم؟ إن رواج حفظ القرآن بين المسلمين كان كبيرًا حتى استُشهد في زمن النبي ﷺ سبعون حافظًا في غزوة واحدة. وقد قال المسيح الموعود عليه السلام أنه كان في بلاط جَدِّه ميرزا گُل محمد خمسمئة حافظ للقرآن الكريم. مما يعني أن كثيرًا من الجنود والحرفيين عنده كانوا حفّاظًا للقرآن الكريم. لا شك أن المسلمين في هذا العصر يمرّون بفترة ضعف وانحطاط شديدين، ومع ذلك تجد في الهند وحدها مئات الآلاف من الحفاظ.

فالوسيلة الثانية التي اتخذها الله لحفظ القرآن هي كثرة القراء والحفاظ، وهذا ليس بمقدرة أي إنسان، بل الله تعالى وحده مَن جعل الناس يرغبون في حفظه، فحُفظ في صدور مئات الآلاف لفظًا لفظًا بل حركة حركة.

والوسيلة الثالثة: اعلم أن من الكلام ما يُحفَظ بسهولة، ومنها ما ليس كذلك؛ وقد أنـــزل الله تعالى القرآن الكريم بعبارة تبدو كالشعر وهي ليست بشعر بل هي أقرب إلى النثر، وحفظها سهل جدا. خُذْ أيًّا من الأولاد وضعْ بيده صفحة فيها عبارة بلغة أردية، وصفحة فيها آيات من القرآن الكريم، وقُلْ له أن يحفظهما، فستجد أنه سيحفظ القرآن بسرعة، ولكنه سيجد حفظ العبارة الأردية صعبًا جدا؛ ولو طلبت منه بعد مضيّ وقت قراءة ما حفظه مرة أخرى، لوجدتَ أنه لن يستطيع أن يعيد لك سطرًا واحدًا من العبارة الأردية، ولكنه سيقرأ عليك ما حفظه من القرآن بشكل جيد. فالله تعالى قد صاغ هذا الكلام صياغة سهُل بها حفظُه كثيرًا. لقد قرأتُ قبل أيام لكاتب أوروبي قوله إن الكتّاب الأوروبيين يخطئون في ترجمة القرآن لأنهم لا يدركون أسلوبه وبالتالي لا يراعونه عند الترجمة. إن أسلوب عبارة القرآن رائع جدا، فلا هو شعر ولا نثر، بل هو شيء مختلف تماما؛ ولأن هؤلاء لا

يفهمون أسلوبه هذا، فيتعثرون في بيان ترجمة معانيه. ثم يقول هذا الكاتب إن الذي يحاول فهم نص القرآن واستنباط المعاني من ترجمته هذه، مَثَلُه كمَثل شخص يحوّل جمل كتاب المزامير إلى نثر، ثم يحاول فهم معانيه من هذه الترجمة المنثورة. ذلك أن أسلوب المزامير كأسلوب شعر، فيقول هذا الكاتب لو تُرجم المزامير نثرًا فلن يفهم أحد من هذه الترجمة فحوى المزامير، كذلك فقد صيغَ القرآن بعبارة رائعة بحيث لو تُرجم إلى النثر البحت لم يُدرك عقل الإنسان من هذه الترجمة النثرية معانيه الدقيقة.

خلاصة القول لقد صاغ الله تعالى القرآن الكريم صياغة جعلتْه أسهل للحفظ من أي كلام آخر. إنه ليس بنثر ولا بشعر، بل شيء مختلف يساعد على حفظه بوجه خاص.

الوسيلة الرابعة: ومن الوسائل التي ساعدت على حفظ القرآن الكريم حفظًا ظاهرا انتشارُ علم الكتابة والقلم بين المسلمين بكثرة بما لا مثيل له في الأمم السابقة. فبمجرد أن ظهر النبي ﷺ حتى صار للقلم رواج بين المسلمين بما لا نظير له في تاريخ العالم. ولم ينصرم قرن ونصف فقط على وفاة النبي ﷺ حتى انتشرت الكتب انتشارا كبيرا حتى وُجدت في بعض المدن ٢٠٠ مكتبة وفي كل واحدة منها ٦٠٠ ألف كتاب. يقول الأوروبيون اليوم إن الانتشار الحالي للكتب راجع إلى اختراع المطابع، ولكن السؤال هنا: كيف راجت الكتب بين المسلمين بهذه الكثرة قبل اختراع المطابع؟ لا جرم أن ذلك كان تحقيقًا للنبوءة القرآنية الواردة في قوله تعالى ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق: ٥-٦). عندما كان المسلم يتعلم الكتابة، فإن أول ما يكتبه هو القرآن الكريم تبركًا به. كان الملك المغولي "أَوْرَنْغزيب" يكتب شيئا من القرآن الكريم تبركًا كل يوم. باختصار، قد راجت الكتابة بين المسلمين رواجًا كبيرًا حتى كُتبتْ كل كلمة من القرآن ملايين المرات، وهكذا نشره الله تعالى في مختلف البلاد والأمصار.

رب قائل يقول: إن تدوين القرآن قد تم بعد فترة طويلة، وليس في البداية! وأود أن أوضح هنا أن هذه الشبهة باطلة، إذ كان عند المسلمين الأوائل رواج كبير لكتابة القرآن الكريم، حتى ورد في التاريخ أنه عندما نشبت الحرب بين علي

ومعاوية - رضي الله عنهما — جاء أصحاب معاوية في أثناء القتال معلقين ٥٠٠ مصحف على رماحهم قائلين: نحن نحكّم القرآن للفصل بيننا، فتعالوا نحتكم إليه ونرضى بقراره. فانخدع بعض الأغبياء من جنود عليّ ﷺ وتمرّدوا عليه قائلين: ما دام هؤلاء يحكّمون القرآن الكريم فيما بيننا فلماذا نحاربهم؟ نحن لا يهمنا هنا مآل هذا الحادث، إلا أنه يكشف لنا بجلاء أن المسلمين كانوا يكتبون القرآن بكثرة منذ البداية، إذ وُجد في جيش معاوية وحده ٥٠٠ مصحف على الأقل، مع أن عدد المقاتلين في الجيشين لم يكن أكثر من عدة آلاف. مما يؤكد أن آلافًا من نسخ القرآن الكريم كانت موجودة يقينًا حتى ذلك الوقت على الأقل، وكان المسلمون يحتفظون بها في السفر والحضر. إذن، فكانت الكتابة إحدى الوسائل التي حفظ الله بها القرآن الكريم حفظًا ظاهرا.

الوسيلة الخامسة: هي انتشار الإسلام منذ البداية في شتى البلاد، وصل الإسلام في حياة الصحابة ﷺ إلى الشام والعراق وفلسطين وأنطاكية وإيران ومصر وشتى المناطق الإفريقية، حتى وصل الصحابة إلى الصين والهند وأشاعوا فيهما الإسلام. توجد في منطقة السند - التي تقع فيها ضياعنا - قرية اسمها "ديه صابو".. أي قرية الصحابة. وفيها قبر يقال إنه قبر صحابي، ويشهد التاريخ أيضًا أن بعض صحابة الرسول ﷺ قد وصلوا الهند فعلا، مما يؤكد ما شاع عن هذا القبر أنه قبر صحابي. ورغم أننا لا نملك شواهد قطعية على هذه الروايات إلا أنها -مهما ضعفتْ- تُروى منذ الزمن القديم، وتؤكد أن الصحابة قد خرجوا منذ أوائل الإسلام من الجزيرة إلى الأقطار الأخرى ونشروا فيها الإسلام، وكانوا يحملون معهم نسخ القرآن الكريم، وهكذا نشر الله تعالى في فترة وجيزة آلاف النسخ منه في شتى أنحاء العالم، فحفظتْه شتى الشعوب. فهذه إحدى الوسائل التي اختارها الله تعالى لحفظ القرآن حفظًا ظاهرا.

الوسيلة السادسة: لقد انتشرت اللغة العربية في مختلف البلاد والأقطار منذ صدر الإسلام، مما ساعد سكّانها على فهم القرآن مباشرة بدون اللجوء إلى ترجمته. ولو فرضنا -جدلاً- أن عرب الحجاز أرادوا تحريف القرآن الكريم لمصلحة ما، لما تجاسروا عليه وما استطاعوه، لأن أهل فلسطين والعراق والشام ومصر وغيرها من

البلاد كانوا يراقبونهم. إذن، فبانتشار اللغة العربية في مختلف البلاد أصبحت مختلف الشعوب مسؤولة عن حفظ القرآن الكريم، فحالوا دون تسرب أي تحريف إليه.

وهذه الوسائل الستّ لم تتيسر لصحيفة أيِّ أُمة من أمم العالم، إنما جعلها الله تعالى من نصيب القرآن الكريم فقط. إذاً فقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ جاءَ ردًّا على الذين يقولون كيف نصدّق كون القرآن هو القول الفصل؟ و لم لا نقول إنه كتاب كامل ولكن بشكل مؤقت، وسيحل محله كتاب آخر في المستقبل؟ يقول الله تعالى لا يمكن أن يأتي بعده كتاب آخر؛ فإن وعْدنا بحفظه، ثم إيجادنا شتى الوسائل لحفظه لدليلٌ قاطع أننا نريد بقاء هذا الكتاب إلى يوم القيامة. الواقع أنه لو أراد الله تعالى إلغاء هذا الكتاب كالصحف السابقة، لتركه يتعرض للعبث والتحريف والفساد، و لم يهيئ لحفظه الأسباب، ولكنه تعالى لم يدَعْه يفسد، لأنه كتاب ذو نفع أبديّ، والشيء الذي فيه منافع أبدية لا يفنى بحسب القانون الرباني المذكور في قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(الرعد:١٨).. أي أن الأشياء النافعة تبقى في الأرض بحسب سنة الله المستمرة. وحيث إن القرآن قد حُفظ بوجه خاصّ، فهذا دليل أنه نزل ليبقى في الدنيا، ولن يصبح منسوخًا أو غير صالح للعمل أبدًا.

وبقي سؤال آخر: إذا كان هذا الكتاب سيبقى للأبد، فما الحاجة لبعثة مبعوث بعده؟ وقد أجاب الله عليه في الآيات التالية.

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٨﴾

التفسير: قام المفسرون بتفسير هذه الآية بغير المعنى الذي ذكرتُه، فواجَهوا مشكلة كبيرة، حيث حيّرهم قوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فهل المراد منه أن بعض القرآن سوف يُنسى ويُمحى؟ وقد أتوا بأقوال لحلّ هذه المشكلة، فقال بعضهم أن قوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إشارة إلى الآيات المنسوخة من القرآن الكريم. (البحر المحيط تفسير سورة الأعلى)

ولكنه كلام غير سليم، لأن الآيات التي يعتبرونها منسوخة لا تزال موجودة في المصحف، أما الآيات التي يعتبرونها منسوخة التلاوة فهي موجودة في التفاسير حتى اليوم؛ بينما قال الله تعالى هنا ﴿فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.. أي أن الآيات التي يريد الله لها أن تُنسى ستصبح نسيًا منسيًا؛ وما دامت الآيات -المنسوخة في زعمهم- موجودة في المصحف أو في التفاسير فكيف يقال إنها قد نُسيت؟ علمًا أننا لا نؤمن بنسخ أي آية من القرآن الكريم، إنما عقيدتنا أن كل لفظ من القرآن صالح للعمل به، فما قلتُه الآن إنما قلتُه بالنظر إلى عقيدة القائلين بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، مؤكدًا أن استدلالهم غير صحيح، لأن الله تعالى قال أولاً ﴿فَلا تَنْسَى﴾، ثم أعقبَه بقوله ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، والنسخ ليس هو النسيان أوّلاً، وثانيًا ما دامت كل "الآيات المنسوخة" لا تزال في القرآن الكريم أو التفاسير، فكيف يقال أنها نُسيت؟ إن الواقع يكشف أن كلها موجودة كما هي، ولم ينسها أحد، فكيف يستقيم هذا المعنى؟

بينما قال البعض إن قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني أنك ستنسى القرآن على سبيل الشاذ والنادر القليل ما شذ وندر، ولكنا سنذكّرك به. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

وهذا المعنى أيضًا لا يستقيم، لأن النسيان نادرًا وشاذًا أيضًا نوع من النسيان، وإذا كان النبي ﷺ سيذكره فيما بعد فلا يُعتبر نسيانا.

ثم لما كان القرآن الكريم يُقرأ على الجميع ويُكتَب فور نــزوله، فكيف يمكن أن يُنسى جزء منه ولو على سبيل الشاذ والنادر؟

وقال البعض إن الأصل: فلا تنسَ، فالجملة نهيٌ لا نفيٌ. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

ولكن هذا التأويل بعيد عن أساليب العربية.

وقال البعض إن (إلا) هنا بمعنى النفي، لأن العرب تعني النفي أحيانا باستعمال لفظ القلة؛ كقولهم: إلا قليلا.. أي لا، قطعا. فالمعنى أنك لا تنسى إطلاقا. (الكشاف، تفسير سورة الأعلى)

ولكن هذا التأويل باطل، لأن (إلا) تأتي بمعنى النفي إذا كان بعدها لفظ يدل على القلة. ولكن الله تعالى قد ذكر هنا بعد ﴿إلا﴾ موضوع مشيئته، لا أي لفظ يدل على القلة.

أما الزمخشري فقال إن قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى ۝ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ليس فيه أي استثناء، وإنما هو نفيٌ تامّ للنسيان، ومثاله قولك لصاحبك: "أنت سَهيمي (أي مُشاركي) فيما أملكُ إلا ما شاء الله".. إذ ليس هنا أي استثناء، كذلك ليس في قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى ۝ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي استثناء. (الكشاف، تفسير سورة الأعلى)

ولكن العلامة أبا حيان صاحب "البحر المحيط" الذي هو من كبار علماء الصرف والنحو قد انتقد قول الزمخشري هذا واعتبره غلطًا فقال: لا يصحّ أن يقال عن كلمات وردت في وحي الله تعالى أن لا مفهوم لها ولا معنى. فهذا لا يقال عن كلام أي من الفصحاء البلغاء، فما بالك بوحي الله تعالى؟ لو كانت جملة ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كلام إنسان، فيمكن القول إنه يريد الإقرار بعجزه وضعفه أمام عظمة الله وقوته وغناه، أي أنه ينوي كذلك، لكنه لا يضمن لأنه لا يعرف مشيئة الله، ولكن الله تعالى نفسه يقول هنا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فهذا وحي الله تعالى لا كلام البشر... فكيف يقال عنه أنه لا معنى له، وأنه بيان لغنى الله تعالى؟ فهل الله سبحانه وتعالى أيضا يعبِّر عن عجزه كما يفعل البشر بمثل هذه الكلمات؟

ويرى صاحب "البحر المحيط" أن الإشارة هنا إلى الآيات المنسوخة. كما قال أيضا أنه قد يراد بها النسيان الذي كان يصدر أحيانا من الرسول ﷺ لحكمة ربانية لكي تظهر أسوته ﷺ للأمة في مختلف القضايا والأحكام.

باختصار، لقد حاول المفسرون تفسير هذه الآية بأقوال مختلفة، ولكنها كلها باطلة كما بينتُ، وقد رفض بعضهم قول بعض. يجب أن تُفسَّر هذه العبارة بما ينسجم مع السياق ويتفق مع عظمة القرآن وسموّ شأنه.

الواقع أن النسيان نوعان، نسيان اللفظ ونسيان المضمون، لأن نسيان شيء له مفهومان: أولهما نسيان ظاهر ذلك الشيء، أي نسيان الكلمات المحفوظة، أو

الصورة التي كانت مستحضرة في الذهن؛ وثانيهما نسيان حقيقة ذلك الشيء ومضمونه. فمثلا يحفظ الإنسان بيت شعر فينساه بعد فترة، فإذا سئل عنه قال: قد نسيتُه.. يعني أنه نسي كلمات ذلك الشعر، ولكن أحيانًا يكون هناك بيت شعر ذو معنى تافه ويكون محفوظًا في ذاكرة المرء، ولكن إذا سألته ما إذا كان يحفظه قال: قد نسيته؛ ولا يعني بذلك أنه قد نسي كلماته، بل يعني أن لا يعنيه مضمونه، وأنه قد تناساه. وأحيانًا يسأل المرء صاحبَه عن حال صديق له، فيجيب قد نسيته؛ ولا يعني ذلك أنه نسي صورته أو اسمه -إذ إن صاحبه يذكر اسمه، وصورتُه مستحضرة في ذاكرته - وإنما يعني أنه لم يعُدْ على صلة معه الآن.

فثبت من هنا أن النسيان لا يعني نسيان الكلمات فقط، بل يعني نسيان الحقيقة والمضمون. وهناك مثال على ذلك في القرآن حيث يقول الله تعالى عن آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(طه:١١٦).. فالتأكيد على نسيانه وعلى عدم عزيمته إنما يعني أنه لم يفعل ما فعل بقصد، وليس المراد أنه فاته حُكْم الله، إذ الثابت من آيات أخرى أنه عليه السلام لم يكن قد نسِيه، بل كان يذكره جيدا، بل يخبر القرآن أن الشيطان نفسه قد ذكَّره بحكم الله هذا، حيث ورد أنه جاء إلى آدم وأغواه بقوله ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِه الشَّجَرَة إلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٢١-٢٢). فترى هنا أن الشيطان جاء لآدم وذكّره بما أمره الله به، ولكنه وسوس له أنه لا ضرر لو خالفت أمر الله تعالى من أجل أن تكون ملَكًا وتنال حياة الخلود، بل هذا خير لك في نهاية المطاف. وحلف له أن كلا الأمرين في صالحك؛ لأن الله تعالى لم يَنْهَك عن ذلك إلا ابتلاءً وامتحانًا، فلو صرت مقربًا إلى الله، ولو نلت حياة الخلود فهو خير لك، لأنك تزداد ذكرًا لله وقربًا منه وحبًا له على الدوام. فلم ينهك الله إلا مؤقتا ليختبرك، وليس نهيًا أبدا. كل هذا يكشف أن آدم عليه السلام لم ينس أمر الله تعالى، وليس هذا فحسب بل عندما أراد مخالفة أمره تعالى ذكّره الشيطان بذلك حالفًا مُوَسوسًا له أن لا يخاف من مخالفة أمره تعالى إذ ليس هناك نعمة أفضل من أن يكون ملِكًا وينال حياة الخلود، ويحظى بقرب الله

تعالى الذي هو غاية خلق الإنسان؟ وما دامت غاية خلق الإنسان هي الفوز بقرب الله تعالى، فثبت أن هذا النهي كان مؤقتًا وليس أبديا. هذا ما قاله الشيطان لآدم، وبعد سرد هذا الحادث يقول الله تعالى ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.. مع أن كلمات الآية نفسها تؤكد أن آدم لم ينسَ أمر الله، فثبت أن النسيان هنا لا يعني نسيان كلمات الحكم الإلهي، بل نسيان أهميته، حيث غضّ آدمُ الطرف عن مضمون النهي الإلهي.

والاستثناء في قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يشير إلى النوع الثاني من النسيان.. ولما لم يكن الخطاب موجهًا إلى الرسول ﷺ، بل إلى أمته كما بينتُ من قبل، فالمراد أن أمتك لا تنساه إلا ما شاء الله أن تنساه، بمعنى أنه سيأتي على المسلمين زمان يحفظون فيه القرآن لفظًا ولكن ينسونه مضمونًا.. سيحافظون على كلمات القرآن ولكن ينسون روحها مثلما فعل آدم عليه السلام. وإلى هذا المعنى نفسه قد أشار الرسول ﷺ بقوله: "يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه" (شعب الإيمان للبيهقي).. أي سيأتي على المسلمين زمان لا يبقى بينهم من القرآن إلا كلماته، أما روح الإيمان والإسلام فلن يبقى فيهم. وهذا ما ذكره الله تعالى هنا في الاستثناء المذكور في قوله ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فأخبر أنكم، أيها المسلمون، لن تنسوا القرآن من ناحية، وستنسونه من ناحية أخرى؛ ولا يعني ذلك أن سورة الأعراف -مثلاً- لن تندثر من القرآن بينما تندثر سورة المائدة منه، وأن سورة الكوثر لن تنمحي منه، بينما تنمحي سورة الناس منه، بل المراد أن كلمات القرآن لن تنمحي، ولكن مضمونه سيختفي من بين المسلمين.

إذًا، فهذا الاستثناء لا يتعلق بكلمات القرآن الكريم وحفظه الظاهري، إنما بحفظه المعنوي، وهكذا قد ردّ الله على اعتراض البعض أن القرآن إذا كان هو القول الفصل فما الداعي لبعثة مأمور بعده؟ فأخبر سبحانه وتعالى أن وعده بحفظ نص القرآن الكريم سيتم دائمًا بلا فاصل، أما وعده بحفظ فحوى القرآن ومضمونه فسيتمّ إلى يوم القيامة ولكن بفاصل. فعندما يرى الله تعالى أن الناسَ صاروا غير صالحين سيرتفعُ

مضمونُ القرآن ولبُّه من بينهم، فتمس الحاجة إلى أن يبعث الله تعالى مأمورًا من عنده لينـــزل بلُبِّ القرآن ثانية.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ فقد بين الله تعالى فيه سبب اختفاء لُبِّ القرآن وروحه من الدنيا في وقت من الأوقات، فلا يبقى عند الناس إلا كلماته فقط، فأخبر أنه تعالى أعلم بحالة ظاهر الناس وبما في صدورهم، فطالما ظل المسلمون صالحين في ظاهرهم وباطنهم ظل القرآن محفوظا في ظاهره وباطنه أيضا، وإذا صاروا مسلمين في الظاهر فقط، وفسد باطنهم، فسيحفظ الله القرآنَ في ظاهره فقط، وسيختفي باطنه ولبُّه من بينهم. إن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، فحين تخلو قلوب المسلمين من الإيمان، فلماذا يفتح الله عليهم معارف القرآن؟ القرآن نور، والنور لا ينكشف إلا على النورانيين، فمن المحال أن يطّلع على معارفه مَن فسدت أعمالهم وخلت قلوبهم من الإيمان.

إذن، فقوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يرسم حالة المسلمين في الزمن الأخير، حيث أخبر الله تعالى أنه سيأتي عليهم زمان يحفظون فيه كلمات القرآن وينسون العمل به، وليس المراد أنهم ينسون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مثلا، بل المراد أنهم سيقولون الحمد لله بلسانهم، بينما تكون قلوبهم خالية من حمد الله تماما. سيردّدون كلمة الرب بلسانهم، ولكن قلوبهم ستخلو من الإيمان الكامل بربوبية الله. سيكونون مسلمين في الظاهر، لذلك سيبقى القرآن محفوظًا بينهم في الظاهر فقط، ويفقدون الإسلام في الباطن، لذلك يرتفع لُبُّ القرآن من بينهم.

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن وعده بحفظ القرآن نوعان: وعد بحفظ لفظه ووعد بحفظ فحواه. ووعْدُه بحفظ لفظه سيتحقق بدون فاصل ولا انقطاع، فلن يأتي زمان يتطرق فيه التحريف إلى كلمات القرآن الكريم، أما وعده تعالى بحفظ فحوى القرآن، فلن يتم بتواصل دون انقطاع. لا شك أنه تعالى سيحفظ مضمون القرآن إلى يوم القيامة، ولكن على فترات وليس بالتواصل، فكلما فسدت الأمة بعث نبيًا من عنده، وإذا فسدت مرة أخرى بعث نبيا آخر.

إذًا فقد تناولت هذه الآية الرد المفصل على الاعتراض الذي أُثيرَ من قبل وهو: ما الحاجة إلى الوحي أو بعثة مأمور بعد نزول "القول الفصل"؟ فبيّن الله تعالى أن شريعة القرآن ستظل محفوظة في ظاهرها إلى الأبد، فلا حاجة لإنــزال أي كتاب بعده، ولكن الفساد يتطرق إلى باطن هذا الكتاب فلا بد من بعثة أنبياء ومأمورين من عند الله تعالى يكشفون للناس بتأييده معاني القرآن ومعارفه، ويذكّروهم بما نسوه، ويقومون بحِفْظه معنويًا. لو لم يتطرق الفساد إلى المسلمين، لما كان هناك داعٍ لبعثة أي مأمور، ولكن فسادهم مقدّر بعد مرور فترة من الزمان، حيث تنمحي حقيقة الإسلام من بين الناس فلن يكونوا مسلمين إلا بالاسم فقط، وسينسبون أنفسهم إلى القرآن، ولكن يرتفع لُبُّ القرآن من بينهم، وتسوء حالتهم جدًّا، فتمس الحاجة إلى بعثة مأمور من عند الله تعالى، ليُحيي الإسلام ويُقيم القرآن في الدنيا مرة أخرى.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

نيسِّرك: يسَّر الشيءَ لفلان: سهَّله له ودفَعه له، يكون في الخير والشر (الأقرب).. أي يمكن أن يقال: يسَّره للعُسرى ويسَّره لليسرى.

اليُسرى: السهلُ. (المفردات)

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا رسوله ﷺ أن من التدابير التي اتخذناها لحفظ دينك أو إقامته إلى يوم القيامة أننا قد جعلنا فيه يسرًا، أي أمرنا بالأسهل من أحكام الشرع. وهذا دليل آخر قد أورده الله تعالى في سياق الموضوع السابق أعني حفظ القرآن على الدوام؛ إذ من الأسباب العديدة التي هيأها الله تعالى لحفظ القرآن ظاهرًا أنه قد راعى في تعاليمه كل طبيعة بشرية وفطرة إنسانية، فصارت صالحة ناجعة لأهل كل عصر. إذا لم يعمل الناس بالقرآن فهذا شأنهم، وإلا فليس فيه حُكمٌ أُهملَ فيه جانب من جوانب الفطرة الإنسانية، أو يشقّ عليها العمل به

حقيقةً. كلا بل إن جميع أحكام القرآن ملائمة لفطرة الناس أجمعين، كما قد قدِّمت فيه تسهيلات لصاحب كل طبيعةٍ بحيث يسهل عليه العملُ بها. فمن هذه اليسرى مثلاً أن الله تعالى أمرنا بأداء الصلاة قيامًا، ولكنه سمح لنا بأدائها جالسين تارة، ومستلْقين تارة أخرى، وبالإشارة أيضًا؛ ولو أمرنا بأدائها قيامًا فقط، لم يستطع المريض ولا المعاق العملَ بهذا الحكم، وصار من الآثمين. فجعل الله تعالى أحكام الإسلام مَرِنةً بالنظر إلى كل وضع وطبيعة، بحيث ليس بوسع إنسان القول إنه لا يستطيع العمل بكذا وكذا من أحكام الإسلام. خُذوا مثلا الجهاد في سبيل الله، فقد حثّ الله عليه كثيرًا، ولكنه قال أيضا ليس على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على المعاق حرج ما داموا يكنّون للإسلام حبًّا ولوعةً، ويتمنون لو كانوا قادرين على الجهاد، هؤلاء سيعتبرهم الله تعالى من المجاهدين في سبيله.

باختصار، يقول الله تعالى سنأخذك أو نقرِّبك إلى يسرى أي إلى التعاليم السهلة. وهذه اليسرى هي القرآن نفسه، سواء مِن حيث كونه سهلاً للحفظ، أو من حيث كونه سهلاً للعمل به.

هنا ينشأ سؤال لا بد من الإجابة عليه، وهو أن الإسلام يأمر بأداء الصلاة خمس مرات يوميا، بينما أمر المسيحيون بالعبادة بعض الوقت مرة في الأسبوع؛ فأيهما أيسَرُ تعليمًا، الإسلام أم المسيحية؟

فليكنْ معلومًا أن من معاني اليسرى ما يسُرّ الإنسان ويُفرِحه روحانيًا وإنْ كلَّفه العناء المادي. فيقال عندنا مثلاً: الموت أيسَرُ لي مِن ترك فلان. والحق أن الموت ليس أسهل من ترك صديق، لأن غمرات الموت شديدة على جسم الإنسان، ومع ذلك نردد هذه المقولة كثيرًا، مما يعني أن فلانًا أحبُّ إليّ من حياتي. فمما لا شك فيه أن الإسلام قد أمرنا بأداء الصلاة خمس مرات يوميا، إلا أن فيها منفعة روحانية عظيمة لنا، فمن الأسهل جدًا على المؤمن أن يؤديها خمس مرات يوميًا بدلاً من العبادة القصيرة مرة أسبوعيا، إن في الاقتصار على صلاة واحدة في الأسبوع حرمانًا من قرب الله، أما الصلوات الخمس يوميا فيحظى صاحبها بمزيد من قرب الله.

فكلمة "يسرى" لا تشير إلى السهولة المادية الظاهرية، بل إلى السهولة باعتبار المنافع الروحانية.. أي حينما يرى الإنسان المنافع الروحانية يسهل عليه العمل جدًّا.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أننا أعطيناك شريعة لا تحوي أحكامًا فحسب، بل بيّنّا حِكَمَها أيضا، فلا يشقّ العمل بها على الناس، بل تبدو لهم جِدَّ سهلة، فلا يريدون تركها. من الطبيعي أن الإنسان إذا علِم حِكمةَ حُكمٍ واتضح عليه فائدته قام به بشوق ورغبة، أما إذا لم يعلم الحكمة منه لم يعمل به رغبة منه. وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا أننا قد بيّنّا حِكمةَ كل حُكم في هذه الشريعة، فسَهُل على الناس العمل بها جدًّا.

إذن، فلقوله تعالى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ثلاثة مفاهيم: أوّلُها أننا قد جعلنا القرآن سهلاً للحفظ، وثانيها أننا قد بيَّنَّا الحكمة من وراء أحكامه مما سهل على الناس العمل بها، وثالثها أننا قد جعلنا في أحكامه مرونة بما يتفق مع كل فطرة وطبيعة، إذ لم يقل الإسلام عن أي حكم من أحكامه إنه لا يمكن أن يتغيّر شكله بحسب الظروف المختلفة. فمثلا قد أوصانا الإسلام بالصلاة بكل تأكيد، ولكنه لو أُغميَ على أحد فلا صلاة عليه، ولو جُنّ أحد فلا صلاة عليه، وليس هذا فحسب بل سيكون في صلاةٍ عند الله تعالى في فترة جنونه كلها، وسينال ثواب المصلي. باختصار، ليس هناك معضلة إلا وقد قدّم الإسلام حلاً لها. لا شك أنه قد أمر بالحضور في المسجد للصلاة، ولكنه أوضح لنا أنه يجوز لكم أن تصلّوا في البيت إذا لم يكن هناك مسجد، وأن تصلّوا على قطعة من الأرض إذا لم يكن هناك مكان خاص للعبادة، وأن تتيمّموا إذا لم تستطيعوا الوضوء. ثم إنه لم يضع أية شروط لإمام الصلاة غير التقوى. بينما نجد عند النصارى شروطًا عديدة من أجل العبادة القصيرة الأسبوعية، إذ لا بد لهم أن يذهبوا إلى الكنيسة، ولا بد أن يؤمّهم قسيس في العبادة، ولا بد أن يكون القسيس حائزًا على شهادة دينية معينة، وأن يلبس بدلة سوداء. فما علاقة البدلة السوداء بالعبادة يا ترى؟ وما علاقة الشهادة الدينية بالعبادة؟ ومع ذلك نرى فعليا أن المسيحية قد فرضت مثل هذه الشروط من أجل

العبادة. وعلى النقيض كم سهّل الله علينا نحن المسلمين؛ إذ لم يضع علينا أي قيود ولا شروط كهذه من أجل العبادة، بل سمح لنا بعبادته في أي مكان.

إذن، فرغم أن بعض أحكام القرآن الكريم تبدو صعبة في الظاهر، إلا أن الله تعالى قد جعلها سهلةً للعمل بها ببيان حكمها، كما جعلها مَرِنةً بحيث تتغير أشكالها عند الحاجة، ويستطيع صاحب أي فطرة العملَ بها بسهولة. وهذا أحد أسباب حفظ القرآن وإقامة الإسلام إلى يوم القيامة.

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

الذكرى: الذكرى معناه النصيحةُ والنصحُ حيث ورد: الذكرى اسمٌ للإذكار والتذكير. والذكرى: هو الذكرُ باللسان أو بالقلب. (الأقرب)

التفسير: أي لقد أعطيناك شرعًا كاملا أبديا محفوظا إلى يوم القيامة، فمن واجبك الآن أن تنصح الناس فإن النصح ينفعهم دومًا.

هناك إشكال حول معنى هذه الآية، وهو أنَّ ﴿إنْ﴾ شرطية، وعليه فالآية تعني في الظاهر: عليك أن تَعِظَ الناس إنْ كان الوعظ ينفعهم. وهنا يثار اعتراض: كيف يعرف الواعظ أن نصحه سيكون نافعًا، إذ لا يُعرف نفع النصح أو عدمه إلا بعد القيام به لا قبله؟ ودرْءًا لهذا الإشكال قد فسّر البعض هذه الآية كالآتي: عليك بوعظ الناس وإذا لم ترَ فائدة فكُفَّ عن وعظهم. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

ولا بد لنا لمعرفة مدى صحة هذا المعنى من أن ننظر إلى عمل الرسول ﷺ وسنته، فيما إذا كان يعظ الناس وينصحهم باستمرار، أم أنه كان يكفّ عن وعظهم إذا رأى أنه لا يجدي شيئا.

هذه السورة مكية إذ نـزلت في الفترة المبكرة من النبوة، ولكنا نرى أن الرسول ﷺ ظل بعد نـزول هذه الآية يعظ أهل مكة وينصحهم ١٣ سنة على التوالي و لم يترك وعظهم يومًا واحدًا. إذا كان الله تعالى يأمر النبي ﷺ هنا أن عليك

يا محمد أن تنصح ما دام النصح ناجعًا، ثم كُفَّ عنه إذا لم تره نافعًا، فهذا يعني أن الرسول ﷺ لم يعمل بحكم الله هذا – والعياذ بالله –إذ استمر في وعظهم مع أنه رأى أن نصحه لا يجدي شيئًا. ثم إننا نرى الرسول ﷺ لم يدخر وسعًا ليُدخل اليهود في الإسلام، فظل يعظهم مرة تلو مرة، وينصحهم مرة تلو أخرى، ولم يكفّ عن وعظهم بحجة أن وعظه لا يجديهم، فلا حاجة لبذل السعي في نصحهم. فثبت من هنا أن قوله تعالى﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا يعني أبدًا أن عليك أن تعظ الإنسان مرة واحدة، ثم تكفّ عن الوعظ إذا رأيت أنه لا ينتصح بنصحك، شأن بعض العجائز عندنا إذا نصحن أحدًا ولم ينتصح قلن له: اذهبْ إلى الجحيم! كلا، بل كان عمل رسول الله ﷺ على عكس ذلك، فلا مبرر لقبول هذا المعنى.

لا شك أننا أُمرنا بترك مجالس المستهزئين بالدين، ولكن هذا ليس لأنهم لا يقبلون النصح، وإنما سببه أنهم يسخرون من الدين ويهتكون شعائر الله؛ أما الشرفاء فنحن مأمورون بتبليغهم باستمرار دونما انقطاع.

وقد قال بعض المفسرين أن ﴿إنْ﴾ هنا شرطية، ولكنها جاءت توبيخًا وزجرًا للمكذّبين، أي لتُبين أن الكافرين متعنّتون جدا، فلا يقبلون النصح إلا قليلا، مصرين على العناد. إذن، لم ترِد ﴿إنْ﴾ هنا للمنع من النصيحة، بل لبيان تحجُّر مَن تُقدّم إليهم النصيحة. وهذا المعنى مطابق لأساليب العربية ويزيل الإشكال أيضا.

وقد قدّم بعض النحويين تأويلا آخر وهو أن ﴿إنْ﴾ هنا بمعنى (إذ)، كقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٤٠)، فليس المراد هنا أنكم ستصبحون غالبين شريطة أن تكونوا مؤمنين، إذ قد سبق أن اعتبرهم الله تعالى مؤمنين، بل المراد: وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إذْ كنتم مؤمنين، أي حيث إنكم تؤمنون بالله ورسوله فكيف يمكن أن يغلبكم الكفار؟ لقد أنعم الله عليكم بنعمة الإيمان، فأنتم الغالبون على الكافرين. كذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾.. أي حيث إن الذكرى تنفع حتمًا، فلا تكُفّ، يا محمد، عن تذكير الناس أبدا، بل ذَكِّرْهم ليل نهار، لأنه إذا لم تنشرح صدورهم اليوم فسوف تنشرح غدًا ويهتدون.

إذن، فلم يَنْهَ الله تعالى هنا عن الوعظ إذا لم يُجْدِ مرة أو مرتين، بل أمر بالاستمرار بالوعظ، لأنه يترك أثره على القلب يقينا.

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١١﴾

التفسير: إن دراسة أحوال الإنسان تكشف أن حالة قلبه تتغير دائما، فتارة تستولي عليه الخشية، وأخرى تتلاشى منه، وحينما تكون خشية الله مستولية عليه ويكون خاضعًا لجلال الله وهيبته، فإن النصح العادي أيضًا يترك في قلبه وقعًا كبيرًا، وإلا فلا ينفعه أي نصح مهما كان رائعا. وكل إنسان يمرّ بهذه التجربة في حياته، فأحيانًا يوعظ بأمر عشرات المرات، ولكن بدون جدوى، وأحيانًا يوعظ بشيء مرة، فيتأثر به فورا. وليس ذلك إلا لأن حالة قلب الإنسان تتغير دائما، فأحيانا تأتي عليه ساعة خشية الله، وأحيانا يخلو قلبه من خشيته. ولذلك أمر الله تعالى بالوعظ والنصح باستمرار مبينًا أنّ قلب الإنسان يمرّ بساعات من خشية الله، ولا يمكن أن يعلم الناصح متى تأتي على المستمع تلك الساعة، فينشرح صدره للهدى، فمن واجبه أن يواصل في نصحه ووعظه، لأنه لا يعرف موعد هدايته.

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

يتجنَّبُها: تَجنَّبَه: بَعُدَ عنه. (الأقرب)

الأشقى: شَقِيَ الرجلُ يشقَى شَقًى وشَقاءً وشَقاوةً وشِقاوةً وشَقوةً وشِقوةً: كان شقيًّا؛ ضِدُّ سَعِدَ، فهو شَقِيٌّ، جمعُه أشقياء. (الأقرب)

وورد في المفردات: "السعادة في الأصل ضربانِ: سعادةٌ أُخْروية وسعادة دنيوية. ثم السعادة الدنيوية ثلاثةُ أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية. كذلك الشقاوة على هذه الأضرب. وفي الشقاوة الأخروية قال: ﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ (طه:١٢٤)... وفي الدنيوية ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:١١٨).

قال بعضهم: قد يوضَع الشقاء موضعَ التعبِ، نحو: شَقيْتُ في كذا. وكلُّ شقاوةٍ تعبٌ، وليس كلُّ تعبٍ شقاوةً، فالتعب أعمُّ من الشقاوة. (الأقرب)

المراد من السعادة النفسية أن يكون في نفس الإنسان صلاح وشَرَف، أما السعادة البدنية فتعني صحة الجسم وعدم المرض. أما السعادة الخارجية فتعني أن يتمتع أقارب الإنسان وأصدقاؤه بالطمأنينة والراحة ولا يتعرضون لأي ألَم، وأن تكون البلاد آمنة فهذا يضمن له الطمأنينة من الخارج؛ ذلك أنه لو كان مطمئنا في نفسه، وكان أقاربه في أذًى وأصدقاؤه في مصائب، وبلده في فوضى، فلن يتمتع بالراحة وسكينة القلب؛ وإذا كان أقاربه وأصدقاؤه في راحة، ولكنه يكون مريضًا، فلا ينعم بالسكينة أيضًا، إنما تكتمل سعادته إذا تيسرت له السعادة النفسية والبدنية والخارجية.

وقد جاء قوله تعالى ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّة فَتَشْقَى﴾ تحت ذكر الشقاوة الدنيوية لأن آدم ؑ كان نبي الله تعالى، فلا يمكن أن يصاب بشقاوة روحانية، وإنما بالشقاوة البدنية فقط.

أما القول: "كل شقاوة تعب، وليس كل تعب شقاوة، فالتعب أعم من الشقاوة" فذلك لأن الشقاوة فيها نوع من الخزي والإهانة، وهذا لا يوجد في التعب. فلو تعب الإنسان في عمل صالح فلا يسمى ذلك شقاوة، مثلا: إذا استيقظ المرء في آخر الليل وصلى التهجد ساعتين أو ثلاثا، فلا بد أن يصاب بالتعب، ولكن تعبه لا يسمى شقاوة، وإنما تطلق الشقاوة على تعب فيه شرّ.

فالأشقى مَن هو أشد شقاوةً.

التفسير: لقد بين الله تعالى من قبل أن على الإنسان مواصلة الوعظ والنصح، إذ تأتي على القلب أوقات خشية الله تعالى، فقد يكفر أحد اليوم ويؤمن غدا؛ أما هنا فقد بيّن الله تعالى أنكم إذا عملتم بما آمركم من مواصلة النصح فلن يُحرم الهدى إلا الأشقى الذي قرّر الله أن لا ينال الهدى نتيجة ذنوبه، وأما الآخرون فلا بد أن يؤمنوا، عاجلا أو آجلا.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا استعمل الله تعالى هنا كلمة ﴿الأشقى﴾؟ والجواب (أولاً) أن رسول الله ﷺ أفضلُ الأنبياء قاطبة؛ فالكافر به أشدُّ شقاوة من منكري الأنبياء الآخرين. إن منكري موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان -عليهم السلام- أشقياء فحسب، أما منكر محمد رسول الله ﷺ فهو الأشقى لأنه ﷺ أفضل الأنبياء كلهم، وهديه أسمى من هديهم كلهم. و(ثانيا) هو كما ذكرتُ من قبل بأن ﴿الأشقى﴾ إشارة إلى أنه لا يُحرم من الهدى إلا أشد الناس شقاوة، أما الشقي العادي فينال الهدى عاجلا أو آجلا.

ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

يَصْلَى: صَلِيَ النارَ يَصلَى: قاسى حَرَّها واحترق بها ودخل فيها. (الأقرب)

التفسير: أي لأن هذا قد كفر بأكبر نبي، فلذلك يُدخَل في أكبر نار، أو المعنى: لأنه لم يؤمن رغم الوعظ المكرر والتبليغ الكافي التام، فيُلقى في النار الكبرى.

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٤﴾

التفسير: قال الله تعالى إنه ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا﴾ لأنه حيّ، وقال ﴿وَلا يَحْيَا﴾ لأن الحياة هي ما فيها السكينة والراحة، ولكن هذا يكون في أذى شديد، فلا تسمى حياته حياة. شأنه شأن المصاب بمرض شديد، فعندما تسأله كيف حالك يقول: لستُ من الأحياء ولا من الأموات.. أي لم أمُتْ لأني على قيد الحياة، ولا أحيا لأن حياتي في أذى شديد. كذلك يقول الله تعالى﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾.. أي أن العذاب يكون شديدا بحيث لن يموتوا فينجوا منه، ولن يطيقوه وهم أحياء، بل تكون حياتهم أسوأ من الموت.

هناك أمر لطيف جدير بالذكر هنا، وهو أن المسيحيين يعترضون عادة أن الرسول ﷺ قد قَتل أعداءه، فهذه الآية ردٌّ عليهم، إذ أنبأ الله تعالى فيها أن أعداء الإسلام الذين تروهم اليوم سوف يُترَكون أحياء لكي يموتوا كمدًا برؤية ازدهار الإسلام وفشلهم وشقائهم، وليعلموا أنهم كانوا في ضلال، أما لو قتلهم المسلمون لما تحققت هذه النبوءة. هذه السورة من أوائل السور المكية، وهكذا فكأن الله تعالى قد أخبر فيها المسلمين في أوائل الإسلام أنكم ستلقون معارضة شديدة، ولكن لا تقتلوا من أعدائكم إلا الذي يبدأ بالهجوم عليكم، لأننا سنكتب للإسلام من الغلبة والعظمة ما يجعل كل لحظة من حياة الأعداء أسوأ من الموت، فاتركوهم أحياء لكي يروا شوكة الإسلام وخيبة أملهم، فيذلوا ويخزوا ويموتوا كمدًا وحسرة.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أفلحَ: أفلح الرجلُ: فازَ وظفِر بما طلَب. أفلحَ زيدٌ: نجَح في سعيه وأصاب في عمله. (الأقرب).

الفلاح نجاحٌ يغبط به الآخرون حيث ورد: "ليس في كلام العرب كلِّه أَجمعُ مِن لفظَة الفلاحِ لخيرَيِ الدُّنيا والآخرة كما قاله أئمّةُ اللِّسَان." (تاج العروس)

تزكّى: صار زكيًّا. (الأقرب)

التفسير: أي لقد فاز بمطلبه مَن تجنّبَ أهواء النفس وتسربلَ بالقداسة والطهارة، لأن الله قُدّوس فلا يحظى بقربه إلا الذي فيه القداسة والطهر. إن الذين يعيشون عيشة آثمة، ويلقون أحكام الله وراء ظهورهم، ويتبعون خطوات الشيطان وأهواء النفس، فيلقون الخزي في الدنيا وفي الآخرة، لأن أصل كل نجاح هو الطهارة.

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٦﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ لا يعني أن يردّد المرء اسم الله بلسانه فقط فيقول: الحمد لله، أو سبحان الله، أو الله أكبر.. أو أن يقول "الله الله" كما يفعل اليوم بعض الذين هم مسلمون بالاسم ويجهلون أهمية ذكر الله وطُرُقَه؛ بل المراد من قوله تعالى أن يتذكر الإنسان ربه في كل حين، ذلك لأن الله تعالى قال أولاً ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ثم قال ﴿ فَصَلَّى﴾، مما يؤكد أن الذكر لا يعني هنا ترديد بعض الكلمات، بل المراد منه ذلك الذكر الذي بسببه يقوم المرء بأداء الصلاة. لو كان المراد هنا ذكر الله باللسان فقط، فمثل هذا الذكر موجود في الصلاة، فما كان هناك داع لذكره منفصلا، ولكن الله تعالى قال ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ثم قال ﴿فَصَلَّى﴾، مما يدل على أن المراد من الذكر هنا ذلك الذي يساعد المرء على أداء الصلاة.. بمعنى أن حُبّ الله تعالى يستولي على قلبه استيلاء شديدا، فيقف أمامه قلقًا ويشتغل بعبادته، فتشتعل شعلة حبه تعالى في قلبه، فيخرّ ساجدًا على عتبة حبيبه في حالة من الوَجد والهيام. إن ذكر الله يصبح غذاءه، وتتجدد ذكرياته في قلبه مرة بعد أخرى، فتدفعه لعبادته تعالى، فيؤدي حق ما يجد في نفسه من مشاعر تجاهه. إذن، فليس المراد من الذكر هنا ترديد بعض الكلمات باللسان فحسب، بل هو إشارة إلى تلك الحالة العَملية التي تدل على حب المرء لربه مما يدفع إلى الصلاة والعبادة.

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٧﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٨﴾

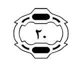
شرح الكلمات:

تُؤثِرُونَ: آثَرَ الشيءَ: اختارَه؛ فضَّله. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا سبب عداوة أعداء الإسلام أنهم لا يعارضون المسلمين بدافع خير، ذلك أن المسلمين يحبّون الله تعالى ويعبدونه، أما هؤلاء فيؤثرون الحياة الآخرة على الدنيا، فيعادون المسلمين إذ يروهم عائقا في طريقهم،

ولا يدرون لجهلهم أن الحياة الدنيا فانية، وأن حياة الآخرة هي الباقية الخالدة. وحيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة ويتهافتون على الحياة الدنيا، فيعارضون المسلمين.

إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٩﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ



التفسير: أي أن ما أخبرناكم ليس أمرًا مفترَضًا ومفترًى، بل إن خبره موجود في الصحف الأولى. وبالفعل تكشف لنا مُطالعة صحف إبراهيم وموسى -عليهما السلام- أن فيها أنباء عن نـــزول القول الفصل وبعثة نبي عظيم يأتي بشريعة كاملة. فوجود هذه الأنباء فيها لدليل على أن الدنيا كانت بحاجة إلى نزول هذا الكتاب رغم وجود الصحف الأولى، ولذلك أدلى الأنبياء السابقون بهذه النبوءة، وإلا فما الداعي أن يخبروا ببعثة نبي ونـــزول كتاب بعدهم؟

إن نبوءة بعثة النبي ﷺ الواردة في صحف إبراهيم عليه السلام قد نقلها القرآن نفسه وأخبر أنه دعا ربه قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠).. لو كانت صحف إبراهيم عليه السلام هي القول الفصل لما دعا بهذا الدعاء، فدعاؤه يدل دلالة واضحة على أن شريعته كانت ستنمحي وتُنسخ، سواء كان عاملاً بشريعة نوح عليه السلام كما يثبت من قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤)، أم كانت له شريعة خاصة تحوي صحفه التي فيها إلهاماته ووحيه. فلو لم تكن شريعته لتُنسَخ وتُمحى فلماذا دعا بهذا الدعاء؟

وهذا هو الحال بالنسبة لموسى عليه السلام أيضا، إذ توجد في كتابه التوراة حتى اليوم نبوءة صريحة كالآتي: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ." (التثنية ١٨: ١٨-١٩)

كذلك ورد في مكان آخر فيها: "جاء الربُّ من سِيناء، وأَشرقَ لهم مِن سَعيرَ، وتلألأَ من جبل فاران،* وأتى مع عشرة آلاف قُدّوسي، وعن يمينه نارُ شريعة لهم" (التثنية ٣٣: ١-٣).

وهكذا أنبأ موسى ﷺ عن مجيء نبي حامل شريعة جديدة بعده، وأخبر أنه لن يأتي من بني إسرائيل، بل من إخوانهم بني إسماعيل.

إذن، إن إبراهيم ﷺ ينبئ بمجيء نبي تشريعي بعده، وموسى ﷺ أيضا ينبئ ببعثة نبي تشريعي بعده، مما يبين بوضوح أن الشرائع السابقة لم تكن القول الفصل، كما ظل أنبياء كثيرون ينبئون عنه واحدًا بعد آخر. وتوجد في التوراة نبوءات عديدة أخرى كهذه، وكلها تبين أن العالم كان يوعَد بنــزول القول الفصل منذ مدة طويلة، فكان لزامًا أن يتحقق هذا الوعد الإلهي الآن.

كما قلت إن نبوءة موسى ﷺ هذه لا تزال حتى اليوم كما هي في التوراة، ولكن نبوءة إبراهيم ﷺ لم تُذكَر في التوراة بوضوح، وإنما ذكرها القرآن فقط، غير أن الدليل على صدق دعوى القرآن هو أن القرآن قد ذكر هذه النبوءة الإبراهيمية أمام أهل مكة وأعلن متحديًا أن نبوءة نــزول القرآن موجودة في صحف إبراهيم وموسى، فلم ينكرها أحد من الكافرين، ولم يقولوا ولا مرة واحدة: إنك كاذب، إذ لا توجد هذه النبوءة في صحف إبراهيم، مما يدل أن مئات الآلاف من الناس كانوا على علم بأن إبراهيم ﷺ قد أنبأ ببعثة نبي تشريعي بعده، وهذا هو السبب وراء صمت الكافرين عند سماع إعلان القرآن هذا، وإلا فكيف سكت هؤلاء الذين اعترضوا على كل صغيرة وكبيرة عند هذا الإعلان الهام؟ لقد سجل القرآن الكريم اعتراضات عديدة للكافرين، ولكن لم يذكر فيه أن الكافرين

* علمًا أن فاران هي جبال مكة، التي جاء النبي ﷺ لفتحها بعشرة آلاف قدوسي من صحابته. ولقد حرّفوا الآن الكلمات التي تحتها الخط في بعض الطبعات الحديثة خاصة العربية منها إلى: "وأتى مِن رِبْوات القُدس"، ولكنها لا تزال كما هي في بعض الطبعات القديمة باللغتين الأردية والإنجليزية. (المترجم)

قالوا إن هذه النبوءة قد نُسبت إلى إبراهيم خطأً وافتراءً؛ فإنه لم يُدْلِ بأي نبوءة تخبر عن نـــزول القرآن أو بعثة نبي تشريعي بعده. فثبت أن هذه النبوءات كانت شائعة بين العرب على نطاق واسع، وكانوا يأملون أن يظهر الآن حتمًا مبعوث بحسبها، بل قد ورد في الروايات أن بعض العرب أخذوا يسمّون أولادهم باسم محمد، لأنهم كانوا يعلمون من نبوءات التوراة أن النبي القادم سيأتي باسم محمد، فلعل ابنهم هذا يُبعث نبيًا موعودا ومصداقًا لهذه الأنباء. باختصار، كانت في قلوب العرب آمال حول ظهور النبي الموعود، وكانوا ينتظرون ظهوره طبقًا لهذه الأنباء.

سورة الغاشية

مكية، وهي سبع وعشرون آية مع البسملة

هذه السورة مكية بالاتفاق؛ فقد روي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير أنها نزلت بمكة، وحيث إنه لم يُروَ خلاف ذلك، فلا شبهة في كونها مكية. (فتح البيان)

وقال القسيس "ويري" إن زمن نزول هذه السورة قريب من السنة الرابعة للبعثة النبوية، إذ يتضح من مضمونها أن اضطهاد الكفار للمسلمين بدأ في ذلك الوقت أو كان على وشك أن يبدأ. وهذا ما يراه نولدكه الألماني أيضًا. (تفسير "ويري")

وهذا هو رأي الصحابة أيضًا. مما يعني أن هذه السورة قد نزلت في بداية البعثة بحيث لا يُتصوَّر أن يقال عنها قول آخر، فلا نحتاج إلى رفض أي رأي حولها. ولما كان مضمون هذه السورة يومئ إلى أن العدو على وشك أن يبدأ بعدائه للمسلمين.. أي أنه لم يكشف عن عدائه لهم عمليًا، ولكنه يخطط لاضطهادهم، وأن المسلمين كانوا في حيرة من أمرهم، فإن استدلال الكتاب الأوروبيين بذلك على أن هذه السورة من أوائل ما نزل ليس بخطأ، بل هو صحيح حسب الروايات الإسلامية أيضا.

فقد روي عَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قوله: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَة بـــ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاتَيْنِ. (مسلم: كتاب الجمعة، أحمد: مسند عبد الله بن مسعود، النسائي: كتاب الصلاة، أبو داود: كتاب الجمعة، ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة)

هذه السنة النبوية تؤكد أن لهاتين السورتين صلةً وثيقة بحياة المسلمين الاجتماعية. إن صلة سورة "الأعلى" بالإسلام واضحة حيث أخبرت أن القرآن هو القول الفصل، كما بيّنت كيف يبلغ الإسلام أوج رقيه وغلبته، فقد بين الله تعالى فيها أن الإسلام سيجد خدامًا يحفظون القرآن، وستقع تطورات غير عادية في الدنيا تؤدي إلى حفظه. سورة "الأعلى" تشير إلى ازدهار الإسلام وانتشاره وكثرة أتباعه وغلبة المسلمين. أما سورة الغاشية فرغم أنها تناولت موضوعًا آخر إلا أنها أيضًا تنبئ أن الكافرين سيعادون الإسلام ساعين للقضاء عليه، ولكن المؤمنين سينجحون في هذا النضال. وحيث إنها نزلت في أوائل الإسلام و لم يُرِد الله تعالى إثارة الكفار من دون داع، فلم يخبر فيها بكلمات صريحة عن هذه الحرب والنضال، بل استخدم كلمات لا تثير حفيظتهم. فكما أن العدو لم يكشف عداءه، كذلك لم يصرح الله تعالى في هذه السورة أن المسلمين سيحاربون الكفار ويغلبونهم، وإنما اكتفى هنا بذكر النتيجة فقط وهي أن أعداء الإسلام لن يضروه شيئا رغم بذلهم أقصى جهد، وسيصبح المسلمون غالبين في نهاية المطاف، وذلك حتى لا تُعتبر مثل هذه الصراحة استفزازا للكفار الذين لم يكونوا قد شنوا الهجوم على الإسلام علنًا بَعْد.

إن مضمون هذه السورة أيضا يدور حول الأعمال الجماعية، حيث أنبأ الله تعالى فيها بقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ ۞ لسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ برقي الأمة وليس برقيّ النبي ﷺ وحده، كما أنبأ بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ عن جماعة الكافرين أنهم سيبوءون بالفشل في حربهم ضد المسلمين. الواقع أن سورتي الأعلى والغاشية كلتيهما تتحدثان عن زمن النبي ﷺ والزمن الأخير للإسلام، ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يتلوهما في الجمعة والعيدين دائمًا. والجمعة والعيدان مناسبات جماعية، ففي تلاوته ﷺ لهاتين السورتين في هذه المناسبات إشارةٌ إلى أن معارفهما ستنكشف كلما توجه المسلمون إلى اكتساب القوة الجماعية وكلما أراد الله تعالى إزالة ضعفهم.

لقد بين الله تعالى من قبل في سورة الأعلى أن المسلمين لن يحرزوا الرقيّ إلا إذا ظهر فيهم مأمور من الله تعالى يكشف لهم معارف القرآن وعلومه، بتعبير آخر لن

يتم رقيهم بوسائل مادية أبدا، وإنما بإيمانهم بالمأمورين من الله تعالى واهتدائهم بهديهم، كما دل عليه قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، حيث بيَّن الله تعالى أن المسلمين سيستردّون مجدهم الغابر بواسطة خدام الإسلام الذين سيعودون بالقرآن المنسيّ المهجور ثانية. فالذين يريدون اليوم رقيّ المسلمين بوسائل سياسية عليهم أن يفكروا في مضامين سورة الأعلى.

أما سورة الغاشية فقد بيّن فيها أن الإسلام لن يحرز هذا الرقي في الزمن الأخير إلا تحت المعارضة الشديدة، أي لن يأتي إلى الدنيا أي مأمور رباني يستقبله الناس على بساط من الورود وهتافات الحفاوة والترحيب، بل عندما يأتي أي مأمور تكون هناك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، ولا بد له من المعارضة، لأن رقي أي جماعة سماوية من دون معارضة محالٌ. يظن غيرنا من المسلمين أنه حين ينـــزل المسيح الناصري عليه السلام من السماء فلن يكون هناك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، بل سيقف الناس لاستقباله بكل وقار واحترام، ويدخلون في خدامه، لأنه سينـــزل مع الملائكة ولن يجسر أحد على إنكاره! ولكن سنة الله المستمرة تبين لنا أن هذا لن يحدث أبدًا، بل لا بد لكل جماعة ربانية من أن تواجه المعارضة، ثم بعدها يُكتب لها الغلبة والازدهار.

باختصار، يتضح من هاتين السورتين كلتيهما أن الإسلام يزدهر دائما بعد المعارضة. فثبت من هنا أن بين السورتين صلة وثيقة من حيث الموضوع.

وقد ذكر صاحب "البحر المحيط" صلة قريبة بين السورتين، وهي أن الله تعالى قد أمر في الأُولى بإنذار الناس من النار والآخرة، بينما تتحدث الثانية عن الجنة والنار. ولكن الواقع أن الصلة الحقيقية بين السورتين هي ما ذكرتُه بأن الله تعالى قد ذكر فيهما مبدأين لازدهار الإسلام، حيث بيّن في سورة الأعلى أنه لن يتردّى المسلمون إلا لهجرانهم القرآن الكريم ونسيانه، وأنهم لن يزدهروا إلا عن طريق شخص يعود بالقرآن من السماء.. أي سيُبعث إليهم المأمورون الربانيون الذين يُذكّرونهم بالقرآن الذي اتخذوه مهجورا، ومع ذلك لن يأتيهم أي مأمور بشريعة جديدة. وأما سورة الغاشية فبيّن الله تعالى فيها أن ازدهار المسلمين، سواء في الزمن

الأول أو في الزمن الأخير، لن يتم إلا على أيدي المأمورين الذين سيلقون معارضة شديدة، ولكنهم سينتصرون في النهاية، كما هو بيِّن من قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾. لذا فعلى المسلمين أن يتذكروا دائمًا أنهم لن يزدهروا إلا بالإيمان بالمأمورين الربانيين وبمعارضة العالم كله لهم، ولن يأتيهم أحد يصدّقه الناس بسهولة، ففكرة نزول مأمور من السماء لا يلقى المعارضة تخالف القرآن تماما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

هل: تأتي بمعنى (قد)، ولكن على العموم هي حرفٌ موضوع لطلب التصديق الإيجابي (مغني اللبيب).. أي لسؤال طُلب فيه التصديق.. إلا أن يأتي بعده (إلا)، فيفيد النفي، فالمراد من الآية: أأتى حديثُ الغاشية أم لا.. أي قد أتى. أو المعنى: قد أتى فعلا.

حديث: الحديث: الخبر. (الأقرب)

الغاشية: مؤنث الغاشي، والغاشية: الغطاءُ؛ القيامةُ لأنها تغشى بأفزاعها (الأقرب). وسُمّيت القيامة بالغاشية لأن المحنة الشديدة تُنسي المرء همومه الأخرى؛ ولما كانت القيامة حادثة كبيرة شديدة تستولي على كل أفكار الإنسان وهمومه حتى ورد في القرآن أن كل إنسان ينسى الآخرَ حتى تنسى الأم ولدها، فلذلك سُميتْ غاشية.

ومن معاني الغاشية: نار جهنّم (الأقرب). وقد سُمِّيت بذلك لأن عذابها شديد محيط. حيث يجد الإنسان مهربًا من العذاب الدنيوي، وإذا عُذّب من ناحية، نال السكينة من ناحية أخرى؛ فمثلا: إذا مات له ابنٌ، فإن ابنه الثاني موجود يلعب أمامه، وإذا مات والدُ شخص، فإن أُمّه موجودة، أو أقاربه الآخرون موجودون،

فيجد عندهم السلوان. أو إذا تعرض لخسارة مال، جلب ربحًا آخر من ناحية أخرى. فثبت أنّ هناك مهربًا للإنسان من كل أنواع العذاب الدنيوي، حيث يُعذَّب من ناحية، وينال الراحة من ناحية أخرى. أما عذاب جهنم فيكون متكاملا لا سبيل للراحة إزاءه، ولذلك سُمي غاشية.

والغاشية: الداهية ومنه: "تأتيه غاشية من عذاب الله".. أي نائبة تغشاه. والغاشية: قميص القلب؛ داء في الجوف؛ السُؤّالُ يأتونك؛ الخدم يغْشونك؛ والزُوّار والأصدقاء ينتابونك. (الأقرب)

التفسير: يتضح من القرآن الكريم أن مِن عذاب الله عذابًا خاصًّا يستحق أن يُطلق عليه "الغاشية"، وقد نزل في زمن الرسول ﷺ وسينـــزل أيضًا في زمن المسيح الموعود عليه السلام بحسب الأنباء. قال الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الدخان:١١-١٢).. ولما آذى أهل مكة النبيَّ ﷺ إيذاء شديدا دعا عليهم بحسب هذه النبوءة القرآنية قائلا: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ." (البخاري: كتاب التفسير).. أي رب، قد آذاني هؤلاء إيذاء شديدا، فأعِنّي عليهم بسبع سنوات من القحط والمجاعة كما أعنْتَ يوسف عليه السلام بسبع شداد. فحلّ قحط شديد وانقطع المطر وهلك الناس، حتى جاء أبو سفيان إلى النبيّ ﷺ وقال: قد هلك قومك جوعًا فادعُ الله أن يكشف عنهم.*

فكما بعث فرعونُ سفراءه إلى موسى عليه السلام ليدعو لهم ربَّه ليكشف عنهم العذاب، كذلك أرسل أهل مكة سفيرهم إلى النبي ﷺ ليدعو لهم حتى يكشف الله عنهم القحط. فدعا النبي ﷺ ورفع الله هذا العذاب.

إذن، فمن معاني ﴿الغاشية﴾ عذاب دخانٍ ذُكر في سورة الدخان.

---

* ورد في الحديث: عَنْ مَسْرُوق قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّه: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه منْ أَجْر وَمَا أَنَا منْ الْمُتَكَلِّفينَ﴾. فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهَ ﷺ لَمَّا رَأَى قُرَيْشًا اسْتَعْصَوْا عَلَيْه فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ. فَأَخَذَتْهُمْ السَّنَةُ حَتَّى حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْعظَامَ وَالْجُلُودَ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَجَعَلَ يَخْرُجُ منْ الأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَان. فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشفَ عَنْهُمْ فَدَعَا. (البخاري: كتاب التفسير) (المترجم)

وهناك نبوءة عن نزول عذاب دخان مبين في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، فقد جاء في الوحي النازل عليه: "يوم تأتي السماء بدخان مبين، وترى الأرضَ يومئذ خامدة مصفرة." (التذكرة ص ٥٠٤)

بالإضافة إلى أنواع العذاب المشار إليها في إلهامات المسيح الموعود عليه السلام هناك نبأ عن عذابِ قحط أيضا، حيث أخبره الله تعالى أنه سيأتي على الناس سنوات من الضيق الشديد والمصائب العظمى. وقد وقع القحط في عصره عليه السلام نتيجة الحروب علاوةً على أنواع القحط والمجاعة التي وقعت في زمنه، وقد بلغ من الشدة بحيث لم يوجد له نظير في الأزمنة الخالية. إذا استمر القحط سنة واحدة نشر دمارًا كبيرًا عادةً، أما هذا القحط فكان شديدًا حتى عجزت شعوب كثيرة عن ملء بطونها لست سنوات. لقد بدأ في أوائل ١٩٤٢ فأدى إلى نقص شديد في الغلال. كنتُ عندها في السند، فبلغني من قاديان أن الناس لا يجدون القمح، وإذا وجدوه كان رديئا وخبزه أسود اللون. لقد رأيت ذلك القمح فوجدته كحبوب "الكمون"، ولونه كلون السكر الأسود، ولا يصلح خبزه للحيوانات، ومع هذا كان يأكله الناس مضطرين. لقد ساءت الحال في البنغال جدًا لدرجة أن بعض الناس أكلوا عظام الموتى كما أخبرتني بنت يتيمة قام أحد الأحمديين بتربيتها حيث قالت إنها قد نسيت معظم الأحداث، لكنها تتذكر هذا الأمر جيدا. ومن الثابت أن بعض النساء هناك أكلن أطفالهن! يا له من قحط مدمر! لقد مات فيه مليون شخص جوعًا في بضعة أشهر بحسب التقديرات الحكومية، وأما بحسب تقديرات الناس فقد فتك بمليونين من البشر في البنغال وحدها. وهذا العدد الهائل لم يُقتَل خلال السنوات الست للحرب العالمية هذه. في هذا العصر توجد قطارات وسيارات وباصات، ثم هناك أنهار.. وكلها تُسهّل نقل المواد الغذائية من مكان لآخر، ومع توافر وسائل النقل هذه فقد مات مليونان من الناس في البنغال وحدها في سنة واحدة جوعًا نتيجة هذا القحط. ولو وقع هذا القحط في قطر لا يمكن نقل المواد الغذائية إليه فقد لا يبقى على قيد الحياة من سكانه أحد. هناك آلاف الناس الذين هاجروا من البنغال إلى مناطق البنجاب وسَرْحَدْ، خوفًا من عدم انقطاع القحط. وقد قال

بعضهم إنه لم يبق من عائلته على قيد الحياة أحد، فهاجر ذعرًا وتساءل: لماذا أعود إلى تلك المنطقة المنكوبة ثانية؟!

هناك أحداث مرعبة كثيرة، فقد جيء بطفل مضطرب جوعا، فقُدِّم له الحليب، وبمجرد أن نزل الحليب من حلقه هلك؛ ذلك أن الفاقة الطويلة تسمِّم المعدة، وإذا دخلها الغذاء من حليب أو غيره هلك الإنسان.

فقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: هل علمتم أن المصيبة التي اسمها الغاشية، قادمة؟ لقد ذكرتُ من قبل أن (هل) تفيد التصديق الإيجابي عادة، وعليه فقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: قد أتاك حديثها، ولكن إذا دخلت (هل) على فعل فهي بمعنى (قد)، وعليه فالمراد من الآية: قد أتاك حديث الغاشية، بمعنى أن المعارضة ستشتد الآن، لذلك قد بدأت الأخبار الإلهية تصلك من الله عن عذاب الكافرين. أو المعنى: لقد أرسلنا إليك حديث الغاشية، أي أن العدو سيزداد شرًّا، ولذلك نخبرك بعذابه.

ومن معاني الغاشية مَن يزوره الناس بكثرة، وعليه فالمراد من حديث الغاشية الفتوحات.. أي ستأتيك الوفود من كل طرف وصوب. وكأن الله تعالى قد ترك الحديث عن الفترة المتوسطة من عهد الرسول ﷺ وأخبره عن أحداث الفترة الأخيرة من عهده التي تظهر فيها النتائج. وفي هذه الحالة يكون حديث الغاشية إشارةً إلى عام الوفود، حيث أخبر الله تعالى أنه ستقع حرب بينك وبين الكافرين، وستخرج منها منتصرا وستأتيك الوفود من كل مكان، ويحترق العدو برؤيتهم كمدًا، وينال المؤمن تقدمًا هائلا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٣﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

وجوه: جمعُ وجه، ومن معانيه: سيّدُ القوم؛ ويقال رجلٌ وجهٌ: ذو جاه. (الأقرب). والمراد من الوجه هنا سادة القوم وأعيانهم.

خاشعة: خشَع له: ذَلَّ وتَطَأْمَنَ. وخشَع ببصره: غضَّه. وخشَع بصرُه: انكسر. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: سكنتْ وذلّتْ وخضعتْ. (الأقرب)

ناصبة: نَصَبَهُ الهمُّ: أتعبَه. ونَصَب فلانٌ الشيءَ: وضَعه وضعًا ثابتا كنصبِ الرمح والبناء والحجر، ورَفَعَه، ضدٌّ. (أي أن هذه الكلمة من الأضداد، فتعني الوضع والرفع أيضا). ونَصَبَ السيْرَ: رَفَعَه، أو هو أن يسير طولَ يومه سيرًا ليِّنًا. ونصَب لفلان: عاداه. ونصَب له الحرب: وضَعها (أي حاربه). ونصَب العَلَمَ: رفَعه وأقامه مستقبِلا به. ونصَب الشجرة: غرَسها في الأرض. ونصَب السلطانُ فلانا: ولاّه منصبًا. ونصَب الشرّ بفلان: أظهره له. ونصبتَ له رأيًا: أشرت عليه برأي لا يعدِل عنه. (الأقرب).

لما كان من معاني (الغاشية) المصاعب والشدائد بما فيها الحروب التي سيوقدها الكفار، فقوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ يعني أن أعداء الإسلام سيتآمرون عليكم الآن، ويكشفون عن أحقادهم وضغائنهم التي يخفونها في صدورهم حتى اليوم.

التفسير: لقد بينتُ من قبل أن سورة الغاشية نزلتْ في حوالي السنة الرابعة من البعثة النبوية، وهي التي بدأ فيها كفار مكة إيذاءه ﷺ بشكل منظَّم. في البداية عندما كانوا يسمعون دعوى النبي ﷺ ينفثون غضبهم قائلين: لقد أصيب المسكين بالجنون - والعياذ بالله- ولكن حين آمن به عدد من القوم لا سيما شباب الأسر العريقة وأصحاب النفوذ، مثل عثمان وطلحة والزبير.. اشتدّ الكفار في معارضة الإسلام. كان وراء هياجهم ضد الإسلام أمران: إسلام العبيد، وإيمان الشباب من الرؤساء. فلما آمن هؤلاء الفتيان بدأ الناس يقولون للذين كانوا يتهمون النبي ﷺ بالجنون: لقد انتزع هذا الفتيانَ من بيوتكم وأنتم فرحون باتهامه بالجنون وبأنه لا يقدر على أن يضركم شيئًا!! وعندما أسلم العبيدُ وأخذوا يعيبون آلهتهم قائلين: إن عبادة الأصنام عمل سخيف، فإنها لا تنفع ولا تضرّ، استشاط الكافرون غضبًا وقالوا كيف يعيب هؤلاء آلهتنا، وهم عبيد لنا!! هذه الأحداث أخذت تقع في السنة الثالثة من البعثة. لما رأوا رقي الإسلام أخذوا يقولون على الملأ: لقد بلغ

السيل الزبى ولن نطيق أكثر من ذلك، وبدءوا ينفثون حقدهم وشرّهم علنًا. (الطبري: ذكر الخبر عما كان من أمر النبي ﷺ). وكان الله تعالى أنبأ سلفًا عن تصرُّف الكافرين هذا في قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. لأن من معاني الناصبة قوم ينصبون الأمير والقائد، فأخبر ﷻ المسلمين أنه قد قرُب الوقت الذي سوف يعيّن أهل مكة أمراءً وأسيادًا لمعارضة محمد، وسيبذلون جهدهم لمنع انتشار الإسلام. وطبقًا لهذه النبوءة القرآنية نصب المعارضون رايات المعارضة ونزلوا في الساحة.

كما اختار الله تعالى للإخبار عن المعارضة كلمات تفصّل معالمها ومصيرها النهائي.. حيث قال تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، حيث أشار بقوله ﴿عَامِلَةٌ﴾ إلى المعارضة الفردية، وبقوله ﴿نَاصِبَةٌ﴾ إلى المعارضة الجماعية من قبلهم؛ فأخبر تعالى أن أهل مكة لن يكتفوا الآن بالمعارضة الفردية، بل ستأخذ معارضتهم طابعا جماعيا، وسوف يعيّنون بعضهم أمراء لتنظيم حركة مضايقة المسلمين ومحاربتهم.

ومن معاني (الناصبة) الجماعةُ المرهَقة، وهكذا أشار الله تعالى إلى مصير معارضتهم للنبي ﷺ مبينًا أن أهل مكة لن يدّخروا وُسعًا في هذا السبيل، ولكن لن تسرّهم النتيجة؛ لأن جهودهم المستميتة ستؤدي بهم إلى التعب والإرهاق والأرق.

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٥

شرح الكلمات:

حامية: حمِيت الشمسُ وحمِيت النارُ: اشتدّ حرُّهما. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ يعني أن هذه الجماعات المخالفة ستدخل نارا شديدة اللظى؛ ذلك أن ليس كل نار شديدة الحرارة، بل بعضها شديدة الحر وبعضها قليلة الحرارة، حتى إن بعض الناس يدخلونها بأقدام ملطّخة بالوحل ويمرّون

عليها من دون أن يشعروا بحرّها. ولكن الله تعالى يخبر هنا أن النار التي سيدخلها معارضو الإسلام تكون حامية شديدة الحرّ.

التفسير: أي أن هذه المعارضة الفردية أو الجماعية ستؤدي إلى دمار المعارضين فلن ينعموا بالأمن والراحة ولن يجنوا بها عزًا ولن يفلحوا فيما يريدون، بل يدخلون نارا مضطرمة شديدة الحرارة، بمعنى أن المسلمين ينتصرون ويزدهرون، وأن معارضيهم سيبوءون بالفشل في مساعيهم ويحترقون كمدا.

تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

عين: لها معان كثيرة منها: ينبوع الماء، والسحاب. (الأقرب والمنجد)

آنية: أَنى يأني أَنْيًا وإِنًى وأَناءً: دنا وقرب وحضَر. وأَنَى الحميمُ: انتهى حرُّه. (الأقرب)

التفسير: يشرب الإنسان الماء إزالةً لعطشه وشفاءً لغليله، ولا يزيل العطش إلا الماء البارد، ولكن الله تعالى يخبر هنا أنهم سيُسقون ماء ساخنا جدًّا.. والماء الساخن جدًّا لا يشربه الإنسان إلا في حالتين؛ في حالة المرض للعلاج، أو في حالة عدم تيسر الماء البارد -لا شك أن الناس يشربون الماء الساخن على شكل شاي، حيث صار له رواج في هذه الأيام، ويطفئون به العطش أيضا، ولكن الشاي غذاء في الحقيقة ولا ينوب عن الماء- فالواقع أن قول الله تعالى هذا إشارة إلى أنهم سيُحرمون من كل راحة، أو أنهم سيُلقون في اختبارات ليعالَجوا من أمراضهم الروحانية، ويُسقون ماء شديد السخونة.. أي أنهم لن ينعموا بالانتعاش والطراوة؛ إذ هذا هو الهدف من شرب الماء؛ ذلك أن الأشياء في الدنيا نوعان: نوع يُنعِش ويُطرّي، ونوع يُسمِن ويُنمّي، والماء يحقق أحد هذين الهدفين، حيث يجلب الطراوة والانتعاش، والغذاء يحقق الهدف الآخر حيث يسدّ الجوع ويسمن الجسم؛ والله

تعالى يخبر هنا أن الكافرين سيظلون محرومين من الاثنين، فلن يجدوا طراوة ولا انتعاشًا، ولن تسمن أجسامهم، أي أن قلوبهم ستذبل كما تذبل أجسامهم أيضًا.

لا شك أن الكافرين سيشربون من عين الماء المغلي في الآخرة، ولكن شربهم من العين الآنية في الدنيا إشارة إلى احتراق قلوبهم بالنار، أي تعرُّضهم للمصاعب والشدائد التي تحرق قلوبهم. ومثال شربهم من العين الآنية في الدنيا إسلام أولادهم، ودخولهم في الدين الذي أراد آباؤهم محوه. لا شك أن قلوبهم كانت تحترق حزنًا وأسًى عندما يروْن أولادهم يدخلون في الإسلام، إذ يروْن عكس ما أرادوا. الهموم تُشَبَّه بالمشروب في العربية، وفي الأردية أيضًا يقال ما معناه: إني أتجرّع الهمّ، ولذلك قال الله تعالى هنا أنهم يُجَرَّعون ماءً مغليا.. أي سيصابون بصدمة كبيرة حين يروْن أولادهم وعبيدهم يدخلون في الإسلام. وقد بين الله تعالى هذا الواقع بكلمات أخرى إذ قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(الرعد:٤٢).. أي ألا يرى هؤلاء العميان الذين يظنون أنهم سينتصرون على محمد ويمحون دينه ويهزمون أتباعه.. أننا نُضيِّق عليهم الأرض من أطرافها؛ حيث يدخل في الإسلام عبيدهم، ويعتنقه فتيانهم، ولن يبقى بعدهم إلا الشيوخ العجزة الذين يفنون في بضع سنين، فتدخل أجيالهم في الإسلام. الحق أن هؤلاء هم مصدر قوة الأمم، إذ العبيد بمثابة الأيدي، والأبناء بمثابة الأصل، وإذا قُطِعت الأيدي والأصل فلم يبق إلا الجذع الذي يصبح بلا حول ولا قوة.

باختصار، ينبئ الله تعالى هنا عن ازدهار الإسلام ويقول سيُجرَّع الكافرون من عين آنية ويسمعون أخبارًا تشوي أكبادهم. وبالفعل نرى أنه لو انحرف أولاد امرئ عن دينه الذي يؤمن به بصدق القلب لأصابته صدمة شديدة. لا حرج عقليًا من ترك الأولاد دينَ آبائهم، إذ لا إكراه في الدين، فما دام ابن نوح عليه السلام كفر به وخالفه، فيمكن لأولاد الآخرين أن يتركوا دين آبائهم. ومع ذلك إذا انحرف أولاد المرءِ عن دينه -وهم معقد آماله- صاروا له جرعة مريرة جدًّا لا يستطيع تحمُّلها. كان سهيل بن عمرو يمثّل الكافرين في التفاوض مع النبي ﷺ من أجل وضع شروط صلح الحديبية، وبينما هو في ذلك إذ جاء ابنه أبو جندل يَرْسُفُ في قيوده، فقال: يا

رسول الله، لقد آمنت بك. كان أبوه يصبّ جام غضبه عليه في البيت ضربًا، ويمكنك تصوُّر حالته حين جاءه هذا الابن يَرْسُفُ في قيده، ويقول للرسول ﷺ: لقد آمنتُ بك (سيرة ابن هشام: عليٌّ يكتب شروط الصلح). أرى أنه لم يقدر على الوقوف، وتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه. فترى كم كانت مريرة تلك الجرعة التي تجرعها عند براءة ابنه من دينه علنًا في ذلك الموطن الحرج!

وقد حكيتُ لكم مرارًا قصة أبي جهل أنه لما ضرَبه صبيان أنصاريان بسيوفهما في غزوة بدر قال في آخر لحظاته: ليس عندي أسف غير أني قُتلت بيد صبيين أنصاريين. (البخاري: كتاب المغازي)

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن الكفار سيمرّون بأحوال صعبة بحيث يتجرعون جُرَعًا مرة جدًّا.

لقد قلتُ في البداية أن هذه السورة تتحدث عن فترتَي الإسلام؛ عن صدر الإسلام، وعن هذا العصر. والنبأ المذكور في قوله تعالى ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ عن الكفار قد تحقق في هذا العصر أيضا بكل جلاء. كان المولوي محمد حسين البطالوي من أشد المعارضين للمسيح الموعود عليه السلام، وقد أنفدَ كل عمره في معارضته، وقال مرة بكل زهو: أنا الذي رفعتُ الميرزا، وأنا الذي سأسقطه. (إشاعة السنة، مجلد ١٣ ص ٣،٤). وأنّى له أن يسقط حضرته عليه السلام؟! إنما أصبح بنفسه ذليلا مهانا حتى هرب اثنان من أولاده إليّ في قاديان، وقالا إنهما لا يريدان البقاء عند أبيهما لأنه عديم الغيرة، فهو لا يطعمهما بل يضغط عليهما ليدخلا في دار اليتامى، كما يضربهما ويسخِّرهما في أعمال مهينة. فأجريتُ لهما مرتَّبًا وعلّمتهما في مدرستنا في قاديان. وعندما علِم البطالوي بذلك أرسل إليّ قائلا: أرجوك أن تطردهما من قاديان، لأن في ذلك إهانة كبيرة لي. فقلت له: كيف أطردهما وقد جاءا يطلبان المساعدة مني. ثم دخل الاثنان في جماعتنا، وفي الأخير ضغط عليهما البطالوي ورجع بهما، ومع ذلك لم يحسن معاملتهما، فمات أحدهما، وارتدّ الآخر وتنصّر، وهو لا يزال حيًّا يمارس التجارة في ولاية "ميسوري"، ويقول إنه مسلم أحمدي في قلبه، ولكنه غيّر الدينَ في الظاهر من أجل الرزق.

فانظرْ كم كانت مُرَّةً هذه الجرعة التي تَجرَّعَها البطالوي. كان يزعم أنه هو الذي رفع مؤسسَ الجماعة الإسلامية الأحمدية، وأنه هو الذي سيُسقِطه، ولكن ما حدث هو أن اثنين من أبنائه قد أتيانا يطلبان المساعدة ويشتكيان أنه يضربهما ولا يطعمهما ويضغط عليهما ليدخلا في دار لليتامى لأنه لا يملك شيئا، فساعدْناهما وعلّمناهما في مدرستنا.

وذات مرة رُفعتْ في المحكمة قضية ضد ابن أحد كبار معارضينا، وصادف أن كان القاضي أحمديا، فجاءني مرة وذكر خلال الحديث أن قضية ابن فلان من المعارضين الألداءِ مرفوعةٌ في محكمتي، وهو يبعث إلي أناسًا مرموقين يشفعون عندي بإطلاق سراح ابنه، فماذا أفعل؟ قلت له: إذا كنتَ تستطيع إطلاق سراح ابنه بحسب القانون فلا بد من ذلك، لأنه سيتفكر في أنّ قاضيًا أحمديًا قد أمر بإطلاق سراح ابنه رغم معارضته للأحمدية. وهكذا تمنُّ عليه منّةً عظيمة يخجل بسببها. فإذا استطعت إطلاق سراحه بموجب القانون فافعلْ حتمًا.

كذلك حينما ذهبتُ للحج فإن أحد أخوالي من سكّان "بهوبال" -الذي كان ابنَ أختِ جدّي لأمي- أحدثَ في مكة ضجة كبيرة ضدنا بالتواطؤ مع شخص آخر اسمه خالد الذي كان من بلدته وكان حفيدًا لنَوَّاب جمال الدين خان. فقالوا للناس في مكة إن هؤلاء ينشرون الكفر هنا، وطلبوا من المولوي إبراهيم السيالكوتي - وكان يسمَّى "شيخ أهل الحديث" وجاء أيضًا للحج - أن يناظرنا. وكان غرضهم من هذه المناظرة أن يشيع خبرنا على نطاق واسع، حتى يقتل الناس هذه الحفنة من الأحمديين خلال المناظرة. كما أبلغوا الحكومة لتتخذ إجراءات فورية ضدنا حتى لا تتفاقم هذه الفتنة. ولم نكن نعرف عن مؤامرهم شيئا. وذات يوم ذهبتُ لتبليغ الشيخ عبد الستار الكبتي وهو أحد العلماء العرب ومعلِّم أولادِ شريف مكة، وكان إنسانًا نبيلا.. كان وهابي العقيدة ولكنه كان يتظاهر أنه حنبليّ، وقد أخبرني ذات يوم عن سبب ذلك وقال: الناس هنا يكرهون أهل الحديث الوهابيين جدًّا، فلا أُظهِر لهم مذهبي. وكان يعلّم أولاد شريف مكة مجّانًا ابتغاء مناصرته له، فلم يكن أحد يجرؤ على إيذائه بسبب مكانته عند شريف مكة. وقمتُ بدعوته إلى

الأحمدية وقتا طويلا. كان مولعًا بالكتب، فذكرتُ له أثناء الحديث اسم كتاب كان الخليفة الأول رضي الله عنه أمرني قبل خروجي للحج بالبحث عنه في البلاد العربية. فقال لي الشيخ: ليس في حوزتي هذا الكتاب، ولكنه موجود في مكتبة بحلب. ولما فرغت من تبليغه قال: لقد قمتَ بتبليغي وكلامك معقول، ولكن خُذْ حذرك لأن الناس في هياج شديد، وأخاف أن يهاجموك ويقتلوك أو تلقيك الحكومة في السجن إذا بلَّغت أحدا. فاستغربتُ من قوله، فقال: ألا تعلم أن البعض أشاع إعلانًا ضدكم فهاج الناس؟ قلت: ومن نشر هذا الإعلان؟ فقال فلان من المشايخ. قلتُ: هذا خالي، ومَن غيره؟ قال: أحد الرؤساء من بهوبال اسمه خالد؛ وقد قالا في الإعلان أن هؤلاء الأحمديين إذا كانوا على يقين بصدق دعواهم فليناظروا الشيخ إبراهيم السيالكوتي.

كان خالي هذا يظن أنه ليس هناك حكومة رسمية في مكة، فلو تمكّنَ من عقد المناظرة فإن الناس سيقتلون هذه الحفنة من الأحمديين وتنتهي هذه المعضلة!

ثم أخبرني الشيخ عبد الستار الكبتي أنه نصح المولوي إبراهيم السيالكوتي أن لا يتحمس فيرتكب خطأ الخوض في المناظرة، لأن الناس لا يعارضون الأحمديين هنا كما يعارضون الوهابيين، ولا ندري أيثور الناس ضد الأحمديين أم لا، ولكن المؤكد أنهم سيثورون ضدك لأنك من الوهابيين. فظني أن الشيخ السيالكوتي لن يخوض المناظرة خوفًا من الناس، أما أنت فأنصحك بعدم تبليغ أحد بالأحمدية كيلا يلحقك ضرر من أحد. فقلتُ للشيخ الكبتي: مَن تخاف عليّ مِنه أكثر؟ فذكر اسم شيخ وقال لا تبلّغه أبدًا. فقلتُ: لقد بلّغته بالأحمدية منذ حوالي ساعة وقد جئتُ من عنده للتوّ. فقال في حيرة: فماذا حصل؟ قلتُ: كان يقول لي مرارًا في حالة من الغضب: لو كان عندي سيف لقطعتُ عنقك.

باختصار، ظلّ خالي وذلك الرئيس البهوبالي يثيران الناس ضدنا ولم يحصل شيء. ولكن ما إن انتهى الحج حتى تفشّى مرض الهيضة الشديدة في مكة، حتى أخذ الناس يلقون موتاهم في الشوارع، إذ لم يجدوا فرصة لدفنهم. فخاف جدي الذي كان يرافقني وقال: يجب أن نرجع من هنا بسرعة. فبدأنا نُعدّ عُدّتنا للعودة.

وذهب جدي للقاء أُخته وابنها في بيتهم، وكنتُ معه، فلما وصلنا هناك رأينا جنازة وأُناسا يُعدّون العدة لدفن الميت، فسأل جدي: من هذا؟ فذكروا اسم خالي الذي كان يثير الناس ضدنا، وقالوا: كان راجعًا من مِنى حين هاجمته الهيضة، فمات بعدها بقليل.

ثم وصلنا إلى جدّة، وكان أحد أقاربنا من جهة أُمي يعمل مسؤولا في القنصلية الإنجليزية هنالك - علمًا أن خالي الذي كان من بهوبال ومات بالهيضة كان من أقارب جدي لأمي، أما هذا المسؤول فكان من أقارب جدتي لأمي، فالغريب أن جميع أقاربي من جهة جدي لأمي كانوا معارضين للأحمدية على العموم، أما أقاربنا من جهة جدتي لأمي فكانوا متعاطفين على العموم، وإن لم يعُد الأمر الآن كما كان في الماضي، وربما كان هذا المسؤول ابن خالة جدتي، فكان يحبنا كثيرا- كانت السفن قليلة والناس يريدون العودة بسرعة، فكان الحصول على التذاكر صعبًا جدًا. فقلنا لقريبنا هذا - المسؤول في القنصلية - أن يدبر لنا التذاكر لنرجع في أول سفينة. فذهب بي إلى مكتب شركة السفن وطلب مني الجلوس هناك، وذهب ليدبّر التذاكر. فجلست في هذا المكتب قريبا من شباك مرتفع جدا بحيث لا تكاد تصله اليد. وبينما أنا في هذه الحالة إذ اقترب من النافذة شاب نحيف طويل أبيض اللون، فظنّ أنني أعمل في الشركة وقال: لماذا أنت جالس هنا؟ قلت: ماذا تعني؟ قال: أعني، أتعمل في هذه الشركة؟ قلتُ: لا. قال: هل لك صلة بهذه الشركة؟ قلت: لا. قال: فلماذا أنت جالس في مكتبها؟ قلت: قد طلب مني أحد أقاربي الجلوس هنا ريثما يدبر التذاكر. قال: تضمّ قافلتنا حوالي ثلاثين رجلا وامرأة ونحن نواجه مصيبة كبيرة، ونحن أشدّ قلقًا على النساء، لأنهن أصبحن كالمجانين خوفًا من وباء الهيضة؛ فلو دبرت لنا ١١ تذكرة، فيمكن أن نخرج النساء من هنا على الأقل، أما الرجال فنرى ماذا يفعل القدر بهم. قلت: وكيف تذهب النساء وحدهن؟ قال: لو دبرتَ لنا ٤ تذاكر أخرى، فيمكن أن نبعث معهن بعض الرجال، ونكون لك من الشاكرين. قلتُ: ليس لي أي علاقة بشراء التذاكر، ومع ذلك سأحاول. فذهب ورجع بسرعة، وناولني كيسًا مليئا بالنقود. وعندما رجع قريبي بتذاكرنا قلتُ له:

خالي، إن هؤلاء في حالة تستحق الرحمة، فدَبِّرْ لهم التذاكر أيضًا. وكان خالي في تلك اللحظة غاضبا من شيء، فقال: لستُ وكيل الشركة حتى أبحث عن التذاكر لهم. قلت: الأمر يتعلق بالرحمة بهم، فأرجوك أن تحاول. وإذا كنت لا تريد أن تعمل من أجلهم، فأرجوك أن تعملْ من أجلي. فخرج من عندي متبرّمًا متمتمًا، وظننت أنه لن يستطيع أن يفعل لهم شيئا، ولكنه عاد بعد قليل بحوالي ١٧ تذكرة ووضعها في يدي. فوضعت التذاكر والنقود الباقية في يد ذلك الرجل الذي كان واقفًا بجانب النافذة، فأخذها وذهب. وفي اليوم التالي -على ما أذكر- ذهبتُ لركوب السفينة، وكنت قد تأخرتُ قليلا وكانت السفينة على وشك الإبحار. فلقِيني ذلك الشاب النحيف الهزيل على باب السفينة وقال: لقد تأخرت جدا، إن السفينة على وشك التحرك، ثم حثَّ العمّالَ على مساعدتي وأوصل أمتعتي إلى داخل السفينة. ثم قال لي بكل امتنان: قد أحسنتَ إلينا كثيرا إذ دبّرتَ لنا التذاكر، وإلا كان من المحال أن نركب هذه السفينة. فسألتُه عن اسمه، فقال: اسمي خالد، وأنا حفيد النواب جمال الدين خان. فعلمت أنه هو الشخص الذي أراد قتلي بدفعي إلى المناظرة في مكة. ويمكنك تصوُّرُ مدى ندمه حين علِم من أنا، وكيف عاملتُه وكيف هو عاملني. إنه لم يعارضني بعد ذلك أثناء سفرنا في السفينة، بل ظل يبدي لي الشكر ويصرّ عليّ مرارًا بتناول الطعام وشرب الشاي معه. بل لقد أخبرني بعض أفراد جماعتنا في بهوبال أنه صار على صلة بإخواننا هناك.

إلى مثل هذه المواقف قد أشار الله تعالى في هذه الآيات، فقال سترون مواطن كثيرة يتجرع فيها الكافرون ماءً حميمًا جدا. فيمكنك أن تتصورَ مرارة الجرعة التي تجرّعَها الكفار حين طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو لهم لانتهاء القحط الذي ضربهم، أو حين دخل النبي ﷺ مكة فاتحا وقال لهم: أَخبِروني ما أنا فاعل بكم؟ فقالوا: افعلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته. (السيرة الحلبية: ذكر فتح مكة، سيرة ابن هشام: دخول رسولُ الله الحرمَ). لا بد أن ألسنتهم عندها قد جفّت والتصقت بسقف حلوقهم من شدة الذلة والإهانة واعترافًا بغلبة الإسلام.

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٧ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٨

شرح الكلمات:

الضريع: نباتٌ رَطْبُه يُسمّى شِبرقًا، ويابِسُه ضريعًا، لا تقرُبه دابّةٌ لِخُبثه. والضريع أيضًا: نباتٌ منتن يرمي به البحر. والضريع أيضًا: يُبْسُ كل شجر. والضريع أيضًا: نبات في الماء الأَجِنِ له عروق لا تصل إلى الأرض. (الأقرب)

التفسير: يقول الزمخشري: المراد من الآية أنهم لن يُعطَوا أي طعام، لأن الضريع ليس طعاما. (الكشاف)

وقد علّق عليه صاحب "البحر المحيط" تعليقا جميلا فقال: هذا ليس صحيحا، لأن القرآن يقول ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلا مِنْ ضَرِيعٍ﴾.. فسواء كان الضريع طعامًا أم لا، إلا أن الذي لا يجد شيئًا للأكل سيأكله لملء بطنه، وإن لم يكن يصلح للأكل في الظروف الطبيعية. فما دام الله تعالى قد قال صراحة بعد ذلك ﴿لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ فلماذا يقال أنهم لن يُعطَوا أي طعام. إن أسلوب القرآن وكلماته تبين أنهم يُعطَوْن الضريع للأكل.. أي أنهم يلقون من الخزي والذلة حتى أنهم يضطرون لأكل ما لا تأكله الحيوانات أيضا، بمعنى أنهم يتعرضون للذلة التي لا يتحملها أحقر إنسان أيضا. وبالفعل فإن عديدا من الكافرين فرّوا عند فتح مكة إلى البراري وماتوا هناك، وبعضهم عادوا إلى مكة بعد معاناة كبيرة طالبين العفو من الرسول ﷺ، فعفا عنهم. (أسد الغابة: عكرمة بن أبي جهل). ولما رأى هؤلاء - الذين كانوا يتباهون بأنهم سيدمرون المسلمين ويسحقونهم ويمحون أثرهم- كيف صار العبيد المسلمون يومَ الفتح حكاما ورؤساء عليهم، فلا شك أن الطعام اللذيذ الشهي أيضا صار لهم أسوأ من الضريع و لم ينفع أجسادهم.

إذًا فليس ضروريا أن يكون الضريع هنا بمعنى كلأ الشبرق حقيقة، بل هو استعارة، لأن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يشير إلى

تعاسة حالهم وفقدان حواسهم. كانوا يرون كل يوم أن المسلمين ينتصرون، وهم ينهزمون، ويسمعون بعد كل حرب أن فلانًا من قادهم قد قُتل، وأن فلانا من أسيادهم قد هلك، وكانوا يسمعون كل يوم أن كذا من القبائل قد أسلمت، وأن قومًا كذا قد آمنوا. لا شك أن هذه الأخبار كانت جِدَّ مزعجةٍ ومؤلمة ومؤذية لهم بحيث إن أفضل الأطعمة ما كانت لتُسمن أجسادهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ وقوله تعالى ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ يتضمنان نبوءات عظيمة عن ازدهار الإسلام. لقد اعترف الكتّاب المسيحيون أيضا أن هذه السورة نزلت في أوائل الإسلام حين لم يمرّ على دعوى النبي ﷺ سوى ثلاثة أو أربعة أعوام. أفليس إذنْ آيةً بينة عظيمة أن يخبر الله تعالى في تلك الأيام الأُولى من البعثة النبوية أن الكفار سيحاربون المسلمين ساعين لمحو الإسلام على الصعيد الفردي والجماعي، وأنه سيحيق بهم عذاب القحط والمجاعة. فالحق أن قوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ كان بمنـــزلة التحدي من قبل الإسلام إلى معارضيه وهو يماثل قول نوح عليه السلام لأعدائه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧٢).. فكأن الله تعالى أعلن هنا أنه مهما جمع كفار مكة قواهم ومهما عيّنوا أمراء لمعارضة الإسلام ومهما أعلنوا الحرب ضد المسلمين، إلا أن قادهم لن يغنوا عنهم شيئا، وجيوشهم لن تنتصر لهم، وأمراءهم لن يرجعوا بالفتح، وخططهم لن تضر بالمسلمين. وبالفعل هذا ما حصل، فمع أنهم كانوا يختارون قادة محنكين في فن القتال إلا أنهم كانوا يرجعون منهزمين من أمام المسلمين في كل مرة. فكِّروا في الظروف الحرجة التي أدلى الله تعالى فيها بهذه النبوءة عن ازدهار الإسلام متحديًا أن قادهم المحنكين أيضا لن يستطيعوا محاربة المسلمين، بَلْهَ عامَّتهم. في الظروف السائدة عندها ما كان بوسع أحد أن يتصور أن المسلمين سيصلّون خارج بيوهم، بله أن ينالوا الفتح والغلبة، ومع ذلك أنبأ الله تعالى أن المسلمين سينتصرون وأن أعداءهم سيُهزمون ويتجرعون ماء حميما مرة بعد أخرى. وما أدلَّ على ضعف

المسلمين وهواهم من أن المنافقين كانوا يعيّرونهم –حتى زمن غزوة الأحزاب– أنهم يحلمون بالانتصار عليهم وهم لا يجدون مكانًا للتغوط، كما هو مذكور في الحديث وفي القرآن الكريم! علمًا أن نبوءة غلبة المسلمين هذه قد أُدلي بها في السنة الرابعة للبعثة النبوية، واستمر ضعف المسلمين حتى السنة الخامسة من الهجرة كما أشرنا أعلاه، فلا شك أن التنبؤ عن غلبة الإسلام وانتصار المسلمين في ذلك الوقت ليس من عمل إنسان.

باختصار، قد أنبأ الله بقوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أن طعام الكافرين وشرابهم سيصبح عذابًا لهم وستحلّ بهم من الهموم والمصائب ما يكدِّر عليهم صفو الحياة. وكأن هذا الكلام من قبيل الاستعارة كما قال الشاعر باللغة الأردية:

خون دل پینے کو اور لخت جگر کھانے کو

یہ غذا ملتی ہے لیلی تیرے دیوانے کو

أي دمُ القلب للشرب وفلذة الكبد للأكل.. هذا هو الطعام الذي يجده مجنونك يا ليلى.

فأخبر الله تعالى أن الكافرين سيشربون الماء البارد، ولكنه سيبدو لهم نارا، فلن يستسيغوه، بل سيحرق حلقومهم، مثل الإنسان المصاب بغم شديد، الذي يغصّه الماء الزلال ولا ينــزل من حلقومه، ومهما أطعمتَه من غذاء جيد شهيّ طيب، إلا أنه لا ينفعه، فيزداد هزالا من شدة الغمّ. فالله تعالى يعلن هنا أنه ستحل بأعداء الإسلام أنواع المحن والبلايا وستتعرض كرامتهم وعائلاتهم وحكومتهم لصنوف الهجمات، فيتجرعون المرارة ويأكلون أفلاذ أكبادهم.. سيشربون الماء البارد ولكنه سيحرق أفواههم، وسيأكلون أشهى الأطعمة وألذّها، ولكنها لن تنفعهم ولن تسمنهم بقدر ما تنفع البعيرَ هشيم الورق وكلأ الشبرق.

ورد في بعض الروايات أنه عند نزول هذه الآية قال الكافرون: ولكنّ إبلنا تسمَن بأكل الضريع. وقال بعض المفسرين تعليقا على ذلك: يبدو أن الضريع كان

طعام الإبل وكان يسمنها. وقال الآخرون: إما أن الكافرين قد كذبوا فيما قالوا، أو أن الله تعالى قد تحدث عن نوع خاص من الضريع مبينًا أنهم سيُعطوْن من الضريع الذي لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوع. وكان هذا الضريع يسمن الإبل، ولكن لن يسمن الكفار. (الكشاف، وفتح البيان)

أتعجب من المفسرين كيف خاضوا في هذا النقاش! لو أن الله تعالى قال هنا ليس لإبلهم إلا ضريع، لجاز لهم أن يقولوا: هل الضريع يسمن الإبل أم لا؟ ولكن الله تعالى يتحدث هنا عن الناس لا عن الإبل. فمثلاً لو أن ملِكا جبّارًا أراد عقاب مجرم فأمر بإطعامه التبن، فهل يفرح المجرم وأصدقاؤه قائلين: لا بأس لو أُطعم صديقنا التبن لأنه يُسمِن البقر. الكل يعرف أن التبن يسمن الثور لا الإنسان، ولو قيل عن إنسان أَطعِموه التبن، فليس فيه أي إعزاز له، بل فيه إهانته، ولن يقول أحد أنه أُعطيَ طعاما يسمنه.

عندما زحف السلطان شهاب الدين الغوري بجيشه على الهند فرّ بعض جنوده من أمام الملك الهندي "برهَوي راج"، فأمر الغوريُّ بوضع أكياس مليئة بالحمص وغيره في أعناق الهاربين ليأكلوه. فوُضعت الأكياس على أفواههم إشارةً إلى أنهم يُشبِهون الدوابّ. (تاريخ فرشته /ترجمة أردية/ ج ١ ص٢٢٠)

فهل من عاقل يقول إن هؤلاء الجنود قد فرحوا كثيرا وقالوا فيما بينهم أن الحصان الأصيل والحمار الجيد هو الذي يأكل حبوب الحمص وغيره، فلا بأس لو أطعمَنا الملِكُ إياها؟

فلا أدري لماذا خاض المفسرون في هذا البحث عن الضريع. إن نقاشهم فيما إذا كان الضريع ينفع الإبل أم لا عبثٌ. فقد قال أهل اللغة إن الضريع نبات خبيث تعافه الدواب ولا تقرب منه. ثم حتى ولو افترضنا أن الدابة تأكله وافترضنا أن أهل مكة قالوا هذا فعلاً فإن هذا دليل على أنهم كالدواب. إذ لو قيل لإنسان لن تعطى إلا طعام الدواب، فلن يفرح بذلك قائلا: لا بأس أَعطوني إياه لأنه يسمن الدوابّ! فخوض المفسرين في البحث فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا عبثٌ. لقد قال القرآن الكريم إن الكفار كأمثال أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم سيُعطون الضريع،

ولم يقل إن الإبل ستعطى الضريع، حتى يخوض المفسرون فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا. لو حلّ أحد كنّاسي المراحيض مثلاً على أحد ضيفًا، فقدّم له التبن أو الكلأ الطازج الذي يسمن الثور والبقر، فلن يفرح بذلك أبدًا، بل يعتبره إساءة شديدة له، والله تعالى يتحدث هنا عن الناس، فما معنى الخوض في البحث فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا؟ إني أقول لهؤلاء المفسرين بكل احترام إن الحديث هنا عن الناس لا عن الدواب، وإذا كان أهل مكة قد قالوا مثل هذا الكلام فعلاً، فلا شك أنهم أكّدوا أنهم دواب، ولا حاجة للرد على قولهم هذا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٩﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

ناعمة: نَعِمَ الرجلُ: رَفِهَ. ونَعِمَ عيشُه: طابَ ولانَ واتّسعَ. (الأقرب)

وقال صاحب "البحر المحيط": "ناعمةٌ: لِحُسنها ونضارتها، أو متنعّمةٌ."

التفسير: تحدثت الآيات السابقة عن وجوهٍ صفتُها ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. بمعنى أن الذين عارضوا المصطفى ﷺ، أو الذين كانوا سيعارضون المأمورين فيما بعد، سيعملون كثيرا على الصعيدين الفردي والجماعي ويرهقون أنفسهم بجهود مضنية، أما هذه الآية فبيّنت أن رسول الله ﷺ لن يخضع ولن يظل وحيدا بسبب معارضتهم الفردية والجماعية، لأن جماعته ستزداد وتنتشر وتفوز بالعز والنجاح، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ﴾.

لقد سُمي رؤساء الكفار وجوهًا إذ كانوا بالفعل وجوه القوم في البداية، أما كلمة (خاشعة) فتشير إلى مصيرهم، لأن الذين يذلّون في أعين الناس ويفقدون نفوذهم وتأثيرهم وتَحرِقهم نيران الهمّ والألم.. لا يعودون وجوهًا. أما المسلمون فسُمّوا (وجوهًا) نظرًا إلى عاقبتهم. وكأن الله تعالى قد نبّه هنا: إنما العمل الحسن ما يكون مآله حسنًا. لقد هبّ الكافرون وهم وجوه، ثم عادوا وجوهًا خاشعة، أما

المؤمنون فنهضوا من الحضيض وأصبحوا وجوهًا، حيث نالوا كلّ نوع من العز والشرف والدرجة.

ويمكن أن ترى مآل الكفار وعاقبة المؤمنين من أمثال أبي جهل وأبي بكر ﵁. فكان الأول ذا جاه وعز، ولكن انظرْ إلى مصيره التعيس حيث قتَله يوم بدر صبيان أنصاريان لم يتجاوزا الخامسة عشرة من عمرهما. (البخاري: كتاب المغازي). أما أبو بكر فكان تاجرًا بسيطًا من مكة، ولما توفي النبي ﷺ بايعه المسلمون خليفةً له واختاروه سيدًا عليهم. فبلغ خبر ذلك مكةَ في مجلس ضمّ والدَ أبي بكر أيضا. فقال قائل: لقد بلغنا من المدينة أن النبي ﷺ قد توفي. فقيل له: فماذا حدث بعد ذلك؟ قال: قد اختار المسلمون خليفةً منهم وبايعوا على يده. قالوا: من الذي بايعوه؟ قال: أبو بكر. فلما سمِع والدُ أبي بكر هذا الكلام سأل: من يكون أبو بكر هذا؟ وهذا يعني أنه لم يخطر بباله أن الناس يمكن أن يختاروا ابنه سيدًا عليهم. فقيل له: ابن أبي قحافة، أي ابنك أنت. فبدأ والد أبي بكر يسمي القبائل والأُسَر واحدة بعد أخرى ويسأل: هل بايع هؤلاء على يده؟ فقيل له: نعم. فلم يتمالك نفسه حتى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (الطبقات لابن سعد، ذكر بيعة أبي بكر). الواقع أنه كان قد أسلم من قبل، و لم ينطق بالشهادتين في هذه المناسبة إلا لإيمانه بأن حادث خلافة ابنه أيضا دليل على صدق الإسلام، وإلا فما كانت قبائل العرب لتبايع على يد ابنه.

فترى أن شخصًا يبلغ الذروة نتيجة إسلامه حتى لا يصدّق أبوه ما حققه من الرقي، مع أن تقديرات الآباء عن أبنائهم كبيرة عادةً، فكثير من الناس يقولون: إن ولدي ذكيٌّ جدا، وإذا سألته عن دليل ذلك، قال إنه يقرأ الكتاب بطلاقة. فقراءة كتاب بسيط دليلٌ على العلم والذكاء في رأيه، وإنْ كان الكتاب مجموعةَ شعر بسيط، أو إنْ لم يكن يقرأه بطلاقة. كان المفروض بحسب هذا المبدأ أن يكون أبو بكر عظيمًا في عين أبيه، ولكن أباه لم يصدق أن المسلمين قد بايعوه خليفة للرسول ﷺ.

إذن، لقد أصبح أبو جهل صغيرا بعد أن كان كبيرا، وصار أبو بكر كبيرا بعد أن كان صغيرا. وبهذا المعنى نفسه قد أوحي إلى المسيح الموعود عليه السلام: "كم من صغير سيُجعل كبيرا وكم من كبير سيُجعل صغيرا" (التذكرة ص٤٥٣). فأحد الرجُلين اعتُبر من الوجوه، نظرًا إلى بدايته، والآخر نظرًا إلى نهايته، وإلا فلا يمكن أن يكونا سيدين لبلد واحد؛ لأن بينهما عداء. فالله تعالى يقول هنا للذين يعادون محمدا ﷺ، لا شك أنكم وجوه اليوم، ولكنكم ستصبحون وجوهًا خاشعة غدًا، ولا شكّ أن المسلمين ضعفاء اليوم، ولكنهم سيصبحون وجوهًا غدًا.

ثم ذكر الله تعالى من صفات هذه الوجوه أنها ﴿ناعمة﴾، أي أن المسلمين يصبحون وجوهًا ناعمة. وللناعمة مفهومان: الأول ذات حسن ونضارة، والثاني: المتنعمة.. أي المترفلة بالنِّعَم.. والمراد أن المسلمين يحوزون الكمال في أنفسهم وفيما حولهم.. أي ينعمون بالنعم الداخلية والخارجية. المفهوم الظاهري أنهم ذوو جمال وأموال، والمفهوم الروحاني أنهم ذوو تقوى وعلوم روحانية؛ بتعبير آخر: إنهم يتحلون بعرفانٍ وغنًى كاملَيْن، كما يملكون معارف وأموالا يوزّعونها على الآخرين أيضا، ذلك أن الحُسْن شيء ذاتي يخصّ ذات الإنسان فقط، أما المال فيتمتع به، كما يعطيه للآخرين. كذلك التقوى تخصّ ذات الإنسان ولا يمكن أن يوزعها للآخرين، أما العلم فيمكن توزيعه على الآخرين أيضا. فالله تعالى يخبر أن المسلمين سيحوزون الجمال والمال ظاهرًا، ويتحلون بالتقوى والعلم باطنًا.

اعلم أن المفهوم الظاهري لقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ هو أنهم في ذلك اليوم سيَبدون ذوي حسن وجمال. وفهمُ هذا التعبير صعب، إذ كيف يبدو الإنسان جميلا في وقت خاص إذا لم يكن جميلا في الواقع؟ ولكن الحقيقة أن الذي تحبّه يبدو لك جميلا جدًّا. وهذا ما تشير إليه الآية، أنهم بسبب تقواهم وإحسانهم يصبحون محبوبين عند الناس، ومهما كانت صورتهم فيجدهم الناس ذوي حسن وجمال، كما يرى كل أب ابنه جميلا، وكل ابنٍ يرى أباه جميلا.

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه قبل إسلامه عدوًّا شديدا للإسلام، فأصيب بقلق شديد قبيلَ وفاته وكان يقول: بأي وجه ألقى ربي؟ فقال له ابنه: ما هذا الذي

تقوله يا أبي؟ فقد قدّمتَ خدمات جليلة في عهد الرسول ﷺ. فقال: نعم، لا شك أن الله تعالى قد وفّقنا لخدمات عظيمة في عهده ﷺ، ولكني أخاف بسبب ما مرّ بنا بعده من أحوال، فلا أدري كيف يعاملنا الله تعالى! ثم قال: ولو سُئلت أن أصِفه ﷺ ما أطقْتُ. فقد أتى عليَّ فترتان، فترة أعلن فيها النبي ﷺ دعواه، فكرهتُ دعواه كراهية شديدة، فلم أكنْ أملأ عيني منه. لم يكن لي به معرفة كبيرة من قبل حتى أعرف صورته جيدا.. أما بعد الدعوى فكنتُ أغضّ الطرف عنه إذا ما رأيته قادما، حتى لا أرى وجهه، وفترة أخرى حين أنعم الله عليّ بنعمة الإيمان، فرأيت في وجهه حسنًا وجمالا ونورا وجلالا لم أجرؤ معها على النظر إلى وجهه ﷺ، ولذلك لو سألني أحد أن أصفه ﷺ لم أستطع؛ إذ لم أطق النظر إليه في حالة الكفر لكونه أبغض الناس عندي، ولا في حالة الإيمان لكونه أجمل الناس وأجلّهم في نظري. (مسلم، كتاب الإيمان)

فالحقيقة أن المرء يرى الشيء جميلا في حين، ويراه دميما في حين آخر. وتتغير الصور بناءً على نظرة الحب أو البغض. لقد شاهدنا في عشرات الخلافات الزوجية أن كلا من الزوجين ينظر إلى الآخر كالعاشق الولهان في بداية الأمر، فيظن الزوج أن الله تعالى قد أعطاه أجمل امرأة في الدنيا، أما بعد النـــزاع فيقول: إنها كريهة الشكل بحيث لا أطيق النظر إلى وجهها.

إذًا، فبناء على المعنى الظاهري لكلمة ﴿ناعمة﴾ فالمراد من قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أنهم سيصبحون يومئذ مقبولين في العالم، وذوي جمال في أعين الناس. ليس ضروريا أن تكون وجوههم جميلة، بل تراهم الدنيا أجمل الناس لكونهم محسنين خادمين للإنسانية، مشفقين على اليتامى، ومساعدين للفقراء، ناهضين بالمنكوبين. فالمعنى الظاهري أيضا مستقيم، ولكن هذا لا يعني أن تكون صورهم جميلة حسنة فعلاً، بل هذا أسلوب للكلام كقولنا: الميزاب يجري، مع أن المراد أن الماء يجري في الميزاب. كذلك المراد هنا أنهم يَبدون للناس أهلَ حسن وجمال لإحسانهم إليهم؛ فيحبهم الناس حبًّا جمًّا لما يتمتعون به من خصال حميدة كالإحسان والصلاح والعفة وحسن المعاملة.

إذًا، فقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى حُسن أخلاق الصحابة أو المؤمنين.. أي أن الله تعالى سيوفّقهم للتحلي بأسمى الأخلاق والإحسان إلى الخَلق، فيبدون في أعين الدنيا أجمل الناس في العالم.

أما إذا أخذنا بالمعنى الروحاني.. أي التقوى والعلم، فالمفهوم واضح ولا حاجة لشرحه.

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿١٠﴾

التفسير: في بعض الأحيان يحسن المرء إلى الآخرين وهو مستاء. ومثاله المرائي، فإنه يتبرع بالملايين في مشروع خيري أحيانًا، ويثني عليه الناس ويشيدون بتضحيته، بينما يدمى قلبُه بما فعل؛ أو أنه يتصدق على الفقراء فيثني عليه القوم، ولكنه في باطنه يكون قلقًا جدًّا لضياع ماله. فلا يكفي الإنسان أن يكون جميلا ومحمودًا في أعين الناس، بل لا بد أن يكون حَسينا ومحمودا في عينه هو أيضا، لأن المرائي أيضا يصبح حَسينًا في أعين الناس، ولكن قلبه يحترق لإدراكه أنه قد هلك بريائه. ولذلك يقول الله تعالى أن هؤلاء سيكونون كاملي الصلاح دون نقص ولا عيب.

والمفهوم الروحاني لقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ ۝ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أنه سيأتي يوم يصبح فيه بعض الناس ذوي جمال في أعين العالم وفي أعينهم أيضا.. أي أنهم سيفرحون بما صنعوا، ولن يكون عندهم أدنى إحساس أنهم قد ظلموا أنفسهم بتقديم التضحيات من أجل بني قومهم، بل كلما ازدادوا خدمة وتضحية وإحسانًا إلى الناس ازدادت قلوبهم اطمئنانا وسرورا؛ وبتعبير آخر: تكون قلوبهم عامرة بالإيمان والإخلاص وحب الله بحيث لن يفرح الناس برؤيتهم فحسب، بل إنهم أنفسهم يفرحون بما فعلوا. وهذا يماثل قولنا: لو وجدتُ الفرصة فلأفعلنَّ ما فعلتُ مرة أخرى، أو لأُعيدنَّ العمل نفسه. ذلك أن المرء يقوم أحيانًا بعمل يندم عليه ويحزن فلا يزال ضميره يخزه. فلو قيل له هل أنت مطمئن بما فعلتَ؟ فكثيرًا ما يجيب: كلا، بل إني نادم على ما فعلت، وإني أعترف أنني لم أحسن صنعًا. أما إذا

كان مطمئنا بفعله وصادقا فيما يقول بعد ذلك، فهو يقول: لو أتيحت لي الفرصة فسأعمل ما عملتُ ثانية، أي أنه مطمئن جدا بما فعل ويريد أن يعيد العمل نفسه لو أتيحت له الظروف.

إن كل عمل في الدنيا يُرى من منظورين: يُنظَر إليه من منظور الماضي إلى الاستقبال حينًا، ومن منظور الحال إلى الماضي حينًا آخر. فبعض الأعمال تبدو لنا جميلة إذا نظرنا إليها من الماضي إلى المستقبل، وعندما نقوم بها ويصبح المستقبل ماضيا، ثم ننظر إليها نعُدّها سيئة بسبب نتائجها. ولكن هناك أعمال إذا نظرنا إليها من منظور الماضي إلى المستقبل تبدو لنا جميلة، وعندما تصبح تلك الأعمال قصة من الماضي وتنكشف نتائجها فتبدو لنا جميلة من حيث نتائجها أيضًا. علامة العمل الحسن السامي أنه يبدو جميلا سواء نظرت إليه من الماضي إلى المستقبل أو من الحال إلى الماضي، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.. أي أن المسلمين عندما ينظرون إلى أعمالهم التي يريدون القيام بها من منظور الماضي إلى المستقبل فيستحسنونها، وعندما ينجزونها وينظرون إليها من منظور الحال إلى الماضي فسيعتبرونها جميلة أيضًا، وكأنما يرون الحسن من أمامهم ومن ورائهم أيضا. إن المشتري الذكي إذا أراد شراء فرس، نظر إليه من أمامه ومن ورائه أيضا، لأن بعض الدواب تبدو جميلة من الأمام، وهي ليست كذلك من الوراء، وبعضها تبدو جميلة من الوراء ودميمة من الأمام، وأفضلها ما يبدو جميلا من أمامه ومن ورائه أيضا. وهذا هو حال أعمال الإنسان أيضا؛ فبعض الأعمال تبدو جميلة قبل القيام بها وبعده، وبعضها تبدو جميلةً قبل القيام بها، وبغيضةً فيما بعد، وبعض الأعمال تبدو سيئةً قبل القيام بها، ولكنها تبدو جميلة فيما بعد. والعمل الذي يبدو جميلا قبل أن تعمله وبعد أن تعمله هو الأحق بالإشادة والتقدير. كما ورد في الحديث أن صحابيا استُشهد في غزوة، فقال الله له مسرورًا: سَلْ ما بدا لك، فإني أعطيك كل ما تسألني. ولو أن هذا الصحابي لم يُضَحِّ بنفسه في سبيل الله على وجه البصيرة لأجاب: ربّ، قد اشتركتُ في القتال جهلاً مني وقُتلتُ، فأريد أن تحييني ثانية لأعود إلى أهلي. ولكنه لم يقُلْ هكذا، لأنه عندما كان ينظر إلى الشهادة من منظور

المستقبل كان يستحسنها، وعندما استُشهد فعلاً ونظر إلى الماضي وإلى نتائج الشهادة استحسن عمله، ولذلك قال لربه: ربِّ، أريد أن تحييني لأُقتل في سبيلك ثانية (الترمذي، أبواب التفسير).

فثبت أن الحُسن الحقيقي لأي عمل لا يظهر إلا بالنظر إليه قبل القيام به وبعد إنجازه، وإلى ذلك يشير الله بقوله تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.. أي أن الناس سيجدون فيهم حسنًا وجمالاً، كما أنهم يجدون في أنفسهم حسنًا وجمالا، ولا يستنكرون أعمالهم بعد القيام بها؛ كلا، بل يستحسنون أعمالهم قبل القيام بها، ويجدونها جميلة بعد القيام بها أيضا. وليس المراد من اعتبارهم أنفسَهم من ذوي الجمال أنهم يصابون بالكبر والزهو كما هو حال بعض الجهلاء الذين يزعمون أنه ليس لهم مثيل في الدنيا كلها، فإنها فكرة سيئة جدا تدل على مرض قلوب أصحابها، إنما المراد من هذا التعبير أنهم سيستحسنون أعمالهم بعد التدبر فيها وبعد رؤية نتائجها. وهذا المقام مقام الكمال في الإيمان.

فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١١﴾

التفسير: أي أنهم حين يصبحون ذوي جمال في أعين القوم وفي أعين أنفسهم أيضا، ويستحسنون أعمالهم ويطمئنون بها، سواء بالنظر إليها من الماضي إلى الاستقبال أو بالعكس، فلا بد أن يصيروا مَرضيّين عند الناس وعند أنفسهم، بل يصح القول إنهم يكونون مرضيين عند الله وعند الناس وعند أنفسهم أيضا، حيث إن كل حمْد إنما يأتي من عند الله في الواقع. وهذه هي الجوانب الثلاثة لأعمال الإنسان، أي معاملته مع نفسه ومع بني جنسه ومع الله تعالى، فهؤلاء سيكونون مرضيين في أعينهم، وعند الناس وعند الله أيضا. وإذا تيسر للمرء الرضا من الجهات الثلاث كلها، فأي شك في أنه يكون ﴿فِي جَنَّة عَالِيَة﴾، حيث يُكرمه الناس ويضعونه على الرأس والعين، وإنْ كان مفلسًا لا يملك قرشًا ويعيش في أسمال؟ إنه

يعتبر نفسه عاليًا غير دنيء، مُدرِكًا أن الله تعالى قد وهب له مكانة عالية من حيث الأخلاق و لم يجعله من زمرة الأداني، كما ألقى في قلوب الناس حبه وتكريمه.

لعل مفهوم ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ لم يكن واضحًا في الماضي، ولكنه أصبح سهل الفهم في هذه الأيام لوجود البساتين المعلقة في الدنيا. حيث توجد في مومباي عدة بساتين معلقة. زرتُ مومباي مرة في مقتبل عمري، فأُخبرتُ بوجود البساتين المعلقة هناك، فظننت أنهم ربما زرعوا الأشجار في سلال وعلّقوها على أعمدة عالية أو صخور ناتئة، فتتدلى منها الأشجار وتبدو معلقة في الهواء. ولما ذهبت لزيارتها لم أجد هناك أي بستان معلق هكذا، فقلتُ للبعض: لقد قيل لي إن هنا بساتين معلقة، ولكني لم أرَ منها شيئا، فقيل لي: قد رأيتَها قبل قليل. فعرفتُ أنهم لا يعنون بها أية بساتين معلقة، وإنما يعنون بها البساتين المزروعة على قمم عالية.. ولأن الناس يمرّون من تحتها فتبدو بساتين معلقة من فوقهم. كذلك يقول الله تعالى هنا إن المؤمنين سيكونون في بساتين مرتفعة حيث ﴿جنة﴾ تعني بستانا ذا ظلّ، و﴿عالية﴾ تعني مرتفعة. وحيث إن الشيء المُظِلّ لا يُرى ما تحته من أشياء، بينما يكون الشيء الموجود على القمة معرَّضًا للشمس، فلذلك قد أوضح الله تعالى هنا أن البساتين التي نتحدث عنها هنا ذات ميزتين؛ ففيما يتعلق بالصيت والمكانة فهي عالية، وفيما يتعلق بالمحاسن فهي ذات ظلال، أي أن الناس سوف يرفعون أبصارهم إلى هؤلاء المؤمنين، كما أنهم لن يتعرضوا للشمس وحرارتها، بل سيعيشون تحت ظل رحمة الله تعالى، مع أن أكثر الناس حينما ينالون مرتبة عالية يصيبهم الغرور فيُفْتَضحون، وبدلاً من أن تنفعهم شمسُ الأفضال الإلهية يحترقون بحرارتها.

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

لاغية: اللاغية: اللغو؛ كلمةٌ لاغية: أي فاحشة، ومنه ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي: كلمةٌ ذاتُ لغوٍ. (الأقرب)

التفسير: يسمَع الإنسانُ اللغوَ في الدنيا في حالتين: إما أن يكون ذا خُلق سيِّئ، فيخاصم الناسَ فيسمَع كلمةً لاغيةً بكل تأكيد؛ فمثلاً إذ سبّ الآخرَ ووصَفه بالخبث، وقعتْ في أذنه كلمته اللاغية حيث سمع قوله بنفسه أيضا، والحالة الثانية أن يخاصمه الناس، فيسمع منهم لاغية. والمرء يسمع لغوه عندما لا يكون راضيا بالآخرين، ويُسمعه الآخرون لغوًا حين لا يكونون راضين عنه. ولكن الله تعالى يصف هؤلاء القوم أنهم لن يسمعوا فيها لاغية.. أي أنهم سيكونون راضين عن الناس ويكون الناس راضين عنهم: سيتحلون بالرحمة والمواساة والستر وحسن المعاملة والمحبة والإخلاص، فلن يخاصموا الآخرين ولن يسبّوهم؛ وذلك كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه لم يكُن سبّابًا ولا فحّاشًا ولا لعّانًا (البخاري: كتاب الأدب). إذا كان المرء سيئ الخُلق عصبيًّا أو بخيلاً أو عنيدًا، خاصمَ الناسَ وسبّهم. وبالفعل نجد أناسًا لو ذهب إليهم أحد لبعض حاجاته صرخوا في وجهه قائلين: لِمَ يُلاحقنا هؤلاء الأشقياء دومًا ولا يتركوننا في أي وقت؟ أما السخي الكريم المحسن المحب للناس، فلا يسمع اللغو من لسانه هو، وإذا صار كاملا في إحسانه ونال القوة والغلبة أيضا فلا يسمع لاغيةً من الآخرين أيضا.

الحقيقة أن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارة إلى غلبة المؤمنين وقوتهم؛ ذلك لأن في الدنيا لئامًا لا يكفّون عن سبِّك مهما أحسنتَ إليهم. انظُروا إلى جماعتنا مثلاً، فكم نحسن إلى الناس، ونسعى لخيرهم، ومع ذلك نسمع منهم السبّ أكثر مِن أي أحد. فبعض الناس خبثاء لا يتورعون عن الإيذاء كالعقرب التي تلدغ دائما. يبلغ بهم السوء نتيجة إغواء الشيطان بحيث لا يميزون بين ما هو خير لهم وما هو شر لهم، ويبذلون جهدهم لمعارضة الرسالة الإلهية مهما أحبّهم صاحب الرسالة وواساهم، ولكن حين تنال جماعة الله الحُكم والغلبة، فإن هؤلاء يتذللون أمام المؤمنين.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارة إلى حكم المسلمين، حيث بين الله تعالى أنهم سينالون الغلبة فلن يجرؤ أحد على أن يقول لهم كلمة لاغية.

كما أن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارةٌ إلى سموّ أخلاق المسلمين. لقد بينت من قبل أن قوله تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ كان إشارةً إلى ثلاثة أمور: معاملتهم مع أنفسهم، ومعاملتهم مع بني جنسهم، ومعاملتهم مع الله تعالى، حيث أخبر الله تعالى أنهم سيكونون كاملين من هذه النواحي الثلاث، أما الآن فأشار بقوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إلى حسن أخلاقهم، وأنهم لن يكونوا بخلاء طمّاعين بحيث يسبون الناس إذا جاءوهم طالبين منهم معروفا، أو أنهم لن يكونوا عصبيين، بل يكونون محسنين مُنعمين معلِّمين بحيث يمدَحهم الناس. أما اللئيم الذي يخاصمك سواء أحسنتَ إليه أم لم تُحسِنْ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(الأعراف:١٧٧).. فهو يضايق الشريفَ كالكلب الذي يلهث دائما، ولا يتوقف عن فحش الكلام إلا إذا نال خصمُه الحكمَ والغلبة، لذلك يقول الله هنا إن المسلمين سينالون الغلبة فلن يقدر أحد أن يُسمِعهم لاغيةً، وهكذا سيثني عليهم هؤلاء الأعداءُ الذين ينكرون الجميل بسبب غلبتهم، أما الشرفاء فيُثنون عليهم لإحسانهم. أما هؤلاء المؤمنون فلكونهم صالحين فلا يسبّون أحدا، وبالتالي لن يسمعوا اللغو إطلاقا.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٣﴾

التفسير: أي ستكون في الجنّة التي يسكنها المؤمنون عين جارية. لا شك أن هذه العيون ستكون في الآخرة، ولا داعي للخوض في تفاصيلها، إذ لم أرَها ولم يرَها غيري، وإنما هي قضية إيمانية. وستعني هذه الآية نظرًا إلى حياة الدنيا أنهم سيتركون وراءهم علومًا، ويعاملون بني جنسهم بأخلاق يبقى تأثيرها لمدة طويلة. إن إحسان بعض الناس يكون مؤقتا، ولكن إحسان البعض الآخر يصبح صدقة

جارية. فمثلا تعطي الفقير بعض المال، وبمجرد أن يشتري به خبزا أو طعاما ويأكله ينتهي إحسانك، ولكنك لو علّمت الناس الدين أو الخُلق العالي، أو علّمت أحدًا حرفةً، وساعدته بالمال ليمارس حرفته، أو اشتريت له أدوات صنْعته، فهذا إحسان ذو نطاق واسع، لأن إطعام طعامٍ صدقةٌ تنتهي بسرعة، ولكن الإحسان ذا النفع الطويل المدى صدقة جارية. فالمراد من قوله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أن صدقاهم تكون صدقات جارية، وأن معروفهم ببني جنسهم لا يكون محدودًا أو بسيطًا، بل يكون واسع النطاق وطويل المدى. فمثلاً تعلَّمَ الصحابة العلمَ من النبيّ ﷺ، فنشروه في الدنيا حتى وصل عن فلان وعن فلان وفلان إلى الأجيال القادمة، ثم نقله الذين يلوهم ثم الذين يلوهم إلى من بعدهم، حتى وصلت هذه العلوم كلها إلينا. لقد جعل الله تعالى هذه الميزة في الصحابة على خير وجه، فكانوا لا يحتفظون بكنوز العلم لأنفسهم، بل كانوا يبلغوها الآخرين كعيْن جارية. لو كان عند البعض علمٌ أخفوه لأنفسهم، أما الصحابة فقد فعلوا عكس ذلك، حتى روي أن شخصا سأل أحد الصحابة عن حديث لرسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به، ولو كنتُ أعلمه والسيفُ موضوع على عنقي، لسارعتُ إلى تبليغه قبل قتلي، وقلتُ: هذا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ (البخاري: كتاب العلم). إذًا فكان الصحابة عينًا جارية لا يعرفون التوقف، بل كانوا يركضون بعلومهم في العالم.

كما أخبر الله تعالى بقوله ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أن الصحابة وتلاميذهم يخرجون إلى مناطق نائية، ولن يظلّوا متقوقعين في الجزيرة. وبالفعل ترى أن العرب المسلمين خرجوا من وطنهم وانتشروا في أقطار بعيدة في العالم حتى بلغوا الصين ونشروا فيها الإسلام، ووصلوا إلى أنطاكية وأشاعوا فيها الإسلام، ودخلوا في إسبانيا وبشّروا أهلها بالإسلام. لقد خرجوا إلى شتى أنحاء الدنيا وأجروا فيها العلمَ أنهارا وعيونًا. فكما أن ماء العين يروي أراضي بعيدة، كذلك لم يتوقف المسلمون في مكان واحد، بل كانوا يصلون إلى شتى أنحاء العالم لينفعوا أهلها بعلومهم.

هذه هي ميزات الأمم التي يكتب لها الغلبة. على جماعتنا أن تفكّر فيما إذا كنا متحلين بهذه الميزات أم لا. دَعُوا الحُكمَ جانبًا فإن الله سيكتبه لنا في وقته، ولكن

قبلها حاسِبوا أنفسكم لتروا ما إذا كنا متحلين بهذه المحاسن، وهل تخلصنا من أنواع النقائص في أعيننا وأعين الناس وعند الله أيضا؟ هل نتحلى بأخلاق فاضلة بحيث لا نسمع لاغيةً لا مِن لساننا ولا من لسان الآخرين؟ وهل نسعى دومًا لنكون كعين جارية، حتى إذا سمعنا من أحد شيئًا حسنًا بلّغناه الآخرين بدلاً من أن نكتفي بسماعه ونكيل لقائله المدائح! كان الصحابة يتعلمون ليل نهار، ثم لا يحتفظون بما تعلّموه في صدورهم، بل كانوا يبلّغونه غيرهم كعين جارية تروي العالم. انظروا كم كان ذلك الصحابي تواقًا لتعليم الآخرين حيث قال: لو وُضع السيف على عنقي، فتكون آخر أمنيتي أن أروي قبل قتلي ما سمعتُه من قول رسول الله ﷺ. ينبغي أن تتحلى جماعتنا بهذه الميزة، ويُثبِتوا بعملهم أنهم عين جارية فيما يتعلق بالعلوم والمعارف.

فِيهَا سُرُرٌ مَّرۡفُوعَةٌ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سُرُر: جمعُ سرير، ويُجمَع أيضًا أَسِرَّة. وهو التخت ويغلِب على تخت المَلِك. يقال: زالَ عن سريره: أي ذهَب عزُّه ونعمتُه، سُمّي به لأن من جلَس عليه مِن أهل الرفعة والجاه يكون مسرورا. (الأقرب)

مرفوعة: رَفَعَه ضِدُّ وَضَعَه. (الأقرب)

التفسير: من معاني ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ أنها تكون عظيمة، لأن كلمة مرفوعة تشير إلى علوّ الشأن والعظمة، كما تعني أيضا أنها تكون في مكان مرتفع. ففيها ميزتان: ميزة العظمة وميزة الارتفاع. وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين سوف يتقدمون في فعل الخيرات ويسعون ليكونوا أطولَ قامة من غيرهم في مجال الحسنات، كما أنهم يكونون مرفوعين من حيث إن الله تعالى سوف يرفع درجاتهم. وكأنه تعالى يقول فيما يتعلق بعلاقتهم مع الناس فإنهم يكونون أطول قامة من

غيرهم في الصلاح والتقوى، بحيث لا مجال للمقارنة بينهم وبين غيرهم، وفيما يتعلق بعلاقتهم مع الله تعالى فإنه سيعاملهم معاملة خاصة دون غيرهم، ويجعلهم من المقربين.

أما قوله تعالى ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ فإشارة إلى أن المُلك الذي سيُعطاه المؤمنون لن يكون كمُلك أهل الدنيا، بل سيكون فريدًا من نوعه، حيث يكون لهم ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾.. أي تكون أَسِرَّتهم في السماء.

وبالفعل نرى أن المسلمين أصبحوا ملوك العالم، ولكن لم يجلبوا من مُلكهم منفعة شخصية. كان أبو بكر ملِكًا للعالم الإسلامي كله، ولكن ماذا أخذ من مُلكه؟ كان محافظًا على بيت المال، ولكنه لم يتصرّف فيه لنفسه قط. لا شك أنه كان تاجرًا كبيرا قبل خلافته، ولكن كلما أتاه مال أنفقه في سبيل الله تعالى، فلم يكن عنده مال حين صار خليفة بعد وفاة النبي ﷺ، فخرج في اليوم الثاني من خلافته حاملا رزمة من القماش ليبيعها للناس، فلقيه عمر في الطريق وقال: ما هذا الذي تفعله؟ قال: مِن أين آكل إذا لم أُتاجر؟ فقال عمر: فمن ذا الذي يقوم بمهامّ الخلافة إذا اشتغلتَ بالتجارة؟ قال: فمِن أين أعيش؟ قال عمر: يجب أن تأخذ مرتّبًا من بيت المال. قال: لن أفعل هذا أبدًا، إذ لا حق لي في بيت المال. فقال عمر: ما دام القرآن قد أجاز الإنفاق مِن بيت المال على خدام الدين، فلماذا لا تأخذ منه؟ فعُيّن لأبي بكر رضي الله عنه راتب قليل جدًا من بيت المال لا يكفي إلا للأكل واللباس (الطبقات لابن سعد: ذكر بيعة أبي بكر). ثم لما انتُخب عمر رضي الله عنه خليفةً عاش عيشة بسيطة جدًّا. أما عثمان رضي الله عنه فهو الوحيد الذي كان ثريًا بين الخلفاء الراشدين، ولكنه كان جوادًا، فكان ينفق كل ما عنده عادة، وكان الناس يقولون له: لماذا توزع المالَ على الناس هكذا، فكان يجيب: مالكم ولهذا المال؟ إنه مالي وأُنفقه كيفما أشاء، ولا حق لأحد بالاعتراض. فلم ينتفع أي من الخلفاء من بيت المال مطلقا، بل تولّوا الإشراف على إنفاقه على مصالح الناس ومرافقهم فقط.

إذن، فكانت سُرُرُ المؤمنين أرفع من سرر الآخرين. إن ملوك الدنيا يعتبرون خزينة الدولة مِلكًا لهم، ويتصرفون فيها كما يحلو لهم، وهذا هو سبب النـــزاعات

الجارية اليوم بين الجماهير والملوك؛ إذ يقولون لملوكهم: يجب أن تنفقوا هذه الأموال على الرعايا، فيقولون: هذه ثروتنا، وسوف ننفقها كيفما نشاء.

فالله تعالى يرسم هنا معالم الحكومة الإسلامية مبينًا أن سرر المسلمين تكون مرفوعة، وحُكمهم يكون لمصلحة الناس، وكأنه تعالى يقول: إنهم يكونون ملوكًا بالاسم فقط في الظاهر، وأما في الحقيقة فيكونون أرفع من ملوك الدنيا، فلن يعتبروا الخزينة ملكًا لهم، بل ملكًا للبلاد والشعب. وهذا هو مفهوم الحكومة الإسلامية، إذ لا تكون الخزينة فيها ملكًا لفرد، بل تكون ملكًا للشعب كله. إن بعض غير الأحمديين الذين يظنون أن جماعتنا كجماعات المتصوفين والدراويش المزعومين الآخرين، يكتبون لي أن عندك أموالاً كثيرة، فأعطنا من فضلك كذا من الآلاف. فأقول لهم في الجواب إن المال الذي يأتيني ليس ملكًا لي، بل هو ملك الجماعة، ولا يحق لي توزيعه على الناس كيفما أشاء! فهؤلاء القوم لا يدركون أنني أيضا خاضع لقانون، ولا يحق لي الإنفاق من بيت المال خلاف هذا القانون. فأشرح لهم حقيقة الأمر كثيرا وأقول: إني لا أملك التصرف التام في هذه الخزينة، بل إن الله تعالى قد جعلني خاضعًا لبعض القوانين، ولكن هؤلاء لا يفهمون شيئا، ويظنون أنني لا أساعدهم بخلاً مني، مما يدل على أن المسلمين قد ضلّوا عن تعاليم الإسلام اليومَ ضلالاً بعيدا، فأصبح ملوكهم وأثرياؤهم من المغضوب عليهم، بينما كان ملوك المسلمين في الماضي محبوبين عندهم وعند غيرهم أيضا، إذ كانوا ينفقون أموال الدولة على مصلحة البلاد ولا سيما على النهوض بالفقراء، كما كان أمراؤهم يعتبرون أموالهم أمانةً ربانية عندهم، فلم يكونوا ينفقوها إشباعًا لأهواء النفس، بل على مرافق العامة ومصالحهم.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أكواب: مفردها كوب، وهو كوزٌ مستدير الرأس؛ ويقال: قَدْحٌ لا عُروةَ له. (الأقرب)

موضوعة: وضَع الشيء: أثبته (الأقرب). علمًا أن هناك فرقًا بين الحطّ والوضع، فالحطّ يعني الوضع المجرّد، أما الوضع فهو إثبات الشيء بطريق مناسب، قال الله تعالى ﴿وَالأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾(الرحمن:١١).. أي أن الله تعالى قد هيّأ الأرض لتكون نافعة للمخلوق. كذلك قال الله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾(النساء:٤٧).. أي يغيّرونها عن أماكنها المناسبة.

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ بثلاثة مفاهيم: أوّلُها أن الأكواب ستكون موضوعة بالقرب من المؤمنين، وحيث إن الكوب يوضع قريبًا من المرء ليشرب به، فيُستنبط من ذلك أن هذه الأكواب ستكون مليئة. وثانيها: أن الأكواب ستوضع قريبا منهم غير بعيدٍ. ثالثها أن الأكواب توضع قريبًا من عيون المياه.

هذه الآية تتحدث عما ينعم به المسلمون من قرب الله تعالى وما يتحلون به من سخاء وكرم.

فجملة "أن الأكواب ستكون موضوعة بالقرب من المؤمنين" إشارة إلى امتلائها، والمراد أن الله تعالى سيسقي المؤمنين كؤوس نِعمه مترعةً ويسقيهم إياها كل حين. والمعنى الثاني أن المؤمنين سيملأون كؤوس فضل الله ومنّته ويضعونها بالقرب منهم ليسقوها كل من يزورهم.. أي أنهم يملأون كؤوس المعارف السماوية ويقدّمونها للناس قائلين تعالوا اشربوها.

أما الجملة الثانية " أن الأكواب ستوضع قريبا منهم غير بعيدٍ" فهي تشير إلى أن نيل العلوم السماوية سيُجعَل سهلاً لهم، فيشفون غليل روحهم بجهد بسيط.

أما الجملة الثالثة، وهي: "أن الأكواب ستوضع قريبا من عيون الماء".. فالمراد منها أنهم سيعلنون أنها دعوة عامة، فليشربها من يشاء.

وكأن الله تعالى يقول:

أوّلاً: أن صدورهم ستُملأ بعلوم السماء.

الثاني: أن معارفهم ستكون واسعةً من أجل الجميع، بحيث لن يحتاج أحد للسؤال عنها.

الثالث: أنهم يملأون الأكواب ويضعونها بالقرب منهم قائلين للناس: تعالوا اشربوها.

الرابع: أن تحصيل علوم السماء سيُجعل سهلا لهم.

الخامس: أن أبواب فيوضهم ستكون مفتوحة للجميع، فمن شاء انتفع بها.

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

نمارق: جمعُ نُمْرُقٍ ونَمْرُقٍ ونِمْرُقٍ ونُمْرُقَةٍ وهي: الوسادة الصغيرة يُتّكأ عليها. (الأقرب)

هناك مسند خاص يسمى عندنا (گاؤتكيه) يوضع لرئيس القوم فقط في البلاد المتمدنة، أما النمارق فهي مساند صغيرة توضع عند جدار المجلس يستند إليها أهله.

التفسير: هذه الآية إشارة إلى أن المسلمين كلهم سيكونون معزّزين، إذ لن يستند بعضهم إلى مساند، بينما يظل الباقون من دونها، بل الجميع يكون لهم مساند.. أي أن الله تعالى سيعزّ هؤلاء القوم كلهم ويشرّفهم.

الحق أن هذه الميزة لم تتوفر كاملة إلا في أصحاب رسول الله ﷺ. من المؤسف جدًا أنه لا يزال بيننا كثيرون لا يرغبون في تحصيل علوم الدين، ويجهلون معارف القرآن إلى حد كبير، بل ليس عندهم رغبة بتعلُّم معارفه. هناك آلاف من سكان قاديان لا يواظبون على حضور هذا الدرس القرآني الذي أقوم به، وإذا جاءوا فلا يسعون لأن يعوا ويحفظوا ما يسمعون، وإذا حفظوه لم يُسمعوه الآخرين. كان محمد رسول الله ﷺ هو وحده الذي أُعطيَ تلك الجماعة من الكُمّل الذين إذا سمعوا له قولاً وعوه وحفظوه ثم بلّغوه الآخرين. لا شك أن في جماعتنا قومًا يسعون ليسمعوا كل أمور الدين كالصحابة ويعملوا بها ويبلّغوها الآخرين، ولكن أصحاب

الرسول ﷺ كلهم كانوا يتحلون بهذه الميزة التي يجب أن نغبطهم كلنا عليها ونسعى للتأسي بها. هذه هي الميزة التي أشار الله تعالى إليها هنا، حيث بيّن أن المسلمين ليسوا قومًا يجلس شخص واحد منهم فقط مستندا إلى مسند كبير، بينما يقف الباقون أمامه باحترام، بل كلهم ينالون العز والجاه والعظمة، مستندين إلى نمارق مصفوفة.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

زرابيّ: هي النمارق والبُسُط، مفردها: زِرْبِيٌّ وزَرْبِيّة. (الأقرب)

مبثوثة: أصلُ البثِّ التفريقُ وإثارةُ الشيء. (المفردات)

كان المراد من قوله تعالى ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أن كل فرد من المسلمين يكون معززًا، وكل القوم يكونون محترمين، وكل منهم يستند إلى مسند وليس أن فردًا واحدًا منهم يعزّ والبقية لن ينالوا الإعزاز؛ أما الآن فقال ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.. أي أن المسلمين سيحظون بهذا التكريم في كل قطر من العالم، ففي كل مكان تكون لهم زرابي مبثوثة، وأهل كل بلد يُعزونهم متأثرين من جاههم ومكانتهم؛ ولذلك قال الله تعالى أولاً ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ثم قال ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، حيث تشير ﴿مصفوفة﴾ إلى أنهم حين يحضرون مجلسًا يلقى كلهم التكريم ولن يصير فيه أحدهم ذليلا، أما ﴿مبثوثة﴾ فليس الحديث فيها عن المجالس، بل تشير إلى أنهم حيثما ذهبوا استقبلهم الناس بفرش السجاجيد، أي رحبوا بهم بحفاوة وأعزّوهم وأكرموهم وتمنّوا أن يزوروا بيوتهم من أجل البركة. إن الناس عادةً يهتمّون بالمظهر فقط، فيظنون أن الاستقبال إنما يكون بمظاهر الفرح والابتهاج من فرش سجاجيد وصنعِ بوابات جميلة وتعليقِ رايات ملونة وما إلى ذلك، والواقع أن الاستقبال الحقيقي لا يكون بفرش السجاجيد، بل بفرش العيون، كما قال الشاعر:

حضرت واعظ جو آئيں ديده ودل فرشِ راه

أي لو جاءني حضرة الواعظ فسوف أفرش له عيني وقلبي.

ففَرْشُ العيون والقلوب للزائر هو علامة تكريمه وإعزازه في الحقيقة، وإليه يشير قوله تعالى ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، إذ ليس المراد هنا الزرابي المادية، لأن الصحابة لم يكونوا يبالون بها مطلقا؛ فعندما دخل الصحابة على مَلِكِ الفُرس مرّوا في بلاطه وهم يثقبون برماحهم سجاجيد كبيرة وغالية، فقال الفرس: ما هؤلاء الهمج الذين يُفسدون سجاجيدنا الغالية برماحهم؟ ولكن الصحابة لم يأبهوا لهم، فقال لهم الملِكُ: ما لكم وللسياسة؟ فلا تُهلكوا أنفسكم بلا داعٍ، بل خُذوا المال وارجِعوا، فهذا خير لكم. وكان يظنّ أن العرب سيفرحون بالمال وينفضون فكرة الحرب من رؤوسهم. والواقع أن الثمن الذي جعله الملِكُ لهم يكشف لنا مدى احتقار الشعوب الأخرى للعرب – ويبدو أن العرب عندها كانوا طمّاعين وإلا فكيف فكّر الملِكُ أنهم سيرضون بالمال – فأمر أن يعطى كل جندي من الصحابة درهمًا وكل قائد منهم درهمين. ولكن الصحابة ردوا على الملِك: أمامنا سبيلان لا ثالث لهما، إما موتك أو موتنا؛ إذ لا يمكن أن يتصالح الإسلام مع الكفر بعد نشوب الحرب. فاستشاط الملك غضبًا وأمَر بإحضار كيس كبير مليء بالتراب، وأمر قائدَ المؤمنين أن يتقدّم، وأمر بوضع الكيس على ظهره وقال له: أما الآن فلا أعطيك إلا هذا الكيس من التراب. وكان الصحابة يظنون أن القائد المسلم سيرفض حمل هذا الكيس باعتباره إهانة له، ولكنه تقدّمَ وحمل الكيس على ظهره، فاستاء أصحابه من تصرُّفه، ولكنه أخذ الكيس وصاح بأصحابه: تعالوا نذهب، فإن مَلِكَ الفرس بنفسه قد وضع أرضه في أيدينا. والمشرك يكون كثير الوهم، فلما سمع الملِكُ قول القائد المسلم امتُقع لونه وسُقط في يده فقال لحاشيته: أَسرِعوا، وائتوا بهم إليّ، ولكن المسلمين كانوا قد خرجوا بعيدًا ممتطين جيادهم، فرجع رجال الملِك خائبين. (البداية والنهاية: فصل في غزوة القادسية)

فترى كم كانت لطيفة ورائعة فكرة القائد المسلم التي لم تخطر ببال الصحابة الآخرين، إذ ظنوا أنه قد أخطأ إذ حمل كيس التراب، ولكن انكشفت عليهم الحقيقة حين هتف بهم.

ثم إن الصحابة ﷺ أجمعين حيثما ذهبوا استقبلهم الناس بحفاوة وتكريم. هناك حادثة تاريخية شهيرة وقعت عند فتح حمص، فإن المسلمين فتحوها أول الأمر، ثم اضطروا لإخلائها لأن العدو أعاد الكرَّة عليهم بجيش أكبر. فلما أرادوا الانسحاب منها خرج النصارى يودّعونهم قائلين: أعادكم الله إلينا مرة أخرى. فترى أن البلد كان للمسيحيين، وكان المسيحيون في حرب مع إخوانهم؛ إذ كان الملك المسيحي نفسه يحاول الاستيلاء على حمص ثانية، إلا أنهم آثروا المسلمين على ملِكهم المسيحيّ، داعين الله تعالى أن يعود بالمسلمين إليهم ثانية. (فتوح البلدان للبلاذري: أمرُ حمص ويوم اليرموك ص ١٣٦-١٣٧ و١٤٣)

باختصار، قد أخبر الله تعالى هنا أنه حيثما يذهب المسلمون سيفرش لهم الناس عيونهم ويرحبون بهم بحفاوة. يا تُرى، ما الذي كتب الفتح للإسلام وجعل المسلمين ينتشرون في كل مكان؟ إنما سببه أنهم كانوا منصفين عادلين، لا يهضمون حقوق الناس. المرء يحارب الأجانب غَضَبًا حين يرى أنهم سيلحقون به ضررًا، ولكن الناس لما أدركوا أن مَلِكَهم الذي هو من أهل دينهم ظالم وأن المسلمين منصفون وأنهم لو جاءوهم حكموهم حكمًا عادلاً، فإنهم لم يحاربوهم، بل عاملوهم بحفاوة وتكريم. فالله تعالى ينبئ هنا أن المسلمين حيثما ذهبوا فسيفرش لهم الناس عيونهم، يقدّم لهم الناس المساند، ويفرشون لهم المفارش والسجاجيد، كما يحصل عند استقبال الحكام والملوك، حيث يدعونهم لأن يقيموا عندهم لا عند غيرهم.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

الإبل: لفظ الإبل يقع على البُعْرانِ الكثيرة؛ وقيل أُريدَ بها السحاب، فإن لم يكن ذلك صحيحًا فعلى تشبيه السحاب بالإبل وأحوالِه بأحوالها. (المفرادت)

مع أن بعض أئمة اللغة ومنهم الكسائي قال: إن الإبل هنا بمعنى السحاب، فقد قال صاحب المحيط: ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا: إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة.

وكنت في البداية أفسّر الإبل بمعنى السحاب بدلاً من الجِمال؛ إذ لم أكن أفهم العلاقة بين الإبل والسماء المذكورة بعدها، ولكن التدبر كشف لي فيما بعد أن الإبل هنا بمعنى الجِمال. ذلك أنني كنتُ أتدبر هذه الآية غاضًّا الطرف عن باقي الآيات، ولكني لما تدبرتها على ضوء سياق الآيات الأخرى وترتيبها تبين لي أن هناك علاقة بين الجِمال والسماء، ولكن لا علاقة للسحاب بالسماء هنا. فقد أصاب صاحب المفردات وصاحب الكشاف حين قالا إن الذين فسروا الإبل هنا بمعنى السحاب فعلى تشبيه السحاب، لأن الجمال أيضا تمشي مرتفعة ومنخفضة كالسحاب. فلوجود الشبه بين مِشية الجمال والسحب قد استعملت كلمة (الإبل)، وإلا فالإبل لا تعني السحاب لغة.

التفسير: في قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾.. ذُكر الموضوع بدءًا من تحت إلى فوق، أما في قوله تعالى ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فمن فوق إلى تحت؛ مما يبين بوضوح أن الحديث في هذه الآيات هو عن موضوعين منفصلين؛ حيث ذُكر الأول من تحت إلى فوق، والثاني من فوق إلى تحت، وإلا فلا نجد أيّ رابط ولا ترتيب في ذكر الإبل والسماء والجبال والأرض بهذا الشكل. المعروف أن الدرجات

تُذكر عادة بترتيبين: مِن فوق إلى تحت، أو مِن تحت إلى فوق. ونرى أن الله تعالى قد ذكر هنا الإبل أولاً ثم السماء، والترتيب هنا مفهوم، حيث نرى أن الموضوع بدأ من أسفل إلى أعلى؛ ثم ذكر الجبال، وهي ليست أرفع من السماء بل ليست بارتفاعها، ثم ذكر الأرض التي ليست أرفع من الجبال. والترتيب الثاني لبيان الدرجات أن يُبدأ بذكر الأعلى ثم الأدنى، ولكن هذا الترتيب أيضًا لا يستقيم هنا، إذ ذُكرت الإبل أولاً، ثم السماء، مع أن الإبل ليست أرفع من السماء، فلا يمكن القول إن الإبل في الأسفل، ثم فوقها السماء، ثم فوقها الجبال، ثم فوقها الأرض. كما لا يستقيم القول إن الإبل أرفع هذه الأشياء، ثم دونها السماء، ثم الجبال، ثم الأرض.

ولكن الترتيب يُذكر أحيانًا بأسلوب آخر أيضا، حيث يُذكر الشيء المتوسط، ثم ما يليه يمينا وشمالا، ولكن الله تعالى قد ذكَر هنا الإبل، ثم السماء، ثم الجبال، ثم الأرض. لو أنه تعالى ذكر أرفع هذه الأشياء أولاً ثم ذكر ما يليه لاستقام الترتيب، ولكن الأمر ليس كذلك أيضا.

إذًا لا يستقيم الترتيب فيما يظهر، ولذلك لم يبق أمامنا إلا أن نعتبر هذه الآيات من دون ترتيب، وهذا خلاف عظمة القرآن، أو نقول إنها تذكر هنا مثاليْن منفصليْن، أُشير في أولهما إلى الموضوع من الأسفل إلى الأعلى، وفي الثاني من الأعلى إلى الأسفل. ففي المثال الأول قد أشير إلى أمر مشترك بين الإبل والسماء، وفي المثال الثاني الأمر مشترك بين الجبال والأرض. وعندي أن هذا هو الصحيح. والإبل هنا بمعنى الجمال، ولكن السماء ليس بمعناها المعروف، بل أريدَ بها السحاب كما في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، إذ تعني هنا السحب أيضا.

كان كفار مكة متكبرين مغرورين بما يتمتعون به من جاه ومكانة ويقولون دائما متباهين: كيف يمكن أن ينتصر علينا المسلمون؟ لقد أشار الله تعالى هنا إلى عادتهم هذه وقال تتباهون بمكانتكم وعزتكم، ولكن الواقع أن مَثَلكم كمَثَل الإبل. لا شك أنها طويلة القامة، ولكنكم تعلمون أنها تُسخَّر لركوب الآخرين دائما. إنها مع سنامها العالي وقامتها المرتفعة وجسمها الكبير وأرجلها الضخمة، تظل دائمًا

تحت الآخرين. فمهما تباهيتم بعزتكم ومكانتكم، إلا أنكم لن تُعطَوا كفاءاتِ الحُكم على الآخرين، بل سيركب الآخرون أعناقكم، شأن البعير الذي يكون عاليَ القامة، ومع ذلك يركب الإنسان ظهره. وإن السماء.. أي السحب.. هي التي ترتفع وتصعد دومًا لا الجِمال، فستَظلّون كالجمال مطايا للآخرين، ولن تستطيعوا الحُكم على الآخرين. أما أصحاب محمد ﷺ الذين هم كالسماء.. أي كالسحاب الذي يغطي الجوّ.. فهم الذين سيستولون على العالم كالسحب. فشتان بينكم وبينهم!

وبالفعل نرى أن العرب منذ قرون طويلة قبل النبي ﷺ لم يكونوا حاكمين على الآخرين، فتاريخهم المحفوظ منذ زمن إبراهيم عليه السلام يكشف أنهم ظلوا محكومين دائمًا، ولم تُكتب لهم الغلبة على الآخرين أبدا. ولكن نفس الشعب الذي ظلّ ذليلا منذ ٢٥٠٠ سنة، ولم تُكتب له الغلبة في أي قطر من العالم، ولم يكن عندهم عقلية الحاكم.. عندما دخل في طاعة الرسول ﷺ وتمسكَ بأهدابه، صعد من الثرى إلى الثريا في لمح البصر، وأصبح فاتحًا للعالم واستولى على الدنيا كالسحب. ولذلك شبّه الله تعالى هنا الكافرين بالإبل مبينًا لهم أنهم رغم كونهم طِوالاً سيظلون مطايا للآخرين، أما المسلمون فهم كالسحاب الذي يتكون من ذرات غير مرئية للعين، ثم يرتفع ويغطي العالم ويروي الناس.

وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٠﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢١﴾

التفسير: وهذا مثال آخر لبيان الموضوع من الأعلى إلى الأسفل، حيث يقول الله تعالى انظروا إلى الجبال كيف هي راسيات في الأرض. وقد ذكر الله تعالى فوائد الجبال في موضوع آخر وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء:٣٢).. أي جعلنا في الأرض جبالاً كي تصبح ثابتة مستقرّة، ولا يهلك أهلها. الواقع أن الجبال هي التي منعت الأرض من حركة غير طبيعية، وإلا لصار عيش الإنسان عليها محالاً. لقد نبّه الله هنا الكافرين تكملة للموضوع السابق إلى

أنكم تظنون أن غلبة المسلمين عليكم مستحيلة لأنكم ذوو قوّة ومَنَعَة وعزّة، وأن إخوانكم في الدين والدم لن يتركوكم ولن يتبعوا المسلمين، فاعلموا أنه خيال فاسد. لا شك أن فيكم أيضا خيرا، ولكن شتان بينكم وبين المسلمين، والدليل عليه أننا جعلنا المسلمين بمشيئتنا جبالاً، وجعلناكم أرضًا، ولا قرارَ للأرض بدون الجبال، إذ لولاها لم تبق الأرض على حالتها. نحن لا ننكر ما فيكم من محاسن، كما لا يمكن لأحد إنكار مزايا الأرض، ولكن لا تنسوا أن الأرض لا يمكن أن تستغني عن الجبال أو تستقر بدونها، كلا، بل إن بقاءها بدون الجبال مستحيل، كذلك ما دام الله تعالى قد جعل المسلمين جبالاً، فخير لكم أن تفترشوا أمامهم افتراش الأرض للسماء. إن الأرض إنما تنتفع من السماء ما دامت خاضعة لها، كذلك من مصلحتكم أن تذعنوا للمسلمين ولا تهبّوا لمقاومتهم.

أما لو طبّقنا هذا المثال نظرًا إلى رفعة الجبال، فالمعنى أن مثلكم ومثل المسلمين كمثل الأرض والجبال، ولن تزول المفاسد من الدنيا الآن إلا بواسطة المسلمين. لا شك أن الأرض تصبح مخضرة نضرة وتخرج أنواع النبات، ولكنها لا تفعل ذلك إلا بمساعدة الجبال، لأنها هي التي تتسبب في نزول الأمطار وجريان الأنهار. فرقيكم منوط الآن بالمسلمين، ولن تنعموا بالراحة بالانفصال عنهم.

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢٢﴾

التفسير: أي أن كل الترقيات والفوائد منوطة بالمسلمين الآن، ولا يمكن للإنسان أن ينال أنواع البركات إلا بالانضمام إلى أمة محمد ﷺ، التي جعلها الله تعالى كالسحاب الذي يسيطر على الأرض، وكالجبال التي تزيل ما في الأرض من فساد، وتمدّ الناسَ بمنافع شتى، فمن واجبكم الآن، أيها المسلمون، أن تدعوا أعداء الإسلام لاعتناقه؛ فماذا ينفعهم لو عاشوا كالجِمال؟ عليهم أن يكونوا كالسحاب أو كالجبال التي تنفع العالم حتى لا يُداسوا كالأرض تحت الأمم الأخرى.

لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

المصيطِر: يُكتب بالسين والصاد، ويقال المصيطر والمتصيطر، ومعناه: الرقيبُ الحافظ؛ المتسلطُ على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. (الأقرب)

إلا مَن تولى وكفَر: الاستثناء هنا منقطع وليس متصلا. والمراد: أما من تولى وكفر رغم النصح فالمسؤولية ليست عليك، سوف يصدّقك ذوو النفوس الطيبة، ولكنا لم نجعلك مسيطرًا لا على المؤمنين ولا على الكافرين.

التفسير: لم يجعل الله تعالى رسوله ﷺ مسيطرا على المؤمنين ولا على الكافرين. إنه ﷺ ليس مسيطرا على الكافرين، لأنه لو أجبر الكافر على الإسلام فلا ينفع الكافرَ إيمانُه ولا ينفع المؤمنين أيضا، لأنه سيُسلِم خوفًا من السيف، فيؤمن بهذا الدين ظاهرًا ويبقى منافقا في قلبه، والمنافق أسوأ من الكافر؛ ولذلك قد نهى الله تعالى نبيّه ﷺ عن إكراه الناس على الإسلام، فقال: لست عليهم بمسيطر مِن قبلنا، ولن ينتفع المؤمنون بإيمان مَن يُكرَه على الإسلام، لأن المنافق سيتسبب في ضعف قوتهم، بدلاً من أن يزيدها.

ولم يجعل الله تعالى رسوله مسيطرا على المؤمنين لأن المرء يفوز برضا الله تعالى بأعمال يقوم بها عن رغبة وشوق. أما الذي ليس في قلبه رغبة للفوز بحب الله تعالى، ولا حماس للعمل بأحكامه تعالى، فإنه يظل بعيدا عن سبل المعرفة والإخلاص، ولو أُجبرَ على القيام بعمل حسن، فلن تتيسر لروحه الطهارة المنشودة، ولن تحظى أعماله بالقبول عند الله تعالى، فلذلك قال الله لرسوله الكريم لم نبعثك مسيطرا على الناس؛ فإن مَن يكفر ولا يرتدع عن سيئاته رغم النصح فاتركْ أمره لنا، لأن جبرك لن ينفعه شيئا. أما المؤمن فعليك أن تزيده رغبةً وشوقا في أعمال الخير لينتفع بإيمانه.

هنا أيضا قد تنبّأَ القرآن بوضوح عن غلبة الإسلام والرسول ﷺ؛ ذلك أن الله تعالى قد أوضح لرسوله أنه ليس عليهم بمسيطر في أوائل البعثة النبوية في مكة، حين

لم يكن لأحد أن يتصور أن الإسلام سينال قوة عظيمة حتى تصبح أعناق الكافرين في قبضة المسلمين، فيفعلوا بهم ما يشاءون. الواضح أن الرسول ﷺ لم يكن يملك أية قوة في مكة حتى يقال له ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾، فثبت أنها نبوءة تتعلق بالمستقبل، وإلا أصبح هذا القول مضحكة؛ إذ لم يكن المسلمون عندها يستطيعون أداء الصلاة علنًا، فكيف يقال لهم هذا في تلك الحالة؟ فثبت من هنا أن هذه الآية كانت نبوءة واضحة أن المسلمين سينالون من القوة بحيث لو أرادوا إكراه الناس على الإسلام لفعلوا، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك.

وقد خطرت هذه النبوءة ببال الكتّاب المسيحيين أيضا، حيث يقول "ويري" في تفسير هذه الآية أن أفكار الحُكم كانت مسيطرة على قلب محمد منذ البداية، فقراءتُه مثلَ هذه الآيات على أهل مكة في الفترة البدائية دليل على أن خطة الحكم كانت مرسومة في ذهنه منذ البداية، وأن مثل هذه الأفكار قد نشأت في قلبه منذ ذلك الحين. (تفسير ويري)

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: إن فكرة الحُكم تنشأ في قلب المرء لأسباب، فما هي تلك الأسباب؟ فكيف يمكن أن تتولد فكرة الحكم في قلب شخص هو هدفٌ للضرب والاضطهاد ولا يستطيع أن يعبد ربه علنًا وبحرية؟ ثم كيف يمكن أن تتحقق هذه الأفكار أيضا؟

الواقع أن هذه نبوءة عظيمة حيث أخبر الله نبيه أنكم لستم بشيء الآن، ولكن سيأتي زمن تصبحون فيه غالبين بحيث تفعلون ما تشاءون، ولكن لا تُكرهوا أحدا على الإسلام حين تُكتب لكم الغلبة، بل اتركوا الناس أحرارًا في أمر الدين. فمن آمن فرحِّبوا به إلى جماعتكم، ومن تولى وكفر فلا تبالوا به.

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي أن الذي يتولى ويكفر سيعذَّب عذابا أكبر، لأنه قد كفر بهدي أكبر. العقوبة تكون بحسب الجريمة دائمًا، فإذا كانت الجريمة بسيطة كانت العقوبة

بسيطة، وإذا كانت الجريمة شديدة كانت العقوبة قاسية؛ وجريمتهم ليست بسيطة، لذا لن تكون عقوبتهم بسيطة، لأنهم قد كفروا بالذي هو أفضل الرسل قاطبة، وشريعته أفضل الشرائع كلها.

إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

إيابهم: آبَ إياباً: رجَع. (المنجد)

التفسير: لقد خُتم بهذه الآية الموضوع الذي بدأ من بداية سورة الأعلى، حيث بين الله تعالى أن كلاً من المؤمن والكافر سيحضر عند الله تعالى بعد إنجاز عمله؛ المؤمنُ بتسبيح الله تعالى والكافرُ بنشر الكفر، ليروا نتائج أعمالهم الأخروية بعد أن شاهدوا عاقبة أعمالهم في الدنيا.

لقد بيّنتُ من قبل أن هناك صلة وثيقة بين سورة الأعلى وسورة الغاشية، ومن الأدلة على ذلك ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ قول الله تعالى في سورة الغاشية ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ قال: اللهم حاسِبْني حسابا يسيرا. (مسند أحمد: مسند ابن عباس ومسند عائشة)؛ وهذا يبين بكل وضوح أن السورتين وثيقتا الصلة من حيث الموضوع عند رسول الله ﷺ، فترديده: "سبحان ربي الأعلى" عند بداية السورة الأولى، و"اللهم حاسِبْني حسابا يسيرا" عند نهاية السورة الأخرى، يبين أن الموضوع الذي بدأ عند سورة الأعلى قد انتهى عند سورة الغاشية.

سورة الفجر

مكية، وهي إحدى وثلاثون آية مع البسملة، وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية. قال صاحب "فتح البيان": هي مكية بلا خلاف في قول الجمهور. وهذا ما روي عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة ﵃ أجمعين.

كان النبي ﷺ يحب قراءة سور الأعلى والغاشية والفجر وأمثالها في فرائض الصلوات. فعن جابر أن معاذ بن جبل صلى بالناس، فجاء شخص وبدأ يصلي وراءه، وأطال معاذ الصلاة، وفي رواية أنه قرأ سورة آل عمران والنساء، فلما طالت صلاته ترك الرجل الصلاة خلف معاذ وصلى وحده في زاوية من المسجد وذهب. فذُكر ذلك لمعاذ، فقال: هو منافق، ثم شكاه إلى النبي ﷺ، فلما علِم الرجل بذلك جاء النبيَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، كان معاذ يصلي بالناس وكنت أصلي خلفه، ونحن أصحاب أعمال، وكانت ناقتي واقفة بدون علف، فتركت الصلاة وراءه وصليت وحدي وخرجت وعلفت ناقتي. فغضب النبي ﷺ على معاذ وقالَ ﷺ: يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ ما الحرج لو قرأت في الصلاة بـــ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى؟ ولماذا تقرأ السور الطوال*؟

* نصُّ ما ورد في الحديث هو: أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوِ النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ، أَوْ أَفَاتِنٌ، ثَلاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ. (البخاري: كتاب الأذان)

لقد تبين من ذلك أن الرسول ﷺ قد اعتبر هذه السور من المتوسطة طولاً، ويمكن للإنسان أن يقرأ السور الطوال في أوقات خاصة، أو يقرأ القصار في مرضه، ولكن هذه هي السور المتوسطة التي تنبغي قراءتها عادة في الصلوات جهرًا.

يرى المستشرقون أن هذه السورة نزلت في السنوات الأولى للبعثة. وهذا هو الصواب عندي. يقول المستشرق الألماني نولدكه: إنها نزلت بعد سورة الغاشية مباشرة (تفسير "ويري"). وقد سبق أن ذكرتُ أن سورة الغاشية نزلت في أواخر السنة الثالثة أو أوائل الرابعة عند هؤلاء الأوروبيين، أي أن سورة "الفجر" نزلت عندهم في النصف الثاني من السنة الثالثة أو النصف الأول من السنة الرابعة. ويبدو أن هذا هو الرأي الصحيح، لأن هذه السور لا تتحدث عن المعارضة المنظمة، بل تشير إلى أن المعارضة قادمة، وهذا يوافق آخر السنة الثالثة وبداية الرابعة؛ أما تفاصيل المعارضة فقد وردت في السور التي نزلت بعد المعارضة، فلا علاقة لها بهذه السورة.

والأمر الثاني هو أن هذه السورة تتحدث عن عيوب الكافرين الخُلقية والشرعية والدينية كإهمالهم رعاية اليتامى وإطعام المساكين وعدم تفقُّدهم أحوال الأرامل وتركِهم العبادة. علمًا أن هذه العيوب تُذكر عن الكفار في أي فترة عادةً، ولكنهم حين يكفرون بالمأمور الرباني ويعارضونه معارضة علنية وشديدة، فلا يكون التركيز على ذكر عيوبهم التفصيلية هذه، بل ينصبّ التركيز عندها على جريمة إنكارهم للنبي، لأنها أكبر جرائمهم وأساسها، كما أن الإيمان بالرسالة أساس جميع الأعمال الصالحة، لأن الناس إذا آمنوا بالنبي صلحت أخلاقهم تلقائيا. الحقيقة أن الكافرين حين يبدأون معارضة النبي بشدّة، فإن جريمتهم هذه تفوق جرائمهم الأخرى، لأن الصالحات كلها تبدأ بالإيمان بالنبيّ. وجريمة إنكار النبيّ تؤدي إلى إنكار الحسنات كلها، ولذلك يتم التركيز عندها على ذكر جريمة إنكار النبيّ؛ لأنّ إصلاح هذا العيب يصلح العيوب كلها. بينما ينصبّ التركيز على بيان عيوبهم التفصيلية في بداية الدعوة وقبل بداية المعارضة الشديدة. لا شك أن هذه العيوب التفصيلية تذكر بعد المعارضة أيضًا، ولكن لا يتم التركيز عليها، لأن أهميتها تنقص بسبب ارتباط إصلاحها بإصلاح العيب الأهم.

طالما رأينا الناس يعترضون على المسيح الموعود عليه السلام بقولهم لماذا يركّز دائمًا على أنه قد تلقى هذا الوحي وذلك الإلهام ولا يركز على غيرها من الأمور والعيوب، فكان عليه السلام يردّ عليهم أن كل العيوب والنقائص تكون نتيجةَ بُعْدِ الإنسان عن الله تعالى، إذ لو كان موقنًا بالله تعالى يقينًا كاملاً لما صدرت منه المعاصي، لذا فإنني أُكثر من ذِكر ما نزل عليّ من وحي متجدد وآيات ومعجزات لكي يتولد بها في قلوب الناس اليقين بالله تعالى، إذ لو تولّدَ في قلبهم اليقين الصادق وآمنوا بي، لزالت عيوبهم الأخرى تلقائيا.

باختصار، قبل أن يعارض الناسُ النبيَّ علنًا ينصبّ التركيز على ذكر نقائصهم الجزئية، فيقال لهم: فيكم كذا وكذا من العيوب، وحين يبدأون معارضته العلنية مدّعين أنهم سيسحقونه مع أَتباعه سحقًا، فينصبّ التركيز على عيبهم الأساسي.. أي ضعْف إيمانهم بكلام الله تعالى، لأنه إذا زال هذا العيب زالت العيوب الجزئية كلها تلقائيا.

وسورة الفجر هذه أيضا تركّز على المعاصي التفصيلية أكثر، حيث قال الله فيها إن الكافرين لا يهتمون برعاية اليتامى وإطعام المساكين، ويريدون أن يجمعوا المال عندهم جمعًا، مما يدل على ضعف إيمانهم، فعليهم أن يصلحوا هذا العيب. وذكرُ العيوب التفصيلية في هذه السورة يوضح أنها نزلت قبل أن تبدأ معارضة النبي صلى الله عليه وسلم على الصعيد الجماعي المنظم، ولذلك لم تركّز على جريمة إنكارهم للنبي صلى الله عليه وسلم بقدر ما ركّزتْ على سيئاتهم الأخرى، ولا سيما تلك التي ستُسفِر عن غلبة الإسلام وهلاكهم عند المواجهة.

إذن، فهذه السورة مما نزل في أوائل البعثة، وحيث إنها تخبر أن المعارضة المنظمة قريبة، فزمنُ نزولها هو أواخر السنة الثالثة أو أوائل السنة الرابعة للبعثة النبوية.

ترتيبها:

قال أبو حيان في "البحر المحيط" لقد تحدثتْ سورةُ الغاشية عن قوم سيلقون الذل والهوان حيث قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. أما هذه

السورة فقد أخبر الله تعالى فيها أن هذه الوجوه هم قوم لا يتفقدون أحوال اليتامى ولا يُطعمون المساكين، بل هم طمّاعون يجمعون المال جمعًا. كما كانت السورة السابقة قد أشارت بقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ إلى قوم ينالون العزة عند الله تعالى، بينما تتحدث هذه السورة عنهم بقول الله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾. (البحر المحيط)

لا شك أن سورة الفجر تتحدث عن هذين الأمرين، كما لا شك أن أحدهما ذو صلة بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. والآخر بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾.. ولكن هذه الصلة قريبة تربط بين السورتين في بعض مضامينهما، ولكن أبا حيان لم يستطع بيان الصلة التي تربط السورتين في جميع مضامينها كحلقات سلسلة واحدة. لا شك أنه فيما يتعلق ببيان الصلة القريبة بين سورة وأخرى فإن أبا حيان قد قام بسعي مشكور، وله نظر ثاقب في هذا المجال، ويتبوء مكانة فريدة بين جميع المفسرين بهذا الخصوص، ولكن يجب أن نعلم أنه إضافة إلى الصلة القريبة بين سورة وأخرى، فتوجد بين سور القرآن وآياته روابط أخرى تجعلها مرتبة مترابطة كسلسلة طويلة من مواضيع واسعة، بحيث تجعل القرآن الكريم في الأخير كعقد منظوم. لقد شبّه النبي ﷺ الوحيَ كصلصلة الجرس (البخاري: بدء الوحي)، وفي هذا إشارة إلى أن الوحي كلام مترابط متسلسل كتسلسل رنّة الجرس. وحيث إن القرآن الكريم أفضلُ من أي وحي آخر، فقد نبّهنا النبيُّ ﷺ بهذا التشبيه إلى أن لا نعتبر القرآن الكريم كلاما بلا ترتيب، كلا، بل هو وحي الله تعالى، وكل جزء منه مرتب ومنظوم بآخر. والعلامة أبو حيان لم يستطع أن ينتبه إلى هذا التسلسل الطويل بين سور القرآن الكريم كما قلتُ، ومع ذلك فإن خدماته بصدد بيان ترتيب القرآن الكريم لخدمات مشكورة جديرة بالتقدير والإشادة، فجزاه الله أحسن الجزاء.

ذكرت آنفا أن هناك نوعين من الصلة بين السور هما: صلة قريبة تربط موضوع الآية الأخيرة من سورة بموضوع الآية الأولى من السورة التالية، ومثاله أننا نسأل الله تعالى الهدى في آخر سورة الفاتحة قائلين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فبدأت

سورة البقرة بقوله تعالى ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وكأن الله تعالى قال في مستهل سورة البقرة: ها هو الهدى الذي طلبتموه في الفاتحة. ومثل هذه الصلة بين السورتين تسمى الصلة القريبة. ولكن السور ترتبط بعضها ببعض في موضوع متكامل متسلسل في عدة سور. والتدبر في السور من هذه الزاوية يكشف أن هناك مجموعات تضمّ خمسًا بل عشر سور تتحدث عن موضوع واحد، ومضمونها متسلسل كحلقات السلسلة. ولقد سبق أن ذكرتُ الموضوعَ الذي يجعل هذه السورة حلقة في سلسلة السور العديدة السابقة، إذ أخبرتُ أن السور السابقة تتحدث عن صدق النبي ﷺ من حيث العهد الأول والعهد الأخير للإسلام، وقد بدأ هذا الموضوع من سورة التكوير، حيث أخبر الله تعالى أن الأدلة على صدق النبي ﷺ لن تتيسر في هذا العصر فقط، بل كلما ضعف الإسلام أتى الله بأدلة صدقه من عنده؛ وفي هذا السياق أخبر ﷻ في سورة البروج عن ولادة بدر عند فساد العالم في الزمن الأخير، إلا أن ولادة هذا البدر كانت تنطوي على شبهة أيضًا، وهي أن نور محمد ﷺ قد يختفي عن الأنظار رغم إضاءته للدنيا، فأزال الله هذه الشبهة في سورة الطارق مبينًا أن هذا الموعود سيأتي باسمَيْن، البدر والطارق، بمعنى أنه يتسبب في ظهور جلال النبي ﷺ ظهورا مباشرا، لا أن يكتفي الناس بالإيمان بالنبي ﷺ بمجرد السماع، كلا بل إن هذا الموعود سينشئ جماعة تحظى بوصال الله تعالى وصالاً مباشرًا، وتشاهد أنوار الرسول ﷺ وبركاته بنفسها. وكأن سورة البروج تشير إلى المسيح الموعود، وسورة الطارق تشير إلى المهدي المبشّر به لهذه الأمة.

ثم بينتُ الصلة الموجودة بين سورتي الأعلى والغاشية بأن النبي ﷺ كان يقرأهما دائمًا في الجمعة والعيدَيْن. وهاتان السورتان تتحدثان عن غلبة النبي ﷺ وغلبة ذلك الموعود معًا، أو يمكن القول إن جزءا من السورتين يتحدث عن الرسول ﷺ وجزءًا منهما يتحدث عن هذا الموعود، وبتعبير آخر قد ضرب الله هنا مثالاً واحدا إلا أنه ينطبق على النبي ﷺ وعلى هذا الموعود أيضا، إذنْ فهذا المثال كسيف ذي حدين حيث يقيم الحجة على أعداء الإسلام في زمن النبي ﷺ وفي زمن هذا الموعود أيضا. وقد بينتُ في هذا

الصدد أن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(الأعلى:٨) يؤكد ضرورة بعثة هذا الموعود أيضا، حيث أخبر الله تعالى فيه أن القرآن في ذلك الزمن سيكون محفوظا بظاهره، ولكنه سيختفي من حيث فحواه ولُبّه، فيحيي الله تعالى معارفه بواسطة ذلك الموعود ثانية، فيعود بلبّه إلى الدنيا مرة أخرى.

كما أن قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ يشير إلى معارضة الإسلام ورُقيِّه في العهدين الأول والأخير، حيث بيّن الله تعالى أنه كلما أتى على الإسلام فترة ضعف، هيأ الله الأسباب لإزالته. ستتم غلبة الإسلام والمسلمين بهذا الطريق، ولا سبيل لرقيّهم سواه. هذا الموضوع يُعاد ويُذكر منذ عدة سور باستمرار، وهكذا تبدو كل سورة مرتبطة بالأخرى.

والصلة العميقة التي تربط هذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة أن كفار مكة سيعارضون الإسلام ويحاربونه ويكيدون ضده كل كيد، ولكنهم لن ينجحوا، بل سينتصر المسلمون عليهم؛ كما بيّن فيها أيضًا أنه كلما جاء على الإسلام وقت عصيب نصره الله تعالى وهزم أعداءه. أما هذه السورة فهي تزيد هذا الموضوع إيضاحا حيث تذكر تفاصيل الأعمال التي يقوم بها أصحاب الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة. ثم تخبر كيف يأتي الله تعالى بذوي الوجوه الناعمة التي لسعيها راضية. والظاهر أن هذه الوجوه الناعمة أو الوجوه العاملة الناصبة لم تكن قد ظهرت حتى السنة الثالثة من البعثة؛ لأن المعارضة المنظمة لم تكن قد بدأت بعدُ من قبل كفار مكة، كما لم يكن أصحاب الوجوه الناعمة الراضية لسعيها معروفين للناس، إذ كان عدد المؤمنين قليلا جدا يُعَدّ على الأصابع؛ ومع ذلك يخبر الله تعالى في هذه السورة عن شدة معارضة الكفار ورقي المؤمنين ورفعتهم كما يخبر كيف أن المسلمين أنفسهم سيفسدون وينحرفون عن الإسلام، وكيف يأتي الله بنصره عندئذ ثانية.

وهنا أجد نفسي مضطرًا لبيان حادث تأييد الله ونصرته الذي وقع معي مؤخرا. هناك مئات بل آلاف من مفاهيم القرآن الكريم التي قد كشفها الله عليّ بفضله الخاص بالإلهام، ومهما شكرتُه ﷻ على هذه النعمة فلن أؤدي حق شكرها. كانت

هناك آيات عديدة غير واضحة بالنسبة إليّ، فأنزلَ الله معانيها على قلبي بوحيه وإلقائه، وهكذا متّعني بعلومه الخاصة. خذوا مثلاً ما علّمني الله تعالى في موضوع ترتيب سورة البقرة. فذات مرة كنت جالسا إذ ألقى الله في قلبي فجأة أن الآية الفلانية هي مفتاح هذه السورة. ولما تدبرتُ فيها انكشف علي ترتيبها كله. كما أخبرني الله تعالى ذات يوم بمفاهيم سورة الفاتحة إلقاءً وإلهاما في الرؤيا، فامتلأ صدري بعدها بحقائق سورة الفاتحة. لقد فهّمني الله تعالى بإلهامه ترتيب عشرات الآيات والسور القرآنية؛ فمن المفاهيم التي كانت خافية عن أعين الناس فكشفها الله عليّ ما بيّنتُه من صلة سورة البروج بسورة الطارق؛ حيث تشير إحداهما إلى المنصب المسيحي والأخرى إلى المنصب المهدوي، فقد ألهمني الله تعالى من الأدلة ما أستطيع به إثبات استدلالي هذا بحيث لن يسع أي منصف بعدها إنكار ما أقول، ولن يكون له بد -عقليًا- من التصديق أن دعواي مبنية على الأدلة، وإن كان من الممكن أن يقول إنه لا يقبل هذه الأدلة.

باختصار، قد كشف الله عليّ بالإلهام معاني آيات عديدة صعبة الفهم، وهناك أمثلة كثيرة كهذه في حياتي، ومن هذه المواقف الصعبة هذه السورة أيضا، فكلما أمعنت النظر فيها لم أطمئن إلى ما ذكر المفسرون الآخرون من معان. لا شك أن المفسرين قد ذكروا لها معاني كثيرة تحلّ كل ما في هذه السورة من معضلات في رأي الناس، ولكنها لم تكن شافية في رأيي. كنت دائم القلق والتفكير بشأنها، وكلما خطر ببالي معنى رفضته بنفسي بعد التدبر والفحص باعتباره غير مستقيم. وأخيرًا وبعد مدة طويلة عندما بدأت إلقاء درس آخر جزء من القرآن الكريم أمام النساء انكشف عليّ جزء من هذه السورة، ولكن لم ينكشف موضوعها كله. كان المعنى الذي انكشف عليّ عندها يرفع نصف سقف مفاهيم السورة لا كله. واستمر بي الحال هكذا وظللتُ غير مطمئن بمعانيها كليًّا. ولما بدأت الآن درس القرآن واجهتْني هذه السورة مرة أخرى، فأخذتُ أتدبر فيها ثانية. لقد بدأت إلقاء درس الجزء الأخير من القرآن الكريم في تموز/يوليو ١٩٤٤ في مدينة دلهوزي، وقد تدبرت في هذه السورة مرارا في هذه الفترة قَلِقًا من اقتراب الدرس وعدم انكشاف المعاني

عليّ بحسب ترتيب السور. كنت أقرأ هذه السورة مرارا وأُجيل النظر في مطالبها، وكلما خطر ببالي مفهوم اعتبرتُه بعد التدبر غير شافٍ ولا كافٍ. باختصار، أجلتُ فيها النظر عشرات المرات بدون جدوى، إلى أن جاء وقت درس سورة الغاشية، وبدأت تدوين ملاحظاتي التفسيرية لها.. ولكن تفكيري كان يتجاوز سورةَ الغاشية إلى سورة الفجر مرة بعد أخرى. كنتُ أرى أن سورة الغاشية مفهومة لي، وإذا جاءت آية صعبة فيها فسوف تنحلّ تلقائيا على ضوء ترتيب السور؛ ذلك أن رامي الكرة يعرف المسافة التي تصلها قبل رميها، كذلك فإن الذي يفسر القرآن الكريم آخذًا في الحسبان ترتيب الآيات والسور تنكشف عليه معانيها تلقائيا على ضوء هذا الترتيب، ولكن هذا لا يتيسر إلا لمن أنفد عمره في هذا الفن، إذ يعرف مجرى نهر معاني السورة وجهة انحدار هذا الماء. أما مَن لم يتيسر له التدبر في القرآن الكريم على هذا النحو فلا يمكن أن يدرك هذه الأمور. فمثلا عندما كنت أكتب تفسير سورة الكهف لم أستطع فهم قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾(الكهف:٢٤-٢٥) على ضوء السياق، فقلت في نفسي أثناء كتابة تفسيرها سأتّبع الترتيب الطبيعي للآيات، وعندما أصل إلى هذه الآية فسأفكر في مفهومها على ضوء هذا السياق والترتيب؛ فظللت أكتب تفسيرها بحسب السياق والترتيب إلى أن وصلتُ الى هذه الآية، فانكشف عندها مفهومها عليّ بحيث أدركتُ أنه لا يمكن تفسيرها بأي معنى آخر، لأن سياق الآيات السابقة تضطرك للأخذ به. والطريف في الأمر أن المولوي شير علي المحترم -الذي كان يُعدّ ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية- بعث إليّ بملحوظاته حول هذه الآية لأقوم بتوثيقها، فوجدتُ أنه كتب نفس المعنى الذي ذكرتُه لها. علمًا أنه لم يكن قد كتب هذه الملحوظات التفسيرية في قاديان، بل في إنجلترا، فسألتُ "مَلِك غلام فريد" المحترم ما إذا كان المولوي "شير علي" قد أعدَّ هذه الملحوظة في الماضي أم عدَّها الآن. فقال: قد أعدّها في إنجلترا. فقلتُ: إذا كان قد أعدّها في إنجلترا، فكيف وصل إليه هناك معنى هذه الآية؟ إذ تدبّرتُها كثيرًا و لم أعرف تفسيرها إلا عند كتابة تفسير الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم! فقال لي: لقد سبق أن ذكرتَ هذا

المعنى نفسه في دروسك عام ١٩٢٢، وقد أخذه المولوي شير علي المحترم من ملاحظاتك التفسيرية عندها.

يبدو أنني لما وصلتُ إلى هذه الآية أثناء درسي في عام ١٩٢٢ انكشف عليّ معناها تلقائيا، وحيث إنه انكشف عليّ تلقائيًا يومها، فلم أسجله على هامش مصحفي، ونسيته بعد فترة. ولما وصلتُ الآن إلى هذه الآية أثناء تدبري الآيات بحسب ترتيبها انكشف عليّ معناها نفسه فجأة مرة أخرى. فثبت أن من يعتاد تفسير الآيات حسب ترتيبها وسياقها لا ينحرف عن المعنى الصحيح، بل يجري مع هذا التيار وفي نفس الجدول الذي يشير إليه الموضوع بلسان حاله.

باختصار، كلما اقترب موعد درس سورة الفجر ازددتُ قلقًا، وقلت في نفسي: كيف يمكن أن أُطَمئِن الآخرين بتفسير هذه الآية، وأنا غير مطمئن به؟ كان بوسعي أن أذكر المعاني التي ذكرها المفسرون، ولكن تفسير هذه الآية كان لا يستقيم تمامًا بحسب الترتيب الذي كنت أراعيه لدى تفسير السور السابقة. ففكرتُ أن أذكر للناس المعاني التي ذكرها الآخرون، لأن هذا الدرس كان سيُطبع على شكل كتاب عن قريب؛ فحتّامَ أنتظر انكشاف المعاني التي تنسجم مع السياق؟ فلعل الله يكشفها عليّ يوما ما. لقد قام المفسرون السابقون مثل الرازي وصاحب البحر المحيط والخليفة الأول بتفسير هذه الآيات، لو ذكرتُ كل ما ذكروه من معانيها أصبح الأمر مقبولا. ولكن كان قلبي يقول أن تلك المفاهيم لا تنطبق هنا تمام الانطباق بالنظر إلى سياق الآيات وترتيبها.. فلم أطمئن بذِكرها. إلى أن جئتُ إلى "المسجد المبارك" لإلقاء درس سورة الغاشية يوم الأربعاء وهو ١٧ من شهر الصلح ١٣٢٤من التقوم الهجري الشمسي✪ الموافق ١٧ كانون الثاني/يناير عام ١٩٤٥

✪ التقويم الهجري الشمسي هو تقويم ابتكره حضرة المفسر ﵁ في عام ١٩٤٠، وهو تقويم شمسي يبدأ من هجرة الرسول ﷺ بدل أن يبدأ بميلاد المسيح ؑ. وقد بنى حضرته ﵁ أسماء الأشهر على أحداث بارزة في سيرة النبي ﷺ، فجعل كل حدث مميز في سيرته ﷺ اسمًا للشهر الذي وقع فيه الحدث. وهذه الأشهر هي: الصلح (إشارة إلى صلح الحديبية)، التبليغ (إشارة إلى رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العالم)، الأمان (إشارة إلى خطبة حجة الوداع)، الشهادة (إشارة إلى

الميلادي. لقد جئت لإلقاء درس سورة الغاشية، وبالي مشغول في سورة الفجر. وفيما أنا في هذا التفكير العميق بدأتُ أصلّي بالناس صلاة العصر، وقلبي مثقل بهذا التفكير. ومن عجائب قدرة الله تعالى أنه فيما أنا أرفع رأسي من السجود الأخير بحيث لم يكن رأسي قد ارتفع عن الأرض أكثر من شبر إلا وانحلّتْ عليّ سورة الفجر في لمح البصر. والغريب أنني قد مررت بمثل هذه التجربة مرارا من قبل أيضا حيث كشف الله عليَّ معاني بعض الآيات الصعبة وقت السجود، خاصة في السجود الأخير من الصلاة. ولكن التفهيم الذي تلقيتُه هذه المرة كان رائعًا جدا، إذ كان حول موضوع صعب وواسع جدا. فلما سلّمتُ من الصلاة، قلتُ بصورة عفوية وبصوت عال: الحمد لله.

 ﴿١﴾

وَالْفَجْرِ ﴿٢﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٣﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٤﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

يَسْرِ: أصلُه يسري. سرى يسري: سارَ عامَّةَ الليل. (الأقرب)

استشهاد ٧٧ صحابيا غدرًا في الرجيع وبئر معونة)، الهجرة (إشارة إلى الهجرة النبوية)، الإحسان (إشارة إلى إطلاق سراح قبيلة طيء تقديرا لذكرى كرم حاتم الطائي الذي اشتهر بالكرم)، الوفاء (إشارة إلى وفاء الصحابة للنبي ﷺ في ذات الرقاع)، الظهور (إشارة إلى معركة مؤتة التي كانت علامة أولى على بدء ظهور الإسلام)، تبوك (إشارة إلى غزوة تبوك)، الإخاء (إشارة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، النبوة (إشارة إلى البعثة النبوية)، الفتح (إشارة إلى فتح مكة). ندعو الله تعالى أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه هذه الأشهر رائجة في العالم، وأن تظل أحداث السيرة النبوية نبراسًا لكل مؤمن. (المترجم)

التفسير: قبل ذكر المعاني التي فهّمني الله تعالى إياها بإلهام منه أود ذكر المعاني التي ذكرها الآخرون، ليعرف الإخوة المشاكل التي واجهتني، وأنها كانت مشاكل بالفعل. لو أني بيّنتُ معاني هذه السورة بدون انشراح الصدر -الذي هو متيسر لي الآن- لم تطمئن نفسي بها. وما أُبيّنه الآن يتعلق بالآيات الأربع التالية: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

لقد أقسمَ الله تعالى هنا بأربعة أنواع من الأقسام: والقَسَم معناه الشهادة، وقد بينتُ هذا الموضوع من قبل مفصّلا ولا داعي لإعادته. يقول الله تعالى هنا: أقدّم كشهادة الفجرَ، والليالي العشر، والشفع والوتر، وأخيرًا الليل حين يسري.

السؤال هنا: ما الذي أقسم الله به كشهادة، وعلامَ؟ فما هو الفجر، وعلامَ قُدِّم كشهادة؟ وما هي الليالي العشر وعلامَ قُدّمتْ كشهادة؟ وما هو الشفع والوتر وعلامَ قُدّم كدليل؟ وما هو الليل الذي سيسري ويذهب، وعلامَ قُدّم كشهادة؟

الفجر:

أما الفجر فمعروف، وهو الصبح الذي يأتي بعد الليل. قاله علي، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي.

وعن مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب: المراد به فجرُ يوم النحر خاصة. (ابن كثير).. أي أنهم أيضًا يعنون بالفجر الصبح، ولكن ليس كل صبح، بل صبح العاشر من ذي الحجة.

وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تُفعَل عنده، كما قاله عكرمة.. وهذا يعني أن عكرمة أيضا فسّر الفجر كما فسّره مسروق ومحمد بن كعب ومجاهد، والفرق أنهم يعتبرون الفجر موعد فجر العاشر من ذي الحجة، أما عكرمة فيرى أن المراد منه صلاة الفجر نفسها في ذلك اليوم، أو يرى أن المراد من الفجر هو صلاة التهجد في ذلك اليوم. وقيل: المراد بالفجر جميع النهار، وهي رواية عن ابن عباس؛ وهذا يعني أن المراد من الفجر هنا العاشر من ذي الحجة كله.. أي يوم العيد كله. (ابن كثير)

وليالٍ عشر:

والسؤال هو ما المراد من الليالي العشر؟

قال ابن عباس: المراد بها عشرُ ذي الحجة.. أي الليالي العشر التي قبل العيد من هذا الشهر.

وهذا ما قاله أيضا ابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "ما من أيامٍ العملُ الصالح فيهن أحبُّ إلى الله من هذه الأيام" (يعني عشر ذي الحجة)، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء." (ابن كثير والبخاري والترمذي)

وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر ابن جرير. (ابن كثير)

وعن ابن أبي ظِبْيان عن أبيه عن ابن عباس: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان. (ابن كثير)

فهناك ثلاثة آراء عن الليالي العشر:

الأول: إنها الليالي العشر قبل العيد من ذي الحجة.

الثاني: إنها الليالي العشر الأوائل من محرم.

الثالث: إنها الليالي العشر الأوائل من رمضان.

وعن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: "إن العَشر عَشْرُ الأضحى (أي أنه ينسب إلى النبي ﷺ أنه قال إن الليالي العشر هي العشر الأوائل من ذي الحجة قبل عيد الأضحى)، والوَتْر يوم عرفة (لأنه في اليوم التاسع من ذي الحجة)، والشفع يوم النحر (أي يوم العيد)". (نقله ابن كثير عن الإمام أحمد).

"ورواه النَّسائي عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله كل منهما عن زيد بن الحباب به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به. وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم". (ابن كثير)

وهذا يعني أن هذا الحديث قد روي في أربعة من كتب الحديث عن زيد بن الحباب، وإن كان هناك اختلاف في الرواة الآخرين دونه، وهذا يُعتبر من روايات الآحاد. ويقول ابن كثير وهو عالم كبير في الحديث بعد نقل هذه الرواية أنه يشكّ

في رفع هذا الحديث إلى الرسول ﷺ، أي أن رفع هذا الحديث إلى الرسول ﷺ ليس بالأمر اليقين.

والشفع والوَتْر:

"الوتر يومُ عرفة، لكونه التاسع، والشفع يومُ النحر لكونه العاشر. وقاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضا. (ابن كثير).

"وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدّثني عقبة بن خالد، عن واصل ابن السائب قال: سألتُ عطاء عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قلتُ: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا ولكن الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى. (ابن كثير)

يبدو أن الراوي قد أخطأ هنا، أو أن ابن كثير قد أخطأ عند النقل لأن يوم عرفة ليس شفعًا، بل هو وتر، لأنه اليوم التاسع؛ وليلة الأضحى ليست وترا، لأنها الليلة العاشرة.

"وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثني أبي، عن النعمان -يعني ابن عبد السلام- عن أبي سعيد بن عوف، حدثني بمكة قال: سمعتُ عبد الله بن الزبير يخطب الناس، فقام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرْني عن الشفع والوتر. فقال: الشفعُ قولُ الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والوترُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. (ابن كثير)

المراد من قوله (يخطب الناس).. أي يخطب في الناس في مكة أيام خلافته. والمعروف أن عبد الله بن الزبير قد رفض بيعة يزيد وأعلن خلافته في مكة. كان عبد الله حفيدا لأبي بكر رضي الله عنه وابنًا للزبير بن العوام، وكان صحابيا جليلا عابدا، وقد اعتبره كثير من الناس مجدد القرن الأول، والبعض الآخر مهديا.

أما قولُ الزبير: "الشفعُ قولُ الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والوترُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾" فيعني به أن الله تعالى قد بيّن في القرآن الكريم أنكم إذا ذهبتم إلى الحج فلكم أن تقيموا بعد ذلك ليومين أو تتأخروا فتقيموا ثلاثة؛ فالشفع والوتر إشارة ليومين أو ثلاثة يقيم فيها الحاج في الحرم.

وقد نقل ابن جرير أيضا هذا القول لابن الزبير.

وعن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ﷺ: "إِنَّ لِلَّه تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَزَادَ هَمَّامٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ". (مسلم: كتاب الذكر والدعاء)

والمفهوم الحقيقي لهذا الحديث أن مطالعة الإنسان صفاتِ الله تعالى بتدبُّرٍ وعمقٍ تجعله تقيًّا حقًّا، لأن التقوى إنما تعني انعكاس صفات الله في الإنسان، والذي يضع جميع صفات الله في حسبانه فلا يمكن أن يُهمل أي صفة حميدة، ومن لم يغضّ الطرف عن أي صفة حسنة وعمل بكل خير فلا يبقى شك في دخوله الجنة.

"قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخَلق كلهم شفعٌ، ووَترٌ؛ أقسمَ تعالى بخَلقه. وهو رواية عن مجاهد." (ابن كثير)

وقال العَوفي عن ابن عباس: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الله وترٌ واحد، وأنتم شفعٌ. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. (ابن كثير)

قال ابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الشفعُ الزوجُ، والوترُ اللهُ عز وجل (ابن كثير).. أي أن الشفع إشارةٌ إلى قوله تعالى أنه ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾.

"وقال أبو عبد الله عن مجاهد: الله الوتر، وخَلْقُه الشفعُ: الذكر والأنثى". (ابن كثير)

وقال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد: قوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: كل شيء خَلَقَه اللهُ شفْعٌ (ابن كثير).. ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. (ابن كثير)

"قال قتادة عن الحسن: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو العدد، منه شفْعٌ ومنه وترٌ (ابن كثير).. يعني الواحد وترٌ والاثنان شفعٌ والثلاثة وترٌ والأربعة شفعٌ وهكذا.

"قال ابن جرير: عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: "الشفعُ اليومان، والوترُ اليومُ الثالث" (ابن كثير).. أي أن الشفع والوتر إشارة الى قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. ثم يقول إن رواية عبد الله بن الزبير

تتعارض مع روايته الأخرى التي قال فيها إن النبي ﷺ قال: الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة.

"قال أبو العالية والربيع بن أنس: هي الصلاة، منها شفْعٌ كالرباعية والثنائية، ومنها وتْرٌ كالمغرب فإنها ثلاث، وهي وتْر النهار؛ وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. (ابن كثير)

وقد نقل روايةَ عمرانَ بن الحصين الإمامُ أحمد: الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ قَالَ: هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُهَا شَفْعٌ وَبَعْضُهَا وَتْرٌ. (مسند أحمد)

هذه ثالث رواية نُسبت إلى الرسول ﷺ، ولكنها خلاف الروايتين الأوليين.

وقد وردت هذه الرواية في الترمذي وابن جرير عن رجال آخرين، كما رواها أبو داود. (ابن كثير)

والليل إذا يسرِ:

قال ابن عباس: وقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.. أي إذا ذهب.

ويقول ابن كثير: يمكن أن يراد به (والليل إذا أتى). وكأنه قَسمٌ بإقبال النهار وإدبار الليل. وهذا يعني أن ابن كثير يرى أن الآية تتحدث عن ذِكْر إقبال الليل، لأن إدبار الليل مذكور في قوله تعالى ﴿والفجر﴾، إذ يأتي الفجر بعد إدبار الليل دائما، وإلا فيصبح هذا تكرارا عبثا لا يليق بالقرآن الكريم. وقد ذُكر إقبال الليل أيضا في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فثبت من ذلك أن القَسم بالليل والصبح جائز. وقال الضحاك: والليل إذا يسر: أي يجري.

ملحوظة: هذه الأقوال كلها منقولة من تفسير ابن كثير.

هذه أقوال وآراء مختلفة نجدها في التفاسير حول هذه الآيات، وثلاثة منها منسوبة إلى الرسول ﷺ:

أولها: الشفع يوم النحر، والوتْر يوم عرفة.

وثانيها: "الشفع اليومانِ، والوترُ اليومُ الثالث".. أي أن الشفع والوتر إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وثالثها: الصَّلاةُ بَعْضُهَا شَفْعٌ وَبَعْضُهَا وَتْرٌ.

إن اختلاف هذه الروايات فيما بينها يدل أن رَفْعَها إلى النبي ﷺ خطأٌ تماما، إذ كيف يمكن أن يقول الرسول ﷺ هذه الأقوال المتباينة في شرح ﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾. يبدو أن هذه آراء الرواة أنفسهم الذين ظنوا بسبب بعض الأحاديث ذات الوجوه المختلفة أن الرسول ﷺ ربما أراد بالشفع كذا وبالوتر كذا، فاختلفوا فيما استنبطوا، فلا يمكن نسبة أي من هذه المفاهيم إلى الرسول ﷺ بصورة قطعية. والدليل ما يلي: عن طلحة بن عبيد الله أنه دخل هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن على ابن عمر؛ فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله في القرآن؟ فقال ابن عمر: وما يدريك؟ قال: ما أشكّ، قال: بلى، فاشْكُكْ. (مسند أحمد، والنسائي، والحاكم، وفتح القدير، والدر المنثور)

لقد تبين من ذلك بوضوح أن الصحابة كانوا يعتبرون تفسيرهم للآيات رأيا شخصيا، وتصديق الآراء الشخصية ليس صحيحا. فلو أن الرسول ﷺ قد قال قولاً كهذا لما قال عبد الله لطلحة وهو يشير إلى قول الرسول ﷺ: بلى؛ فاشكُكْ.

الواقع أن هناك أحاديث عديدة عن فضل الليالي العشر من ذي الحجة، فنحن لا ننكر أنها ذات بركة وأهمية بحسب قول الرسول ﷺ، ولكن لم يرد في أي حديث أن المراد من ليال عشر هي هذه الليالي من ذي الحجة.

أما أقوال الناس عن الليالي العشر فهي كالآتي:

أولا: الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة.

ثانيا: الليالي العشر الأوائل من محرم.

ثالثا: الليالي العشر الأوائل من رمضان.

رابعا: الليالي العشر الأواخر من رمضان.

ثم هناك اختلاف كبير حول تحديد معنى الشفع والوتر أيضا، فبعضهم يقول هي الصلاة، وبعضهم هي العدد. ولو أخذناها بمعنى الصلاة أو الأعداد فلا خصوصية لليالي العشر بذلك، مع أن هذه الليالي مذكورة قبل الشفع والوتر. ورواية ابن عباس التي ذكرها في الأخير هي أنها الليالي العشر من رمضان، قد بنا عليه أحد

المفسرين المعاصرين قائلا: أن الشفع والوتر هي ليلة القدر والليالي التسعة الأخرى، أو الوتر هو أول ليلة من هذه الليالي والشفع بقية الليالي. (بيان القرآن)

ودراسة هذه الآراء تكشف أنه ليس هناك بهذا الشأن قول ثابت من الرسول الكريم ﷺ الذي جاء بالشرع. وثانيا هناك اختلاف كبير بين آراء الصحابة أيضا، مما يدل بوضوح أنهم يفسرونها باجتهادهم فحسب، واجتهاد الصحابة ليس بأمر يقين، إذ قد فسر صحابي واحد الآية بقولين متعارضين أو ثلاثة. لا شك أنه لا ضير لو فسر المرء الآية حتى بأربعة معانٍ متجانسة غير متعارضة، ولكنه لو فسّرها بمعانٍ متعارضة، فلا بد من رفضها كلها، إذ فيه دليل على أنه لم يكن مطمئنا بها ومنشرحا لما قال، بل مال مرة إلى معنى وأخرى إلى آخر، وظن تارة أن هذا المعنى صحيح، وتارة اعتبر الآخر صحيحا. فاجتهاد الصحابة بهذا الشأن ليس قطعيا كما قلت، والدليل على ذلك قول ابن عمر لطلحة كما أشرتُ إليه من قبل. لا شك أن ابن عمر كان يفسر هذه الآية بمعنى، فلما سمع طلحة يجزم أن المراد من ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو الليالي العشر من ذي الحجة أخذته الحيرة فسأله عن الدليل الذي جعله يجزم بهذا المعنى. لا شك أن البعض يدعي أن أكثر السلف فسروا (ليال عشر) بمعنى الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة فقط، ولكن قول ابن عمر لطلحة المذكور آنفًا يدل على أن ما قالوه بهذا الشأن هو مجرد اجتهاد فقط؛ ذلك أن ابن عمر لم يكن منكرا للدين حتى يُفهَم من قوله هذا أنه يريد تشكيك طلحة في صدق الإسلام، وإنما المراد من قوله لطلحة كيف تجزم أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةٌ إلى الليالي العشر من ذي الحجة يقينا، إنه طريق غير صحيح؛ تعالَ أحوِّلْ يقينك هذا إلى الشكّ بقوة أدلتي. فقول ابن عمر هذا دليل على أن السلف قد فسروا هذه الآيات بناء على اجتهاداتهم فقط، والاختلاف الشديد بين آراء الصحابة وأقوال التابعين يشهد على هذه الحقيقة.

وقد يقول قائل هنا: صحيح أن هناك اختلافات شديدة بين هذه الأقوال، ولكن لماذا لا نرجح بعضها لحسم القضية؟ ما دمنا سنفسر الآية بالاجتهاد فقط، فلماذا لا

نعتبر أحدها صحيحا؟ لماذا نرفضها كلها؟ إن الطريق لدفع هذا الاختلاف أن نرجح أحد الأقوال.

هذا الحلّ كان ممكنًا لو حُلّت به دلالات هذه الآيات، ولكن الأمر ليس كذلك. فنحن نرى أن أكثرهم مالوا إلى أن (ليال عشر) هي الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة، ولكنهم لم يذكروا – لدى هذا التفسير – تأويلا معقولا لقوله تعالى ﴿والفجر﴾. لو أن الله تعالى ذكر هنا (ليال عشر) فقط، لقلنا –مثلهم– إنها الليالي العشر الأوائل من ذي الحجة، ولكنه تعالى قال معها وقَبْلَها ﴿والفجر﴾ حيث قال ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. أي نقدم الفجر كشهادة ونقدّم معه ﴿ليال عشر﴾ كشهادة. فلو كان المراد هنا الليالي العشر من ذي الحجة، فالسؤال: ما هو المراد من الفجر هنا؟ لو كان المراد آخر فجر الليالي العشر، فالسؤال: ما هو الأمر الذي استُشهد بالفجر عليه؟ وما هو الحكم الشرعي الهام الخاص بصبح الليلة العاشرة من ذي الحجة، حتى يشكل شهادة على قدرة الله أو على صدق دينه؟ ثم ما الحكمة من مجيء الفجر بعد الليالي العشر وقد ذُكِر قبلها؟ لو ذكرت هنا ليال عشر فقط اعترفنا بدون تردد أن الله تعالى قد ذكر هذه الليالي لأنها تشير إلى واقعة تضحية إبراهيم عليه السلام حيث وعده الله وعدًا فوفّاه، ووهب لابنه حياة وأقام بذلك آية أبدية للدنيا. هذا الحادث كان عظيم الشأن، وقد أثبت الله به للعالم أنه يفي ما يعد به عبادَه رغم الظروف غير المواتية، فيكتب لهم العزة والفلاح في الدنيا. لقد أسكن إبراهيم عليه السلام ابنه بأمر الله تعالى في واد غير ذي زرع، حيث كانت حياته مهددة بالخطر في كل لحظة، متوكلاً على ربه الذي أخبره سلفًا أن تضحيته هذه لن تضيع هدرا، بل سيجعل الله مكة موئلا للخلائق ويجعل هذه الآية دائمة أبدية إلى يوم القيامة. لو احتفلنا بهذه الواقعة فلا شك أنه ابتهاج بالدليل القوي على قدرة الله تعالى، ولو قدمنا هذا الحادث أمام العالم، فالأحمق وحده الذي ينكره ويقول إنه ليس دليلا على جلال الله وعظمته. لو كان هنا ذكر (ليال عشر) فقط سهل الأمر جدا، وقبلتُ بدون تردد أنْ المراد هنا الليالي العشر من ذي الحجة لأنها

تشير إلى تضحية إبراهيم العظيمة التي قدّمها بإذن الله تعالى. ولكن القضية أن الله تعالى قد ذكر هنا الفجر أيضًا مع الليالي العشر.

ولو قيل إن المراد من الفجر فجرٌ آخر، فيجب أن يخبرونا أي فجر هو! ولو قالوا إنها فجرُ آخر ليلة من الليالي العشر، فالسؤال ما هي الخصوصية في هذا الفجر حتى يذكره الله على حدة؟ ثم لماذا ذُكر الفجر قبل الليالي العشر؟ إن فضل الليالي العشر أمر مفهوم، إذ ينوي فيها المرء تقديم هذه التضحيات، ثم يهيئ الأسباب حسب نيته، ثم يحين وقت هذه التضحية، وعليه فلو اعتبرنا كل هذه الأيام مباركة بدلاً من يوم النحر فلا حرج في ذلك، ولكن السؤال: ما هي الميزة التي توجد في فجر آخر هذه الليالي العشر حتى نقدّمه أمام الكفار ونقنعهم أن هذا الفجر آية عظيمة على قدرة الله؟ هذا أمر لم يذكره أي من المفسرين و لم أفهمه أنا أيضا. لا شك أن في الليالي العشر آية يمكن تقديمها أمام الكفار بالأدلة، ونقنعهم بها بقدرة الله، ولكن لا نرى في هذه الحالة أي صلة بين (ليال عشر) و(الفجر).

ومع أن المفسرين يفسرون (وليال عشر)، لكنهم لا يبيّنون معه المراد من (الشفع والوتر) اللذين اعتبرهما الله آية وقدّمهما هنا كشهادة. يجب أن يكون في (الشفع والوتر) ما يُقدَّم كدليل على وجود البارئ تعالى، أو ما يمكن تقديمه للناس كشهادة على آية من آيات الله. أما قولهم إن (الشفع والوتر) إشارة إلى قول الله تعالى بأنه يمكنكم أن ترجعوا من مِنى بعد يومين أو ثلاثة، فيجب أن نتذكر أن هذا حُكم رباني وليس آية ومعجزة، أو دليلا على قدرة الله؛ فكيف يكون في الحُكم المجرد حجة على الكافرين؟ وعندي لو عُرض هذا الأمر على أشد الناس سفاهةً لضحك وقال: أي دليل في هذا على وجود الله وعلى قدرته؟ وما هو الشيء الخاص في الإقامة هنا ليومين أو ثلاثة أيام حتى يستشهد الله به مقسمًا؟ يجب أن لا ننسى أن الله تعالى لم يَذْكر هنا الشَّفْع والوتر ذِكرًا عاديًّا، بل قال إننا نقسم بالشفع والوتر، مما يدل أن هناك شفعًا يكون حجة على الكفار، وأن هناك وترًا يكون حجة عليهم، أو أن الشفع والوتر معًا سيكونان حجة على الكفار. ولكن هذه الأمور الثلاثة لا توجد في أي شفع ولا وتر من العشر الأواخر من ذي الحجة.

ثم هناك اعتراض آخر يرِد على المعنى الذي ذكره المفسرون ونسبوه إلى الرسول ﷺ، حيث يذكرون فيه الوتر قبل الشفع، مع أن القرآن ذكر هنا الشفع قبل الوتر إذ قال ﴿والشَّفْع والوَتْر﴾.

ثم إنهم فسّروا الشفْع بمعنى العاشر من ذي الحجة، والوتر بمعنى التاسع منه، والجميع يعرف أن عدد التاسع قبل العاشر.. أي أنهم يعكسون الترتيب القرآني حيث ورد الشفع أولاً ثم الوتر لكنهم يذكرون الوتر أولاً والشفع بعده. كما أنهم لم يذكروا أي سبب لهذا التقديم والتأخير.

وقد يقول قائل إن هذا التقديم والتأخير من أجل الوزن، ولكنا لسنا لنقبل أن القرآن يقدم ويؤخر من أجل الوزن والسجع فقط. فما داموا قد قدّموا الوتر على الشفع فيجب أن يأتوا بدليل، ولكنهم لم يأتوا به.

ثم هناك سؤال آخر: ما المراد من قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.. إذا كان المراد من الليالي العشر.. العشر من ذي الحجة، فما هو هذا الليل الذي قيل عنه إنه يسري؟ الليل يكون ما بين المساء والصبح، وما دامت هذه الليالي مذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ فما هو هذا الليل الجديد الذي قيل عنه أنه يسري أو أنه يأتي؟ أو أي ليل هو من بين هذه الليالي العشر حتى أُشيرَ إليه خاصةً؟ وإذا كان هذا الليل واحدًا من الليالي العشر، فلماذا ذُكر منفصلاً بعد ذِكر الشفع والوتر؟ لماذا فُصل خاصة عن الليالي العشر بإيراد الشفع والوتر بينهما؟ ثم ما دام الله تعالى قد ذكر ﴿ليال عشر﴾ من قبل، فهذا تضمن ذكر انقطاع تلك الليالي العشر، بل قد ذُكرتْ من قبل كلمة ﴿الفجر﴾ أيضا التي تشير إلى انقضاء هذه الليالي، فلماذا قال الله تعالى مع ذلك: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟ ولو قيل في الجواب: المراد منه: والليل إذا أتى، فيصبح الأمر أكثر طرافة، لأن الليالي العشر أتت وذهبت، فلماذا بدأ الله الحديث مرة أخرى عن الليلة الأولى منها بعد الانتهاء من ذِكرها، بل وبعد الحديث عن أيام مِنى بقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾؟ لو كان مجيء هذه الليلة الأولى آيةً فقد جاء ذكر هذه الآية ضمن الليالي العشر، وإذا كانت في الليالي العشر آية فقد انتهى ذكرها إذ بدأ بعدها الحديث عن الشفع والوتر؛ فلماذا ذُكرت الليلة الأولى منها مرة أخرى؟ ولو قيل أنها

ذُكرت لإعادة موضوع الفجر فالسؤال: ما هو الأمر الذي لم يُذكر في قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ حتى أُشير إليه بقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟

ثم السؤال: إذا كان المراد من هذا الليل أول ليلة من الليالي العشر من ذي الحجة، فما هي الخصوصية في فجر أول ليلة منها؟ قال البعض إن المراد هنا هو فجر آخر ليلة منها. ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا، إذ لا قيمة أن يكون الفجر هو فجر الليلة الأولى أو الأخيرة منها. إنما السؤال هنا: ما هي خصوصية تلك الليلة حتى تُذكر ذكرًا منفصلا؟ وما هو الأمر الخاص في فجر أول ليلة وآخر ليلة من ذي الحجة الذي يمكن أن تقام به الحجة على الكافرين؟ أو يكون دليلا على قدرة الله تعالى؟ ما دام القَسم لتقديم الشهادة على شيء فما هو الأمر الخاص الذي استُشهد عليه بفجر أول ليلة وآخر ليلة من هذه الليالي؟ وما هو الأمر الخاص الذي تشهد هذه الليالي عليه؟ لقد قلتُ من قبل إننا لو اعتبرنا هذه الليالي دليلا على صدق إبراهيم عليه السلام بسبب أيام الحج فيها، لكان ذلك معقولا، ولكن يبقى السؤال في مكانه، علامَ يشهد فجر الليلة الأولى أو الأخيرة منها؟ أو ما هو الموضوع الذي تكمّله هذه الشهادة؟ نحن نسلّم أنه إذا استُشهد بكل الشيء على أمر فليس ضروريا أن يقدَّم كل جزء منه كشهادة منفصلة، ولكن إذا استُشهد بالكل أولاً، واستُشهد ببعض أجزائه قبله وبعده منفصلا، فلا بد أن المقصود الاستشهاد على شيء زائد. ولكن المفسرين لا يذكرون أي أمر خاص زائد استُشهد عليه بقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ منفصلا. ولو قيل إن هذه الأجزاء الأربعة لا تُقدّم شهادات منفصلة، بل تُقدّم معًا شهادة واحدة، فنحن مستعدّون لقبول ذلك أيضا، ولكن السؤال ما هي الشهادة التي يقدمها الفجر والشفع والوتر والليل إذا يسري مع ذكر الحج؟ إذا لم نربط الفجر مع ليال عشر، فما هو النقص الذي يبقى في الوفاء بعهود الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام؟ ولو لم يُذكر (الشفع والوتر) هنا فأي أمر ظلّ خفيًّا؟ ولو لم يذكر (والليل إذا يسر)، فأي نقصان حصل في شهادة الليالي العشر ومعجزتها؟

نحن نعترف ونقرّ أن الدليل يُقدَّم مجزَّأً أحيانا ليؤكد كل جزء منه على أجزائه الأخرى، ليصبح الدليل أقوى وأوضح وأبرز، ولكن لا يجزَّأ الدليل إلى أجزاء بدون سبب. فلو تضمنَّ الفجر والشفع والوتر والليل إذا يسري بعض خصوصيات (ليال عشر) لقبلنا هذا بلا تردد، وقلنا إن هذه الأشياء الأربعة -رغم كونها جزءًا من الليالي العشر- قد ذُكرت منفصلة عنها لإبراز أهميتها والتأكيد عليها. ولكن المؤسف أن المعنى أو التأويل الذي يذكره المفسرون لليال عشر لا يبقى الفجر فيه جزءًا من الدليل ولا يعطي الشفع والوتر فيه أي معنى، كما لا يبدو هناك أي مفهوم لقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، بتعبير آخر إنهم يفسرون هذه الآيات بما لا يتفق مع السياق.

والتأويل الثاني لقوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو الليالي العشر من محرم.

هنا أيضا لو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ لانطبق هذا التأويل هنا وسلَّمْنا بصحته إذ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه في يوم عاشوراء قد انتصر موسى عليه السلام على فرعون، ونجّاه الله من البحر.. وأن حادثا مماثلا سيقع في أمتي أيضا في المستقبل. ✪

إذن، فكما أن واقعة تضحية إبراهيم عليه السلام تنطبق على الليالي العشر، كذلك يمكن اعتبار قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةً إلى الواقعة العظيمة التي حصلت مع موسى عليه السلام، ولا يمكن الاعتراض على ذلك، وفي هذه الحالة يراد بالفجر صبح الليلة العاشرة من محرم حين خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر

✪ ما ورد في الحديث هو: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوا (البخاري: كتاب الصيام). وفي رواية: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّمًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ. فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ" (ابن ماجه: كتاب الصيام).

فلعل حضرة المفسر رضي الله عنه يشير إلى عموم حديث الترمذي: لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ. (الترمذي، أبواب الإيمان) (المترجم)

وغرق فرعون في البحر، بينما يراد بالليالي العشرِ العشرُ الأوائل من محرم، حيث قضاها موسى ﷺ في النقاش مع فرعون، وفي أخذ الأهبة للسفر، ونجا فيها بنو إسرائيل من ظلم فرعون تحت قيادته ﷺ. وهكذا تصبح هذه الليالي كلها آية ربانية عظيمة.

ومع ذلك يبقى السؤال التالي بدون جواب: ما علاقة الشفع والوتر بهذا الحادث؟ ثم لو كانت الليالي العشر إشارة إلى واقعة موسى ﷺ، فما معنى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في هذا السياق؟ ثم ما علاقة هذا الليل الذي يسري بالليالي العشر من محرم وبواقعة موسى هذه؟ لو ذُكر هنا الفجر والليالي العشر فقط ما كان هناك مبرر معقول لرفض هذا التفسير، لأن واقعة موسى ﷺ يمكن أن تنطبق عقلاً على قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، كما أن تضحية إبراهيم ﷺ يمكن أن تنطبق عقلاً على الليالي العشر من ذي الحجة وعلى يوم النحر؛ وما وسع أحدًا إنكار أهمية هذا الحادث، بل لاعتبره كل شخص شهادة هامة، ولاعتبر هذا القَسَمُ قَسَمًا هامًّا يزيد المعرفة. ولكن المشكلة أن الأمر ليس كذلك، لأن الآيتين التاليتين ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ تمنعان من قبول هذا التفسير.

والتأويل الثالث الذي ذكروه هو أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني الليالي العشر من رمضان.

فأولاً هناك اختلاف في الروايات، فبعضها تقول إن المراد من (ليال عشر) العشرُ الأوائل من رمضان، وبعضها تقول إنها العشر الأواخر منه؛ ومع ذلك فَسَواء أكان المراد منه العشر الأوائل أم الأواخر من رمضان، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما الذي تشهد عليه هذه الليالي من رمضان؟ يجب أن لا ننسى أن هذه السورة من أوائل السور نزولا بلا خلاف عند أصحاب الرأي، بينما فُرض صيام رمضان في المدينة في السنة الثانية الهجرية (تاريخ الطبري). فهل من عاقل يقبل هذا التأويل بعد ذلك؟ هل يمكن أن يخبرني أي مفسر كيف يُعتبر القولُ إننا سنقول لأتباعنا بعد اثني عشر عامًا أن يصوموا شهر رمضان دليلاً على وجود الله وعلى قدرته؟ إن الأمر بالصيام يمكن أن يصدره أحد البشر أيضا، فبوسع أي من المفترين أن يأمر

أتباعه بالصوم، وكان بوسع مسيلمة الكذاب أن يضع شريعة مزورة من عنده. علينا أن نرى ما إذا كان مثل هذا الكلام حجة على الكافرين؟

ألا يبدو غريبًا - في حالة قبول هذا التأويل- أن يقدّم الله تعالى ليالي رمضان حجة على الكفار، مع أن صيامه لم يكن قد فُرض بعد؟ فقد كان الرسول ﷺ يصوم العشر الأوائل من محرم اقتداءً باليهود الذين كانوا يصومونها لأن الله تعالى نجّى فيها موسى عليه السلام من فرعون. وعندما نزل الحكم بصوم رمضان ترك صيام العشر من محرم. فالسؤال هنا: ماذا فَهِمَ المسلمون والكفار من القَسم بصيام لم يكن قد فُرض بعد، ولم يعرفه المسلمون ولا الكافرون؟ وما قيمة تقديمه كشهادة؟ وكيف يكون حجة على الكافرين؟

قد يقول قائل هنا: لا شك أن صوم رمضان فُرض في المدينة بعد نزول سورة الفجر باثني عشر عاما، ولكن ذِكْر ليالي هذا الصيام أو القَسمَ بليالي رمضان قبل هذا الموعد ليس محلّ اعتراض، إذ إن القرآن نفسه قد أقسمَ بأحداث كثيرة قبل وقوعها، كقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾(التكوير:٢).. أي سيأتي يوم تكوّر فيه الشمس، بمعنى أن الناس سيتركون طاعة النبي ﷺ، أو أن الأنوار المحمدية سوف تُحجَب أشعّتها، أو أن الشمس والقمر تنكسفان. فمتى وقعت هذه الأحداث في حياته ﷺ؟ الجميع يعرف أن هذه الأنباء إنما وقعت بعد مدة مديدة، ومع ذلك أقسمَ الله بها. كذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(التكوير:٨)، وهي نبوءة عن اختراع القطار والتلغراف والمذياع وغيرها مما سيقرّب الناس كأنهم في مكان واحد، وقد تحققت هذه الأنباء بعد زمن طويل، ومع ذلك أقسم الله بها. فما الغرابة في أن يقسم الله بليالي رمضان، وإن لم يكن صيامه قد فُرض إلا بعد اثني عشر عاما؟

والجواب أنه مما لا شك فيه أن القرآن قد أقسمَ بأحداث مستقبلية، ولكنها كلها تتعلق بالغيبيات، إذ هي أنباء تتعلق بالمستقبل. والنبوءة لا تكون في خيار العباد وقدرهم، أما صيام رمضان فهو أمر وليس نبأً، وكما قلتُ فإن إمام أي فرقة أو طائفة يمكن أن يأمر أتباعه بأي شيء، ولا علاقة لهذا بعلم الغيب. فمثلاً كنتُ

قد قدّمتُ لجماعتنا مشروعًا باسم "تحريك جديد" عام ١٩٣٤، فلو قلتُ قبلها بسنتين أني سأقدّم لكم مشروعًا باسم "تحريك جديد"، ثم أنشأته فعلاً بعد عامين، ثم قلتُ للناس انظروا إلى هذه الآية العظيمة، إذ تحقق ما قلت قبل سنتين، لضحك مني الجميع، وقالوا: أي آية في هذا؟ لقد خطّطتَ لشيء من عند نفسك، ثم أمرتَ به أتباعك حين شئت. أو مثلا: أقول لكم من حين لآخر سأدعوكم لصيام ٧ أيام تطوعًا في موعد كذا، وعندما حان هذا الموعد دعوتُكم إلى الصيام تطوعًا فصمتم؛ فهل في هذا أي آية ربانية؟ وهل أستطيع القول إنها معجزة عظيمة ظهرت على يدي؟ أو أنه حادث يدل على وجود البارئ تعالى؟ كلا، أبدًا. كذلك إذا كان صيام رمضان قد أُخبرَ عنه على هذا النحو -كما يزعمون- فأي حجة فيه على الكافرين؟ نحن المسلمين نؤمن أن كل ما في القرآن قد نزل من عند الله تعالى، ولكن الكافر لا يصدق ذلك، بل يقول إنه من افتراء محمد (ﷺ) الذي عرضه على الناس كأنه وحي من الله تعالى؛ فكيف يمكن -والحال هذه- أن يكون حجةً على الكافرين القولُ إن صيام رمضان سيُفرض عليكم بعد ١٢ سنة، وأن لياليها العشر ستكون ذات أهمية كبرى؟ فإن الخصم سيقول إن محمدا (ﷺ) نفسه قد أعدّ هذه الخطة من عنده، ثم نفذها في حينها، ثم قال للناس انظروا إلى هذه الآية الإلهية العظيمة على صدقي، مع أنه ليس في ذلك أي آية، إذ يمكن أن يفعل ذلك أي إنسان.

فمن الخطأ القول إن الله تعالى قد أقسمَ هنا بالليالي العشر من رمضان كما أقسم بأحداث مستقبلية في آيات أخرى. إن أمر صيام رمضان من خيار البشر، لأن إعلان المرء عن خطته قبل تنفيذها ببضع سنين لا يشكل أي آية، أما الإخبار عن أحداث مستقبلية ليست بوسع الإنسان وخياره فليس فيه أي افتراء من الإنسان. وحيثما أقسمَ القرآن إنما أقسمَ بالأحداث التي كانت ستقع في المستقبل، والتي لم يقدر عليها محمد ﷺ ولا أمته، والتي كانت آيات عظيمة على وجود البارئ تعالى وقدرته وعلمه. فمثلاً قال الله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.. أي أن الشمس والقمر سينكسفان. فمتى كان انكسافهما في قدرة محمد ﷺ؟ أو قال الله تعالى

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.. حيث أخبر عن اختراع القطار والتلغراف والبريد وما إلى ذلك، فمتى كان اختراعها في قدرة محمد ﷺ؟ كل إنسان يفهم أن تحقيق هذه الأنباء ليس بوسع إنسان، بل الله وحده القادر على تحقيقها، ولذلك قُدِّمت هذه الواقعات كشهادة على وجود البارئ تعالى. باختصار، إن الأقسام القرآنية التي أقسم الله بها تتعلق بأمور تُظهِر قدرةَ الله وقوته، سواء أكانت هذه الأمور تتعلق بالمستقبل أم بالماضي.

لقد قال أحد المفسرين المعاصرين أن الله قد استشهد بالليالي العشر الأواخر من رمضان، لأن الصوم في هذه الأيام يزيد تقوى المرء وروحانيته بوجه خاص. (بيان القرآن)

ولكن السؤال: هل يصدّق الكافر أيضا أن الصوم يزيد تقوى المرء وروحانيته؟ كلا، إنه لن يصدّق ذلك، ولو صام أحد هذه الأيام العشر أو رمضان كله، بل حتى لو صام خمسين سنة على التوالي. فالأمر الذي لا يصدّقه الكافر كيف يُعرَض عليه كشهادة؟ لأنه سيقول هذا كذب مبين، لأن الصيام لا يزيد في روحانية أحد.

إذنً، يقسم الله تعالى بأحداث المستقبل التي تشهد على قدرته تعالى بحيث تكون حجة على أعداء الدين، أو يقسم بأحداث من الماضي شكّلتْ الآيةَ على وجود الله تعالى وعلى قدرته. ومثال الأحداث الماضية حادث تضحية إبراهيم عليه السلام ووفاء الله لوعوده، وحيث إنها ثابتة تاريخيا، فلا يسع الخصم إنكارها، فلذلك تُقدَّم أمامه لإقامة الحجة عليه. أما ارتقاء المرء روحانيًا فهو أمر لا يراه حتى الصديق، ناهيك أن يُقدَّم أمام الخصم كحجة. فليس صحيحًا مطلقًا أن الله قد أقسم بليالي رمضان هنا كما أقسم بأحداث مستقبلية، إذ شتّان بين الأمرين! إن القرآن قد أقسم بأحداث تدل على علم الغيب، مثل كسوف الشمس ونهضة الجماهير ودمار الملوك وغيرها، والإنباء عنها قبل موعدها دليل عظيم على قدرة الله يقينا، أما الإعلان عن فرضية صيام رمضان فليس فيه أي علم بالغيب؛ إذ يمكن لكل إنسان أن يأمر جماعته بأمر قبل موعده، وليس في ذلك أي دليل على صدقه. كان الأمر بالصيام فِعْل محمد رسول الله ﷺ ومجرد عبادة في نظر الكافرين، والإخبار عن فرضيته قبل موعده لا

يشكل أي فائدة للكافرين. فثبت أنه لا يُقدَّم أمام الكفار كدليل على قدرة الله وآية عظيمة منه إلا ما فيه علم الغيب. فمثلا أنبأ المسيح الموعود عليه السلام عن زلزلة الساعة (التذكرة ص٤٥٠)، وهو خبر لا يقدر إنسان على تحقيقه، وتقديمه دليلا على وجود الله وقدرته أمر سليم.

ومثال آخر هو قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ﴾(التين:٢-٣) حيث أقسم الله تعالى -بدلاً من أحداث مستقبلية- بأحداث من الماضي تضمنت علم الغيب بحيث لا يمكن لخصم إنكاره، أو مثاله قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(التكوير:٢-٤)، وهي أيضا أنباء مستقبلية كلُّها تتضمن علم الغيب وتقدِّم دليلا على قدرة الله تعالى. ولكن ليس في القَسَم بحكم من الأحكام أي إظهار لقدرة الله تعالى. وحيث إن القَسَم بليالي رمضان لا يتضمن أي علم بالغيب، ولا أي إظهار لقدرة الله تعالى، فهو عبث، والقرآن منـــزه عنه.

باختصار، لو اعتبرنا ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ إشارةً إلى واقعة إبراهيم عليه السلام أو إلى حادث نجاة موسى عليه السلام، لكان معقولا، ولكن لا حِكمة في اعتبارها إشارة إلى العشر الأواخر أو الأوائل من رمضان. لا شك أن أخبار الغيب -سواء التي تحققت في الماضي أو التي ستقع في المستقبل- تزيد الإيمان، فمثلا وعد الله موسى عليه السلام بغلبته وقومه على فرعون (خروج ٧: ١-٧)، فأنجز وعده وأغرق فرعون ونجّى بني إسرائيل من ظلمه، وهذا حادث من الماضي، ولكنه محفوظ في التاريخ، ويمكن تقديمه على العدو كحجة؛ لو قدّمته اليوم أمام أحد لوجد فيه دليلا حيًّا على وجود الله تعالى. لا شك أن موسى عليه السلام قد توفي، وأن فلسطين قد خرجت من أيدي اليهود، ومع ذلك فحينما تعرض هذه الأحداث اليوم على أي من السيخ أو الهندوس مثلاً، يتأثر بها حتما، ويعترف أن من الحقائق الثابتة تاريخيا أن موسى كان عبدا ضعيفا عديم الحيلة، ولم يكن قومه بنو إسرائيل يملكون حيلة إزاء فرعون، فكان يعاملهم كيفما شاء، إلا أن الله تعالى وعد عبده الضعيف موسى أن ينصره، ثم أنجز وعده معه بالفعل رغم الظروف غير المواتية، ففشل فرعون في هدفه رغم

قوته وجنوده وعتاده ومات خائبا خاسرا، ونجح موسى مع أتباعه كما وعد الله. هذا حادث من الماضي ولا شك، ولكن شهادة التاريخ تجعله حادثا رائعا بحيث تتراءى قدرة الله تعالى أمام من يقرؤه ويطلع عليه.

وبالمثل قد لحِق إبراهيم عليه السلام بالأموات، ونبوءاته صارت قصة من الماضي، إلا أن التاريخ قد حفظها. عندما نرجع إلى زمن إبراهيم وننظر من هناك إلى المستقبل.. أي حين ننظر إلى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من منظور زمن إبراهيم، لا من منظور الزمن الحاضر، ونفكر فيما إذا كان الإدلاء بمثل هذه النبوءة بوسع إبراهيم، يغمرنا اليقين أن هذه آية إلهية عظيمة قاهرة ظهرت بواسطة إبراهيم عليه السلام.

إذن، فبعض أحداث الماضي تكون دليلا على قدرة الله تعالى، لأننا حين ننظر إليها من منظور ماضيها نجد فيها آية عظيمة، أما الأنباء المستقبلية فهي آية عظيمة بلا شك، لأن تحقُّق نبوءة يشكّل آية حيّة على وجود البارئ وقدرته وجلاله وعظمته. أما صيام رمضان فلم يكن الحُكم به قد نزل بعد، فليس في القَسَم به أي هدف من الأهداف التي نراها في الأقسام الإلهية القرآنية.

ولو غضضنا الطرف عن هذا السؤال الأساسي، فلا تزال هناك أسئلة أخرى كما ذكرتُ من قبل، منها: أي شهادة في فجر بعض الليالي الأوائل من رمضان حتى يُذكَر هنا منفصلا فيقال ﴿والفجر﴾؟ ثم ما علاقة الشفع والوتر في هذا السياق؟ ثم أي ليل من هذه الليالي الذي قيل عنه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟ وما هي الشهادة الموجودة في هذا الليل؟ أما إذا كان المراد من (ليال عشر) العشر الأواخر من رمضان، فما هو المراد من (الفجر) في هذا السياق؟ أهو فجر إحدى الليالي العشر الأوائل من رمضان أم فجر إحدى الأواخر منه؟ لا شك أن هناك معقولية في أن يراد بـــ ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ العشر الأوائل أو العشر الأواخر لكونها ذات سمة خاصة، لأن العشر الأوائل عظيمة من حيث إن رمضان يبدأ بها، والليالي العشر الأواخر عظيمة لأن رمضان ينتهي بها، ومع ذلك يبقى السؤال هنا: أي فجر من هذه الليالي يحمل خصوصية بحيث أقسم الله به، ويمكن أن تقام به الحجة على الخصم وإقناعه بقدرة الله تعالى؟

ويقول البعض إن المراد من الفجر هنا فجر ليلة القدر التي قال الله تعالى عنها ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(القدر:٦).. أي أن ليلة القدر تستمرّ حتى مطلع الفجر (بيان القرآن). ولكن المشكلة أن ليلة القدر هي المباركة وليس فجرها، إذ تنتهي بركاتها عند الفجر. فلماذا أقسمَ الله بفجرها إذن؟ أليس غريبا أن لا يُقسِم الله تعالى بليلة القدر التي هي مباركة ويُقسِم بالفجر مع أنه ليس فيه شيء هام وليس فيه بركة خاصة؟

ثم إذا سئلوا: ما علاقة الشفع والوتر بالعشر الأواخر من رمضان، قالوا: المراد من الوتر ليلة القدر، لأنها تكون ليلةً وترًا.

ولكنا نقول: لم يستشهد الله تعالى بالوتر فقط، بل بالشفع والوتر معًا، فإذا كان الوتر هنا يعني الليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان، والشفع يعني الليالي الشفع من العشر الأواخر، فمعنى ذلك أن خمسًا منها وَتْر وخمسًا منها شَفْع، أو إذا لم تكن هذه الليالي عشرًا — لأن شهر رمضان يكون أحيانا ٢٩ ليلة — فتكون الليالي الشفع خمسًا والليالي الوتر أربعًا. إذن، فإما أن يراد هنا بالشفع والوتر كل ليالي الوتر أو كل ليالي الشفع. فإذا قالوا إن المراد من الوتر هنا ليلة القدر بالتحديد فيجب أن تكون ليلة الشفع ليلة محددة من بينها، ولكنهم يقولون إن ليلة الوتر هي ليلة القدر فقط، وهذا غير مقبول لأن في العشر الأواخر ليالي أخرى هي وتر.

ثم هناك سؤال آخر: لماذا أقسم الله تعالى بالليالي العشر كلها، مع أن ليلة القدر هي واحدة منها؟ وإذا كانت ليلة القدر ليلة واحدة فقط فبأي قرينة حدّدوها من بين الليالي الوتر الأخرى؟

وسؤال آخر: لماذا أقسم الله بالشفع أيضا؟ ما دامت ليالي الوتر والشفع كلها مباركة، فلماذا ذكر الله تعالى الوتر منها منفصلةً عن الشفع؟

ثم إن هذه الليالي - الشفع والوتر - كلها متضمنة في ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾، فلماذا ذكر الله بعد الليالي العشر ليالي الشفع والوتر منها منفصلة عنها؟ أي فائدة في ذلك؟

وأخيرا سؤال آخر: ما هو المراد من قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في هذا السياق؟ لقد تضمن قول الله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الليالي العشر الأواخر كلها، فلماذا ذكر الله تعالى بعدها الليلة الحادية عشرة بقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؟

لو قيل إن المراد من مجموع الليالي المذكورة في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وفي قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هي ليالي الاعتكاف فلا يستقيم المعنى أيضًا، لأنها إما أن تكون عشرًا أو تسعًا، لا إحدى عشرة ليلة، وإن كان عدد النهار يبلغ أحد عشر نهارًا في بعض الأحيان.

إذن، فلا ينطبق أي من هذه المعاني على هذه الآيات القرآنية على ضوء السياق، إذ يرِد على كل واحد منها اعتراضات كبيرة شتى.

والآن أذكر المعاني التي فهَّمني الله تعالى عندما رفعتُ رأسي من السجود الأخير من صلاة العصر يوم الأربعاء كما ذكرتُ.

لقد ذكر الله هنا أربعة أشياء:

أولا: ﴿وَالْفَجْرِ﴾

وثانيا: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

وثالثا: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

ورابعا: ﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

وهذه الأقسام الأربعة يمكن أن تكون بثلاثة طرق:

فإما أنها أربعة أجزاء مهمّة من واقعة واحدة.. أعني أن تكون هذه الآيات تتحدث عن واقعة واحدة، حيث تذكر كلاً من أجزائها الأربعة منفصلا، وهذا جائز تماما. لقد قلتُ من قبل إن بإمكاننا قبول المعاني التي ذكرها المفسرون شريطة أن تكون الأمور الأربعة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن المعاني التي ذكروها لا تنطبق على الآيات كلها معًا، لذا لا نقبلها.

وإما أنها أربع واقعات منفصلة. فلو ثبت أن قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ يشير إلى حادث، و﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يشير إلى حادث ثان، و ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ يشير إلى حادث ثالث، و﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ يشير إلى حادث رابع، فيكون هذا تأويلا معقولا

مقبولاً شريطة أن تكون هذه الأمور الأربعة ذات صلة بأحداث هامة ويوجد بينها رابط يجعلها منسجمة.

وهناك صورة أخرى: أن تُعتبر هذه الأمور مجموعتين أو ثلاثة.. حيث يشكل أمران منها مجموعة منفصلة، وأمران آخران مجموعة أخرى منفصلة. أو يُعتبر قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ واقعة، و﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ واقعة أخرى، و﴿واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ واقعة ثالثة. وهذا التقسيم أيضًا لا بأس به.

فهناك صور ثلاث: فإما أنها واقعة واحدة ذات جوانب أربعة مهمة، أو أنها أربع واقعات منفصلة، أو أنها مجموعتان أو ثلاثة من الوقائع.

لقد مال المفسرون باتفاق إلى اعتبار هذه الأمور جوانب مختلفة من واقعة واحدة، فراحوا يطبّقون عليها (ليال عشر)، و(الشفع والوتر) أيضا.. كقولهم المراد منها الليالي العشر من محرم وفجره وصلواته؛ أو الأيام العشر من ذي الحجة ولياليه وفجره؛ أو الليالي العشر من رمضان وفجر واحد منها وليلة منها. ولكن قد سبق أن بينتُ أن تفاسيرهم هذه لا تغطي كل الجوانب من هذه الآيات، ولا تدل على حقيقة ثابتة واضحة.

أما الأمر عندي فهو كالآتي:

قد ذكر الله تعالى هنا فجرًا واحدًا وليالي عشرًا، مع أن في الليالي العشر عشرة من الفجر. ثم ذكَر الليالي هنا مرتين، مرة عشر ليالٍ، ومرةً ليلا واحدا يسري، وذكرَ بينهما الشفع والوتر. فلكي نصل إلى المعنى الصحيح لهذه الآيات علينا التدبر في هذا الأمر، أعني أن نفكر لماذا ذُكر هنا فجر واحد، ثم ليال عشر، ثم الشفع والوتر، وفي الأخير الليل الذي يسري. فكأن الله تعالى قد ذكر هنا فجريْن؛ الفجر الذي له علاقة بليال عشر، ثم واقعة الشفع والوتر، ثم الفجر المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ حيث ذكر أن هذا الليل يسري ويذهب، فكأنما أشار بذلك إلى طلوع فجر آخر. علمًا أن التركيز في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو على بيان أهمية تلك الليالي، أما في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فالتركيز فيه على زوال ذلك الليل وطلوع النهار.

وحيث إنه لا توجد في الدنيا ليال عشر لها فجر واحد، كما ليست هناك ليال عشر تقع بعدها واقعة الشفع والوتر، وليس هناك حادث شفع ووتر يليه ليلٌ يسري حتمًا.. فلا بد لنا من الإقرار أن لا علاقة لليالي المذكورة هنا بطلوع الشمس المادية ولا بغروبها، كما لا علاقة لليل الواحد الذي يسري ويزول إلى الأبد بالشمس التي تطلع من ناحية وتغيب من أخرى؛ وبالتالي لا بد لنا من القول إن كلمات الليل والفجر قد وردت هنا على سبيل الاستعارة لا الحقيقة.

باختصار، إن تقدير هذه الآيات كالآتي:

هناك عشر ليال، ثم فجر، ثم بعدها واقعة الشفع والوتر، ثم ليل وبعدها فجر طويل. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: الفجر يكون بعد الليل، فلماذا ذُكر الفجر هنا قبل الليالي العشر؟

الجواب أن الله تعالى قدّم الفجر هنا لأن فيه بشرى، فإنك حين تذكر لصديقك حادثًا مؤسفًا عاقبتُه محدودة، فإنك -من أجل تخفيف صدمته- تذكر له العاقبة المحمودة أولاً، ثم تحكي له باقي القصة المحزنة. فمثلا علمت أن صديقًا لك مصاب بمرض شديد، فذهبت لزيارته ووجدتَه في تحسن ملحوظ، فلما رجعت من عنده لقيك صديق آخر وأردت أن تخبره عن مرض صديقكما، فلن تبدأ بالحديث عن تفاصيل مرضه المؤلم، بل تقول: الحمد لله هو بخير الآن وقد زال الخطر، ثم بعد ذلك تذكر له تفاصيل المرض. لما وصلت شائعة استشهاد النبي ﷺ في غزوة أُحد إلى المدينة سارعتْ مجموعة من الأطفال والنساء إلى ساحة القتال، فلقوا في الطريق المقاتلين المسلمين وهم راجعون، فتقدّمَت سيدة إلى أحدهم وسألته في قلق شديد عن الرسول ﷺ، فبدلاً من أن يخبرها أنه ﷺ بخير والحمد لله، قال لها: إن زوجك قد استُشهد في القتال، فقالت: إني لا أسالك عن زوجي.. أخبِرْني كيف رسول الله ﷺ؟ فلما أخبرها أنه ﷺ بخير، لم تتمالك نفسها من فرط السرور وقالت: إذا كان رسول الله ﷺ بخير فكل مصيبة بعده جَلَلٌ.. أي لا أبالي بها (سيرة ابن هشام: غزوة أحد). فترى أن هذه السيدة أرادت أن تسمع الخبر السار أولاً، ثم الخبر المحزن. كانت تعلم أن رسول الله ﷺ لو كان بخير، لتحمل قلبها أي صدمة أخرى بسبب

هذه الفرحة، أما إذا كان ﷺ قد استُشهد فلن يطيق قلبها أي صدمة. إذًا القاعدة أن الخبر إذا كان مزيجًا من الفرحة والغم، يُبلَّغ المرءُ الجانبَ السار منه أولاً لكي لا يشقّ عليه الخبر المحزن. فلما كان تبليغ الخبر السار أولاً أنسبَ من أجل البشرى، قدّم الله هنا ذكر الفجر على الليالي العشر. لو ذكر الله تعالى الليالي العشر أولا، لارتجفت قلوب المسلمين بسماع هذا الخبر وأصابهم غمّ شديد وقالوا: لا ندري ماذا سيحدث الآن، فلذلك ذكر الله الفجر أولا، ثم الليالي العشر، ثم واقعة الشفع والوتر، ثم الليل الذي يسري ويذهب.. أي يأتي الصبح الطويل. هكذا نقَل القرآن الكريم الخبر بحيث تطمئن قلوب المؤمنين بدون أن تصاب بقلق كبير حول عاقبتهم؛ فقال تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فكأنه طمْأن المسلمين أن لا داعي للقلق بسماع الخبر الذي يُخبَرون به، ولا يخافوا على عاقبتهم لأنها محمودة حتمًا، ولذلك ذكرنا الفجر قبل ذكر الليالي العشر.

علينا أن نرى ما هي تلك الأحداث التي أشير إليها في هذه الآيات؟ لو حاولنا معرفتها قياسًا وجزافًا معتمدين على عقولنا فقط، فلن نصل إلى نتيجة صائبة، بل سنخطئ كما أخطأ المفسرون القدامى. لذلك لا بد لنا من أن نؤكد هذه الأمور الأربعة على ضوء القرآن وتاريخ الإسلام والوقائع المهمة حتى نستطيع القول على وجه البصيرة أن القرآن الكريم قد أشار في هذه الآيات إلى هذه الأحداث، التي هي وثيقة الصلة بصدق الإسلام، وتنسجم مع ترتيب القرآن، ويمكن تقديمها أمام الكافرين كدليل على صدق النبي ﷺ وتتم بها الحجة عليهم. لو وجدنا هذه الأحداث من هذه المصادر، كما وجدناها منسجمة مع ترتيب هذه الآيات ودالة على صدق الإسلام والرسول ﷺ، فلا شك أنها هي المقصودة في هذه الآيات.

وكما قلتُ من قبل، قد تدبرت في هذه السورة كثيرًا وأمعنت النظر فيها طويلاً ولكن بدون جدوى، ثم إن الله تعالى نفسه ألقى في قلبي فجأة ما حُلّت به هذه الآيات تمامًا وانكشف مضمونها بكل جلاء.

لقد ذكرتُ من قبل أن الليالي العشر وإن كانت مذكورة هنا بعد الفجر لفظًا، ولكنها مذكورة قبل الفجر محلاً. كما أخبرت أيضا أنها ليست الليالي المعروفة، بل

سُميت ليالي على سبيل الاستعارة. وقلتُ أيضًا أن هذه السورة نزلت في أواخر السنة الثالثة من البعثة، حين لم تكن المعارضة المنظمة للإسلام قد بدأت بعد، ولم يكن الكفار قد وضعوا خطّة جماعية لسحق المسلمين وإبادتهم. كانوا يؤذونهم على الصعيد الفردي، وكان معظمهم يسخرون من الإسلام والمسلمين قائلين إنهم مجانين وسيعودون إلى صوابهم بعد قليل، وماذا يمكن أن يضرّنا هؤلاء الذين فقدوا صوابهم؟ إنهم سيسقطون بأنفسهم عما قريب. أما المعارضة المنظمة العَملية التي تعرض فيها المسلمون لتعذيب شديد، فلم تكن قد بدأت بعد. لقد أنزل الله تعالى هذه السورة بعد حوالي ثلاث سنوات من بعثة النبي ﷺ، حيث أخبر المسلمين وقال إنكم ستلقون الآن معارضة شديدة، وستخيّم عليكم ليالي حالكة من المصاعب والآلام ليلة تلو ليلة لن تروا فيها بارقة أمل، وتمتدّ هذه الليالي طويلاً، فتظلّون عرضةً للتعذيب عشر سنوات متتالية كاملة.

والآن انظرْ كيف تحققت هذه النبوءة بشكل محير! لقد نزلت هذه السورة في السنة الثالثة للبعثة، وأقام النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، ولم تكن هناك معارضة علنية في السنوات الثلاث الأولى، أما بعدها فقد بدأ أهل مكة يعارضونه معارضة شديدة. لو طرحنا ثلاث سنوات من الثلاث عشرة الخالية من المعارضة بقيت عندنا عشر سنوات بالضبط، وهي التي ظل فيها المسلمون هدفًا لفظائع الكافرين، وهي التي أخبر عنها في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. فسُمّيت السنوات العشر هذه لياليَ على سبيل الاستعارة لكثرة وشدة المصائب التي حصلت فيها. فكأن الله تعالى يقول فيها: يا محمد، كنا أخبرناك من قبل بقولنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أن هؤلاء القوم سيبدءون معارضة منظمة، وها قد جاء أوانها. فتأتي الآن عليك وعلى أصحابك فترة من المصاعب. ستخيّم عليكم الآن ليال عشر حالكة مُخيفة ترتعد لها الأبدان وترتجف لها القلوب. إنها ليست ليلة واحدة، ولا اثنتان ولا ثلاث، بل هي عشر ليال على التوالي. سترى أنت وأمتك أياما عصيبة. ولكنا نبشرك، يا محمد، قبل حلول هذه الليالي بفجرٍ يطلع بعدها. لا شك أن هذه المعارضة ستكون شديدة، ولكن عاقبتها ستكون محمودة لكم في كل

حال، وسينتشر الإسلام وينتصر المسلمون وتنقشع سحب المحن بعد انقضاء عشر سنوات، ويطلع الفجر.

وفي السنة الرابعة بالضبط بدأ أهل مكة معارضة الإسلام والمسلمين بشكل منظّم وخيّمت على المسلمين هذه الليالي الحالكة. لقد قلتُ من قبل إن من الحقائق الثابتة أن هذه السورة نزلت في أواخر السنة الثالثة أو أوائل السنة الرابعة للبعثة النبوية، وبدأت المعارضة المنظمة في السنة الرابعة. هذا ما يؤكد تاريخ الإسلام بلا خلاف، كما يشهد عليه الكُتّاب الأوروبيون بناء على أحداث التاريخ رغم عدائهم للإسلام، فيقول السير وليام موير:

"It was not, however, till three or four years of his ministry had elapsed that any general opposition to Mahomet was organized."

"لقد ظهرت معارضة محمد (ﷺ) بشكل منظّم بعد دعواه بثلاث أو أربع سنوات". وكما بيّنا في تفسير قوله تعالى ﴿ناصبة﴾ أن المراد من المعارضة المنظمة تعيين مسؤولين وزعماء يقودون هذه الحملة الهادفة إلى محو الإسلام والتي تطلب من الجميع صغارا وكبارا الانضمام إليها. ومثل هذه المعارضة لم تبدأ إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات من البعثة في رأي موير.

ويضيف موير قائلا:

Even after he had begun publicly to summon his fallow citizen to the faith, and his followers had multiplied the people did not gainsay his doctrine.

أي: مع أنه (أي محمد ﷺ) كان قد بدأ بدعوة المواطنين إلى الإسلام علنًا، ورغم أن المؤمنين به أخذوا يزدادون، إلا أن القوم لم يروْا حاجة إلى تفنيد أفكاره.

كان من الممكن أن يظن البعض أن عددًا من الناس كانوا قد آمنوا بدعواه ﷺ مما هيّج الناس ضده حتمًا، خاصة وقد بدأ ﷺ يعظ الناس ويدعوهم إلى دينه، إلا أن ويليام موير يقول: إن هذه الفكرة ليست صحيحة، لأن الكفار رغم هذه الظروف لم يقولوا عندها إنهم سيسحقون المؤمنين أو يمحون أثر هذا الدين.

ويضيف موير قائلا:

They would only point at him slightingly as he passed and say there goeth the fellow from among the children of Abd al Muttalib, to speak unto the people about the heavens. (life of Mahomet p:68)

أي.. كان الكفار ينظرون إليه باحتقار وكراهية قائلين: هذا هو الشخص من أولاد عبد المطلب الذي يخبر الناس بأخبار السماء.

أما في أواخر السنة الثالثة أو بداية الرابعة فقد قرر الكافرون معارضة الإسلام بشكل منظم، حيث قال القسيس ريفراند ويري:

This would be as Noeldeke has it about the fourth year of his ministry at Mekkah. (A comprehensive Commentary on Quran; by Wherry; vol: IV Page 239)

أي أن المعارضة العلنية والمنظمة التي واجهها محمد (ﷺ) في مكة بدأت في آخر السنة الثالثة وبداية الرابعة في رأي نولدكه.

ثم انظروا كيف يعلن نولدكه عن زمن نزول سورة الفجر قائلا:

He (Noeldeke) however regards it as early Mekkan and in his chronological table place it immediately after chapter LXXX VIII. (A comprehensive Commentary on Quran; by Wherry; vol: IV Page 242)

أي.. أن نولدكه يعتبر هذه السورة من أوائل السور المكية، ويرى أنها نزلت بعد الغاشية مباشرة.

وقد سبق أن أخبرت أن سورة الغاشية نزلت في السنة الرابعة تقريبا حين كانت شدائد أهل مكة ستنصبّ على المسلمين.

إذن، فإن المؤرخين الأوروبيين والمسلمين متفقون على أن نزول هذه السورة في السنة الرابعة تقريبا. وهي نفس السنة التي بدأت فيها المعارضة من قبل كفار مكة بشكل منظم.. فصبّوا على المسلمين فظائعهم، حيث يعترف وليام موير أيضا أنه لم يتعرض المسلمون في السنوات الثلاث الأول لأي معارضة تُذكر، بل كان الكفار يمرّون بالمسلمين مستهزئين ساخرين، وعندما كانوا يرون الرسول ﷺ يدعو الناس للإسلام يقولون باحتقار: مجنون يخبر الناس بأخبار السماء. أما في بداية السنة الرابعة فبدءوا المعارضة العلنية المنظمة كما أُنبئ في قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. واتّحد الجميع صغارا وكبارا لمحو الإسلام وسحق المسلمين.

فالشهادات التاريخية متفقة على أن اضطهاد المسلمين بشكل منظم بدأ في السنة الرابعة أي قبل الهجرة بعشر سنوات (تاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٧-٢٨٩، والطبقات لابن سعد: ذكرُ دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام). وقد نزلت هذه السورة في السنة الرابعة نفسها.

فالحق أن قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ نبأٌ عن تلك السنوات العشر من الظلم والعدوان التي نسي فيها المكيّون حتى أدنى مبادئ الإنسانية والنبل. لقد أخبر الله المسلمين سلفًا عن هذا الاضطهاد المنظّم من قبل أهل مكة، وأنهم سيصبحون (عاملة ناصبة) في نهاية المطاف. إنهم سيصبّون عليكم أنواع الظلم والجور، باذلين كل ما في وسعهم للقضاء على الإسلام على الصعيد الفردي والجماعي. وستستمر هذه الفظائع عشر سنوات متتالية.. كل سنة منها بمثابة ليلة حالكة حيث لن تروا فيها بارقة أمل، ولكن بعد السنوات العشر الشداد والعجاف سيطلع الفجر وتزول المحن وتنتهي النوائب، وتبدأ فترة جديدة من رقي المسلمين.

وقد طلع هذا الفجر ببلوغ خبر بعثة النبي ﷺ إلى المدينة. كان يهود المدينة يقولون للمشركين: في كتبنا نبوءة عن بعثة نبي يقيم ملكوت الله في الأرض، وتدلّ الأمارات أن ظهوره قريب. ولما كان اليهود لا يعرفون المشيئة الإلهية فكانوا يظنون أن هذا النبي سيقيم الدولة اليهودية، وأنهم ينالون المُلك؛ فكانوا يهدّدون المشركين أننا سننتقم منكم عند بعثته (سيرة ابن هشام: إنذار يهود برسول الله ﷺ). وكان

اليهود في المدينة أقلَّ من المشركين عددًا ولكن أكثر منهم علمًا ومالا، فلما تناهى إلى أسماع المشركين خبر ظهور شخص في مكة يدّعي أن الله يوحي إليه قالوا فيما بينهم: ربما يكون هذا المدّعي صادقًا وهو نفس الموعود الذي يتحدث عنه اليهود، ولعلهم يسبقوننا بتصديقه فينالون المُلك.. فذهب بعضهم إلى مكة للحج، ولاقوا النبي ﷺ. فلما سمعوا كلامه أيقنوا بصدقه، وبايعوه على الإسلام. ثم جاء وفد آخر منهم، ثم وفد ثالث، حتى دخل عدد لا بأس به من أهل المدينة في الإسلام. ثم اقترحوا بعد تشاور أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يهاجر إليهم طالما أن أهل مكة يؤذونه، فأرسلوا وفدًا إلى النبي ﷺ، والتمسوا منه الهجرة إليهم، لأن قومهم كلهم يريدون الدخول في الإسلام. فقال النبي ﷺ سوف أهاجر إليكم إذا أذن الله. فقال بعضهم: فلعلك ترجع إلى بلدك بعد أن يكتب الله لك الغلبة. فقال ﷺ: كلا (سيرة ابن هشام: أمرُ العقبة الثانية). وأخيرا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن أذن الله له بذلك. هذه الهجرة هي الفجر المذكور في قوله تعالى ﴿والفجر﴾، والتي طلعت عندها شمس الإسلام، والتي بدأ بها التقويم الإسلامي حتى اليوم وسيظل إلى يوم القيامة. وقد أشار الله إلى هذه الهجرة نفسها في موضع آخر بقوله تعالى ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء: ٨١). هنا أيضًا نرى أن الله تعالى ذكَر أوّلاً البشرى أي دخوله ﷺ مكة فاتحا، ثم ذكر هجرته منها، مع أن الهجرة كانت قبل الفتح، مثلما ذكَر ﴿الفجر﴾ – وهو الهجرة التي هي نعمة وبشرى – قبل الحديث عن ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ التي هي إشارة إلى الاضطهاد الذي صُبَّ على المسلمين عشر سنوات، مع أن هذه الليالي العشر أسبق زمنًا من الفجر.

لقد ذكر الله تعالى هذه الهجرة في القرآن الكريم مرارا، لأنها ذات أهمية قصوى في تاريخ الإسلام كأهمية تلك السنوات العشر الشداد. يقول الله تعالى في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال: ٣٠–

٣١).. أي أيها المؤمنون اتقوا الله، لأنكم إن تتقوه يفتح لكم سبل النجاح على مصارعها، ويُزِل عنكم تقصيراتكم ويسترْ ضعفكم، والله ذو الفضل العظيم. ثم ضرب الله تعالى مثالاً على ما قال لكي لا يظنوا أن قوله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ مجرد وعد. فقال لرسوله: تَذكَّرْ أنت –واذكرْ لقومك أيضا – هذا الحادث، ليعرفوا أن إلههم وفيٌّ يملك كل قدرة وقوة. تَذكَّرْ حين تآمر الكفار لكي يسجنوك أو يقتلوك أو يطردوك من بيتك وبلدك.

ليس المراد من ذلك أنهم كانوا يريدون تنفيذ كل هذه المكائد الثلاث مرة واحدة، بل المعنى أنهم لما تشاوروا فيما بينهم قال بعضهم إن أمر محمد قد تجاوز الحدود، فقد آمن به أهل المدينة، ولو ظلّ يتقدّم على هذا النحو فسيشكل علينا خطرا كبيرا، فالأفضل أن نسجنه حتى لا يلقى الناس ولا ينشر دعوته. فقال الآخرون: لا فائدة من ذلك، لأننا لو سجنّاه ثار أقاربه وأتباعه غضبا وخرجوا لحربنا، مما يؤدي إلى فتنة بين القوم، فالأفضل أن نقتله مجتمعين لتنتهي القضية للأبد، أما أقاربه فلن يفكروا في حرب قبائلنا مجتمعة فيصيبهم اليأس منه ويصبرون على موته، إذ لن يعود إليهم ولو حاربوا قاتليه. فقال البعض الآخر: القتل ليس برأي، لأن هذا سيهيّج أقاربه بني هاشم وليس بمستبعد أن يحاربونا أخذًا لثأره، ولا يصبرون على موته كما يتصور البعض، فالأفضل أن نطرده من مكة. فقال الذين خالفوا طرده من بينهم: هذا ليس برأي، إننا نريد القضاء على دعوته، ولو ظلّ ينشرها بين الناس فإن العرب كلهم سيصبحون أعداء لكم. (سيرة ابن هشام: هجرة الرسول ﷺ). باختصار كانت هناك اقتراحات شتى، فاتفقوا بعد تداول الرأي أن يقتلوه ﷺ. فلأنهم قدّموا ثلاثة اقتراحات: الإثبات أو القتل أو الإخراج، فقد ذكرها الله هنا في القرآن الكريم.

ونرى هنا أيضًا أن القتل أخطرُ هذه المكائد، فمع ذلك ذكره الله تعالى بين السجن والطرد اللذين هما أقلّ خطورة، وهو نفس الترتيب الذي أشرتُ إليه لدى تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، حيث

ذُكر الشيء الأهمّ في الوسط والأمور الأخرى على يمينه وشماله. وكأنه كلام مثلث، جعل الله الأهم في الوسط، ثم ذكر على يمينه وشماله ما دونه أهمية.

باختصار، قرّر هؤلاء القوم أخيرًا قتله ﷺ، ولم يعتبروا سجنه أو طرده قرارًا أمثل، بل رأوا فيهما خطورة انتشار الفتنة في القوم، فقالوا الأفضل اغتياله بهجمة واحدة!

لا شك أنهم قرروا أخيرًا قتله ﷺ، ولكن القرآن ذكَر اقتراحاتهم الثلاثة، وسوف أبين حكمة أخرى وراء ذكرها.

وبعد ذكر اقتراحاتهم هذه قال الله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وكأن الله تعالى لما سمع أقوالهم قال لهم: لقد اتفقتم على قتله أخيرا، ولكنكم قد نسجتم خططًا ثلاثًا، ولذلك سأتخذ إزاءها تدابير ثلاثة. سوف أَدَعُكم لتجرّبوا هذه الخطط واحدة بعد أخرى، لأخيّبكم في كل مرة. سوف تكيدون لقتله فترجعون خائبين، وسوف تحاولون سجنه فتلقون الخزي والهوان في النهاية، وسوف تحاولون طرده من مكة فتفشلون في ذلك أيضًا فشلا ذريعا. لا شك أن النبي ﷺ ما كان ليُقتَل لأنه نبي تشريعي، وقد وعده الله تعالى بالعصمة، ومع ذلك لو فرضنا جدلاً أنهم نجحوا في قتله ﷺ، وخرجت بنو هاشم لأخذ ثأره، وقُتل صناديد الكافرين، لفرح عندئذ مَن اقترحوا سجنه ﷺ أو طرده من الوطن، وقالوا: ألم نقل لكم لا تقتلوه فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

أما لو أخرجوا النبي ﷺ من مكة، فنجح في إدخال العرب جميعا في الإسلام، لفرح الذين عارضوا اقتراح طرده من بينهم، ولقالوا: ألم نقل لكم لا تُخرجوه من بينكم وإلا فسوف يؤثر في الناس ببيانه الساحر، فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

ولو ألقوه في السجن، وحاول أقاربه وأتباعه ﷺ إطلاق سراحه وبدأت الحرب الأهلية فتمكنوا من إطلاق سراحه بطريق آخر، لفرح الذين خالفوا اقتراح السجن وقالوا: ألم نقل لكم لا تسجنوه، فرفضتم اقتراحنا وتضررتم؟

ولما كان كل واحد من أصحاب الآراء الثلاثة يمكن أن يفرح برجاحة رأيه فيما بعد، فلذلك ذكر الله تعالى اقتراحاتهم الثلاثة وقال: لقد منحناكم الفرصة لتنفيذ

الاقتراحات الثلاثة حتى لا يزعم أحدكم فيما بعد أن اقتراحه كان صائبا، وهكذا أثبتنا لكم عمليًا أنكم كنتم كاذبين فيما زعمتم، وفشلتم في تنفيذ ما اقترحتم.

أما فشلهم في قتله ﷺ، فبيانه أنهم قرروا أن يشترك في قتله ﷺ فتى من كل قبيلة من قبائل قريش، لكي يتفرق دمه على القبائل كلها، فلا يجرؤ بنو هاشم على محاربتها. فحاصر هؤلاء الفتيان بيته ﷺ وجلسوا على بابه، ولكن الله تعالى هيّأ من الأسباب ما جعل رسوله يخرج من بينهم ليلاً وهم ينظرون دون أن يدروا ذلك. لقد أمر النبي ﷺ قبل خروجه من البيت عليًّا أن يستلقي في فراشه - لقد ورد في بعض الروايات خطأً أن النبي ﷺ أمره بالنوم في سريره مع أن الأسرّة لم يكن لها رواج في تلك الأيام، بل ليس لها رواج عام في مكة حتى اليوم- فعندما مر النبي ﷺ من بينهم ليلا رآه بعض المحاصِرين، ولكنهم ظنوه شخصًا آخر جاء للقائه ﷺ ورجع الآن. إنهم لم يعرفوا النبي ﷺ لأنه خرج من بينهم غير خائف ولا وجل، فما كانوا يتصورون أن يجرؤ على الخروج من بينهم. ثم إنهم أطلّوا من نافذة ليطمئنوا أنه ﷺ لا يزال في البيت، فوجدوا فيه شخصًا نائما، فظنوا أنه رسول الله ﷺ، فظلّوا محاصرين بيته. ثم اقتحموا البيت لاحقًا. ولعلهم انتابتهم شبهة أن جسد الشخص المستلقي على الفراش ليس جسد محمد، فأزالوا الغطاء عن وجهه، أو لعل وجهه كان مكشوفا، فوجدوا أنه عليّ، فعلموا أنه ﷺ قد خرج بسلام من بينهم، فرجعوا خائبين خاسرين بمعجزة من الله تعالى. ولا شك أن الذين اقترحوا سجنه ﷺ قالوا للقوم ألم نقل لكم لا تقتلوه، بل ألقوه في السجن بناء على قرار يصدره مجلس شيوخنا، ولكنكم لم ترضوا برأينا، ورأيتم الآن ما حصل! يبدو أن أحدا من أقارب محمد لم يرضَ بخطة قتله فأبلغه بما تنوون، فانفلت من أيديكم.

ولا بد أن يكون هناك قوم آخرون قالوا عند نجاة النبي ﷺ من أيديهم: ألم نقل لكم أن تطردوه من الوطن ولا تحاولوا قتله أيضًا، ولكنكم رفضتم اقتراحنا، فرأيتم اليوم الخزي والفشل؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.. أي أنهم كانوا يمكرون بك، ولكنا لم نكن غافلين عما

كانوا يفعلون؛ حيث قررنا إفشالهم في كل خطة. لقد حاولوا قتله وفشلوا، كما بطلت خططهم الأخرى أيضا، ليكون أمر الله غالبا.

هذا هو الفجر الذي طلع بعد ليال عشر حالكة. لقد أذن الله لرسوله بالهجرة، فخرج في رعاية الله من بين الكافرين المحاصرين بيته ﷺ بنية قتله، وهاجر إلى المدينة، فأصبحت مكيدهم لقتله معجزة عظيمة له بدلاً من أن تضره. هذا كان أول خبر أفرح قلوب المسلمين الذين كان الألم يعتصر قلوبهم دائما بسبب فظائع الكافرين، فكانوا في بعض الأحيان يقولون لرسول الله ﷺ، هلا هاجرتَ إلى مكان آخر؟ فكان يجيبهم: لا أستطيع فعل شيء إلا بإذن الله (البخاري: كتاب المناقب). وبسبب شدائد هذه الليالي العشر كان كثير منهم هاجروا من مكة إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة. لا شك أنهم قد نعموا هناك بالراحة ونجوا من عذاب الكافرين، ولكن قلوبهم كانت تتألم دائما قلقًا على النبي ﷺ فكانوا يقولون في أنفسهم لا ندري كيف حال سيدنا، وماذا يفعل به العدو. فلما سمعوا خبر هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ذاقوا طعم النوم الهادئ لأول مرة، واطمأنت قلوبهم لأن سيدهم قد نجا من هجمات الأعداء. هذه الهجرة كانت بمثابة شعاع منبثق من الشمس الطالعة، ولذلك قد سمّاه القرآن الفجرَ الذي ينبئ عن انقلاب سماوي وشيك.

والآن نرى هل وقعت بعد فجر الليالي العشر واقعةٌ يمكن أن نسميها واقعة الشفع والوتر؟ عندما نتدبر القرآن نجد أنه يذكر واقعة الشفع والوتر أيضا وذلك في قول الله تعالى للمسلمين الضعفاء في المدينة ﴿إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذْ أَخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَرُوا ثَانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا في الْغَارِ إذْ يَقُولُ لصَاحبه لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكينَتَهُ عَلَيْه وَأَيَّدَهُ بجُنُود لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلمَةَ الَّذينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلمَةُ اللَّه هيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾(التوبة: ٤٠).. أي إن لم تنصروا رسولنا فلن تضروا إلا أنفسكم، لأن رسولنا في حمايتنا، وقد أيدناه بنصرنا في كل موطن. ألم تعلموا حين اضطره الكفار للهجرة من مكة وفي رفقته شخص آخر، فاختفى في الغار، ولما رأى صاحبَه في قلق -ليس على نفسه، بل على نبيه ﷺ- طمأنه رسولنا قائلا ﴿لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.. أي لا تقلق، فإننا لسنا اثنين، بل معنى آخر هو

وَتر. وقد شرح النبي ﷺ بنفسه هذا الوتر فقال: إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ (أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم). فالشفع هنا هو محمد ﷺ وأبو بكر، والوتر هو الله سبحانه وتعالى الذي كان معهما.

إذن، فكان الله تعالى قد أخبر سلفًا أنه سيأتي على الإسلام والمسلمين ليال عشر حالكة الظلام، وبعد انقضائها يطلع الفجر، ثم تلي هذا الفجر فورًا معجزة الشفع والوتر، وقد ظهرت هذه المعجزة في غار ثور، فظهر صدق قول الله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ظهورَ الشمس في كبد السماء.

لقد سبق أن بينتُ أن من المكائد التي اقترحها الكافرون أن يسجنوا النبي ﷺ، ولا بد أن مَن اقترحوا سجنه ﷺ فرحوا عند فشل مكيدة القتل، وقالوا لإخوانهم لو أنهم سجنوه لما فشلوا اليوم، ولذلك يقول الله تعالى لهم هنا: حسنًا، يمكنكم أن تمكُروا لسجنه أيضا، فترون كيف نجعلكم خائبين فيه. وبالفعل لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر من مكة تحت جنح الظلام، وعلِم الكافرون بذلك، خرجوا متتبعين آثارهما، حتى وصلوا إلى مدخل غار ثور، وتوقفوا هناك، فقال لهم الدليل: هنا تنتهي آثار أقدامهما، فإما أن محمدا ﷺ مختف في هذا الغار، أو أنه صعد إلى السماء. كان العرب يثقون بالدليل كثيرا. في بلادنا أيضا أناس يقومون بهذه العمل ولكن معظمهم فاشلون، أما الدليل العربي فهو ماهر في فنّه بسبب الظروف الخاصة هناك. باختصار، قال لهم الدليل: يبدو أن محمدا في هذا الغار. فقالوا له: كيف يدخل الإنسان فيه؟ فقال: إذن، قد صعد هو إلى السماء. فضحكوا من قوله قائلين: فَقَدَ دليلنا صوابه وأخذ يهذي. هل يمكن لإنسان أن يختفي في هذا الغار؟ هناك شجرة على مدخل الغار، وقد نسجت العنكبوت على أغصانها بيتًا، ولو دخله إنسان لتمزّق بيت العنكبوت هذا. والواقع أنها كانت آية أخرى أراها الله عندها، فإن العنكبوت ينسج بيته في دقائق. لقد رأيت ذات مرة أن عنكبوتا نسج بيتا كبيرا له في دقيقتين أو ثلاث. إذن أمر الله تعالى العنكبوت أن ينسج بيته على الشجرة، ولم يخطر ببال هؤلاء الكافرين أن هذا البيت يمكن أن يُنسج في وقت قصير جدا. خلاصة القول، بينما كان الكافرون يتناقشون أصاب القلق أبا بكر رضي الله عنه

وهو على مسافة بضعة أمتار منهم في الغار، ولكن قلقه لم يكن على حياته، بل على حياة النبي ﷺ، فقد ورد أنه قال: يا رسول الله، لو قُتلتُ فيُقتَل شخص واحد، لا أكثر، أما إذا قُتلتَ فيُقتَل الإسلام. فلما رأى النبي ﷺ ما به من قلق قال: لا تحزن، إن الله معنا (الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٢٣٦).

وهنا أيضًا ترى أن الرسول ﷺ لم يقل لأبي بكر رضي الله عنه إن الله معي، ولم يكتف بقوله لا تحزن، بل ضمّ إلى نفسه أبا بكر وقال ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فالحق أن قوله تعالى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ إشارةٌ إلى واقعة الشفع والوتر المذكورة في سورة الفجر، حيث بيّن الله تعالى أننا كنا أخبرناكم عن وقوع واقعة سيكون فيها شفعٌ معه وترٌ، وقد تحقق هذا حين كان رسولنا ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ معنا﴾. ولولا هذا المعنى الذي أؤكد عليه لما كانت هناك حاجة لقوله تعالى ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، إذ كان الموضوع واضحا بدون هذه الجملة أيضا؛ إذ قال الله تعالى: إلا تنصروه فقد نصرناه من قبل؛ ألم تروا كيف نصرناه في غار ثور؟ ولكن الله تعالى أضاف هنا قوله ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ليخبر العالَم أننا قد حققنا من خلال هذا الحادث تلك النبوءة التي أدلينا بها بقولنا ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ مؤكدين أن واقعة الشفع والوتر ستظهر بعد طلوع الفجر، أي بعد هجرة نبينا من مكة.

ثم يقول الله تعالى في سورة التوبة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾.. أي عندما تحوّلا من اثنين إلى ثلاثة - أي أدرك أبو بكر أنهما ليسا اثنين بل معهما ثالث هو وتر- أنزل الله سكينته عليه.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ فبيّن فيه أن الملك لا يكون وحيدا بل يكون معه جيش، ومحمد رسول الله ﷺ هو مَلِك العالم الروحاني، فأرسل الله له جنودا ما كان لأهل الدنيا أن يروها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾.. أي كان الكافرون يقولون لو حاولنا سجن محمد لما رأينا الخزي والفشل، فها قد أفشلناهم في محاولة

السجن أيضا، حيث حاصروه ﷺ في غار ثور، فوصلوا إلى مدخله، ومع ذلك جعلنا كلمتهم السفلى وكلمة محمد ﷺ هي العليا، فرجعوا خائبين خاسرين.

كم هي عظيمة هذه المعجزة التي أظهرها الله تعالى! وما أروع هذه الآية التي أراها! لقد أراد الكافرون أن يسجنوا محمدا ﷺ لكبتِ صوته وجعلِ كلمته هي السفلى، ولكن الله تعالى رفع صوته ﷺ أكثر نتيجة هذا القيد والسجن، حيث أرى في واقعة قيده ﷺ في الغار معجزة أخرى ستظل -كمعجزة فشلهم في قتله ﷺ - دليلا ساطعا على صدق الإسلام وصدق دعواه ﷺ إلى يوم القيامة. فإن قيد النبي ﷺ في الغار لم يتسبب في ذلته وهوانه أبدًا، بل أصبح عاملاً آخر على إعلاء كلمته ﷺ على الدوام.

كان الكفار، حتى حادث غار ثور، قد فشلوا في خطتين من خططهم الثلاث، وبقي أن ينفذوا خطتهم الثالثة. ولما كان بوسع مَن اقترحوا منهم بطرد النبي ﷺ أن يقولوا: لم يعمل القوم باقتراحنا، وإلا لقُضي على الإسلام، فأراد الله أن يُخرجوا كل ما في جعبتهم، فذهب بنبيّه ﷺ إلى المدينة سالمًا معافًى، وهكذا تحققَ – في الظاهر– ما أرادته هذه الفئة الثالثة منهم من نفي محمد ﷺ من بينهم. لقد اطمأن المسلمون بعد قدومهم إلى المدينة على أمْن النبي ﷺ من الكافرين، ولكنهم لم ينتهوا عن المضايقة والعدوان، فحينًا حرّضوا عليه القبائل المجاورة، وحينًا أغاروا على المسلمين (أبو داود، باب في خبر النضير). وهذا يعني أنه كان لا يزال هناك ليل باق للمسلمين، والى ذلك أشار الله تعالى بقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾... أي لا شك أن بارقة أمل ظهرت بعد انقضاء الليالي العشر وتّمت الهجرة ووقعت واقعة الشفع والوتر، ولكن لا تزال أمامكم سَنَةٌ أخرى من المحن، وبعد انقضائها سيطلع عليكم فجر آخر قد أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّه وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدنَا يَوْمَ الْفُرْقَان يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ۞ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَة الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَة الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ منْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ في الْميعَاد وَلَكنْ ليَقْضيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا ليَهْلكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَميعٌ عَليمٌ ۞ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ في مَنَامكَ قَليلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثيرًا

لَفَشلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا وَإِلَى اللَّه تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(الأنفال:٤٢-٤٥).

فقد تحدث الله تعالى هنا بالتفصيل عن غزوة بدر الذي سماه يوم الفرقان، وأخبر أننا قد أنهينا مشاكل المسلمين بهذه الحرب، وبدّدنا عنهم الليل الأخير، وطلع عليهم الصبح المنير.

اللافت للنظر أن الله تعالى بشّر في قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ بذهاب الليل، أي طلوع الفجر من جهة، ومن جهة أخرى سمّى غزوةَ بدر يوم الفرقان؛ ومن معاني الفرقان: الصبح والسَحَر (الأقرب). فأخيرًا حقق الله للمسلمين الفتح يوم بدر كما كان وعدهم به في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ في سورة الفجر، إذ أخبر فيه أنه بعد طلوع الفجر سيأتي عليكم ليلة هي الحادية عشرة من الليالي، وسوف ننهيها أيضا، وهكذا كسر الله شوكة الكفار للأبد.

فما كان بوسع أحد من الكافرين أن يقول بعد ذلك لو أن القوم عملوا برأيي لقضوا على الإسلام؛ ذلك لأن المكائد الثلاث التي لجأوا إليها لسحق الإسلام تسببت في ازدهاره ورقي المسلمين.

هذا الفجر الذي طلع على المسلمين كان فجرا رائعا. لقد طلع عليهم الفجر الأول بعد ليال عشر، حيث رأوا فيه شعاع النور، ولكنه كان بداية الشعاع فقط، إذ كان هناك ليل باقٍ، ولما ذهب هذا الليل وانتهت الليالي الإحدى عشرة أظهر الله يوم الفرقان الذي كسر شوكة العرب الكافرين كلّيّة. لا شك أن المسلمين تعرضوا للظلم بعدها أيضا، وخاضوا حروبا عديدة ضد الكافرين، ولكن غزوة بدر كسرت قوة الكافرين بلا شك، وظهرت عليهم قوة المسلمين.

وغزوة بدر التي قد سماها القرآن الكريم الفرقانَ قد وردت عنها نبوءة في التوراة أيضا كالآتي: "وَحْيٌ مِنْ جِهَة بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلاد الْعَرَب تَبِيتِينَ، يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاة الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ، وَمِنْ أَمَامِ

الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ. فَإِنَّهُ هكَذَا قَالَ لِيَ السَّيِّدُ: «فِي مُــدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قِيدَارَ، وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قِيدَارَ تَقِلُّ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ»." (إِشَعْيَاءَ ٢١: ١٣-١٧)

لقد تنبأ النبي إشعياء هنا أنه بعد سنة واحدة تماما من الهجرة ستنشب حرب بين العرب يفني فيها مجدُ قيدار (قريش) كلية، والذين يتهمون محمدا ﷺ بالهروب سيولّون الدبرَ مع جنودهم، بحيث يتركون وراءهم في ساحة القتال جثث زعمائهم وقادتهم. وأخيرًا سيفقد وادي مكة مجده كلية بفقدان قادتها.

وهذا بالضبط ما أنبا به القرآن الكريم عن الليلة الحادية عشرة أنه بعد انقضاء سنة واحدة كاملة بعد الهجرة ستُكسر شوكة الكفار ويطلع صبح فتح المسلمين وانتصارهم. والمعروف أن غزوة بدر قد وقعت بعد سنة كاملة من الهجرة، وسقط فيها كبار صناديد الكافرين صرعى، وانتصر عليهم المسلمون انتصارًا ساحقًا. علمًا أن الرسول ﷺ خرج من مكة مهاجرًا في ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية. (سيرة ابن هشام: تاريخ الهجرة)، والقاعدة المعروفة أن بقية السنة تُحسَب في السنوات السابقة لا في السنة التالية.. وهكذا فالستة الأشهر الباقية من السنة الثالثة عشرة تُحسَب في الفترة المكية، وتبدأ السنة الجديدة برمضان، لأن رسالة النبي ﷺ بدأت بشهر رمضان، وبعد مجيئه إلى المدينة اكتملت عشر سنوات تمامًا على النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وبدأت السنة الحادية عشرة من رمضان. وبعد انقضاء سنة أخرى وقعت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان (الكامل لابن أثير: ذكر غزوة بدر)، حيث قُتل صناديد الكافرين وانتهت فظائعهم. وكأن الليلة الحادية عشرة التي جاءت على المسلمين انتهت بعد سنة تماما، وطلع فجر فتحهم وانتصارهم بفضل الله وتأييده ونصرته.

هذا هو مفهوم هذه الآيات الذي انكشف عليّ بإلقاء من الله تعالى، والذي كل جزء منه ثابت على ضوء تاريخ الإسلام وآيات القرآن. فلا يمكن لأحد أن ينكر أنه قد أتت على المسلمين ليال عشر مظلمة، وبعد انقضائها انبلج لهم شعاع الفجر في صورة الهجرة، ثم وقعت واقعة الشفع والوتر، وأخيرا جاءت الليلة الحادية

عشرة التي انقضت بعد سنة كاملة بحسب وعد الله تعالى، فقُضي على مجد قيدار كليًّا. لا شك أن حروبًا وقعت بعد غزوة بدر أيضا، ولكن هذه الغزوة أزالت رعب الكفار، فلم يعودوا يعتبرون المسلمين لقمة سائغة، بل اعترفوا علنًا أن مقاومتهم صعبة.

إذن، فهذه الآيات نبوءة عن الأحداث الآتية في حياة الرسول ﷺ، وقد ذكر القرآن كل واحدة منها باسمها في مواضع أخرى، بل قد ذكر ثلاثة منها ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ معًا في مكان واحد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

لقد ذكرتُ من قبل أن الترتيب يتم بثلاث طرق: أوّلها يبدأ من الأسفل إلى الأعلى، وثانيها من الأعلى إلى الأسفل، وثالثها ترتيب مثلث يذكر الأعلى في الوسط ويذكر ما دونه على يمينه وشماله. وقد بينت أن في قوله تعالى ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ترتيبًا مُثَلَّثًا، حيث ذكر الله تعالى القتلَ - الذي هو أخطر المكائد- في الوسط، وذكر على يمينه وشماله الإثبات والإخراج اللذين هما أقلّ من القتل.

غير أن هناك ترتيبا آخر يجري مستقيما دونما خلل، وهو أن الله تعالى لم يذكر هنا الإثبات والقتل والإخراج بحسب ما اقترحه الكافرون، أعني ليس المراد أنهم اقترحوا القيْد أولاً ثم القتل ثم الإخراج، والدليل على ذلك أنهم اتفقوا على القتل أخيرا وليس على الإخراج، إنما جاء هذا الترتيب نظرًا إلى الواقع. لقد حاصروا النبي ﷺ ليلاً وحبسوه في بيته حسب ظنهم، فذكر الله الإثبات أولاً. ثم خرج النبي ﷺ من بيته مهاجرًا ومرّ بالمحاصرين، فكانت عندهم فرصة سانحة لقتله، إذ لم يحاصروه إلا لهذا الغرض، لذلك ذكر الله تعالى القتل بعد الإثبات ليبين أنهم رغم نية قتله فشلوا في قتله. وفي الأخير وقع حادث الإخراج، ورغم أن اضطهادهم دفع النبي ﷺ إلى الخروج من مكة إلا أن الله تعالى قد نسب الإخراج إلى نفسه في قوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾(الأنفال:٦)، ذلك لأنه لو لم يُخرجه الله ﷻ في ذلك الوقت لقُتل عندما داهموا بيته، فخرج ﷺ بأمر الله تعالى واختفى في

غار ثور، ولما وصل الكافرون إلى مدخل الغار باحثين عنه، نجا وخرج بنفسه. وهكذا أفشلهم الله تعالى في مكائدهم الثلاث: الإثبات والقتل والإخراج.

بيد أن هذا المعنى الثاني هو في المقام الثاني عندي، لأني أفضِّل المعنى الأول.

وقبل أن أبيّن الظهور الثاني لهذه النبوءة أودّ الإجابة على شبهة قد تنتاب البعض وهي: لماذا لم ينكشف هذا المعنى على الصحابة في زمن الرسول ﷺ لتقام الحجة على الكافرين عندها؟

والجواب: فيما يتعلق بإقامة الحجة فهو ممكن اليوم أيضا إذ نستطيع إقامتها على منكري الإسلام وإقناعهم بصدق الإسلام والقرآن بتقديم هذا المعنى. القرآن ليس لزمن واحد، بل هو لكل العصور، ولو قدّمنا اليوم هذه النبوءات أمام أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بهذه النبوءات وينكرون صدق الإسلام وصدق نبيه ﷺ، فلا بد أن يؤمنوا بصدق الإسلام لو كان عندهم عدل وأمانة.

أما السؤال: لماذا لم تنكشف هذه المعاني من قبل، فجوابه أن لكل عصر سلاحه، وليس ضروريا أن يكون السلاح الماضي اليوم ماضيًا في كل عصر. كان نجاح النبي ﷺ بحد ذاته آية عظيمة في عصره بحيث ما كان الصحابة بحاجة إلى دليل آخر، والتاريخ شاهد على ما أقول. فمثلاً أمر النبي ﷺ لدى فتح مكة بقتل هند زوجة أبي سفيان حيثما وُجدت، ولكنها حضرتْ مجلس النبي ﷺ متنقبةً بين النسوة الأخريات اللواتي جئن للبيعة (السيرة النبوية لأحمد بن زيني: غزوة الفتح الأعظم، والسيرة الحلبية: ذكرُ فتح مكة)، فلما قال لهن النبي ﷺ أثناء البيعة أن يعاهدنه على عدم الشرك، لم تتمالك هند نفسها إذ كانت حماسية الطبع، فقالت من فورها: يا رسول الله، أنشرك بالله تعالى بعد كل ذلك؟ كنتَ وحيدًا وحاربناك أجمعين، فلو كانت أصنامنا تملك نفعًا أو ضرًا لم تنتصر علينا ولم نر هذا الخزي والهوان. فكيف يمكن أن يشرك أحد بعد رؤية نجاحك؟ فما الحاجة الآن لأن تأخذ منا هذا الإقرار بعدم الشرك بالله؟

فترى أن آية انتصار النبي ﷺ كانت تبلغ من التأثير بحيث لم يكن الناس عندها يبحثون عن أدلة أخرى. ولما كان القرآن لكل عصر، فلا بد أن تنكشف معارفه

الجديدة في كل عصر. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن المفسرين المتأخرين قد استخرجوا من التوراة الأنباء التي تتحدث عن بعثة الرسول ﷺ وذكروها لدى تفسير قوله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾(الأحقاف:١١)، ولكن الصحابة لم يفطنوا إليها. (الفرقان في تفسير القرآن، وبيان القرآن). ذلك لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى الأنباء السابقة لمعرفة صدق الرسول ﷺ، وإنما كان يكفيهم دليلا على صدقه ﷺ أنه كان وحيدا عديم الحيلة وقام في ظروف غير مواتية، ومع ذلك انتصر. ولكن هذه الآيات التي كانت تشفي غليل الأولين لم تعُدْ كافية بمرور الأيام، فمسّت الحاجة إلى البحث عن آيات جديدة من القرآن الكريم، فبحث عنها المفسرون وارتكز اهتمامهم عليها أكثر. فلم يكن الصحابة بحاجة إلى مثل هذه الأدلة، وإن كانت مذكورة في القرآن الكريم، بينما كنا بحاجة للبحث عنها لسد حاجات أهل هذا العصر، فلما تدبرنا القرآن الكريم انكشفت علينا معارفه الجديدة. باختصار، كان عند الأولين آيات بيّنة جليّة على صدق النبي ﷺ وهي أن القوم أرادوا قتله فلم يقدروا، وأرادوا سحقه فلم يقدروا، وأرادوا الغلبة عليه فعجزوا؛ وبعد رؤية هذه الآيات العظيمة ما كان الأولون بحاجة إلى دليل آخر على صدقه ﷺ. كما كانت أحكام الإسلام حول العدل والإنصاف والمحبة وترك السيئات وغيرها واضحة ورائعة إزاء الشرائع اليهودية والمسيحية والمجوسية وغيرها بحيث أيقن الصحابة على وجه البصيرة أن لا مثيل لتعاليم الإسلام لدى الأديان الأخرى، وبالتالي ما كانوا ليتوجهوا إلى أدلة أخرى على صدق الإسلام أو يبحثوا في كتب الديانات الأخرى عن النبوءات الواردة في حقه. لا شك أن المفسرين ذكروا هذه النبوءات الواردة في كتب الأولين ولكنهم لم يذكروها إلا بعد أن وصل الإسلام إلى البلاد المسيحية، ذلك لأن الأدلة التي قُدِّمت للمشركين في البداية لم تكن كافية للمسيحيين، فأخذ المفسرون يبحثون عن النبوءات الواردة في الصحف السابقة، كما تدبروا في القرآن وأتوا بأدلة جديدة. وكل ما ورد في التفاسير فيما بعد من أدلة جديدة إنما كان نتيجة هذه الحاجات المستجدّة. لا شك أن هذه الأمور كلها كانت موجودة في معادنها، ولكن كل شيء منها ظل دفينًا

بحكمة ربانية، ثم انكشف حين احتاج الزمان إليه. والقاعدة أن التقدم العلمي يتمّ دائمًا خطوة بعد خطوة، وكل خطوة تكون إلى الأمام لا إلى الوراء. فمثلاً لو مشت الأمّ حاملةً ابنَها على كتفها عشرة أميال، ثم مشى الابن بعد ذلك، فلا بد أن يمشى إلى الأمام لا إلى الخلف، مع أنها أقوى منه وأن النُدَب والقروح ظهرت على أقدامها لطول المشي، لكن لا يمكن القول أنه قد سبق أمه. كذلك يأتي المرء بأدلة جديدة أحيانا رغم كونه أقلّ علمًا من الأولين، ذلك لأن العلم يزداد دائما، وأن معارف القرآن الجديدة تنكشف في كل زمن حسب الضرورة. فلا يصحّ الاعتراض على انكشاف هذه المعارف على المسيح الموعود عليه السلام وعدم انكشافها على الأولين.

وقد يقول البعض هنا: لماذا ذُكرت الليالي في قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ نكرةً؟ هذا السؤال قد أثاره المفسرون القدامى أيضا، وأجابوا عليه بإجابة صحيحة تماما أنها ذُكرت نكرةً على سبيل التعظيم والتفخيم؛ لأن التنوين في اللغة العربية يفيد عدّة أغراض منها التنكيرُ حينًا والتعظيمُ حينًا آخر، ولا يعني التعظيم هنا كون الشيء جيدًا، بل يعني تفخيمه فقط بغضّ النظر عن جودته أو رداءته. فمثلا: لو كان الظلم كبيرا أو الإنعام كبيرا، فكلاهما يُذكر بالتنوين إذا أريد تفخيمهما (فتح البيان، والجامع لأحكام القرآن، والكشاف). ولم يفسّر المفسرون قوله تعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بمعنى الليالي العشر من رمضان أو من ذي الحجة، إلا لكونها ذات عظمة وشأن، ولكن كما أثبتُّ من قبل أنه ليس تفسيرًا صحيحا، بل المراد من (ليال عشر) تلك السنوات العشر الشداد التي تعرض فيها المسلمون لاضطهاد شديد في مكة، كما ورد في كتب الحديث والتاريخ، حتى اضطر الصحابة للهجرة إلى الحبشة مرتين، وإلى المدينة مرة. فهناك هجرتان نظرًا إلى المناطق، وثلاث هجرات نظرًا إلى المرات. باختصار، قد جاءت (ليال عشر) نكرةً للإشارة إلى ما سيتعرض له المسلمون من فظائع مروِّعة بيد كفار مكة.

نبوءة عن العصر الحاضر:

لقد ذكرتُ من قبل أن السور العديدة السابقة تتضمن نبوءات ذات صلة ببعثتي الرسول ﷺ الأولى والثانية، وأن سورة الفجر حلقة هامة من سلسلة تلك السور. فكما أن سورة الغاشية وغيرها من السور تتنبأ عن بعثتين للنبي ﷺ، كذلك تتحدث سورة الفجر عنهما. فهذه النبوءة التي ذكرتها آنفًا بالتفصيل لا تتعلق بالبعثة الأولى فقط، بل بالبعثتين. ونعرف أحوال زمن البعثة النبوية الثانية مما ذكره الرسول ﷺ من أخبار مستقبلية، وكذلك نجد الإشارة إليها في قول الله تعالى ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الرعد:٢). فقد ذكر ابن إسحاق والبخاري في تاريخهما وروى ابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال: "مرَّ أبو ياسر بن أخطب (أحد كبار أحبار اليهود) في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة.. فأتى أخاه حييَّ بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعتُ محمدا يتلو فيما أُنــزلَ عليه ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾. فقال: أنت سمعتَ؟ فقال: نعم. فمشى حُيَيّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم يُذكر أنك تتلو فيما أُنــزلَ عليك ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ قال: بلى. قال: أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم. فقال حُييّ بن أخطب وأقبلَ على مَن كان معه: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة؛ أفتدخلون في دينِ نبيٍّ مدّةُ مُلكه وأَجَلُ أُمّته إحدى وسبعون سنة؟ لا بأس لو بقينا تحت حكمه وصبرنا على الأذى لواحد وسبعين سنة، لأن غلبته ستنتهي بعدها. فقال النبي ﷺ: عندي غيره. قال: وما ذاك؟ قال: المص. فقال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومئة سنة؛ ولا بأس أيضًا. فقال النبي ﷺ: عندي غيره. قال: وما ذاك؟ قال: الر. قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان، فهذه إحدى وثلاثون سنة ومئتان؛ وليست بمدة طويلة. فقال النبي ﷺ: عندي غيره أيضا وهو: المر. قال:

فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مئتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومئتان؛ ثم قال: لقد لَبِسَ علينا أمرُك يا محمد. ثم قاموا وذهبوا. (فتح البيان)

لقد تبين من هذه الرواية أن الرسول ﷺ لم يفنّد رأي هذا الحبر اليهودي بل صدّقه، مما يؤكد أن المقطعات القرآنية تتضمن فيما تتضمن نبوءة عن أحداث تقع في الإسلام، سواء كانت هذه الأحداث صغيرة أو خطيرة. وعندما ننظر في سورة الرعد التي تشتمل على أخبار خطيرة جدًّا نجدها تبدأ بقول الله تعالى ﴿المر﴾، مما يعني أن زمن غلبة الإسلام سيستمر إلى ٢٧١ عاما، وفي تلك السنة ستقع واقعة هامة تؤدي إلى اضمحلال الإسلام.. ذلك لأنه في حساب الجُمّل (المر)= ٢٧١ حيث أ=١، ل=٣٠، م=٤٠، ر=٢٠٠، والمجموع=٢٧١.

بعد قراءة هذا الحديث والتدبر في سورة الرعد والإمعان فيها بدأتُ البحث عما إذا كان هناك حادث هام ذو صلة بضعف الإسلام قد وقع في عام ٢٧١ هـ أو قريبا منها - لقد قلت: "أو قريبًا منها" لأن بعض الأحداث تقع في سنة معينة، ولكن أساسها يوضع قبلها بسنة أو سنتين- فبناء على ذلك بدأتُ أُجيلُ النظر في تاريخ الإسلام لأرى ما إذا كانت واقعة هامة يمكن اعتبارها أساسًا لضعف الإسلام قد وقعت ما بين ٢٧٠ هـ إلى ٢٨٠. وأذهلني هذا البحث، إذ وجدتُ أنه في عام ٢٧١ بالتحديد -وليس في عام ٢٧٠ أو ٢٧٢ أو ٢٧٣ أو ٢٧٤- عقَد مَلِكُ إسبانيا المسلم اتفاقيةً مع البابا لينصره على تدمير الدولة العباسية في بغداد. وهذا يعني أن ملِكًا مسلمًا عقد معاهدة مع مَلِكٍ مسيحي لمحاربة ملِكٍ مسلم آخر وتدمير مُلكه. ثم حين طالعت تاريخ الدولة العباسيةِ الإسلامية في بغدادٍ، وجدتُ أنها أيضًا عقدت مع قيصر القسطنطينية معاهدة لتدمير حكومة الأندلس الإسلامية في عام ٢٧٢ أو ٢٧٣ هـ.

وهاتان الواقعتان الخطيرتان قد أدتا إلى إضعاف الإسلام للأبد فلم يعد رقيه على ما كان عليه من قبل. أما قبل ذلك فكان المسلمون متّحدين ضد عدوهم؛ فمثلاً حين كان عليّ رضي الله عنه ومعاوية يتحاربان أراد قيصر القسطنطينية الهجوم على

المسلمين، وكانت دولة معاوية تقع بينه وبين دولة عليّ، فلما علِم معاوية بنوايا قيصر بعث إليه قائلا: لا تغترّ بما بيني وبين عليّ من حرب، فلو جئتَ بجيشك لمحاربة عليّ فسأكون أول قائد يخرج لحربك مِن قِبل عليّ (البداية والنهاية: ج ٨ ص١٢٥-١٢٦). وهذا يعني أن معاوية لن يحارب قيصر فقط، بل سيتصالح مع عليّ ويحارب قيصر تحت إمرته. فلما تلقى قيصر رسالته خاف وانثنى عن عزمه على حرب المسلمين. فترى أن المسلمين كانوا في البداية متحدين ضد عدوهم رغم حربهم فيما بينهم، ولكن في عام ٢٧١ هـ عقدت دولة إسلامية اتفاقية مع البابا، بينما عقدت دولة إسلامية أخرى اتفاقية مع قيصر القسطنطينية للقضاء على الأولى بمساندة المسيحيين. إنا لله وإنا إليه راجعون. إذ وضع الأساس لضعف الإسلام في عام ٢٧١ هـ. عندها فهمتُ أن الرأي الذي قدّمه اليهود عن المقطعات والذي لم يرفضه الرسول ﷺ هو حقيقة ثابتة.

وقال الله تعالى في مكان آخر ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦).. أي أنّ من سُنَّة الله المستمرة أنه ينـزل للناس الهدى من السماء، ويقيم جماعة من المؤمنين.. وسيفعل الآن أيضا ويقيم الإسلام على يد رسوله ﷺ في الدنيا، ولكن هذا الدين سيبدأ في الصعود إلى السماء في يوم مقداره ألف سنة مما تعدّون.

لقد أنبأ الله تعالى هنا عن فترة ضعف الإسلام التي ستمتد إلى ألف سنة، حيث يرتفع الإيمان والإسلام إلى السماء، ويبتعد الناس عن الدين. ونظرًا إلى المعنى الذي بينتُه من قبل لقوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فيما يتعلق بعصر الرسول ﷺ، كان الليل يساوي سنة، ولكن نظرًا إلى هذا المعنى الثاني المتعلق بضعف الإسلام، فالليل يساوي قرنا، حيث بين الله تعالى أنه سيأتي على الإسلام لَيَالٍ عَشْر مظلمة، وكل ليلة منها ستساوي قرنا من الزمان، أي أن هذه الفترة ستمتد إلى ألف سنة.

فيا لها من مشابهة لطيفة! فكما جاءت في زمن النبي ﷺ عشر سنوات من الظلم والجور بعد انقضاء ثلاث سنوات من البعثة، كذلك قد أخبر الله هنا أن الإسلام

سيضعف بعد القرون الثلاثة الأولى وأن فترة ضعفه هذه ستمتد لعشرة قرون.. أي ألف سنة. وقد بدأت هذه الفترة من السنة ٢٧١ هـ كما بينت آنفًا، فلو أضفنا إليها ألف سنة التي هي فترة ضعف الإسلام صارت عندنا ١٢٧١ عاما، أي قرابة ١٣ قرنا. فثبت أن القرآن الكريم يتحدث عن ١٣ قرنا للإسلام؛ كانت حوالي ثلاثة قرون منها (أو ٢٧١ سنة) فترة رقيه، وعشرة قرون منها تشبه الليل، وكما طلع الفجر بعد ليال عشر في بداية الإسلام، كذلك سيطلع الفجر بعد (ليال عشر مظلمة).. كل واحدة منها تساوي قرنًا من الزمان.

وقد أُشير إلى الموضوع نفسه في قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾(سبأ:٢٩-٣١)

قبل شرح هذه الآية يجب أن نفهم أن الله تعالى أعلن في الآية ٤١ من سورة الأحزاب أن محمدًا ﷺ خاتمُ النبيين، أي أنه من الآن فصاعدا لن ينال الناس قرب الله وغيره من البركات والفيوض الإلهية مباشرةً، بل بواسطته واتّباعه ﷺ. وسورة سبأ أيضًا تتحدث عن هذا الموضوع نفسه، حيث أكد الله تعالى أنه سيقيم في الدنيا نظاما جديدا أبديا على يد رسوله ﷺ. وهنا ينشأ سؤال: هل يعني هذا أن محمدا ﷺ منع الناس من الوصول إلى الدرجات العلا في هذا النظام الروحاني الجديد؟ فأجاب الله على ذلك في سورة سبأ وبين أن محمدا ﷺ لم يمنع الناس من الوصول إلى المقامات الروحانية العالية، والدليل على ذلك أنه سيأتي على الدوام مِن بين أتباعه ﷺ أنبياء خادمون له، فقال الله تعالى لنبيه: يا محمد، ما كانت نبوّتك لتنتهي، بل هي مستمرة إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.. أي لقد أرسلناك بشيرا ونذيرًا للناس جميعا سواء كانوا عربا من الجزيرة العربية أو سوريين أو فلسطينيين أو من أي شعب آخر ومن أي قرن وزمان. لا شك أن الإيمان بكل نبي صادق ضروريٌّ؛ إذ لا بد لأتباع النبي ﷺ من الإيمان بموسى عليه السلام مع أنه لم يكن مبعوثا إلى العالم كله، أما محمد ﷺ فيقول الله له لم نبعثك ليؤمن بك الناس فحسب، بل لتكون بشيرا ونذيرا لأهل كل عصر إلى

يوم القيامة. لا شك أن موسى ؑ كان نبيًا صادقًا، ولكنه لا يقوم اليوم بأي تبشير ولا إنذار، وليست أحكامه جارية اليوم بحيث إذا كفر بها الناس تعرضوا للعذاب وإذا عملوا بها تمتعوا بفضل الله ونِعَمه؛ وإن الفضل أو العذاب لا ينـــزل على الإنسان إلا نتيجة إيمانه أو كُفره بنبي نبوته جاريةٌ وسارية، لذلك يقول الله تعالى لنبيه ﷺ لقد بعثناك لجميع الناس في كل العصور إلى يوم القيامة فلا بد لهم من الإيمان بنبوتك، وليس هذا فحسب بل ستظل بشيرا ونذيرا لهم أيضا، فالذين يؤمنون بك سنشملهم بفضلنا، والذين يكفرون بك سننـــزل عليهم العذاب من عندنا.

ثم قال الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.. وليس المراد من قول الله هذا أن الناس لا يؤمنون بك، فهذا الأمر مفهوم ومعروف لا فائدة في إعادته، إنما المراد منه أن ما قلناه لك الآن لم يعرفه الناس من قبل، لأنهم كلهم كانوا يعرفون ويؤمنون بأنبياء مختصين بشعبهم وبعصرهم فقط، إلا المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بمُلك روحاني أبدي وللعالم كله، أما غيرهم فكلهم لم يؤمنوا بهذه العقيدة، لأن الأنبياء ظلوا يُبعثون وتُنسَخ شرائعهم على مر العصور؛ فلذلك يقول الله تعالى إن الدعوى التي أعلناها عن منصبك لا يعلمها أكثر الناس، إذ يعتقدون أنه كلما جاء نبي نسَخ نبوة النبي السابق، وبالفعل لم يحدث في الدنيا قبل النبي ﷺ قط أن بُعث نبي للعالم كله وإلى العصور كلها. إن الهندوس يرون أن كتابهم الفيدا شريعة أبدية، ولكنهم لا يعتبرونها للعالم كله، إذ يؤمنون أنه لو سمع أحد الشُودر✪ كلمة من الفيدا فيجب أن يوضع في أذنه رصاص مغليّ. أما الزرادشتيون فهم صامتون في

✪ تقسم الديانة الهندوسية أتباعَها على أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" من فمه حسب زعمهم: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعَمَلُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة كتنظيف الشوارع والمراحيض. (المترجم)

هذه القضية، ولكن الواضح تماما أن دينهم ليس للعالم كله. أما اليهود فبدأوا يقولون الآن إن شريعتهم أبدية. والحق أن هذه الفكرة قد تبلورت في أذهانهم مؤخرا، أما قبل ذلك فكانوا يعتقدون بنـــزول شريعة أخرى كما هو ظاهر من التثنية ١٨: ٨، والتثنية ٣٣: ٢. ثم جاء عيسى عليه السلام ولم يكن للعالم كله، ولكنه بُعث في زمن قريب من عصر بعثة نبي كان من المقدر أن يكون للعالم كله، وكانت الظروف تتغير بسرعة، ولذلك ظنّ المسيحيون خطأً أن المسيح مبعوث للعالم كله، إلا أنهم ليسوا أكثر الناس، بينما يقول الله تعالى هنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.. أي أن الغالبية العظمى من الناس لا يحملون هذه العقيدة أصلا، بل يرون من المحال أن تكون هناك شريعة للعالم كله ثم تكون أبدية. هذان الفَرْقان لا يزالان قائمين حتى اليوم، وأتباع أكثر الأديان لا يؤمنون بذلك، إلا المسيحيون.

ثم يقول الله تعالى بعد هذه الآية من سورة سبأ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.. أي يقول الناس إذا كان محمد بشيرا ونذيرا لكل زمان فهذا يعني أن الفساد سيظل ينتشر في الدنيا وسيظهر محمد بشيرا ونذيرا للعالم لإزالة هذا الفساد، وسؤالنا: متى يأتي هذا الزمان؟ ومتى يظهر محمد ﷺ بشيرا ونذيرا للعالم مرة أخرى؟

من الواضح أن كون الرسول ﷺ بشيرا ونذيرا إلى يوم القيامة لا يعني أنه سيعود إلى الدنيا بجسده المادي ليبشر الناس وينذرهم، بل المراد أن أظلاله ﷺ سيأتون إلى الدنيا، فكلما وقع فساد في الأرض قام ظل من أظلاله بشيرا ونذيرا.. وهذا يُعتبر بعثةً ثانية للنبي ﷺ في العالم. وهذا ما أجاب الله به على سؤالهم في الآية التي تلتها فقال: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.. أي سبق أن حدّدنا ميعاد يوم لهذا الوقت - وذلك في سورة السجدة- بمعنى أن محمدا ﷺ سيُبعث بشيرًا ونذيرا للعالم ثانية بعد انقضاء فترة الفساد في الإسلام الممتدة ألف سنة. فقوله تعالى ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.. هو في الواقع إشارة إلى تلك الليالي العشر المظلمة التي أتت على المسلمين بعد فترة رقي الإسلام الممتدة حوالي ثلاثة قرون، وقد ظلت مخيمة عليهم لألف سنة هي

المذكورة في سورة السجدة في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

إذن، تحدث القرآن الكريم عن ثلاثة عشر قرنا، وبيّن أن عشرة قرون منها تشبه عشر ليال مظلمة تتوالى على المسلمين، وكل ليلة منها تساوي ١٠٠ عام.

كذلك قال الله تعالى في موضع آخر ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۞ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق:١٧-٢٠).. أي ليس الأمر كما تقولون، فإني أقدم كشهادةٍ الشفقَ، ثم الليلَ وما جمع في نفسه، ثم القمرَ حين يدخل في ليلته الثالثة عشرة. فقوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يعني أن الأمر ليس كما تظنون، فإني أقدّم شهادة الشفق.. أي حين تغيب الشمس وتبقى حُمرتها. فكأنه تعالى يقول للكافرين إن جهودهم للقضاء على الإسلام ستذهب سدى، لأن الإسلام سينتصر حتمًا ولن يهزموه مهما فعلوا. غير أن هذا لا يعني أن الإسلام سيظل قويا على الدوام، بل كما أن الشمس تغيب بعد فترة معينة وتظل حمرة في الأفق، كذلك سيأتي على الإسلام زمان تظهر فيه آثار الاضمحلال مع بقاء الشفق، بمعنى أنه زمان لا يكون فيه ضوؤه ضوء النهار، كما لن يكون الظلام شديدًا كظلمة الليل، بل يكون الأمر خليطا، حيث تكون فيه الغلبة للمسلمين ولكن يظهر فيهم الضعف والاضمحلال أيضا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي ثم أقدّم لكم كشهادةٍ الليلَ وكل ما يحتويه من شرّ... أي ليلة مخيفة تجتمع فيها أنواع الشدائد والظلمات.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي ثم أقدّم كشهادةٍ القمرَ حين يدخل ليلته الثالثة عشرة. واتّساق القمر يكشف بجلاء أن الليل هنا ليس ليلا ماديا، بل هو ليل مجازي، إذ المعروف أن الليلة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة في الشهر القمري لا تكون حالكة الظلام، بل الليالي الحالكة تأتي في آخر الشهر. فلو كان المراد هنا الليل المادّي لم يقل الله تعالى بعده ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. فهذه القرينة دليل أن الحديث هنا ليس عن ليل مادي. وقد سبق أن بينتُ في تفسير سورة الانشقاق أن اتساق القمر يعني استواءه في الليلة الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة من الشهر

القمري. فكأن الله تعالى قد أخبر هنا أن شمس الإسلام تغيب كما يغيب النهار، ولكن اضمحلال الإسلام هذا لن يحدث مرة واحدة، بل سيكون تدريجيا إلى أن تغيب شمسه عن أعين الناس، ويبقى شفقها في الأفق، ثم يغيب الشفق أيضا ليخيم ليل مظلم على المسلمين. ثم يطلع القمر في الليلة الثالثة عشرة حتى الليلة السادسة عشرة ليُنهي مصائب الإسلام كلها، وسوف يستمر هذا الرقي ليكتمل حتى القرن السادس عشر.

لقد اختار الله تعالى لبيان هذه الحقيقة كلمة رائعة: (اتّسق)، وقد ورد في المعاجم -كما ذكرنا بالتفصيل لدى شرح الكلمات- أن اتساق القمر هو استواؤه في الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة من الشهر. ولو اعتبرنا الليلة الثالثة عشرة والرابعة عشرة بداية طلوع هذا القمر، فإن الليلة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ستُعتبران ذروة إنارة القمر.

باختصار، لقد بين الله تعالى هنا أن الإسلام سيؤول إلى الضعف، ولكن سيطلع القمر في القرن الثالث عشر لينتهي زمن الآلام. وقد أكد الله هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾.. أي لا بد أن تمرّوا بهذه المراحل كلها درجة درجة، فستأتي على الإسلام فترات الظلام ثم فترات النور، وستأتي أيام القوة وأيام الاضمحلال. ستُشبِهون الشفق في البداية ثم يخيم عليكم الليل المخيف بكل ظلماته. ثم يطلع عليكم القمر الذي سيبدد هذه الظلمات كلها لتنتهي مصائب الإسلام.

هذا كله يكشف أن الليالي هنا ليست مادية كما قلتُ، بل هي ليالٍ مجازية، حيث رسمتْ هذه الآيات انحطاط المسلمين ثم ازدهارهم ثانية.

وكذلك قال الله تعالى في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾(البروج:٢-٤).. أي نقدّم كشهادةٍ السماءَ ذات البروج. وحيث إن البروج عند علماء الفَلك هي اثنا عشر برجًا لاثني عشر نجمًا، وعليه فالآية تعني أننا نقدّم كشهادةٍ السماء ذات البروج الاثني عشر، ثم نقدّم كشهادةٍ اليوم الموعود.. أي القرن الثالث عشر، إذ كان من المقدر أن يُبعث في هذا القرن لإحياء الإسلام موعود رباني وُصف في الآية التالية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾،

بمعنى أنه سيأتي شاهدا على صدق إنسان آخر هو مشهود.. والمراد أن الله تعالى سيبعث عندها المسيح الموعود كشاهد على صدق الرسول ﷺ والقرآن المجيد.. فيبدِّل ضعف الإسلام إلى رقيّه.

إذًا، فهذه الآية أيضا تدل على ظهور مبعوث من عند الله في القرن الثالث عشر.

كذلك ورد في الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..... ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ (البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا). والمراد من قوله ﷺ: "وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ" الثلاثة أنهم يصابون بالسمنة من كثرة الأكل، ولن يرغبوا في الدين والتضحية في سبيله.

يتضح بالجمع بين كل هذه الآيات والنبوءات أن القرون الثلاثة الأولى هي فترة ازدهار الإسلام، ثم تأتي عليه عشرة قرون طويلة من الضعف والاضمحلال. وقد بيّنتُ من قبل أنه ليس بضروري أن تكون هذه الفترة متكاملة ١٠٠% إلا أن تكون هناك قرينة، بل يُعتبر معظم السنة سنة كاملة، ومعظم اليوم يوما كاملا، ومعظم القرن قرنا كاملا. فلا تناقُضَ أصلاً بين ما ورد في الحديث أن فترة رقي الإسلام ثلاثة قرون يظهر بعدها الفتن وبين ما تبينَ من مقطعة سورة الرعد: ﴿المر﴾ من أن الفساد يظهر بعد٢٧١ سنة، بل الواقع أن هذه الفترة قد حددت تحديدا في مكان، بينما استُخدمت في مكان آخر كلمات تقريبية بحسب العرف.

باختصار، قال الله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. أي نُقسِم بالفجر والليالي العشر التي تسبقه. والمراد من الليالي العشر هو فترة الألف سنة من الضعف الذي أتى على الإسلام بعد ثلاثة قرون من ازدهاره، والذي قد اشتد كل شدة حتى جمعت هذه الليالي كل الظلمات. وكما أن الليل في نبوءة الليالي العشر كان يماثل سنة واحدة فيما يتعلق بصدر الإسلام، فإن الليل كان يماثل قرنا فيما يتعلق بالزمن الأخير، فأخبر الله تعالى أنه بعد هذه الليالي المظلمة سيطلع الفجر، وستنقشع غيوم الظلمة عن سماء الإسلام؛ ومن أجل ذلك كان من أسماء المسيح الموعود عليه السلام الطارقُ، حيث نجد أول وحي تلقاه عليه السلام هو: "والسماء والطارق" (التذكرة ص

١٩). لقد تلقاه عند وفاة أبيه، وفَهِمَ منه دُنوّ أجل أبيه، إذ توفي في نفس اليوم ليلاً. ولكن من معاني الطارق أيضا كوكب الصبح، فكأن الله طمأنه عليه السلام بنفس هذا الإلهام وقال لا داعي للقلق فأنت الطارق.. حيث تكشف نور أبيك محمد ﷺ، فلماذا تحزن على وفاة أبيك المادي؟

واللافت للنظر أيضًا أننا إذا جمعنا حساب ﴿المر﴾ ألف سنة التي هي زمن الفَيج الأَعْوج (أي الفساد)، ثم حوّلنا هذه السنوات الهجرية إلى ميلادية بإضافة ٦٢١ سنة -وهي فترة ما بين بداية التقويم الميلادي حتى هجرة الرسول ﷺ- كانت عندنا نفس السنة الميلادية التي طلع فيها هذا الفجر، أعني السنة التي قدّم فيها المسيح الموعود عليه السلام دعواه أمام العالم. فـــمقطّعة ﴿المر﴾ تساوي٢٧١، ونضيف إليها ألف سنة هي زمن الفيج الأعوج، فتصبح ١٢٧١، ثم نضيف إليه ٦٢١ فيصبح المجموع ١٨٩٢، والآن نطرح منه سنتين أو ثلاثًا، لأن مقطّعة ﴿المر﴾ قد وردت في فاتحة سورة الرعد المكية التي نـــزلت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث، فلو طرحنا سنتين من ١٨٩٢ صارت عندنا ١٨٩٠، وهي نفس السنة التي أعلن فيها المسيح الموعود عليه السلام دعواه. ولو طرحنا منها ٣ سنوات، صارت عندنا ١٨٨٩ وهي السنة التي أخذ فيها المسيح الموعود عليه السلام البيعة من الناس.

أما إذا قمنا بالحساب طبقًا للتقويم الهجري، فنجمع الثلاثة القرون الأولى مع ليال عشر (عشرة قرون)، فتصبح ١٣٠٠، وقد أعلن المسيح الموعود عليه السلام دعواه قريبًا من ١٣٠٨هـــ، وعدد ٧ أو ٨ ضئيل جدا في فترة ١٣ قرنا، بحيث لا قيمة له.

ثم لو نظرنا من زاوية أخرى وجدنا أن هذا العدد يمثّل نبوءة عن "براهين أحمدية". لقد قام المسيح الموعود عليه السلام بتأليف كتابه "براهين أحمدية" في عام ١٣٠٠ هـــ، وطبعه في عام ١٣٠٢هـــ، وهي نفس السنة التي كان من المقدر فيها طلوع الفجر بحسب هذه النبوءة القرآنية.

إذن، فهذه النبوءة قد تحققت شمسيًا وقمريًا، وطلع الطارق في أفق السماء لتبديد ظلمات الليل. فما أعظمَها من نبوءة! فأولاً حدّد الله تعالى تواريخ طلوع هذا الفجر في القرآن الكريم والحديث، ثم بعد مضيّ مئات السنوات أقام لهداية

الناس ذلكم الشخص الذي كان مصداقا لهذه الأنباء تماما في التواريخ التي حددها لظهوره. إنها آية ربانية عظيمة إذا تدبّرَها الإنسان امتلأ قلبه يقينا بوجود الله وقدرته ﷻ، و لم يملك غير المتعصب إلا الإقرار بأنّ الإسلام دينُ الله الحق.

والآن نتوجه إلى الجزء الثالث من هذه النبوءة أعني قول الله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾. هذه الآية يمكن تفسيرها بمفهومين: أولهما أننا نقدّم كشهادةٍ واقعةَ الشفع والوتر -علمًا أن الواو هنا للعطف.. والمعنى أننا نقسم بالشفع ونقسم بالوتر، بينما الواو في قوله تعالى ﴿والفجر﴾ للقَسم، إذ ليس قبله أي كلام حتى نعتبرها للعطف- فكما أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه حين كان معه في غار ثور: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، كذلك أخبر الله تعالى هنا أن وقت اجتماع الشاهد والمشهود، أي وقت ظهور الرسول ﷺ ثانية وظهور خادمه وظلّه معه، يكون عصيبا على الإسلام حيث يُحصَر رسول الله ﷺ مع تلميذه، وعندها يُري الله الذي هو وتر للعالم أنه معهما. وهناك إلهام للمسيح الموعود عليه السلام:

"رسول اللہ ﷺ پناہ گزیں ہوئے قلعۂ ہند میں"

(التذكرة ص ٤٠٤)

أي لجأ رسول الله ﷺ إلى قلعة الهند. بمعنى كما أن الرسول ﷺ لجأ بصحبة أبي بكر إلى غار ثور فرارًا من هجوم الكافرين الأوائل، كذلك ستلجأ روحانيته ﷺ في الزمن الأخير إلى قلعة الهند فرارًا من الكفر. فنرى أن هذا الإلهام الرباني يصرح أن غار ثور الثاني سيكون في الهند، وأن رسول الله ﷺ سيلجأ إلى غار ثور الثاني مرة أخرى ويكون معه صاحبه مرة أخرى فيقول ﷺ لصاحبه مرة أخرى: لا تحزن إن الله معنا.. أي لا تحزن لأن هذا القيد نفسه سيصبح سبب النجاح بفضل الله ونصرته. إذًا، قد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه كما لاذ النبي ﷺ مع أبي بكر بغار ثور في المرة الأولى، كذلك سيلوذ النبي ﷺ مع المسيح الموعود في الزمن الأخير للإسلام، ولكن لن يلوذ هذه المرة بغار ثور، بل بقلعة الهند، فيَنـــزل الله ﷻ مع جيش من ملائكته ليكون معهما، كما نـــزل في غار ثور من قبل.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو أنْ لا نعتبر الواو في (والوتر) عطفًا على الفجر، بل عطفا على الشفع، وعندها لا يكون المعنى أننا نُقسِم بالشفع ونقسم بالوتر، بل المعنى نُقسِم بالشفع والوتر الذي معه. وكأن الله تعالى قد أقسم بالشفع والوتر معًا وليس بالشفع على حدة وبالوتر على حدة، والمراد أننا نقدم كشهادة شخصيةً هي شفع من جهة ووتر من جهة.. أي أن الفجر الذي يطلع بعد ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾ سيطلع بواسطة شخص لا يمكن فصله عن الرسول ﷺ، وإن كان شخصًا آخر في الظاهر. فمع أنه سيكون شخصا آخر في الظاهر، ويكوّن شفعًا مع الرسول ﷺ، إلا أنه لن يكون هناك نبيان ولا إمامان، بل إن هذا الموعود سيتفانى في الرسول ﷺ، بحيث سيبقى الرسول ﷺ هو الرسول الحقيقي رغم بعثة هذا الموعود. فكأن المعنى ما بيّنه المسيح الموعود عليه السلام في شطر بيت له بالأردية:

"وه ہے میں چیز کیا ہوں بس فیصلہ یہی ہے"

(قادیان کے آریا اور ہم، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص٤٥٦)

بمعنى: إنه (أي النبي ﷺ) كل شيء.. أنا لست بشيء.. هذا هو قراري.

ويقول: "من فرق بيني وبين المصطفى فما عرفني وما رأى." (الخطبة الإلهامية، الخزائن الروحانية ج ١٦ ص ٢٥٩)

وهذا الموضوع قد انكشف عليّ مرة في المنام؛ في طريقنا إلى مقبرة الجنة كان هناك ميدان بين المدرسة الأحمدية ومكتبة بيع الكتب، وقد بُنيت هناك غرف الآن.. لقد رأيت في هذا الميدان كرسيا، وقيل إن رسول الله ﷺ قادم. ثم رأيت أنه ﷺ قادم من جهة، وحينما نظرت إلى الجهة الثانية رأيت المسيح الموعود عليه السلام قادمًا أيضا، وكان كلاهما يقترب من الكرسي، فقلقتُ قلقا شديدا وقلت ما هذا الخطأ الفادح الذي ارتُكبَ؟ فالرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام قادمان، ولكن الكرسي واحد! هذه إساءة كبيرة. إلا أني لم أستطع إحضار الكرسي بسرعة كما لم يخطر هذا ببال أحد آخر، فكان قلبي يرتجف خوفا، وكلما اقتربا ازددتُ اضطرابًا حتى اقتربا من الكرسي، فقلت في نفسي: لعل المسيح الموعود عليه السلام يتأخر، ولكنه لم

يتأخر، وتقدّمَ الرسولَ ﷺ أيضا، فظننت أن قلبي سيتوقف عن الحركة، ولكني رأيتُ بعد قليل أن كليهما يحاولان الجلوس على الكرسي معًا بإمالة أجسامهما ليَسَعَهما.. ثم أخذ جسداهما يتداخلان بعضهما ببعض، فلما جلسا على الكرسي لم يكونا اثنين، بل صارا شخصا واحدا.

هذه هي الحقيقة التي بيّنها الله تعالى بقوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادة ذلك الشفع الذي يكون وترًا أيضا، بمعنى أنه سيكون هناك اثنان في الظاهر، أما في الحقيقة فليس هناك اثنان بل واحد فحسب.

ومن معاني قوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه سيظهر موعود واحد بينما يظن الناس أنه يجب أن يأتي اثنان: المهدي وعيسى، ولكنه سيكون وترا، أي سيكون شخصا واحدا ذا لقبيْن. كان الناس يظنونه شفْعا، ولكن تبين عند ظهوره أنه وتر.

وأرى أنه لم يسبق لهذا الواقع مثيل في التاريخ؛ أي أن يكون الناس ينتظرون مدّعييْن، ولكن يتبين في الأخير أنهما شخصية واحدة. إن هذا الزمن هو الزمن الوحيد الذي كان الناس ينتظرون فيه ظهور مسيح ومهدي، ولكنه لما ظهر تبين لهم أنه وتر.. بمعنى أن النبوءات كانت بظاهرها تنبئ عن شخصيتين، ولكن لم تكن هناك شخصيتان في الحقيقة، وإنما كان هناك شخص واحد له اسمان. وهذا ما بيّنه الله تعالى هنا أن هذين اسمان لشخص واحد. سيظن الناس أن هناك شفعًا، ولكن سيتبين عند ظهوره أنه وتر.

باختصار، إن لقوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ مفهومين: أولهما أن هذا الموعود له حقيقتان؛ حقيقة الشفع وحقيقة الوتر. فلأنه يكون شخصا منفصلا عن النبي ﷺ، فيبدو في الظاهر أن هناك نبييْن في الإسلام، ولكنه سيكون متفانيًا في الرسول ﷺ، تابعًا للإسلام، داعيًا إلى العمل بتعاليمه، ناطقا بشهادة محمد رسول الله ﷺ، ومعلّمًا هذه الشهادةَ للناس، فلن يكون ثمة اثنان في الواقع، بل يكون في الإسلام نبي واحد في الحقيقة، لأن الاختلاف يؤدي إلى اثنين، بينما الاتحاد يجعل الاثنين واحدا.

والمفهوم الثاني أنه موعود واحد، ولكنه سيعطى لقبيْن نظرًا إلى منصبيْن له.

ثم يقول الله تعالى بعدها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. هذه الآية تشير إلى قرن آخر يكون بعد الليالي العشر المظلمة، وكأن الله تعالى يقول لن يزدهر الإسلام مباشرة بعد انتهاء الليالي العشر المظلمة. سيطلع الفجر بعدها ولا شك، وسيسطع شعاع نور، ويرى الناس بارقة أمل، ولكن الليل لن ينقضي، بل سيكون هناك فترة قرن قبل انقضاء هذا الليل.

والآن لو اعتبرنا ١٨٩٠ عامَ بزوغ هذا الفجر، فيكتمل هذا الليل (أي القرن) في ١٩٩٠. نحن اليوم في عام ١٩٤٥، وهذا يعني أنه لا يزال هنا ٤٦ سنة قبل انقضاء هذا الليل. أما إذا قمنا بالحساب بالتقويم الهجري، واعتبرنا عام ١٢٧١ الهجري عام انتهاء هذه الليالي العشر المظلمة، فيكتمل هذا الليل الباقي أي القرن الباقي في ١٣٧١، أي قد بقي ٨ سنوات فقط على انتهاء هذا الليل. وأما إذا بدأنا الحساب من رأس القرن الهجري وظننا أن هذا الليل سينتهي في عام ١٤٠٠، فلا يزال هناك ٤٧ عاما لانتهائه. هذه ثلاثة أزمنة بثلاثة اعتبارات مختلفة، والله أعلم أي منها صحيح وأيها غير صحيح. وقد تكون كل هذه الاعتبارات الثلاثة صحيحة، مثلما بينتُ بصدد نبوءة الليالي العشر أن هذه النبوءة تحققت في العام الذي أعلن فيه المسيح الموعود عليه السلام دعواه من جهة، ومن جهة أخرى تحققت في العام الذي أخذ فيه البيعة، ومن جهة ثالثة تحققت في العام الذي نُشر فيه كتابه "براهين أحمدية"، فليس بمستبعد أن ينتهي هذا الليل الباقي بعد ثمان سنوات أي في عام ١٩٥٢ باعتبار، أو بعد ٣٧ عاما أي في عام ١٩٨١ باعتبار آخر، أو بعد ٤٦ عاما أي في عام ١٩٩٠ باعتبار ثالث. وبحسب التقويم القمري تنقص ثلاث سنوات في القرن الميلادي فلذلك لو طرحنا ٣ سنوات من ٣٧ سنة، صارت ٣٤ سنة، وبهذا الاعتبار ينتهي هذا الليل ١٣٩٧هـ. وهكذا صارت عندنا أربعة اعتبارات لا ثلاثة، وحيث إن هذه النبوءة لم تتحقق بعد، لذا يجب أن نضع في الحسبان هذه الاعتبارات كلها، بمعنى قد بقي لانتهاء هذا الليل ٨ سنوات من منظور، و٣٤ سنة من منظور آخر، و٣٧ سنة من منظور ثالث، و٤٦ سنة من منظور رابع. فسوف يتجلى الله بيوم الفرقان يقينا في هذه الفترة ثانية، وسينصر الأحمدية بآية عظيمة غير عادية. لا شك

أن الحرب بيننا وبين معارضينا ستظل مستمرة بعدها كما استمرت الحروب بعد غزوة بدر في صدر الإسلام، بيد أن الله تعالى سيكتب الغلبة للأحمدية حتى يعترف بها العدو أيضا. أما الفتح الكامل المبين للإسلام والأحمدية فسيتم بعد حوالي ثلاثة قرون كما أنبأ المسيح الموعود عليه السلام (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص٦٧). والشعوب التي لا تدخل بعدها في الأحمدية سيكون حالها كحال اليهود في هذه الأيام.

وبرغم أن هذا الفتح الأخير سيأتي بعد فترة طويلة، إلا أن الأحمدية ستحرز فتحًا ما بعد ٨ سنوات من اليوم، أو ٣٤ عاما، أو ٣٧ عاما، أو ٤٦ عاما أو قريبا من هذه السنين؛ لأن النبوءات لا تُحدَّد بالأيام، بل بشكل تقريبي؛ وقد تظهر أربعة فتوحات مختلفة في هذه المواعيد كلها. فكونوا على يقين أن الأحمدية ستنال فتحًا ما في كل هذه السنوات أو قريبا منها بإذن الله تعالى. ومن فوائد ظهور آيات الفتح والنصر في فترات متقاربة أنها تزيد إيمان المؤمنين مرة بعد أخرى. فالنبي صلى الله عليه وسلم حين خرج من بيته بسلام فرِح المسلمون، ولما نجا من هجوم الأعداء في غار ثور نالوا فرحة أخرى، ولما وصل المدينة نالوا فرحة ثالثة، ولما هزم الكفار في غزوة فرحوا فرحة رابعة. فقد يُري الله تعالى شعاعًا من الفجر عند انتهاء كل فترة من هذه الفترات الأربعة، وهكذا يزداد المؤمنون إيمانا.

لقد قال المسيح الموعود عليه السلام مشيرا إلى هذا الليل نفسه في بيت شعر له بالأردية:

دن چڑھا ہے دشمنانِ دیں کا ہم پر رات ہے

اے مرے سورج نکل باہر کہ میں ہوں بے قرار

(براهين أحمدية، الجزء الخامس، الخزائن الروحانية ج ٢١ ص ١٢٩)

أي أن شمس أعداء الدين ساطعة، أما نحن فقد خيم علينا الليل، فاطلُعي يا شمسي فإني في اضطراب شديد.

هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٦

شرح الكلمات:

حِجْر: الحِجرُ: العقلُ. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ لا يعني: هل يوجد في ذلك قَسمٌ لعاقل أم لا يوجد، بل إن (هل) تفيد التصديق الإيجابي (مغني اللبيب)، مثلما يقال في لغتنا الأردية أيضًا: أخبر الآن، هل هذا صحيح؟ والمراد أنه صحيح يقينا. فقوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يعني: هل يمكن أن تنكروا وجود قَسَمٍ لذي عقل؟ أي أن كل عاقل سيجد في هذه الشهادة دليلا على صدق الإسلام وصدق محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ يدل بوضوح على أن الله تعالى يعلن هنا أن الآيات العظيمة المذكورة أعلاه يجب أن تجعل كل عاقل يدرك أن هناك دلائل بينة وبراهين قاطعة على صدق ما نعلن، فعندما تقع تلك الآيات العظيمة فلا بد للمرء أن يقرّ أن هذه الأنباء الغيبية العظيمة كانت فعلاً من عند الله تعالى. فلا قيمة لقول البعض إن مؤسس الأحمدية قد ادعى بدون دليل، إذ لا بد أن يفكر العاقل: كيف خطر ببال هذا المدعي أن يعلن دعواه في عام ١٨٩٠م بالتحديد؟ أو لماذا لم يفكر أحدٌ قبله أن يعلن مثل هذه الدعوى في ذلك العام؟ المعروف أن هذه الأعداد والسنوات كانت خفية عن الجميع إلى حدٍّ كبير، فلماذا لم تخطر هذه الأعداد والسنوات ببال الأولين؟ وكيف خطر ببال مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أن يعلن دعواه في وقت كان يجب أن يظهر فيه المدّعي بحسب النبوءات؟

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا لم يُكتب النجاح لمن ادعى المهدوية من قبل، بينما كُتب لحضرته عليه السلام؟ هناك مئات الناس الذين ادّعوا المهدوية قبل بعثته عليه السلام، فلماذا قضي على هؤلاء حتى اندثرت آثارهم، أما هذا الشخص الذي أعلن دعواه في ١٨٩٠م فكتب الله له النجاح والقوة؟ أليس هذا دليلا أنه عليه السلام قد أعلن دعواه بناء على أمر الله تعالى ولم يكن هذا الإعلان صدفةً؟ لو كان صدفة ولو كان

نجاحه نتيجة جهود مادية، فقد كانت عند بعض مدّعي المهدوية السابقين فُرصٌ أكثر للازدهار إذ فتحوا الأمصار ونالوا الحكم أيضًا، ومع ذلك مُنوا بالهزيمة في نهاية المطاف بعد نجاح مؤقت، وانمحى أثرهم للأبد. وعلى النقيض كُتب الفتح للمسيح الموعود عليه السلام مع أنه لم تُواتِه أية فرصة مادية للنجاح.

ثم هناك فرق آخر وهو أن المسيح الموعود عليه السلام قد أعلن دعواه في المواعيد التي أخبر عنها القرآن والحديث، أما الآخرون فبعضهم أعلن دعواه قبل هذه المواعيد وبعضهم بعدها. فكأن سهامهم كلِّهم طاشت ولم يصيبوا الهدف، أما حضرته عليه السلام فكان الوحيدَ الذي عرض دعواه على الناس في الوقت الصحيح. فقد ادعى "الباب" بالمهدوية، ولكنه أعلن دعواه قبل هذا الموعد بوقت طويل. ثم ادعى بعده "بهاء الله" ولكن دعواه أيضا سبقت هذه الأوان، ورغم أنه عاش بعد دعواه في هذه المواعيد، إلا أنه مات قبيل ظهور علامة الخسوف والكسوف الخاصة بالمهدي الموعود. وهذا يعني أن كل المدعين إما قد خلوْا قبل المواعيد المذكورة في هذه الشهادة أو وُلدوا بعدها، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد أعلن دعواه في الوقت الذي كانت تقتضي فيه أنباء القرآن والحديث أن يظهر فيه المدّعي من عند الله تعالى ويقوم بمهمة إصلاح الناس.

يقول البعض ما هو الرقيّ الذي أحرزه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية حتى نصدّق دعواه؟ فالجواب:

أولا: ليس هناك أي موعود ربانيّ توجد جماعته في كل قطر من العالم، أما جماعتنا فهي موجودة اليوم في بلاد لم يوجد فيها أحمدي واحد قبل ١٥ سنة، بل لم يصل إليها اسم الإسلام أيضًا.

وثانيا: لقد وفّق الله الأحمديين للعمل في سبيل خدمة الإسلام في بلاد لم يصل إليها أي فرد من أتباع المدعين الآخرين. خذوا مثلا بلاد غرب إفريقية، فأهلها كانوا يعيشون عراة ولا يعرفون ما العلم وما التهذيب وما التمدن، وعندما وصل إليها الدعاة الأحمديون دخل آلاف الآلاف من أهلها في نطاق "الناس" وأخذوا يعيشون حياة متمدنة. والحق أن مثل هذه الإنجازات العَملية هي التي تدل على حياة

الأمم.. أما توزيع المنشورات وحدها فلا قيمة له. وكما قلت لقد وفق الله تعالى جماعتَنا لإنجاز أعمال لم تُوفَّق لها جماعاتُ أي من المدعين الآخرين.

ومن علامات الازدهار التي ذكرها القرآن الكريم والتي نتميز بها بفضل الله تعالى دون جماعات المدعين الآخرين هو اجتماعنا في مركز واحد لكي لا يتشتت شملنا، ولكي نواصل مهمة التبليغ في العالم بجهود مكثفة موحدة. ليس للبهائيين -مثلاً- مركز حتى اليوم، ولكن يوجد لجماعتنا الإسلامية الأحمدية مركز وهو قاديان، حيث يزوره الآلاف كل سنة، ثم يرجعون إلى ديارهم بعد شفاء غليلهم العلمي والروحاني. إنه ذلك المركز الذي أوحي إلى المسيح الموعود عليه السلام بشأنه: "يأتيك من كل فج عميق، يأتون من كل فج عميق" (التذكرة ص ٣٩).. أي سيأتيك الناس من أماكن بعيدة بكثرة حتى تصير حُفرٌ في الطرق التي يأتون منها؟

وقد رأى المسيح الموعود عليه السلام في الرؤيا ازدهار قاديان، فقال: رأيت في الكشف أن قاديان قد أصبحت مدينة عظيمة جدا، وهناك أسواق تراها على مدى النظر. وهناك محلات رائعة عالية ذات طابقين أو أربعة أو أكثر من ذلك، ولها شُرفات مرتفعة يجلس فيها تجار ذوو بطون كبيرة يزينون السوق، وأمامهم أكوام من الجواهر واللآلئ والألماس والروبيات والدراهم والدنانير بحيث تتلألأ هذه المحلات المتنوعة ببضائع جميلة. وهناك عربات حصان واحد وعربات حصانين وعربات من قبيل Tomtom وFitton، وأناس كثيرون يمشون في السوق حتى تصطدم الأكتاف بالأكتاف بحيث لا يقدر المرء على المشي إلا بصعوبة. (التذكرة ص ٣٤٣).

كذلك أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن الناس سيتركون أهل وطنهم ويهاجرون إلى قاديان (التذكرة ص٤٠-٤١). وطبقًا لهذه النبوءات قد هاجر الآلاف إلى قاديان وهي لا تزال في ازدهار متواصل. وإن ترك الوطن والمال والعقار والهجرة إلى بلد آخر لوجه الله تعالى فقط دليل على تضحية كبيرة. والأمة التي تتحلى بهذه التضحية لا تموت أبدا. وعلى النقيض لو ذهبتَ إلى عكّا والبهجة وجدتَ البهائيين هناك يصيدون الذُّبّان، ولا يزورهم من الخارج أحد. في طريقنا

إلى أوروبا ذهب بعض أصحابنا إلى عكا، فأخذ البهائيون هناك يطاردونهم ويقولون لهم بإلحاح: خذوا عِنَب قَبْرِ بهاء الله، فهي مباركة. وهذا يعني أن هؤلاء أصبحوا كمجاوري القبور عندنا في الهند، ويأتون بأعمال وثنية مثلهم. أما رقيهم فيمكن أن تقدّره مما حدث معنا هناك. فلما ذهبنا إلى عكا سألنا الناس عن مركز البهائيين، فأجاب كل واحد منهم: لا أعلم. فأخذتنا حيرة وقلنا: لقد وصلنا عكّا ولا نستطيع العثور على مركز البهائيين! وأخيرا وبعد جهد جهيد أخبرَنا شخص أنكم تسألون الناس سؤالاً خاطئا؛ إن البهائيين ليسوا معروفين هنا باسم البهائية، بل يُعرفون هنا باسم العجمية، حيث يسميهم الناس عجميين، فلو سألتم الناس عن مركز العجميين لفهموا قولكم. ثم أخبرَنا أن هؤلاء العجميين ليسوا في عكا، بل مركزهم في البهجة التي تقع على مسافة ٣ أو ٤ أميال خارج عكا. فوصلنا إلى البهجة بالسيارة ورأينا حال البهائيين. وعندها علمنا أنهم قد بدءوا الآن يكتبون أن مركزهم عكا لورود هذا الاسم في بعض الأنباء القديمة. والحق أن مركزهم ليس في عكا، بل خارجها بأربعة أميال تقريبا.

فرغم أن الباب والبهاء قد أعلنا دعواهما منذ سنوات وسنوات إلا أن الناس لا يعرفون أتباعهما على بعد أربعة أو خمسة أميال من مركزهم أيضا. أما نحن فببركة المسيح الموعود عليه السلام لو ذكر الأحمدي للناس اسمه عليه السلام لفهموا على الفور أن هذا من أتباع هذا الشخص. بل قد جعل الناس يسمّون المسلمين الأحمديين "ميرزائيين" نسبةً إلى اسمه عليه السلام: ميرزا غلام أحمد، أو يسموننا المولويين.. أي أصحاب العلم. أما كلمة عجمي فيستعملها العربي احتقارًا، ومعناها بالعربية الأمّي الجاهل. فهؤلاء البهائيون يسمَّوْن في منطقتهم عجميين (أي جاهلين)، وأما نحن فنُسمَّى مولويين أي علماء. لا شك أن جماعتنا لم تحرز الرقي المطلوب بعدُ، ولا نستطيع القول إننا قد فتحنا العالم، ولكن يقال في المثل: "الديك الفصيح من البيضة يصيح"، فإن وجود مركز لنا وانتشار جماعتنا في مختلف أقطار العالم وهجرة الآلاف من أوطانهم إلى قاديان، وتقدُّمنا المتواصل عددًا وعلمًا.. كل هذه دلائل على أننا سنفتح العالم كله في يوم من الأيام بإذن الله. لو فحصنا أحياء قاديان المختلفة لمعرفة عدد سكانها

القدامى والجدد لوجدنا أن سكانها الأصليين لا يتجاوزون ثلاثمئة شخص، وهم عائلتنا، أو سكان الحي المسمى بمحلّة (أرائين)، أما باقي سكان قاديان فكلّهم قد هاجروا إليها من الخارج، وأرى أن 1.5% فقط من أهلها هم من سكانها الأصليين. ثم يوجد بين هؤلاء المهاجرين مَن جاء مِن أفغانستان ومَن جاء من بورما، ومن هاجر من مالابار، ومن أتى من سريلانكا، وبعضهم جاء من السند، وبعضهم من البنغال، وغيرها من عشرات الأماكن والبلاد. وأرى أننا لو فحصنا جنسيات المهاجرين لوجدنا أن جنسيات أهل قاديان أكثر من جنسيات الذين جاءوا إلى لاهور من مناطق مختلفة. وهذا ليس بأمر عادي، بل إنه لأمر عظيم يشكل دليلاً قويًا على صدق الوحي الذي تلقاه المسيح الموعود ؑ: "يأتيك من كل فج عميق، يأتون من كل فج عميق". (التذكرة ص٣٩)

ثم إن الله تعالى قد نشر جماعتنا في شرائح مختلفة من المجتمع؛ فعندنا فلاحون بكثرة، وتجار بكثرة، وعلماء العربية بكثرة، وعلماء الإنجليزية بكثرة. فجماعتنا تنتشر في كل طبقة من المجتمع وكل شعبة من الحياة، ويتيسر لنا العاملون من كل مجال. ولكن هذا غير ميسر للبهائيين، إذ يوجد فيهم أناس من طبقة معينة، ولا يوجد عندهم أناس من كل الشرائح، وهذا دليل على أن طائفتهم لا تنتشر في شرائح المجتمع المختلفة، أي أنها تفتقر إلى ميزة الجماعات التي تتغلب على العالم. إن وجود بعض المثقفين الذين يجيدون النقاش في طائفة لا يكفي لحياة الجماعات الإلهية، بل لا بد لأتباعها من التحلي بروح التضحية والإيثار إلى أقصى حدّ ممكن والارتباط بمركزهم الديني وتكبُّدهم أنواع المشاقّ لنشر تعاليمهم، وأن يكونوا مصممين على تفضيل الموت على التخلي عن مبادئهم وتعاليمهم التي خرجوا يحملونها للعالم، وإن جماعتنا تتحلى بروح التضحية والإيثار والثبات بحمد الله تعالى، وليس عند البهائية مثال لذلك.

ثم إن هؤلاء القوم لم يوفَّقوا لنشر مبادئهم كما وُفّق دُعاتنا لنشر الإسلام والأحمدية. لقد خرج دعاتنا إلى كل أنحاء العالم يدعون الناس إلى الإسلام

والأحمدية، أما البهائيون فلا نظام عندهم للتبليغ، كما لا يخرج دعاتهم إلى البلاد الأخرى، ولا يتحلون بروح الدعوة والتبليغ.

كما لا يوجد عند البهائيين مثال للأعمال التي تنجزها جماعتنا. لقد عملت جماعتنا على النهوض بالشعوب الضعيفة ورفع مستوى الشعوب المتدنية ونشرِ التعليم والتهذيب والتمدن بينها، أما البهائيون فلا يوجد عندهم عُشْرُ معشارِ ذلك.

ثم من الناحية العددية فلا مقارنة بيننا وبينهم. فمع أنهم قد بدءوا العمل قبل جماعتنا بأربعين سنة إلا أنه لم ينضم إلى البهائية إلا بعض الأثرياء الذين سببوا في شهرتها. أما أكثرية الناس فلم تُقبِل عليها و لم تتوجه إليها. ثم إن هؤلاء القلائل أيضًا لم يميلوا إلى البهائية بروح التضحية في سبيل الله تعالى، وإنما سببه أن الأثرياء يتضايقون من القيود الدينية ويريدون أن يجدوا مخرجًا يضمنون به الانتماء إلى الدين مع التحرر من قيوده أيضا منغمسين في أنواع الملذات، ولذلك فلو وجدوا سهولة في أي دين انضموا إليه برغبة وشوق. والبهائية لا توجد عندها أية قيود دينية، إذ يقال لأتباعها: يجوز لكم أن تصلّوا وراء من شئتم، وتعملوا ما بدا لكم، فلن تسألوا عن ذلك أبدا؛ والنتيجة أن من يريد الجمعَ بين الدين والحرية المطلقة ينضم إليهم. فعندما سافرت إلى إنجلترا جاءت للقائي سيدة بهائية إنجليزية، وقالت: لماذا لا تؤمن ببهاء الله؟ قلت: دُلِّيني على شيء ينقص القرآن الكريم، لأنه ما لم تُثبتي أي نقص فيه، فلماذا أتوجه إلى غيره؟ قالت: أليس من النقص الكبير في القرآن أنه يجيز الزواج بأكثر من واحدة؟ قلت: لقد أجازه البهاء نفسه! قالت: هذا كذب، إنه لم يُجِز ذلك أبدا. وكانت معها سيدة بهائية إيرانية وكانت قد رجعت بعد أن مكثت فترة من الزمن عند ميرزا عباس علي، فقلت: اسألي صاحبتك الإيرانية هذه أصحيح ما أقول أم لا. فسألَتها، فأجابتها إجابة ملتوية فقالت: صحيح أن البهاء قد قال في كتبه بجواز التعدد، ولكنه قال أيضًا إن الشرح الصحيح لكلامه هو ما يقدّمه ميرزا عباس علي، وقد شرح عباس كلامَ البهاء هذا أنه ينبغي الزواج بواحدة فقط. فقلت: أمِن المعقول أن يجيز البهاء الزواج باثنتين ثم يقال إن المراد بالاثنتين واحدة؟ فقالت الإنجليزية: نعم، هذا صحيح، ما دام ميرزا عباس قال في الشرح أنه يجب

الزواج بواحدة فقد قُضي الأمر. فقلتُ: حسنا، ألم يقل البهاء لعباس أن يتزوج امرأة أخرى من أجل الولد الذكر؟ قالت: هذا محال. قلت: اسألي صاحبتك الإيرانية. فسألتها، فأجابت: لكن عباس علي لم يرضَ بذلك. قلتُ: إذا كان لم يرض بقول البهاء فهو عاص، إذ لم يطع أباه الذي هو مظهر الله. فقالت السيدة الإنجليزية: ما دام قد رفض فقد قُضي الأمر، ومهما كان قول البهاء في كتبه، فالزواج بالثانية حرام ما دام عباس رفض قوله. قلتُ: حسنا، ألم يكن للبهاء زوجتان؟ قالت: كلا. قلت: اسألي صاحبتك الإيرانية. فلما سألتها قالت لي: لماذا أُســأل أنا؟ فقلتُ لها: لقد مكثتِ عند عباس علي، ولكن صاحبتك الإنجليزية تجهل هذه الأمور، فما الحرج في أنْ تخبريها بذلك؟ فقالت: الواقع أنه كانت عند البهاء امرأتان قبل الدعوى، ولكنه اعتبر إحداهما أختًا له بعد الدعوى. فقفزت السيدة الإنجليزية بسماع قولها وقالت لي: أسمعتَ الجواب؟ قلتُ: أنت تؤمنين أن البهاء كان مظهر الله وكان يعلم الغيب منذ طفولته، وإذا كان يعلم سلفًا أنه سيضطر لاعتبار إحدى زوجتيه أختًا له فلماذا تزوّجَها أصلاً؟ فقالت: ما دام البهاء اعتبر إحداهما أختًا فهذا يكفي. قلت: حسنًا، اسألي زميلتك الإيرانية: أيجوز إنجاب الأولاد من الأخت في البهائية، وإذا لم يكن جائزا فلماذا أنجبت أختُ البهاء هذه أولادًا منه بعد دعواه؟ فقالت السيدة الإنجليزية في حماس: لقد بدأتَ تسبّنا. قلتُ: هذا ليس سبًّا، بل هو بيان للحقيقة؛ فاسألي صديقتك: أأنجبت زوجة البهاء الثانية أولادا منه بعد دعواه أم لا؟ هذه المرة ظلت الإيرانية صامتة بعض الوقت، ولكنها أقرّتْ في الأخير أن الزوجة الثانية أنجبت الأولاد من البهاء بعد الدعوى أيضا. فقلتُ للسيدة الإنجليزية: الآن يمكنك أن تعرفي لماذا نؤمن بالقرآن الكريم ولا نصدق البهاء في دعواه. لا يمكن أن نصدّق البهاء إلا إذا كان القرآن لا يسدّ حاجاتنا الدينية والبهاءُ يسدّها. وما دام البهاء غير قادر على سدّها، وطالما ليست هناك ضرورة دينية لا يسدها الشرع الإسلامي، فلماذا نترك شرع القرآن ونقبل ما قاله البهاء؟

باختصار، يعتبر البهائيون شرع الإسلام منسوخًا ويقدّمون أمام العالم شرعًا منحولاً جديدا، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد بُعث ليحيي الإسلام ويقيم شريعته

في العالم. فلقد أوحى الله إلى المسيح الموعود عليه السلام: "يُحيي الدين ويقيم الشريعة" (التذكرة ص ٥٥).. أي قد جاء المسيح الموعود لإحياء الإسلام وإقامة شريعته في العالم ثانية. وقد قام بهذا الهدف وجمَع حوله مئات الآلاف. أما البهاء فكل ما فعله أنه أعلن نسخ كثير من أحكام الإسلام، أو حلل كثيرا من الأمور ليسهّل على الناس، ومع ذلك لم يؤمنوا به. ينطبق على البهائيين المثل الشائع عندنا بالأردية: (الشافعي من كل شيء معْفي).. أي كنْ شافعيًا ستُعفى من كل شي. هذه هي ديانة البهائيين. إن إدارةَ حركةٍ كهذه في الدنيا سهلٌ، أما تبديل حياة الناس كليةً بحيث يتغير صباحهم ومساؤهم، ونهارهم وليلهم، ولباسهم وفراشهم، وطعامهم وشرابهم، وظاهرهم وباطنهم، ودينهم وسياستهم، وتعليمهم وحضارتهم، في ظل معارضة العالم كله، فهذا هو العمل الحقيقي. وهذه المهمة لم ينجزها في الألفي سنة الماضية إلا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآن تلميذه المسيح الموعود عليه السلام.

إذًا، لا توجد أمارات الرقي والازدهار إلا في جماعة المسيح الموعود عليه السلام. إنه هو المسيح والمهدي للعالم، وهو المخلص المنقذ للدنيا، وهو المبعوث الموعود الذي ظهر في التواريخ التي بيّنها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرها القرآن الكريم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٧﴾

التفسير: لا يراد بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ رؤية العين، بل يراد به رؤية القلب أو رؤية العلم. هذا تعبير قرآني خاص، ومثاله الآخر قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، مع أن حادث أصحاب الفيل قد وقع قبل مولده صلى الله عليه وسلم، وهو لم يرَ من أحوالهم شيئا، والمعنى: أعَلمتَ ما فعل الله تعالى بأصحاب الفيل؟ كذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني ألم تعلم ما فعل الله بعاد؟ أو المعنى: ألا تتعظ بأحوالهم؟ علمًا أن الخطابَ أحيانا يكون بصيغة الواحد ويُراد به الجماعة، كذلك لا يراد هنا الرسول صلى الله عليه وسلم، بل كل المسلمين وكل العالم.

أما عاد فهو اسم قبيلة قد مَرَّ ذكرها بالتفصيل عند تفسير الآية ٥١ من سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ في المجلد الثالث من التفسير الكبير.

يقول الأوروبيون إنه لا أثر لهذه القبيلة في الآثار القديمة بين الحفريات التي تمّت في البلاد العربية، ولكن لا يمكن الأخذ بقولهم هذا كدليل، للأسباب التالية:

أولا: لا يعني نجاحهم في العثور على بعض المواقع الأثرية أنهم قد اكتشفوا كل المواقع الأثرية في الجزيرة العربية، إذ لا يسمح للأوروبيين بدخول هذه المنطقة. أما المناطق التي استولوا عليها، فلا شك أنهم قد نقّبوا فيها عن بعض الآثار الموجودة هناك، ولكن عدم عثورهم على أثر "عاد" فيها لا يعني أنهم قد بحثوا في كل المواقع الأثرية و لم يتركوا واحدا منها بدون فحص. إن الإنجليز مثلاً يحكمون الهند منذ ثلاثة قرون، ومع ذلك لم يستطيعوا العثور على كل الآثار الدفينة هناك. لقد عثروا قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة على مدينة (تَيكْسلا) عاصمةِ الملِك الهندي الكبير (أَشَوكا). قبل حوالي ٤٠ سنة بدأوا الحفر في مكان يسمّى "شاه دي دَهيري".. أي تلّ الملِك، فخرجت مِن تحته مدينة "أشوكا" وقصوره، مع أنهم قبل هذا الانكشاف كانوا يدّعون أن عاصمته في "البَنْغال" أو في "البِهار". وهذا يعني أن أحواله كانت خفية عنهم و لم يعرفوا عاصمته أيضا، وبالصدفة حفروا مكانًا فعثروا على قصوره وغيرها، مع أنه ملك كبير حكم الهند كلها في زمنه. كما اكتُشفت آثار قديمة في منطقة في السند تسمى باللغة السندية (مَوهَنْجَودَيرو) - وبالأردية (مَنْجَو دَهاروا) - وهذه الآثار تدل على حضارة قديمة جدا يقال إنها أقدم من حضارة (أشوكا). لم يكن أهل السند يعرفون عن هذه الآثار شيئا، بل حفروا المكان صدفة، فخرجت من تحتها آثار هذه الحضارة التي يقال إنها تعود إلى ١٢ ألف عام. والقاعدة أنهم كلما عثروا على آثار قالوا إنها آثار أقدم حضارة في العالم. وقبل أيام عثروا على مكان بالقرب من "جيكب آباد"، فقالوا إنها أقدم هذه الآثار كلها. فترى أن الإنجليز يحكمون هذه البلاد منذ قرون، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكملوا الحفريات هنا، فكيف يقولون إنهم قد أكملوا الحفريات في الجزيرة العربية كلها؟ فادعاؤهم أنهم لم يعثروا على قوم باسم "عاد" في الحفريات باطل. كل ما يمكن قوله هو أن

الحفريات التي قام بها هؤلاء الأوروبيون لم يُعثر فيها على قوم باسم عاد، ولا يمكن القول إنه لا وجود لهم مطلقا. لو قال شخص جالس في الصين ليس هناك منطقة في العالم اسمها إفريقيا، فلا يفهم من قوله أن لا وجود لأفريقيا، وإنما يقال إنه لم يزرها.

وثانيا: قد ذكر القرآن في الآية التالية قوم عاد باسم (إِرَمَ)، مما يعني أن عادًا ليس اسم قبيلة واحدة، بل هو اسم عدة قبائل، وبالتالي كانت كل قبيلة منها في فترة حكمها لهذه البلاد تكتب اسمها الخاص وليس اسمَ مجموعة هذه القبائل كلها. ولذلك فقولهم بعدم العثور على اسم (عاد إرم) في الآثار باطل. الحق أننا إذا وجدنا اسم قبيلة عربية قديمة سنعتبرها من قبائل عاد، لأن العرب يرون أن فضل حضارتهم القديمة يعود لعاد.

ثالثا: ومن الدلائل القاطعة على وجود عاد أن الجغرافيين اليونانيين قد كتبوا أن قبيلة باسم (ايدراميتاي) كانت حاكمة على اليمن قبل الميلاد. والواضح تمامًا أنه اسم محرف من (عاد إرم). لقد زعم المستشرقون أن (ايدراميتاي) ليس اسم عاد، بل اسم حضرموت. ولكنه زعم باطل للأسباب التالية:

فأولا: (ايدراميتاي) اسم قبيلة، وأما حضرموت فاسم مدينة.

وثانيا: هناك اسم آخر لحضرموت عند الجغرافيين اليونانيين، حيث إن الكتب اليونانية التي وردت فيها كلمة (ايدراميتاي) يوجد فيها اسم مدينة حضرموت أيضًا هكذا: ايدراموتي تاي (ADRAMOTITAI). واسم حضرموت هذا موجود في الكتب اليونانية واللاتينية كلتيهما. فلا ندري كيف اعتبر المستشرقون هذين الاسمين اسما واحدا، مع أن أحدهما اسم مدينة والآخر اسم قبيلة، وهجاؤهما مختلف. وكلمة (ايدراميتاي) الواردة عن (عاد إرم) أصلها (ايدرامي).. أما لفظ (تاي) الوارد في الأخير فهو علامة للاسم اليوناني. والظاهر أن (إيد) هو عاد و(رامي) هو إرم. ولا يوجد أية قبيلة عربية مشابهة لهذا الاسم إلا عاد إرم.

ويقول جرجي زيدان المؤرخ المسيحي المعروف في تاريخه "العرب قبل الإسلام": لم تقدر مئات الصفحات من كتب المؤرخين أن تُمِدّ الناس بمعلومات أكثر مما قدّمه القرآن الكريم عن قوم عاد في كلمات وجيزة.

وبقراءة كل الروايات القديمة التي تروى بهذا الصدد لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن كل ما ورد في الكتب التاريخية القديمة من معلومات عن عاد إرم هو لغو وعبث، إلا الذي بيّنه القرآن الكريم. (العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان)

هذا المؤرخ المسيحي عدو لدود للإسلام ومع ذلك اضطر للإقرار بفضل القرآن الكريم فيما يتعلق بتاريخ عاد إرم.

يبدو من القرآن الكريم أن هذه القبيلة كانت قوية جدا، إذ قال الله تعالى بعد آيتين: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.

ويظهر من القرآن الكريم أيضا أن عادًا كانوا مقيمين في الأحقاف. والأحقاف منطقتان في الجزيرة العربية؛ إحداهما تسمى "الأحقاف الجنوبية"، وهي تبدأ من اليمن حيث تمرّ من تحت صنعاء إلى عدن، ثم إلى الشرق مائلا إلى الشمال. والثانية تسمى "الأحقاف الشمالية" التي تبدأ من تحت بُصرى وتصل إلى برية العراق. إذن، فالأحقاف كانت قد أحاطت بالجزيرة العربية، كانت إحداهما في الجنوب، والثانية في الشمال حيث تقع نجد والحجاز.

والأحقاف تطلق على تلك التلال الرملية الممتدة ارتفاعا وانخفاضا. ويتضح من القرآن الكريم أن عادا كانوا يسكنون في المناطق التي فيها الأحقاف الآن، حيث قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(الأحقاف:٢٢). ويتضح من ذلك أنهم كانوا ذوي نفوذ وقوة في شمال الجزيرة وجنوبها، أو في المناطق التي تسمى الأحقاف الجنوبية والأحقاف الشمالية. ويتضح من الروايات الواردة في التاريخ أن هؤلاء انتشروا من الجنوب إلى الشمال، والدليل على ذلك أن ثمود -وهم قبيلة من عاد- كانت تحكم في آخر زمنها شمالي الجزيرة العربية وجنوب فلسطين، وهناك توجد آثارهم أيضا، فمن مدنهم الحِجْر الواقعة بين المدينة المنورة وتبوك.

هؤلاء القوم كانوا بعد نوح عليه السلام مباشرة، إذ نقل القرآن الكريم قول نبيهم لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف:٧٠). يبدو من ذلك أن عادًا هي الأمة التي كانت على صلة مباشرة بنوح عليه السلام والتي صارت غالبة على الجزيرة العربية بعد قومه.

يبدو أنه كان بين الأمم التي خرجت من بابل وانتشرت بعد دمارها المذكور في التوراة - وهو دمار قوم نوح - قبيلةٌ اسمها عاد ازدهرت كثيرا بعدها. وقد كانت هذه القبيلة قوية خلقةً وتناسلاً كما يبدو من قول نبيهم هود عليه السلام لهم: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾(الأعراف: ٧٠)، والمراد من الخَلق هنا البِنية الجسدية والنسل؛ وعليه فيمكن القول إن أجيال العمالقة المقيمين في شمال الجزيرة كانوا من بقايا عاد.

كما يبدو أن مرض الشرك كان متفشيا فيهم على نطاق واسع، إذ قال لهم هود عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٦).. ولما كان قوم نوح عليه السلام منغمسين في الشرك أيضا، فيبدو أنهم وقعوا في الوثنية متأثرين من قومه عليه السلام.

وكانوا يبنون مباني شاهقة، ولذلك سُمّوا ﴿ذات العماد﴾ في الآية التالية من هذه السورة.

كما يخبرنا القرآن الكريم أنهم أُهلكوا بريح هبّت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية. وأخبر أيضا أن الدمار شملهم بحيث لم يبق لهم أثر كقوم؛ قال الله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ﴾(الأحقاف:٢٦).. أي اندثر أثرهم كليًّا، ولم يبق منهم إلا بناياتهم الضخمة.

كم هي عظيمة هذه النبوءة القرآنية التي تحققت أيضا. يزعم المؤرخون الأوروبيون أنهم لا يجدون اسم عاد في الآثار، ولكنهم لا يفكرون أن القرآن نفسه يقول: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ﴾.. أي لم تبق منهم إلا بناياتهم فلن تروا اسمهم في الآثار، لأننا محوناه تماما. فإذا كان هؤلاء يقولون في بحوثهم أنهم لا يجدون اسم عاد في الآثار القديمة، فنقول لهم إن هذا دليل على صدق القرآن الكريم الذي أخبر سلفًا أنكم يمكن أن تجدوا أنقاض مبانيهم بعد فحص الآثار القديمة، ولكن لن تعثروا على اسمهم فيها. فقولهم هذا لا يقدح في صدق القرآن، بل يدعمه ويؤيده.

كان هود عليه السلام رسولاً إلى عادٍ. وقد ذُكروا في القرآن الكريم في سبع عشرة سورة: الأعراف، التوبة، هود (٤ مرات)، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، ص، غافر، فصلت (مرتان)، الأحقاف، ق، الذاريات، النجم، القمر، الفجر.

وهكذا فقد ذكرهم القرآن الكريم ٢١ ✪مرة.

وقد سبق أن ذكرت رأي أحد المؤرخين المسيحيين أن من المحال أن نجد ذِكر هؤلاء القوم في أي تاريخ من الدنيا بصورة أصح وأكمل مما ذكره القرآن الكريم.

إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٨

شرح الكلمات:

العماد: الأبنية الرفيعة، الواحدة عمادة. (الأقرب)

فالمراد من (ذات العماد).. القبيلة ذات الأبنية الرفيعة.

التفسير: لفظ (إرم) عطف بيان على عاد. وهناك ثلاثة آراء عن إرم، فقال بعضهم: إرم اسم قبيلة، والحديث هنا يتعلق فقط بقبيلة إرم من قوم عاد. وقال بعضهم: إرم اسمُ مدينتهم، فيقرأون بعادِ إرمَ، بدلاً من عادٍ إرمَ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾. ومرادهم: ألم تر كيف فعل ربك بعادِ الذين كانوا مقيمين في إرم. وقال بعضهم: إن إرم اسم مدينة بلا شك، والمراد إرمَ ذاتِ العماد.. أي مدينة إرم التي كانت فيها أبنية شاهقة. (البحر المحيط)

يبدو من القرآن الكريم أن هؤلاء كانوا يبنون بنايات شاهقة ضخمة، حيث قال لهم هود ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(الشعراء:١٢٩-١٣٠).. أي تبنون على كل جبلٍ مبانيَ رائعة وتنشئون مصانع ضخمة ظانين أنها ستحفظكم من حوادث الدهر، ولن تتعرضوا للفناء.

إذن، فالبنايات الضخمة خصوصية مميزة لهذه القبيلة.

ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٩

التفسير: أي لم يكن قبلهم قوم في مثل قوتهم.

✪ يبدو أن سهوًا حصل هنا، حيث ذُكر عاد في سورة الأعراف مرتين لا مرة واحدة، كما فات هنا أنهم ذُكروا في سورة الحاقة أيضًا مرتين، وهكذا يصبح المجموع ٢٤ مرة. (المترجم)

قد وردت في القرآن الكريم كلمات مماثلة عن مختلف الشعوب، ويعترض عليها البعض: كيف يقال عن كل هذه الأقوام والشعوب أنهم لم يوجد لهم مثيل من قبل؟ يمكن أن يقال عن شعب واحد أنه لم يوجد له مثيل، ولكن لا يقال هذا عن كل الشعوب.

وليكن معلوما أن قوة قوم تُقارَن أحيانا بقوة أهل بلد أو بقوة شعب، وأحيانا تقارن بشعوب العالم كله. ولو كان هذا الحديث عن عصر بدائي جدا فيكون المراد من قول الله تعالى ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.. أنه لم يتمتع أي قوم قبلهم بمثل قوتهم. أما إذا كان الحديث عن عصر كانت فيه شتى الشعوب منتشرة في الدنيا وقامت حكومات شتى في بلاد شتى لأقوام مختلفة، فستعني هذه الكلمات: لا يوجد في هذا البلد قوم يتمتعون بمثل قوتهم. وهذا يعني أن مثل هذه التعابير تشير إلى فضل نسبيّ لا فضل كليّ، وعلى المرء أن يُعمِل عقله لتحديد المراد الحقيقي. نعم، إذا كان الأمر يتعلق بالإيمانيات فالأمر مختلف؛ إذ يستخدم الله عندها مثل هذه التعابير مع قرائن تساعد على التوصل إلى النتيجة الصحيحة فيما إذا كان الفضل جزئيا أو كليا. فمثلا كان الرسول ﷺ مبعوثًا إلى العصور كلها، وهو نبيّ مُطاع للناس أجمعين إلى يوم القيامة، وهذا الأمر يتعلق بالإيمان، فكل من لم يؤمن بفضله ﷺ كان مجرما وآثما عند الله تعالى، ولذلك حيثما قال الله تعالى إنه ﷺ نبي عالمي، ذكر معها قرائن تؤكد أنه مبعوث لكل العصور ولكل البلاد، وأن نبوته ليست مختصة بعصره كنبوة الأنبياء السابقين. أما إذا قال الله تعالى بفضل مادي لقوم، فمن واجب الإنسان أن يُعمل عقله ليعلم ما إذا كان هذا التعبير يدل على فضل نسبي أم كليّ؛ ومثاله أن القرآن يستخدم دائما كلمات ذات معان متنوعة، والعاقل يدرك أي المعاني تنطبق في مكان وأيها لا تنطبق. فأحيانا يكون للكلمة أربعة معان، وينطبق في السياق منها اثنان فقط، ويعرف الإنسان بعقله أيهما ينطبق. والقرآن لا يذكر قرائن ترجح معنى على آخر إلا حين يؤدي الخطأ البسيط في تعيين المعنى إلى فساد الإيمان. ومثاله قول الله تعالى في بداية سورة الطارق ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. ولما كان الطارق له معنيان: القادم ليلا، أو نجم الصباح، ومن الممكن أن يؤدي

لفظ ﴿الطارق﴾ إلى شبهة، فأزالها الله تعالى بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، وبيانه أن السور السابقة تتنبأ عن مجيء نبي، فكان لزاما إلقاء الضوء على مكانته فيما إذا كان كطارق الليل أم كنجم الصباح، فلذا قال الله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، مبينًا أن الطارق لا يعني هنا إلا النجم الثاقب. فمن أسلوب القرآن الكريم أنه إذا أراد تحديد معنى كلمة أردفَها بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾.. أما إذ سمح باختيار أي معنى مناسب مفوضا الأمر إلى عقل الإنسان فلا يحدد معنى كلمة ما دام اختيار أي معنى لها لا يؤدي إلى خلل، أما إذا كانت هناك إمكانية لأي خلل أخبر الله بالمعنى المقصود هناك. ومثاله قول الله تعالى في مستهلّ سورة القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وما أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. حيث بين تعالى أن للقارعة معاني عديدة، ولكنا نخبركم أننا نعني هنا المعنى الفلاني دون غيره. أما إذا لم يكن هناك مجال شبهة، أو لم يكن الأمر يؤدي إلى نقص في الإيمان، فيترك الله تعالى الأمر في يد الإنسان ليختار المعاني المناسبة بحسب أساليب اللغة وعقله.

وهذا هو حال قوله تعالى ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.. إذ لا يتعلق الأمر هنا بالإيمان أو بنبأ غيبي يُخشى أن يخطئ فيه الإنسان، ولذلك قال القرآن بشكل عام لم يُخلَق لهؤلاء القوم نظير في القوة والشوكة. ومن واجبنا الآن أن نرى.. بناء على العقل وشهادة التاريخ.. ما إذا كان هذا القول يخص عصرهم أو الدنيا كلها. ولما كانت عادٌ من الشعوب القديمة جدًا، فنستطيع القول أن الله تعالى لم يذكر فضلهم هذا إزاء شعوب العالم كله، بل إزاء أهل عصرهم أو إزاء باقي العرب، فقال: لم يُخلَق قوم مثلهم في عصرهم أو بين العرب.

إن من محاسن القرآن الكريم أنه يترك كثيرا من الشروح والتفاسير للعقل الإنساني كيلا يصدأ ويضعف. إنه لا يجعل الناس جهالا، بل إذا كانت هناك إمكانية شبهة أزالها، وإذا كان هناك إمكانية خلل في الإيمانيات كشف الأمر تماما منعًا للناس من العثار وحفظا لإيمانهم.

وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

جابوا: جابَ الثوب يجوبه جَوبًا: قطَعه. وجابَ الصخرة: خرَقها، ومنه في القرآن: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.. أي قطعوه واتخذوه منازل. (الأقرب)

الصخر: جمعُ الصخرة، وهي الحجر العظيم الصَلب. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.. أنهم قطعوا الجبال وجمعوا الصخور وبنوا بها بيوتهم في الوادي، أو أنهم خرقوا الجبال في الوادي الجبلي وبنوا في تلك الجبال مبانيهم.

التفسير: من خصائص قوم عاد أنهم كانوا يقطعون الجبال ويبنون المساكن. كانت عاصمتهم الحِجر الواقعة بين المدينة المنورة وتبوك. لما خرج النبي ﷺ في غزوة تبوك كان معه آلاف الصحابة، فمرّوا في موقع مدينة (الحِجر) ونزلوا هناك بعض الوقت، وأخذوا يعجنون دقيقهم بمائها، وفيما هم في ذلك إذ أعلن الرسول ﷺ أن هذا المكان قد نزل عليه عذاب الله في الماضي فلا تشربوا من مائه ولا تستعملوه. فقد ورد في الحديث عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَمَّا نَزلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا وَلا يَسْتَقُوا مِنْهَا. فَقَالُوا قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ وَيُهَرِيقُوا ذَلِكَ الْمَاءَ. (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء)

انظروا كم يخاف أنبياء الله غضبه، فمع أن هؤلاء القوم الذين نزل عليهم غضب الله هلكوا منذ قرون، وصارت مدينتهم أنقاضا، إلا أننا نجد النبي ﷺ وكأنه يرى غضب الله نازلاً هنالك في ذلك اليوم، ويرى ملائكةَ الله تلعن حتى ذلك اليوم، فلا يرضى أن يستعمل صحابته العجين الذي عجنوه بماء ذلك المكان، فأمرهم أن يطرحوا عجينهم ويركبوا مطاياهم ويخرجوا من هناك فورًا، لأنه مقام قد حلّ به غضب الله تعالى. أما الأماكن التي تنزل بها آية رحمة الله تعالى فإن

أنبياء الله يعظمونها جدا، وكلما مرّوا بها استولت عليهم خشية الله، فلا ينظرون إلا إلى ذات الباري ﷻ. بينما نجد قلوب الناس لا تُلينها آياتُ غضب الله، ولا تولّد آياتُ رحمته فيها حُبَّه ﷻ. فمثلا تُسمّى المساجد بيوت الله، وهي أماكن مخصوصة لعبادة الله، ولكن الناس حين يحضرونها ينهمكون في الكلام الفارغ، ويتخاصمون في أمور الدنيا، ويسب بعضهم بعضًا من فورة الغضب، ويغتاب بعضهم بعضا، دون أن يشعروا أنهم يرتكبون هذه المنكرات جالسين في بيوت الله. كان ينبغي عليهم وهم جالسون في المساجد أن تكون ألسنتهم تلهج بذكر الله تعالى، ولكنهم يضيعون أوقاتهم في ذكر الدنيا بدل ذكر الله، وهكذا يثيرون سخط الله عليهم. أما الرسول ﷺ فتراه قد كَرِهَ المكانَ الذي حلّ فيه غضب الله وفرَّ منه، وأمر أصحابه بإلقاء العجين الذي عجنوه بماء ذلك المكان ولم يرضَ أن تدخل لقمة واحدة منه في بطن أيّ منهم، وذلك برغم أن تلك الأيام كانت أيام ضيق شديد وكان الصحابة يمرّون بوضع مالي صعب جدا، حيث ذكروا أنهم كانوا يعيشون على تناول نوى التمر أحيانا (مسلم: الصيد والذبائح). ومع ذلك أمر الرسول ﷺ بطرح مئات الكيلوغرامات من العجين، غير مكترث لما سيتعرض له الجيش المسلم. وقد رافقه في تلك الغزوة ٣٠٠٠ صحابي، ولو قدّرنا أن كل صحابي كان يأكل ربع كيلوغرام، فيصبح مقدار العجين حولي ٨٠٠ كيلوغرام. ومع ذلك أمر الرسول ﷺ بطرحه في وقت لم يتيسر لهم فيه الزاد الوفير. (زاد المعاد: الجهاد والمغازي)

هذه هي خشية الله التي يجب أن تكون القلوب عامرة بها، والتي يأمر الإسلام كل مؤمن بالتحلّي بها. ولكنني أقول بكل أسف أن بعضا من جماعتنا يذهبون إلى (بَهِشْتِي مقبرة✪) للدعاء على قبر المسيح الموعود عليه السلام، فيبدءون في قطف الثمار

✪ معناها: مقبرة أهل الجنة، أسسها المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام بناء على رؤيا رآى فيها مقبرة وقيل له إنها مقبرة أهل الجنة فسماها بهذا الاسم. ثم وضع شروطا لمن يدفن فيها: أبرزها – بعد تحليه بالتقوى وتجنبه المحرمات وأعمال الوثنية والبدعة – أن يقدم من عُشر إلى ثُلث دخله من أجل نشر الإسلام وتبليغ أحكام القرآن أثناء حياته، ويوصي بأن يُدفَع بعد موته عُشْرُ تركته على الأقل للجماعة للغرض نفسه. (المترجم)

من الأشجار وأكلها. وهذا يعني أنهم بدلا من أن تستولي خشية الله على قلوبهم هناك ويركّزوا على الدعاء يشغلهم الأكل والشرب. كذلك يتكلم بعضهم في المساجد ويثيرون فيها ضجة عالية حتى يستغرب المرء ويتساءل: لماذا لم يفهموا بعدُ أنَّ عليهم احترام المساجد وذِكْر الله تعالى بدلاً من الحديث الفارغ؟

إن العلامة الحقيقية لإيمان المؤمن أنه حين يمرّ بمكان يذكِّر بعذاب الله فلا تظهر من أعضائه وجوارحه أية جسارة، بل تكون خشية الله مستولية على قلبه، ويرى بعينه عذاب الله كما رأى النبي ﷺ عذاب الله الذي حلّ بالحِجر. وكذلك حين يحضر إلى المسجد أو إلى أي مكان ظهرت فيه آية من آيات الله فلا يتكلم بلغو الكلام، بل يذكر الله تعالى، ويصلي ويشتغل بالدعاء، ساعيًا لاجتذاب فضل الله تعالى أكثر وأكثر، وإذا لم يكن له بد من الكلام، فيتكلم في أمور الدين فقط؛ كما نجلس في مساجدنا ونتكلم في أمور الدين دائما أو نتكلم في أمور دنيوية ذات صلة بالدين، ولكن ينبغي ألا نتكلم في المساجد عن البيع والشراء أو الخصومات العائلية، أو أن يغتاب أحدنا الآخر، فهذا عيب شديد يجعل الإنسان آثما عند الله تعالى. ضعوا في الحسبان دائمًا أسوة الرسول ﷺ هذه، فإنه حين نـــزل بالحجر قام مذعورا بعد قليل وأمر أصحابه بالرحيل، إذ نـــزل هناك غضب الله في الماضي.

كان صالح عليه السلام نبيًّا لثمود. وكلمة صالح عربية، مما يدل على أنه عليه السلام كان نبيا من العرب. كما يتضح من القرآن الكريم أن ثمود كانوا بعد عاد، فقد قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(الأعراف:٧٥)، ويُستنتج من ذلك أن عادا كانوا عربا أيضا.

لقد عثر العلماء الأوروبيون أثناء بحثهم عن الآثار على ألواح كتابية أثرية، وقد أقرّوا أنهم قد عثروا عليها في شمال الجزيرة العربية، وهذا يؤيد رأي الجغرافيين العرب أن ثمود هاجروا من جنوب الجزيرة إلى شمالها. يتضح من هذه الآثار أن هؤلاء القوم تقدموا إلى مصر أيضا. باختصار، إن ثمود كانوا بعد عاد، وحيث إن

عادًا قد اعتُبروا خلفاء قوم نوح، فثبت من ذلك أن نوحا قد بُعث في منطقة من المناطق العربية، وبالتالي فقد وجدنا دليلا آخر على أن العربية أم اللغات.

يعلن القرآن الكريم أن اللغة الأولى للبشر هي العربية، وهي أم اللغات كلها. وبغض النظر عن إنكار الخصم لهذا، إلا أن القرآن يعلن هذا. ومما يؤكد هذه النظرية أن القرآن الكريم قد اعتبر نوحًا بُعث بعد آدم مباشرة، ولو ثبت بعد ذلك أن نوحا كان عربي الأصل، فقد ثبت أن العربية أم الألسن. لقد بيّنا من قبل أن ثمود كانوا خلفاء عاد، وكان عاد خلفاء قوم نوح، وحيث إن ثمود وعادا كلتيهما أمتان عربيتان، فثبت أن نوحا عليه السلام بعث في المنطقة العربية، والثابت تاريخيا أن نوحا بُعث في العراق. وحيث إن اللغة العربية قد ثبتت صلتها بنوح، فقول الله تعالى أن نوحا بُعث بعد آدم مباشرةً يدل أن لغة الناس في البداية كانت عربية، لأننا إذا اعتبرنا بداية النسل الإنساني من الجزيرة العربية، فلا بد من اعتبار لغة هذه البلاد أم اللغات.

باختصار، يُستنبط من هذه الآيات بداية الحضارة بالجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها، والأحداث التاريخية تؤيد هذا.

قد ورد ذكر ثمود في القرآن الكريم في ٢١ سورة، وهي:

الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، الحج، الفرقان، الشعراء، النمل، العنكبوت، ص، غافر، فُصّلت، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، البروج، الفجر، الشمس.

ولمعرفة أحوال ثمود وصالح عليه السلام وأخبارهم المفصلة يُراجَع تفسير الآيات ٦٢ إلى ٦٩ من سورة هود في المجلد الثالث من التفسير الكبير.

وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

الأوتاد: جمعُ الوتد، وهو ما رُزَّ في الأرض أو الحائطِ مِن خشب. أوتاد الأرض جبالُها، وأوتاد البلاد: رؤساؤها، وأوتادُ الفم: أسنانه. (الأقرب)

طغَوْا: طغى فلانٌ: أسرفَ في المعاصي والظلم. (الأقرب)

التفسير: ترسم لنا هذه الآيات حضارة فرعون وقومه، حيث بين الله تعالى إحدى خصائصهم أنهم كانوا يبنون مباني ضخمة شاهقة جدا. والمبنى الشاهق لا بد له من أساس عميق يصل إلى الأرض كالوتد. وبالفعل فإن المباني المصرية القديمة عالية جدا، وأهرام مصر لا مثيل لها في الارتفاع والعظمة.

ومن معاني (ذي الأوتاد) أن فرعون كان صاحب خيام، أي أن بلاده كانت في عصره متمدنة جدا، فكانت عندهم مرافق كثيرة، ومبان شاهقة، كما كانت فيها طرق طويلة وسفن للسفر لمسافات شاسعة، فكان الملك يجوب البلاد دائما لتفقُّد أحوالها. علمًا أنه إذا قيل عن مَلِكِ بلدٍ لا يكون فيه مبان كبيرة أنه ذو الأوتاد، فمعنى ذلك أن قومه كانوا بدوًا ذوي قوة، وإذا استُخدم هذا التعبير عن شعب من الحضر، فالمراد أنهم كانوا متمدنين جدا، وكانت عندهم طرق واسعة كبيرة، وأنهار.. وكان الملك والمسؤولون يجوبون البلاد عبر هذه الطرق وعبر السفن.

ومن معاني الأوتاد الرؤساء، وعليه فقوله تعالى ﴿وَفِرْعَونَ ذي الأَوتَادِ﴾ يعني أنه لم يكن ملِكًا فحسب، بل كان إمبراطورا يخضع له كبار الملوك والنواب الذين كانوا يحكمون شتى أقطار بلاده.

ومن معاني الأوتاد الجبال، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾ أنه كان يحكم مناطق جبلية أيضا.. أي كانت مصر في عصره مملكة مترامية الأطراف حيث كانت مناطق الخرطوم والحبشة خاضعة له أيضا. والآثار القديمة تؤيد أن بلاد مصر كانت واسعة جدا وكانت تضم بعض المناطق الجبلية.

فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٣﴾

التفسير: لا شك أن كل سيئةٍ شنيعةٌ، ولكنها تصبح أشدَّ شناعة لسببين: لكثرتها، ولاحتوائها على جرائم كبيرة. إذا كثرت الجرائم في قوم ثم كانت كبيرة فاعلموا أن ساعة دمارهم قد اقتربت جدًّا.

والضمير في قوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ يمكن أن يعود إلى قوم فرعون، أو إلى عاد وثمود وقوم فرعون جميعا. والاحتمال الثاني هو الأوْلى.

الفساد يُطلَق على الجرائم الكبيرة. فقد أخبر الله بقوله ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أن هؤلاء قد ارتكبوا جرائم كبيرة وبكثرة. ومن المعلوم أن هذه الشعوب كانت مصابة بمرض الشرك على نطاق واسع جدًّا، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أنهم بلغوا منتهى الفساد بسبب طغيانهم إذ كانوا منغمسين في مساوئ بشعة كثيرة كالظلم وهضم حقوق الآخرين، بالإضافة إلى الشرك.

لقد ذكر الله هنا ثلاثة شعوب: عاد وثمود وقوم فرعون. كانت عاد وثمود من الشعوب العربية. أما قوم فرعون فكانوا من مصر، ولم يذكر الله تعالى هنا هذه الأمم الثلاث معًا بلا سبب، بل ذكرها لأن فيها نبأ عن فترتين: الفترة التي كان المسلمون الأوائل سيمرّون فيها في عشر ليال مظلمة من اضطهاد أهل مكة، والفترة الثانية هي زمن المسيح الموعود ؑ. ولما كان العرب وراء هذه الليالي العشر في المرة الأولى، فذكر اللهُ مثال عاد وثمود الذين كانوا من العرب، ونبَّههم أنه قد خلتْ في بلادكم أمتان ذات مملكتين كبيرتين، إحداهما: في جنوبكم والأخرى في شمالكم، فعليكم أن تفكروا في أحوال هؤلاء القوم، فإنهم لما عارضوا أنبياء الله تعالى وأكثروا الفسادَ، قضى الله عليهم ومحا أثرهم، ولم تنفعهم قوتهم شيئا. أما أنتم فلا تساوون إزاء هذه الشعوب القوية شيئا، فلماذا لا تأخذون العبرة من مصيرهم؟ ولماذا تصرّون على معارضة محمد ﷺ؟ فإنْ لم ترتدعوا عن سيرتكم فسوف نعاقبكم كما عاقبنا عادا وثمود. لا تظنوا أنكم ستنجحون بما تفعلون، ولا تغترّوا بقوتكم حيث تصبّون على المسلمين أنواع الظلم وتجعلون نهارهم ليلا، فقد ارتكب عاد وثمود أيضا فظائع شنيعة وأكثروا الفساد، ثم خابوا وخسروا.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: إن أكبر الكبائر قتلُ نبي من الأنبياء*. وأهل مكة أيضا سعوا لقتل النبي ﷺ كما قال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣١).. ثم إنهم كانوا منغمسين في الشرك الذي هو ظلم عظيم لقول الله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٤). ثم إنهم لم يرتكبوا فظائع شنيعة فحسب، بل بلغوا المنتهى في ظلمهم؛ فآذوا كل من آمن بالنبي ﷺ، بل كانوا يبحثون عن المؤمنين ويذيقونهم ألوان العذاب بوحشية، حتى فرَّ كثير من المسلمين إلى الحبشة، ومع ذلك لم تهدأ ثورة الكافرين، فطاردوهم حتى الحبشة ليرجعوا بهم ويصبّوا عليهم الظلم مرة أخرى (سيرة ابن هشام: إرسالُ قريشٍ إلى الْحَبَشَة في طَلَبِ المهاجِرين إليها)، ولذلك يقول الله تعالى في الآية قيد التفسير أيها المكيون، أمامكم مثال أحوال هذه الشعوب من الماضي، التي كانت من بلادكم، والتي بلغت في فسادها المنتهى، فلا تظنوا أن عصيانكم وظلمكم سيكون خيرا لكم. لقد غرَّ تلك الشعوبَ أيضا ظلمُهم، ولكنها دُمّرت في النهاية، كذلك سوف تصبحون هدفًا لغضب الله تعالى، وسينمحي أثركم من الدنيا كعاد وثمود.

وبعد ذلك يضرب الله تعالى مثال فرعون. وعندي أن في ذلك خبرًا عن زمن المسيح الموعود عليه السلام. إنني لا أستطيع أن أبين لكم كيف ولماذا يحصل هذا، ولكنني أستطيع أن أبين لكم أمرين يكشفان لكم أن مثال فرعون هنا ذو صلة بزمن المسيح الموعود عليه السلام. أول هذين الأمرين أن رسول الله ﷺ قال إن الليلة العاشرة من شهر محرم ذات أهمية كبيرة؛ لأن الله تعالى نجّى موسى من فرعون في ذلك اليوم، وأن حادثا مماثلا سيقع في أمتي حيث ينجي الله أمتي يومئذ من العذاب. فمع أن كلمات الآية تشير في الظاهر إلى فرعون والنجاةِ من ظلمه، إلا أنها نبأٌ عن حادث مماثل يقع في المستقبل.

* ورد في الحديث عَن ابْنِ مَسْعُود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ..... (المعجم الكبير للطبراني ج ٩ ص ٦١) (المترجم)

والأمر الثاني هو قول للمسيح الموعود عليه السلام حيث قال:

"رأيتُ أني واقف على شاطئ نهر النيل، ومعي كثير من بني إسرائيل، وأظن أني موسى. ويبدو أننا هاربون دون توقف، وعندما نظرتُ ورائي بدا لي وكأن فرعون يلاحقنا مع جيش كبير وعتاد كثير من جياد وعربات وغيرها، وقد اقترب منا جدا، وأصحابي بنو إسرائيل خائفون جدا، حتى يئس كثير منهم وأخذوا يصرخون بصوت عالٍ: يا موسى إنا لمدركون. فقلت بصوت عالٍ: كلا إن معي ربي سيهدين. ثم استيقظتُ وهذه الكلمات على لساني". (التذكرة، ص ٣٧٣)

وهناك إلهام للمسيح الموعود عليه السلام: "يأتي عليك زمنٌ كمثل زمن موسى". (التذكرة ص ٤٠٨)

إذن، هناك إشارة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن واقعة كواقعة موسى عليه السلام ستقع مع أمته صلى الله عليه وسلم أيضا. وتاريخ الأمة شاهد على أن واقعة كهذه لم تقع بعد، بينما نجد المأمور الرباني الذي بُعث في هذا العصر قد أُخبر أنه يصير كموسى عليه السلام وأن فرعون سيطارده، حتى يقول أصحابه خائفين: يا موسى إنا لمدركون، فيقول بصوت عالٍ: كلا إن معي ربي سيهدين.. أي هذا محال، لأن معي ربي الذي سيدلّني على طريق الخلاص.

وهناك رؤيا لي قد نشرتُها في جريدة "الفضل"، رأيت فيها أني مقيم في بيت خطر ببالي أن موسى عليه السلام أيضا كان قد أوى إليه. (جريدة "الفضل"، مجلد ٣٢ عدد ١٤٢، ص ١، ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٤٤)

فإذا جمعنا رؤياي هذه مع هذين الإلهامين للمسيح الموعود عليه السلام تبينَ لنا بجلاء أن الآية قيد التفسير تشكّل نبوءة ستتحقق في الليلة الحادية عشرة عند الظهور الثاني لنبوءة ﴿لَيالٍ عَشْرٍ﴾، أي ستتحقق في القرن التاسع عشر على يد المسيح الموعود عليه السلام، حيث تتعرض جماعته لحادث كحادث نجاة موسى عليه السلام من مصر. ولما كان الحديث في هذه الآيات عن المسيح الموعود عليه السلام، فقد ضرب الله تعالى مثال واقعة فرعون لأعدائه عليه السلام كما ضرب مثال عاد وثمود لأعداء النبي صلى الله عليه وسلم.

فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

صبّ: صبَّ الماءَ ونحوه صبًّا فصَبَّ هو: سكَبه فانسكبَ، لازم ومتعدٍّ. (الأقرب)

سَوط: السَوط ما يُضرَب به مِن جلد مضفور؛ النصيبُ؛ والشدة. والسوط من الغدير: فَضْلتُه، تقول: وردنا على سوط الغدير: أي فَضْلته. (الأقرب)

التفسير: لو كان السوط هنا بمعناه المعروف، فستعني الآية أن الله تعالى سينـــزل عليهم عذابا بعد عذاب كما ينـــزل القطر بعد القطر عند صبّ الماء، فلن يشعروا بما يحصل بهم إلى أن يهلكوا ويبادوا.

ولو كان السوط بمعنى النصيب، فالمراد أنه سيقال لهؤلاء القوم: خذوا نصيبكم المقدر من عذاب الله.. أي لقد آذيتم أنبياءنا، فأخذوا نصيبهم من الإيذاء، والآن خذوا نصيبكم من العذاب.

ولو كان السوط بمعنى الغدير، فالمراد أنه سيُفرَغ عليهم غدير العذاب كله؛ ذلك لأن الغدير هي تلك الأرض المنخفضة التي يجتمع فيها الماء، فصبٌّ سوط العذاب إشارةٌ إلى أن العذاب سيُدَّخَر لهم عند كل شرّ صادر منهم، ولن ينـــزل عليهم في كل مرة، إلى أن يصبح هذا العذاب كغدير ماء، فيُفرَغ عليهم كله.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٥﴾

التفسير: أي أن ربك يتربص بهؤلاء المجرمين، ولن يبطش بهم إلا مرة واحدة. يقال عندنا أيضًا: ضربة واحدة من الحدّاد تساوي ألف ضربة من الصائغ، كذلك من سنة الله تعالى أنه يمنح المجرم مهلة تلو الأخرى حتى يظن أنه لن يعاقَب على جرائمه، وفي الأخير يأتي يوم يبطش به الله فيه ويهلكه. يقول الله تعالى هذا ما

سنفعله بأعداء محمد ﷺ؛ فنمهلهم إحدى عشر سنة، إلى أن يأتي يوم نقضي فيه على كل مجد قيدار (أي قريش)، ونبدّل أذى المؤمنين فرحة.

أما نظرًا إلى الظهور الثاني لهذه النبوءة في القرن التاسع عشر فالمعنى: أن فرعون ذلك العصر سيظلم جماعة المسيح الموعود ظلما شديدا، حتى يقولوا يا موسى إنا لمدركون، فيقول إمام الجماعة في ذلك الوقت كما قال موسى لأصحابه: كلا، إن معي ربي سيهدين.. أي ما تقولونه خطأ، فلن يقدر العدو على إهلاككم، بل إن معي ربي وسوف يهديني طريق الخلاص.

لقد ذكرت عند تفسير الآية ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أنه لما وصل الكافرون إلى مدخل غار ثور وأبدى أبو بكر ؓ قلقًا، هدّأه الرسول ﷺ قائلا: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة: ٤٠).. أي لا تقلق فإن الوتر معنا.. كذلك عندما ستتألم جماعتنا غاية الألم نتيجة اضطهاد فرعون.. يقول المسيح الموعود ؑ لجماعته روحانيا - أعني مِن خلال خليفته عندها، إذ ليسا شخصين بل هما شخص واحد- وهو واقف على شاطئ بحر الغم والهمّ، وربما على ضفة النيل فعلاً، أو أي نهر آخر وذلك لو حصلت هذه الأحداث في مصر أو أي بلد آخر.. يقول ؑ لهم بكل جلال: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.. أي لا تحزنوا، لأن ربي معي، أي معنا الوتر الذي سوف يخرجنا من هذا الليل.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

ابتلاه: ابتلى الأمرَ: عرَفه. أصلُه بَلِيَ يبلى وبلاه يبلوه بَلْوًا، وبَلِيَ الثوبُ يبلى: خلَق ورَثَّ فهو بالٍ. وبلاه يبلوه بَلْوًا: جرّبه واختبره. (الأقرب)

وورد في "المفردات": "بلوتُه: اختبرتُه، كأني أخلقْتُهُ من كثرة اختباري له".

النساء عندنا حين يشترين قطعة قماش يقُمْن بحَكِّه بأيديهن مرارا ليعرفن ما إذا كان القماش جيدا واللون قويا، فكأنهن يخلقنه، كذلك إذا فحصتَ الشيءَ مرة بعد أخرى كي يستقيم رأيك فيه، فكأنك أخلقته.

ثم ورد في المفردات:

"﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾.. أي تعرف حقيقة ما عملت. وسُمّي الغمُّ بلاءً مِن حيث إنه يُبْلي الجسمَ. وسُمي التكليف بلاءً مِن أوجهٍ: أحدها أن التكاليف كلها مشاقّ على الأبدان، والثاني أنها اختبارات". (المفردات)

الواقع أن حقيقة المرء تُعرف حين يُثْقَل بأعباء، فمثلا لا تعرف شجاعة امرئ لم يشترك في الحرب؟ وكيف تعرف ثبات إنسان لم يتحمل العبء مرة بعد أخرى؟ إن الجميع يدّعي أنه خبير وماهر، ولكن تُعرف مهارته حين تُلقى عليه مسؤولية كبيرة، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾. (محمد:٣٢)

ثم يقول صاحب المفردات: "والثالث أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فصارت المحنةُ والمنحةُ جميعا بلاءً. فالمحنة مقتضيةٌ للصبر، والمنحةُ مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسرُ من القيام بحقوق الشكر". (المفردات)

أي إذا حلّت بالمرء مصيبة تحمّلَها قائلا: قد حلَّ ما حلَّ فلأصبر الآن، ولكن الابتلاء المتعلق بالشكر خطير جدا، لأن الإنسان يقول في نفسه: فلأتمتعْ بالنعمة ما دامت في قبضتي، وينسى ربّه. إن الصبر يتعلق بالماضي الذي ينساه الإنسان، أما النعمة فتتعلق بالمستقبل، ونسيان المستقبل صعب جدا، ولذلك يقول صاحب المفردات إن الابتلاء الحقيقي يأتي في صورة النعمة. مثلا: يُعطي الله البعضَ الثراء،

والبعض الصحة، والبعض العزة، والبعض القوة، والبعض الحُكم.. وهي كلها نِعَم ربانية، ولكن الإنسان في كثير من الأحيان إذ نال المال والعزة نسي ربَّه، وإذا نال القوة تكبر، وإذا ازدهرت تجارته وصناعته وحرفته وزراعته أساء التصرف في أمواله أو أهلكها في رفع القضايا ضد الآخرين، أو هضم حقوق الفقراء، وإذا كان يتمتع بصحة جيدة أساء استعمال العيون والآذان وغيرها من الجوارح. لذا فالنجاح في اختبار نعمة الشكر صعب جدا، أما اختبار المحنة فسهل، مثلا: إذا مات صاحبك قلتَ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن إذا نلت مالا فمن الصعب أن تمنع نفسك من الانغماس في الملذات والإسراف في الأكل والشرب. لذلك يقول صاحب المفردات: الابتلاء الحقيقي يأتي في صورة النعمة، وقليل من يفوز فيه.

ثم قال صاحب المفردات: وهناك قول لعمر ﵁ بهذا المعنى: "بُلينا بالضراء فصبرنا وبُلينا بالسراء فلم نصبر." (المفردات)

فترى مثلا أنه لم ينحرف أحد من الصحابة عن الإسلام زمن الشدائد والمحن، ولكن في زمن النعم ارتد العرب فور وفاة الرسول ﷺ، بسبب النـــزاع على المُلك والخلافة إلا أهل مكة والمدينة الذين تربوا في صحبة النبي ﷺ. لا شك أن هؤلاء المرتدين لم يكونوا من الصحابة ولكنهم كانوا قريـــبي عهد برسول الله ﷺ، وقد رأوا كثيرا من آيات نصر الله وتأييده، ومع ذلك ارتدوا جميعا. ورد في الحديث أنه بعد وفاة الرسول ﷺ لم يكن الناس يصلّون بالجماعة إلا في مكة أو المدينة، لأن وباء الارتداد قد تفشى في كل مكان (البداية والنهاية ج ٥ ص٣٠٠). لذلك يقول سيدنا عمر ﵁: بُلينا بالضرّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرّاء فلم نصبر.. أي قد صُبَّت علينا المصائب ولكنا بقينا صامدين لها ولم نفزع منها ولم نخف، ولكن حين أنعم الله علينا بنعمة تلو نعمة وفتح بعد فتح ونصر بعد نصر ومالا بعد مال لم نستطع أن نفوز في اختبار النِّعم هذا مئة بالمئة كما فزنا من قبل.

ثم يقول الراغب: "ولهذا قال أمير المؤمنين: مَن وُسّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكر به، فهو مخدوع عن عقله. وقال الله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾".

والمراد من أمير المؤمنين عادةً عليّ ﵁. لا شك أن كل واحد من الخلفاء- رضوان الله عليهم أجمعين- كان أمير المؤمنين، ولكن بعض الكتاب المسلمين الذين كانوا يفضّلون عليًّا على الخلفاء الآخرين قد خصّوه بهذه الكلمة. ولعل صاحب المفردات يعني عليًّا ﵁ هنا. إذًا فسيدنا عليّ ﵁ أيضًا قد استنتج هذا المعنى من هذه الآية القرآنية نفسها، لأن الابتلاء في القرآن لا يعني العذابَ فقط مثل موت قريب أو خسارة مال، بل إن اقتناءك المال أيضًا ابتلاء، وهو أيضا خطير مثل ابتلاء الشدائد والمشاقّ. فيجب أن يخاف الإنسان عند تيسُّر الرخاء والعزة، كما يخاف زوال العزّ والمال. فمثلا لو مات جاموس امرئ اليوم، وسُرق ماله غدًا، وهلك كلبه بعد غد، ثم مات حصانه، ثم مات قريبه، لأصيبَ بالذعر والهلع، وكثير من الناس يقولون في هذه الحالة إن الله تعالى يعاقبهم على ذنوبهم. ولكن لو نال أحدهم اليوم مئة روبية، وغدا مئتي روبية وبعد غد ثلاث مئة، وفي اليوم الرابع أُنعم عليه بضياع وأراض، وفي اليوم الخامس أُنعم عليه بحصان، وفي السادس نال من الدولة لقبا مرموقا، فلن يخطر بباله أنه هالك بسبب هذه النعم، أو أنها قد تؤدي إلى دماره، مع أن الواقع أن هناك إمكانية سقوطه وهلاكه بنيل هذه النعم تمامًا كما توجد هذه الإمكانية عند هجوم المصائب عليه، فكما أن الشدائد المتتالية تُري المرء عذابَ الله قريبا، كذلك في بعض الأحيان يُعطى النعمَ على سبيل الاختبار لتُعرف مدى علاقته بالله تعالى.

الواقع أن كسب المال ليس ممنوعا شريطة ألا يضرّ بدين المرء، إنما الممنوع حبّ المال واستعماله الخاطئ. لقد كان صحابة الرسول ﷺ يملكون من الثروات ما يملكه كبار الأثرياء اليوم. ورد في التاريخ عن الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﵁ أنه ترك عند وفاته ثروة قُدّرت في ذلك الوقت بحوالي ٢٥ مليون روبية (أسد الغابة: عبد الرحمن بن عوف)، وهي تساوي اليوم حوالي ٤٠٠ مليون روبية. ومع ذلك كان أكله ﵁ وشربه ولبسه كالمسلمين العاديين، إذ كان حريصًا على إنفاق ماله في سبيل الله تعالى بلا تردد. أفَعَل أولاده بعده مثله أم لا؟ الله أعلم.

باختصار إن حصول المرء على نعمة من الله تعالى ابتلاء أيضا.

ثم يضيف صاحب المفردات: "وإذا قيل ابتلى فلانٌ كذا وأبلاه، فذلك يتضمن أمرين، أحدهما تعرُّفُ حاله والوقوفُ على ما يُجهَل من أمره. والثاني ظهور جودته ورداءته. وربما قُصد به الأمران، وربما يُقصد به أحدهما. فإذا قيل في الله تعالى: بلى كذا أو أبلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يُجهَل من أمره، إذ كان الله علاّم الغيوب."

أي الابتلاء قسمان: معرفة حقيقة الشيء، والثاني إظهار حقيقته. ونظرًا إلى المعنى الثاني فإن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ يعني أن الله تعالى عندما أراد أن يكشف جودةَ أو رداءة أخلاقِ المرء وأفكاره وطاقاته فيُنعم عليه، فيقول الإنسان إن ربي أكرمني.

من سنة الله تعالى أنه إذا أراد إظهار حقيقة إيمان العبد وإخلاصه ليعرفها العبد بنفسه أو ليعرْفها الآخرون، فيُكرِمه وينعم عليه باستمرار على سبيل الاختبار، فينال مالا، ويربح في التجارة، وتنتج دوابُّه بكثرة، وتدرّ عليه أرضُه، وتخلع الدولة عليه لقبًا أو تمنحه منصبا، فيقول إن ربي أكرمني وأعزّني؛ ولكن قوله هذا فارغ، إذ يقول بلسانه أنعم الله عليّ كثيرا، بينما يخلو كلامه من أي حقيقة، إذ لو كان صادقًا في قوله لظهر صدق قوله هذا في كل موطن ومكان، فإن الإنسان طويل القامة – مثلا– إذا ساح في إيران بدا طويلا، وإذا مشى في بلد آخر بدا كذلك أيضا، ولكنه لو بدا طويلا في مكان وقصيرا في آخر، فلا بد من أحد أمرين؛ فإما أنهما شخصان ليس شخصا واحدا، أو أنه يخادع فيلبس حذاء عالي الكعب في بلد، وحذاء عاديا في بلد آخر. الحق أن حالة المرء الثابتة هي حقيقته الأصلية، وإلا فهو يتصنع ويتكلف. ومن الأدلة على تكلُّف هذا الإنسان في شُكره قوله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. أي أن الله تعالى حين يلقي هذا الإنسان في اختبار آخر ويقدر عليه رزقه — يقال: قدر على عياله: ضيَّق– أو يصيبه بخسارة لكشْف حقيقة باطنه يقول إن ربي أهانني وأخزاني، بدلاً من أن يتحلى

عندها بالتقوى فينسب الخير إلى الله تعالى والشر إلى نفسه. وهذا دليل أكيد على أن ما قاله وقت النعمة كان مجرد ثرثرة لسان. ولذلك استخدم القرآن عندها كلمة ﴿يقول﴾.

اعلموا أن التفوه بكلمة كفر جريمةٌ، ولكن خروج كلمة الخير من القلب ليست جريمة على الإطلاق. ومع ذلك لو تفوه المرء بكلمة خير نفاقًا ورياءً، أصبحت كلمة الخير هذه جريمة. أما خروج كلمة كفر من قلبه فهي جريمة بالطبع.

التفسير: أي أن الله تعالى لو ابتلى العبدَ بإنـــزال نِعَمه عليه كنـــزول المطر، لقال لقد أعزّني ربي وأكرمني، وإذا ضيّق عليه حياته وضيق عليه سبل معيشته لحكمة قال قد أذلني ربي وأهانني.. أي أنه ينسب الخير والشر كليهما إلى الله تعالى، ويقولً: الله هو الذي أحسن إليّ وهو الذي أساء إليّ. فاعتبر الله تعالى تصرُّفهم هذا خطأ كبيرا، وقال لا تقولوا إن العز يأتي من الله والذلّ كذلك من الله، أو أنه تعالى يأتي بالنتائج الحسنة للأعمال، وهو نفسه يأتي بالنتائج السيئة أيضًا.

وهنا نجد إشكالاً، لأن المنافقين حين قالوا عكس ما زجرهم الله تعالى بسببه هنا فقد نهرهم مرة أخرى حيث قال: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء: ٧٩).

فكيف زجرهم الله تعالى على قولهم إن العزّ والذل كليهما من الله تعالى، مع أنه تعالى أكد ذلك أيضًا في قوله: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. فلماذا يعلّم الله تعالى شيئًا هنا، ثم يزجر المنافقين على قولهم الشيء نفسه في موضع آخر ويقول لهم: لقد قلتم شيئا خطيرا. فهنا قال: لا تنسبوا الخير والشر إلى الله تعالى، وفي مكان آخر نسب الخير والشر كليهما إلى نفسه! فهناك تناقض ظاهري بين الآيتين.

وليس هذا فقط، بل قال الله تعالى في موضع آخر ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء: ٨٠).. مع أنه يظهر أن هذا هو

نفس ما قاله المنافقون في سورة النساء، بأن الخير من الله والشرّ من محمد، ومع ذلك زجرهم.

ثم يقول الله تعالى في مكان آخر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فُصّلت:٤٧).. أي أن الخير يصدر من الإنسان، والشرّ أيضا يصدر منه، فيعاقَب عليه، وربك ليس ظالما لعباده، وإنما العباد هم الذين يفعلون ما يفعلون فيُجزَون عليه. فنرى هنا أن الله تعالى نسب الخير والشر كليهما إلى العبد.

كذلك ورد في القرآن عن قارون الذي كان معاصرا لموسى عليه السلام أنه قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٩).. أي فعلتُ ما فعلتُ بناء على العلم فنلتُ جزاءه.

إذًا كل هذه الآيات تبدو متناقضة في الظاهر، فعندما قال العبد شيئا قال الله: لا. وعندما قال العبد ما علّمه الله، قال الله أيضًا: لا. فهذه أربع أقوال متناقضة في ظاهرها. والسؤال: ما هو الحق إذن؟

هناك أربع احتمالات لا خامس لها:

١-إما أن الخير والشر كليهما من الله تعالى

٢- أو أن الخير والشر كليهما من الإنسان

٣- أو أن الخير من الله والشر من الإنسان

٤-أو أن الشر من الله والخير من الإنسان

والغريب أن الله تعالى يرفض كل هذه الاحتمالات ظاهرا.

والسبيل إلى حل هذا التناقض الظاهري هو أن نعلم أن كل هذه الأقوال جاءت في سياق معيّن، والتناقض الذي نراه يعود إلى عدم فهم السياق والمنظور فقط. فحيثما ذكر الله تعالى أمرًا ثم أبطلَه فكان من منظور معين، وحيثما صدّق الله الأمر نفسه، فكان من منظور آخر. وأي شك في أن اختلاف زوايا النظر يؤدي إلى تغير كبير؟ فمثلا إذا قال أحدنا لن أفعل إلا ما يأمر به النبي أو خليفة الوقت أو أمير جماعتنا أو رئيس جماعتنا، فهذا قول معقول جدا، وكل من يسمعه يعتبره صحيحا. ولكن إذا قُدّم له الطعام وهو جالس في بيته فقال: لن أتناوله ما لم يأت النبي أو الخليفة أو الأمير أو الرئيس، ويسمح لي بأكله، فسوف نعتبر تصرفه هذا خطأً رغم

أن كلامه جيد. فترى أن الشيء الواحد كان صحيحًا في سياق، وصار خطأ في سياق آخر. أو لو أن شخصًا من جماعتنا دعا الإخوة للتبرع لضرورة طارئة للجماعة لقيل له: ما لم يسمح لنا أميرنا أو المركز بشكل رسمي بدفع التبرعات لهذه الحاجة فلن نتبرع بشيء، فقولهم صحيح ١٠٠%، لأننا لو سمحنا لكل واحد بجمع مثل هذه التبرعات فلن يستطيع الإخوة دفع التبرعات الرسمية المطالَب بها من قِبَل المركز، أما لو ذهب سكرتير المال أو غيره من مسؤولي الجماعة لجمع التبرعات، فقال له أحد: ما لم تأتني برسالة من الخليفة باسمي أو ما لم يكتب لي بيت المال في المركز بدفع التبرعات فلن أعطيك شيئا، فكل إنسان سيعتبر قوله هذا خطأً، مع أن قوله مماثل للقول السابق في الحالة السابقة. ذلك أن القول الأول قيل في سياق وهذا في سياق آخر، وبسبب تغير السياق نعتبر هذا القول في الحالة الأولى صحيحا ونعتبره خطأ في الحالة الثانية. إذًا، فاختلاف المنظور والسياق يؤدي إلى فرق كبير.

وأضرب مثالا آخر: ضربُ الابن والدَه جريمة شنيعة، ولكن لو كان الوالد جالسا في مكان، وابنه جالس وراءه، ورأى أن حيّة قد صعدت على ظهر أبيه واقتربت من عنقه وهي على وشك أن تلدغه، ففكّر الابن أنه لو حاول إزالتها بيده عن ظهر أبيه فقد تتنبه وتلدغ أباه، فليس أمامه إلا أن يدفعها بصدمة مفاجئة، فينظر يمنة ويسرة، فلا يجد إلا حذاء، فيضرب الحية بالحذاء، ولن يفكر في أن ضرب الوالد غير جائز. ولن يلومه أحد قائلا: أنت ابنٌ خبيث، فكيف تضرب أباك بالحذاء؟ بل سيثني عليه وعلى ذكائه الجميع؛ إذ أنقذ أباه من الموت المحقّق. إذن، فعملٌ واحد يكون مذمومًا في سياق، ومحمودا في سياق آخر.

أو هناك حريق مثلاً، والناس يستنجدون لإطفائه، وأنت بدلاً من أن تذهب لنجدتهم تبدأ في الصلاة أو تأخذ المسبحة وتذكر الله تعالى، فلا يقال أبدًا إنك رجل صالح محب للصلاة ولذكر الله، بل سيذمّك الجميع ويلومونك، مع أن الصلاة عمل حسن جدا.

باختصار، إن اختلاف زاوية النظر واختلاف السياق والمحل يغيّر قيمة أقوال الإنسان وأفعاله.

وفيما يتعلق بالاحتمال الرابع "أن الشر من الله والخير من الإنسان"، فإن القرآن يرفضه رفضا باتًّا. إنه قول مذموم ومكروه من كل النواحي، ولا يمكن أن يكون له أي تفسير مقبول أبدًا.

أما الاحتمال الثالث "أن الخير من الله والشر من الإنسان"، فلا يرفضه القرآن الكريم في الحقيقة بل يؤيده كما قال الله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء:٨٠).. ولم يرفضه الله تعالى في أي مكان آخر. وإذا وجدنا آية ترفض هذا المفهوم ظاهرا، فهي لا ترفضه في الحقيقة، وإنما تؤيده، كقول الله المذكور من قبل ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء:٧٩).. إذ لا تعني هذه الآية ما يعنيه قول الله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٨٠).. وإنما لها مفهوم آخر تماما، إذ تفنّد خبث المنافقين الذين إذا ظهرت نتيجة حسنة لجهود النبي ﷺ، قالوا: هذه مجرد صدفة، وليس فيها ما يدل على نصر الله أو حنِكة النبي ﷺ، وإن عبّروا عن ذلك بقولهم ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وهذا في الواقع تعبير اخترعه ضعفاء الإيمان لعزْو الأمور إلى الصدف؛ إذ لا يعنون به أنهم موقنون بذات الله تعالى وأن هذا الأمر كان نتيجة للتأييد الرباني، بل يتكلمون بهذا الكلام من باب العادة والتقليد الفارغ من أي دلالة على إيمانهم. وفي بلادنا أيضًا تعبيرات مماثلة لبيان أن الأمر كان صدفة، فمثلا لو نالوا خيرا قالوا: هذا من فضل الله، مع أن قلوبهم تكون خالية تماما من خشية الله أو الإيمان أنه تعالى هو الذي قد كتب لهم هذا النجاح فضلاً منه. إذن، فمثل هذه الكلمات لا تدل على إيمان أصحابها، بل هي تعابير تجري على ألسنتهم في مناسبات شتى. الفرق أن المؤمن حين يتفوه بها فإنه يعني أن الله تعالى قد تفضّل عليه فعلاً، أما الكافر أو المنافق فيتفوه بها وهو يقصد أن الأمر كان مجرد صدفة فحسب. وهذا ما يبينه الله تعالى هنا.. أي أن المنافقين إذا أصابهم خير قالوا على سبيل التقليد لا على سبيل الإيمان: هذه من عند الله.. أي ما هذا إلا صدفة، والدليل على عدم إيمانهم أنهم ينسبون

الشر إلى النبي ﷺ. لو نسبوا الشرّ إلى أنفسهم لكان الأمر غير ذلك، ولكنهم ينسبونه إلى النبي ﷺ، مما يدل بوضوح أن لا إيمان عندهم.

ولو قيل إنهم ينسبون كل فعل إلى الله نظرًا إلى نتائج الأعمال، فالجواب أنه ما دام الله تعالى هو الذي يأتي بالنتائج كلها؛ فلماذا يقولون إن النتائج الحسنة من الله والسيئة من محمد؟ فلو كان كلامهم هذا باعتبار النتائج، فأيضا قد أخطأوا فيما قالوا، لأن القرآن الكريم يعلن أن الكل من عند الله، النتائج الحسنة من الله والنتائج السيئة أيضًا من الله، فلو كانوا صادقين لنسبوا النتائج الحسنة والسيئة كلها إلى الله تعالى، ولكنهم ينسبون الحسنة منها إلى الله والسيئة منها إلى الرسول ﷺ.

ولو أنهم أرادوا أن ينسبوا النتائج كلها إلى أعمال العباد.. أي أن العبد إذا قام بعمل حسن جاءت النتيجة حسنة، وإذا قام بعمل سيئ جاءت النتيجة سيئة.. فكان عليهم أن ينسبوا النتائج كلها الحسنة منها والسيئة إلى الرسول ﷺ. إذا كان كثير من المسلمين قد استشهدوا في غزوة أُحد نتيجة خطأ، فإن محمدا ﷺ قد انتصر أيضا مع حفنة من أصحابه على جيش كبير للكافرين. فإذا كان قولهم هذا نظرًا إلى فعل العباد فكان عليهم أن ينسبوا العمل الحسن والعمل السيئ كليهما إلى محمد ﷺ، وإذا قالوا هذا نظرًا إلى النتائج فكان عليهم أن يقولوا إن الحسنة والسيئة كلتيهما من الله تعالى. ولكنهم قالوا الحسنة من الله والسيئة من محمد، مما لا يستقيم من أي منظور.

الواقع أن من المحال أن ينسب المنافقون الخير والشر كليهما إلى الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ، لأن هدفهم النيل من الرسول ﷺ، فلو قالوا إن النتائج الطيبة والسيئة كلتيهما تظهران بسبب محمد ﷺ، لما استطاعوا إبعاد الناس عنه ﷺ، لأن النتائج الطيبة كانت أكثر بكثير من النتائج السيئة؛ إذ بلغت نسبتها ٩٨٪. فعزْوُ النتائج كلها إلى الرسول ﷺ ما كان ليحقِّق هدفَهم، بل لرفع مكانة الرسول ﷺ في أعين القوم وجعلهم يثنون عليه قائلين إنه زعيم موهوب؛ إذ انتصر على الأعداء وأسرهم وجلب الغنائم في معظم الحروب. لقد مُنِيَ المسلمون بخسائر أكثر من الكفار في

حربيْن فقط، أما في حوالي أربعين أو خمسين غزوة فكانت نسبة قتلى المسلمين إلى قتلى العدو هي واحد من عشرة.

أما لو نسب المنافقون النتائج كلها إلى الله تعالى قائلين إن الخير منه والشر منه، لفشلت أيضًا خطّة إغواء الناس وتضليلهم. كان غرضهم إبعاد الناس عن الإيمان، فما كانوا ينسبون الخير والشر لا من الناحية المادية ولا الروحانية بطريق سليم، بل إذا أصابهم الخير اعتبروه صدفة، وإذا أصابهم الشر نسبوه إلى الرسول ﷺ قائلين: لقد سبق أن تضررنا في موطن كذا وكذا، ومع ذلك لم يغير محمد موقفه، فدفع القوم اليوم إلى الضرر مرة أخرى.

فاعتراضهم ليس مبنيا على أي منطق، بل أساسه الشر والفتنة والفساد، لذلك رفض الله قولهم هذا، وإلا فالواقع أن النعمة من الله تعالى، والشرّ نتيجة لخطأ العبد، ولكن العبد المقصود هنا ليس محمدا ﷺ، بل عامة المسلمين. فحيثما أصيب المسلمون بنكسة ما كان مردّه خطأ من الرسول ﷺ، بل سببه خطأُ اجتهاد المسلمين حينًا كما في غزوة أحد، أو جبنُ ضعفاء المسلمين والكافرين الذين انضموا إليهم حينًا آخر كما حصل في غزوة حنين. أما المنافقون فليس قولهم سليمًا لا من الناحية الروحانية ولا المادية. وإنما قالوا ما قالوا بنيّة الفساد والنيل من الرسول ﷺ، ولذلك رفض الله تعالى قولَهم.

ولو قيل إنهم نسبوا الخير إلى الله والشر إلى العبد تعظيمًا لله تعالى، فالجواب لو كان في قلوبهم تعظيم لله تعالى لنسبوا الشر إلى أنفسهم أو إلى الصدفة قائلين: لقد تضررنا لأننا أخطأنا، ولم ينسبوا الشر إلى الرسول ﷺ. إنما التعظيم أن ينسب الإنسان الخطأَ إلى نفسه، والخيرَ إلى سيده، ولكنهم ينسبون الخير إلى الله تعالى والشر إلى الرسول ﷺ، مما يعني أنهم لم يقولوا هذا تعظيما لله تعالى، بل بقصد الفتنة والفساد.

أما نسبة الخير إلى الله والشر إلى العبد فأساسها أن الله تعالى قد خلق كل شيء لخير الإنسان، ولكنه يصبح شرًّا له جرّاءَ فعلِه أو فعلِ عدوه. فمثلا: قد خلق الله الزرنيخ ليتناوله الإنسان ليشفى من الحمّى، أو من الإسهال الدموي لأن تناوُل

جرعة من الزرنيخ بحسب العلاج بالمِثل (الهوميوباثي) يشفيه منه ويمنع النـــزيف، أو أن المصاب بفقر الدم والضعف أو بضعف الأعصاب خاصة لو تناول مقدارا معينا من الزرنيخ شفي من مرضه. فهناك عشرات الفوائد للزرنيخ، ولكن بعض الناس يتناول الزرنيخ عمدا لينتحر، أو أحيانا يتناول أشياء مكوَّنة من الزرنيخ بدون حاجة وبدون مشورة طبيب، أو يُطعِمه العدوُّ إياه خداعًا فيهلك. فمع أن الله تعالى قد خلق الزرنيخ لخير الإنسان، إلا أن هذا الخير يصبح شرًّا له نتيجة سوء استعماله أو لخطأ طبيب أو كيد عدو.

أو خذوا مثلاً الحديد، فقد خلقه الله تعالى لفائدة الإنسان ليصنع منه قطّاعات وسكاكين ومعاول ومناشير وغيرها من الأدوات التي تساعده في ذبح الحيوان وحراثة الأرض وحفرها وكسرِ الصخور وقطع الخشب وما إلى ذلك، ولكنه لو أخذ قضيبا من حديد وضرب به رأسه فمات، فهذا ذنبه هو لا فعلُ الله الذي خلق الحديد لنفع الإنسان وليس للإضرار به أو قتله.

فحيث إن الله تعالى قد خلق كل شيء لمنفعة الإنسان، وإذا تضرر به فإنما يتضرر بنفسه، لذا يُنسب كل خير إلى الله وكل شر إلى الإنسان.

الواقع أنه فيما يتعلق بالنتائج فهي من الله تعالى، لأنه هو الذي يرتب نتائج الأعمال سيئة أو حسنة، ولكنه تعالى لا يُتّهم بظهور نتيجة سيئة لعمل لأنه تعالى لم يفعله وإنما فعله الإنسان. فمثلا لو قفز شخص من منارة ومات، فهو مَن ألقى بنفسه منها، ولم يسقطه الله، مع أن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من لحم ودم بحيث لو سقط من مكان عالٍ مات، وهو ﷻ الذي جعل له رئة تتضرر نتيجة سقوطه. ففيما يتعلق بالنتيجة فهي تُنسب إلى الله تعالى حتمًا، وسيقال إن الإنسان مخلوق من عند الله تعالى بلحم ودم بحيث لو قفز من مكان عالٍ ترضّضَ جسده ومات، ومع ذلك لا يقال إن الله أسقطه من المنارة، أو جعله من لحم ودم ليقفز من المنارة، كلا، بل قد خُلق لحمه ودمه لهدف آخر.

فثبت أنه فيما يتعلق بالنتائج فإنها بخيرها وشرها ستُنسب إلى الله تعالى، ولكن فيما يتعلق بالشر الناتج فيُتهم الإنسان بتسبُّبه، وإليه يُنسَب الفعل خيرا أو شرا.

فنقول: الخير يأتي من الله والشر كذلك، ولكن إذا قيل من يرتكب الفعل الحسن أو السيئ، فنقول: العبد، لأنه هو الذي يسرق وهو الذي يصلي. فيما يتعلق بكفاءات الإنسان فلو سئلنا مَن خلقها فيه، قلنا: الله تعالى، وإذا سئلنا من أظهرها بالفعل؟ قلنا: العبد. ذلك أن قوى الإنسان وكفاءاته كلها خير، فنقول إنها من عند الله تعالى، وفيما يتعلق باستعمالها وظهورها فخيرها يُنسب إلى الله تعالى لكونه خالقًا لها، وشرُّها يُنسب إلى العبد؛ لأن العباد هم الذين يرتكبون أفعالا شريرة.

إذن، ينسب الخير والشر كلاهما إلى الله تعالى من حيث النتائج، وينسب الخير والشر كلاهما إلى العبد من حيث العمل. ومن حيث تزوُّد الإنسان بشتى القوى، فيُنسب خيرُها إلى الله تعالى، ولكن لا يُنسب شرها إلى الله تعالى، لأنه لم يخلق أي شيء لاستعمال سيئ. ومن حيث ظهور هذه القوى في الإنسان بالفعل، فخيرها ينسب إلى الله تعالى وشرها إلى العبد. لأن الله تعالى لم يخلق هذه القوى لأي شر.

باختصار، فكلا الأمرين يفعلهما الله، ويفعلهما الإنسان أيضًا، ومع ذلك يُنسب الشر إلى الإنسان والخير إلى الله تعالى. وقد رُفض قول الإنسان من عند الله تعالى في الآية قيد التفسير لأنه نسب الشر إلى الله تعالى، حيث أخبر الله تعالى ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.. أي أن الله تعالى حين يمطر على عبده مطر نعمه لكشف حقيقته عليه، ينسى الهدف الحقيقي وراء ذلك ويقول: لقد أكرمني الله.. أي أن الله قد عاملني هكذا لأني أهلٌ لذلك، ولا يفكّر أن الله قد أعطاه هذه النعم لكشف خيره أو شره على الدنيا، أو أعطاه هذه الثروة ليُري الناس قوة إيمانه أو ضعفه، وأن ثروته أصابته بالكبرياء أم لا، وأنه أدى حقوق العباد بكل أمانة أم لا. فبدلاً من أن يدرك العبد هذا الهدف وراء إنعام الله عليه يستنتج منه نتيجة خاطئة، فيظن أن الله تعالى قد أحبه إذ ينعم عليه هذا الإنعام الكثير.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾.. أي إذا اختبره الله تعالى بضيق الرزق فلا يدرك أن الله تعالى يريد بهذا الابتلاء أن يكشف معدنه له أو للدنيا: أيصبر على الشدائد، ويكون جنديًا شجاعا في سبيل

تلبية حاجات الأمة أم لا. إنه لا يفهم أيًا من هذه الحِكم، فيصرخ عند الضيق أن الله قد أهانني. ويعني أنه يتخذ في كلتا الحالتين موقفا خاطئا، ويكون كلامه في المرتين خاطئا، وإن كان كلامه صحيحًا من حيث المبدأ أن الله تعالى يختبر العبد بالإنعام والإكراه حينًا وبإلقائه في المحن وضيق الرزق حينًا آخر.

فالمؤمن يظل في الحالتين ثابتًا قائما، أما الكافر فيقول عند الإنعام والإكرام ربي أكرمني، مع أن الله تعالى يريد اختباره بهذا الإكرام، وعندما يضيق عليه رزقه يقول ربي أهانني، مع أن الله تعالى يريد كشف باطنه بهذا الاختبار. وكأن كلا المقامين مقام ابتلاء لا مقام جزاء. عندما يُمطر اللهُ على العبد نِعمه فهو في ابتلاء، وعندما يضيق عليه رزقه فهو في ابتلاء أيضا، بمعنى أن الله تعالى لا يُنـــزل عليه نعمه جزاءً على عمل عظيم، ولا يضيق عليه رزقه عقوبةً على جريمة، بل هما حالتان من الاختبار كي يكشف الله حقيقته عليه وعلى الآخرين.

يجب ألا يغيبنَّ عن البال أن نِعَم الله وبلاياه نوعان؛ ما يكون ابتلاء، وما يكون جزاء. بمعنى أنه ينـــزل عليك النعم ابتلاء حينًا، وجزاءً حينًا آخر، وكذلك ينـــزل عليك المصائب ابتلاء حينًا، وعقوبة حينًا آخر. والحديث هنا عن الابتلاء لا عن الجزاء، ولذلك يدينُ الله الإنسانَ ويقول: لقد أنعمنا عليه اختبارًا، فقال: لقد أكرمني الله، وكأنما يقول: كان حقًّا على الله أن ينعم عليه، وكان واجبا على الله أن يكرمه. إنه لم يفكر أنه لم يعمل أي خير، وإنما نزلت عليه هذه النعم لاختباره. وعلى النقيض إذا أصابته مصائب على سبيل الاختبار قال: ربي أهانني، وقد أذلني غاضا النظر عن مكانتي. لو أن الإنسان قال في هذه الحالة قد نزل علي هذا العقاب بسبب جرائمي، أو قد عذبني ربي نتيجة ذنوبي، لما عُدَّ مجرما ومدانا - وإن كان قوله هذا أيضًا خطأً، إذ هو في مقام الابتلاء لا في مقام الجزاء- ولكنه يقول ربي أهانن.. أي كنت أستحقّ الإعزاز ولكن ربي أهانني وأخزاني.

الواقع أن للابتلاء صوره وللجزاء صوره. فمثلا يُعزّ الله تعالى كل نبي ويكتب له النجاح في أهدافه، فهناك عديد من الأنبياء الذين أُعطوا المُلك المادي مع الملك الروحاني، مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام (النمل: ١٧-٢٠، ص: ١٨-

٢١ و ٣١-٣٦، التثنية: ٢/٣١-٣٣، الملوك الأول ٢/١١ و ٢/١٢)، ولكنهم لم يُعطَوا المُلك المادي ابتلاءً، بل إنعامًا وجزاءً، لتقويتهم؛ فمثلا لو لم يؤت اللهُ الرسول ﷺ مُلكًا ماديًا، فكيف كان سينفّذ شريعة القرآن عمليا؟ فثبت أن المُلك الذي وهب للنبي ﷺ وغيره من الأنبياء كان أمرًا ضمنيا وبمنـــزلة وسيلة لتكميل مهمته و لم يكن ابتلاء. إنما يأتي الابتلاء دائما لكشف أخلاق المرء، أما الرسول ﷺ فكانت أخلاقه قد تجلّتْ من قبل بشكل كامل، وقد فاز برضى الله تعالى في السراء، وسار على سبل رضاه في الضراء أيضا. لقد جاءته الثروة فأنفقها لمنفعة الناس بلا هوادة، و لم ينتفع منها. وقد صُبّت عليه أنواع المصائب والأذى، فلزم الصبر دائما. ذات مرة مرّ النبي ﷺ بالمقابر، فوجد امرأة تبكي على قبر، فقال لها: اصبري يا امرأة، فقالت: لو مات ولدك لرأيت كيف تصبر! إنك تنصحني إذ لم يمت لك ولد. فقال ﷺ: لقد مات لي سبعة، وصبرت في كل مرة. ثم ذهب النبي ﷺ، فقيل لها: ويلك ألم تعلمي من هو؟ قالت: كلا. قالوا: هو رسول الله ﷺ. فأسرعت تجري وراءه ﷺ حتى أتت بيته وقالت: يا رسول الله، إني أصبر. فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأُولى أما بعد ذلك فلا بد للمرء إلا أن يصبر شاء أم أبى. (البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور).

إذن، قد مرّ النبي ﷺ بمواقف يجزع فيها الإنسان ويفزع، ولكنه صبر فيها راضيا بمشيئة الله. كان النبي ﷺ عند ابنه إبراهيم عليه السلام حينما جاد بأنفاسه الأخيرة، فسالت الدموع من عينيه ﷺ من شدة الكرب، فقيل له: يا رسول الله، أتبكي؟ فقال: نعم، العين تدمع ولكن لا اعتراض عندنا على قضاء الله، فالخير فيما فعل (المستدرك للحاكم: كتاب الجنائز). فالابتلاء غير الجزاء، لأن من النعم ما يكون جزاء على وصول المرء المقامات الروحانية العليا. لقد قال السيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله: إني لا آكل طعامًا حتى يقول الله لي: يا عبد القادر، أنشدك باسمي أن تأكله. ولا ألبس لباسا حتى يقول الله لي: يقول الله لي: يا عبد القادر، أنشدك باسمي أن تلبسه. فهذا المقام ليس مقام ابتلاء، بل هو مقام إنعام يناله المرء بسبب بلوغه المقام العالي. والله تعالى يمرّر هؤلاء الأخيار بالسرّاء والضرّاء ويكشف

أخلاقهم وباطنهم للعالم جيدا، فلا يكونوا بعدها بحاجة إلى أي ابتلاء، أما عامة الناس فتصدأ قلوبهم بالذنوب بحيث لا يتأثرون إذا مسّتهم السراء الآتية من عند الله تعالى، ولا يتغيرون إذا مستهم الضراء من عنده تعالى. إنهم يعيشون عميانا، ويفارقون الدنيا عميانا، وعن مثل هؤلاء العميان روحانيًا تحدّثَ الله في هذه الآية، وأخبر أنه أحيانا يصيبهم بالسراء على سبيل الابتلاء، ولكنهم يفرحون قائلين: لقد أكرمنا الله، مع أن أعمالهم ليست مما يستحقون به الإنعام والإكرام من الله تعالى، إذ تؤدي بهم ثروتهم وعزتهم إلى الجحيم في كثير من الأحيان، وأحيانا يُضيِّق الله عليهم رزقهم فيقولون لقد أهاننا الله. وكأنهم في الحالتين يغمضون أعينهم عن حكم الله، فيموتون روحانيا.

وقد رسم الله تعالى واقعهم هذا في آية أخرى فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(يس: ٤٨). فهذه الآية شرح للآية قيد التفسير، حيث بين الله تعالى فيها أن الكفار يرون أن الله أعطاهم هذه النعم لأنهم يستحقونها، ولم يُعطِها غيرَهم لأنهم لا يستحقّونها، وحيث إن الله قد أكد بفعله أنهم لا يستحقونها، فمن واجبنا أن لا نعطيهم منها شيئا. والظاهر أن مَن عنده هذا التفكير لن يشكر الله تعالى على نعمه، وإذا أصابته مصيبة فلا بد أن يشتكي بأنه تعالى لم يكرمه إكراما يليق به، ولم يعامله بحسب مكانته.

كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

تَحاضُّون: حاضَّه عليه: حثَّ كلٌّ واحد منهما صاحبَه. تَحاضَّ القومُ: تَحاثُّوا. (الأقرب)

التفسير: أي ليس الأمر كما تحسبون. تظنون أنكم أُعطيتم هذه الأموال لأنكم كنتم أحقّ بها دون الآخرين، أو ابتُليتم بهذا البلاء لأن الله تعالى لم ينصفكم، والحقيقة أنكم إنما أُوتيتموها لتنفقوها على الفقراء فيرسى الأساس لمجتمع صالح في الدنيا، فاستكبرتم، فلم تهملوا الفقراء واليتامى ولم تكرموهم فحسب، بل أسأتم معاملتهم وقلتم لهم لستم أهلاً عند الله لنيل هذه النعم، ولذلك أخزاكم الله وأهانكم. هلا أدركتم أيها المغرورون أن الله تعالى قد أعطاكم هذه الأموال لينظر أتتفقدون اليتامى، ويحث بعضكم بعضا على رعايتهم قائلا: لقد أعطانا الله المال فتعالوا نعتنِ بالفقراء ونطعم الجياع ونَكْسُ العراة في البرد وننفقْ على المحتاجين لإزالة معاناتهم، ولكنكم قلتم: لنا حظوة عند ربنا فلذلك أكرمنا دون غيرنا، وظننتم أنكم أحبّاء الله المقرَّبون فلذلك أنعم عليكم بهذه النعم وحرم الآخرين. لقد نسيتم أنكم أُعطيتموها لتكفلوا اليتامى وتساعدوا المساكين، وظننتم أنها حق لكم، فأهملتم الفقراء واليتامى ولم تسدّوا حاجاتهم، فكم من يتيم صغير مات جوعا أمام أعينكم! وكم من مسكين ظلّ يتكفف الناس مطرودا من باب إلى آخر، ولكنكم لم تعتنوا بهم، نشوانين في كبريائكم.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

التراث: ما يُخلِفه الرجل لِوَرَثَته. (الأقرب)

لَمًّا: "قال الفراء: أي شديدا.. وفي الصحاح: أي نصيبه ونصيب صاحبه." وكأن المعنى أنكم لا تكتفون بأكل نصيبكم، بل تأكلون نصيب إخوانكم الآخرين من يتامى ومساكين وغيرهم.

التفسير: أي انظروا كيف تتراءى عاقبة أعمالكم في أشكال شتّى. فبدلاً من التحلي بالخُلق الطيب وتفقُّد اليتامى والفقراء، أسرفتم أموالكم وأهلكتموها، وعوضًا عن أن تدركوا أن سوء أعمالكم هو السبب وراء إفلاسكم، وتفهموا أن هذا تحذير رباني لتأخذوا الحذر في المستقبل، فلا تسرفوا وتحافظوا على أموالكم،

بدأتم تقولون ربي أهانن.. أي كان على الله أن يكرمنا، ولكنه أخزانا، مع أن الواقع أن الله تعالى أراد بذلك أن يلقّنكم درسًا؛ وإلا فمتى كانت أعمالكم حسنة حتى يكرمكم. لقد منّ الله عليكم إذ آتاكم هذه النعم، وقد آتاكم إياها لتنفقوها على الفقراء، ولكنكم ملأتم بالأموال جُرُبَكم، ثم أهلكتموها في الخمر والرقص والغناء مهملين اليتامى والفقراء، ولما أفلستم أخذتم في الصراخ أن الله أهانكم وأخزاكم، وبدلاً من أن تدرسوا أحوالكم دراسة عميقة صحيحة لتعرفوا أسباب إفلاسكم، بدأتم تفسرونها تفسيرا خاطئا. ألم تفكّروا في مدى انحطاطكم ولؤمكم وخسّتكم؟ حيث تأكلون أموال اليتامى كأنها حق لكم! وترثون أموالاً وعقارات وأراضي ومساكن ثم تهلكونها كلها في البذخ والانغماس في الملذّات! لقد كسب آباؤكم الأموال بإرهاق وتعب فتهلكونها كلها متكبرين بأنكم أولاد الأثرياء، ثم تشْكون: لا يُكرِمنا الناس! ولِمَ يكرمكم الناس وهم يعرفون سوء حالكم؟ لا تزيدون أموالكم وعقاراتكم، ولا تتفقدون بها أحوال الفقراء واليتامى، بل تهلكون أموالكم وتضيعون أعماركم، في الأكل الشهيّ، أو اللباس البهيّ، أو الرقص والغناء، أو شرب الخمور، أو الفسق والفجور، ثم تشتكون: لا ندري ما حلّ بالناس؛ فإنهم لا يكرموننا مع أننا نحن الكرام وأبناء الكرام.

وهكذا تأخذهم الحيرة والعجب، فيقولون بأنفسهم: يبدو أنه قد ضُربت علينا اللعنة من الله تعالى لسوء أعمالنا، وإلا أي شك في عزنا وشرفنا؟

فكأن الله تعالى يردّ عليهم: إذا كان آباؤكم أثرياء، فكان المفروض أن تكونوا أكثر منهم ثراء، فإذا كان والد أحدكم يكسب ألفًا فكان على ابنه أن يكسب عشرة آلاف، وينفق للنهوض بالناس، لا أن يدمر ماله منغمسًا في الملذات، ثم يتسول من الناس. لقد أهنتم أنفسكم بأنفسكم، وأسقطتم أنفسكم من أعين الناس، فسقطتم في عين الله وأعين الناس أيضا. لقد حلّتْ بهم ساعات من الضيق لتأخذوا الحذر وتتداركوا الخطأ، ولكنكم تردّيتم أكثر.

ومن معاني ﴿لَمًّا﴾ النصيب، فعليه ستُعتبر هذه الآية إشارةً إلى أن الأموال التي يقتنيها المرء ليست له وحده، بل فيها نصيب لآخرين من بني جنسه، ولكن أصحابها ينفقونها على أنفسهم فقط، وهكذا يهضمون حق الآخرين.

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

جَمًّا: الجَمُّ: الكثير من كل شيء. جاءوا جمًّا غفيرا: أي جاءوا بجماعتهم، الشريفُ والوضيع ولم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة. (الأقرب)

التفسير: أي أنكم تدخرون الأموال وتحتكرونها. لقد آتاكم الله المال لتستثمروه بالتجارة، وتروّجوا به شتى الصناعات والحرف، أو تنفقوه على الفقراء، ولكنكم تغلقون جِرابكم.

ومن معاني هذه الآية: ليس همكم إلا المال دونما تمييز بين حلال وحرام. إذا جاءكم الحرام أخذتموه، وإذا جاءكم الحلال أخذتموه. إذا وجدتم شيئا عاديًا اقتنيتموه وإذا رأيتم شيئا غاليًا جلبتموه. ليس هدفكم إلا جمع المال، بغض النظر عن مورده.

لقد بين الله تعالى في الآيات الأربع السابقة أربعة أمور تُهلِك الأمم، أوّلها: عدم رعاية اليتامى، حيث يقول الله تعالى إن هؤلاء القوم إذا أنعم الله عليهم بنعمة قالوا: نحن ذوو حظوة عند الله تعالى، وإذا ابتُلوا بضيق قالوا: لقد أهاننا الله. وكأنهم في الحالتين ينسبون العزّة إلى أنفسهم؛ إذا أُكرموا قالوا: كان إكرامنا واجبا، وإذا أُهينوا قالوا: لقد أخطأ الله إذ كان إكرامنا واجبًا. فيفند الله تعالى زعمهم، ويخبرهم: الواقع أن أسباب دماركم موجودة في أنفسكم، وبسببها يُصَبّ عليكم سوط عذاب؛ أي هناك أسباب في الإنسان تدفعه إلى الدمار، وهي موجودة فيكم، فإذا لم تهلكوا فمن يهلك؟

فأولُّ الأسباب وأهمُّها لهلاك الأمم عدمُ رعاية اليتامى. إنه حكم ديني وروحاني في ظاهره، ولكنه في الحقيقة وثيق الصلة برقي الأمم وزوالها. من المحال أن تزدهر أُمةٌ لا تهتمّ برعاية اليتامى وتهمل تربيتهم بحيث يضطرون لأن يتكففوا على الأبواب. إن الأعمال الكبيرة تتطلب تضحيات كبيرة، وبدون التضحيات الكبيرة لا يمكن إنجاز الأعمال الكبيرة. والتضحيات الكبيرة نوعان؛ التضحية بالمال، والتضحية بالنفس. ونرى أن الإنسان لا يبالي بتحمُّل المشاقّ، ولكنه حين يفكر في مصير أولاده من بعده يصبح جبانًا، وينسحب من ميدان التضحية. فلو تمّتْ رعاية اليتامى في أمة كما ينبغي، فمن المحال أن يتردد أحد أفرادها عن التضحية بالمال أو النفس، كلا بل سيتقدم للتضحية ضاحكًا مسرورا، ويرضى بكل نوع من الشدائد بكل سرور. عندما يرى القوم بأعينهم يومًيا أن فلانا مات فتكفّل فلانٌ من أثريائنا بأيتامه، وأسكنهم في بيته، وصار يدرسهم ويكسوهم ويطعمهم أفضل الطعام ويكسوهم أفضل اللباس دون تمييز بينهم وبين أولاده، فالجميع منهم يستعدّ للتضحية قائلا: إن فلانا تُوفي منا، فكفل فلان من إخواننا تربية أيتامه كأبنائه، وأن فلانًا مات فأخذ فلان من الأثرياء أولاده وتولى الإنفاق عليهم، فلا ضير لو ضحّيتُ بحياتي ولا بأس لو متّ في سبيل الأمة؛ لأن إخواني سيتولون تربية أولادي أفضل مني. فلو تولّد هذا الإحساس عند كل فرد من الأمة، فتولى القوم كفالة اليتامى بينهم على صعيد الأمة فمن المستحيل القضاء عليها، ولن يتردد أفرادها عن أي تضحية مهما كبرت. وكما قلتُ إن الناس لا يتلكأون عن التضحيات إلا لأنهم يفكّرون أننا لو قُتلنا، لضاع أولادنا إذ لن يتكفلهم أحد ولن يتفقد حالهم أحد، بل سينهرهم الناس ويسخّروهم كالخدم، ويركلوهم بأرجلهم، ويطعموهم كسرات موائدهم، ويكسوهم البالي من ثيابهم، ولن يمسحوا رؤوسهم بيد الشفقة، ولن ينظروا إليهم بالمحبة، بل يزجروهم وينهروهم، وإذا بكوا فلن يدللهم أحد ليسكتوا، وإذا احتاجوا لشيء فلن يسده أحد. عندما تسيطر هذه الأفكار على قلب أحد وعقله، يرتعد جسمه وينخلع قلبه، فيتردد في التضحية بالنفس، ويفرّ من الميدان. كما يمنعه هذا التفكير من التضحية بالمال بلا تردد في سبيل الأمة. إنه يقول في

نفسه: سأقوم بتربية أولادي كيفما استطعتُ ما دمتُ حيًّا، ولكن لو ضحيت بمالي ومتُّ بعده، لم يجد أولادي مالا، فماذا يكون مصيرهم بعدي؟ وهكذا يصبح جبانًا، ويتردد عن التضحية بالمال.

الواقع أن الإنسان لا يخاف موته أكثر مما يخاف على مصير أولاده بعد موته. وهذه العاطفة تُحدث في نفسه اضطرابا وقلقا.. فتضعف عزيمته وتخور قواه. إنه يفكر أن في القوم أيتاما يسألون الخبز على أبواب الناس، فيقول في نفسه: لو متّ اضطرّ ابني للتسول مثلهم. ثم يتضاعف خوفه برؤية مجموعة أيتام يطرقون بابًا ويسألون أهل البيت الطعام، فيخرج صاحب البيت بسماع صوتهم متذمرًا قائلا: لقد ضيق هؤلاء الأولاد العيش علينا، إذ يزعجوننا يوميًا بقولهم: هل من طعام، هل من طعام، وبرؤية هذا المشهد يزداد المرء جبنًا ويقول: لو متّ سيضطر ابني للتسوّل حتمًا، فسيقول له الناس: لا تزعجنا بصوتك الكريه. ثم إنه يرى مشهدًا ثالثًا حيث يجد أولاد شخص متوفى يغسلون الأواني في بيت بعض القوم ليكسبوا لقمة للعيش، فيزداد جبنًا ويقول: لو أنا متُّ فسوف يسخَّر أولادي في هذه الأعمال الحقيرة. أما الذي يظلم بنفسه اليتيمَ فيكون أكثر الناس جبنًا إذ يقول لو أنا متّ فسيعامل الناس أولادي كما أعامل هذا اليتيم.

فاعلموا أن رعاية اليتيم ليست حسنةً وتقوًى فحسب، بل إنها تصنع شخصية الأمة وتشجع أفرادها على التضحية أكثر فأكثر. أما الأمة التي لا تحسن معاملة اليتامى فلا تزدهر أبدا.

ذات مرة أردت كفالة بعض اليتامى في بيتنا، فقلت لأهلي أعطيكم نفقتهم، ولكن عامِلوهم كما نعامل أولادنا تمامًا، إذ من المحال بدون ذلك القولُ إننا قمنا بكفالة اليتيم. ومع ذلك رأيت أن زوجاتي يستعملن هؤلاء اليتامي كأنهم خدم. أنا لا أقول ألاّ يستعين بهم المرء في العمل مطلقا، لأنهم إذا لم يعملوا أصبحوا كسالى عاطلين، وإنما أقول يجب أن تكلّفوهم بأعمال تكلّفون بها أولادكم. وإذا كنتم لا تحبون تكليف أولادكم بعمل فلا تستعملوا اليتيم فيه بالمرة. المهم أنني قلت لأهلي إني أعطيكم نفقات هؤلاء الأيتام، ومسؤولية تكليفهم بالعمل المناسب تقع عليكم.

فلا تعامِلوهم معاملة الخدم. فلم تعمل بنصيحتي إلا زوجتي أُمّ طاهر - رضي الله عنها - إذ قامت بتربية طفل يتيم كتربيتها لأولادها دونما تمييز بينه وبينهم، وإن ثبت فيما بعد أن حالة هذا اليتيم لم تكن جيدة.

الواقع أن ابن أخي ميرزا مظفر أحمد هو وحده الذي قد قدّم بهذا الصدد نموذجًا رائعا جدا، حيث تكفَّلَ طفلةً يتيمة ممن تركهم مئات الآلاف من الآباء الذين ماتوا في البنغال نتيجة القحط والمجاعة. فقام بتربيتها بأسلوب رائع جدا، ولم يفرّق بينها وبنته، ورعاهما رعاية واحدة، فكان يكسوها ما يكسو بنتَه، ويعلّمها ما يعلّم بنتَه، وكانت تضرب بنتَه كما هي تضربها، وكانت بنتُه تناديها بأختي، وتحترمها. وهذا ما يسمى تربية اليتيم. ليس المراد من تربية اليتيم أن تضعوه في بيتكم كالخادم وتسخّروه في شتى الأعمال طوال اليوم، ثم تطعموه كسرات من الطعام، وتلبسوه أسمالا بالية، وإذا أخطأ قليلا قمتم بسبّه أو لطمه، ومع ذلك ظننتم أنكم قمتم برعاية يتيم. هذه ليست رعاية اليتيم في اصطلاح الإسلام إطلاقا، إنما المراد من تربية اليتيم أن يربيَه المرء كما يربي أولاده، ولا يفرق في معاملته شيئا. إن إطعام اليتيم شيء، أما رعايته فشيء آخر تماما، لأن الله تعالى قال في القرآن الكريم ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، ولم يقل: تطعمون اليتيم. لو كان المقصود إطعامه فحسب لما قال القران ﴿لا تُكْرِمُونَ﴾، بل قال "لا تطعمون"، فهذا يبين بوضوح أن الله يريد أن تتمّ تربية اليتيم مع احترام وإكرام، وليس أن يعطى الطعام كصدقة.

كنتُ أنشأت دارا لليتامى في قاديان، ولكني عرفت بعد أيام أنهم يسخَّرون في الأعمال طوال اليوم. لا بأس في الاستعانة بهم في العمل، ولكن يجب أن لا نستعين بهم إلا بقدر ما نستعين بأولادنا، لا أن يكون أولادنا جالسين براحة ونثقل اليتيم بالعمل لأنه صار تحت رحمة الآخرين بوفاة والديه! يجب أن تربي اليتيم كما تربي أولادك، وتستعين به في العمل بقدر ما تستعين بأولادك، ثم إذا تخاصم مع أولادك فيجب أن يكون له الحق أن يضربهم كما يضربونه، ولا تقول له أم أولادك: حذارِ أن تضرب أولادي، وإلا سأضربك ضربا مبرحا. لو ربّيتَ اليتيم على هذا النحو، فيحق لك ضربه على الخطأ لإصلاحه، لأنك تضرب أولادك أيضًا على الخطأ.

المهم أن لا تمسّ كرامته. فكما قلتُ إن القرآن الكريم لم يحثّ على إطعام اليتامى فقط، بل حثّ على إكرامهم، إذ لا بد من ذلك لرقيّ الأمة. إذا لم يُكرَم اليتيم في المجتمع فلن يستجيب الناس لكم مهما أمرتموهم بالتضحية بأرواحهم، بل سيخشون من أن يعاني أولادهم بعدهم كما يعاني اليتامى الآخرون. أما إذا وجدوا المجتمع مهتمًا باليتيم كما ينبغي فيقولون: إن حياتنا وموتنا سيّان فيما يتعلق بتربية أولادنا، لأنهم سيعيشون بعد موتنا باحترام كما يعيشون في حياتنا، بل تكون حياتهم أفضل بكثير، وعندها لن يولوا الدّبر من ساحة القتال مهما استُشهد منهم، بل سوف يقدّمون كل تضحية مسرورين. باختصار، هذه مسألة هامة جدا، وما لم يستوعبها أفراد قوم جيدا، فمن المحال أن يحرزوا الرقيّ.

والأمر الثاني من هذه الأمور الأربعة التي تُهلك الأمم هو قوله تعالى ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.. أي لم يكن بعضكم يرغّب بعضا في إطعام الفقراء. والحق أن الانتصار في الحروب القومية محال بدون رعاية الفقراء، إذ لن يتيسر عدد كاف من الجنود؛ لأن الفقراء في المجتمع أكثر عددًا من الأغنياء دائما. فلو علِم الجنود أن أُمّتهم تحسن إليهم دائمًا وتسدّ كل حاجاتهم، فتقوم بعلاجهم حينما يمرضون، وتطعمهم حين يجوعون، وتكسوهم عند حاجتهم إلى الثياب، وهي تستنجد بهم الآن في هذا الوقت العصيب، فسينهضون للتضحية ملبّين دعوتها. لا شك أن في كل مجتمع لئامًا وأراذل، ولكن عدد الشرفاء فيه أكثر دائمًا، وسيقول هؤلاء الشرفاء في الوقت العصيب: إن أمتنا بحاجة إلينا اليوم، فلِمَ نتردد في التضحية في سبيلها؟ فيضحون بأرواحهم دفاعا عنها بلا هوادة. أما إذا أهملَهم المجتمع فيقولون: كنا جياعًا فلم يطعمنا أحد، وكنا عراة فلم يَكْسُنا أحد، وكنا مرضى فلم يداوِنا أحد، وكنا محتاجين فلم يساعدنا أحد؛ فلِماذا نُضحِّي من أجلهم اليوم؟ ماذا فعلوا من أجلنا حتى نزهق أرواحنا من أجلهم؟ لقد أهملونا، فاليوم نهملهم.

إذن، فعدم رعاية الفقراء يؤدي حتما إلى ضعف عاطفة التضحية عند أفراد الأمة، فيستحيل أن تنتصر في حروبها.

إننا في قاديان نسعى جهدنا بحسب نظام رعاية الفقراء للتخفيف من معاناهم بشتى الطرق، فنهيئ لهم الكسوة، ونمدّهم بالمال والغلال، ونقدم لهم الخدمات الطبية، ومع ذلك يوجد بينهم مَن يعترض على الجماعة، إذ يظنون أن من واجب المجتمع أن ينفق عليهم، أما هم فلا مسؤولية عليهم. ولكن معظم هؤلاء الفقراء يشعرون أن الجماعة تضحي من أجلهم كثيرًا، ومن واجبهم أن يكونوا أكثر تضحية من الآخرين عند ضرورات الجماعة. فكلما نوجه دعوة للتبرع يسعى هؤلاء الفقراء لأن يساهموا فيها أكبر مساهمة ممكنة بطريق أو آخر، ولو جاءوا بعدها. مع أن تلك الدعوة ليست موجهة لهم، ولا مسؤولية عليهم. إلا أهم يشعرون أن القوم يضحون من أجلهم ويسدّون حاجاهم، فلذلك يقوم هؤلاء أيضًا بالتضحية للأمة، ويساهمون في شتى التبرعات.

إذن، فمن أكبر فوائد رعاية الفقراء أن الأمة تجد مقاتلين كثيرين عند اندلاع الحرب، إذ إن الفقراء يشكّلون الأكثرية فيها. إن سيف المليونير لن يعمل في الحرب إلا عمل سيف واحد، بينما تحتاج الأمة إلى ملايين السيوف، ولا تتهيأ هذه السيوف بدون الاعتناء بالفقراء وأداء حقوقهم حتى يطمئنوا. إذا قامت الأُمّة بسدّ حاجات الفقراء والمساكين، فلا بد أن يقول الشرفاء منهم في أنفسهم عند حلول محنة بالأمة إن القوم قد أحسنوا إلينا، فمن واجبنا الآن أن نساعدهم في ساعة العسرة هذه. ومثاله ما قد حصل في إنجلترا وروسيا وأمريكا وألمانيا وغيرها من البلاد حيث ضحّى مئات الآلاف بأرواحهم في سبيل أمّتهم خلال الحرب العالمية. وليس ذلك إلا أن هذه الشعوب تهتمّ برعاية فقرائها. إن الناس في الهند ينخرطون في الجيش إما تقليدًا لآبائهم الذين عملوا فيه، أو طمعًا في ضيعات وأراض، أما الإحساس بحاجات الأمة فهو ضعيف جدًّا عند أهل الهند.

ثم لو قام المجتمع برعاية الفقراء فيقولون في أنفسهم إن الذين سدّوا حاجاتنا بأموالهم لا بدّ أن يخصصوا لنا نصيبا من الفتوحات والغنائم، وهذا أيضا سبب هام آخر لرقي الأمة. سيقول الفقراء إن أموال الأمة لن تنفع الأثرياء وحدهم، بل تنفعنا أيضا. أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أنه جعل للفقراء حقوقًا في الأموال العامة

فقال: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر:٨).. أي كي لا يظل المال دائرًا بين الأغنياء دون الفقراء، بل يجب أن يصل المال إلى الفقراء أيضا.

إذًا، من أكبر فوائد رعاية الفقراء أنهم يشعرون أنه كلما ازدهر قومهم زاد نصيبهم في أموال الأمة. ولكن إذا لم يُعطَوا نصيبهم من أموال الأمة، قالوا لم نُعطَ شيئا منها، وإنما ينتفع بها الأثرياء فقط، فلماذا نزهق أرواحنا من أجلهم؟

والأمر الثالث هو قوله تعالى ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾. ويؤكل التراث لَمًّا بالإسراف. فكأن الله تعالى يقول للكافرين: لقد ورثتم المال من آبائكم، فبدأتم تُهلكونه بدل استثماره. والإسراف إذا وُجد في قوم دمّرهم حتما. إنه علامة كبيرة لزوال الأمم. في الإسراف ضرران كبيران؛ أولهما: أن المرء يكسل ويجلس عاطلا. لو أنه عمل كآبائه بجدّ واجتهاد لما جلس عاطلا، ولكنه يظن أن الجدّ والاجتهاد إنما هو سبيل لكسب لقمة العيش، وما دام يجد الطعام بسهولة لما عنده من أموال آبائه، فيظل عاطلا ولا يعمل شيئا. إن هؤلاء العاطلين كالعَلَق الذي يمتص دم الإنسان، وإنهم جديرون بالمذمة واللوم الشديدين. لو كان في الأمة آلاف من أصحاب المليارات العاملين، فلن تموت هذه الأمة، أما إذا كان بين هؤلاء ملياردير واحد أخذ ثروات آبائه في قبضته، وظنّ أنه لا حاجة له للعمل أو الاجتهاد، باعتبار أن المرء يجدّ ويجتهد لكسب لقمة العيش، ولديه الكثير منه فلا داعي لأن يجتهد، فاعلموا أن حجر أساس دمار الأمة قد وُضع بيد هذا. لا خطر على القوم من وجود المليارديرين بينهم، إن لم يكن عاطلا رغم ثرائه، بل يعمل ويجتهد، ولكن هناك ألف خطر على القوم من وجود عاطل بينهم، لأنه يظن أن لا حاجة به للعمل والاجتهاد إذ يكفيه أن تظلّ ثروة أبيه في قبضته ويتصرف فيها كما يشاء. هناك كثير من أصحاب المليارات في إنجلترا، ولكنهم يجتهدون رغم ثرائهم، وبدلاً من أن يُهلكوا أموالهم يستثمرونها في إنشاء المصانع وغيرها، مما يهيئ العمل للآلاف. فثروتهم تعمل على الرقي القومي. لا شك أن بينهم مَن يدخرون أموالهم في البنوك، ولكن معظمهم يستثمرونها بإنشاء المصانع وغيرها، أو إذا وضع بعضهم أمواله في البنك فلا يجلس عاطلا، بل يعمل كسكرتير أو رئيس لبعض الجمعيات، وهكذا

يقدِّم خدمات تطوعية للمجتمع، فلا يتسبب في هلاك قومه. وهذه الآية لا تتحدث عن مثل هؤلاء الأثرياء، وإنما عن الأثرياء العاطلين، فتندِّد بهم: تأكلون أموال آبائكم وتعيشون عاطلين، والأمة التي يوجد فيها أشخاص منحوسون كمثلكم لا يمكن أن تحرز الرقي والازدهار.

ثم إن من الحقائق الثابتة -سواء اعتبرتموها سيئة أو جيدة- أن المجتهدين ينالون العزّ في المجتمع، فينال أولادهم أيضا بعدهم شيئًا من العز. مهما مال الناسُ إلى البلشفية الفوضوية✪، إلا أن أولاد الكبراء أيضًا ينالون شيئا من العزة مثل الآباء. هذا أمر فطري لا يقدر أحد على تغييره. فمَن قام بإنجاز بارز حظي أولاده أيضًا بشيء من العز، سواء استحقّوه أم لم يستحقوه. ولو رَكَن أولاد الكبار إلى الكسل فلا بدّ أن يؤثر كسلهم على الأمة تأثيرًا سلبيًا ويؤدي إلى تشتُّت شملها، لأن زعماء القوم يكونون عادةً من الأُسر الكبيرة. فما دام هؤلاء الأولاد العاطلون المبذّرون لثروة آبائهم يتمتعون بالعز والاحترام بين القوم وتوضع القيادة في أيديهم، فمن الطبيعي أن يفتقر القوم إلى زعماء حقيقيين. لا شك أن زعماء جددًا أيضًا يخرجون بين الأمة، ولكن هؤلاء الذين اختيروا زعماء بسبب عراقة أسرهم وعظمة آبائهم لو مالوا إلى الكسل، فلا يبقى في الأمة إلا زعماء عديمي الكفاءة، وهكذا ستفتقر الأمة إلى القيادة الحقيقية.

والأمر الرابع المذكور هنا هو قوله تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. إن حب المال الشديد أيضًا يجعل المرء لا يفرّق بين الحلال والحرام، ويدفعه إلى ظلم الآخر. والأمة التي ينتشر فيها الظلم لا مناص لها من التشتت والهلاك، والأمة التي يجد أفرادها متعة في سلب الآخرين لا يُكتب لها الازدهار أبدًا.

✪ إشارة إلى الثورة البلشفية الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م، التي خلقت الكثير من الفوضى وقتلت القيصر وعائلته من نساء وأطفال، ونكّلت بالنبلاء وسعت إلى القضاء على تراثهم وتناسي أي فضل لهم. والروس الآن يبدون الندم على ما اقترفته هذه الثورة من جرائم بحق الأمة وتراثها، ويسعون إلى إعادة الاعتبار إلى التراث الذي تمت الإساءة إليه. (المترجم)

والنتيجة الثانية لحبّ المال حبًّا جمًّا أن مثل هذه الأمة تظل محرومة من التقدم الصناعي أيضًا. ذلك أن الذي يحب المال حبًّا جمًّا لا يستثمره في التجارة أو الصناعة خوفًا من الخسارة، فيكنـــزه بدلاً من استثماره، وبالتالي لا يزداد ماله، كما تُهضَم حقوق الفقراء التي هي في ماله. فمثلاً لو أنشأ مصنعا بإنفاق ١٠ آلاف روبية، وعمل فيه ٢٥ عاملا، فسيعيش حوالي ٢٥ عائلة بسبب مصنعه. ولو كان في كل أسرة ٥ أشخاص، فهذا يعني أنه قد هيّأ الطعام لحوالي ١٢٥ شخصا باستثمار هذا المبلغ. أما إذا احتفظ بماله بدل استثماره، فهذا يعني أنه حرم ١٢٥ شخصًا الطعامَ. ولو كان في القوم ١٠ آلاف ثري واحتفظ كلٌّ منهم بماله و لم يستثمره، فلن يجد مئات الآلاف العمل وستتضرر صناعات البلاد ضررا كبيرا.

فالضرر الثاني لحب المال الشديد أن الأمة لا تتقدم صناعيًا.

والضرر الثالث لحب المال حبًّا جمًّا قلّةُ التبرعات التي تنفع الأمة؛ لأنه كلما دُعي الناس للإنفاق غلب عليهم حبُّ المال وترددوا في دفع التبرعات.

والضرر الرابع لحب المال حبًّا جمًّا أنه عندما يتطلب حبُّ الوطن الإيثارَ من أصحابه يصبحون خونةً للأمة خوفا من العدو. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمرا:١٤١).. أي أن الحرب سجال، فقد ترجح فيها كفة العدو، وعندها يتآمر مَن يحب المال حبًّا جمًّا مع العدو إذا علم أنه على وشك الانتصار، ويخون أمته حفاظًا على ماله.

كان الخليفة الأول ﷺ يقول إن الإنجليز يسلبون الناس بالتعامل بالربا أخذًا وعطاءً، وكان يحكي بهذا الخصوص واقعةً مفادها أن حكومة ولاية "أَوده" الإسلامية بالهند قد دُمرت بسبب حب المال حبًّا جمًّا. ذلك أن الإنجليز أعلنوا بين الناس أن من يضع نقوده في بنوكهم في مدينة "كولكتا" فسوف يعطونه ربح ٢,٥%، وكان هذا الربح مغريا، فجمع الناس أموالهم في البنك الإنجليزي في كولكتا، حتى إن النساء بِعْنَ حليَّهن ووضعن أموالهن في البنك. لقد قطعوا لهم وعودا معسولة، وقالوا لهم لو وضعتم مليونا فسوف تربحون ٢٥ ألفا، بالإضافة إلى رأس مالكم الذي سيظل محفوظا، مع إمكانية سحبه متى شئتم. فوصلت أموال

المسلمين كلها إلى البنك الإنجليزي في كولكتا. ثم أغار الإنجليز على ولاية "أوده"، وهدّدوا الرؤساء الموجودين في العاصمة "لكهناو" أنهم إذا أخبروا الملِك بهجومهم فسوف يجمّدون أموالهم المودعة في بنكهم. وهذا ما فعل هؤلاء الخونة. فبينما كان الملِك يشاهد مصارعة الديوك ورقص المومسات وغناءهن، قال شخص: جلالة الملِك، بلغنا أن الجيش الإنجليزي زاحف إليك. فزجره حاشيته المتآمرون مع الإنجليز سرًّا، وقالوا للملِك: من المحال أن يتجاسر الإنجليز على ملِكنا العظيم هكذا؟ إن هذا الجاهل قد كدَّر صفو ملكنا المعظم بكلامه الوقيح. إن الإنجليز لا يستطيعون أن يضروا ملِكنا شيئا. فظلّ الملِك منهمكا في مشاهدة مصارعة الديوك والرقص والغناء، وداهمت الجيوش الإنجليزية عاصمته (لكنهاو).

إذن، حبُّ المال بشدة يجعل القوم خونةً، لذلك لا يمكن أن تزدهر الأمة ما لم يُمْحَ حبُّ المال من قلوبهم.. أما بدون ذلك فلا يمكن أن تزدهر ازدهارًا حقيقيًا ثابتا.

والحديث هنا عن الكفار حيث يحذرهم الله تعالى من هلاكهم، وعليه فإن الله تعالى قد أخبرهم أن دمارهم لن يأتي من الخارج بل إن أسبابه موجودة في أنفسهم. فإن كل فرد من جماعة محمد (ﷺ) يعلم أنه لو قُتل في الحرب فأولاده سيجدون أبًا هو أشدّ شفقة منه، ويدرك كل مسكين أن محمدا ﷺ لو نال القوة فسوف يضمن له الطعام والثياب والعلاج ونصيبا متساويا من الغنائم. ومَن يرث من جماعة محمد (ﷺ) أموالا من أبيه فيعرف أن عليه ألا يضيعها بالإسراف، بل عليه أن يستثمرها وينفقها في المشاريع العامة لكي تتقدم أمته باستمرار بدلاً من التردّي. وإذا كان أحدهم ذا مال فلا يحبّه حبًّا جمًّا، بل ينفق أمواله في التبرعات، كما يأخذ الحذر كله كي لا يختلط بماله قرش من الحرام. وحيث إن كل علامات الازدهار متوافرة في محمد ﷺ وأصحابه، وكل علامات الانحطاط موجودة في الكفار، فكيف يظنون أنهم سيغلبون المسلمين؟ أيها الكفار، لا شك أنكم أكثر عددا، ولكن العصافير الكثيرة لا تغلب الصقر. إن كل واحد منكم يقصّر في رعاية اليتامى، ويجبن جبنًا شديدا، ولا يساعد الفقراء والمساكين، فأنى لكم أن تنتصروا في حربكم القومية؟ كل واحد منكم لو نال مال الإرث دمره بالبذخ والإسراف، وكلٌّ منكم يحب

المال حبًا جمًا ويتردد في إنفاقه حين تكون أمته بحاجة إلى المال.. فلا بد - والحال هذه- أن ينتصر المسلمون وتُغلبون.

هذا هو الأمر الذي يجب أن يجعله أفراد جماعتنا نصب أعينهم على الدوام. إذا كانت جماعتنا تريد الازدهار فلا بد لها من أن تتحلى بهذه المزايا الأربع، وتعضّ عليها بالنواجد. على دُعاتنا ومعلّمينا ورؤساء فروع جماعتنا أن يتذكروا أن من واجبهم رعاية اليتامى، وأن عليهم أن لا يطعموهم فقط، بل يكرموهم. عليهم أن يدركوا أن من واجبهم حماية المساكين من المعاناة في أكلهم وشربهم وما إلى ذلك. عليهم أن يدركوا أن عليهم تعويد أفراد الجماعة كلهم على العمل. يجب أن لا يوجد بيننا من يرث الأموال من آبائه ثم يجلس عاطلا. إذا صار أحد مليارديرا بثروة آبائه ولا يعمل بنفسه، فيجب على الأمة أن لا تكرمه إطلاقا، فيجب أن لا يقال إنه رئيس كبير، بل ينبغي اعتباره أرذلَ من كَنّاسي المراحيض. كذلك إذا كان بيننا شخص قد أسَره حُبُّ المال، فلندرك أنه سيخوننا في أي وقت حرصًا على ماله، وينضم إلى العدو كلما وجد فرصة. لو تحلينا بهذه الصفات الأربع، فمهما بلغ عدد العدو -سواء ١٠٠ ألف أو مليونا أو ١٠ ملايين أو ١٠٠ مليون- فإنما مَثله ومَثلنا كمَثل ١٠٠ مليون عصفور إزاء صقر واحد.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٢﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

دُكّتْ: دَكَّ الأرضَ: سوَّى صعودَها وهبوطَها، وكسَر حُفُرْتَها بالتراب وسوّاها. (الأقرب)

التفسير: أي أنتم تفتقرون إلى هذه الصفات، ولكنها متوفرة كلها في محمد ﷺ وجماعته. فاعلموا أنه حينما تُدَكّ الأرض دكًّا كما أخبرنا في قولنا ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ

الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾(الزلزلة:٢).. وينـــزل قضاء الله تعالى، فيأتي الله مع ملائكته المصطفين صفًّا صفًّا، أو يأتي الله والملائكة قائمين صفًّا صفًّا.

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٤﴾

التفسير: الإنسان المذكور هو من لا يهتم برعاية اليتامى ولا إطعام المساكين، ويدمر أموال آبائه ويحب المال حبا جمًّا.. فإنه سيحاول إصلاح نفسه وتنظيم قومه وتوحيد شملهم وحمايتهم من الدمار، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. ذلك أن شخصية الأمم تُبنى بجهود سنوات وسنوات؛ إذ من المحال أن تغيّر شخصية أمتك بمجرد أن فكّرتَ في ذلك. إن الأمة لا تعتاد على إكرام الضيف في ليلة وضحاها، بل بعد جهود نصف قرن، بل قرن من الزمان، حتى يتصف كل فرد من الجماعة بهذه الميزة. كذلك لا يشعر القوم بواجب رعاية اليتامى وإطعام المساكين إلا بعد جهود سنوات طوال. والحال نفسه بالنسبة لمحو حبّ المال من القلوب، فهو لا يتيسر إلا ببذل الجهود لفترات طويلة. ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.. أي قد فات الأوان لهذا الإصلاح بالنسبة للكافرين. إن هذه الأخلاق لا تتيسر إلا في مدة طويلة، أما أنتم أيها الكافرون، فقد ضاعت هذه الفرصة منكم؛ فإنكم واقفون الآن على هوة الهلاك، فلا مجال للإصلاح وتصحيح الأخطاء.

يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٥﴾

التفسير: أي سيتأسف هذا الإنسان في ذلك اليوم قائلا: ليتني عملتُ على تقوية جماعتي بخَلق هذه الأخلاق فيهم! ولكن لن تنفعه الأماني يومئذ، بل سيحيط به الدمار عندها.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

لا يوثِق وَثاقَه: أوثقَه في الوثاق: شدَّه به. (الأقرب)

التفسير: أي أنكم عذّبتم جماعتنا تعذيبًا لا مثيل له؛ فنعذّبكم يومئذ عذابًا لا مثيل له. لقد ألقيتم المؤمنين في أنواع القيد — والقيد هنا ليس بمعناه المعروف، بل يعني طردهم المؤمنين من العمل وغير ذلك من أنواع القيود والإيذاء - فاليوم سنؤذيكم بقيد لا مثيل له كما آذيتم جماعة نبينا من قبل.

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٨﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٩﴾

التفسير: النفس المطمئنة هي المتصفة بهذه الصفات الأربع، حيث يخبر الله تعالى أن الأمة التي تتحلى بهذه المزايا الأربع تأمن من كل زوال وإدبار. إذا أحبّ كل فرد رعاية اليتيم، فكيف يخاف الموت؟ وإذا كان كل فرد يتفقد المساكين وكان كلٌّ منهم يحثّ الآخر على الاعتناء بالفقراء، فأي خطر يواجهون في الحروب؟ لأن المساكين سيتقدمون في الحرب ويتحملون كل أذى فرحين قائلين: ما دام إخواننا يهتمون بنا ويضمنون لنا المأكل والملبس ويسدّون كل حاجاتنا، فمن واجبنا اليوم أن نساعدهم في هذا الوقت العصيب، فلن نتردد اليوم في أي تضحية دفاعا عن شرفهم. أو إذا كان كل فرد من الأمة ينأى عن البذخ والإسراف فكيف يمكن أن يعيشوا كسالى أو عاطلين؟ لو كان عندهم مال وعقار يقدر بمئات الآلاف فلن يجدوا في الكد والاجتهاد عارا. والذين لا يجدون في العمل عارا ويأكلون بعرق جبينهم رغم امتلاكهم الملايين، أو ينفقون أموالهم في حاجات الأمة، فإنهم

سيعملون على رقي الأمة ولن يتسببوا في انحطاطها. أو إذا لم يكن في قلوبهم حب جم للمال، فكيف يمكن أن يوجد بينهم خوَنة؟ وكيف يخافون على أنفسهم؟ كلا، بل إنهم سيعيشون مطمئنين يقينا. وإذا تطلبَ الأمر التضحية بالنفس يقولون: لماذا نخاف الموت؟ فإن أمتنا سوف تتكفل أولادنا من بعدنا. وإذا تطلب الأمر التضحية بالمال يقولون: لماذا نبالي بأموالنا، فإن قومنا يرعون المساكين؟ فيقفزون في النيران مطمئنين غير آبهين بأي خطر.

لقد بين الله تعالى في قوله ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾.. سرَّ رقيِّ الأمم هذا.. أي أن الإنسان المذكور من قبل كان يفتقر إلى هذه الخصال الأربع، ولكنك يا صاحب النفس المطمئنة تتحلى بها، ولذلك تنعَم بالنفس المطمئنة. فالآن ارجع إلى ربك راضيًا مرضيًا. أي يا عبدي، قد أنجزت في الدنيا المهمةَ التي خَلقتك من أجلها، فرضيتَ بعملك ورضينا أيضا.

فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٣٠﴾

التفسير: وكما أن الإنسان يحافظ على ممتلكاته، كذلك سنعتبر الهجوم عليك هجوما علينا، وإيذاؤك سيثير غيرتنا. لقد دخلتَ في عبيدي فلا مجال لأحد الآن أن يصول عليك. ولو حاول أن يستَعْبدك أحد بعد ذلك فسأحاربه بنفسي، وأعاقبه على إساءته.

وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣١﴾

التفسير: الناس في الدنيا يسخّرون عبيدهم لخدمات جسيمة، ويعذّبونهم أنواع العذاب، ولكن الله تعالى يقول مَن دخل في عبيدي أدخلتُه جنتي. وحيث إنك قد دخلتَ في عبيدي فتعال يا عبدي وادخل جنتي.

سورة البلد

مكية، وهي إحدى عشرون آية مع البسملة، وفيها ركوع واحد

يقول ابن عباس وابن الزبير إنها مكية. والعجيب أنه حتى (ويري) من بين الكتاب المسيحيين يقول إننا نستطيع القول بكل اطمئنان ويقين دون أي خطأ أو تناقض مع الشواهد التاريخية أنها نـــزلت في السنة الأولى. إذن، فهو لا يعتبرها من السور المكية فحسب، بل من السنة الأولى من البعثة. مما يزيد موضوعها إعجازا.

بيد أن موضوعها -عندي- ذو صلة بمواضيع السور السابقة الثلاث، والتي نـــزلت في السنة الثالثة أو الرابعة من البعثة. وعليه فإن هذه السورة أيضا نـــزلت في أواخر السنة الثالثة أو بداية الرابعة، ومتزامنة في نـــزولها مع السور السابقة.

وأول ما يربطها بالسور السابقة أن تلك تخبر عن قرب بداية الاضطهاد، حيث نبه الله فيها المسلمين أن معارضة منظمة من قبل الكافرين وشيكة، وأنها ستكون شديدة الأذى وطويلة المدى حيث تمتدّ عشر سنوات. ثم بعد ذلك ستتهيّأ الأسباب لإزالتها. ثم يليها أذًى بسيط يبقى لبعض الوقت، ثم يطلع الفجر. أما في هذه السورة فقد حدد الله تعالى مكان هذا الاضطهاد كما ذكر تفاصيل أخرى، فأخبر أن هذا الاضطهاد يبدأ من مكة نفسها؛ ذلك أن المسلمين لم يكونوا قد تعرّضوا للظلم بعدُ، وكان أقارب النبيِّ ﷺ وأقاربَ أصحابه لا يزالون بمكة، فكان من الممكن أن يفكر المسلمون أن نبوءة الليالي العشر ربما تظهر بطريق آخر.. أي أن الإسلام سينتشر في مناطق أخرى وهناك يُضطهدون. كان الناس يعتنقون الإسلام خارج مكة هنا وهناك فلذا كان من الممكن أن تتبادر إلى الأذهان أن بداية اضطهاد المسلمين ستكون في منطقة أخرى من الجزيرة، وربما يواجه أُناس آخرون هذه الآلام والمحن، فأبطل الله هذه الشبهات هنا، وأخبر أن هذا ظن خاطئ،

فسوف تتعرضون للفظائع على أيدي أهل مكة نفسها، وستُصوَّب إليكم سهام الجوْر من هذا البلد الذي تعيشون فيه ويعيش فيه أقاربكم ومعارفكم، والذي لا تتصورون أن أهله الكافرين يمكن أن يصبوا عليكم هذا الاضطهاد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾

التفسير: يقول النحويون عن حرف (لا) ما يلي: "في (لا) وجهان: أحدهما هي زائدة كما زيدتْ في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم﴾." (إملاء ما منَّ به الرحمن: تفسير سورة القيامة، وفتح القدير).

وليكن معلوما أن قولهم عن (لا): "هي زائدة" لا يعني ما تعنيه كلمة (الزائد) في الأردية، بل المراد من "هي زائدة" عند النحويين أنه جيء بها للتأكيد فقط (المرجع السابق). فمن خصائص اللغة العربية أنها تحتوي على حِكَم فلسفية عديدة، وهذه القاعدة العربية أيضا لها أساس فلسفي، وهو: أنّ من فطرة الإنسان أنه إذا سمع شيئا خلاف المعتاد والمعروف ازداد إليه انتباهًا. فمثلاً يقولون للولد أحيانًا: يا شرير، والجميع يعرف أنهم لا يقصدون سَبَّه أو الإشارة إلى ما يتنافى مع الأخلاق السامية والذوق السليم، بل يشيرون به إلى حدّة في أفعاله وذكائه. أو مثلاً يمشي الولد إلى أمه أحيانا مشية تدرك بها أنه سيسألها الآن شيئا حتما، فتقول له مبتسمة: شرير! ولا تعني أنه شرير فعلا، بل تعني أنها تعلم أنه يحاول بذلك استثارة حبها وحنانها لكي تعطيه شيئا. وهذا ليس أمرا سيئا، بل هو الفطرة عينها. ثم إن المرء يدعو ويتوسل إلى الله تعالى في أدعيته اليومية الكثيرة بأساليب متنوعة عجيبة استدرارًا لفضله ورحمته، فتارةً يقول: ربّ قد قمتُ بعمل كذا وكذا ابتغاء وجهك، فإن كنت تعلم أني لم أعمله إلا ابتغاء مرضاتك، وإذا كان قد نال رضاك.. فحقِّقْ لي حاجتي بسببه. وأحيانا يفكر أنه لو عرض على الله تعالى

مسكنته وفقره وعجزه وقلة حيلته لجاشت رحمته تعالى ونـــزل فضله تعالى لإنقاذه، فيقول: ربّ ليس لي ولي ولا نصير سواك.. إنما أنا وحيد لا حيلة لي ولا معين غيرك، فإني لا أنظُر إلا إليك، فمَن يرحمني إن لم ترحمني؟ فانصرْني وادفعْ كربي. وهذا الأسلوب ليس فيه خداع ولا شر ولا خيانة، بل يعرف الجميع أنه طريق لاستثارة رحمة الله وحبه. والأم أيضًا حين تسمي ولدها شريرا؛ فلا تفعل ذلك غضبًا عليه، إنما تعبيرًا عن المتعة التي تجدها في تصرُّف ابنها، فتريد أن تحتضنه وتضمه إلى صدرها فرحًا بذكائه؛ إذ عرض عليها مطلبه بأسلوب رائع. إذن، من فطرة الإنسان أن يستخدم أحيانا كلمة خلاف المعروف المعتاد ليلفت انتباه الآخرين.

وفي لغتنا البنجابية أيضا تُستخدم أحيانا كلمات خلاف ظاهر مفهومها؛ فمثلا تقول للشخص أثناء الكلام: اترُكْني، مع أنه لم يكن آخذًا بيدك حتى يتركك، بل هذا أسلوب لمنع الآخر من شيء بشدة.

كذلك يقول النحويون: إنه إذا أريدَ التنبيه إلى أمر وتأكيده تُستخدم الكلمة استعمالاً غير مألوف شأن الأم التي تسمي ولدها شريرا في بعض الأحيان حبًّا لا سخطًا، لأنها تعلم أن كلمة الشرير أشدُّ تعبيرا عن حبها من كلمة الحب نفسها. إنها تسميه شريرا، وقسمات وجهها وحركة شفاهها ولمعان عيونها تدل أنها تذوب حنانًا عليه.

باختصار: يقول النحويون أن (لا) هنا زائدة إذ لم ترد بمعناها المعروف، بل جاءت تأكيدًا للكلام. يقول الله تعالى (لا)، وبسماعها يصاب الإنسان بحيرة ويتنبه للأمر المنفي انتباهًا خاصًا! فلو أن الله تعالى بدأ الكلام هنا بدون (لا) وقال: أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، انتبه الناس إلى الكلام بعد سماع القسم وفكّروا فيه، ولكنه تعالى قال قبل ذلك: ﴿لا﴾، وكأنه قال: اتركوا الأمور الأخرى جانبًا واستمِعوا إلى ما نقول، وهكذا انتبه كل إنسان إلى ما يقال بعد ذلك.

باختصار: قد جاءت (لا) هنا لِلَفْت الانتباه وكشف الحقيقة، ليكون الناس جاهزين لسماع الكلام الذي يلي القسم.

وقال بعض النحويين إن (لا) ليست زائدة، بل لها معنيان أحدهما: هي نفيٌ للقَسَم بها، أي لا أقسم بهذا البلد. (فتح القدير)

ويثار هنا سؤال: لماذا نُفي القسم هنا؟ قالوا: لأن الله تعالى يعني أن ما نقوله واضح جليّ بحيث لا حاجة للقسم به، ثم قالوا: وثانيهما: أن (لا) ردٌّ لكلام مقدّر للكافرين (فتح القدير).. أي هناك اعتراض قد رُدَّ عليه بقوله تعالى (لا). ويُعرَف هذا الكلام المقدر بطريقين: إما بمفهوم هذه الآية أو بالنظر إلى مضمون السورة السابقة. وقد قدروا هذا الكلام من مضمون السورة السابقة وقالوا: المراد أن ما قلتم في السورة السابقة باطل. أو المراد أن الذين يعترضون على ما قلنا من قبل هم على الباطل، أي ليس الأمر كما تحسبون، بل قولهم باطل. وكلام الكفار الذي قدّروه هنا هو "أنت مفتر"، فردّ الله عليهم بقوله: "لا، أنت لست بمفتر"، بل أنت رسولنا الصادق ونقدِّم كشهادة على ذلك مدينة مكة. (فتح القدير)

وعندي أن (لا) هنا لم تأت ردًّا على قول الكفار "أنت مفتر"، بل هي ردّ على خططهم المذكورة في الآيات السابقة، أعني أن الكافرين كانوا قد بدأوا يخططون سرًا للقضاء على النبي ﷺ وأصحابه، فلأن خططهم كانت لا تزال خفية في قلوبهم، فتحدث القرآن عنها أيضا بأسلوب غير مباشر. وكأن الله تعالى لـــمّح للكفار وقال إننا على علم بمكائدكم، ولكن اعلموا أنكم لن تنجحوا فيها أبدا. وهذا الأسلوب قد اتبعه الله تعالى في سورة الغاشية أيضا، حيث أخبر أن وجوها ستصبح عاملة ناصبة. ثم أخبر في سورة الفجر أنه ستأتي على المسلمين ليال عشر مظلمة. وهنا في سورة البلد أيضًا لم يذكر نوايا الكافرين علنًا، وإنما لمح إليها فحسب. وذلك لأن الكافرين أيضًا لم يجاهروا بالمعارضة، وإنما كانوا يخططون سرًا للقضاء على الإسلام، ولو كشف الله تعالى هذه الأمور للناس لقيل إن المسلمين هم البادئون؛ إذ أثاروا الكافرين أولاً. إذن، لأن الكافرين لم يجهروا بمكائدهم، فقال الله لهم: (لا).. أي إني لا أخبر الناس، ولكني أؤكد لكم أن ما في قلوبكم لن يتحقق، وأتحداكم أن خططكم السرية هذه ستبوء بالفشل. ومع ذلك قد لمح الله تعالى عن الأمر الواقع أيضا ولكن بحيث لا يفهمه الجميع، حتى لا يُعدّ هذا الكلام إثارة

للكافرين، كما لا يقول أحد فيما بعد إن القرآن الكريم قد كذب في ادعائه أنه قد فهم نوايا الكافرين. ذلك أن الإنسان يدعي أحيانًا أنه قد فهم الأمر مع أنه لم يفهم شيئا في الحقيقة، ولذلك قد شرح الله تعالى الأمر بعدها مبينًا ما فُهم من أمر الكافرين، ولكنه ذكره بأسلوب يحقق الهدف وبحيث لا يُتيح الفرصة لأحد للقول إن القرآن أثار الكافرين أولاً بقوله إنهم يضمرون نوايا سيئة ضد المسلمين.

أما الدليل الذي ذكره الله على علمه بنوايا الكافرين فجاء في الجزء الثاني من الآيات، وسوف نشرحه في مكانه.

لقد تكرر قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ﴾ في القرآن الكريم في ثمانية مواضع: في سورة القيامة (مرتين)، البلد، الواقعة، الحاقة، المعارج، التكوير، الانشقاق، وكلها سور مكية.

لقد حلف الله تعالى بالمخلوقات في القرآن الكريم بطريقين: فحيثما أقسم بها بحرف الواو لم يذكر قبلها (لا)، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، وحيثما ذكَر (لا) عند القسم أردفَه بقَسمٍ ظاهر بقوله (أُقسِم)، وقد مضت الأمثلة على ذلك في السور السابقة. هناك موضع واحد فقط حيث لم يستخدم الله تعالى (أُقسِمُ) بعد (لا)، بل أتى بواو القَسم، وهو قوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٦).. وذلك لأن الله تعالى قد أقسم هنا بنفسه لا بغيره من المخلوقات. ويتضح من هنا أن كلمة (أُقْسِم) تأتي للتأكيد ولكشف معنى (لا)، لأنه تعالى عندما أقسَمَ بنفسه بعد (لا) اكتفى بواو القسم، ولكنه إذا لم يذكر اسم الجلالة بعد (لا) أضاف كلمة (أُقْسِمُ) دائما؛ إذ يعرف الجميع أن القَسَم بالله أمر شائع معروف، ولكنهم لا يعرفون أن القَسم بغير الله أيضا ممكن. فحيث إن (لا) تفيد النفي، فأتى الله بعدها بكلمة (أُقسِمُ) كي لا يُعتبر نفيًا للقَسم نفسه.

وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٣

شرح الكلمات:

حِلٌّ: "الحِلّ ما جاوزَ الحرمَ من أرض مكة، ويقابله الحرمُ؛ والحِلُّ: ضد الحرام".

تسمى مكة المكرمة حَرَمًا لعدم جواز الصيد وقطع الشجر والقتال فيها، ولكن بعد بضعة أميال تنتهي حدود الحرم وتحلّ هذه الأمور؛ ولذلك يسمى ما هو خارج الحرم حلاً.

"والحلُّ: الغرضُ الذي يُرمى إليه. والحِلُّ: الاسم من تحليل اليمين، ومنه في الحديث: قال (ﷺ) لامرأة حلفتْ أن لا تُعتِق مولاتها: حِلاًّ أُمَّ فلان.. (أي تَحلّلي في يمينك). والحِلُّ: النازل بالمكان، قال الحريريّ: "ما دمتَ حلاًّ بهذا البلد".. أي نازلا. (الأقرب)

إذن، فهناك خمسة معان للحِلّ: ١- مكان خارج الحرم ٢- الحلال ٣- الهدف ٤- تحليل اليمين ٥- النـــزول في المكان.

التفسير: قال الزمخشري إن قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَد﴾ جملةٌ اعتراضية، بينما اعتبرها صاحب "البحر المحيط" حالية. (البحر المحيط) وعندي أنها حالية نظرًا إلى المعنى المتبادر إلى الذهن، ولكن ذلك لا يعني أن مكة تمثّل شهادةً حالَ كونه ﷺ مقيمًا فيها، أما بدونها فليس فيها أي دلالة على أي أمر روحاني. الحقيقة أن من الحال ما ليس فيه أي شهادة إضافية، ولكن من الحال ما يقدم مع صاحب الحال شهادة مزدوجة. فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أننا نقدم مكة كشهادة في حال كونك مقيمًا، ولكن هذا لا يعني أنها في حد ذاتها لا تشهد على أي شيء. فمَن يسعه أن ينكر أن مكة هي البلدة التي وضع فيها إبراهيم عليه السلام أسس الكعبة ورفع قواعدها، وبسبب هذه الآية العظيمة جعل الله تعالى مكة مرجعا للعرب كلهم؟ ثم إن مكة المعظمة هي البلدة التي أرى الله تعالى فيها آية عظيمة قبل مولد النبي ﷺ.. أعني أن الله تعالى دمر أبرهة وجنوده — أصحاب الفيل – لما جاء بنية غزوها. ثم إن بئر زمزم في مكة أيضا آية من آيات الله العظيمة. ثم إن الصفا والمروة

تذكاران خالدان لآية ربانية عظيمة يتجدد برؤيتهما إيمان المرء حيث يرى وعود الله التي قطعها مع إبراهيم ؑ في حق أولاده متحققةً أمام عينيه. إذن، فمكة كانت في حد ذاتها آية عظيمة من الله تعالى قبل واقعة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، ولا يسع أحدا إنكار هذه الحقيقة. فكل مَن عنده ذرة من الإيمان وعيون بريئة من العمى الروحاني قادرة على رؤية قدرة الله.. يمكن أن يدرك أن مكة كانت - قبل بعثة الرسول ﷺ أيضا - مقاما شهيرًا في العالم نتيجة آيات إبراهيم ؑ، وكانت بحد ذاتها شاهدا خالدا على وجود الله تعالى. فثبت أن قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لا يعني أن مكة لم تكن قبل ذلك آية كونية عظيمة، أو لم تكن تنطوي على شهادة على وجود البارئ تعالى، إنما المراد من هذه الجملة الحالية أن من الآيات التي توجد في هذا المكان المقدس أنك حِلٌّ به، وأن مكة لم تكن من قبل آية هامة بقدر ما صارت الآن بسبب وجودك فيها، لأنها شهدت من قبل على أشياء أخرى، أما الآن فتشهد على شيء آخر. كانت مكة من قبل دليلا على أن إبراهيم أو إسماعيل كانا نبيين صادقين، أما الآن فصارت دليلا على أن محمدًا ﷺ نبي الله. كان هذا البلد شهادة على الآيات المرتبطة بإبراهيم فقط، أما الآن ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فأصبح شاهدا على الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ أيضا، وعلى أنه لن تقدر قوة في الدنيا على أن تفشله في هدفه. وهكذا قد أضْفَتْ هذه الجملة الحالية على مكة طابعا جديدا، حيث يعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدم مكة الآن دليلاً على صدقك يا محمد.

أما باعتبار أن الآيات والأنباء التي تحققت على يد إبراهيم ؑ إنما تحققت بتأييد الله ونصرته، وبالتالي كانت مكة دليلا على وجوده تعالى، أي صارت دليلا مزدوجًا إذ تشهد على صدق إسماعيل وإبراهيم وعلى وجود البارئ أيضا؛ فسيعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن مكة كانت دليلا على وجود البارئ تعالى من قبل، إلا أن هذا الدليل سيتجلى بشكل أروع بعد بعثتك فيها، لأن قدرات الله

ستتجلى على يدك في العالم تجليًا غير عادي، وتظهر بواسطتك آيات لم ترها الدنيا من قبل.

ونظرًا إلى معاني (حِلّ) المذكورة آنفًا، ستفسَّر هذه الآية بالمعاني التالية:

أولاً: من معاني الحل الحلال: وعليه سيعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدّم هذه البلدة شهادةً على صدق ما ذكرناه سابقا حال كونك حِلاًّ فيها.. أي مع أن مكة حرمٌ لا يجوز فيها ما يجوز خارجها، بل ما هو حرام خارجها يصبح أشدَّ حرمة فيها، إلا أنه ستأتي عليك (ليال عشر) كما أخبرناك من قبل، وها نحن نخبرك الآن بمزيد من الإيضاح أنها قادمة عليكم في مكة المحرّمة نفسها.

يبدو أن الصحابة كانوا يظنون أن مشركي مكة لن يؤذوهم في مكة مهما عارضوا الإسلام وكرهوا التوحيد، لأنه إذا كان القتل وسفك الدماء والفساد والقتال حراما خارج مكة، فهو أشدُّ حرمة فيها بحسب عقيدهم لأنها حرمٌ؛ فصحّح الله تعالى أفكار المسلمين وأخبر رسوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي برغم عقيدهم هذه فإن حرمة مكة لن تحميك ولا أتباعك من إيذائهم، بل ستُعتبرون حِلاًّ في هذا الحرم. لا شك أنه لا يجوز قتل أي شيء فيها، ولا يجوز صيد أي حيوان هنا، إلا أنك تتعرض فيها للأذى أنت وأتباعك بيد أهلها المؤمنين بحرمتها وقداستها.

والمعنى الثاني للحِلّ هو الهدفُ والغرض الذي يُرمى إليه، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أنك ستصبح عرضةً لكل سهم.. أي أنهم لن يتعرضوا لشرفك ومالك فحسب، بل سيصبّون عليك كل أنواع الظلم. هناك فرق بين الظلم وبين كل أنواع الظلم. لا شك أن الظلم أمر شنيع في حد ذاته، ولكن الذي يرتكب كل أنواع الظلم ويقع في كل أنواع السيئات يصبح أظلم الظالمين. والله تعالى يخبر هنا أن مشركي مكة لن يضطهدوا المسلمين فحسب، بل يصبّون عليهم كل صنوف العذاب، ويطلقون إلى صدورهم كل سهم بأيديهم. ومثاله ما نراه اليوم فإن العلماء كانوا مغرمين بفتاوى التكفير قبل تأسيس جماعتنا أيضا، وظلوا يصدرونها على مرّ العصور، فتارة كفّر أهل السنة الوهابيين، وأخرى كفّر

الوهابيون أهل السنة، وتارة أفتى أهل الحديث بكفر الديوبنديين*، وأخرى أفتى الديوبنديون بكفر باقي فرق المسلمين وارتدادهم؛ ولكن منذ أن أقام الله الأحمدية فإن كل سهم يطلقه غيرنا من المسلمين إنما يُصوّبونه إلينا نحن الأحمديين، فالآن لا يكفِّر السنةُ الشيعةَ، ولا يعتبر الشيعةُ السنةَ ملحدين زنادقة، وإنما اتحد الجميع وانبروا لمعارضة الأحمدية متخذين جماعتنا هدفًا لكل سهم. الواقع أنه إذا شعر القوم أن شخصًا سينال القوة ويقضي على قومهم في يوم من الأيام، فكلهم ينسون خلافاتهم ويتحدون بعزيمة رجل واحد للقضاء عليه. وهذا ما قد بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي أن كل أنواع الاضطهاد التي لم يرتكبها أهل مكة من قبل و لم يروْها سوف تُصَبّ عليك وعلى جماعتك الآن من قِبَلهم. لا شك أن أهل مكة مختلفون فيما بينهم أحزابا وفرقا، ولكنهم سينسون اختلافاتهم من أجل معارضتك، ويتحد الجميع على هدف واحد: أن يرموا إليك وإلى أصحابك كلّ سهم من سهام الظلم والجور.. ويصبّوا عليكم كل أنواع التعذيب.

ما أروعَ هذه النبوءةَ! حيث لم يخبر الله تعالى أن الكافرين سيضطهدون المسلمين فحسب، بل أشار أيضًا إلى أن ظلمهم سيكون بمختلف الأشكال.

والمعنى الثالث للحِلّ: النازلُ بالمكان، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أنك ستتعرض لظلم أهل مكة بحسب نبوءة الليالي العشر، فتضطرّ للهجرة من هذه البلدة، ثم تنـــزل بها فاتحا في نهاية المطاف، ولكن لن تنـــزل فيها لتقيم فيها، بل سيكون نـــزولك فيها مؤقتا. وكأن الله تعالى قد قام هنا بشرح الليالي العشر والفجر كليهما، ثم أشار إلى الفجر الذي يأتي بعد الليلة الحادية عشرة.

ما أدلَّ هذه الآيةَ على الإيجاز القرآني المعجز! ففي جملة قصيرة تنبّأَ القرآن بنبوءتين؛ نبوءة الهجرة ونبوءة فتح مكة. فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ لا يشرح الليالي العشر فحسب، بل يشير أيضًا إلى الفجر الذي يطلع بعد الليلة الحادية عشرة، حيث أخبر أن سنذهب بك من مكة بسبب هذه المحن، ثم نعود بك إليها فاتحًا.

والمعنى الرابع للحِلّ: الاسمُ من تحليل اليمين أي القَسَمِ، وعليـــه فقولـــه تعالى

* نسبة إلى "ديوبند" مركز الثقافة الدينية والعلمية بالهند. (المترجم)

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أننا سوف نُحِلُّ لك هذا الحرم بعض الوقت.. بمعنى أن مكة كانت حرمًا كحُرمة الفعل الذي يحلف المرء أنه لن يفعله، ولكنا سنحلّ لك هذا الأمر الحرام الممنوع مثلما يجوز للحالف تحليل يمينه بأداء الكفارة، وذلك لأن أهل مكة سيستوجبون العذابَ بشرورهم، فنأذن لك بالهجوم على مكة لعقابهم. وكأن الله تعالى يقول هنا: لأن أهل مكة قد اعتبروكم حِلاًّ في حَرَمِها، لذا سنسمح لك بالهجوم عليهم فيها. لو أن هؤلاء لم يضطهدوك فلربما أدخلناك في هذه البلدة سِلْمًا، ولكنهم ما داموا قد أحلّوا بلد الله الحرام لأنفسهم، فسوف نحلّه لك أيضا بعض الوقت لنذلّهم ونخزيهم فيه، وسيكونون هم المسؤولين عن كل ذلك. وكأنّ الآية تتضمن نبوءتين: حيث أنبأ الله تعالى رسوله ﷺ أنك لن تدخل هذا البلد فاتحا فحسب، بل سنُحلّه لك بعض الوقت، ليذوق أهله الخزي والهوان عقابًا على فظائعهم.

والمعنى الخامس هو أن نعتبر الغرضَ من الحلّ هنا: استعارة، وعليه ستعنى الآية أنك أنت الغاية من هذه البلدة.. أي كنت محطّ آمال عند أهلها. ذلك أن الرمي يعني إطلاق السهم، كما يُستعار للإشارة إلى النبوءات التي تتم قبل ظهور مأمور من عند الله تعالى؛ فالمراد من الآية أن الأمور التي أدت إلى حرمة هذه البلدة إنما كانت توطئة لظهورك، كمجيء إسماعيل عليه السلام إلى وادي مكة، وانجذابِ العرب إليها بشكل خارق، وتحوُّلِها إلى مدينة عامرة، ثم تطهيرِها من الفتن، وحمايتِها من صوْل الأعداء، ووقايتِها من تأثير الأديان الأخرى. فكل هذه المزايا توفرت في هذه البلدة من أجل ظهورك فيها، ولكن الغريب أن أهل مكة مع اعترافهم بحرمتها وعظمتها لا يفهمون الغاية التي من أجلها كتبنا لمكة هذا التعظيم الخارق. لا شك أنها بلدة مقدسة، ولكنك ﴿حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نشهد بهذه البلدة أنك الغاية منها؛ فإن البنان الذي لم يزل يشير إلى أحد - منذ زمن إبراهيم عليه السلام - إنما كان يشير إليك أنت، وكل واقعة وقعت في هذه الفترة إنما كانت تومئ إليك أنت، وكل آية نـــزلتْ فيها كانت تهدي الناس إليك أنت، ولكن حين ظهرتَ مِن هذه البلدة خالفَك أهلها، مع أنك كنتَ الغاية منها، ومن أجلك كنا فعلنا كل هذا.

فالمفهوم المفصّل لهذه الآية: أننا نقدّم كشهادة مكة التي سيتعرض فيها المسلمون لأنواع الاضطهاد.. أي أن المؤامرات المنظمة التي أشرنا إليها من قبل سوف تشهدها مكة نفسها، فمع أن أهلها يؤمنون بأنه حرام فيها صيد حيوان أو قتل إنسان وإثارة فتنة وفساد وقتال، إلا أنهم سوف يؤذونك فيها وأتباعَك بأنواع الأذى غير مكترثين بحرمة هذه البلدة المقدسة. وكان هذا شيئا محيرًا للصحابة. الواقع أن ضرب الكفار وأذاهم لم يحير الصحابة بقدر ما حيّرهم الخبر أنهم سيُضربون في حرم مكة. ومن فطرة الإنسان أن يتألم بشكل غير عادي بسبب الأذى الذي يصيبه ممن لا يتوقع. ومن القصص الشهيرة أن الملِكَ أمر برجم الحسين بن منصور الحلاج، فأخذ الناس في رجمه، فظلّ الحلاج صامتا ولم يتأفف على إيذائهم الشديد. فمرّ الشبلي من هناك، ووجد الناس يرجمونه، فرماه بوردة مضطرًا. فلما لمست الوردة بدن الحلاج صرخ صرخة عالية. فقيل له: لم تصرخ برشق الحجارة، وصرختَ بضرب وردة! فأجاب: الحجارة قد بدتْ لي ورودا، ولكن وردة الشبلي بدت لي حجرا، إذ لم أكن أتوقع ذلك منه. لا شك أنه ضربني بوردة، ولكني لم أتوقع منه أن يضربني، لذلك كان وقع وردته أشدَّ من الحجر.

لقد كان أهل مكة يؤمنون أن إيذاء أحد أو ضربه أو قتاله فيها ظلم عظيم ومعصية كبرى، لأنها مقام مقدَّس وقداستها تقتضي ألا ترتكب هذه الأعمال الوحشية فيها مطلقا. وبالفعل ظلوا عاملين بحسب عقيدتهم هذه قرنًا بعد قرن، محافظين على حرمتها وتعظيمها كل المراعاة، وكانوا يحرّمون القتال والقتل وسفك الدماء في حدود الحرم تحريما قطعيا. فكانت القبائل تتقاتل خارج الحرم ضاربةً عنق بعضها البعض ومتعطشةً لدماء بعضها البعض، ولكنها إذا دخلت حدود الحرم انتهت من القتال، فكانوا يطوفون بالكعبة جنبًا إلى جنب وكتفًا إلى كتف وهم يردّدون: لبيك اللهم لبيك، ثم يمشون في شوارعها معًا، دون أن يجرؤ أحدهم على أن ينظر إلى الآخر بغضب داخل الحرم. ولكن هؤلاء المؤمنين بحرمة مكة استشاطوا غضبًا بسبب الإسلام، واستلّوا السيوف على رسول الله ﷺ والمسلمين في مكة وفي حَرَمِها ضاربين بعقائدهم عرض الحائط، وقرروا بالإجماع تضييق الخناق على

المسلمين وتعذيبهم وقتلهم ليردّوهم عن دينهم، متناسين ما إذا كان هذا المكان حَرَمًا أم غير حَرَم!

هذا القرار الجماعي من قبل أهل مكة وداخل حدود الحرم قد أذهل المسلمين، شأن وردة الشبلي التي أذهلت الحلاج. كان الحلاج يتوقع الحجارة من الآخرين، ولكنه لم يتصور قط أن الشبلي سيجرؤ على رميه ولو بوردة، فلما ضربه الشبلي بها كان وقعها عليه أشد إيلاما من الحجارة. لو أن المسلمين ضُربوا وعُذّبوا في الطائف وغيرها من المدن لم يتعجبوا، لِعِلْمهم أن جماعات الأنبياء تتعرض للاضطهاد دائمًا، ولكنهم كانوا يظنون أن أهل مكة لن يفعلوا بهم هذا بسبب عقيدتهم بحرمة مكة، فدُهشوا حين اتخذهم أهلُها الكافرون هدفًا لظلمهم. كان أهل مكة مؤمنين بحرمتها وقداستها منذ عصر إبراهيم عليه السلام. علمًا أن الفترة ما بين النبي ﷺ وعيسى عليه السلام هي ٦ قرون، وبين عيسى وموسى ١٣ قرنا، وبين موسى وإبراهيم ٦ قرون، وهذا يعني أن أهل مكة كان يؤمنون بحرمتها منذ ٢٥٠٠ عام، ويقولون إن ضرب أحد أو قتله أو ظلمه في هذا المكان معصية كبرى. فكيف يُتوقع منهم بعد هذه العقيدة الطويلة المدى أنهم سينقضّون على المسلمين فجأة، ويتخذون نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وأحرارهم هدفًا لفظائعهم، مشحّذين أسنانهم عليهم. هذا لم يتوقعه أحد، ولكن هذا ما وقع بالفعل؛ حيث استهدف أهلُ مكة المسلمين في تلك البلدة المحرمة بظلمهم، ضاربين بعقيدتهم هذه عرض الحائط.

ومن حيث المعنى الثاني للحلّ: أنك ستُجعل في هذه البلدة هدفًا لكل سهم، أي ستصبّ عليك وعلى جماعتك كل صنوف الظلم. نجد في الدنيا أن ذوي القلوب الرحيمة أيضا يعاقبون في ثورة الغضب أحيانا، أو يرتكب المرء عملاً وحشيًا من فورة غضبه العابرة، ولكن تعذيب أهلِ مكة للمسلمين بأنواع الظلم طويلاً كان أشدّ إيلاما من القتل، وكان ذلك مستبعَدا جدا منهم إذ كانوا يؤمنون بحرمة تلك البلدة منذ ٢٥ قرنا. ولكن الله تعالى قال لرسوله ﷺ سلفًا لا تظنوا أن القوم سيؤذونكم إيذاء عابرا، بل سيصبّون عليكم كل ظلم ويرمون إليكم كل سهم،

وسيتخذ كل منهم نحوركم غرضًا لسهامه، سيوقع بكم كل فظيعة. وبالفعل قد أكّد كفار مكة صِدق هذه النبوءة القرآنية بفظائعهم البشعة.

لا شك أن المرء يتعرض للظلم، ولكن من قبل الأعداء. المعارضة الدينية إنما تكون من قبل العلماء عادة، ولا يعارض الآباءُ والأمهاتُ والإخوانُ كثيرا نتيجة الاختلاف في الدين، بل لو غيّر ابنهم دينه قالوا: كل امرئ حرٌّ في رأيه ودينه، ولا ندري ما هو الحقّ، أو قالوا: لقد أخطأ ابننا في اعتناق هذا الدين، ومن ذا الذي لا يخطئ؟ فالناس عند الاختلاف الديني يقفون عادةً بجانب أولادهم أو إخوانهم مبررين موقفهم بشتى الأعذار والحيل بدلاً من صبّ الظلم عليهم. ولكن الله تعالى يخبر المسلمين هنا أنه لن تعود أمهاتكم أمهاتٍ لكم، ولن يبقى آباؤكم آباء لكم، بل سيجعلونكم هدفا لكل ظلم، ويطلقون إليكم كل سهم. وبالفعل نرى أن المسلمين في زمن الرسول ﷺ لم يتعرضوا للظلم من العلماء والكهان وعبدة الأصنام فحسب، بل ظلمهم الجميع حتى الآباء والأمهات.

آمن بالنبي ﷺ فتى لم يبلغ أشُدَّه بعد، فغضبت أمه وفصلت أواني أكله وشربه، ثم ظلت تنتظر أن يرتدع ابنها عن الإسلام، ولكنه لم يتأثر من معاملتها القاسية هذه. فنصحه أبواه كثيرا، ولكنه لم يرتدَّ عن الإسلام، فضربوه، فرفض ترك الإسلام بشدة. فقالا له يوما: اخرُجْ من البيت، فخرج وهاجر إلى الحبشة بعد تعرُّضه لأنواع الأذى في مكة. (أسد الغابة: خالد بن سعيد بن العاص)

وعندما بلغ خبرُ واقعة سورة النجم -أو بحسب بحثي: حين بلّغ أهلُ مكة خبر القصة الملفَّقة* حول سورة النجم إلى الحبشة- رجع عديد من المسلمين من هناك، وكان من بينهم ذلك الصحابي. فذهب إلى أهله ظنًّا منه أن غضبهم قد هدأ، فاستقبله أبواه بحفاوة واحتضنوه وقبّلوه ظانّين أنه رجع إلى البيت وارتد عن الإسلام بعد أن عاد إلى صوابه! بينما ظنّ الفتى أن فراقه عدة شهور لا بد أن أثّر في والديه

* أي حادثة الغرانيق المكذوبة. لمعرفة تفاصيلها يراجع تفسير الآية ٥٣ من سورة الحج في هذا التفسير (المترجم)

وليّن قلبيهما وملأهما بمشاعر الرحمة. فما إنْ جلس حتى قالت أمه: نحمد الله أنك عُدتَ إلى الصواب، وأدركت أنك كنت قد أخطأتَ بالانضمام إلى جماعة هذا الصابئ -معاذ الله- فأرجوك أن لا ترجع إليه ثانيةً. فقام الفتى من فوره وقال لأبويه: لا شك أنكما والدَيَّ، ولكنني سأضحّي بكل عزيز من أجل محمد رسول الله ﷺ، غيرَ آبهٍ بأية مصيبة مهما اشتدت. ولو تفوّهَ أحدكما الآن بمثل هذا الكلام حول محمد رسول الله ﷺ فلن أعتبركما والدَيّ. فقالا: إذن، لم تعُدْ ابنًا لنا أيضًا. فخرج الفتى من بيته و لم يرَ وجهَ أبويه بعد ذلك قط.

فترى من أين انطلقت هذه السهام؟ لقد انطلقت من حيث لا يتوقعها المرء في أي حال. لقد انطلقت من أيدٍ تتلقى السهام بصدورها عادةً دفاعًا عن أولادها.

هذا مثال لمعاملة أبويْن مع ابنهما، والآن أقدم مثالاً على معاملة الأعمام: كان لرسول الله ﷺ عدة أعمام، ولكنهم لم يؤذوه مباشرة، بل حرّضوا عليه الآخرين، إلا عمه أبو لهب، فكان يؤذي النبيّ ﷺ أشدّ الأذى. فكان السهم الذي رمى به النبيَّ ﷺ أشدَّ إيلاما من أي سهم آخر! كانت ابنتا الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم متزوجتين من ابنين لأبي لهب، فلما أعلن ﷺ دعواه عارضه أبو لهب وقال لابنيه: طَلِّقا بنتي محمد إذا أردتما البقاء معي، فطلَّقا بنتيه ﷺ. (الإصابة: باب أم كلثوم)

وهذا يعني أن أقارب النبي ﷺ أيضًا لم يتورعوا عن جرح مشاعره تجاه بناته التي تُعتبر أشدّ مشاعر المرء حساسيةً. لقد كان هناك عمٌّ ربّى النبي ﷺ في صغره، وكان هذا العمّ "أبو لهب" قد عارضه ﷺ وعذّبه أشدّ العذاب فلم يرض إلا بتطليق بنتيه ﷺ.

أما الأصدقاء فتكون بينهم صداقة حميمة، ولكن مَن كان يُسلِم بين أهل مكة كان يفقد أصدقاءه إذ كانوا يتخلّون عنه. كان العرب أصدقاء أوفياء جدا، فكانوا يضحّون بأنفسهم من أجل الصديق عند الحاجة، ولكن أهل مكة أبغضوا النبيّ ﷺ بغضًا شديدًا حتى لم يبالوا بصداقاتهم وتخلّوا عن أصدقائهم الحميمين الأوفياء. كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه ابنَ أحد رؤساء مكة، وقد تعرّض لأنواع الأذى نتيجة إسلامه، وفي الأخير خرج من مكة مهاجرًا، فلقِيه في الطريق أحد أصدقاء أبيه

الحميمين، وقال له: أين تذهب؟ قال: أهاجر من مكة لأن أهلها ظالمون. فاغرورقت عين السيد وعانقه وقال: كيف يمكن أن يتركها ابن صديقي هكذا؟ كلا، أنت في جواري منذ اليوم. ثم أتى به إلى الكعبة وأعلن عن حمايته له. وكان أهل مكة يراعون حقّ الجوار جدًّا، فلم يتعرضوا لعثمان بسوء بعدها. ثم جاء موسم الحج واجتمع الناس في منى كالعادة، وجمَعهم مجلس كان لبيد الشاعر الفحل الشهير ينشد فيه الشعر. فقال فيما قال: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"، قال عثمان: قد صدقتَ. فلما سمع لبيد شابًا يؤيده فيما قال استشاط غضبًا وقال لأهل المجلس: هل أنا بحاجة إلى تصديق شعري من أولادكم؟ ماذا حلّ بكم يا أهل مكة؟ فنظر القوم إلى عثمان شزرًا وزجروه زجرًا. ثم استأنف لبيد وقال: "وكل نعيمٍ لا محالة زائل". فلم يلبث عثمان أن قال: كذبتَ واللهِ، فإن نعيم الجنة لا يزول. فكاد لبيد يتميّز غيظًا وقال: لن أنشدكم الشعر بعد ذلك. فمال الناس إلى عثمان وأوسعوه ضربًا ولَكْمًا حتى فقأوا إحدى عينيه. فقال له السيد الذي منحه الجوار: أيها السفيه، ما دفَعك إلى هذا الحمق حتى ضيَّعت عينك؟ فقال له عثمان: أنا لست بحاجة إلى جوارك منذ الآن. إنك تبكي على ضَياعِ إحدى عينيّ! والله إن عيني الأخرى أيضا لَتضطرب لِتُفقأ في سبيل الله. (أسد الغابة: عثمان من مظعون)

فترى أن المسلمين لم تنفعهم صداقاتهم في مكة شيئًا، ولم ينصرهم صديق بعد "جريمة اعتناق الإسلام"! بل صُوّبت إليهم السهام من قِبل الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين يرجو المرء منهم الحب والوفاء والأنس والوئام وحسن المعاملة والمواساة في ساعات المصائب والآلام، حتى ترك الأزواج زوجاتهم وانفصلت الزوجات عن أزواجهن، وقطع الآباء صلاتهم عن أولادهم، وقطع الأولاد علاقاتهم عن آبائهم. ثم إن تعذيب المسلمين لم يكن من نوع واحد، بل صُبّت عليهم الفظائع من كل نوع وشكل؛ لقد أُلقوا في الشمس في الرمال الحارقة، ورُبطت أرجلهم ثمّ سُحبوا في شوارع مكة على الحجارة والحصى كما يُسحَب حيوان ميت، فكانت أبدانهم تُجرح وتنـــزف دمًا. لقد ضربهم الكافرون ضربًا مبرحًا، ووضعوا على صدورهم حجارة ثقيلة لينكروا وحدانية الله تعالى. وقد قتلوا كثيرًا

منهم بالحراب، حتى لم يرتدع هؤلاء الظالمون عن قتل المسلمات بضربهن في فروجهن بالرماح. لقد صفدوهم بالأصفاد، وسبّوهم سبًّا فاحشًا وطردوهم من الأوطان، واتّخذوا كل طريق وحشي بشع لقتلهم. ففي بعض الأحيان ربطوا إحدى رجلي المسلم ببعير والأخرى ببعير آخر، ثم ساقوا البعيرين في اتجاهَين مخالفَين، وشقّوه قطعتين بين هتاف الفرح والابتهاج. (الإصابة في تمييز الصحابة: سمية بنت خباط، وتفسير الرازي)

فما من إيذاء إلا وصُبَّ على المسلمين من قبل أهل هذه البلدة المحرمة، وإليه أشار الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي يا محمد، ستُجعل هدفًا لكل أنواع السهام في هذه البلدة المحرّمة نفسِها. سوف تُرفع عليك كل يد، سواء كانت يدَ أمٍّ أو عمٍّ أو أيٍّ من الأقارب الآخرين. وسوف يصوب إليك كل سهم.

ثم انظروا كيف تضمن هذا القول الرباني الوجيز: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ نبوءة رائعة أخرى، وتفسيرًا لطيفًا لقوله تعالى ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. حيث أخبر النبي ﷺ أنك ستنـــزل في هذه البلدة في يوم من الأيام، والواضح أنه ما كان للنبي ﷺ أن ينـــزل في مكة إلا إذا تركها أولاً؛ إذًا فبكلمة ﴿حِلٌّ﴾ الوجيزة أخبر الله نبيه ﷺ بالهجرة، مبينًا أنك ستتعرض للأذى في مكة حتى تضطر للهجرة منها. وهذا الأمر كان محيّرا جدًّا في ظل تلك الظروف؛ إذ لم يكن مورد دخل أهل مكة عندها إلا الحجيج الوافدين. كانوا يعيشون هناك كمجاورين لبيت الله فحسب، وكان واجبهم أن يدعوا الناس إليه لا أن يطردوهم منه. فمن ذا الذي كان بوسعه يومها أن يقول إن هؤلاء المجاورين سيطردون النبي ﷺ وأصحابه من مكة في يوم من الأيام؟ هذا كان محالا حسب القياسات الإنسانية. فكما قلتُ: كان أهل مكة مجاورين للبيت، وكان عيشهم متوقفا على أن يفِد الحجيج إلى مكة، فلم يكن ليخطر ببال أحد أن عداء الإسلام سيعميهم لدرجة أنهم يضطرّون النبيَّ ﷺ وأصحابَه إلى الهجرة من هناك. ولكن الله تعالى أخبر المسلمين سلفًا أن هذا المستحيل سيقع حتمًا. تظنون أن أهل مكة لن يخرجوكم منها، ولكن كونوا على يقين أن ذلك اليوم قادم، حين تضطرون للهجرة من مكة. وليس هذا فحسب بل

سترجع يا محمد إلى هذه البلدة ثانية، بل هو خبر آخر وهو أن هذه البلدة التي ستخرج منها مع صديقك ستعود إليها مع ١٠ آلاف من أصحابك فاتحا منتصرا. وكل هذه المعاني متضمنة في قول الله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. إذن، فبجملة واحدة أنبأ الله تعالى عن الهجرة، وعن فتح مكة أيضا. لقد أخبر بها عن طلوع الفجر الذي يلي الليالي العشر، وكذلك عن الفجر الثاني الذي يطلع بعد الليلة الحادية عشرة، والذي كان سيبدأ بغزوة بدر ليكتمل بفتح مكة.

كما أخبر الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن عاقبة ظلمهم لن تكون خيرًا لهم. لو لم يرتكبوا هذه الفظائع فربما جئنا برسولنا في هذا البلد سِلْمًا، ولكنهم ظلموا وأحلّوا بلد الله الحرام، ولذلك سنسمح لنبيّنا أيضًا بأن يدخله بقوة السيف بعض الوقت، وستقع مسؤولية ذلهم وخزيهم على أنفسهم.

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنك الغاية وراء إنشاء هذه البلدة؛ بمعنى أن الأنباء منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- قواعد الكعبة، تشير إليك أنت، حيث أخبرنا منذ ذلك الوقت ببعثة نبي عظيم سيتلو على الناس آيات الله ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة.. إذ دعانا إبراهيم عليه السلام عندها قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة:١٣٠). إذًا، كانت هذه النبوءة تخص النبي ﷺ، وكان هو نفسه الغاية وراء إنشاء هذه البلدة، ولذلك يقول الله تعالى هنا كيف يمكن ألا تتحقق الغاية التي من أجلها تمّت هذه الأمور كلها؟ كان تحقيق هذه الغاية ضروريا جدا، لأن قدوم إسماعيل عليه السلام إلى موقع مكة، وتوجُّه العرب إليها، وبقاءها محفوظة من أنواع الفتن ومن تأثير الأديان الأخرى.. كل هذه كانت دلائل على أنك الغاية من هذه البلدة، وأن الله كان يريد أن يبعثك في الدنيا. كانت مكة واديا غير ذي زرع، ولم تكن الأمة الساكنة حولها متحضرة مهذبة، بل كانوا لصوصًا ظالمين لا يخضعون لقانون، إنما كان شغلهم الشاغل القتال وسفك الدماء، ولكن عندما يقترب هؤلاء الظالمون اللصوص السفاكون من مكة كانوا يغمدون سيوفهم معلنين: هذا مكان لا يجوز فيه الحرب. ثم إن العرب كانوا فقراء يعيشون على الكفاف، كانوا محرومين من

تسهيلات كثيرة في الأكل والشرب. ولكن كلما طلع عليهم شهر ذي الحجة قصدوا مكة راكضين إبلهم خلال الفيافي والبراري الخالية من عشب أو ماء ليحجوا بيت الله الحرام. ثم إن الله تعالى قد حفظ مكة من كل الآفات والبلايا، وخيّب كل عدو أراد الهجوم عليها. لقد زحف إليها أبرهة لهدم الكعبة، فأنـــزل الله عليه وعلى جنوده عذابا من السماء وخيّبه في نواياه. فما أروعَها مِن آية أظهرها الله تعالى لحماية مكة، مؤكدًا أن للبيت ربًّا يحميه! كان اليمن هو القطر الخصب العامر الوحيد في الجزيرة؛ فزراعته جيدة ومحاصيله وفيرة، وكان أبرهة حاكمًا عليه من قبل مَلِكِ الحبشة، وكان عنده جيش كبير، فخرج بعشرة آلاف جندي ليدُكّ مكة دكًّا، ولكن تفشّى - بأمر الله تعالى - مرض الجدري في جيشه، فأخذ جنوده الأفارقة يموتون واحدا بعد الآخر، لأن الجدري يفتك بالأفارقة فتكًا شديدًا، فمن أصيب به منهم مات حتما. علمًا أن ثمة أمراضًا تفتك ببعض الشعوب خاصة، فالجدري مثلاً فتّاكٌ بالأفارقة، والإسهال مهلِكٌ للأوروبيين. في بلدنا يخرج الفلاح لحراثة الأرض، فيلقاه صاحبه ويسأله عن حاله فيقول: الحمد لله أنا بخير، فقط عندي إسهال. فهو لا يبالي بالإسهال مطلقا. أما الأوروبي فلو أصابه الإسهال طارت نفسه فزعا وأيقن أن أجله قد أتى. وأما الجدري فهو مدمّر للأفارقة، وإذا سمع أحدهم اسمه طار صوابه. وقد هيّأ الله تعالى من الأسباب ما جعل الجدري يتفشى في جيش أبرهة، فبثّ فيهم ذعرًا شديدًا. الواقع أن اقتحام مكة لم يكن صعبًا عليهم إذ جاءوا بالعُدّة والعتاد ولم يكن هناك جيش عَرَمْرَم يواجهونه؛ إذ كان أهل مكة عُزّلاً، ولكن ما إن تفشى الجدري بين هؤلاء الأفارقة حتى ألقوا السلاح يائسين. وعندما مات بعضهم، وقعت الفوضى في الجيش، فلاذ الجميع بالفرار مذعورين، وهلَك معظم الجيش في طريقهم إلى اليمن، وهكذا خيّب الله تعالى أبرهة في مسعاه، فلم يستطع مهاجمة مكة.

لقد أشار الله تعالى إلى كل هذه الأحداث بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. فقال عليهم أن يفكروا لماذا فعلنا كل هذا. إنما فعلناه لتحقيق الدعاء الذي دعا به إبراهيم قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. إذ كيف يمكن أن يظهر ذلك الموعود الذي كان الغاية من تأسيس هذه البلدة منذ ٢٥٠٠ سنة، فيخذله الله ولا ينصره؟ ولذلك قال ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نقدّم كشهادةٍ هذا البلد، وأنت غايته، لأن هذا البلد صار أعظم شأنًا بوجودك فيه؛ إذ قد تجلّت عظمته وجلاله على يدك في الحقيقة.

إذن، فمفهوم هذه الآية كالآتي:

أولا: نقدم كشهادةٍ مكةَ التي سيتعرض فيها المسلمون لأنواع التعذيب.. أي أن هذه البلدة نفسها ستكون دليلاً ساطعًا على المؤامرات التي يدبرها معارضو الإسلام سرًا، للمعارضة المنظمة المشار إليها في السور السابقة.

قد يقال هنا إن الإنباء عن المعارضة أمرٌ اجتهادي، لأن كلّ مدعٍ يلقى المعارضة، إذ لا يؤمن به الناس فور سماع كلامه بلا معارضة.. إذ لا بد أن يخالف عقائد الناس، وبالتالي لا بد أن يلقى منهم المعارضة. فكيف يقال إن الإنباء عن معارضة المكيين للنبي ﷺ والمسلمين نبوءة عظيمة؟ ما دام محمد عرض عليهم أمرا جديدا فلا بد أن يعارضوه!

والجواب: ليس صحيحا أن كل مدّعٍ يلقى المعارضة. لا شك أن مَن يدّعي امتلاك متاع مادي ليس له في الواقع، فلا بد أن يعارضه صاحب المتاع، ولكن ادعاء المرء تلقى الوحي من الله تعالى لا يثير معارضة الناس بالضرورة. فمثلا لو ادعى المرء امتلاك بيت شخص آخر وحاول الاستيلاء عليه، فلا شك أن صاحب البيت سيقاتله، ولكنه لو قال لغيره إني أتلقى الوحي من الله تعالى فلن يغضب هذا، وغاية ما يقول إنه فقد العقل ويهذي. فمن الخطأ تمامًا الزعم أن كل من يدعي الوحي يلقى المعارضة حتمًا. فذات مرة كتب لي "ظهير الدين أروبي" -الذي كان يدعي بأنه المصداق لنبوءة "المصلح الموعود" الشهيرة- وقال لي ثائرًا: إني أنشر الإعلانات والمنشورات ضدك منذ فترة طويلة، ولكنك لا ترد عليها بشيء! أنا لا أقول أن تصدّقني، ولكن لماذا التزمت الصمت؟ إذا كنت لا تستطيع فعل شيء فعارِضْني على الأقل. فكتبتُ له في الجواب أن المعارضة أيضا هبة ربانية، وهي من

علامات الصادق. والله تعالى لا يريد أن يهبك هذه الميزة، فمهما تمنيتَ فلن يهبّ الناس لمعارضتك. فالواقع أن من الخطأ الزعم أن كل مدّعٍ يلقى المعارضة! إنها لا تتيسر بسهولة، لأنها هبة وفضل من الله تعالى. فالأحمدية مثلاً تلقى المعارضة في كل بلد في العالم، ولكن البهائية لا تواجه هذه المعارضة مع أن أهلها يؤمنون بنسْخ القرآن الكريم، ويدعون الناس إلى شريعة البهاء. إن البابيين منهم فقط تلقوا في البداية المعارضة في إيران، ولكن سببها أنهم تدخّلوا في الأمور السياسية. إن غيرنا من المسلمين يرون ويعلمون كل هذا من قبل البهائيين، ومع ذلك لا يعارضونهم، بل يعانقونهم، أما الأحمدية فحيثما ذكرتها قام الناس لمعارضتها.

فثبت خطأ زعم المعترضين أن الإنباء عن المعارضة كان أمرًا قياسيًا اجتهاديا من محمد ﷺ بحجة أن إيذاء الناس له ﷺ ولأصحابه كان حتميا.

ثم لو كان هذا الأمر مجرد اجتهاد فحسب، فلماذا لم يتنبأ النبي ﷺ عن المعارضة خلال السنوات الثلاث بعد الدعوى؟ لماذا لم يخمِّن في بداية الدعوة أن أهل مكة سيعارضونه بشدة؟

ثم إن المعارضة نوعان: معارضة بدون إثارة، ومعارضة بإثارة. ومثال النوع الثاني أن يخطط شخص لسرقة بقرة صاحبه أو الاستيلاء على بيته في يوم محدد، ثم بعد التخطيط ينبئ الناس أن فلانا سيقاتلني في يوم كذا، فقوله ليس من النبوءة في شيء، لأنه هو مَن سَبَّبَ هذا الفساد والقتال؛ لأنه خطط أولاً لإلحاق الضرر بالآخر، ثم أخبر الناس أن ذلك سيقاتله. ولكن أحدا إذا كان يعمل على الصلح بين الناس، ويعلّمهم الحب والوئام، فلا تُتَصوَّر معارضته. فقيام المرء بعمل يحرّض الناسَ على معارضته شيءٌ، أما معارضة الناس لشخص مسالم فشيء مختلف تمامًا. فإنك إذا حاولت الاستيلاء على بيت أحد فلا بد أن يقاتلك، وبوسعك أن تخبر الناس عن وقوع هذا الفساد قبل موعده، ولكنك لو كنت جالسا في بيتك بهدوء، وجاء الآخر وحاول الاستيلاء على بيتك، فكيف تعلم ذلك سلفًا وكيف تخبر الناس عن ذلك مسبقًا؟ هكذا كان حال النبي ﷺ ومعارضيه. كان الرسول ﷺ يدعو إلى الصلح والوئام، ومع ذلك قد شمّر معارضوه عن سواعدهم وانبروا لمعارضته. ما هو

الجديد الذي ظهر في المسلمين بعد ٣ سنوات من دعوى النبي ﷺ حتى يهبّوا للمعارضة؟ كانوا يصلّون من قبل، ويدْعون القوم إلى الصلاح والتقوى، ويعلنون أن الله أحد، وأنه المعين الحقيقي، وأن على الإنسان أن يتوكل عليه وحده ويسأله تعالى حاجاته، وأن الكفر باطل والإسلام حق. لقد قاموا بكل ذلك منذ البداية، فما هو الشيء الجديد الذي أتوه بعد هذه السنوات الثلاث حتى ثار المكيون؟ كلا، إنهم لم يُضِيفوا عند السنة الثالثة إلى عقائدهم شيئًا جديدًا أغضبَ الكفار ودفعهم إلى معارضتهم وإيذائهم. فثبت أن الله تعالى لم يخبر المسلمين في السنة الثالثة أنكم ستُعارَضون الآن، لأن الكافرين كانوا لا يعلمون عن دينكم واعتقاداتكم جيدا من قبل، وإنما سببه أن المسلمين كانوا يزدهرون باستمرار فأدرك الكفار أن مستقبلهم مهدد، وأن عليهم الآن فعْلَ شيء.

ولكن السؤال هنا: مَن ذا الذي منح المسلمين القوة بحيث شعر الكفار أن مستقبلهم مهدد؟ الجواب الوحيد: الله تعالى، إذ ليس هذا بوسع البشر. فثبت أن نبوءة معارضة الكفار للمسلمين لم تكن أمرًا اجتهاديا أو قياسيا، بل كانت خبرًا غيبيًا من السماء أكّده الكافرون بتصرفاتهم.

ثانيا: والشهادة الثانية في قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أنك ستصبح غرضًا لكل سهم. وهذا ليس قولاً مبالغا فيه، بل كما بينتُ لقد تعرض النبي ﷺ بالفعل لكل أنواع الظلم فعلى سبيل المثال: (١) مُنع من العبادة (٢) ضُرب (٣) شُتم (٤) تعرّض للمقاطعة الاجتماعية (٥) مُنع من الطعام والشراب (٦) مُنع من التبليغ (٧) سُحب صحابته على الحجارة (٨) مُنع من الهجرة - إن الناس عندما يضربون أحدًا يقولون له: اخرجْ من هنا، أما الكافرون فكانوا يضربون المسلمين ولا يسمحون لهم بالخروج من بينهم. فلما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فرارًا من فظائع أهل مكة ذهب بعض رؤسائها إلى النجاشي وقالوا له: هؤلاء القوم عبيدنا الآبقون، فرُدَّهم إلينا. فأرادوا أن لا يَدَعوهم ينعمون بالراحة لا داخل مكة ولا خارجها- (٩) قتلوا المسلمات بطرق بشعة (١٠) اتهموه بتهم باطلة، فسموه مجنونا حينًا، ومُغرِضًا حينا آخر، وكذّابًا تارة، وطامعًا في الشهرة مرة أخرى،

وكاهنًا مرةً، وسارقًا لتعاليم الصحف السابقة تارة أخرى. باختصار، ليس هناك سهم إلا أطلقوه نحوه ﷺ.

ثالثا: والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أنك ستنـــزل في هذا البلد مرة أخرى.. أي أن هذه البلدة ستقدِّم شهادتين قويتين على صدق الإسلام: هجرة محمد ﷺ، ثم عودتُه إليها منتصرًا. كان الأمران مستحيلين في الظاهر عندها، لأن أهل مكة – عند نـــزول هذه السورة– إما أنهم كانوا لا يعتبرون النبي ﷺ جديرًا بالالتفات إليه، أو أنهم كانوا يحترمونه، وفي الحالتين ما كانوا ليفكّروا في طرده من بينهم. وليس هذا فحسب، بل إن النبي ﷺ نفسه كان يعتبر طردهم له مستحيلا؛ ذلك أنه ﷺ لما تلقى أول وحي رجع قلقًا إلى بيته وأخبر زوجته بما حصل، فأخذته إلى ابن عمها "ورقة بن نوفل" الذي كان عالما كبيرا بالتوراة، وذكرت له القصة. ثم إن ورقة نفسه سأل النبي ﷺ عما حصل، فأخبره النبي ﷺ بالتفصيل بما حصل معه في غار حراء، فقال ورقة: إنه نفس الملاك الذي نـــزل على موسى عليه السلام.

لا بأس لو ذكرنا هنا –ضمنيا– أن ورقة بن نوفل كان مسيحيا، وكان يدرس الصحف المقدسة بكثرة، فلو كان عيسى عليه السلام حاملَ شريعة كما كان موسى عليه السلام، لما قال ورقة: إنه نفس الملَك الذي نـــزل على موسى، بل لقال إنه نفس الملَك الذي نـــزل على عيسى، أو قال لم ينـــزل عليك أي ملَك، لأن عيسى قد جاء وهو المخلص الأخير للعالم، ولا نبي بعده. ولكنه ما إن سمع قول النبي ﷺ حتى قال: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نـــزلَ عَلَى مُوسَى.. أي هو نفس الملك الذي نـــزل بوحي السماء على موسى. ثم قال: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فأَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. فاستغرب النبي ﷺ من قوله، فمع أنه كان قد تلقى هذا الوحي إلا أنه قال له في حيرة: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ (البخاري: كتاب بدء الوحي).. أي كيف يمكن أن يخرجوني منها وأنا مسالم أدعو إلى الصلح وأؤدي حقوق الجميع، وليس بيني وبينهم عداء، ولا أبغي لأحد شرًّا؟ إن أقاربي وأصحابي لا يزالون في مكة، فكيف يخرجني أهلها منها؟ ثم بأي جريمة يخرجونني منها؟

فما أوجزَها من كلمات! وما أكثرَ معانيها! إن قوله ﷺ: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ" قول وجيز جدا، ولكنه زاخر بما في قلب النبي ﷺ من مشاعر وأحاسيس. إنه يعبّر عما في قلبه من صلح وسلام وحبّ من جهة، ومن جهة أخرى يبين مدى حب أهل مكة للنبي ﷺ، بحيث كان من المحال في بادئ الأمر أن يُخرجوا من بينهم إنسانا مثله. ولكن هذا ما حصل في نهاية المطاف، إذ أخرجوه رغم حبه للصلح والسلام، وتحققَ ما أنبأ الله تعالى به.

يقول المعترض إن الناس يبدون رأيهم قبل الأوان نظرًا إلى الظروف ثم يسمّونه نبأً، وأنا أسأله أن يفكر في هذه النبوءة ويرى ما إذا كان بوسع أحد في تلك الظروف - سوى الله عالم الغيب - أن يقول إن محمدا ﷺ سيضطر للهجرة من مكة يوما ما. فما كان الرسول ﷺ نفسه - ناهيك عن غيره - يتصور أن هذا ممكن. لقد ذُهل ﷺ بسماع هذا القول وقال: كيف يمكن أن أُطرد من مكة؟ وما دام النبي ﷺ نفسه لم يستوعب هذا الأمر فكيف يستوعبه غيره؟ ومع أن هذا الأمر كان محالاً في نظر النبي ﷺ، كما كان محالا بالنظر إلى أحوال أهل مكة في ذلك الوقت، إلا أن قول الله هذا قد تحقق بصدق وعدل، واضطر النبي ﷺ للهجرة من مكة نتيجة فظائع أهلها المروعة الطويلة.

كما كانت عودة النبي ﷺ إلى مكة أيضًا مستحيلة بادئَ الأمر؛ فمن ذا الذي كان يمكن أن يتصور عند خروجه ﷺ من مكةَ أن هذين الهاربين تحت جُنح الليل سوف يدخلانها في يوم منتصرَين مع جيش قوامه ١٠ آلاف جندي، حتى يصبح كبار أسيادها تحت رحمة المسلمين ليعاملوهم كيفما شاءوا؟ كلا، ما كان هذا ليخطر ببال أحد. ثم مَن ذا الذي كان يمكن أن يتصور يوم هجرته ﷺ أن هذا الشخص المطرود من مكة سيعود إليها مع ١٠ آلاف قدوسي أمام أعين هؤلاء الكافرين الذين يفرحون الآن أنهم قد نجحوا في محو الإسلام بطرده من بينهم، وسيقول لهم في هيبة وجلال: أخبروني كيف أعاملكم الآن، فيقولون: افعلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته. غاية ما كان يمكن أن يقول بعضهم عند هجرته ﷺ: للأسف لم نتمكن من قتله، ويقول بعضهم: نِعْمَ ما حصل، إذ تخلّصْنا من هذا البلاء، لقد

اختفى عن أنظارنا الآن، ولا يهمّنا، أحيٌّ يُرزق هو أم قد مات! لقد طردناه من بلدتنا وانتهت القضية. ثم مَن كان منهم يتصور عندها أن هذا الشخص نفسه سيرجع إليهم كقائد منتصر؟ ثم من ذا الذي كان يمكن أن يتصور أنه سيرجع بهذه السرعة؟ الواقع أن المرء إذا تدبر الأمر وجد أنها آية عظيمة حقًا ترسم لنا وجود البارئ وقدرته وجبروته. لقد هاجر من مكة مهاجران تحت جنح الليل خائفينِ على حياتهما من الكفار المصممين على قتلهما، ولم تمض ثماني سنوات حتى رجع النبي ﷺ إلى مكة كقائد منتصر. لا يستطيع حتى الصعلوك أن يُعدّ عدّته في ثماني سنوات، ولكن الله أخبر هنا أن محمدا ﷺ الذي يهاجر من مكة مع صاحبه تحت جُنْح الظلام - والذي قد جعل الكافرون جائزة كبيرة لمن يأتي به حيا أو ميتا - سيرجع إليها بعد ثماني سنوات كقائد فاتح بحيث يُدمَّر مجدُ قيدار (قريش) كله. وهذا ما حصل بالفعل؛ إذ دخل النبي ﷺ مكة مرفرفًا لواء فتح الإسلام عاليًا بتأييد الله ونصرته، وتحققت النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ بكل عظمة وعلو شأن. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

فترى كيف أن الله تعالى بنفسه -وفي الأيام الأوائل للإسلام- فسّر الفجرَ الأول الذي بدأ بالهجرة، والفجرَ الثاني الكامل الذي بدأ بغزوة بدر واكتمل بفتح مكة، مبينًا أن مكة ستقدِّم شهادة أخرى على صحة أنبائنا حيث تنـــزل فيها مرة أخرى لتظهر على يدك آية عظيمة دالة على جلال الله وقدرته.

رابعا: ثم يبين الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن مكة ظلت محفوظة منذ زمن طويل، حيث كان أهلها وثنيين غافلين عن الدين ومع ذلك حفظهم الله من أبرهة، ولكنها ستُفتح بيد محمد ﷺ قسرا، فلا يكون دخوله فيها دليلا على صدقه فحسب، بل إن دخوله فيها قسْرًا سيكون دليلا آخر على صدقه، إذ لو لم يكن محمد ﷺ صادقًا، فكيف أذِنَ الله له بدخول مكة قسرا؟ إن دخوله ﷺ فيها بهذا الشكل كان تحقيقا للنبوءة المذكورة آنفًا، كما كان دليلاً إضافيًا على صدقه ﷺ إذ أجاز الله له ﷺ ما لم يُجزْ لأبرهة. فعندما جاء هذا إلى مكة بجيشه العرمرم

دمره الله مع جيشه، و لم يسمح له بدخول مكة، وحين جاءها محمد ﷺ بجيش قوامه ١٠ آلاف جندي.. أذن الله له ولجيشه بدخولها.

علمًا أن دخول النبي ﷺ في مكة إذا كان تحقيقًا لنبأٍ، فإن دخوله فيها بحد السيف كان تحقيقا لنبأ آخر. فلو أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ ارجعْ إلى مدينتنا، فدخلها سلمًا لتحققت بذلك نبوءة واحدة فقط، ولكن دخوله ﷺ يوم الفتح على ذلك النحو قد حقق نبوءتين؛ إذ لم يدخلها فحسب، بل دخلها مستحلاً حُرمتَها كما ورد في النبأ. لم يسبق في تاريخ مكة الممتد إلى ٢٥٠٠ قبل النبي ﷺ مثالٌ واحد أن نجح شخص في فتحها عنوةً؛ لقد جاء أبرهة ليدخلها بالقوة، فدمّره الله، أما محمد ﷺ فقال الله له ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي ستستبيح حرمة هذا البلد، وسوف تفتحه بحد السيف. لا شك أن أهل مكة يؤمنون أن لا أحد يقدر على فتحها عنوة، ولكنا نعِدك أنا لن نرجع بك إليها فحسب، بل نرجع بك بحد السيف لكي نبطل عقيدهم هذه، ولكن ليس لأن مكة ليست محمية من عندنا، بل ليعلَم الناس أنني أنا الذي قمت بحمايتها من قبل، وأنا الذي جئت بمحمد إليها بقوة السيف الآن.

خامسًا: والمعنى الخامس لقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدّم هذا البلد شهادة على ما سبق من أمور حال كونك الغاية من تأسيس هذه البلدة.. بمعنى أننا نخبر العالم أنه ما دام الظهور المحمدي غايةَ تأسيس هذه البلدة من أول يوم، فكيف ظن الناس أن الله تعالى ينسى هذه الغاية التي لم يزل يُعِدُّ الناسَ لها منذ قرون، ولا يحققها؟ إذا كان الله تعالى قد جعل مكة مثابةً للناس في وقت لم يتم تتويجها بتاجها بعد، وإذا كان الله تعالى يهيئ الرزق لأهلها.. وإذا كان الله تعالى قد جعلها بلدة كبيرة، وإذا كان الله تعالى قد حماها من غارات الأمم، فكيف يمكن أن تنقطع هذه الآيات حين جئتَ وأنت تاجُها وغايتها؟ كلا، بل ستظهر الآيات الآن أكثر من ذي قبل، وستتحقق الآن النبوءات التي لن تكون آية حية على صدقك فحسب، بل ستزيد مكةَ عزًا وشرفًا، وستهيئ للعالم شهادةً قوية على صدق كلام الله تعالى،

لأنك غاية مكة وتاجها وموعودها الذي لم تزل تشير إليه أحداثُ التاريخ بالبنان منذ آلاف السنين. فالآن بعد ظهورك ستتجلى آيات الله تجليًا غير مسبوق.

باختصار: قد شرح الله تعالى بكلمة وجيزة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ اللياليَ العشر، ثم الفجرَ الأول الذي يليها، ثم الفجرَ الثاني الذي طلع عند انتهاء الليلة الحادية عشرة بيوم بدر وانتهت بفتح مكة. يمكن تقدير مدى استغراب الكافرين من دخول النبي ﷺ مع أصحابه في مكة منتصرا من حيث إنهم كانوا يأملون أن يرجع إليهم أبو سفيان بعد قليل بعد عقد معاهدة جديدة مع محمد. لقد ناموا هادئين بأمل أن أبا سفيان آتٍ إليهم برسالة أمن، وبينما هم في ذلك إذ دخل عليهم في منتصف الليل يحث حصانه وهو يعلن بصوت عالٍ: إن محمدا زاحف إلى مكة مع عشرة آلاف من صحابته، ولكني أبشّركم أني قد أخذتُ لكم عهدًا بالأمان، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن لم يخرج لمقاومة المسلمين فهو آمن أيضا، أما من خرج من بيته وحاول مقاومتهم بالسيف فهو مسؤول عن نفسه. (سيرة ابن هشام: قصة إسلام أبي سفيان على يد العباس). فشتان بين الحالتين! لقد ذهب أبو سفيان من قِبَل مكة كسفير من أجل الصلح، ورجع ليقوم بهذا الإعلان بين القوم.

ثم دخل خالد مكة بفِرقَته من جانب، ودخل الزبير وسعد بن عبادة بفرقتيهما من جانب آخر، وأما النبي ﷺ فدخلها بدون أي جيش ولا أُبّهة من جانب ثالث. لم يكن دخوله مكة منفردًا أمرًا عاديا، إذ كان أهل مكة يدركون أن دخوله ﷺ مكة وحيدًا بدون جيشٍ أعظمُ وأروعُ من دخوله مع الجيش آلافَ المرات. ذلك لأنه ﷺ رغم كونه وحيدا كان يقول بلسان حاله لأهل مكة: ها إني أدخلها بدون جيش، ولكن حذار أن ينظر إليّ اليوم أحد نظرة سوء، لأن ملائكة الله يحفظونني عن يميني وعن شمالي، وقد جئتكم برسالة توبة، فإن شئتم فاقبلوها وانضموا إلى جنود الله تعالى، وإن شئتم فكونوا فريسة لسيوف هؤلاء الملائكة الذين يدخلون مكة عن يمينها وعن شمالها.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٤﴾

التفسير: قال ابن عباس ﵄: المراد من قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ كلُّ ذي حياة. وقال مجاهد: المراد آدمُ وكل أولاده. وقال البعض: المراد منه جميع الصلحاء وأولادهم. وقال آخرون: المراد منه نوح ؑ وأولاده. وقال أبو عمران الحوفي: المراد منه إبراهيم ؑ وكل أولاده. وقال الطبري والماوردي: الوالد هو رسول الله، وما ولد هو أُمتُه، لأن رسول الله ﷺ قال: أنا لكم بمنـــزلة الوالد، وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب:٧)؛ فما دامت أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين، فهو أبوهم. وقال صاحب البحر المحيط: لقد أقسم الله هنا برسوله وبأمته تشريفًا لهم (البحر المحيط).

لقد بينتُ مرارًا أن المراد من القَسم: الشهادة.. حيث يقدم الله تعالى تلك الأشياء في حالتها العامة أو في حالتها الخاصّة شهادةً على صحة بعض الأمور.. أي أنه تعالى يقدّم ما في أحوال تلك الأشياء من دروس شهادةً على صحة ما يقول، ومن الأمثلة على تقديم شهادة هذه الأشياء في حالتها الخصوصية أن الله تعالى قال هنا: ﴿أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نقسم بهذا البلد في حالته الخاصة أي حين تكون حلاً فيه. فالقول إن الله تعالى قد أقسم هنا تعظيما لأمة الرسول ﷺ قول عبث، إذ لا يقسم أحد بشيء تكريمًا له. هل يقول أحد لغيره: إني أقسم بك لأني أُكرمك؟ هذا ليس أسلوب العربية ولا أي لغة أخرى. الواقع أن المفسرين لم يدركوا حقيقة القَسم، ولذلك قالوا إن القسم هنا للتكريم. لا شك أن من ذُكر في القرآن سواءً مِن أجل الشهادة على شيء أو تخليدًا لحسناته، فقد حظي بالتكريم، ولكنه أمر ضمني، لأن القَسم ليس هدفه التكريم. نعم حين يُقسَم بشيء فقد تم تكريمه لو كان جيدا، ولكن ليس الغرض من القَسم التكريم، إنما التكريم نتيجة طبيعية.

وعندي أن المراد من قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. نعلم من القرآن الكريم أن للكعبة المشرفة ومكة المكرمة علاقة خاصة

بإبراهيم وابنه إسماعيل، وإذا ذُكر شيء من غير تحديد، فالأولى نسبته إلى ما هو مذكور في السياق. وحيث إن الموضوع قبل هذه الآية عن مكة، فيجب أن نبحث عن والد ومولود لهما علاقة خاصة بمكة. ويخبرنا القرآن الكريم نفسه أن إبراهيم عليه السلام وضع أساس الكعبة وأسكن إسماعيل عليه السلام في مكة داعيًا ربه أن يجعل هذا المكان بلدا عامرا وآمنا، وأن يجعل أفئدة الناس تهوي إليه، وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يوجد فيه أناس يذكرون الله وينذرون حياتهم في سبيله. هذا ما دعا به إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام. ثم إنه كان قد جاء بإسماعيل وهو طفل صغير إلى مكة، حين لم يكن بها شيء للأكل والشرب بل كان واديا غير ذي زرع، وقد تركه هنالك متوكلاً على الله تعالى وموقنًا بوعوده. وإننا لا نجد قبل بعثة النبي ﷺ والدًا له علاقة بمكة إلا إبراهيم عليه السلام، ولا نجد قبل بعثته ﷺ ولدًا يمكن أن يخطر بالبال إلا إسماعيل عليه السلام. هذا أمر واضح جلي بحيث لا يمكن أن ينكره حتى مَن ينكر القرآن. وما دام هذا الأمر واضحا كل هذا الوضوح فأي مشكلة في تحديد الوالد والولد المذكور في هذه الآية؟ عندما يُستخدم لفظ نكرةً بغير تحديد فإنما يراد به أحد معنيين: إما أنه يكون لفظا عاما يشمل كل فرد من جنسه، أو يكون معروفًا بحيث يعرفه الناس على الفور بحيث لا يحتاج إلى أي تحديد. فمثلا إذا قلنا كلمة (يوم)، فإما المراد منه كل يوم، أو المراد منه يوم ذو تأثير كبير في حياتنا بحيث يتبادر إلى ذهننا فورا، ولا يراد به أي معنى آخر. وهذا الأسلوب رائج في كل لغة فصيحة.

لذا فأرى أن تفسير قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ بالصلحاء وأولادهم، أو نوح وأولاده.. خلاف العقل.

أما القول إن المراد منه هو إبراهيم عليه السلام وأولاده، فهو قول معقول، غير أني أرى أن المراد من ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ هو إسماعيل عليه السلام فقط لا كل أولاد إبراهيم عليه السلام. ومن الحقائق التي لا يسع أحدا إنكارها أن إبراهيم عليه السلام هو مؤسس مكة ورافع أساس الكعبة. فإذا ذكرنا والدًا وولدًا في سياق مكة من دون أي تحديد، فلن يتبادر إلى ذهن أي عاقل إلا إبراهيم وإسماعيل اللذين أسسا الكعبة. فمثلا يقول الناس في بلدنا: يا مَدَنِيّ.. ومع أن هذه الكلمة في حد ذاتها لا تحدد شخصا واحدا من بين

ملايين الناس الذين عاشوا في المدينة المنورة، إلا أنه كلما استخدمها أحدنا تبادر إلى الذهن فورا أنه لا يعني بها كل من يقيم أو أقام في المدينة، بل يعني بها ذلك الإنسان المقدس الذي عاش في المدينة والتي عظُمت المدينة بسببه ﷺ. إن كلمة "مَدَنِيّ" يستخدمها الناس في بلدنا يوميا ولا سيما الشعراء البنجابيين الذين كلما قرضوا شعرًا في مدح النبي ﷺ خاطبوه بها، ولا تنتاب أحد شبهة في ذلك، ولا يقول إنها كلمة نكرة وقد يراد بها كل من يقيم في المدينة، بل يعرف الجميع أنها رغم كونها نكرة تشير إلى ذلك الإنسان المعروف الذي لا يمكن أن يُنسَب أحد إلى المدينة أكثرَ منه. فكما أن كلمة "مَدَنِي" تعني الرسول ﷺ.. فكذلك كلما ذُكر مع مكة والد ومولود فيراد بهما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقط لا غير.

والجدير بالتدبر هنا أن الله تعالى قد ذكر هنا الوالد والمولود معًا. فما الحكمة في ذلك؟ لماذا لم يذكر الله تعالى الوالد فقط، أو المولود فقط؟

ذلك أن هنالك والدا ومولودا أسسا الكعبة، ثم تسببا في هداية الناس. لم يقم بهذا العمل الوالدُ وحده ولا الولد وحده، بل اشتركا فيه معًا، ولذلك ذكرهما القرآن معًا و لم يذكر أحدهما فقط.

فأرى أن الواقعة التي تنطبق على هذه الآية بكل جزئياتها هي الأَوْلى بالأخذ عند التفسير، وعليه فستعني هذه الآية والتي قبلها: إننا نقدم هذه البلدة كشهادة وأنت حلٌّ بها، وكذلك نقدم كشهادةٍ إبراهيمَ وإسماعيل اللذيْن أسسا هذه المدينة.

أما جواب القَسم أو الأمرُ المشهود عليه فقد قال المفسرون أنه مذكور في قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البحر المحيط).

وعندي أنه رأيٌ سليم، وأن قوله تعالى بعدها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب قطعي ويقيني لهذا القَسم. ولكن فيما يتعلق بالآيات كلها، فأرى أن هذا جواب ثانوي، لأن الجواب الحقيقي للقسم هنا هو نفس ما ذُكر في السور السابقة، والدليل على ذلك أن الله تعالى قد استخدم هنا قبل القَسم لفظ (لا)، وفي هذه الحالة لا بد من قرينة لتحديد المعنى. لا شك أن الله تعالى لم يذكر الأمر المنفي بعد كلمة (لا)، ولكن لا بد من قرينة في الكلام الفصيح لتحديد المنفي بـــ (لا).

والقرينة القريبة هنا هي الإشارة إلى ما سبق. فما أشير إليه في (لا) هو المشار إليه بالقَسم أيضا. وأرى أن هناك جوابا للقسم محذوفا هنا، وهو الجواب الأصلي. وقد ذُكر من قبل، ولذلك حذفه الله هنا. وعليه فالمعنى: أننا نحن نقدم هذه البلدة في حالة كونك حِلاًّ بها، ونقدم إبراهيم وإسماعيل كشهادة على أن ما ذُكر في الآيات السابقة لواقعٌ حتما.. أي أن محمدا ﷺ سيتعرض لمعارضة شديدة حتى يضطر للهجرة، ولكنه سينتصر في نهاية المطاف، إذ سيأتي به الله إلى هذه البلدة منتصرا. وكل هذا سيحدث حتما؛ وكذلك نقول أيضا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. وهكذا يُعتبر هذا القول الرباني جوابًا ثانيًا للقَسم يأتي تفصيله في وقته، ويقال إن الله قد قدم هنا دليلا عقليا إضافيا يؤيد الشهادة السابقة.

أما إذا اعتبرنا أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هو نفسه جواب القَسم فلا بد لنا من القول أيضا إن حرف (لا) في قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهذا الْبَلَدِ﴾ جاء دحضًا لأفكار البعض التي أبطلها الله بقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.. حيث يظن بعض الناس أنهم سينالون الرقي بسهولة ويُسرٍ بدون أن يقدموا أية تضحية وبدون أن يحرِّكوا ساكنا، فلا يهتمون بإكرام الضيف وإطعام المسكين وغيرهما من الأمور. فيقول الله تعالى إنها فكرة باطلة أيها الناس، إذ ليس صحيحا أنكم ستنالون الرقي على مستوى الأمة بسهولة ويسر وبدون أن تحركوا ساكنا. كلا، بل الحق أن التقدم محال بالإعراض عن المسؤوليات سواء كانت أخلاقية أو دينية أو سياسية، إذ قد خلقنا الإنسانَ بحيث يحرز التقدم بالجهد والمشقة، ونقدّم مكّة.. وأنت حِلٌّ بها.. وكذلك إبراهيمَ وإسماعيل دليلا على صحة هذا المبدأ.

لقد سبق أن فسّرتُ جزءًا من هذه الآيات وقلتُ إن لفظ (الحِلّ) له عدة معان في العربية، وبحسب هذه المعاني كلها تمثّل مكة دليلاً قطعيًا على أن محمدا رسول الله ﷺ قد بُعث لإصلاح أهل هذا الزمان. كذلك بينتُ لدى تفسير (ليال عشر) نوعيةَ الإيذاء الذي صبّه المشركون على المسلمين في مكة. كما بينت كيف يطلع الفجر من عند الله تعالى، وكيف تُكسَر شوكة الكافرين. وهذه الأحداث كلها

تشكّل جوابًا للقسم هنا، وكأن الله تعالى يقول: إن فظائع المكيين تقتضي أن يخرج الله محمدا ﷺ من مكة أولاً، ثم يعود به إليها منتصرا، ليؤكد أنه تعالى هو من قد بعثه لهداية الناس، وأنه ﷺ نبي حق وسينتصر حتما. والآن بعد ذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي نقدّم إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- أيضا كشهادة، وبيانها أن إبراهيم عندما رفع مع إسماعيل قواعد البيت بمكة دعا الله تعالى قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٣٠). لا شك أن شهادة الولد لم تُذكر هنا، ولكن ما دام الاثنان قد رفعا قواعد الكعبة معًا، فيُعتبر إسماعيل شريكًا مع إبراهيم في الدعاء، كما هو واضح من صيغة الجمع ﴿ربنا﴾. والدليل الآخر على أن إسماعيل كان شريكا في هذه الشهادة تلك الأدعية الطويلة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة ومعه إسماعيل عليهما السلام، والظاهر أنه قد دعا بها لإسماعيل وأولاده، إذ يقول ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم:٣٨). فأولاً: كان إسماعيل شريكا مع إبراهيم -عليهما السلام- في دعائه لبعثة نبي في مكة، لأنه قام بهذا الدعاء عندما بنى الكعبة مستعينًا بإسماعيل. وثانيا: كان إسماعيل شريكًا في تلك الأدعية من حيث إن إبراهيم قد دعا لتتحقّق هذه الوعود في نسل إسماعيل، ولذلك ذُكرت شهادة الوالد والولد معًا هنا، فقال الله تعالى إننا نقدم والدا ومولودا كشهادة على صدق محمد رسول الله. تعلمون أن إبراهيم دعا ربَّه لبعثة رسول في نسل إسماعيل، وإذا كانت تلك الأدعية لم تتحقق بعد في رأيكم، أفلا يدل ذلك على كذب إبراهيم؟ ثم انظروا إلى إسماعيل فإنه قدّم تضحية كبيرة، فقال إني مستعد للتضحية بحياتي في سبيل الله، فأقيم في واد غير ذي زرع حسب أمر الله تعالى. لقد استعدّ للموت المحقّق والمريع في سبيل الله تعالى، وقد فعل ذلك لتتحقق وعود الله تعالى المتعلقة بهذا المكان المبارك عن طريق نسله. أفلا يكون عليه السلام كاذبا لو لم يولد هذا الشخص الذي كان غاية مكة وهدفها؟ لا شك أن التضحية الزائفة هي التي لا تأتي بنتيجة، أما التضحية

الصادقة فلا بد أن تأتي بثمارها، وإذا كانت تضحية إسماعيل صادقة –ولا يمكنكم إنكار ذلك– فلا بد لكم من الاعتراف أنه لا بد من أن يُبعَث إنسان كامل، كثمرة لهذه التضحيات. وإذا كنتم تنكرون ظهور إنسان كامل في نسل إسماعيل كثمرة دعاء إبراهيم فمعنى ذلك أن تضحيتهما لم تكن مقبولة عند الله في رأيكم! لو كانا قد قدما تضحيتهما بتقوى الله فكيف يمكن أن يضيّع الله تقواهما ولا يأتي بثمار تضحيتهما. باختصار، لا بد لكم من الاعتراف بأحد الأمرين؛ إما أن تعترفوا أن أدعية إبراهيم قد ضاعت سدى، وأن تضحية إسماعيل أيضا لم تأت بثمر، أو تقرّوا أن تضحيتهما كانت صادقة وأن الثمر الذي تقتضيه قد ظهر فعلا في الدنيا، وهو محمد ﷺ، لأنه الوحيد الذي ادعى بهذا المنصب بعد انقضاء هذه الفترة الطويلة كلها. فإذا قبلتم الأمر الأول فلا بد لكم من تكذيب إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– وإذا قبلتم الأمر الثاني فلكم أن تعلنوا صدقهما. ولكنكم تصدّقونهما ومع ذلك تكذبون محمدا رسول الله الذي هو ثمرة دعاء إبراهيم، وثمرة تضحية إسماعيل. إذا كنتم تكذبونه ﷺ فلا بد لكم من تكذيب إبراهيم وإسماعيل، وإذا كنتم تصدّقونهما فلا بد لكم من تصديق محمد ﷺ، لأن الأمرين متلازمان. إذا ثبت صدق محمد ﷺ ثبت صدق إبراهيم عليه السلام، وإذا لم يثبت صدق محمد لم يثبت صدق إبراهيم ولا إسماعيل. عندما قدم إسماعيل عليه السلام نفسه للتضحية وعده الله تعالى أن يرزقه أولادا روحانيين يُحيون العالم كله، وأن يهب أسرته كلها حياة أبدية نظير الإقدام على هذا الموت الواحد. فإذا لم يقدم إسماعيل نفسه بصدق نية من خلال القربان الظاهري أولاً، ومن خلال الإقامة في واد غير ذي زرعٍ (مكةَ) ثانيا، فلا يمكن أن يولد في نسله ذلك الولد الخاصّ. أما إذا كان صادقا في تضحيته فلا بد أن يكون في نسله مَن يهبون الحياة الروحانية للعالم. فالحق أن صدق إبراهيم وإسماعيل متوقف على صدق محمد رسول الله ﷺ، وهذه هي الحقيقة التي ذكرها الله تعالى أمام كفار مكة بقوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أنكم تصدّقون إسماعيل وإبراهيم، والغريب أنكم تكذِّبون ذلك الشخص الذي يتوقف عليه صدقهما. تعترفون أن إبراهيم دعا لبعثة رسول، وعندما بُعث ذلك الرسول نتيجة دعائه كذّبتموه..

وتقرّون أن إسماعيل حين قدّم التضحية قطع الله مع إبراهيم وعودا في حق أولاد إسماعيل وقال إنه تعالى سيُخرج من نسله إنسانًا يزكّي العالم كله، فلما ظهر هذا الابن الروحاني كفرتم به. لقد كفرتم بمحمد ﷺ في الظاهر، ولكنكم في الواقع قد كفرتم بإبراهيم وإسماعيل، لأنه ﷺ هو الموعود الذي يشهد على صدقه النبيّانِ. إن إبراهيم يشهد أن محمدا ﷺ صادق، وإن إسماعيل أيضًا يشهد أن محمدا ﷺ صادق، ولكنكم تسلكون مسلكًا معارضًا تماما للغاية التي دعا لها إبراهيم وقدّم من أجلها إسماعيلُ تضحيته.

قد يقول قائل هنا: إن معارضة أهل مكة لمحمد ﷺ لم تكن تهدف إلى عدم تحقُّق ما أراده إبراهيم وإسماعيل، وإنما عارضوه ﷺ لأنهم كانوا على يقين أن دعاء إبراهيم سبق أن تحقق من خلالهم أنفسهم.. ولم يدَعوا تضحية إسماعيل بلا ثمر، إذ يعبدون اللات ومناة والعزى، وهذا ما كان إبراهيم وإسماعيل يدعوان إليه!! إذا كانوا يعارضون محمدا ﷺ، فذلك لأنهم رأوا أن كل ما دعا إبراهيم من أجله قد تحقق من خلالهم، فلا حاجة الآن أن يأتي أحد ويقول إنه نتيجة دعاء إبراهيم وثمرة تضحية إسماعيل. إن أدعية إبراهيم قد تحققت من قبل في أنفسهم وإن غاية تضحية إسماعيل أيضا قد تحققت من خلالهم. لقد حققوا الغاية التي كان يصبو إليها إبراهيم وإسماعيل، وهم يؤمنون بعقائدهم ذاتها، فإذا كان محمد يستاء منها، ويستاء من عبادتهم للات ومناة والعزى فهذا شأنه. ما دام هذا هو تعليم إبراهيم وإسماعيل كليهما وهذا هو هدف بعثتهما فلا يضرهم شيئا إذا اتهمهم محمد أنهم اعتبروا دعاء إبراهيم عبثًا أو أغمضوا النظر عن هدف تضحية إسماعيل.

ولهذا الاعتراض جوابان: أولا: لا شك أن أهل مكة كانوا يعبدون اللات ومناة والعزى وغيرها، ولكن لم يوجد بينهم فرد واحد يدّعي أن إبراهيم أو إسماعيل أيضًا كان يعبد الأصنام. وهذا دليل رائع هيّأه الله على صدق الرسول ﷺ. لم يجرؤ أي من أهل مكة أن يزعم أن إبراهيم أو إسماعيل قد تورط في الشرك. وحيث إنهم لم يكونوا ينسبون الشرك إليهما حسب عقيدتهم، فما كان بوسعهم أن يدّعوا أنهم قائمون بالتعاليم التي تحقِّق هدف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وثانيا: لا شك أن أمر الدين مطروح للنقاش دائما، وتكون بهذا الصدد اختلافات كثيرة. وبغض النظر عن الاختلافات الدينية الكثيرة بينهم وبين الرسول ﷺ، فلا يمكن لأحد إنكار حقيقة أن أهل مكة كانوا يؤمنون أن الدعاء الذي دعاه إبراهيم عند تأسيس الكعبة كان لا بد أن يتحقق، ولكن ما كان بوسعهم – نظرًا إلى حالة مكة عندها– الادعاء أن مكة مصداقٌ لدعاء إبراهيم؛ ذلك لأنه كان قد دعا الله تعالى أن يجعلها مثابة للعالم كله. كان بوسعهم أن يدعوا أنهم على الحق، أو أنهم إذا كانوا يشركون باللات ومناة والعزى فلا بأس في ذلك، لكن هل كان بوسعهم أن يدّعوا أن الجزيرة العربية صارت مركزًا للعالم كله تحقيقًا لدعاء إبراهيم؟ كانوا يرون بأم أعينهم أن هذا الأمر لم يتحقق بعد، وأن مكة لم تحظَ بعد بذلك التكريم الذي دعا إبراهيم من أجله عند بناء الكعبة. كان أهل مكة بسطاء جدًا من الناحية المادية، ولم تكن مكانتهم بين العرب مرموقة جدا، ناهيك أن يحظوا بإكرام خاص في العالم الخارجي! كلا، ما كان بوسعهم أن يدّعوا أنهم يتمتعون بنفوذ وهيبة على باقي العرب، دعك من القول أنهم كانوا بالفعل مصداقا لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. فكانوا مضطرين للاعتراف أن مكة ستكتسب المزيد من العظمة والشأن من الناحية الروحانية، إذ لا يزال هناك شوط كبير حتى تصبح مكة مركزا للعالم، ويفد الناس إليها من أطراف الدنيا كلها. يا ترى متى كانت مكة تتمتع بالعظمة الحالية قبل الإسلام؟ لا شك أن العرب كانوا يأتون إلى مكة للحج، ولكن لم يكن أهل كل بلد وقطر من العالم يقصدونها للحج. يمكن أن تسمّى مكة عندها مركزا لبلد واحد، ولكنها لم تكن مركزا للعالم أجمع، بينما كان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله تعالى أن يجعلها مركزا للعالم كله، وأن يجذب الناس إليها من كل أنحاء المعمورة. فشتان بين حالة مكة عندها وبين ما دعا به إبراهيم من أجلها. كان واضحًا أنها لم تَحُزْ بعد على مكانتها اللائقة، وأن دعاء إبراهيم عليه السلام لم يتحقق بعد، وأن تضحية إسماعيل عليه السلام لم تثمر بعد، وأن مكة لم تتمتع بعد بتلك المكانة المرموقة التي ستتمتع بها عندما تصبح مركزا للعالم كله.

فثبت أنه ما كان بوسع أهل مكة أن يدّعوا أن دعاء إبراهيم ﷺ قد تحقق. كانوا يعرفون أنها لا تتمتع مِن قِبل العالم الخارجي بمكانتها اللائقة، وإنْ كان العرب يأتونها للحج.

وهناك شواهد تاريخية تدل على مدى احتقار الشعوب الأخرى للعرب. فلما كتب النبي ﷺ رسالته إلى قيصر يدعوه فيها إلى الإسلام، تأثّرَ منها كثيرا وقال لحاشيته: يبدو أن صاحب هذه الرسالة إنسان شجاع جدا، يجب أن نعلم من الناس أحواله: هويّته ودعواه ومصيره بعد الدعوة؛ فابحثوا عن أي أناس من مكة وأْتوني بهم لأسألهم عنه. ولأن الله تعالى كان يريد إقامة الحجة على أهل مكة فقد وُجد أبو سفيان بالصدفة هنالك مع قافلته التجارية، فأتوا به إلى قيصر. ومع أن أبا سفيان كان قائد أهل مكة وسيدهم، إلا أنه لم يُعرَض على قيصر بصفةِ ملِكٍ، ولا حاكم ولاية ولا قائد عسكري لحكومة أخرى، بل عُرض عليه كأنه مجرم، إذ قال قيصر لأصحاب أبي سفيان: سأسأل صاحبكم أسئلة، فإن صدَق فيها فاصمتوا، وإنْ كذب فكذِّبوه فورا. (البخاري: كتاب بدء الوحي)

كم كان كبيرًا هذا الخزي الذي تعرض له أبو سفيان في بلاط قيصر! كان ملِكًا على مكة، وزعيمًا لقومه، وكان يقابل النبيَّ ﷺ كسيد قومه، ولكنه لما عُرض على قيصر لم يعامله كملِكِ دولةٍ ولا حاكم ولايةٍ ولا كقائد عسكري للشعب العربي؛ ذلك لأن قيصر لم يكن يعتبر بلاد العرب دولةً ولا ولاية إزاء إمبراطوريته، ولا العربَ شعبًا ذا نظام ولا أبا سفيان قائدهم؛ فلم يستقبله استقبال الملوك، بل لم يقدم له كرسيا للجلوس، بل لم يسمح له بالجلوس على الأرض، وإنما أمره أن يقف أمامه معتبرا إياه تاجرا عاديا.

هذا كان قرار قيصر بشأن أبي سفيان وبشأن البلدة التي كان يمثّلها. أما أبو سفيان فكان قراره أكثرَ غرابة؛ فعندما تلقى معاملة المجرم في بلاط قيصر لم يحتجّ على ذلك بكلمة واحدة. لو كان يعتبر مكة دولة ويعتبر نفسه رئيسها حقًّا، فلا بد أن يحتج ويقول لقيصر: أنا رئيس دولة، فيجب أن أُعطى مكانة مماثلة لك، ولكنه رضي بهذا الضيم بصمت.

ثم إننا نرى أنه لما عُرضت رسالة النبي ﷺ على قيصر قال لحاشيته: إن محمدا يدعوني للإيمان به، فما رأيكم؟ فارتعب أبو سفيان برؤية ذلك المشهد وقال كيف يبعث محمد رسالة إلى قيصر، ثم قال لأصحابه: لقد أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشةَ! (البخاري: بدء الوحي).. أي لقد استفحلَ أمر محمد ﷺ، حيث يراسل قيصرَ، فيهتمّ هو أيضا برسالته. كان أبو سفيان مَلِكَ قومه في الظاهر، ومع ذلك تأخذه الحيرة من أن محمدا ﷺ يبعث رسالة إلى قيصر. فلو كان أبو سفيان ملِكًا حقيقيا لم يتعجب من ذلك.

ولو قيل إنه لم يتعجب من أن يراسل محمد ﷺ قيصرَ، بل تعجبَ من تأثر قيصر برسالته ﷺ، فهذا يدل أيضًا على حقارة شأن المكيين عند أنفسهم. لو كان عجب أبي سفيان من مراسلة الرسول ﷺ لقيصر فهذا يدل على حقارة شأنه أيضا، وإذا كان يفكر أننا أمة بسيطة ولا عزة لنا بين شعوب العالم، وقد ولد بيننا الآن محمد الذي يرتعب منه قيصر، فهذا دليل على اعتراف أهل مكة بأن دعاء إبراهيم عليه السلام لم يتحقق بعد. لو كان دعاؤه عليه السلام قد تحقق، ولو كان العرب يرون أن مكة قد تبوّءت مكانة غير عادية في العالم، فما هو دليلهم على ذلك؟ فهل دليلهم أن مَلِكَهم أبا سفيان حضر في بلاد قيصر فعامله بهذا الاحتقار؟ أم هل كان بيد رؤساء مكة الآخرين مثل عتبة وشيبة أي دليل على عظمتهم وسلطتهم القومية؟

أما احتقار الشعوب الأخرى للعرب فهو واضح مما قاله كسرى الفُرس للمسلمين، حيث عرض عليهم حين زحفوا إلى مُلكه أن يأخذ كلٌّ منهم درهمًا ويرجع؛ فترى أنه كان يعتبر العرب شعبًا حقيرًا بحيث ظن أن قيمة المقاتل العربي الواحد درهم واحد. هذا كان رأي ملِك الفُرس في العرب بناء على ما رأى من أخلاق أهل مكة. أما رأيُ قيصر في العرب فهو -كما قلتُ- واضحٌ من واقعة أبي سفيان في بلاطه؛ فإنه لما عُرض عليه لم يعتبره أكثرَ من تاجر عادي لن يتورع عن الكذب عند الحاجة. بل الحق أن مكانة أبي سفيان لم تكن كمكانة المولوي محمد حسين البطالوي أيضًا، فإنه لما حضر محكمة القاضي (دوغلاس) قال له: يجب أن

أُعطَى كرسيًّا، أما أبو سفيان فلم ينبس ببنت شفة أمام قيصر، ولم يطالبه بكرسي، لعلمه أنه لو طالب به لضُرب بالنعال وأُخرج من البلاط.

فيا ترى هل كان بإمكان العرب أن يقدّموا هذه الأحداث دليلا على تحقُّق دعاء إبراهيم وإسماعيل من خلالهم؟ كلا، بل كانوا يدركون أن هذا الدعاء لم يتحقق بعد، وأن مكة لم تنل ذلك التعظيم المذكور في دعاء إبراهيم ، ولذلك يقول الله تعالى لأهل مكة إننا نقدم أمامكم إبراهيم وإسماعيل كشهادة، إذ تعترفون أن هناك دعاء في حق مكة، فأين ذهب هذا الدعاء؟ لقد قام بينكم شخص مدعيًا أنه بُعث مصداقًا لهذا الدعاء، فترمونه بالكذب! إذا كان كذابًا فمنذا الذي يأتي تحقيقًا لذلك الدعاء؟ ومنذا الذي يكون مصداقًا لوالدٍ وما ولد؟ من المحال أن تقدّموا أي مدع آخر ظهر كثمرة لتلك الأدعية. إذن فأدعية إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– دليل عظيم أن محمدا رسولٌ صادق من عند الله تعالى.

ويمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ بمفهوم آخر أيضًا، وهو أننا نقدم حادث إبراهيم وابنه من الماضي كشهادة على ما نقول، فعليكم أن تتدبروه وتروا كيف طُرح هذا الولد بأمر الله تعالى بعيدًا عن وطنه في واد غير ذي زرع، فحفظه الله تعالى، فشبّ وترعرع وصار أبًا لنسل عظيم. كذلك لو أن أقارب محمد ﷺ طردوه من مكة، فإن الله تعالى سينصره كما نصر إسماعيل من قبل.

يعلم الذين يطالعون التوراة أنه قد ورد فيها أن هاجر كانت أم إسماعيل ، فحصل بينها وبين سارة خصام، فطالبت سارة إبراهيمَ بطرد هاجر وابنها إسماعيل من البيت، فوجد أن الإشارات الربانية أيضًا تتفق مع ما يطالَب به؛ فأخذ إسماعيل وأمه من البيت، وتركهما في وادي مكة التي لا أثر فيها للمأكل أو المشرب أو المسكن أو السكّان. كانت برية جرداء ليس بها قطرة ماء ولا حبة غذاء. ولكنه ترك هذين الضعيفين في العراء تحت السماء متوكلا على الله وطاعة لأمره . فتُقبلت في السماء تضحيته هذه التي قدمها لوجه الله تعالى. فصار ذلك الوادي القفر بفضله تعالى مدينة عامرة بمرور الأيام. ثم كتب الله لهذا

المكان من العزّ بأن صار مرجع الخلائق، فبُني هناك بيت الله. وقد نال هذا البيت من الشرف عن طريق إبراهيم ﷺ بأن جُعل مركزا للسلام والأمن في العالم.

والله تعالى يعرض على الكفار هذه الواقعة ويقول: ستُخرجون محمدًا من بلدتكم هذه في يوم من الأيام، كما أُخرجت هاجر وإسماعيل من بيتهما، ولكنا نُقسِم بإبراهيم وابنه إسماعيل أننا سنجعل القرية التي سيهاجر إليها محمد ﷺ بلدةً وسنكتب لها عزة حتى نجعلها بلدًا حراما كما حوّلنا مكة من برية جرداء إلى بلدة عامرة عظيمة حتى جعلناها البلد الحرام. إننا نحلف بذلك الوالد الذي أخرجَ ولدَه من البيت بمطالبة زوجته، وهو ولد ضعيف لا يملك حيلة ولا يهتدي سبيلا، وليس له أنيس هنالك ولا معين، ولكن الله تعالى قد كتب له قوة عظيمة، فنُقسِم بذلك المولود أنكم ستُخرجون محمدا من بلدتكم حتمًا، ولكن اعلموا أن مكة لن تعود بعدها البلدة المنفردة بالإعزاز، بل سوف نجعل إزاءها بلدة عظيمة أخرى.

وبالفعل ترى أن النبي ﷺ أُخرج من مكة، ولكن الله تعالى قد كتب للمدينة المنورة من العز بحيث جمع النبي ﷺ الناس يوما وقال: أيها الناس، إن إبراهيم كما أكرمَ مكة بإعزاز خاص، فإني أمنح المدينة أيضا تكريما خاصا، فيجب أن تُحرّم فيها النفس كما هي محرمة في مكة، ويجب ألا يُقطع شجرها، كما لا يقطع في مكة، وألا يتم فيها قتل ولا فساد وسفك دماء كما هو محرم في مكة. إذن، فإن النبي ﷺ قد خلع على المدينة المواصفات التي كانت تتميز بها مكة.

ثم يجب أن نفكر منذا الذي سمح للنبي ﷺ بتحريم المدينة؟ يعترض البعض أن هذا التحريم بيد الله تعالى وليس بيد محمد ﷺ، فما كان له أن يفعل ذلك. ولكن هؤلاء الجهلة لا يعرفون أن محمدا ﷺ قد أُعطيَ من المعرفة العميقة للقرآن ما لم يُعطَ غيرُه من البشر. الواقع أن أساس تحريمه للمدينة هو قول الله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أُقسِم بهذا البلد وبالوالد الذي أسسها وبالولد الذي جاء وسكن فيها، أنكم ستُخرِجون محمدًا منها حتما، ولكن

اعلموا أن المدينة التي سيهاجر إليها ستُجعل مثيلةً لمكة، وتحظى من العزة والحرمة بحيث لن تعود مكة منفردة بذلك التكريم.

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هو أنه إشارة إلى الرسول ﷺ وأمته، حيث بين الله تعالى أن هذا الرسول وجماعته يشكّلون شهادة على أن الله تعالى سوف يكتب الازدهار للإسلام. وكأنه تعالى يقول للكافرين: كما أن خروج الرسول من هذا البلد الحرام ثم عودته إليه في شوكة وجلال سيكون شهادةً على أن ما قلنا لكم حقّ تماما، كذلك يمثّل هذا الرسول وأمته في حد ذاتهم دليلا على أنه لن يستطيع أحد القضاء عليهم.

علمًا أن هناك نوعين من الشهادة في الدنيا: الداخلية والخارجية، ثم إن الخارجية نوعان: المادية والروحانية. ومثال الشهادة الخارجية المادية أنه إذا كان عند إنسان آلافٌ من الجنود بعُدَّتهم وعتادهم وجماعةٌ مطيعة كل الطاعة، فالجميع يدرك أنه سينتصر حتما، إذ تتوافر عنده أسباب الانتصار كلها. أما الشهادة الخارجية الروحانية فمثالها أن يقيم الله تعالى عبدًا من عباده، فيدلي هذا العبد بأنباء انتصاره بناءً على وحي الله تعالى، فيدرك المؤمنون أن هذا الشخص غالب حتما، لأن الوعود الإلهية معه. أما الشهادة الداخلية فهي ما يسمى بالإنجليزية (INTRINSIC VALUE)، ويماثله المثل العربي الشهير: "الديك الفصيح من البيضة يصيح".. أي أن القوم يكونون ضعفاء عديمي الحيلة في بادئ الأمر، ولكنهم يتحلون بكفاءات وخصال وأخلاق بحيث يعترف الناس أنه لن يقف في وجههم أحد. وهنا أيضًا قد تحدث الله تعالى عن النبوءات المتعلقة برقي الإسلام أولا، فقال للكفار: مهما قلتم فإننا ننبئكم بهذه الأمور التي ستتحقق حتمًا، أو أن إبراهيم سبق أن تنبأ بها وسوف تتحقق يقينًا. ثم قال لهم إننا لا نكتفي بتقديم هذه النبوءات التي ستؤكد صدق محمد بتحققها خلال الليالي العشر وبعد انقضائها أيضا، بل نقدم أمامكم شهادة داخلية أيضا على صدقه ﷺ وسداده وغلبته في نهاية المطاف، وهي أنكم ترون صفات وأخلاق محمد وأتباعه.. ألا تجدون أنها صفات المنتصرين لا المغلوبين؟ فكأن قول الله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ إشارة إلى أخلاق النبي ﷺ وجماعته حيث قدمها

دليلا على صدقه ودعا الكافرين إلى المقارنة بين الفريقين من حيث الأخلاق، فقال تعالى إنكم المصداق لقولنا ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:١٨-٢١)، والواضح أن أصحاب مثل هذه الأخلاق والأعمال لا ينتصرون أبدا. ثم أخبرهم الله تعالى بقوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أن أخلاق محمد وجماعته ليست أخلاق المغلوبين بل هي أخلاق المنتصرين. إنكم لا تكرمون اليتيم ولا تطعمون المسكين وتتلفون الأموال وتملكون العقار وتحبون المال إلى حدّ الجشع فتبخلون ولا تنفقونها عند الضرورة الحقيقية.. أي أن بعضكم مائلون إلى البذخ والإسراف فيهلكون ثروات الآباء وعقاراتهم، وبعضكم بخلاء يكنــزون أموالهم، أي أن بعضكم يهدر الأموال في غير محلها، وبعضكم لا ينفقها في محلها إنفاقا هادفا؛ وأنّى للأمة المصابة بهذه العيوب أن تنتصر؟! وعلى النقيض انظروا إلى هذا الأب الروحاني ﷺ وأولاده فهم على النقيض منكم تمامًا. علمًا أن الله تعالى لم يقارن بين الفريقَيْن صفة صفة، بل ذكر من محاسن المؤمنين ما يعاكس هذه العيوب الأربعة للكافرين. لقد وصمهم الله تعالى بعدم الاهتمام برعاية اليتامى وإطعام المساكين، وأنهم يسرفون أو يبخلون فلا ينفقون عند الحاجة الحقيقية، فذكر إزاء عيوبهم الأربعة ما يتحلى به هذا الأب وأولاده من محاسن وأخلاق، فقال إنهم يكرمون اليتيم ويطعمون المسكين ولا يسرفون ولا يترددون عند الحاجة عن الإنفاق في سبيل الله تعالى.

لما نــزل أول وحي على النبي ﷺ خاف أن يكون هذا اختبارا وابتلاء، فرجع إلى زوجته خديجة -رضي الله عنها- وحكى لها القصة، وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت بكل ثقة ودونما تردد: "كَلا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". (البخاري، كتاب بدء الوحي). فقولها -رضي الله عنها- يتضمن كل الأخلاق الحميدة التي كان الكافرون يفتقرون إليها، فقالت أولاً: تقري الضيف.. أي تكرم الضيف، وقد تضمن ذلك أن النبي ﷺ لا يحب المال ولا يكنــزه، بل

ينفقه في كل حاجة ضرورية حقيقية. ثم قالت: وتحمل الكلَّ.. أي تحمل أعباء الناس، وقد تضمن ذلك رعاية الفقراء والمساكين، لأن مَن لا يصلح لشيء يصبح كلاًّ على الآخرين بدلاً من أن ينهض بأعبائهم. ثم الواضح أن اليتيم لا يصلح لشيء لصغر سنه والمسكين لا يصلح لشيء لافتقاره للمال، فقولها "تحمل الكلّ" تضمّنَ إكرام اليتيم وإطعام المسكين علاوة على المعاني الأخرى. وما دام النبي ﷺ ينفق على سد حاجات الآخرين، فلا يمكن أن يكون بخيلا، وهكذا تمّ نفي البخل عنه أيضا. أما قولها: "وتكسب المعدوم" فمعناه أنك تتحلى بالأخلاق التي صارت معدومة بين القوم، وهذا تأكيد على أنه ﷺ لم يكن مسرفا. فشهادة خديجة - رضي الله عنها - دليل قطعي على أن النبي ﷺ كان متحليا بالصفات والكفاءات التي لا بد منها لمن يريد التقدم والانتصار.

ثم ذكر الله الولد بعد الوالد، وعندما ننظر إلى أخلاق هؤلاء الأولاد، فنصاب بالذهول. فبعد الإيمان بالرسول ﷺ قد أكد هؤلاء بعَملهم أنهم يتحلّوْن في أروع شكل بخُلق رعاية اليتامى وإطعام المساكين والإنفاق على الحاجات الدينية والتخلي عن الوطن تماما، ومن الدليل الخالد على ذلك أنهم ضحّوا بأوطانهم وقاطعوا أقاربهم وخاضوا غمار الموت بكل أنواعه فرحين مسرورين.

باختصار، قد قدم الله تعالى هنا شهادة الوالد وولده كليهما، وتحدى الكافرين قائلا: كيف تظنون أن أصحاب هذه الأخلاق والكفاءات لن ينتصروا؟ بالنسبة إلى النبوءات بوسعكم أن تقولوا إنها تتعلق بالمستقبل وسنرى عندما تتحقق، ولكن كيف تنكرون هذا الدليل الماثل أمام أعينكم؟ إذ تعرفون أخلاق المسلمين وأخلاقكم جيدًا، ولا يسعكم إنكار أن أخلاقكم تؤكد أنكم المهزومون وأن أخلاق محمد وجماعته تؤكد أنهم المنتصرون.

وهناك احتمال -وإن كان ضعيفا- أن يراد بقوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ آدم وأولاده جميعا.. أعني كل الآباء وكل الأولاد، وعليه ستعني هذه الآية أيها الكافرون نقدم أمامكم كل البشر كشهادة على صدق محمد ﷺ. ترون بعض الناس يعزّون وبعضهم يذلّون، وتعرفون أن محمدا ﷺ وأصحابه يتحلون بكل المحاسن التي

توجد في الذين يعزّون، وأنكم موصومون بكل العيوب التي توجد في الذين يذلّون، فليس صعبًا عليكم أن تعلموا أي الفريقيْن سينال العز والانتصار، وأيهما يلقى الخزي والهوان. وكأن الله تعالى يقول للكافرين فكِّروا في أحوال الناس جميعًا، وادرسوا أسباب رقيهم وزوالهم، وستعرفون أن بعض العيوب تتسرب إلى الآباء وبعضها إلى الأولاد، ولكن هذا الأب الروحاني ﷺ وأولاده بريئون من هذين العيبين؛ فلا توجد في محمد ﷺ العيوب التي توجد في الآباء والتي تدمر أولادهم، كما أن صحابته ﷺ مبرءون من عيوب الأولاد التي تشوه سمعة الآباء.

إذا قمنا بمطالعة أحوال رقي الأمم وزوالها وجدنا أربعة أسباب وراء ذلك، فإما أن يكون الأب ذا كفاءة، وابنه غير كفء، أو أن الأب غير كفء، والابن ذو كفاءة، أو أن كليهما يفتقر إلى الكفاءة، أو أن كليهما ذوا كفاءة. لو كان الابن ذا كفاءة والأب بدونها، فإن الابن يتأثر من أبيه أحيانا، ويهلك بسبب عيوب أبيه، وأحيانا لا يتأثر بعيوب أبيه ويكون أفضل منه. أما في حالة كفاءة الأب وعدم كفاءة الابن، فيفشل الأب حينا ولكنه يصلح ابنه بالتربية الجيدة. وفي حالة كون الأب والابن كليهما من عديمي الكفاءة، فلا ينفتح أمامهما سبيل للرقي. وأما في حالة كون الأب والابن من ذوي الكفاءة فمن المحال أن يمنعهما مانع من الترقي والازدهار. ولذلك قال الله تعالى هنا: انظروا أيها الكافرون إلى أحوال محمد ﷺ وأصحابه، فإن هذا الأب يتحلى بكل المحاسن والكفاءات، وأولاده مطيعون له كل الطاعة، فكلما تلقّوا أمرًا منه هبّوا لتنفيذه، وتكبّدوا المشاقّ واجتازوا الشدائد، ولم يرضوا أن تخرج كلمة من فم محمد ﷺ فيظلوا محرومين من سماعها والعمل بها. وإن قصة أبي هريرة ﷺ أروعُ مثال على ذلك. كان إسلامه متأخرًا، إذ أسلم في السنة العشرين من البعثة، وتوفي رسول الله ﷺ بعد ٣ سنوات من إسلامه. ولما كان أبو هريرة يعلم أنه أسلم متأخرا جدا، فقرر في نفسه عند البيعة أن يظل ملازمًا باب الرسول ﷺ على الدوام، لأن الآخرين قد ملأوا جرابهم وهو لا يزال خالي الوفاض، ولو أضاع الأيام الباقية فلن يجد شيئًا. فعكف على باب رسول الله ﷺ بحيث كان لا يحتمل مفارقته ﷺ في أي وقت حتى لا يفوته من كلامه ﷺ شيء، إلا أن يدخل

ﷺ إلى بيته حيث كان الحجاب. ونتيجة عكوفه على باب النبي ﷺ كل الوقت، كان في بعض الأحيان يصاب بالفاقة والجوع لعدة أيام حتى كان يسقط على الأرض مغشيًا عليه من شدة الضعف، حتى يظن الناس أن قد أصابته نوبة من الصرع، فكانوا يضربونه بالنعال علاجًا له بحسب اعتقاد العرب عندها. وحين هزم المسلمون جيوشَ كسرى، وجيء بالغنائم، وُجد بينها منديل خاص كان كسرى يأخذه في يده عند جلوسه على العرش. فلما وُزّعت الغنائم أُعطيَ أبو هريرة هذا المنديل. وذات مرة كان يحمل هذا المنديل، وأصابته نوبة من السعال، وخرج البلغم مع السعال، فبصق في هذا المنديل، وقال: بخ بخ أبا هريرة! وكان يعني ما أعظمَ شأنَك أبا هريرة، حيث تبصق في منديل كسرى! فسئل: ماذا تعني من قولك بخ بخ؟ فقصّ قصة إسلامه والتزامه صحبة النبي ﷺ وجوعه وفاقته وضرب الناس إياه بالنعال عند إغمائه من شدة الضعف، أما اليوم فهو يحمل في يده منديل كسرى ويبصق فيه!

تفكروا في هذا الحادث، وانظروا كيف أعطى الله النبيَّ ﷺ أولادًا ذوي تربية عالية وأخلاق سامية وذكاء وتضحية وحبّ للتعلم!

إذن، فالله تعالى يقول للكافرين إن كل مبادئ النجاح وكفاءاته متوفرة في هذا الوالد وأولاده؛ فكيف تشكوّن في هزيمتكم وانتصاره؟

لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤

شرح الكلمات:

كَبَدٍ: الكَبَدُ: الشدّةُ والمشقّة؛ وَسَطُ الرمل؛ وَسَطُ السماء. وكَبَد الرجلُ كَبَدًا: أَلِمَ مِن وجعِ كبدِه.

التفسير: لقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ مفهومان: أولهما لقد خلقنا الإنسان بحيث لا بد له من الجدّ والاجتهاد على الدوام، وثانيهما: لقد جعلناه وسط السماء.

ونظرا إلى المفهوم الأول فستعني الآية أنا خلقنا الإنسان بحيث لا مهرب له من الجد والكدّ، بل هو مُجبَر عليه. إن نواميس الكون، أو ما أعطينا الإنسان من قوى وكفاءات، تكشف حتمًا أنه خُلق لتحمل المشاق والشدائد. وعندي أن هذا جواب ثانٍ للقَسم المذكور سابقا، حيث يخبر الله تعالى أن صدق محمد ﷺ وسداده ليس ثابتًا من الدليل الذي ذكرناه من قبل فحسب، بل إن من أدلة صدقه أننا خَلَقْنَا الإنسان بحيث لا بد من تحمُّل المشاق وبذل الجهد؛ فإما أن يكون كلُّه لله تعالى أو للدنيا، وليس هناك خيار ثالث. لا يمكنه أن ينجح حال كونه معلقًا بين هذا وذلك، إنما يُنال النجاح والعزّ بطريقين: إما أن يصبح الإنسان كله للدنيا وينسى الله تعالى كلية، ويجتهد في الدنيا ويكدّ ويتعلم ويضحي لينال العز الدنيوي، أو يصبح كله لله تعالى ويمحو حبّ الدنيا من قلبه ويجتهد في سبيل الدين بجد ونشاط، إذ ليس وسطهما سبيل لنجاحه.

والواقع أن من المحال أن ينال الإنسان العزّ بدون جدّ في الدنيا وجدّ في الدين. كان المسيح الموعود عليه السلام يذكر أن الله تعالى قد جعل العزَّ في عصرنا هذا منوطا بنا بالطريقين كليهما: السلبي والإيجابي، فلن ينال العزَّ الآن إلا أتباعنا أو معارضونا. انظر مثلاً إلى المولوي ثناء الله الأمرتسري، فإنه ليس بشيخ كبير، بل يوجد الآلاف من أمثاله في البنجاب والهند، ولكنه نال العزّ والشهرة بسبب معارضته لجماعتنا. فسواء أقرّ معارضونا بذلك أم لا، إلا أن الواقع أن العز إما في معارضتنا أو في تأييدنا. وكأننا اليوم مركز الحدث حقيقة، فلن ينال المعارضون العزّ إلا بسببنا.

إذن، يقول الله تعالى هنا إن الأشياء التي قدمناها أمامكم كشهادة هي دليل بيِّن على أننا خلقنا الإنسان بحيث لا بد له من تحمُّل الشدائد والمشاقّ في سبيل النجاح. فإن مكة التي تعيش فيها والتي ستُعتبر حِلاًّ فيها والتي ستُتخذ هدفًا لكل سهم فيها، والتي ستتعرض لكل نوع من العذاب فيها، والتي لن تساوي شيئا عند أهلها.. نقول إن هذه البلدة نفسها دليل على صدق دعوانا، لأن الذين يريدون قتلك وتدميرك سيخيَّبون في مكائدهم مهما كثرت واشتدت، فيعترفون في النهاية أن مكائدهم وإنجازاتهم لم تُجْدِهم شيئا؛ وفشلُهم هذا سيكون دليلا أننا جعلنا الإنسان

بحيث لا مناص له من الجد والاجتهاد للنجاح. إن معارضتهم سطحية ومكائدهم عبثية؛ إذ لا يقدمون التضحية الحقيقية. يقولون هلموا نقتل الشخص الذي هو أهلٌ للنجاح والمكانة المرموقة، والحق أن المرء لا يصبح كبيرًا بقتل غيره، وإنما يصبح كبيرا بالتضحية وتحمُّل المشاق. فكأن الله تعالى يقول لهم: إنكم لا تكرمون اليتيم، ولا تطعمون المسكين، ولا تضحون بالأموال في مصالح الأمة والمجتمع، وتدمرون أموال التراث، أي لا تقومون بأي من الأعمال الأساسية الضامنة للنجاح، والتي فيها مشقة وتضحية، بل تسارعون إلى قتل من يقوم بهذه الأعمال!! فما ينفعكم هذا؟ فمهما حاولتم القضاء على محمد ﷺ فلن تنجحوا في ذلك، وإنما سيقضى عليكم أنتم، مما يكون دليلا على أن العزّ كله في تقديم التضحية. يكتب الله العز لمن يُدمي كبده بالجدّ والكدّ، أما الذين يهربون من التضحية ويريدون طريقا مفروشا بالورود، فلا يُكتب لهم النجاح أبدا. فكيف تظنون أن مستقبلكم مشرق، ولستم في حالة كَبَد. إن حالة الكبد تقتضي من الإنسان أن يكون كلّه لله أو كلّه للدنيا، ولكنكم لستم لله ولا للدنيا، ليس عندكم الدين ولا الأخلاق التي تبني الأمم، فكيف تظنون أن مستقبلكم مشرق؟

ومن معاني هذه الآية أننا خلقنا الإنسان في وسط السماء، علمًا أن المراد من السماء هنا الأخلاق السامية التي لا بد منها للارتقاء الروحاني، وعليه فقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يعني أن الإنسان الكامل الخلوق هو من يتحلى بالاعتدال والوسطية في أخلاقه.. أي عليه أن يكون على صلة بالسماء أولاً، ثم عليه أن تظهر أخلاقه باتزان واعتدال، فلا يتطرف في سلوكه مائلا إلى جهة واحدة فقط.

والمراد من خلق الإنسان في وسط السماء أيضا أنه ما لم يكن ذا صلة بقواعد الشرع ونواميس الطبيعة.. أي عاملا بها.. فلا نجاح له. لا بد له من العمل بالاثنين.. أي لا بد له من الاعتدال ليكون ناجحا.

أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ ﴿٦﴾

التفسير: ليس المراد من الإنسان هنا مَن خُلق في حالة كبد، بل المراد منه مَن فيه نقص وعيب، فيقول الله تعالى أيحسب هذا الذي هو إنسان في الظاهر ولكنه بعيد عن حقيقة الإنسانية كل البعد، والذي يعارض محمدا ﷺ.. أنه لن يُلقى في الضيق ولن يرى الفشل مع تركه مقامَ الكَبَد وعدم التزامه بقوانين الشريعة ونواميس الطبيعة؟ هذا ظن باطل، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. إن هذا قد تعرى من الأخلاق أولاً، وثانيا إنه يميل إلى الغلوّ فيما يوجد عنده من الأخلاق القليلة، مما يجعله سيئ الخلق. فمن الأخلاق السامية مثلاً الإنفاق عند الضرورة الحقة وإكرام اليتامى وإطعام المساكين، ولكن هذا غير معتدل في إنفاقه، فكلما أتاه مال أهلكه بإسرافه وبذخه، فكيف يظن إذن أن الله تعالى لن يلقيه في الضيق، وأنه سينجو من الدمار؟ كيف ينجو من بطش الله تعالى من يقف موقفَ خطأ وينسى المقام الذي خُلق من أجله؟ كلا، بل لا بد أن يقع في البلاء لعدم اعتداله، وسيحل به عذاب الله بدل فضله.

يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

لُبَدًا: اللُّبَدُ: الكثيرُ لا يخاف فناؤه كأنه الْتَبَدَ بعضُه على بعض. (لسان العرب)

التفسير: أي أنه يقول لقد أنفقتُ أكوامًا من المال كما يعرف الناس، فكيف يقال لي إنك لم تنفق مالا؟

أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٨﴾

التفسير: أي أيحسب هذا الإنسان أن الله تعالى لا يرى أفعاله من فوق ولا يراها العباد على الأرض، ويحسب أن كلّ ما يقوله سيُصدَّق؟ كلا، إن الله ينظر إلى قلب

المرء، لأن صلاح قلبه ضروري لرقيه أيضا. يقول إنه أنفق أكواما من الأموال، ولكن ألا يعلم الله لماذا أنفق هذا المال؟ ثم إن الناس أيضًا يدركون غرضه من إهداره لماله. لا شك أنه قد أنفق ماله، ولكن السؤال: لأي هدف أنفقه؟ فكأن الله تعالى يقول له: لا شك أنك أهلكت مالاً لُبَدًا، ولكنك كنت من الذين قيل فيهم - ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.. فكيف تنال بهذا الإنفاق درجة عند الله، أو مكانة في أعين الناس؟ كلا، لن تنال درجة عند الله كما لن يحترمك الناس، لأن الله يعلم والعبادُ كذلك أنك أهدرت مالك رياء للناس وطلبا للسمعة والجاه. تحمَّسْتَ بعض الأحيان فذبحتَ مئة جمل في يوم واحد، ولكن ما الفائدة من ذبحها ما دمتَ لم تطعم الأيتام الذين كانوا يموتون جوعا، و لم تَكْسُ المساكين الذين كانوا بلا ثياب، و لم تسدّ حاجاتِ الفقراء الذين كانوا في ضيق؟ لو كان في قلبك حبٌّ لبني جنسك، ولو كان في قلبك أثرٌ لما أصابهم من فقر وفاقة، لَما ذبحتَ مئة جَمل في يوم واحد، بل ذبحتَ جَملاً مرة وأطعمتهم، وجملا مرة ثانية وأطعمتهم، وهكذا، ولو فعلتَ ذلك لأغثتهم من ثلاثة إلى ستة أشهر متتالية. ولكنك أردت السمعة بين الناس. لقد أردت أن يأتوك على مطاياهم من أماكن بعيدة ليأكلوا على مائدتك، وإذا سئلوا في الطريق إلى أين يذهبون، قالوا: إن فلانا من الأثرياء قد أقام مأدبة كبيرة ذبح فيها مئة جمل، ونحن ذاهبون لنأكل عنده. فما دمتَ تبغي الجاه والعزّ وتكون شهيرًا بين الناس على أوسع نطاق، فلماذا يرفع الله من قدرك؟ ولماذا يحترمك الناس؟ إن الناس ليسوا بعميان حتى لا يخفى عليهم هذا الأمر الجليّ أنك لم تفعل ما فعلت من أجلهم، بل من أجل نفسك. ثم أليس الله بأعلمَ بما في الصدور؟ ألم يعلم غرضك من هذا كله؟ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.. أي أيظن أن الله تعالى لا يراه، وأن عباده لا يراقبونه. إنه ينفق ماله طلبًا للعز، ويُهلك تراثه طمعًا في الشهرة، ومع ذلك يتوقع أن يعتبره الناس محسنًا إليهم! لماذا يعتبرونه محسنًا لهم وهم يرون بأم أعينهم أن ما يفعله إنما يفعله رياءً للناس؟ ما دام لا ينفق ماله بحيث ينتفع به أكبر عدد ممكن من ذوي الحاجة، فكيف ينال العز عند الله وعند العباد؟

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٩ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝١٠

التفسير: أي اعلموا جيدًا أن معاملتكم مع الله تعالى الذي يقبل العذر الحقيقي ولا يرفضه أبدًا. لو كان عذركم حقيقيا لأنقذكم الله من الدمار. ومن الأمثلة على العذر الحقيقي الحرمان من البصر، فلو مر كفيف بحفرة وسقط فيها فلن يلومه أحد، لأن الجميع سيقول: معذور لأنه كفيف. أو إذا ضلّ الطريق أبكم و لم يستطع أن يسأل الناس فلن يلومه أحد، ويعذره الجميع؛ إذ لم يكن قادرا على أن يسأل أحدا عن الطريق. أو إذا كان عند المرء عينان ولسان أيضا، فضلَّ الطريق، ولكنه لم يجد من يدله على الطريق الصحيح، فواصل سفره حتى وصل إلى عرين الأسود أو وادي الفِيَلة فافترسته الأسود أو داسته الفيلة فإنه أيضا سيُعتبر معذورا، إذ سيقول الناس لم يجد من يدله على الطريق الصحيح، وإن كان عنده عينان ولسان.

باختصار، يُعتبر المرء معذورا إذا كان كفيفا لا يرى، أو أبكم لا يمكنه أن يسأل عن الطريق، أو لا يجد هاديا يدله على الطريق الصحيح.

بيد أن القانون الطبيعي لا يحمي الإنسان من عواقب خطئه رغم كونه معذورًا حقًّا. فمثلاً إن الكفيف معذور ولكنه لو مر بحفرة ليلاً أو نهارًا، فإن القانون الطبيعي لن يحميه من السقوط فيها. وإن الأبكم معذور كلية لو ضل عن الطريق إذ لا يستطيع السؤال عن الطريق، ومع ذلك لا ينقذه القانون الطبيعي من عقوبة انحرافه عن الطريق. ولو ضلّ الطريق مَن يقدر على الإبصار والتكلم فوصل إلى عرين الأسد، لأنه لم يجد من يدلّه على الطريق السليم، فلا شك أنه معذور، ولكن القانون الطبيعي لن يدفعه عن العرين بعيدا، أو لن يدُعّه عن وادي الفيلة دعًّا، لينجيه من براثن الموت. أما الله تعالى فيعلن أننا نعامل العباد في مجال الروحانية وقوانين الشريعة بطريق آخر، فنقبل من الإنسان عذره الحقيقي، كما ننقذه من العقوبة أيضا. فإذا لم يكن للعباد عيون روحانية اعتبرناهم معذورين و لم نعذبهم، وإذا كانوا بُكْمًا في الأمور الروحانية قبلنا عذرهم و لم نعذبهم، وإذا لم يُبعث هادٍ

إلى قوم اعتبرناهم معذورين ولم نعذبهم أيضا. فيا أهل مكة البلدِ الحرامِ لو لم ننـــزل لكم بواسطة محمد قانونًا روحانيا يدلكم على الصراط المستقيم ووجدناكم تائهين كما كنتم من قبل، لقلنا إنهم معذورون إذ لم يأتهم هدى، فيجب أن لا يعاقَبوا. ولكنا جعلنا لكم عيونا، وآتيناكم لسانا، وجعلنا لكم طريقا للرقي، ثم بعثنا لكم من يدلكم على هذا الطريق، ومع ذلك تؤثرون الضلال على الهدى، فكيف يمكن أن تنجوا من عذاب النار؟

لقد ذكر الله هنا ثلاث وسائل للنجاة من الهلاك: الأولى عيون للرؤية، والثانية لسان وشفتان للسؤال، والثالثة طريق الرقي. أي لا بد للنجاح من أن تكون الغاية صحيحة تؤدي إلى الرقي، وأن يعمل المرء وهو مفتّح العين، وأن يسأل الآخرين إذا لم يعرف شيئا. يقول الله تعالى ما دمنا قد هيّأنا لهم الوسائل فما الذي يمنعهم الآن من الرقي؟ لقد أعطيناهم العيون للرؤية واللسان مع الشفتين للسؤال، وكان الطريق الصحيح غائبًا فبعثنا محمدًا ليدلهم على الطريق الذي يصعد بهم. فأي عذر بقي عندهم بعد ذلك؟

لقد ذكر الله تعالى هنا الشفتين مع اللسان، لأن الشفة تحبس الهواء، فيرتفع الصوت. إن مَن تسقط أسنانه لا يستطيع أن يتكلم بصوت عال. لقد سقطت لي سنّ واحدة، وعندما أخطب أشعر أحيانًا أن الهواء يخرج من مكان هذه السن الفارغ، ولا أنطق بعض الكلمات بشكل سليم. وكان الخليفة الأول ﷺ يقول إن الناس لا يحبّون الشفاه الكبيرة، ولكن الله تعالى قد جعلها رحمة كبيرة لي، لأن أسناني كلها قد سقطت، ومع ذلك فصوتي رفيع بسبب شفاهي الكبيرة.

فالله تعالى يقول نحن آتينا الإنسان لسانًا للكلام وأعطيناه شفتين لكي يرفع صوته إذا كان سامعه بعيدًا.

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١١﴾

التفسير: النجد هو الطريق المرتفع في الجبل، ولكن المفسرين قالوا إن النجدين هما طريق الخير والشر، كما قال ابن عباس وابن مسعود، ومفهوم الآية أننا أخبرنا الإنسان بطريق الخير والشر، ولكنه لم يتبع طريق الخير.

وعندي أن (النجدين) لا تعني طريق الخير والشر، وإنما تعني طريق الرقي الديني والمادي.. ذلك لأن طريق الشر لا يسمى مرتفعًا، إذ لا يجد الإنسان صعوبة في سلوكه ولا ينال أي عزّ أيضًا، والطريق يوصف بالارتفاع لهذيْن السببين، أعني أن الإنسان يعاني في الصعود فيه وينال العز بالسير فيه. إذن، فقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ يعني أننا قد فتحنا أمام الإنسان طريق الرقي المادي وطريق الرقي الروحاني بواسطة محمد ﷺ، فالذين يؤمنون به بصدق عاملين بأحكام الإسلام كلها بخلوص نية، فلن يرتقوا في الروحانية ولن يفوزواً برضى الله لحسن أخلاقهم فحسب، بل سوف يُنعم الله عليهم بنعم الدنيا أيضا.

وبالفعل نرى أن أصحاب الرسول ﷺ لم ينالوا الدين فقط، بل الدنيا أيضا، حتى وضع الله في أيديهم زمام الحُكم أيضًا. وهذا ما ينبه الله تعالى الكافرين إليه، إذ يقول تحتقرون اليوم مَن يؤمن بمحمد وتضحكون عليهم بأهم فتيةٌ جَهَلة مهانين، ولكنكم لا تعرفون أن هؤلاء الذين تزدروهم اليوم سيصبحون ملوك الدنيا ببركة إيمانهم بمحمد ﷺ، وستُفتح عليهم أبواب الرقي المادي والديني. وبالفعل قد حقق الله هذا الوعد، وأعطى الصحابة المُلك، وهكذا قد هُدوا إلى النجدين.

ينبه الله تعالى الكافرين أنه كان بوسعكم أن تحرزوا الرقي الديني والروحاني باتباع الإسلام. إن الفوز برضى الله تعالى بالتخلق بأخلاق حميدة، وجَمْعَ شْمل الأمة وتقوية البلاد سياسيًا بخدمتها كانت كلها يقينية. لقد أعطيناكم العيون واللسان ومهدنا أمامكم مجالا واسعا للرقي الديني والمادي من خلال الإسلام، إلا أنكم لم تتبعوا هذا الطريق الذي يؤدي إلى فلاحكم، بل ظللتم تائهين في طريق الهلاك والدمار.

فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

اقتحمَ: مِن معاني الاقتحام الانهماك في عمل بإغماض النظر عن عواقبه، فقد ورد في المعاجم: اقتحمَ العقبةَ: رمى نفسَه فيها بشدة ومشقة. وقَحَمَ في الأمر: رمى بنفسه فيه فجأةً بلا روية. (الأقرب)

العَقَبة: مَرْقًى صعبٌ من الجبال؛ والطريقُ في أعلاها. (الأقرب)

التفسير: أي أننا كنا قد هيّأنا أسباب رقي العرب ببعثة محمد ﷺ، فكان بإمكانهم أن يصلوا إلى الله تعالى وينالوا الدنيا أيضا. كان بإمكانهم أن يفوزوا برضى الله ويبلغوا ذروة المدارج الروحانية، كما كان بوسعهم أن ينالوا الحُكم بجمع شملهم وتقوية سياسة بلادهم. فكان ينبغي لهم أن يضحوا بأرواحهم كالفَراش حول الشمعة المحمدية، ويخرّوا ساجدين على عتبة الله شكرًا على أنه قد منّ عليهم منّة عظيمة، حيث رفعهم من الثرى إلى الثريا. ولو أنهم فكروا حقًا لظلّت ألسنتهم تلهج بذكر الله تعالى بسبب مِنَنه، فرحين بحظّهم السعيد، إذ ظهر بينهم ذلك الموعود الذي كانوا ينتظرونه منذ ٢٥٠٠ سنة، والذي كان الغاية من تأسيس مكة وثمرةَ أدعية إبراهيم وإسماعيل. كان واجبهم أن يقفوا إلى جانبه غير آبهين بالعواقب كالمجانين، ويريقوا دماءهم بدل قطرة من عرقه، ولو أنهم فعلوا ذلك لنالوا الدين والدنيا معًا، وكان لهم نصيب في المُلك الروحاني، كما سقطت الدول المادية في أحضانهم. ولكنهم للأسف خافوا اقتحام العقبة كما يخاف الضعيف النحيف صعودَ قمة الجبل، فيظل واقفًا أسفل الجبل خوفا من الإرهاق وانقطاع الأنفاس. لقد فَقَدَ هؤلاء الهمة ولم يتطلعوا إلى الرقي الذي سيرفع مكانتهم. لقد خافوا من الصعود وتجنبوا المشقة والتعب ورأوا طريق الدعة سهلاً، فاتبعوه.

وفي الآية التالية قد بين الله تعالى المراد من قوله إنه هدى الإنسان طريقا مرتفعا، فخاف الصعود إلى الذروة.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات

فَكُّ رقبةٍ: أي تحرير العبيد.

التفسير: لهذه الآية مفهومان: أوّلهما أنه كان من واجبهم أن يسعوا لتحرير الأرقاء، ولو أنهم عملوا على تحريرهم لنالوا الحرية على صعيد الأمة، ولكنهم بدلًا من أن يعملوا على تحرير الأرقاء روّجوا للرقّ وصبّوا الظلم على العبيد المسلمين.

الواقع أن الإسلام قد أمر بتحرير العبيد منذ البداية، لأن تحريرهم ضروري جدًّا لرقي الأمة. لا يمكن أن تزدهر أمة في الدنيا من دون إقامة المساواة في المجتمع ومحو التمييز الطَبَقي. والرقي الحقيقي والسلام الدائم محال في الدنيا ما بقي التمييز بين الصغير والكبير. ستفشل كل التدابير للرقي والازدهار طالما ظلت هذه الفتن في الدنيا و لم تتّحد الجهود للقضاء عليها. إن هذا التمييز نفسه يؤدي إلى الرق الذي يهدف الإسلام إلى محوه، والذي قد رفع صوتَه ضدّه منذ أول يوم. لو بقي هذا التمييز كما هو فإن كبار القوم سيظلون يريدون لأنفسهم المزيد من العز ثم المزيد ثم المزيد حتى يأتي يوم يظنون فيه أنه ليس في الدنيا من هو أكبر منهم.

عندنا في الهند زعيم كبير يظن أنه ليس هناك زعيم أكبر منه. وهذه العُقدة تظل راكبة رأسه دائمًا، فيظل مهتما بإظهار كبريائه وإعزازه على الدوام. ذات مرة عُقدت جلسة في مدينة شِمْله" لكبار زعماء الهند، ودُعيتُ أنا أيضا ببرقية. كان السيد غاندي مُضرِبًا عن الطعام عندها قائلا إنه سيموت جوعا إذا لم يتم اتحاد الهندوس والمسلمين، ولما كانت هذه قضية هامة، فقد اجتمع هناك زعماء مختلف الطوائف والأقوام من كل أنحاء الهند من مومباي، مدراس، سي بي، البنغال، البهار، أوريسا، وسرحد وغيرها من الولايات الهندية الأخرى، وكان عددهم قريبا من ١٥٠ زعيما على ما أظن. ولما رأى هذا الزعيم كل هؤلاء القادة الكبار، أخذته عقدة الكبرياء، فلما جاء دوره لإلقاء كلمته وجدتُه يكرر جملة مفادها أن هذه القضايا الهامة لن تفصلها هذه الجموع المحتشدة، وإنما يفصلها قادة القادة أمثالنا.

فكان يشق عليه أن يسمي الناس هؤلاء القوم قادة، مع أنه لم يحضر في ذلك المؤتمر قادة طائفة واحدة، بل حضره ممثلون عن الهندوس والسيخ والمسلمين كلهم.

فكما أن عقل الفرد يصاب بالغرور، كذلك تصاب عقول الشعوب أيضًا بهذه العقدة أحيانًا؛ فتأبى إلا أن تعتبر الشعوبَ الأخرى كلها كالعبيد وأسوأ من المنبوذين. فقبل أيام كانت هناك ضجة في الجرائد أن الناس أخذوا يطلقون لقب "العلاّمة" على كل من هب ودب ومَن لا يقدر على فكّ الخطّ أيضًا، مع أن هذا اللقب كان لا يُطلق مِن قبل إلا على رجال بمكانة الشاعر "إقبال" مثلاً؛ ففي اجتماع عُقد في مدينة "لُدْهيانه" دعوا كل من خطب فيه "العلامةَ"، مع أنه لم يكن يتقن قراءة الأوردو من هؤلاء الخطباء أحد.

هذا ما ورد في الجرائد. ونتيجة هذا المرض، أن الذي يكون علاّمةً حقًا يناديه هؤلاء المغرورون بلقب آخر ليسقطوه من أعين الآخرين، وهكذا لا تتسع شقة الكراهية بين صغار القوم وكبارهم فحسب، بل يظن البعض أنهم كبار القوم والآخرون عبيدهم.

أتذكر طريفة حصلتْ معي عندما كنت طفلاً، وكنتُ أنا و "مير محمد إسحاق" رضي الله عنه بدأنا نتعلم على يدي حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه. لا شك أن كل أستاذ يُحترم عادة، ولكن حضرة المولوي رضي الله عنه كان يتمتع بمكانة مرموقة في الجماعة، وفي تلك الأيام إذا قال البعض: هذا ما قال "حضرة المولوي"، فكان يعني به حضرة المولوي نور الدين أو المولوي عبد الكريم السيالكوتي رضي الله عنهما. فكان الأمر يسبب لمير محمد إسحاق إشكالا ومضايقة. فصبر فترة ثم قال في يوم غاضبًا: ما هذا؟ عندما نسأل الناس مَن قال هذا الكلام يقولون دائمًا: حضرة المولوي، مع أنهم يقصدون تارةً المولوي عبد الكريم، وتارةً المولوي نور الدين. هذا الأسلوب ليس سليما. في المستقبل إذا قال المولوي عبد الكريم شيئًا فأقول قاله: حضرة المولوي، وإذا قال المولوي نور الدين شيئا أقول: قاله حضرة الجولوي، وهكذا أميّز بين الاثنين.

لا شك أن هذه كانت سذاجة الطفولة، ولكن الواقع أن البعض إذا نالوا عزًّا احتقروا الآخرين باستمرار حتى اعتبروهم عبيدا.

فالحق أن تحرير الرقيق هو تحرير القوم كلهم. هذه ليست قضية عشرة أشخاص أو عشرين شخصًا، بل الواقع أن شخصية الأمة لا تتطور إلا بالقضاء على هذه الامتيازات القائمة على أسس خاطئة. وكذلك لا يمكن الفوز برضى الله تعالى إلا بتحرير العبيد أو بالسعي الحثيث لتحريرهم.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هو إصلاح العقائد الخاطئة وكسر قيود الطقوس والعادات الفارغة، لقول الله تعالى عن الكافرين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾(الرعد: ٦).. حيث أطلق الله تعالى لفظ الأغلال على الوثنية والكفر، وبين أنها بمنــزلة أطواق تُثقل أعناق القوم. وكذلك قال الله تعالى عن اليهود ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٨).. أي أن رسولنا هذا جاء ليضع عنهم ثقلهم ويفكّ أغلالهم. فهاتان الآيتان توضّحان أن كلمة ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تعني تحرير الرقيق، كما تعني إبطال العقائد الخاطئة وإزالة أعباء الطقوس الفارغة والنظم الزائفة التي يُثقَل بها القومُ مِن قِبل كبار الظالمين كالأحبار والرهبان والجبابرة، فلا يقدر القوم على رفع رؤوسهم.

إذن قوله تعالى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يعني أننا أردنا تحريرهم من رقّهم، ولكنهم لم يجرؤوا على كسر أغلالهم، ولا على تحرير رقيقهم ولا على النهوض بالطبقة الدنيا من مجتمعهم ولا التحرر من الطقوس والرسوم ولا التخلي عن العقائد الباطلة.. فكانت النتيجة أنهم ظلوا في الحضيض.

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

مَسْغَبة: سَغَبَ الرجلُ سَغْبًا وسُغوبًا وسَغَبًا وسَغابةً ومَسْغَبَة: جاعَ (الأقرب). فالمسْغَبَة: الجوع.

التفسير: أي لو كان عند هذا الإنسان حب صادق لليتامى والمساكين وإحساس سليم بإزالة معاناتهم لأطعمهم يوم الجوع، أي رعاهم في أيام القحط والمجاعة والفقر

وهيأ لهم الطعام والغلال. صحيح أنه كان يذبح ١٠٠ جمل في يوم واحد، ولكن عمله هذا كان في غير محله، إذ كان عليه أن يذبحها من أجل اليتامى والمساكين، فيقيم لهم مأدبة ويطعمهم ويزيل جوعهم. ولهذه الحكمة نفسها قال الله تعالى هنا ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.. أي أننا قلنا من قبل أن هذا الإنسان كان ينفق ماله رياءً للناس طلبًا للجاه، فكان لقائل أن يقول: ربما كان يطعم اليتامى والمساكين أيضا، ودرءًا لهذه الشبهة قال الله هنا إن هذا الإنسان كان ينفق ماله وينحر إبله بلا شك، ولكن ليس في يوم الجوع.. أي ليس حين يكون الجياع بحاجة إلى طعام، بل كان ينحر ١٠٠ من الإبل في يوم واحد كلما ركب رأسَه جنونُ السمعة والرياء، مع أنه لو فعل ذلك طبقًا للضرورة الحقة لنحر لإطعام أصدقائه جملا واستبقى ٩٩ جملا لإطعام اليتامى والمساكين لكيلا يعانوا من الجوع والفاقة. فحيث إنه لم يهتم بضرورات المجتمع، وأضاع ماله في غير محله فلا يستحق المدح عندنا ولا يحظى باحترام الناس.

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

التفسير: لقد أضاف الله تعالى هنا كلمة ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، لأن الإنسان يكون مضطرًّا لأن يُسكِن اليتيمَ ذا القرابة في بيته، وينفق على أكله وشربه ولباسه وتعليمه وغير ذلك؛ بغض النظر أيقوم بذلك طوعا أو كرها، إلا أن مسؤولية القرابة تفرض عليه أن يرعى يتيما ذا قرابة. ولكن الله تعالى يقول هنا إنكم لا تطعمون يتيما ذا قرابة أيضًا، مما يدل على سوء حالكم إلى حد خطير. إذ لا تعني هذه الآية أن على المرء أن يطعم اليتيم القريب ولا حاجة له أن يطعم اليتيم الذي لا قرابة له به، بل المراد أن هؤلاء لا يُرجى منهم أن يرعوا اليتامى الأقارب ويسدّوا حاجاتهم، فكيف يرجى منهم أن يهتمّوا بأداء واجبهم نحو اليتامى الآخرين؟

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٧﴾

التفسير: أي: مسكينا ذا لصوق بالتراب لفقره. وله مفهومان: أوّلهما المسكين الذي قد ساءت حالته المادية جدا، إذ يقال في الأردية أيضا فلان قد صار ترابا.. أي أصبحت حالته يرثى لها جدا. والمفهوم الثاني أنه مسكين جمع بين الضعف المادي والبدني معًا، فهو فقير مدقع كما هو مريض ضعيف لا يقدر على المشي حتى يذهب إلى أبواب الأغنياء للسؤال. لقد ازداد ضعفه وهزاله بحيث أصبح ملقى على الأرض، فلا يقدر على الحراك والسؤال، كما لا يلوي عليه أحد. فكيف يسأل الله تعالى مِن فضله مَن لم يترحم على هؤلاء المساكين المرضى الضعفاء غير القادرين على السؤال؟ وكيف يحترمه الناس؟ لا شك أن الفقراء الذين لا يعملون عادة لكونهم معذورين، يرجى منهم أيضًا وقت الشدائد أن يعملوا ليأكلوا، إلا أن مِن الفقراء مَن لا بد للإنسان أن يحمل أعباءهم، كاليتيم القريب أو الفقير المدقع الضعيف غير القادر على العمل. ولكن هذا الكافر لا يعتني بمثل هؤلاء الفقراء الضعفاء أيضا عند الشدة، مع أن أخلاق الإنسان إنما تُختبر وقت الشدائد.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٨﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن العمل الحسن وحده لا يكفي، بل لا بد معه من الإيمان، وكذلك لا بد من الحماس لنشر الخير بين القوم. والإيمان ليس هنا بمعناه المعروف، بل المراد الإيمان بأهمية أعمال الخير المذكورة سابقا.. أي بالإضافة إلى القيام بتلك الأعمال لا بد للمرء أن يكون موقنًا بأهميتها أيضًا ولا يقوم بها نفاقا، لأن العمل المصحوب بالنفاق لا يولد في صاحبه تلك البشاشة التي تساعده على القيام به على ما يرام، إنما يقوم المرء بالعمل بحماس وبشاشة إذا كان مؤمنًا بضرورته وصحته.

والمعنى الثاني هو أن هؤلاء لو أخلصوا في أعمالهم لتيسّرتْ لهم التقوى، وبالتالي وُفِّقوا للإيمان. وهذا يعني أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ جاء بمعنيين، أحدهما: "بالإضافة إلى ذلك"، والثاني "بعد ذلك". وكلاهما ثابت لغةً. فنظرًا إلى المعنى الأول ستعني الآية ما ذكرتُه من قبل أي أن يقوموا بهذه الأعمال مؤمنين بأهميتها.. أي أن العمل لا يكتمل إلا بالإيمان بأهميته، لأن النفاق ينخر جذر العمل. أما نظرًا إلى المعنى الثاني فستعني الآية أنهم لو قاموا بهذه الحسنات لصاروا مؤمنين.. أي لآمنوا بالرسول ﷺ نتيجة حسناتهم هذه، لأن العمل الذي يتم بصدق نية يؤدي إلى الإيمان. كان حكيم بن حزام صديقًا للنبي ﷺ، حتى قبل دعواه، فلما أسلم قال للنبي ﷺ: أينفعني ما تصدقت به في زمن كفري أم ضاع كله؟ فقال ﷺ: "أَسْلمتَ على ما أَسْلفتَ من خير" (البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل رحمه في الشرك).. أي كيف يضيع ولماذا؟ لقد نلتَ نعمة الإيمان نتيجة تلك الخيرات.

ثم قال الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.. ونظرًا إلى المعنى الأول لِـــ (ثم) سيكون المراد من قول الله هذا أنهم لو آمنوا بأهمية هذه الأعمال إلى جانب القيام بها، ولو أنهم لم يكتفوا بالقيام بها، بل دعوا الآخرين أيضا لأدائها بصبر وثبات، وحثّوهم على الرحمة بالناس، لكان مباركا لهم. علمًا أن التواصي يعني الوصية مرة تلو مرة، والصبر يعني الثبات والدوام، والمرحمة يعني الرحمة.

أما بحسب المعنى الثاني لِـــ (ثم)، فالمراد أنهم بعد القيام بهذه الأعمال لا بد أن يوفقوا للإيمان بمحمد ﷺ وأن تقوى فيهم عاطفة الخير لدرجة أنهم بدلاً من ظلم الآخرين يتحمّلون الظلم بكل شوق بعد الإيمان بمحمد ﷺ، ويحثّون الآخرين على الصبر على اضطهاد القوم، ثم مع صبرهم على الظلم يعاملون أعداءهم برحمة، وينصحون أصدقاءهم أيضا بألا يغضبوا على أعدائهم، بل يرحموهم رغم ظلمهم.

أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات

المَيمنة: البركةُ؛ جهةُ اليمين. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم إن الذين يُؤتَون سجلَّ أعمالهم في يمينهم يوم القيامة سينالون العزة ويدخلون الجنة، وعليه فيكون لقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مفهومان: أولهما أن الذين صفتهم ما قد ذكرنا من قبل والذين يعملون بأحكام الله تعالى سيكونون ممن يؤتون سجل أعمالهم في يمينهم؛ أما المفهوم الثاني فهو: أن الذين يتبعون أحكام الله تعالى عن طيب نفس سيرثون بركات الله تعالى.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

المَشْأَمة: الشِمالُ؛ النحسُ. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية أيضا مفهومان: أولهما أن الذين يكفرون بأحكام الله تعالى سيكونون من الذين يُؤتَون سجلَّ أعمالهم في شمالهم، والثاني أن هؤلاء سيكونون نحسًا لأنفسهم ولقومهم، وسيكون مآلهم الفشل.

عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

المُؤْصَدة: المُؤْصَدُ: المُطْبَقُ والمُغْلَق. (الأقرب)

التفسير: ربما لم يدرك الأولون حقيقة النار المُؤْصَدة كما ينبغي، ولكن هذا الأمر لم يعد صعبًا على الفهم في العصر الحاضر، لأن العلوم الحديثة قد كشفت أن أشد النار حرقةً ما يكون مغلقا من كل جانب. تكون نار الكير شديدة لكونها مغلقة من كل جهة، حيث تخرج من ثقب صغير فقط، فتكون شديدة الحرارة وتحول الشيء رمادا.

لقد بين الله تعالى هنا مصير الكافرين وأخبر أن هؤلاء يعارضون الإسلام اليوم ويؤذون المسلمين أشد الأذى، فليتذكروا أنهم سيُلقَون في نار مغلقة من كل جهة فتحرقهم وتحوّلهم رمادا. بمعنى أن كفار مكة سيُدمَّرون في حربهم ضد الإسلام والمسلمين بحيث لن يبقى لهم أثر. وبالفعل نرى أنهم هلكوا وبادوا بحيث لا تجد اليوم في العالم كله أحدًا مِن عَبَدةِ اللات ومناة والعزى. لقد سحقهم الله برحى عذابه وصبّ عليهم غضبه بحيث لم يبق لهم أثر في الدنيا.

ملحقات

وَضَعَ الأصلَ الأردو: الأستاذ سيد عبد الحي شاه

ناظر التصنيف بالجماعة

(١)

فهرس المواضيع

الله جَلَّ جَلَالُهُ

إن الله وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ (الحديث) ٦٤٤
نظام الكون دليل على وجود البارئ تعالى ١٦٧، ١٧٠
مكة المكرمة دليل على وجود الله ﷻ ٧٥٩
حقيقة رؤية الله ﷻ ٤١٠، ٤١٥
وسيلتان لرؤية الله ﷻ ٤١٥، ٤١٦
المقارنة بين النبي ﷺ وبين موسى حول رؤية الله ١٥٦
ضرورة كلام الله ﷻ ١٧
الفرق بين كلام الله ﷻ وغيره ٢٥٨
لا يقدر الإنسان أن يكلم الله ﷻ مشافهة ٧٧
يُثبت اللهُ صدق كلامه بنفسه ٩٩
الأسباب والأقدار بيد الله ﷻ ١٨٩
تدبير الأمر في قبضته ﷻ ١١٥
هل يأتي الخير والشر من الله ﷻ؟ ٧٢٦، ٧٣٠
غيرة الله ﷻ على أنبيائه ٢١٤
العناية الخاصة بالرسول ﷺ ٥٢٢
ظهور ملكوت الله ﷻ في الأرض من خلال الأنبياء ٤٨٨
من سنة الله أنه لا ينصر دينه بالكبار المشاهير ١٩٤
فلسفة قَسَمِ الله في القرآن ٩٠، ١٠٠
حقيقة خلق الإنسان على صورته جَلَّ جَلَالُهُ ٣٤٩
عاقبة خدامه ﷻ ٧٥٢
لا بد من الجهد لوصال الله تعالى ٤٤٣
كل العيوب هي نتيجة الابتعاد عن الله ﷻ ٦٣٣
معنى "المحجوب عن الله ﷻ" ٤١٠
التدريج في التجليات الإلهية على الإنسان ٤١٦
شُبِّهَ حُبّ الله بالخمر ٧٢

صفاته تعالى

لله تسعة وتسعين اسما (الحديث) ٦٤٤
لا إيمان بدون معرفة صفات الله ٤٠٨
تعلُّم صفات الله بتعمق يجعل الإنسان تقيا ٦٤٤
معرفة صفات الله يزيد المرء عملاً ٤٠٨
علم صفات الله يبني الأخلاق السامية ٤٠٨
مشاركة الإنسان في صفات الله ظاهريةٌ فقط ٥٢٠
صفات الله ﷻ مغايرة لصفات غيره ٥٢٠
ظهور صفات الله على الرسول ﷺ مباشرة ٥٢٢
هو رب العالمين ٣٧٧، ٣٧٨
اشتراك غير الله في صفة الرب ٥١٦
هو الرحيم ٧٥
وسعتْ رحمته كلَّ شيء ٤٨
إن الله رحيم ويجزي الإنسان أكثر من عمله ٧٤
جزاء الأعمال يتعلق بالصفة الرحيمية ٧٥
المسيحية تجمع بين رحمة الله وعجزِهِ عن المغفرة ٣٤٤، ٣٤٥
غفران الله لا يجرّئ على الذنوب ٣٤٣
الرحمن ٧٥
الرزاق ٥٢٣
المحيي ٥٢٦
الشافي ٥٢٧
الأعلى ٥١٦
الغفور والودود ٤٨٧
ذو العرش المجيد ٤٨٨
الفرق بين علم الله وعلم مخلوقه ١٦٢
علم الله التام دليل على القيامة ١٦٢، ١٦٣
صفة الخلق شبيهة بالقيامة ١٦٢
التشابه بين الخلق والإحياء الروحي ١٦٢
إظهاره لغناه ٢٣٥
سعة غفران الله ﷻ ٣٤١، ٣٤٢
لقاء الله
ذريعتان للقاء الله تعالى ٤٤٤
ضرورة الجهد الشديد لأجل لقاء الله ٤٤٣

ضرورة عبور نهر آلام الجحيم لقاء الله ٤١-٤٤٤
يحظى القوم بلقاء الله حين يتفانى كل فرد منهم ٤٤٥

الآخرة:

ثبوت وجود الدار الآخرة ٢٢
إن الدار الآخرة لهي الحيوان ٢١
علماء الهيئة يؤمنون بالقيامة ٢٧
هل حياة الآخرة تكون بجسد مادي ٧٨

الآداب (انظرْ في الأخلاق)

آريا سماج (انظرْ في الهندوسية)

الآية/الآيات

العصا أكبرُ آيات موسى عليه السلام التسع ١٥٨
تفسير "وإذا الشمس كورت" عند الجماعة الأحمدية ٢٦٤،٢٦٥
"وإذا الرسل أُقِّتت" تشير إلى بعثة المسيح الموعود عليه السلام ٢٢٤
تفسير عمر رضي الله عنه للآية: إذا النفوس زوِّجت" ٢٨٢

الابتلاء/ الاختبار

الابتلاء ضروري للرقي (المسيح الموعود) ٤٨٠
الابتلاءات الآتية بحسب الإنباء الإلهي تقوي المؤمنين كثيرا ٢٦٠
نوعان للابتلاء عند المسيح الموعود عليه السلام ٤٤٧
طريقان للابتلاء ٧٢٥
هدفان من الابتلاء ٧٢٢، ٧٢٥
مقام الابتلاء ومقام الجزاء ٧٣٤

الإحسان

الإحسان الواسع النطاق ٦١٥

الإحياء الروحاني (انظر الحياة)

الأخلاق/الخُلق

"تخلَّقوا بأخلاق الله" (الحديث) ٣٤٩
الخُلق هو اعتدال القوى الإنسانية (المسيح الموعود عليه السلام) ٥٣٣
اعتدال الأخلاق يؤدي إلى النجاح ٥٢
تتطور الأخلاق الفاضلة نتيجة العلم بصفات الله ٤٠٨
أساس الإسلام الأخلاق والعواطف الإنسانية ١٢٦
أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الفاضلة ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٩
أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم في السراء والضراء ٧٣٥
الله يثني على أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ٢١٤
المقارنة بين أخلاق الأنبياء والفلاسفة ٤٠٨،٤٠٩
أخلاق الصحابة رضي الله عنهم العالية ٤١٩
تطوير أخلاق الصحابة بالمحن ١٤٨
غنى النفس عند الصحابة ٤٢٠
أخلاق الحاكم المثالي ٣١٤،٣١٥
حُكْم الخلفاء أخلاقي لا كحُكم الناس ١٢٦
لا ينال الحُكمَ إلا ذوو الأخلاق العالية ١٣٣
أخلاق المسلم المثالي ٦١٣
الفرق بين أخلاق الكفار والمسلمين ٥١
لمحة عن أخلاق الكفار ٢١٣، ٦٣٢
تتطور الأخلاق بإحياء التقاليد البطولية للأمة ٢٦٧
أخلاق الأمم تتطور بجهود سنوات طويلة ٧٥٠
سبب انحطاط الأخلاق ٤٠٥،٤٠٦
نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم صحابته من التفاخر بالانتصار يوم الفتح ١٨٥
ضرورة الاهتمام باليتامى والمساكين ٧٣٧
حثّ الإسلام على الوفاء بالعهود ١٧٥
آداب الاستماع إلى النبي ٢١٠
آداب مجلس الدعوة والتبليغ ٢٠٨
النهي عن مقاطعة الحديث ٢٠٤
آداب المسجد ٧١٣
آداب القبور ٧١٣،٧١٤
ضرورة استئذان صاحب البيت قبل الدخول ٣٤٤

إذا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غير أهله فانتظر السَّاعةَ (الحديث) ٢٥٥

الأرض (راجع أيضًا الخَلق والجيولوجيا)

خلق الأرض ١٧٨
قيام الأرض مستحيل دون النظام الشمسي ١٧٨
منافع الأرض ٣١
أهمية الجبال في الأرض ٣٤
دور الشمس في خصوبة الأرض ٣٠
دور الكواكب في تحضير الأرض لبقاء الإنسان ١٧٢

الإسراف (انظر في المال)

الإسلام

الإسلام شكلاً ومضمونًا ٢٦٤
ضرورة المجددين لإحياء الإسلام ٤٧٠،٤٧١
نيل مقام النبوة محال إلا بالفناء في الرسول ﷺ ٦٩٣

إحداثه انقلابا جذريا

إحسان الإسلام إلى العرب ١٧٥،١٧٦
إسلام بعض الأمراء والعائلات الشريفة ٢٢٠
صحابة من فقراء مكة وأغنيائها وفِّقوا لخدمة الإسلام ٢٣٣
ثورة إحيائية بالإسلام ١٩٥
الرقي الديني والدنيوي يُنال باتباع الإسلام ٨٠٢

صدقه

آية عظيمة على صدق الإسلام ٦٠٢
الأحداث المهمة في صدر الإسلام لم تكن صدفة ١٥٥

تعاليمه

ميزات تعاليم الإسلام ١٢٧،١٢٨
الاهتمام بالفطرة الإنسانية في تعاليمه ٥٧٣
الأخلاق والمشاعر أسسُ الإسلام ١٢٦
سعة تعاليم الإسلام نظرًا إلى طبائع مختلفة ١٢٧،١٢٨
تعاليمه المحايدة لكل شريحة وطبقة ١٢٧
هو حركة خالية من التعصب القومي والقبلي ١٢٧
الإسلام دين عالمي ١٢٧
تعاليمه المتوازنة والمتكاملة ٥٣٩
لمحة عن الحُكم الإسلامي ٦١٧
الإسلام والرقّ ٨٠٤
حثه على احترام العهود ٣٨
التطور الذي يريده الإسلام للنساء ٦٦
الرحمة غالبة في تعاليم الإسلام ٣٧، ٥٧٢
عنايته بالحيوانات والمواشي ١٧٩،١٨٠
أعمال الإنسان تسجَّل بحسب الإسلام ٣٥٣
حقيقة تيسير العبادات الإسلامية ٥٧٣
لا تصوّر للسنّة النبوية في الديانات الأخرى ١٤٢
"الأعلى" و"الغاشية" قويتا الصلة بالحياة الاجتماعية ٥٧٦

أنباء غلبته

نبأ غلبة الإسلام وعظمته ٣٥،٣٦ ،١٨٩
أنباء غلبة الإسلام في بداية الفترة المكية ١٢٨، ٥٧٥، ٦٢٩
في "المقطّعات" أنباء مهمة عن غلبة الإسلام ٦٨٣
غلبة الإسلام والقيامةُ إحداهما دليل على صدق الأخرى ١٦٠،١٥٠
هجرة المدينة إشراق الفجر بعد الليالي الحالكة ٦٦٨
آثار الفتح ظهرت بُعيد صلح الحديبية ٣٩
يقين كفار العرب بغلبة الإسلام ١٠
غلبة الإسلام في الفترة الأولى ٨٦
انتشاره في البلاد النائية في وقت مبكر ١٢٣، ٥٦٤
غلبة الإسلام أعظم من غلبة الأنبياء كلهم ٧
شوكة الإسلام وحسرة الكفر ٤٦،٨٤
طريق نيل العزة في عصر غلبة الإسلام ٨٢

مدة غلبته

مدة غلبة الإسلام ٤٢،٤٦
خير قرون الإسلام القرون الثلاثة الأولى ٤٥٦، ٦٩٠

عصران مقدران لغلبة الإسلام ٢٥٦

نشأة الإسلام الثانية

نبأ عن رقي الإسلام ثانية بعد تدهوره
٢٥٤،٢٥٦، ٣٠٦،٣٠٧، ٣٥٩،٣٦٠، ٥٠٧

نبأ نشأة الإسلام الثانية ٢٥٩

نبأ ظهور مبعوث من جهة الشرق لرقيِّ الإسلام ٣١٧

فتحُ الإسلام وغلبته مقدَّر على يد المهدي ٤٩٨

نبأ عن إحياء الإسلام بعد عام ١٢٧١هـ ٦٨٥

أُعطي المسيح الموعود لواء فتح الإسلام في ١٨٨٦م ٢٥٧

يوقن المرء بغلبة الإسلام ثانية بالإيمان بالمسيح الموعود ٣٠٨

وصية المسيح الموعود عليه السلام جماعته بالتضحية لإحياء الإسلام ٤٧٩

معارضة من بُعث لإحياء الإسلام ٥٨٦

نبأ بعثة الموعود لإحياء الإسلام في القرن ١٣ ٦٨٩

عصر إحياء الإسلام من القرن ١٣ إلى ١٦ ٦٨٨،٦٨٩

بعد الحرب العالمية الثالثة تدمر الأمم الغربية والمسيحية ويزدهر الإسلام ٤٠٧، ٤١٣

تدهوره

نبأ قرآني عن امتداد عصر تدهوره لعشرة قرون ٦٨٤

لن يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن.. ٤٦٣،٥٦٩

بدأ تدهور الإسلام بمعاهدة عقدها ملِكُ الأندلس المسلم مع البابا في عام ٢٧١هـ ٦٨٤

معاهدة حكومة بغداد المسلمة مع قيصر ضد أسبانيا المسلمة في عام ٢٧٢هـ ٦٨٤

تدهورَ الإسلام بسبب تدهور المسلمين ٤٥٥

في تدهوره أيضا دليل على صدقه ٢٥٩

مقارنته بالأديان الأخرى

فضله على الأديان الأخرى من حيث التعاليم ٦٨٠

لا توجد مثل تعاليمه المعتدلة في أي دين ٥١

المقارنة بين تعاليم الإسلام واليهودية والمسيحية ٥١

المقارنة بين رقي الإسلام والمسيحية ٣٣١

العبادة في الإسلام والمسيحية ٥٧٣

الفرق بين أخلاق الإسلام والكفر ٥١

معارضته

سبب معارضتهم الإسلامَ ٥٨٠، ٧٧٢،٧٧٣

مؤرخو أوروبا شوهوا تاريخ الإسلام ٢٦٧

زعم البهائيين بنسخ شريعة الإسلام ٧٠٣

فترة التمييز الجلي بين الإسلام والكفر ٢٤٥،٢٤٦

الافتراء (انظر الوحي والنبوة)

الإكراه

لا إكراه في الدين ٥٩٥

الإكراه في الدين يولّد النفاق ٦٢٨

لا يجدي الإكراه في الدين نفعًا ٦٢٨

الإلهام (انظرْ الوحي النبوة)

أُمُّ اللغات

الدليل على أن العربية أم اللغات ٧١٥

الأمانة (انظر أيضًا الأخلاق)

إذا ضُيّعت الأمانة فانتظرِ الساعة (الحديث) ٢٥٥

إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظرِ الساعة (الحديث) ٢٥٥

تفويض الحُكم إلى غير أهله ضياع للأمانة ٢٥٥

كان الأغنياء منهم يعتبرون أموالهم أمانة إلهية ٦١٨

أهمية الشعور بالمسؤولية ١٢٥

الأمة المحمدية

كون النبي صلى الله عليه وسلم والدًا لأُمّته ٧٧٩

على الجماعة حماية الأجيال القادمة من الشيطان ٢٤٠

نـــزول تعاليم متكاملة على الأمة المحمدية ٥٤٤

نبأ بلوغهم الكمال في الروحانية ١٤٠،١٥٦

لن تنسى الأمةُ المحمدية القرآنَ الكريم ٥٥٦

احترام الأمة المحمدية للقرآن الكريم ٢٣٠

حماسهم للعمل بتعاليم القرآن رغم تدهورهم ٢٢٦
عملهم بكل تعاليم النبي ﷺ ٤٢٢
اختلاف الأمة ذو نفع ٥٥٩
الخير في اختلافهم في قضية الخلافة ٥٥٩

تطورهم وتدهورهم

خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... (الحديث) ٤٥٦
زمن "الشفق" و"اتساق القمر" ٤٥٦
القرن الحادي عشر والثاني عشر فترة مظلمة حقا ٤٥٦
رواج الكتابة عند الأمة بكثرة ٥٦٣
لن يبقى من الإسلام إلا اسمه (الحديث) ٥٦٩
تدهورُ الإسلام دليل على صدقه ٢٥٩

النبوة في الأمة

ستبقى النبوة جارية في خدام النبي ﷺ ٦٨٥
بعثة نبي لحفظ معاني القرآن ٥٧١
لن يأتي أي مبعوث بشرع جديد ٥٨٧
نبأ وجود المفسرين المشرَّفين بوحي الله ٤٢٨
المكانة الروحية للنبي التابع ٤٩٦

بعثة المسيح والمهدي في الأمة

إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَن يجدد لها دينها (الحديث) ٤٧١
نبأ بعثة المجددين في ١٢ قرنا ثم المسيح الموعود ٤٧١
أنباء القرآن عن المبعوث الموعود ٦٨٩،٦٩٠
اسمان لموعود الأمة: "البدر" و"الطارق" ٤٩٦، ٦٣٥
نبأ بعثة المسيح الموعود في الأمة ٤٥٧
تأكيد الأحاديث ظهور المسيح والمهدي من الأمة ٢٥١
ضرورة المسيح والمهدي ٣٢٦

الإنجليز ٥٥،٣٦

ينحازون إلى المسيحية رغم كونهم ملحدين ٣٦٥
احتيال الإنجليز للسيطرة على "أودهـــ" ٣٦٧، ٧٤٧
حكموا الهند ثلاثة قرون ٧٠٥
الإنجليز وقضية استقلال الهند ٣٦٩
طرد الإنجليز الأفارقة من أرضهم ٢٧٨،٢٧٩

الإنجيل

دُوِّن الإنجيل بعد المسيح ؑ بقرنين ٢٢٨، ٥٥٠
عند المسيحيين ثلاثمئة إنجيل ٥٤٩
اختلافات في الأناجيل الأربعة المختارة عندهم ٥٤٩
انتهتْ تعاليم الإنجيل عمليًّا ٢٢٥
لا يحفظ المسيحيون من الإنجيل إلا مقاطع معروفة ٣٢٩
نسب يسوع في الإنجيل ٣٥١

الإنسان

خلق الكون أكثر أهمية وتعقيدا من خلق الإنسان ١٦٩
خُلق الإنسان منـــزهًا عن العيوب للرفعة والوصال بالله ﷻ ١٧٢
ذروة الرقي منوطة بمبعوث موعود للأديان كلها ٢٤١
حقيقة إصابة الخير والشر للإنسان ٧٢٦،٧٣٠
هل ستكون حياة الآخرة بالجسد العنصري؟ ٧٨

خَلقه

لم يخلق الإنسان دون حكمة ٢٣٩
أربع درجات لخلق الإنسان ٣٤٥
التطور في ولادة الإنسان جسدا وروحا ٥١٤
الفرق بين التعديل والتسوية في ولادة الإنسان ٣٤٨
حكمة خلق البشر ذكورا وإناثا ١٥
لا يوجد شيء في جسد الإنسان دون حاجة ٥٣١

قواه وفطرته

معنى خلق الله ﷻ الإنسان على صورته ٣٤٩
وهب الله الإنسان قوى تامة ليجعله خليفة في الأرض ٣٤٨
خلق الله الإنسان بمواهب ضرورية ٥٣١
الإنسان أشرف المخلوقات بسبب تطوره العقلي ١٦٩

قدرته على تلقِّي الإلهام ٥٠٥
قوى الإنسان الكامنة ٢٣٥
تبقى قوى الإنسان خفية حتى بعثة نبي ١٧٤،١٧٥
طلب الهدف العالي في فطرة الإنسان ١٦
احترام الموتى من فطرة الإنسان ٢٣٨
قدرة "الدفق" في فطرة الإنسان ٥٠٢
الاعتدال والتطور في فطرته ٥٣١
تزويده بكفاءة الرقي والاعتدال ٥٣١
معنى تسويةالإنسان: خَلْقُه بلا عيب ٥٣١
التنوع في ميول الإنسان ١٦
حالة الإنسان عند الفشل ١٨٢
"للرحمة خلَقهم، و لم يخلقهم للعذاب" (الحديث) ٤٨
طرق تلجأ إليها طبيعة الإنسان تجنبًا للعقاب ٣٤١
لا يقدر أحد أن يكلم الله مشافهة ٧٧

أهل الحديث

تصرفهم الخاطئ تجاه القرآن الكريم ٢٦٤

أهل القرآن

تصرُّفهم الخاطئ تجاه حديث الرسول ﷺ ٢٦٤

الإيمان

لا يحصل الإيمانُ دون معرفة صفات الله ٤٠٨
الإيمان بالرسالة أساس كل عمل صالح ٦٣٢
مَثلُ الإيمان ٦٥
قصة استقامة صحابي شاب ٧٦٥
علامة الإيمان الصادق ٧١٤
أخلاق المؤمن المثالي ٦١٣
يعمل المؤمن بأوامر القرآن ونواهيه كلها ٢٣٢
يميّز بين الحلال والحرام ويراقب أعماله ٦٤
يبدأ عمله بالحزن وينهيه بالفرح ٤٤٧
على المؤمن أن يتوجه إلى الله كل حين ٨٢
الابتلاء الذي ينـــزل بحسب خبر الله يقوي المؤمن ٢٦٠
دعاء الملائكة للمؤمنين ٢٩٣
يُرَى المؤمن في الجنة وهو في هذه الدنيا ٣٦٥
حساب المؤمن يسير ٢٥٣
ارتفاع الإيمان إلى الثريا ٤٦١
الفرق بين الأحمديين وغيرهم في الإيمان بالله ﷻ ٤٨٣

البابية

أسباب سياسية أدت إلى معارضتها في إيران ٧٧٢

البحر

نبأ جمع البحار بحفر القنوات ٣٣٥

البرج

معنى "والسماء ذات البروج" ٤٦٩
هناك اثنا عشر برجًا طبق علم الهيئة ٤٦٩

البرزخ

عالم البرزخ ٢٣٧
عقيدة مكوث الأطفال في عالم البرزخ ٢٨٧

البعث بعد الموت (راجع أيضًا الحياة)

الدليل عليه ٦
نظام السماء دليل على البعث بعد الموت ٢٥
البعث بعد الموت مشابه للبعث الروحي الحاصل في الدنيا ٥،٦
التلازم بين الإحياء الروحي والبعث بعد الموت ٦
الآراء المختلفة عنه عند العرب قبل الإسلام ٩

البهائية

زعمهم بنسخ القرآن الكريم ٥١٥، ٥١٢
يعتبر البهائيون شرع الإسلام منسوخًا ٧٠٣
التضارب بين عقيدتهم وسلوكهم في تعدد الزواج ٧٠٢
يحاولون إخفاء عقيدتهم ٣٢٠
رد على البهائية ٧٠٢،٧٠٣

رد القرآن على المعتقدات البهائية ٥١٢
لا مركز للبهائيين ٦٩٩
فقدان هوية البهائيين في مراكزهم المزعومة "عكا والبهجة" ٦٩٩،٧٠٠
سبب انضمام الناس إليهم ٧٠٢
سبب عدم تعرُّض البهائية للمعارَضة ٧٧١،٧٧٢
نقاش المفسر مع امرأة بهائية ٧٠٢
مقارنة بين مؤسسي الأحمدية والبهائية ٧٠٣،٧٠٤
مقارنة البهائية بالجماعة الأحمدية ٧٠٢

البيعة

حقيقة البيعة ووجوبها ١٢٣

التبليغ والدعوة

الأمر بالتبليغ المستمر ٥٧٥
دعوة النبي ﷺ زعماءَ قريش ٢١٥
رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والولاة للدعوة ٣١٢
دعوة النبي ﷺ العبيدَ ٢٠٣
آداب مجالس التبليغ ٢١٣
نظام الأحمدية التبليغي وحماسه ٧٠١،٧٠٢
سيرة بعض الأحمديين المتحمسين في التبليغ ٢٠٧

التجارة

شعوب الغرب أمينة في التجارة الفردية، ولكنها خداعة في التجارة مع الأمم ٣٧٤

تحديد النسل (راجع الزواج)

التسبيح

علاقة المسيح الموعود عليه السلام بالتسبيح ٥١٥

التطور

تطور خلق الإنسان ماديًا وروحانيا ٥١٤

التعاليم (راجِع الإسلام والقرآن أيضًا)

التعاليم الكاملة تناسب الظروف ٥٣٩،٥٤٠، ٥٧٣
لا تنــزل التعاليم الروحانية إلا بحسب المواهب ٥٤٢

التفسير (راجع أيضًا القرآن)

ضرورة مراعاة السياق والقرائن لتحديد معنى كلمة ١١٣
خطأ اعتبار بعض كلمات القرآن غير عربية ٣٧٩
آراء المفسرين في "عبس وتولى" ٢٠٠
إبطال تفسيرهم لهذه الآية ٤٩٤

التقوى

حقيقة التقوى ٦٤٤
التقوى الحقيقية ٦٤
مثال التقوى ٦٥

التمثل

تمثُّلُ جبريل في صورة إنسان ٢٥٤

التواضع والانكسار (راجع أيضًا الأخلاق)

نصح الرسول الصحابة عند فتح مكة بالتواضع ١٨٥

التوبة

التوبة العَملية ٣٤٢
باب التوبة مفتوح لمعارضي الأحمدية ٤٨٥

التوراة

نــزول التوراة عند ضرورتها ٣٥٠
تعاليمها محدودة الهدى ومختصة الزمان ٣٩٦
ضياعها عند هجوم نبوخذنصر ٥٥٠،٥٥١
الشهادة الداخلية على أنها كُتبت من الذاكرة ٥٥١
ليس في التوراة دليل قطعي على القيامة ٣٥٣
استخدامات كلمة "ابن الله" في التوراة ٣٦٤
نبأ موسى فيها عن بعثة الرسول ﷺ ٥٨١
لا يوجد في العالم من يعمل بالتوراة إلا نادرًا ٢٢٥
اليهود لا يحفظون عادةً التوراة عن ظهر قلب ٥٥١

الثواب والعقاب

الثواب تابعٌ لصفة الله الرحيم ٧٥
يجزي الله الإنسانَ أكثر من عمله ٧٤
مقدارُ ثواب الحسنة وعقاب السيئة ٤٩

الجبل (راجع أيضًا الكون)

خلق الجبال على الأرض ١٧٧
فوائد الجبال ١٣
تمنع الجبال الحركة الزائدة للقشرة الأرضية ٦٢٦
حقيقة نبأ تسيير الجبال ٢٧٠

الجحيم (راجع جهنم)

الجريمة (راجع الثواب والعقاب أيضًا)

تاريخ الجرائم ٥١٩

الجماعة

صفات جماعة المدعي الصادق ٣١٩
لا يطوّر الله جماعته على أيدي المشاهير ١٩٤

الجماعة الإسلامية الأحمدية (راجع أيضًا المسيح الموعود)

أهميتها الروحانية ٤٤٥
دليل صدقها ٦٩٢،٦٩١
وجود أناس كأمثال الصحابة فيها ٦٢٠
انضمام جميع أنواع الناس إليها ٧٠١
كل ما نقوله نقوله لتوطيد شرف النبي وجلاله ﷺ ٤٨٥

عقائدها

لا يمكن التقرب من محمد ﷺ الآن إلا بواسطة المسيح الموعود عليه السلام ٤٦٥
سيبعث الله مظاهرَ المسيح الموعود المختلفة في صورة مهدي حينًا ومسيح حينًا آخر ٤٩٨
الفرق بين إيمان الأحمديين بالله وغيرِهم ٤٨٢
موقف غير الأحمديين مقابلنا ٣٩٩
لا نسخ في القرآن عندنا ٥٦٦
اختلاف المبايعين منّا وغير المبايعين رحمةٌ ٥٦٠
مقارنة الأحمدية بالبهائية ٧٠٠،٦٩٩

براجحها وإنجازاتها

برامج جماعتنا ٣٠٨
روح التضحية والإيثار والمثابرة ونظام التبليغ عندنا ٧٠٢،٧٠١
حماس الأحمديين للدعوة في زمن المسيح الموعود ٢٨
سيرة بعض الأحمديين المتحمسين ٢٠٧
مركزنا القوي من علامات رقينا ٦٩٩
وجود علامات الازدهار في الجماعة ٦٩٩
قوة الإقدام عندنا ٣٢٢
بداية مشروع "التحريك الجديد" عام ١٩٣٤م ٦٥٥
هدف "التحريك الجديد" تعوّد تحمُّل المشاق ٤٤٦
إنجازاتها في غرب أفريقيا ٦٩٨
نظام العناية بالفقراء والمساكين فيها ٧٤٤
"خدام الأحمدية" و"أنصار الله" لتعود تحمّل المشاق ٤٤٤

نصائح وتعاليم للجماعة

وصفُ المسيح الموعود عليه السلام لجماعته ٤٤١
ضرورة العمل بما جاء به المسيح الموعود عليه السلام ٢٣٣
ضرورة نشر الإسلام في العالم ٢٤١
على الجماعة تقديم أي تضحية لإحياء الإسلام ٤٧٩
يجب الاجتهاد لإيصال هذه الأمانة إلى أجيال تالية ٢٤٠
أربعة مبادئ اجتماعية لا بد لنا من التحلي بها ٧٤٩
إذا ركزت جماعة نبي على الأغنياء أكثر ضاق نطاق رقيها ١٩٣
وصية الالتزام بآداب "بهشتي مقبرة" ٧١٤،٧١٣
على الجماعة أن تعلم أن محبي المال سيغدرون ٧٤٩
من له الخيار في إنفاق مال الجماعة؟ ٦١٨
لا يجوز لأحد أن يأخذ التبرعات دون إذن المركز ٧٢٨

معارضتها ومصير المعارضين

سببُ معارضة الأحمدية بشدة ١١
معارضتها الحالية وإقبال الناس عليها مستقبلا ٢٢
معارضة الأحمدية دليل على صدقها ٧٧١،٧٧٢
العلاقة بين هلاك فرعون وزمن المسيح الموعود ٧١٨
تشابُهُ جماعتنا ببني إسرائيل ونجاتها من فرعون في العاشر من محرم ٧١٨
سيُطَمْئِنُ خليفةٌ الجماعةَ من اضطهاد فرعون في القرن الــ ١٩ ٧٢١
تعمُّد المخالفين اتهامَ الأحمدية بالإساءة إلى النبي ﷺ ٤٨٢
إيذاءات المخالفين للأحمديين ٤٨٥
شعور المخالفين بتفوق الجماعة الأحمدية ١١
اعتراف مدير جريدة "زميندار" بتأثير الأحمدية في كبار الناس ٣٢٢
عاقبة المعارضة ٤٨٤، ٧٥١
باب التوبة مفتوح للمعارضين ٤٨٥

مستقبل الجماعة الأحمدية

أنباء في سورة الفجر عن مراحل تاريخ الأحمدية ٦٩٥
١٩٥٢ و١٩٨١ و١٩٩٠م سنوات مهمة ٦٩٥
يوم الفرقان فيها ٦٩٥
مستقبل الأحمدية في ضوء أنباء مؤسسها ٤٥٩،٤٦٠
نبأ غلبتها على العالم في ثلاثة قرون ٣١٨، ٦٩٦

الجنة

إن الله تعالى خلَق للجنة أهلاً .... (الحديث) ٢٨٦
النبي في الجنة والشهيد في الجنة ... (الحديث) ٢٨٨
الجنة تحت ظلال السيوف (الحديث) ٣٠٣
ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد...(الحديث) ٢٨٦
مسألة دخول أولاد المشركين الجنة ٢٨٤،٢٩٣
أطفال المشركين في الجنة (ابن عباس) ٢٨٩
أطفال المؤمنين يدخلون الجنة ٢٨٩،٢٩٣
لَعب إبراهيم مع أولاد المؤمنين والمشركين في الجنة ٢٨٧
المراد من "جنات عالية" ٦١٢
حقيقة "تجري من تحتها الأنهار" ٤٨٦
خاصية نعماء الجنة ٧٢،٧٣
المراد من الرحيق المختوم ٤٢١
المستمتعون بنعماء الجنة ٢٩٣
"التسنيم" هو الإلهام الإلهي ٤٢٧
أرواح المؤمنين في الجنة ٤١٢
كل إنسان يدخل الجنة في حالة الشباب ٦٧
لا لغو ولا اتهام في الجنة ٧٣
معنى "وإذا الجنة أزلفت" في آخر الزمان ٣٠٣
وعدٌ للمتقين بالجنة في الدنيا ٥٧، ٣٥٧
الطمأنينة والسكينة جنةٌ دنيوية ٣٥٦
الفعل الواحد يُري الكافرين جحيمًا والمؤمنين جنةً ١٨٤

الجهاد

إلغاء الجهاد بالسيف في هذا العصر لحكمة من الله ٣٠٣

جهنم/ الجحيم

جهنم ٣٠٢
تكميل أرواح أصحاب النار في الجحيم ٤٨
عذاب الجحيم محدود ٤٥
شدة عذاب الجحيم ٥٨٩
المراد من "إن جهنم كانت مرصادا" ٤٠
عدم الطمأنينة جحيمُ الدنيا ٣٥٦
الفعل الواحد يُري الكافرين جحيمًا والمؤمنين جنةً ١٨٤
فترة حسد أعداء الإسلام جحيم لهم ٤٢
الحرب العالمية جهنم ٣٥٧
ضرورة عبور نهر آلام الجحيم للقاء الله ٤١،٤٤

الجيولوجيا (راجع أيضًا الخَلق)

كيفية خلق الأرض بحسب القرآن ١٧٨
خلق الجبال وفوائدها ١٣

الحج

الحج الأكبر ٣٥

الحجة

لا يعذَّب أحد بدون إتمام الحجة ٢٩٠

الحديث النبوي

الأحاديث الواردة في هذا المجلد

اجعلوها (أي سبحان ربي العظيم) في ركوعكم ٥٣٠
اجعلوها (أي سبحان ربي الأعلى) في سجودكم ٥٣٠
إذا وُسّد الأمر إلى غير أهله فانتظرِ الساعة ٢٥٥
أسلمتَ على ما سلَف مِن خير ٨٠٩
أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ٢٦٦
اقتراب الساعة هلاك العرب ٢٥٦
ألا أستحي مِن رجل تستحي منه الملائكة ٣٤٤
أنا لكم بمنــزلة الوالد ٧٧٩
إن رسول الله لما نــزل الحجر في غزوة تبوك ٧١٢
إن الشيطان يجري من الإنسان... ٤٠
إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ... ٤٠٤
إن لكل ملك حمى... ٦٤
إن لمهدينا آيتين لم تكونا...... ٢٦٥
إن الله تعالى خلق للجنة أهلا... ٢٨٦
إن الله وَتر يحب الوتر ٦٧٣
إن الله يبعث لهذه الأمة... ٤٧١
إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة... ٤١١
إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم... ٢٥٥
بُعثت أنا والساعة كهاتين ٢٥٦
تَخلّقوا بأخلاق الله ٣٤٩
تَزوّجوا الولودَ الودود ٢٩٦
ذلك (أي العزل) الوأد الخفي ٢٩٥
الجنة تحت ظلال السيوف ٣٠٣
حب الوطن من الإيمان ١٤٤
حِلاًّ أُمَّ فلانٍ ٧٥٨
خيركم قرني، ثم الذين يلونهم... ٤٥٦، ٦٩٠
الله تعالى إذ خلَقهم أعلم بما كانوا عاملين ٢٨٥
الصبر عند الصدمة الأولى ٧٣٥
فيشفع النبيون والملائكة... ٢٥٥
النبي في الجنة والشهيد في الجنة... ٢٨٨
يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: مع آبائهم.. ٢٨٥
لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم... ٢٥٥
كان الرسول مضطجعًا في بيته كاشفًا عن فخذيه ٣٤٤
لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم... ٢٥٥
لا يبقى من الإسلام إلا اسمه... ٤٦٣
لقد هممتُ أن أنهى عن الغَيلة... ٢٩٤
للرحمة خلَقهم و لم يخلقْهم للعذاب ٤٨
ما أَذِنَ الله لشيء ما أذن للنبي ﷺ يتغنى بالقرآن ٤٣٧
ما المسئول أعلم من السائل ٢٥٤
ما غرَّ ابنَ آدم غيرُ هذا العدو الشيطان ٣٤٢
إذا ولدت الأَمةُ ربها.... ٢٥٤،٢٥٥
ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله... ٦٤٢
ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد... ٢٨٦
مَن سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ ٢٥٦
مَن نوقش الحساب عُذِّبَ ٢٨٤
من مات قامت قيامتُه ٢٥٠
من مات وليس في عنقه بيعةٌ... ١٢٣
نعوذ بالله من الحور بعد الكور... ٤٤٩
الوائدة والموءودة في النار... ٢٨٥
واللهِ لا يخرج من النار أحد حتى... ٤٤
وقتُ المغرب ما لم يَغِبِ الشفقُ ٤٥٢
وُكِّل بالمؤمن مئة وستون ملَكًا... ٥٠٠
هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر ٦٤٥

إذا أراد عبدي سيئة فلا تكتبوها عليه... ٤٩
من قال مطرنا بنوء كذا وكذا... ١١٥
يوشك أن يأتي... زمان لا يبقى من الإسلام.. ٥٦٩
اليوم الموعود يوم القيامة... ٤٧٢
إن لله تسعة وتسعين اسما... ٦٤٤
غفَر الله لامرأة سقت كلبًا ١٧٩
مَن حُوسب عُذِّبَ ٢٨٤
إن الجنة لا تدخلها عجوز ٦٧
حديث المعراج حديث عظيم ومتواتر ٢٩١
قلّ العمل بالحديث النبوي في هذا العصر ٢٦٤
نهيُ الرسول ﷺ صحابتَه عن شرب ماء بئر بالحِجْر٧١٢

الحروب (راجع أيضًا الغزوات)

شجاعة المسلمات في حرب اليرموك ٦٨
حرب صفين ٥٦٤
الحرب العالمية ٣٥٧
الحرب العالمية الثانية ٥٥، ٤٠٧
نبأ الحرب العالمية الثالثة ٤٠٧

الحساب

على المرء أن يجعل حسابه صافيًا ٣٦٤
محاسبة الأقوام ٣٨٧،٣٨٧
محاسبة الأقوام في زمن أنبيائهم ٣٠٤
سيحاسَب المؤمنون حسابًا يسيرًا ٢٥٣،٣٥٤
يحاسَب الكافر حسابًا شديدًا ٢٨٤

الحضارة

ليست هناك حضارة مسيحية ٣٦٥

الحكومة (راجع الخلافة أيضًا)

صفات الحاكم ٣١٤
حكم المسلمين المثالي ٦١٧
تفويض الحُكم إلى غير أهله ضياع للأمانة ٢٥٥
الحكم لا يدوم إلا بالعدل ٣٧٨
نبأ قيام حكومات علمانية في آخر الزمان ٢٧٨

الحياة

الحياة الحقيقية ٢١
الحياة الحقيقية هي دار الآخرة ٢١
الإحياء الروحاني ١٦٠
الأدلة على الحياة بعد الموت ٢٣٩
التدليل على الحياة بعد الموت بخلق العالم ٢٣٩
احترام الموتى دليل على الحياة بعد الموت ٢٣٨

الحياة بعد الموت (انظر الحياة)

الحيوانات

تعاليم الإسلام بشأن الحيوانات ١٧٩
نبأ حشر الوحوش في آخر الزمان ٢٧٦

خاتم النبيين (انظرْ في محمد رسول الله ﷺ في الأسماء)

الخشية

يتجنّب المقرَّبون الذنوبَ مخافةَ الله ﷻ ١٨٦

الخلافة

حُكْم خلفاء المسلمين لم يكن ملَكيًا بل أخلاقي ١٢٦
مثالان على عدم أخذ الخليفة بقول الأكثرية ١٤٢،١٤٣
استشارة الخلفاء الراشدين العباسَ ٢٢٠
بدأت الملكية في المسلمين بعد ثلاث مئة سنة ٤٧
إنكار عبد الله بن الزبير بيعة يزيد ٦٤٣
خلافة بني العباس ٢٥٧

الخَلق (راجع أيضًا الكون)

ثورة في النظريات حول الخلق ٢٩٨،٣٠٠
خلق الأرض ١٧٧
خلق الكون ليس عبثا ٣٠

خلق الكون دليل على وجود الله ١٦٧
خلق الكون دليل على الحياة بعد الموت ١٦٩
خلق الإنسان ليس بلا حكمة ٢٣٩
أربع درجات لخلق الإنسان ٣٤٥
تسوية الإنسان بلا عيب ٥٣١
الفرق بين التعديل والتسوية للإنسان ٣٤٨
الخَلق نوعان ٥٤٦
خلقُ سماء وأرض جديدتين في الزمن الأخير ٤٣٩

الخُلق (راجِع الأخلاق)

الخمر

أضرارها ٧١،٧٢
الشبه بين الخمر والحب الإلهي ٧١

الخير والشر

حقيقتهما ٧٢٦،٧٣٠

الدعاء

طريق لجلب رحمة الله وإثارتها ٧٥٤،٧٥٥
أدعية إبراهيم ٧٦٩، ٧٨٣
دعاء إبراهيم عند رفع قواعد الكعبة ٧٦٩، ٧٨٠
دعاء إبراهيم لبعثة نبي عظيم ٥٨١
استجابة دعاء إبراهيم ٧٨٤
دعاء"اللهم أَعِنِّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف" ٥٨٩
طلب الكفار منه ﷺ الدعاء للنجاة من القحط ٥٨٩
دعاء الملائكة للمؤمنين ٢٩٣
دعاء عيسى لقيام ملكوت الله في الأرض وتحقُّقه في شخص الرسول ﷺ ١٢٦
المسيحيون يدعون يسوع بدلاً من الله تعالى ٣٣٨

الدنيا

نظام السماء دليل على غاية وراء خلقه ٢٤

الدين

لا إكراه في الدين ٥٩٥
لا فائدة في الإكراه في الدين ٦٢٨
فطرة الإنسان ومواهبه خُلقتْ في أحسن تقويم ١٧٨
لا يوجد كتاب سماوي محفوظ إلا القرآن ٥٤٩
فكرة السُنة النبوية لا توجد إلا في الإسلام ١٤٢
الدين مستقبلا على ضوء نبوءات المسيح الموعود ٤٦٤
من ينال التوفيق لخدمة الدين؟ ٢٣٣
الدين ليس للفقراء فقط ٢١٧

الذنب

الفرق بين الاعتداء والإثم ٣٩١
الجهل سبب رئيس لارتكاب الذنوب ٣٤٣
غفران الله ﷻ لا يولّد الجرأة على الذنوب ٣٤٣
طريق كفّارة الكبائر ٢٩٤
عقيدة المسيحية عن الخطيئة الموروثة ٣٤٤-٣٤٥
إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ.... السَّمَاوِيُّ ٣٦٤
عواقب بعيدة المدى للذنوب ٤٠٤-٤٠٥

الرؤيا

بدأ وحي الرسول ﷺ بالرؤى الصالحة ٤١٦
رؤيا للمسيح الموعود أنه موسى وجماعته ... ٧١٩
رؤيا للمفسر تشير إلى تفاني المسيح الموعود في النبي ﷺ ٦٩٤،٦٩٣
رؤيا للمفسر أنه في المكان الذي لجأ إليه موسى ٧١٩
رؤيا أخرى للمفسر ٣٠
تعلُّم المفسرِ مفاهيمَ الفاتحة في الرؤيا ٦٣٧

الرسول (راجع النبوة)

الرِقّ

مفهومه الواسع ٨٠٤
الإسلام والرقّ ٨٠٤

تحرير عبد هو بمثابة تحرير قوم ٨٠٦
اعتناق العبيد الإسلامَ في أول أمره ٥٩٢
إكرام الرسول ﷺ العبيد المسلمين الأوائل ١٨٣
إكرام عمر ﵁ العبيد المسلمين الأوائل ٨٥، ١٨٣،٨٢

رمضان المبارك

فرض صيام رمضان في المدينة ٦٥٣
صام الرسول عشر محرم الأولى قبل فرضية رمضان٦٥٤
بُعث الرسول ﷺ في رمضان ٦٧٧
وقعت غزوة بدر في ١٧ رمضان بعد الهجرة ٦٧٧

الروح

دليل على أن الروح خُلقت لهدف عظيم ٦
الإحياء الروحاني والبعث بعد الموت متلازمان ٦
معنى قوله تعالى "يوم يقوم الروح" ٧٨

الزكاة (راجع أيضًا المال)

فتنة مانعي الزكاة واستقامة أبي بكر ١٤٢، ١٤٣

الزمن الأخير

عند بعثة النبي تُحاسَب الأمة كلها ٣٠٤
تحقُّقُ نبوءات قرآنية متعلقة بهذا الزمن ٢٩٦
بعثة مبعوث فيه ٣٠٣
خلق أرض وسماء جديدتين فيه ٤٣٩
خلق آدم جديد فيه ٤٣٨
حالة المسلمين فيه بحسب الحديث ٥٦٩
وُضِعَ الجهاد بالسيف فيه بحكمة من الله ٣٠٣
غلبة العلوم الغربية فيه ٢٨١
شعور أهله بعذاب الله ٣٠٤
إنشاء أصحاب الرأي الواحد منظمات فيه ٢٨٢
انتشار الجرائد والصحف فيه بكثرة ٢٩٧
نبأ تسهيل وسائل الإعلام واجتماع الأقوام فيه ٢٨١
نبأ تعطيل الإبل فيه ٢٧٤
إنشاء المراكب الجديدة فيه ٢٧٤
حشر الوحوش فيه ٢٧٦
تحقُّق نبوءة "إذا الموءودة سئلت" فيه ٢٩٦

زندافستا (كتاب الزرادشتيين)

لم يعُدْ محفوظًا من التحريف ٥٤٨، ٥٥٥

الزواج

تَزوّجوا الولودَ الودود (الحديث) ٢٩٦
العزلُ هو الوأدُ الخفي ٢٩٥
صور جواز ضبط النسل وعدمه ٢٩٥
تضارب عقيدة البهائيين وعملهم في تعدد الزواج ٧٠٢
تفسير عمر ﵁ للآية: إذا النفوس زوِّجت" ٢٨٢

الساعة (راجع أيضًا القيامة)

معنى الساعة والقيامة بحسب القرآن ٢٥٢
جبريل يسأل الرسول ﷺ عن الساعة ٢٥٤
حديث: بعثت أنا والساعة كهاتين ٢٥٦
المراد من اقتراب الساعة ٢٥٢
معنى اقتراب الساعة هلاك العرب ٢٥٦
أشراط الساعة ٢٥٥

السعادة

نوعان للسعادة والشقاوة ٥٧٦

السماء (راجع الكون)

السُّنّة

لا يوجد تصوُّر لسنّة نبوية إلا في الإسلام ١٤٢

السورة (راجع القرآن أيضًا)

اعتبار القرآن كلَّ سورة صحيفةً مستقلة ٢٢٣
كل سورةٍ متكاملةٌ في مواضيعها ٣٢٨
علاقة السور فيما بينها ٦٣٤
طريقة معرفة ترتيب السور ٣٦٣

فائدة بحث كون السورة مكية أو مدنية ٤٦٨،٤٦٩
حقيقة مبادئ المستشرقين في تحديد زمن نــزول السور ٣٦١،٣٦٢
ضرورة وضع كتاب متكامل بهذا الصدد ٣٦٤
قول البعض أن (كلا) في السور المكية فقط ٢٢٢
السور البادئة بالتسبيح فيها ذكر المسيح الموعود ٥١٥
قراءة الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة والعيدين ٥٨٥

سورة الفاتحة
تلقِّي المفسرِ معارفَها من عند الله ﷻ ٦٣٧

سورة البقرة
تَلقِّي المفسرِ ترتيبها من عند الله ﷻ ٦٣٧

سورة النبأ
موضوعها البعثُ بعد الموت والقرآنُ وغلبةُ الإسلام ١
فيها إشارة إلى هجرة النبي ﷺ سرًّا ٢٧
صلتها بالسورة السابقة لها ١

سورة النازعات
تردّ على سؤال: كيف سيغلب الإسلام؟ ٨٧
صلتها بسورة النبأ ٨٧
مماثلتها بسورة عبس ٢٤٣

سورة عبس
صلتها بالنازعات ١٩٣

سورة التكوير
صلتها بسورة عبس وما قبلها من السور ٢٥٦
مَن سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ (الحديث) ٢٤٩

سورة الانفطار
صلتها بسورة التكوير ٣٢٧
هي تتمة لسورة التكوير ٣٢٧
تذكُر علامات خاصة للمسيحية ٣٢٧
علاقتها بمستقبل المسيحية ٣٣٤،٣٣٥

سورة المطففين
صلتها بالسور السابقة لها ٣٦٣

سورة الانشقاق
صلتها بالسور السابقة لها ٤٣٥

سورة البروج
صلتها بسورة الانشقاق ٤٧٠
فيها إشارة إلى المسيح الموعود ٦٣٥

سورة الطارق
زمن نــزولها ٤٩٣
صلتها بسورة البروج ٤٩٣
فيها إشارة إلى المهدي ٦٣٥

سورة الأعلى
زمن نــزولها ٥٠٩
صلتها بالسورة السابقة لها ٥١٠
صلتها القوية بسورة الغاشية ٦٣٠
قراءة الرسول ﷺ إياها في صلاة الجمعة والعيدين ٥٨٥
علاقتها الوطيدة بالحياة الاجتماعية الإسلامية ٥٨٥

سورة الغاشية
زمن نــزولها ٥٨٥
خلاصة مضامينها ٥٨٦
علاقتها الوطيدة بالحياة الاجتماعية الإسلامية ٥٨٥
قراءة الرسول ﷺ إياها في صلاة الجمعة والعيدين ٥٨٥
صلتها القوية بسورة الأعلى ٦٣٠

سورة الفجر
زمن نــزولها ٦٣٢
ترتيبها ٦٣٣
صلتها بسورة الغاشية ٦٣٣-٦٣٤
ملخص تفسير المفسرين لها ٤٤١-٤٤٢
تلقّي المفسر معارفها وهو يصلي العصر ٦٤٠
فيها أنباء بعثة الرسول ﷺ الثانية ٦٨٢
"والفجر وليال" استعارة ٦٦٢
حكمةُ ذكر دمار عاد وثمود مع دمار فرعون ٧١٧

سورة البلد

صلتها بالسور السابقة لها ٧٥٣

الشرك

إن الشرك لظلم عظيم ٧١٨
اعتبار الملائكة شركاء في صفات الله شرك ١٢٠
شدة شرك المسيحيين ٣٦٥
نشرُ المسيحية الشركَ ٣٣٥
مسألة نجاة أولاد المشركين ٢٨٤
اعتراف مشركي مكة بفشل آلهتهم ٦٧٩

الشريعة

سبب عدم نـــزول الشرع الكامل والجامع من بدء الإنسانية ٥١٩، ٥٢٠
أساس الشرع الأول كان على الفطرة الإنسانية ٥٢٠
الشريعة الكاملة تحوي ردودًا على جميع تساؤلات الفطرة الإنسانية ٥٤٣
إنما التعليم الكامل ما يوافق البيئة ٥٤٠
الشريعة تنـــزل توافق البيئة ٥٤٠
اهتمام الشرع المحمدي بالفطرة الإنسانية ٥٧١
هل يُبعث كل نبي بشريعة وأحكام جديدة؟ ٢٢٤
القاصر ليس مكلَّفًا بالشرع ٢٨٥
مآل اعتبار المسيحيين الشرعَ لعنةً ٢٢٦
اعتبار "البهائيين" شرع الإسلام منسوخًا ٧٠٣

الشعوب والأقوام

رقي الشعوب ووسائله

رقي الشعوب وتدهورها ٣٧٧
ثلاث ذرائع لتجنب الهلاك ٨٠١
صفات الشعوب الغالبة ١٣٦
صفات الأقوام المحفوظة من التدهور ٧٥١
سر الرقي القومي ٦٦، ١٢٥
خلق الشعور بالتضحيات على المستوى الشعبي ٧٤٠
تتولد الأخلاق السامية في الشعوب بجهد السنين ٧٥٠
أهمية الفقراء في حياة الشعوب ٧٤٣
أثر الاهتمام باليتامى في حياة الشعوب ٧٤٠
الازدهار دون دين وخلق وتحمل مسؤولية محال ٧٨٢
محال هلاك أمة يُعتبر كلٌّ منها مسئولا عن شعبه ١٤٠
لا يطول حُكم شعب إلا إذا خدم الناس وضحّى ٣٧٨
الأقوام الحية تحافظ على عاداتها وتقاليدها ٢٦٧
الاعتدال والحماس والعزيمة يخلق روح العمل ٦٦
الحماس للتطوع والهجرة لخدمة الأمة ١٤٥، ١٤٦
لا تنهض أمة إلا إذا ارتفع مستوى نسائها دينيا ٦٦
دور الأغنياء في نهضة الأمة ٧٤٥
الأضرار الناجمة عن تجميد الأموال ٧٤٧
حبُّ المال يولد الغدرَ بالأمة ٧٤٧، ٧٤٨
أثر منع النسل على مستوى الأمة ٢٩٦
على من ينال الحكم أن يشكر ولا يتكبر أبدًا ٣٤٨
دور حسن الظن في رقي الأمة ٧٣

تدهور الشعوب وأسبابه

حالة الأقوام المنهزمة ٥٥
علامات دمار الشعب ٢٥٢، ٧٤٥، ٧٤٨
أسباب دمار الشعب ٣٠٥
أسباب انحطاط الشعوب ودمارها ٤٤٩، ٧٤٠،٧١٦
طريق سهل للقضاء على قوم ٢٦٧
عندما يحين تدهور شعب تغيب مؤهلاته الصادقة ١٩٥
عاقبة نسيان عادات الأسلاف الحسنة ٢٦٧
تنـــزل الويلات على شعب لا يرحم ٣٧١
يتشتت شمل الشعب الذي يولد فيه ظالمون ٧٤٦
أثر حب المال الشديد في أخلاق الشعوب ٧٤٦
حياة البذخ تفضي إلى دمار الأُمة ٢٥٥
الإسراف علامة كبيرة على تدهور القوم ٧٤٥
أسبابُ نقص الزعماء الكبار ٧٤٦
يشعر القوم بدمار بعد فوات الأوان ٤٤٩

إحياء الأقوام بواسطة الأنبياء

حالة القوم قبل بعثة نبي ١٩، ٢٠
حالة العرب قبل بعثة الرسول ﷺ ٢٢
حالة الهند السيئة قبل بعثة المسيح الموعود عليه السلام ٢٢
إحياء الأقوام على يد الأنبياء ١٦٦، ١٦٩
تظهر مواهب أفراد القوم ببعثة نبي ١٧٤
يحظى القوم بلقاء الله حين يتفاني كل فرد منهم ٤٤٤
لكل قوم دوره ولكل دور قيامته ٣٧٧
صفات قوم نبي صادق ٧٩١
يحاسَب القوم كلهم عند بعثة نبي ٣٠٤
محاسبة الأقوام ٣٧٨

أقوام الغرب

عيب كبير في الأقوام المسيحية ٣٣٧٣،٣٧٤
تعاضدهم فيما بينهم وظلمهم للآخرين ٣٦٦
احتلال الأقوام الغربية البلاد باسم الحماية ٤٣١
لن تتحقق مقاصد تشكيل منظمة عصبة الأمم ٣٥٩
ثلاث هزات لدمار الأقوام الغربية ٤٠٧، ٤١٣
قرُب وقت تدهور أوروبا ٣٥٧
تدهور الأقوام الغربية ورقي الإسلام قدرٌ مقدور ٤٠٠
تُدمَّر الأقوام الغربية بعد الحرب العالمية الثالثة ٤٠٧

أنباء القرآن الكريم عن الأقوام

نبأ اجتماع الأقوام في آخر الزمان ٢٨٢
نبأ انمحاء التعصب العرقي ٢٦٨

المتفرق عن الشعوب

أهمية تقاليد الأقوام ٢٦٧

الشفاعة

شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة ٧٩
فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار بقيت شفاعتي (الحديث) ٧٩

الشمس (راجع الكون أيضًا)

ضوء الشمس وحرارتها ذاتية ٢٩،٣٠
دور الشمس في خصوبة الأرض ٣٠
لا يمكن قيام نظام الأرض دون نظام الشمس ١٧٨
حقيقة تكوير الشمس ٢٦٣
تشبيه الرسول ﷺ بالشمس في القرآن ٢٦٣،٢٦٤
نبأ كسوف الشمس والقمر ٢٦٥

الشهاب الثاقب

سقوط الشهب بكثرة سنة ١٨٨٥م ٢٦٩

الشيطان

ما غرَّ ابنَ آدم غيرُ هذا العدو الشيطان (الحديث) ٣٤٢
إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم(الحديث)٤٠
إغواؤه آدمَ ٥٦٨
الشيطان لا يعلم الغيب ٣١٨
لا سلطان له على المؤمنين حقًا ٤١
واجب جماعتنا لأداء الأمانة إلى الأجيال التالية ٢٤٠

الشيعة

بدأ التشيّع في آخر أيام خلافة عثمان رضي الله عنه ٥٦٠
الشيعة لا يترهون القرآن عن الكلام الدخيل ٣٢٢
عقيدتهم المتناقضة عن القرآن والرد عليها ٥٦٠
رد على عقيدة ٣٢٤

الصبر

حقيقة الصبر ١٣١
لا بد للأمم من الصبر من أجل التقدم ١٣١
نموذج صبر الرسول ﷺ ٧٣٥
الصبر عند الصدمة الأولى (الحديث) ٧٣٥

الصحابة رضي الله عنهم

مقامهم

أصحابي كالنجوم ... (الحديث) ٢٦٦
تأثُّر مستشرق بإيمان الصحابة ٦٢
مقارنتهم بأصحاب الأنبياء السابقين ٧

أخلاقهم وصفاتهم

تربيتهم العالية ٧٩٤
رسم القرآن لأخلاقهم الفاضلة ومحاسنهم ٦٠٧،٦٠٩
أخلاقهم العالية ٤٢٠
زمنُ تكميل أخلاقهم ١٤٧
خصائصهم ٤١٦،٤١٧
صفاهم الحميدة ١٣٨، ٧٩١،٧٩٢
إخلاصهم ١٣١
إيمانهم بالإسلام على بصيرة ٦٨٠
استقامتهم ٧٦٥
رغبتهم في الحسنات وسعيهم لها ١٣٧
تنافُسهم في الحسنات ١٤٠
غنى نفوسهم ٤٢٠
لم يحبوا المال على كونهم أغنياء ٧٢٤
حماسهم للخدمة الطوعية ١٤٥

رغبتهم في الجهاد والشهادة

قيامهم بالجهاد حقًا ١٢٩
تضحياتهم المحيرة في الجهاد ١٣٠،١٣٢
وصفهم عمير بن وهب: أموات راكبين المطايا ١٣٠
قبولهم الشهادة بيقين كامل ٦١٠
شجاعة الصحابيات وتضحيتهن ٦٧،٦٩
أشدّاءُ على الكفار ٢٣،٢٤
تحقُّقُ نبأ براعتهم في القتال ١٣٣
تركهم أقاربهم في سبيل الإسلام ٢٤٤، ٧٦٥
نصح الرسول ﷺ إياهم بالتواضع يوم الفتح ١٨٥

صبرهم على المصائب

صبرُهم على الفقر والمصائب ٧١٣، ٧٢٣
اضطهاد الكفار الصحابةَ خارقين حرمة الحَرم ٧٦٣
تفاصيل ظلم الكفار إياهم ٧٦٧
صبرهم على الظلم الشديد ٨٠٩
صبر العبيد المسلمين على الاضطهاد ٥٧

حبهم القرآن الكريم

رفَعهم القرآن فرفعوه ٢٣٠
أوائل الصحابة الذين علموا القرآن في المدينة ٥٠٩
كثرة حفاظ القرآن فيهم ٥٦١،٥٦٢
نشرهم القرآن في العالم بعد النبي ﷺ ٢٢٨
لماذا لم يُعلَّموا معارف القرآن كلها؟ ٦٨٠

رغبتهم في التعلم

لم يعلم القراءة والكتابة من الشباب الأوائل إلا الزبير ١٤٢
لم يعلم القراءة والكتابة في البداية منهم إلا اثنان أو ثلاثة ٥٥٩
انشغالهم في نشر العلم ٦١٥

حبهم للنبي الكريم

سعيهم للتأسي بالرسول ﷺ ١٤٢
وصولهم في اتباع النبي ﷺ الذروةَ ١٤٢
حُبُّهم له ﷺ ٨
حب الصحابة والصحابيات له ﷺ ٦٦٢
تعبيرهم عن مشاعرهم للتضحية له ﷺ ١٣٠،١٣١
هجروا أقاربهم من أجله ﷺ والإسلام ٢٤٤
صحابي ترك والديه من أجله ﷺ والإسلام ٢٤٤
قصة حب صحابية له ﷺ ٢٤٥
حراستهم النبيَّ ﷺ متناوبين ١٢٤

وقائع من حياتهم

هِجرتُهم من مكة عند شدة الظلم ٥٨
هجرتهم إلى الحبشة ٦٨١
هجرتهم إلى الحبشة والمدينة ٦٧٢
أصحاب الهجرتين منهم ٦١
الفتوحات على أيديهم ٦٢

تصرُّفهم الرفيع القويم في بلاط كسرى ٤٢٠
سفرهم إلى الصين والهند لنشر الإسلام ٦١٥
أمور متفرقة عنهم
نيلهم الجوائز الدينية والدنيوية من الله ٨٠٢
كثرة النعم الروحانية عليهم ٤١٨
نُهوا عن الأسئلة اللاغية ٨١،٨٢
ظهور الضعف في أولادهم بعد ثلاثين سنة ٢٤٠،٢٤١
نبأ انمحاء التأسي بسيرتهم ٢٦٦

الصحف (راجع أيضًا القرآن)

جاء كل نبي بصحيفة ٢٢٤
جَمَع القرآن كل تعاليم الصحف السابقة ٢٢٥
صحفُ إبراهيم تشمل صحيفة نوح وصحف بعض الأنبياء الآخرين ٢٢٤
صحيفة موسى تشمل تعاليم كل الصحف السابقة ٢٢٤

الصدق

الصدق أغلى من الوطن ١٤٤

الصدقة

خير الصدقات صدقة جارية ٦١٥

الصلاة (راجع العبادة أيضًا)

حقيقة الصلاة ٥٨٠
التزام المرء بالصلاة أيامًا معدودة يجعله يعتادها ٢٣٦
كان الرسول ﷺ يقرأ الأعلى والغاشية والفجر في الصلوات عمومًا ٦٣١
كان ﷺ يقرأ الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة والعيدين ٦٣٥
منعه ﷺ معاذَ بن جبل من قراءة السور الطوال في الصلاة ٦٣١

صلح الحديبية ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٣١١

أثره في قلوب العرب ٤٠
إشهار أبي جندل إسلامه في صلح الحديبية ٥٩٥

الضيافة

إكرام الضيف ٢٠٨
الأمرُ بإكرام الضيف ٢١١
إكرام الرسول ﷺ للضيف ٢١١

الطب

أمراض مختلفة أهلكتْ أقواما مختلفة ٧٧٠
الرد على عدم ضروة الزائدة الدودية ٥٣٢
خواص الزرنيخ ٧٣١،٧٣٢
أهمية النوم في حياة الإنسان ١٨-١٩

الطفل (راجع أيضًا الزواج)

الطفل ليس مكلفًا بالشرع ٢٨٥
قول عائشة "طوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة" ٢٨٦
ضرورة الأغذية المتوازنة للطفل ٥١٧،٥١٨
يوم القيامة يبعث نبي إلى من توفي طفلا ٢٨٧، ٢٩٢
إبراهيم عليه السلام يلاعب الأطفال في الجنة ٢٨٩
امتحان الأطفال في يوم القيامة ٢٨٧
اعتقاد البعض أن الأطفال المتوفين سيكونون في الجنة خدمًا وسيسرّ بهم والداهم ٢٨٨
مكانة أطفال المؤمنين في الجنة ٢٩١
عقائد مختلفة عن نجاة أطفال المشركين ٢٨٤_٢٨٩
"أطفال المشركين في الجنة" (ابن عباس) ٢٨٩
رأي أحمد السرهندي عن أولاد المشركين ٢٨٨، ٢٩٣

الظن

دورُ حُسن الظن في رقي الأمم ٧٣

عاشوراء

صوم الرسول العشر الأوائل من محرم قبل رمضان ٦٥٤
"أظهر الله في عاشوراء موسى على فرعون" ٦٥٢

العبادة

اليسر في العبادات الإسلامية ٥٧١،٥٧٢
حقيقة الصلاة ٥٨٠
المقارنة بين العبادة الإسلامية والمسيحية ٥٧٣

العبرة

حقيقتها ١٦٥،١٦٦

العذاب

نوعان من العذاب ٤٨٦
العذاب الظاهري والباطني ٤٨٥
أسلوب بيان شدة العذاب ١٩٢، ٥٨٨،٥٨٩
لا ينــزل العذاب دون بعثة نبي وإتمام الحجة ٢٨٧، ٢٩٠،٢٩١، ٣٠٢
سبب عذاب الذين يكفرون ويتولون ٦٢٩،٦٣٠
نبأ نــزول عذاب خاص في زمن الرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام ٥٨٩
نــزول عقاب الله على أبرهة وجنوده ٧٧٠، ٧٧٦،٧٧٧
نبأ نــزول أنواع العذاب الدنيوية على الكفار ١٨١
شعور الناس بعذاب مسلط عليهم في هذا الزمان ٣٠٤
لا يحبذ بقاء المرء في مكان نــزل عليه عذاب ٧١٢

العربية

إثباتُ كونها أُمَّ الألسن ٣٨١، ٧١٥
كلمات عربية في اللغات الأخرى ٣٨١
أصلُ "story" الإنجليزية " هي "أسطورة" ٣٩٣
حِكمٌ وفلسفة في طيات الكلمات العربية ٧٥٤
نبأ قرآني بقاء العربية إلى الأبد ٢٢٩
تداوُلها في أوائل الإسلام في بلاد كثيرة ٥٦٤،٥٦٥
الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر ٩٤
التنوين يفيد التفخيم ٢٦، ٦٨١
لا يتعين المعنى بـــ"الفعل" ما لم يرجع إلى مصدره ١١٨
يدل "الماضي" على اليقين و"المضارع" على التوقع ٣٩٠
لا يجوز تغيير المعنى اللغوي دون قرينة ٤٤
حذف اللازم أو الملزوم من الأشياء المتلازمة ٢٦٥
جواز تذكير "المضاف" أو تأنيثه تبعًا للمضاف إليه ١٥١
سبب تسمية "التكليف" بلاءً ٢٢
استخدام كلمة "القلة" من أجل النفي ٥٦٦
الفرق بين "ما أدراك" و "ما يدريك" ٣٨٧
"هل" تأتي للتصديق ٦٩٧
"لا" الزائدة في كلام العرب ٤٥١
حروف القَسم ٩٠
المراد من القَسم في العربية ٩١

العزل

قول الرسول ﷺ: ذلك الوأد الخفي ٢٩٥
جوازه وعدم جوازه ٢٩٥
لا يجوز العزل خشية إملاق ٢٩٥

العلم

كل علم نــزل حين صار العقل صالحا لفهمه ٣٥٠
الفرق بين العلم والعرفان ٤١٠
الأهداف من التساؤل ٢
تعليم الله عز وجل رسولَه ﷺ دون وساطة ٥٢٣
سعة علوم القرآن حسب ضرورات الزمن ٦٨٠،٦٨١
نشر المسلمين العلوم في أقاصي الأرض ٦١٥
غلبة العلوم الغربية في هذا الزمن ٢٨١
ارتقاء فن الخط بين المسلمين ٣٢
علم التصوف ٣٢
نبأ رقي علم الأحياء في آخر الزمان ٢٧٦
علم الجيولوجيا ١٧٧
تطور علم الفَلك في هذا الزمن ٢٩٨
اعتراف علماء الفلك بالقيامة ٢٧

اثنا عشر برجًا عند علماء الفلك ٤٦٩

العمل

الملائكة يسجلون أعمال الناس ٣٥٣
لا يضيع عملُ عامل ٤٩
هل يضيع ما قام به المرء من حسنات زمن كفره ٨٠٩
كل عمل يؤثر في أخلاق عامله وعقله ٤٠٤
حقيقة العمل الصالح ٤٨٥
تعريف العمل الحسن ٦١٠
الإيمان بالرسالة أساس الصالحات ٦٣٢
"ما من أيام العملُ الصالح فيهن أحبُّ إلى الله من هذه الأيام العشر" ٦٤٢

العهد

حث الإسلام على الوفاء بالعهد فردًا وأمةً ٣٨، ١٧٥
قصة التزام مسلم إسباني بالعهد ١٧٦
بعض أنباء الأنبياء تتحول إلى عهد ٣٨

الغزوات (راجع أيضًا الحروب)

غزوة أحد ٦٦٢، ٧٣١، ٧٣٠
خصص الكفار أرباح التجارة للتجهيز لغزوة أحد ١٥٣
قلقُ صحابيةٍ من خبر استشهاد الرسول في أُحد ٢٤٥
غزوة الأحزاب
كان المسلمون ضعفاء قبلها ٦٠٢،٦٠٣
هي اليوم الموعود ٤٧٢
غزوة بدر ٦٧٦
نبأ إشعياء النبي عنها ٦٧٦،٦٧٧
نبأ عنها في سورة مكية ١٣٠
أسبابها ١٥٤،١٥٥
بدأت الحرب بمكيدة من أبي جهل ١٣٠
وقعت في ١٧ رمضان العام الثاني للهجرة ٦٧٧
لم يخرج المسلمون للقتال ولا الكفار ١٥٤
لماذا اشترك فيها عدد قليل من المسلمين ١٥٤
هي اليوم الموعود ٤٧٢
هي يوم الفرقان ٦٧٦
قتْل أبي جهل فيها بيد صبيين أنصاريين ٥٩٦، ٦٠٦
معظمها كانت عبارة عن منابلة بالسهام ١٣٠
غزوة تبوك
منع الرسول استعمال ماء الحِجْر عند العودة منها ٧١٢
غزوة حنين
سبب تشتُّت المسلمين فيها ٢٥٢
الضرر كان ناجمًا عن جبن المسلمين الضعفاء ٧٣١

الغيب (راجع أيضًا الأنباء)

إخبار الرسول ﷺ أنباء غيبية كثيرة ٣١٦
لم يحب الرسول ﷺ التدخل في علم الغيب ٢٢٠
الشيطان محروم من علم الغيب ٣١٨

غير المبايعين/ الأحمديون اللاهوريون

الرد على قولهم إن كل من يتلقّى الإلهام يمكن أن يسمى – لغةً — نبيًّا ٤
يخالفون تعاليم المسيح الموعود عليه السلام في الصلاة والزواج وغيرهما ٢٤٥ -٢٤٦
يؤذوننا باتهامنا بنسخ شهادة الإسلام ٤٨٥

الغيرة

يغار الله عز وجل كثيرًا على رسله ٢١٤
غيرة المسيح الموعود عليه السلام على النبي ﷺ ٢١٣

الفجور

علامات الفاجر ٤٧
نبأ عن انغماس المسيحيين في الفجور ٣٨٥-٣٨٦

الفطرة

اهتمام القرآن بالفطرة الإنسانية ٥٧١
تعاليم القرآن تحفز الفطرة الإنسانية ٢٣٢
توافُق فطرة البعض مع القرآن ٢٢٤

بحث الفطرة الإنسانية عن مقصود أسمى ١٦
احترام الميت بالفطرة دليل على الحياة بعد الممات ٢٣٨
من لم تتم عليه الحجة يفصل في أمره بناء على إيمانه الفطري (المسيح الموعود عليه السلام) ٢٩٢
تزوُّد الفطرة الإنسانية بالدفق ٥٠٢
تأثيم المسيحية الفطرةَ الإنسانية ٣٤٦
طريق كفّارة الكبائر ٢٩٤
حالة الفطرة الإنسانية عند الفشل ١٨١-١٨٢
اتخاذها شتى التدابير فرارًا من العقوبة ٣٤١
علاج ضعفها موجود فيها ٣٤٧

الفقه

جواز الإجهاض وصورة وجوبه ٢٩٥
مسألة المباشرة في أيام الرضاعة ٢٩٤-٢٩٥
جواز العزل وعدم جوازه ٢٩٥-٢٩٦
للحالف تحليل يمينه بأداء الكفارة ٧٦٢

الفيدا (كتاب الهندوس)

بحوث المحققين الهندوس عن الفيدا ٣٠١
هي محرفة ومبدّلة ٥٥٣
لا يوجد في العالم من يعمل بها ٢٢٥

القبر

قبرُ عالَمِ البرزخِ ٢٣٧
احترام الموتى بالدفن وغيره دليل على الآخرة ٢٣٨

القدر

جميع أنواع الأقدار والأسباب بيد الله ١٨٩
حقيقة الخير والشر ٧٢٦-٧٢٩
قدرٌ للقوى وقدرٌ آخر لإظهارها ٥٣٨

القرآن الكريم

نــزوله

الغاية من نــزوله ٢١٦
نــزل القرآن الكريم عند الحاجة ٣٥٠
حكمة نــزوله في آخر الزمان ٥١٨
سبب نــزوله منجَّمًا مفرَّقًا ٣٢٧
جميع سوره كاملة بمضامينها ٣٢٨-٣٢٩

ترتيبه

الإعجاز في ترتيبه ١٩١-١٩٢
القول بعدم ترتيب آياته إساءةٌ ٦٢٥
اعتراف المستشرقين بترتيب فيه ١
اقتراح المفسر لمعرفة صلة بين شتى سُوَرِه ٣٦٣-٣٦٤

عظمته

بداية القرآن عظيمة ونهايته عظيمة ٤٢٥
إثبات كون القرآن القول الفصل ٥٤٨
القرآن خاتم الكتب.. أي محالٌ التحريف فيه ٣٨٦
مكانته مقابل الحديث النبوي ٢٨٩-٢٩٠
عظمته تدخل في القلوب بتزكيتها ٢٣٣
القرآن طاهر بنفسه ومطهِّر لمن يمسّه ٢٣٣
يحكم القرآن على جميع فروع الحياة ٢٢٦
حالة منكري عظمة القرآن ٢٣٤-٢٣٥
القرآن يُعظَّم أكثر من الكتب السماوية الأخرى ٢٢٥

خصائصه

القرآن جامع كتب جميع الأنبياء ٧
يُدعى القرآن "صحفًا" لجمعه صحف الأولين ٢٢٤
يذكر القرآن حكمة الأحكام ٥٧٣
طريقه الخاص في إثبات وجود البارئ تعالى ١٦٩
طريقه الفريد في إثبات يوم القيامة ١٦٣
صفات القرآن الثلاث ٢٢٥
تعاليمه تغطي جميع مجالات الحياة ٣٢٤
اتساعه العلمي طبق ضرورات الزمن ٦٨١
القرآن مبرأ من كل خطأ لفظي أو معنوي ٢٢٦، ٤٢٣
اهتمامه بالفطرة الإنسانية في أحكامه ٣٢٤، ٣٩٧، ٥٧١_٥٧٢

جعلَه اللهُ موافقًا لطبائع الناس المختلفة ٢١٧
يحوي جميع التعاليم الرافعة للفطرة الإنسانية ٢٣٢
تفويض القرآن بعض الشروح إلى العقل ٧١٠-٧١١
فصاحته وبلاغته ٣٨٩
هو القول الفصل ٥٠٦
إيجازه الرائع ١٥٧
التكرار العابث مخالف لعظمته ٣٤٨
خطاب القرآن موجه للجميع إلى يوم القيامة ٣٢٤
يشرح أحكامه بنفسه عند إمكانية سوء الفهم ٧١٠
القرآن لا يخلّ بالموضوع مراعاةً للسجع ١٩٢
القرآن الكريم ذو وجوه وبطون ٥
لا يهب الحياة الروحانية اليوم إلا القرآن ٦
لا يُعمَل بأي من الكتب الإلهامية اليوم إلا القرآن ٢٢٥

صدقه

دليل صدقه ٦
تعاليمه تنطوي على أسرار الكون والفطرة ٣٩٦
دليل كونه كلام الله ﷻ ٣٠٩
شهادته الداخلية على كونه كلام الله تعالى ١٠٣
انكشاف الحقائق التي بيّنها القرآن ٢٨٢
مؤرخ مسيحي: صحة بيان القرآن عن عاد وإرم ٧٠٧
تصديق عالم جيولوجي بما جاء به القرآن ١٧٧

الأنباء القرآنية

نبأ نشر تعاليمه إلى أنحاء الأرض ٢٢٨
لا يبقى من القرآن إلا رسمه في آخر الزمان٤٦٣، ٥٦٩
نبأ بعثة المسيح الموعود عليه السلام ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٤
تحديد موعد أنبائه حول بعثة المسيح الموعود ٦٩١
نبأ نــزوله مرة ثانية ٤٦١
نبأ نــزول علومه ثانية ٤٣٨
نبأ حول كيفية معارضة الأحمدية مستقبلا ٤٧٩_٤٨٠
تحقُّق نبئه عن قوم عاد وأرم ٧٠٨

فيوضه

لا يستفيد منه إلا الصالحون ٢٣٢-٢٣٣
فيوضه الروحانية ٧٦
خدامه ينالون التكريم ٢٣٠
القرآن بوّء أبا بكر وعمر وعثمان وعلي هذا المقام ٧٦
ثمرات العمل بالقرآن ٢٣١

تعاليمه

فضلُ تعاليمه ١٢٢
"الرحيق المختوم" هو تعاليمه التي تُسكِر بحب الله ٤٢١-٤٢٢
تعاليمه تطابق الفطرة السليمة ٤٢٢
موافقته لفئة معينة من الطبائع ٢٤٢-٢٤٣
حوى كل تعليم أخلاقي وروحاني ورد في الصحف السابقة ٢٢٤

حفظه

"في لوح محفوظ" إشارةٌ إلى ميزتين قرآنيتين ٤٩٢
وعدٌ من الله بحفظ القرآن ٤٢٣، ٥٥٦
نبأ حفظِه من الأخطاء اللفظية والمعنوية ٢٢٧
نبأ حفظه بالكتابة ٢٢٨
حفظُه اللفظي والمعنوي ٥٦٩
أسباب حفظه ٥٥٩، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤
نبأ بقاء لغة القرآن إلى يوم القيامة ٢٢٩
القرآن الكريم كان مكتوبًا في زمن الصحابة ٢٢٨
إثبات كتابته من أول أيام نــزوله ٥٦٤
اعتراف المستشرقين بكونه غير محرف ١٠٣، ٢٢٦-٢٢٧، ٥٥٧-٥٥٨
هو الكتاب الوحيد المحفوظ حسب بحوث معاصرة٣٠١
معنى قوله تعالى (فلا تنسى إلا ما شاء الله) ٥٦٧
حكمة نسيان الرسول ﷺ القرآن ٥٦٧

النسخ

لا نسخ في القرآن حسب عقيدتنا ٥٦٦

الأدلّةُ على عدم نسخه ٥١٤، ٥١٥، ٥٤٩

آداب تلاوته وترجمته

التغني به سنة نبوية ٤٣٧
كان أبو بكر ؓ شديد البكاء عند تلاوته ٥٨
النظر في السياق والقرائن عند تعيين معانيه ١١٣
معان مختلفة للفظة واحدة ليس مخالفا لقواعده ٤٩٤-٤٩٥

ضرورة الوحي لمعرفة علوم القرآن

عظمة القرآن تتطلب نـــزول الوحي في كل زمن ٤٢٧، ٥٣٠
ضرورة نبي بعد نـــزول القرآن ٥١٠، ٥٧١
بعثة نبي بشريعة جديدة محال بعد نـــزوله ٥٨٧
تنكشف معارفه الجديدة في كل زمن ٦٨٠
بعثة المسيح الموعود ؑ لنشر القرآن ٤٢٥
فوض الله نشر علومه إلى المسيح الموعود ؑ ٣٠١
المسيح الموعود أبطل ما نُسب خطأ إلى القرآن ٢٣٣
تلقي المفسر ؓ معارف القرآن بإلهام رباني ٦٩٣

أقسام القرآن

فلسفة القَسم في القرآن الكريم ٩٠
لم يرد فيه قَسم على الحوادث السابقة ٤٧٨

لغة القرآن واصطلاحاته

لسانه عربي مبين ٣٧٩
قضية الكلمات الأعجمية في القرآن ٣٨٠
العربية لغةُ الجيل الأول بعد الخَلق عند القرآن ٧١٥
أحيانًا يعني بالقيامة انقلابًا في الدنيا ٢٥٤
استخدام كلمة "أساطير" في القرآن ٣٩٣-٣٩٤
المراد من تعبيره "عشيّة أو ضحاها" ١٩٠
المراد من تعبيره "يوم أو بعض يوم" ١٩١
"سجين" و"عليين" يعني الآيات المبشرة والمنذرة ٣٨٦
لا يرِدْ حرف "كلا" إلا في السور المكية عادة ٢٢٢

خدمة القرآن الكريم

أوائل الصحابة الذين علّموا أهل المدينة القرآن ٥٠٩
خُدّام القرآن الكريم ٢٣٣-٢٣٤
حُفّاظه وخُدّامه ٤٢٤
نشر الصحابة تعاليمه إلى أنحاء الأرض ٢٢٨
سبب عدم انكشاف جميع معارفه على الصحابة ٦٧٩
الصفات الثلاث لِحَمَلةِ القرآن ٢٢٥، ٢٢٨

المقطعات القرآنية

الاستدلال بها على رقي الإسلام وتدهوره ٦٨٣
فيها أنباء الوقائع المهمة ٦٨٣

مقارنة القرآن مع الصحف الأخرى

أكبر ما يميزه على الكتب الأخرى ٣٢٧
لا يوجد كتاب سماوي محفوظ غير القرآن ٥٤٩، ٥٥٥
مقارنته مع الكتب السماوية الأخرى ٩٦، ٥٢٨، ٥٤٤
مقارنته معها في بيان ذات البارئ وصفاته ٥٢٨

القرآن والمعارضون

شتى نظريات كفار العرب عن القرآن ٩
اتهام القساوسة بانتحاله من الكتب السابقة ٤٠١
بحوث المستشرقين عن القرآن مبنية على الظن ٤٦٩

المتفرق عن القرآن

تصرُّف "أهل الحديث" الخاطئ تُجاه القرآن الكريم ٢٦٤
تصرُّف "أهل القرآن" الخاطئُ تجاه الحديث ٢٦٤

القَسم

المراد من القَسم في اللغة العربية ٩٣
حكم مختلفة للقَسم ٩٢
القَسم أكبر دليل على صدق ما يقال ١٠٠
القَسم لا يكون للإكرام ٧٧٩
فلسفة الأقسام القرآنية ٩٠

حقيقة قَسم الله ﷻ ١٠٢- ١٠٤
تشتمل الأقسام القرآنية على علوم الغيب ١٠٤
الأقسام في القرآن منوطة بحوادث مستقبلية٦٥٤، ٦٥٥
لا يوجد قسم فيه متعلق بحادث ماضٍ ٤٧٨
ينـــزل عذاب الله على الحالف كذبًا ١٠٥
حلف الرسول على صدق دعواه ١٠٦
حلف المسيح الموعود على صدق دعواه ١٠٦
ضرورة عدم العمل بالقَسم الخاطئ بالكفارة ٧٦٢

القلب

تأثُّره بالنصيحة ٥٧٦

القمر

معجزة شق القمر ٢٥١
الكسوف والخسوف آية على صدق المهدي ٢٥٤

القيامة

الإيمان بها

كل نبي يدعو إلى الإيمان بالقيامة بعد الإيمان بالله ١٦٠
"مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾" (الحديث) ٢٤٩

إثباتها

أسلوب القرآن الخاص لإثبات القيامة ١٦٣
الأدلة على القيامة ١٦٣-١٦٤، ١٨٠، ٢٣٨، ٣٩٩
إثبات القيامة بخَلق الله ﷻ ١٦١-١٦٢
علم الله التام دليل على يوم القيامة ١٦٢
صفة الله ﷻ المحيي دليل عليها ١٦٣
خلق الكون دليل على الحياة بعد الموت ١٦٩
قانون السببية دليل على القيامة ٢٩-٣٠
غلبة موسى على فرعون دليل على يوم القيامة ١٥٩
كل من القيامة وغلبة الإسلام دليل على الآخر ١٢١، ١٣٤، ١٥٠

حقيقة القيامة

ورود "القيامة" في القرآن بمعان مختلفة ٢٤٩
للقيامة ثلاثة معان لدى العلامة السندهي ٢٥٠
لكل قوم دوره ولكل دور قيامته ٣٧٧
بعثة نبي وهلاك مخالفيه قيامة ٢٤٩-٢٥٠
القيامة بمعنى يوم الآخرة وغلبة الإسلام ١٥٩، ٢٥٢_٢٥٤
القيامة انقلاب في الدنيا عند القرآن ٢٥٤
معاني "القيامة" و"الساعة" عند القرآن ٢٥١
المراد من قوله تعالى "اقتربت الساعة" ٢٥١
من مات فقد قامت قيامته (الحديث) ٢٥٠
أيُبعث الإنسان في الآخرة بجسد مادي؟ ٧٨
المجيء الثاني للمسيح هو القيامة عند المسيحية ٣٥٣

أشراط الساعة

أشراط الساعة ٢٥٤_٢٥٦
إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظرِ الساعة (الحديث) ٢٥٥
إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظرها (الحديث) ٢٥٥

أحوال الآخرة

الدمار قبل القيامة ٣٤
يومَ القيامة يقول الجميع نفسي نفسي ٢٤٤
يُحاسب المؤمن يسيرا والكافر عسيرًا ٢٥٣، ٢٨٤
شهادة الأيدي والأرجل يوم القيامة ٣٥٤
سبب بعث بعض الناس عميانا ٤٠٩
مسألة نجاة أولاد المشركين ٢٨٤

الكتاب المقدس

كتاب غير موثوق به ٥٥٠-٥٥١
تحليل مفصل له من قبل المحققين المسيحيين ٣٠١
دليل على تدوينه ثانيةً من الذاكرة ٥٥٢
كتاب باليونانية نُسب إلى عُزير و لم يُذكر في الكتاب المقدس ٥٥١

نبوءة إشعياء عن غزوة بدر ٦٧٦-٦٧٧

الكشف

رؤية المسيح الموعود المسيحَ الناصري قلقًا على شرك قومه ٣٣٢
كشف للمسيح الموعود حول ازدهار قاديان ٦٩٩
كشفٌ لأُمٍّ شابٍ مذنب ٣٤١

الكفّارة

طريق كفّارة الكبائر ٢٩٤
كفّارة وأد البنات ٢٩٤
يجب عدم العمل بالقَسم الخاطئ بأداء الكفّارة ٧٦٢

الكفر والكفار

مرحلة التمييز البيّن بين الإسلام والكفر ٢٤٦-٢٤٧
حسرات الكفار ٨٤
يبدأ الكافر عمله بالفرح وينهيه بالترح ٤٤٨
كان كفار العرب موقنين بغلبة الإسلام ١٠-١١
هل تضيع حسنات أيام الكفر؟ ٨٠٩

عقائد الكافرين

شتى نظريات كفار العرب عن الحياة بعد الممات ٩
لم يكن الكفار يؤمنون بالحساب ٥٣
مَن قال مُطرنا بنَوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب (الحديث) ١١٥
آراء كفار العرب المختلفة عن القرآن الكريم ٩
تبرّأ كل كافر من كفره سرًّا بعد بعثة النبي ﷺ ١٢٢

سيئات الكفار الاجتماعية

أربع سيئات اجتماعية لدى الكفار ٧٣٩
أخلاقهم ٢١٣
حالة قلوبهم ٤٨٩
تطرُّفُهم ضد الإسلام ٥٢
إنفاقهم المال تفاخرًا ٧٩٩، ٨٠٧
أسباب دمار الكفار موجودة في مجتمعهم ٧٣٩

كفار مكة

بدأ اضطهادهم المنظم للمسلمين بعد السنة الرابعة للبعثة النبوية ٥٩٢
ظلموا المسلمين مخالفين تقاليدهم التي يعود تاريخها إلى ٢٥٠٠ عام ٧٦٤
تحريضهم القبائل ضد النبي ﷺ ٦٧٥
جرائمهم الكبيرة ٧١٧
فشل مؤامراتهم ضد النبي ﷺ ٦٧١
فشلهم في الحبشة ٥٩
عاقبتهم ٨١١
حالتهم النفسية عند فتح مكة ١٨٢، ٦٠٠
إسلام أولادهم لم يكن أقل من العذاب لهم ٥٩٥

الكون

نظام الكون أهم وأدق من خلق الإنسان ١٦٦
سعة الكون ٣١، ٣٢، ٢٩٩
نظام الكون لم يُخلق عبثًا ٢٤، ٣٠، ٣٢
الأدلة على أن الكون لم يُخلق صدفةً ١٦٧
حالة ما قبل خلقِ الأرض والسماء ٤٣٧
أهمية الأجرام والسماوات في نظام العالم ١٧٢
قانون السببية في الكون ٢٩-٣٠
نظام الفَلَك دليل على عِظَم هدف خلق الكون ٢٤
حقيقة السماوات السبع ٢٤-٢٥
المراد من انفتاح أبواب السماء ٣٩،٣٤
انشقاق السماء يعني نـــزول الوحي ٤٣٦
انشقاق السماء بمعنى غلبة المسيحية ٣٣٠
تفسير قوله تعالى "إذا السماء كُشطت" ٢٩٨-٣٠٢

اللباس

منافع اللباس ٢٠
سبب تسمية الليل لباسًا ١٩

اللغو

فوائد تجنُّب اللغو ٧٢

المال

أضرار تجميد أموال الأمة ٧٤٧-٧٤٨
الاستثمار في الأغراض القومية ٧٤٧-٧٤٨
أهمية إخراج حق الفقراء من الأموال العامة٧٤٤-٧٤٥
حب المال ٧٤٦
أثر حب المال على الأمم ٧٤٦-٧٤٧
حب المال يؤدي إلى خيانة الوطن ٧٤٧
استعمال المال في محله وغير محله ٧٢٤
الإسراف سيّئة اجتماعية ٧٣٨
الإسراف مؤشر كبير على تدهور الأمة ٧٤٨

المؤمن (انظر في الإيمان)

المجتمع

أربع سيئات اجتماعية تدمر الشعوب ٧٣٩

المجددون

إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها (الحديث) ٤٧١
نبأ بعثة المسيح الموعود عليه السلام بعد اثني عشر مجددًا ٤٧١
كان عبد الله بن الزبير أول المجددين عند الكثيرين ٦٤٣

المخترعات (راجع أيضًا العلم)

اختراع المذياع ٥٤
قد تُخترع آلة تمكّننا من سماع أصوات الأولين٥٤-٥٥
مخترعات أديسون ٢٧٢

المرأة

المكانة التي يريدها الإسلام للمرأة ٧٠
نبأ ارتفاع مستوى المسلمات الديني ٦٦
روح التنافس في الصحابيات ١٢٥
شجاعة المسلمات ٦٦-٦٧
محال تطوُّر أمة دون نساء عاليات الهمة ٦٨-٧٠

المسجد

آداب المسجد ٧١٤

المسكين

المراد من "مسكينًا ذا متربة" ٨٠٨
الفتح في الحرب محال دون مراعاة المساكين ٧٤٣
نظام الأحمدية في مراعاة المساكين ٧٤٤

المسلم (راجع الإسلام أيضًا)

صفات المسلم الصادق

خصائص المسلم الصادق ١٤٢-١٤٤
أخلاق المسلم المثالي ٦١٣-٦١٤
الحاكم المثالي ٦١٨
بذل الصحابة أقصى جهد في اتّباع النبي صلى الله عليه وسلم ١٤٢
مزايا مسلمي العصر الأول على مستوى المجتمع ١٣٧
روح التنافس في العصر الأول ١٤٢
كان الأغنياء منهم يعتبرون أموالهم أمانة إلهية ٦١٨
نماذج شجاعة المسلمات ٦٧-٦٩
لم يبال المسلمون بالوطن من أجل الله عز وجل ١٤٤
انتشار العلوم على أيدي المسلمين ٦١٦
انتشار العلم في أنحاء العالم بأيديهم ٣٢
تفوق المسلمين في تعظيم كتابهم ٢٢٥-٢٢٨
صوفية الفَيج الأعوج ٤١٨

غلبة المسلمين

ظل المسلمون ضعفاء إلى غزوة الخندق ٦٠٣
نبأ عزتهم وإكرامهم في العالم ٦٢٠
التيسير للمسلمين لتعلُّم العلوم السماوية ٦١٩
نالوا أجرهم الدنيوي دون حساب ٢٥٣
فتوحاتهم العظيمة الأولى ٥٩
بقي المسلمون حكام العالم قرابة سبعة قرون ٤٢

سيطرتهم على آسيا وإفريقيا الشمالية ٤٧
حكمهم على إسبانيا والهند مدة طويلة ٣٥-٣٦
دعوة نصارى حمص لعودة المسلمين حكامًا ٦٢٣
سرُّ نصرهم ١٣٥

أنباء متعلقة بالمسلمين

نبأُ تركِهم السنةَ النبوية ٢٦٤
نبأ نسيان المسلمين روح القرآن في آخر الزمان ٥٦٩
نبأ تدهور المسلمين بعد ألف سنة ٤٧

تدهورهم

لم يظهر الخلاف في المسلمين جليًا حتى سنة ٢٧٠ ٤٦
بدأت المَلَكية بعد ثلاثمئة سنة ٤٧
ثلاث صفات لمسلمي هذا الزمن ٢٧١
تركوا اتّباع النبي ﷺ حقيقةً في هذا العصر ٢٦٣
لا يهتمون بالاقتداء بالصحابة ٢٦٦
سقوطهم نتيجة تركهم العادات القومية الحسنة ٢٦٦
تقليدهم الغربَ ٣٠٥
اتهامهم الأسلافَ ٢٦٧-٢٦٨
نتيجةُ طمع مسلمي ولاية "أوده" الهندية في الربا ٧٤٧
حالة المسلمين الروحانية قبل بعثة المسيح الموعود ٤٤٤
انحراف أهل الحديث وأهل السنة عن روح الدين ٢٦٣

نصائح للمسلمين

أمر الله ﷻ المسلمين بحماية حدود بلادهم ٦٤
لن يتطور المسلمون أبدًا بالوسائل المادية ٥٨٧
ضرورة رفع المستوى الديني للمسلمات ٦٦
ضرورة المسيح والمهدي ٣٢٦

المسيح الموعود والمهدي عليه السلام (راجعْ مرزا غلام أحمد القادياني أيضًا)

نبأ بعثته في آخر الزمان لنشر الإسلام والقرآن ٤٢٥
نبأ قرآني عن بعثة المسيح الموعود ٤٧٤
في سورة البروج إشارة إلى المسيح الموعود ٤٧٨-٤٧٩، ٦٣٥
علاقة المسيح الموعود بالتسبيح ٥١٥
نبأ المهدي في سورة الطارق ٦٣٥
الأحاديث تدل على ظهور المسيح والمهدي في الأمة المحمدية ٢٥١
ضرورة المسيح والمهدي ٣٢٦
نبأ الكسوف والخسوف في رمضان ٢٤٥-٢٦٥
المهدي والمسيح شخص واحد ٦٩٤
قال المسيح الموعود أن مداره على اسم المهدي ٤٩٦
غلبة الإسلام وإقامة شريعته مقدر على يد المهدي ٤٩٨
الفتوحات منوطة بالمهدي ٤٩٦
ذروة التطور الإنساني منوطة بموعود بشَّر به كلُّ دين ٢٤١

المسيحية

نالت المسيحية الغلبة بعد ثلاثة قرون ٨
مدى أثر المسيحية عند نـــزول القرآن ٣٣٠
زمن نهضة المسيحية ٤٦-٤٧
علم المسلمين هو أساس تطور الأمم المسيحية ٣٤٧
المقارنة بين غلبة الإسلام والمسيحية ٣٣١

مستقبلها

مستقبلها ٣٠٨
ثلاث هزات دمار للمسيحية ٤٠٧
سينفر المسيحيون من عقائدهم خلال ثلاثة قرون ٤٦٠
نبأ فساد الكنيسة ٣٣٥

تعاليمها وعقائدها

التعارض الصريح في اعتقادها بالله ٣٤٤
طبق عقيدتها لا يمكن لله ﷻ أن يرحم ٣٦٤
يتوسل المسيحيون في أدعيتهم إلى يسوعَ ٣٣٨
نبأ وقوع أهلها في الفجور الشديد ٣٨٥-٣٨٦

إنذار نـــزول العذاب عليهم بعد نـــزول المائدة ٤٠٦
رد على عقيدتهم في صفتي الغفور والودود ٤٨٧-٤٨٨
حقيقة دعائهم لنـــزول مُلك الله على الأرض ٤٨٨
الرد على عقيدة بنوة الله ﷻ ٣٤٦
عقيدة بنوة الله ﷻ بمثابة تشقُّق السماء ٣٣٠-٣٣١
أساس دينهم على فداء المسيح ٣٥٩
أساس الفداء ٣٤٦
الفداء طريقة غير طبيعية ٣٤٨
لا يؤمنون بالقيامة ٣٥٢
تعاليمهم المتناقضة ٣٦٤
فقدان الاعتدال في تعاليمهم ٥١
استنبط المسيحيون عكس تعاليمهم الأصلية ٣٦٤
عواقب اعتبار الشريعة لعنة ٢٢٦
اتخذوا الثالوث واستبدلوا بيوم السبت يوم الأحد بطلب قيصر روما ٤٢٣
جانبان كبيران وخطيران لأعمالهم ٣٦٥
ديدنهم احتقار الأنبياء الآخرين ٣٥١
شرب الخمر حسنٌ في نظرهم ٢٦٨
إساءتهم للمقابر ٣٣٦

أناجيلها

انتهى العمل بتعاليم الإنجيل عمليًا ٢٢٥
الأناجيل كتبت بعد ١٨٠ سنة ٢٢٨
عدد الأناجيل يناهز الثلاث مئة ٥٥٠
لا يذكر المسيحيون منه إلا قليلا ٣٢٩
فتوى قساوسة بريطانيا عكس ما جاء في الأناجيل ٢٢٥-٢٢٦

خصائصها

عيبان خطيران في تاريخ المسيحية ٣٤٦
التطفيف من عادة المسيحيين ٣٦٥
يتعاضدون فيما بينهم ويسيئون إلى الآخرين ٣٦٥
الغرب المسيحي يهضم حقوقَ البلاد الأخرى ٣٦٦
شطارتهم في التجارة ٣٧٣
قصة "شايلوك" تنطبق عليهم ٣٧٠
فشلوا خلال ١٩٠٠ سنة في إقامة مُلك الله ٣٥٩
رقيهم المادي سببُ كبرهم ٣٤٧
مسيحيو الغرب ملحدون ومع ذلك يعظمون المسيح ٣٣١

الإسلام والمسيحية

تنبيه رباني لهم إلى التوحيد من خلال الإسلام ٣٤٧
دعوة النبي العبيد المسيحيين إلى الله ﷻ ٢٠٣
المقارنة بين العبادات الإسلامية والمسيحية ٥٧٣

المصلح الموعود ؓ

أنا مصداقُ نبأِ المسيح الموعود عن "المصلح الموعود" (المفسر) ٢٥٧

المعجزة

معجزة انشقاق القمر وتأويله ٢٥١-٢٥٢
الهجرة إلى المدينة سبب ظهور معجزة ٦٧١-٦٧٣
معجزة العصا هي أكبر معجزات موسى ١٥٨

المعراج

حدث في العام الخامس من النبوة ٢٨٩

الملائكة

حكمُهم على الدنيا ١٢٥
لكل سببٍ ملَكٌ مسبِّبٌ ١٢١
ليسوا بحاجة إلى هبوط جسدي ١٢٠
عملهم بعد بعثة النبي ﷺ الدعاء للمؤمنين ١٢٣
إشراكهم في بعض صفات الله ﷻ شرك ١٢٠

المهدي (انظرْ في المسيح الموعود)

الموت

اعتبر الله ﷻ الموت منّةً على الإنسان ٢٣٧

النبات

ضرورة التفكر في عالم النباتات ٢٤١

النبوءة

أهميتها وغرضها ١٨٩
الإخبار عن موعد تحقق النبأ ليس ضروريًا ١٨٧
البحث في موعد وقوع النبأ لغو ١٨٨
بعض أنباء النبي يصبح عهدًا ٣٦
النبأ الحقيقي قول النبي "سأنتصر وستنهزم الدنيا بمواجهتي" ١٨٨
حِكَمٌ في تأجيل الأنباء ١٨٧
الابتلاء النازل حسب النبوءات يقوي المؤمنين ٢٦٠
ردُّ فعل بنوعيه على الأنباء ٨٧
نبأ لموسى في التثنية عن بعثة النبي ﷺ ٥٨١

أنباء عن المسيحية

نبأ عن انغماس المسيحيين في الفجور ٣٨٥-٣٨٦
نبأ عن فساد الكنيسة ٣٣٥-٣٣٦

أنباء عن معارضة الإسلام

نبأ في الفترة المكية عن معارضة شديدة للإسلام لعشر سنوات ٦٦٤،٦٦٧
نبأ عن الاعتداء على النبي وعِرضه في حرم مكة ٧٦٣
نبأ عن ظلم أهل مكة للرسول وصحابته ٧٦٤-٧٦٥
نبأ هجرة النبي ﷺ من مكة ورجوعه إليها ٧٦٨
ظهور نبأ "والشفع والوتر" في سفر الهجرة ٦٧٢-٦٧٤
نبأ عن غزوة بدر في الفترة المكية ١٣٠

أنباء عن القرآن الكريم

نبأ عن بقاء القرآن إلى الأبد ٥٥٩
نبأ عن كتابة القرآن الكريم ٢٢٨
نبأ عن انتشار تعاليمه في العالم ٢٢٨
نبأ عن احترام القرآن الكريم ٢٢٥،٢٣٠
نبأ عن كون القرآن في أيدي قوم يُظهرون معارفه ٢٢٩

أنباء عن الأمة

نبأ عن بلوغ الأمة ذروةَ الروحانية ١٥٦
نبأ وجود مفسرين مشرَّفين بوحي الله في كل عصر ٤٢٨
أظهر الله ﷻ في عاشوراء موسى على فرعون وسيحدث مثله في الأمة المسلمة ٦٥٢
نبأ فلاح المؤمنين ونجاتهم من المكروهات ٥٧
تحقُّقُ نبأ للنبي ﷺ عن سراقة ٦١

أنباء عن الفتوحات والغلبة

نبأ في الفترة المكية عن غلبة الإسلام ٦٢٩
نبأ فتوحات الإسلام في السور المكية الأولية ١٢٨
أنباء في المقطعات عن تطورات في الإسلام ٦٨٣
نبأ في الغاشية عن تطور المسلمين وهزيمة الكفار ٥٨٦
نبأ انتشار المسلمين إلى أقاصي الأرض ١٤٤
نبأ عزة المسلمين وتكريمهم في العالم ٦٢١
نبأ عن رؤية أعداء الإسلام غلبتَه ٥٧٩
نبأ غلبة الإسلام على أعدائه إلى عشرة قرون ٤٦
نبأ عن فتح مكة ١٨١
نبأ فتح مكة في: "يوم يقوم الروح والملائكة" ٨١
بفتح مكة تحقق النبأ المذكور في سورة البلد ٧٦٩
في معجزة شق القمر نبأ انتهاء حكم العرب ٢٥١
نبأ نـــزول عقوبات دنيوية مختلفة على الكفار ١٨١
نبأ ندم الكفار وخجلهم ١٥١
نبأ نـــزول العذاب الخاص في زمن الرسول ﷺ والمسيح الموعود ؑ ٥٨٩

أنباء عن تدهور المسلمين

نبأ تدهور الأخلاق والروحانية في المسلمين ٦٩٠
نبأ زمن تدهور الإسلام بهجوم الترك ٢٥٦
نبأ امتداد زمن تدهور الإسلام لألف سنة ٦٨٤
نبأ تدهور المسلمين بعد ألف سنة ٤٧

لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه (الحديث) ٤٦٣، ٥٦٩
نبأ عن ترْك الاقتداء الحقيقي بالرسول ﷺ ٢٦٤، ٦٥٤
نبأ عن ترك اتّباع الصحابة ٢٦٦

أنباء عن النشأة الثانية للإسلام

نبأ إحياء الإسلام وتطوُّره من القرن ١٣ إلى ١٦ ٦٨٨-٦٨٩
نبأ زوال المسلمين والنشأة الثانية للإسلام ٣٠٧-٣٠٨
نبأ تطور الإسلام ثانية من السنة ١٣٠٠هـ ٢٥٧
نبأ إحياء الإسلام بعد السنة ١٢٧١هـ ٦٨٥

أنباء عن المسيح الموعود والمهدي

نبأ بعثة المسيح الموعود في الأمة المحمدية ٥٧١
أنباء سورة الفجر عن البعثة الثانية للنبي ﷺ ٦٨٢
نبأ بعثة المسيح الموعود في الأمة المحمدية ٤٥٧
نبأ بعثة موعود في آخر الزمان لنشر الإسلام ٤٢٥
نبأ بعثة رجل فارسي الأصل عند صعود الإيمان إلى الثريا ٤٦٣
نبأ ظهور مبعوث من الشرق لتأييد الإسلام ٣١٧
نبأ يحدد زمن بعثة المسيح الموعود ٦٩١
نبأ بعثة موعودٍ في قرن ١٣ لإحياء الإسلام ٦٨٩-٦٩٠
زمن طلوع الفجر هو ١٣٠٢هـ وهو عام نُشر فيه كتاب "براهين أحمدية" ٦٩١
أنباء في سورة الفجر عن مراحل تاريخ الأحمدية ٦٩٥
نبأ الكسوف والخسوف للإمام المهدي ٢٦٥، ٦٥٤
نبأ المعارضة الشديدة لجماعة المسيح الموعود عليه السلام ٤٨١

أنباء عن الزمن الأخير

نبأ بعثة نبي واشتعال غضب الله نتيجة تكذيبه ٣٠٢
نبأ نـــزول القرآن وعلومه ثانية ٤٣٨، ٤٦١
نبأ تطوُّر العلوم الأرضية والسماوية ٤٤٢
نبأ انتشار الصحف وتحقُّقه ٢٩٧
نبأ سقوط الشهب الثاقبة بكثرة ٢٦٩
نبأ نسف الجبال ٢٧٠
نبأ حفر قناة بين بحرين ٣٣٥
نبأ حشر الحيوانات المفترسة ٢٧٦
نبأ تعطيل الإبل باختراع وسائل نقل جديدة ٢٧٤
نبأ تهذيب الأقوام الوحشية وقيام حكوماتهم ٢٧٧
نبأ إنجاب الإماء سادةَ القوم ٢٥٥
نبأ "وإذا الموءودة سئلت" ٢٩٦
نبأ وصول أنواع الطعام والشراب إلى بلاد العرب ٢٧٥
نبأ عظيم تحقّقَ في هذا الزمن ٧٠٨

أنباء المسيح الموعود عليه السلام

أنباؤه عن مستقبل الجماعة الأحمدية ٤٥٩-٤٦٠
نبأ غلبة الأحمدية خلال ٣ قرون ٣١٧
نبأ أنه سيعطى جماعة مضحِّية ٤٤٠
نبأ هجرة الناس إلى قاديان ٦٩٩
نبأ وضعِ عصا روسيا في يده ٣١٧
الدليل على صدق جميع أنبائه ٣١٧
نبأ "زلزلة الساعة" ٦٥٧
دحض شبهة كون نبوءاته مبهمة ١٨٨
مطالبته عليه السلام القسَّ "آتهم" بالحلف أنه لم يرتعب من نبوءته ١٠٥

النبوة والنبي

معنى النبي لغة ٤
ضرورة بعثة الأنبياء ١٧٢
حساب الأقوام في زمن بعثة الأنبياء ٣٠٤
حالة أقوام الأنبياء قبل بعثتهم ١٩-٢٠
الأيام التي يوجد فيها نبي هي أيام الحياة الحقيقية ٢٣
لا ينـــزل العذاب دون بعثة نبي ٢٩٠،٢٨٧
ليس ضروريًا أن يأتي النبي بشرع جديد أو أحكام جديدة أو صحيفة جديدة ٢٢٤

الغرض من بعثة الأنبياء

كل نبي يدعو إلى الإيمان بالقيامة بعد الإيمان بالله ١٦٠

النشأة الروحانية على أيدي الأنبياء ١٦٣،١٦٠

الانقلاب الأخلاقي والروحاني على أيديهم ١٧٢

تبقى مواهب الناس خفية ما لم يُبعَث نبي ١٧٢

قام الأنبياء بإحياء في ظروف غير مواتية وقدموا دليلا على الحياة الآخرة ١٦٥-١٦٦

كل نبي يعطى التعاليم بحَسَبِ أحوال زمنه ٣٥١

إخلاص المؤمنين في حياة الأنبياء ٢٨

صدق الأنبياء وعلاماته

قواعد معرفة صدق النبي الصادق ١٠

الفرق بين المدعي الصادق والكاذب ٩٧، ٣١٨، ٣١٩

كل نبي تغلّبَ على صعوبة الأوضاع ١٦٠

علامات جماعة المدعي الصادق ٣١٩

قِيَمُ جماعة النبي الصادق الجوهرية ٧٩٢

يُعامَل الأنبياء بتقدير بالغ قبل بعثتهم ١٤١

يؤاخذ الله ﷻ النبي الكاذب حتمًا ٩٩

صفاتهم ومهماتهم

كان إبراهيم عليه السلام نبيا تابعًا لنوح عليه السلام ٢٢٤

كل نبي شاهد ومشهود ٤٧٣

يُبعث يوم القيامة نبي للمجانين والعجائز المختلين والأولاد ٢٨٧-٢٨٩

أخلاق الأنبياء أسمى من أخلاق الفلاسفة ٤٠٨

كل نبي يحمل تعاليم الأنبياء السابقين ٢٢٤

لا يؤمن بالنبي عمومًا إلا الفقراء ١٩٤

لا توجد سرّيّة في جماعة الأنبياء ٣٢٢

الأنبياء يعظمون المكان الذي نــزلت فيه آية رحمة الله ويخافون غضبه ٧١٢-٧١٣

آداب سماع خطاب نبي ٢٠٨

اعتبار بعض أنباء الأنبياء عهدًا ٣٦

لا يخبر نبي عن تدهور الناس فقط بل يبشر ببعثتهم ثانية أيضًا ٢٥٨

يغار الله ﷻ على أنبيائه كثيرًا ٢١٤

معارضتهم وقتلهم

سبب معارضتهم الأساسي ١٠

لا يخالف الناس إلا نبيا صادقا ٧٧٢

أكبر جريمة قتلُ نبي (الحديث) ٧١٨

تكفير النبي سبب إنكار جميع الحسنات ٦٣٢

تحقير الأنبياء السابقين مخالف للعقل ٣٥١

شقاوة الكافرين بالأنبياء ٥٧٧

عاقبة الأنبياء ومخالفيهم ٣٩٥

بعثة نبي ودمار معارضيه قيامة أيضًا ٢٥٠

النبي صاحب الشريعة لا يُقتل ٦٧٠

لا يُقتل أول نبي في سلسلة نبوة ولا آخرها ٥٠٠

فضل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين

نبينا ﷺ وحده مبعوث لجميع الأقوام ٦٨٥

غلبة النبي ﷺ أكبر من غلبة الأنبياء الآخرين ٨

علة عدم نزول القول الفصل على الأنبياء السابقين ٥١٣

النبوة في الأمة المحمدية

سيُبعث أنبياء خادمون للرسول ﷺ دائمًا ٦٨٥

نبأ بعثة نبي في آخر الزمان ٣٠٢

مكانة نبي تابع في الأمة المحمدية ٤٩٦

لا يمكن نيل النبوة في الإسلام إلا بالتفاني في الرسول ﷺ ٦٩٣

بعثة نبي للحفاظ على معاني القرآن ٥٦٩

المتفرقات عن النبوة

لا ينــزل العذاب دون بعثة نبي ٢٨٧، ٢٩٠

المراد من "رسول كريم" نبينا ﷺ ٣١٠

ضرورة المبعوثين ٥٠٥

الوقت الصحيح لبعثة المبعوثين ٣٢٥

الفرق بين المدعي الصادق والكاذب ٣١٧

من معاني "إن عليكم لحافظين كراما كاتبين" مبعوث الوقت وجماعته ٣٥٥
لا تكون المعارضة إلا بإذن الله وهي علامة صدق ٧٧١
نبأ بعثة المبعوث من المشرق ٣١٦
بعثة المبعوثين في الأمة المحمدية للحفاظ على معاني القرآن ٥٧٠
محال أن يأتي المبعوثون بشريعة جديدة بعد القرآن ٥٨٧
نبأ معارضة المبعوث الآتي لرقي الإسلام ٥٨٧
القرآن جامع لتعاليم جميع الصحف ٢٢٤

النجاة

الجميع ينالون النجاة في النهاية ٤٨-٤٩
مسألة نجاة أولاد المشركين ٢٨٤
عقيدة مسيحية غير طبيعية في النجاة ٣٥٠

النجاح والفلاح

سرّ النجاح ٢٣، ٥٢
الاعتدال يؤدي إلى النجاح ٦٦
أمر ضروري لنجاح الأقوام ٦٦

النجم (راجع الكون أيضًا)

الفرق بين النجم والكوكب ٣٣٣
اختراع المناظير والتقدمُ في علم الأفلاك ٢٩٩
تشبيه الصحابة بالنجوم ٢٦٦
انكدار النجوم يعني عدم اتباع الصحابة ٢٦٦-٢٦٧
تحقُّقُ نبأ سقوط الشهب بكثرة سنة ١٨٨٥ ٢٦٩

النصيحة

النصيحة تؤثر بالقلب حتمًا ٥٧٦

النفاق

الإكراه يولّد النفاقَ ٦٢٨
المنافقون مصابون بعيوب ينسبونها إلى الآخرين ٢١٥

النفس

النفس المطمئنة ٧١٥

النوم

أهمية النوم في حياة الإنسان ١٨-١٩
عصور غفلة الأقوام ونهضتهم ١٨-١٩

الهجرة

أنباء هجرة الحبشة وهجرة المدينة ٦٢
إشارة خفية إلى هجرة الرسول ﷺ ٢٧
الهجرة إلى الحبشة كانت في العام الخامس للبعثة ٥٩
قام الصحابة بهجرتين ١٤٤
أصحاب الهجرتين ٤٧
إذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة ٦٠، ٦٦٨
نية أبي بكر ؓ للهجرة ٥٨
هجرة النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة ٦٠-٦١
رقود علي ؓ في سرير الرسول ﷺ ٧
هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كانت فجر الإسلام ٦٦٨
هجرة الناس إلى قاديان طبق النبوءات ٦٩٩

الهندوسية ٣٦

تعاليمها غير فطرية لا يمكن العمل بها ٤٠٨، ٥٤٠
إيمان الهندوس أن كتاب الفيدا للأبد ولكن ليست للعالم كله ٦٨٦
تعاليم هندوسية بإلقاء الرصاص في آذان "الشودر" إذا سمعوا الفيدا ٦٨٦

الوالدان

مظهران ناقصان لربوبية الله ٥١٦

الوحي/ كلام الله

ضرورة نــزول الوحي الإلهي ٥٣٠
في الإنسان استعداد لتلقّي وحي الله ٥٠٥

ضرورة الوحي رغم نـــزول الكتاب الكامل ٥٣٤
الفرق بين كلام الله ﷻ وغيره ٢٥٨
الله ﷻ نفسه يقدم الأدلة على صدق كلامه ٩٩
الكلام المنـــزل من الله بحاجة للإثبات أحيانا ٩٨
قد يكون في كلام الله ﷻ غموض بسيط ٤٦
الفرق بين الوحي القابل للنسخ وغيرِه ٥٤٧
كلام الله ﷻ ثمرة صفته الرحمانية ٧٦
آثار كلام الله ﷻ السريعة وبعيدة المدى ٣٢
لا يعمل على إزالة عيوب الدنيا إلا كلام الله ﷻ وبعثة الأنبياء ١٧٣
نبأ نـــزول وحي من الله ﷻ يتضمن علوم القرآن في آخر الزمان ٤٣٨
بدأ نـــزول الوحي على النبي بالرؤى الصالحة ٤١٦
تشبيه الوحي بصلصلة الجرس ٦٣٤
وحي إلهي منسّق ومتسلسل ٦٣٤
كلمة "تسنيم" تعني وحي الله ﷻ ٤٢٧
ضرورة كلام الله المتجدد في كل عصر ٤٢٧
ضرورة الإلهام بعد نـــزول القرآن ٥١٢
بطش الله بالمفترين ١٠٠
نبأ وجود المفسرين المشرَّفين بوحي الله ٤٢٨
علاقة صفة المهدوية والمسيحية بوحي الله ٤٩٨
التدريج في إلهامات المسيح الموعود عليه السلام ٤١٦
سبب تركيز المسيح الموعود عليه السلام على إلهاماته ٦٣٣
انكشاف علوم القرآن على المفسر بالإلهام ٦٣٦-٦٣٧

إلهامات للمسيح الموعود عليه السلام

"إني مع الأفواج آتيك بغتة" ٤٩٠
جَرِيُّ الله في حُلل الأنبياء" ١٧١
"والسماء والطارق" ٦٩٠-٦٩١
"والله يعصمك من الناس" ٥٠٠
"يأتي عليك زمن كمثل زمن موسى" ٧١٩
"يأتيك من كل فج عميق..." ٦٩٩، ٧٠١
"يا قمر، يا شمس أنت مني وأنا منك" ٤٧٣
"يحيي الدين ويقيم الشريعة" ٧٠٤
"ينقطع من آبائك ويبدأ منك" ١٩٠
"يوم تأتي السماء بدخان مبين، وترى الأرض يومئذ خامدة مصفرة" ٥٩٠
"أوى النبي ﷺ إلى قلعة الهند" (ترجمة) ٦٩٢
"كم من صغير سيُجعل كبيرا وكم من كبير سيُجعل صغيرا" ٦٠٧

الوطن

حب الوطن من الإيمان (الحديث) ١٤٤
الصدق أغلى من الوطن ١٤٤
لم يبال المسلمون بالوطن من أجل الله ﷻ ١٤٤
ترك الوطن وسيلة للرقي القومي ١٤٤

اليتيم

رعاية اليتامى والمساكين ٧٣٩
الحث على تربية اليتامى ٧٤٠،٧٤٩
يتيمًا ذا مقربة ٨٠٧
العواقب الوخيمة لعدم رعاية اليتامى ٧٤٧

اليهود

١٧ ٤٤ ٨١ ٦٥٤ ٦٩٦
سماهم الكتاب المقدس أبناء الله ٣٤٦
إلقاء نبوخذنصر اليهود في النار ٤٧٥
سباهم نبوخذنصر من فلسطين ورجعوا إليها بمساعدة قورش ٥٥٢
أضافوا إلى التوراة الأقوال المنسوبة إلى موسى بعده بفترة طويلة ٢٢٨
كتب عُزيرٌ التوراة الضائعة من ذاكرته ٥٥٠-٥٥١
افتقار تعاليمهم إلى الاعتدال ٥١
كان يهود المدينة يخبرون عن قرب بعثة نبي ٦٦٧
كانوا يؤمنون في البداية بنـــزول شريعة جديدة ٦٨٧
اتفاقيات المسلمين مع اليهود ٦١

المجتمع اليهودي.. تقاليد سيئة واستغلال غاشم ٨٠٦
لا يؤمن معظم اليهود بيوم القيامة ٣٥٣
استهزاؤهم بالمسلمين ٣٨٤
إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ١٢٨

يوم الفرقان

يوم بدر يوم الفرقان ٦٧٦
يوم الفرقان في تاريخ الأحمدية ٦٧٥

يوم الفصل ٣٨٨

حقيقة يوم الفصل ٣٦
صلح الحديبية كان أساس يوم الفصل ٣٩

اليوم الموعود

المراد من اليوم الموعود القرن الثالث عشر وبعثة موعود فيه لإحياء الإسلام ٦٨٩
هو زمن بعثة المسيح الموعود عليه السلام ٤٧١
المظاهر المختلفة لليوم الموعود ٤٧٢

(٢)

فهرس الأعلام

شعوب وشخصيات

آقم القس عبد الله

مطالبة المسيح الموعود عليه السلام إياه بالحلف أنه لم يرتعب نبوءته ١٠٥

آدم عليه السلام ١٨، ٢٢٤، ٧١٥

إغواء الشيطان إياه ٥٧٧، ٥٦٨

نسي و لم نجد له عزمًا ٥٦٨

لم يكن الناس في زمنه يعرفون ما هي السرقة ٥١٨

سبب عدم نزول الشرع الكامل في زمنه ٥٣٦

بعثة آدم روحاني في آخر الزمان ٤٣٨

الآلوسي

صاحب تفسير روح المعاني ٢٨٥

إبراهيم عليه السلام ٦، ٣٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ٢٢٤، ٢٨٧ ، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٨، ٥٠٩، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٦٤٩، ٦٥١،٦٥٣، ٦٥٦،٦٥٨

عاش قبل النبي ﷺ بـــ٢٥٠٠ سنة ٧٦٤، ٧٧١،٧٧٠

تاريخ العرب مسجل منذ زمنه عليه السلام ٦٢٦

توكُّله وتضحيته العظيمة ٦٤٨

لم يكن نبيا تشريعيًا بل كان تابعًا لنوح ٢٢٤، ٥٨١

جمعت صحيفته صحف نوح وغيره من الأنبياء ٢٢٤

تكشف لنا صحفه عن بعثة نبي عظيم يأتي بشريعة كاملة ٥٨١

رؤية النبي ﷺ إياه في المعراج ٢٨٧، ٢٨٩

علاقته بالبيت الحرام ٧٧٩، ٧٨٠

وضعُه قواعد البيت الحرام ٧٦٩

دعاؤه لإسماعيل وأولاده ٧٨٣

دعاؤه لبعثة النبي ﷺ ٥٨١

استجابة دعائه ٥٨١، ٥٨٢

نبؤه عن بعثة النبي ﷺ آية عظيمة ٦٥٨

إبراهيم الأصبهاني ٦٤٣

إبراهيم بن محمد ﷺ

صبرُ النبي ﷺ على وفاته ٧٣٥

إبراهيم السيالكوتي ٥٩٧

أبرهة، والي اليمن مِن قِبل مَلِكِ الحبشة ٧٧٠

هجومه على الكعبة ومصيره الوخيم ٧٥٨ ، ٧٧٠، ٧٧٧

ابن أبي حاتم ٤٢، ٤٣، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٤٢

ابن أبي ذئب ٤٥٢

ابن أبي نجيح ٦٤٤

ابن أم مكتوم رضي الله عنه..راجِعْ عبد الله بن أم مكتوم)

ابن تيمية الإمام ٢٨٧

ابن جرير ٤٣، ٥٠، ٦٤٢، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٨٢

ابن جزي ١٧١

ابن حيان صاحب البحر المحيط ٦٣٣، ٦٣٩

نظرته في ترتيب بين سور القرآن جديرة بالتقدير (المفسر) ٦٣٤

ابن خالويه ٤٩١

ابن خيثم ٣٤٢

ابن الدغنة ٥٨

قصة إجارته أبا بكر رضي الله عنه ٥٨

ابن الزبير رضي الله عنه ٥٠٩، ٦٣١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٨٧، ٥٠٩، ٥٨٥، ٧٥٣

رفضه بيعة يزيد وإعلانه بخلافته ٦٤٣

اعتبره الكثيرون المجدد الأول ٦٤٣

ابن زيد ٥، ٥٠، ٤٥٣

ابن عباس رضي الله عنه ٤٣، ٤٨، ٧٨، ٧٩، ١١٠، ١١٢، ٣٤٢، ٣٨٤، ٤١١، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٧٢، ٤٩١، ٥٠٩، ٦٤٦،٦٤١، ٦٨٢، ٨٧، ٥٠٩، ٥٨٥، ٧٥٣، ٧٧٩، ٨٠٢

عقيدته حول نجاة أولاد المشركين ٢٨٤،٢٨٩

قوله: "أطفال المشركين في الجنة" ٢٨٩

ابن عبد البر ١٩٨

ابن عمر، ٢٤٩، ٤٥٢، ٦٤٦، ٦٤٧، ٧١٢، ٤٤، ٤٥، ٤٥٢

اتباعه النبي الكريم ﷺ ١٤٣

تفسيره لآية ٣٤٢

ابن كثير ٤٢، ٤٨، ٧٤، ٦٤١، ٦٤٥

ابن كيسان ١١٠

ابن مردويه ١١٧، ٤٧٠

ابن مسعود، راجع أيضًا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٢٨٥

أبو الأسود رضي الله عنه ٢٩٤

أبو أيوب رضي الله عنه ٢٩٤

أبو البقاء ٣، ٤، ٥

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦ ، ٣٤٤، ٣٥٧، ٤١٤، ٤١٧، ٦٠٦

أراد مغادرة مكة فأجاره ابن الدغنة ٥٨

ردُّه أمانَ ابن الدغنة إليه ٥٨

عبد الله بن الزبير حفيده من جهة الأم ٦٤٣

مقامه

علاقته الفدائية بالنبي الكريم ﷺ ٦٧٤

فناؤه في اتباع النبي الكريم ﷺ ١٤٣،١٤٢

بكاؤه عند تلاوة القرآن الكريم: "كان رجلا بكّاء" ٥٨

تأثر الناس بتلاوته ٥٨

كان أهل مكة معترفين بمواهبه ١٩٥

قوله لابنه لو رأيتك في المعركة لقتلتُك ١٣٠

حصوله على المقامات الدنيوية العالية ٨٤،٨٣

حاكم منقطع النظير ٦١٧

صاحب النبي ﷺ في غار ثور ٣٥٧

طمأنه النبيِّ ﷺ في غار ثور ٣٥٧، ٦٧٤، ٦٩٢، ٧٢١

خلافته

استغراب أبيه على تقلده الخلافة ١٩٦، ٤١٥

تردده في أخذ الراتب من بيت مال المسلمين بعد تبوئه الخلافة ٦١٧

صموده أمام مانعي الزكاة ١٤٢

أداء واجباته بنشاط كامل ٤١٧

الشبه بينه وبين المسيح الموعود عليه السلام ٦٩٢

أبو جعفر بن جرير ٦٢٤، ٦٤٢، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٨٢

أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه ٥٩٥

أبو جهل (أبو الحكم) ١٩٥، ١٩٧، ٤٩٣، ٥٢٢، ٥٩٦، ٦٠٤، ٦٠٧

كان يُدعى أبو الحكم ٢٤٩

دعاه النبي الكريم ﷺ إلى الله عز وجل ٢٠٧

سبب اشتراكه في غزوة بدر ١٥٤

بدأت الحرب في ميدان بدر بمكيدة منه ١٣٠

قتله صبيّان أنصاريان ببدر ١٣١، ٦٠٦

عاقبته المثيرة للعبرة ١٣٢، ٦٠٦

أبو حيان مصنف "البحر المحيط" (راجع ابن حيان)
أبو داود صاحب السنن ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٥
أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ١٢٣
أبو رافع (سلام بن أبي الحقيق)
فُوضت مهمة قتله إلى الخزرج ١٢٤
أبو روق ١١١
أبو زيد ٤٠٣
أبو سفيان رضي الله عنه
طلبُه النبيَّ ﷺ الدعاء لأهل مكة عند القحط ٥٨٩
دعاه قيصر الرومي للسؤال عن النبي ﷺ ٧٨٧
ذهاب إلى النبي ﷺ قبل الفتح ٧٧٨
طلبَ الأمان لأهل مكة عند الفتح ٧٧٨
شجاعة زوجته في معركة اليرموك ٦٨
أبو سلمة بن عبد الرحمن ٦٤٦
أبو صالح ١١١، ٤٥٣
أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه
إهداؤه بستانه إلى النبي ﷺ ٦٣
أبو ظبيان ٦٤٢
أبو العالية ٦٤٥
أبو عبد الله ٦٤٤
أبو عبيدة رضي الله عنه ٦٩، ١١٠، ٣٧٩، ٣٨٥، ٤٥٠
قائد جيش المسلمين في معركة اليرموك ٦٩
أبو عمر ٦٢٤
أبو عمران الحوفي ٧٧٩
أبو الفضل ٤٩١
أبو فكيهة رضي الله عنه ٢٣٣
أبو قحافة رضي الله عنه (والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه) ١٤٣
استغرابه لدى انتخاب أبي بكر رضي الله عنه خليفة ٨٤، ١٩٦
٤١٥
أبو لهب ٧٦٦
أكره ابنيه على تطليق بنتين للنبي ﷺ ٧٦٦
أبو مسلم بن أبي العلاء ٤٤
أبو معاذ النحوي ٤٠٣
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ١٢٣، ١٩٥
أبو هريرة رضي الله عنه ٢٨٨، ٤٠٤، ٤٥٢، ٦٤٤
حُبُّه للنبي ﷺ ٦٣
لم يترك صحبة النبي ﷺ بعد الإيمان ٧٩٤،٧٩٥
قوله الشهير: بَخٍ بَخٍ أبو هريرة ٧٩٥
أبو ياسر بن أخطب
عالم يهودي في زمن النبي ﷺ ٢٥٧
سؤاله النبيَّ ﷺ عن مقطعات القرآن ٦٨٢
أُبَي بن كعب رضي الله عنه ٥١٠
أحمد البريلوي رحمه الله
كان حجة على المسلمين الغافلين ٤٤٤
أحمد بن حنبل الإمام رحمه الله ٢٨٥، ٦٤٢،
٦٤٥
أحمد السرهندي رحمه الله ٢٨٨، ٢٩٣
رأيه في نجاة أطفال المشركين ٢٨٨، ٢٩٣
الأخفش النحوي ١١٠، ٣٨٥
أديسون ٢٧٢

أسامة بن زيد رضي الله عنهما

الإسكندر المقدوني

حرق "زندافستا" عند هجومه على فارس ٥٥٥

إرسال أبي بكر إياه مع الجيش رغم الأخطار ١٤٣

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما

قيامها بالحراسة في معركة اليرموك مع زوجها ٦٩

إسماعيل عليه السلام

نبأ موسى عليه السلام عن بعثة نبي مشرع فيه ٥٨٢

علاقته بالبيت الحرام ٧٧٩

تضحيته العظيمة في سبيل الله ٧٨٤

دعاء إبراهيم له ولأولاده ٧٨٣

إسماعيل الشهيد رحمه الله ٤٤٤

أشعر (قبيلة يمنية) ١٢٣

إشعياء عليه السلام نبوءة له عن غزوة بدر ٦٧٧

أشوكا (مِلكٌ هندي)

آثار مدينةِ أشوكا في تيكسلا ٧٠٥

أصحاب الأخدود

رد المفسر على رأي المفسرين فيهم ٤٧٥

قصتهم إشارة إلى تضحيات زمن المسيح الموعود عليه السلام ٤٧٨

الأصمعي ٤٥٢

إقبال السير محمد ٨٠٥

الألمان ٥٥

أم بِشر رضي الله عنها ٤١١

أم طاهر رحمها الله (زوجة المفسر رضي الله عنه) ٢٨٢

اهتمامها بتربية اليتامى ٧٤٢

أم كلثوم بنت محمد صلى الله عليه وسلم ٧٦٦

أم هانئ رضي الله عنها

كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في بيتها مع أصحابه ٥٨

أمية بن خلف ١٩٧

دعاه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ١٩٧، ٢٠٧

أنس بن مالك رضي الله عنه ٤٩١

أورنغزيب عالمغير ٢٦٨

كان يكتب القرآن يومًا للبركة ٥٦٣

الأوس

عداؤها الشديد للخزرج قبل الإسلام ١٢٣

تنافُسها في الخيرات مع الخزرج بعد الإسلام ١٢٣، ١٢٤

أيدرامي تائي

اسمُ عادٍ إرمَ لدى الجغرافيين اليونانيين ٧٠٦

الباب علي محمد مؤسس البابية ٧٠٠

بابا

اتفاقية ملك أسبانيا المسلم مع البابا ضد الدولة المسلمة بالعراق ٦٨٣

ادعاؤه كان قبل الأوان ٦٩٨

البخاري الإمام محمد إسماعيل ٦٨٢

البراء ابن العازب رضي الله عنه ٥١٠

برهوي راج (مِلكٌ هندي)

محاربته شهاب الدين الغوري ٦٠٤

البزاز ٤٤

بشير الدين محمود أحمد المفسر رضي الله عنه

دعواه أنه هو المصلح الموعود في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام ٢٥٧

رؤاه وكشوفه

رؤياه ٣٠

رؤياه عن تفاني المسيح الموعود عليه السلام في النبي ﷺ ٦٩٣

رؤياه عن إقامته في بيت لجأ إليه موسى عليه السلام ٧١٩

تلقيه علوم القرآن من الله ﷻ ٦٣٦

حادث انكشاف معارف سورة الفجر عليه ٦٣٩، ٦٦٠

قال: أخبرني الله ﷻ أن هلاك أوروبا آتٍ ٣٥٧

علاقته بالقرآن الكريم

شكرُه لله تعالى لتعليمه علومَ القرآن ٦٣٦

إلقاؤه دروس القرآن في مدينة دلهوزي بالهند ٦٣٧

الأقسام في القرآن تتعلق بعلوم لم تكن في متناول يد النبي ﷺ ١٠٥

حواره مع إنجليزي عن حفظ القرآن ٥٦١

حبه للنبي الكريم ﷺ

غيرته على النبي ﷺ ٣٣١

اتهام المعارضين إياه بالإساءة إلى النبي ﷺ ٤٨٢

توضيحه لقول له عن النبي ﷺ ٢١٧

رده على المفسرين حول قصة النبي ﷺ مع بن أم مكتوم ١٩٧-١٩٨، ٢٠٩

الحوارات الدينية

حواره مع القس "وُود" عميد كلية التبشير المسيحي بلاهور ٣٥٠

حواره مع ملحد بريطاني ٣٣١

حواره مع امرأة بهائية ٧٠٢

خطابه عن ذِكر الله ﷻ ٤١٨

دفاعه عن السلطان محمود الغزنوي ٢٦٨

معياره للحب ٢١٧

اعتراض المنافقين عليه وردُّه عليهم ٢١٤

أمور متفرقة

حدثٌ من طفولته ١٧٦

إثارة قريب له فتنة ضده خلال الحج ٥٩٧

مظاهر نصرة الله له خلال الحج ٥٩٨، ٦٠٠

قصة زيارته مركز البهائيين في عكا ٧٠٠

زيارته للبساتين المعلقة في مومباي ٦١٢

شفاعته لابن أحد معارضي جماعتنا ٥٩٧

وصفه للقحط والمجاعة عام ١٩٤٢ ٥٩٠

تجربة عجيبة له ٢٦١

وصفُه لحالة سِكير ٧١

بكر بن عبد الله المزني ٤٥٢

بكير بن الأشج ٤٥٢

بلال رضي الله عنه ٢٢٠، ٢٣٣

تعرضُّه للاضطهاد بعد الإسلام ٢٢٠

تقدير عمر رضي الله عنه له ٨٥

بليكي القس وليام جي ٥٥٧

بنو إسرائيل

نجاتهم من فرعون ٦٥٣

رؤيا المسيح الموعود أنه وجماعته مثل موسى وبني إسرائيل ٧١٩

بنو إسماعيل (راجع إسماعيل)

بنو أمية ٣٠٨

بني عامر بن لؤي ١٩٨

بنو عباس ٣٠٨

أسباب زوالهم بعد رقيهم ٢٥٥

بنو عبد المطلب ٨٤

بنو هاشم ٨٤، ١٩٦، ٦٦٩، ٦٧٠

بهاء الله مؤسس البهائية ٧٠٠
سبب عدم معارضة المسلمين للبهاء ٧٧١-٧٧٢
كانت دعواه قبل الوقت ٦٩٨
كان عند زوجتان رغم نهيه عن زواج اثنتين ٧٠٣
بيلاطس حاكم رومي لفلسطين ٣٥٢
التتر
نبأ زوال المسلمين بهجوم التتر ٢٥٦،٤٧
تضرُّر المسلمين بسبب التتر ٤٧
الترمذي أبو عيسى ٢٥٦، ٢٩٥
تسدل القس مصنف مآخذ على القرآن ٤٠١
تشرتشل السير وينستن ٢٦٨
تيما ٦٧٦
ثمود ٣٨٨
قبيلة من قوم عاد ٧٠٧
كان نبيهم صالحًا ٧١٤
انكشاف آثار ثمود ٧١٤
كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا ٧١٢
موقع عاصمتهم "الحِجْر" ٧١٢
ذكرهم في القرآن الكريم ٧١٥
هلاك جنودهم ٤٨٩، ٤٩٠
ثناء الله الأمرتسري ٢٧٤
معارضته المسيحَ الموعود عليه السلام ٢٥٠
نال الشهرة بمعارضته لجماعتنا ٧٩٦
جابر بن عبد الله رضي الله عنه ٤٧٠، ٦٣١، ٦٤٢، ٦٤٤
جبريل عليه السلام ٣١٠
تمثُّله كإنسان وسؤاله النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الساعة ٢٥٤
شرح الوحي ليس من مسؤولية جبريل ٣١٠
الجرجاني ١١١
جرجي زيدان
اعترافه بصحة ما ورد في القرآن من أحوال عاد إرم ٧٠٦
جذامة بنت وهب أخت عكاشة ٢٩٤
جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه
تمثيله المسلمينَ في بلاط النجاشي ٦٠
جلال الدين السيوطي رحمه الله
٢٧، ٦٦، ٢٨٨، ٤٩٢،
وردت أخطاء في كتابه "الإتقان" ٣٦٣
جلال الدين شمس رحمه الله
انتصاره على القساوسة بإنجلترا ٢٢٥
الجنيد البغدادي رحمه الله ٦٥
جهانغير (ملك مغولي) ٣٤١
الجوهري ٤٥٢
الحاكم صاحب المستدرك ٢٤٩
الحريري ٧٥٨
الحسن البصري رحمه الله
٤٣، ٥٠، ٧٨، ١١٠، ١١١، ٢٨٨، ٣٤٢، ٤٥٣،
حكيم بن حزام رضي الله عنه
كان صديقًا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ٨٠٩
حليمة السعدية
نـــزول البركات في بيتها ببركة النبي صلى الله عليه وسلم ٥٢٥،٥٢٤
حمزة رضي الله عنه مقامه في العائلة ٣٣
حيي بن أخطب زعيم يهودي في المدينة ٦٨٢

خالد
خال للمفسر أشعل المعارضة ضده ٥٩٧، ٦٠٠
خالد بن معدان ٤٣
خالد بن الوليد رضي الله عنه دخوله مكة فاتحا ٧٧٨
خباب بن الأرت رضي الله عنه ٢٣٣
صبره على فظائع كفار مكة ٥٧
تقدير عمر رضي الله عنه له ٨٥
خديجة رضي الله عنها
حب النبي ﷺ واحترامه لها ١٩٨
قولها للنبي ﷺ:" كلا! والله ما يخزيك الله ...الخ ٧٩٢
ذهابها بالنبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل ٧٧٤
سؤالها النبي ﷺ عن مصير ولدينِ لها مشركينِ ٢٨٦، ٢٨٩
الخزرج قبيلة من الأنصار ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧
عداؤها للأوس قبل الإسلام ١٢٩
تنافُسها مع الأوس في الخيرات بعد الإسلام ١٢٣
الخليل النحوي ٢٢٢
الخنساء رضي الله عنها ٢٨٨
الخوارج ٥٦٠
دارون ٣٠٠
دانيال عليه السلام ٤٧٥
داود عليه السلام ٥٧٨، ٧٣٤
أوتيَ الحكمة وفصل الخطاب ٥١١
قول لطيف له ٦٤
داود بن هندبة ٢٨٥
دوغلس قاض بريطاني عادل في الهند ٧٨٨
طلبُ محمد حسين البطالوي منه كرسيًا في المحكمة ٧٨٩
ديانند الBANDيت مؤسس "آريه سماج" الهندوسية ٥٤٠
راجا رام الBANDيت الدكتور
اعترافه بتحريف الفيدا الهندوسي ٥٥٤
الرازي الإمام صاحب التفسير الكبير ١١٢
الراغب الأصفهاني صاحب المفردات
٣، ٥، ١٨، ٤٠، ٢٣٥، ٥٤٧، ٦٢٤، ٧٢٣
رام تشندر ٧، ٩٩، ١٤٢
ربيع بن أنس ١١١، ٦٤٥
ربيع بن الخيثم ٣٤٢
رقية بنت محمد ﷺ ٧٦٦
روزفيلت الرئيسي الأمريكي ٢٦٨، ٣١١
الزبير بن العوام رضي الله عنه ١٩٥، ٤٦٨، ٦٤٣
كان من عائلة شريفة غنية ٢١٦
اعتناقه الإسلام ٥٩٢
كان الصحابي الشاب الوحيد الذي يعلم القراءة والكتابة ١٤٢
دخوله مكة فاتحا ٧٧٨
حراسته مع زوجته في حرب اليرموك ٦٩
الزجاج النحوي ٢٢٢، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٥
زرادتشت عليه السلام ٩٨، ٩٩
لم يكن دينه عالميا ٦٨٦
أعماله ليست محفوظة بشكل كامل ٥٥٥
الزمخشري ١٠٩، ١١٠، ١٧١، ١٩٨، ٢١٨،

٢١٣، ٣٨٣، ٤٥٤، ٥٦٧، ٦٠١، ٦٢٤
عقيدته في نجاة أطفال المشركين ٢٨٤،٢٨٥
زيد رضي الله عنه ٢٣٣
زيد بن أسلم ٦٤٤
زيد بن الحباب ٦٤٨
زينب زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ٦٩
سائن آچاريه عالم هندوسي ٥٥٤
سارة عليها السلام
أخرج إبراهيمُ هاجر من البيت برغبة سارة حسب الكتاب المقدس ٧٨٩
سالم بن أبي الجعد رضي الله عنه ٤٢، ٤٣، ٤٥
سبرنغر المستشرق
اعترافه بسلامة القرآن من التحريف ٥٥٧
السدي ١١٠، ٦٤١
سراقة بن مالك رضي الله عنه
واقعة لبْسه أسورة كسرى ٦١
سعد بن عبادة رضي الله عنه
تعليمه القرآن في المدينة ٥٠٩
دخوله مكة فاتحا ٧٧٨
سعدي الشيرازي رحمه الله ٣٤٠
سعيد بن جبير رضي الله عنه ٤٣ ، ٧٨، ٣٨٥، ٤٥٣
سعيد بن عوف رضي الله عنه ٦٤٣
سفيان الثوري رضي الله عنه ٣٤٢
سلام بن أبي الحقيق (أبو رافع)
زعيم يهودي في المدينة استحق القتل ١٢٤
سلمان الفارسي رضي الله عنه ١٢٧
قبوله الإسلام ١٢٣
سلمة بن يزيد الجعفي ٢٨٥
سليمان عليه السلام ٥٨٧
سماه الله تعالى ابنَ الله ٣٤٧
سليمان التيمي ٤٤
سمرة بن جندب رضي الله عنه ٢٣٣
سهيل بن عمرو
إشهار ابنه إسلامه وهو يمثل قريشًا في صلح الحديبية ٥٩٥
سيبويه النحوي ٢٢٢، ٤٩٩
شايلوك
بطل مسرحية شيكسبير "ضابط من البندقية" ٣٦٩
شبلي رحمه الله
قصة ضربه منصورَ الحلاج بزهرة ٧٦٣
شداد ٣٩٥
شداد بن أوس ٤٥٢
شعيب عليه السلام ٥١٩
شهاب الدين الغوري
عقابه الغريب لجنوده الهاربين ٦٠٤
شيبة بن ربيعة ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٦٠٤
دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياه إلى الإسلام ٢٠٧
شير علي المولوي رضي الله عنه
ترجم معاني القرآن إلى الإنجليزية ٦٣٨
شيكسبير ٣٦٩، ٣٨١

صالح عليه السلام نبي قوم ثمود ٧١٤
كان مرجوَّ القوم ٣٢٠
صهيب رضي الله عنه ٢٣٣
الضحّاك ٣٨٢، ٣٨٦، ٤٥٣، ٦٤٣
الطبري ٧٧٩
طلحة بن عبد الله رضي الله عنه ١٩٥، ٦٤٦
كان من عائلة عريقة غنية ٢١٦
اعتناقه الإسلام ٥٩٢
ظفر أحمد مرزا تربيته لليتامى ٧٤٢
ظهير الدين "أروبي"
ادعاؤه أنه "المصلح الموعود" ٧٧١
عائشة الصديقة رضي الله عنها ٦٩، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٩٤، ٤١٦، ٥٠٩، ٦٣١
تزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد سنة من الهجرة ٢٨
كانت تَغْبِطُ خديجةَ رضي الله عنهما ١٩٨
سؤالها النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن القضايا الشرعية ٢٥٣، ٣٤٤
سؤالها النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن مصير أولاد المشركين ٢٨٦
عاتكة بنت عامر بن مخزوم رضي الله عنها
كانت أم عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ١٩٨
عاد
دحض اعتراض المستشرقين أن آثار عاد لم تظهر في الحفريات ٧٠٥
اسم عاد إرم لدى الجغرافيين اليونانيين القدماء ٧٠٦
سيطروا على العرب بعد قوم نوح ٧٠٧، ٧٠٩، ٧١٥
بُعث إليهم هود عليه السلام ٧٠٧
كانوا مشركين ٧٠٨
معنى كونهم: ذات العماد ٧٠٨
عادُ إرمَ قبائل شتى ٧٠٦
العمالقة هم بقية عاد ٧٠٨
عامر بن فهيرة رضي الله عنه ٢٣٣
عبادة بن الصامت رضي الله عنه ٤٥٢
العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ١٩٧
ازداد الإسلام قوةً بإسلامه ٢٢٠
نداؤه المسلمين في غزوة حنين ٢٥٢
استشارة الخلفاء الراشدين إياه ٢٢٠
عباس علي مرزا ابن البهاء
وصية أبيه له أن يتزوج أخرى ٧٠٢
عبد الجبار خان ٢٨٢
عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه
ذكره غزوة بدر ١٣٠
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
قصته مع ولَدينِ قتلا أبا جهل في بدر ١٣١
اهتمامه بنشر الإسلام ٤١٧
لم يحبّ المال رغم غناه ٧٢٤
عبد الرحمن الحافظ الأمرتسري
تآمره مع البطالوي ضد المسيح الموعود عليه السلام ٥٠٣
عبد الرحيم نير ٢٧٨
عبد الستار كبتي
دعوة المفسر له إلى الأحمدية ٥٩٧
عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ٤٥٢
عبد القادر الجيلاني رحمه الله ٤٥٩
كان مقامه مقام الإنعام وليس مقام الابتلاء ٧٣٥
عبد الكريم المولوي رضي الله عنه ٨٠٥

عبد اللطيف سيد الشهيد رضي الله عنه
لم يرقّ قلب أحد عندما رجموه ٤٨٢
عبد الله آتهم (راجعْ آتهم) ١٠٥
عبد الله ابن أبي ربيعة رضي الله عنه
ذهابه إلى الحبشة ممثلا للكفار ٥٩
عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه
١٩٧، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١
كان ابن خال خديجة رضي الله عنهما ١٩٨
روايات مختلفة عن اسمه الحقيقي ١٩٨
سبب كنيته ابن أم مكتوم ١٩٨
كان من أسرة شريفة ومقربًا عند النبي ﷺ
١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٤
هو أول من قام بتعليم القرآن في المدينة ٥٠٩
ولاه النبي ﷺ على المدينة مرتين ١٩٨،١٩٩
معنى "عبس وتولى" لدى المفسر ٢٠٦،٢٠٧
عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، راجع ابن الزبير
عبد الله بن سبا
تأثره بأفكار أهل التشيع ٥٦٠
عبد الله بن سلام رضي الله عنه ١٩٥
كان ممن أسلم من بين اليهود ١٢٧
عبد الله بن شريح بن مالك ربيعة الفهري
هو اسم عبد الله بن أم مكتوم في بعض الروايات ١٩٨
عبد الله بن العباس رضي الله عنه، راجع ابن عباس
عبد الله بن عمر رضي الله عنه، راجع ابن عمر
عبد الله بن عمرو بن قيس ابن زائدة بن الأعصم
هو اسم عبد الله بن أم مكتوم في بعض الروايات ١٩٨
عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنه ٤١١
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١٣٢، ١٩٥
أظهر أبو جهل حسرته أمامه ١٣٢
عبد الله التيمابوري ٣١٩
عبد الله الغزنوي رحمه الله
كان من أولياء الله (المسيح الموعود عليه السلام) ٤٤٤
عبد المطلب ٦٦٦
عبدة بن عبد الله ٦٤٢
عبيدنغو ٤٧٧
عتبة بن ربيعة ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٦٠٤
دعوة النبي ﷺ له إلى الإسلام ٢٠٧
عثمان بن عفان رضي الله عنه ١٩٥، ٢٦٦، ٤١٤
كان من عائلة ثرية بمكة ٢١٦، ٢٣٣
إسلامه ٥٩٢
قول النبي ﷺ: إن الملائكة تستحيي منه ٣٤٤
شهادته على محافظة عُمر على مال المسلمين ٤١٧
اعتراف المستشرقين بسلامة مصحف عثمان ٥٥٨
افتراق المسلمين في آخر خلافته سنةً وشيعة ٥٦٠
عثمان بن مظعون رضي الله عنه
كان من عائلة غنية ومع ذلك اضطُهد ٧٦٦،٧٦٧
العرب
تاريخ العرب محفوظ من زمن إبراهيم عليه السلام ٦٢٦
بداية النسل الإنساني من العرب ٧١٥
عادُ إرمَ من العرب ٧٠٦
يرى العرب أن حضارهم منوطة بعاد إرم ٧٠٦
مقام العرب لدى العالم قبل بعثة النبي ﷺ ٢٢، ٦٢٢
نظرياهم المختلفة عن الحياة بعد الموت أيام الجاهلية ٩
لم يكونوا يرضون بإمارة قوم أقلَّ منهم شأنًا ونفوذًا

١٩٩

صفاقم الحميدة

صفاقم الحميدة ١٧٤، ١٧٥
تعظيمهم الكعبة مع مرور ألفين وخمسمائة سنة ٧٦٤
اهتمامهم بعظمة مكة وحرمتها ٧٦٤
إحدى خصالهم الحميدة ٥٨
يشركون الآخرين في طعامهم ٢٣٦
خطاب رباني هام للعرب ١٧٤
نبأُ فشل زعماء كفار العرب ٣٩
انقلاب العرب بواسطة النبي ﷺ ١٧٤،١٧٥، ٥٢٦
امتناع بعض قبائل العرب عن أداء الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ ١٤٢
"اقتراب الساعة هلاكُ العرب" (الحديث) ٢٥٦
ذهب حُكمهم لتركهم حياةَ المشقّة ٢٥٥
تمرُّد البدو على تركِ ركوب الإبل ٢٧٤

عزرا عليه السلام ٥٥١
نبي بعث في زمن نفي اليهود ٥٥٢

عزرائيل ١٢٠

العزّى ٧٨٥

عُزير عليه السلام
أعاد كتابة التوراة مع خمسة من الكَتبة ٥٥١
له كتاب اسمه "Esadras"باليونانية ولا يوجد في الكتاب المقدس ٥٥١

عطاء بن أبي رباح ٥٠،١١٠،١١١،٦٤٣

عكاشة بنت وهب ٢٩٤

عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه
لم يقدر أن ينقذ أباه في بدر ١٣١

عكرمة مولى ابن عباس ١١٠،٦٤١،٦٤٣

علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٤٢،٤٥،١١٠، ٥١٠،٤١٤،٣٤٠،٢٦٦،٢٣٣،٩٥
مكانة عائلته ٢٣٣
ترك النبي ﷺ إياه في سريره عند الهجرة ٨
اختاره النبي ﷺ لفتح خيبر ٥٢٧
أمَّره النبي ﷺ على المدينة ١٩٩
شفاء عينيه ببركة النبي ﷺ ٥٢٧
أعتق عبدًا بسبب جوابه اللطيف ٣٤٠
تفسيره لكلمة "أحقاب" ٤٢،٤٥
حرب معاوية له رضي الله عنه ٥٦٣،٦٨٣
قول معاوية في حق عليّ رضي الله عنهما ردًا على رسالة قيصر ٦٨٤
الذين يفضّلون عليًا على الخلفاء الآخرين يعنونه هو بلقب "أمير المؤمنين" ٧٢٤
يعتقد الشيعة أن جزءًا من القرآن كان عنده ٥٦٣

علي محمد الباب
مؤسس البابية ٦٩٨،٧٠٠

عمار بن ياسر رضي الله عنه ٢٣٣
قيامه بتعليم القرآن في المدينة ٥٠٩

العمالقة، بقيةُ قوم عاد ٧٠٨

عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٤٥،٥٧،٦١،٧٦،١٤٣،١٨٣،١٩٥،٢٣٣،٢٨٢،٣٤ ٢،٣٤٤،٤١٤
مكانة عائلته ٢٣٣
خرج مخترطًا السيف لقتل النبي ﷺ ٢٢٠
عملُه بالقرآن جعله كبيرًا ٢٣١
قصة حدثت في أيام غلبته ١٨٢،١٨٣
حاكم مثالي ٦١٧
قيامه رضي الله عنه بواجباته بحماس وتفان ٤١٧

بحثه عن إبل بيت مال المسلمين في يوم قائض ٤١٧
ألبسَ سراقة سوارَي كسرى تحقيقًا لنبأ النبي ﷺ ٦١
مجيئه ﷺ إلى مكة زمن خلافته ٨٤،١٨٢
إكرامه ﷺ السابقين الأولين من الصحابة ١٨٢،٣٩٤
معاملته العبيدَ المؤمنين وأولاد سادة قريش ٨٦،٣٩٤
سؤاله خبابَ بن أرت عن جروح ظهره ٥٧
تفسيره لآية ٣٤٢
تفسير لقوله تعالى ﴿إذا النفوس زوجت﴾ ٢٨٢
قوله: "بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسراء فلم نصبر" ٧٢٣
رفض أبي بكر لمشورته أن يلين مع مانعي الزكاة ١٤٣

عمران بن حصين ﷺ ٦٤٥

عمرو بن العاص ﷺ

ذهابه إلى الحبشة ممثلا للكفار ٥٩
لم يستطع وصفَ ملامح النبي ﷺ إعظامًا له ٦٠٧

عمرو بن عبد الله ٢٢١

عمرو بن قيس بن زائدة

هو اسم عبد الله بن أم مكتوم حسب رواية ١٤٩

عمير بن وهب

أشار على الكفار بعدم قتال المسلمين قبل غزوة بدر ١٣٠

عوفي ٦٤٤

عيسى بن مريم عليه السلام

٩٨،١٤٢،٣٥٠، ٥٢،٣٦،٤٠٦،٤١٢،٥٠٠،٥٥٠، ٥٥٦،٥٧٨،٥٨٧،٦٨٧

خاتَمُ السلسة الموسوية ٥٠٠
كان ورقة بن نوفل يعتبره نبيًا غير مشرِّع ٧٧٤
عقيدة مَلِكِ الحبشة في المسيح عليه السلام ٦٠
لا يمكن أن يُدعى ابنَ داود ٣٥٠
وعد الله ﷻ بعصمته ٥٠٠
كانت تعاليمه كاملة لقومه ٥٤٤
اعتبره المسيحيون خطأً أنه مبعوث للعالم كله ٦٨٧
جاء بمُلك الله إلى الأرض ٤٨٨
استجيبَ دعاؤه بقيام مُلك الله في الأرض في شخص النبي ﷺ ١٢٦
دعاؤه لينـــزل الله مائدة على قومه ٤٠٢،٤٠٦
إنعام الله ﷻ على قومه ٥٤١
لم يأخذ قومه كاملا ما أعطاه الله ﷻ ٤١٢
المقارنة بين أتباعه وأتباع النبي ﷺ ٨
يُسأل يوم القيامة عن شرك قومه ٢٨٣
تحريف تعاليمه في زمن النبي ﷺ ٣٢
المقارنة بين غلبته وغلبة النبي ﷺ ٨
قولان له عليه السلام ٣٦٤
يرى المسيحيون أن مجيئه الثاني هو القيامة ٣٥٢
نـــزوله من السماء مع الملائكة ينافي سنة الله ٥٨٧

غالب أسد الله خان الشاعر

يبدو أنه كان في قلبه حسنة إذ تكلم بكلام حكيم كثير ٧٥، ٤٤٦

غلام أحمد القادياني المسيح الموعود والمهدي المسعود عليه السلام

١٠٦،٣١٨،٤٤١،٤٥٩،٤٧٤،٥٦٠،٧٠٠

دعاويه عليه السلام

أعلن دعواه عام ١٨٩٠م ٦٩١،٦٩٥،٦٩٧
قدّم حَلْفًا مكتوبًا على صدق دعواه على طلب شخص ١٠٦
الفَرق بينه وبين المدعين الآخرين بالمهدوية ٦٩٧
المقارنة بينه وبين مؤسس البهائية ٧٠٠
جوابه لمن يطالبون بالآيات ٣١٧

زمن بعثته عليه السلام

تأليفه كتابه "براهين أحمدية" عام ١٣٠٠ ونشره إياه عام ١٣٠٢ الهجري كان تحقيقًا لأنباء قرآنية ٦٩١

عصره عليه السلام ٤٤١

بعثته عليه السلام بصفته "المسيح الموعود" في "اليوم الموعود" ٤٧٤

بعثته عليه السلام في القرن الرابع عشر وفق أنباء القرآن ٤٥٩

أعلن دعواه في زمن تشير إليه أنباء القرآن والحديث ٦٩٧

حالة المسلمين الروحانية في زمنه ٢٢

غرض بعثته عليه السلام

غرض بعثته إحياء الدين وإقامة شريعة الإسلام ٧٠٣

نــزل بواسطته مُلك الله على الأرض ٤٨٨

أُزلفت الجنة وحصل الإيمان الحي على يده عليه السلام ٣٠٣

لا ينشأ اليقين بغلبة الإسلام إلا بعد الإيمان به عليه السلام ٣٠٨

فوّض الله عز وجل إليه مهمة كشف علوم القرآن ٣٠١

انكشاف معارف القرآن الجديدة عليه ٦٣٦

كان القرآن مطّهرًا ولكنه عليه السلام كشف ميزته هذه كما لم يظهرها غيره ٢٣٣

حدوث ثورة ببعثته ٢٥٠

الانقلاب في أتباعه ٧٠٠

غلب على المسيحيين بشكل كامل ٣٣١

حماس الأحمديين للتبليغ في زمنه ٢٨

نــزول العذاب في زمنه بصورة الحرب والقحط ٥٩٠

مكانته عليه السلام

مقامه الفريد في الأمة المحمدية ٤

مقامه كمسيح موعود ومهدي معهود ٤٩٦،٦٣٥،٦٩٤،٧٠٣

حقيقة شهرته باسم المسيح الموعود في الجماعة ٤٧٢

اعتبره القرآن الكريم "شاهد" ٤٧٣،٤٧٤

هو ظِلٌّ جميع الأنبياء ٢٢٤

قوله تعالى "إذا الرسل أقتت" يشير إلى بعثته ٢٢٤

تظهر رسالة جميع الأنبياء في رسالته ٢٢٤

الشَبَهُ بينه عليه السلام وبين الصدّيق رضي الله عنه ٦٩٢

ظهرت عليه التجليات الإلهية بالتدرج ٤١٦

سبب تسميته بـــ "الطارق" في الإلهام ٦٣٥

يقينه الكامل بالله عز وجل واطمئنانه عند الأهوال ٣٥٧

أراد الله عز وجل أن يبدأ التاريخ بالمسيح الموعود عليه السلام ويقطعه من آبائه في المستقبل ١٩٠

تفانيه عليه السلام في الرسول صلى الله عليه وسلم

قد تفانى في الرسول صلى الله عليه وسلم ٦٩٣

رؤيا المفسر عن تفانيه عليه السلام في الرسول صلى الله عليه وسلم ٦٩٣

غيرته عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ٢١٣

إلهاماته عليه السلام الواردة في هذا المجلد

"إني مع الأفواج آتيك بغتة" ٤٩٠

جَرِيُّ الله في حُلل الأنبياء" ٢٢٥

"والسماء والطارق" ٦٩٠

"والله يعصمك من الناس" ٥٠٠

"يأتي عليك زمن كمثل زمن موسى" ٧١٩

"يأتيك من كل فج عميق" ٦٩٩

"يأتون من كل فج عميق" ٧٠١

"يا قمر، يا شمس أنت مني وأنا منك" ٤٧٣

"يحيي الدين ويقيم الشريعة" ٧٠٤

"ينقطع من آبائك ويبدأ منك" ١٩٠

"يوم تأتي السماء بدخان مبين" ٥٩٠

"وترى الأرض يومئذ خامدة مصفرة" ٥٩٠

"أوى النبي إلى قلعة الهند" (ترجمة) ٦٩٢

"كم من صغير سيُجعل كبيرا وكم من كبير سيُجعل صغيرا" ٦٠٧

وعدُ الله عز وجل له بالحماية ٥٠٠

سببُ تركيزه على إلهاماته ٦٣٣

دليل واضح على تحقُّق إلهامه: "يأتون مِن كل فج عميق" ٦٩٩،٧٠١

رؤاه وكشوفه الطَيْلاً

رؤيته عيسى بنَ مريم الطَيْلاً في الكشف قلقًا على شرك قومه ٣٣٢
كشفُه عن توسيع قاديان ٦٩٩
رأى نفسه كموسى وجماعته كبني إسرائيل ٧١٩
أُخبر في الرؤيا في عام ١٨٨٦م بغلبة الإسلام ٢٥٧
سيظهر مثيل فرعون في القرن التاسع عشر وتُظلَم جماعته لدرجة تقلقها ٧١٩

أنباؤه الطَيْلاً

تحقُّق نبوءته الطَيْلاً التي أعلنها عام ١٨٨٦ عن ظهور مصلح موعود ٢٥٧
سأُعطَى عصا روسيا ٣١٧
ستغلب الجماعة الأحمدية خلال ثلاث قرون ٣١٧
أنباؤه عن مستقبل الجماعة الأحمدية ٤٥٩
أنبأ عن "زلزلة الساعة" ٦٥٧
دليل على صدق أنبائه ٣١٧
مطالبته القس عبد الله "آتهم" بالحلف على عدم خوفه من نبوءته ١٠٥
الرد على كون أنبائه غامضة ١٨٨

بعض أقواله الطَيْلاً وتصريحاته

أمري يتوقف على كوني مهديًا ٤٩٦
مَن فرّق بيني وبين المصطفى فما عرَفني وما رأى ٦٩٣
الله تعالى قد جعل العزَّ في عصرنا هذا منوطا بنا ٧٩٦
لن يحظى أحد بقرب الله مستقبلا إلا باتّباعي ٤٦٤
ذكرُه محاسن أفراد جماعته ٤٤١
وصيته الطَيْلاً للجماعة أن تستعدّ لتقديم التضحيات ٤٨٠،٤٨١
قال: جميع النقائص والعيوب تنشأ بسبب البعد عن الله ﷻ ٦٣٣
الفرق بين علوم الله ﷻ وعلوم الإنسان في رأيه ١٦٢
إبطاله جميع العقائد والتعاليم الباطلة المنسوبة إلى القرآن ٢٣٣
تفسيره الطَيْلاً لآية "إذا الشمس كورت" ٢٦٩
تعريفه الطَيْلاً للأخلاق ٥٣٣
بيانه الطَيْلاً قسمين للابتلاء ٤٤٦
قال: لا يُقتل النبي الأول والأخير من سلسلة الأنبياء ٥٠٠
مَن لم تتم عليه الحجة في الدنيا سيُحكم عليه يوم القيامة بناء على فطرته ٢٩٢
فتواه الطَيْلاً عن الإجهاض ٢٩٥
"قد طلع نهار أعداء الدين بينما خيم الليل علينا، فاطْلُعي يا شمسي فإني في انتظارك على أحر من الجمر ٦٩٦

معارضته الطَيْلاً

السبب الرئيس لمعارضته ١٠
معارضة كبار العلماء له الطَيْلاً ٢٥٠
كيد البطالوي ضده الطَيْلاً بالتواطؤ مع شيخ آخر ٥٠٣
تعليقه الطَيْلاً على تفاخُر البطالوي بكتابته رسالة إلى الحاكم ٣١١
ذلة البطالوي بسبب معارضته له الطَيْلاً ٥٩٦،٥٩٧
حالة قلوب لمعارضيه ٤٧١
عذاب روحي لمعارضيه ٥٩٦،٥٩٧

أمور *متفرقة*

كان لآبائه شأن عظيم ١٩٠
قال: جمع جدي ميرزا گُل محمد حوله خمس مئة حافظ للقرآن ٥٦٢
كان يحب المسك كثيرًا ٤٢٥
ردة فعله حين سلّم عليه الباندیت ليخرام عدو الرسول ﷺ ٢١٣

غلام أحمد الشيخ، قصة المفسر معه ٢١٧

غلام فريد ملك الماجستير

ترجَم معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية ٦٣٨

غلام محمد ميان

تبريره ادعاءه بكونه "المصلح الموعود" ٣١٩

الفراء النحوي ٣٧٠،٣٧٢،٣٧٩،٤٠٣،٧٣٧

الفردوسي مصنف "شاهنامه"

توجد في أبياته كلمات كثيرة من غير اللغة البهلوية ٣٨٠

فرعون ١٥٧،٢٩٧،٣٣٧،٣٤٦،٣٨٨،٣٩٤،٦٥٢

حضارته وحضارة قومه ٧١٦

سعة مُلك مصر في زمن الفراعنة ٧١٦

ذهاب موسى إلى فرعون بأمر الله ١٥٧

طلبه الدعاء من موسى ٥٨٩

حشرُه الناسَ ١٥٨، ١٥٩،٤٨٩

هلاكُ جنوده ١٥٩

رؤيا المسيح الموعود عليه السلام أن فرعونا يلاحقه وجماعته ٧١٩

سيظلم فرعونٌ جماعتنا بحيث تقول الجماعة "يا موسى إنا لمدرَكون" ٧١٩

فضيل بن عياض ٣٣٩

فقير محمد شوهدري

قصة بيعته بعد قراءة كتاب المفسر "دعوة الأمير" ٢٦١

قارون

إبطاله دعواه "إنما أوتيته على علم عندي" ٧٢٧

قتادة رضي الله عنه

٥، ٤٠، ٤٠، ٧٨، ١١٠، ١١١، ٣٨٥، ٤٥٣

قريش

رؤساء قريش ٢١٥

نبوة النبي إشعياء عن زوال مجد قيدار (أي قريش) ٦٧٦

قدمت المال استعدادًا لغزوة أحد ١٥٣

إيمان أولاد رؤساء قريش وحماسهم للشهادة ١٢٥

القشيري الصوفي ١١٢

روى قصة محيِّرة لمغفرة شاب مذنب ٣٤١،٣٤٢

قورش ملك ميديا وفارس

معاهدته السرية مع اليهود ٥٥٢

قيدار (قريش)

نبوة النبي إشعياء عن زوال مجدهم ٦٧٦، ٦٧٧

قيس بن عاصم رضي الله عنه

سؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن كفّارة وأده لبناته ٢٩٤

قيصر الروميوقْعُ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم في قلبه ٣١٢

سؤاله أبا سفيان بعد استلام رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ٣١٢

رد معاوية رضي الله عنه على رسالة قيصر ٦٨٤

اتفاقية حكومة بغداد عام ٢٧٣ مع قيصر الرومي ضد الحكومة الإسلامية بأسبانيا ٦٨٣

كانْط الفيلسوف ٣٢٢، ٤٠٩

كرشنا عليه السلام ٧،٩٨،٩٩،١٠٢،١٤٢

الكسائي ٦٢٤

كسرى فارس

استشاط غضبًا بعد قراءة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ٣١١

هلاك كسرى ولبسُ سراقة سواره ٦١

كعب ٣٨٥

كعب بن أشرف

زعيم يهودي بالمدينة المنورة ١٢٤

كعب بن مالك ﷺ

قصة احتضاره ﷺ ٤١١

كمال الدين الخواجه

أخبر المسيحَ الموعود عليه السلام عما نواه قاض ضده ٣٥٦

گُل محمد ميرزا

جمعَ في بلاطه خمسمئة حافظ للقرآن ٥٦٢

غاندهي

الفرق بينه وبين غيره ١٣٦

حقيقة صومه للاتحاد بين المسلمين والهندوس ٨٠٤

اللات

لبيد الشاعر

قصة غضبه من عثمان بن مظعون ﷺ ٧٦٧

لوط عليه السلام ٥١٩

ليكهرام البانديت

ردة فعل المسيح الموعود عليه السلام حين سلّم عليه البانديت ليخرام عدوُّ الرسول ﷺ ٢١٣

مالك بن أنس ﷺ ٤٥٢

الماوردي ١١٢

المبرد ٢٢٢،٣٨٥

مجاهد

٦٥، ١١٠،١١١، ٤٥٢،٤٥٣،٦٤١،٦٤٢، ٦٤٤

محمد المصطفى خاتم النبيين ﷺ

٧، ١٠، ٢٧،٢٨،٣٠،٣٢،٣٥،٣٩،٤٠،٤٥، ٧٦،١، ٨٠،٨١،٨٤،٤٩٦، ٥٢٧،٥٤١،٥٥٧،٥٧٥

بعثته ﷺ

قبيل بعثه ﷺ كان اليهود ينتظرون نبيًا موعودا في بلاد العرب ٦٦٧

بُعث ﷺ بعد عيسى بست مئة سنة تقريبًا ٧٦٤

بعثته ﷺ كانت نتيجة دعاء إبراهيم ٧٨٤

كان ﷺ المقصود الحقيقي لبناء مكة المكرمة ٧٧١

بعثته كانت نتيجة رحمانية الله ٧٧

حدوث ثورة ببعثته ﷺ ١٩٥

انقلاب روحاني ببعثته ﷺ ٣٩

انفتاح أبواب التطور المادي والديني ببعثته ﷺ ٨٠٢

ضرورة بعثة مصلح بعد النبي الكامل ﷺ ٥١١

تتحدث سورة الجمعة عن ظهورين كبيرين له ﷺ ٢٥٧

سيُبعث أظلاله ﷺ مبشرين ومنذرين إلى يوم القيامة ٦٨٧

ظهور ظله ﷺ بعد ألف سنة من تدهور المسلمين ٦٨٧

مقام نبي تابع له ﷺ ٤٩٦

مقامه ﷺ

هو أفضل الأنبياء ٥٧٨

هو خاتم النبيين إذ اجتمعت فيه صفات الأنبياء كلهم ٢٢٤

هو خاتم النبيين ﷺ إذ لا يمكن لأحد نيل الفيوض الإلهيه إلا بواسطته ﷺ ٦٨٥

كانت على ظهره ﷺ علامة ظاهر تؤيد المعاني الحقيقية لختم النبوة ٤٢٦

نبوءته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة ٣٠٩، ٦٨٧

اصطفاه الله ﷻ أن يكون نبيًا للعالم كله وللأبد ٦٨٧

المراد من "رسول كريم" هو النبي ﷺ ٣٠٩

"ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثَمَّ أمين" ٣١٣

هو إمام ومطاع لجميع الناس إلى يوم القيامة ٣١٤، ٧١٠

هو "الروح" أي الروح الكامل ٧٩

شفاعته ﷺ يوم القيامة ٧٩

شبّهه القرآن الكريم بالشمس ٢٦٥،٤٥٦،٤٥٩
عملُه ﷺ باعتباره "سراجًا منيرًا" ٢٧،٢٨
هو ﷺ كأب للأمة ٧٧٩
أقام مُلك الله ﷻ في الأرض ٤٨٨
في شخصه ﷺ استجيبَ دعاء عيسى عن قيام مُلك الله في الأرض ١٢٦
هو مبشر ومنذر للناس كلهم إلى يوم القيامة ٦٨٥
هو ليس بمصيطر لا على المؤمنين ولا على الكافرين ٦٢٨
لا يمكن لأحد أن يفهم صفات الله ﷻ أكثر منه ﷺ ٥٢٢
معاملة ربانية خاصة به ﷺ ٥٢٢
تجلت عليه ﷺ صفات الله دون واسطة ٥٢٣
تجلتْ عليه ﷺ ربوبية الله بشكل أكبر ٥٢١،٥٢٢
تجلتْ عليه ﷺ رزاقية الله بشكل خاص ٥٢٤
من خلاله ﷺ ظهر شفاء الله ﷻ ٥٢٦
وعدُ الله ﷻ بحمايته ﷺ ٥٠٠
ما كان ممكنا أن يُقتل إذ كان نبيًا مشرِّعًا ٦٧٠
قوته ﷺ الإحيائية ٥٢٦
نزول البركات في بيت حليمة السعدية بواسطته ٥٢٦
من ميزاته ﷺ أن قومه آمنوا به ٧
كان ﷺ مثيلَ يوسف ﷷ ٨١
مقارنة غلبته ﷺ مع غلبة الأنبياء الآخرين ٧
المقارنة بينه ﷺ وبين موسى فيما يتعلق برؤية الله ١٥٦
عزته ﷺ الدنيوية ٣١١
نبأ عظمته ﷺ ١٨٩
يعرفه الناس يوم القيامة بعلامات معينة ٤٤٧

أخلاقه ﷺ

أخلاقه الفاضلة قبل البعثة ٧٩٢
اعتراف الكفار بأمانته وصدقه ١٤١،١٤٢
شعوره بالهيبة عند نزول أول وحي ٧٩٢
أخلاقه السامية ١٤٨،٢٠٢،٢٠٩،٢١٩
تحليه بالأخلاق الحميدة في السراء والضراء ٧٣٥
صبره ﷺ على وفاة ابنه إبراهيم ٧٣٥
صورة بلاط محمد ﷺ ٨١
احترامه العبيدَ الذين آمنوا به في الفترة الأولى ١٨٣
لم ينظر إلى الفقراء والطبقة الدنيا بازدراء ٢٣٣
سعيه للنهوض بالضعفاء وتحرير الأرقاء ٢١٩
خمسة أدلة على دحض فكرة عدم التفاته ﷺ إلى بن أم مكتوم ١٩٩
جرأته وشجاعته ﷺ ٦٧١، ٧٨٧
اطمئنانه منقطع النظير عند الأهوال ٣٥٧
طمأنَ أبا بكر ﷺ في غار ثور ٣٥٧ ،٧٢١
ترتيله ﷺ للقرآن الكريم ٤٣٧
كان يرد على السائل بعد أن ينتهي من كلامه مع الأول ٢٠٣
استحياؤه من عثمان بن عفان ﷛ ٣٤٤
قوله ﷺ لعجوز مازحًا لا تدخل الجنة عجوز ٦٧
الحكمة في نسيانه ﷺ بعض الأمور ٥٦٧
كرهُه للمكان الذي نــزل عليه غضب الله ٧١٢

صدقه ﷺ

دلائل صدقه ﷺ ٣١١،٣١٥،٤٠١
حلفه على صدق دعواه عند مطالبة شخص ١٠٦
مكة آية صدقه ٧٥٩
دخوله ﷺ مكة فاتحًا دليل على صدقه ﷺ ٧٥٩
تحقُّق دعائه ﷺ "اللهم أَعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف" ٥٨٩
معجزته عن شق القمر ٢٥١ ،٢٥٦
شفاء عيني علي ﷛ ببركته ﷺ ٥٢٧
نبأ غلبته ﷺ ٣٦

الوقائع

بداية نــزول الوحي عليه بالرؤى الصالحة ٤١٦

نـــزول الوحي الأول عليه وقلقه ٧٩٢
قوله ﷺ لورقة بن نوفل "أوَ مُخْرِجيَّ هُمْ" ٧٧٤
بيعة العقبة الأولى ٦٦٨
في سورة النبأ إشارة خفية إلى هجرته ﷺ ٢٧
تركه عليًا رضي الله عنه في سريره عند الهجرة ٨
ازدياد قوته ﷺ بعد صلح الحديبية ٣١١

تعاليمه ﷺ

فضائل تعاليمه ﷺ ١٢٦
إشارة قرآنية إلى كون ﷺ تعاليمه عالمية ٢٨
وصيته ﷺ للصحابة بالتواضع عند الفتح ١٨٥

قيامه ﷺ بالدعوة

دعوته رؤساء قريش ٢١٥
دعوته لأهل مكة ثلاثة عشر سنة متتالية ٥٧٥
دعوته للعبيد المسيحيين ٢٠٣
رسائله التبشيرية إلى الملوك ٣١٢
رسالته إلى قيصر الروم ٧٨٧

معارضته ﷺ

بداية معارضته ﷺ ٥٩٣
اعتراف وليام موير ببداية معارضته ﷺ بعد السنة الثالثة من البعثة ٦٦٥
بدأت مخالفته ﷺ المنظمة في السنة الرابعة من البعثة ٦٦٥
مكائد المخالفين ضده ﷺ ٦٦٩،٦٧٣،٦٧٩
تفصيل فضائع الكفار عليه ﷺ ٧٧٣
في البداية لم يقدر ﷺ على الصلاة علنًا ٥٨
محاصرة الكفار بيته ﷺ لقتله ٨
ازدراء الكفار لأتباعه ﷺ ١٨٣
فشل الكفار في مكائدهم ضده ﷺ ٦٧٩
عاقبة أعدائه ﷺ الوخيمة ٧٢١
الرد على اتهامه ﷺ بالجنون ٣١٨

أمته

الصحابة الأوائل ٥٩٦
حب الصحابة له ﷺ ٢٤٤،٢٤٥
صفات جماعته ﷺ ١١
تناوُب الصحابة لحراسته ﷺ ١٢٤
فرح أهل المدينة عند مجيئه ﷺ إليهم ٥٠٩
وصول أتباعه إلى القمة في اتّباعه ﷺ ١٤٢
المقارنة بين أتباعه ﷺ وأتباع موسى وعيسى ٨
عناية قومه ﷺ باليتامى والمساكين ٧٤٨
غلبة العرب على العالم بعد الإيمان به ﷺ ٦١٥
نبأٌ عن عدم اتّباع أمته له ﷺ ٢٦٤
" لا نقول ما نقول إلا لإظهار شرف النبي ﷺ وجلاله" (المفسر) ٤٨٥
توضيح المفسر لبيان له عن النبي ﷺ ١٩٨

محمد إسحاق مير رضي الله عنه، قصة من طفولته ٨٠٥

محمد أكرم خان ٢٦١

محمد بن رافع ٦٤٢

محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني ٦٤٣

محمد بن علي بن الحسين ٤٥٢

محمد بن كعب ٦٤١

محمد حسين البطالوي

معارضته المسيحَ الموعود عليه السلام ٢٥٠
كيده بالمسيح الموعود عليه السلام بالتواطؤ مع شخص آخر ٥٠٣
قصة مناظرة له مع الخليفة الأول ٤٦٢
طلبه الكرسي من القاضي دوغلس ٧٨٩
تفاخره بمراسلته مع الحاكم ٣١١
دراسة ابنين له في قاديان على نفقات جماعتنا ٥٩٦

محمد شريف ميان ٣٥٠

محمد طاهر السندهي مصنف مجمع البحار

ذكر ثلاثة معان للقيامة ٢٥٠

محمد علي، أمير الجماعة اللاهورية ٣٥٥

محمود الغزنوي ٢٦٨،٢٧٢

محيي الدين بن العربي رحمه الله ٤٥٩

مريم عليها السلام ٣٣٠،٣٥١

مسروق ١١١،٤٥٣،٦٤١

مسيلمة الكذاب ٦٥٤

موسوليني ٣١٣

مصعب بن عمير رضي الله عنه

أول من قام بتعليم القرآن في المدينة ٥٠٩

مصلح الدين الشيرازي ٣٤٠

معاذ بن جبل رضي الله عنه ١١٠،١١٧

منعه النبيُّ ﷺ من قراءة السور الطوال في الصلاة جماعة ٦٣١

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

شجاعة والدته في حرب اليرموك ٦٨

حربه ضد سيدنا علي رضي الله عنه ٥٦٣،٥٦٤

معمر ١١١

معين الدين الجشتي رحمه الله ٤٥٩

مقاتل بن حيان ٤٣،٣٥٨

مكحول ٤٥٢

مناة ٧٨٥، ٨١١

منصور الحلاج رحمه الله

قصته حين رماه شبلي بزهرة ٧٦٣

مَهِنْدَر مِشَرْ ساهَتْيَه آجارْية الباندت ٥٥٤

مهيش الباندنت كَنْدَرْ برشاد

اعترافه بالتحريف في كتب الفيدا ٥٥٥

موسى عليه السلام

٧، ٣٢، ٩٨، ١٥٦،٥٠٩،٢٢٤، ٥٥٥، ٥٧٨، ٥٨٢، ٦٥٢

نزول الوحي عليه بالوادي المقدس طوى ١٥٦

أكبر معجزاته ١٥٨

الآية الكبرى من معجزاته ١٥٨

وعدُ الله عز وجل بحمايته ٥٠٠

لم يكن مبعوثًا للعالم أجمع ٦٨٥

أمره الله عز وجل أن يذهب إلى فرعون ١٥٧

طلبُ فرعون منه أن يدعو ربَّه ٥٨٩

تغلُّبه على فرعون دليل على القيامة ١٥٩

نجا من فرعون في اليوم العاشر من محرم (حديث) ٦٥٣

تضمنتْ صُحفه تعاليم جميع الأنبياء السابقين ٢٢٤

كان كتابه إمامًا ورحمة للناس ٤٧٤

كان كتابه كاملا لقومه وزمنه ٥٤٤،٥٤٨

كانت تعاليمه محرفةً في زمن النبي ﷺ ٣٢

ما يُنسب إليه كُتب بعد وفاته بفترة طويلة ٢٢٧

ذكرُ وفاته ودفنه في التوراة ٥٥٢

سببُ انمحاء أثر قبره ٥٥٣

في صُحفه نبأ مجيء رسول عظيم بشرع كامل ٥٨٢

المقارنة بينه ﷺ وبين موسى فيما يتعلق برؤية الله ١٥٦

المقارنة بين غلبته وغلبة النبي ﷺ ٧

المقارنة بين أتباعه وأتباع النبي ﷺ ٨

منة الله عز وجل على قومه ٥٤١

لم تأخذ أمته ما أعطاه الله ٤١٢

رؤيا المسيح الموعود عليه السلام أنه موسى ٧١٩

سيظهر مثيل فرعون في القرن التاسع عشر وتُظلَم جماعته ٧١٩

موير السير وليام ١٩٣،٢٢٩،٥٥٧، ٦٦٥

اعترافه بعدم وجود التحريف في القرآن ١٩٣،٢٢٦،٢٢٩،٥٥٨، ١٠٣

اعترافه ببداية مخالفة النبي ﷺ بعد السنة الثالثة من النبوة ٦٦٥

مِيشَخُ ٤٧٦

ناصر أحمد الخليفة الثالث للمسيح الموعود عليه السلام

حَفِظ القرآن وهو ابن خمس عشرة سنة ٥٦

نافع ٤٤

نبوخذ نصر ٤٧٥، ٥٥٢، ٥٥٦

سيطر على فلسطين ونفى اليهود ٥٥٠

أحرق بيت المقدس والكتب ٥٥٠

عثور العلماء على مكتبته الحجرية ٢٩٧

نابليون بونا بارت ٢٦٦،٣٥٤

النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه

محاولة رؤسا مكة لإقناعه أن يعيد الصحابة

يقينه بنصرة الله ٦٠

أيد العقائد الإسلامية بعد سماعها ٦٠

عقيدته عن عيسى عليه السلام ٦٠

النسائي صاحب السنن ٢٨٥

نظام الدين الأولياء رحمه الله ٥٥٣

نظام الدين ميان

قصة طلبه من البطالوي أن يخبره بآية واحدة تثبت حياة المسيح ٤٦١،٤٦٢

النعمان بن بشير ٢٨ ،٥١٠

نعمان بن عبد السلام ٦٤٣

نمرود ٣٩٥

نوح عليه السلام ٧،١٨،٩٨،٤٦٨،٤٧٨،٥٨١،٧١٥

أُرسل إلى بلد من بلاد العرب ٧١٥

استهزاء قومه به ٤٣٠

تحديه قومه ٦٠٢

مخالفة ابنه ٥٩٥

دمار بابل كان دمار قومه ٧٠٨

المقارنة بين غلبته وغلبة النبي ﷺ ٧

كان إبراهيم نبيًا تابعًا له ٢٢٤

نور جهان الملكة ٣٤١

نور الدين الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام ٢٥٠،٧٤٧

نكتة تفسيرية له ٣٣٢ ،٥٠١

معرفته الدقيقة ٣٣٢

قصته مناظرته مع البطالوي حول حياة المسيح ووفاته ٤٦٢

مثال ضربه لبيان حالة معارضي المسيح الموعود ٤٨٩

مثال ضربه لنهب الإنجليز على المستوى القومي ٣٦٦ ،٧٤٧

قوله الجميل عن الأقوام المسيحية ٣٦٦،٣٦٧

بيانه قصة رجل ٤٢٠

نولدكه (مستشرق ألماني)

١٠٣،٣٦١،١٩٣،٦٦٦،٦٣٢،٥٥٧،٥٠٩،٤٦٨

عدو الإسلام، ولكنه أكثر المستشرقين تحقيقًا وبحثًا ٢٢٧
يبدو أنه تدبَّر في القرآن فعلا (المفسر) ٢٢٧
اعترافه بعدم تحريف القرآن ٢٢٧، ٥٥٧
رفضه للقصة المنسوبة إلى بن أم مكتوم ١٩٩
اعترافه بوجود ترتيب في القرآن ١، ١٠٣

النووي الإمام ٢٨٦

هاجر عليها السلام
أخرج إبراهيمُ هاجر من البيت بحسب رغبة سارة حسب الكتاب المقدس ٧٨٩

هارون عليه السلام ١٥٨

هتلر ٢٦٦، ٣١١

هلال الهجري رضي الله عنه ٤٢، ٤٥

هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة أبي سفيان ٦٧٩
بايعت بعد الفتح ٦٧٩
تضحياتها للإسلام ٦٨
شجاعتها في حرب اليرموك ٦٩

هود عليه السلام، بُعث إلى قوم عاد ٧٠٨

هيجل الفيلسوف ٤٠٩

الواحدي ٣٨٣،١١٢

واصل بن سائب ٦٤٣

ورقة بن نوفل
كان مسيحيًا عالمًا بالصحف المقدسة ٧٧٤
سماعه من النبي ﷺ قصة نـــزول الوحي عليه ٧٧٤
كان يعتبر عيسى عليه السلام نبيًا غير مشرِّع ٧٧٤

الوليد بن المغيرة ١٩٧، ٢٠٧
دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام ٢٠٧،١٩٧

وود القس
حواره مع المفسر ٣٥٠

"ويري" ريورند القس
٤٩٣،٤٦٨،٤٦٧، ٦٦٦،٦٣٢،٥٠٩
الرد على استدلاله الخاطئ ٥٠٩

ويدك مني البانديت ٥٥٤

يار محمد المحامي ٢٧٧

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
رفضُ عبد الله بن الزبير بيعتَه وإعلانه خلافته ٦٤٣

يوسف عليه السلام ٣٧٢
سمتْه النسوة ملَكا ١٢٦
استمر القحط في زمنه سبع سنين ٥٨٩

يوسف عربي إسباني
قصته الشهيرة في أوروبا بالتزامه بالعهد ١٧٦

يوسف النجار زوج مريم عليها السلام ٣٥

(٣)

فهرس الأعلام

أماكن

آسيا
غلبة المسلمين فيها ٤٧
خداع الآسيويين في التجارة الفردية ٣٧٣
الحبشة ٤٧٥، ٦٧٢
هجرة المسلمين إليها ٦٧٢، ٦٨٢
الأحقاف
مناطقُ عادِ إرمَ وموقعها في بلاد العرب ٧٠٧
إسبانيا ٤٦، ٣٩٣، ٦١٥
اتفاقية ملك إسباني مسلم مع البابا ضد حكومة بغداد ٦٨٣
اتفاقية بغداد مع قيصر الروم ضد الحكومة الإسبانية المسلمة ٦٨٣
حكَمها المسلمون مدة طويلة ٣٥
قصة التزام إسباني عربي بالعهد ١٧٦
أستراليا ٣٣٦
إبادة الشعوب الغربية للأستراليين القدماء ٢٧٩
إفريقيا ٤٣١، ٧٠٦
انتشار الإسلام فيها على يد الصحابة ٥٦٣
فتح المسلمين لها ٤٧
سيطرة الشعوب الغربية عليها ٤٣٢
طرد الإنجليز أبناءها من جميع ميادين العمل ٢٧٨،٢٧٩
تعرُّف أبنائها على الحضارة الجديدة ٢٧٨
إنجازات الجماعة الأحمدية فيها ٦٩٩
أفغانستان ٣٦٧، ٧٠١
وصول الصحابة إليها لنشر الإسلام ٢٢٨
ألمانيا ٣٣٦
تضحية أبنائها على مستوى الأمة ٧٤٤
نفيُ علماء الدين منها ٢٧٣
أمريكا ٢٦،٢٦٩،٢٧٨،٢٧٩،٢٨١،٢٩٩،٣٣٦
إبادة الأقوام الغربية سكانها المحليين ٢٧٩
حماس أبنائها للتضحية من أجل الأمة ٧٤٤
خططها للتطور في علم الهيئة ٢٩٩
توسيعها الأنهار ٣٣٦
طمعها في سلب جميع ثروات العالم ١٨٠
انحياز أهلها للمسيحية مع إلحادهم ٣٦٥
إنجلترا ٢٦١، ٣٣٦،٣٣٧، ٦٣٨
حماس أبنائها للتضحية من أجل الأمة ٧٤٤
بذل أصحاب الملايين فيها جهدهم لشعبهم ٧٤٥
طمعها في سلب جميع ثروات العالم ١٨٠
إفتاء قساوستها ضد تعاليم الإنجيل ٢٢٥
سفر المفسر إليها ٣٣١، ٥٦١
أنطاكيا (الشام) ٦١٥
نشر الصحابة الإسلام فيها ٥٦٤
أودهـ، (ولاية هندية)
قصة سيطرة الإنجليز عليها ٣٦٧، ٧٤٧
أوروبا ٢٠، ٢٦٨، ٢٨٠
تأثُّرُ كاتب أوروبي بحالة الصحابة البدائية ٦٢
اعتراف المستشرقين بوجود الترتيب في القرآن ٢
شهرة قصة وفاء إسباني عربي في أوروبا ١٧٦
نبأُ تطور أوروبا المتوحشة في آخر الزمان ٢٧٨
تطوُّرُها نتيجة لدعاء عيسى ﷺ ٤٠٦،٤١٤
تغيرات جذرية فيها نتيجة التطور ٣٣٤
توسيع أهلها الأنهار ٣٣٥
المواصلات البرية والبحرية فيها ٢٨٠
دوافع منع الحمل عند أهلها ٢٩٥
مُلحِدوها أيضا يعظمون المسيح ﷺ ٣٣١
تأثير نظرية دارون في قلوب أهلها ٣٠٠

تأثير الفلسفة الأوروبية في هذا الزمن ٢٨١
اعتبر المسلمون أوروبا زعيمة لهم ٣٠٥
أخبرني الله ﷻ أن هلاك أوروبا قريب (المفسر) ٣٥٧
لمحة عن أخلاق الأمم الأوروبية ٤٣٠
بحوث المستشرقين عن القرآن ظنية ٤٦٩
تعمُّد أهل أوروبا مسخَ تاريخ المسلمين ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٢
غصبُ أهلها حقوق الشعوب الأخرى ٣٦٦
سياسة أهلها وسلبهم للآخرين بالتجارة ٣٧٤
تشابُه الأقوام الأوروبية بكفار مكة ٤٠١
يوم حساب الأقوام الغربية الظالمة ٣٧٧
تحالُف أوروبا لن يجديها شئيا ٣٥٩، ٣٦٥
اعترف الفلاسفة بفقدان الطمأنينة من قلوب أهلها ٣٥٦

أوغندا ٢٧٨

إيران (راجع فارس أيضًا)
ازدراء كسرى بالعرب ٧٨٨
إهانةُ كسرى الصحابةَ ٤٢٠
تصرّف الصحابة الوجيه في بلاط كسرى ٦٢٢
وصول الصحابة إليها لنشر الإسلام ٢٢٨، ٥٦٤
سبب معارضة الإيرانيين للبابية مع عدم معارضتهم البهائية ٧٧٢

إيطاليا
نفيُها علماءَ الدين ٢٧٣

بابل
نفيُ نبوخذنصر اليهود إليها ٥٥٠
تعذيب ملكها لليهود الموحدين بالنار ٤٧٦
دمار بابل كان دمار قوم نوح ٧٠٨

بتهانكوت (الهند) ٢٧٧

البحر الأحمر ٢٨٠

البحر المتوسط ٢٨٠

بخارى ٣٦٧

بدر ١٨١
أُذن للصحابة بالقتال في بدر أول مرة ١٣٠
وصول النبي ﷺ والصحابة إليها ١٥٤

برلين ٦٢

البصرة ٣٤١

بغداد ٤٦
اتفاقية حاكم بغداد المسلم مع قيصر ضد إسبانيا المسلمة ٦٨٣

بلجيكا ٥٥

البنجاب ١٩٦، ٢٧٧، ٢٨١، ٣٢٠، ٥٩٠
"يا مَدَنِيٌّ" في الشعر البنجابي يعني النبي ﷺ ٧٨١

البنغال ٧٠١، ٧٠٥
وقائع القحط الذي ضربها عام ١٩٤٢م ٥٩٠

بَنَما ٢٨٠

البهجة
قرية قريبة من عكا يسكنها بهائيون ٦٩٩

بهوبال (الهند) ٥٩٧، ٥٩٩

بورما ٧٠١

بيترسبورغ (روسيا) ٦٢

بيت فغور (موآب) ٥٥٢

بيشاور ٢٧٤، ٢٨٢

تبوك ٧٠٧، ٧١٢
تركستان (الصينية) ٣٦٧
تركيا ٣٦٧
قرار حكومتها بأداء الصلاة وتلاوة القرآن بالتركية ٢٧١
نفيُ حكومتها العلماء منها ٢٧٣
تيكسلا
العثور على آثار الملِك "أشوكا" فيها ٧٠٥
ثور (غار) ٧٢١
اختفاء النبي ﷺ فيه عند الهجرة ٣٥٧
حدوث معجزة فيه ٦٧٣
طمأنة النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه فيه ٦٧٤، ٦٩٢
اليوم يوجد "غارُ ثور" المعنوي في الهند ٦٩٢
جارسده ٢٦١
جامون ٤٦٢
جاوا ٤٤٥
جدة ٢٧٥
حادث وقع مع المفسر في جدة ٥٩٩
الجزائر
وصول الصحابة إليها لنشر الإسلام ٢٢٨
جورجيا ٣٦٧
جيكب آباد، آثار قديمة فيها ٧٠٥
الحبشة ٥٨،٦١،٣٣٠، ٧١٦
كان أبرهه حاكمًا على اليمن من قبل مَلِكِ الحبشة ٧٧٠
جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ دار الأمن للمسلمين ٥٩
هجرة الصحابة إليها ١٤٤، ٦٧٢، ٧١٨
هجرة الصحابة إليها مرتين ٦٨١
هجروا إليها العام الخامس من البعثة ٥٩
محاولة كفار مكة إرجاعهم منها ٥٩
الحجاز ٧٠٧
الحجر، هي عاصمة قوم ثمود وموقعها ٧٠٧، ٧١٢
منعُ النبي ﷺ الصحابةَ من المكوث فيها ٧١٢
الحديبية ٣٦
حالة ممثل الكفار عند صلح الحديبية ٥٩٥،٥٩٦
حراء (غار)
نزول أول وحي على النبي ﷺ فيه ٧٧٤
حضرموت ٧٠٦
حلب ٥٩٨
الخرطوم ٦١٦
خيبر
انتخاب النبي ﷺ عليًّا لفتحها ٥٢٧
دلهوزي (الهند) ٢٧٠،٢٧٧
إلقاء المفسر دروس القرآن فيها ٦٣٧
دهلي ٢٦١
تدميرالإنجليز المقابر لتوسيعها ٣٣٦
ديهه صابو (السند)
قرية في السند فيها قبر صحابي للرسول ﷺ ٥٦٤
روسيا ٣٣٧،٢٧٣
حماس أبنائها للتضحية من أجل الأمة ٧٤٤
حُكمُها علماني ٢٧٨
نفيُها لمن كان يفضّل الدين على السياسة ٢٧١
روما ٢٩٥،٣١٢،٣٣٠
إصرار ملِكها على تغيير عقائد المسيحية ٤٢٣

زمزم ٧٥٨

سرجودها ٤٨٦

سرحد ٥٩٠

سري لنكا ٧٠١

سعير ٥٨٢

السند ٥٩٠، ٧٠١

آثار قديمة لمدينة موهنجو دهرو ٧٠٥

مجيء الصحابة إليها ٥٦٤

مجيء المفسر رضي الله عنه إلى السند ٥٩٠

سومطرة ٤٤٥

السويس (القناة)

جمع بين البحر الأحمر والمتوسط ٢٨٠

سيناء ٥٨٢

الشام ٨٦،١٥٤،١٥٦،١٨٣

عودة قافلة تجارية لقريش منها ١٥٤

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وهو في الشام ٣١٢

انتشار الإسلام فيها على يد الصحابة ٥٦٤

شاه دي دهيري ٧٠٥

شِمْله (الهند) ٢٧٠، ٥٠٣، ٨٠٤

لقاء زعماء الهند الكبار ٨٠٤،٨٠٥

صنعاء ٧٠٧

الصين ٣٩٧،٣٧٨،٣٧٦، ٤٤٥، ٦١٥، ٧٠٦

وصول الصحابة إليها لنشر الإسلام ٢٢٨، ٦١٥، ٥٦٤

الطائف ٧٦٤

طُوى، واد نزل فيه الوحي على موسى عليه السلام ١٥٦

عدن ٧٠٧

العراق ٧٠٧

بُعث فيه نوح عليه السلام ٧١٥

انتشر الإسلام فيه على يد الصحابة ٥٦٤

العربية الجزيرة

٩،١٠،٢٠،٢٢،٣٣،٣٧،٣٩،٤٠، ٧٤، ٨٤،٢٥٠،٢٥٥،٢٨٤،٣٨١،٣٨٢،٣٩٤، ٣٨٩

وحي النبي إشعياء عن أهلها ٦٧٧

تحقُّقُ نبأ جلب أنواع الثمار إليها ٢٧٥

نفوذ الإنجليز فيها ٣٦٨

عكّا (فلسطين)

مركز البهائيين وقبر البهاء فيها ٦٩٩،٧٠٠

فاران ٥٨٢

فرنسا ٥٥، ٢٨١، ٢٩٦

تزاوُج أهلها مع الأقوام الأخرى ٢٨١

عواقب منع الحمل الوخيمة في فرنسا ٢٩٦

تجارب طبيب فرنسي عن الزائدة الدودية ٥٣٢

فلسطين

انتشار الإسلام فيها على يد الصحابة ٥٦٤

قاديان

كشْفٌ للمسيح الموعود عليه السلام عن ازدهارها ٦٩٩

نبأ هجرة الناس إليها وتحقّقُه ٦٩٩

معظم سكانها هاجروا إليها ٧٠١

هي مركز علمي وروحاني ٧٠١

نظام العناية بالمساكين والفقراء فيها ٧٤٢

إنشاء دار لليتامى فيها ٧٤٢

دراسة ابنيْ البطالوي فيها على نفقات الجماعة ٥٩٦

القدس

دعاء مواطنيها المسيحيين لعودة المسلمين ٦٢٣

القسطنطينية ٦٨٣

القفقاس ٣٦٧

كشمير ١٩٦، ٢٧١
الكعبة المشرفة
هجوم أبرهة عليها ٧٧٧
كولكتا ٧٤٧
كينيا ٢٧٨
لاهور ٢٦، ٢٧٢، ٢٨٢، ٤٢٠
لدهيانه ٨٠٥
لكهناو، قصة استيلاء الإنجليز عليها ٧٤٨
غدر أمرائها عند هجوم الإنجليز ٧٤٨
لندن ٦٣
لويل بور ٤٨٦
مالابار (الهند) ٧٠١
المدينة المنورة ٦٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٤، ٣٦١
صارت دار أمن للمسلمين ٦٠
هي تنوب عن مكة ٧٩٠، ٧٩١
اعتبرها الله ﷻ حرمًا ٧٩٠
هي مركز الإسلام ٦٢
هي مركز العالم ٦١
بيعة بعض أهلها النبي ﷺ عند الحج ٦١، ٦٦٨
دعا مسلموها النبي ﷺ للهجرة إليها ٦١، ٦٦٨
هجرة المسلمين إليها ١٤٤، ٦٧١
معاهدة النبي ﷺ مع أهلها ٦١
سعادة أهلها عند هجرة النبي ﷺ ٥٠٩
قضاء الإسلام على تعصّب أهلها القبلي ١٢٣
مصالحة الأوس والخزرج فيها ١٢٣
قصة وصول خبر شهادة النبي ﷺ إليها ٦٦٢
نبأ نشوب حروب المسلمين بعيدًا عنها ١٣٣
صحابة أوائل قاموا بتعليم القرآن فيها ٥٠٩
أمّر النبي ﷺ بن أم مكتوم عليها مرتين ١٩٨
المروة
تذكار للآيات العظيمة ٧٥٨
مري ٢٧١
مصر ٣٣٠، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٦، ٣٦٧
نشوء هيليوغرافية والآثار القديمة فيها ٣٣٦
أهرامها ٧١٦
استخراج الجثث المحنطة هنا ٣٣٧
انتشار الإسلام فيها على يد الصحابة ٥٦٤
رؤيا المسيح الموعود عليه السلام أنه على ضفة النيل ٧١٩
مكة المكرمة ٧، ٢٧، ٣٥، ٣٩، ٥٧، ٦٣، ٨٠، ٨٧، ١٢٣، ١٢٧، ١٣١، ١٤١، ١٤٦، ١٥٤، ١٨١، ١٨٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٧٤، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٦١، ٣٩٤، ٤٠١، ٤١٥
خصوصياتها ٧٦١، ٧٦٢
هي مقام تجليات الله العظيمة ٧٥٨، ٧٥٩
تميّزها بآيات إبراهيمية قبل بعثة النبي ﷺ ٧٥٩
علاقة إبراهيم وإسماعيل بها ٧٧٩، ٧٨٠
هي آية على صدق النبي ﷺ ٧٥٩
تقدِّم آيتين عظيمتين على صدق الإسلام ٧٦١
خدمة فقرائها وأغنيائها للإسلام ٢٣٣
جرائم أهلها ٧١٨
كبرياء أهلها ٦٢٥
خرق كفارها تقاليدها المستمرة منذ ٢٥٠٠ عام باضطهاد المسلمين ٧٦٤
محاصرة كفارها بيت النبي ﷺ ٨
اعتراف أهلها بكون النبي ﷺ زعيمًا ناجحًا ١٤١
محاولة أهلها ليتنازل النبي ﷺ عن دعوته ٣١٣
فشلُ كفار مكة في الحبشة ٦٠
فشل هجوم أبرهة على مكة ٧٥٨، ٧٧٠، ٧٧٧

لم يدخلها فاتحًا خلال ٢٥٠٠ عام إلا النبي ﷺ ٧٧٧
كيفية دخوله ﷺ وأصحابه فيها عند الفتح ٧٧٨
وصيته ﷺ للصحابة بالتواضع عند فتحها ١٨٥
الحالة النفسية لكفار مكة عند الفتح ١٨٢
أُمر الكفارُ بالخروج منها ٣٧
قصة بيعة هند بعد فتحها ٦٧٩
يوم فتحها كان يوم الفصل ٣٥
يوم فتحها كان يومًا موعودًا ٤٧٢
﴿يوم يقوم الروح والملائكة﴾ إشارةٌ إلى فتحها ٨٠
الطامة الكبرى هي فتح مكة ١٨١
من معاني يوم القيامة فتح مكة ٢٥٢
عادة أهلها ترْكُ أبنائهم عند البدويات للرضاعة ٥٢٤
قصة عمر ﷺ عند نزوله في مكة زمن خلافته ١٨٢،٨٤
انتشار وباء الهيضة فيها ٥٩٩

منصوري (الهند) ٢٧١

منى ٥٩٩

موآب ٥٥٢

مومباي ٦١٢

مونجو دهارو، (السند) آثار حضارة قديمة ٧٠٥

ميديا ٥٥٢

ميسور (الهند) ٥٩٦
تنصُّرُ ابن للبطالوي وتجارته فيها ٥٩٦

نجد ٧٠٧

النمسا ٢٨٠

نوربور (الهند) ٢٧٧

النيل
رؤيا المسيح الموعود ﷺ أنه على ضفة النيل ٧١٩

وادي القرى
موطن قوم ثمود بين المدينة وتبوك ٧١٢،٧٠٧

الهند ٢٢، ٣٦، ١٤٠،١٢٧ ، ١٥٧، ٣٦٩، ٤٣١
حكَمها المسلمون فترة طويلة ٣٦
احتلال الأقوام الغربية لها ٤٣١
حكَمها الإنجليز ثلاثة قرون ٧٠٥
تصرُّف الإنجليز حين طالب أهلها الاستقلال ٣٦٩
فشل زعمائها السياسيين في خَلْق جو الوطنية ١٢٧
قصة غطرسة زعيم هندي ٨٠٤
نقصان العاطفة القومية عند أهل الهند ٧٤٤
شدة القحط فيها عام ١٩٤٢م ٥٩٠
مثلٌ من لغتها الأردية ١٥٧
مثل هندي شهير ١٤٠
انتشار الإسلام فيها على يد الصحابة ٥٦٤
وجود مئات الآلاف من حفظة القرآن فيها ٥٦١
مقابر صلحاء المسلمين في الهند ٥٥٣
حالة الهند قبل بعثة المسيح الموعود ﷺ ٢٢
غار ثور الثاني في الهند في هذا العصر ٦٩٢
أوى رسول الله ﷺ إلى حصن الهند (وحي للمسيح الموعود ﷺ) ٦٩٢

اليابان ٤٤٥

اليرموك
شجاعة المسلمات وجرأتهن في حرب اليرموك ٦٨

اليمن ١٢٣، ١٢٧
ادعاء أهله التفوق السياسي بين العرب ١٢٧
حكمُ عاد إرم عليها قبل الميلاد ٧٠٦
كان أبرهة حاكمًا عليه مِن قبل مَلِكِ الحبشة ٧٧٠

اليونان ٣٣٠
ذكرُ عادِ إرمَ لدى الجغرافيين اليونانيين ٧٠٦

(٤)

المراجع والمصادر

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب التفسير

* الإمام الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن

* الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير

* أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، تفسير فتح البيان

* أبو الفضل بن حسين بن الفضل الطبرسي الطوسي، مجمع البيان في تفسير القرآن

* الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم

* الإمام جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن

* الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور

* العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني

* العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان

* العلامة أبو حيّان محمد بن يوسف، البحر المحيط

* محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

* أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، إملاء ما منّ به الرّحمن

* عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن

الحديث

* الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري

* الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم

* الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي
* الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود
* أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي
* الإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه
* الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل
* الإمام علي بن عمر الدارقطني، سنن الدارقطني
* عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، سنن الدارمي
* الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين
* الحافظ أبو قاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير
* الشيخ ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح
*الإمام محيي الدين بن يحيى بن شرف النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج
* الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان
* الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى
* الإمام أحمد بن داؤد أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، المجلد الأول، الطبعة الأولى في مدينة المحروسة ١٨٨٨م
* العلامة بدر الدين أبو محمد بن أحمد العيني، عمدة القاري
* محمد عبد الرحمن السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتاب العربي
* أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، أصول من الكافي، دار الكتب الإسلامية ١٣٨٨ هـ

* الإمام محمد طاهر الكجراتي، مجمع بحار الأنوار، دار الإيمان، المدينة المنورة
* العلامة محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، دار إحياء التراث العربي
* محمد سعيد مفتي، تشييد المباني في تخريج الأحاديث مكتوبات الإمام الرباني، مطبعة فيض الكريم حيدر آباد دكن

السيرة والتاريخ

* ابن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٥٥ هـ
* أبو الفداءِ الحافظ إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت
* أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتاب العربي
* أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، مطبعة المنشي نولكشور، لكهناؤ
* أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الكتب العلمية، بيروت
* أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة المكرمة، السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت
* الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروضُ الأُنُفُ، دار الكتب العلمية، بيروت
* الإمام جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، أصحّ المطابع، كارخانه تجارت كتب، آرام باغ كراتشي، باكستان

* الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت

* العلامة أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر

* العلامة أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت، طبعة ١٩٩٧م

* العلامة القاضي، أبو البقاء، كليات أبي البقاء، دار الإشاعة العربية، كوئتة، باكستان

* العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، المكتبة الإسلامية، بيروت

* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، طبعة العيد المئوي ١٨٨٣ – ١٩٨٣

* شهاب الدين أحمد بن علي المعروف ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت

* محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت

* أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر

* الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت

* العلامة محمد بن يحيى التادفي، قلائد الجواهر، الشركة المساهمة المصرية، مصر

* كتاب العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، مطبعة الهلال بالفجالة مصر، ١٩٠٨م

* محمود شكوري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية بيروت

* صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار المعرفة، بيروت

اللغة والأدب

* جمال الدين ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، دار الفكر، بيروت
* محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، الطبعة الأولى، المطبعة الوهبية ١٨٨٣م
* العلامة ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب
*محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس
* أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير
* سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد
* المنجد في اللغة والأعلام
* الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المطبعة العصرية للطباعة

كتب عربية للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

* نور الحق
* الخطبة الإلهامية

كتب متفرقة

*العلامة ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، قديمي كتب خانه مقابل آرام باغ كراتشي، باكستان
*كتاب "الأقدس"، المرزا حسين علي المعروف بـ"بهاء الله" مع مقدمة للناشر خدوري إلياس عناية، مطبعة الآداب بغداد ١٣٤٩هـ ١٩٣١م
* كتاب "الأقدس"، مركز البهائية كَندا ١٩٩٢ الطبعة الأولى

المراجع الإنجليزية

- Black's Bible Dictionary, Manchester University Press
- *Encyclopaedia* Britannica Vol: XV. Cambridge University Press, 11th Edition, 1911
- *Encyclopaedia* Britannica (The New) Vol:8 Publisher, William Benton,1943-1973, 15th Edition
- J. M. Rodwell, M. A. The Koran, Temple Press Letchworth for J.M. Dent & Sons. Ltd. Aldine House Bedford St. London East. Reprinted 1948
- Lexicon Universal Encyclopedia . Publications, Inc. New York, N.Y.
- Mary Boyce, Textual Sources of the Study of Zoroastrianism, Manchester University Press
- Patrick Moor, The Guinness book of Astronomy. Guinness Publishing (5th Edition)
- MUIR, W., 1878. *The life of Mahomet*, Smith, Elder, & Co. Waterloo Place London,1878
- Shoghi Effendi, God passes. Bahai Publishing Trust 1957
- Stanlay L Robbin, Pathology Basis of Disease
- T. R . Sethna, The Teachings of Zarathushtra,1966
- The Encyclopaedia of Islam (New Edition)Volume 1,Leiden , E.J.Brill, 1979
- The Holy Bible, (Edited by Rev. C. I. Scofield, D.D.) Humphrey Milford Oxford University Press, London

- William Muir, The Coran, its composition and teaching, Society for Promoting Christian Knowledge, K.C.S.I. LTD.London
- William, Pathology Structure and Function in Diseased Body, CC.M.D .1970
- W.J. Hamilton, The Text Book of Human Anatomy, 2nd Edition, English Book Language Society
- W. Smith, Dr. Dictionary of the Bible, Vol: 11, Published by Hurl and Houghton, New York,1874
- WHERRY, E.M., 1896. *A comprehensive commentary on the Quran (comprising Sale's translation and preliminary discourse by E M Wherry).* London: Trubner & Co.Ltd.
- Http://csmres.jmu.edu/geollab/Fichter/P latetec/heathistory.html. under topic: the Heat history of the earth
- www.biblemagazine.com/magazine/vol.9/issue-3/assyria-babylon.html
- www.wikipedia.org/wikw/nebuchadrezzar
- www.quran.org.uk/ied.quran-manuscrip.htm
- www.earth-history.com/ancieent/tect/several.....

المراجع الأردية والفارسية

كتب حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، (طبعہ روحانی خزائن) پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ، پاکستان

- براہین احمدیہ (ہر چہار حصص)
- براہین احمدیہ حصہ پنجم
- ازالہ اوہام
- آئینہ کمالات اسلام
- سرمہ چشم آریہ
- انجام آتھم
- تذکرۃ الشہادتین
- حقیقۃ الوحی
- تریاق القلوب
- الوصیت
- ایام الصلح
- فتح اسلام
- ضیاء الحق

۔ قادیان کے آریہ اور ہم
۔ تذکرہ (مجموعہ الہامات،کشوف ورؤیا حضرت مرزا غلام احمد قادیانی)
الشرکۃ الاسلامیۃ لمیٹڈ ربوہ پاکستان
۔ ملفوظات جلد سوم، چہارم،پنجم

دیگر کتب واخبارات سلسلہ

۔ فصل الخطاب، حضرت مولانا حکیم نورالدین خلیفہ المسیح الاول، الشرکۃ الاسلامیہ لمیٹڈ ربوہ
احمدیت یعنی حقیقی اسلام، (انوار العلوم جلد ۸) حضرت مرزا بشیر الدین محمود احمد خلیفۃ المسیح الثانی
۔ حیات احمدؑ، یعقوب علی عرفانی صاحب، عہد جدید اول بہ سلسلہ قدیم، جلد سوم، اسلامی پریس حیدر آباد دکن 1952ء
۔ تاریخ احمدیت لاہور۔
۔ الحکم قادیان،۱۰ جنوری ۱۹۰۶ء
۔ الحکم قادیان،۲۴۔اگست ۱۹۰۶ء
۔ بدر قادیان، ۱۷ اکتوبر ۱۹۰۷ء
۔ بدر قادیان،۲۱۔اگست ۱۹۰۶ء

دیگر کتب

- تذکرۃ الاولیاء، شیخ ابو حامد فرید الدین عطار نیشاپوری ، ناشر انتشارات گنجینہ ناصر خسرو
- مثنوی مولوی معنوی ،مولانا جلال الدین رومی ،مطبع منشی نول کشور لکھنؤ
- دیوانِ ذوق ، شیخ محمد ابراہیم ذوق ، آتمارام اینڈ سنز تاجران کتب انارکلی لاہور
- قاموس قرآن ، سید علی اکبر قریشی ،جلد پنجم ، دارالکتب الاسلامیہ، طہران
- گلستان سعدی ، شیخ سعدی شیرازی ، ناشر ملک سراج الدین اینڈ سنز تاجران کتب کشمیری بازار لاہور
- تاریخ ہندوستان ،مولوی ذکاءاللہ ،مطبع انسٹی ٹیوٹ علی گڑھ 1917ء
- قاموس الکتاب ۔مسیحی اشاعت خانہ ۳۶ فیروز پور روڈ ،مکتبہء جدید پریس ۔لاہور ۔2005ء
- دعائے عام، شائع کردہ کرسچن نالج سوسائٹی انارکلی لاہور، بار نہم، 1947
- بیان القرآن ،مولوی محمد علی صاحب ،جلد سوم
- حیات طیبہ، شیخ عبدالقادر، سابق سوداگرمل

- قرآن مجید، پنجابی اُردو لہر لاہور پاکستان، ۱۹۸۶ء
- تاریخ ارض القرآن جلد اول، سیّد سلیمان ندوی، مطبع معارف اعظم، طبع سوم، ۱۹۴۴ء
- اردو دائرہ معارف اسلامیہ جلد۱۲، طبع اول، دانش گاہ پنجاب لاہور، ۱۹۷۳ء
- دیوانِ غالب، مرزا اسد اللہ خان غالب، آئینہ ادب چوک مینار، انارکلی لاہور، پاکستان
- الذکر الحکیم، ڈاکٹر محمد عبد الحکیم خان مطبع تحریری تراوڑی ضلع کرنال، ہندوستان
- تحفہ قادیانیت، محمد یوسف لدھیانوی
- ہفت روزہ پیغام صلح، ۲۹۔ اگست ۱۹۷۳ء
- اوم ستیارتھ پرکاش، (مستند اردو ترجمہ) آریہ پرادیشک پرتی ندھی، سبھا پنجاب سندھ بلوچستان لاہور
- تاریخ بائبل، ولیم جی بلیکی صاحب ڈی ڈی، پنجاب ریلجس بک سوسائٹی، انارکلی لاہور، ۱۹۵۵ء
- کتاب مقدس، ہندوستان کی بائبل سوسائٹی، مہاتما گاندھی روڈ۔ بنگلور

RevisedVersion 93 Printed in Great Britain by Lowe)
and Brydone(printers) Ltd.London

- انجیل مقدس، نارتھ انڈیا بائبل سوسائٹی، آرفن سکول پریس، زیر اہتمام ڈاکٹر میتھر صاحب، بمقام مرزاپور انڈیا ۱۸۷۰ء
- انجیل مقدس، برٹش اینڈ فارن بائبل سوسائٹی، لندن، ۱۸۸۷ء
- کتاب مقدس، پاکستان بائبل سوسائٹی انارکلی لاہور
- اردو جامع انسائیکلو پیڈیا، مدیر اعلیٰ مولانا حامد علی خان
- اشاعۃ السنۃ النبویۃ، ابوسعید محمد حسین بٹالوی، اسلامیہ پریس لاہور
- تاریخ فرشتہ، ترجمہ عبدالحیٔ خواجہ ایم اے، ناشر شیخ غلام علی اینڈ سنز لاہور
- کلیات میر، میر تقی میر، مطبع منشی نول کشور لکھنؤ، ۱۹۴۱ء
- بہاء اللہ و عصر جدید، جے۔ای۔ایسلمنٹ۔ترجمہ عباس علی بٹ، پبلشر محفل روحانی ملّی بہائیان ہند و پاکستان و برما، طبع سوم، مشہور آفسٹ لیتھو پریس کراچی، ۱۹۵۱ء
- کتاب اقدس، بہائی پبلشنگ ٹرسٹ پاکستان، پہلا ایڈیشن (۱۹۹۷ء Revised)
- النور الابہی فی مفاوضات عبدالبہاء، مرتّبہ کلیفورڈ بارنی امریکانیہ، ترجمہ عباس علی بٹ، ناشر بہائی پبلشنگ ٹرسٹ آف پاکستان، بہائی ہال بہائی اسٹریٹ کراچی نمبر ۵، ۱۹۷۷ء